الصهيونية

الغرب والمقدس والسياسة

عبد الكريم الحسني

الكتاب : الصهيونية

المؤلف : عبد الكريم الحسني

الطبعة الأولى : القاهرة ٢٠١٠

رقم الإيداع : ٢٠١٠/٧١٤٩

الترقيم الدولي : I.S.B.N: 978 - 977 - 493 - 028 - 7

الناشر

شمس للنشر و التوزيع

٨٠٥٣ ش ٤٤ الهضبة الوسطى- المقطم- القاهرة

ت/فاكس: ٠٢٢٧٢٧٠٠٠٤(٠٠٢)- ٠١٨٨٨٩٠٠٦٥(٠٠٢)

www.shams-group.net

تصميم الغلاف: محمود ناجيه

الصهيونية

الغرب والمقدس والسياسة

عبد الكريم الحسني



شكرًا للصديق الأستاذ "عبد القادر العَمْلة"، الذي لم تلن له قناة ولم يترجل، بقي مثابرًا على تصحيح أخطائي وسهوي في الكتابة، ولم يبخل بالنصيحة والإرشاد والنقد البنَّاء، والتشجيع الدؤوب الذي جعلني استمر بنفس الحماس حتى النهاية، فجاء العمل بحمد الله كاملاً متكاملاً، بدءً من الصفحة الأولى حتى الأخيرة.

وبالله التوفيق

كلمة المؤلف

منذ عرفت ما عرفت عن الصهيونية، خصوصًا بعد هجرتي إلى بلاد الغرب مَهْد الصهيونية الحديثة! فقد حلمتُ على مدى سنوات وسنوات؛ أن أضع أمام القارىء العربي بعض الحقائق عن الصهيونية، وعن علاقتها بالحضارة الغربية، فمِنْ بين آلاف الكتب والمخطوطات التي تعج بها المكتبات في العالم، بكل لغات أهل الأرض عن اليهود والصهيونية، ومن خلال الممارسة الميدانية بما يحل بالفلسطينيين والعرب، لم تكن المهمة سهلة لغربلة ما يمكن أن يُقدم في كتاب واحد؛ خصوصًا وأن الأحداث تتسارع بردود الأفعال والتفاعلات ولم تتوقف حتى الآن، لكنني حاولت، كان تحديًا ليس سهلاً، أن أسهب فيه أو أن أوجز، وأن أحشر قناعاتي كمواطن عربي أو أن أحافظ على حياد الباحث عن الحقيقة.

فدائمًا تصدمنا القراءات التي نحدثها صدفة أحيانًا، فتفتح بصائرنا على ما يُذهل من حقائق، وحينها نتمنى لو بقينا على حالنا من الجهل، خانعين مختبئين في دهاليز الضياع، ولأننا كما قال أحدنا، شعب عَفُوًّا، شعوب عربية بلا ذاكرة محترمة، بسبب ما وصلنا إليه، فيجب أن تكون الكتابة بكافة أشكالها، الفأس الحاد الذي يُهشم جماجمنا المتحجرة، لنجعل عقولنا المتجمدة تعود للحياة، لكي تصنع فكرًا متجددًا، يعي جيدًا دروس الماضي، ويجعلنا نستحق العيش أعزاء على تراب بلادنا.

بعد قراءة هذا الكتاب بحساب مادة الأحداث والسنين، وبحساب العقل والمنطق، دعنا عزيزي القارىء نسأل أنفسنا ونحاول أن نُجيب: هل كان العرب على حق حينما رفضوا قرار تقسيم فلسطين عام ١٩٤٧ م؟! الإجابة قبل قراءة الكتاب أو قبل معرفة كيف وجدت الصهيونية لن تكون عادلة!

تمهيد

لقد نشأ النزاع بين العرب واليهود؛ بسبب الصدام التاريخي بين الحركتين القوميتين اللتين تأصلت جذور الكره بين اتباعهما، منذ أن ارتبط أغنياء يهود أوروبا بالمشاريع الإمبريالية الرأسمالية، الحركة الصهيونية بما توَفَّرَ لها من روافد الدعم من الحضارة الغربية، حيث الفكر العلماني الذي أدى إلى إنشاء الدولة القومية في أوروبا، والتفسير البروتستانتي الحرفي للعهد القديم، الذي وجدته الصهيونية كرافد آخر يضمن تحالف قطاع كبير من المسيحية مع فكرة الوطن القومي لليهود، حتى قبل وجود الحركة الصهيونية نفسها رسميًا على المسرح الأوروبي، فاتفق جميع هؤلاء على ترحيل اليهود إلى فلسطين، وصار الهدف إخراج اليهود المكروهين من أوروبا وجعل فلسطين وطنًا قوميًا لهم.

من ناحية أخرى، كانت هناك حركة القومية العربية التي تضرب في عمق منطقة تلونت بالتراث العربي الإسلامي، على مدى أكثر من ألف وخمسمائة عام، خضعت فيها فلسطين وغيرها للحكم الإسلامي، كما أن سكانها من العرب الكنعانيين وغيرهم كانوا دائمًا موجودين فيها قبل قدوم العبرانيون من بلاد الرافدين وقبل وصول قوم موسى من مصر.

الصهيونية، من طرف، كانت تسعى لإقامة دولة لليهود، لكي يستطيعوا لأول مرة أن يقرروا مصيرهم منذ ما يزيد على ألفي عام، فاستغلت مصالح الغرب الاستعماري الذي كان يسعى إلى مد نفوذه، واندفعت غير عابئة بما قد يحدث لسكان فلسطين من العرب بعد أن انهارت دولتهم الإسلامية؛ بانتهاء دولة بني العباس على يد الأتراك العثمانيين، ثم ضعف الخلافة العثمانية، ثم زوالها على يد الغرب الاستعماري الذي وجد من الصهيونية حليفًا طبيعيًا بسبب التقاء المصالح وضمان التبعية الصهيونية. لهذا؛ تشجع الصهاينة وكوّنوا دولتهم وفقًا للنموذج الأوروبي، وبه ضمنوا المساندة الغربية الدائمة على حساب العرب.

لا شك بأن إقامة دولة إسرائيل على أرض فلسطين وطرد أهلها عام ١٩٤٨م، يُعتبر صدمة قوية زلزلت الوجود العربي، وأصابت الثقافة العربية القومية بصدمة عنيفة، لم تفق منها حتى كتابة هذه السطور، وسيبقى بلا مبالغة زلزال إنشاء إسرائيل يُهاتف كل الأجيال العربية والإسلامية مهما تباعدت مواقف الأنظمة والزعماء، ومهما دأبت محاولة تجاهل ما حدث في فلسطين من قِبَلْ البعض، سواء عن عمد أو بتفضيل المصالح الشخصية والإقليمية على المصالح القومية والدينية.

إن اغتصاب فلسطين صراع يكون العرب فيه أو لا يكونون، إنه قضية أمة مهما ساءت العلاقات بين الأنظمة العربية، وستظل فلسطين قضية العرب المركزية الأولى، بل وستبقى قضية المسلمين بطريقة أو بأخرى حتى قيام الساعة، فإن سقطت بعد الأماني أو الأحلام في زمن من الأزمان، ستظل القدس عاصمة فلسطين، وعاصمة المسلمين، وعاصمة السماء.

إن الصراع العربي الصهيوني سيظل وسيبقى صراعًا حتى وإن قال عنه البعض بانه قد تراجع إلى أن أضحى صراع فلسطيني إسرائيلي، أو راح يسقط إلى درك أسفل لكي يُصبح صراعًا فلسطينيًا فلسطينيًا بسبب سوء إدارة الأنظمة العربية لهذا الصراع، هذا أو بسبب خلافات هذه الأنظمة بالإضافة إلى تفضيلها الحصول على الأمان لحفظ كرسي الحكم بالانصياع إلى سماع نصائح الدول الأجنبية، التي تعتمد عليها هذه الأنظمة لاستمرار وجودها، فمهما وصلت التسميات أو تسرب بعض اليأس لأسباب كثيرة لحظية أو لمدة طويلة، فإن الصراع العربي الصهيوني باق جمرًا متوهجًا وإن غطته طبقة ناعمة من الرماد الخفيف، وسيظل بركانًا غاضبًا على استعداد أن يثور ويقذف الحمم في أي زمن قادم، وقد رأينا أن النار لم تخمد منذ أن صار لليهود دولة في فلسطين.

مهما كان الالتباس ومهما بُنيت الأساطير حول نوعية وأسباب هذا الصراع وتشعباته، ومهما حاولت أن تطمسه الأحداث بطريقة أو بأخرى، فإن من المهم أن يُعاد طرحه بطريقة مبسطة لا تعتمد على التخمين والارتجال، وإنما نذهب إلى

الأسباب لكي نفهم الموضوع من أوله ونستعذبه ونعيده إلى أصوله لكي يكون لنا فيه رأي مستنير، صحيح أن تضحيات عربية جمة قد قُدِمَّت من أجل فلسطين، وإن دماء كثيرة أريقت في سبيلها، لكن مبررات كثيرة أثرت وجعلت الصراع غامضًا بعض الشيء، من هذه المبررات ما هو فلسطيني بحت، وما هو عربي وديني، وأشدها ما هو دولي متحالف مع الصهيونية أو متعاطف مع إسرائيل.

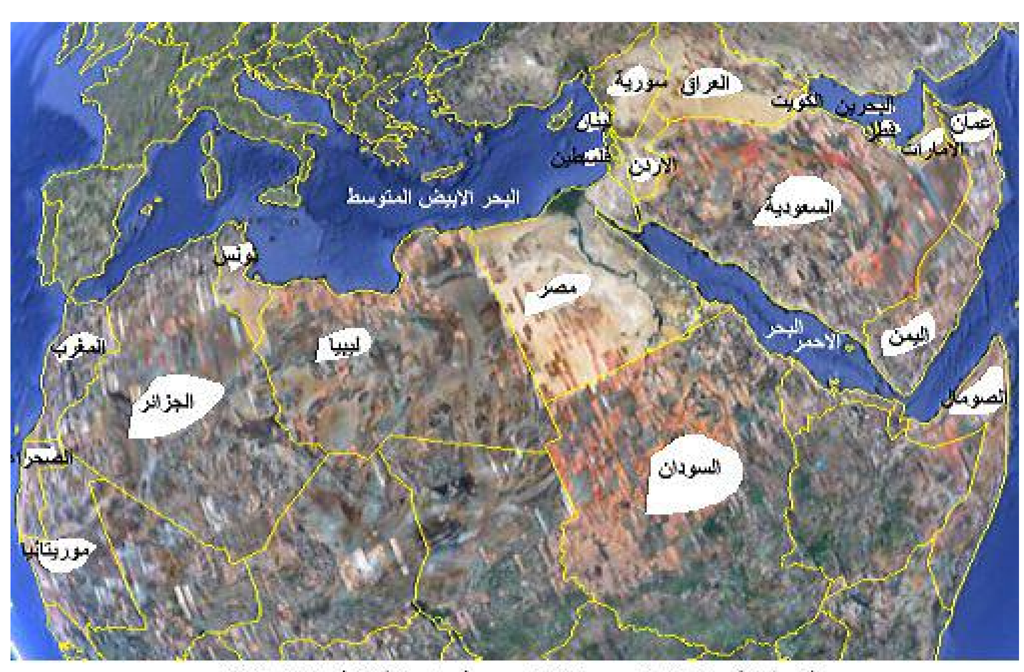
إن مما لا شك فيه أن أساس قضية الصراع العربي الإسرائيلي، هو وجود المشكلة اليهودية التي فرضت نفسها في أوروبا في القرن السابع عشر والثامن عشر، وما حدث في النصف الأول من القرن العشرين، المشكلة اليهودية في أوروبا كانت لأسباب دينية وعرقية وطائفية واقتصادية، وإن كان تدَّخل الاقتصاد والتطلع إلى النفوذ فيها بغرض الاستثمار هو ديدن الانتهازية الرأسمالية، التي تبحث دائمًا عن الربح، والتي أجاد اقتصاديًا فيها بكفاءة متميزة أغنياء يهود أوروبا، ولما تفاقمت المشكلة كما ستتضح أكثر في أعماق الصفحات التالية بطرق مختلفة فإنها أصبحت تقتضي حلاً.

المشكلة اليهودية في أساسها نبعت بسبب الهجرة اليهودية من الشرق من روسيا وغيرها إلى أوروبا الغربية، وبسبب بروز التناقضات بين الجاليات اليهودية وبين الناس في المجتمعات الأوروبية التي أصبح يعيش فيها المهاجرون اليهود، مما أدى إلى تعرض الجاليات اليهودية في دول مثل بريطانيا وفرنسا وأسبانيا وإيطاليا وألمانيا وغيرها إلى عملية اضطهاد منظم، وهكذا وقع اليهود في الشرق وفي الغرب بين نارين، نار المذابح التي كانت تتم لهم في روسيا وفي بولندا وغيرهما، ونار الاضطهاد العنصري في دول أوروبا الغربية، من هنا نشأت المشكلة اليهودية، وارتبطت في القرن التاسع عشر بمشكلة أخرى اسمها المسألة الشرقية، حيث أن المسألة الشرقية كانت تُطلق على دولة الخلافة العثمانية التي كانت في ذلك الحين تسمى "رجل أوروبا المريض"، المسألة الشرقية بالنسبة للغرب الاستعماري كان المقصود منها كيف يمكن تقسيم تركة دولة الخلافة العثمانية، لأن رجل أوروبا المريض (تركيا) حتمًا سيموت، لهذا تصدرت المشكلة اليهودية مع المسألة الشرقية اهتمام الدول العظمى في ذلك الزمان.

وأما المشكلة اليهودية بالتحديد، فقد كانت بسبب نفوذ دهاقنة الصهاينة، وأغنياء اليهود الأوروبيين وأحبارهم وحاخاماتهم وما روج لها، فقد راحت تدغدغ أذهـــان هؤلاء اليهود الأساطير القديمة والروايات الدينية وعبـــارات وردت فـــي بعـــض الكتب المقدسة، تلك التي راحت تطرح تساؤلات وأفكار بأن هؤلاء اليهود التعساء لهم مكان، ولابد أن يحصلوا على الأمان فيه، في البداية لم يهتم أحد لمثل هـــذه الأحلام والتمنيات من زعماء الحكومات الأوروبية إلى أن جاءت الثورة الفرنسية بشعاراتها الإنسانية وبما قالت عن حقوق الإنسان، وحين ذلك تنفس يهود أوروبا الصعداء فكان القرن التاسع عشر بفضل مبادىء المساواة التي رفعت شـــعاراتها الثورة الفرنسية مريحًا نوعًا ما لليهود في أوروبا.

استغل زعماء اليهود الوضع الجديد في أوروبا، وتوجهـــوا أولاً إلـــى بريطانيـــا فطالبوها بحل المشكلة اليهودية، وطلبوا المساعدة، وتحدثوا بالدعاوي الإنجيليـــة والكتب المقدسة فلم يستمع إليهم أحد، فأدركوا بأن الإمبراطورية البريطانية ليس لها قلب وليس عندها أخلاق لكي تعطف كما هو حال الإمبراطوريات التي تفهـــم مصالحها فقط، فوجد اليهود أن أفضل وسيلة هي محاكاة الإمبراطورية البريطانية عن طريق المصالح المشتركة أو مصالح بريطانيا بالـــذات، فـــذهبوا يعرضـــون المشكلة من وجهة نظر المصالح البريطانية.

في سنة ١٨٤٠م وقَّعَ "محمد علي بك الكبير" والي مصر معاهدة لنـــدن بعـــد أن هُزمت جيوشه في بلاد الشام وتم تدمير أسطوله البحري في معركـــة "نـــوارين" البحرية حينما باغتت أساطيل بريطانيا وفرنسا الأسطول المصري ودمرته، ومنع الحلفاء محمد علي من تحدي الخليفة العثماني بعد أن تخطت جيوش مصر علـــى اليابسة بلاد الشام ووصلت سهول الأناضول مهددة باحتلال اسطنبول.



فلسطين قلب العالم العربي والاسلامي وموقعها بين ثلاث قارات العالم القديم

وكادت أن تُسقط الخلافة العثمانية لولا تدخل فرنسا وبريطانيا، في معاهدة لنـــدن فُرِضَ على محمد علي أن يبقى فقط داخل حدود مصر، ولأجل ألا يُثيـــر مشـــكلة مستقبلاً خارج حدود مصر أو يتحدى الخلافة العثمانية، استعملوا معـــه طريقـــة العصا والجزرة، هزموه أولاً في الحرب برًا وبحرًا، وكافئوه بأن استصـــدروا لـــه فرمانًا من الخليفة العثماني لاسترضائه، بأن جعلوا حكم مصر مدى الحيـــاة لـــه، ووراثي لأبنائه من بعده، فأصبحت مصر بذلك مملكة لأسرة محمد علي.

بعد أن تم حصر محمد علي داخل حدود مصر، وتم فصل عرب أفريقيا، بما فـــيهم مصر ذات الموقع المميز والعدد السكاني الكبير عن بلاد المشرق العربـــي، راح "تيدور هرتزل" وغيره من زعماء اليهود يطرحون فكرة تسهيل عمليـــة الهجـــرة اليهودية إلى فلسطين، قالوا للبريطانيين إن لدينا مشـــروعًا ســـيخدمكم ويخـــدم المشكلة اليهودية في أوروبا، وفي كلا المصلحتين؛ فإن الإمبراطورية البريطانيـــة ستكون المستفيد الأول، وقال اليهود ما معناه أيضًا لبريطانيا، بإن اليهود يمكـــن أن يكونوا حاجزًا بشريًا أيديولوجيًا بين مصر وأطماعها في الخلافـــة العثمانيـــة، سواء كان هدف مصر هو تحديث الخلافة الإسلامية أو الإحلال مكانها لإعادتهـــا من جديد بالثوب العربي الذي راح يرفع شعاراته محمد علي، وقد ظـــل زعمـــاء اليهود وعلى رأسهم هرتزل يدقون بهذه النغمات ويلحون علـــى بريطانيـــا لكـــي تحتضن مطالبهم، وتسمح بالهجرة إذا ما أضحت بريطانيا الســـيدة التـــي تحكـــم فلسطين يومًا.

بدأ التراخي البريطاني أمام الإغراءات التي قـــدمها الزعمـــاء اليهـــود، وجعلـــوا مصالحهم اليهودية تلتقي مع مصالح الإمبراطورية في مسألة المشكلة اليهودية، وبدأت التداعيات إلا أنها كانت تتم بنقلات نوعية كلما تم اصطياد ظرف معـــين أو مقابل ثمن معين، وتم إنشاء بعض المستعمرات اليهودية في فلسطين وتم تهجير بضعة آلاف من اليهود إلى تلك المستوطنات في تلك الأيام، ثم جاء نابليون إلـــى المنطقة، وأيضًا أصدر نداءه الشهير لليهود بدافع المصالح الفرنسية، إبان وجود نابليون في مصر وفلسطين كان عدد اليهود في فلسطين يُقدَّرون بخمسة إلى ستة آلاف يهودي وليس أكثر.

في تقدير كثير من الخبراء أن الهجرة اليهودية تمت خلال ثلاث موجات رئيسية، وآخرون يذهبون في التوضيح أكثر فيقولون كانت هناك خمس موجات للهجرة اليهودية، الموجة الأولى من سنة ١٨٨٢م إلى ١٩٠٣م، والموجة الثانية كانت من سنة ١٩٠٤ لغاية ١٩١٨م، وأما الموجة الثالثة فقد حدثت قبل الحرب العالمية الثانية مباشرة، حينما كان اضطهاد اليهود على أشُدَّه في أوروبا، لقد كانت مصالح الإمبراطورية البريطانية في ذلك الوقت تلح ولا تقل عن طموحات وتطلعات اليهود في إنشاء الوطن القومي في النهاية، كان الإغراء لبريطانيا بفكرة تهجير يهود أوروبا هو التخلص منهم من ناحية، وتحويلهم من أعداء ممتعضين من معاملة البريطانيين في بلادهم إلى حلفاء دائمين معتمدين على بريطانيا صاحبة النفوذ الذي لا تغيب عنه الشمس في ذلك الزمان، فإن وجود اليهود وازدياد أعدادهم في فلسطين هو مانع طبيعي يُبقي مصر وأفريقيا العربية بعيدة عن المشرق وعن بلاد الشام بالذات، وعن الخلافة العثمانية "رجل أوروبا المريض" الذي تنتظر بريطانيا موته لاقتسام تركته المترامية مع الدول الأخرى، ثم إبقاء منطقة الهلال الخصيب العربية مفتوحة أمام اليهود إذا ما أتيحت الفرصة فيما بعد للتوسع في المنطقة الممتدة ما بين النيل والفرات.

الموجة الأولى	١٨٨٢ - ١٩٠٣ م	٢٥٠٠٠ نسمة
الموجة الثانية	١٩٠٤ - ١٩١٨ م	٣٥٠٠٠ نسمة
الموجة الثالثة	١٩١٩ - ١٩٢٣ م	٣٥٠٠٠ نسمة
الموجة الرابعة	١٩٢٤ - ١٩٣١ م	٨٥٠٠٠ نسمة
الموجة الخامسة	١٩٣٢ - ١٩٤٤ م	٢٦٥٠٠٠ نسمة

الهجرة اليهودية ١٨٨٢ – ١٩٤٤ م (جامعة صنعاء)

لقد كان مشروع الهجرة اليهودية إلى فلسطين منذ البداية مليء بالألغام، بالنسبة لأهالي المنطقة من العرب، فهو مشروع دولة أو مشروع استيطان أو مشروع هجرة، وكيفما تم طبخه بعد ذلك سيصبح وطن قومي يهودي! ووجه الغرابة أن العرب لم يكونوا على وعي لما كان ينتظرهم.

بعد ذلك أصبحت مصر وهي الأكثر قربًا من فلسطين التي تتجه إليها أنظار الصهاينة، أصبحت مشغولة بقضية الاستقلال الوطني، ولم تكن منتبهة لما يحدث في فلسطين، رغم أن ما كان يحدث في فلسطين كان يعني ويهم مصر ويقصد دورها ووجودها بكل المعاني وبالدرجة الأولى.

الملك "عبد العزيز آل سعود" كان ينظر لمشكلة الهجرة اليهودية من الناحية الإسلامية فحسب، وكان انتقاده لهذا الأمر ينحصر في أن اليهود دخلوا المسجد الأقصى وفعلوا في القدس كذا وكذا، ولم يخطر بباله أن يكون المشروع هو بناء وطن قومي لليهود وإقامة دولة مستقلة على حساب أهل فلسطين.

بالنسبة للهاشميين فإن الملك فيصل بن الشريف حسين بعد لقائه مع رئيس الوكالة اليهودية "حاييم وايزمان" كان قد قبِلَ تقسيم فلسطين، ومشروع الدولة اليهودية، ووافق معه على الاستيطان والهجرة اليهودية بلا حدود إلى فلسطين، الأمير عبد الله أخ الأمير فيصل بن الحسين، خاف من أخيه فيصل الذي خرج من سوريا إلى العراق، فراح يزايد على فيصل وراح يعمل مع الكيان اليهودي الذي ينشأ في فلسطين، ومضى يعقد مع الصهيونية الصفقات لضمان حكمه، (سيأتي الحديث موسعًا عن الشريف حسين وأبنائه في مكان لاحق).

هذا، ومن الجدير بالذكر، بأنه حتى وقت صدور وعد بلفور عام ١٩١٧م كان عدد المهاجرين اليهود إلى فلسطين حوالي ستين ألفًا. وحينما قُسِمَّتْ التركة العثمانية بعد الحرب العالمية الأولى "معاهدة سايكس-بيكو"، أراد الصهاينة أن يحولوا الوعد إلى قانون وواقع على الأرض في فلسطين، لأن إعطاء وعد دون وجود آلية لتنفيذه لا يعني شيئًا، لهذا استطاع اليهود بأن يأتوا بأول ممثل

للانتداب البريطاني في فلسطين، فكان البريطـاني اليهـودي الأصـل "هربـرت صموئيل" الذي تحت ظله أنشأ الصهاينة الوكالة اليهودية في فلسـطين، فأصـبح هناك من يتولى إدارة الشئون اليهودية على الأرض مـن مسـتوطنات وخلافـه، وصار لليهود آداة تنفيذية ترعى وتنظم مصالحهم، وأسندت مسـئولية الوكالـة اليهودية حينئذ إلى "ديفيد بن جوريون" الذي أصبح فيما بعد أول رئـيس وزراء لدولة إسرائيل بعد الاستقلال.

المهاجرون اليهود الذين وصلوا إلى فلسطين خلال خمس سنوات:

١٩٣١م : ٠٤٠٧٥ مهاجر.

١٩٣٢م : ٠٩٥٥٥ مهاجر.

١٩٣٣م : ٣٠٣٢٧ مهاجر.

١٩٣٤م : ٤٢٢٥٩ مهاجر.

١٩٣٥م : ٦١٨٥٤ مهاجر.

في معترك التغييرات التي كانت تحدث في فلسطين، كان هناك ثـلاث شخصـيات يهودية مقابل ثلاث شخصيات عربية في ذلك الوقت، الشخصيات اليهودية كانت، "حاييم وايزمان" الذي سعى واستصدر وعد بلفور، والثـاني "نـاحوم جولـدمان" رئيس المجلس اليهودي العالمي الذي تولى جمع اليهود وتهجيرهم إلى فلسطين، والشخص الثالث هو "ديفيد بن جوريون" المسئول التنفيذي للوكالة اليهودية فـي فلسطين، الثلاثة اليهود الذين ذكروا هنا كانوا يكرهون بعضـهم وعلـى خـلاف دائمًا، وهم بهذا مثل الملوك العرب الثلاثة في ذلك الوقت، الذين كانوا أيضًا على خلاف ويكرهون بعضهم، لكن الفرق أن الملوك الثلاثة العرب ملك مصـر وملـك السعودية والهاشميين؛ كان لكل واحد منهم مرجعية خارجية هـي الراعيـة لـه، وكان له نفوذه ومصالحه الأسرية والإقليمية التي تختلف وتتنافس وتتضاد أحيانًا مع الملكين العربيين الآخرين، أما الثلاثة اليهود فكانوا يكرهون بعضـهم بسـبب التنافس على الولاء للمشروع الصهيوني، وكان كل واحد منهم ينافس الآخـرين لأجل أن ينفذ ما يحلم به لليهود والصهيونية.



الملك عبد الله بن الحسين ١٨٨٢م – ١٩٥١م

في وقفة مع الذات، يمكن القول وبسهولة بأن الحال العربي في الظرف الراهن (عام ٢٠١٠م) بين الأنظمة العربية، لم يختلف عما كان بين الملوك العرب الثلاثة الذين أتينا على ذكرهم حينما كان المشروع الصهيوني في طور التنفيذ، فلكل زعيم عربي في الوقت الراهن مرجعية خارجية أو أكثر من الدول المتنفذة، وخلافاتهم أضحت أكثر وتبدو أكبر من عداءهم لإسرائيل، التي من المفروض أن تكون العدو المفترض للعرب جميعًا، وعودة لموضوعنا الأساسي: لهذا استمر المشروع الصهيوني في ظروف ما بين انتهاء الحرب العالمية الأولى والثانية يمضي على وتيرته، فتدفق المهاجرون اليهود إلى فلسطين، وبُنيت المستوطنات وأصبح لليهود في فلسطين دوائر ومؤسسات وأضحى لهم قوة بوليس، وصاروا يسيرون بخطى ثابتة تجاه إعلان دولتهم وأضحى الأمر مجرد وقت وليس أكثر، فوجودهم أصبح واقعًا على أرض فلسطين وأثرهم ونشاطهم لا يمكن تجاهله.

اندلعت الحرب العالمية الثانية، وراح الحلفاء وكذلك دول المحور بقيادة ألمانيا كل منهما يُمَنِّى الشعوب المستعمرة بالحرية والاستقلال، ويحرضها على العدو الآخر، بالنسبة للعرب تنبهوا إلى ما كان يحدث في العالم في ذلك الوقت، فراحوا يبحثون عن صيغة للوحدة للم شتاتهم، فأوجدوا الجامعة العربية، بل باركها الإنجليز

لإلهاء العرب عن مشروع الوحدة الكبرى، وبالنسبة لليهود الصهاينة وجدوا فرصتهم لإنشاء وطن قومي بعد ما حدث لليهود على يد النازية، فأصبح الأمر بالنسبة لهم أن تكون دولة لليهود أو لا، ورأوا أنه إن لم يحصلوا على دولة فقد تضيع الفرصة، فاستغلوا الهلوكوست اليهودي ووضعوا كل ثقلهم الإعلامي والاقتصادي ومضوا لتحقيق حلمهم، فاقنعوا الآخرين بقضيتهم، وليس هذا فحسب بل إنهم كانوا قد زودوا الحلفاء بعدد من اليهود، عملوا في القوات المسلحة في دول الحلفاء، قال روتشيلد إن اليهود قدَّموا للحلفاء على مدى سنوات الحرب ما يُقدَّر بمليون جندي يهودي كانوا تحت السلاح، معنى ذلك بغَضِّ النظر إن كان الرقم الذي قاله روتشيلد صحيحًا أم لا، فإن اليهود كان لديهم بعد انتهاء الحرب طواقم من الضباط والجنود وخبرة عسكرية لا يستهان بها خصوصًا إذا أضيفت لقوات الهجانة التي كونت فيما بعد جيش الدفاع الإسرائيلي، هذا لو تذكرنا أيضًا الفيلق اليهودي الذي كان يحارب كجيش نظامي بجانب الحلفاء، وهو ما يعني للحلفاء المنتصرين بأن هناك هلوكست وهناك قضية يهودية وأن اليهود حاربوا بجانبهم أو ادعوا ذلك، وهذا يعني أن المشروع الصهيوني أضحى مكتملاً، فلديهم قوات وهم يعرفون أن العرب منقسمون ومتنافسون ويكرهون بعضهم، فلم يبق لليهود سوى اللحظة المناسبة لكي يغتنموها ويعلنوا دولتهم وهم بحاجة الآن إلى مزيد من الهجرة اليهودية إلى فلسطين لكي يكتمل المهرجان الصهيوني.

قال الأستاذ "محمد حسنين هيكل" في إحدى حلقات لقائه مع قناة الجزيرة الفضائية عن اللقاء الذي تم بين الملك "فاروق"، والملك "عبد العزيز آل سعود"، بحضور الرئيس الأمريكي روزفلت على ظهر سفينة رست في البحيرات المُرة المتصلة بقناة السويس التي تقع بين مدينة السويس ومدينة الإسماعيلية بمصر، قال هيكل ما معناه، إن الزعيمين العربيين قد تحدثا، وخاصة الملك عبد العزيز على موضوع الهجرة اليهودية، وطلب الملكان من الرئيس الأمريكي ضمانات لعدم تدفق المهاجرين اليهود على فلسطين.



فرانكلين روزفلت ١٩٣٣م – ١٩٤٥م
Franklin Roosevelt

ويُضيف هيكل ما معناه أيضًا بأنه لم يخطر ببال الملك عبد العزيز والملك فــاروق موضوع الدولة اليهودية وكأن ملك مصر وملك السعودية كانا ينظران إلى الحلــم الصهيوني كأنه أحلام وتمنيات أو ضربًا من ضروب الخيال وليس أكثر، لم يكــن يتصور العرب بأن هناك حربًا وصراعًا بالحديد والنار ستنشب بينهم وبين اليهود بل لم يكن في ثقافة العرب في تلك الأيام أن يكون هناك حسم عسكري، لأن حتى وقت بداية الحرب العالمية الثانية لم يكن عدد اليهود الذين اســتوطنوا فلســطين يربوا على المائة وخمسين ألفًا، وهــذا يقودنــا (الكاتــب) إلــى أن المشــروع الصهيوني وما كان يُبيَّت لفلسطين لم يكن واضــحًا للزعامــة العربيــة بعكــس المنظمة الصهيونية التي كانت تُخطط وتحسب كل شيء، وتقتنص الفرص، وتنفذ المشروع خطوة خطوة.



الملك عبد العزيز آل سعود

١٨٨٠م – ١٨٥٣م



الملك فاروق الأول

١٩٢٠م – ١٩٦٥م

بعد أن وضعت الحرب العالمية الثانية أوزارها، كان هناك دفعة من المهاجرين اليهود تقدر بمائة ألف، لكن موضوع الهجرة اليهودية بالنسبة للزعامة العربية في المنطقة كما أسلفنا، لم يزد عما قاله "تيدور روزفلت" حينما التقى الملك فاروق والملك عبد العزيز آل سعود في البحيرات المُرَّة، كان روزفلت قد أخبر ملك مصر وملك السعودية بالذات الذي اهتم يومها كثيرًا بموضوع الهجرة اليهودية، بأن أي قرار حاسم بالنسبة لهجرة اليهود لن يتم إلا بعد التشاور مع العرب.

بعد الحرب العالمية الثانية، كان هناك نقطتين محوريتين فيما يخص الصراع العربي الصهيوني، كان هناك الإمبراطورية البريطانية المُنتصرة في الحرب بقيادة "ونستون تشرشل" الذي كانت حكومته متعاطفة جدًا مع أماني اليهود، وكان تعاطف تشرشل مع اليهود ليس له حدود، بل وكان تشرشل صهيوني غير يهودي إلى أبعد الحدود أيضًا، ثم جاءت حكومة العمال في بريطانيا، وورثتْ إمبراطورية تشيخ وتُواجه مشاكل لا حصر لها في المستعمرات وفي بلاد العرب أيضًا.

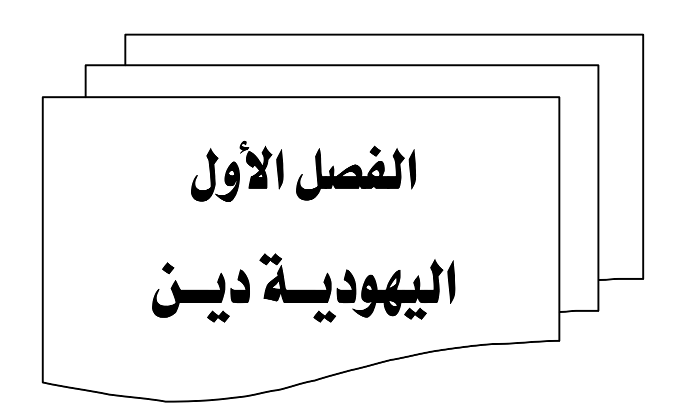
كانت الحركات الوطنية والشعوب التي تستعمرها بريطانيا قد بدأت تثور وتتمرد وتُطالب بالاستقلال، بدءًا من أندونسيا والهند إلى مصر والعراق وغيرها، وخرجت بريطانيا بشعار سُمّي بتصفية المصالح البريطانية شرق قناة السويس، بسبب أن مواردها الاقتصادية لا تتحمل ما ينتج عن المقاومة وعن الثورات وأتعاب التمرد على جيوشها التي كانت تحتل مناطق كثيرة في العالم حتى ذلك الوقت بل وصارت تدرك بأن أمريكا ترث نفوذها وهي لا تستطيع أن تؤخر ذلك.

في هذا الوقت، بعد الحرب العالمية الثانية أضحت القوى العظمى قطبين، المعسكر الرأسمالي بقيادة الولايات المتحدة الأمريكية، والمعسكر الاشتراكي بقيادة الاتحاد السوفييتي بزعامة روسيا، وعزز هذا أن أصبحت الولايات المتحدة دولة ذريَّة، ثم لحقتها روسيا في موضوع الأسلحة الذرية، وأضحى الاستقطاب بين المعسكرين واضحًا للدنيا، وهكذا تراجع دور الإمبراطوريات القديمة أمثال بريطانيا وفرنسا وألمانيا، حيث دفعت الأخيرة ثمنًا باهظًا في الحرب.

على ضوء هذا لجأتْ بريطانيا إلى محاولة أخيرة لاستبقائها في المنطقة العربية خصوصًا في فلسطين، ولكي تُحقق ذلك لجأتْ إلى سبب غير عادي، راحت تشيع وتقول للعرب بإن أمريكا هي التي تضغط في موضوع الهجرة اليهودية، وأنها أي بريطانيا تُعارض هجرة اليهود إلى فلسطين، وأما في الحقيقة فقد كانت بريطانيا على ما يبدو تحاول الوقيعة بين العرب وأمريكا، القوة الصاعدة التي راحت تتحفز لكي ترث مصالح الإمبراطورية البريطانية العجوز، أما حقيقة الموقف البريطاني فقد كان ينشد تقسيم فلسطين بين العرب واليهود بناء على وعد بلفور، وعلى هذا الأساس؛ أرسلوا أكثر من لجنة في ذلك الوقت إلى فلسطين؛ لعمل الدراسات والتوصيات؛ تمهيدًا لتقديم مشروعًا للتقسيم، وكان قياسهم واختيارهم حل التقسيم بهدف تجنب النزاعات التي قد تنجُم عن الطائفية أو العرقية أو الأيديولوجية، حيث تم تقسيم الهند إلى دولة هندية وأخرى هي الباكستان، وتم أيضًا تقسيم ألمانيا إلى شرقية وغربية، وقد شاع حل التقسيم في تلك الأيام وتبنته بريطانيا في حلول مشاكل الدول، فتلك هي كوريا الشمالية وكوريا

الجنوبية، وتلك فيتنام الشمالية وفيتنام الجنوبية، كما أن بريطانيا دأبت في محاولة يائسة إلى إبقاء شيء من النزاعات في كل بلد كانت تحتله وانسحبت منه، لقد أبقت حدود الدول غير واضحة وأصبح محتمًا أن نزاعات مسلحة ستنشب يومًا بين تلك الدول التي منحت الاستقلال أو تم تقسيمها وهي تنشد إحراج أمريكا الوريث القادم لإمبراطوريتها لغاية المنافسة على مناطق النفوذ لا العداء.

كانت بريطانيا بتركها نزاعات في المناطق التي كانت تحتلها تنشد بأن يقترح عليها العالم أن تبقى في بعض المناطق، وأن تدفع الأمم المتحدة مثلاً تكاليف تواجدها في بعض المناطق، كأن تكون وصية على بعض المناطق التي كان من المفروض أن تسحب جيوشها منها، وبذلك يُصبح وجودها لا يحمل تهمة الاحتلال، في الوقت الذي كانت فيه أمريكا ترفع شعارات حقوق الإنسان وتُنادي بتحرير الشعوب، لهذا كانت بريطانيا تحاول أن تبقى في فلسطين لأهمية فلسطين الدينية والاستراتيجية بالنسبة للعالم الغربي، لكن هذا ليس كل شيء!


الفصل الأول
اليهوديــة ديــن

يقول اليهود، إن اليهودية تقوم على: عقيدة توحيد الرب، وعقيدة الاختيار الإلهي لبني إسرائيل شعب الله المختار، وعقيدة توريـــث الأرض (فلســطين) لإبــراهيم ونسله من بني إسرائيل، وعقيدة المُخَلِّص المنتظــر، ويقــول فلاســفة اليهــود وأحبارهم، إن اليهود يؤمنون بأن الله واحد، وأن العبادة تليق به وحــده، وهــو مُنزَّه عن التجسيد وأنه الأول والأخر، وأنه عالمٌ بأحوال البشــر، وأنــه يجــازي الذين يحفظون وصاياه ويُعاقب من يخالفها، وأن هناك حياة بعــد المــوت، وأن اليهود يؤمنون بشريعة موسى وأنها غير قابلة للنسخ، كما أن اليهــود يؤمنــون بعقيدة المُخَلِّص المنتظر، وأما الكتب المقدسة عند اليهود؛ كمــا يقــول الــدكتور محسن محمد صالح (كتاب المشروع الصهيوني والكيان الإسرائيلي)، فهي "العهد القديم (تِناخ) Tenakh ويتكون من ٣٩ سفرًا، والقسم الأول منها هو التــوراة Torah، وهو الأسفار الخمسة الأولى، والقســم الثــاني هــو أســفار الأنبيــاء Nebee- im، ويتكون من ٢١ سفرًا، والقسم الثالــث هــو الصــحف والكتــب Ketubim، ويُعنى بالحِكَم - والأمثال والمزامير والأخبار التاريخيــة الخاصــة باليهود بعد خراب الهيكل وبه ١٢ سفرًا، وتُنسب جميع هذه الأسفار إلى عــزرا الكاتب عام ٤٤٤ ق.م، أي بعد وفاة موسى عليه السلام بما يزيد عن ٧٠٠ سنة.

إذن اليهودية دين، لكنها حُرفت كما يقول رجال الدين من غيــر اليهــود، ولقــد سُميت باليهودية نسبة إلى يهود وهم أتباعها، ولقد سُمو يهودًا نسبة إلى "يهوذا" ابن يعقوب، الذي ينتمي إليه بنو إسرائيل، الذين بُعث فيهم النبي موســى عليــه السلام، ويقال إن العرب قلبوا الذال دالاً في كلمة "يهوذا"، وقيــل إن الاســم هــو نسبة إلى الهود بمعنى التوبة والرجوع إلى الله.

اليهودية معتقد يختلف عن معظم المعتقدات والأديان، الدين اليهودي هو مجموعة من العقائد والشعائر والطقوس وقواعد السلوك والأخلاق، التي تراكمت وتبلورت ونضجت على مدى آلاف السنين، لذا لكي يكون الإنسان يهوديًا يجــب أن يكــون من أم يهودية، لقد ارتبطت كلمة يهودي في أذهان الناس بتصور خاص وصِفَات معينة خلال عصور التاريخ، إلا أن معتنقي الديانة اليهودية استطاعوا أن يحافظوا

على دينهم وعِرْقهم بطريقة فسرها المؤرخون بمعانٍ كثيرة، كما حــافظ اليهــود على لغتهم وديانتهم وتقاليدهم وسلوكهم المبني على أنهم "شــعب الله المختــار"، وقد اختلف المؤرخون، شرقًا وغربًا، يهود وغيــر يهــود، بخصــوص الديانــة اليهودية، إلا أنهم قد أجمعوا تقريبًا على أن العهد القديم "التوراة" قد جرى وضعه خلال وبعد النفي إلى بابل، لكن العقيدة الصهيونية فيما بعد ظلــت تقــوم علــى التنظيم القتالي، وهو ما سنتعرض له كثيرًا في أماكن أخرى.

إن صورة الإله في مُخيلة أي شعب لها تأثير كبير على سلوك ذلك الشعب وعلى تقادم أجياله. فإن كانت صورة الإله هي الحب والجمال؛ فإنها في نفس الإنســان المؤمن تختلف عنها إذا كانت صورة الإلــه تُمثــل القــوة والعنــف والجبــروت والقسوة، وفي النهاية هذا يؤثر على سلوك الإنسان وتعامله مع الآخــرين، فمــا بالنا إذا كان أكثر من شخص عندهم تلك القناعات، ويؤلفون مجموعة أو طائفــة عنيفة لا تعرف إلا أن تَغْتَصبْ وتَظْلِمْ كون ظُلم الآخرين عندهم هو أحــد أنــواع عبادة الرب.

هذا، ولَمَّا كان خروج موسى "عليه السلام" ومن معه من مصــر وهــم يحملــون عقيدة روحية هي عقيدة "إخناتون" كما يقول "فرويد"، وتقابلوا مع قبائــل أخــرى على حدود فلسطين كانت تعتنق آنذاك ديانة هي عبادة البــراكين "يهــوه"، وتــم التعاون والاتفاق بين الطرفين على غزو أرض كنعان، فإن القبائل التي تعاونــت مع من يحملون عقيدة إخناتون هي المصدر الثاني لتصور الإله عند اليهود.

يُشير الدكتور محمد المهدي في سيكولوجية الصهيونية فــي حكايــات المهــدي "موقع مجانين" إلى ما قاله فرويد عن هذه المسألة، "لقد توصل إدوارد ميير إلــى استنتاج مؤداه أن اليهود عند رجوعهم من مصر، اتحدوا بقبائل كانت لهــم بهــا تقريبًا صلات نسب في المنطقة الواقعة علي حدود فلسطين، وشبه جزيرة سيناء وشبه الجزيرة العربية، وإنهم هناك في منطقة خصبة تسمي قادش، وتحت تــأثير قبائل مَدَّين العربية، اعتنقوا ديانة جديدة هي عبادة إله البراكين يهوه، وبعد ذلك مباشرة كانوا مستعدين أن يفتحوا أرض كنعان".

إذا صح القول السابق فإن الإله يهوه، وهو قريب الشبه مما عبر عنه سلوك من غزوا فلسطين في ذلك الزمن، هو إله بركاني فظ عنيف قاسي متعطش للدماء والعدوان، إله مُهلك جبار يسير في الليل ويتجنب ضوء النهار، وبذلك يمكن أن نقول تبعًا لما قاله "إدوارد مبير" إن من المؤكد أن يهوه كان إلهًا بركانيًا.. وبرغم كل التغيرات التي طرأت علي نص التوراة نستطيع أن نُعيد - تبعًا لإدوارد مبير - أن هذا الإله ساهم في بناء الشخصية الأصلية للإله، وطبع هذا السلوك في نفوس معتنقيه الذين تعمقت في نفوسهم تلك الديانة بعد نشوة الانتصار الذي حققوه على الكنعانيين، حينما اتبعوا كل الوسائل اللا أخلاقية مع السكان المحليين، حتى يحققوا نصرهم، ولهذا راحوا يتباهون بالإله الذي حقق لهم التفوق بعد مزاوجة ديانة إخناتون، التي أتى بها موسى كما قال "فرويد" مع ديانة يهوه.

ويضيف الدكتور محمد مهدي عن فرويد قوله أيضًا، "إن الشعب - ربما بعد زمن قصير جدًا - نَبَذَ تعاليم موسي وحاز الإله يهوه شرفًا لم يكن يستحقه، بدء أنه مكَّن من قادش فما بعدها، عندما أضيف التحرير الذي قام به موسى لشعبه إلى حساب الإله الذي احتل مكانه، صار أقوي منه، وفي نهاية التطور التاريخي ارتفع أعلى من كيانه كيان إله موسي المنسي، وليس بوسع أحد أن يشك أن فكرة هذا الإله الآخر وحدها هي التي مكَّنت شعب إسرائيل من أن يتغلب على مصاعبه وأن يعيش حتى وقتنا".

لقد أدى هذا التشويش الذي نتج عن الخلط بين ديانتين وفئتين من البشر، إضافة إلى فروق الجنس والجغرافيا بين مصر وفلسطين ومن كان يقطنهما في ذلك الوقت، أدى هذا إلى نتاج مختلف لصفات ديانة موسى عليه السلام، وأثَّر كثيرًا على نصوص التوراة وعلى وصف الإله عند اليهود، بل كان هذا هو البرزخ الذي أعطى اليهود فرصة لكي يكتبوا الدين كما يحلو لرغبات يهوه التي تستكثر أي شيء في أيدي الغير وتدفع في الحصول عليه بأي وسيلة.

يدَّعي كثير من المؤرخين الصهاينة، بأن اليهود تميزوا بأنهم لم ينـــدثروا علـــى مدى الأزمان والأقوام والإمبراطوريات، عاشوا في كنف الأقوام وعاصروا الحُكَّام والحكومات، عاشوا الحضارة اليونانية ولم يندثروا، وعاشوا الحضارة الرومانية ولم يندثروا، وعاشوا الحضارة الإسلامية ولم يندثروا أيضًا، بل وازدهروا أكثـــر في العصر الإسلامي، والآن هم يتربعون في واجهة الحضارة الحديثة رغم أنهـــم لم يكونوا حُكامًا وزعماء في الأمم قبل أن ينشئوا دولة إسرائيل، يقول فـــي هـــذا الكاتب الأمريكي اليهودي "ماكس أي ديمونت" في كتابه "اليهود والرب والتاريخ" ما معناه، إن الأمة اليهودية بقتْ واستمرتْ ولم تذهبْ وتختفي مع الأمـــم التـــي سادت ثم بادت، فالأمم الأخرى ذهبت وتركت خلفها آثارًا من القـــلاع والحجـــارة والأهرامات، أما اليهود فقد تركوا أفكارًا، كُتُبًا ونظريات واختراعات وفلســفات لا تقبل أن تموت، صحيح أنهم لم يكونوا الحُكَّام لكنهم كانوا قادة الفكر والفلاســـفة والمبدعين في شتى فنون المعرفة، هذا عوضًا أنهم ظلوا قادرين على التكيف مع البشر على مر الأزمان، وكانوا يركبون موجة الحُكَّام.

بسبب ذلك التشويش والتناقض فإنه ليس صعبًا تفسير وجود صقور وحمائم بين أهل الديانة اليهودية على مر التاريخ، فحتى بعد إنشاء الحركة الصـــهيونية فـــي القرن التاسع عشر، كان منذ البداية يتجاذبها تياران، التيار القومي الذي يُصـــر على إيجاد وطن خاص لليهود، والتيار الوطني الذي يدعو إلى عيش اليهود فـــي المجتمعات التي ولدوا فيها، لهذا وجد على مر الأزمان قادة للحركة الصـــهيونية العالمية بتخطيطهم الشيطاني الضار بالإنسانية كلها، ووجود علمـــاء ومفكـــرين يهود أثْروا التاريخ البشري باكتشافات واجتهادات علمية كبيـــرة، وكثيـــر مـــنهم يرفض فكرة الصهيونية ووجود دولة يهودية في فلسطين.

لو عدنا إلى ديانة موسى "عليه السلام"، حتى وإن أقرنها فرويد بإخناتون فإنهـــا ديانة إلهية سَمِحَة تدعو إلى التوحيد، وإنها لا يمكن أن تكون بصفات ديانة يهوه الشريرة.

هذا، ولا شك بأن التاريخ الإنساني يوغل في القدم وليس كما يقول اليهود بـــإنهم أول البشر وأول المجتمعات وأول الثقافات البشـــرية، أو كمـــا قـــال "مـــاكس أي ديمونت" قبل قليل، فالإنسان كما تؤكد الدراسات الكثيرة قد بدأ رحلته الحياتية قبل أكثر من عشرة آلاف سنة، ويقول آخرون بإن الإنسان قد بدأ حياته قبـــل ثلاثـــة عشر ألف سنة، وإنه اكتشف الزراعة ودجَّن الحيوانات وسار في طريق التطـــور فكوَّن المجتمعات وبدأ الكتابة، إلى أن وصل ما وصل إليه من رُقي.

تقول كُتُب التاريخ بصفة عامة، بإن العبرانيين الذين هاجموا فلسطين كانوا مـــن الساميين الذين خرجوا من جزيرة العرب بين سنتي ١٥٠٠_١٢٠٠ ق.م، وأنهم أقرب الشعوب نسبًا للعرب، وأنهم جاءوا من شعبين ساميين، أحدهما قـــدَمَ مـــن مصر والصحراء السورية، والثاني قدَمَ من الشمال بقيادة "إبراهيم" عليه الســـلام، وقد دخل في هذا المزيج البشري عناصر أخـــرى غيـــر ســـامية مـــن حيثيـــين وحورانيين، وتُشير التوراة إلى أن أصلهم من الخلاء أو القفر أو مـــن البريـــة، وتُشير التوراة أيضًا بأن من أتوا مع إبـــراهيم عبـــرانيين؛ لأنهـــم عبـــروا إلـــى فلسطين، وهناك من يؤكد بأن اسم العبرانيين مشتق من "عابر بن شالح"، الـــذي ترده التوراة إلى سام بن نوح.

وحسب القول السابق فإن اليهود هم ساميون، لكن الدراسات الأثرية تدل على أن العبرانيين المذكورين في التوراة هم جماعة نسبة الجنس السامي فـــيهم قليلـــة، لهذا فإن هناك صنفين من اليهود وهو ما يؤكده المؤرخ "ويستنبرج"، هم صـــنف يُشبه العنصر الأبيض الأرمنوي الذي تشكل أصلاً في بـــلاد القوقـــاز ذو الأنـــف الضخم، وصنف سامي ذو أنف دقيق.

وقد ذهب كثير من المؤرخين إلى القول، بإن اليهود ليســـوا أمـــة واحـــدة فهـــم يتألفون من شعوب كانت تشغل البلاد الواقعة بين النيل من جهة، ودجلة والفرات من جهة أخرى، وإن تركيبهم العرقي أدَّى أن تكون لهم أعداد كبيـــرة فـــي هـــذه المنطقة بسبب تنوع أعراقهم وكثرة من تهـــودوا مـــع الـــزمن فيمـــا بعـــد، وإن ادعاءات الصهيونية بأن اليهود أمة واحدة باطلة.

يقول الدكتور "كنيون"، الذي كان مديرًا وأمينًا أول للمتحف البريطاني، ومسـئولاً عن شئون المخطوطات، وهو أحد ثقاة نقد العهد الجديد، ما معنـاه، أن تـرادف كلمات عبراني وعبيرو وخيبرو وهيبـرو وتطابقهـا فـي المعنـى، لا يُثيـر أي اعتراض لغوي، وأن العبيرو أو العبرانيين فـي رأي معظـم العلمـاء، لا يمكـن الاعتراف بهم كجماعة تنتسب إلى جنس واحد، فليس لهم أسـماء خاصـة تـدل عليهم، وأن ليس لهم حِرَفْ ولون مهني يتصفون به بـين الشـعوب، والصـفة الوحيدة المشتركة بينهم هي أنهم أجانب أو غرباء، وأن أنسب ما يمكن أن ينطبق عليهم من التفاسير أنهم عصابات مغامرة، وجنود تسعي وراء الكسـب، وأنهـم يظهرون في الأماكن المضطربة غزاة للمدن (الدول) غير المحصنة، ويتجنـدون كمرتزقة في جيوش الدول القوية، وأنهم في أيام السلم يبيعون خـدماتهم كعمـال وعبيد للحكومات القوية، ومثل هذه الجماعات يمكن أن تجند من مصادر متنوعة من الأشخاص الذين لا مأوى لهم، ومن العصابات المغامرة التـي تفـتش عـن أراض غنية تغزوها، أو هم من العصاة الخارجين عن القانون، ممن خرجوا مـن ديارهم.

لو أعدنا تقييم الأمر أيضًا، فإن كثيرًا من البحـوث والحفريـات تـدحض قـول الإسرائيليين بأنهم من نسل واحد، وإذا تم اختصار الحقيقة فإن العبرانيين الـذي أتوا مع إبراهيم إلى فلسطين سنة ١٩٠٠ ق.م وسكنوها، قسم مـنهم بقـى فـي فلسطين وقسم آخر دخل مصر مع غزو الهكسوس لها سنة ١٣٠٠ ق.م، لـذا إن جماعة موسى "عليه السلام" الذين قدموا بعد ذلك من مصر، هم أصـل إسـرائيل التي أنشئت في العصر الحديث، وهم جماعة يشوع بن نون الذين هاجموا أريحـا سنة ١٢٦٠ ق.م، لهذا إن من غزوا فلسطين عن طريق "مدينة أريحا" هم خلـيط متباعد النسب، وإن الإسرائيليين هم خليط من هؤلاء المغامرين الذين جمع بينهم العنف والشراسة التي اتصفت بها حروبهم القديمة والحديثة.

لهذا، يبدو أن الذين كتبوا التوراة أحبوا أنْ يروا أنَّ ذلك إنما تم بأوامر من ربهم يهوه، ولا شك أنه كان لنصوص التوراة أثر كبير على الأجيال المتعاقبـة التـي

آمنت بها، ووجد فيها الساعون إلى الربح - من أغنياء يهود أوروبا - ضـــالتهم وجسَّدوها على صورة الصهيونية، ووضعوا لها شعارات دينية وقومية؛ لأجل أن يحققوا أهدافهم الاقتصادية، للوصول إلى المزيد من الربح وجمع المال واقتسامه مع الدول العظمى المتنفذة.

بناء على ذلك لم يبق أمامنا سوى الجزم بأن تاريخ اليهود مختلف عــن غيـــره، وقد تمت صياغته خلال السبي البابلي، بأنْ استفاد هؤلاء مما كان لدى البابليين، وذلك بأن أضافوا إلى تقاليدهم القبليـــة بعـــد أن زخرفوهـــا وزينوهـــا وأطلقـــوا لمخيلاتهم الخصبة العنان، وقد استطاعوا بالفعل خلق تقليد قومي عنـــد اليهـــود يدفع باتجاه إنشاء وطن تحت شعار، "لتنسني يميني لو نسيتك يا أورشليم".

وهنا لا بد من الإشارة إلى الكتاب المقدس "التوراة"، "يعقوب" ويُســـمى بالعبريـــة ياكوف، ومعناه ماسك كعب القدم لأنه ولد ممسكًا بقدم أخيه "عيسو" التوأم الآخر، يُعرف يعقوب بإسرائيل بمعنى مصارع الله، أبوه إسحاق وجدَّه إبـــراهيم الخليـــل، ولقد لعب يعقوب دورًا رئيسيًا في الأحداث التي ذُكرت في العهـــد القـــديم، كـــان إسحاق يميل إلى ابنه عيسو، وكانت زوجته "رفقة" تميل إلى ابنهما يعقوب التوأم الآخر.. دعنا نتابع ما ذكره الكتاب المقدس، كيف تطورت الأمور، وكيف أصـــبح يعقوب هو إسرائيل:

يقول الإصحاح السادس والعشرون في سفر التكـــوين: - "(١٩) وهـــذه مواليـــد إسحق بن إبراهيم. ولد إبراهيم إسحق (٢٠) وكان إسحق ابن أربعين ســـنة لمـــا اتخذ لنفسه زوجة "رفقة" بنت بتوئيل الآرامي أخت لابان الآرامي من فـــدَّان آرام (٢١) وصلى إسحق إلى الرب لأجل امرأته لأنها كانت عاقرًا. فاستجاب له الـــرب فحبلت رفقة امرأته (٢٢) وتزاحم الولدان في بطنها فقالت إن كان هكـــذا فلمـــاذا أنا. فمضت لتسأل الرب (٢٣) فقال لها الرب في بطنك أمتَّان ومن أحشائك يفترق شعبان. شعب يقوى على شعبٍ وكبير يستعبد (٢٤) فلما أكملت أيامها لتلد إذا في بطنها توأمان (٢٥) فخرج الأول أحمر. كله كفروة شعر. فدعو اســـمه "عيســـو" (٢٦) وبعد ذلك خرج أخوه ويده قابضة بعقب عيسو فدعي اسمه يعقوب. وكـــان

إسحق ابن ستين سنة لما ولدتهما (٢٧) فكبر الغلامان. وكــان عيســو إنســانًا يعرف الصيد إنسان البريّة ويعقوب إنسانًا كاملاً يسكن الخيام (٢٨) فأحب إسحق عيسو لأن في فمه صيدًا. وأما رفقة فكانت تحب يعقوب"

ويقول الإصحاح السابع والعشرون في سفر التكوين: - "(١) وحَدَثَ لمَّــا شــاخ إسحق وكلَّتْ عيناه عن النظر أنه دعا عيسو ابنه الأكبر وقال له يا بني. فقال له هأنذا (٢) فقال إنني قد شخت ولست أعرف يوم وفاتي (٣) فــالآن خــذ عــدتك جعبتك وقوسك واخرج إلى البريِّة وتصيَّد لي صيدًا (٤) واصنع لي أطعمــة كمــا أحب وأتني بها لآكل حتى تباركك نفسي قبل أن أموت (٥) وكانت رفقة سامعة إذ تكلم إسحق مع عيسو ابنه (٦) وأما رفقة فكلمتْ يعقوب ابنها قائلة إني ســمعتُ أباك يكلم عيسو أخاك قائلاً (٧) ائتني بصيد واصنع لي أطعمة لآكل وأباركك أمام الرب قبل وفاتي (٨) فالآن يا ابني فاسمع لقولي فيما أنا آمرك به (٩) اذهب إلى الغنم وخذ لي من هناك جَديين جيدين من المعزى. فأصنعهما أطعمة لأبيــك كمــا يحب (١٠) فتحضرها إلى أبيك ليأكل حتى يباركك قبل وفاته (١١) فقال يعقــوب لرفقة أمه هو ذا عيسو أخي رجل أشعر وأنا رجل أملس (١٢) ربما يجسني أبــي فأكون في عينيه كمتهاون وأجلب على نفسي لعنة لا بركة (١٣) فقالت لــه أمــه لعنتك عليّ يا ابني. اسمع لقولي فقط واذهب خذلي (١٤) فهب وأخــذ وأحضــر لأمه. فصنعت أمه أطعمة كما كان أبوه يحب (١٥) وأخذت رفقة ثياب عيسو ابنها الأكبر الفاخرة التي كانت عندها في البيت وألبست يعقوب ابنهــا الأصــغر (١٦) وألبست يديه ومَلاسَة عنقه جلود جَدي المعزى (١٧) وأعطت الأطعمــة والخبــز التي صنعت في يد يعقوب ابنها (١٨) فدخل إلى أبيه وقال يا أبي. فقال هأنذا. من أنت يا بني (١٩) فقال يعقوب لأبيه أنا عيسو بكرُك. قد فعلت كما كلمتنــي. قــم أجلس وكل من صيدي لكي تباركني نفسك (٢٠) فقال إسحق لابنه ما هذا الــذي أسرعت لتجد يا ابني. فقال إن الرب إلهك قد يسر لي (٢١) فقال إسحق ليعقــوب تقدم لأجسك يا ابني. أأنت هو ابني عيسو أم لا (٢٢) فتقدم يعقوب إلــى إســحق أبيه. فجسه وقال الصوت صوت يعقوب ولكن اليدين يدا عيسو. فقــال أنــا هــو

(٢٥) فقال قدم لي لآكل من صيد ابني حتى تباركك نفسي. فقدم له فأكل. وأحضر له خمرًا فشرب (٢٦) فقال له إسحق أبوه تقدم وقبلني يـا ابنـي (٢٧) فتقـدم وقبله. فشم رائحة ثيابه وباركه. وقال انظر. رائحة ابني كرائحة حقل قد باركـه الرب (٢٨) فليعطك الله من ندى السماء. ومن دسم الأرض. وكثرة حنطة وخمرة (٢٩) ليُستعبد لك شعوب. وتسجد لك قبائل. كن سيدًا لإخوتك. وليسجد لك بنـو أمك. ليكن لاعنوك ملعونين. ومباركوك مباركين (٣٠) وحدث عندما فرغ إسـحق من بركة يعقوب ويعقوب قد خرج من لدن إسحق أبيه أن عيسو أخاه قد أتى من صيده (٣١) فصنع هو أيضًا أطعمة ودخل بها إلى أبيه وقال لأبيه ليقم أبي ويأكل من صيد ابنه حتى تباركني نفسك (٣٢) فقال له إسحق أبوه من أنت. فقـال أنـا ابنك بكرك عيسو. (٣٣) فارتعد إسحق ارتعادًا عظيمًا جدًا. وقال فمن هو الـذي اصطاد صيدًا وأتى به إلي فأكلت من الأكل قبل أن تجيء وباركته. نعـم ويكـون مباركًا (٣٤) فعندما سمع عيسو كلام أبيه صرخ صرخة عظيمة ومُرةً جدًا. وقال لأبيه باركني أنا أيضًا يا أبي (٣٥) فقال قد جاء أخوك بمكر وأخذ بركتـك (٣٦) فقال ألا إن اسمه يعقوب. فقد تعقبني الآن مرتين".

هذا، ويقول الإصحاح الثاني والثلاثون - سفر التكوين - عن يعقوب الذي خاف على حياته بعد أن غضب منه عيسو: "(٢٢) ثم قام في تلك الليلة وأخذ امرأتيـه وجاريتيه وأولاده الأحد عشر وعبر مخاضة يبوق (٢٣) أخذهم وأجازهم الـوادي وأجاز ما كان له (٢٤) فبقي يعقوب وحده. وصارعه إنسان حتى طلـوع الفجـر (٢٥) ولما رأى أنه لا يقدر عليه ضرب حق فخذه. فانخلع حق فخذ يعقوب فـي مصارعته معه (٢٦) وقال اطلقني لإنه قد طلع الفجـر. فقـال لا أطلقـك إن لـم تباركني (٢٧) فقال له ما اسمك. فقال يعقوب (٢٨) لا يدعى اسمك في مـا بعـد يعقوب بل إسرائيل. لأنك جاهدت مع الله والناس وقـدرت (٢٩) وسـأل يعقـوب وقال اخبرني باسمك. فقال لماذا تسأل عن اسمي. وباركـه هنـاك (٣٠) فـدعا يعقوب اسم المكان فنيئيل. قائلاً لأني نظرت الله وجهًا لوجه ونجيت نفسي (٣١) وأشرقت له الشمس إذ عبر فنيئيل وهو يخمع على فخذه. لـذلك لا يأكـل بنـو

إسرائيل عرق النسا الذي على حق الفخذ إلى هذا اليوم. لأنه ضرب حق فخذ يعقوب على عرق النِّسا."

ويقول الإصحاح الخامس والثلاثون في سفر التكوين: - "(٩) وظهر الله ليعقوب أيضًا حين جاء من فدّان أرام وباركه (١٠) وقال له الله اسمك يعقوب. لا يدعى اسمك فيما بعد يعقوب بل يكون اسمك إسرائيل. فدعى اسمه إسرائيل (١١) وقال له الله أنا الله القدير. أثمر وأكثر. أمة وجماعة أممٍ تكون منك. وملوك سيخرجون من صلبك (١٢) والأرض التي أعَطيت إبراهيم وإسحق لك أعطيها. ولنسلك من بعدك أعطي الأرض (١٣) ثم صعد الله عنه في المكان الذي فيه تكلم معه".

يقول الإصحاح الثامن والثلاثون في سفر التكوين: - "(١) وحدث في ذلك الزمان أن "يهوذا" نزل من عند إخوته ومال إلى رجل عدلامي اسمه حيرة (٢) ونظر "يهوذا" هناك ابنة رجل كنعاني اسمه شوع. فأخذها ودخل عليها (٣) فحبلت وولدت ابنًا ودعا اسمه "عيرا" (٤) ثم حبلت أيضًا وولدت ابنًا ودعت اسمه "أنان" (٥) ثم عادت وولدت أيضًا ابنًا ودعت اسمه "شيلة". وكان في "كزيب" حين ولدته (٦) وأخذ يهوذا زوجة لعير بكره اسمها "ثامار" (٧) وكان عير بكر يهوذا شريرًا في عيني الرب. فأماته الرب (٨) فقال يهوذا لأنان ادخل على امرأة أخيك وتزوج بها وأقم نسلاً لأخيك (٩) فعلم أنان أن النسل لا يكون له. فكان إذ دخل على امرأة أخيه أنه أفسد على الأرض لكيلا يُعطي نسلاً لأخيه (١٠) فقج في عيني الرب ما فعله. فأماته أيضًا (١١) فقال يهوذا لثامار كنته اقعدي أرملة في بيت أبيك حتى يكبر شيلة ابني. لأنه قال لعله يموت هو أيضًا كإخوته. فمضت ثامار وقعدت في بيت أبيها (١٢) ولما طال الزمان ماتت ابنة شوع امرأة يهوذا. ثم تعزى يهوذا فصعد إلى جزار غنمه إلى "تمنة" هو وحيرة صاحبه العلامي (١٣) فأُخبرت ثامار وقيل لها هو ذا حموك صاعد إلى تمنة ليجز غنمه (١٤) فخلعت عنها ثياب ترملها وتغطت ببرقع وتلففت وجلست في مدخل "عينايم" التي على طريق تمنة. لأنها رأت أن شيلة قد كبر وهي لم تعط له زوجة (١٥) فنظرها يهوذا وحسبها زانية. لأنها كانت قد غطت وجهها (١٦) فمال إليها على الطريق

وقال هاتي ادخل عليك. لأنه لم يعلم أنها كُنَّته. فقالت ماذا تعطيني لكي تدخل علي (١٧) فقال إني أرسل جَدي معزى من الغنم. فقالت هل تعطيني رهنًا (١٨) فقال ما الرهن الذي أعطيك. فقالت خاتمك وعصابتك وعصاك التي في يدك. فأعطاها ودخل عليها. فحبلت منه (١٩) ثم قامت ومضت وخلعت عنها برقعها ولبست ثياب ترملها (٢٤) ولما كان نحو ثلاثة أشهر أخبر يهوذا وقيل له قد زنت ثامار كُنَّتك. وها هي حبلى أيضًا من الزنا. فقال يهوذا فأخرجوها فتُحرق (٢٥) أما هي فلما أخرجتْ أرسلت إلى حميها قائلة من الرجل الذي له أنا حبلى. وقالت حقق لمن الخاتم والعصابة والعصا هذه (٢٦) فتحققها يهوذا وقال هي أبر مني لأني لم أعطها لشيلة ابني".

ما سبق هنا لم يكن سوى شيء يسير، مقتطفات قليلة من الكتاب المقدس من سفر التكوين، إن هي هكذا الأمور عند الأصولية الصهيونية التي تعتقد بالتفسير الحرفي للتوراة، المتمعن في معاني المواقف السابقة في الأحداث التي اخترناها بهدف الربط بين يعقوب واليهود وإسرائيل، يجد أن الحركة الصهيونية قد اتخذت طريقًا حياتيًا يخلو من أية فضيلة.

لقد رأينا كيف أن التفسير الحرفي قد بيَّن أن الإسرائيليين إن لم يجدوا من يقاتلون سيقاتلون أنفسهم "(سفر التكوين ٢٣ - فقال لها الرب في بطنك أمتان ومن أحشائك يفترق شعبان. شعب يقوى على شعبٍ. وكبير يستعبد لصغير)". حتى إن الإسرائيلي مباح له أن يُقاتل الرب وأن يختلف معه ويهزمه ويفرض عليه شروطه، "(سفر التكوين ٢٦ - وقال أطلقني لإنه قد طلع الفجر. فقال لا أطلقك إن لم تباركني)"، فباركه وسماه إسرائيل بدلاً من يعقوب لأنه تصارع مع الرب.

وقد رأينا أيضًا كيف أن امرأة إسحق "رفقة" قد تآمرت على ابنها عيسو، وخدعت أباه العاجز الضرير، بطريقة ليس بها من الدين والأخلاق أو الأصول من شيء: "{(١١) فقال يعقوب لرفقة أمه هو ذا عيسو أخي رجل أشعر وأنا رجل أملس (١٢) ربما يجسني أبي فأكون في عينيه كمتهاون وأجلب على نفسي لعنة لا

بركة (١٣) فقالت له أمه لعنتك عليّ يا ابني}"، وهل التآمر نوع من الدين والعبادة! بل ماذا كان رد إسحق حينما اكتشف الخدعة، وكيف تصرف مع زوجته التي شاركت في خداعه وجعلت الأمر رأسًا على عقب؟ لماذا لم تُعاقب أو تُلام على الأقل أو يُصحح الخطأ؟ هل هي السياسة أو فن الممكن والغاية تُبرر الوسيلة، أم هي مكانة المرأة في التفسير الحرفي للمقدس أن تكون في درك أسفل في ظرف معين، وفي موقع عال لا يطالها لوم ولا تهمة في ظرف آخر.

من يتحقق في هذا التفسير لفقرات الكتاب المقدس (العهد القديم) يجد أن هناك فرق شاسع بين العهد القديم والعهد الجديد، العهد الجديد يدعو إلى المحبة والتسامح وحُب الناس كافة، بل إلى حب الأعداء أيضًا، أما العهد القديم في نصوصه الحرفية التي جعلتها الصهيونية "اللادينية" دستورًا للتعامل مع الشعوب الأخرى (الأغيار)، يجد المرء أن تلك النصوص ما هي إلا تعال وعنصرية وإباحية، واستحواذ على كل ما قد تصل إليه اليد، وجعل المنفعة والمصالح أسمى من القيم والشرف والكرامة.

تاريخ اليهود:

أوردت الكُتب المقدسة وكُتب التاريخ، الكثير عن قوم سيدنا إبراهيم أبو الأنبياء. فمن المفيد أن نذكر هنا نبذة مختصرة عامة عن تاريخ اليهود، للاستدلال على التسلسل الزمني لهذا التاريخ، والوقوف على المغزى لبعض الفترات:

لقد أنجب سيدنا إبراهيم عليه السلام ولدين هما، سيدنا "إسماعيل" من زوجته "هاجر"، وسيدنا "إسحاق" من زوجته "سارة"، يُعَّد إسماعيل جد العرب العدنانيين ومن نسله سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، ويُعتبر سيدنا إسحاق هو جد بني إسرائيل ومن ذريته سيدنا يعقوب الذي سُمِّي بإسرائيل "العهد القديم".

كان ليعقوب اثنا عشر ولدًا، أصغرهم سيدنا "يوسف" الذي تآمر عليه إخوته، وتربى عند فرعون وأصبح له شأن، فأحضر أباه وإخوته إلى مصر (قصص الأنبياء)، تقول التوراة إن بني إسرائيل أمضوا في مصر ٤٣٠ سنة (سفر الخروج)، وبعد أن عوملوا بقسوة من فرعون مصر؛ خرجوا من مصر بقيادة موسى عليه السلام وأخيه هارون، فلحقهم فرعون وجنده فأغرق الله فرعون وجنوده، ومرّوا على قوم يعبدون الأصنام فطلبوا من موسى أن يصنع لهم آلهة، وحينما طلب منهم موسى أن يدخلوا فلسطين خافوا ولم يمتثلوا، وقالوا إن بها قومًا جبارين، فغضب الله عليهم وأتاههم أربعين سنة في صحراء سيناء، بعد موت موسى واستبدال قومه بجيل جديد رباه موسى، دخل بني إسرائيل فلسطين بقيادة يوشع بن نون.

يتضح مما سبق أن اليهود لم يكن لهم وجود في مصر قبل أن استخدم فرعون مصر "يوسف" عليه السلام، ولم يكن لهم وجود أيضًا في فلسطين حينما خافوا ورفضوا دخولها مع سيدنا موسى عليه السلام، وإنَّ من لم يذهبوا من اليهود مع يوسف إلى مصر أضحوا لا يشاركون كثيرًا قوم موسى في ديانتهم اليهودية، بعد أن اختلط هؤلاء بسكان فلسطين المحليين، وتعلموا لغتهم وديانتهم، ونفس الشيء لم يكن لقوم سيدنا إبراهيم وجود في فلسطين قبل أن يعبر بقومه إلى أرض كنعان، وأكبر دليل على ذلك، هي تلك الحروب التي دار رحاها بين العبرانيين والفلسطينيين التي يشير إليها كتاب التوراة كثيرًا، لأن فلسطين لم تكن في يوم خالية من السكان.

في فلسطين عاش بنو إسرائيل بعد دخولهم فلسطين فترة زمنية يمكن تسميتها بعدة عهود :

*** عهد القضاء :**

وهو الفترة ما بين القرن الثالث قبل الميلاد لغاية سنة ١٠٩٥ ق.م، وذلك حينما دخلوا فلسطين بقيادة "يوشع بن نون"، فقتلوا الكثيـــرين مـــن أهلهـــا وصـــادروا ملكياتهم وسكنوا بيوتهم واحتقروهم، كان اليهود في تلك الفتـــرة يعيشـــون فـــي مجتمعات قَبَلية كان الحكم فيها لكبار العشائر، لهذا سمى المؤرخون عصرهم ذاك بعصر القضاة.

*** عهد الملوك الأول :**

ويبدأ من سنة ١٠٩٥ ق.م لغاية ٩٧٥ ق.م، وكان ذلك في عهد "طالوت" الـــذي أسس مملكة، وخَلَفَهُ ابنه داود عليه السلام، ثم تولى الحكم من بعده ابنه سليمان.

*** عهد الملوك الثاني :**

ابتدأ من سنة ٩٧٥ ق.م لغاية ١٣٥ ق.م، فبعد وفاة سليمان خلفه ابنه "رحبعام"، فبايعه الأسباط الذين كانوا في منطقة "أورشليم" يهوذا وبنيامين، ورفضه الأسباط العشرة الآخرون فانقسم اليهود إلى مملكتـــين: مملكـــة إســـرائيل فـــي الشـــمال وعاصمتها السامرة، وقد دامت ٢٥٠ سنة، وانتهت سنة ٧٢١ ق.م حينما غزاها "سرجون" ملك آشور، واستولى على السامرة وسبى الأسباط، ومملكة يهوذا فـــي الجنوب وعاصمتها القدس، وعاشت أطول من مملكة الشـــمال، إلـــى أن غزاهـــا "نبوخذ نصر" ملك بابل، الذي غزاها سنة ٦٠٦ قبل الميلاد، وتغلَّب عليهـــا، ثـــم ثارت مرة أخرى فغزاها سنة ٥٩٣ ق.م وسبى من علية القوم منها عشرة آلاف، من بينهم أعيان وأشراف، ولما ثارت عليه ثانية غزاها سنة ٥٨٦ ق.م، وأحرقها ودمر الهيكل.

بعد السبي البابلي الذي استمر ٥٠ سنة، أعاد "قورش" ملك فارس اليهـــود إلـــى "أورشليم"، حينما أضحت إحدى ولايات فارس، وفي سنة ٣٣٢ ق.م انتقلت إلـــى حكم الإسكندر المقدوني، الذي هزم فارس فخضعت له بلاد الشام بما فيها القدس.

في عام ٣٢٠ ق.م احتلها الرومان وكانوا يضعون على أورشليم ولاة، ولما ثـار اليهود سنة ٧٠ ميلادية، جاء القائد الروماني "تيطس" فـدخل القـدس ودمَّرهـا وأهان اليهود، ولما صار حكم الإمبراطور الروماني "ترجان" سـنة ١٠٦م عـاد اليهود إلى القدس وراحوا يعدون للثورة ضد الرومان بقيادة "باركوخيـا"، فلمـا تولى "ادريانوس" عرش روما (١١٧م – ١٣٨م) ثار اليهود سنة ١٣٥م، فجـاء الوالي "يوليوس سفيروس" واحتل المدينة ودمرها، وقتل باركوخيا وذبح عشرات الألوف من اليهود، وتشتت اليهود منذ ذلك الحين في كـل أرض، وبنـى مكـان أورشليم مدينة سماها "ايلياء".

عاد اليهود إلى فلسطين بقيادة الصهيونية العالمية فاستوطنوها، وتـآمروا علـى شعبها واستعملوا كل الطرق التي أشار إليها تاريخهم في التوراة، فتحالفوا مـع الرأسمالية الأوروبية، واستطاعوا أن يعلنوا دولة إسرائيل عام ١٩٤٨م.

هذا، وينقسم اليهود من الناحية الإثنية العرقية إلى ثلاث مجموعات:

١ - السفارديم: وهم أساسًا يهود الأندلس (أسبانيا والبرتغال)، الذين يتحـدثون لغة "اللادينو" التي أتوا بها بعد أن طُردوا من شبه جزيرة أيبيريا، وسكنوا الدولة العثمانية.

٢ - يهود الشرق والعالم الإسلامي: وهؤلاء يختلفون عن السفارديم بخلفياتهم الثقافية والتاريخية، لكنهم عادة ما يُشار إليهم خطأً بأنهم سفارديم، ويعود السبب إلى أن كثيرًا منهم يتبعون النهج السفاردي في العبادة، ولعل هناك سببًا آخر هـو أن كثيرًا من يهود السفارديم هاجروا إلى العالم الإسلامي، وتطبعوا بأجوائه.

٣ - الأشكناز: وهؤلاء أساسًا هم يهود شرق أوروبا (روسيا وبولنـدة)، الـذين يتحدثون اللغة اليديشية حيث لهم طريقتهم المميزة في العبادة والأزياء، وبيـنهم ظهرت المشكلة اليهودية، وأشكناز باللغة العبرية هي ألمانيا، حيث يُنسب إليهـا هؤلاء اليهود.

تواريخ لها علاقة:

* في عام ٤٠٠٠ ق.م، كان نزوح الكنعانيين من شبه الجزيرة العربية إلى فلسطين (أرض كنعان)، وفقًا للتقديرات التاريخية فإن الهجرة الأمورية - الكنعانية من الجزيرة العربية قد حدثت قبل أربعة آلاف سنة، وذلك من خلال تتبع الآثار في مدنهم القديمة، ولعل أقدمها مدينة أريحا الباقية حتى اليوم والتي تعتبر أقدم مدينة في العالم، وإن تأرجحت تقديرات البداية الزمنية لوجود الكنعانيين فما من خلاف فيه أنهم كانوا أول من سكن المنطقة من الشعوب المعروفة تاريخيًا، وأول من بنى على أرض فلسطين حضارة، لقد ورد في الكتابات العبرية أيضًا أن الكنعانيين هم سكان البلاد الأصليين، كما ذكر في التوراة أنهم الشعب الأموري، ولعل الكنعانيون هم أنفسهم العموريون أو ينحدرون منهم، وكذلك الفينيقيون، فقد كان الكنعانيون والفينيقيون في الأساس شعبًا واحدًا، تجمعهما روابط الدين واللغة والحضارة، ولكن لم تكن تجمعهما روابط سياسية إلا في حالات درء الخطر الخارجي.

* وفي عام ٢١٠٠ ق.م فترة الآباء إبراهيم وإسحاق ويعقوب.

* في عام ١٨٠٠ ق.م غزا الهكسوس أرض كنعان وراحوا يحكمون مصر أيضًا، حتى عام ١٥٧٠ ق.م، هذا ما تقوله معظم كتب التاريخ، ففي القرن الثامن عشر قبل الميلاد حدثت تغييرات مناخية أدت إلى تغيرات في حضارات بلاد الهلال الخصيب وعدم استقرار في التركيبة السكانية لشعوبها، أدَّت إلى هجرة تدريجية طويلة ومستمرة لعدد من شعوب بلاد الشام والعراق، في العام ١٧٩٠ ق.م أتيحت الفرصة لعشائر وقبائل العموريين الهكسوس بتأسيس مملكتهم في شرق دلتا النيل ومصر الوسطى، وذلك بسبب كثرة عددهم والنزاعات والعداءات الداخلية في مصر نفسها، وقد قدرت أعداد الهكسوس في ذلك الحين بحوالي نصف مليون نسمة.

* في عام ١٦٧٥ ق.م هاجر العبرانيون إلى مصر، وتستقر "قبائل يوسف" في جوش شرقي الدلتا، (قصة سيدنا يوسف بن يعقوب الذي كان عزيزًا، على والده فحسده إخوته وتآمروا عليه ورموه في البئر.. الخ).

* وفي الفترة (١٣٠٠ - ١٢٠٠ ق.م موجات الآراميين وشعوب البحر الفلستية (الفلسطينية) تغزو سوريا وكنعان)، لقد أهمل المؤرخون وخاصة الغربيون الحديث عن تاريخ الفلسطينيين، ويبدو أن ذلك كان مقصودًا بسبب سيطرة المؤرّخين اليهود والصهاينة على مجال الكتابة التاريخية عن فلسطين وركزوا على تاريخ ما له علاقة ببني إسرائيل فقط، ولهذا فإن فلسطين توصف في كتبهم على أنها منطقة صغيرة وفقيرة ومعزولة، وهذه أوصاف شائعة في الدراسات التوراتية، ثم يتغير هذا الوضع وتصبح فلسطين واحة مرموقة فقط بسبب الوجود التاريخي لإسرائيل.

من الباحثين من يعتبر أن أصل الفلسطينيين من شعوب البحر، ويختلف الباحثون والأثريون حول أصل الفلسطينيين، أغلب الروايات تؤكد بأنهم من شعوب البحر قدموا إلى فلسطين من جزيرة كريت وجزر بحر إيجة، وأدخلوا عليها موادًا وعادات جديدة وأصبحت متميزة في الكثير من مواقع الساحل الفلسطيني الجنوبي. وأكثر من ذلك، فالفلسطينيون هو مصطلح يطلق على القبائل التي استوطنت شاطئ فلسطين – كنعان - الجنوبي الغربي من غزة جنوبًا إلى يافا شمالاً، و منهم جاءت تسمية فلسطين التي ما زالت مستعملة حتى يومِنا هذا للدلالة على أرض فلسطين الحالية، هذا ومن أهم المدن التي استوطنوها (غزة وعسقلان وأشدود وعقرون وجت) وكانت مدن الفلسطينيين هذه على الساحل عدا مدينة "جت" التي كانت تمتد قليلاً إلى الداخل.

لا شك بأن المصادر اليهودية قد عملت على التعتيم على تاريخ الفلسطينيين والإيهام بأن الفلسطينيين شعب غريب ليست له أصول في المنطقة وغير معروف، ففي دوائر المعارف اليهودية يرد الحديث عن فلسطين والفلسطينيين في شكل مقتضب وغامض لكنهم يفسحون مجالاً عريضًا لتعميق فهم وجود كل ما له

علاقة ببني إسرائيل، الواضح من كتب التاريخ بأن أصول الفلسطينيين تعود إلى مواقع في آسيا الصغرى واليونان، وأنهم أتوا إلى فلسطين على شكل موجات متعاقبة، وقد أتت إحدى هذه الموجات إلى فلسطين واستوطنتها قبل قدوم قوم سيدنا إبراهيم، لقد عمل التوراتيون على تشويه التاريخ وتحريفه إلى حد أنهم روَّجوا للقصة التوراتية عن "جالوت" و"داود"، فصوَّروا انتصار داود الصغير بالمقلاع على جليات القوي والضخم، وكان من جبابرة الفلسطينيين وكان مدججًا بالسلاح، ويرى الدكتور "عبد الوهاب المسيري" في "موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية"، أن الدعاية الصهيونية نجحت في ترسيخ صورة داود رمزًا لـ (إسرائيل)، فنجد أن في كتبهم ذكروا بأن داود استخدم ذكاءه ومهارته، مقابل صورة جالوت رمزًا للعربي الذي يتسم بكثرة السلاح والإمكانيات، ولكنه لا يفكر جيدًا فلا يضع الخطط الجيدة ودائما يهزم.

وأما في الحقيقة فقد انصف كثير من المؤرخين التاريخ الفلسطيني فقالوا كان الفلسطينيون يملكون ثقافة متقدّمة وعريقة وأنهم من ادخلوا الحديد إلى فلسطين، فبعد أن سكنوا الساحل الجنوبي من فلسطين استطاعوا أن يغزوا الداخل ويسيطروا على مناطق واسعة منها، ولولا أنهم كانوا ذوي عزيمة ورشد لما قاوموا قوم إبراهيم والغزو الإسرائيلي بعد ذلك بقيادة يشوع بن نون.

* في عام ١٢٧٥ ق.م كان خروج أو هجرة العبرانيين من مصر (١٢٧٥ - ١٢٥٠ م) في عهد رمسيس الثاني، فكان الميثاق في سيناء، وعبادة إله البراكين يهوه، لقد قيل إن فرعون مصر تمادى في غيه وعلا في الأرض وأنزل الخسف بطائفة من رعاياه هم بنو إسرائيل الذين اصطبروا على الشدة، وبينما هم يضطربون ويرزحون في نكد من العيش وسوء الحال إذ تقدم الكاهن من فرعون وقال له سيولد طفل من بني إسرائيل وسيذهب ملكك على يده، فثارت ثورته، فأمر بقتل كل طفل يولد من بني إسرائيل، وحينما وُلِدَ موسى أخفته أمه عن عيون آل فرعون، وبعد ثلاثة شهور وضعته في صندوق وأغلقته جيدًا وألقته في نهر النيل، وجعلت أخته تراقب الصندوق من بعد.

وصل الصندوق إلى مكان فرآه جنود فرعون فالتقطوه وأخذوه إلى القصر، شاهدت زوجة فرعون الطفل فألقى الله حب موسى في قلبها، رجت زوجها الفرعون بأن يُبقي الطفل ليأخذانه لهما ولدًا، وراح من يبحث عن مرضعة للطفل فلم يقبل الطفل على أحد، وحينما استدل على أمه الحقيقية بواسطة ابنتها التي ذهبت إلى قصر فرعون وقالت لهم إنها تعرف من يمكن أن تُرضع الطفل وقد يُقبل عليها، ودلتهم على أمها فدعوها وحضرت وأقبل عليها الطفل، بعد أن أتمت أمه (يوكابد) الرضاعة أعادته للقصر، ولما بلغ أشده أتاه الله العلم والحكمة وأوحى إليه بالنبوة، وأصبح نصيرًا للمظلومين.

في أحد الأيام، وبينما هو ماض إلى قصر فرعون إذ وجد رجلين يقتتلان أحدهما عبري من مشايعيه، والآخر فرعوني من أصحاب القوة والسلطان، فسأله العبراني أن يحول بينه وبين اعتداء الفرعوني، فهم موسى فضرب الفرعوني فكانت القاضية، فوقع فيما عزم على النجاة من غضب فرعون وقومه الذين غضبوا على ما فعل موسى من قتل للفرعوني، خرج موسى من المدينة خائفًا يترقب، متجهًا إلى أن يصرف عنه كيد الظالمين، سار ثماني ليال قاصدًا بلاد مدين، فوجد في الطريق حشدًا من الناس قد تزاحموا على مورد للماء، كل منهم يعتمد على قدرته في التقدم والمسابقة إلى البئر، فرأى فتاتين تقفان في ناحية بعيدة عن بئر الماء في ضعف ومعهما غنماتهما، تقدم منهما وسأل أن يساعدهما، فأخبراه بأنهما لا تستطيعان مزاحمة الرجال وستنتظران حتى يذهب الرعاة من الرجال فيستقيا، ما كان منه إلا أن ساعدهما فاستقيا وعادتا مبكرتان إلى والدهما الشيخ، ولما سألهما والدهما عن ذلك، أخبرتاه بأن رجلاً صالحًا ساعدهما عند البئر، فأرسل الشيخ إحدى ابنتيه فاستدعت موسى إلى والدها لأجل أن يجزيه على ما فعل لهما، ذهبت الفتاة وقالت لموسى إن أبي يدعوك فذهب معها سائرًا أمامها وهي تتبعه وترشده حتى وصلا إلى بيت أبيها، تحدث الشيخ مع موسى فأعجب به وعرض عليه أن يزوجه إحدى ابنتيه مقابل أن يعمل لديه في رعي الغنم لمدة محدودة فوافق.

بعد انقضاء المدة حن موسى إلى أهله واستأذن في العودة إلى بلده، فأخذ زوجته وعاد، فوجد أن فرعون قد طغى أكثر وتجبر ودار بينهما حوار، دعا موسى فيه فرعون إلى عبادة الرب فأبى واستكبر وقال إنه هو الرب، فتحاججا وتم استدعاء كل سحرة بلاد مصر لكي يحاججوا موسى فاجتمعوا فغلبهم جميعًا فاستشاط فرعون غضبًا أكثر خصوصًا وأن السحرة آمنوا برب موسى بعد أن رأوا من المعجزات، فراح فرعون يقتل أبناء بني إسرائيل ويستحيي نساءهم، وينزل بهم صنوف الظلم وألوان الأذى، فضجوا لاجئين إلى موسى، ليحميهم من أذى الكافر الجبار، وقالوا: يا موسى لقد أوذينا من قبل أن تأتينا ومن بعد ما جئتنا، فسكن موسى ثورتهم، وهدَّأ من روعهم، أما فرعون فقد خلص إلى ملأ من قومه من بني إسرائيل يأتمرون بموسى ليقتلوه، فغضب الله على فرعون ومن آمنوا به ربا، وأخذهم الله بنقصٍ في الأموال والأنفس والثمرات، فنضب معين النيل، وغاض ماؤه، وقل غناؤه، وقصر عن ري أرضهم، فنقصت ثمراتهم، وذوى عود خيرهم، ثم أغرقهم الطوفان من مطر السماء، فأضر بما بقي من الزرع والضرع، ثم زحف عليهم جراد أكل الثمار والأزهار، واستولى عليهم القمل، فأقض مضاجعهم، وأقلق رقادهم، وابتلوا بالضفادع، فنغصت عيشهم، واحتشد جمعها في طعامهم وشرابهم وبين ملابسهم، وسلط عليهم الرعاف من أنوفهم، ثم محق الله أموالهم وأهلكها جزاء خطيئاتهم وكفرهم، فصحوا إلى رشدهم وآمنوا بالله مع موسى، والتمسوا الفرار من أرض مصر معه طلبًا للسلامة، وبُعدًا عن القوم الظالمين!

سار بهم موسى أول الليل في اتجاه الأرض المقدسة، وقد سهل الله إليها طريقهم فساروا حثيثًا، يدفعهم الخوف، ويعصمهم الإيمان، حتى قطعوا رقعة اليابسة المصرية، وإذا بهم أمام بحرٌ لجي يقف سدًا منيعًا دون غايتهم، وحائلاً دون أمنيتهم، فساورهم القلق، واستولى عليهم الجزع، وتوزع نفوسهم الروع والفزع، أو ليسوا هم المطلوبون لفرعون وجنوده؟ وهو الذي يجِّدُ في السير للحاق بهم، ويمعن في الطلب حتى ليوشك أن يقترب منهم، لأنهم على زعمه عبيد وأتباع

مارقون، وكان قد جيَّش جيشه وحشد خيله والمشاة وسار وراء موسى ومن تبعه حتى صار منهم قاب قوسين أو أدنى، هنا سمع صوت يجأر كما تنبعث الهيعة الصاخبة وسط المفازة المترامية، فيه عتب وفيه لوم وفيه استنجاد، وفيه يأس، وكان صاحب الصوت يوشع بن نون، من قوم موسى، قال: يا كليم الله، أين تدبيرك؟ ها قد دهمتنا غوائل القدر، فالبحر أمامنا والعدو وراءنا، وليس لنا من الموت محيص ولا مفر، فقال موسى: لقد أمرت بالبحر، ولعلي أومر الآن بما اصنع.

أوحى الله إلى موسى: أن اضرب بعصاك البحر.. فضربه، وإذا اثنا عشر طريقًا لأثنى عشر سبطًا، لكل سبط طريق، وإذا الشمس والريح يهيئهما الله، فتجف هذه الأرض، وتمهد تلك السبل، وإذا القوم يسيرون آمنين في رعاية الله الكبير المتعال، وإذا ربهم يؤمن رسولهم، لما وصل فرعون وجنوده إلى المكان، فإذا سبل البحر ممهدة أمامهم فيها يسيرون ومنها إلى بني إسرائيل يصلون، فانتفخت أوداجهم وأعماهم غرورهم، وتاهوا في ضلال الصلف والإعجاب، فقال فرعون لجنوده: انظروا إلى البحر كيف انفلق طوعًا لأمري وانصياعًا لإرادتي، حتى أدرك هؤلاء الخارجين!! وكأنها كانت معجزة لفرعون في نظر أصحابه الضالين فتقووا بقوته واطمأنوا لنصرته، ثم اندفعوا إلى مسالك البحر، وقد لجت بهم العجلة طلبًا لبني إسرائيل، ولم يكادوا يصلون إلى عرضه حتى انطبق عليهم فأغرقهم أجمعين، فصاروا مثلاً للآخرين.

أمر الله موسى بعد أن نجَّاه أن يطَّهر، وأن يصوم ثلاثين يومًا، ثم يأتي إلى طور سيناء حتى يكلمه ربه، فيتلقى أمره في كتاب يكون لهم المرجع والمآب، اختار موسى من قومه سبعين رجلاً ثم ذهب لميقات ربه ولكنه تعجل فسبقهم إلى الطور، فوصل بعد ثلاثين ليلة، وقد تأخر عنه المختارون من قومه، حينئذ سئل عن الأمر الذي بعثه على الإسراع والعجلة، فقال: هم أولاء على أثري، وعجلت إليك رب لترضى. فأمِرَ بأن يتم ميقات ربه أربعين ليلة.

لم يكن على عهد بني إسرائيل قومٌ حباهم الله الخير وأفاض عليهم النعمة وآثرهم بالبركات مثل هؤلاء القوم، نجاهم الله من آل فرعون بعد أن ساموهم العذاب دهرًا ثم عاد فأهلك فرعون على أيديهم، وبين أسماعهم وأبصارهم، ثم جعلهم بعد ذلك أحرارًا بعد أن كانوا عبيدًا أذلاء، وقد كانوا ضلالاً جهلاء، وفجَّر لهم الصخر وأنزل عليهم المن والسلوى، وآتاهم ما لم يؤت أحدًا من العالمين، إلا أن بني إسرائيل كان لهم سلوك مشين مع النبي موسى فغضب الله عليهم على ما صنعوا وما ضلوا فأتاههم في الصحراء أربعين سنة حتى أعاد تربيتهم النبي موسى من الأجيال الجديدة، وقاموا بغزو فلسطين بقيادة يوشع بن نون.

* عام ١٢٥٠ ق.م كان التغلغل العبراني في أرض كنعان تحت قيادة يوشع بن نون، وبداية حكم القضاة (حتى ١٠٢٠ ق.م). يوشع بن نون حسب التوراة هو يوشع بن نون بن أفرايم بن يوسف بن يعقوب بن إسحق بن إبراهيم الخليل عليهم السلام، يشوع بن نون كان خادمًا للنبي موسى، وبعد وفاة موسى تسلم يشوع زمام قيادة الأمة، وأصبح قائدًا لبني إسرائيل طوال الحقبة التي تم فيها الاستيلاء على مدينة القدس "أورشليم" وعلى معظم أرض كنعان، وهو من عبر ببني إسرائيل من التيه في صحراء سيناء ودخل بهم بيت المقدس (أورشليم) بعد حصار وقتال شديد، هذا ويقع قبره في منطقة في ضواحي مدينة السلط بغرب الأردن تعرف باسم "النبي يوشع".

* الفترة ١٠ إلى ٨ ق.م. كان مولد المسيح، انتشار المذاهب الغنوصية (العرفانية) في الشرق الأدنى القديم، وخصوصًا في المدن الهيلينية التي تضم جماعات يهودية.

* عام ٧٣ م كان سقوط مساده التي يُقال إن المحاصرين فيها آثروا الانتحار على الاستسلام، على عكس القوات اليهودية في القلاع الأخرى، وعن المساده هناك توضيح أوسع من هذا لاحقًا.

* وفي عام ٣٤٠ م تَزايد أعداد يهود الفلاشاه في إثيوبيا، في القرن الرابع قبل أن تعتنق أسرة أكسوم الحاكمة الديانة المسيحية.

* عام ٣٥٩ م تدوين التقويم الدائم الخاص باليهود، وظهور قبائل الخزر على مسرح التاريخ الأوربي.

* عام ٤٩٩ م الصياغة "النهائية" للتلمود البابلي، ومع هذا لم يأخذ التلمود شكله الكامل ولم يدوَّن تدوينًا نهائيًا إلا في القرن السابع، بل إن هناك نظرية تذهب إلى أن التلمود لم يأخذ شكله النهائي إلا في العصر الإسلامي.

* في الفترة (٥١٧ - ٥٢٥ م)، ذو نواس أحد ملوك حمير في جنوب الجزيرة العربية، يعتنق اليهودية.

* في عام ٥١٧ م تَحوُّل أعضاء الجماعات اليهودية في الغرب عن الزراعة إلى التجارة، واشتغلت هذه الجماعات بالتجارة والأمور المالية على نطاق محلي ودولي، وذلك لحركتهم بين الغرب المسيحي والشرق المسلم.

* عام ٦٠٠ م قبائل الخزر تبدأ الهيمنة على جنوب روسيا، وعدد يهود العالم يتراوح بين مليون ومليونين غالبيتهم في العالم الإسلامي.

* عام ٦١٢ م كان بداية اضطهاد اليهود في أسبانيا (التي كانت تحت حكم القوط الغربيين)، ويصل الاضطهاد إلى قمته مع تحريم اليهودية.

* عام ٦٣٨ م الفتح الإسلامي لفلسطين.

* عام ٩١٥ م بداية تَركُّز اليهود في حرفة الربا، عن كتاب الدكتور عبد الوهاب المسيري - الجماعات الوظيفية اليهودي – عرض إبراهيم غرايبة – "لماذا وكيف تحول اليهود إلى جماعات وظيفية؟ لقد كان العبرانيون منذ بداية ظهورهم في التاريخ جماعة وظيفية فقد عمل بعضهم جنودًا مرتزقة لدى الدول والممالك المحيطة كما في مصر الفرعونية والبطليمية وسوريا السلوقية، وقد أسر مئات الآلاف منهم وهجروا إلى بابل وآشور وتخصصوا هناك في وظائف بعينها دون غيرها، وبعد التهجير البابلي بدءوا يعملون بالزراعة والصرافة وبعضهم تحول إلى جماعات قتالية واستيطانية، وكانت القوى الإمبراطورية الصاعدة في الشرق الأوسط تتحالف مع الجماعات اليهودية وتجندهم كمرتزقة وجواسيس، وكانت فكرة الوطن الأصلي لدى اليهود سببًا في إضعاف علاقتهم بوطنهم الجديد وعزلتهم عن مجتمعاتهم، وكانت الطبيعة الطائفية لليهود وضرورة القيام

بالشعائر الدينية سببًا في تجمعهم معًا في المدن، فزاد عملهم في التجارة وتبلور وضعهم كجماعة وسيطة تجارية أو مالية، وتسارعت عمليات تحويل اليهود إلى جماعات وظيفية بدءًا بالقرن التاسع الميلادي، وبدءوا يعملون لدى النبلاء في التجارة والربا وجمع الضرائب، واشتغلوا بالتجارة الدولية مع العالم الإسلامي في المنسوجات والتوابل والرقيق والصيرفة، واشتغلوا بالحرف التي تتطلب مهارة فنية مثل الزجاج والصباغة والذهب والجلود والخمور، ومع حلول القرن الثالث عشر الميلادي أصبح ذلك هو الوضع القانوني والاقتصادي لمعظم الجماعات اليهودية في أوروبا الإقطاعية".

* عام ٩٦٥ م الأمير الروسي "سفياتوسلاف" يقضي على دولة الخزر، لكن الشعب الخزري يستمر في هذه المنطقة، ثم تبدأ هجرته إلى المجر وبولندا وغيرهما من الدول فيما يُسمَّى باسم الدياسبورا الخزرية.

* عام ١٠٩٦ م كانت حملة الفرنجة الأولى (١٠٩٦ - ١٠٩٩ م) ووقوع القدس في أيديهم (١٠٩٩ م)، فلسطين بأسرها تحت حكم الفرنجة في الفترة ١٠٩٩ - ١٢٩١ م باستثناء فترات قصيرة.

* عام ١١٨٧ م معركة حطين، "صلاح الدين الأيوبي" يدخل القدس يوم الجمعة الموافق ٢٧ رجب سنة ٥٣٨ هجرية.

* في عام ١٢٩١م تمت هزيمة الصليبيين على يد المسلمين في عكا ورحلوا عن فلسطين.

* عام ١٤٣٩ م طرد اليهود من أوجسبرج في ألمانيا، والسلطان العثماني يرحب باليهود المطرودين من شبه جزيرة أيبريا باعتبارهم عنصرًا تجاريًا وحرفيين.

* عام ١٥١٧ م الفتح العثماني لمصر وفلسطين، ويستمر الحكم العثماني في مصر وفلسطين حتى الحرب العالمية الأولى.

* تمت أول طبعة كاملة للتلمود في البندقية (١٥٢٠ - ١٥٧٢م).

* عام ١٦٥٨ م اليهود يستقرون في نيويورك وفي "رود أيلاند" بالولايات المتحدة، والسماح لليهود بالاستيطان في بروسيا (ألمانيا).

* عام ١٧٧٤ م كان نجاح تحالف العبيد السود والسكان الأصليين، بعد ثورة دامت نحو اثنين وثمانين عامًا، تم فيها القضاء على الجيب الاستيطاني اليهودي في برزدينتس أيلاند في سورينام (أحد مشاريع الاستيطان اليهودي).

* عام ١٨٢٥ م مشروع أرارات لتوطين اليهود في الولايات المتحدة، وفي نفس التاريخ نيقولا الأول قيصر روسيا يأمر بتجنيد الشباب اليهودي وتسجيلهم.

* عام ١٨٥٨ م ليونيل روتشيلد يصبح أول عضو يهودي في البرلمان الإنجليزي.

* عام ١٨٧٨م تم إنشاء أول مستوطنة يهودية في فلسطين (بتاح تكفا).

* عام ١٨٩٣ م الأحزاب المعادية لليهود تحصل على ٢٥٠ ألف صوت في الانتخابات النيابية الألمانية، وتُمثَّل في الرايخستاج (البرلمان).

* في عام ١٨٩٦ م تم نشر كتاب دولة اليهود لهرتزل (١٨٦٠ - ١٩٠٤م).

* عام ١٨٩٧ م المؤتمر الصهيوني الأول، وقد عقد في بازل بسويسرا حيث تم تأسيس المنظمة الصهيونية العالمية، والقرار بتشجيع الاستيطان الصهيوني في فلسطين، وتيدور هرتزل يرأس المنظمة حتى وفاته.

* عام ١٨٩٨م المؤتمر الصهيوني الثاني، وقد عقد في بازل (٢٨-٣١ آب ١٨٩٨ م). وركز اهتمامه على كيفية إدخال الفكرة الصهيونية في أوساط الجاليات اليهودية في مختلف أنحاء العالم، وعن إقامة صندوق الاستيطان.

* عام ١٨٩٩ م المؤتمر الصهيوني الثالث، وعقد في بازل (١٥-١٨ آب ١٨٩٩ م)، وناقش مشروع بازل الذي تقدم به هرتزل في المؤتمر الأول.

* عام ١٩٠٠ م المؤتمر الصهيوني الرابع، وعقد في مدينة لندن (١٣-١٦ آب ١٩٠٠ م)، وناقش الترحيل الجماعي ليهود رومانيا، وأيضًا الضائقة التي يعاني منها العمال اليهود في فلسطين، وانتشار البطالة في فلسطين.

* عام ١٩٠١ م المؤتمر الصهيوني الخامس، عُقد في بازل (٢٦-٣٠ كانون الأول ١٩٠١) وصدر قرار بالإجماع على إقامة (الكيرن كييمت) وهو يهتم بمصالح اليهود في دولة إسرائيل.

* عام ١٩٠٣ م المؤتمر الصهيوني السادس، وعقــد فــي بـــازل (٢٣-٢٨ آب ١٩٠٣ م)، ويعتبر هذا المؤتمر من أصعب المــؤتمرات الصــهيونية الأولــى، إذ عُرض فيه مشروع أوغندا على يد الحكومة البريطانية، وتمسك به هرتزل كحــلّ مؤقت، ووافق على المشروع ٢٩٥ مندوبًا، بينما عارضه ١٧٨ مندوبًا.

* عام ١٩٠٥ م المؤتمر الصهيوني السابع، عقد في بازل (٢٧ تمــوز - ٢ آب ١٩٠٥)، وهو أول مؤتمر يُعقد بعد وفاة هرتزل، وتم اختيــار ديفيــد ولفســون رئيسًا للمنظمة الصهيونية العالمية.

* عام ١٩٠٧م المؤتمر الصهيوني الثامن، عقد في هاج في هولنــدا (١٤ -٢١ آب ١٩٠٧) وطالب فيه وايزمان دمج الصهيونية السياسية مع الجانب العملي في الصهيونية ألا وهو الاستيطان في (أرض إسرائيل)، وطرحت في هــذا المــؤتمر مسألة العامل العبري في أرض إسرائيل.

* عام ١٩٠٧ م تأسيس المنظمة العسكرية الصهيونية بار جيورا فــي فلســطين كنواة لقوة عسكرية يهودية، تأسيس مكتب فلسطين في يافا، وهي وكالة مركزية للاستيطان اليهودي، تحت إدارة آرثر رءوبين.

* ١٩٠٩ م المؤتمر الصهيوني التاسع، عقد في هامبورغ في ألمانيــا (٢٦-٣٠ كانون الأول ١٩٠٩) وشارك فيه لأوّل مرة مندوبون عن الأحزاب العماليــة فــي فلسطين.

* عام ١٩١١ م المؤتمر الصهيوني العاشر، عقد في بـــازل (٩-١٥ آب ١٩١١) وعالج مسألة العمل في الأوساط اليهودية في فلسطين.

* عام ١٩١٣ م المؤتمر الصهيوني الحادي عشر، عقد في فيينا في النمسا (٢-٩ أيلول ١٩١٣) وطرح فيه كل من أوسيشكين ووايزمان مشروع إقامة جامعــة عبرية في القدس.

* عام ١٩١٧ م تصريح (وعد) بلفور في نوفمبر متضمنًا موافقة الإمبراطورية البريطانية، أكبر قوة استعمارية في الشرق الأوسط على إقامة وطن قومي لليهود في فلسطين دون المساس بالحقوق المدنية والدينية "للجماعات غير اليهودية" الموجودة فيها، أي العرب الذين كانوا يشكلون ٩٠ % من السكان، وفي نفس العام القوات البريطانية بقيادة اللنبي تحتل مدينة القدس في ديسمبر وتَبسُط سيطرتها على سائر فلسطين، وفرنسا وإيطاليا توافقان رسميًا على فحوى وعد بلفور، وهو ما يعني قبول التشكيل الحضاري الغربي عملية الاستيطان الإحلالي الصهيوني، وتم تشكيل أقسام يهودية في الحزب الشيوعي الروسي، وقد ألغيت عام ١٩٣٠م.

* عام ١٩٢١ م المؤتمر الصهيوني الثاني عشر، عقد في كارلسباد في تشيكوسلوفاكيا (١-١٤ أيلول ١٩٢١ م)، وعقد هذا المؤتمر بعد سلسلة من الأحداث المهمة والمصيرية، منها انتهاء الحرب العالمية الأولى، وصدور تصريح بلفور.

* عام ١٩٢٣ م المؤتمر الصهيوني الثالث عشر، وقد عقد في كارلسباد في تشيكوسلوفاكيا (٦-١٨ آب ١٩٢٣)، أقر مشروع افتتاح الجامعة العبرية في القدس.

* عام ١٩٢٤ م إلغاء الخلافة العثمانية والمحاكم الشرعية والمدارس الدينية.

* عام ١٩٢٥ م المؤتمر الصهيوني الرابع عشر، عقد في فيينا (١٨-٣١ آب ١٩٢٥ م)، ركز على شئون الهجرة اليهودية إلى فلسطين.

* عام ١٩٢٧م المؤتمر الصهيوني الخامس عشر، عقد في بازل (٣٠ آب - ١١ أيلول ١٩٢٧)، جرى فيه بحث ما تعرض له المهاجرون اليهود إلى أزمات اقتصادية كبيرة أثَّرت على مجرى حياتهم.

* عام ١٩٢٩ م المؤتمر الصهيوني السادس عشر، عقد في زيوريخ في سويسرا (٢٩ تموز - ١٠ آب ١٩٢٩)، وجرى فيه التباحث في الظروف الجيدة التي تمتعت بها الهجرة اليهودية الخامسة إلى فلسطين.

* عام ١٩٢٩ م انهيار سوق الأوراق المالية في ألمانيا وبداية فترة الكساد الكبير، فشل المحاولات الرامية للقضاء على الكساد، والحرب العالمية الثانية وحدها هي التي وضعت نهاية له.

* عام ١٩٣١ م المؤتمر الصهيوني السابع عشر، عقد في بازل (٣٠ حزيران - ١٥ تموز ١٩٣١)، في ظل الصدامات بين اليهود والفلسطينيين في فلسطين، وكذلك معارضة المؤتمر للنصّ المتعلق بالهدف النهائي للصهيونية كما طرحه الصهيونيون العموميون بقيادة زئيف جابوتنسكي، ولما رأى جابوتنسكي ومؤيدوه الموقف العام في المؤتمر قاموا بتمزيق بطاقات عضويتهم.

* عام ١٩٣٣ م المؤتمر الصهيوني الثامن عشر، عقد في براغ في تشيكوسلوفاكيا (٢١ آب - ٤ أيلول ١٩٣٣)، وانعقد في ظل صعود النازية بقيادة هتلر إلى الحكم في ألمانيا.

* عام ١٩٣٥ م المؤتمر الصهيوني التاسع عشر، عقد في لوتزرن في سويسرا (٢٠ آب - ٤ أيلول ١٩٣٥)، أعيد انتخاب الدكتور حاييم وايزمان رئيسًا للمنظمة الصهيونية العالمية.

* عام ١٩٣٦ م الانتفاضة الفلسطينية الكبرى ضد الاحتلال البريطاني والمستوطنين الصهاينة، أطول عصيان مدني في التاريخ (١٩٣٦-١٩٣٩م) الثورة العربية بقيادة المفتي الحاج أمين الحسيني.

* عام ١٩٣٧ م المؤتمر الصهيوني العشرون، عقد في زيوريخ (٣-١٦ آب ١٩٣٧)، وبحث في اقتراح الحكومة البريطانية إرسال لجنة ملكية للبحث في أحوال فلسطين وطرح توصياتها وخاصة فكرة تقسيم فلسطين.

* عام ١٩٣٩ م المؤتمر الحادي والعشرون، عقد في جنيف في سويسرا (١٦- ٢٥ آب ١٩٣٩)، وبحث في (الكتاب الأبيض) الصادر عن الحكومة البريطانية.

* عام ١٩٤٢م برنامج مدينة بلتمور بالولايات المتحدة الأمريكية، وهنا تم عقد مؤتمر صهيوني استثنائي في الثامن من مايو ١٩٤٢م في فندق "بلتمور" بنيويورك، وحضره ممثلون عن الهيئات والمنظمات الصهيونية بالإضافة إلى زعماء الصهيونية مثل "وايزمان" "وبن غوريون"، و"ناحوم جولدمان"، وغيرهم، واتخذ المؤتمر عددًا من القرارات عُرفت ببرنامج "بلتمور" وأصبح هذا البرنامج هو السياسة الرسمية للصهيونية وحتى قيام دولة إسرائيل، أهم ما جاء في هذا المؤتمر تحقيق أغراض وعد بلفور، وحق اليهود في تشكيل قوة عسكرية يهودية، وتبنى المؤتمر الأهداف الحقيقية التي كان قد أضمرها كل من بن جوريون وحاييم وايزمان.

* عام ١٩٤٤ م تشكيل اللواء اليهودي للقتال في صفوف القوات البريطانية.

* عام ١٩٤٧ م قرار الأمم المتحدة بتقسيم فلسطين رقم ١٨١.

* عام ١٩٤٨م انعقاد الكنيست الأول، تم إعلان دولة إسرائيل، حاييم وايزمان أول رئيس لإسرائيل، وبن جوريون يرأس الحكومة، وانضمام إسرائيل إلى الأمم المتحدة.

* عام ١٩٤٩م المؤتمر الصهيوني الثاني والعشرون، عقد في بازل (٩-٢٤ كانون الأول ١٩٤٩م) وفيه تم رفض مشروع موريسون بتقسيم فلسطين إلى ثلاثة مناطق، واحدة عربية وأخرى يهودية وثالثة بريطانية.

* عام ١٩٥١م المؤتمر الصهيوني الثالث والعشرون، عقد في القدس (١٤-٣٠ آب ١٩٥١)، وبحث في وضعية المنظمة الصهيونية العالمية وعلاقاتها مع دولة إسرائيل.

* عام ١٩٥١م صدور قانون العودة الذي يمنح الجنسية لأي يهودي فور وصوله إلى إسرائيل.

* ١٩٥٢م اتفاقية التعويضات بين ألمانيا وإسرائيل (أديناور - جولدمان)، التي تدفع ألمانيا بمقتضاها مليارات الدولارات تعويضًا عما اقترفه النازي في حق اليهود.

* عام ١٩٥٦م المؤتمر الصهيوني الرابع والعشرون، عقد في القدس (٢٤ نيسان - ٧ أيار ١٩٥٦) وأبرز ما طرح في هذا المؤتمر هو كيفية تجنيد الأموال والتبرعات لدعم أمن إسرائيل في مواجهة ما أسموه استعدادات جيوش الدول العربية للحرب.

* عام ١٩٦٠م المؤتمر الصهيوني الخامس والعشرون، عقد في القدس (٢٧ كانون الأول ١٩٦٠ - ١١ كانون الثاني ١٩٦١)، جرى البحث في المشاكل والعقبات التي تعترض طريق استمرار الهجرة اليهودية من بلدان كثيرة في العالم إلى إسرائيل.

* عام ١٩٦٤ م المؤتمر الصهيوني السادس والعشرون، عقد في القدس (٣٠ كانون الأول ١٩٦٤ - ١١ كانون الثاني ١٩٦٥) وبحث المؤتمر في الطرق الكفيلة بتعميق نشر اللغة العبرية والثقافة العبرية في أوساط الجاليات اليهودية المتبقية في العالم.

* عام ١٩٦٨ م المؤتمر الصهيوني السابع والعشرون، عقد في القدس (٩-١٩ حزيران ١٩٦٨)، وتم فيه إعادة صياغة (مشروع يروشلاييم) من جديد إثر احتلال الجيش الإسرائيلي مدينة القدس وإعلان الحكومة الإسرائيلية عن توحيد شطري القدس.

* ١٩٧٠م وفاة الرئيس المصري جمال عبد الناصر، أنور السادات يتولّى رئاسة مصر، عام ١٩٧٩م توقيع معاهدة السلام بين مصر وإسرائيل في مارس، وتَبادُل العلاقات والسفراء.

* عام ١٩٧٢م المؤتمر الصهيوني الثامن والعشرون، عقد في القدس (١٨-٢٨ كانون الثاني ١٩٧٢)، وبحث في قضايا الهجرة من الاتحاد السوفييتي.

* عام ١٩٧٨ م المؤتمر الصهيوني التاسع والعشرون، عقد في القدس (٢٠ - ٢٨ شباط ١٩٧٨) وبحث في مفهوم الصهيونية في العصر الحاضر ومسائل التربية والتعليم في أوساط الجاليات اليهودية في العالم، وأعلن المؤتمر أن الحركة الصهيونية هي حركة تحرر وطني.

* المؤتمرات الصهيونية من الثلاثين إلى الثاني والثلاثين، وعقــدت كلّهــا فــي القدس وبُحثت فيها مسائل تتعلق بتعميق الهجرة إلى إســرائيل، خصوصًــا مــن الجمهوريات السوفييتية السابقة، وأبرز المؤتمر الثاني والثلاثين العــام ١٩٩٢م أهمية الهجرة إلى إسرائيل، وفي واقع الأمر فإن المهاجرين فــي أغلبيــتهم لــم يكونوا من اليهود، إنما من الروس الذين وجدوا في الهجرة إلى إسرائيل مــلاذًا من الظروف المعيشية القاسية التي يعيشون فيها في بلادهم الأصلية.

* عام ١٩٩٧م المؤتمر الصهيوني الثالث والثلاثون، عقــد فــي القــدس العــام ١٩٩٧ وسط الاحتفال بالمئوية الأولى لتأسيس المنظمة الصهيونية العالمية.

* عام ١٩٩٣م عقد مفاوضات أوسلو (السرية) بين الفلسطينيين والإسرائيليين، وتوقيع اتفاقية غزة وأريحا - أولاً.

* عام ١٩٩٤م الأردن توقع معاهدة سلام.

نجمة داود:

يوجد الكثير من الجدل حول قدم معنى رمز نجمة داود، هناك تيــار مقتنــع بــأن اتخاذ هذا الشعار كرمز لليهود يعود إلى زمن النبي داود عليه السلام، ولكن هناك بعض الأدلة التاريخية التي تشير إلى أن هذا الرمز قد استخدم قبل اليهود كرمــز للعلوم الخفية التي كانت تشمل السحر والشعوذة، وإن هذا الرمز حديث مقارنــة بالشمعدان السباعي الذي يعتبر من أقدم رموز بني إسرائيل، ونجمة داود تســمى أيضًا بخاتم سليمان وتسمى بالعبرية "ماجين داويد" بمعنى "درع داود" وتعتبر من أهم رموز هوية الأمة اليهودية.

النجمة السداسية رمز قديم كما أشرنا، ويقال بإنه يعــود للأســاطير الهندوســية القديمة التي ترمز لـــ "براهما" خالق الكون الأول، والنجمة الهندوسية مركبة من مثلثين معكوسين، المثلث الصاعد، الرمز الذكري والمثلث النازل الرمز الأنثــوي، يمثل المثلثين جوهر الوجود الذي خلقه (براهما)، وفي عقائد الشريعة اليهوديــة

ترمز النجمة السداسية إلى الأيام الستة التي خلق فيها الله الكون، كما ورد في الإصحاح الأول من سفر التكوين في العهد القديم، ويمثل اليوم السابع قلب النجمة السداسية، وغالبًا ما تُعرف النجمة السداسية بنجمة داود، ولكن ما علاقة هذا الرمز بداود؟ وما معناها الحقيقي؟ ولماذا وُضِعَت على علم إسرائيل؟

النجمة السداسية تعتبر من أهم وأقوى الرموز في علوم السحر والشعوذة، وكانت الديانات الوثنية القديمة تقدس الارتباط بين الذكر والأنثى، وكانت تربط الجنس ببعض طقوسها الدينية، خاصة طقوس عبادة نمرود وسميراميس، أو عشتار وبعل، أو أفروديت فينوس وباخوس، وما زالت هذه الممارسات مستمرة حتى الآن في الديانات الوثنية الحديثة وعبادات الشيطان.

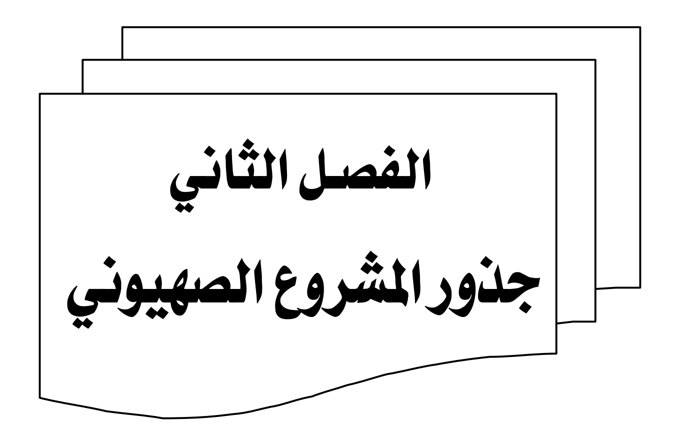
أما في الحقيقة فإن هناك إجماع على أن الجذور العميقة لرمز النجمة السداسية تعود إلى قرون من الزمن سبقت بداية تبني هذا الرمز من قبل اليهود، ولا يمكن تحديد البداية الفعلية لاستعمال هذا الرمز على وجه الدقة، ولكن هناك مؤشرات على استعمالاته في التاريخ، فقد استعمل الرمز في الديانة المصرية القديمة فكانت النجمة السداسية رمزًا هيروغليفيًا لأرض الأرواح، وحسب المعتقد المصري القديم فإن النجمة السداسية كانت رمزًا للإله الذي وحسب المعتقد كان أول إنسان تحول إلى إله وأصبح اسمه "حورس"، وهناك من يعتقد أن بني إسرائيل استعملوا رمز النجمة السداسية مع العجل الذهبي عندما طالت غيبة موسى عليهم في جبل سيناء أثناء تسلمه الوصايا العشر، فقامت مجموعة من بني إسرائيل بالعودة للرموز الوثنية التي كانت شائعة في مصر آنذاك.

واستنادًا إلى روايات غير موثقة فإن الدرع الذي استعمله الملك داود في المعارك في شبابه كان درعًا قديمًا وقام بلفه بشرائط من الجلد على هيئة النجمة السداسية، ورواية أخرى تقول إن رمز النجمة السداسية هو رمز تحرير اليهود من العبودية بعد أربعمائة سنة قضوها في مصر، فالشكل المثلث للهرم يدل على التصوير الشامل للسلطة، أما الهرم الآخر المقلوب فيعني الخروج عن هذه السلطة.

يقال إن أقدم دليل أثري تم العثور عليه لحد هذا اليوم هو عبـــارة عـــن وجـــود النجمة السداسية على شاهد قبر في مدينة "تارانتو" في الجزء الشرقي من جنوب إيطاليا والذي يعتقد أنها تعود إلى القرن الثالث بعد الميلاد، ويعتقد بعض الباحثين أن ارتباط النجمة السداسية باليهود قد يرجع إلى الملك سليمان الذي خلف الملك داود حيث اشتهر سليمان بتعدد زوجاته وكانت إحداهن من مصر، ومن المحتمـــل أن هذه الزوجة قد لعبت دورًا في انتشار النجمة السداسية التـــي كانـــت رمـــزًا هيروغليفيًا لأرض الأرواح حسب معتقد قدماء المصـــريين، وعـــن الموســـوعة الحرة، فقد تم العثور على أقدم نسخة من الكتاب المقدس اليهودي فـــي مدينـــة "سانت بطرس بيرج"، ويرجع تاريخ هذا الكتاب إلى عام ١٠١٠م وغـــلاف هـــذا الكتاب مزين بنجمة داود، وتم العثور أيضًا على مخطوطة قديمة للكتاب المقـــدس اليهودي المعروف باسم "التناخ" في طليطلة ترجع إلى عـــام ١٣٠٧م، وقـــد تـــم تزيين هذه المخطوطة بالنجمة السداسية.

هذا، واختارت الحركة الصهيونية عام ١٨٩٧م نجمة داود رمزًا لهـــا، واقتـــرح "تيدور هرتزل" في أول مؤتمر صهيوني في مدينة بازل أن تكـــون هـــذه النجمـــة رمزًا للحركة الصهيونية بل أيضًا رمزًا لدولة اليهود مستقبلاً، وبعد إعلان دولـــة إسرائيل بستة أشهر قرر مجلس الدولة المؤقـــت بتـــاريخ ٢٨ أكتـــوبر ١٩٤٨م اعتماد نجمة داود كشعار على العلم الإسرائيلي.

من الجدير بالذكر أن اليهود الأرثوذكس يرفضون اعتبار نجمة داود رمزًا للشعب اليهودي، وذلك لكونها رمزًا ذو علاقة بالسحر والشعوذة القديمة أو مـــا كانـــت تُسمى العلوم الخفية، غير أن الألماني واســـم عائلتـــه "روتشـــيلد" التـــي تعنـــي بالألمانية العلامة الحمراء أو الدرع الأحمر وكان على شـــكل نجمـــة سداســـية، أصبحت سلالته هي المسيطرة على أضخم بنوك ومؤسسات أوروبا المالية، وهي التي مولت الحروب والتي خططت للثورات الكبرى بالعالم بعد تمويلها وإنشـــاءها للنورانيين، تلك المؤسسة أو العائلة التي حكمت أوروبا وبعدها أميركا كما سنُبين في أعماق صفحات هذا الكتاب.



الفصل الثاني
جذور المشروع الصهيوني

لقد قام المشروع الصهيوني بناء على فكرة إقامة وطن قومي لليهود في فلسطين، بدعوى أنها أرض بلا شعب لشعب بلا أرض، وكان الهدف من ذلك هو حل المسألة اليهودية في العالم، وذلك بالاستناد للأساطير والادعاءات التوراتية، وحينما وجدت الفرصة، أعطت الصهيونية لليهودية قيمة تبيح في سبيلها كل شيء، بما في ذلك الاستيلاء على أرض الغير، ومحو الشعب الآخر من الأرض والتاريخ، أي من الزمان والمكان، وبذلك اعتبرت اليهودية بمثابة نسق استثنائي فريد فوق الجغرافيا والتاريخ والثقافة، فهي بالنسبة للصهيونية ليست مجرد دين وإنما هي قومية أبدية!

هكذا قامت الصهيونية، التي يفترض بأنها علمانية، استخدمت الدين اليهودي باعتباره رابطة قومية تصهر جميع اليهود في مختلف الثقافات فثمة شعب يهودي وقومية يهودية فقط، وهكذا كانوا يريدون، لقد نظر تيودور هيرتزل مؤسس الصهيونية إلى الدين اليهودي باعتباره بمثابة السجاد الثمين الذي يُسهِّل العبور إلى القومية ومقاومة توطين اليهود في البلاد التي يقيمون فيها، قال هرتزل في هذا، "سوف يقوم حاخاماتنا بتكريس جهودهم وطاقاتهم لخدمة فكرتنا، وسوف يغرسونها في نفوس الرعية اليهودية عن طريق الوعظ والإرشاد من منابر الصلاة، لن نسمح إذن بظهور أية نزاعات".

اعتبر ديفيد بن جوريون، أول رئيس حكومة لإسرائيل، أن الدين، "وسيلة مواصلات فقط، ولذلك يجب أن نبقى فيها بعض الوقت لا كل الوقت"، بمعنى أن الصهيونية كانت لا تريد أن تحكم الدولة بالدين، لكن جنين الدولة الصهيونية (إسرائيل) مر بفترة مخاض، سنرى كيف خرج إلى النور.

لهذا سنرى لماذا اهتمت أوروبا بترحيل اليهود إلى مكان خاص بهم، ولماذا سعى مفكروا اليهود وزعمائهم وأغنيائهم إلى التحالف مع أعداء السامية في أوروبا لإخراج العنصر اليهودي من أوروبا، ما الذي جعل اليهود يصحون على أنفسهم في القرن التاسع عشر الميلادي على وجه الخصوص لكي يشرعوا بطريقة غير عادية، ويبدأوا التفكير في البحث العملي عن وطن قومي؟ ما الذي دفعهم إلى

العمل السياسي المبرمج بعد أن انقطعت بهم السبل إلى فلسطين منذ منتصف القرن الثاني الميلادي؟ ما الذي يدفع يهود الخزر "الأشكناز" أو من أطلق عليهم يهود اليديشية، وهم غالبية يهود العالم إلى التفكير في دولة ووطن، بينما هم لا يرتبطون بفلسطين تاريخيًا على الإطلاق، فلا هم من نسل بني إسرائيل القدامى، ولا هم سكنوا فلسطين أصلاً.

إن ظهور البروتستانتية وانتشار "الصهيونية غير اليهودية" التي تؤمن بالتفسير الحرفي للتوراة، والتي تؤمن بأن اليهود سيجتمعون في فلسطين استعدادًا لعودة المخلص لكي يقوم بتنصيرهم، هو أحد الأسباب التي عملت على بعث الفكر العبري اليهودي، فقد ظهرت الكتابات المسيحية التي تدعو إلى تجميع اليهود في فلسطين لانتظار المخلص قبل تأسيس الحركة الصهيونية بسنين طويلة، من أمثال تلك الدعوة، ثورة القس "مارتن لوثر" (١٤٨٣ - ١٥٤٦م) على الكنيسة الكاثوليكية، ومنهم "إسحاق نيوتن" (١٦٤٣ - ١٧٢٧م)، و"جان جاك روسو" (١٧١٢-١٧٧٨م)، و"بريستلي" (١٧٣٣ - ١٨٠٤م) وغيرهم.

وكان للثورة الفرنسية أثر كبير على الحريات وحقوق الإنسان حينما انتشرت شعاراتها في أوروبا، وهو ما أوجد لليهود فرصة للراحة والتنعم بالمساواة في المجتمعات الملكية الأوروبية التي كانت أنظمتها الحاكمة قاسية على اليهود، لقد شهدت تلك الفترة تحطيم أنظمة الجيتو اليهودية، وتحسنت مكانة اليهود السياسية والاقتصادية والاجتماعية.

هذا، ولقد تأثر اليهود منذ أواخر القرن الثامن عشر بما يُعرف بحركة الاستنارة "الهيسكلا"، في أوساطهم، وكان أبرز مُنظّري الحركة "موسيس مندلسون" (١٧٢٦ - ١٧٨٦م)، وهو فيلسوف يهودي ألماني، لقد دعت حركة الاستنارة اليهود إلى الاندماج الكامل في المجتمعات التي يعيشون فيها حيث قد أصبح لهم علاقات برجال السياسة في الدول مثل بريطانيا وفرنسا والولايات المتحدة، ذلك بعد أن سيطروا على الحركة الماسونية، كما وتمكنوا من اختراق المؤسسات

العثمانية كـــ "حزب الاتحاد والترقي" الذي قام بإسقاط السلطان عبد الحميد الثاني الذي عارض الهجرة اليهودية إلى فلسطين.

إلا أن انتشار ظاهرة القومية في أوروبا حيث أصبح لكل مجتمع أوروبـــي هويـــة وطنية، جعل اليهود يبدون في مجتمعاتهم غرباء خصوصًا في ألمانيا التـــي كـــان لهم فيها بناء كبير (جالية كبيرة، نشاط اقتصادي، تغلغلهم في وظائف الدولـــة)، وهو ما جعل الحاخامات والأحبار والزعماء الدنيويين اليهود يبحثون عـــن حـــل، خصوصًا وأن مشكلة هجرة اليهود الروس إلى أوروبا الغربيـــة راحـــت تتكالـــب وتتعقد في تلك الفترة بسبب ازدياد العداء للسامية، لقد عملت كل هذه المحفـــزات مجتمعة أو متناقضة على ظهور فكر يهودي جديد يطمع في الوصول إلـــى أكثـــر من الحريات وحقوق الفرد في المجتمعات الأوروبية، فقـــد راح يهـــود أوروبـــا يتساءلون إذا كان كل بلد أوروبي له هوية عرقية ووطنية، فمـــاذا عـــن اليهـــود الذين لهم لغة ولهم دين، وهو ما يؤكد اختلافهم عن الآخرين، وافتـــرض بعـــض مفكريهم بأن الأمة اليهودية التي لها لغة ولها دين تختلف عن الآخرين ويلزمهـــا مكان لكي تجتمع فيه، بل وأدى ظهور العداء للســـامية إلـــى تفجيـــر المشـــكلة اليهودية على مستوى أوروبا، وأدى اشتراك اليهود في الحركات اليســـارية فـــي روسيا إلى ازدياد عداء السلطات القيصرية الروسية ضد اليهود، وزاد الطين بلة حينما تم اغتيال قيصر روسيا ألكسندر الثاني سنة ١٨٨١م حينما اتهم في ذلـــك اليهود أيضًا، فظهرت موجة عداء شاملة لليهـــود فـــي روســـيا أطلـــق عليهـــا اللاسامية، وصار التضييق على اليهود في روسيا من نـــواحي كثيـــرة فصـــدرت القوانين ضدهم..

اليهودي الذي يخرج من قريته لا يُسمح له بالعودة، وحق المـــواطنين الـــروس بطرد اليهود من قراهم، ومنع تشغيل اليهود في المناطق الريفية، واليهودي الذي يترك عمله ويشتغل بالتجارة تُلغى إقامته في روسيا، ومنع اليهود من الإقامة في موسكو، ومنعوا من حق الانتخاب في المجالس البلدية، كل هذا أدى إلى الهجـــرة الجماعية ليهود روسيا إلى أوروبا الغربية وأمريكا الشمالية، وأدى إلـــى ظهـــور

المشكلة اليهودية حيث بلغ عدد اليهود الذين غادروا قراهم خلال ثلاث وثلاثين سنة حوالي مليونين ونصف، كما أن العداء لليهود في أوروبا الغربية أدى إلى نشوء الحركة الصهيونية التي تحمس لها الكثيرون في أوروبا.

إن بروز العوامل الاستراتيجية والسياسية للقوى الكبرى في العالم، قد لفت نظر اليهود إلى إمكان الاستفادة بتلاقي المصالح الصهيونية مع مصالح هذه القوى، كان "نابليون بونابرت" أول زعيم دولة يعرض إقامة دولة لليهود في فلسطين خلال الحملة الفرنسية على مصر، وهو ما فتح عيون بريطانيا على مصر وفلسطين وجعلها تفتح قنصلية لحماية اليهود في فلسطين، كما أن الأهداف الاستراتيجية السياسية الغربية اهتمت بأن تعمل على وضع دولة وظيفية ذيلية غربية كحاجز بين عرب أفريقيا وعرب آسيا، فقد عاش العالم الإسلامي الذي بدأه العرب ثلاثة عشر قرنًا من الصراع والتنافس والحروب مع الغرب، وحان الوقت لإنهاء تلك الأسطورة، فكان السؤال البارز هو كيفية ضمان ألا تظهر قوة إسلامية كبرى تحل مكان الدولة العثمانية حال سقوطها، وتُهدد من جديد مصالح الغرب ومطامعه! لذلك كانت فكرة إيجاد مادة بشرية تربط عضويًا بالغرب تكون حاجزًا بين العرب في منطقتهم، وحين ذلك أدركت الصهيونية أن مشروع الدولة الصهيونية لن يُكتب له النجاح إلا إذا كان تحت حماية ورعاية دولة كبرى، ولا بد من إيجاد ميثاق دولي كعقد لضمان هذه الدولة فكان وعد بلفور عام ١٩١٧م.

الحركة الصهيونية:

لقد تعددت الاجتهادات والآراء ووجهات النظر في فهم أسباب إيجاد الحركة الصهيونية التي أدت إلى تأسيس المنظمة الصهيونية العالمية، ولا شك بأن اختلاف الآراء لم يسمح أبدًا بتلاقيها، إنما كان يقبل أحيانًا بالصمت أو التغاضي مؤقتًا، إلا إنه لم يتجاهلها، بعض الرؤى ما زالت تنظر إلى الحركة الصهيونية على أنها إفراز من إفرازات الاستعمار الغربي وأنها لا تخرج عن كونها إحدى أدواته، ويرى آخرون بأن الصهيونية ببساطة ما هي إلا وسيلة يهودية –

أوروبية لحل المشكلة اليهودية في المجتمعات الأوروبية، كما أن البعض يرى بأنها لا تتعدى أن تكون تعبيرًا عن الأماني الدينية أو القومية أو الثقافية لليهود، وهي عبارة عن نتيجة تفاعل الجاليات اليهودية في المجتمعات الغربية، وكثيرون أيضًا يعتبرون أن كثافة الهجرة اليهودية من روسيا وبولندا إلى أوروبا الغربية كانت السبب الرئيسي الذي أطلق شرارة معاداة السامية التي دفعت إلى البحث عن وسيلة فالحاجة أم الاختراع، والبعض ببساطة يراها من زاوية دينية بحتة لأن الصهيونية هي اليهودية، فالصهيونية كعقيدة أيديولوجية بدون اليهودية لا تستطيع الصمود كون الصهيونية حركة علمانية تحمل في طياتها ضياع تحديد الهدف.

لعل جميع الرؤى ووجهات النظر والتفسيرات بينما نحن نقلب صفحات تاريخ الحركة الصهيونية تساعد في إلقاء الضوء على أحد أركان المشروع الصهيوني الذي توج في النهاية لكي يصبح دولة إسرائيل، فكل رأي أو اجتهاد أو تفسير أو وجهة نظر تحمل جزء من الحقيقة عن طبيعة المشروع الصهيوني، وعن الأسباب التي أوجدته.

الصهيونية ببساطة هي حركة سياسية يهودية تدعو إلى اشتقاق فكرة وطنية من الديانة اليهودية لكي تكمل العناصر الأساسية التي تقام عليها الدول، فإذا كان الدين اليهودي يميز معتنقيه فإن هؤلاء لا بد أن يكون لهم وطن يجمعهم على أساس الثالوث (اليهودية، وشعب الله المختار، وأرض إسرائيل) أو كما ذكر هذا مبهمًا في التوراة (العهد القديم)، لهذا لا بد من تسليط الضوء على ماهية الصهيونية.

يمكننا القول بإن الصهيونية منظمة تأسست بهدف تشجيع الهجرة الصهيونية نحو فلسطين وهي كحركة دينية تهدف إلي تمكين العنصر اليهودي من تملك أرض فلسطين وقهر جيرانها الأعداء، وتركيز لسلطة العالم الروحية والحضارية في صهيون، ولكن الصهيونية قديمة فقد بدأ ظهورها مع تحريف التوراة، فالنصوص المحرَّفة نفسها هي التي أججت الروح القومية عند اليهود منذ أيامها

الأولى، وحركة تيدور هرتزل (الصهيونية الحديثة) إنما هي تجديد وتنظيم للصهيونية القديمة سواء ما رافق العنصرية الدينية منذ تحريف التوراة أو ما حرك دهاقنة اليهود لكي يجيبوا على تساؤلاتهم في القرن السابع عشر، حينما تعرضوا للمضايقة في المجتمعات الأوروبية، هذا وتقوم الصهيونية على تعاليم التوراة المحرفة والتلمود، ولكن لا بد من الإشارة إلى أن عددًا من زعماء الصهيونية هم من الملاحدة، واليهودية عندهم ليست سوى ستار لتحقيق المطامع السياسية والاقتصادية خصوصًا أهل التيار القومي من الصهيونية الذين يمتازون بالغنى، والصهيونية في التراث الديني اليهودي تعني في العصر الحديث أنها حركة تحرير يهودي وطني وتستمد اسمها من صهيون، وصهيون هو اسم تلة في القدس وتعني العلامة أو الاحتفال، والاحتفال كما يدعي منظري الحركة الصهيونية هو أحد الشروط التقليدية لعودة اليهود المنفيين إلى أرض الميعاد.

هذا، والصهيونية في الحقيقة هي أيضًا حركة أيديولوجية يهودية لكنها غير متجانسة وتشمل على سبيل المثال، جمعية اشتراكية الصهاينة مثل بوروشوف الدينية التي تأسست في روسيا، وجمعية الحاخامات الصهاينة، وحركة القوميين مثل زئيف جابوتنسكي، والجماعة الثقافية الصهيونية، وسيأتي الحديث مفصلاً عن هذه الاتجاهات أو التيارات الصهيونية وعن فلاسفتها ومفكريها.

تطورت الأفكار الصهيونية عبر الزمن وكذلك الظروف التي تأثرت بها في البيئات الاجتماعية والثقافية والحركات الشعبية في أوروبا التي أحاطت بها في الأوقات المختلفة بما في ذلك الاشتراكية والقومية والاستعمار، وكان لكل فرع وجماعة وحركة نكهة مختلفة تبعًا لبلد المنشأ من المفكرين وتبعًا للمعاصرة السائدة بين مختلف التيارات الفكرية، وبناء عليه فإن لا شخص واحد أو نشرة واحدة يمكن القول على لسانها أو الاقتباس مما نشر عنها أو منها ينبغي أن يؤخذ باعتباره تجسيد رسمي لكي نُطلق عليه الأيديولوجية الصهيونية.

لهذا تُعتبر الأيديولوجية الصهيونية في الأدبيات اليهودية هي قصة نجاح من القرن العشرين، فقد كانت تبدو مستعصية على التغلب على العقبات التي تحول

دون تحقيق حلم مستحيل، لهذا سموها بالصهيونية الخبيثة، واستدركوا وقالوا إن الصهيونية الخبيثة هي ليست مؤامرة كما يصفها أعداؤها إلا أنها أثارت معارضة نظرًا لنجاحها، إن هذا التمهيد المختصر لا يناقش تاريخ الحركة الصهيونية، لكنه يشير من بعيد إلى كيف خلقت إسرائيل الحديثة، وبالتالي إعادة تشكل الصهيونية بوجه تقلبات العصر الحديث، إذن ببساطة يمكننا القول بإن الصهيونية هي منظمة يهودية تنفيذية، مهمتها تنفيذ المخططات المرسومة لإعادة مجد بني إسرائيل وبناء هيكل سليمان، ثم إقامة مملكة إسرائيل الكبرى والسيطرة من خلالها على العالم!

لا شك أن منبت الأيديولوجية الصهيونية يعود إلى أصول الديانة اليهودية التي اختارت فئة من البشر وخصتهم بمميزات على الآخرين، فبدل أن يكون الدين للناس كافة ينهل منه كل من يظمأ، صار هو يختار من يستحق، لهذا نجد في الأدبيات الصهيونية أن الاعتقاد الديني السائد، هو أن المسيح المخلّص وهو ملك من نسل الملك داود سيأتي في أخر الزمان لكي يجمع اليهود من شتاتهم ويعود بهم إلى أرض الميعاد ويحكم العالم من جبل صهيون ويتخذ من أورشليم عاصمة له, وبعد ذلك يبدأ الفردوس الأرضي الذي سيدوم ألف عام، حيث يعم الخير والعدل والسلام كل العالم.

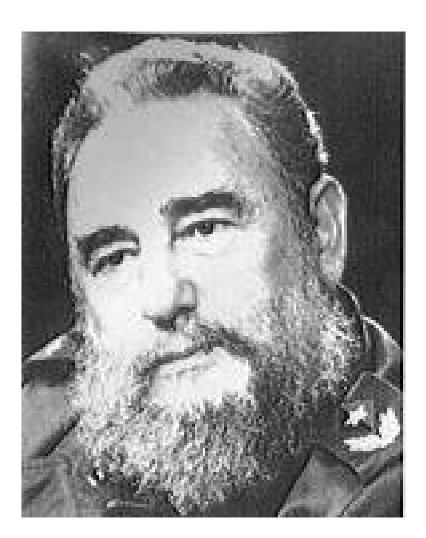
وهنا لا بد من الإشارة إلى يهود روسيا، لهذا يمكن القول بإن المسألة اليهودية نشأت أولاً في مناطق الإمبراطورية الروسية في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، لكنها تعود أساسًا إلى التحولات الاجتماعية والاقتصادية التي راحت تدق الأبواب في روسيا القيصرية، نتج عن ذلك ما أطلق عليه في ذلك الوقت، المسألة اليهودية، وذلك بسبب الشروع في مضايقة اليهود ومعاداتهم من قبل الروس، نتيجة تشكل العلاقات الاجتماعية والاقتصادية في المجتمع الروسي، التي جعلت من الصعب على اليهود بتركيبتهم الثقافية الاستمرار فيه، وهو ما قد يحدث من دون وعي من أفراد المجتمع الروسي الذي يعيش فيه اليهود في ذلك الوقت، لكن اليهود هناك بدلاً من إدراك تعدد الظروف الاجتماعية وتطورها، لم يغيروا من

طبيعتهم ولم يساهموا في ركب تطور المجتمع الذي كان يسعى إلى خدمة أفراده، وهو ما أدى إلى خلق مشكلة بين اليهود والأكثرية الأخرى، رأى فيها اليهود أن الآخرين يكرهونهم أو بما صار يطلق عليه باختصار معاداة السامية، دون أن يدرك اليهود أن ثمة عنصرًا إنسانيًا لا أحد يستطيع أن يعرف أين يتجه تاريخيًا أدى إلى حدوث ذلك التحول في المجتمع الروسي، إن ما جعل المشكلة اليهودية تصبح أكثر عمقًا في المجتمع الروسي، هو أن اليهود كأقلية لم يحاولوا أن ينظروا حولهم لكي يعرفوا الأسباب، فيعدّلون مساراهم بما يتوافق مع المجتمع الذي يعيشون فيه.

يمكن القول بإن البذور الأولى للصهيونية قد نشأت بين يهود روسيا حينما أصبح اليهود في روسيا ثلاثة تيارات، التيار الأول: رأى أن الحل هو الهجرة إلى دول أوروبا الغربية والعيش هناك، وتيار ثاني: هو الأقلية المثقفة من الثوريين التي رأت بأن علاج المسألة اليهودية هو أن يناضل هؤلاء كثوريين مع الروس لأجل تغيير المجتمع الروسي إلى الأفضل بحيث يكون لليهود مكان مقبول فيه، لكن هؤلاء كما ذكرنا كانوا أقلية بين الجالية اليهودية، أما التيار الثالث: فقد رأى أن يهاجر اليهود إلى فلسطين فهي مهد اليهودية حيث عاد إليها اليهود في سابق الأزمان قبل أن يطردوا منها أكثر من مرة، ومن أصحاب التيار الثالث "العيزر بن يهوذا" الذي دعى إلى الهجرة إلى فلسطين وقد ذكر هذا في كتاب "كونور كروز أبريان".

وحتى في القرن العشرين بعد أن صار لليهود الإسرائيليين دولة، فقد وجدت مشكلة أخرى في كوبا التي تزعمها "فيدل كاسترو"، وهي لا تختلف كثيرًا عما حدث لليهود في روسيا القيصرية، وقياسًا على ما حدث في كوبا يمكن تصور التفاصيل الكثيرة التي حدثت مع يهود روسيا أيام النظام القيصري ومعاداة السامية، المشكلة في كوبا حدثت بعد أن هاجر إليها بعض من يهود روسيا الثوريين ممن ضاقوا بحكم القياصرة في كوبا، استطاع هؤلاء اليهود أن يعيشوا عيشة راضية، نموا وأصابوا من الغنى ما أصابوا في البلد الجديد كوبا، كان

هؤلاء اليهود الثوريون أصدقاءً طبيعيين لثورة الكوبيين على نظام "باتستا" البائد الذي انتصر عليه كاسترو بل إنهم ساعدوا ثورة "فيديل كاسترو" قبل انتصار الثورة بل إنهم موّلوا الثورة الكوبية.



فيدل كاسترو **Fidel Castro**

بعد نجاح الثورة الكوبية وأخذها بمنهج الاشتراكية بقيادة كاسترو نفسه، وراحت تطبقه في المجتمع، وصدرت قرارات التأميم، وتم القضاء على الملكيات الكبيرة، تأثر اليهود بما أتت به الثورة من تحولات اجتماعية، فكان في كوبا أيضًا مسألة يهودية جعلت اليهود يخافون على مصالحهم وامتيازاتهم، فراحوا يغادرون كوبا حاملين معهم أموالهم، فكان من الطبيعي أن يكرههم المجتمع الذي كان يحبهم قبلاً حينما كانت المصالح الاقتصادية والفائدة تعود على الطرفين، إن البنية الاجتماعية والاقتصادية في كوبا كانت جاذبة للأقلية اليهودية قبل انتصار الثورة الكوبية، وبعد ذلك صارت طاردة لهم بعد انتصار الثورة دون أن يكون المقصود هم اليهود بالذات، وقد رأينا أن كثيرًا من الأقليات والأعمال غادرت كوبا بعد انتصار كاسترو.

ما حدث في كوبا كان مثالاً بسيطًا لما حدث من تعقيد وتشعبات بين المجتمع الروسي والأقلية اليهودية هناك حتى كبرت المسألة وأصبحت مشكلة طالت الغرب

والشرق في آن واحد، كانت هناك المسألة الشرقية التي تجسدت بتمزيق الإمبراطورية العثمانية، والمشكلة اليهودية التي نتج عنها وعد بلفور، وثورة أكتوبر الاشتراكية.

لا شك بأن اضطهاد اليهود الروس كان له أثر كبير في هجرة كثير من يهود روسيا إلى أوروبا الغربية، وساهم هذا كثيرًا في شحن العقول اليهودية بطاقة دفعت إلى الإسراع بالتحضير لمؤتمر صهيوني عالمي، إلا أنه من الجدير بالذكر أن اليهود العلمانيين كانوا الأكثر نشاطًا وفاعلية وقدرة على الفعل من اليهود الروس الذين تركوا بصماتهم في إنجازات الصهيونية العالمية في القرن العشرين، اثنان كلاهما ولد في روسيا، "حاييم وايزمان" الذي ولد في "موتول" سنة ١٨٧٤م في غرب روسيا قرب الحدود البولندية، و"ديفيد بن جوريون" الذي وُلِد في "بلونسك" بروسيا البولندية قريبًا من وارسو في سنة ١٨٨٦م.

كان "حاييم وايزمان" من المتحمسين للصهيونية، وقد بدا هذا في كتابه "التجربة والخطأ"، حيث ذكر عن حال اليهود أيام طفولته في روسيا، فقال كنا غرباء عنهم وهو يقصد الروس، غرباء من ناحية التفكير والأحلام والدين والاحتفالات الخ. ولقد أشرنا بتوسع إلى حاييم وايزمان وديفيد بن جوريون وإلى ما فعلا من أجل الصهيوينة كلٌ في ميدانه في أكثر من مكان في هذا الكتاب.

لكن من المهم أن يعلم القارىء، بأنه لم يكن ممكنًا للحركة الصهيونية الحديثة، بأن ترى النور لولا ارتباطها العضوي بالحضارة الغربية، وأن شرط أوروبا لقيام دولة صهيونية، هو تلاؤم هذه الدولة مع المصالح الغربية، في الماضي نشأت حركات صهيونية عبر التاريخ، كان زعماؤها أو قادتها قد دعوا وحاولوا أن يقيموا وطنًا لليهود في القدس، لكن المحاولات لم تنجح، وسرعان ما كان يقضى عليها بسبب غياب القوة العظمى المتنفذة التي تساند وتساعد وتحمي وتخلق دولة، لكن حينما وجدت القوة العظمى أصبح كل شيء ممكن، من الحركات اليهودية التي سجلها التاريخ وتشير إلى الجذور الصهيونية: ورد لفظ صهيون لأول مرة، عندما ذكر الملك "داود" في العهد القديم حينما أسس مملكة عام

١٠٠٠-٩٦٠ ق.م قبل السبي البابلي، وفي العهد الروماني كانت حركة "باركوخيا" ١١٨-١٣٨م الذي تحمس وسعى إلى تأسيس دولة لليهود في القدس، وبعد ذلك كانت حركة "موزس الكريتي" الشبيهة بحركة باركوخيا، ثم حركة "دافيد روبين" وتلميذه "سولومون مولوخ" ١٥٠١-١٥٣٢م الذي حثَّ اليهود على العودة للقدس، وبعد ذلك كانت حركة "منشه بن إسرائيل" ١٦٠٤-١٦٥٧م التي اتجهت ناحية بريطانيا لتحقيق هدفها، في تركيا كانت حركة "شبتاي زئيفي" ١٦٢٦-١٦٧٦م الذي ادعى أنه المسيح المخلص، هذا وسنأتي بالحديث عن أهم هذه الحركات بشيء من التفصيل.

لقد ظهرت عبارة "الصهيونية" لأول مرة في العصر الحديث في الكتاب الذي أصدره المفكر الصهيوني الألماني "ناتان بيرنباوم" ونشره عام ١٨٩٣ م تحت عنوان "البعث الثقافي للشعب اليهودي في أرضه كوسيلة لحل المشكلة اليهودية". وقد استعمل بيرنباوم لفظة "الصهيونية" بدلاً من عبارة "القومية اليهودية" التي كانت سائدة آنذاك في كتابات المفكرين والكُتَّاب الصهاينة الأوائل، دُعاة تأسيس الدولة اليهودية، وفي هذا الكتاب كما في صحيفة "التحرر الذاتي"، أعاد بيرنباوم طرح الأفكار التي سبقه إليها عدد من دعاة الصهيونية، أهمهم:

الحسيدية:

حسيدوت بالعبرية أو الحسيدية، هو مصطلح بمعنى التقي، وهو يشير إلى بعض الفرق الدينية في العصور القديمة والوسطى، ويشير إلى الحركة الحلولية الصوفية التي أسسها "بعل شيم طوف"، نشأت الحركة أولاً في جنوب بولندا وقرى أوكرانيا في القرن الثامن عشر، وانتشرت منها إلى وسط بولندا وليتوانيا وروسيا البيضاء ثم إلى المناطق الشرقية من الإمبراطورية النمساوية المجرية، وبحلول عام ١٨١٥م أصبحت الحسيدية عقيدة أغلبية الجماهير اليهودية في شرق أوروبا، بل ويقال إنها صارت عقيدة نصف يهود العالم آنذاك إلى جانب أنها كانت عقيدة أغلبية يهود اليديشية.

يرجع نجاح الحسيدية إلى أسباب اجتماعية وتاريخية، فالجماهير اليهودية كانت تعيش في بؤس نفسي وفقر اقتصادي شديد بسب التدهور التدريجي للاقتصاد البولندي مثلاً، وصاحب هذا الوضع تدني الحياة الثقافية والدينية داخل الجيتو اليهودي إلى درجة كبيرة، وأصبح اليهود يعيشون في شبه عزلة عن العالم، بل في عزلة عن المراكز التلمودية في المدن الكبرى، كانت اليهودية الحاخامية قد تحولت إلى عقيدة شكلية، خالية من المضمون الروحي والعاطفي، فمن المفارقات أن أعضاء الجماعات اليهودية، بعد أن عاشوا بين فلاحي أوكرانيا وشرق أوروبا لمئات السنين، بعيدًا عن المؤسسات الحاخامية في المدن الكبرى والمدن الملكية، تأثروا بفولكلور فلاحي شرق أوروبا، وبمعتقداتهم الشعبية الدينية، وبوضعهم الحضاري المتدني بشكل عام، بل ويبدو أن الحسيدين تأثروا بالتراث الديني المسيحي خصوصًا تراث جماعات المنشقين، وأقرب الجماعات المسيحية المنشقة إلى الحسيدية هي جماعات الخليستي، وقد ذهب قادة هذه الجماعة إلى أنه حينما صُلب المسيح ظل جسده في القبر، وأما البعث فهو هبوط الروح القدس بحيث تحل في مسيح آخر هو قائد الجماعة، ولذا قادتهم مسحاء (جمع مسيح) قادرون على الإتيان بالمعجزات، يحل فيهم الإله، وفي هذا المناخ ظهر الدراويش الذين يحملون اسم "بعل شيم"، أي "سيد الاسم"، وهم أفراد كانت الجماهير البائسة تتصور أنهم قادرون على معرفة الأسرار الباطنية وإرادة الإله، وهكذا ظهرت الحسيدية بحلوليتها المتطرفة وبريقها الخاص ورموزها الشعبية الثرية التي تروي عطش الجماهير اليهودية الفقيرة التي كان يخيم عليها التخلف، لهذا كان التصادم بين الحسيدية والمؤسسة الحاخامية حتميًا، كانت الحسيدية تحاول أن تحصل على قسط من الحرية وقسطًا من المشاركة في السلطة، وهي محاولة لكسر احتكار المؤسسة التلمودية للسلطة الدينية، وقد انعكس هذا التصادم على المستوى الفكري، حين قام الحسيديون بالتقليل من شأن الدراسة التلمودية أو دراسة التوراة، فإذا كان التصوف هو التأمل في الإله والتوحد معه وعبادته، فلا وقت عند الإنسان لدراسة التوراة على الطريقة الحاخامية.

وبهذا قلب الحسيديون الأمور، وقالوا إن الإله بحاجة إلى الشعب اليهودي ككل، وقد ذهبوا إلى القول أيضًا إلى أنه لا يوجد ملك بدون شعب، وعلى ذلك فإن ملك اليهود في حاجة إليهم، ولهذا تقل أهمية الأوامر والنواهي من خلال حاجته إليهم، ونجحت الحسيدية في تحقيق بعض الاستقلال عن الحاخامية فعدَّل أتباعها من طقوس العبادة والشعائر وصار لهم معابدهم الخاصة، وصار المفهوم الفكري للحسيدية أنها يهودية تساديكية نسبة إلى التساديك الذي يقوم بالوساطة بين أتباعه والإله، وهكذا صار للحسيدية بيروقراطية دينية لها مصالحها الخاصة.

انقسمت الحركة الحسيدية بعد ذلك إلى فرق متعددة، بعضها اتجه اتجاهًا صوفيًا عاطفيًا محضًا، في حين اتجه بعضها الآخر، اتجاهًا صوفيًا ذهنيًا يعتمد على دراسة كل من القبالاه والتلمود، كما أن وجود هؤلاء الحاخامات داخل دول مختلفة قد زاد من هذا الانقسام، وفي الحرب النابليونية ضد روسيا بعض الحسيدين أيَّدوا نابليون ضد روسيا وبعضهم أيَّد روسيا، ومن المعلوم أن النازية كانت قد قضت على المراكز الحسيدية الأساسية في شرق أوروبا، وأما الحركة فقد انتقلت إلى الولايات المتحدة مع انتقال يهود اليديشية إليها.

هذا، وإن أغلب المفكرين الصهاينة إما نشأوا في بيئة حسيدية، أو تعرفوا على فكرها الحلولي عشوائيًا، بل إن الصهيونية هي ضرب من الحسيدية اللادينية أو الحسيدية داخل إطار حلولية بدون إله ووحدة الوجود المادية، ولهذا يقال إن الدارس المدقق يكتشف بسهولة أن هناك تشابها بين الحسيدية والصهيونية، فالجماهير التي اتبعت كُلاً من الصهيونية والحسيدية كانت في وضع طبقي متشابه، أي جماهير توجد خارج التشكيلات الرأسمالية القومية بسبب الوظائف المالية والتجارية التي اضطلعت بها، لذلك نجد أن جماهير الحسيدية شأنها شأن جماهير الصهيونية، تتفق على حب صهيون، الأرض التي ستشكل الميراث الذي سيمارسون فيه شيئًا من السلطة.

لقد عملت الحسيدية على إضعاف انتماء يهود اليديشية الحضاري والنفسي إلى بلادهم، وهذه نتيجة طبيعية لأية تطلعات مشيحانية، الأمر الذي جعل اليهود مرتعًا خصبًا للعقيدة الصهيونية، الحسيدية والصهيونية تؤمنان بحلولية متطرفة تُضفي قداسة على كل الأشياء اليهودية وتفصلها عن بقية العالم، فكانت الهجرة الحسيدية تعبير عن النزعة القومية الدينية وفاتحة أو تمهيد للهجرة الصهيونية. إلا أن الفكرة الصهيونية لا تنصرف إلى السلوك الشخصي لليهودي وإنما إلى سلوكه السياسي، ولكي تتحقق الصهيونية لا بد أن تتجاوز حدودها الذاتية لتمتلك وطن وتستوطنه.

يُعتبر الحسيديون بعد قيام دولة إسرائيل من غُلاة المتشددين في المطالبة بالحفاظ على الحدود الآمنة والحدود المقدسة، والحدود التاريخية لأرض إسرائيل، رغم أن هناك بعض الفرق الحسيدية القليلة التي ما زالت تُعارض وجود دولة إسرائيل، من تلك الفرق جماعة ساتمار أو ناطوري كارتا (حراس المدينة) وقد أتينا على الحديث عن ناتوري كارتا في مكان آخر.

موزيس هيس Moses Hess:

"موزيس هيس (١٨١٢ – ١٨٧٥م)"، هو منظر ورائد الصهيونية العمالية، ولد في ألمانيا، فقد كان أبوه بقالاً وأمه ابنة حاخام، كان عمره تسع سنوات حينما انتقل إلى بيت جده الذي تعلم على يديه اللغة العبرية والديانة اليهودية، اهتم هيس بالتاريخ والفيزياء والأدب الفرنسي ودرس الفلسفة في الجامعة إلا أنه لم يحصل على درجة علمية، لم يهتم هيس بالقضايا اليهودية إلا في مرحلة متأخرة من حياته، قضى معظم حياته في باريس، أحب فتاة مسيحية تعمل بالدعارة، وأجَّل زواجه منها لمدة عام لكي يضمن حقه بالميراث بعد وفاة والده سنة ١٨٥٢م.

موزيس هيس، مؤلف كتاب "روما والقدس" (١٨٦٢م)، دشن صدور هذا الكتاب مرحلة انعطاف هامة في تاريخ الدعوة الصهيونية للعودة إلى فلسطين واستيطانها وتأسيس "مملكة إسرائيل"، لأنه أول كتاب يؤلفه مفكر يهودي يدعو إلى غزو فلسطين، وقد سبقت هذا الكتاب كتب كثيرة تدعو إلى استيطان اليهود في فلسطين، ولكنها جميعًا لمؤلفين غير يهود، ولأنه أول كتاب يؤلفه مفكر يهودي لإعادة اليهود إلى "وطنهم التاريخي" الافتراضي الذي يمتد من السويس إلى القدس، ومن الأردن إلى البحر الأبيض المتوسط وذلك "تحت رعاية فرنسا حامية اليهود"، وقد دشن هذا الكتاب مرحلة انتقال الدعوة الصهيونية من أيدي غير اليهود وأقلامهم إلى اليهود.



موزيس هيس ١٨١٢ – ١٨٧٥م

كان له اتصالات بالأوساط الاشتراكية، فقد كان صديقًا لـ "كارل ماركس" و"فردريك إنجلز"، لكن صداقته لم تدم طويلاً بعد أن اختلف معهما، كان عضوًا في أحد المحافل الماسونية وكان ينشر كتاباته في إحدى مجلاتها، وكانت أهم مصادر

تفكيره هي الرؤية المعرفية العلمانية الإمبريالية، في مقتبل العمر اهتم بالدين المسيحي والحضارة الغربية، وكان يؤكد أهمية ألمانيا مثل نوردو وجابوتنسكي اللذان كانا أيضًا يقدران أهمية ألمانيا، في عام ١٨٦٢م نشر كتابًا سماه في البداية "حياة إسرائيل" ثم عدَّل الاسم إلى "روما والقدس"، وتردده بين الاسمين كان يعني أن الاسم الأول هو حلولي ديني له بعد يهودي، والثاني حلولي غربي استعماري، فهو يرى أن هناك علاقة بين بعث روما في الغرب وبعث القدس في الشرق، وأن هناك علاقة ما بين الحركة القومية العضوية والحركة الصهيونية.

تحدث هيس عن الثورة الفرنسية كبعث جديد وكعلامة مميزة في تاريخ الغرب، بهذا استطاع هيس بأن يصنف الصهيونية تصنيفًا صحيحًا وليس باعتبارها تنبع من التاريخ اليهودي وإنما هي ظاهرة تنبع من تقلبات التاريخ الغربي الاستعماري.

صرح هيس في بداية حياته، بأن شريعة موسى ماتت وأن اليهود إذا كان عليهم أن يختاروا دينًا فهو المسيحية لأنها أكثر ملاءمة للعصر الحاضر، لأنها دين يهدف إلى توحيد كل الشعوب، وليس كاليهودية التي تدعو إلى توحيد شعب واحد، كان هيس ينظر للأديان بصفة عامة على أنها مرض وخطأ إنساني جماعي، والدين ما هو إلا حالة مرضية.

وفي مخطوطة أخرى نشرها هيس، قال إنه يرى اليهود والصينيين حفرية تاريخية لها ماض وليس لها مستقبل، بحيث أصبح الصينيون جسدًا بلا روح وأصبح اليهود روحًا بلا جسد، ولذا فهو يرى أن الشعب المختار لابد أن يختفي إلى الأبد، فمن اختفائه قد تظهر حياة جديدة ثمينة. وقد صدرت له كراسة عن رأس المال (١٨٤٥م)، وهي تزخر بالإشارات المعادية لليهود وتشير إليهم كعبدة للمال، ثم يذكر هيس الحقيقة الأساسية في أوروبا في عصره وهي أن الشعوب الأوروبية اعتبرت وجود اليهود بينها شذوذًا، ولذا سيبقى اليهود غرباء أبدًا لا يمكنهم الالتحام العضوي بأوربا، شعبًا منبوذًا ومُحتقرًا ومُشتَّتًا؛ شعبًا هبط إلى مرتبة الطفيليات التي تعتمد في غذائها على الغير؛ شعبًا ميتًا لا حياة له.

كان يريد هيس أن يصل من آرائه إلى صيغة المخرج من هــذا الوضــع، وهــو الصيغة الصهيونية الأساسية التي تلتف على الانتقادات السالفة لليهود، وتطــرح فكرة الشعب العضوي المنبوذ، الذي يمكن حل مشكلته عن طريق توظيفــه فــي خدمة الحضارة الغربية التي نبذته، ويبين هيس أن اليهود عنصر حركي نــافع، فمبدؤهم الرئيسي أن "موطن المرء حيث ينتفع"، هذا هو دينهم، وهو أعظم مــن كل ذكرياتهم القومية إذ يرى أن اليهود متميزون باجتهادهم الصناعي والتجاري، ولذا فقد أصبحوا مهمين للأمم المتحضرة التي يعيش فيها اليهود، وأصبحوا أمرًا لا يمكن الاستغناء عنه لتقدُّم هذه الأمم، وهذا هو الوصــف الصــحيح للجماعــة الوظيفية على مدى تاريخهم.

وكون اليهود جماعة وظيفية فيجب إعادة إنتاجهم على هيئة شعب عضوي حتــى يمكن ملاءمتهم مع الهدف الأوروبي من المشروع الصــهيوني لأجــل أن يكــون لأوروبا قدم على أرض المشروع، وحيث إن الانتماء القومي هو فــي الأســاس انتماء عرقي، فإن العرق اليهودي عرق رئيسي في الجنس البشــري كونــه قــد حافظ على وحدته كما يقول هيس رغم التأثيرات المناخية عليــه، وهنــا هــيس يفتخر بانتمائه اليهودي، لكن الحقيقة أن اليهود ليسوا عرقًا واحدًا، وسنرى ذلك أيضًا في صفحات أخرى في الكتاب.

لقد بيَّن هيس أن الروح المقدَّسة والعبقرية الخلاقة للشعب توحده، وقــد نبعــت منهما الحياة الإثنية والعقيدة اليهودية، أي أن القومية العضوية أو روح الشــعب أسبق من الدين، وهو بهذا يرى أن الشعب هو المركز الوحيد للحلول (للتقديس)، ومن ثم فهي حلولية بدون إله، وهكذا تكون قد تمــت إعــادة إنتــاج الجماعــة اليهودية في الغرب على هيئة شعب عضوي لا تقبله أوروبا، وأن طرح المشــكلة على هذا النحو يشير إلى الحل، وهو نقل الشعب الذي نبذه العالم الغربي وتوطينه في الشرق، لكي يقوم على خدمة الغرب، ومن ثم يصبح اليهود جزء من التشكيل الاستعماري الغربي بعد أن فشلوا في الانتماء إلى التشكيل الحضاري الغربي.

ويصل هيس إلى فكرة الدولة الوظيفية، فيقول: اليهـود سـيذهبون إلـى أرض الأجداد داخل إطار الحضارة الغربية الاستعمارية، ويرى هيس أن اليهود ينبغـي عليهم ألا يطالبوا الإله بأرض الأجداد من خلال الصلاة، وإنما يجـب علـيهم أن يتحلوا بالشجاعة ويطلبوا هذه الأرض من الإنسان الغربي، وأن ينسـلخوا عـن اليهودية وينخرطوا في التشكيل الاستعماري الغربي، لهذا يمكن القول بإن هـيس باعتناقه هذا الرأي فهو صهيوني يهودي غير يهودي.

ويتوصَّل هيس إلى مفهوم الصهيونيتين، فيميز بين يهود الشرق ويهود الغـرب، فالمشروع الصهيوني لا يعني أن يُهاجر يهود الغرب كلهم إلى فلسطين، ذلـك أن أغلبية اليهود الذين يعيشون في بلدان متمدنة في الغرب لابد أن يبقوا في بلادهم بعد تأسيس دولة يهودية، فقد نجحوا في شق طريقهم بجهد بالغ وحققوا لأنفسهم مركزًا اجتماعيًا وسوف لن يتخلوا عن أي نجـاح حققـوه، ولكـنهم مـع هـذا سيساندون الشعب اليهودي من شرق أوروبا (أي يهود اليديشـية) فـي مهمتـه التاريخية، أي أنه حدد لهم دورهم في الحركة الصهيونية باعتبارهـا صـهيونية توطينية، أما في تلك البلاد التي تؤلف الخط الفاصل بين الغـرب والشـرق، أي روسيا وبولندا وبروسيا والنمسا وتركيا، فالملايين من إخواننا يتضـرعون إلـى الإله بحماس كي يعيد المملكة اليهودية، فهم من سيسكنون إسرائيل (الصـهيونية الاستيطانية).

وفيما يتصل بالسكان الأصليين (الفلسطينيين)، فهناك ما يشبه الصمت بشـأنهم، وحينما تحدَّث هيس عن الأعراق في أوروبا، فقد تحدَّث عـن اختلافهـا لا عـن تفاوتها، ولكنه حينما انتقل إلى الشرق فإنه يؤكد التفاوت فيما بينها حتى يُكسـب مشروعه الصهيوني الشرعية الغربية الإمبريالية اللازمـة، فـاليهود سـيجلبون الحضارة للمتخلفين في الشرق وعليهم أن يعملوا على تثقيف القطعـان العربيـة المتوحشة والشعوب الأفريقية وأن يجعلوا القرآن والإنجيل يتحلقان حول التوراة، وقد وصف الزعيم الإصلاحي الصهيوني "أبراهام جايجر" كتابـات هـيس بأنهـا "ليست الولادة لعصر جديد، بل القبر المفتوح لعهد مضى".

ساهم هيس في بعض الأعمال التمهيدية للاستيطان في فلسطين، فاشترك في تحقيق مشروع المدرسة الزراعية قرب يافا الذي تبنته الأليانس، نشر هيس كتابات أخرى عن الاشتراكية، وتوفي عام ١٨٧٥م، ونقل رفاته إلى إسرائيل.

وبينما دشن كتاب موزيس هيس مرحلة الدعوة الصهيونية من أقلام غير اليهود إلى اليهود، فإن كتاب الصهيوني "ليو بنسكر" دشن مرحلة انتقال الصهيونية من الدعوة إلى الحركة، ويتفق معظم المؤرخين والدراسيين للحركة الصهيونية على اعتبار عام ١٨٨٢ م عامًا فاصلاً في تاريخ الحركة الصهيونية، لأن هذا العام شهد التطورات التالية:

أ. تولت مجموعات من الصهاينة أنفسهم تحقيق الفكرة الصهيونية عبر تنظيمات سياسية.

ب. بدأ صراع طويل بين اليهود الصهيونيين، واليهود غير الصهيونيين الذين رفضوا الانفصال عن مجتمعاتهم والتعلق بأفكار قومية برجوازية شوفينية.

ج. ظهرت أولى المجموعات الصهيونية السياسية الداعية إلى الهجرة إلى فلسطين واستيطانها تدريجيًا تمهيدًا للاستيلاء عليها، وأهم هذه المجموعات "أحباء صهيون" و"بيلو".

ليوبنسكر Leo Pinsker :

"ليو بنسكر"١٨٢١ – ١٨٩١م" طبيب روسي استيطاني تسللي يتبع التيار المستقل الذي سعى إلى إنشاء دولة لليهود تتبع الحياد بين الدول، بدون انتظار المساعدة من الدول العظمى في إقامتها، ولد ليو نبسكر في روسيا، وكان أبوه مدرسًا وعالمًا، كما كان يعمل بالتجارة وقد انتقل إلى مدينة أوديسا بعد فشله في أعماله التجارية في جاليشيا، وكانت أوديسا مدينة روسية جديدة تتسم بارتفاع معدلات العلمنة والاندماج بين أعضاء الجماعة اليهودية، فتزود بنسكر بثقافة

روسية علمانية وعرف أفكار حركة الاستنارة اليهودية، كما تعلَّم بنسكر اللغة الألمانية (وهي لغة الحديث في المنزل) وتعلَّم قليلاً من العبرية.



ليو بنسكر ١٨٢١ – ١٨٩١م

درس الحقوق في أوديسا ودخل جامعة موسكو لينال منها شهادة طبية، كتب عدة مقالات في راسيفيت وهي أول مجلة أسبوعية يهودية تصدُر بالروسية (بدأ نشرها عام ١٨٦٠م)، وكتب أيضًا في مجلات يهودية أخرى ذات طابع اندماجي، خدم بنسكر في الجيش الروسي.

يعتبر "ليو بنسكر" من الطلائع النشطين في الحركة الصهيونية "هوفيفي زيون" التي أسسها ورأسها، درس بنسكر القانون ولما لم يجد فرصته لكي يعمل محاميًا بسبب نظام تحديد عدد المهنيين اليهود في المجتمع الروسي آنذاك، اتجه لدراسة

الطب، وفي بداية نشاطه اليهودي كان يدعو إلى المساواة واندماج اليهود في المجتمع، ثم دعا اليهود إلى تعلم اللغة الروسية.

كانت مذابح عام ١٨٧١م في روسيا التي جرت ضد اليهود السبب الذي جعل بنسكر يتحول لكي يصبح ذو رأي بين اليهود بعد أن ارتفع مستوى معادة السامية في المجتمع الروسي، منذ ذلك الحين تبدلت مفاهيم بنسكر وصار يرى أن مجرد الإنسانية والتنوير لا تكفيان لمحو العداء في المجتمع الروسي ضد السامية، في عام ١٨٨٤م عمل مؤتمرًا دوليًا أطلق عليه "هابات صهيون"، بعد ذلك دعي لزيارة أوروبا الغربية من قبل أغنياء اليهود لشيوع كتابه "هيا إلى الانعتاق" الذي أثار في ذلك الحين ضجة بين اليهود بين مؤيد ومعارض، ثم دعا أن يكون لليهود وطنًا قوميًا يتجمعون فيه، إلا أن بنسكر ومثيله من الرعيل الأول من الصهاينة لم ينظروا إلى فلسطين لكي تكون الوطن القومي لليهود.

مع تعثر التحديث في روسيا وصدور قوانين مايو ١٨٨٢م، تغيَّر موقفه بشكل جوهري وعدل عن كثير من آرائه، وبدأ الشك يساوره في مقدرة الاستنارة وحدها على حل مشاكل اليهود، وبدأ في التجوال في عواصم أوروبا للدعوة لفكرته بشأن الدولة الصهيونية، فقابل الحاخام أدولف جلينك، حاخام فيينا الأكبر وصديق أبيه، فأشار هذا عليه بإخضاع نفسه للعناية الطبية، وقابل زعماء الأليانس وبعض القادة اليهود ولكنهم عارضوه، ومع هذا فقد ألَّف بالألمانية "كراسة الانعتاق" الذاتي، الذي كان عبارة عن تحذير من يهودي روسي لإخوته (١٨٨٢م)، الذي نُشر دون ذكر اسم المؤلف لأنه كان مُوجَّهًا أساسًا إلى يهود الغرب، والكراس يأخذ شكل المانفستو، ولذلك فإنه خال من أيِّ عمق، إلا أن كراس بنسكر تميز بأنه لا ينظر إلى اليهود من الداخل باعتبارهم جماعة مستقلة (كما يفعل بعض مثقفي يهود اليديشية) وإنما ينظر إليهم من الخارج كما ينظر إليهم الصهاينة غير اليهود، وقد تعلَّم بنسكر تعليمًا غربيًا وكان ذا هويَّة غربيَّة، واليهود واليهودية بالنسبة إليه موضوعًا للدراسة أساسًا، وهويَّة فُرِضَتْ عليه فرضًا من الخارج،

وعلى أية حال، فبالإمكان تصنيفه على أنه صهيوني يهودي غير يهودي كونه نظر إلى اليهود من الخارج كما فعل الصهاينة من غير اليهود.

أعلن بنسكر ضرورة التخلص من موقف الانتظار وضرورة الثورة ضد الشعور الديني القديم الذي يدفع اليهود إلى تقبُّل وَضْعهم ووجودهم في المنفى باعتباره عقابًا أنزله الإله بهم، "فشعب الله المختار إن هو إلا شعب مختار للكراهية العالمية"، ولذا يجب على اليهود التخلي عن الفكرة المغلوطة القائلة بإن اليهود بتشتتهم هذا يحققون رسالة إلهية، فتلك الرسالة لا يؤمن بها أحد، وقدم بنسكر طرحًا مغايرًا تمامًا للرؤية الدينية، فهو يعيش في بلاد لا تعترف به ابنًا لها، فالألماني الفخور بصفاته التيوتونية (الفرنسي والألماني) والسلافي الفخور بصفاته السلافية وغيرهم لا يعترفون بأن اليهودي يتساوى معهم بالمولد، فهذه القوميات العضوية تجعل الانتماء القومي مسألة عضوية موروثة.

وبنسكر كان يرى بأن اليهود رغم أنهم شعب عضوي، إلا أنهم يفتقرون إلى كثير من الصفات القومية العضوية، لغة وعادات مشتركة وأرض مشتركة، كما أن ليس لهم وطن أصلي ولا حكومة تمثلهم، وأصبحوا بذلك شعبًا ميتًا فقدوا استقلالهم وتحولوا إلى حالة التعفن التي لا تستطيع مسايرة العضو الحي المتكامل، وهم "شبح" يأتي من عالم الأموات، "إننا قطيع منتشر في أرجاء المعمورة دونما راع يحمينا ويجمعنا معًا، أما في أحسن الظروف، فقد نصل إلى مرتبة الماعز التي تبيت (حسب التقليد الروسي) في إسطبلات الخيل"، وإذا بقيت الظروف على ما هي عليه "فسنظل طفيليين نعتمد في معيشتنا على بقية السكان"، فما دام اليهود عنصرًا قوميًا غريبًا، ضيوفًا على أمم مضيفة، فإنهم سيظلون محط كراهية كل الشعوب لأن الناس تخاف من الأشباح.

وما الحل الآن؟ يرفض بنسكر مرة أخرى الحلول التقليدية مثل الهجرة الفردية، "كافحنا عبر القرون بجهد كي نحيا لكن كأفراد وليس كأمة"، ويرفض بنسكر فكرة الاستيطان الديني التقليدي الذي كان يُموَّل بأموال الصدقة (الحالوقاه)، فمشروعه

الصهيوني المقترح لا يتم "بجمع التبرعات من الحجاج والهاربين الذين سينسون وطنهم ومن ثم سيضيعون في أعماق غربة أرض مجهولة".

الحل هو التخلص من اليهود من خلال تصفيتهم، ومن اليهودية من خلال التخلي عنها تمامًا، "نحن نرضى التخلي عن (رسالتنا الإلهية) إذا أمكن محو اللقب الممقوت (يهودي) من ذاكرة الإنسان" (كتاب زعماء صهيون)، وقد ذكر بنسكر هذه الكلمات في لحظة غضب، ولكنه يهدأ ويبدأ في اقتراح الطرق المنهجية الكفيلة بتحقيق هذا الهدف "لابد أن تتعامل الأمم مع أمة يهودية" ولابد من "خَلق مأوى دائم"، و"الطريق الوحيد الصحيح لإصلاح الوضع هو خلق قومية يهودية مؤلفة من شعب يعيش على أرض يملكها"، أما بالنسبة إلى آليات هذا الحل، فهو أولاً لن يأتي من الإله وإنما سيتم بالانعتاق الذاتي (عنوان كراس بنسكر)، ويقول بنسكر إن الجو العام في أوروبا قد خلق مناخًا مواتيًا لحركة البعث القومي، فالفكرة القومية في كل مكان، كما أن اليهود يشعرون بالبؤس في كل مكان أيضًا، ولكن الحل الذي يطرحه بنسكر لنقل اليهود خارج أوروبا يثير عدة مشاكل من بينها أن الشعوب التي نالت استقلالها مؤخرًا هي أمم عاشت على أرضها وكانت تتكلم لغة واحدة، فكان لها بذلك أرض، أما اليهود فلا أرض لهم، ولابد من خلق هذه الأرض.

حينما كان بنسكر يفكر في الحركة القومية، كان أيضًا يفكر في تقسيم الدولة العثمانية، فالأرض هي فلسطين، وإن تحرير اليهود واجب كواجب تحرير الزنوج، ومع هذا، فإنه يضيف أن اليهود ينتمون إلى عرق متقدم وليسوا زنوجًا، أي أنهم عنصر استيطاني أبيض، ومعظم البلاد المتحضرة سوف لا تقبل هجرة اليهود الجماعية إليها، أي أن الدول الغربية ستوقف سيل يهود اليديشية إليها.

أهم ما قال بنسكر هو حديثه عن الأرض فهو يقول يجب ألا يكون الحديث عن الأرض المقدَّسة وإنما عن مجرد أرض نملكها، أرض ذات مركز جيد ومساحة كافية لإسكان عدة ملايين، لذا إن علمانية المصطلح وحداثته كان أمرًا جديدًا، ومع هذا، تدارك بنسكر وقال بعد ذلك، قد تعود الأرض المقدَّسة لنا، فإذا حدث

هذا الشيء فهو أفضل بمعنى أنه لا يرفض تمامًا الصهيونية الإثنية ويترك الباب مفتوحًا أمامها، وتوقَّع بنسكر معارضة معظم اليهود، ولـــذلك حـــاول أن يكـــون برنامجه أكثر وضوحًا وتفصيلاً إذ يفرِّق بين صهيونيتين، فقسَّـــم اليهـــود إلـــى غربيين مندمجين سعداء، وشرقيين (بؤساء).

ويمكن القول بإن كثيرًا من عناصر الصيغة الصهيونية الأساســية الشــاملة قــد ظهرت في كراس بنسكر، ومن هنا أهميته في تاريخ الفكر الصهيوني، فقد أسقط المقولات الدينية التقليدية ونزع القداسة عن اليهود واقترح ربط المسألة الشرقية بالمسألة اليهودية باعتبارهم شعبًا عضويًا منبوذًا وعنصرًا استيطانيًا أبيض، أي أنه يقترح أن يتم الحل داخل التشكيل الاستعماري الغربي، بل يترك الباب مفتوحًا أمام الأشكال الصهيونية الأخرى، الصهيونية الإثنية الدينية وغيرها، ويضع يـــده على ضرورة وجود صهيونيتين؛ واحدة استيطانية والأخرى توطينية.

ومع هذا، ظلت صيغة بنسكر مترددة متعثرة، ربما بسبب تكوينه الثقافي الضيق، فالأفق الثقافي في روسيا القيصرية كان ضيقًا إلى أقصى حد، وكان أكثر ضــيقًا داخل المدن اليهودية ومواطن الاستيطان، ولذا فإنه لم يكــن لديـــه إدراك كامــل لحتمية الاعتماد على الإمبريالية الغربية لوضع أي مشروع اســتيطاني موضـــع التنفيذ، فالمشروع الاستعماري الروسي لم يكن على استعداد لتوظيــف اليهـــود لصالحه، بل كان يود التخلص منهم في أسرع وقت، كما أنه لم يكــن مشـــروعًا عالميًا كما كان الحال في انجلترا وفرنسا والولايـــات المتحـــدة، إذ أن المطـــامع الروسية القيصرية كانت تتجه نحو دول البلطيق والمناطق التي تفصل بين روسيا واليابان والصين والدولة العثمانية، أما فلسطين فقد كان الروس ينظرون إليهـــا باعتبارها منطقة نفوذ أرثوذكسية، وهو ما يتطلب استبعاد اليهود، ولذا فرغم أن كل أفكار هرتزل الأساسية موجودة في الانعتاق الذاتي إلا أن هرتزل قد حقق مـــا لم يحققه بنسكر لأنه كان مدركًا لحتميـــة الاعتمـــاد علـــى الإمبرياليـــة الغربيـــة باعتبارها الآلية الوحيدة لتحقيق الحلم الصهيوني.

زار بنسكر باريس وأقنع لورد روتشيلد بمساعدة الاستيطان اليهودي، ونظرًا لأن

الأموال التي جمعتها جماعة أحباء صهيون التي ينتمي إليها بنسكر كانت قليلة جدًا (فهي لم تكن حركة جماهيرية)، فإن معظم المستوطنات كانت في نهاية الأمر قد أصبحت تابعة لروتشيلد، كما أن بنسكر تابع مشاريع البارون "موريس دي هيرش" لتوطين اليهود الروس في الأرجنتين باهتمام شديد.

ويُعد بنسكر مفكرًا صهيونيًا أكثر من كونه منفذًا للمشروع، وصهيونيته هي من النوع الذي يُطلق عليه «الصهيونية العملية» أي «التسلُليَّة»، كما أن أسلوبه وأفكاره يشبهان أفكار وأسلوب هرتزل إلى حدٍّ كبير، لكن هرتزل قد دوَّن في مذكراته أنه لم يطَّلع على كتابات بنسكر، ولعل الفارق الأساسي بينهما هو مدى إدراك حتمية الاعتماد على الإمبريالية، إذ كان بنسكر يتحرك داخل وهم الانعتاق الذاتي التسللي وبناء دولة بجهد يهودي ذاتي وتكون على الحياد.

أحباء صهيون:

ومن دعاة الصهيونية الأوائل، "أحباء صهيون"، فقد كان طلبة الجامعات من اليهود يجتمعون سرًا بعيدًا عن أعين رجال الأمن، وكان يتزعمهم في ذلك الزمن طالب كلية الطب "رابورت" الذي عمل طبيبًا بعد ذلك، وأحباء صهيون هم جماعة صهيونية تأسست عام ١٨٨٢ من ٢٥ طالبًا روسيًا في جامعة "خاركوف"، أصدرت منشورات تتغنى بحب فلسطين وجبل صهيون والغيرة عليهما، وتدعو إلى الهجرة إلى فلسطين لاستيطانها واستعادة "مجد بني إسرائيل"، وفي العام نفسه تشكلت أيضًا جماعة صهيونية أخرى تحمل الاسم ذاته في جامعة أوديسا بروسيا.

ومن دعاة الصهيونية الأوائل، "بيلو"، وهذه الكلمة (كالعادة في اللغات الأجنبية) تتشكل من الأحرف الأولى لأربع كلمات بالعبرية هي "بيت يعقوب تعالوا لنرحل"، وقد نشرت نداءها الأول من مركز تجمعها في جامعة القسطنطينية عام ١٨٨٢ م، واعتبر الصهاينة فيما بعد هذا النداء نموذجًا للدعوة الصهيونية إذ جاء فيه:

"دعوة يهود المنفى للنهوض من سباتهم الذي استمر ألفي عام، وغسل العار الذي لحق بالأمة اليهودية منذ دمار الهيكل، والحصول على موطن لليهود في أرضهم فلسطين، وإقامة مركزهم الأساسي في القدس، وإقناع السلطان العثماني بمختلف الوسائل، وإغراؤه بعدالة قضيتهم وكسب دعمه ورعايته".

وفي العام ذاته تأسست جمعيات صهيونية مماثلة في النمسا وألمانيا وغيرهما، إلا أن هناك اتفاقًا عامًا على أن "أحباء صهيون" و"بيلو" هما الجماعتان الرائدتان في هذا المجال، وإن كان بعض المؤرخين يعتبر إحداهما سابقة على الأخرى بعدة أشهر، ويضفي كتاب بنسكر "التحرر الذاتي" المنشور عام ١٨٨٢ م أهمية إضافية على هذا العام أيضًا لسببين:

أ. كان ليو بنسكر الطبيب الروسي المثقف والمندمج تمامًا في المجتمع الروسي أحد الدعاة اليهود الروس إلى الاندماج في مجتمعهم، وكان معجبًا بالثقافة الروسية، كما كان عضوًا نشيطًا في "جمعية نشر الثقافة الروسية بين يهود روسيا"، وقد ظل كذلك بالفعل حتى انفجار أعمال العنف والدمار، وما تخللها من مذابح ضد اليهود إثر اغتيال القيصر الروسي عام ١٨٨١ م، فانسحب من الجمعية الثقافية، وبدأ يبحث عن "حلول جديدة للمسألة اليهودية" خارج الاندماج في المجتمعات المحيطة بهم.

ب. تضمن هذا الكتاب أول برنامج عملي يُدعى الحل النهائي للمسألة اليهودية، وأخذت به على الفور الجماعات الصهيونية المنظمة (أحباء صهيون) واعتبرته كتابها المقدس، كما تلقفت الكتاب أيضًا الجماعات الصهيونية الأخرى في النمسا وألمانيا، وجاء في الكتاب: "اليهود قوم شبح لا وطن لهم، وبما أن الإنسانية تكره الأشباح، لذا تقوم الشعوب باضطهاد اليهود، إن حل المسألة اليهودية يكمن في تحويل اليهود من قوم شبح إلى قوم طبيعي، وهذا يتطلب بالضرورة إقامة وطن لهم في مكان ما.. اللاسامية لا يمكن أن تزول طالما أننا لا نملك وطنًا قوميًا خاصًا بنا، لأن شعور الكراهية ضد اليهود متأصل في النفس البشرية، لذا ينبغي

إنقاص عدد اليهود في كل بلد ضمن الحدود التي تمليها الشروط الاقتصادية للسكان الأصليين.

ولا ينبغي التفكير بهجرة الشعب (اليهود) الكاملة، وإنما تهجير الفائض (الجماهير الفقيرة) من السكان، ويجب أن تتولى هذا الأمر منظمة صهيونية مركزية نواتها الجمعيات القائمة حاليًا، وذلك من خلال مؤتمر عام تعقده هذه الجمعيات وتقرر فيه إنشاء شركة مساهمة للمتمولين اليهود، تكون مهمتها شراء قطعة من الأرض يمكنها استيعاب بضعة ملايين من الفائض اليهودي في أوروبا.

إلا أن الجمعيات التي اعتبرت هذا الكتاب بمثابة التوراة الجديدة، أخذت على بنسكر دعوته إلى الاستيطان في أي مكان، ونقل فكرة الرب والتوراة إلى هذا الوطن الجديد، ودخلت مجموعة أحباء صهيون في خاركوف وأوديسا في حوار مع المؤلف لإقناعه بتبني فكرة استيطان فلسطين بالذات، وتحديدها هدفًا لهجرة اليهود وتأسيس دولتهم فيها، وعرضت هاتان المجموعتان على بنسكر رئاسة جمعيتها الموحدة مقابل تبني خيار فلسطين وطنًا لليهود، وما كاد يوافق على تبني استيطان فلسطين حتى أعلنه قادة الجمعية رئيسًا لجمعية أحباء صهيون الموحدة في أوديسا (١٨٨٣م) على أن يساعده في توجيه أعمال الجمعية وإدارتها "موشي ليلنبولوم" الذي فيه أفكار بنسكر مع إضافة محايدة تتضمن اعتبار فلسطين وحدها وطن اليهود المقبل.

وبذلك أصبحت جمعية "أحباء صهيون" الجمعية القائدة للدعوة الصهيونية فكرًا وممارسة، وسرعان ما انتشرت فروعها في أوروبا الشرقية والغربية، وأصبحت الدعوة إلى "مؤتمر قومي عام" أمرًا حيويًا بالنسبة لهذه الجمعيات لصياغة برنامجها المرحلي وأهدافها الإستراتيجية، وبالفعل انعقد هذا المؤتمر في مدينة "اتوفيتز" في بولندا عام ١٨٨٤ م، ثم تلاه المؤتمر الثاني عام ١٨٨٧ م والثالث عام ١٨٨٩ والرابع عام ١٨٩٠ م.

لقد استطاع أمثال "العيزر بن يهوذا" و"رابورت" وغيرهما، أن ينقلا القضية اليهودية إلى يهود الغرب الأغنياء وقبلها إلى المثقفين، وحيث تأثر هؤلاء بأساطين الشيوعية أمثال "كارل ماركس" و"إنجلز" و"موزيس هيس ١٨١٢م – ١٨٧٥م" الذي كان صديقًا مقربًا لكارل ماركس الذي ولد عام ١٨١٨م، وحتى أن كثيرين من الباحثين يرون بأن موزيس هيس اليهودي الألماني هو مؤسس الشيوعية الحقيقي بل هو من أوحى لماركس وإنجلز بالأخذ بها، فقد كان يكبر ماركس بست سنوات ويكبر إنجلز بثمان سنوات، بهذا يمكن القول بإن اليهود هم من ساهموا في هدم النظام القيصري في روسيا، وتلك مسألة أخرى.

في المؤتمر الرابع نضجت الحركة الصهيونية، وبدأت تتمايز التيارات الفاعلة داخلها، وبرزت في هذا المؤتمر الذي انعقد في أوديسا عام ١٨٩٠ م ثلاثة تيارات رئيسية:

أ. التيار العملي بزعامة "ليلنبلوم" والذي دعا إلى الاستمرار في الهجرة إلى فلسطين وإنشاء المستعمرات والاستيطان فيها تحت أي ظروف وبأي شروط.

ب. التيار الروحي – الثقافي بزعامة "أحاد هاعام" (الاسم رمزي ومعناه: واحد من الشعب، الاسم الحقيقي: آشر غينزبرع) وكان هذا التيار يلح على ألوية العمل الثقافي والروحي بين اليهود، ويعتبر فلسطين مركزًا ثقافيًا روحيًا بالدرجة الأولى.

ج. التيار الديني الحرفي المشدودة إلى فلسطين بسبب مكانتها الدينية، إلا أنه ينتظر ظهور المسيح المنقذ الذي سيتولى تحقيق نبوءة التوراة بقيادة اليهود، والعودة بهم تحت رايته إلى فلسطين.

وقد كان هذا عرضًا موجزًا وسريعًا للنشاطات الصهيونية في أوروبا الشرقية، وبعض فروعها التي تولى إدارتها وتوجيهها طلاب شرقيون يدرسون في جامعات أوروبا الغربية كجامعة فينا وجامعة برلين، كالجمعية التي أسسها "ليوموتزكين" عام ١٨٩٠ م تحت اسم "الجمعية العلمية للطلاب الروس اليهود" والتي انضم

إليها مشاهير القادة الصهاينة أمثال "حاييم وايزمان" و"شماريا ليفن" و"دافيد جاكوسن" وغيرهم.

أما في الشطر الغربي من أوروبا فقد تأخر تأسيس هذه الجمعيات عن الشطر الشرقي قرابة عقد من الزمن، وهناك كراس أصدره الصهيوني الألماني "بودنهايمر" بعنوان "أين نذهب باليهود الروس"؟ وأجاب عليه: "إلى فلسطين وجوارها في سوريا"، ويعتبر هذا الكراس بمثابة الشرارة التي استقطبت أمثاله من الصهاينة للبدء في التنظيم، كما أصدر "بودنهايمر" ذاته نداء في أيلول عام ١٨٩١ م بعنوان "يا صهيوني العالم اتحدوا"! وتضمن هذا النداء مشروعًا لاستعمار فلسطين وتأسيس شركات تطوير الأراضي، ومد الخطوط الحديدية وغير ذلك من مقومات بناء الدولة.

وبشكل عام كان مشروعه مماثلاً لمشروع "أوليفانت" الإنكليزي الخاص باستعمار فلسطين يهوديًا، وهو ما سيرد الحديث عنه لاحقًا، ونقطة الخلاف الرئيسية بين مشروع بودنهايمر الألماني وأوليفانت البريطاني، أن الأول دعا إلى ربط "دولة اليهود" العتيدة بالإمبريالية الألمانية ووضعها تحت حمايتها، في حين دعا الثاني إلى ربطها بالإمبريالية البريطانية ووضعها تحت حمايتها.

وما كاد "بودنهايمر" يلتقي مع "وولفسون" (الذي أصبح فيما بعد رئيسًا للمنظمة الصهيونية العالمية) في شباط عام ١٨٩٢ م وتم التعارف بينهما حتى اتفقا على تأسيس "نادي صهيون القومي اليهودي" و"جمعية أحباء صهيون الألمانية" التي انضم إليها على الفور "بيربناوم" واتفق الثلاثة على الدعوة إلى مؤتمر صهيوني عام لصياغة الأهداف النهائية للصهيونية السياسية بشكل واضح، وجمع اليهود حولها، فوافقت على الفور جمعية إسرائيل الفتاة الألمانية التي تأسست في برلين عام ١٨٩٣ م.

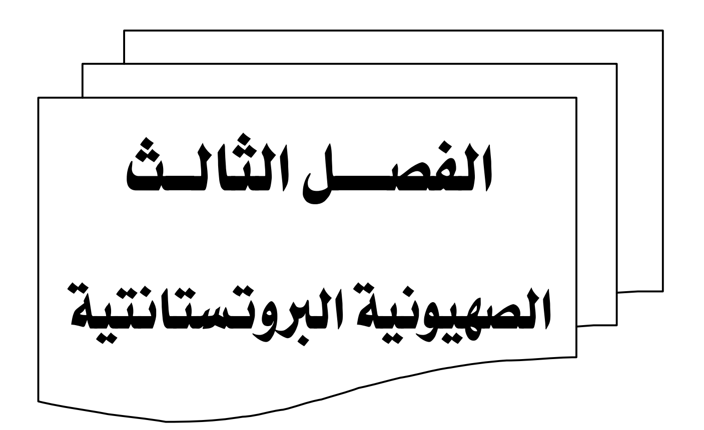
وعن لقائه مع وولفسون كتب بودنهايمر في مذكراته: "وهكذا ولدت الصهيونية الألمانية".

وفي المؤتمر العام الذي انعقد في برلين عام ١٨٩٣ م أقرت مشاريع تتضمن إنشاء منظمة صهيونية موحدة، وصندوق مالي وتشجيع الاستيطان اليهودي في فلسطين وتنظيمه وإحياء اللغة العبرية، كما جدد الدعوة لعقد مؤتمر قومي عام يضم جميع التنظيمات الصهيونية العاملة في ألمانيا.

وبالفعل انعقد هذا المؤتمر في مدينة كولون بألمانيا عام ١٨٩٦ م وتبنى المؤتمر مشاريع وقرارات مؤتمر برلين، وأصدرها في كراس بعنوان "قضايا كولون".

وجدير بالذكر أن للصهيونية مدارس ومبادىء مختلفة منها الصهيونية الثقافية التي تؤكد أن فلسطين يجب أن تكون منارة أو مركزًا روحيًا وثقافيًا للعالم، كذلك هناك الصهيونية العملية التي تؤكد بأنه يجب ربط الصهيوني مع الأرض عن طريق العمل، ومن أنواع الصهيونية الأخرى، الصهيونية الاشتراكية التي تحث على إيجاد منطقة يُقام فيها مجتمع مصنف طبقيًا يتم فيه صراع طبقي ومن ثم حصول ثورة، وأخيرًا الصهيونية الدينية التي تريد تطبيق الشريعة اليهودية وخاصة التلمود في سياستها، وكذلك اعتقاد المتدينين اليهود أن أرض الميعاد قد وهبها الله لبني إسرائيل فهذه الهبة أبدية ولا رجعة فيها، إلا إنهم لم يتحمسوا كثيرًا للصهيونية باعتبار أن أرض الميعاد ودولة إسرائيل "لا يجب أن تُقام من قبل بني البشر كما هو الحال بل يجب أن تقوم على يد المسيح المنتظر".

وهكذا ولدت فعلاً الصهيونية الألمانية، وكانت قد سبقتها الصهيونية الروسية – البولونية بعشر سنوات.



الفصـــل الثالـث

الصهيونية البروتستانتية

كانت العصور الوسطى خصوصًا القرن الرابع عشر والخامس عشر عنيفة بالنسبة للمعتقد الديني وللطبقة العاملة وحيث بدأت تتشكل القوميات، لقد كان لتدخل السلطة الدينية في السياسة وتدخل السلطة الزمنية في الدين؛ أثر كبير فيما آلت إليه الأمور من ناحية قبول المجتمع للإصلاحات الدينية، بسبب حاجة الناس إلى نظام اقتصادي أكثر راحة من السلطة الدينية التي كانت قيودها تسبب الكثير من عدم الاستقرار في المجتمعات الأوروبية، لهذا إن كثيرًا من الباحثين وأهل التنظير وحتى يومنا هذا، حائرين أو متسائلين.. هل الثورة البروتستانتينية التي قادتها أفكار "مارتن لوثر" هي التي فرضت الإصلاحات الدينية أم أن التداعيات الاقتصادية هي التي خلقت ثورة البروتستانت على الكنيسة الكاثوليكية!



Martin Luther مارتن لوثر ١٤٨٣م – ١٥٤٦م

مهما كانت الإجابة على هذا السؤال، فإن البروتستانتينية بلا شك هي التي حجَّمت سلطة الكنيسة في المجتمع، وأعطت فكرًا تحرريًا للأفراد وللاقتصاد وبالتحديد للملكية الخاصة، وقد تكون البروتستانتينية هي من جعلت المجتمع يخطو خطوة إلى الأمام، وجعلت عجلة الاقتصاد تدور دورتها الأولى، فإذا بالاقتصاد ممثلاً

بانطلاق الثورة الصناعية يجعل البروتستانتينية مرجعًا ومتكأ لحرية الفرد وانطلاقه في ميادين الإبداع.

يعتبر المُصلح الديني "مارتن لوثر" الذي وُلد في مدينة "فتنبرج" بألمانيا سنة ١٤٨٣م هو من أسس المذهب البروتستانتي، تخرَّج لوثر من الجامعة سنة ١٥٠٥م ودخل الدير، في سنة ١٥٠٧م تم ترسيمه قسيسًا، عمل على تدريس الفلسفة في "جامعة فتنبرج" بألمانيا، سافر إلى روما سنة ١٥١١م وكان لتلك الرحلة أثر كبير في حياته فلما عاد من روما أصبح مُصلحًا للدين المسيحي.

في ذلك الوقت كان بابا روما في حاجة ماسة إلى المال فلم يجد وسيلة للحصول عليه إلا ببيع صكوك الغفران حيث كان يسوقها للناس لكي يغفر الله الذنوب لأقربائهم أو لمن يشاءون، غضب مارتن لوثر غضبًا شديدًا فأصدر بيانًا شديدًا ضد صكوك الغفران، ولصق البيان على باب كنيسة مدينة فتنبرج، في سنة ١٥١٧م فندت الكنيسة بيان مارتن لوثر وأحرقته أمام العامة فثار الطلاب في جامعة فتنبرج وأحرقوا بيان مندوب الكنيسة الراهب "تتسل".

عام ١٥١٨م تم استدعاء مارتن لوثر إلى روما من قبل البابا "لاون العاشر" وفشلت المفاوضات، بعد ذلك صار مارتن لوثر يهاجم البابوية كنظام مسيحي، في سنة ١٥٢٠م نشر لوثر نداءه الشهير إلى النبلاء المسيحيين في ألمانيا الذي هاجم فيه الكنيسة وسماه "الكنيسة الأسر البابلي"، فأصدر البابا "لاون العاشر" مرسومًا ضد مارتن لوثر به ٤١ تهمة، فما كان من لوثر إلا أن أحرق المرسوم علنًا أمام جمع غفير من الطلاب والعلماء والعامة، واشتد الهيجان في كل أنحاء ألمانيا مما جعل الإمبراطور يدعو إلى عقد مجمع في مدينة "فورمس" سنة ١٥٢١م، وأمر بمثول لوثر أمام المجمع، وصدر قرار المجمع بتدمير جميع كتب مارتن لوثر ونفيه خارج الإمبراطورية الألمانية.

في سنة ١٥٢٢م نشبت الاضطرابات من جديد فعاد لوثر إلى مدينته فتنبرج وأعلن سخطه على الطغاة، انشأ الكنيسة البروتستانتينية وأصدر مجموعة من

الإصلاحات، في سنة ١٥٣٤م صدر إنجيل لوثر، أمضى مارتن لوثر بقية حياتـــه في الوعظ الديني وفي زيارة الكنائس التي أخذت بإصلاحاته.

بسبب الحد من سلطة رجال الدين ازداد حجم الملكيات الخاصة بعد أن تراجع دور الكنيسة، وراح المجتمع يموج بعوامل وحوافز الإنتاج الصناعي في ألمانيـــا أولاً وفي بقية الدول الأوروبية بعد ذلك، تكونت الشركات وأنشئت المصـــانع وكبـــرت الملكيات الصناعية، وظهرت الطبقة العاملة التـــي وحَّـــدتها المصـــلحة فتكونـــت النقابات العمالية، وأنشئت نقابات المُلاك ونقابات الصُنَّاع، ونقابات المواني الخ، وعلى إثر ما أشرنا إليه، أخذ الصدام وجهًا آخر، وصار على أشده بين أصـــحاب المصانع وطبقة العمال الذين أسسوا النقابات للدفاع عن حقوقهم، مما أوجـــب أن يكوَّن نظام لفض النزاعات بين الطرفين فتأسست المحـــاكم المدنيـــة، ووضـــعت القوانين والدساتير، وراحت تتشكل القوميات في أوروبا وهو مـــا أطلـــق عليـــه المؤرخون عصر القوميات، لكن دور الأفكار البروتستانتية لم يختفي، لأن الحـــد من سلطة الكنيسة الكاثوليكية لم يتـــرك فراغًـــا روحيًـــا عنـــد العامـــة، بـــل إن البروتستانت اعتمدوا على تفسير الكتـــاب المقـــدس، فكثـــرت الأفكـــار وكثـــرت تفسيرات الكتاب المقدس مما أضعف مركزية الكنيسة، خصوصًـــا وأن تفســـيرات منطقية كانت تُشاع بين العامة وتفسيرات غير مقبولة مســـيحيًا لأن بهـــا بـــدع، فاختلطت الدنيا بالدين وشاع الانتقاء، وقاد هذا إلـــى إضـــعاف نفـــوذ الكنيســـة الكاثوليكية بصفة عامة وكثرت التيارات البروتستانتية، وأدى هـــذا إلـــى ظهـــور حركات بروتستانتية ابتعدت في تطرفها وراحت تفسر اليهودية، فأوجـــدت كثيـــرًا من النبوءات والأساطير ونسبتها لليهودية الأولى، وأوجدت جسرًا بينهـــا وبـــين بعض المتعصبين اليهود.

كان ضعف نفوذ الكنيسة بالنسبة لليهود مصدر غبطة وارتيـــاح، وأنزلـــوا عـــن كاهلهم تُهم القديس بولس وتلاميذه من بعده، الذين أكَّـــدوا بـــأن شـــريعة بنـــي إسرائيل سقطت بسقوط حامليها منذ أن بُعثروا فـــي شـــتى الأنحـــاء، وأن أمـــة إسرائيل لن تعود، تنفس اليهود الأوروبيون الصعداء بعد انحسار دور الكنيســـة،

ودعَّموا الصناعة والتجارة وقدَّموا القروض للأمراء وأصحاب الملكيات لكي تتعزز الروح القومية على حساب الدين، وهو ما أتاح لهم أن يعودوا إلى أنفسهم ويشرعوا في التفكير بأن يكون لهم انتماء وهوية كما للمجتمعات التي يعيشون فيها، فهم أيضًا أصحاب عقيدة مختلفة ولغة مختلفة فلماذا لا يبحثون لهم عن قومية مثل الآخرين.

في بداية الأمر مدح "مارتن لوثر" اليهود كونهم أبدوا ليونة خلال نقل أفكاره وبما ساهموا به من كسر لشوكة الكنيسة الكاثوليكية، فنجده قد مدحهم في كتابه الذي أصدره في عام ١٥٢٣م والذي سماه "المسيح ولد يهوديًا"، قال البعض إن مدح مارتن لوثر لليهود يعود إلى أنه كان يطمع في ضمهم إلى المسيحية، وحينما لم يستجيبوا ولم يجد آذان صاغية، راح ينتقدهم ويُحرض الناس ضدهم، ونلمس هذا في كتابه الذي صدر في سنة ١٥٤٣م "اليهود وأكاذيبهم"، الذي راح فيه يُحرض الأمراء الألمان ضد اليهود، ويطالب بعزلهم ومُصادرة أملاكهم وثرواتهم واقتلاعهم من ألمانيا وطردهم من البلاد إلى حيث جاءوا، وكان يرى أنهم يقبضون على ثروة الأمة بسبب الربا الذي كانوا يمارسونه كتجارة أساسية لهم فيسيل المال جاريًا بين أيديهم فيتكدس النقد عندهم ويصبح المجتمع كالبقرة الحلوب، في حين أن الألمان أموالهم مستثمرة في قطاعات الإنتاج المختلفة التي كلما احتاجت إلى تطوير لا مناص لها سوى أن تلجأ للمرابين اليهود لكي تستدين بقيمة فائدة يضع شروطها المرابي مالك المال.

لكن "الطهريون" وهم جماعة بروتستانتية متطرفة نشأت في انجلترا، طالبت في القرنين السادس عشر والسابع عشر بالتمسك بأهداب الفضيلة، والفضيلة بالنسبة لهؤلاء هي العودة والالتزام بالتفسير الحرفي للكتاب المقدس باعتبار التوراة هي الأساس وهي كتاب الله المعصوم، اعتبر الطهريون أن كل ما قاله حاخامات اليهود سابقًا وجميع الفتاوى والنبوءات اليهودية تاريخًا لا يقبل التأويل وأصبغوا عليه صفة التقديس، واعتبروا شريعة موسى قانونًا، جعلوا اللغة العبرية لغة القداس في الكنائس وأطلقوا الأسماء العبرية على أبنائهم وقدسوا السبت بل

وادخلوا اللغة العبرية في مدارسهم، لا شك بأن عودة الطهريون البروتستانت إلى إعادة توظيف العهد القديم سياسيًا فيما يتعلق باليهود قد جعله حاضنة للثقافة اليهودية التي أتت فيما بعد وتجسدت في الصهيونية الدينية ثم بالصهيونية السياسة.

انسجم الطهريون البروتستانت في بريطانيا مع الإسرائيليين القدامى فأضحت بريطانيا كما لو أنها إسرائيل البريطانية أو صهيون الإنجليزية، وذهب الطهريون إلى أبعد من ذلك، فطالبوا بأن تكون الشريعة الموسوية (نسبة للنبي موسى) ملزمة للأمراء المسيحيين، وجعل اللغة العبرية لغة تداول في المجتمع، وقوى من عضد هذا الانسجام بين الطهريين البروتستانت واليهود في انجلترا؛ تلاقي المصالح الاقتصادية، لأن كلاهما يناصران الرأسمالية الجديدة، مع أن الفرق بينهما هو أن الرأسمالية اليهودية منذ بداية تقلص مركزية الكنيسة الكاثوليكية في المجتمعات الأوروبية، اتجهت نحو السياسة والمضاربة ولبست ثوب عادات الرأسمالية المنبوذة، وأما البروتستانتية الطهرية فقد تبنت المشروع البرجوازي أو ما سمي فيما بعد اقتصاد السوق الذي يعتمد على المنافسة والعرض والطلب.

وعليه فما كاد القرن السابع عشر يهل حتى بدت ظاهرة السامية بفضل الطهريون وأمثالهم وعوامل أخرى، وصارت تفرض نفسها في الأوساط الشعبية وتكتسب اعتراف الجهات الرسمية، وبدى التعاطف مع اليهود ملموسًا بسبب ما عانوه في الماضي، وصار اليهود يتنشقون شيئًا من الكبرياء، ثم راحوا يستذكرون الآمال في تحقيق نبوءة العودة إلى صهيون، وبناء على ما ذكر وما آلت إليه الكنيسة المسيحية بسبب تراجع السلطة الدينية نتيجة للتفسيرات والفتاوى التي لا تتطابق مع بعضها، وبسبب بروز القوميات وازدهار الاقتصاد، فقد صار الناس في أوروبا يتحسسون إمكانية قبول التفسير اليهودي للعهد القديم الذي يشير إلى أن أرض كنعان هي أرضك يا إسرائيل، ولحق ذلك محاولة إقناع الباحثين في الجامعات والمؤسسات البحثية على أن كلمة إسرائيل التي وردت في التوراة تعني كل يهود العالم، وهو ما يعني أنه لا بد أن يكون لهؤلاء اليهود رابط سياسي بمعنى

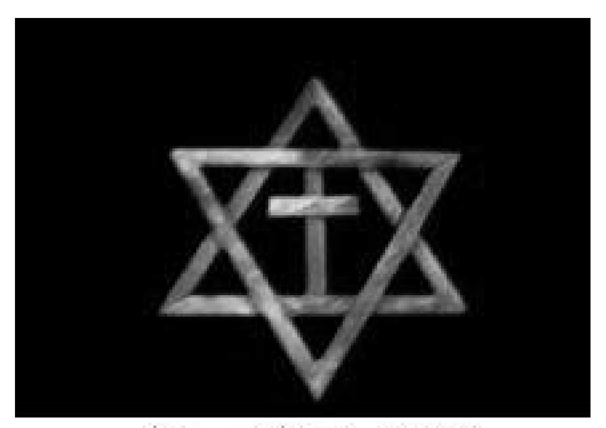
القومية، وهكذا راحت تتشكل الأيديولوجية الصهيونية لكي تأخذ بُعدًا أو تعريفًا قوميًا للصهيونية، أو يمكن القول بإن ما صنعه هؤلاء قد ترك أثرًا فيما بعد حينما برز دور العلمانيين في صنع الصهيونية حينما جعلوا العامل الديني رافدًا لجذب جميع أنظار اليهود في العالم إلى مشروع احتلال فلسطين، ولتحقيق ذلك وجعله نبوءة مُلزمة، عمل على قبول تفسير ارتباط زمن نهاية العالم بعودة المسيح الثانية، وإن هذا مرتبط بعودة اليهود إلى فلسطين.

على إثر هذا شاع في ذلك الوقت بين العامة في المجتمعات الأوروبية، إن من مصلحة البشرية أن تساهم في عودة اليهود إلى فلسطين، ليس حبًا باليهود أنفسهم، بل حتى تكتمل الرسالة الإلهية تتمة لنبوءة الكتاب المقدس حيث يعود السيد المسيح إلى الأرض كملك لمدة ألف عام "الحكم الألفي" مُقيدًا إبليس، وشاع هذا في انجلترا خلال القرن السابع عشر، وهو ما استطاعه الطهريون البروتستانت.

أما الكنائس الأخرى في أوروبا فقد رفضت هذه التفسيرات والنبوءات، رفضته الكنيسة الكاثوليكية ورفضه التيار الرئيسي للكنيسة الإنجيلية، ورفضته الكنيسة الأرثوذكسية الشرقية، وربط الرافضون الربط بين ما يدعيه الطهريون البروتستانت ومن هم على شاكلتهم من اليهود وغيرهم، رفضوا على أن اليهود شعب الله المختار بناء على التفسير الحرفي للتوراة، وقالوا إن المسيحية قد فتحت الباب للجميع، وأن الرب لا يميز بين الناس، ولا يفضل شعبًا علي شعب آخر.

في بداية القرن التاسع عشر عاد مرة أخرى إحياء الحركة الطهرية في بريطانيا وعلى إثر ذلك فقد تأسست جمعية لنشر المسيحية بين اليهود عام ١٨٠٧م، وصار الترويج لفكرة عودة اليهود إلى فلسطين، ولم يمض وقت طويل حتى تحولت تلك الجمعية من دعوة اليهود إلى المسيحية إلى دعم الفكرة الصهيونية، بعد ذلك اهتمت فرنسا أيضًا باليهود، وكان نابليون أول زعيم دولة يدعو إلى

دولة يهودية في فلسطين نتيجة للقروض التي منحها اليهود للحكومة الفرنسية وتمويل حملة نابليون لاحتلال الشرق الأوسط بما في ذلك فلسطين.



شعار الصهيونية المسيحية

استمرت الدعوات بعد ذلك خلال القرن التاسع عشر لتشجيع توطين اليهود في فلسطين وهو ما ساعد في خلق منظمة يهودية دينية سياسية أصبحت فيما بعد هي الصهيونية، ولكن أغنياء اليهود الأوروبيين في هذه المرة هم من راحوا يرفعون بنيانها بإخراج علماني أكثر من البعث الديني.

كان لسكان القارة الأمريكية دور هام في تقوية عضد الصهيونية، فمنذ أن وطأت أقدام الرجل الأوروبي الأبيض أراضي القارة الجديدة، راح يحتضن الأفكار الصهيونية، فكان لرجال الدين المسيحي في أمريكا فتاوى وادعاءات ليست أقل مما أتى به الطهريون في انجلترا، كلها بُنيت على أساس أن اليهود هم شعب الله المختار، وبميثاق الوعد الإلهي يرتبط اليهود بفلسطين والإيمان بعودة المسيح بقيام دولة اليهود لكي تبدأ الألفية.

يُستنتج مما سبق، بأن ما يطلق عليه "الصهيونية المسيحية" ليس له وجود في دائرة المنطق، فإذا كان قد استطاع من هم ربما أصلاً غير مسيحيين أو من خرجوا عن الكنيسة أن يشيعوا فتاوى ونبوءات، وأن يأخذوا التفسير الحرفي للتوراة أو أن يُستخدموا من قبل بعض اليهود الذين ساهموا كثيرًا في هذا، فإن

الحقيقة هي غير ذلك، والدليل أنه لا توجد صهيونية مسيحية مثلاً فـــي الشـــرق، وأن الكنيستين الكاثوليكية والأرثوذكسية ليستا على اتفاق مع الصهيونية، إذن ما كان ينشده الطهريون البروتستانت هو الالتحاف بالمســيحية والتســتر للتعمــيم وأخذها ستارًا لخدمة التيار الصهيوني الذي كان يعمل في الظلام لخوفه في ذلــك الوقت من المجاهرة بما كان يحلم في تحقيقه من أمجاد، إن من حسن التفكير أن نقول بإن ما يُسمى بالصهيونية المسيحية ليس له وجود على أرض الواقــع، إلا إذا كان من يُطلق عليهم الناس بالمسيحيين الصهاينة هم ليسوا مسيحيين، فقــد يكونوا من الفرق التي خرجت عن المسيحية أو هم حتــى مــن فــرق تمســحت بالمسيحية وليس لها أصول مسيحية، كأن تكون من اختراع دهاقنة الصــهيونية مثل شهود يهوه والمورمون وغيرهما.

إن كثيرًا من النخب البحثية العربية، ما تكاد تستقر على رأي حتى تصطدم بالرأي الآخر، لذلك هي لا تستطيع أن تُعطي تفسيرًا واحــدًا للصــهيونية، هنــاك مــن المفكرين العرب من يرى بأن الصهيونية هي نتاج النبوءات الرجعية والتفســير الحرفي للتوراة بل إنها نابعة من الشذوذ الإسرائيلي الناجم عن النزعة الدينيــة، ومنهم من يعتقد بأن الكيان الإسرائيلي قد ولد من الفكر الاستعماري الاقتصــادي الرأسمالي، لهذا لا يصح أن نعتبر أن كل السلبيات الصهيونية مردها إلى الــدين، فما دام الأمر كذلك فإننا نلمس بأن هناك افتراء ما على التاريخ، يــا تــرى أيــن الصواب.. لنحاول!

قبل كل شيء، يجب ألا ننسى أن الأرثوذكسية اليهودية قطاع كبير منها من رفض الصهيونية وعارضها منذ بذورها الأولى، والسبب هو خوف المؤسســة الدينيــة فقدان السيطرة على شتات اليهود ذي الرابط الديني الهش المتباعد جغرافيًا فــي بلاد العالم، لهذا عارض الحاخامات الهجرة اليهودية إلــى الأمــريكيتين وغــرب أوروبا، لهذا أيضًا يمكن القول بإن الحركة الصهيونية أوجدها في الأساس من هم ليسوا متدينين بل بدافع استعماري اقتصادي في الأساس، وإن كانت في بــداياتها تلبس ثوب اليهودية المتمثل بحماس أغنياء يهود أوروبــا للصــهيونية بهــدف

الاستثمار والربح، إن الصهيونية ما كـان لهـا أن تبـرز لـولا أن المجتمعـات الأوروبية استبدلت الدين كفكر شمولي تحكم طويلاً فـي المجتمعـات الأوروبيـة بالحكم الدنيوي، وهو ما جعل يهود أوروبا أيضًـا ينهضـون ويركبـون موجـة النهضة القومية الأوروبية وراحوا يقلدون ما ذهب إليه الأوروبيون، ومـن هنـا نبتت فكرة أن يكون لليهود وطن يمارسون عليه طقوسهم التاريخيـة والقوميـة أسوة بالآخرين.

إن غالبية نشطاء الصهيونية الأوائل كـانوا علمـانيين لا يمتـون لليهوديـة إلا بالأسماء والعرق من جهة أمهاتهم، إن الديانـة اليهوديـة تحلـل زواج المـرأة اليهودية من غير اليهودي، وحيث أن اليهودي يُعَرَّف بأنـه مَـنْ وُلـد مـن أم يهودية، لذا نستطيع أن نتخيل أن معظم يهود العالم لا يمتون بصلة إلـى يهـود الكتاب المقدس، وحيث إن آباءهم بُناء على ما نرى ليسـوا يهـودًا، فـإن مـن المفترض أن تكون لهم ثقافات تستند أساسًا على غير الديانة اليهودية أو ثقافة لا دينية، وهو ما يؤكد بأن الصهاينة الأوائل ومن بلوروا فكرتهم ووضـعوها فـي قالب النبوءات لم يكونوا إلا من العلمانيين، وإن تحـدثوا بحمـاس عـن الـدين لبسطاء اليهود المتدينين فإنهم كانوا يهدفون إلى زيادة عدد المهاجرين اليهـود إلى فلسطين حتى يكونوا ركيزة لهم في مشروعهم الاستعماري.

لذا نستطيع بسهولة أن نلمس، بأنه منذ إنشـاء إسـرائيل لـم يتـرك اليهـود الأوروبيون ولا الأمريكيون ومن على شاكلتهم بلادهم إلى فلسطين، لـم يتركـوا بلادهم بشكل جماعي ملموس، ولم يذهبوا للإقامة في إسرائيل، رغم أنهم أنفسهم هم من أقاموا الصهيونية في الأساس بل وسوقوها للبسطاء على أن فلسطين هي أرض الميعاد التي وعد الرب بها أتباع موسى.

إن غالبية سكان الكيان الإسرائيلي هم من الفقراء أتوا أو جيء بهـم مـن دول أوروبا الشرقية وممن ليسوا متدينين، وهكذا كان قادة الهجرة اليهودية الأولـى إلى فلسطين أمثال آشر غينتسبرج، أوسشيكين، بنسـيكر، موتسـكين، مـوزيس هيس، تيدور هرتزل، فاربورغ، ابنهـايمر، بودنهـايمر، وحتـى قـادة الهجـرة

اليهودية الثانية أمثال بن جوريون، بن تسفي، بيرل كتسنلسون، يتسحاق طبنكين كل هؤلاء وغيرهم كانوا علمانيين.

هذا، وهناك فرق إذا كان هناك نسبة من اليهود المتـديـنين قـد انضـموا إلـى الصهيونية فأُطلِق عليهم "الصهيونية الدينية" وليس الـدين الصـهيوني، ولكـن يتضح جليًا بأن الصهيونية لم تنشأ في الأساس من داخل اليهودية، لكنها نشـأت من البيئة والظروف الاجتماعية في المجتمعات الأوروبيـة التـي تطـورت فـي العصور الوسطي، لذا يمكن القول بإن الصهاينة بصفة عامة كـانوا متحمسـين للأساطير اليهودية، وإلا كيف يكون هناك مشروع بحجم بناء وطن جديد لا يستند على اختراع أيديولوجية ولا بد من زرع جذور لها في التاريخ لكي تبدو ثقافة لها لون مختلف عن الآخرين، ما زال الصهاينة في إسرائيل يبحثون لهم عن جـذور من خلال التنقيب، عسى أن يكون هناك شيء يمكن أن يقال عنـه بإنـه هيكـل سليمان المزعوم.

وعلى ذلك يمكن القول بإن الدين اليهودي قد انضم للحركة الصهيونية في وقـت متأخر، بل وأدخل الدين في نسيج الحركة الصهيونية بشكل فعال غداة المـؤتمر الصهيوني الأول عام ١٨٩٧م، حينما جرى البحث على أجلاس أحد الحاخامـات ذوي اللبس الأسود الطويل عند المنصة كرمز على أن الصهيونية تنطلق أيضًـا من أجل اليهودية، علمًا بأن هرتزل في بداية دعوته للصهيونية حـاول اسـتمالة اليهود المتدينين فلم يستجب لدعوته إلا القليلون، وها هـو الصـهيوني العتيـد "تيدور هرتزل" أيضًا يبرهن مبكرًا على أن الصهيونية لـم تنشـأ مـن الديانـة اليهودية، يقول في كتابه الدولة اليهود "نحن سنكون هناك جزءًا مـن الحصـن الأوروبي ضد آسيا، وموقع محصن مقابل البربرية"، ويضيف هرتزل: "سيقال إن الفقراء فقط سيجيئون معنا لكن هؤلاء بالذات هم الذين نريـدهم فـي البدايـة، اليائسون فقط سيكونون محتلين جيدين".

المتمعن في السنوات على مدى ما ينيف عن الستين عامًا منـذ إنشـاء الكيـان الصهيوني في فلسطين وحتى الآن (٢٠١٠ م)، يُدرك بسـهولة أنـه لـم يكـن

للمتدينين في إسرائيل دور رئيسي في السياسة الإسرائيلية، ولم يكونوا أبدًا حكامًا لإسرائيل، فما زالوا ملتزمين بل ومحاصرين في معابدهم منذ انتهاء المؤتمر الصهيوني الأول، فحينما سُئِل هرتزل عن شعوره بعد انتهاء المؤتمر المذكور، قال أستطيع القول بإننا أقمنا الدولة الإسرائيلية"، ومن أقواله في تلك المناسبة أيضًا أنه قال ما معناه، إن على رجال الدين اليهود في إسرائيل القادمة، أن يعودوا إلى معابدهم كما الجيش يعود إلى ثكناته، أي أن الحكم لن يكون لهم في الدولة الصهيونية.

تعريف الصهيونية:

إن تعريف الصهيونية في الظاهر يبدو سهلاً، لكنه في الحقيقة ليس كذلك خصوصًا وأن التعريف الغربي هو غير التعريف العربي والإسلامي، أما التعريف اليهودي فيأتي بين التعريفين، لهذا دعنا نبحر في هذا البحث في كل الاتجاهات فلا ننقاد لخط سير واحد حتى لو تعارض المسار مع قناعات لنا سابقة، لأن من أفضل الوسائل للوصول إلى الفكرة الثالثة، هو صدام الفكرة الأولى مع الفكرة الثانية.

إن التعريف الغربي للصهيونية معناه الأمل، بمعنى التخلص من العبء اليهودي في المجتمعات الغربية، وحل ما سمي بالمشكلة اليهودية بما يريح الغرب واليهود أنفسهم أو ما يمكن أن نطلق عليه حل المشكلة اليهودية، وأما التعريف العربي للصهيونية، فهو إنها عدوان ومؤامرة تتجسد في أنها، أعطى من لا يملك حقًا لمن لا يستحق، فالصهيونية عدوان صريح على قطعة غالية من الوطن العربي لها مكانة دينية عند العرب والمسلمين، التعريف اليهودي للصهيونية، هو بين التعريف الغربي والتعريف العربي، وأسوأ الأمور هنا هو أوسطها بوجه خاص ما دام الأمر يتعلق بالصهيونية والدولة الصهيونية! فالصهيونية بالنسبة لليهود إضافة إلى أنها مشروع بالمعنى الغربي، إلا أنها مشروع حلولي يستند إلى نبوءات أتى بها اليهود بناء على ما جبلت عليه النفسية اليهودية من طمع

وجشع واسترخاص ما للغير أو ما لكل من يطلقون اليهود عليهم الأغيـــار، لقــد استغل اليهود سبقهم في تدوين التاريخ وقدم الديانة اليهودية واستمرار الحـــوار معها، وبسبب استضعافهم بين الأمم لم يجدوا سوى التسلح بالمثاليات ويلبســوا أنفسهم بها، فهم الأفضل في كل شيء، واختياراتهم فوق كل البشر لأنهم وضعوا أنفسهم فوق كل البشر، كأنهم لا يمشون على الأرض ولا يستنشقون نفس الهواء كما الآخرون.

وفي كل الأحوال فإن من يقفون خلف الصهيونية ويدعمونها، يدعون في الظـــاهر بأنها تعني عودة اليهود إلى أرضهم وتراثهم وما يمكن أن يقول الإنسان عنـــدما يحن إلى شيء بعيد المنال، لذلك لا يمكن الركون إلى تعريف واحـــد للصــــهيونية فسرعان ما نجد المعنى يتراجع كلما تمادينا في الحديث عن هذا المعنى الرمــز، الذي يمكن تفسيره بطرق كثيرة تبعًا لغاية من له علاقة!

الصهيونية في الظاهر وكما تشيع آلة الإعلام الصهيونية ومن يسير خلفها، هـــي آلية تحقيق المشيحانية وعودة المسيح لكي تبدأ بعد ذلك دولة الألف عام, ولكـــن من منظور الكثيرين ليس للدين علاقة بها بسبب أنها تجمع ألوان مختلفـــة مـــن الطيف اليهودي الذي يبدأ باليهودية الأرثوذكسية وينتهي بالعلمانية واللا دينيـــة، ومن الطبيعي أن تكون النظرة المستقبلية لكل تيار تختلف عن التيارات الأخـــرى، أذن لو صح هذا التعريف فإن التقاء الساعين إلى تحقيق الحلم، مكتوب لهـــم أن يختلفوا بعد تحقيق الهدف لكثرة التعريفات والتفسيرات والتناقضات كما ســـنرى في التالي.

بصورة أخرى، الصهيونية حركة سياسية تسعى لحل المشكلة اليهودية بالتوطين في أرض الميعاد (فلسطين)، وحسب المصطلحات الصهيونية فإنها حركة وطنيـــة لإعادة الشعب اليهودي إلى وطنه، ورغم أن التعريف الصهيوني مضلل فإنهم في النهاية تمكنوا من إنشاء دولة إسرائيل، علمًا بأنه لا تنطبـــق علـــى الصــــهيونية مفاهيم الحركات الوطنية التي تنبع وسط شعب موجود على أرض معينة ويواجـــه تحديات داخلية وخارجية، كما أن اليهود ليسوا بشعب، لأنهم ينتمون إلى قوميات

وعرقيات مختلفة، فغالبيتهم من يهود الخزر الذين يعودون في أصولهم إلى قبائل تركية تترية قديمة، فضلاً عن يهود العرب والفلاشا السود وغيرهم، كما أن التضليل لا يقف عند هذا فقط بل إن استعمال مصطلح أرض إسرائيل يلغي نحو أربعة آلاف عام من التاريخ المعلوم الذي لم تكن فيه أرض تعرف بهذا الاسم، وربما كان الأفضل لتحقيق الانسجام التاريخي أن يكون حديث الصهاينة اليهود عن مناطق شمال القوقاز بين البحر الأسود وبحر قزوين (الخزر).

الصهيونية هي مثل أي مشروع.. ما يزال يصعد حتى يصل إلى القمة ويتوقف، ومتى توقف فإنه سيسير في الطريق العكسي للصعود. لا بأس أن نستمر ونتابع للتعرف على إيحاءات الاستدلال على ما قد تؤول إليه الصهيونية مهما كانت الصورة أو التسمية التي تحملها في أي عصر، سواء كانت على صورة رمز حركي مثل كلمة الصهيونية أو الدولة الإسرائيلية أو دولة اليهود الخ.

يمكن تصور ما يمكن أن يكون عليه تعريف الصهيونية مستقبلاً إذا تذكرنا ماذا كان أصحاب كل فكر يعطون معنى للصهيونية، كانت هناك الصهيونية العمالية، والصهيونية المسيحية، والصهيونية صهيون، والصهيونية بلا صهيونية، والأخيرة هي التي تحكم الآن في إسرائيل (٢٠١٠م)، هذا وهناك أنواع أخرى من الصهيونية مع مرور الوقت، مثل صهيونية الدياسبرا التوطينيين (الجاليات اليهودية في دول العالم الذين يتمسكون بأوطانهم التي ولدوا فيها)، كما توجد أسماء أخرى للصهيونية، مثل الصهيونية الدبلوماسية، والصهيونية العملية، والصهيونية التوفيقية، والصهيونية الثقافية، وأخيرًا ظهرت أنواع أخرى من الصهيونية، مثل الصهيونية الديمقراطية، والصهيونية العمالية، والصهيونية التصحيحية، والصهيونية الراديكالية، وكل صهيونية لها توجُّهها وأسلوبها الخاص وإن كانت جميعًا لا تختلف في الهدف من ناحية الالتقاء عند سقف ما.

إذا كان كل الذين قد انطبق عليهم تعريفات الصهيونية التي ذكرناها على اختلاف أيديولوجياتهم يعملون من أجل بناء وطن ديني أو قومي أو اقتصادي لليهود في فلسطين، وإذا كنا قد استنبطنا أنه من الممكن أن تكون هناك صهيونية الذين لا

يرغبون الهجرة أو صهيونية الصالونات أو أصحاب الشيكات الذين يدعمون المشروع الصهيوني في فلسطين لكنهم لن يذهبوا للعيش في الدولة المزعومة، فهل يمكن القول بإن النازية التي عملت على طرد اليهود وترويعهم هي صهيونية النازية للتخلص من اليهود بإرهابهم وقتلهم لدفع من تبقى منهم باللحاق سريعًا بالآخرين! بعض زعماء النازية خلال محاكماتهم، قالوا بإنهم صهاينة وهم مقتنعون بأن أرض اليهود هي فلسطين، وقد حاولوا على طريقتهم بأن يدفعوا اليهود إلى الهجرة إلى فلسطين! فهل الذين مارسوا العنصرية واللا سامية ضد اليهود في أوروبا هم أيضًا صهاينة!

لما كان اليهود لا يجمعهم عرق واحد ولا وطن واحد، وكونهم قد اختلطوا وتزاوجوا مع الشعوب الأخرى، وانحصر تعريف اليهودي بمن أمه يهودية أو من تهود، فقد كانت اليهودية عقيدة وطقوس دينية، وأضحى لا يربط اليهودي باليهودي بالتراث اليهودي التوراتي إلا طقوس العبادة، لذا فقد أصبح اليهود في الغالب أقل تمسكًا بتفاسير التوراة من بعض المسيحيين، لقد أضحى البروتستانت أكثر تمسكًا بالتفسير الحرفي للتوراة من كثير من الاتجاهات الدينية اليهودية، كما أن العامل الاقتصادي قد لعب دورًا كبيرًا في أهداف الصهيونية، فلو وجد أصحاب المشروع الصهيوني القومي من أمثال هرتزل أن لا فائدة اقتصادية كتعبير عن عدم وقوف القوى الرأسمالية خلف مشروعه الصهيوني، لما استمر فيه حتى النهاية، لماذا أيضًا لا يكون تمويل أغنياء اليهود في أوروبا الغربية لبناء وطن يستوعب المهاجرين اليهود القادمين من روسيا الهدف منه هو عدم قدوم المهاجرين الروس إلى أوروبا الغربية، حتى لا تتزعزع مكانة يهود أوروبا الاجتماعية والاقتصادية.

مهما حاول أساطين الصهيونية وأعلامهم أن يضفوا معاني وصفات إيجابية على الصهيونية التي غزت فلسطين أرض شعب آخر، فإنهم لن يستطيعوا إخفاء حقيقة بأن من ساهم بنصيب الأسد في تحقيق الوطن القومي لليهود هو الغرب الذي له ما له من أهداف، ووجد من مصلحته أن يجعل الحلم الصهيوني حقيقة، فلو أن

الغرب لم يكن يهدف إلى تقسيم الوطن العربي إلى أفريقـي وآسـيوي لتصـعيب تحقيق الوحدة العربية، ولولا أنه - أي الغرب - أراد أن يضع حـدًا لطموحـات محمد علي (مصر) في بناء قوة عربية منيعة في المنطقة، ولولا أن الغـرب قـد ألغى وجود الشعب الفلسطيني حينما أصدرت بريطانيا وعد بلفور الذي يقرر بناء وطن قومي لليهود في فلسطين واستعمال عبارة "ألا يضـر بحقـوق الجماعـات الأخرى من غير اليهود" بما في ذلك ما للعبارة من لبس وسوء نية، لأن معناهـا أن فلسطين لا يسكنها شعب، أي إنها أرض بلا شعب، ولولا أن الغرب قد اعترف بدولة إسرائيل وجعل الأمم المتحدة تعترف بإسرائيل قبل أن يحل مشكلة اللاجئين الفلسطينيين، ولولا التسهيلات والمساعدات السخية للحركة الصهيونية ولإسرائيل بعد ذلك لما استطاع اليهود أن يعلنوا لهم دولة عام ١٩٤٨م، وتلك نقطة مهمـة ليت كل إنسان عربي يعيها جيدًا.

"يوري افنيري" يُشبِّه الصهيونية بالبيوريتانية نسبة إلى البيوريتان أو التطهريون، البيوريتان هم أعضاء حركة دينية نصرانية اجتماعية ظهرت خلال القرن السادس عشر والسابع عشر الميلاديين في انجلترا، ثم انتشرت في الولايـات المتحـدة الأمريكية، حيث كان لها تأثير على المؤسسات الاجتماعية والسياسية والدينيـة، ولذلك هناك صهيونية توطينية وصهيونية استيطانية وكلاهما تختلف عن الأخرى اختلافا كبيرًا، بمعنى أن الصهيوني بعد أن يستوطن فلسطين تصبح لـه دوافـع مختلفة عن الهدف الأساسي من القدوم إليها حيث الاقتصاد والظروف الاجتماعية تلعب دورها في البقاء على الأسباب الأولى لتصبح مجرد تراث وتاريخ، ويـذهب بعض الباحثين من اليهود بالقول إن الصهيونية لم تكن سوى حركة إنقاذ أوجدت حلاً للمشكلة اليهودية في شرق أوروبا ولم يعد لوجودها مبرر.

العرب يرون أن الصهيونية ببساطة هي حركة استعمارية استيطانية دينية، لأنهـا ركزت على الجغرافيا باعتبار أن فلسطين هي أرض التراث اليهودي، لكن الهدف الصهيوني لم يكن نقيًا ومنسجمًا مع حركة التاريخ، فربما كانت فلسـطين يومًـا وطنًا لليهود لكنها بعد ذلك أصبحت جزء من التراث العربي الإسلامي، وكما كانت

قبل تواجد بني إسرائيل وقبلهم العبرانيون فيها، وهذا ما سيجعل الصراع محتدمًا بين العرب واليهود ليظل في النهاية ليس مشكلة بين الفلسطينيين والمستوطنين اليهود وإنما بين قوميتين، العربية والصهيونية اليهودية، ولن يتوقف الصراع حتى تحتوي إحداهما الأخرى إلى حد أن تصبح القومية المغلوبة لا تعني بالنسبة لمن ينحدرون منها سوى أنها ليست أكثر من مجرد آثار تاريخية، لذلك فإن الصراع القومي العربي مع الصهيونية لا يبدو أن له نهاية في المستقبل المنظور.

لا شك بأن الصهيونية ما زالت حركة نشطة وما زال بناؤها يتسع ويعلوا على حساب القومية العربية، لكن حركة القومية العربية بدأت تستفيق لأسباب كثيرة، لو أخذنا بعض هذه الأسباب من هذا العصر وحاكمناه أو احتكمنا إليه فيمكن أن ندرك حينها بأن الصراع بين اليهودية القومية (الصهيونية) وبين العروبة سيشتد وطيسه مع الأيام، وسيأخذ صورة الصراع الأيديولوجي الثقافي أكثر من الحروب العسكرية، صحيح أن الصهيونية لها ذراع إعلامي طويل ولها من المساندة الغربية ما لها من رصيد، وصحيح أن العرب ما زالوا لا يستطيعون أن يتعارضوا مع المصالح الغربية جهارًا، إلا أن الصهيونية تظل محدودة الطاقة وموجات التاريخ مستمرة في القدوم والبحر لا يظل ساكنًا، كما أن القومية العربية وإن ابتسمت مجبرة للواقع فهذا ليس معناه بأنها تقبل الزوال، وخير دليل على ذلك اتفاقيات السلام التي عقدت بين كل من إسرائيل ومصر والأردن، لم تؤت تلك الاتفاقيات أكلها بالنسبة للدولة الصهيونية بعد على مدى كل السنوات الماضية، فلم تكن أكثر من حبر على ورق، وإن الشارع العربي في كلتا الدولتين ما زال يزداد عداء مع الدولة الصهيونية، وإن بدت الحكومات متصالحة مع إسرائيل.

ثم كيف يمكننا أن نطلق على الصهيونية بأنها القومية اليهودية في حين أن أغلب يهود العالم متمسكون بأوطانهم الأصلية وإن كانت الصهيونية تحاول صهينة يهود العالم بكل الطرق الممكنة لأجل أن تدعي بأنها المركز الأخلاقي والقومي لليهود، وهنا فرق بين القومية العربية والصهيونية القومية.

بالنسبة للعرب، القومية كانت موجودة وظلت مستمرة بعد وصول الرسالة الإسلامية، أما بالنسبة للصهيونية فإن القومية لم تكن موجودة حتى في ذاكرة العبرانيين، وربما الأقرب أن يكون اليهود أقرب إلى القومية السامية التي تجمعهم مع العرب أكثر وأعمق من فكر علماني لا ينبع من بيئة نشأت فيها الأمة، إذن وجود معظم اليهود ليس في الوطن القومي المزعوم لعدم انتمائهم القومي، ووجود معسكرات اللاجئين الفلسطينيين المحيطة بالدولة الصهيونية تتكدس مع الأيام لن يجعل مستقبلاً آمنًا لدولة صهيون.

وربما كانت الصهيونية هي إحدى وسائل الحل للمسألة اليهودية كما تراءت لزعمائها، إلا أن مبرراتها لم تستند على أسباب أخلاقية، فالصهيونية في الأساس هي حركة علمانية وأي حركة علمانية هي مدخل واسع للرأسمالية التي تعتمد أصلاً على مبدأ المنافسة والمصلحة والربح المادي، لقد كان العنصر اليهودي منبوذًا عضويًا في المجتمعات الغربية، لأنه كان معزولاً ومتقوقعًا على نفسه، لا يفيد من يعيش بينهم بل إنه يعيش عليهم، يأخذ منهم ولا يعطيهم، لذا وجد الأوروبيون أن ما لا ينفع يجب نقله لكي يصبح له وظيفة ويعطي مردودًا نافعًا.

في الماضي كان ينقل المساجين من قطر إلى آخر، فبدلاً من كونهم ضارِّين في مجتمع ما، بعد نقلهم إلى بلد آخر يصبحون نافعين، وهذا ما حدث بالفعل حينما كانت بريطانيا تنقل المساجين إلى استراليا ويصبحون منتجين، أو كما عمل الأوروبيون حينما كانوا يدفعون العتاة والعصاة والأقوياء ويغرونهم ويقذفون بهم إلى أرض العالم الجديد (أمريكا) لكي يحققوا أهدافًا نافعة، الأمر هنا لم يختلف من حيث المبدأ مع ما كان يقوم به الفرد اليهودي في المجتمعات التي يعيش فيها من تبعية ووظيفة للقبول به، وأصبح بدلاً من توظيف فرد واحد، صار يراد توظيف جماعات بحجم الطائفة والكم البشري مثل يهود أوروبا الذين قدموا إليها من الشرق، وذلك لكي يصبح لهم عمل نافع لمن يديرهم.

لهذا، اغتنم الصهاينة القوميون ما سعت إليه الرأسمالية الغربية وراحت تنظم عملية إخراج اليهود إلى أي منطقة غير تواجدهم في أوروبا خصوصًا اليهود الذين وصلوا من روسيا، ومن هنا التقت مصالح الصهيونية مع مصالح الدول الأوروبية التي اكتشفت وجود وظيفة لليهود بحجم خدمة المصالح الغربية في الشرق المتمثل بما يمكن أن يقدمه وجود دولة دائمة مرتبطة عضويًا ماديًا ومعنويًا وحضاريًا بالغرب الرأسمالي، ولهذا كان وعد بلفور عام ١٩١٧م، وكان إعلان ضمان أمن إسرائيل الذي وقَّعته الدول الأوروبية مجتمعة، ثم كان التحالف الاستراتيجي بين أمريكا وإسرائيل الذي وقَّعته الدولتان.

وهنا، أصبح يوجد تعريف آخر للصهيونية بغضِ النظر عن المقدمات والتمهيد والديباجات، هو صهيونية غير اليهود وصهيونية المصلحة، فإذا تخيلنا أن بعض الدول الأوروبية أبدت تحمسًا للوطن القومي اليهودي بما كان يفوق أحيانًا تطلعات الصهاينة أنفسهم الساعين إلى بناء دولة لليهود، بل إن الصهيونية المسيحية عمدت على الدفع في اتجاه أن يكون وطن اليهود في فلسطين وليس في أي مكان آخر، كونها تؤمن بالتفسير الحرفي للتوراة، لذا يمكن القول بإن التعريف الأقرب للصهيونية، هو أنها حركة فكرية سياسية اقتصادية اجتماعية ما كان لها أن تعيش إلا باستمرار وجود الحضارة الغربية.

بالنسبة لليهود أنفسهم رغم أن القائمين على الصهيونية هم العلمانيون، إلا أن هؤلاء بسبب مرونتهم السياسية وعدم تجمدهم عند النبوءات الدينية، استطاعوا إلى حد كبير أن يربطوا كل التيارات الصهيونية بالمشروع الوظيفي للدولة الناشئة، وحسموا الأمر إرضاء للمتدينين اليهود بأن قالوا بإننا جميعًا أبناء إبراهيم وإسحاق ويعقوب، وحلولية التقديس تمتد إلينا جميعًا، ولذلك تم الاعتراف بأن أي يهودي علماني أم ديني هو مقدس بغض النظر عن مصدر التقديس له، وهكذا حُسم الأمر وتم مزاوجة الهدف الغربي من إخراج اليهود من مجتمع ينبذهم إلى أرض يكون لهم فيها وظيفة، يخدمون الغير ويخدمون أنفسهم، ويصبحون منتجين بدل أن كانوا صامتين، وهذا مما يثبت بأن المشروع

الصهيوني هو شراكة غربية، بل إنه بلا مبالغة مشروع غربي أكثر منه صهيوني، فحينما كان الحديث عن الوطن القومي الذي يمكن أن يعيش فيه اليهود، كان عن أي بلد بما فيها فلسطين، ثم إن صياغة الشعارات الصهيونية التي شدت اهتمام الشبيبة اليهودية حين تأسيس الحركة الصهيونية، أصدرها أساسًا المسيحيون المتصهيونون في الغرب.

اللورد شافتسبري البريطاني، كان أول من استعمل الشعار العلماني في منتصف القرن التاسع عشر، "الأرض القديمة للشعب القديم"، وتطور الشعار بعد ذلك إلى "أرض بلا شعب لشعب بلا أرض"، ولكي يكون الإغراء أكثر إقناعًا فلم يشر أصحابه إلى الشعب الذي يسكن تلك الأرض لعدم اعتبارهم أي قيمة للأمة العربية تمشيًا مع روح نظرة المستعمرين للأمم الخاضعة، في النهاية تم إنجاز المشروع الصهيوني في عملية النقل المزدوج بزحزحة يهود المنفى ودفعهم للاستيطان في فلسطين! وفي نفس الوقت زحزحة الفلسطينيين وإجبارهم على ترك وطنهم إلى المنفى!

إن المشروع الغربي الحضاري المتمثل بالمشروع الصهيوني، يعتبر في غاية الدقة من ناحية نسجه وانسجامه مع الفكرة والخطة، فعوضًا عن الزخم المادي والسياسي الذي وقف خلف المشروع، فقد وضعت له الخطة الإعلامية التي تموه ما يخفي المشروع خلفه من ظلم للآخرين، فقد اعتادت القوى الغربية، بريطانيا بالذات، على التلاعب بالشعارات وبالصكوك التي تصدرها بحيث يصبح الشعار مرجع في حد ذاته يُخفي بريقه ما يحمل من مضمون أو ضرر للآخرين، فيكون أحيانًا اشد إغراء للظالم فلا يتخيل حجم المعاناة، وأكثر خداعًا للمظلوم فينسى ولو مؤقتًا ما قد يقع عليه من ظلم فيما يأتي مع الأيام، الشعار "أرض بلا شعب لشعب بلا أرض"، هو من هذا النوع من الصكوك، وهو في الحقيقة يعني إبادة شعب كامل وإسقاط هويته الوطنية.

يزعم الطرح اليهودي الإيماني للديانة اليهودية، بأن اليهود هم الشعب الشاهد على الآخرين من عبدة الديانات الأخرى، لأن الإله والشعب اليهودي هو المقدس

ما دام الإله يمكن أن يحل في البشر، وأن الإله هو مَنْ وعد أبناءه اليهود بأرض الميعاد فأضحى الإله والشعب اليهودي وأرض الميعاد شيئًا واحدًا مقدسًا لا يصح أحدهم إلا بالآخرين! وهذا ما لم يحصل عليه الآخرون من قداسة من أصحاب الأديان الأخرى الذين يؤمنون بإله واحد يُحاسبهم على أفعالهم وسلوكهم، إذا لم نرد أن نأخذ هذا المفهوم كما هو، ولجأنا إلى العقل والمنطق لنبحث قناعاتنا، نجد أن هذا مجرد وهم من الأوهام، وربما هو صلف وعدم احترام لبني البشر الآخرين وتسلط واستبداد بالرأي وحب مفرط للملكية، وتعدي على القيم والمثل والفطرة البشرية.

ليس من الصعوبة إمكان دحض أوهام بني صهيون، وفضح هالة التقديس التي يصبغونها على أنفسهم، فمن أبسط الأمور أنهم ليسوا شعبًا واحدًا نقيًا حتى يوظفوا النقاء فيما يزعمون (عبد الوهاب المسيري)، ثم إن الله قد خلقهم كما خلق بني البشر الآخرين، وأن اليهودي هو من وُلِدَ لأم يهودية أو من تهود، وفي كلا الحالين فإن الإنسان اليهودي هو مزيج من أعراق مختلفة لو احتكمنا فقط إلى تعريف من هو اليهودي، فما بالنا وأن اليهود أصلاً لا يعيشون على أرض واحدة، يهودي بريطاني، ويهودي فرنسي، ويهودي أمريكي، ويهودي يمني، ويهودي روسي، ويهودي مصري، ويهودي إثيوبي الخ، وقد أدى هذا إلى تركيب يهودي بيولوجي غير متجانس، فكيف إذن يسحبون على أنفسهم هالة التقديس!

من ناحية أخرى، إن من الواضح أن الجماعات اليهودية تعيش في كنف مجتمعات تختلف عن بعضها في ثقافاتها، وأن اليهود معزولين أيضًا فيها، ويقومون بوظائف ومهمات تختلف حسب كل مجتمع يقيمون فيه، فقد أدى هذا أيضًا إلى عدم وجود الرابط القومي المزعوم في وجدان كل يهودي، بمعنى أن اليهودية دين وليست قومية، والعقائد لا حدود جغرافية لها، فقد يكون للجسد البشري حيز في المكان ولكن لا توجد حدود للفكر، وهذه البراهين هي ما يبطل مقولة القومية اليهودية، في نفس الوقت علينا ألا ننكر، بأن الصهيونية ما زالت تقوم بعمل الكثير من أجل ترسيخ أن اليهود عرق واحد بكل وسائل الزيف وإنهم

أبناء الله، وأن الرابط العاطفي بين اليهود يوجِد بهم الشعور القومي الذي يربط الشعب بهوية الأرض.

يقول المؤرخ اليهودي الإسرائيلي "شلومو زانت" في كتابه "كيف تمّ اختراع الشعب اليهودي"، ذلك الكتاب الذي عمل دويًا كبيرًا عند المؤرخين والمهتمين العرب والأجانب، وتُرجم إلى لغات كثيرة، قال الرجل الذي لا يمكن اتهامه بالعداء للصهيونية أو للسامية بناء على أدلة وبراهين ومراجع عديدة، قال إن كل ما قيل عن تهجير اليهود بالقوة من فلسطين بعد تدمير الهيكل هو خرافة، وكل ما قيل عن نقاء العرق اليهودي في المنافي على مدى القرون أو أن من عادوا إلى فلسطين هم من نسل من طردوا قبل ألفي عام، ومن هاجروا من مصر إلى فلسطين وأقاموا مملكة داود وسليمان، كل هذا يقول عنه "زانت"، خرافات في خرافات، وأساطير وخيال أرادوها حقائق على الأرض على حساب الآخرين، المؤرخ شلومو زانت عمل على فضح كل ما ادعته الصهيونية في القرن التاسع عشر لنسج الأسطورة التي على أساسها أقيمت دولة إسرائيل، كما وأشار إلى كل ما كان يقوله "ديفيد بن جوريون" في أواخر عشرينات القرن العشرين الذي أصبح فيما بعد أول رئيس وزراء لإسرائيل، قال ديفيد بن جوريون حينها، إن الفلسطينيين هم أحفاد العبرانيين القدامى وسيحتضنون إخوتهم اليهود المهاجرين القادمين إلى فلسطين، ولما تمسك الفلسطينيون بوطنهم وعروبتهم غيَّر بن جوريون أطروحته، وذهب يدَّعي بأن الفلسطينيين أجانب أتوا إلى فلسطين بعد أن دمر الرومان الهيكل.

ويقول الناشط الحقوقي "منصف المرزوقي" (بحث قضايا وحوارات – موقع المؤرخ) في تحليل كتاب شلومو زانت: "السؤال الذي يطرح بعد قراءة هذا الكتاب هو هل نحن أمام ظاهرة خاصة يختص بها اليهود أم هل نحن أمام قانون عام؟ أي أن كل تواريخ الأمم التي تدرس في المدارس الثانوية مفبركة من الألف إلى الياء".

هناك أمثلة كثيرة على تزييف التاريخ، يقوم بها المنتصرون أو القـادرون في الأمم لأهداف سياسية محضة، يقول منصف المرزوقي، "الثابت إذن أن التـاريخ المكتوب ليس صورة مطابقة للأصل عن الماضي - ولو بثغرات ووضوح متفاوت- وإنما هو دومًا تفويض له لتفسير وتبرير أو خلق وضع خاضع لأجندة سياسية مسبقة"، هل التاريخ الذي تم تدريسه لطلبة المدارس في روسيا بعد الثورة البلشفية مثلاً، هل هو تاريخ روسيا الحقيقي بل هل التاريخ العربي الذي يدرس الآن في كل دولة عربية على حدة، هل هو التاريخ العربي الحقيقي بما يعني القائمون في الدولة الإقليمية الواحدة! طبعا لا.. والأمثلة على هذا حتى بين الأمم الأخرى لا تُعد ولا تحصى!

إن من المهم الآن، أن نُحدد المعنى الصحيح للدولة اليهودية، إن معنى الدولة الإسرائيلية هو الاسم المرادف للدولة الصهيونية، لكن الأصح هو الدولة الصهيونية، لأن الإسرائيلية هو اسم خادع فقد يظن من لا يعرفون بأن الدولة الإسرائيلية هي امتداد للعهد الإسرائيلي الذي ظهر في فلسطين قبل ٢٠٠٠ عام، أما الدولة الصهيونية فهي التي وجدت على أساس الحركة التي أعطيت اسمًا عالميًا عام ١٨٩٧م فقيل عنها الحركة الصهيونية العالمية، وهي في الأساس ليست حركة عالمية، لأنها أول ما وجدت في أوروبا الغربية فقبل إيجادها كان معظم المهاجرين اليهود الذين قدموا من روسيا وأوروبا الشرقية قد استقروا في دول أوروبا الغربية، لكن أصحاب المشروع الصهيوني يطلقون على الحركة، الصهيونية العالمية، بهدف القول بإن يهود العالم كلهم صهاينة ويجمعهم هدف واحد، وهم في الحقيقة ليسوا كذلك.

في هذه الأيام (٢٠١٠ م)، تقوم الصهيونية وإسرائيل بحملة كبيرة تتبناها الولايات المتحدة الأمريكية التي بها نفوذ يهودي صهيوني كبير، فتشترط إسرائيل على العرب لكي تتخلى عن بعض الأراضي المحتلة أو عن قبول إقامة دولة للفلسطينيين بجانب إسرائيل، تشترط أن يعترف العرب بإسرائيل دولة يهودية، الصهاينة يهدفون إلى أن يؤرخوا للدولة الصهيونية التي رفضها العرب منذ عام

١٩٤٨م، بأن تاريخها يمتد في العمق منذ أن وجد اليهود، ولا يريدون أن يؤرخوا لها بأنها لم تنشأ إلا بوعد بلفور عام ١٩١٧ م من بريطانيا وحرب ١٩٤٨م وتهجير الفلسطينيين أصحاب الأرض.

الصهيونية تنقسم إلى قسمين رئيسيين، الصهيونية القومية، والصهيونية الوطنية، بغضِّ النظر عن خصوصية الفروع لكل قسم كالفرع الديني أو العلماني أو الاشتراكي أو الرأسمالي الخ.

الصهيونية القومية وقد وجد أعضاؤها ومؤيدوها داخل التشكيل الحضاري الغربي المتمثل في الغالب من نسيج المهاجرين الذين أقاموا في فرنسا، انجلترا، ألمانيا، النمسا، ومنهم من أيَّد الهجرة إلى إسرائيل والإقامة فيها.

الصهيونية الوطنية، وغالبية مؤيديها يقطنون في التشكيل الاستعماري الاستيطاني الغربي في كل من الولايات المتحدة، كندا، استراليا، نيوزيلندا، أمريكا اللاتينية، جنوب أفريقيا، إسرائيل، وهم من رفعوا راية الصهيونية وهم أكثرية اليهود، لكنهم فضلوا أن تكون إسرائيل مركزًا أخلاقيًا ليهود العالم، لكن ليس بالضرورة أو يتوجب الإقامة فيها، ولا مانع من مساعدتها بالمال وغيره دون الإقامة فيها، وهؤلاء لا يعتبرون تواجدهم في تلك الأوطان منفى لهم، ومنهم من استوطن إسرائيل أيضًا، وحسبنا أن نعلم أيضًا وبصورة أخرى، بأن كلمة "عالمية" في الحركة الصهيونية العالمية، لا تعني أن الحركة الصهيونية هي عالمية بقدر ما كان يظن أصحاب المشروع الصهيوني، بأن دول أوروبا الغربية هي مركز العالم بسبب موقعها وتفوقها حضاريًا على الآخرين.

وهنا لا بد من الحديث بصورة أخرى ولو قليلاً عن الصهيوني التوطيني، فحينما يقرر مثلا أحد يهود مناطق دول أوروبا الشرقية (الاتحاد السوفييتي سابقًا) أن يهاجر إلى الوطن اليهودي المزعوم، فإنه يُعلن عن نفسه للحركة الصهيونية، ويمضي إلى الحصول إلى تأشيرة الهجرة إلى إسرائيل فيحصل عليها ويخرج من بلده متجها إلى إسرائيل، وحينما يصل النمسا خلال الطريق تراه يتوقف مع

نفسه، وفي أغلب الأحوال يحـــوِّل طريقـــه إلـــى الولايـــات المتحـــدة الأمريكيـــة فيستوطنها، وهناك في الولايات المتحدة، قد يكون منتميًا إلـــى أي مـــن فـــروع الحركة الصهيونية أو أحد الأحزاب في الدولة الصهيونية، فيصبح مواطنًا أمريكيًا ويظل مساندًا للدولة الصهيونية بواسطة التبرعات والتأييد المعنوي والإعلامـــي، فيحضر المهرجانات ويقوم بخدمات من أجل الصهيونية، لكنـــه لا يُغيـــر وطنـــه الولايات المتحدة الأمريكية.

إن كثيرًا ما تحدث خلافات بين الصهيوني التوطيني الذي يُقيم خـــارج إســـرائيل، والصهيوني الاستيطاني الذي يُقيم في إسرائيل نفسها، يأخذ الصهيوني التوطيني على من يقيم في إسرائيل ما يسببه هؤلاء من حرج لهم في دولهم الديمقراطيـــة، سواء بسبب اعتدائهم على حقـــوق الإنســـان والمـــذابح التـــي يقيمونهـــا ضـــد الفلسطينيين والإفراط في استعمال القوة، وكذلك النشاطات التجسسية التي يقـــوم بها الاستيطانيون في إسرائيل على الدول التي يقيم فيها الصهاينة التوطينيون.

ويأخذ الصهاينة سكان إسرائيل على التوطينيين بأنهم يتدخلون فيما ليس لهم فيه في كيفية إدارة شئون دولة اليهود، لكن الحركة الصهيونية التي ما زالت نشـــطة بهيمنتها الإعلامية لا زالت تراوغ في خطابها الأيديولوجي وتعمل علـــى احتـــواء الجميع داخل الإطار العام للمشروع الصهيوني.

وأما في الحقيقة، فلقد كان التبشير بالوطن القومي اليهودي في الغرب، قد حدث قبل أن يعلم به معظم يهود العالم، كان الحديث عن هذا الوطن قبل وعد بلفـــور، ولذا صار البحث عن أي مكان توافق عليه الدول الغربية التي تريد أن تـــتخلص من مهاجري الاتحاد السوفييتي من اليهود إليها، فكان المهم هو نقلهم وإبعـــادهم عن المجتمعات الغربية، وهذا كان قد تم التفكير به قبل بـــروز روَّاد الصـــهيونية الأوائل الذين انشأوا الحركة الصـــهيوينة، لـــذلك كـــان الصـــهاينة التوطينيـــون المستقرون في تلك الدول الغربية يرون أن المهم أولاً هو التخلص مـــن العـــبء الذي قد يؤثر على ما هم فيه في مجتمعاتهم من استقرار ومكانة.

لذا نؤكد مرة أخرى، أن المشروع الصهيوني هو مشروع صهيوني غربي قبل أن يكون مشروعًا صهيونيًا يهوديًا بمعنى أن الغرب الأوروبي هو المستفيد الأول من المشروع، وأن دعمه للشق الصهيوني القومي أعطى الصهاينة الأوروبيين العلمانيين اليد الطولى في التمكن من الدولة الوليدة، واستطاع هؤلاء أن يعلنوا موت الرب وورثوا القداسة، واستطاعوا أن يجعلوا الصهاينة أنفسهم هم المقدس حيث وجدوا التغطية الكاملة والسند المادي والمعنوي من الغرب بصفة عامة، لقد حدث كل هذا وما زال، ويبدوا أن الأنظمة العربية لم تُدرك حقيقة ما حدث بالفعل وإلا ربما كانت قد تصرفت بطريقة أخرى حينما تعاملت منذ البداية مع القضية الفلسطينية عام ١٩٤٨م.

حين شُرع في بناء الدولة الصهيونية، ظهرت اختلافات وتيارات عديدة داخل الحركة الصهيونية نفسها، فكان من القوى اليهودية التي جربت ألا يكون الاعتماد على القوى الأجنبية في بناء الدولة، وهؤلاء كانوا يظنون بأن الوسيلة ستكون أسهل لو أن المهاجرين اليهود تسللوا ببطء إلى فلسطين ومع الأيام يستطيعون أن يصبحوا الأكثرية فيها، ذلك بعد الاعتماد على أنفسهم في بناء المستعمرات حتى لا يكون لأحد فضل عليهم، وألا يكون هناك دين لأحد على الدولة الصهيونية، ولكن هؤلاء قد اختفى أثرهم حينما وجدت الحركة الصهيونية بزخمها الإعلامي والمادي الغربي الأوروبي.

جوزيف ترومبلدور Joseph Trumblldor:

وكان هناك أيضًا اختلافات بين المفكرين والزعماء الصهاينة الأوائل، فمنهم من كان يرى أن الاعتماد على القوى الأجنبية مهم جدًا في تحقيق حلم الدولة، ومنهم من كان يرى بأن يتم غزو فلسطين مرة واحدة بجيش يهودي يتم تدريبه وإحضاره إلى فلسطين فيفرض الحلم الصهيوني على ضفتي نهر الأردن، ومن ثم يشرع في نصب أعمدة الدولة، من هؤلاء جوزيف ترومبلدور ١٨٨٠-١٩٢٠م وقد كان ضابطًا في الجيش الروسي، وتطوع مع الفيلق اليهودي الذي حارب مع

الحلفاء في الحرب العالمية الأولى ودخل فلسطين، وهو الذي رأي أن يتم تجهيز جيش قوامه مائة ألف جندي يهودي ويجلب إلى فلسطين فيحتلها، لم يتم تحقيق حلمه وقُتل على أيدي العرب إثر هجوم شنوه على مستعمرة يهودية كانت تقع في شمال فلسطين سنة ١٩٢٠م.



جوزيف ترومبلدور ١٨٨٠-١٩٢٠م

تقول الموسوعة الحرة **Wikipedia** إن "جوزيف ترومبلدور" له نصب تذكاري، يزوره طلاب المدارس الإسرائيلية مرة كل عام ليروا بأنفسهم المثل الصهيونية وقد تحققت من خلال بطولة قائد ضحَّى بحياته من أجلها، يُعتبر ترمبلدور زعيم صهيوني أصبح رمزًا للجيل القديم، هو من الصهاينة الرواد المقاتلين الذين جاءوا إلى فلسطين، قبل ذلك كان أبوه جنديًا في الجيش الروسي، التحق "جوزيف" بمدرسة دينية قبل أن يدرس طب الأسنان، تأثر بأفكار تولستوي وامتزجت أفكاره بالأفكار الصهيونية حيث بدأت تتبلور لديه فكرة المستعمرات

الصهيونية المسلحة في فلسطين، جُنّد في الجيش الروسي عام ١٩٠٢ م، وفقَدَ ذراعه اليسرى في الحرب الروسية - اليابانية، ورُقّي وحاز عدة أوسمة ثم أعيد إلى الجبهة بناء على طلبه، فأسره اليابانيون وفي الأسر قام بتنظيم مجموعة صهيونية من الأسرى. درس "ترومبلدور" الزراعة ثم القانون، وأخذ في تنظيم مجموعة من الصهاينة في أوكرانيا عام ١٩١١ م حيث قرروا الهجرة إلى فلسطين، عمل في مستوطنة داجانيا ثم حضر المؤتمر الصهيوني الحادي عشر (١٩١٣)، سافر مع جابوتنسكي إلى لندن من أجل تكوين الفيلق اليهودي، وفي منتصف عام ١٩١٧م سافر إلى روسيا لإقناع السلطات هناك بتكوين قوة عسكرية يهودية تُرسَل للقوقاز وتقاتل هناك حتى تصل إلى فلسطين، وبعد نجاح مبدئي فشلت هذه المهمة وألقي القبض عليه فتحوَّل إلى تكوين حركة الرائد في روسيا، يعتبر من الرواد الذين ينظر إليه الشباب اليهودي من رواد الاستعمار الاستيطاني الصهيوني، حيث تحيطه الدعاية الصهيونية بهالة من التمجيد وترفعه إلى مصاف الأبطال التاريخيين، لقد شارك جوزيف ترومبلدور أيضًا في كثير من العمليات العسكرية مع القوات البريطانية بعد أن استقر في فلسطين، وفي عام ١٩١٩ م شارك في الدفاع عن المستعمرات الصهيونية في الجليل الأعلى، حيث قتله العرب عام ١٩٢٠ م، يُقال إن أخر كلمات جوزيف ترومبلدور قبل موته هي هذه العبارة التي أصبحت من المأثورات الصهيونية، "إنه لأمر جيد أن أموت من أجل الوطن"، وقد جاءت حركة بيتار المسماة باسمه بعد ذلك لتركز على النواحي العسكرية الصهيونية في فكره.

هذا، وإن خلافات أخرى قد نشبت بين التيارات المختلفة في الحركة الصهيونية من ناحية كيف يكون نظام الحكم، رأسمالي أم اشتراكي، ووجود خلافات أخرى من هذا النوع، لكن جهابذة الحركة الصهيونية استطاعوا ألا يحسموا أمرًا أو يساندوا رأيًا على رأي، وتُرك الأمر للمستوطنين أنفسهم، وتوجهوا بكل ثقلهم من أجل الحصول على الوطن وإعلان الدولة أولاً، وتركوا الإشكالات الأخرى لكي تحل ضمن التفاعل بين يهود الدولة ومقتضيات الظروف، واهتموا فقط بآلية

إنشاء الدولة، وحتى هذه فقد كان هناك فريقــان، أحــدهما يمثــل الصــهيونية السكانية، وفريق آخر أطلق عليه صهيونية الأراضي، الفريق الأول دعا أن تنشأ الدولة على الأراضي التي يتواجد عليها فقط اليهود في فلسطين، والفريق الآخــر دعا إلى أن تكون الدولة على الأرض التي يمكن الاستيلاء عليها (من النيل إلــى الفرات)، أما الفريق الثالث فلم يعط أي فرصة حتى في الطرح، وهو الفريق الذي دعا إلى دولة ثنائية القومية بسبب أن معظم اليهود أصروا على الطبيعة الإحلالية الشاملة للدولة الصهيونية، ومن ثم ستكون هناك معارضة شديدة مــن الســكان الفلسطينيين، لهذا رفضت فكرة الدولة ثنائية القومية من بدايتها.

كما أن الحديث في شأن سيادة الدولة الصهيونية لم يذهب إلى مسافات بعيدة قبل أن يتم الاتفاق بأن الدولة الصهيونية ستمثل كل يهود العالم، سواء التــوطينيين المقيمين في البلاد الأجنبية أو الاستيطانيين الذين يسكنون الدولــة الصــهيونية نفسها، لهذا تم إعلان قيام الدولة بواسطة مجلس قومي مثل اليهود في الــداخل والخارج، من أهم القوانين التي صدرت بعد إعلان الدولة، قانون العــودة الــذي يتيح لأي يهودي أن يترك وطنه الأصلي ويأتي إلى إسرائيل (الــوطن القــومي)، المهم إن الخلافات مهما كانت حادة فقد ظل سقف الاتفاق علــى إنشــاء الدولــة الصهيونية لا يصل إليه أي خلاف.

هذا، ويعتبر وعد بلفور عام ١٩١٧م، هو بلورة ليس لوعد، وإنما هو عقــد تــم رسميًا بين الحركة الصهيونية وبين الدول الغربية، ويعتبر وعــد بلفــور عقــدًا يوحي لمعاني كثيرة لا يحتاج أطرافها الصهاينة والدول الغربية إلى الإسهاب فــي شرح التفاصيل، فالعقد قد بدء بحيلة الصياغة حينما أشار إلــى عبــارة الــوطن القومي اليهودي، ولم يقل الدولة القومية لليهود لأجل أن يكون الأمر سهلاً لخداع العرب على أن ليس هناك دولة ستقام على حسابهم، ولذلك لــم يعــط الزعمــاء العرب اهتمامًا كبيرًا أو خوفًا بحجم طرد شعب كامل، وكل ما اهتم به ملوك العرب الثلاثة، فاروق ملك مصر، وعبد العزيز آل سعود ملك السعودية، وعبــد الله بــن الشريف حسين، هو أنهم كانوا يتحفظون على الهجرة اليهودية المتزايــدة إلــى

فلسطين، واهتموا كثيرًا بخلافاتهم الشخصية والإقليمية، وحينما أشار وعد بلفور إلى السكان المحليين ونعتهم بالجماعات الأخرى، فإنه أنكر وجود الشعب الفلسطيني صاحب الأرض، لذلك سمي وعد بلفور بأنه وعدًا صامتًا بين أصحاب العلاقة.

قبل وعد بلفور كانت الحركة الصهيونية متعثرة مثل سفينة في بحر مائج تتقاذفها الأمواج، وبعد صدور وعد بلفور كان قد هدأ البحر واتضح الميناء الذي عليها أن تصل إليه، كان وعد بلفور أكثر من هذا، لأنه كان يُعبِّر عن خطة ديناميكية منسجمة مع بعضها، وقد أضحت تدور بنعومة ووضوح، فاتفقت الصهيونية المسيحية الساعية إلى التخلص من اليهود الأوروبيين والصهيونية التوطينية التي تريد نقل الفائض اليهودي من أوروبا، والصهيونية الاستيطانية التي تريد بناء المستعمرات في فلسطين، وحتى أعداء السامية، كل هؤلاء كان مفتاح الحل لمشاكلهم هو وعد بلفور.

منذ صدور وعد بلفور راح الجميع يعملون بصمت رغم أن الخلافات الداخلية بين الصهاينة أنفسهم كانت أكثر من خلافات الصهيونية مع الدول الغربية الراعية للمشروع الصهيوني، وكل ما صدر عن الدول الغربية من التزامات تجاه إسرائيل هي بنود مكملة لوعد بلفور بل هي أيضًا وعود يمكن أن نُطلِق عليها وعود بلفورية أو كما هو وعد بلفور!

من الوعود البلفوية التي سبقت وعد بلفور، كان نداء "نابليون بونابرت" سنة ١٧٩٩م الذي خاطب به يهود العالم:

"إن مراقبي مصائر الشعوب الواعين المحايدين - وإن لم تكن لهم مواهب المتنبئين مثل أشعياء ويوئيل - قد أدركوا ما تنبأ به هؤلاء بإيمانهم الرفيع من دمار وشيك لمملكتهم ووطنهم، أدركوا أن عتقاء الإله سيعودون لصهيون وهم يُغنّون، وسيُولّد الابتهاج بتَملُّكهم إرثهم دون إزعاج، فرحًا دائمًا في نفوسهم – أشعياء 35/10 (انظر الوثائق في نهاية الكتاب).

هذا، وفي عام ١٨٩٨م وجَّه القيصر الألماني خطابًا إلى هرتزل قال فيه:
"إن صاحب الجلالة على استعداد أكيد أن يناقش الأمـــر (تـــوطين اليهـــود) مـــع السلطان، وأنه سيسعده أن يستمع إلى مزيد من التفاصيل منكم في القدس، وقـــد أصدر جلالته أوامره بأن تُذلّل كل الصعاب التي تواجه استقبال وفـــدكم، وأخيـــرًا يُحب جلالته أن يخبركم عن استعداده أن يأخذ على عاتقه مسئولية محمية يهودية في حالة تأسيسها، وجلالته حينما يكشف لكم عن نواياه، فهو يعوِّل بطبيعة الحال على مقدرتكم على الكتمان، وكم يسعدني أن أنقل لكم هذه المعلومات، وأتمنى أن تنجح في الوصول إلى القدس في الموعد المحدد، وفي الحقيقة فإن فشل في هذا سيسبب لجلالته خيبة الأمل، وأترك لكم بما تتميزون به من لباقة، أن تقرروا مـــا إذا كنتم تودون الوصول إلى اسطنبول في الوقت الذي يصل فيه جلالته إليهـــا أم لا". (مركز بيت المقدس للدراسات التوثيقية).

هذا، ولم يكن الموقف الروسي سلبيًا من الحركة الصهيونية، فقد قابـــل هرتـــزل وزير الداخلية الروسي "فون بليفيه" عام ١٩٠١م مفوضًا من المؤتمر الصهيوني الخامس، وصدر عن قيصر روسيا التصريح التالي في شكل رسالة وجهها وزيـــر الداخلية الروسي إلى تيدور هرتزل:
"ما دامت الصهيونية تحاول تأسيس دولة مستقلة في فلسطين، وتنظـــيم هجـــرة اليهود الروس، فمن المؤكد أن تظل الحكومة الروسية تحبـــذ ذلـــك، وتســـتطيع الصهيونية أن تعتمد على تأييد معنوي ومادي من روسيا إذا ساعدت الإجـــراءات العملية التي يفكر فيها على تخفيف عدد اليهود في روسيا".

عام ١٩١٨م أصدرت الحكومة الألمانية أيضًا وعدًا يعطف على أمـــاني اليهـــود تحت ظل تحالفها مع الخلافة العثمانية، التي بدورها أصدرت وعدًا لليهود بتسهيل عيشهم في فلسطين وفي دولة الخلافة عمومًا، فاستغلت ألمانيا صدور التصـــريح العثماني المبهم وأصدرت تصريحًا مبهمًا مشابهًا لمـــا أعلنتـــه تركيـــا، وتجنـــب التصريح الألماني أن يكون واضحًا حتى لا تغضب تركيـــا، وقـــد كانـــت الحـــرب العالمية الأولى لم تنته بعد، إلا أن التصريح الألماني جاء متأخرًا رغـــم أن عـــدد

يهود ألمانيا كان يفوق كثيرًا عدد اليهود في بريطانيا التي كانت الأقلية اليهودية فيها معارضة للحركة الصهيونية، لعل ذكاء حاييم وايزمان يَكمُن في اكتشافه المصلحة الصهيونية وحتمية الاعتماد على الإمبريالية وصعود القوة البريطانية فتبعها بكل قوته وقطع كل علاقاته مع المنظمة الصهيونية ذات الجذور الألمانية.

لا شك بأن وعد بلفور للحركة الصهيونية كان الأجدر من غيره من الوعود لقابلية التنفيذ بسبب أن العصر كان قد تغير، ولوجود آلية لتنفيذه من ناحية وجود الاتحاد اليهودي المتمثل بالحركة الصهيونية، ولنضوج فكرة التخلص من فائض المهاجرين اليهود القادمين من أوروبا الشرقية، لكن الحديث عن وعد بلفور أخذ معاني ونواحي كثيرة في بريطانيا، فقد أيده كل من لورد بلفور ولويد جورج رئيس الوزراء البريطاني وتشمبرلين وزير المستعمرات البريطاني، رغم أن هؤلاء كانوا معادين لليهود في بريطانيا وقد أصدروا في ظروف مختلفة قوانين وتشريعات ضد اليهود في بريطانيا بسبب عدم قابلية اليهود الاندماج في المجتمع البريطاني، ومن القول أيضًا بإن سبب وعد بلفور هو عطف حقيقي على اليهود الذين عانوا بسبب التفرقة وحان الوقت لكي يعوضوا بوطن، لكن من الأسباب التي شاع ذكرها لصدور وعد بلفور، هي تمكن "حاييم وايزمان" اليهودي الصهيوني من اختراع مادة "الأستون" الحارقة خلال الحرب العالمية الأولى فكان وعد بلفور مكافأة له.

وحتى نضع النقاط على الحروف، فإن لوعد بلفور أسباب وأهداف استراتيجية غير ما ظهر منه في النص، من تلك الأهداف هو جعل مهاجري أوروبا الشرقية لا يذهبون إلى أوروبا الغربية بهدف الحفاظ على الأمن الداخلي للمجتمعات الغربية، وقد رأينا أن دول أوروبا انجلترا وفرنسا وألمانيا إضافة إلى روسيا، كلها باركت وتعاطفت مع مشروع الحركة الصهيونية، فبريطانيا مثلاً كانت قد أصدرت ما يُشبه وعد بلفور سابقًا، وذلك بعرضها وطن قومي لليهود في أفريقيا الشرقية، وهدفها كان المحاولة لامتصاص حركة الشبيبة الثورية اليهودية إبان الثورة البلشفية في روسيا، فعملت على إلقاء المناشير التي تحمل وتشير إلى

وعد بلفور على تجمعات اليهود في الدول الأوروبية مثل يهود روسيا القيصرية وبولندا وألمانيا والنمسا، وكان الهدف من وعد بلفور أيضًا هو الضغط على حكومة روسيا المؤقتة من أجل عدم توقفها عن الحرب ضد ألمانيا!

كان الوعد أيضًا من أجل إرضاء يهود الولايات المتحدة لعدم ارتمائهم في أحضان ألمانيا، ولأجل حثهم واستمرارهم في المساهمة المالية في المجهود الحربي ضد ألمانيا، هذا ويقول الدكتور عبد الوهاب المسيري في موسوعته إن أثر اليهود في أمريكا لم يكن كما كان متصورًا، وأن المؤيدين للصهيونية من اليهود كانوا ما زالوا قلائل، وأن كل ما ساهمت به أمريكا في الحرب كان ناجمًا عن موقف الحكومة الأمريكية وليس عن الثقل اليهودي فيها في ذلك الوقت، لكن كل هذا كان عبارة عن فوائد جانبية، أما الأهم فقد كان توظيف المادة البشرية اليهودية في خدمة الاستعمار الغربي في زمن الإمبراطورية البريطانية التي كانت بحاجة إلى تأمين قناة السويس وطريق الهند، وقال في هذا حاييم وايزمان، إذا وافقت انجلترا على منحنا فلسطين، فإننا سنحصل على وطن وستحصل هي على سند فعال، وقيل إن وايزمان تفاجأ بإصدار بريطانيا لوعد بلفور رغم أنه كان قد عمل كثيرًا من أجل مثل هذا الوعد مع لورد روتشيلد، وقيل إن بريطانيا هي من بادرت بالاتصال بهم (اليهود) وقد كان في نيتهم العمل من أجل هذا بعد انتهاء الحرب.

مما سبق يُستنتج من وعد بلفور والدوافع التي أنتجته المعلن منها وغير المعلن، وكذلك من الوعود البلفورية الأخرى التي صدرت عن الحضارة الغربية، وعن الدوافع والمبررات التي جعلت الأوروبيين يساندون الحركة الصهيونية، يستنتج أن الفكرة الصهيونية كانت إمكانية كامنة في الحضارة الغربية، وأن وعد بلفور كان عقدًا بين الإمبريالية الغربية وبين الحركة الصهيونية لتبادل المصالح!

إذا كانت إسرائيل هي منتوج الحضارة الغربية العلمانية، فهل كان الغرب سيقبل أن تقام دولة لليهود إلا إذا كانت لخدمة المصالح الغربية بواسطة دولة وظيفية بشرية! قطعًا لا، لذلك كانت الحركة الصهيونية منذ بدايتها حركة علمانية ليبرالية، وكانت استنساخًا لتطبيق الفكر الغربي في المنطقة العربية لأجل أن تظل

هذه الدولة مرتبطة عضويًا بالغرب، على هذا الأساس بـارك الغـرب الزعامـة العلمانية اليهودية للحركة الصهيونية، وعملت هذه الزعامة على علمنة الديانـة اليهودية من الداخل وقبلت اليهودية من الخارج، لكنها عملت أيضًا بذكاء علـى زرع بذور العلمنة منذ البداية، فقد استطاعت بتركيز إعلامي إغرائـي أن تجعـل الصهيونية بدلاً من اليهودية، فأصبحت التظاهرات المؤيدة والشيكات التي تـدفع كتبرعات، وصارت تعطى لمن ينجزون عملاً حسب المقولة، "من يعمل يأخذ ومن لا يعمل لا يأخذ"، وها هم الصهاينة قد استطاعوا بعد خمسين عامًا من مـؤتمرهم الأول أن ينشئوا وطنًا لليهود، وحينما أطلق "تيدور هرتزل" علـى كتابـه "دولـة اليهود" كان يقصد ذلك، وإلا كان يمكن أن يكون اسم الكتاب "الدولة اليهودية" هذا لو كانت الدولة الصهيونية مبنية على الديانة اليهودية، لذلك أضـحت الأحـزاب الدينية في الدولة الصهيونية هي أحزاب الأقلية، وليس لها نفوذ الأحزاب الأخرى بل أنها تعتمد في تمويلها على الأحزاب العلمانية التي تحكم، وإن كل قادة الحكـم في الدولة الصهيونية جاءوا من الأحزاب العلمانية ومن تربوا فـي الكيبوتسـات الاشتراكية (البلدات الزراعية)، وأكثر من هذا فقد عمل الصهاينة العلمانيون على رفض مقولة شعب الله المختار وقدوم المسيح والألفيـة، واعتبـروا أن إحضـار اليهود كان الهدف منه بناء دولة وحسب، وأن الدولة يجب أن تكون قوية حتـى تستمر بدون استرخاء أو الاعتماد على التفسيرات التوراتية القديمة، وأن العنف الذي تمارسه ضد الفلسطينيين هو ليس أكثر من دفاع عن النفس بل دفاع عـن قيم الحضارة الغربية التي تعتبر إسرائيل مرتبطة عضويًا فيهـا ويريـد العـرب محوها، وفي الحقيقة استطاعت الحركة الصهيونية ركوب كل الموجات، الدينيـة أولاً، والعنصرية ثانيًا، وتوظيف المادة البشرية ثالثًا.

تظهر العلمانية الصهيونية في مصادرها الفكرية المتنوعة والمتعددة والتي تنتمي كلها للأنساق الفكرية العلمانية الغربية، لقد استطاعت الحركة الصهيونية توظيف الخيار بطريقة ذكية حينما وضعت مصير اليهود واليهودية على المحك، فقالت إن نهجها هو إنقاذ اليهود كبشر قبل اليهودية، وحتى تتجاوز ما يمكن أن يواجهها

من معارضة دينية، قالت بإنها تزمع إيجاد كمنولث يهودي في فلسطين وهي تعني دولة، علمًا بأن الكومنولث لا يعني دولة مستقلة، وحينما أعطيت اسمًا آخر لتجمع اليهود أيضًا في فلسطين، قالت إنها ستعمل على بناء وطن قومي لليهود وهي تعني أيضًا إقامة دولة! وهنا يقودنا الشك إلى التساؤل، هل كانت الحركة الصهيونية تقوم على خدمة اليهود حينما كانت تروا غ في خطابها السياسي لهم أم أنها كانت تنفذ أجندة للقوى الغربية حتى قبل أن يعرف يهود العالم الغاية من فكرة تجميعهم على أرض فلسطين!

لما كانت الحركة الصهيونية قد استطاعت أن يبقى العلمانيون هم الحكام فيها، فإنها تكون قد أثبتت نجاحها وتفوقت على نفسها في هذا، ويعود السبب الرئيسي في هذا النجاح إلى الخطاب الذي توجهت به إلى اليهود الصهاينة وغير الصهاينة، وإلى الصهيونية المسيحية وإلى الشعوب الأوروبية، وإلى اليهود الغربيين واليهود الشرقيين، وإلى المؤيدين لعلمانية الدولة الصهيونية، وإلى الداعين إلى يهودية الحركة الصهيونية، ولهذا يبدو أن مجرد التفكير في الخطاب الموجَّه لكل فئة من هؤلاء للعمل على كسبها يحتاج تفسيرًا غير عادي، استطاعت الحركة الصهيونية أن توجه خطابها إلى كل هؤلاء وأن تستوعب اهتماماتهم وأن تدق على الوتر الحساس لكل منهم بواسطة التركيز على عدم رفض ولو ظاهريًا كل ما كان يتعارض مع فكرها العلماني، وإنما جعلت مبررها في وضع جدول أولويتها فكان حجة لها تحت شعار، دعونا أولاً نعمل دولة لليهود.

ولما كان رواد الصهيونية هم اليهود الغربيون العلمانيون وشعبها هم اليهود الدينيون الشرقيون، استطاعت بمساعدة الدول صاحبة المصلحة في خلق الدولة الصهيونية أن تجعل القرار والنفوذ في يد أغنياء اليهود الأوروبيين الذين موَّلوا وأشرفوا على بناء المستعمرات، وعن هذا قال "عبد الوهاب المسيري في موسوعته أيضًا على لسان "هرتزل"، إنه "حقق شيئًا يكاد يكون مستحيلاً؛ الاتحاد الوطيد بين العناصر اليهودية الحديثة المتطرفة، أي اليهود المندمجين في غرب

أوروبا واليهود غير اليهود، والعناصر اليهودية المحافظة أي يهود شرق أوروبا واليهود المتدينين - وقد حدث ذلك بموافقة الطرفين دون أي تنازل من الجانبين ودون أية تضحية فكرية"، كما تباهى هرتزل بمُصالحة أخرى أجراها بين الحضارة الغربية ويهود العالم.. وهكذا كان.

لقد تميز الخطاب السياسي الصهيوني بالإبهام أحيانًا وبعدم الوضوح عن قصد، فاستعمل كلمات متعددة لها نفس المعنى، خاطب كل فئة وتيار بطريقة غير واضحة عوضًا عن أن الفريق الواحد ما كان يعرف الخطاب الذي كان يوجه للصهاينة من التيارات الأخرى، وهكذا أضحت فراغات لا تكشف عن كل شيء، لذلك فإن الأمر منا يحتاج إلى قراءة ما بين السطور، وألا يُؤخذ الاستيطان الصهيوني على أنه مجرد عصابات يهودية استطاعت أن تُبهر العالم وتقيم لها دولة.

ولهذا فمن الخطأ أيضًا أن نفترض أن تاريخ فكرة الحركة الصهيونية قد بدأت في فترة حياة وزعامة تيدور هرتزل فقط، الحقيقة أن الفكرة الصهيونية قد بدأت قبل زمن هرتزل، فقد بدأت منذ أن هدم الرومان الهيكل وتم تشتيت اليهود، منذ ذلك الزمن كان هناك صهيونيتان تضاد بعضهما البعض، صهيونية تعزي ما حدث لليهود بأنه قدر مكتوب سيظل يحيط باليهود ويبقون مكروهين منبوذين ملفوظين من الشعوب الأخرى، وهناك الصهيونية التي ترى أيضًا بأن ما يحدث لليهود من تيه وشتات هو بسبب عدم عودتهم وعيشهم الدائم في فلسطين، من هاتين النبوءتين المزعومتين، وجدت فكرة الصهيونية التوطينية والصهيونية الاستيطانية وبقيتا تتفاعلان وتأخذ الواحدة من الأخرى مؤيدين على مدى الأيام، ومع مرور الوقت توحدت فكرتا الصهيونية بسبب تنقل الجماعات اليهودية من دولة إلى أخرى ومن منطقة إلى أخرى إلى أن خُلق قاسمًا مشتركًا بينهما، وأدى إلى اتفاقهما على هدف تصالحي ومصلحي.. حتى أصبح اليهود مشكلة في المجتمعات الأوروبية.

وقد يسأل قائل، إذا كانت الصهيونية موجودة منذ أن قضى الرومان على الوجود اليهودي في فلسطين منذ القرن الثاني الميلادي، فلماذا لم يظهر الفعل الصهيوني حينما كان هناك فرصة كبيرة لتحقيق الحلم إبان الحروب الصليبية مثلاً؟ الجواب ببساطة يكمن في أن القوى التي كانت تدفع إلى الحروب الصليبية لم تكن مصالحها مرتبطة بوجود نجاح للصهيونية في المنطقة العربية، فمن ناحية أخرى إن الأمور والأهداف كانت مختلفة في أواخر القرن التاسع عشر وخلال فترة الحربين العالميتين، وهي الفترة التي شهدت تعميد للصهيونية المسيحية ووجود للصهيونية غير اليهودية في أوروبا، سواء كانت بهدف استبعاد الشعب المنبوذ من أوروبا أو عن تسامح وعطف بسبب أن تيارات مسيحية متشددة تأخذ بالتفسير الحرفي للتوراة كالبروتستانت!

لذا كانت ميادين الحركة الصهيونية وتطلعاتها ثلاث، الميدان الأوروبي الغربي، وميدان فلسطين، وميدان وجود الجماعات اليهودية في البلاد الأخرى، وليس التعميم هنا بذكر البلاد الأخرى إلا لأن تفاعل الحركة الصهيونية ونشاطاتها لم تكن كما كان تفاعلها وتأثرها في الميدان الأوروبي لأسباب لم تعد خافية، فلم يعد لغزًا معرفة أسباب نشاط الحركة الصهيونية في الميدان الأوروبي بسبب ظاهرة معاداة اليهود والتنافس الاقتصادي وما أتت به الثورة الصناعية، وتصاعد معدلات التنمية الاقتصادية من تقلبات وبعثت من فكر، وخلقت من حوافز وتطلعات مستقبلية في ظل مصالح الدول القومية العرقية في أوروبا، ولم يكن للديانة اليهودية أثر لدى الصهاينة عدا أنهم يطلقون على أنفسهم يهودًا.

من الأسباب التي أدت إلى ظهور الصهيونية غير اليهودية، هو فشل المسيحية الأوروبية في حل مشاكل الأقليات فيها، والأثر العميق لليهودية في التراث المسيحي باعتبار اليهود من قتل المسيح، واقتناع التيار الثائر (البروتستانتية) على الكنيسة الكاثوليكية بالرؤية الألفية لدولة الله على الأرض، ظل هذا تفاعلاً مسيحيًا داخليًا دون أن يكون لليهود التوطينيين أي أثر فيه إلا أنهم نشطوا في محاولة الحفاظ على الإبقاء على الامتيازات التي يحصلون عليها في أوروبا

الغربية، ومن ثم تحالفهم الذي بدا وديًا مع مصالح المجتمعات التي يعيشون بين ظهرانيها على إبعاد اليهود المهاجرين من روسيا إلى مكان آخر عن البلاد التي يقيمون فيها، كما أن التغيرات الاجتماعية التي حدثت في أوروبا، أدت إلى تأثر الجماعات اليهودية وخلقت نوع من عدم الاستقرار بسبب فقدهم لمميزات اعتادوا الحصول عليها فيما له علاقة بالمال والأعمال بسبب النهوض الاقتصادي في الدول الأوروبية، وظهور القوانين التي تبصر الناس بحقوقهم، وتنوع وسائل حل مشاكلهم الاقتصادية، وهو ما جعل اليهود والمواطنين يتفقون بعقد صامت على البحث لإيجاد منفعة من الجماعات اليهودية التي لم يعد لها نفع هناك، أضف إلى ذلك المهاجرين اليهود من أوروبا الشرقية الذين كانوا ثقلاً اجتماعيًا وعالة على المجتمعات بسبب تدني مستوى تحضرهم مقارنة بالمجتمعات الغربية نفسها، والذين فشلوا في الانصهار في المجتمعات الجديدة ما أدى إلى عزلهم في مناطق خاصة بهم (الجيتوات).

لقد كان لظهور حركة الحاخامات الإصلاحية بين اليهود أنفسهم، أثر لا يقل عما ذكر، فجعل اليهود أنفسهم يتطلعون في الجهات المختلفة للبحث عن نوع من الاستقرار الروحي، وأدى هذا أيضًا إلى تطلع النخبة إلى البحث عن مشروع بحجم أخذ كل الاعتبارات التي ذُكرت في الحسبان خصوصًا وأن ظهور المثقفين اليهود من المهاجرين الجدد الذين ينتمون إلى العلمنة ويُطلق عليهم الأغيار يهودًا بالمفهوم القديم، وهؤلاء صاروا يبحثون لهم عن هوية أيديولوجية، لهذا فأي مشروع مغري أفضل غير برنامج الحركة الصهيونية الذي وضعت أهدافه المادية والمعنوية رسميًا في المؤتمر الصهيوني الأول!

إن أهم الأسباب قاطبة التي دفعت إلى تشجيع إيجاد الحركة الصهيونية، هو الدور الإمبراطوري الإمبريالي الاستعماري الذي أصبح العالم بأسره ساحة لأنشطته العسكرية ومناطق لنفوذه خصوصًا بعد الحرب العالمية الأولى حينما سيطرت الإمبراطورية البريطانية، وهزمت ألمانيا وورثت بريطانيا معظم المستعمرات الألمانية ومناطق دولة الخلافة العثمانية، ولم يكن لحركة القومية العربية ولا

الحركة الوطنية الفلسطينية زخم قومي ووطني يستطيع مقاومة دور بريطانيا في المنطقة، وبالتالي فإن الصهيونية ركبت ظهر الإمبريالية الغربيــة التــي رأت أن إبعاد من لا نفع لهم مصلحة لخدمة تلك القوى الاستعمارية خــارج المجتمعــات الأوروبية، من هنا وُجِدَ التوافق والانسجام بين الأطراف الكثيرة!

إن من المعلوم أن الصهيونية التوطينية ظهرت في أوروبا الغربية حيث الأقليــة اليهودية التي اندمجت في المجتمعات وأخذت بالنهج الغربي للحضارة الحديثــة، وصارت مصالحها مرتبطة عضويًا بالمصالح الغربية، وهذا ما أعانها كثيــرًا أن يكون لها حرية الحركة والمرونة والمقدرة علــى طــرح خطابهــا الأيــديولوجي فصادقت الزعامات الأوروبية واستغلت نفوذها الاقتصادي، ففاوضت الحكومــات المحتاجة دائمًا لتحقيق الطموحات والتفوق.

إن مما ساعد على نهوض الحركة الصهيونية الحديثة وانبعاثها من أوروبــا، إن الفضل يعود إلى تيدور هرتزل ومن اقتنع به أمثال "توردو" نائبه الذي كان يجاهر بإلحاده، وهو الذي قال إن كتاب هرتزل "دولة اليهود" هو التــوراة فــي القــرن العشرين، استطاع هرتزل الذي عاش في الغــرب بــين اليهــود التــوطينيين أن يكتشف حاجة الغرب ويهود الغرب للتخلص وبسرعة من يهود شــرق أوروبــا، واكتشف حتمية التحرك داخل إطار الإمبريالية الغربية التي يمكنها وحدها أن تنقل اليهود خارج أوروبا وأن تستخدمهم مقابل حماية الكيان الذي يقيمون فيه، لقــد استطاع هرتزل أن يرضي جميع الأطراف اليهودية فيما له علاقة بإيجاد مشروع نقل الفائض اليهودي عن كاهل اليهود التوطينيين الأوروبيين، واســتطاع إيجــاد المكان المناسب الذي اتفق عليه لتوطين مهاجري روسيا من المتدينين في أرض التوراة، واستطاع إعطاء شيء من الحرية لليهود الذين يحبون الهجرة إلى بــلاد العالم الجديد (أمريكا) لكي يظلوا وسيلة دعم فــي المســتقبل للــوطن اليهــودي الجديد، استطاع هرتزل أن يُقنع معظم الجماعات اليهودية أن الحل الوحيــد هــو إيجاد وطن لليهود بغضِّ النظر أين يكون الوطن، وبعدما رجحت كفــة أن يكــون الوطن فلسطين صار التركيز على فلسطين وصار تلميع المبررات وخلق الأسباب

وإيجاد الحجج الدينية والتراثية التي تجعل تحقيق هذا الهدف مقنعًا ومقبولاً من معظم اليهود وبدعم غربي إمبريالي متحكم بآلية التنفيذ.

من هنا وبعد أن انتقل مركز الإمبريالية من لندن إلى واشنطن، وضعت كثير من الخلافات الصهيونية أوزارها، وأصبح معظم اليهود تحت حماية أكبر قوة على سطح الأرض وصار الولاء للدولة الصهيونية لا يتعارض مع الولاء للوطن الذي يُقيم فيه اليهودي، وأصبحت ظاهرة معاداة السامية أكبر تهمة يمكن أن يوصم بها بشر، وانحسر دور المعارضين للحركة الصهينوية من اليهود كثيرًا، وظهرت الصهيونية التوفيقية لكي تحل مكان التوطينية والاستيطانية أو تجمع بينهما، وتم الاكتفاء بجعل الدولة الصهيونية مركزًا أخلاقيًا للتراث اليهودي الذي يعني الإنسان اليهودي أكثر من اليهودية.

لا شك بأن الصهيونية قد فقدت حماس الكثيرين من اليهود بعد شيوع الحداثة وانتشار ظاهرة العولمة وفقدان دور المركز، ومع نمو حركة المقاومة الفلسطينية واشتداد عودها وما يقوم به الشعب الفلسطيني من انتفاضات شبه مستمرة، فقد أدى هذا إلى زعزعة مكانة الحركة الصهيونية في نفوس كثير من اليهود بسبب سلوك الدولة الصهيونية وما تقوم به ضد الفلسطينيين من عنف وسلب للحقوق، حتى أن الهجرة اليهودية أضحت أسبابها شخصية ونفعية وليس أكثر.

وهنا لا بد من الإشارة عن وجود الصهيونية في الدول التي لعبت دورًا بارزًا في تاريخ الحركة الصهيونية لكي تتضح معالم الصورة أكثر:
لقد كانت ألمانيا من أهم الدول للصهيونية التوطينية، وكان للحركة الصهيونية دور كبير في ألمانيا، فمعظم اليهود الألمان كانوا من النوع الذي يحبذ الاستمرار في العيش بألمانيا، ولذا كان العداء الألماني لهم شديدًا، كانت ألمانيا كقوة أوروبية حديثة تعبر عن زخم الحداثة الأوروبية، وكانت تتطلع إلى دور استعماري منافس لبريطانيا وفرنسا في العالم، ولهذا كانت في حاجة إلى التوظيف البشري الذي يمكن أن يقوم به اليهود لاستكشاف البلاد الأخرى والتعرف على كيفية مد النفوذ الألماني فيها، كان اهتمام وتركيز الحركة الوطنية

في ألمانيا يُعبر عن مصلحة الحركة الصهيونية في الاستفادة لما للدور الألماني من أثر لدى الخلافة العثمانية الصديق لألمانيا، ولذلك سعت ألمانيا لدى السلطان العثماني لحماية اليهود في فلسطين أثناء الحرب العالمية الأولى حتى أن "ديفيد بن جوريون" قد اعتقلته القوات البريطانية حينما احتلت فلسطين أثناء الحرب باعتباره أحد رعايا الدولة المعادية، بعد الحرب العالمية لم ينتهي الدور الصهيوني في ألمانيا حيث تواجد التوطينيين اليهود، وبعد الحرب العالمية الثانية أعاد اليهود عمل جمعياتهم ولعبوا دورًا رائدًا في موضوع التعويض الذي فرض على ألمانيا لليهود بصفة عامة وللدولة الصهيونية.

أما تواجد اليهود تاريخيًا في فرنسا، فإن معظمهم قد أتوا من روسيا إلا أنهم من نوع اليهود التوطينيين، ومعظم من ولدوا في فرنسا، فكانوا غير مبالين بالحركة الصهيونية، ولم يتحمسوا كثيرًا لها بسبب قلة عددهم، وكونهم لا يودون الذهاب إلى أرض يجهلونها، عوضًا عن عدم رغبتهم في خسارة المركز الاجتماعي والاستقرار الاقتصادي الذي وصلوا إليه، ولما كان المذهب الكاثوليكي هو الشائع في فرنسا فإن الصهيونية قد بدأت بمساعدة البروتستانت في بريطانيا، لهذا كان الصهاينة أقلية في فرنسا، واستطاع هؤلاء مع البارون "إدموند دي روتشيلد" أن يساهموا في بناء بعض المستعمرات اليهودية في فلسطين، هذا بالإضافة إلى تأسيس الجمعيات والاتحادات الداعمة للمشروع الصهيوني.

كان من أهم الصهاينة في فرنسا من غير الصهاينة اليهود "نابليون بونابرت" الذي قام بالحملة على مصر ووصل مدينة عكا في فلسطين فحاصرها لمدة ستة شهور، ولما فشل في احتلالها عاد جيشه إلى مصر منهوك القوى مصابًا بالأوبئة، وقال قولته الشهيرة، "تحت أسوار عكا دفنت آمالي في الشرق"، ثم جاء "أرنست لاهاران" حينما انتعشت الصهيونية غير اليهودية في أيام إمبراطورية نابليون ثالث عام ١٨٥٢م حينما أصبح النشاط الاستعماري على أشده، فكان من أهم زعماء الصهيونية غير اليهودية في تلك الحقبة أرنست لاهاران السكرتير الخاص لنابليون الثالث، كان أرنست لاهاران يؤيد فكرة احتلال المشرق العربي،

وكان قد وضع كتابًا عـام ١٨٦٠ م، اسـمه "المسـألة الشـرقية اليهوديـة - الإمبراطورية المصرية وإحياء القومية اليهودية"، اسـتعرض فيـه الاسـتيطان اليهودي في فلسطين ومزاياه.

وفي مرحلة ما بعد الحرب العالمية الأولى صار اهتمام فرنسا أكثر بما كان يحدث في المشرق العربي بعد أن كان اهتمامها بالمغرب العربي فقـط، خصوصًـا وأن غيوم الحرب العالمية الثانية راحت تبدو في الأفق، وتوجَّه الكثيـر مـن اليهـود الألمان إلى فرنسا خصوصًا يهود الألزاس واللورين (المنطقة الفرنسية المحاذية للحدود مع ألمانيا)، خلال الحرب العالمية الثانية وبعدها وخصوصًـا بعـد تسـلم الاشتراكيين الحكم، اهتمت فرنسا كثيرًا بمسـاندة الحركـة الصـهيونية فكثـرت الجمعيات والمؤسسات والاتحادات الصهيونية التي كانت تدعم الاستيطان اليهودي في فلسطين، وأضحت فرنسا من أكثر الدول الني تسـاند الدولـة الصـهيونية، وأضحى التفريق بين الجمعيات اليهودية والصهيونية في فرنسا ليس سهلاً بسبب تشابه شعاراتها وأهدافها ودعوتها لمساندة إسرائيل علنًا.

في انجلترا كان نشوء الحركة الصهيونية الحقيقي بسبب الدور الكبير الذي كانت تقوم به بريطانيا عالميًا كإمبراطورية استعمارية، كما أن المذهب البورتسـتانتي موطنه الأساسي هو بريطانيا فقد ظهر في انجلترا قبل وجود هرتزل وغيره، فمن المفكرين والمنظرين والمؤمنين بالنبوءات التوراتيـة كـان أمثـال شافتسـبري وأوليفانت قد وجدوا قبل وجود "بنسكر" وغيره من صهاينة اليديشـية الـروس، وتوصل هؤلاء إلى الأطروحات الصهيونية، إلا أن الانصهار الأساسي في الحركة الصهيونية في بريطانيا قبل اهتمام يهود بريطانيا أنفسهم بالصهيونية كـان مـن قبل الساسة البريطانيين الذين أصلاً كانوا يعادون الوجود اليهودي في بريطانيـا، ويفضلون التخلص منه بأسرع الطرق وقدموا أنفسـهم كـأنهم يتعـاطفون مـع اليهود، كان هؤلاء يتمنون أيضًا نجاح المشروع الصهيوني في المشرق العربـي لكي يظل النفوذ البريطاني مستقرًا هناك.

حينما وصل هرتزل إلى لندن وراح يُبشر بالحركة الصهيونية عام ١٨٩٦م، وبعزمه على عقد مؤتمر صهيوني في مدينة ميونخ بألمانيا قبل أن ترفض ألمانيا عقد المؤتمر على أراضيها، ومن ثمَّ تم اختيار بازل بسويسرا لعقده فيها، لم يجد هرتزل آنذاك ترحيبًا من يهود بريطانيا الذين رفضوا تبديل وطنهم، وإنما وجد الترحيب من اليهود المهاجرين من روسيا فقط، وحين عقد المؤتمر عام ١٨٩٧م لم يحضر من زعماء اليهود في بريطانيا سوى عدد قليل! بعد ذلك سعت الصهيونية لدى الحكومات المتتالية والزعماء في بريطانيا وبالدعاية، وعلى إثر ذلك وجدت الجمعيات والاتحادات الصهيونية أن اليهود البريطانيين لم يكونوا على استعداد لترك بلدهم بريطانيا، فأيدوا مشاريع الاستيطان اليهودي في منطقة العريش بصحراء سيناء المصرية وفي أوغندا.

وحينما عُقد المؤتمر الصهيوني الرابع في لندن حضره ٢٨ مندوبًا عن ٣٨ جمعية يمثلون الاتحاد الصهيوني الإنجليزي، وفي حركة ذكية من منظمي المؤتمر وزَّع المشاركون بالمؤتمر نشرات على أعضاء مجلس العموم البريطاني توضح أغراض الصهيونية وتدعوهم إلى التعليق عليها، قال هرتزل عن تلك الخطوة بأنها "أذكى فعل قامت به حركتنا منذ فترة بعيدة".

وبعد موت هرتزل سنة ١٩٠٤م وتولى "ولفسون" زعامة الحركة الصهيونية انتقل مركز الحركة الصهيونية من ألمانيا إلى بريطانيا، وظهر فيها حاييم وايزمان وكثير من زعماء الصهيونية من الشرق والغرب، الكل أدرك أهمية دور بريطانيا في مستقبل الحركة الصهيونية خصوصًا وأن بريطانيا زاد اهتمامها بالمشرق العربي بسبب تدفق البترول بغزارة من تلك الأرض، أما خلال الحرب العالمية الثانية فقد حامت الشكوك نحو اليهود البريطانيين، خصوصًا وأن كثير من زعماء اليهود الألمان كانوا قد لجأوا إلى بريطانيا، فذهبت الشكوك تحوم حولهم خوفًا أن يكون بين اليهود من هم جواسيس للنازية.

أما تاريخ الحركة الصهيونية في الولايات المتحدة الأمريكية، فقد كان مختلفًا عن تواجد الحركة الصهيونية في البلاد الأخرى، كان أول من نادى بالمشروع

الصهيوني في الولايات المتحدة، هو الرئيس الأمريكي "جون آدمز" عام ١٩١٨م، فقد نادى بأن يصبح اليهود أمة مستقلة، ولم يكن يبلغ عدد اليهود آنذاك أكثر من أربعة آلاف، ولم يكن لهم جمعيات أو مؤسسات ضاغطة على الحكومة الأمريكية بعد، وهذا إن دل على شيء فإنما كان يدل على أن المجتمعات المتشابهة تعطف على بعضها، ذلك كون المجتمع الأمريكي ذو ثقافة استيطانية أيضًا، هذا ولم يبدأ تاريخ تواجد الحركة الصهيونية في الولايات المتحدة فعليًا إلا في ثمانينات القرن التاسع عشر، فقد وصل اليهود الروس ومعهم عاداتهم وتقاليدهم وحتى جمعياتهم مثل جمعية أحباء صهيون وما شابه، وبعد ذلك أصبح لهذه الجمعيات فروع في الولايات وفي المدن الأمريكية، ثم تكوَّن بعد ذلك المؤسسات والجمعيات أمثال جمعية صهاينة نيويورك التي عقدت مؤتمرًا في عام ١٨٩٨م ونتج عنه تكوين اتحاد الصهاينة الأمريكيين، وتكونت عصبة الجمعيات الصهيونية في الولايات الشمالية، ثم اتحدت جميع المنظمات الصهيونية لتكوِّن اتحاد صهاينة نيويورك الكبرى، وازدادت أهمية وجود اليهود التوطينيين بالولايات المتحدة الأمريكية فقام كل من "شماريا ليفين" و"بن جوريون" و"سوكولوف" و"بن زفي" من زعماء الصهيونية الاستيطانية، قاموا بتوطيد العلاقة مع يهود أمريكا لضمان تأييدهم المعنوي والإعلامي وتقديم الدعم المالي قدر ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً، هذا بالإضافة إلى التأثير على السياسة الخارجية لأقوى وأغنى دولة على ظهر الأرض في هذا الزمن، ومع تغيُّر مركز الثقل الإمبريالي من بريطانيا وانتقاله إلى أمريكا، ازدادت أيضًا أهمية الولايات المتحدة وبالتالي الحركة الصهيونية التوطينية فيها.

في المؤتمر الصهيوني الثاني والعشرين عام ١٩٤٦م، قام بن جوريون وأبا "هليل سيلفر" بمعارضة محاولات حاييم ايزمان الرامية إلى الرضوخ للسياسة البريطانية، وعلى الأثر تمت استقالة وايزمان، وتبوأ بن جوريون رئاسة المجلس التنفيذي للوكالة اليهودية، وأصبح سيلفر رئيسًا للفرع الأمريكي للوكالة، وبدأت

مرحلة جديدة في تاريخ الحركة الصهيونية استمرت حتى تكوين دولة إسرائيل عام ١٩٤٨م.

إن من الملاحظ أيضًا، بأنه كانت هناك صعوبات في البداية واجهت اليهود الأمريكان إلى أن اطمئنوا بأن الصهيونية والمصلحة الأمريكية هما شيء واحد، بمعنى أن صهيونية يهود الولايات المتحدة نابعة من أمريكيتهم وليس من يهوديتهم، ولهذا لم يهاجر من يهود أمريكا إلى فلسطين إلا قلة بسبب طيبة إقامتهم وعيشهم في الولايات المتحدة الأمريكية.

هذا، وإن المتتبع للحملات الصليبية وأسبابها يجد أن نفس الدافع هو الذي جعل القوى الغربية تقوم بالمشروع الصهيوني في فلسطين، فلسطين دائمًا هي محط أنظار القوى والإمبراطوريات كونها ملتقى الطرق إلى الشرق وموقعها أعطاها هذا الاهتمام بسبب وجودها بين أفريقيا وأسيا، هذا عوضًا عن أنها مركز للأديان السماوية الثلاثة لما للقدس من مكانة خاصة، لهذا تشابهت الدوافع التي جعلت القوى الغربية تدفع في اتجاه التوظيف البشري في الحملة لاحتلال فلسطين، فبدل أن كان التوظيف البشري هم المسيحيين أيام الحروب الصليبية، أصبح في حالة الوطن القومي اليهودي هم المادة البشرية للتوظيف، وكلاهما يقوم بعمل واحد هو جعل الهيمنة الغربية هي صاحبة النفوذ في المنطقة، وهو ما يثبت بما لا يدع مجالاً للشك بأن الصهيونية الأوروبية وُجِدت قبل الصهيونية اليهودية أو كما أشرنا في غير مكان، لولا الأولى ما وُجدت الثانية، لكن الأمر لا ينتهي عند رغبتنا في التأكيد على التشابه بين الحملات الصليبية وحملة الوطن القومي اليهودي الذي توج بقيام الدولة الصهيونية، نود أن نقول هنا أيضًا إن التشابه بين حملات الفرنجة (الصليبية) وبين قيام الدولة الصهيونية ربما سيتأكد مرة ثانية حينما نتذكر إلى ما آلت إليه نهاية الحملات الصليبية حين تم القضاء عليها.

الصليبيون قدموا إلى الشرق أيضًا متسلحين بهدف هو السيطرة على هذه المنطقة من العالم، واستطاعوا خلال جيل أو جيلين أن يبنوا لهم إمارات وممالك على منطقة هي أكبر من مساحة فلسطين، وعلى ساحل من البحر الأبيض

المتوسط أطول من ساحل فلسطين، وأكثر من ذلك فقد احتلوا القدس أيضًا، لكنهم مضوا في غيهم ولم ينصتوا لعروض السلام التي قدمها أهل المنطقة، وبقوا معتمدين على القوة المؤقتة والحماية والمدد الخارجي إلى أن ذهب جيل الغزاة الذي ترك خلفه جيلاً ضعيفًا لم يتدبر الأمور جيدًا، أضف إلى ذلك أن مصادر المدد الخارجي تغيرت وقلت ونضبت في فترة لاحقة، في مقابل ذلك حدث في نفس الظروف تململ إسلامي في المنطقة، فظهرت قيادات إسلامية من أمثال "صلاح الدين الأيوبي" و"الظاهر بيبرس"، واستطاع المسلمون أن يصفوا الإمارات الصليبية واحدة بعد الأخرى إلى أن لم يبق منهم سوى الآثار التي يزورها السياح في هذا الزمن، وما زال ما قام به العرب المسلمون من القضاء على الصليبيين محفورًا في ذاكرة أهل المنطقة!

من الأسباب الرئيسية التي أدت إلى فشل الغزو الصليبي للمنطقة، ليس قلة العون المادي بل كان قلة المدد البشري من المهاجرين، فخلال الحملات الصليبية كان اندفاع الأوروبيين كبيرًا للمشاركة في غزو المنطقة تحت شعار تحرير مدينة القدس لما لها من مكانة في نفوس المسيحيين، علمًا بأن معظم الحملات الصليبية كان يقوم بها المسيحيون الكاثوليك، أما مسيحيو الشرق فلم يكونوا طرفًا في الغزو الصليبي بأية صورة من الصور، وهل يغزو الإنسان وطنه، ما نود قوله إن ملوكًا وأمراء ونبلاء تقدموا الحملات الصليبية يوم قدومها لاحتلال الساحل الشرقي للبحر الأبيض المتوسط، واستمرت الغزوات واحدة تلو الأخرى إلى أن توقفت تمامًا وتوقفت الهجرة التي كانت العنصر العام لإبقاء مشروع الغزو الصليبي حيًا من ناحية التحديث والتواصل مع أوروبا، لهذا نجد أن كل زعماء الدولة الصهيونية ومنظريها يحثون دائمًا على إبقاء الهجرة اليهودية مستمرة إلى أرض الميعاد المزعومة، وكلهم يحذرون بأن وقف الهجرة هو نهاية الدولة الصهيونية، يبدو أنهم استوعبوا درس زوال الإمارات الصليبية التي غزت نفس المنطقة بنفس الدوافع.

التاريخ الزمني والمقدس:

لو تعمقنا في تاريخ الأمم نجد أن المصريين ربما هم أول من أنشأ دولة ووضع القوانين ووحد البلاد، أو كما فعل الملك "مينا" قبل أكثر من ٥١٠٠ ق.م حين أسس الأسرة الفرعونية الأولى، تشير أراء كثير من المؤرخين بأن التصور والسحر والأساطير قد وفر للمصريين في العصر الفرعوني أدوات لبناء الدين والدولة وجعل الحياة أكثر حيوية، فهل هذا مثلاً قد أعطى الحق للمصريين بأن يعتبروا أنفسهم أفضل الأمم في العصر الحديث لأنهم أول من أسس دولة أو أن شرائعهم القديمة يتوجب أن تكون مقدسة لا تناقش، إن حاخامات إسرائيل اليوم يتصورون بأن الإله قد حل بالشعب اليهودي فأصبح شعبًا مختارًا وكل ما يفعله الصهيوني بالآخرين من البشر سواء كان خيرًا أم شرًا هو خير، وعلى الآخرين أن يقبلوه لأنه مقدس ومن وصايا الرب، ولهذا فإن تاريخهم مقدس لا يناقش كما يناقش التاريخ الزمني عند البشر الآخرين.

لذلك فاليهود لا يريدون الخلط بين تاريخهم المقدس وبين التاريخ الزمني لمن عداهم من الأمم الأخرى، التاريخ الذي ورد في القرآن الكريم هو تاريخ مقدس عند المسلمين لأنه يصلح لكل عصر ويهدف إلى هداية البشر، لهذا فإن قصص الأنبياء مثلاً كما يبيّن الدكتور "علي عبد الواحد وافي" ليست كاملة، وإنما تم اختيار أحداث معينة ذات دلالة، حتى يتضح الدرس الأخلاقي وحتى تظهر الموعظة، أما التاريخ الزمني فهو مجال الفوضى لأن فيه النهوض والسقوط والخير والشر ويكافأ المصيب والناجح، ويعاقب المخطيء، وأما التاريخ المقدس فهو موعظة ومعايير يحاكم بها التاريخ الزمني، لهذا نجد أن الصهاينة يذهبون بعيدًا حينما يعتبرون بأن الإله قد حل في كل تواريخهم وكل ما كتبه حاخاماتهم بما في ذلك التوراة وكل تفاصيل الأحداث التي كانوا طرفًا فيها حتى يومنا الحاضر، وإن جميع التفاصيل التي يذكرونها في مخطوطاتهم هي تاريخ زمني ومقدس في نفس الوقت، لذلك هم حريصون أن يبقوا هذه الصفة على تاريخهم،

لهذا هم يكتبون كل قصصهم وأحداثهم بطريقة مفصلة حتى يغطيها الطابع المقدس، وليس مسموحًا لأحد بأن يطعن بما يقولون أو يطالب بتصحيحه، ومن يقترب منه تطاله تهمة معادة السامية التي وضعوها في موقع أولى درجات الإنسانية وحقوق الإنسان، فهم دائمًا المظلومون من كل البشر وهم المتعالون على كل البشر وهم الذين يقدسهم الرب فاختارهم شعبه المختار.

يتحدث الصهاينة أيضًا عن المسألة اليهودية كما لو كانت أمرًا فريدًا، وعن الدولة اليهودية كما لو كانت ليس كمثلها شيء، وعن الهولوكوست باعتباره أمرًا فريدًا حدث لليهود وحدهم، يسمي الدكتور "عبد الوهاب المسيري" هذه الظاهرة بالأيقنة أي تتحول الواقعة التاريخية إلى ما يشبه الأيقونة، يتعبد الإنسان أمامها.. أي أن الإله حل فيها فتألهت، علمًا بأن اليهود ليسوا وحدهم في التاريخ من تعرض للظلم فسواء حدث لهم الظلم في أي بلد فإن هذا قد حدث للآخرين، ودائمًا يحدث خصوصًا للأقليات وتلك سُنة الحياة على الأرض، وهذا هو الإنسان رغم رقيه وغزوه الكواكب الأخرى فإنه ما زال يقيم الحروب ويقتل ويظلم، فلماذا فقط يعتبر ما يحدث لليهود من ظلم هو فقط ما يعتبر محل تقديس ويجب ألا يقارن به شيء من أحداث الظلم التي تقع على الآخرين.

لهذا من المفروض لأجل أن تتم المساواة بين بني الإنسان، أن يوضع ما حدث لليهود في سياق التاريخ الزمني، ويجب إزالة هالة التقديس عنه، وإلا ماذا نعتبر ما حدث للسكان الأصليين في الأمريكيتين وما حدث في فيتنام وما حدث في هيروشيما وما حدث للفلسطينيين وما حدث لغير هؤلاء، ما حدث لليهود في روسيا القيصرية ليس حتمي وما حدث لليهود في ألمانيا هو ليس حتمي أيضًا، ولم يكن شيئا مطلقًا كان لا بد أن يحدث.

لهذا فإن مشكلة الصهيونية وافتراءها وتزمتها، هي أنها تطالب بالكثير لأجل أن تحصل على القليل، وإذا لم يوجد رادع لها فإنها تأخذ كل شيء، في العصر الحالي ينظر الصهاينة على أن احتلالهم لفلسطين ليس اغتصابًا، وأن المقاوم

الفلسطيني إرهابي، وإنهم مهما عاثوا ظلمًا وسفكوا دماء الآخرين فإنهم يرون أن ذلك هو دفاع عن النفس بل كيف لشعب مقدس ومتأله أن يعي حقوق الغير؟

في الآونة الأخيرة بعد أن صار يتضح للكثيرين من اليهود حقيقة ما يفعله أبنـــاء جلدتهم من الإسرائيليين صاروا يتحدثون أحيانًا عن الحدود وعن اقتسام الأرض، وإن سألتهم لماذا هم في فلسطين ما دام أهلها موجودين، يكــون ردهــم نحــن موجودون فحسب ولا يتحدثوا عن السلاح، ووجدوا ضالتهم بأن يصبغوا إسرائيل بصبغة دينية ملحوظة، صارت معظم شروطهم تشير على أن إسرائيل هي دولـــة يهودية بدلاً من قولهم السابق بإنها صـــهيونية، وهــذا التخــبط فـــي الفلســفة الصهيونية له دلالاته الانهزامية بالنسبة للنظرية الصهيونية لأن الأســـاس بنـــي على باطل.

تيدورهرتزل:

"يا له من مجد ينتظر هؤلاء الذين يدافعون عــن القضـــية دون أنانيـــة، أخيـــرًا سنعيش أحرارًا على أرضنا ونموت بسلام في وطننا، سيتحرر العـــالم بحريتنـــا، وسيتغنى بثروتنا، ويكبر معنا، وكل محاولة نجريها هناك لتحقيق رخائنا، ســـوف تنعكس بقوة وفائدة لصالح الإنسانية".. "تيودور هرتزل".

تيودور هرتزل هو صحفي يهودي نمساوي، يُعتبر مؤسس الصهيونية السياســـية المعاصرة، اسمه العبري "بنيامين زئيف"، ولد في المجــر عـــام ١٨٦٠م لأســـرة ثرية، وكان له ثلاثة أسماء: الاسم الألماني "تيودور"، والعبري "بنيامين زئيـــف"، والمجرى "تيفا دارا"، التحق بمدرسة يهودية حينما كـــان عمـــره ســـت ســـنوات وأمضى أربع سنوات فيها، ثم انقطع عن الدراسة في المدرسة اليهودية، وحينما بلغ الخامسة عشر عامًا من عمره، التحق بالمدرسة الثانوية الفنية ثـــم بالكليـــة الإنجيلية سنة ١٨٧٦م وهناك تلقى تعليمًا يطابق روح التنوير الألماني اليهـــودي السائد في ذلك الزمن، تعليمًا كان يغلب عليه الطابع الغربي المســـيحي وتخـــرج سنة ١٨٧٨م، وفي نفس السنة انتقلت أسرته إلى مدينة فيينا بسويسرا، والتحـــق

بالجامعة وحصل على دكتوراة فـــي القـــانون الرومـــاني ســـنة ١٨٨٤م، عمـــل بالمحاماة لمدة عام ثم كرس حياته للأدب والتأليف ونشـــر ابتـــداء مـــن العـــام ١٨٨٥م مجموعة من المقالات وبعض المسرحيات التي لم تلاقي نجاحًا كبيرًا.



تيودور هرتزل ١٨٦٠ – ١٩٠٤م

Theodor Herzl

قبل بروز نجم هرتزل كانت الهجرة اليهودية تتبع الأسلوب التســللي.. الاعتمـــاد على الجهود اليهودية فقط، لهذا كانت الهجرة بطيئة لشـــح الإمكانيـــات الماديـــة وعدم وجود قوى كبرى عالمية تتبنى مشروع الاستيطان، يعتبر هرتزل هو مـــن وضع نهاية للصهيونية التسللية وجهودها الطفولية، كونـــه نجـــح فـــي تطـــوير الخطاب الصهيوني المراوغ، كما نجح في إبرام العقد الصهيوني الصـــامت بـــين العالم الغربي والمنظمة الصهيونية باعتبارها ممثلاً غير منتخب ليهـــود العـــالم، وهو ما جعل توقيع وعد بلفور؛ أهم حدث ممكن في تـــاريخ الصـــهيونية، وقـــد

خرجت كل الاتجاهات الصهيونية من تحت عباءته أو من ثنايا خطابــه المــراوغ وكما سنلمس في صفحات الكتاب الذي يقلب صفحاته بذاته جريًا علــى طريقــة هرتزل التي اتبعها في خطابه المراوغ عسى أن يجد القاريء شيئًا غيــر عاديًــا يُستفاد منه.

كانت شخصية هرتزل المميزة التي جعلته يتفوق على نفسه قد أهَّلته بأن يكــون جسرًا موصلاً بين العالم الغربي والجماعات اليهوديــة فيــه، فقــد كــان مثقفًــا ومتحضرًا وشابًا ويجيد معظم اللغات الأساسية الغربية، الإنجليزيــة والفرنســية والألمانية والمجرية ولم يكن يجيد العبرية بطلاقة، كان هرتــزل يهوديًــا غربيًــا مندمجًا لم يبق من يهوديته سوى قشرة، أي أنه يهودي غير يهودي، ومع ذلــك فهو يُصنف على أنه يهودي، قال المفكر الصهيوني "جيكوب كلاتزكين" المولــود في روسيا، إن هرتزل هو ثمرة الوعي الإنساني العالمي (أي الغربــي) لا ثمــرة وعي ثقافي يهودي منحط من شرق أوروبا، وأن القشرة اليهودية السطحية فــي تكوين هرتزل، هي التي أكسبته الشرعية أمام جماهير شرق أوروبــا اليهوديــة وأظهرته بمظهر اليهودي الغربي العائد إليهم، ولهذا فقد اعتبروا عودته إحــدى علامات أخر الأيام.



Alfred Dreyfus ألفريد دريفوس ١٨٥٦ – ١٩٣٥ م

اشتغل هرتزل أيضًا بالصحافة حيث عمل في باريس كمراسل لإحدى الصحف المهمة آنذاك هي "نويه فرايه براسه" من ١٨٩١م إلى ١٨٩٦م"، وهنا بدأت تتشكل أفكار هرتزل الصهيونية بعد أن عايش مسألة "ألفريد دريفوس" في فرنسا وتابع أحداثها في مراسلاته الصحفية في فترة ازدادت فيها معاداة السامية، في عام ١٨٩٤م اتهم الضابط اليهودي في الجيش الفرنسي، الكابتن "ألفريد دريفوس ١٨٥٦ – ١٩٣٥ م" بالخيانة كعميل للألمان، هو ضابط فرنسي صادف أنه يهودي، تم القبض عليه في ١٥ أكتوبر عام ١٨٩٤ م بتهمة سرقة وثائق سرية عسكرية وتسليمها إلى الملحق العسكري الألماني في باريس، فوجهت إليه تهمة الخيانة العظمى والتجسس لصالح ألمانيا، وحوكم محاكمة سرية، وفي ٥ يناير عام ١٨٩٥ م جُرد من ألقابه العسكرية وأهين علنًا في مدرج الكلية الحربية، في عام ١٨٩٦ م أعيد النظر في قضيته وتمت تبرئته، ويقال إن هذه القضية هي من أهم أسباب توجه هرتزل نحو فكرة الصهيونية واهتمامه بعلاج مشكلة اللا سامية.

خلال فترة اتهام دريفوس شهد هرتزل الفرنسيين خلال المظاهرات يهتفون بالموت لليهود في فرنسا التي تعتبر وطن الثورة التي تنادي بحقوق الإنسان، وبدا له بأن هناك ليس سوى حلاً واحدًا هو أن يهاجر اليهود إلى وطن يعتبر ملكًا لهم، وهكذا فإن قضية دريفوس أصبحت واحدة من المقومات الأساسية في نشأة الحركة الصهيونية السياسية، فقد رأى هرتزل أن الكره لليهود خلال محاكمة "ألفريد دريفوس" أعمق من قضية نقيب في الجيش الفرنسي من أصل يهودي متهم بالخيانة، وأن المجتمع الفرنسي بعد مائة سنة من الثورة الفرنسية التي رفعت شعارات حقوق الإنسان ها هو يطالب بالموت لليهود.

من هنا يمكن القول بإن هرتزل لم يكن توجهه الصهيوني هو العقيدة الدينية وما تحوي من نبوءات تحريفية مثل أرض الميعاد، وشعب الله المختار، وكل ما له علاقة بفلسطين، وخير دليل على ذلك أن هرتزل حينما يتحدث في كتابه "دولة اليهود" عن وطن لليهود في الأرجنتين مثلاً، فهو يقول ما معناه (وضع بدايته

على صورة سؤال)، ما الأفضل فلسطين أم الأرجنتين؟ وأكمل قائلاً سيكون الاختيار للجمهور اليهودي! إن الأرجنتين تعتبر من أجود أنواع التربة في العالم، وهي أرض واسعة وسكانها متباعدين بسبب مساحتها الشاسعة كما أن مناخها معتدل، والتنازل عن جزء من أرضها سيكون مفيدًا للأرجنتين نفسها حيث سنقدم للأرجنتين القروض والمساعدات كشق الطرق وغيرها وكما سنفعل في المنطقة التي ستخصص لليهود فيها.

هذا وصحيح أن هرتزل قال عن فلسطين إنها الوطن التاريخي لليهود الذي لا ينسى، وحبذا لو أن سلطان تركيا يمنحنا فلسطين في مقابل أن نقدم لتركيا المال، فإنه يتضح أن أبو الصهيونية هرتزل ومساعديه لم تكن فلسطين هي الخيار الأوحد ولا الأول بالنسبة لهم، وكانت في نظرهم مثل أي منطقة أخرى يستطيعون الحصول عليها وحسب، ومعنى هذا من ناحية أخرى، أن دولة إسرائيل قد نشأت على أساس مبادئ هرتزل الصهيونية العلمانية، وليس لها علاقة بشعب الله المختار وأرض الميعاد أو كما يدَّعي بعض الأصوليين اليهود، والدليل على ذلك أن نظام الحكم في إسرائيل هو ديمقراطي ليبرالي غربي، وأن الصهيونية التي أسست وتدير الدولة الإسرائيلية ما زالت تحكم بنفس الأسلوب وإن استعملت بعض رجال الدين اليهود لخدمة سياساتها الداخلية والخارجية، والمتتبع لعلاقة الأحزاب الدينية والحاخامات مع الأحزاب السياسية الإسرائيلية الأخرى، يلمس بسهولة بأن القادة الدينيين في إسرائيل دائمًا يتبعون القيادات السياسية الصهيونية وليس العكس بل إن الأحزاب الدينية تعتاش على المساعدات والرشاوى السياسية التي يقدمها أحيانًا لهم الحزب الحاكم في إسرائيل.

في سنة ١٨٨٩م تزوج هرتزل من "جولي نتشاور" وكانت من أسرة ثرية أيضًا ولم يكن زواجه موفقًا، لعل مشاكل هرتزل الجنسية لعبت دورًا في ذلك، إذ يبدو أنه أصيب بمرض سري (شأنه شأن نيتشه معاصره) وتنقَّل في عدة مصحات للاستشفاء من هذا المرض، كما أنه كان متعلقًا بأمه، فقد استطاعت أمه أن تغذي أحلامه وتشحنه حتى علت همته وصار يظن بأنه صاحب مهمة نبيلة، لهذا اندفع

يعمل بلا كلل في سبيل غاياته مستعملاً عقله وجهده ومثابرته، وهنا قد يكون من المفيد التوقف قليلاً للتحدث عن هوية هرتزل التي كانت تقف بين عدة انتماءات دينية إثنية متنوعة (ألمانية - مجرية - يهودية - بل مسيحية) دون أن ينتمي لأيٍّ منها أو يُستوعَب فيها، فإذا نظرنا لانتمائه اليهودي، فإننا نجد أنه يرفض الدين اليهودي والتقاليد الدينية اليهودية، والواقع أن زوجته كان مشكوكًا في يهوديتها، وقد رفض حاخام فيينا إتمام مراسم الزواج، كما أن هرتزل لم يختن أولاده ولم يكن الطعام الذي يُقدَّم في بيته "كوشير"، أي مباحًا شرعًا، أما تَصوُّره للإله، فلم يكن يستند إلى العقيدة اليهودية بقدر استناده إلى نزعته الحلولية التي توحِّد الإله والطبيعة، فهي حلولية وحدة الوجود أو حلولية بدون إله.

كانت أسرة هرتزل مجرية النسب، إلا أنها ضمن مجموعة من اليهود، قاومت عملية المجرية (أي صبغها بالصبغة المجرية) واحتفظت بولائها لألمانيا (مثل كثير من يهود المجر: "ماكس نوردو" و"جورج لوكاش" وغيرهما)، ولذا نزحت الأسرة إلى فيينا عام ١٨٧٨ م، وكان عدد اليهود في فيينا آنذاك (١٨٨١) لا يزيد على عشرة آلاف يهودي، ولكن تَعثُّر التحديث في شرق أوروبا أدَّى إلى دَفْع جحافل اليهود إلى وسط وغرب أوروبا بحيث بلغ عددهم عام ١٨٩٩ م ما يزيد على ١٠٠ ألف نسمة، أي أنهم زادوا عشرة أضعاف خلال أقل من عشرة أعوام.

إن من الأهمية بمكان أن نعلم، بأن هرتزل لم تكن لديه خبرة نقابية في البداية، ولم يكن واسع الثراء حتى يصبح ذي شأن ونفوذ، ولكنه استطاع أن يجالس الساسة والأباطرة والملوك، ويبدو أنه قد فهم معنى تأثير الرأي العام العالمي، وعرف فن الممكن، وفهم كيف يوجه رسالته الإعلامية إلى العامة والخاصة، لكن البعض ومنهم الدكتور "عبد الوهاب المسيري" يرون أن ما عند هرتزل من ملكات ومقدرة أو كفاءة لا تكفي لتفسير قدرته على تخطي الحاخامات والأثرياء وجمعيات أحباء صهيون وأن يجعل نفسه متحدثا باسم يهود العالم، لهذا لا نجد الآن إلا أن نعطي تفسيرًا لتساؤل الدكتور المسيري، فنقول إن ما قام به هرتزل لو أخذناه بمقاييس زمن القرن الواحد والعشرين فربما يُعتبر مقنعًا إذا ما تذكرنا

أن ليس كل أبناء الجلدة الواحدة على بينة واحــدة بقضــايا أمــتهم، وأن أهــل السياسة ليسوا كأهل الدين مثلاً، ناهيك أن هرتزل نشأ في بيئة ساعدته كثيرًا أن يكون موقعه كما تمنى وتمنت له والدته، فهو من أسرة غنية وقد أصــاب قســطًا عاليًا من التعليم ودرس القانون وربما هذا ما جعل عنده رؤيا، لكن المهم أيضًــا بأن علينا ألا ننسى بأن هرتزل عاش في أكثر من وطن واحد وعمل في الصحافة، وهذا قد أتاح له الكثير أن يعرف عن العالم خصوصًا وأنه تزعَّم تنفيذ فكرة بحجم خلق دولة كانت تكبر مع الأيام وكان يزداد هو معرفة وخبرة وقد خدمتــه كثيــرًا تنقلاته كصحفي بين الدول فقد قابل القادة وقابل الناشطين من اليهود بينما هــو يقوم بعمله كصحفي، وهكذا ازداد به إعجاب الحالمين مثله مــن يهــود أوروبــا الأغنياء رغم أنه لم يكن يعرف سوى القليل من اللغة العبرية، كان هرتزل يجيــد الألمانية والمجرية والإنجليزية والفرنسية، لكنه لم يكن ليجيــد اللغــات الــثلاث الأخرى غير المجرية لولا أن أسرته كانت غنية، ونزوحه مع أسرته إلى سويسرا ودخوله جامعة فيينا وعمله كمراسل لصحيفة فرنسية.

كان هرتزل يتصرف أو بالأحرى كان يتظاهر كالاستقراطيين، وكان يخفي هويتــه اليهودية بقدر الإمكان، لذا قبله غير اليهود من المتنفذين فــي الــدول الغربيــة، وقبله اليهود لكي يتحدث باسمهم، فصار وسيطًا لهؤلاء عنــد أولئــك وبــالعكس ونجح نجاحًا باهرًا في هذا، كان هرتزل يعرف الكثير من زعماء الــدول الغربيــة وكان يلم إلمامًا شديدًا بما يحدث في العالم من أحداث، كانت له علاقة حين اللزوم بزعماء أوروبيين مثل بنيامين دزرائيلــى رئــيس وزراء بريطانيــا، وسيســيل رودوس وهنرى ستانلي، وكان يعرف عن موازين القوى وعــن "تركيــا" رجــل أوروبا المريض، وكان يفهم التنافس الاستعماري الغربي على منــاطق النفــوذ، وكان يحاول أن يوظفها لصالح تحقيق هدفه، وكمثال على ذلك ما كتبه هرتزل في مذكراته عن الزعيم المصري "مصطفى كامل"، قال ما معناه إن نجاح مثــل هــذا الشاب في مصر قد يؤدي إلى إخراج الإنجليز من مصر وقد تفقد قناة الســويس أهميتها بالنسبة لتجارة بريطانيا مع الهند، وحينها قد يصبح العبــور مــن قنــاة

السويس غير مأمونًا وعندها قد تصبح أهمية حيفا إذا ما أقمنا وطنًا قوميًا في فلسطين أهم من قناة السويس بالنسبة للتجارة البريطانية مع الهند، وهرتزل يعني بهذا أنه يتوجب لو شاءت المصالح الصهيونية أن تصنع علاقة مع الحركة الوطنية المصرية ويبدوا الصهاينة أصدقاء للمصريين وهو يقصد إخراج الإنجليز لا من أجل مصطفى كامل وأمثاله أو من أجل مصر، ولكن من أجل جعل البريطانيين يشعرون أن مصالحهم يجب أن تكون مع الحركة الصهيونية لتأمين خط تجارة بريطانيا مع مستعمراتها مع شرق آسيا وخصوصًا مع الهند.

هذا، واستطاع هرتزل أن يقنع القوى الأوروبية الرئيسية في ذلك الوقت، بأن من مصلحتهم التخلص من اليهود المنبوذين في أوروبا بطريقة يتحولون فيها من أعداء إلى أصدقاء للغرب، وذلك بأن يفتحوا لهم باب الهجرة إلى الوطن الموعود فلسطين، كما أن هرتزل استطاع أن يقنع الغرب بأن الدولة اليهودية إذا ما أسست ستظل تحت الحماية الأوروبية وسيكون ارتباطها مع الغرب عضوي وستظل القوى اليهودية العالمية في خدمة الدول الغربية وتبقى الدولة الصهيونية صديقة دائمة للغرب، هذا وذهب هرتزل أبعد من ذلك حينما راح يؤكد للقوى الغربية بأن اليهود والعرب في الشرق الأوسط سيكونون منسجمين سويًا، وستكون المنطقة بهؤلاء وهؤلاء أكثر صداقة مع الغرب، وصاحب الفترة التي لمع فيها نجم هرتزل أن حركة القومية العربية كانت في صعود وانتشار، وكان هدفها الأول التخلص من السيطرة العثمانية.

وهكذا أصبح هرتزل يفكر في السياسة وصار مهتمًا بالمشكل اليهودي وفي ضرورة إيجاد حل غير الاندماج والانصهار في مجتمعات أوروبا الشرقية والغربية، فالتيار المعادي للسامية ورغبة اليهود في إثبات وجودهم كشعب كما يرى هرتزل يدعوان إلى البحث عن بديل، وكانت الإجابة في الكتيب الذي انتهى من تأليفه يوم ١٧ مايو سنة ١٩٩٥م والذي نشر سنة ١٨٩٦م تحت عنوان "دولة اليهود" التي تحدثنا عنه قبل قليل.

قال هرتزل في كتابه دولة اليهود، إن جوهر المشكلة اليهودية ليست مشكلة فردية بل وطنية، وأعلن أن اليهود لن يحصلوا على قبول في العالم إلا إذا توقفت مواطنتهم الشاذة التي يمارسونها في المجتمعات التي يعيشون فيها، إن اليهود هم شعب واحد، وقال إن محنتهم يمكن أن تتحول إلى قوة إيجابية من خلال إنشاء دولة يهودية بموافقة القوى العظمى، وأضاف أنه يرى أن المسألة اليهودية مسألة دولية سياسية يمكن التعامل معها في مجال السياسة الدولية، اقترح هرتزل في كتابه برنامجًا عمليًا لجمع الأموال من اليهود في جميع أنحاء العالم عن طريق شركة تكون مملوكة لحملة الأسهم، وفي نهاية المطاف أصبحت فكرته حين تطبيقها هي المنظمة الصهيونية، وقال إنه لا يرى مستقبلاً للدولة إلا إذا كانت النموذج الاجتماعي للدول، ذلك استنادًا إلى أفكاره على طريقة أسلوب النموذج الأوروبي في ذلك الزمن، وقال أيضًا بإن على هذه الدولة أن تكون على الحياد بين الأمم وتسعى للسلام، وذات طابع علماني، وراح يتصور مجتمعًا جديدًا يقوم على أساس تعاوني واستخدام العلم والتكنولوجيا في تطوير الأراضي.

لقد أعرب هرتزل عن أفكار تفصيلية من ناحية كيف يمكن تقويم مستقبل الهيكل السياسي للدولة، والهجرة وجمع الأموال، والعلاقات الدبلوماسية والاجتماعية والقوانين والعلاقات بين الدين والدولة، وهذا الكتاب كان له تأثير كبير على اليهود بعد ذلك، وأصبح رمزًا للرؤية الصهيونية في أرض إسرائيل حين التطبيق العملي في بناء الدولة، لكن أفكار هرتزل لم تلق حماسة لدى الجماهير اليهودية في أوروبا الشرقية، إلا أنه ناشد الأثرياء اليهود في أوروبا الغربية مثل البارون هيرش والبارون روتشيلد للانضمام إلى الحركة الصهيونية.

وإن لم يجد الكتيب صدى واسعًا في البداية إلا أنه وضع فعلاً حجر الأساس لظهور الصهيونية السياسية وتأسيس الحركة الصهيونية بعد انعقاد المؤتمر الصهيوني الأول في مدينة بازل السويسرية بين ٢٩ و٣١ أغسطس ١٨٩٧م وتم انتخاب "تيدور هرتزل" رئيسًا للمنظمة الصهيونية العالمية، شهد المؤتمر أكثر من مائتي مندوب يمثلون سائر الهيئات اليهودية العالمية، وأوصى بتشجيع الاستعمار

اليهودي لفلسطين بطريقة منظمة، وبتنظيم الحركة اليهودية واتحاد الهيئات المتفرقة في شتى أنحاء العالم، والعمل على إيقاظ الوعي اليهودي، والقيام بمساع لدى مختلف الحكومات للحصول على موافقتها على أهداف الحركة الصهيونية.

وفي الحقيقة أن سطحية هرتزل الفكرية ساهمت إلى حدٍّ كبير أن يظل دائمًا على سطح الأشياء، فلم يدرك عمق التناقضات بين الصهيونية الغربية وصهيونية شرق أوروبا، ولم يكن يعرف عن اليهودية كثيرًا، وهو ما جعله قادرًا على أن يصل للصيغة المراوغة التي سترضي الجميع دون أن يضطر أحد للتنازل عن شيء، وكما بيَّنا من قبل، لم يكن هرتزل يعرف شيئًا عن عالم اليهود ولكنه كان يعرف بعض الشيء عن شخصيات الاستعمار الغربي مثل بنجامين دزرائيلي وسيسل روديس وهنري ستانلي، وعن موازين القوى وعن رجل أوروبا المريض وعن التشكيل الاستعماري الغربي.

ورغم كل هذا ورغم إعجابه الشديد بمؤسسات الحضارة الغربية، ابتداءً من العقلية الألمانية وانتهاءً بالمشروع الاستعماري والتكنولوجيا الغربية، إلا أنه اكتشف أن هذه الحضارة قد أوصدت أبوابها دونه أو على الأقل دون الاندماج التام الذي كان يطمح إليه، فتعرَّض لتمييز عنصري ولسخرية لأنه يهودي، فتذكرة الدخول للحضارة الغربية والاندماج الكامل فيها كان لا يزال اعتناق المسيحية، ولعل انتماءه إلى جماعة شبابية للمبارزة (رياضة المصارعة)، وهي جماعة ذات مُثُل قومية ألمانية عضوية، دليل على حرصه على الانتماء الألماني، ولكن الجمعية اتخذت قرارًا عام ١٨٨١م بعدم ضم أعضاء يهود جدد فقرر الاستقالة احتجاجًا على القرار، وهو بهذا المعنى مثال جيد على "اليهودي غير اليهودي".

وقد ظهر هرتزل في مرحلة كانت صهيونية غير اليهود وصهيونية شرق أوروبا فيها قد دخلت طريقًا مسدودًا، فالفريق الأول كان ينظر لليهود من الخارج وكان الثاني لا ينظر إلى الخارج أبدًا، أما هو فيهودي غربي، أو إن أردنا الدقة لا هو

من شرقها ولا هو من غربها وإنما من وسطها، يقف بين شرقها المتعثر وغربها المندمج، ورغم أنه يهودي كُتب عليه المصير اليهودي، إلا أنه كـان كصـحفي نمساوي يتحرك بكفاءة في الأوساط الغربية كما كان يتحدث لغتها، وقد قال هـو نفسه إنه "تعلَّم في باريس كيف يُدار العالم"، وكان قد ذهب إلى بـاريس وعمـره ٣١ عامًا وتركها وعمره ٣٥ عامًا.

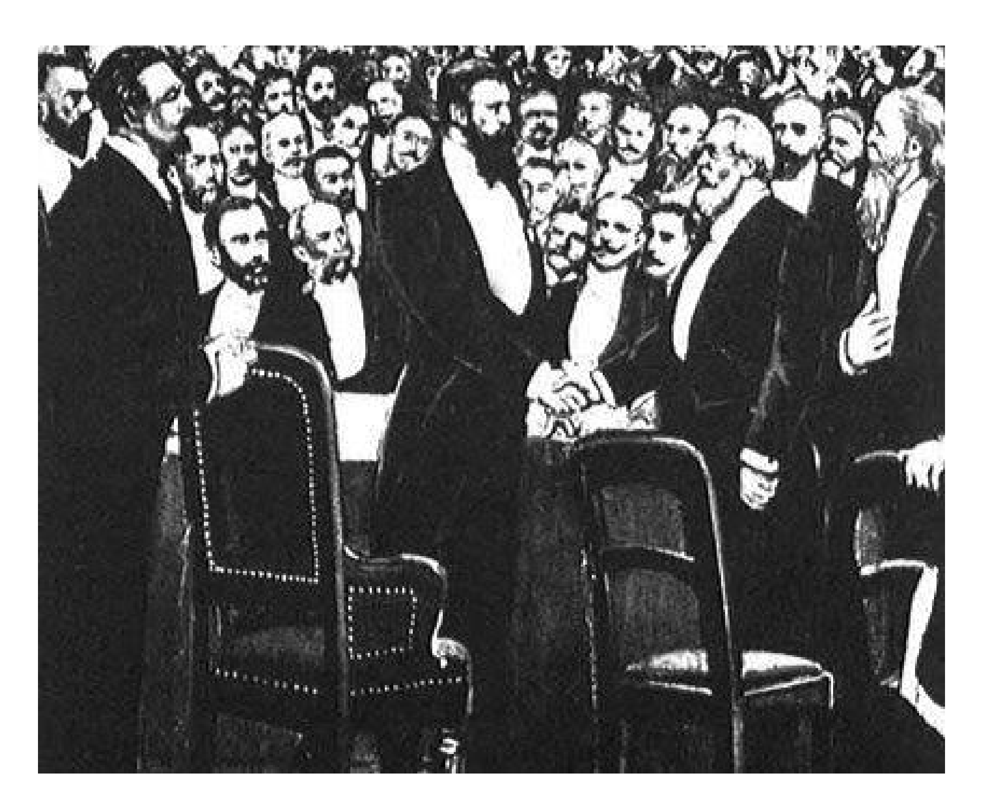
وقد كانت جماهير شرق أوروبا تنظر إليه لا باعتباره من وسـط أوروبـا وإنمـا باعتباره غربيًا، واعتُبرت عودته لها إحدى علامات أخر الأيام، وقد عبَّر وايزمان عن هذا الإحساس خير تعبير، بأسلوبه حين قال:
"أتى هرتزل من عالم غريب لم نعرفه، فركعنا أمام النسر الذي جاء من تلك البلاد [ولنلاحظ الصورة الوثنية هنا، فالنسر علامة القوة ورمـز عـالم الأغيـار بكـل تأكيد]، ولو أن هرتزل قد تتلمذ في مدرسة دينية لما تبعه أحد من اليهود [يعنـي يهود شرق أوروبا] لقد سحر اليهود لأنه ظهر في قلب الثقافة الأوربية".

وما بين ربيع عام ١٨٩٥م وشتائه، اختمرت فكرة الدولة اليهوديـة فـي عقـل هرتزل، ثم قرَّر أن يسجل أفكاره في كتيب ففعل ذلك في خمسة أيام ونشر موجزًا في صحيفة "جويش كرونيكل" ثم نشرها في ١٤ فبراير ١٨٩٦ م بعنوان "دولـة اليهود"، وقد ألَّف هرتزل الكتيب بالألمانية ونشر منه بين عامي ١٨٩٦ و١٩٠٤م خمس طبعات بالألمانية وثلاثًا بالروسية وطبعتين بكلٍّ مـن العبريـة واليديشـية والفرنسية والرومانية والبلغارية، وقد أصر هرتزل على أن يضع لقبـه العلمـي (دكتوراه في القانون)، والكراسة - دولة اليهود - مكونة مـن ٣٠ ألـف كلمـة (وتقع في ٦٥ صفحة في طبعتها الأصلية) وأسلوبها واضح بسيط لا يتسم بـأي عمق أو تفلسُف، وقد وصف هرتزل كتابه بأنه ليس حلاً وحسب، وإنما هو "الحل الوحيد الممكن".

هذا، ويقول عبد الوهاب المسيري في بحثه عن نسل هرتزل: "وقد اختفـى نسـل هرتزل نهائيًا، فكبرى بناته بولين (١٨٩٠ - ١٩٣٠م) كانت مختلة عقليًا وطُلِّقت من زوجها وأصبحت صائدة للرجال ومدمنة للمخدرات، أما أخوها هـانز (١٨٩١

- ١٩٣٠م) الذي لم يُختن طيلة حياته، مخالفة للتعاليم اليهودية، فقد أصيب بخلل نفسي واكتئاب شديد ثم تَحوَّل إلى المسيحية وانتحر يوم وفاة أخته، أما الابنة الصغرى، فقد ترددت على كثير من المصحات حتى ماتت عام ١٩٣٦م، وقد نشأ ابنها (حفيد هرتزل) الوحيد - في انجلترا حيث غيَّر اسمه من نيومان (اسم ذو نكهة يهودية) إلى نورمان (اسم ذو نكهة أنجلو ساكسونية، وكان يعمل ضابطًا في الجيش الانجليزي، وبعد أن ترك الخدمة عُيِّن مستشارًا اقتصاديًا للبعثة البريطانية في واشنطن حيث انتحر بأن ألقى بنفسه من على كوبري في النهر".

لم يكن هرتزل صاحب فكر بل صاحب أفكار متباعدة لا ينسجم معظمها مع التسلسل المنطقي والوضوح والتماسك، وطريقته في طرح أفكاره ليس فيها ارتباط كبير بين المقدمات والنتائج وإنما تتسم بالترهل والهلامية، وهي مليئة بالثغرات لعل هرتزل تركها عمدًا كي يملأها كل من يقرأ نصه بالطريقة التي تروق له، من أفكار هرتزل أنه كان يرى أحيانًا أن اليهود عرْق مستقل، ولذا فقد تحدَّث عن أنوفهم المعقوفة وعن الريبة في عيونهم، وكثيرًا ما تحدَّث عنهم من خلال الأنماط العرقيَّة التقليدية الشائعة في أدبيات اليهود، ويبدو أن ادعاء الأرستقراطية كان من قبيل محاولة اللجوء إلى عالم الأغيار الرحب هربًا مما سماه "المادية اليهودية المفرطة"، فهرتزل (الصهيوني اليهودي غير اليهودي) لم يكن له اعتراض على الاندماج والذوبان والانصهار والاختفاء، فهو يقرر في كتابه "دولة اليهود"، بشيء من الاستحسان، أن اليهود لو تُركُوا وشأنهم لاختفوا ولكنهم لا يُتركون وشأنهم، لعل أهمية هرتزل في تاريخ الصهيونية هي أنه حوَّل الصهيونية من مجرد فكرة إلى حركة ومنظمة، نص الخطاب الذي افتتح به تيدور هرتزل المؤتمر الصهيوني الأول يوم ٢٩ أغسطس عام ١٨٩٧ م (انظر الوثائق في نهاية الكتاب).



المؤتمر الصهيوني الأول ١٨٩٧م

بعد ذلك بدأ هرتزل عدة محادثات مع شخصيات عديدة من دول مختلفة، مثل القيصر الألماني "فلهلم الثاني" الذي التقى به سنة ١٨٩٨م مرتين في ألمانيا وفي القدس ثم بالسلطان العثماني عبد الحميد الثاني سنة ١٩٠١م، بحثًا عن مؤيدين للمشروع الصهيوني، وعندما باءت جهوده بالفشل، استدار ناحية بريطانيا العظمى، والتقى مع "جوزيف تشامبرلين" وزير المستعمرات البريطاني وغيره، العرض الوحيد الملموس الذي تلقاه من البريطانيين في ذاك الوقت كان اقتراحهم بإعطاء اليهود حكمًا ذاتيًا في أوغندا في شرق أفريقيا، وحينما وجد أنه لم يجد بغيته ظل ساعيًا لكي يظل المجال مفتوحًا لمواصلة العمل على تأسيس الدولة المزعومة، لم يعش تيدور هرتزل طويلاً فقد وافته المنية في سنة ١٩٠٤م في مدينة "أولاخ" عن عمر يناهز ٤٤ عامًا ودُفِن فيها، بعد قيام دولة إسرائيل نُقِل رفاته إلى فلسطين المحتلة في الوطن الذي تخيله.. ودفن في مدينة القدس.

الماسونية Freemasonry:

الصهيونية كالماسونية (الشبكة الإسلامية) ليست وليدة هذا العصر فقد مرت بمراحل كثيرة منذ القرون الأولى قبل ظهور المسيحية وبعدها وقبل ظهور الإسلام وبعده، في مراحلها الأولى كانت مهمتها تحريض اليهود على الانتفاض والعودة إلى أرض فلسطين وبناء هيكل سليمان، وتأسيس مملكة إسرائيل الكبرى، وحياكة المؤامرات والمكائد ضد الأمم والشعوب الأخرى.

يقول الباحث "فتحي بشير البلعاوي" عن معنى الماسونية، هم البناءون، لكن المفسرون لم يتفقوا على المعنى وبقي المعنى الشائع هو البناءون الأحرار، ويعني أن البنَّاء الحر من حقه أن يبني كما يريد ما دام قد تلقى التدريب الكافي أو أن ينتقل إلى أي مقاطعة أو مدينة أخرى ويمارس البناء فيها.

الماسونية منظمة يهودية غامضة، محكمة التنظيم تهدف إلى ضمان سيطرة اليهود على العالم وتدعو إلى الإلحاد والإباحية والفساد، وتتستر تحت شعارات خدَّاعة مثل الحرية - الإخاء - المساواة – الإنسانية، وجلُّ أعضائها من الشخصيات المرموقة في العالم، ويقيمون ما يسمى بالمحافل للتجمع والتخطيط والتكليف بالمهام، تمهيدًا لتأسيس جمهورية ديمقراطية عالمية.

توجد ثلاث درجات للماسونيات المختلفة، التلميذ، زميل المهنة، الأستاذ، وأضيفت درجة رابعة هي "القوس المقدس الأعظم"، وتصل الدرجات أحيانًا إلى الآلاف، من رموز الماسونية، المثلث والفرجار والمسطرة والمقص والرافعة والنجمة الخماسية، والأرقام ٣ و٥ و٧ وهي رموز وطقوس تساعد على اكتشاف النور، والوحدة الأساسية في التنظيمات الماسونية هي المحفل، ويحق لكل سبعة ماسونيين أن يشكلوا محفلاً، والمحفل يمكن أن يضم خمسين عضوًا، وتعقد المحافل اجتماعًا دوريًا كل خمسة عشر يومًا، يحضره المتدربون والعرفاء

والمعلمون، أما الرتب العالية فتجتمع على حدة في ورشـات التجويـد، كمـا أن للمشاركين في الاجتماعات زيهم الخاص.

تشكل المحافل اتحادات تدين بالولاء والطاعة لأحد المحافل الكبرى، فـي فرنسـا على سبيل المثال، خمسة محافل أساسية كبرى، هـي: محفـل الشـرق الكبيـر، ومحفل فرنسا الكبير، والمحفل الوطني الفرنسي الكبير، والاتحاد الفرنسي للحقوق الإنسانية، ومحفل فرنسا الكبير للنساء، وللمحافـل الكبـرى جمعيـات عموميـة يتخللها تقييم العمل الذي تم إنجازه ورسم خطط العمل للمستقبل.

أما تاريخ ظهور الماسونية فقد اختلف عليه لتكتمها الشديد، والراجح أنها ظهرت سنة ٤٣م، ومرت الماسونية بمرحلتين لتأسيسها، هما مرحلـة القـوة الخفيـة وهدفها التنكيل بالنصارى وبعد عدة قرون سميت بالماسونية، ومرحلة أخرى تبدأ سنة ١٧٧٠م عن طريق "آدم وايزهاويت" المسيحي الألمـاني (تـوفى ١٨٣٠م) الذي ألحد واستقطبته الماسونية ووضع الخطة الحديثة للماسونية بهدف السيطرة على العالم وانتهى المشروع سنة ١٧٧٦م، ووضع أول محفل في هـذه الفتـرة المحفل النوراني نسبة إلى الشيطان الذي يقدسونه.

ضمَّت الماسونية شخصيات هامة مثل "ميرابو" و"مازيني" الذي أعاد ضبط الأمور بعد موت وايزهاويت، والجنرال الأمريكي (ألبرت مايك) الذي سُرِّح من الجـيش فصب حقده على الشعوب من خلال الماسونية، كودير لـوس اليهـودي صـاحب كتاب العلاقات الخطرة، لاف أريدج وهو الذي أعلن في مؤتمر الماسـونية سـنة ١٨٦٥م في مدينة أليتش في جموع من الطلبـة الألمـان والأسـبان والـروس والإنجليز والفرنسيين قائلاً: "يجب أن يتغلب الإنسان على الإله وأن يُعلن الحـرب عليه وأن يخرق السماوات ويمزقها كالأوراق، جان جاك روسـو، فـولتير (فـي فرنسا)، جرجي زيدان (في مصر)، كارل ماركس وأنجلز (في روسيا) والأخيـران كانا من ماسونيي الدرجة "الحادية والثلاثون" ومن منتسبي المحفـل الإنجليـزي ومن الذين أداروا الماسونية السرية وبتدبيرهما صدر البيان الشيوعي المشهور.

نشطت الماسونية داخل الدولة العثمانية مثلما نشطت في دول أخرى، ولقد اختلف في نشأتها داخل الدولة العثمانية، فيرى بعض الباحثين أن الماسونية الرمزية ظهرت في الدولة العثمانية سنة ١٧٣٨م في منطقة (كورفو)، تحت رعاية المحفل الأعظم الإنجليزي، في حين يرى البعض الآخر أن الماسونية كانت لها محافلها سنة ١٧٤٨م، حيث أمر الباب العالي أن تُحاصِر الشرطة في اسطانبول محفل ماسوني من أجل طرد أصحابه وتخريبه، ولقد ظهر محفل ماسوني آخر سنة ١٨٣٧م عُرف باسم محفل فيثاغورث، ثم تأسست محافل أخرى في أمان من تركيا.

كما أن أدلة كثيرة تُشير إلى أن الحركة الماسونية انبعثت في مصر سنة **1798**م علي يد رجال الحملة الفرنسية، إلا أن المحفل المصري انحل، وظل أعضاؤه يعملون في الخفاء وبسرية، شهد عصر "محمد علي" على تأسيس أكثر من محفل ماسوني في مصر فقد أنشأ الماسون الإيطاليون محفلاً بالإسكندرية سنة ١٨٣٠م، على الطريقة الاسكتلندية وغيرها، ولم تكن هذه المحافل منظمة في عملها فكانت تُفتح وسرعان ما كانت تُغلق بسبب مقاومة الدين الإسلامي لها.

يلاحظ أن نشأة المحافل الماسونية الحقيقية في الدولة العثمانية كان في الفترة من ١٨٦٠ – ١٨٦٩م وهي الفترة التي كان فيها السلطان (عبد العزيز) سلطانًا للدولة، وعندما تولى السلطان "عبد الحميد" مقاليد الأمور اتخذ موقفًا حاسمًا من الماسونية حيث أبدى معارضة شديدة لها، لأنه كان يرى فيها جمعية سرية سياسية وخطيرة في آن واحد، وقد هدفت الماسونية إلى تدبير انقلاب ضد السلطان ومن ثم خلعه، لكن المؤامرة اكتشفت، فقامت الأجهزة الأمنية بمداهمة مقر اللجنة فقبض على من قبض عليه وفرَّ من فرَّ، هذا إلى جانب ما قامت به الماسونية من محاولة اغتيال للسلطان عبد الحميد أكثر من مرة، وذلك حينما وضعت قنبلة كبيرة أثناء تأديته لصلاة الجمعة إلا أنه لم يصب، وأما عند التحدث عن العلاقة بين الماسونية وجمعية الاتحاد والترقي التركية فهي علاقة وطيدة

وعميقة، فمنذ البداية انضم لها الأحرار العثمانيون الذين سموا أنفسهم "بتركيا الفتاة" أو "جمعية الاتحاد والترقي".

وفي إطار حملتهم للقضاء على الديانة النصرانية، كان قد أنشأ اليهود في سنة ٤٣م جمعية سرية أطلقوا عليها اسم "القوة الخفية" واستعانوا بشخصية يهودية تُعرف باسم "احيرام أبيود" أحد مستشاري الملك هيرودس الثاني عدو النصرانية الأكبر على تحقيق هذه الغاية، وأسندت رئاسة الجمعية إلى الملك المذكور، وهكذا تم عقد أول اجتماع سري عام ٤٣ م حضره الملك المذكور ومستشاراه اليهوديان "احيرام أبيود وموآب لافي" وستة من الأنصار المختارين، وكان الغرض الرئيسي من إنشاء هذه الجمعية القضاء على النصرانية.

ثم عقدوا الاجتماع الثاني واتخذوا بعض القرارات السرية وتعاهدوا على كتمانها وأفسحوا لمن يثقون بهم المجال للانضمام إلى هذه الجمعية على أن تعصب عيني كل من يود الانتساب للجمعية، واتفقوا على اتخاذ بعض الأدوات الهندسية كالبيكار والميزان رمزًا لمنظمتهم السرية، وبعد هلاك الملك هيرودس انتقلت رئاسة هذه الجمعية السرية إلى "احيرام" مستشاره ثم أعقبه ابن أخيه "طوبان لقيان"، واستمرت جمعية القوة الخفية تعمل في السر، ولا يدري أحد عنها شيئًا حتى أميط اللثام عن هذه المنظمة عام ١٧١٧م، وذلك لدى ظهور ثلاثة من أقطاب اليهود "جوزيف لافي وابنه إبراهيم وإبراهيم أبيود"، وكانوا يحتفظون بنسخة من مبادئ هذه الجمعية وقراراتها وطقوسها وأخذوا يجوبون الأقطار للاتصال بالبقية الباقية من أتباع هذه المنظمة السرية، وكانوا يهدفون إلى استعادة مجد إسرائيل، واسترداد هيكل سليمان في بيت المقدس، ثم قصدوا لندن التي كانت تضم أعظم جماعة من اليهود المنتمين إلى تلك القوة الخفية.

وفي ٢٤ يونيو من العام المذكور، عقد هؤلاء الثلاثة الذين يعتبرون ورثة السر أول اجتماع في العاصمة البريطانية، وضموا إليهم اثنين من غير اليهود البسطاء للتمويه والتضليل وقرروا تجديد جمعية "القوة الخفية" ووضعوا لها بعض المبادئ البراقة "حرية، مساواة، اخاء، تعاون" واستبدلوا الرموز القديمة باصطلاحات

جديدة، كما قرروا تبديل اسم "هيكل" الذي كانوا يستعملونه قديمًا باسم "محفل" وتبديل اسم القوة الخفية باسم "البنائين الأحرار" (ماسون تعني بناء)، ولأول مرة في التاريخ ظهر لعالم الوجود ما يسمونه بالبنائين الأحرار، وأخذت تنتشر الجمعيات التي تحمل هذا الاسم، وزعم أقطاب اليهود الذين يقفون وراء هذه الجمعيات أن أهدافها نشر المبادئ الإصلاحية والاجتماعية وبناء مجتمع إنساني جديد، وقد استطاعوا أن يتخذوا من أحد أنصارهم "ديزا كولييه" مطية لتحقيق أغراضهم وأطلقوا عليه وعلى من يسيرون على غراره من غير اليهود اسم "العميان" كما أطلقوا على اسم محفل لندن الماسوني المركزي اسم "محفل انجلترا الأعظم"، على أن يكون في مقدمة مهامه دعم اليهود ومحاربة الأديان وبث روح الإلحاد والإباحية.

وللحركة الماسونية تاريخ أسود، وتردد اسمها عند نشأة كثير من الحركات السرية والعلنية وفي مؤامرات عديدة، وعُرفت بطابع السرية والتكتم وبالطقوس الغريبة التي أخذت الكثير من رموزها من التراث اليهودي وكُتبت حولها الآلاف من الكتب في الغرب وفي الشرق، ومن أهم الحركات والثورات التي كانت الماسونية وراءها الثورة الفرنسية، وحركة الاتحاد والترقي التي قامت بحركة انقلابية ضد السلطان عبد الحميد الثاني في تركيا ووصلت إلى الحكم ثم ما لبثت أن ورطت الدولة العثمانية في الحرب العالمية الأولى مما أدى إلى تمزقها وسقوطها، وقد ظل طابع السرية يلف هذه الحركة في اجتماعاتها ومنتدياتها وتحركاتها حتى طرأ تطور جديد، إذ تجرأت بفتح أبوابها وإعلان نشاطها متحدية كل المشاعر المتأججة ضدها، وكانت تركيا المحطة الأولى في المنطقة لإعلان هذا النشاط، ثم جاءت الأردن بعدها، ولا ندري أين ستكون المحطة الثالثة؟

الماسونية كما هو ثابت، نتاج الفكر اليهودي، وتركيا ترتبط مع إسرائيل بحلف استراتيجي، فهل هناك علاقة تجمع الآن بين أطراف هذا الثالوث؟ فما قصة الماسونية في تركيا؟ وماذا فعلت فيها.. ولنبدأ من البداية:

تأسس أول محفل ماسوني في الدولة العثمانية عام ١٨٦١م تحت اسم "الشورى العثمانية العالية" ولكنه لم يستمر طويلاً، فالظاهر أنه قوبل برد فعل غاضب مما أدى إلى إغلاقه بعد فترة قصيرة من تأسيسه (موقع العلوم الخفية)، ومن المعروف أن أول سلطان عثماني ماسوني كان السلطان مراد الخامس الشقيق الأكبر للسلطان عبد الحميد الثاني والذي لم يدم حكمه سوى ثلاثة أشهر تقريبًا عندما أقصي عن العرش لإصابته بالجنون، وقد انتسب إلى الماسونية عندما كان وليًا للعهد وارتبط بالمحفل الاسكتلندي، كما كان صديقًا حميمًا لولي العهد الإنجليزي الأمير إدوارد "ملك انجلترا فيما بعد" الذي كان ماسونيًا مثله، حتى ظنّ بعض المؤرخين أن ولي عهد انجلترا هو الذي أدخله في الماسونية، ولكن هذا غير صحيح لأنه كان ماسونيًا قبل تعرفه إلى الأمير "إدوارد".

كان من النتائج الخطيرة لتواجد المحافل الماسونية الأجنبية داخل حدود الدولة العثمانية، احتضان هذه المحافل حركة "الاتحاد والترقي" وهي في مرحلة المعارضة في عهد السلطان عبد الحميد الثاني، وأصبحت المحافل الماسونية محل عقد اجتماعات أعضاء جمعية الاتحاد والترقي بعيدًا عن أعين شرطة الدولة وعيونها لكونها تحت رعاية الدول الأجنبية ولا يمكن تفتيشها، ويعترف أحد المحافل الماسونية التركية الحالية وهو محفل "الماسونيون الأحرار والمقبولون" في صفحة "الإنترنت" التي فتحوها، "من المعلوم وجود علاقات حميمة بين أعضاء جمعية الاتحاد والترقي وبين أعضاء المحافل الماسونية في تراقيا الغربية، بدليل أن الذين أجبروا السلطان عبد الحميد الثاني على قبول إعلان المشروطية كان معظمهم من الماسونيين".

يقول المؤرخ الأمريكي الدكتور "أرنست أ. رامزور" في كتابه "تركيا الفتاة وثورة ١٩٠٨م" وهو يشرح سرعة انتشار حركة جمعية الاتحاد والترقي في مدينة سلانيك:

"لم يمض وقت طويل على المتآمرين في مدينة سلانيك وهي مركز النشاط حتى اكتشفوا فائدة منظمة أخرى وهي الماسونية، ولما كان يصعب على عبد الحميد

أن يعمل هنا بنفس الحرية التي كان يتمتع بها في الأجزاء الأخرى من الإمبراطورية فإن المحافل الماسونية القديمة في تلك المدينة استمرت تعمل دون انقطاع - بطريقة سرية طبعًا - وضمت إلى عضويتها عددًا ممن كانوا يرحبون بخلع السلطان عبد الحميد."

ثم يقول، "ويؤكد لنا دارس آخر إنه في حوالي سنة ١٩٠٠ م قرر "المشرق الأعظم" الفرنسي (أي المحفل الماسوني الفرنسي) إزاحة السلطان عبد الحميد وبدأ يجتذب لهذا الغرض حركة تركيا الفتاة منذ بداية تكوينها، ثم إن محللاً آخر يلاحظ، "يمكن القول بكل تأكيد إن الثورة التركية أي حركة جمعية الاتحاد والترقي كلها تقريبًا من عمل مؤامرة يهودية ماسونية".

ويقول "سيتون واطسون" في كتابه "نشأة القومية في بلاد البلقان"، "إن أعضاء تركيا الفتاة - الذين كان غرب أوروبا على اتصال دائم معهم - كانوا رجالاً منقطعين وبعيدين عن الحياة التركية وطراز تفكيرها لكونهم قضوا ردحًا طويلاً من الزمن في المنفى، وكانوا متأثرين وبشكل سطحي بالحضارة الغربية وبالنظريات غير المتوازنة للثورة الفرنسية، كان كثير منهم أشخاصًا مشبوهين، ولكنهم كانوا دون أي استثناء رجال مؤامرات لا رجال دولة، ومدفوعين بدافع الكراهية والحقد الشخصي لا بدافع الوطنية، والثورة التي أنجزوها كانت نتاج عمل مدينة واحدة وهي مدينة سلانيك إذ نمت وترعرعت فيها وتحت حماية المحافل الماسونية "جمعية الاتحاد والترقي" وهي المنظمة السرية التي بدلت نظام حكم عبد الحميد.

وكما كان عهد الاتحاديين هو العهد الذهبي بالنسبة لليهود الراغبين في الهجرة إلى فلسطين كذلك كان العهد الذهبي في فتح المحافل الماسونية في طول البلاد وعرضها في الدولة العثمانية، يقول فخر البارودي في مذكراته واصفًا وضع دمشق بعد وصول الاتحاد والترقي إلى الحكم، "وقد ساعد الاتحاديين على نشر دعايتهم اللوج - أي المحفل - الماسوني الذي كان مغلقًا قبل الدستور" ثم يقول:

"وبعد الانقلاب فتح المحفل أبوابه، وجمع الأعضاء شملهم وأسسوا محفلاً جديـدًا أسموه محفل "نور دمشق" وربطوه بالمحفل الاسكتلندي".

ولكي نعرف مكانة المحافل الماسونية لدى أعضاء جمعية الاتحاد والترقي نسوق هنا اعتراف أحد أعضائهم: "كان هناك نوعان من الأعضاء في الجمعية: أحـدهما مرتبط بالمحفل الماسوني وهذا كنا نطلق عليه اسم الأخ مـن الأب والأم، وآخـر غير مرتبط بالمحفل الماسوني، فكنا نطلق عليه اسم الأخ من الأب فقـط"، وفـي كتاب نشره الماسونيون في تركيا تحت عنوان "الماسونية في تركيا وفي العـالم" يتحدث عن دور المحافل الماسونية في إنجاح حركة الاتحاديين: "وقـد انتشـرت الماسونية بشكل خاص في سلانيك وحواليها، ومع أن عبد الحميد حاول أن يحـد ويشل الحركة الماسونية هناك، إلا أنه لم يوفَّق في مسعاه"، "وقـد قامـت هـذه المحافل، لاسيما محفل "ريزورتا" ومحفل "فاريتاس" بـدور كبيـر فـي تأسـيس وتوسيع حركة جمعية الاتحاد والترقي، كما كان للماسونيين دورهم فـي "إعـلان الحرية" سنة ١٩٠٨م.

وكلمة الماسونية.. اشتقاق لغوى من الكلمـة الفرنسـية (**Maçon**) ومعناهـا (البناء) والماسونية تقابلهـا (**Maçonneries**) أي البنـاءون الأحـرار، وفـى الإنجليزية يقال فرى ماسون (**Free-mason**) (البناءون الأحرار)، وبذلك يتضح أن هذه المنظمة يربطها أصحابها ومؤسسوها بمهنـة البنـاء، وبالفعـل يـزعم مؤرخوها ودعاتها أنها في الأصل تضم الجماعات المشتغلة فـي مهـن البنـاء والعمار، وفى هذا التبرير التخفيفي يحاولون إظهارها وكأنها أشبه بنقابة للعاملين في مهن البناء! ولو كانت الماسونية نقابة محترفي أعمـال بنـاء فمـا الـداعي لسريتها وإخفاء أوراقها..؟!

الماسونية هي حركة خطيرة، ما إن يطرح اسمها حتى يدور القلـق فـي نفـس المستمع، وما أن تذكر حتى ترى الجلساء يبدأون بتعداد مؤامراتهـا ومكائـدها، ويظهرون الحيرة في أمر هذه الحركة التي اعتمدت السرية في إخفـاء حقيقتهـا

وأهدافها، ولعل ذلك لأن اليهود الذين حاربوا الأنبياء والرسل، وظنوا أنهم شعب الله المختار وأن ما سواهم أغيار (غوييم أو جوييم) أي أغبياء ضالين يوجهونهم كيف يشاءون ويصل بهم المستوى للقول (الغوييم هم حيوانات بصورة بشر) أرادوا أن تكون الماسونية من جملة الأقنعة إلى تستتر مخططاتهم وراءها.

يقول حكماء صهيون في البرتوكول الخامس عشر من بروتوكولاتهم: إنه من الطبيعي أن نقود نحن وحدنا الأعمال الماسونية، لأننا وحدنا نعلم أين نحن ذاهبون وما هو هدف كل عمل من أعمالنا، أما الغوييم فإنهم لا يفهمون شيئًا حتى ولا يدركون النتائج القريبة، وفي مشاريعهم فإنهم لا يهتمون إلا بما يُرضي مطامعهم المؤقتة ولا يُدركون أيضًا حتى أن مشاريعهم ذاتها ليست من صنعهم بل هي من وحينا!

هذا قليل من كثير جاء عند حكماء صهيون عن الماسونية، بأنها من الأدوات المهمة التي يسعون عبرها لتحقيق أهدافهم سواء في بناء مملكتهم المزعومة في فلسطين، وإعادة بناء هيكل سليمان، أو في تحقيق نفوذ لهم في أية حكومة أو مؤسسة يستطيعون النفاذ إليها أو في نشر الفساد في الأرض، لأن إشاعة التعلق بالمادة والشهوات والأهواء يكشف الثغرات ونقاط الضعف في كل شخص من النافذين بشكل خاص لكي يتوجهوا إليه بإشباع هذه الأهواء فيصبح رهينة بين أيديهم يستثمرونه كي يريدون!

الماسونية تعتمد المنهج اليهودي في الحط من شأن الخالق سبحانه وتعالى، فكما اليهود في توراتهم (التوراة) المحرفة يقولون في الإتحاد بين الله والإنسان، فيعطون على أساس ذلك لله تعالى أوصافًا بشريه كقولهم مثلا، "بكى حتى تورمت عينيه! ندم على خراب الهيكل! سمع آدم وقع أقدام الرب في الجنة"!

كذلك الماسون يستخدمون للخالق سبحانه وتعالى تعبيرًا غامضًا هو: مهندس الكون الأعظم! وفي هذا التعبير إنكار واضح لخلق الله تعالى المخلوقات من العدم، فالمهندس ليس سوى بان من مواد متوفرة، وقولهم الأعظم يفيد وكأن

العمل تم من قِبَل مجموعه كان هو أعظمها! فماسونيتهم كما يدعون فوق الأديان وهى عقيدة العقائد لا تعترف بوطنيه ولا قوميه فهي أممية عالمية تعمـــل علـــى توحيد العالم وسلام عالمي ولغة عالمية إلى ما هنالك من الشعارات البراقة التـــي يجد فيها الضعفاء سبيلاً للهروب ومبررًا لتقصيرهم في جهادهم من إعلاء رايـــة الإيمان وحفظ الأمم والأوطان والمقدسات.

اعتمدت الماسونية على السرية كما أسلفنا في إخفاء حقيقتها وأهدافها، وقد أراد اليهود أن تكون تلك الحركة من جملة الأقنعة التي تتستر مخططاتهم وراءها ولم يعرف التاريخ البشري فئة أقوى تنظيمًا من الماسون، ومن دلائـــل ذلـــك وقـــوع الكثيرين من زعماء العالم تحت سيطرتهم حتى صاروا كالدمى في أيـــديهم خوفًـــا على مناصبهم، فعلى مستوى الرموز الأوروبية السياسية، انضم إليها كلٌ من ملك بروسيا فريدريك الثاني والثالث وملوك شبه جزيرة اســـكندنافيا، وملـــك النمســـا جوزيف الثاني، ونابليون وأفراد أسرته، بالإضافة إلى أعضاء الأســـرة المالكـــة الإنجليزية.

هذا، ومن جهة ثانية استطاعت الماسونية من خلال قدرة اليهود التعبوية التـــأثير في أعضاء الطبقة الفكرية والعلمية من أمثال فولتير ومونتسكيو وجوته وفختـــه وهربر وموتسارت كذلك وقفت وراء العديد مـــن الحركـــات والثـــورات كـــالثورة الفرنسية.

وليست الماسونية حركة منظمة لا يمكن محاربتها، وإنمـــا هـــي حركـــة مشـــتتة متعددة النظم محافلها أكثر من أن تعد، وهي متصارعة وكل محفـــل فيهـــا يـــتهم غيره بالخروج عن الماسونية والانحراف عن مبادئها، ففي لبنان وحده وهو بلد صغير هناك عشرات المحافل ولكل واحد منهـــا نظامـــه ورؤســـاؤه ومفاهيمـــه! والماسونية حركة تشكل أداة بيد الصهيونية والاستعمار ولكنها ليست الوحيـــدة، فمن تفرعاتها أندية الروتارى والليونز التي يتباهى بعض من ينســـبون أنفســـهم لمراكز دينية أو ثقافية زورًا بالانتماء لها أو حضور احتفالاتها، ومـــن مثيلاتهـــا حركات هدامة وأبرزها البهائية والقيدانية!

والماسونية أو النورانيون هم نمط من طرق تنفيذ المخططات التي قام بها دعـــاة الصهيونية عبر إحدى المنظمات المنبثقة عن الصهيونية، التي كانت تهدف إلـــى توجيه مسيرة أمة من الأمم لأجل أن تخدم المخطط العالمي الشيطاني في المـــدى البعيد.. كيف استطاعوا بتخطيط وصبر وأناة أن يغيروا وجه الأمة الفرنسية؟!

كان "آدم وايزهاويت" أستاذًا يسوعيًا للقانون في جامعة "انغولد شتات" بألمانيـــا، ولكنه ارتد عن المسيحية ليعتنق المذهب النوراني في عـــام ١٧٧٠م، اســـتأجره اليهودي الألماني "مائير روتشيلد" صاحب أكبر إمبراطورية ماليـــة فـــي عصـــره لمراجعة وإعادة تنظيم البروتوكولات الصهيونية القديمة علـــي أســـس حديثـــة.. والهدف من هذه البروتوكولات هو التمهيد لكنيس للسيطرة علي ما يتبقـــى مـــن الجنس البشريّ وكما يفرض المـــذهب النـــوراني وأيديولوجيتـــه بعـــد الكارثـــة الاجتماعية الشاملة التي يجري الإعداد لها بطرق مختلفة، وبناء على ذلـــك فقـــد أنهي وايزهاويت مهمته في الأول من مايو ١٧٧٦م.

دعا المخطط الذي رسمه وايزهاويت إلى تـــدمير جميـــع الحكومـــات والأديـــان الموجودة في العالم، على أن يتم الوصول إلي هذا الهدف عبـــر طريـــق تقســـيم الشعوب وتصنيفها - التي سماها الجوييم (الأغيار) - إلى معســـكرات متنابـــذة تتصارع إلي الأبد، والجوييم هو لفظ بمعني القطعان البشرية ويطلقه اليهود علي البشر من الأديان الأخرى، ويقتضي المخطط بأن يتم تسليح هؤلاء البشـــر بعـــد تقسيمهم وتصنيفهم، ثم يجري تدبير "حادث" في كل فترة، لكي تشتعل العـــداءات بينهم، فتضعف الأمم نفسها، فتتحطم الحكومات الوطنية والمؤسســـات الدينيـــة، ولأجل الإسراع في تحقيق الهدف لجأ وايزهاويت إلي الزيف والكذب، مـــدعيًا أن هدفه هو الوصول إلي حكومة عالمية واحدة، استطاع وايزهاويت أن يضم إليه ما يقارب الألفين من الأتباع من اللامعين فـــي ميـــادين الفنـــون والآداب والعلـــوم والاقتصاد والصناعة، وانشأ "محفل الشرق الأكبر" ليكون مركز القيادة الســـريّ، كان وايزهاويت يهدف في خطته المنقَّحة من أتباعه النورانيين اتباع التعليمـــات الآتية لتنفيذ أهدافهم:

استعمال الرشوة بالمال والجنس للوصول إلى السيطرة على الأشخاص الذين يشغلون المراكز الحساسة، وأن على النورانيين الذين يعملون كأساتذة في الجامعات والمعاهد العلمية، أن يولوا اهتمامهم إلي الطلاب المتفوقين عقليًا خصوصًا الطلاب المنتمين إلي أسر ثرية ومشهورة، لكي يربوهم على الاتجاه نحو الأممية العالمية، وذلك تمهيدًا لإحلالهم في المراكز الحساسة في دولهم بعد ذلك للعمل إلي التدمير النهائي لجميع الأديان والحكومات، والعمل على السيطرة علي الصحافة وأجهزة الإعلام في بلادهم خصوصًا في الدول المتنفذة ذات القدرة الاستعمارية لكي يجعلها النورانيون أداة في أيديهم أو كمعول للتدمير كلما تطلب الأمر، فقد كان الهدف في النهاية، إيجاد حكومة أممية واحدة تحت شعار، إن الطريق الوحيد لحل مشاكل العالم المختلفة هو ذلك، وهم في الحقيقة لا يعنون سوى السيطرة على العالم.

ولما كانت فرنسا وانكلترا أعظم قوتين في العالم في ذلك الوقت، وكان لهما مستعمرات لا تغيب عنها الشمس، أصدر وايزهاويت أوامره إلي جماعة النورانيين لكي يثيروا الحروب الاستعمارية لأجل إنهاك بريطانيا وإمبراطوريتها، وينظموا ثورة كبرى لأجل إنهاك فرنسا أيضًا، كانت خطة وايزهاويت أن تندلع ثورة وفوضى في فرنسا عام ١٧٨٩م، وقد وضع كاتب ألماني اسمه سفاك نسخة وايزهاويت المنقّحة عن "المؤامرة القديمة"، علي شكل وثيقة جعل عنوانها "المخطوطات الأصلية الوحيدة".

في عام ١٧٨٤م، أرسل النورانيون نسخة من الوثيقة إلي جماعة النورانيين، الذين أوفدهم وايزهاويت إلي فرنسا لتدبير الثورة فيها، إلا أن القدر شاء أن تحدث صاعقة انقضت علي حامل الرسالة وهو يمر خلال راتسبون في طريقه من فرانكفورت إلي باريس فقتلته وأدي ذلك إلي العثور علي الوثيقة التخريبية من قبل رجال الأمن لدي تفتيشهم الجثة، وبعد أن درست الوثيقة بعناية من قبل الحكومة البافارية، أصدرت الحكومة أوامرها إلي قوات الأمن لاحتلال "محفل الشرق الأكبر" ومداهمة منازل عدد من شركاء وايزهاويت، أغلقت الحكومة محفل

الشرق الأكبر عام ١٧٨٥م، واعتبرت جماعة النورانيين خارجين على القانون، وأصبح نشاط النورانيين سرًا، أصدر وايزهاويت تعاليمه إلي أتباعه بالتسلل إلي صفوف ومحافل جمعية الماسونية الزرقاء، وتكوين جمعية سرية في قلب التنظيمات السرية، وسمح للماسونيين فقط بدخول المذهب النورانيّ، الذين برهنوا علي ميلهم للأممية والإلحاد.

كان أول من نبَّه إلى خطر النورانيين "جون روبنسون"، الذي نشر كتابًا سنة ١٧٩٨م، أسماه "البرهان علي وجود مؤامرة لتدمير كافة الحكومات والأديان"، لكن لا أحد قد التفت إلى تحذير روبسون كما حدث في السابق من تحذيرات صدرت عن الآخرين!

في الولايات المتحدة آنذاك، كان الرئيس الأمريكي – "توماس جيفرسون" الذي أصبح تلميذًا نورانيًا لوايزهاويت، وكان من أشد المدافعين عنه حينما أعلنته حكومة بلاده ألمانيا خارجًا علي القانون، وعن طريق جيفرسون تم تغلغل النورانيين في المحافل الماسونية حديثة التشكيل ببعض المدن الأمريكية، في عام ١٧٨٩م، حذر جون روبنسون الزعماء الماسونيين من تغلغل جماعة النورانيين في محافلهم، ونفس الشيء قال أيضًا "أدلي دافيد باين" رئيس جامعة هارفارد عام ١٧٩٨م.

في عام ١٨٢٩م، عقد النورانيون مؤتمرًا لهم في نيويورك، تكلم فيه نورانيّ انجليزي اسمه "رايت"، وأعلم فيه المجتمعين أن جماعتهم قرّرت ضم جماعات العدميين والإلحاديين وغيرهم من الحركات التخريبية الأخرى في منظمة عالمية واحدة تعرف بالشيوعية، وكان الهدف من هذه القوة التخريبية التمهيد لجماعة النورانيين إثارة الحروب والثورات في المستقبل، وقد عين روزفلت - الجد المباشر لفرانكلين روزفلت - "هوارس غريلي" و"تشارلز دانا" لجمع المال لتمويل المشروع الجديد، وقد مولت هذه الأرصدة كارل ماركس وإنجلز عندما كتبا "رأس المال" و"البيان الشيوعي" في العاصمة الإنجليزية لندن.

كان "كارل ماركس" يكتب "البيان الشيوعي" تحت إشراف جماعة من النـــوارنيين، وكان البروفيسور "كارل ريتر" من جامعة فرانكفـــورت يعـــد النظريـــة المعاديـــة للشيوعية تحت إشراف جماعة أخري من النورانيين، بحيـــث يمكـــن اســـتخدام النظريتين في التفريق بين الأمم والشعوب، فكانت النواة التي انفلقت فيمـــا بعـــد وأنبتت المذهب النازي، واستطاع النورانيون إشعال حربين عالميتين.

عام ١٨٣٤م جيء بالزعيم الثوري الإيطالي "مازيني" لكي يصبح رئيس برنـــامج النورانيين لإثارة الاضطرابات في العالم، كما انضم للنورانيين الجنرال الأمريكـــي "ألبرت مايك" وسرعان ما وقع الجنرال ألبرت مايك تحت سيطرة مازيني، كانـــت فكرة الجنرال ألبرت مايك بأن تنظم الحركات العالمية الثلاث، الشيوعية والنازيـــة والصهيونية السياسية، وغيرها من الحركات العالمية، لإثارة الحـــروب العالميـــة الثلاث والثورات الثلاث:

الحرب العالمية الأولى، للإطاحة بحكم القياصرة في روسيا وجعل تلـــك المنطقـــة قلعة للشيوعية، وتم التمهيد لهذه الحرب باستغلال الخلافات التي أوجـــدها فـــي الأصل النورانيون بين الإمبراطوريتين البريطانية والألمانية، وجاءت الشـــيوعية بعد ذلك لتدمير الدول والأديان.

الحرب العالمية الثانية، كان الهدف منها تدمير النازيـــة وازدهـــار الصـــهيونية السياسية، وإقامة دولة إسرائيل، ودعم الشيوعية لأجل أن تصبح هنـــاك قوتـــان متضادتان أيديولوجيا، الشيوعية والعالم الرأسمالي، والتمهيد للكارثة الإنســـانية النهائية.

الحرب العالمية الثالثة، مفروض أن يقضـــي مخططهـــا بـــأن تنشـــب أولاً بـــين الصهيونية السياسية وأنظمة الدول الإسلامية وأن تدمر بعضـــها الـــبعض، وأن تتقاتل الأمم الأخرى حتى يصاب الجميع بالتعب والإرهاق.

كانت النشاطات الثورية لكل هؤلاء تموّل من قبل أصحاب البنـــوك العالميـــة فـــي بريطانيا وفرنسا وألمانيا والولايات المتحدة، وعلى القـــارئ هنـــا أن يتـــذكر أن

أصحاب البنوك العالمية هم اليوم - كما كان صرافو النقود والمرابون فـــي أيـــام المسيح - عملاء للنورانيين أو أدوات بيدهم، حتى أواخر القرن الثامن عشر كان مركز قيادة النورانيين في مدينة فرانكفورت بألمانيا، حيث تأسست أسرة روتشيلد واستقرت وضمت تحت سلطانها عددًا من كبار الماليين العالميين الـــذين "بـــاعوا ضمائرهم إلى الشيطان"، ثم نقل مركز القيادة إلي سويسرا، وظلوا هنـــاك حتـــى نهاية الحرب العالمية الثانية، ثم انتقلوا إلى نيويورك حيث حل آل روكفلر محـــل آل روتشيلد فيما يختص بعمليات التمويل.

وعودة إلى اجتماع مائير روتشيلد مع جماعة "النورانيين" المعروف تاريخيًا بأنه الاجتماع الذي صيغت فيه لأول مرة ما يعرف بـــ "بروتوكولات حكماء صـــهيون"، فقد تحدث مائير روتشيلد مهندس البروتوكـــولات للحضـــور فكـــان ممـــا قـــال: "للحصول على أطيب نتائج في الحكم، هي استعمال العنف والإرهاب لا اســـتعمال المناقشات الهادئة.. الحرية السياسية ليست إلا فكرة مجردة ولن تكـــون حقيقـــة واقعة، فإذا ما آمنت الجماهير بتلك الفكـــرة المجـــردة قبلـــت أن تتنـــازل عـــن امتيازاتها.. إن سلطة الذهب تمكنت من انتزاع مقاليد الحكم، كما أن الوصول إلى الهدف يبرر استعمال الوسيلة، لقد وجدنا معنـــى جديـــدًا للحـــق هـــو أن نهجـــم متذرعين بحق الأقوياء، فنذروا أدراج الرياح كل المؤسسات والعقائد القائمة، أن نتبنى دراسة نفسية للجماهير لكي نتمكن من السيطرة على زمامهم، فالجمـــاهير عمياء عديمة التفكير، ليس هناك في العالم ما يسمى بـــ"الحرية" أو "المساواة" أو "الإخاء"، وليست هناك سوى شعارات كنا أول من أطلقها على أفـــواه الجمـــاهير ليرددها الأغبياء كالببغاوات، استعمال المال لتحريك العملية الانتخابية، ليصل إلى المناصب العامة رجال ضعاف يسهل إخضاعهم، كما أن مائير روتشيلد تحدث عن أهمية الإعلام لتحقيق أهداف النورانيين من ناحيـــة ضـــرورة الوصـــول لعقليـــة الشباب واستمالتهم وإفسادهم بالخداع.

كانت الوثائق التي وقعت عام ١٩٠١م بحوزة البروفيسور "تيلـــوس الروســـي"، والتي نشرها في كتاب تحت عنوان "الخطر اليهودي" عام ١٩٠٥م فـــي روســـيا

حيث يبين خطر الصهيونية، وقد ترجم كتاب الخطر اليهودي إلى الإنجليزية، وطبع في عام ١٩٢١م تحت اسم "بروتوكولات حكماء صهيون".

في عام ١٧٨٥م قام أحد الفرسان على ظهر جواده بحمل رسالة النورانيين من فرانكفورت إلى باريس، كانت الرسالة تحمل معلومات مفصلة حول الحركة الثورية العالمية وخاصة حول الثورة الفرنسية، كانت الرسالة موجهة إلي السيد الأعظم لماسوني الشرق الأكبر في فرنسا حيث كان "الدوق دورليان" السيد الأعظم لماسوني فرنسا، استطاعت سيدة فرنسية أثناء اجتماعها بأحد زعماء الصهاينة الفرنسيين اختلاس تلك البروتوكولات والفرار بها، وصلت هذه الوثائق إلى العالم الروسي "سيرجي نيلوس" في عهد روسيا القيصرية الذي درسها بدقة يومئذ واستطاع أن يتنبأ بكثير من الأحداث الخطيرة التي وقعت بعد ذلك بسنوات مثل: سقوط الخلافة الإسلامية العثمانية، إثارة حروب عالمية يخسر فيها الغالب والمغلوب، سقوط الملكيات في أوروبا، بعد ذلك انتقلت البروتوكولات إلى السرية التامة، وسارع معظم يهود العالم إلى التنصل منها، واستطاعوا بما لديهم من نفوذ إرغام الناس والحكومات على تجاهلها، ومعظم الكتب التي حذرت - وما زالت - تحذر من الخطر النوراني على شعوب العالم كان مصيرها الاختفاء من الأسواق، أو الإلقاء في زوايا النسيان والإهمال.

مما ذكر في البروتوكولات، وكفكرة عامة وبإيجاز شديد جدًا، أن السياسة يجب ألا تتفق مع الأخلاق في شيء - والتركيز على نشر الخمر والجنون والمجون المبكر - وضرورة نشر الفساد لإظهار فائدة حكم حازم يعيد إلى بناء الحياة الطبيعية نظامه، مطلوب عدم حدوث تغييرات إقليمية عقب الحروب ليتمكن اليهود من تقديم المساعدات الاقتصادية ليبقى الطرفان المتحاربان تحت رحمتهم مما يمكنهم من اختيار رؤساء يستطيعون التحكم بهم، يجب العمل على نشر الفقر بين الأمميين حيث لا معنى لحرية الكلمة وحقوق الإنسان أمام عامل أجير قد أحنى العمل ظهره، كما يجب أن تقام الجمهوريات على أسس ثورة العميان الفوضوية والاستبداد، ويجب الترويج لفكرة المساواة والحرية مع العلم أنها تناقض قوانين

الفطرة البشرية، مطلوب نشر المنافسات المادية وتحويل المجتمع لأناني غليظ القلب منحل الأخلاق يكافح من أجل الذهب واللذات، العمل على نشر التعصبات الدينية والقبلية – والتدخل في كل معاهدة ولو سرًا، إقناع الأمميين غير اليهود باستنزاف ثروة الأرض الزراعية إلى الصناعة التي تصب في أيدي اليهود وتشجيع العمال على حب الترف والفوضى، إرهاق كل دولة تقف في طريق مخططاتهم بحروب مع جيرانها وإلا فلابد من افتعال حرب عالمية، إن علم الاقتصاد هو الموضوع الرئيسي لعلوم الصهيونيين - المناصب الخطيرة يعهد بها إلي القوم الذين ساءت صحائفهم وأخلاقهم كي تقف مخازيهم فاصلاً بين الأمة وبينهم حتى إذا عصوا أوامر اليهود توقعوا المحاكمة أو السجن، يعتقد الصهيونيون أن الشعوب تهتم من السياسة بالجانب المبهرج ولا تبحث عن بواطن الأمور ومن هنا يمكن تمرير ممثلي الشعب ممن لا يفكرون إلا في الملذات حتى يكونوا عاجزين عن مناقشة القوانين التي يجب أن لا تكشف تفاصيلها، ومما جاء في البروتوكولات، العمل على حماية الدمى التي تعين في المناصب الحساسة، واصطناع شرعية لكل ما يأمرون به في دولهم، العمل على السيطرة على دور النشر ومصادرة النشرات المعارضة على أنها تثير الرأي العام، كما يجب تمرير القوانين الصعبة ثم استدراج الرأي العام إلى مشكلة جديدة لصرف انتباههم عن القانون الذي تم تمريره مع تعقيد المسائل السياسية – إلهاء الجماهير الرعاع بأنواع شتى من الملاهي والألعاب والتحكم بنتائجها بما يخدم إثارة الرأي العام، وإلهاب حماسه وشغله عما يحاك له، تغيير صورة المفاهيم العامة كالحرية عن طريق طرحها والعمل بخلافها على مدى طويل من الزمن، تحطيم الفردية الإنسانية ونسفها بالكلية بالأفكار الرمزية لمبدأ الجماعة، خريجو الجامعات يتم استبعادهم فكريًا عن المسائل السياسية - العبقرية يجب القضاء عليها باستقطابها أو حربها حتى لا تصل لمراتب عليا، احتراف القانون يجعل الناس يشبون باردين وجامدين قساة عنيدين ويجعلهم ينظرون إلى الحياة نظرة غير إنسانية بل قانونية محضة، إعداد خطباء لإثارة إضرابات بين الشعب مما يسهل فرصة التعرف على المعارضين، يجب نزع تاج الشجاعة عن المجرم

السياسي بوضعه في مراتب اللصوص والقتلة المنبوذين حتـــى ينظــر المجتمــع بازدراء ومهانة إلى الجرائم السياسية كالجرائم العادية، حينما يحكم الصهيونيون العالم يجب أن يكون حكمهم مغايرًا تمامًا للفساد القائم في الأنظمة الأممية والتي هي أيضًا من صنع الصهيونيين حتى يشعر العالم بالفرق الكبير بــين النظــامين، ستتضاعف ثروات الصهيونيين من إعطاء القــروض، وحينمــا يســتقر النظــام الصهيوني سيكون واضحًا لكل إنسان أن الحرية لا تقوم على التحلــل والفســاد، أوصى كبير حكماء البروتوكولات بأن يكون ملك الدولة الصهيونية حاكمًا حازمًــا ولو كان عنيفًا، أما خطط الملك العاجلة والمستقبلية لن تكون معروفة إلا للحــاكم والثلاثة الذين علموه.

هذا، وإن نسج خيوط المؤامرة على فرنسا يعود إلى "مائير روتشيلد" أيضًا، الذي اختطف فرنسا رهينة في أيدي اليهود، فبناء على تعليماته بالاحتكــاك بــالمركيز "ميرابو" في فرنسا الذي كان ينتمي إلي طبقة النبلاء، وكان يتمتع بنفوذ كبير في أوساط البلاط الملكي كما كان صديقًا حميمًا للدوق ابن عم الملك "لويس الرابــع عشر"، فقد اختير الدوق "دورليان" ليكون الواجهة الظاهرة للثورة الفرنسية.

كان المركيز ميرابو مجردًا من الأخلاق، وكانت حياته مليئة بالفواحش، مما أدي إلي وقوعه في الديون الباهظة، فاتصل به المرابون عن طريق عملائهــم، وهــو الخطيب الفرنسي الشهير، وتحت ستار الصداقة والإعجاب بالمواهب الخطابيــة، كان هؤلاء العملاء يعرضون علي ميرابو مساعداتهم المالية لإنقاذه من مصاعبه المادية، وفي الواقع فإنهم كانوا يدبرون انغماسه أكثر فأكثر فــي هــوة الرذيلــة والإباحية، وانتهى به الأمر إلي أن أصبح مدينًا لهم بمبالغ طائلة، جعلتــه تحــت رحمتهم وطوع إرادتهم، وتم تعريف ميرابو باليهودي الكبير "موسى منــدلوهن"، الذي وضعه تحت رعايته، وتولي تعريفه في الوقت المناســب بــامرأة حســناء اشتهرت بجمالها وسحرها، كانت اليهودية الحسناء متزوجة مــن رجــل يــدعي "هيرز"، ولكن هذا لم يزد ميرابو إلا ولعًا بها ورغبة فيها، لم يمض وقت طويــل حتى أصبحت المرأة تقضي مع ميرابو من الوقت أكثر مما تقضي مــع زوجهــا!

وهكذا أصبح ميرابو بلا حول ولا قوة، مربوطًا بالديون الباهظة ومفتونًا بسحر السيدة هيرز من جهة أخري، ابتلع الطعم والصنارة كما يقال!

كانت الخطوة التالية إدخال ميرابو إلي النورانية، وكان عليه أن يقسم أغلظ الأيمان للمحافظة علي السرية والطاعة تحت طائلة التهديد بالقتل، كانت الخطوة التي تلت هي زجه بمواقف معينة أخذت طريقها إلي الشيوع بصورة غامضة بهدف تحطيم الصورة المعنوية والاجتماعية لشخص ما بعد "الفضيحة أو التلطيخ أو التشهير"، كانت النتيجة تنكُّر زملاء ميرابوا وطبقته الاجتماعية له، مما أدى إلي امتلاء ميرابو بمشاعر الحقد، التي تحولت إلي رغبة في الانتقام بسبب اعتناقه مبادئ القضية الثورية.

كانت مهمة ميرابوا العمل علي إغراء الدوق "دورليان"، وإقناعه بأن يصبح القائد للثورة الفرنسية، وأنه سيُنصَّب بدلاً من الملك على العرش كحاكم ديمقراطي، وأن الهدف من الثورة هو تطهير السياسة والدين من الخرافات والطغيان، قام ميرابوا بتعريف الدوق دورليان وصديقه تاليران إلي وايزهاويت، الذي تولي بدوره مهمة تعريفهما بأسرار محافل الشرق الأكبر للماسونية، وشرع الدوق دورليان بإدخال طقوس الماسونية الجديدة (ماسونية الشرق الأكبر) إلي الماسونية الفرنسية الحرة.

بعد أن نجح ميرابو بمهمته، أخذ يدفع صديقه دورليان للانزلاق في الرذيلة والفجور أيضًا، حتى هوي إلي نفس الدرك الذي كان هو قد وصل إليه من قبل، ولم تمض أربع سنين، حتى أصبح دورليان مثقلاً بالديون، فلجأ إلى عمليات التهريب والتجارة المحرمة حتى يسترد بعض خسارته، إلا أن مغامراته كانت دائمًا تبوء بالفشل ويفتضح أمرها بطريقة غامضة، مما زاد موقفه سوءًا وحمله خسائر أفدح، بلغت ديونه عام ١٧٨٠م مبلغ ٨٠٠٠٠٠ ليرة فرنسية، وتدخَّل المرابون وراحوا يقدمون له الحلول والنصائح ويقدمون المعونة المادية، واستخدموا مهارتهم في المناورة، ما أدى إلى رهن جميع أملاكه من أراضي وقصور الخ، ووقع عقدًا لدائنيه بإدارة ما يخصه من أملاك لأجل أن يؤمِّنوا له

مبلغًا لسداد الديون، ويعطوه مبلغًا ثابتًا يمكّنه من العيش منه، وهو ما كان يتوق إليه في تلك الفترة فخبرته المالية محدودة ولم يكن يدري ما يدور حولــه، علــى إثر ذلك عيَّن المرابون يهوديًا من أصل أسباني يأتمر بــأمرهم للإشــراف علــى أملاك الدوق دورليان، اسمه "شودرلوس دي لا كلوس"، اشتهر شودرلوس دي لا كلوس بكتاباته الجنسية الفاضحة وكان يدافع علنًا عن فسقه، لم يمض وقت حتى حوَّل شودرلوس دي لا كلوس قصر الدوق الذي عهد به إليه، إلي أضخم وأشهر دار للتهتك عرفها العالم حتى ذلك الوقت.

كان لشودرلوس دي لاكلوس، شريك يهودي أيضًا اسمه "كاغليوسترو بجوزيــف بالسامو" من باليرمو، الذي حوَّل أحد منازل الدوق إلي مركــز للطباعــة، وراح يصدر منه المنشورات والإعلانات الثورية، كان الهدف من كل ذلك إثارة المشاعر لدي الجماهير والتمهيد للثورة، فتحولت ممتلكات الدوق دورليان إلي مركز لتدبير الثورة، وكان زعماء الثورة الفرنسية المنتظرون محاطين بهذا الجو الموبوء.

في تلك الفترة كانت شقيقة الملكة "ماري أنطوانيت" تشعر بالخطر، كتبت لشقيقتها الملكة عددًا من الرسائل تنبهها وتحذرها من أخطار ما كــان يحــدث خصوصًــا تصرفات أصحاب المصارف العالميين، والدور الذي تلعبه محافل الماسونية الحرة الفرنسية، ولكن ماري أنطوانيت (١٧٥٥ - ١٧٩٣ م)، لم تستطع أن تصدق هذه الأشياء، وأن النورانيين في فرنسا يعملون تحت ستار الماسونية الخيرية لتدمير الدولة والكنيسة، ولقد بيَّن التاريخ مدي الخطأ الذي وقعت فيه ماري أنطوانيــت، فهي برفضها المستمر أن تعير الاهتمام لتحذيرات أختها، أودت بنفسها وبزوجها إلي المقصلة، اعتقد معظم دارسي التاريخ، أن الملكة ماري أنطوانيت كانت امرأة لعوبًا انساقت وراء تيار المرح والملذات الذي كان يسود البلاط الفرنســي، كمــا تحدثوا عن قضايا غرامية كثيرة ومثيرة ينسبونها لها، والواقع هــو أن صــورة "ماري أنطوانيت" تلك، لم تكن إلا الصورة التي قامت برسمها الماسونية الحــرة في فرنسا في نطاق حملة التشهير الواسعة التي شنوها عليها، وهو مــا ســاعد على ترسيخ هذه الصورة في عقول الجماهير، وجعل الشعب يطالب برأسها بعــد

الثورة، إلا أن المؤرخون برهنوا بعد ذلك أن ما أشيع عن ماري أنطوانيت ما هو إلا افتراء وتلفيق، يؤكد ذلك الأنفة والهمة والشجاعة التي واجهت بها المقصلة، وهذه الصفات لا يمكن أن تكون لامرأة خليعة ماجنة.

هذا، وللتمادي في تلطيخ سمعة الملكة ماري أنطوانيت من قبل عملاء النورانيين، ابتكر وايزهاويت ومندلسوهن قضية "عقد الجوهر" الشهير:

تقول حكاية عقد الجوهر، إنه في الوقت الذي كانت الخزينة الفرنسية في أسوأ حالاتها، وكانت الحكومة الفرنسية تستجدي بارونات المال ليمدوها بالمزيد من القروض، اتجه عميل سري من عملاء رؤوس المؤامرة إلي جوهرجيّ البلاط الملكي، وزعم أن الملكة تطلب منه صنع عقد لها شبيه بالعقود الأسطورية، وفعلاً تم صنع العقد وبلغ ثمنه ربع مليون ليرة فرنسية، وأحضر الجواهرجي العقد وقدمه إلي الملكة، فما كان منها إلا أن تفاجأت ورفضت العقد بصورة قاطعة، ونفت علمها بأية رسالة منها بهذا الصدد، لكن الأقاصيص شاعت عن العقد في كل مكان وكما أراد لها المخططون، ودارت المطابع الشيطانية تقوم بمهامها لتطبع الآلاف تلو الآلاف من المنشورات التي تندد بالملكة، حتى أنهم زعموا بأن عشيقًا سريًا هو الذي أهداها هذا العقد إعجابًا بمفاتنها! ثم ابتكر مخططو التشهير فكرة أكثر خبثًا وشيطانية من الأولى لتلطيخ سمعة الملكة، كتبوا رسالة إلي الكاردينال "برنس دي روهان"، تحمل توقيعًا مزيفًا للملكة، وطلبوا من الكاردينال موافاة الملكة في قصر "البالية رويال" في منتصف الليل للتباحث بشأن عقد الجوهر، وعهد المتآمرون إلي إحدى غانيات هذا القصر بالتنكر بزي الملكة ومقابلة الكاردينال ليلاً، وكان أن وصلت القضية إلي الصحف والمنشورات، وانتشرت الأهازيج الجنسية الرخيصة، التي تناولت الملكة والكاردينال "برنس دي روهان"، وللتاريخ فإن عقد الجوهر بعد الانتهاء من مهمته الشريرة استقر في بريطانيا عند يهودي يدعي "إلياسون".

لقد اثبت الباحثون وبما لا يدع مجالا للشك بأن النورانيين بقيادة عائلة روتشيلد عملوا على إيقاع فرنسا في ظروف اقتصادية صعبة، مما مكنهم من السيطرة

عليها اقتصاديًا وكبلوها بالديون عوضًا عن عبثهم الإعلامـــي وإفســـاد النـــاس وتضليلهم، من يرد أن يعرف المزيد عما فعله النورانيون في فرنسا حينما قرروا أن يسقطوا الملكية فيها، فليعد إلى كتاب "الكهنوت الشـــيطاني" للكاتبـــة الليـــدي "كوينزبورو"، وكذلك إلى كتـــاب "حيـــاة نـــابليون" للكاتـــب البريطـــاني "الســـير والترسكوت".

بعد اندلاع الثورة الفرنسية استولى اليعاقبة علي السلطة، واليعاقبة هم أعضـــاء أكبر جمعية سياسية ثورية حكمت أثناء الثورة الفرنسية، واستمدّت هذه الجمعية اسمها من مقرها في باريس بالقرب من كنيسة سانت جيمس وكانـــت المنظمـــة الوطنية الوحيدة في البلاد التي تكونت لفترة قصيرة بعد بداية الثـــورة، وينحـــدر معظم أعضاء جمعية اليعاقبة من الطبقة الوسطى، جاء اليعاقبة إلى السلطة عـــام ١٧٩٣م، وبدأوا عهد الإرهاب؛ فأرسلوا مئات الفرنسيين إلى المقصلة، "انظـــر: المقصلة"، طلبوا من الدوق دورليان أن يوافق علي إعدام ابن عمه الملك، فوافق ظنًا منه بأنه سيكون الملك الدستوري علي فرنسا، وظلت القوي الخفية بعيدة عن أي لوم بخصوص إعدام العائلة الملكية، ولم يمض وقت قصير إلا وركز الإعـــلام على الدوق دورليان نفسه متهمًا، وسيق أيضًا إلى المقصلة بينما الحشـــود فـــي شوارع باريس تصرخ وتندد بفضائحه.

اكتشف "ميرابو" بأنه لم يكن إلا وسيلة للقوى الشيطانية التي راحت تنـــتقم مـــن الناس، ورغم فساده الخلقي إلا أنه لم يحتمل مشاهد العنف ضد الأبرياء التي كان اليعاقبة يوجهونها ضد كل من تشير إليه القوى الشيطانية الخفية، كـــان هـــدف ميرابو أن يتم تقليص سلطة الملك ويكون مجرد واجهة للحكم، وأن تدار الـــبلاد بواسطة المستشارين وليس بإعدامه، لذلك كان قد حاول ميرابو تهريـــب الملـــك "لويس الرابع عشر" سرًا قبل إعدامه، وذلك بإخراجه من باريس ونقله إلى مقـــر قوات الجيش التي كان قادتها ما زالوا موالين للملـــك، عـــرف اليعاقبـــة بخطـــة ميرابو، فأمروا بتصفيته بدس السم له كحادث انتحار، لأنهم لـــم يجـــدوا الوقـــت الكافي لتلفيق تهم له ونشرها بواسطة الإعلام لجعل الجمـــاهير تطالـــب بنفســـها

بإعدامه، وقد ذكرت العبارة التالية في كتاب الكهنوت الشيطاني عن عقد الجوهر: "ولم يكن لويس يجهل أن ميرابو مات مسمومًا".

بعد أن انتهى مخططو المؤامرة من مهمة إيقاع فرنسا في قبضتهم، أرسل "أنسليم مائير روتشيلد" ابنه "تاثان مائير" إلي انكلترا، بمهمة افتتاح فرع لمؤسسة روتشيلد في لندن، وتم توثيق اتصال المرابين العالميين، وبعد ذلك كان قرار أصحاب المصارف علي استعمال نابليون أداه، فقاموا بتدبير سلسلة الحروب النابليونية للإطاحة بعدد كبير آخر من العروش الأوروبية، ذلك ما فعله النورانيون الصهاينة في جانب مختصر مما فعلوه حقيقة في فرنسا، ماذا عن تفاصيل ما فعلوه في فرنسا وفي بقية دول العالم ماذا عن مخططاتهم التي فعلوها في تركيا، ماذا عن مخططاتهم التي تنتظر التنفيذ غدًا!

السلطان عبد الحميد الثاني:

لقد حكم السلطان عبد الحميد بسبب عدائه لأماني اليهود وأطماعهم على نفسه بالخلع، وعلى سمعته وتاريخ خلافته بالتشويش والتحريف والتجريح، والذي يؤكد ذلك وثيقة تاريخية بخط السلطان نفسه تبين سبب خلعه، وهي رسالة وجَّهها بعد خلعه إلى شيخ الطريقة الشاذلية الشيخ "محمود أبي الشامات" شيخ الطريقة الشاذلية في دمشق، ومما قال السلطان في رسالته:
"بعد تقديم احترامي أعرض أني تلقيت كتابكم المؤرخ ٢٢ مارس في السنة الحالية (١٩٠٩) وحمدت المولى وشكرته أنكم بصحة وسلامة دائمتين، سيدي إني بتوفيق الله تعالى مداوم على قراءة الأوراد الشاذلية ليلاً ونهارًا، وأعرض أني ما زلت محتاجًا لدعواتكم القلبية بصورة دائمة.

بعد هذه المقدمة أعرض لرشادتكم وإلى أمثالكم أصحاب السماحة والعقول السليمة المسألة المهمة الآتية كأمانة في ذمة التاريخ:



السلطان عبد الحميد الثاني ١٨٤٢م – ١٩١٨م

إنني لم أتخل عن الخلافة الإسلامية لسبب ما، سوى أنني - بسبب المضايقة من رؤساء جمعية الاتحاد والترقي المعروفة باسم "جون تورك" وتهديدهم - اضطررت وأجبرت على ترك الخلافة، إن هؤلاء الاتحاديين قد أصروا علي بأن أصادق على تأسيس وطن قومي لليهود في الأرض المقدسة ورغم إصرارهم فلم أقبل بصورة قطعية هذا التكليف، وأخيرًا وَعَدوُا بتقديم مائة وخمسين مليون ليرة إنكليزية ذهبًا فرفضتُ هذا التكليف بصورة قطعية أيضًا وأجبتهم بهذا الجواب القطعي الآتي: (إنكم لو دفعتم ملئ الدنيا ذهبًا - فضلاً عن مائة وخمسين مليون ليرة إنكليزية ذهبًا فلن أقبل بتكليفكم هذا بوجه قطعي)، لقد خدمت الملة الإسلامية والأمة المحمدية ما يزيد عن ثلاثين سنة فلم أسوِّد صحائف المسلمين آبائي وأجدادي والخلفاء العثمانيين، لهذا لن أقبل بتكليفكم بوجه قطعي أيضًا، وبعد جوابي القطعي اتفقوا على خلعي وأبلغوني أنهم سيعيدونني إلى سلانيك فقبلت

بهذا التكليف الأخير، هذا وحمدت المولى وأحمده أنني لم أقبل بأن ألطخ الدولــة العثمانية والعالم الإسلامي بهذا العار الأبدي الناشئ عن تكلــيفهم بإقامــة دولــة يهودية في الأراضي المقدسة وقد كان ذلك ما كان ولذا فإنني أكرر الحمد والثناء على الله المتعال وأعتقد أن ما عرضته كاف في هذا الموضوع الهام وبــه أخــتم رسالتي هذه.

22أيلول 1329 هجري خادم المسلمين

عبد الحميد بن عبد المجيد "

- انتهت الرسالة -

تؤكد كل الدراسات بأن السلطان عبد الحميد الثاني عَامَلَ يهود الدولة العثمانيــة معاملة طيبة بالتساوي مع بقية رعايا السلطنة، ولقد توافق مع اعتلاء الســلطان عبد الحميد الثاني عرش السلطنة العثمانية في ١٨٦٩م حدوث تطور في أنشــطة رواد الحركة الصهيونية أمثال تيدور هرتزل، حيث تم عقد مؤتمر لكافــة يهــود العالم، وذلك في يوم ٢٩ يوليو عام ١٨٩٧، وحضر المؤتمر ٢٠٤ من المندوبين الذين مثلوا ١١٧ جمعية صهيونية، وقد مثل يهود روسيا وحدهم في المؤتمر ٧٠ مندوبًا.

كان من المفروض أن يُعقد المؤتمر الصهيوني في مدينة ميونخ بألمانيا، وبسبب معارضة يهود ألمانيا تم عقده في مدينة بازل السويسرية، وكان هذا المؤتمر هو أول مؤتمر يهودي عام يُعقد بعد أن دمر الرومان مدينة القدس فــي عــام ١٣٥ ميلادية، وذلك بعد أن أخمد ثورة اليهود بزعامة "شمعون باركوخيــا"، وسيشــار إلى الحادثة في مكان لاحق في صفحات الكتاب.

انتُخِبَ هرتزل رئيسًا للمؤتمر واستهله بخطبة جاء فيها قولــه: "إننــا فــي هــذا المؤتمر نريد أن نضع حجر الأساس للبيت الذي سيصبح الملجأ للشعب اليهودي، إن الصهيونية تعني العودة إلى القومية اليهودية قبل العودة إلى أرض إسرائيل".

وقد أسفر المؤتمر الصهيوني الأول، الذي استمر مدة ثلاثة أيام، عن الاتفاق على منهج عرف فيما بعد باسم منهج بازل، أما أهم فقرة من فقـرات ذلـك المـنهج فكانت تقول: "إن الصهيونية تطمح إلى إقامة وطن قومي آمن للشعب اليهـودي، وذلك في أرض إسرائيل"، وانتخب المؤتمرون هرتزل رئيسًا للمنظمة الصـهيونية العالمية، وكذلك جرى انتخاب لجنة تنفيذية موسعة ومكوَّنـة مـن ١٥ عضـوًا وأخرى مُصغَّرة تتألف من خمسة أعضاء، وبعد انتهاء المـؤتمر أدلـى هرتـزل بالتصريح التالي:

"لو طُلِبَ إليَّ تلخيص ما حدث في مؤتمر بازل بجملة واحدة لقلت: إنني أسـتطيع أن أقول بإننا أقمنا الدولة اليهودية، وقد يكون قولي هذا مضحكًا للبعض، لكننـي أستطيع أن أقول بإن الدولة الصهيونية قد تُقام خلال خمسة أعـوام أو خمسـين عامًا."

وقد باشر هرتزل نشاطه العملي الهادف إلى إقامة دولة يهودية بالاتصال بالبارون موريس دي هيرش أحد أثرياء اليهود الأوروبيين، وكان هذا البـارون وعائلـة روتشيلد يعتبرون من أوسع أغنياء العالم ثراء، وفعلاً بعد عشرين عامًـا صـدر وعد بلفور في ٢ نوفمبر عام ١٩١٧م، وبعد خمسين عامًـا تـم إنشـاء دولـة إسرائيل عام ١٩٤٨م. (انظر رسائل تيدور هرتزل للسلطان عبد الحميد الثاني في الوثائق في نهاية الكتاب)

هذا وقد عَقَدتْ الحركة الصهيونية بعد مؤتمر بازل أربع مؤتمرات، فكان المؤتمر الثاني في ١٨٩٨م، والثالث في ١٩٠٠م، والرابع فـي1901م والخـامس فـي ١٩٠٢م، وفي هذا المؤتمر الخامس تم استبعاد يوغندا من تأسيس وطن قـومي لليهود وتم إقرار فلسطين لتكون ذلك الوطن، ثم تتابعت المؤتمرات الصهيونية.

وفي الواقع أنه عندما تولى السلطان عبد الحميد الثاني الحكم عام ١٨٧٦ م كانت أطماع الدول الأوروبية في الدولة العثمانية قد بلغت أوجها، لـذا حـاول اليهـود التفاهم مع السلطان عبد الحميد الثاني حول توطين اليهود في فلسطين بـل قـد

أرادوا شراء فلسطين كلها من السلطان عبد الحميد مستغلين في ذلك ضعف الدولة العثمانية وديونها الكثيرة، فكان أول اتصال بين "هرتزل" رئيس الجمعية الصهيونية، والسلطان عبد الحميد بعد وساطة قام بها سفير النمسا في استانبول، في مايو ١٩٠١م، وعرض هرتزل على السلطان توطين اليهود في فلسطين، وفي المقابل سيقدم اليهود في الحال عدة ملايين من الليرات العثمانية الذهبية كهدية ضخمة للسلطان، وسيقرضون الخزينة العثمانية مبلغ مليوني ليرة أخرى، وأدرك السلطان أن هرتزل يقدم له رشوة من أجل تأسيس وطن قومي لليهود في فلسطين، وبمجرد تحقيقهم لأكثرية سكانية سيطالبون بالحكم الذاتي، مستندين إلى الدول الأوروبية، فأخرجه السلطان من حضرته بصورة عنيفة، ويقول السلطان عبد الحميد الثاني في مذكراته عن سبب عدم توقيعه على هذا القرار: "إننا نكون قد وقَّعنا قرارًا بالموت على إخواننا في الدين".

وقال السلطان: "إن ديون الدولة ليست عارًا عليها، وإن بيت المقدس الشريف افتتحه سيدنا عمر رضي الله عنه، ولست مستعدًا أن أتحمل تاريخيًا وصمة بيع الأراضي المقدسة لليهود، وخيانة الأمانة التي كلفني المسلمون بالحفاظ عليها، ليحتفظ اليهود بأموالهم، فالدولة العلية لا يمكن أن تحتمي وراء حصون بنيت بأموال أعداء الإسلام".

ما كان من الجمعية الصهيونية إلا أن كررت المحاولة مرة أخرى، واختارت (آمانويل قره صو) المحامى اليهودي مؤسس المحفل الماسونى في مدينة سلانيك لمقابلة السلطان عبد الحميد، وعرض مطالبهم عليه، وبالفعل تم ذلك بتاريخ 17 سبتمبر١٩٠١م مقدمًا إليه عريضة يلتمس فيها منح اليهود منطقة ذات إدارة ذاتية في فلسطين، وفي مقابل ذلك تقدم الجمعية الصهيونية قرضًا لمدة غير محدودة قيمته ٢٠ مليون ليرة ذهبية دون فائدة إلى خزينة الدولة، و(٥) ملايين ليرة ذهبية إلى خزينة السلطان الخاصة كهدية، إلا أن السلطان عبد الحميد فور سماعه فحوى العريضة استشاط غضبًا، وطرد (قره صو)، وقال "إنكم لو دفعتم ملئ الدنيا ذهبًا فلن أقبل، إن أرض فلسطين ليست ملكي إنما هي ملك الأمة

الإسلامية، وما حصل عليه المسلمون بدمائهم لا يمكن أن يباع، وربما إذا تفتت إمبراطوريتى يومًا يمكنكم أن تحصلوا على فلسطين دون مقابل".

وقد نقل "تيولنسكي" وهو صديق للسلطان عبد الحميد وهيرتزل في نفس الوقت نص جواب السلطان عبد الحميد التالي: "إذا كان هيرتزل صديقك بقدر ما أنت صديقي فانصحه ألا يتابع أبدًا هذا الأمر، لا أقدر أن أبيع ولو قدمًا واحدة من البلاد لأنها ليست لي بل لشعبي، لقد حصل شعبي على هذه الإمبراطورية بإراقة دمه وغذّاها فيما بعد بدمه أيضًا، وسوف نغطيها بدمائنا قبل أن نسمح لأحد باغتصابها منا، لقد حاربت كتيبتان من جيشنا في سورية وفلسطين وقُتِلَ رجالنا الواحد بعد الآخر لأن أحدًا لم يقبل التسليم، وفضّلوا أن يموتوا في ساحة القتال، الإمبراطورية التركية ليست لي وإنما لشعبي، لا أستطيع أبدًا أن أعطي أحدًا أي جزء منها".

وقد حاول هرتزل طمأنة السلطان عبد الحميد الثاني فأرسل رسالة إلى السلطان في عام ١٩٠٢م يوضح فيها أن اليهود سيجلبون الخير للدولة العثمانية من خلال أموالهم الوفيرة لا الشر كما يتوقع السلطان ولكن السلطان عبد الحميد رفض بشدة مطالب هرتزل.

وفي عام ١٩٠٢ تقدّم اليهود بعرضٍ مغرٍ للسلطان عبد الحميد يتعهّد بموجبه أثرياء اليهود بوفاء جميع ديون الدولة العثمانية وبناء أسطول لحمايتها، وتقديم قرض بـ (٣٥) مليون ليرة ذهبية لخزينة الدولة العثمانية المنهَكة، إلا أن السلطان رفض العروض، وهكذا أدت مواقف عبد الحميد المتصلبة أمام المشروع الصهيوني إلى جعلهم يوقنون باستحالة تحقيقه طالما بقى على سدة الحكم وقد عبَّر هرتزل عن ذلك بقوله، "لقد فقدنا الأمل في تحقيق آمال اليهود في فلسطين، فإن اليهود لن يستطيعوا دخول الأرض الموعودة طالما ظل عبد الحميد قائمًا في الحكم مستمرًا فيه".

وهكذا ظلت العلاقات بين اليهود والسلطان عبد الحميد حتى تم خلع السلطان عبد

الحميد الثاني عام ١٩٠٩م، ومن ثم كان خلع عبد الحميد، وتمزيق حكمه هدفًا وغاية لا يمكن الرجوع عنها، وبناء على ذلك قام اليهود بدعم جمعية الاتحاد والترقي الماسونية المعادية للسلطان عبد الحميد حتى تمكن الاتحاديون من الإطاحة به في انقلاب ١٩٠٩م وفتحت أبواب فلسطين أمام اليهود.

يعتبر تيدور هرتزل أول من أبرم العقد الصهيوني الاستراتيجي مع الدول المتنفذة في العالم، وصار هذا العقد بعد تأسيس إسرائيل شريعة فيما بعد للكيان الصهيوني الذي زرع في الوطن العربي، فقد كان تيدور هرتزل أرستقراطيًا أو كما ذكرنا في غير مكان، وكان كل همه أن يرضي أغنياء أوروبا من اليهود وأن يحوز على صداقتهم، ورأس المال كما نعلم ليس له وطن أو انتماء فأضحت فكرة إنشاء الدولة اليهودية عند أغنياء اليهود في أوروبا ضرورة لخدمة رأس المال الذي يبحث دائمًا عن الربح، لذا نجد أن زعماء الصهيونية وعلى رأسهم هرتزل لم يكونوا معنيين أن تكون فلسطين هي الوطن وإن كانت هي إحدى الخيارات، وأكبر إثبات على ذلك أن أسبابًا كثيرة حتى قبل قيام دولة إسرائيل وأسبابًا حديثة تُدعم فكرتنا بأن الصهيونية لا يهمها أين تقام الدولة وأين تكون.

المشاريع الاستيطانية خارج فلسطين:

١ - مشروع توطين اليهود في "سورينام" تحت الاحتلال الهولندي عام ١٦٢٥م، وافق عليه المجلس الهولندي، وتم توطين اليهود في منطقة "كوراساو" في جيب شبه مستقل، إلا أن السكان الأصليين والسود ثاروا وقضوا عليه.

٢ - مشروع مستعمرة كايين: في عام ١٦٥٩م، منحت شركة الهند الغربية (الفرنسية) تصريحًا "لديفيد ناسي" لتأسيس مستعمرة يهودية في "كايين" في المنطقة المحصورة بين البحر الأسود والبحر الأبيض المتوسط، وقد دعا لهذا المشروع الجمعيات البروتستانتية بمختلف ألوانها وأشكالها.

٣- مشروع جبل آرارات عام ١٨٢٦م: في عام ١٨١٢م عينت الدبلوماسية الأمريكية المفكر الأمريكي اليهودي الأصل "موردكاي نواه" (١٧٨٥ – ١٨٥١م) قنصلاً لها في تونس، بهدف تخليص الأسرى الأمريكان الذين اعتقلهم القراصنة ولتقوية مكانة الولايات المتحدة في الشرق، أثناء عمله في تونس حدث أن أمريكا قد باعت في الجزائر إحدى الغنائم التي أخذتها من بريطانيا فاحتجَّت بريطانيا لدى الحكومة الأمريكية، وقالت إن هذا لا يليق أن يكون تصرف أمة مسيحية، فردَّ موردكاي نواه بأن أمريكا ليست أمة مسيحية وأن ما تقوله انجلترا غير مقبول أو بهذا المعنى (كون موردكاي يهودي فهذا يبيِّن مدى النفوذ اليهودي في الولايات المتحدة في ذلك الوقت).

تم استدعاء موردكاي نواه إلى أمريكا بسبب مخالفات مالية، وبعد عودته عمل في الصحافة، وعمل في ميناء نيويورك، وعمل ضابطًا في ميليشيا نيويورك، وكتب عدة مقالات ومسرحيات ولاقى بعضها نجاحًا كبيرًا، كما أيَّد ضم المكسيك إلى الولايات المتحدة، وانتقد الدعوة إلى إلغاء الرقيق.

كان موردكاي نواه يهودي من أصل سفاردي، وكان أبوه بائعًا جوالاً فقيرًا، مات أبوه وهو طفل، علَّم نفسه بنفسه عن طريق القراءة، وتعلم حرفة النحت وطلاء المعادن بالنيكل، وتم تعيينه في وزارة المالية الأمريكية، في سنة ١٨٠٠م صار يعمل بالصحافة وأصبح محررًا في إحدى الصحف المشهورة فكتب سلسلة مقالات حرض فيها على محاربة انجلترا.

ارتبط اسم موردكاي نواه بمشروع استيطاني يهودي أطلق عليه "جبل آرارات" ويقام في منطقة "جراند أيلاند" في منطقة شلالات نياجرا، قدم التماسًا لمجلس الولاية للموافقة على المشروع، وأرسل نداؤه ليهود العالم لأتباعه إلى جبل آرارات معتبرًا نفسه سيدنا نوح عليه السلام ليتبعه البقية الصالحة من البشر، طبعا كان موردكاي نواه يعرف الأولويات حيث قدم التماسه لمجلس الولاية قبل أن يتوجه إلى يهود العالم كونه يعلم أن المستقبل للمسيحية، وأن عودة اليهود

ستكون ليست روحية وإنما للعمل والإنتاج، لكن دعوته لم تجد صدى لدى الجماهير اليهودية.

كان موردكاي متناقضًا، ولم يتوقف نشاطه، في عام ١٨٤٠م ألقى محاضرة وطالب بإنشاء دولة يهودية في فلسطين، وكتب للرئيس الأمريكي جون آدمز (١٧٩٧ – ١٨٠١م) رسالة عبَّر فيها عن أمله أن يعود اليهود إلى فلسطين، إلا أنه اشتم من رسالته أنها معادية لليهود، فقال مصححًا إنه يتمنى أن يرى اليهود مواطنين في أي مكان من العالم، وهي أيضًا معادية للصهيونية.

٤ - مشروع استيطان العريش: وكان يهدف أن يتمكن اليهود من إقامة رأس جسر لهم في سيناء المصرية ثم يتحولون إلى فلسطين.

مشروع استيطان قبرص:

في عام ١٨٧٨م احتلت بريطانيا جزيرة قبرص، وبقيت الجزيرة من الناحية الاسمية تابعة للخلافة العثمانية، في تلك الأيام بدأت التطلعات لاستيطان قبرص من قِبَل اليهود، فقد نشرت جريدة "جويش كرونيكل" التي تصدر في بريطانيا مقالاً يمدح موقع قبرص وبيَّنت المزايا التي تتمتع بها الجزيرة من حيث ملاءمتها للاستيطان وكمحمية للبريطانيين تخدم مصالح الإمبراطورية مستقبلاً.

تم طرح الفكرة خلال المؤتمر الصهيوني الثالث عام ١٨٩٩م فقوبلت بمعارضة شديدة على أساس أن الانشغال بالتوطين في قبرص سيعرقل استيطان فلسطين، ولم يجرؤ هرتزل على تأييد المشروع خوفًا من جمعية أحباء صهيون التي كانت متحمسة لاستيطان فلسطين، أحد زعماء الحركة الصهيونية من المتحمسين لمشروع استيطان قبرص كان اسمه "ديفيز تريتش" من الصهاينة التوطينيين هو أمريكي ألماني الأصل، لم يثن تريتش المعارضة التي حظي بها مشروع قبرص فقام بنفسه بمساع لدى الكثيرين، وألَّف لجنة في برلين لتحقيق المشروع عام

١٨٩٩م، كان من بين أعضائها "ديفيد ولفسون" الذي رأس الحركة الصــهيونية بعد موت هرتزل فيما بعد.

زار ترييتش قبرص وقابل المندوب السامي البريطاني للجزيرة، وتعــرَّف علــى مزايا جزيرة قبرص، وشرح للمندوب السامي مزايا اســتيطان اليهــود لقبــرص بالنسبة لبريطانيا في شرق البحر الأبيض المتوســط، فــي عــام ١٩٠٠م نجــح ترييتش بالتعاون مع جمعية الاستعمار اليهودي وصــندوق الائتمــان اليهــودي للاستعمار، في تهجير نحو ٢٥٠ من اليهود الرومانيين والروس إلى قبرص، إلا أن المقام لم يطل بهؤلاء فلم يعجبهم الحال ووجدوا أنفسهم كالعبيــد فــي مكــان منعزل، حيث شعروا بالضيق والضجر لعدم تجانسهم فعادوا إلى بلادهم، على إثر ذلك تعرض ترييتش لنقد شديد من قِبَل الكثيرين بل إن الصهاينة اتهموه بالتغرير بالمهاجرين وخداعهم بمغامرة غير محسوبة.

لكن فكرة استيطان جزيرة قبرص لم تمت كليًا، فكان طرحها ثانية في هذه المــرة من قِبل هرتزل عام ١٩٠١م، فحينما سرت شائعات بأن بريطانيا ستتنازل لألمانيا عن جزيرة قبرص مقابل أن تتنازل ألمانيا لبريطانيا عن بعض المستعمرات فــي شرق أفريقيا، سارع هرتزل بالاتصال بالألمان وعرض عليهم استيطان الجزيــرة من قِبل المهاجرين اليهود، وأغراهم بفائدة استيطان اليهود لقبرص الذي سيؤَّمن للألمان موقع هام في شرق البحر الأبيض المتوسط سيضمن لهم الحفــاظ علــى نفوذهم وسيؤَّمنون الطرق إلى أماكن تواجدهم في المنطقة، وأكد هرتزل للحكومة الألمانية بأن المستوطنين اليهود في قبرص سيحاربون بجانب ألمانيا إذا ما طُلب منهم ذلك.

ولما تبين أن بريطانيا لن تتخلى عن قبرص عدل هرتزل عن الفكرة، وعاد يغازل بريطانيا حيث كان قد أبقى الباب مواربًا معها، فالتقى جوزيف تشمبرلين وزيــر المستعمرات البريطاني آنذاك عام ١٩٠٢م، وعرض عليه فكرة استيطان قبــرص فرفض تشمبرلين الفكرة كون سكان قبرص من المسيحيين الأرثوذكس، ولم يــرد أن يثير اليونان ذات الارتباط القوي مع سكان قبــرص الأرثــوذكس أو روســيا

الأرثوذكسية أيضًا، وأن حكومته لا تحبذ إحلال اليهود مكان السكان المسـيحيين، هنا تبدو نظرة تشمبرلين العنصرية، فهو يريد أن ينقل فقراء اليهود إلى خـارج انجلترا للتخلص منهم، وفي نفس الوقت يريد أن يجد شعبًا آخر أقل أهميـة مـن اليهود لاستبدالهم به.

لما أعاد الصهاينة الاتصال بالمندوب السامي البريطاني فـي قبـرص، وراحـوا يطالبون مرة أخرى استيطان قبرص، رفضت بريطانيا الفكرة وكل ما استعدت أن توافق عليه كان السماح لليهود بشراء مساحات محددة من الأرض فـي قبـرص وبشكل فردي وبموافقة السكان المحليين، رفضت الحركة الصهيونية تلك الصيغة وتم صرف الأنظار عن مشروع استيطان جزيرة قبرص.

٥- مشروع استيطان مدين: كان "بول فريدمان" محتلاً بالفكر الاسترجاعي بعد العلمنة حيث تحول المشروع الديني إلى مشروع استيطاني علمـاني أي تجنيـد المادة البشرية لتوظيفها لتحقيق المصلحة، لم يعـدم رواد الحركـة الصـهيونية فرصة أو وسيلة للبحث عن وطن لإسكان يهود اليديشية فيه في مسعى لحل مـا أطلق عليه المسألة اليهودية إلا وقاموا بها، من هؤلاء كان بول فريدمان ١٨٤٠ – ١٩٠٠م الرحالة الصهيوني الذي سعى إلى البحث عن بـلاد ضـئيلة السـكان كوطن لليهود، فوقع نظره على إقليم "مدين"، تلك المنطقة الواقعة في شمال غرب شبه الجزيرة العربية المتاخمة لمدينة العقبة الأردنية.

اتصل "بول فريدمان" بالزعماء اليهود والحاخامات والشخصيات البـارزة لـدعم المشروع. وتقرَّب إلى جمعية قديما والجمعية الأنجلو يهودية وجمعيـة الأليـانس في باريس وفيينا، وحاول إغراء البارون دي هيرش لتمويل المشـروع، وسـعى لإيجاد مظلة دولية للمشروع، فالتقى لورد كرومر في لندن سـنة ١٨٨٩م الـذي أخبره أن الحكومة البريطانية لن تعطل هكذا مشروع.

في عام ١٨٩٠م زار فريدمان مصر لدراسة أوضاع أرض مدين والحصول علـى موافقة الحكومة المصرية على المشروع، حيث كانت منطقة مدين تحت الإشراف

المصري في ذلك الوقت، في عام ١٨٩١م نشر كتيبًا بعنوان "أرض مدين" وصف فيه أحوال الإقليم، وزعم أن المنطقة كانت في الماضي جزءًا من المملكة اليهودية القديمة، وفي العام نفسه شرع فريدمان في تحويل المشروع إلى حقيقة عملية، فقام بتجنيد عدد ٥٠ من اليهود الروس من جماعة حركة أحباء صهيون ليكونوا نواة لجيش المستوطنين، واشترى سفينة بحرية صغيرة سماها "إسرائيل"، في نوفمبر من نفس العام ١٨٩٠م، أبحر مع المجندين وطاقم السفينة التسعة متوجهًا إلى أرض مدين.

ما كاد فريدمان يصل بحملته إلى مدين حتى اندلعت المشاكل بين أعضاء الرحلة وحصلت حركة تمرد بسبب صرامة فريدمان وقوانينه، ووجدت جثة أحد المجندين ملقاة في الصحراء، كان فريدمان يحب زيه العسكري ويضع التاج الذهبي على رأسه، وكان يتباهى بالأوسمة والنياشين على صدره، ويتخيل نفسه كأحد ملوك بني إسرائيل في مدين، فصل المتمردين من أعضاء حملته فهاموا على وجوههم في الصحراء وماتوا بعضهم، ولم يبق في النهاية من أعضاء الحملة سوى تسعة فقط، وما زاد الأمر سوء هو أن روسيا رفعت دعوى على فريدمان لمحاكمته في قنصلية ألمانيا بالقاهرة متهمة إياه بالتسبب في موت أحد رعاياها.

حاول فريدمان تجنيد بعض اليهود المصريين وبعض السودانيين ليقفوا بجانبه ففشل، ولما انتبهت تركيا على ما يحدث في ممتلكاتها أصابتها الريبة من هذا المشروع، فجردت حملة عسكرية وطردت فريدمان ومن تبقى معه من أفراد الحملة، ولم تستطع بريطانيا إثناء تركيا عن فعل ذلك، وعاد فريدمان إلى برلين عام ١٨٩٥م.

٦- مشروع الأرجنتين: بدأ مشروع استيطان الأرجنتين في عام ١٨٩١م، وذلك بشراء حوالي ٧٥٠ ألف هكتار من أراضي الأرجنتين، وتم جلب ما يقرب من ٣٥٠٠ أسرة يهودية للاستيطان، وتم إمدادهم بما يلزم للزراعة من أدوات وآلات، وتم بناء أول مستوطنة يهودية بتمويل البارون اليهودي "دي هيرش"، وأوكلت المهمة للكولونيل جولد سميد للإشراف على مستعمرات الأرجنتين، وكان

جولد سميد متحفظًا على الاستيطان في الأرجنتين، وكان يعتبر تلك الممارسة مـــا هي إلا انتظار وتمهيد لاستيطان فعلي في فلسطين.

حتى عقد الثلاثينات كانت المستوطنات الزراعية اليهودية بـــالأرجنتين مزدهـــرة، فقد بلغ عدد المستوطنين اليهود ما يقارب العشرين ألفًا، وبلغت مســـاحة الأرض المزروعة ما يقرب من خمسمائة ألف هكتار، في السنوات التـــي تلـــت ســـاءت الأحوال لقلة الأراضـــي المنتظـــر إصـــلاحها للزراعـــة وتـــراكم الـــديون علـــى المستوطنين، ما أدى إلى ترك المستوطنين لمزارعهم والاتجاه للعيش في المـــدن الكبيرة.

٧- مشروع استيطان ليبيا: اهتمت ايطاليا باستعمار ليبيا في إطـــار مســـاعيها للحصول على شيء من أملاك الخلافة العثمانية، وذلك منذ بداية القرن العشـــرين بعد أن احتلت فرنسا تونس والجزائر فـــي عـــامي ١٨٣٠ و ١٨٨١م، واحتلـــت بريطانيا مصر في العام ١٨٨٢م، في عام ١٩٠٤ قدم هرتزل اقتراحًا إلـــى ملـــك إيطاليا لتوطين اليهود في طرابلس الغرب تحت حكم ذاتي يهودي بإشراف إيطالي في ظل القوانين الإيطالية، وعدد هرتزل للملك الإيطالي مزايا الوطن اليهودي في ليبيا بالنسبة لايطاليا أو كما هي عادته حينما كان يتملق الزعمـــاء الأوروبيـــين حينما تكون هناك مصلحة للصهيونية، لم يوافق ملك ايطاليا على الفكرة خوفًا من معارضة بريطانيا وفرنسا وتركيا، وافتضاح أمر الأطماع الإيطالية في ليبيا، وقال إن طرابلس هي وطن للآخرين.

في عام ١٩٠٦م بعد وفاة هرتزل جددت الصهيونية محاولتها لاســـتيطان ليبيـــا، فأرسلت لجنة لتقصي الوضع في طرابلس، وعادت اللجنة بانطباعـــات إيجابيـــة، وأعلمت الزعيم الصهيوني "إسرائيل زانجويل" باستعداد السلطات العثمانية قبـــول فكرة إنشاء وطن يهودي في منطقة "الجبل الأخضر" فـــي ولايـــة "برقـــة"، أمـــا بريطانيا فقد باركت الفكرة أيضًا بعد أن أوعزت لقنصلها في تونس بـــأن يقتـــرح على زانجويل إنشاء وطن لليهود في منطقة الجبل الأخضر.

كانت بريطانيا من وراء اقتراحها تهدف إلى مقاومة التدخل الإيطالي المحتمل في ليبيا باستخدام المستوطنين اليهود كمادة بشرية لخدمة مصالحها الإمبراطورية، وكان الوالي العثماني يريد تحسين الأحوال الاقتصادية في ولايته باعتبار أن المشروع سيكون مربحًا، وسيحوز على تأييد القوى الكبرى بريطانيا وتركيا، كما أن الاستيطان اليهودي في برقة لن يكون صعبًا نظرًا لقلة السكان في ولاية برقة، فيصير جلب أعداد كبيرة من اليهود إلى المنطقة المنشودة ويتم دفع السكان الأصليين إلى الصحراء! عوضًا على أن موقع ولاية برقة على البحر الأبيض المتوسط يعطيها ميزة لليهود المهاجرين للوصل إليها بسهولة عن طريق البحر، كما أن تلك المنطقة كانت في الماضي مأوى لعدد لا بأس به من اليهود في زمن الإسكندر المقدوني والبطالمة، وهذه المزايا تجعل استيطان ليبيا أفضل من المشاريع الأخرى مثل مشروع أوغندا وجزيرة قبرص.

لإغراء الدولة العثمانية عرضت المنظمة الصهيونية على تركيا في حال تنفيذ المشروع، إنشاء ميناء على البحر، ومد خط للسكة الحديدية، وحصول اليهود على الجنسية العثمانية، وجعل اليهود يدفعون الرسوم والضرائب بشكل جماعي للدولة العثمانية على أن تعمل كافة المؤسسات تحت إشراف الدولة العثمانية أيضًا.

في عام ١٩٠٨م أوفدت المنظمة الصهيونية بعثة لدراسة الأوضاع في برقة، وأمضت ثلاثة أسابيع وقامت بعمل أبحاث مكثفة شملت كل شيء في المنطقة، وركزت على الموارد المائية وحاجة المنطقة من شق الطرق، واحتمال عمل مشاريع زراعية متطورة، لاقت اللجنة ترحيبًا من والي برقة العثماني، الذي أمر بتسهيل كافة الأمور التي تسعى إليها اللجنة، أوجزت اللجنة نتيجة الزيارة للمنطقة في تقرير سمته الكتاب الأزرق، الذي تضمن عددًا من المقترحات العملية، مثل ضرورة شق الطرق وربط المنطقة بالمدن الليبية الأخرى، وأن يكون الاستيطان منظمًا، وأن يكون في البداية بأعداد قليلة من اليهود وعلى دفعات، وعدم المطالبة في البداية بحكم ذاتي.

لم تأت الرياح كما اشتهت السفن الصهيونية في ذلك الوقت، فقد حدث انقلاب على الحكم في الدولة العثمانية سنة ١٩٠٩م وأطيح بالسلطان عبد الحميد الثاني، وانشغلت دولة بني عثمان بالصراعات والمشاكل الداخلية الحادة، فانشغلت عن مشروع الاستيطان اليهودي، وما عقَّد الأمور أكثر كان إقدام إيطاليا على احتلال ليبيا عام ١٩١١م، فكانت نهاية مشروع استيطان ليبيا.

٨- مشروع استيطان أنجولا: بعد استحالة تنفيذ مشروع الاستيطان اليهودي في ليبيا، راحت المنظمة الصهيونية تبحث عن مناطق أخرى لتوطين اليهود فيها تحت رعاية إحدى الدول الكبرى، في عام ١٩١٢م اقترح "إسرائيل زانجويل" على الحكومة البرتغالية توطين اليهود الروس وأوروبا الشرقية في "أنجولا" بأفريقيا، وافق البرلمان البرتغالي بالإجماع على الفكرة، لأن هذا سيجعل المستعمرة أكثر استقرارًا، وسيزيد من العنصر الأبيض فيها، لكن البرلمان البرتغالي ربط الموافقة على الاستيطان بأن يأتي اليهود إلى المستعمرة فرادى وليس جماعات، واشترط أن تظل الحكومة البرتغالية مسئولة في كل الأحوال، في عام ١٩١٣م قامت المنظمة الصهيونية بإرسال بعثة إلى أنجولا للتعرف على أحوال المستعمرة، ومدى صلاحيتها لاستيطان اليهود، وأعدَّت اللجنة تقريرًا كانت ستعرضه على المؤتمر الصهيوني العام الذي كان سيعقد في سويسرا عام ١٩١٤م، لكن اندلاع الحرب العالمية الأولى في ذلك العام أدى إلى تأجيل المؤتمر، وأدت التداعيات على المستوى العالمي إلى نسيان مشروع استيطان انجولا.

٩- مشروع موزمبيق: لما كانت قد تعثرت مشاريع الاستيطان اليهودية، وبقي الصهاينة منشغلين في البحث عن أي مشروع ولو مرحلي يحقق الهدف، فقد بقي هرتزل يدور ويبحث، وقاده تفكيره أن يتصل برئيس وزراء النمسا في عام ١٩٠٣م عن طريق أحد أصدقائه بهدف التوسط لدى الحكومة البرتغالية للسماح بتوطين اليهود في موزمبيق.

وعلى الأثر اجتمع هرتزل مع السفير البرتغالي في فيينا وعرض على السفير، أن يقوم اليهود بإنشاء شركة استثمارية يهودية تساعد البرتغال على حل مشـــاكلها الاقتصادية، وتقدم الشركة معونة مالية سنوية للبرتغال مقابل حصولها على حق استثمار أراضي في موزمبيق وتوطين أعداد من يهود الشرق، ورغم أن البرتغال كانت تواجه أزمة اقتصادية حادة، إلا أنها رفضت الفكرة بسبب الروابط الوثيقـــة بين المنظمة الصهيونية والحكومة البريطانيـــة المنـــافس الكبيـــر فـــي ميـــدان الاستعمار، قال هرتزل في مذكراته بإنه كان على استعداد لو حصل على مستعمرة موزمبيق أن يتنازل عنها لبريطانيا بدون ثمن مقابل أن تمنح بريطانيا لليهود كل شبه جزيرة سيناء المصرية وتصلها بمياه النيل صيفًا وشتاء، وربما مع ســـيناء قبرص أيضًا، وفي المستقبل استيطان فلسطين.

١٠-مشروع الخليج العربي (البحرين والإحساء): في عام ١٩١٧م وجَّه طبيـــب يهودي فرنسي اسمه "إم.ل.رشتاين" رسالة إلى الحكومة البريطانية، اقترح فيها إقامة دولة يهودية في منطقة الخليج العربي تشمل البحرين ومنطقة الأحساء من السعودية، ولتنفيذ الفكرة يجب تجنيد جيش قوامه ثلاثين ألف جندي من شـــباب اليهود الروس، وأن تقوم بتدريب هذا الجـــيش دول الحلفـــاء الثلاثـــة بريطانيـــا وفرنسا وروسيا، وأن تمده بالمستشارين وبالأسلحة وبالعتاد اللازم، وأن يكـــون إعداد هذا الجيش سريًا حتى أن أفراده لا يعلمون بالمهمة التـــي ســـتوكل إليـــه وتكون قاعدته في البحرين، وفي الوقت المناسب يقوم بالانقضاض على المنطقة المنشودة ويمسك بها بقوة، وتكون نواة لقيام الدولة اليهوديـــة التـــي يجـــب أن يديرها مجموعة من الحاخامات اليهود.

وقال الطبيب روششتاين أيضًا في رسالته للحكومة البريطانية، ســـيكون الجـــيش طوع أوامر بريطانيا في قمع التمردات المحلية التي قد تحـــدث ضـــد بريطانيـــا، وسيتصدى للهجمات التي قد تقوم بها ألمانيا وتركيا في المنطقة، وسيدخل الحرب العالمية بجانب بريطانيا ضد أعدائها، وسيكون أثر ايجابي للدولة اليهودية بجعل كل يهود العالم موالين لبريطانيا، وسيجعل يهود تركيا وألمانيـــا بالـــذات عمـــلاء

وجواسيس لبريطانيا خلال الحرب وسيؤثر هذا على جبهة الأعداء، وأما تكاليف إقامة هذا الجيش فستعتبر دينًا على الدولة اليهودية على أن تسدده فور إعلانها، كما يتعهد هو شخصيًا بذلك.

رفضت بريطانيا المشروع بعد أن أحيل إلى وزير المستعمرات البريطاني لدراسته وخلص إلى أسباب الرفض: أن العرب لن يقبلوا الدولة اليهودية، وسيثير هذا متاعب لبريطانيا، وأن بريطانيا لا ترى أن المنطقة صالحة لإقامة دولة يهودية، هذا وأن بريطانيا كانت مرتبطة بمعاهدة مع البحرين وقعت سنة ١٩٢٠م وكانت البحرين تحت النفوذ البريطاني، وأن الإحساء كانت تحت سيطرة "عبد العزيز بن سعود" أمير نجد منذ سنة ١٩١٣م، وأن بريطانيا أيضًا كانت قد وقَّعت معاهدة تحالف مع ابن سعود كان بمقتضاها أن تحمي بريطانيا بلاده في حال تعرضها لأي هجوم، كان لبريطانيا أسبابًا أخرى أكثر عمقًا، من نظرتها الإمبراطورية البعيدة، رأت أن تطورات الحرب العالمية الأولى وما نتج عنها قد أبعد الخطر الألماني عن غزو المنطقة واستعمارها، فلا تهديد ألماني بعد أن هزمت ألمانيا وركعت للمنتصرين حسب معاهدة فرساي، ثم إن الخلافة العثمانية لم تعد قائمة ولا خطر منها، وأن وجود شركاء روس وفرنسيين يقومون على تدريب الجيش اليهودي ربما يعقد الأمور في وجه بريطانيا ويدفع في اتجاه التدخلات الخارجية، ويشرع في قيام منافسة استعمارية من فرنسا وروسيا في المنطقة، ولكي تحسم بريطانيا الأمر، عملت على إصدار وعد بلفور لأكثر من اعتبار.

١١ - مشروع الكونغو: في إطار تعثر مشاريع الاستيطان اليهودية في قبرص والعريش وشرق أفريقيا وغيرها، قام هرتزل عام ١٩٠٣م بالاتصال بالمستثمر اليهودي البلجيكي فرانتز فيليبسون الذي كان يملك احتكارات كبيرة في الكنغو بأفريقيا، وذلك لأجل استمالته والتوسط لدى ملك بلجيكا، وكعادة هرتزل مع الدول والزعماء، عرض أن تدفع المنظمة الصهيونية مبلغًا من المال سنويًا للحكومة البلجيكية للتخفيف من أعبائها المالية، مقابل سماح بلجيكا بتوطين عدد من اليهود في الكنغو واستثمار خيرات المنطقة في إطار حكم ذاتي لليهود، رفض

فيليبسون الفكرة ولم يقم بالوساطة، رغم أنه من المؤيدين لفكرة توطين اليهود بسبب خوفه من قدوم منافسة من مستثمرين جدد قد تؤثر على مصالحه الواسعة.

١٢-مشروع استيطان شرق أفريقيا: أهم المشاريع التي لم يؤخذ بها كان مشروع شرق أفريقيا أو مشروع أوغندا، الذي كان يهدف إلى إنشاء محمية إنجليزية يهودية اسمًا وفعلاً تابعة للإمبراطورية البريطانية، وهو المشروع الذي قدَّمته بريطانيا لليهود عام ١٩٠٣م لكي يقيموا عليه وطنًا لهم على هضبة مساحتها ١٨ ألف ميل مربع في كينيا الآن، وليس أوغندا كما أصبح شائعًا في المطبوعات، حيث أن هرتزل كان قد فهم خطأ من وزير المستعمرات البريطاني حينما كان الأخير يغريه بمشروع شرق أفريقيا قائلاً عن المنطقة، بإن خط السكة الحديدية الذي يعبر أوغندا إلى المنطقة المقصودة (كينيا) قد اكتمل، فظن هرتزل بأن مشروع توطين اليهود في شرق أفريقيا سيكون في أوغندا لهذا تم الالتباس، إذن كان المشروع سينفذ في كينيا وليس في أوغندا.

يعتبر "جوزيف تشمبرلين" رجل السياسة البريطاني، المنظر الحقيقي لمشروع شرق أفريقيا، فقد قيل بإن تشمبرلين هو الذي اختار لنفسه منصب وزير المستعمرات في بريطانيا وظل في هذا المنصب من ١٨٩٥ لغاية ١٩٠٣م.

كان تشمبرلين واسع الأفق ولديه مقدرة على الابتكار، فعمل على تحسين صورة الإمبراطورية البريطانية في الخارج، وجعلها مقبولة أكثر لدى الآخرين وأخرجها من عزلتها، شق الطرق في المستعمرات واهتم بالزراعة على أسس حديثة، وشجع على مد خطوط السكك الحديدية، واهتم بزيادة العنصر البشري الغربي، كان تشمبرلين عنصري جدًا، فقد كان يؤمن بتفوق العرق لأنه يحدد السمات الأساسية للحضارات، كان يؤمن أن تكون السياسة الخارجية للإمبراطورية البريطانية موضوعة على أساس عرقي وعلمي دقيق لكي تستند عليها التحالفات، كانت رؤيته للعرق هرمية، على القمة يكون "الانجلو- سكسون" ثم

يليهم التيتون أو أهل شمال ايطاليا فرنسيين وألمان وغيرهم من شعوب أوروبا الغربية، واعتبر اليهود في قاع الهرم الأوروبي.

كان تشمبرلين في هذا يعتبر أن هناك أجناسًا دنيئة من البشر وتوجد أجناس أقل دناءة منها، الهنود جنس دنيء لكنهم أقل دناءة من السود، لذلك يمكن تطوير السود بإدخال بينهم عنصر لجنس وسيط، فيستفيد الجميع، تستفيد بريطانيا ويستفيد الهندي ويستفيد الأسود، ومن واقع الخبرة والممارسة الميدانية رأى تشمبرلين أن استخدام الإنسان الأبيض في العمل بالمستعمرات لم يكن مجديًا أو لائقًا، كما أن استخدام الإنسان الأبيض من غير البريطانيين ليس محل ثقة، ولذلك تم استخدام الهنود كمادة بشرية، لهذا رأى تشمبرلين أن اليهود هم المادة البشرية المناسبة لأجل تحقيق أهداف كثيرة، عوضًا عن أن اليهود هم عنصر أوروبي لكنهم لا يسببون مشاكل كما المستوطنون البيض، ويمكن في هذه الحالة أن يحل اليهود محل الهنود في العمل في محمية شرق أفريقيا.

عام ١٩٠٢م دعي هرتزل لكي يدلي بشهادته أمام اللجنة البريطانية للغرباء التي أنشئت للنظر في مشكلة هجرة يهود اليديشية الذين يأتون لبريطانيا، فاقترح تحويل المهاجرين إلى وطن يهودي مباشرة معترف به، وترك هذا أثرًا عميقًا لدى سامعيه، ولما دعي هرتزل لمقابلة تشمبرلين استمع الأخير لوجهة نظره، وأدرك إمكان توظيف اليهود كمادة بشرية، ووعد بالنظر في اقتراح هرتزل بجعل قبرص أو العريش وطنًا لليهود، في عام ١٩٠٢م زار تشمبرلين أفريقيا ثم استقبل هرتزل مرة أخرى وعرض عليه مستعمرة شرق أفريقيا لكي تكون مستوطن مستقل لليهود، ووافق على ذلك لورد بلفور الذي كان يرأس الوزارة البريطانية في تلك الأيام.

سعت بريطانيا إلى مشروع أوغندا في الوقت الذي نشط فيه الاستعمار الألماني والإيطالي، وفي وقت ازدادت فيه هجرة يهود اليديشية إلى بريطانيا، فوجدت بريطانيا الفرصة لتحويل المهاجرين اليهود إلى مادة استيطانية توطنهم في محمية تقوم بحماية الموقع الاستراتيجي في شرق أفريقيا، فبريطانيا كانت قد

فضلت أن يكون الوطن اليهودي في شرق أفريقيا كون بريطانيا في ذلك الوقت متحالفة مع الخلافة العثمانية وتود الحفاظ على أملاك العثمانيين ضد الزحف الروسي، ولم تكن فكرة تقسيم دولة الخلافة الإسلامية قد طرحت بعد.

كان البريطانيون سيضعون حاكمًا يهوديًا على المحمية، ويطلقون عليها اسم فلسطين الجديدة، وفعلاً تم تأسيس شركة لتطوير المنطقة بموافقة الحكومة البريطانية، ووافق تيدور هرتزل على المشروع، وأيده ماكس نوردو الذي سمى المشروع بأنه "ملجأ ليلة واحدة" وهو يقصد بأنه سيكون الطريق إلى فلسطين وطن اليهود الحقيقي، تحمس اليهود المهاجرين من روسيا للمشروع فأيدوه بقوة بعكس زعمائهم الذين عارضوه، وأيد المشروع المستوطنون الصهاينة في فلسطين، واليهود الأرثوذوكس الذين رأوا أن استيطان فلسطين شيء عبثي، عارض المشروع حاييم وايزمان وعارضه المندوبون الروس، وسمي الصهاينة الذين عارضوا مشروع شرق أفريقيا بصهاينة جبل صهيون، وحينما طرح المشروع للتصويت، تمت الموافقة عليه بالأغلبية ٢٩٥ صوتًا موافقًا مقابل ١٧٨ صوتًا معارضًا و١٤٣ صوتًا ممتنعًا عن التصويت، أحدثت نتيجة التصويت تصدعًا في الحركة الصهيونية واستشاط الرافضين غضبًا، وحاول أحد الشباب المتحمسين اغتيال ماكس نوردو "الشرق أفريقي" كون الأخير كان أحد أصحاب الحجة في فكرة الموافقة على المشروع.

على إثر نتيجة التصويت الايجابية على التصويت، تشكلت لجنة اشتملت على بريطاني مسيحي، ومهندس روسي، وصحفي سويسري، وذهبت اللجنة إلى شرق أفريقيا لدراسة الوضع، فاستقبلها المستوطنون البيض من أصل انجليزي فضلّلوا اللجنة، وزودوها بمعلومات خاطئة وأخذوا اللجنة إلى أراضي قاحلة غير المنطقة المقصودة، وعادت اللجنة وقدمت تقريرها السلبي، وليس هذا فقط بل إن المستوطنين البيض في شرق أفريقيا أقاموا الدنيا ولم يقعدوها، فعوضًا عن أنهم ضلّلوا اللجنة إلا أن هذا لم يكتفوا به بل كتبوا العرائض والاحتجاجات إلى الحكومة البريطانية، ورفضوا أن يأتي اليهود إلى مناطقهم بحجة أن قدوم

المهاجرين اليهود سيكون له آثار سلبية على القبائل الأفريقية، وأن تلك الأرض قد مدوا عليها خط سكة حديد، ولا يودون أن يغيروا سكينة تلك المنطقة بقدوم أناس آخرين.

في المؤتمر الصهيوني السابع عام ١٩٠٥م تم رفض كافة مشاريع توطين اليهود، ويبدو أن عود الحركة الصهيونية قد اشتد وازداد نفوذها وارتفع سقف أهدافها، وصار الحديث عن تفتيت دولة بني عثمان، التي صار يطلق عليها رجل أوروبا المريض تمهيدًا لاغتصاب فلسطين، على إثر رفض مشروع شرق أفريقيا انشق "إسرائيل زانجويل" وأربعين مندوبًا آخرين، وأسَّسوا الحركة الصهيونية الإقليمية.

١٣-مشاريع أخرى من رموز الحركة الصهيونية ماكس بودنهايمر (١٨٦٥-١٩٤٠ م)، هو زعيم صهيوني ألماني درس القانون في جامعة شتوتجارت وأصبح محاميًا، وبعد أن أسَّس مع ديفيد ولفسون جمعية صهيونية بعد صدور كتاب هرتزل دولة اليهود، صار من أشد مؤيدي هرتزل، وهو الذي كان عضوًا في رئاسة المؤتمر الصهيوني الأول (١٨٩٧)، وساهم في صياغة الأهداف الصهيونية الواردة في برنامج بازل، عمل نائبًا للرئيس في المؤتمرات الصهيونية التالية، رافق بودنهايمر هرتزل في لقاءاته مع القيصر الألماني، وزار فلسطين واسطنبول، وشارك في تأسيس المنظمة الصهيونية الألمانية وتولَّى رئاستها بين عامي ١٨٩٧ و١٩١٠م، وأصبح رئيسًا للصندوق القومي اليهودي في الفترة من ١٩٠٧ وحتى ١٩١٤ م، خلال الحرب العالمية الأولى أسَّس لجنة تحرير اليهود الروس في برلين.

في عام ١٨٩١ م نشر بودنهايمر كتيبًا دعا فيه إلى إقامة مستعمرات يهودية في سوريا وفلسطين، فقد وجَّه نداءه إلى أثرياء اليهود لإنشاء شركة تعمل على توطين يهود شرق أوروبا في منطقة سهل البقاع في شمال لبنان، وكان يعلم أهمية تلك المنطقة بالنسبة لبريطانيا، فطلب الموافقة والدعم منها مقابل أن يحافظ اليهود على المصالح البريطانية، ويحمي المستوطنون مواصلات بريطانيا

التي تؤدي إلى مستعمراتها في الهند، لكن بريطانيا لم تهتم بالفكرة، تجنبًا من خلق مشاكل لا مبرر لها مع الدولة العثمانية.

وفي عام ١٨٩٣، قام الصهيوني "هنري دي أفيجدور" بمحاولة أخرى لشراء مساحات من الأراضي في منطقة حوران لكي تكون قاعدة للاستيطان اليهودي في المنطقة، إلا أن المحاولة أيضًا فشلت بسبب معارضة الدولة العثمانية، ولأن المشروع لا يحظى برعاية دولة كبرى، كانت هناك محاولات عدة لشراء الأراضي في شرق الأردن، واتخاذها قاعدة للاستيطان، ومن ثم القيام بشن الهجمات على السكان وطردهم، إلا أن كل هذه المحاولات لم تحظ بموافقة الدولة العثمانية، وأمر السلطان بطرد الجمعيات اليهودية تخوفًا من حدوث مشاكل لا أحد يعلم بها.

خلال عامي ١٩٠٣ و١٩٠٤م حاول هرتزل إقناع السلطان العثماني من خلال مستشاره، بالموافقة على السماح بتوطين عدد من اليهود في جنوب العراق، مقابل أن تعمل المنظمة الصهيونية على حل المشاكل المالية التي كانت تعاني منها الدولة العثمانية.

وفي عام ١٩٠٥، واصل ديفيز تريتش محاولاته الاستيطانية، بعد فشل مشروعي قبرص والعريش، فطلب من السلطان العثماني السماح لليهود بالاستيطان في القطاع الساحلي من منطقة أضنه الذي يتاخم الشاطئ السوري فرفض السلطان المشروع، لكن تتريتش لم ييأس فراح يفكر في استيطان جزيرة رودس لموقعها على الطريق البحري بين شرق أوروبا وفلسطين، ووجود حوالي خمسة آلاف يهودي في تلك الجزيرة من مجموع سكانها الذي كان يبلغ آنذاك حوالي ٣٠ ألف نسمة، غير أن هذه الفكرة قد رُفِضَتْ أيضًا.

١٤- نشطت جماعات صهيونية إقليمية، منها جماعة قامت في ألمانيا للاستيطان في الجزء البرتغالي من أنجولا عام ١٩٣١م، إلا أن الحكومة البرتغالية رفضته.

١٥- في مؤتمر إفيان ١٩٣٨م، قدم اقتراح لتوطين ١٠٠ ألف يهودي في جمهورية الدومينكان، إلا أن الصهاينة رفضوه.

١٦- رفض الصهاينة أيضًا مشروعًا آخر في بيرو بيجان السوفييتية.

١٧- كان للنازيين في ألمانيا والفاشيين في إيطاليا مشاريعهم التوطينية أيضًا لليهود خارج فلسطين.

١٨- وفي عام ١٧٩٠م، اقترح كاتب بولندي توطين اليهود في أوكرانيا التابعة لبولندا.

١٩- وفي عام ١٨١٥م، قدَّم القس البولندي "شاتوفسكي" اقتراحًا بأن يُوطَّن اليهود في جيب يهودي صغير في آسيا الصغرى يكون قاعدة للدولة الروسية ضد الخلافة العثمانية.

٢٠- كان هناك مشاريع استيطان أخرى في الولايات المتحدة الأمريكية، لكنها لم تتعدى الأحلام، لأن أمريكا نفسها هي مجتمع المهاجرين ولا ضرورة لأن تمنح اليهود أرضًا خاصة بهم.

وهذا يؤكد بأن مشروع الدولة اليهودية كان وليد ظروف البعث القومي في أوروبا، وأن مؤيديه من اليهود كانوا قلة من الفقراء في روسيا أوروبا الشرقية واستطاع هرتزل أن يزاوج بين القلة اليهودية الغنية في أوروبا التي تبحث عن الربح والاقتصاد وبين متاهة الفقراء الذين كانوا يرزحون تحت نير التفرقة العنصرية.

نستنتج مما سبق أن مشروع هرتزل لا يختلف كثيرًا عن مشروع الحروب الصليبية حينما استغل السياسيون في أوروبا الإيمان بالمسيحية ووظفوه لخدمة السياسة والحرب، وهذا يدل على أن هرتزل حينما كان سيقبل بأي مكان لكي ينشيء عليه الدولة اليهودية إنما كان يغازل البؤساء من اليهود الشرقيين لكي ينجز ما يسعى إليه الأقلية من أغنياء اليهود في أوروبا الذين يصادقهم في رياضته الأرستقراطية، وسعيًا للمجد الشخصي وقد كان له في النهاية ما أراد.

لقد كان هرتزل حذقا وذكيا حينما سعى مع أحد القساوسة في وضع حدود للدولة اليهودية كشعار معلن هو "فلسطين داود وسليمان" بمعنى إسرائيل الكبرى.

لو تعمقنا في الأمر أكثر نجد أن إسرائيل بخلاف كل الدول التي تسعى إلى الاستقلال، تأسست باقتصاد قوي وما زالت فورة الاقتصاد فيها تفيض كون أموال كثيرة تذهب إليها حتى ساعدها الفائض الاقتصادي أن تصبح دولة ذرية في أقل من مرور عشرين عامًا على استقلالها، وأن اقتصادها أكبر من كل الدول المحيطة بها وسكانها لا يتجاوزون الستة ملايين حتى الربع الأول من القرن الحادي والعشرين، لذا فإنها دائمًا في حاجة ماسة إلى الأيدي العاملة، فنجد أنها تستورد العمالة اليدوية من دول كثيرة مثل تركيا، باكستان، الهند، سريلانكا، كوريا وغيرها، بالإضافة إلى عشرات الألوف من الفلسطينيين في حين أن نسبة البطالة في الدول المحيطة بإسرائيل لا تقل عن ٢٠ بالمائة.

هذا يبين بأن إسرائيل هي مجموعة من رؤوس الأموال الاحتكارية الاستعمارية الاستيطانية العسكرية، يُضلل بها الغوغائيون من فقراء اليهود ويستثمرها أغنياؤهم من الأوروبيين، بالإضافة إلى توظيفها لخدمة القوى العالمية المتنفذة حليفة أصحاب المصالح من أغنياء اليهود.

ماذا كان يمكن أن يكون عليه حال تركيا "رجل أوروبا المريض" في بداية القرن العشرين لو أنها قبلت بما كان يعرضه عليها هرتزل من أموال، ومساعدات، وسداد ديون للدول الغربية على السلطنة، وماذا لو قبلت تركيا أن ترعى أمن واستقرار الدولة اليهودية في فلسطين! ألم يعرض هرتزل على السلطان عبد الحميد بأن يحل كل مشاكل السلطنة المادية بشرط أن يظل سرًا بينهما حتى لا تعلم به الدول الأوروبية الدائنة للسلطنة العثمانية! وإن دل هذا على شيء فإنما يدل على أن الخيانة دائمًا وأبدًا هي نهج بني صهيون على مدى التاريخ فحليفهم الدائم هي مصالحهم وليذهب غيرهم من يكون إلى الجحيم.

لو أن تركيا قبلت العرض لربما كان في الإمكان أن تبقى تركيا سلطنة وخلافة وربما لساعدها اليهود ضد أعدائها، رحم الله السلطان عبد الحميد لإيمانه ولنظرته البعيدة، ذلك السلطان الذي رفض عرض هرتزل فتم التآمر عليه وعلى السلطنة فتم تمزيق صرح الخلافة العثمانية.

يقول الرأي الآخر بالنسبة لموقف السلطان عبد الحميد الثاني، بإن هناك نوع من الصواب لو قلنا بإن السلطان عبد الحميد في أواخر أيام الدولة العثمانية كانت سياسته ونظام حكمه يشبهان حال النظام العربي في الربع الأول من القرن الحادي والعشرين حيث أن الضعف والوهن كان باديًا على الدولة العثمانية التي تتطلع إليها عيون الإمبراطوريات لكي تتقاسمها أو على الأقل أن تحصل منها على ميزات ونفوذ مقابل الحماية أو العون الاقتصادي.

لذا قد يكون من المُبالغ فيه أن تسجل كل تلك المحامد للسلطان عبد الحميد الثاني الذي رفض عروض "تيدور هرتزل" الاقتصادية مقابل أن يصدر السلطان فرمانًا صريحًا بالسماح لليهود بالهجرة الكثيفة إلى فلسطين، فلو لم تكن شكوكنا في محلها فلماذا أصلاً استقبل السلطان هرتزل أكثر من مرة، ولماذا سمح له بأن يعرض عليه القروض والمساعدات إلا إذا كان الاختلاف على العروض من ناحية حجمها ونوعها، وربما الشك في ظن السلطان بأن هرتزل يمثل إحدى الدول الأوروبية الطامعة في تفتيت الدولة العثمانية على مراحل أي أن يكون الاستيطان اليهودي في فلسطين أحد تلك المراحل.

وهنا لا بد أن نشير بشيء من الحذر إلى بعض الأمور التي تجعل المرء ليس من السهولة أن يقف بجانب روح ما قاله السلطان عبد الحميد في ردوده على هرتزل، لأن طبيعة الاحتلال العثماني للبلاد العربية كان سيؤدي إلى شيء من هذه النتائج الكارثية أو كما حدث لفلسطين وتوج في عام ١٩٤٨م.

يقول الدكتور "إبراهيم علوش" في مقال له في "موقع الصوت العربي الحر" تحت عنوان، الاحتلال العثماني والحنين للتخلف، يقول: "تصاعدت مؤخرًا ظاهرة

الحنين المفتعل للعثمانيين في بعض الأوساط، والتفجع على انقضاء قرون التجمد الحضاري خارج التاريخ، والنواح على أطلال التخلف الذي زرعوه في أرضنا على مدى قرون"، وهنا يشير الدكتور علوش إلى مواقف تركيا من العرب وفلسطين والبلاد العربية بصفة عامة، وأن الاحتلال العثماني هو ما وضع العرب في أسوأ الأحوال، وما جلب عليهم الاستعمار والتفتيت.

العثمانيون مثلاً، لم يتركوا أثرًا حضاريًا واحدًا في البلاد العربية طيلة مدة احتلالهم، ولم يقدموا إنجازًا علميًا أو فنيًا أو أدبيًا، وحينما احتل الأتراك العثمانيون بلاد العرب لم يكن الفارق الحضاري بين العرب والأوروبيين كبيرًا كما أصبح في أواخر الحكم العثماني، ورغم كل ما قيل عن رفض السلطان فإن الأخير أصبح صديقًا لهرتزل وكان يفاوضه ويستقبله ويستمع إليه ويناقش عروضه وما يمكن أن يقدم من مال أو قروض أو يتحدث باسم قوى غربية معينة، بمعنى لو أن السلطان وجد عرضًا سخيًا من هرتزل يمكن به شفاء الدولة فربما لكان هناك ما يمكن أن يوافق عليه، وربما أن السلطان أيضًا قد شعر بأن نهاية حكمه قادمة لا محالة، وأن لا جدوى مما يمكن أن يقدمه أغنياء اليهود المتحالفين مع بريطانيا للسلطنة لأن الوقت قد فات على إمكان نهوض الخلافة والتغلب على أمراضها المستعصية، لذا أراد السلطان أن يسجل موقفًا يخلده في التاريخ.

هذا، ومن ناحية أخرى، إن الإشارة القاطعة بأن السلطان عبد الحميد الثاني كان رافضًا للهجرة اليهودية إلى فلسطين ولم يسمح بها فهناك شك في هذا القول، لأن الهجرة اليهودية الأولى (١٨٨٢م) كانت قد تمَّت في أيام حكمه وأن ثلاث مستعمرات يهودية بُنيت في عهده هي "ريشون ليتسيون، وبتاح تكفا، وزخرون يعقوب"، وإبَّان حكم السلطان عبد الحميد أيضًا، قام وجهاء القدس برفع عريضة لرئيس الوزارة العثمانية، طالبوا فيها بوقف هجرة اليهود الروس إلى فلسطين (عبد الوهاب الكيالي، تاريخ فلسطين الحديث – الطبعة التاسعة).

هذا، وحينما نجد أن القوات البريطانية في عام ١٨٠١م قد عاونت العثمانيين على إخراج الفرنسيين من مصر، وبعد ذلك خلال نهوض "محمد علي" والي مصر

بتأسيس الدولة العربية الحديثة، نجد أن بريطانيا وفرنسا ودول أوروبية أخـــرى في عام ١٨٢٧م قد ساعدت العثمانيين على طرد جيش محمد علي من ســـوريا، وعملت على تدمير أسطوله البحري في موقعة نفارينو، علمًا بأن بريطانيـــا بعـــد ذلك هي من أتت أصلاً بوعد بلفور، من هذه الوقفة البسيطة يمكن تخيل علاقـــات الدول التي تحكمها المصالح وحجم الربح وما يمكن تحقيقه، السياسة كما نعلم لا تحكمها المباديء ولو وضعت الأيديولوجيات كيافطات فإنها تكون لإفساح مجـــال للساسة والقادة كي يناوروا.

هذا، ويجب أن نتذكر أن إسرائيل كانت مشروعًا غربيًا بصفة عامة، ذلـــك نظـــرًا لوزن ونفوذ أغنياء اليهود في الدول الغربية وخصوصًا فـــي بريطانيـــا وفرنســـا والولايات المتحدة ثم في غيرهما من الدول، لقد رأينا أن الصهاينة قـــد أسســـوا دولتهم بالتحالف مع بريطانيا أولاً، ثم بنوا قوتهم العسكرية بواسطة فرنسا، وبعد ذلك ربطوا اقتصادهم بالولايات المتحدة خلف الأطلسي، وبقوا هكذا كما هو دأبهم يتجاذبون المصالح، ويتنقلون من هذه الدولة بالولاء إليها ثم يتركونها إلى غيرها لكي يظلوا مستمرين في مشروعهم الاستيطاني، لكن موجات التاريخ لا تثبت على هيئة واحدة ولا تظل على وتيرة واحدة.

الفصـــل الرابـــع

نــداء شــبتــاي

كانت الأندلس تزخر بمآثر يُفتخر بها إبان الحكم العربي الإسلامي في العصور الوسطى، فقد حدثتنا كتب التاريخ كيف انهار ذلك الصرح وماذا فعل الأسبان بالمسلمين نتيجة التطرف الديني من قتل واستباحة وطرد من كل بلاد الأندلس، بدأت قصة اليهودي "شبتاي زئيفي" في تلك اللحظة عندما هرب المسلمون واليهود من محاكم التفتيش الكاثوليكية، بعد سقوط غرناطة استقر المسلمون في المغرب والجزائر وتونس، أما اليهود فقد اتصلوا بالسلطان العثماني فاستقبلهم في الولايات العثمانية وأحسن وفادتهم، واستقرت جماعات منهم بمدينة "سلانيك" اليونانية بأمل أن تستفيد منهم الدولة لبراعتهم في التجارة والحرف اليدوية.

يُقال إن فكرة الدولة الإسرائيلية الأولى نشأت هناك في سلانيك، فقد كان اليهود من أثرياء الدولة العثمانية التي ضمنت لهم حقوقًا لا يحلمون بها حتى استعملتهم في البلاط كُتَّابًا ومترجمين ووزراء في الولايات والأقاليم، ثم انتشروا في الأراضي العثمانية يديرون التجارة مع الشرق ومع أوروبا فانتعشت تجارتهم وكثرت أموالهم واتسع نفوذهم، وراح يراودهم الاهتمام ثانية بهيكل سليمان المزعوم هناك في فلسطين الولاية العثمانية المقدسة.

يقول الشيخ أسعد بيوض التميمي: "تتميز الديانة اليهودية عن غيرها من الديانات بحرية الخروج على النصوص التوراتية والاجتهاد، فالحاخام حسب المفاهيم التلمودية يقوم بتعليم الملائكة أنفسهم التفسيرات التلمودية والاجتهادات حول مختلف القضايا والأمور، ورغم كون اليهود أقلية صغيرة في العالم، إلا أنهم ينقسمون إلى أقليات صغيرة جدًا، منها ما انقرض مثل الصدوقيون، ومنها ما هو قائم تحت تسميات أخرى كالفرنسيين الذين شكَّلوا المحكمة الأولى لمحاكمة السيد المسيح، والذين يشكلون الآن الحركة الصهيونية.. وما بين هذين الاتجاهين هناك أقليات لا تزال تحافظ على معتقدها كالسامريين في مدينة نابلس بفلسطين، الذين يؤمنون فقط بالألواح السماوية التي نزلت على سيدنا موسى في جبل الطور في سيناء، أما الأقلية التي تثير الدهشة والاستغراب بسبب تاريخها الحافل بالمنعطفات الحادة والزاخرة بالمتناقضات وإشارات الاستفهام، فهي طائفة

"الدونمة" التي بعثها إلى الوجود الحاخام المتنبي "شبتاي بن مردخاي بن زئيفي"، لينتقل فيما بعد إلى الإسلام ويصبح اسم جماعته الدونمة".



شبتاي زئيفي ١٦٢٦- ١٦٧٦م

Shabtai Ben-Mordechai Ben Ze'evi

شبتاي زئيفي ١٦٢٦- ١٦٧٦م هو مسيح دجال، ولد في أزمير غرب الأناضول سنة ١٦٢٦م بتركيا لأب أشكنازي من يهود أوروبا الشرقية كان يشتغل بالتجارة والسمسرة، وحسب التقويم اليهودي فإن يوم ولادته يصادف ذكرى هدم المعبد اليهودي في القدس على يد الرومان، ويعتقد اليهود أن هذا اليوم هو الذي سينزل فيه المسيح اليهودي المخلص، الذي سيحكم العالم، ويصبح فيه اليهود أسيادًا على غيرهم من البشر، ورغم كثرة اليهود الذين ادَّعوا النبوة إلا أن أحدًا لم يستحوذ على الاهتمام الذي دار حول زئيفي، فجماعته كانت كبيرة، وأخباره انتشرت إلى أوروبا في الستينيات من القرن السابع عشر، وأتباعه لا يزالون يحملون اسمه في تركيا "الشبتائية"، عرف "بتاي زئيفي" بحبه للعزلة والانطواء

وبحالته النفسية غير السوية، تلقى تعليمًا دينيًا تقليديًا، ودرس التوراة والتلمـود والمعارف الباطنية على يد حاخام أزمير "إسحاق دلبع"، وما أن بلغ الثامنة عشر من عمره حتى أصبح حاخامًا معترفًا به حسب رغبة أمه ذات الميول الدينيـة، إلا أن هذه الدرجة الدينية المرموقة لم تتمكن من وضع حد لغرابة أطواره وخروجـه على الطقوس الحاخامية، فقد كان الحاخام الصغير يكثـر مـن إنشـاء الأشـعار والتغني بها وسط حشد من معارفه، وهو في نفس الوقت يكثر من العزلة التامـة لا يكلم أحدًا، وما بين عزلته واندماجه الاجتماعي كان يكثر التلميح إلى المسـيح اليهودي الموعود الذي سيقطع دابر الشر والفقر من على وجه البسيطة، فيكثـر الخير وتنبت الأرض حبة القمح بحجم كلية الثور، إلا أن خطـاب شـبتاي الـذي يستهوي اليهود كثيرًا أثار حفيظة الكثيرين من حاخاماتهم بسبب نهجه الجديد في اللغة والممارسة، فكان مثلاً يلفظ اسم "يهوه" بدون تبجيل، ولم يكـن يتقيـد فـي سلوكه بحرفية التعاليم التلمودية، مما أدى إلى تآمر حاخامات اليهود في تركيـا عليه وطرده منها إلى اليونان، استنبط الحاخام الشاب شـبتاي مـن النصـوص الدينية العبرانية حسب منهج القبالا أن ظهور المسيح سـيكون سـنة ١٦٤٨م، أعلن في ظروف بالغة التعقيد أنه المسيح المخلص الـذي ينتظـره اليهـود، أو بالتعبير العبري ماشيّح، وبرزت اضطرابات كثيرة خاصة في بولندا حتـى أنهـا تسمى بفترة الطوفان، وقد آمن به كثير من يهود أزمير رغـم رفـض الحاخـام "جوزيف اسكوبا" دعواه وتكذيبه له، قام شبتاي بخرق الشريعة عامدًا ونطق باسم يهوه إله اليهود، وأعلن بطلان سائر النواميس والشـريعة اليهوديـة المكتوبـة والشفوية، فألغى الوصايا اليهودية العشر وجعل عوضًا عنها ثماني عشرة وصية شبتائية وجعل يوم الصيام الذي يصادف ذكرى هدم المعبد اليهودي فـي القـدس عيدًا لميلاده هو ألغى فيه الصيام ليصبح يوم فرح ونور وموائد فاخرة، وأكثر من ذلك فقد قسَّم الأرض إلى اثنتي عشر منطقة جعل على كل منها ملكًا من أتباعـه، وطلب أن تزف التوراة إليه فهي عروس الإله، ووقع تحت تأثير مفهوم المخلص ونداء من السماء بأنه سوف ينقذ بني إسرائيل، بدأ المسيح المنتظر شبتاي رحلة المغامرات الشاقة، فقد وفد إلى استانبول سنة ١٦٥٠م فنصحه حاخامها "أبراهام

وجيني" بالرحيل إلى سلانيك حيث عدد أتباعه والمؤمنين به في تزايد، ثم عاد إلى أزمير سنة ١٦٥٩م وبعد ثلاث سنين ذهب في زيارة دعوية إلى مصر وفلسطين وعند عودته إلى أزمير صار تتويجه من طرف اليهود حسب معتقدهم، ثم نشر نداء إلى كل يهود العالم، قال فيه:

"أيها الإخوان.. لا يغب عن ذهنكم أن زفراتكم وتنهداتكم صعدت في خلال العصور إلى عنان السماء لشدة ما رزحتم تحت أثقال الجور والاضطهاد، فلا تنوون أن تتخلصوا نهائيًا من الحالة المقرونة بالإذلال والانحطاط التي وضعكم فيها أناس من الهمج، إننا نرى أن الازدراء مرافقًا لنا في كل مكان فالبدار البدار، فقد حان الوقت لتحطيم سلاسل الخسف والإهانة التي طوّق العدو بها أعناقكم، وخلع النير الذي لا يطاق احتماله، نعم قد آن الأوان لنهوضنا واحتلال المركز اللائق بنا بين أمم العالم فهيا بنا أيها الإخوان لتجديد هيكل أورشليم، إن عددنا يبلغ ستة ملايين منتشرين في جميع أقطار العالم، وفي حوزتنا ثروات طائلة واسعة وممتلكات شاسعة فيجب أن نتذرع بكل ما لدينا من الوسائل لاستعادة بلادنا، إن الفرصة سانحة ومن واجبنا أن نغتنمها.

إنه يجب العمل بالوسائل التالية لنحقق هذا المشروع المقدس وهي إقامة مجلس ينتخبه اليهود المقيمون في الخمسة عشر بلدًا التالية وهي: إيطاليا – سويسرا – المجر – بولونيا – روسيا – بلاد الشمال – بريطانيا العظمى – أسبانيا – بلاد ولس – السويد – ألمانيا – تركيا – آسيا – أفريقيا، فاللجنة الممثلة لليهود المقيمين في هذه البلدان كلها يمكنها أن تبحث في مهمتها لتتخذ ما تراه من القرارات في صددها ويكون من الواجب على جميع اليهود أن يقبلوا هذه القرارات ويجعلوها بمثابة قانون لا مندوحة لهم من الخضوع له".

هذا، وقسّم شبتاي العالم من بعده على مريديه الثمانية والثلاثين، ووفد لزيارته يهود من ألمانيا وبولونيا وبقية أنحاء العالم، كان شبتاي من أوائل من دعا إلى تجديد الهيكل في القدس، وإلى تحطيم قيود الذل والانحطاط واحتلال المركز اللائق بين أمم العالم، وتكوين لجنة تمثل اليهود في ١٥ بلدًا، وتتخذ القرارات لتنفيذ هذا

المشروع، بحيث يكون واجبًا على اليهود جميعًا قبولها والخضوع لها، ودعا إلى أن يتم ذلك بالتنسيق مع فرنسا، أما الأرض التي دعا إلى استعادتها فهي فلسطين وإقليم الوجه البحري من مصر.

سنة ١٦٥٤م توجه إلى سلانيك بتركيا حيث أعلن أنه النبي المنتظر، سافر إلى مصر في العام ١٦٦٣ وأقام هناك سنتين، تعرَّف خلالهما على اليهودية "سارة" التي جاءته خصيصًا من إيطاليا لاعتقادها أنها ستُصبح زوجة المسيح الموعود مما يعني أنها آمنت به عن بعد، وقد أقيم لهما حفل زواج مميز في قصر صديقه الثري عام ١٦٦٤م، وعاد إلى فلسطين، زار عدة بلدان خارج تركيا، ثم دخل القدس في مايو عام ١٦٦٥م وأعلن أنه صاحب الأمر الوحيد في مصير العالم، واعتلى ظهر الفرس وطاف القدس سبع مرات ومعه من تبعه، لكن حاخامات القدس عارضوه وأخرجوه من المدينة.

عام ١٦٦٦م أعلن شبتاي بأنه سيذهب إلى القسطنطينية وسيقوم بخلع السلطان العثماني، وعلى إثر هذا تغنَّى اليهود بذلك، وقد زاد هذا من حماسهم في أوروبا ووصلت الأخبار لندن وأمستردام وهامبورج، فراح اليهود في كثير من البلدان يرفعون بيارق الماشيح، وهو ما حدا أهم مؤسسة يهودية في العالم في ذلك الوقت (مجلس البلاد الأربعة) التي اكتسحتها الحمى المشيحانية، فكان أن أرسلت المؤسسة مندوبين عنها للحديث معه والاعتراف به، وذاع صيت شبتاي أكثر، فحدا بعض الأوساط المسيحية أن صارت تؤمن هي أيضًا بأن شبتاي سيتوج ملكًا على فلسطين، ولما حاول حاخامات أمستردام الاعتراض على رسائل شبتاي وما جاء فيها، كادت الجماهير أن تفتك بهم.

بعض أثرياء اليهود باعوا كل ما يملكونه استعدادًا للعودة إلى فلسطين، وراحوا يستأجرون السفن لنفس الغرض، وظن البعض بأنهم سيُحملون إلى فلسطين فوق الغيوم، وسرت هستيريا وهوس بين الجماهير اليهودية، فكان أتباعه يُغشى عليهم وهم في ذهول وغبطة ورضى إيماني، كانوا يؤمنون بشبتاي ويرونه في رؤاهم ملكًا متوجًا.

لكن الحاخامات أطلقوا على أتباع شبتاي بأنهم كفار، ولم يثن هذا من عزيمة شبتاي، وتمادى في دوره، فراح يوزع الممالك على أتباعه كما أشرنا، وأوقف الدعاء للخليفة العثماني في المعبد اليهودي، وأمر بالدعاء لنفسه كملك لليهود ومخلِّص لهم، ومضى يضفي على نفسه ألقابًا كان يُذيِّل بها رسائله، من تلك الألقاب: ابن الإله البكر، وأبوكم يسرائيل، وأنا الرب إلهكم شبتاي زئيفي، فأصر الحاخامات أكثر على رفض الاعتراف به، وطُرد من أزمير، وتنقل في الأعوام العشرة الأخيرة في بلاد اليونان، وانتهى حاخامات القدس إلى إعلان خروج شبتاي عن الدين.

في سبتمبر من نفس العام جاء الحاخام القبالي "تحميا" من بولندا لزيارة شبتاي، وقضى ثلاثة أيام في الحديث معه، رفض الحاخام بعدها دعواه بأنه الماشيح بل أخبر السلطات التركية بأن شبتاي يُحرض على الفتنة، في سنة ١٦٦٦م ذهب شبتاي إلى القسطنطينية ليعزل السلطان، ولكن عندما لاحظت إدارة الدولة العثمانية هذا الوضع اتخذت التدابير الزجرية لمقاومة هذا التكتل اليهودي، وقد وجدت الدولة دعمًا لها من طرف اليهود المحافظين والحاخامات الرسميين فقبضت عليه وسجنته سنة ١٦٦٦م بتهمة بث الفتنة وإفساد الديانة اليهودية وادِّعاء النبوة ثم نُقِل من سجن "زندان قابو" باستانبول إلى جزيرة "آيدوس" للتخلص من الزوار اليهود المتوافدين عليه هناك، فتحولت قبلة زائريه من اسطنبول إلى آيدوس ببحر إيجه.

قُدِّم شبتاي للمحاكمة وحدثت حكاية طريفة، إذ قال له السلطان العثماني آنذاك: سأقتلك، فإن كنت حقًا المسيح المنتظر، فلن أتمكن منك وسأومن بك، وإن كنت كاذبًا فقد نلت جزاءك، فعلم أن مصيره سيكون الموت، ولما خشي من السلطات الدينية ما كان منه إلا أن غيَّر أقواله، وأشهر إسلامه وتعلم العربية والتركية ودرس القرآن، وأسلمت زوجته من بعده، ثم حذا حذوه كثير من أتباعه الذين أصبح يطلق عليهم اسم يهود الدونمة.

أعلن شبتاي إسلامه لكنه ظل يمارس الطقوس الدينية اليهودية في الخفاء، كان إسلام شبتاي ومن أسلم معه حركة ماكرة خبيثة تهدف إلى تحويل الأنظار بعيدًا عنهم، استطاع هؤلاء مع الوقت أن يخترقوا المجتمع العثماني، وأن يتغلغلوا فيه تحت عباءة الإسلام، علل شبتاي تصرفه هذا بالقول، بإنه جاء في سفر الزوهر (تفسير توراتي) أن المسيح سيكون خيِّرًا في الداخل وشريرًا في الخارج، ولم يقطع شبتاي زئيفي الأمل في أن يستمر في قيادة حركته وظل كثير من أتباعه على إيمانهم به.

يقول المؤرخون، بإن محاكمة المسيح الدجال شبتاي زئيفي قد تمت في قصر السلطنة القديم بمدينة "أدرنة" في عهد السلطان "محمد الرابع"، ولم يكن شبتاي يُتقن اللغة التركية فكان يترجم له من الأسبانية رئيس الأطباء "حياتي زاده مصطفى فوزي أفندي" وهو يهودي الأصل كان قد أعلن إسلامه من قبل، وقد حضر المحاكمة علية القوم من رجال السلطنة، مسئولين ورجال دين وقانون، وكان السلطان محمد الرابع يراقب المحاكمة بنفسه من وراء حجاب، وبدأت المداولات ووُجِهَتْ التهم إلى المدَّعى عليه فلم يستطع لها ردًّا ولكن في أخر لحظة بادره مترجمه اليهودي الأصل بفكرة تُنقذه من الإعدام وتكسبه عند السلطان هيبة ومقامًا، اقترح عليه المترجم "رئيس الأطباء" أن يُعلن إسلامه كي ينجو بنفسه وحاول إقناعه باللغة الأسبانية أنه إن أعلن تراجعه عن دعوته فإنه أي المترجم يمكن أن يوصِّل الدعوة سرًا للأتباع، لأن أتباعه يؤمنون به إيمانًا أعمى، فقبل شبتاي الاقتراح وأعلن إسلامه، فعفى عنه السلطان وأطلق سراحه وخصص له مائة وخمسين "آقجة فضية" شهريًا ثم بدَّل الحاخام القديم شبتاي اسمه فصار يدعى "محمد عزيز أفندي" واغتسل ونطق بالشهادتين ولبس الجبة والعمامة ثم استطاع بأسلوبه الخاص أن يُقنع الكثير من أتباعه بإعلان إسلامهم، لكن بعض أتباع شبتاي اعتقدوا أن ما حدث يتجاوز فهمهم وأنه سر إلهي ينبغي التعمّق في تحليله، فأظهروا إسلامهم، فيما رأى البعض أنه لا يجوز تقليد المسيح المخلّص، وكان على رأس هؤلاء يهوديًا يدعي أنه يحمل روح أحد أنبياء

إسرائيل، كان يعيش في فلسطين ويدعى ناثان، حيث أعلن أن مـا جـرى مـن المسيح شبتاي إنما هو سر رباني ليس للعامة من النـاس التعـرّف عليـه، وأن الزمن وحده كفيل بالكشف عن أسراره، كان شبتاي ينكر أمام أتباعه اليهـود أن الخلاص قد سقط بإعلانه للإسلام، بل يبلغهم أن إنقاذهم قد اقترب أكثـر، بينمـا يُعلن أمام المسلمين أنه مسلم بقناعة راسخة وأن قصة المسيح الموعود لا تخرج عن اجتهادات الخرافة، وبقي شبتاي كذلك حتى العام ١٦٧٦م عام وفاته، لكنه لم ينس أنه المسيح المنتظر الذي سيُخلِّص بني إسرائيل من الذل والعبودية.

وقد أطلق الأتراك على هذه الفئة الجديدة من المسلمين عبـارة "دونمـة" وهـو مصدر مشتق من فعل "دونمك" باللغة التركية ويعني رجع وعاد ودار، أما المصدر منه فيعني العائدون إلى دين الحق أو بمعنى آخر المرتدّون عن ديـنهم، وكانـت لهذه الطائفة طقوس وأعياد خاصة وعبادات غريبة، ولكن المؤرخين والبـاحثين يجمعون على أنهم يظهرون الإسلام ويحافظون على يهوديتهم وقلة مـنهم مـن حَسُنَ إسلامه.

نقل العثمانيون شبتاي في نهاية الأمر إلى ألبانيا حيث مات بمدينة "الكون" بوباء الكوليرا عام ١٦٧٦م، بينما ظل أتباعه يواصلون مخططاتهم، حتى نجحـوا فـي اختراق النظام العثماني، وفيما بعد مكّنهم هذا من تحقيق أهـداف كبيـرة، مثـل توطين اليهود في فلسطين، وخلع السلطان عبد الحميد من الخلافة، بل تمكنوا من إسقاط الخلافة بعد ذلك، وساعدوا أتاتورك في علمنة الدولة ومحاربـة الإسـلام، حيث يرجع إلى شبتاي إيجاد مذهب الدونمة في تركيا.

هذا، ولم يمض على وفاة شبتاي عشرين عامًا حتى ظهر أكثر من شخص ادَّعوا أن روحه قد حلَّت بهم، فكان شقيق زوجته أول من ادَّعى ذلك، وادعـى يهوديًـا آخر أن ألوهية شبتاي قد حلت به، وليس روحه، إلى أن أصبحت الفكرة ظـاهرة لقيت حالة قوية من التبني لدى رجال الدين اليهود، حيث اتفقت جماعة منهم عام ١٧٠٠ م على تكوين فرقة دينية تدعو إلى إحياء الأفكار الشبتائية، وسجلت هذه الحركة انتشارًا واسعًا في أوروبا انطلاقًا من تركيا، وتمكن دعاة الشـبتائية مـن

تأليف عدة كتب تحتوي على تعاليم من تراث شبتاي بن زئيفـــي، وتكـــاد أبـــرز الدعوات في الإكثار من اقتراف الذنوب للتعجيل بقدوم المسيح مجسدًا في شخص آخر، وذلك بطبيعة الحال لا ينفي ألوهية شبتاي، حيث يعتقد أتباعــه أنـــه لـــيس المسيح، ولكن الله تجسد في شخصه، مما يعني أن المسيح سوف يأتي لا محالة، وأن أرضية الذنوب التي تستوجب قدومه لم تأت بعد، لا يعتقد اليهود من أتبـــاع "شبتاي" بصحة التوراة الحالية، لأنه ألغاها ووضع عوضًا عنها تعـــاليم ووصـــايا جديدة، ويعتقد الشبتائيون "يهود الدونمة" وذلك تبريرًا لتاريخ شبتاي، أن الإيمان الحقيقي هو الذي لا يظهر في سلوك الفرد، وعلى ذلك فإنه يحـــق للفـــرد اتبـــاع مذهبين.

بقيت ديانة الدونمة تحافظ على سرية بالغة، واستخدم لها لغـــة عبريـــة مُحرفـــة لفترة طويلة من الزمن، وعلى الرغم من أن الدونمة يذهبون إلـــى المســـاجد إلا أنهم لا ينقطعون عن المعابد اليهودية، وقد تبين من خـــلال الكتـــب والنشـــرات الصغيرة الحجم، أن غالبية صلاة الدونمة مأخوذة من اليهودية، مع الأخذ بعـــين الاعتبار التعاليم التي أضافها شبتاي بن زئيفي، من أبرز شعارات الإيمان عندهم "شبتاي جل جلاله سيجمع بني إسرائيل المبعثرين في أطـــراف الأرض الأربعـــة"، "وسأبقى عبد شبتاي المخلص".

ويقول الشيخ أسعد بيوض التميمي أما وجه الخلاف الرئيسي بين يهود الدونمـــة والغالبية العظمى من اليهود فهي شرعية تبادل الزوجات والإباحة الجنسية التـــي يجريها بعض أتباع الشبتائية، يذكر الباحث الشهير "أبراهام جلنت"، أنـــه تعـــرف على بعض طقوس الدونمة الخاصة بتبادل الزوجات وأنهم يمارسونها على الشكل التالي: في ليلة الثاني والعشرين من شهر آذار، وهو يوم عيد الحمـــل، ترتـــدي نساء الدونمة أجمل الحلي والثياب، مع الحرص على الظهور بشكل يـــؤدي إلـــى إثارة أي رجل، ويُحضَّر لهذه الليلة أشهر أنواع الطعام والشراب، وبعـــد تنـــاول الطعام تطفأ الأنوار، ويختلط الجميع في حفلة جنسية إباحية دون تمييز، وينظـــر

إلى المواليد الذين يولدون نتيجة الإخصاب في تلك الليلة بـأنهم مميـزين عـن غيرهم.

ينقسم الشبتائيون إلى ثلاثة أقسام، تفرعت على مر السنين وكثـرة الاجتهـادات ومن ادَّعى أن روح شبتاي قد حلت فيه: ١- اليعقوبيـون، ٢- الكركـاش، ٣- القدماء أو الفرسان، ورغم الاختلاف بين جميع هذه الفرق، وعدم اعتراف الفرقة الثالثة بالفرقتين الأخريين إلا أنهم عند الوفاة يتوحدون في قبر موتاهم في مقبرة واحدة لا تستقبل غير موتاهم.

فلم تنته القصة بموت الحاخام المسلم، محمد عزيز أفندي (شبتاي زئيفي)، ولكنها تواصلت مع أتباعه الذين لعبوا دورًا كبيرًا في إسقاط الدولـة العثمانيـة وقيـام الجمهورية التركية الحديثة على يد جمعية الاتحاد والترقي التركية، فقد تأسسـت الجمعية في مدينة سلانيك على يد أحد اليهود الشبتائيين ويدعى "باروخ" وانعقـد أول اجتماع لها بالمجمع الماسوني بسلانيك، وقد قامت هذه الجمعية بعـد ذلـك بعزل السلطان عبد الحميد الثاني لرفضه بيع فلسطين لليهود، ثم سجن السـلطان المخلوع في بيت لأحد اليهود بسلانيك، وقد لوحظ فساد البلاط العثماني وهيمنـة اليهود عليه وكان الخليفة لعبة بين يدي الشبتائيين لا يعلم مـا يجـري خـارج القصر، بل كان منصبه شرفيًا لكسب ولاء الشعب التركي المسلم كي لا يثور.

يقول الباحث (فتحي بشير البلعاوي – الجامعة الإسلامية، غزة)، "اتُهمت جماعـة يهود الدونمة، أو على الأقل إحدى فرقها، بالاتجاهات الإباحية وبالانحلال الخلقي والانغماس في الجنس، وذلك بسبب تحليل الزيجـات التـي حرمتهـا الشـريعة اليهودية وبسبب الحفلات التي كانوا يقيمونها ويتبادلون خلالها الزوجات (وهـذا أمر شائع في أوساط الجماعات الحلولية التي تُسقط كل الحدود، بمعنـى حـدود الأشياء والعقاب.

وللدونمة صيغة خاصة من الوصايا العشر لا تُحرِّم الزنا، بل إنها تُحوِّل عبارة، لا تزن، إلى ما يشبه التوصية بأن يتحفظ الإنسان فقط في ارتكاب الزنا ولـيس أن

يمتنع عنه تمامًا، والموعظة الطويلة التي تركها أحد زعمائهم تحتوي على دفـــاع قوي عن إسقاط التحريمات الخاصة بالجنس في "توراة الخلق"، وتؤكد الموسوعة اليهودية أنهم يعقدون احتفالات ذات طابع عربيدي داعر في عيد مـــن أعيـــادهم الذي يُسمَّى "عيد الحمل" ٢٢ مارس وهو عيد بداية الربيع، وإن كان يبدو أن مثل هذه الاحتفالات مقصورة أساسًا على فرقة القنهيليه، وهي على كل حال أكبر فرق الدونمة عددًا.

وتنتشر هذه الجمعية ويمتد نفوذها الآن في تركيا ومعظمهم يتمركزون فيها، وما يزالون إلى الآن يملكون في تركيا وسائل السيطرة على الإعلام والاقتصاد، ولهم مناصب حساسة جدًّا في الحكومة.

لقد أسهمت هذه الطائفة في هدم القيم الإسلامية في المجتمع العثمـــاني وعملـــت على نشر الإلحاد والأفكار الغربية وانتشار الماسونية والدعوة لهتك حجاب المرأة المسلمة واختلاطها مع الرجال وخاصة في المدارس وكان الكثيـــر مـــن رجـــال جمعية الاتحاد والترقي يساهم في بعض نشاطاتها وأفراحها.

هذا، وقام يهود الدونمة بدور فعال في نصرة القوى المعادية للسلطان عبد الحميد والتي تحركت لعزله، وهم الذين سمموا أفكار الضباط الشباب ولا يزالـــون حتـــى وقتنا الحاضر يسعون لذلك، ولهم صحف ودور نشر، كما تغلغلوا فـــي الاقتصـــاد العثماني وكل مناحي الحياة في الدولة العثمانية، وقد استطاعوا أن يـــأثروا فـــي جمعية الاتحاد والترقي، وكان السلطان عبد الحميد الثاني عارفًا بحقيقة الدونمـــة ويؤكد هذه الحقيقة الجنرال "جواد رفعت أتلخان"، حيث يقول في هذا الصدد: "إن الشخص الوحيد في تاريخ الترك جميعًا الذي عرف حقيقة الصهيونية والشبتائية وأضرارهما على الترك والإسلام وخطرها تمامًا، وكافح معهما مدة طويلة بصورة جدية لتحديد شرورهم هو السلطان التركي العظيم، كافح هذه المنظمات الخطيـــرة لمدة ثلاث وثلاثين سنة بذكاء وعزم وبإرادة مدهشة جدًا كالأبطال".

وفي حقيقة الأمر، اهتم عبد الحميد بإبقاء الدونمة في ولايـــة ســـلانيك، وعـــدم

وصولهم إلى "الأستانة"، بغية عدم السيطرة عليها والتجنب من تحركاتهم، ونتيجة للموقف الجاد من عبد الحميد إزاء فرقة الدونمة اتبعوا إستراتيجية مضادة لـــه، حيث تحركوا ضده على مستوى الرأي العام العثماني والجيش.

ونتيجة لموقف عبد الحميد من الدونمة، قام يهود الدونمة بالتعاون مع المحافــل الماسونية للإطاحة به، وقد استخدم هؤلاء شعارات معينة كالحرية والديمقراطيـــة وإزاحة المستبد عبد الحميد، وعلى هذا الأساس قاموا بنشر الشقاق والتمرد فـــي الدولة العثمانية بين صفوف الجيش، وكانت الغاية من هذا هي تحقيق المشـــروع الاستيطاني الصهيوني باستيطان فلسطين، وكان يهود الدونمة يشـــكلون اللبنـــة الأولى لتنفيذ المخططات اليهودية العالمية، لقد لعب يهود الدونمة دورًا كبيرًا في تأسيس ونشاط جمعية الاتحاد والترقي، فهذه الجمعية لم تكـــن مقتصـــرة علـــى الإطلاق على العنصر التركي، بقدر ما كانت تضم خليطًا من القوميات والأجنـــاس والمذاهب المختلفة، وإجمالاً فزعماء الاتحاد والترقي كانوا بشكل عام من أصـــول اجتماعية متواضعة، إذ كانوا من أبناء صغار الموظفين، وصغار تجار المدن.

ولقد عمل يهود الدونمة وفق منهجية وإستراتيجية علـــى قـــدر مـــن التخطـــيط والمتابعة، وكان من هؤلاء "جاويد" الذي أصبح فيما بعد وزيرًا للمالية، حيث أثبت جدارة كبيرة في الشؤون المالية والاقتصادية، ولقد اتهمت صحيفة عربية تصدر من باريس باسم (يقظة العرب) جماعة الاتحاد والترقي بأنهم على ارتبـــاط مـــع اليهود ومع الحركة الماسونية، وذهبت الصحيفة إلى أبعد مـــن ذلـــك، فاتهمـــت اليهود بأنهم يسيطرون على جمعية الاتحاد والترقي.

ويقول "سيتون واتسون" في كتابه (نشأة القومية في البلقان) ما يلي: "إن أعضاء تركية الفتاة الذين كان غرب أوروبا على اتصال دائم بهم، كانوا رجالاً منقطعـــين وبعيدين عن الحياة التركية، وطراز تفكيرها، لكونهم قضوا ردحًا طويلاً من الزمن في المنفى، كانوا متأثرين وبشكل سطحي بالحضارة الغربية، وبالنظريـــات غيـــر المتوازنة للروح الوحشية للثورة الفرنسية، وكان كثيرًا منهم أشخاص مشبوهين، إن العقول الحقيقية للحركة كانت عقول يهوديـــة أو يهوديـــة مســـلمة"، ويُكمـــل

(واتسون) قائلاً: "ومواردهم المالية كانت تأتيهم عن طريـــق "الدونمـــة" ويهـــود سلانيك الأثرياء، كما كانت تأتيهم المعونات مـــن بعـــض الجمعيـــات الدوليـــة أو الشبيهة بالدولية من فيينا وبودابست وبرلين، وربما من باريس ولنـــدن أيضًـــا"، وجمعية تركيا الفتاة أو الأتراك الشباب، هو اتحاد لمجموعات عديـــدة ماســـونية تسعى لإثارة القومية التركية الطورانية التي كان شعارها الذئب الأخضر، وكانـــت تسعى لمجموعة أهداف منها الإطاحة وتفكيك السلطنة العثمانية عن طريق إثـــارة القوميات التي كانت تحكمها السلطنة العثمانية كرد فعل على تتريك الأتراك، ومن المعلوم أن كل قادة الجمعية هم ماسونيون ولـــيس فـــيهم مســـلم واحـــد، فـــي عام١٨٨٩م بدأت الحركة في صفوف الطلاب العسكريين وامتدت بعـــدها لتشـــمل قطاعات أخرى، وكانت بدايتها كممانعة للسلطة المطلقة للسلطان عبد الحميد، عند تأسيس جمعية الاتحاد والترقي في ١٩٠٦م، ضمت الجمعية معظم أعضاء تركيـــا الفتاة، فبنت الحركة واقعًا جديدًا للانشـــقاقات التـــي صـــاغت الحيـــاة الثقافيـــة والسياسية والفنية للإمبراطورية العثمانية في الفترة الأخيرة قبل إلغائهـــا، حكـــم الباشوات الثلاثة المنتمين لتركيا الفتاة الإمبراطورية العثمانية منذ التحـــول عـــام ١٩١٣ م وحتى نهاية الحرب العالمية الأولى.

ولقد تلقت جمعية الاتحاد والترقي مساعدات مالية من يهود الدونمة الذين كـــانوا يمتازون بامتلاكهم الكثير من الثروات، خصوصًا امتلاكهم للتجارة، وبهذا أحكـــم يهود الدونمة سيطرتهم على الجمعية، وحتى يحافظوا على هذه السيطرة كان لابد لهم أن يتظاهروا على الأقل، بأنهم يوافقون على تحقيق جمعية الاتحاد والترقـــي لأحلامها القومية، وكانت السرية والطرق الملتوية أمرين رئيسيين لكليهما، وبهذا أوقع اليهود جمعية الاتحاد والترقي في شراكهم.

ولقد كان بعض الأتراك يرون أن الجمعية هي يهودية أكثر منها تركية، في حـــين قال آخرون: "إن جمعية الاتحاد والترقي هي في جوهرها وأساسها يهودية تركية تعارض كل العناصر الأخرى، وهذا لا يمنع من محاولة يهـــود الدونمـــة تنســـيق

المواقف مع الجهات الأخرى، حيث قاموا بالتنسيق مع جماعات الثورة الأرمينية، وجمعية الاتحاد والترقي".

ومن هنا يتضح التداخل في العلاقات التي تربط الماسونية التي هي مؤسسة يهودية وبين يهود الدونمة وجمعية الاتحاد والترقي، ومدى العلاقة التي تربطهم بعضهم البعض، وبنوع من التأمل والتدقيق يتضح أن اليهود المنتسبين لجمعية الاتحاد والترقي أصبحوا هم أصحاب الكلمة العليا والنفوذ فيها، ونبرز أهم دليل يثبت علاقة جمعية الاتحاد والترقي باليهود بشكل عام، وخاصة بيهود الدونمة، وهي وثيقة السفير البريطاني (لاوزر) سنة ١٩١٠م، حول العلاقة بين الاتحاديين واليهود.

هذه الوثيقة السرية هي أصلاً رسالة سرية جدًا أرسلها السفير البريطاني في القسطنطينية (السير جبرار ولاوزر) بتاريخ ١٩١٠/٥/٢٩م إلى وزير خارجية بريطانيا (السير ش.هارونج) وتحوي معلومات دقيقة حول العلاقة بين جمعية الاتحاد والترقي واليهود، وقد كشف عنها النقاب في بريطانيا حديثًا، وقد نشرتها مجلة (المجتمع الكويتية) ابتداء من (١٩٧٨/١٢/٢٥م) في الأعداد (٤٢٩،٤٢٥) نقلاً عن مجلة آفاق العراقية نقتطف منها الأجزاء الأهم:

في المدينة مائة وأربعون ألفًا، منهم ثمانون ألف نسمة يهودي من أصل أسباني أي هربوا من أسبانيا، وعشرون ألف يهودي من سبط (لاوي) أو من يهود المتظاهرين بإسلام دونمة، ومعظم اليهود من أصل أسباني، يتمتعون بالجنسية الإيطالية، وهم ماسونيون ينتمون إلى المحافل الإيطالية، فهم لذلك يتمتعون بالحصانة الممنوحة للأجانب في الدولة العثمانية ضد الملاحقة والتفتيش، أسس اليهودي (قره صو) قبل بضعة أعوام بالتعاون مع الماسونية الإيطالية محفل (ماسيدونيا روزيتا)، وأقنع رجال تركيا الفتاة ضباطًا ومدنيين بالانتماء إلى الماسونية، وهدفه فرض النفوذ اليهودي على الأوضاع الجديدة في تركيا.

كان المخططون لحركة تركيا الفتاة بالدرجة الأولى من اليهود، وجميع اليهود

على الإطلاق كانوا مؤيدين متحمسين للعهد الجديد، وقد أصبح كل يهودي جاسوسًا لجمعية الاتحاد والترقي، وحينها بدأ الناس يقولون: "إن الحركة يهودية أكثر منها تركية"، عينت إيطاليا اليهودي (بريموليفي) قنصلاً عامًا، وعينت الولايات المتحدة (أوسكار شتراوس) سفيرًا لها في قسطنطينية، وكان شتراوس بالتعاون مع (جاكوب شنب) قد أثَّر على يهود الولايات المتحدة ليهاجروا إلى العراق، معنى ذلك أن شتراوس يهودي، العقيد اليهودي الدونمي (رمزي بيك) كان قائد الأفواج الأربعة التي أرسلت خصيصًا إلى القسطنطينية، وقد عينه رئيسًا لأركان حرب السلطان محمد الخامس، وعندما خلع السلطان (عبد الحميد) واعتقل عين أخ لرمزي بيك مشرفًا على السلطان في سجنه.

أعلن المؤتمر الصهيوني التاسع المنعقد في هاسبورج في شهر كانون الأول سنة ١٩٠٩م أن انقسام اليهود إلى صهيونيين ودعاة للهجرة إلى مناطق أخرى غير فلسطين قد انتهى بفضل (معجزة الثورة التركية) بمعنى أن فلسطين أصبحت مضمونة بلا شك، بعد خلع عبد الحميد أعلنت الأحكام العرفية لمدة سنتين، وكان معظم الضباط في المحاكم العرفية ماسونيين، مدير المطبوعات في الدولة يهودي من له سلطة إيقاف أي جريدة، وكالة الأنباء التلغرافية التي تقدم رأي الاتحاديين في الأحداث الداخلية والخارجية، مديرها يهودي من بغداد، اهتم اليهود أعظم الاهتمام بالاحتفاظ بنفوذهم المطلق في مجلس وزراء تركيا الجديدة، الممولون اليهود راحوا يرحبون بتقديم القروض للعهد الجديد في تركيا مقابل مكاسب اقتصادية، أصبح لليهود نفوذ هائل في الصحافة الأوروبية، وصار اليهود يسعون إلى تحقيق أهداف إسرائيل العليا في المستقبل بعد أن احكموا سيطرتهم على هؤلاء الأتراك الشبان، اليهود يمولون جريدة (تركيا الفتاة) وعددًا آخر من الجرائد في القسطنطينية، والممولون الأوروبيون - ومعظمهم من اليهود - أصبحوا يزودون تركيا الآن بالمبالغ المطلوبة، جمعية الاتحاد والترقي الماسونية تشجع الثوريين اليهود والأرمن على تفجير القلاقل والاضطرابات والتوازن في روسيا القيصرية، أعضاء جمعية الاتحاد والترقي يقلدون الثورة الفرنسية في

أساليبها بتوجيه من اليهود، اليهود يزيِّنون للأتراك الالتقاء مع الهنغاريين المجر بدافع القومية الطورانية، لأن المجريين من أصل طوراني، وجميع هذه المعلومات حصلنا عليها من ماسونيين محليين في سرية تامة".

ـ انتهت وثيقة السفير البريطاني (لاوزر) التي كتبها سنة ١٩١٠م ـ

في سنة ١٩٢٣م أعلن نواب مجلس الشعب في تركيا، وكان أغلبهم من الشبتائيين أو أبناء المسلمين الذين باعوا ضمائرهم، عن سقوط السلطنة العثمانية وقيام الجمهورية العلمانية وحلول روح الخلافة في مجلس الشعب كي يوهموا الشعب أن الخلافة لم تسقط وحتى يُكسِبوا النظام الجمهوري قدسية وشرعية، وكان أول رئيس للجمهورية "مصطفى كمال أتاتورك"، الذي كان قد ولد في قصر أحد الأغنياء اليهود الشبتائيين، وكان خليفته من بعده "عصمت إينونو" شبتائيًا معروفًا.. فمن هو مصطفى كمال أتاتورك؟

ولد مصطفى كمال أتاتورك سنة ١٨٨٠م في مدينة "سلانيك"، وهي مدينة يهودية كان يقطنها ١٤٠ ألف نسمة, منهم ٨٠ ألفًا من اليهود الأسبان، و٢٠ ألفا من يهود الدونمة أي (المتظاهرين بالإسلام)، وينسب مصطفى كمال إلى "علي رضا" وأمه اسمها "زبيدة"، لكن الشكوك تحيط بنسبه ويقال إن أبويه من ألبانيا أصلاً، تقول الروايات بإن زبيدة حملت في لانكايا (في أطراف سلانيك) من أحد العاملين في مزرعة قريبها "حسين آغا أفندي".

ألحق الطفل مصطفى بمدرسة دينية تابعة لأحد الجوامع القريبة، وما كاد أن ينهي العام الأول إلا وتبين أنه لا يحب تلك المدرسة، فتم نقله إلى مدرسة أخرى كانت تقوم بتدريس العلوم الزمنية، أبدى اهتمامًا في دراسته وتفوق، إلا أن والده توفى فجأة، فتركت أمه بيت الزوجية في سلانيك وانتقلت به وبأخته "مقبولة" إلى بيت خاله الفلاح في قرية صغيرة، عاش حياة الفلاحين وكان يذهب بماشية خاله إلى المراعي في الصباح وكان يعمل على تنظيف مراقدها في المساء.

ملَّ هذه الحياة وكثرت مشاكساته مع والدته وشقيقها فكان يثور بوجهيهما لأتفه الأسباب، وصار يُهدد بمغادرة المنزل إلى غير رجعة إذا لم يعيداه إلى مدرسة محترمة في سلانيك، استدانت أمه من أختها مبلغًا من المال للعودة به إلى مدينة سلانيك، والتحق الصبي مصطفى بإحدى مدارس المدينة، لكن الأمور لم تسر على ما يرام.

في أحد الأيام فوجئت أمه بعودته إلى منزل شقيقها، حاملاً كتبه ودفاتره وأقلامه في حقيبة من القماش مدلاة من فوق عنقه إلى ما تحت إبطه، وهو مدمي الوجه مشعث الشعر ممزق الثياب بسبب شجاره مع أحد الفتيان كما كان يفعل قبل أن يعيش في بيت خاله، ويبدو أن شجاره هذه المرة كان أكثر عنفًا وأبعد خطرًا على مستقبله، فقد تعارك في المدرسة مع بعض الصبية ونالهم منه من الأذى مما ناله منهم، عندها تدخَّل الناظر وانتزعه من وسطهم بعد أن صفعه لرفضه ترك شعر أحدهم وكان قد تشبث به محاولاً طرحه أرضا، فما كان من مصطفى إلا أن رفس الناظر أيضًا وشتمه، فانهال هذا عليه ضربًا ولكمًا وطرده من المدرسة.

بناء على نصيحة خاله لوالدته الذي اقترح عليها بأن تدخل ابنها لو أمكن في المدرسة العسكرية الإعدادية فربما هناك سيتعلم الأصول والانضباط ويتعلم ألا يتشاجر ويعتدي على الآخرين، لم تجد والدته إلا أن تفاتحه بما نصحها خاله به، فلمعت عينا مصطفى ولم ينم تلك الليلة، في الصباح ذهب إلى أحد ضباط المدرسة في سلانيك وكان صديقًا لوالده وطلب المساعدة وفعلاً اجتاز امتحان القبول بنجاح وتم قبوله بالمدرسة العسكرية عام ١٨٩٣م، فأبلا بلاء حسنًا وكان متفوقًا، وكأنه خلق لكي يكون جنديًا، وكان يطلق عليه اسم مصطفى إلا أن مدرس مادة الرياضيات كان اسمه أيضًا "مصطفى أفندي" فاقترح على الطالب المتفوق الذي له نفس الاسم بأن يضيف تميزًا على اسمه ليصبح "مصطفى كمال".

وهكذا كان مصطفى كمال في المدرسة الحربية في سلانيك، وكان اسمها مدرسة الرشدية العسكرية، أقبل على الدراسة العسكرية برغبة شديدة فتفوق فيها، وظهرت مواهبه أكثر ما ظهرت في الرياضيات واللغات الأجنبية، لا سيما

الفرنسية، كما أظهر براعة فائقة في تنظيم الطوابير والاستعراضات العسكرية، مما أثار إعجاب أحد أساتذته فرقّاه إلى رتبة (تلميذ مدرس)، تفوق في المدرسة العسكرية الإعدادية وبعد سنتين تم إرساله إلى المدرسة العسكرية العليا في مقدونيا.

في المدرسة العليا أبدى اجتهادًا واتضحت شخصيته فكان يحب السياسة والقيادة، وصار يسمع عن الظروف السيئة التي تمر بها الدولة العثمانية وتخرج عام ١٨٩٩م في سن ١٩ والتحق بالكلية الحربية باسطنبول وكان يحب الخطابة، في تلك الأيام كان قد ترسخ في عقول قادة الأحزاب والثوريين بأن تغيير الحال يلزمه مجموعة من العسكريين لكي يقوموا بانقلاب على النظام لاستحالة نجاح ثورة شعبية بسبب المكانة الدينية التي يتمتع بها السلطان العثماني عند العامة بوصفه خليفة للمسلمين، أصبح "مصطفى كمال" يشترك في الاجتماعات السرية وكان يطبع المنشورات التي تطالب بقلب نظام الحكم، يُذكر عن مصطفى كمال بأنه كان يأخذ دروس خصوصية في اللغة الفرنسية عند امرأة أجنبية، وأنه كان يجلب معه سرًا بعض مقالات أنصار الحرية - وهم من الأتراك الموجودين في باريس، وكان مفتونًا بكتب فولتير، روسو، مونتيسيكو وغيرهم من رواد الثورة الفرنسية.

تخرج مصطفى كمال من الكلية الحربية سنة ١٩٠٢م، ثم التحق بكلية أركان الحرب وتخرج منها عام١٩٠٥م، والتحق بالجيش برتبة رائد، عمل بدمشق لمدة سنتين ثم نقل إلى سلانيك وعرف عنه بعدم حبه للإسلام. فيتعرف صدفة على رجل في السوق اسمه "دكتور مصطفى جانتثكين" كان له دكان صغير فاكتشف أن الرجل كان طالبًا في كلية الطب وفُصل منها لأفكاره التقدمية حيث وجد عنده كتبًا فرنسية حول الفلسفة وعلم الاجتماع والتاريخ والتوراة وغيرها، تكرر لقاؤهما وتوطدت علاقتهما وألّفا جمعية سرية "الوطن والحرية"، وبدأت الجمعية بالعمل ضد الدولة العثمانية، وأصبحت تهاجم السلطان عبد الحميد ونظامه لخنقه الحريات وقمعه للأفكار والآراء الحديثة! وكانت تهاجم الوعاظ ورجال الدين الذين يعوقون كل تقدم وإصلاح، وبعد ذلك أصبح مصطفى كمال رئيسًا لتلك الجمعية

وعمل بالسر مع رفاقه فطارده البوليس واعتقل وسجن أكثر من مرة، ولم تستمر جمعية الوطن والحرية طويلاً بل التحقت بجمعية "الاتحاد والترقي".

هذا، وقد تم تأسيس جمعية الاتحاد والترقي على يـــد "إبـــراهيم تيمـــو" الألبـــاني الأصل، الذي كان قد تخرج من المدرسة الإعدادية الطبية، فالتحق بالكلية الطبيـــة العسكرية، التي كانت نموذجًا للكليات الأوروبية، وهناك قضى إبراهيم سنوات في هذه الكلية مما مكَّنه من إيجاد الفرصة المناسبة للتعرف على أنصـــاره الجـــدد، وفيما بعد بادر في آيار ١٨٨٩م مع أربعة من طلاب هذه الكليـــة إلـــى تأســـيس جمعية سرية، وهؤلاء هم، اسحق ســـكوتي، عبـــد الله جـــودت، محمـــد رشـــيد الجركسي، وحسين زادة علي، ولقد سميت جمعيتهم باسم "الاتحاد والترقي".

كان تأثير اليهود الأوروبيين واضح في الحركة القومية التركية من خلال كتاباتهم ونشراتهم السرية التي كانت تصل داخل تركيا عبر البريد الأجنبـــي، لقـــد قامـــت جمعية الاتحاد والترقي على إثارة المشاعر القومية عند الأتراك، ونادت بمفـــاهيم جديدة مثل الوطن والدستور والحريـــة، وكانـــت هـــذه المفـــاهيم غريبـــة علـــى العثمانيين، وقد ضمت في صفوفها مجموعة مـــن الشـــباب المثقفـــين الأتـــراك، بالإضافة إلى يهود الدونمة وكانت الغاية منها الإطاحة بحكم عبد الحميد الثاني.

أسهمت طائفة يهود الدونمة في هدم القيم الإســـلامية فـــي المجتمـــع العثمـــاني وعملت على نشر الإلحاد والأفكار الغربية وانتشار الماســـونية والـــدعوة لهتـــك حجاب المرأة المسلمة واختلاطها مع الرجال وخاصة في المدارس وكـــان الكثيـــر من رجال الاتحاد والترقي يساهم في بعض نشاطاتها وأفراحها، قام يهود الدونمة بدور فعال في نصرة القوى المعادية للسلطان عبد الحميد الذي أبقى الدونمة فـــي سلانيك وكان دائمًا يرتاب منهم، ونتيجة لموقف عبد الحميد من الدونمـــة، قـــام يهود الدونمة بالتعاون مع المحافل الماسونية للإطاحة به، ولقـــد تلقـــت جمعيـــة الاتحاد والترقي مساعدات مالية من يهود الدونمة الذين كانوا يمتازون بامتلاكهم الكثير من الثروات، وكان بعض الأتراك يرون "إن جمعية الاتحاد والترقي هي في جوهرها وأساسها يهودية تركية تعارض كل العناصر الأخرى".

بعد أن تم خلع السلطان عبد الحميد عام ١٩٢٢م، أحكم اليهود سيطرتهم على الشبان الثوريين الأتراك، وعندما ابتلعت جمعية الاتحاد والترقي، الجمعية التي أسسها مصطفى كمال وهي (الوطن والحرية)، وانضمام أصدقاء وأعضاء جمعية مصطفى كمال إليها، اضطر هو أيضًا إلى الانضمام إليها، لكن الاتحاديون لم يعيروه اهتمامًا ولم تعجبهم تصرفاته، لذلك فإن مصطفى كمال حمل حتى النهاية في نفسه حقدًا لا يهدأ نحو الاتحاديين.

وعندما تحرك (جيش الحركة) من سلانيك إلى اسطنبول، كان مصطفى كمال أحد الأركان، فالصهيونية العالمية لم تقتصر على الانقلاب الدستوري لعام 1908 م بل تعاونت مع جمعية الاتحاد والترقي لتحقيق مكاسب أخرى في فلسطين، وعليه كان لابد من التخلص من السلطان عبد الحميد الثاني نهائيًا ولذلك دُبرت أحداث أبريل ١٩٠٩م، ومع أن جمعية الاتحاد والترقي العثمانية تبنَّت الأفكار الغربية المضادة للإسلام وللفكر الإسلامي؛ لكنها استغلت الدين عند مخاطبتها للناس للتأثير فيهم، وكسب أنصار لهم في معركتهم ضد السلطان عبد الحميد الثاني، وقد نجحوا في ذلك بعد توجيه تُهم باطلة للسلطان، فضغطوا على مفتي الإسلام فأصدر فتوى بخلع السلطان في نيسان عام ١٩٠٩م، تنازل السلطان عبد الحميد الثاني عن العرش لأخيه "محمد رشاد" في ٢٧ إبريل ١٩٠٩م، وانتقل مع ٣٨ شخصًا من حاشيته إلى سلانيك بطريقة مهينة ليقيم في المدينة ذات الطابع اليهودي في قصر يمتلكه يهودي بعدما صودرت كل أملاكه وأمواله، وقد تُوفِّي السلطان عبد الحميد الثاني في ١٠ فبراير ١٩١٨م عن ستة وسبعين عامًا.

بعد السلطان عبد الحميد تولى الحكم عام ١٩١٠م أخوه "محمد رشاد" (محمد الخامس)، وكان عمره ثماني وستين سنة حين تولى الحكم، وبعد وفاته تولى الحكم "محمد وحيد الدين"، وهو أخو رشاد الذي استسلمت الدولة في عهده وقتذاك، وقد حاول السلطان وحيد الدين أن يُنقذ الدولة بعد هزيمتها وسيطرة الحلفاء على اسطنبول واحتلال اليونان للأقسام الغربية ووقوع البلاد العربية تحت الاحتلال، فوضع ثقته في مصطفى كمال الذي كان يتولى قيادة القوات التركية

التي تحمي الدردنيل، فهو الذي أنقذ البلاد من وقوعها تحت الاحتلال البريطاني؟!، وما لبث أن تم إجبار "وحيد الدين" على التنازل عن السلطنة والخلافة عام ١٩٢٢م، وقد كان خليفة فقط بعد إلغاء السلطنة.

أثناء الحرب العالمية الأولى عُيِّن في ١٩١٧م مصطفى كمال قائدًا لجبهة فلسطين وكان قد وصل إلى رتبة لواء أي باشا وصار مساعدًا لقائد الجيش الثاني، فعمل في السر صفقة مع الجنرال البريطاني "اللنبي" وتم الاتفاق بأن ينسحب الجيش التركي وهكذا دخل الجيش البريطاني فلسطين، كان مصطفى كمال على صلة وثيقة بالسلطان وحيد الدين (محمد السادس)، الذي كان قد عيَّنه في ربيع سنة ١٩١٨م مرافقًا عسكريًا له، وكان آنذاك وليًا للعهد، وأظهر مصطفى كمال آنذاك لوحيد الدين كراهيته لجمعية الإتحاد والترقي، وأبدى صلاحًا وحرصًا على مصلحة تركيا، وسرعان ما أصبح الاثنان صديقين حميمين، وغدا مصطفى جنديًا للأمير وأمينًا لسره، وفي أثناء الحرب مات السلطان محمد رشاد (الخامس) وتولى وحيد الدين الخلافة، فقرَّب مصطفى كمال أكثر ورفع من مكانته.

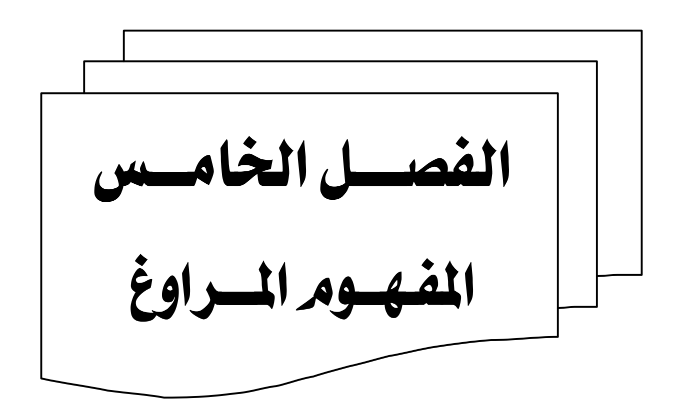
كان مصطفى كمال في الحقيقة ينفذ مخططًا مرسومًا له في المعاهدات التي عُقدت مع الدول الغربية، فقد فرضت معاهدة لوزان سنة ١٩٢٣م على تركيا فقبلت شروط الصلح التي تمثلت في قطع كل صلة لتركيا بالإسلام، وإلغاء الخلافة الإسلامية إلغاءً تامًا، وإخراج الخليفة وأنصار الخلافة والإسلام من البلاد ومصادرة أموال الخليفة، واتخاذ دستور مدني بدلاً من دستور تركيا القديم.

منذ لحظة إعلان الجمهورية التركية عام ١٩٢٣م برئاسة مصطفى كمال، بدأ اتخاذ الترتيبات نحو الاتجاه للغرب، وقال: "إن الدولة التركية دولة علمانية، وكل راشد حر في اختيار دينه، إن الأمة التركية دولة تُدار بالنظام الجمهوري الذي هو إرادة الشعب"، فألغيت وزارة الأوقاف وعُهد بشؤونها إلى وزارة المعارف عام ١٩٢٤م، وحدد عدد المساجد، وقلل عدد الواعظين ولم يسمح بغير مسجد واحد في كل دائرة من الأرض يبلغ محيطها ٥٠٠ متر، وأعلن أن الروح الإسلامية تُعيق التقدم فحُوِّلت بعض المساجد إلى متاحف، وحل القانون مكان الشريعة

الإسلامية وتم اقتباس القانون المدني من القانون السويسري عام ١٩٢٦م، وتم تغيير التقويم الغربي بدل الإسلامي في عام ١٩٢٦م، وفي دستور ١٩٢٨ اغفل النص الذي يقول إن تركيا دولة إسلامية، وأهمل التعليم الديني ثم تم إلغاؤه، وتم حظر كل شيء له علاقة بالدين، وراح مصطفى كمال أتاتورك ينفخ في الشعب التركي روح القومية، استغل ما نادى به بعض المؤرخين من أن لغة السومريين أصحاب الحضارة القديمة في بلاد ما بين النهرين كانت ذات صلة باللغة التركية فقال: "بإن الأتراك هم أصحاب أقدم حضارة في العالم ليعوضهم عما أفقدهم إياه من قيم بعد أن حارب كل نشاط إسلامي"، عملت حكومته على الاهتمام بكل ما هو أوروبي، وألغت حجاب المرأة وأمرت بالسفور، وتم إلغاء قوامة الرجل على المرأة.

مع ظهور تيار العلمانية بدأت محاولات التخلص من تأثير الثقافة العربية، وتطبيقًا لهذا أقام مصطفى كمال عام ١٩٢٣م قانونًا بإلغاء الحروف العربية واستبدالها بالحروف اللاتينية، فكلف مصطفى كمال لجنة من الأساتذة بكتابة الألفاظ التركية بحروف لاتينية، وطبق الانقلاب الحديدي على نفسه أولاً، ثم أمر المجلس الوطني في يوليو عام ١٩٢٨م بالانتقال معه إلى اسطنبول، ودعا إلى قصر (الدونم ابهاتشي) الشخصيات المرموقة، وأخذ يشرح لهم بالطباشير على لوح خشبي أسود كبير الحروف المستحدثة الجديدة وطريقة كتابتها، انتقل إلى المدن والقرى ومعه لوحه الأسود والطباشير شارحًا للناس طريقة الكتابة الجديدة، وقام باستصدار قرارًا من المجلس الوطني الكبير بجعل كتابة اللغة التركية بالحرف اللاتيني إلزامية في أنحاء البلاد كلها اعتبارًا من الثالث من نوفمبر عام ١٩٢٨م، ثم أمر بترجمة القرآن الكريم إلى اللغة التركية وتلاوة الصلاة باللغة التركية، ولما ثارت ثائرة رجال الدين والعلماء كان الرد عليهم: "ألا يفهم الله اللغة التركية؟" وسمى مصطفى كمال نفسه أتاتورك أي أبو الأتراك فصار يُعرف مصطفى كمال أتاتورك، في عام ١٩٣٥م، جرى تبديل يوم العطلة الأسبوعية من يوم الجمعة إلى العمل بنظام عطلة نهاية الأسبوع الغربية.

يمكن تلخيص حياة مصطفى كمال أتاتورك في أنه كـــان مغرقًـــا فـــي شـــهواته، النساء، الخمر، جنون العظمة، زنا وهو في سن الرابعة عشر في بنت الجيـــران، وتعددت علاقاته الغرامية مع زوجات المسئولين في الدولة ولا داعي لذكرها هنـــا والوقوف على تفاصيلها، فقد كانت فلسفته في الحياة، "على الفرد والأمـــة أن لا تدع النشوة والفرح أن تفلت من يديها"، في أواخر أيامه أصيب بمـــرض الكبـــد وبعدة أمراض أخرى ومات عام ١٩٣٨م.


الفصـــل الخامــس
المفهــوم المــراوغ

لا يملك المرء إلا أن يُقر بقلة المفاهيم التي تعطي المعنى الصـــائب للصـــهيونية، ووعيًا بنقائص الدلالات المتداولة لمفهوم الصهيونية ثمة مساهمات فكرية عربية استهدفت تصحيح دلالة هذا المفهوم المراوغ، من أشهرها محاولة المفكر الدكتور عبد الوهاب المسيري في موسوعته الشهيرة، حيث قدم - رحمه الله - تحديـــدًا سماه "الصيغة الصهيونية الأساسية الشاملة" التي خلاصتها أن:

أ- اليهود شعب عضوي منبوذ غير نافع يجب نقله خارج أوروبا ليتحـــول إلـــى شعب عضوي نافع.

ب- ينقل هذا الشعب إلى أي بقعة خارج أوروبا (استقر الرأي، في نهاية الأمـــر على فلسطين بسبب أهميتها الإستراتيجية للحضارة الغربية، وبســـبب مقـــدرتها التعبوية بالنسبة للمادة البشرية المستهدفة) ليوطن فيها وليحـــل محـــل ســـكانها الأصليين، الذين لابد أن تتم إبادتهم أو طَرْدهم على الأقل.

ج- يتم توظيف هذا الشعب لصالح العالم الغربي الذي سيقوم بدعمـــه وضـــمان بقائه واستمراره.

لكن هذه الصيغة لم تكن الحركة الصهيونية اليهودية قادرة على أن تفصح عنها، لأنها بذلك لم تكن لتنجح في استجاشة الشعور اليهودي وتحريكه، لذا كان لابـــد للقادة الصهاينة اليهود من إعادة صبغ هذه الصيغة، وتحويلها إلى خطاب قـــادر على خداع الفئات اليهودية المستهدفة.

وهكذا أصبحت الصيغة مهوَّدة ومغلفة "بديباجات ومسوغات يهودية جعلت بإمكان المادة البشرية المستهدفة استيطانها أو توطينها، وقد طـــور هرتـــزل الخطـــاب الصهيوني المراوغ الذي فتح الأبواب المغلقة أمـــام كـــل الـــديباجات اليهوديـــة المتناقضة التي غطت، بسبب كثافتها، على الصيغة الأساسية الشـــاملة وأخفـــت إطارها المادي النفعي حتى حلت، بالنسبة لأعضاء الجماعات اليهودية في الغرب، بل بالنسبة لمعظم قطاعات العالم الغربي، محل الصيغة الأساسية الشاملة، فتحول اليهود إلى كيان مقدس له هدف وغاية ووسيلة ورسالة، وتذهب الصيغة المُهودة

إلى أن العالم هو "المنفى" وأن اليهود يشكلون "شعبًا عضويًا واحدًا" لابد أن يُنقل من المنفى (فهو شعب عضوي منبوذ) إلى فلسطين "أرض الميعاد".

وبمراجعة الخطاب الفكري الصهيوني نلاحظ أن كل اتجاه صهيوني يتبنى أسلوبًا معينًا ليصل إلى الهدف ذاته، وهو أن الشعب اليهودي "شعب عضوي موحد" يعيش في شتات المنفى، وينبغي تجميعه في أرض يؤسس عليها وطنه القومي، وهذا الهدف كان مقصدًا استراتيجيًا في السياسة الأوروبية، وإن تعددت الدوافع إليه، لكن هذا التهجير لليهود من داخل أوروبا إلى خارجها احتاج إلى آليات وديباجات ليتم بنجاح، وقد كانت آليات الانتقال والتهجير هي: "القانون الدولي العام" متمثلاً في وعد بلفور (في الصياغة الصهيونية السياسية) أو "تنفيذًا للوعد الإلهي والميثاق مع الإله" (في الصياغة الدينية) أو بسبب قوة اليهود الذاتية (في الصياغة الصهيونية التصحيحية)، كما أن النتيجة النهائية واحدة وهي تحويل اليهود إلى مستوطنين صهاينة وطرد الفلسطينيين من وطنهم وتحويلهم إلى مهاجرين".

وهكذا نلاحظ أن عملية نقل اليهود إلى خارج أوروبا تمت بتوظيف مختلف الوسائل، بل أدركت الحركة الصهيونية ضرورة الاستفادة حتى من الذين لا تمكنهم الهجرة إلى فلسطين.. وفي هذا السياق كان لابد من أجل فهم الحركة الصهيونية من التمييز - مع الدكتور المسيري وغيره من الباحثين- بين "صهيونية استيطانية" انتقلت إلى الاستيطان في فلسطين، و"صهيونية توطينية" وتتجسد في صهاينة اختاروا البقاء في بلدانهم الأصلية، ولكنهم يدَّعمون عملية الاستيطان، أي يوطنون غيرهم، وهذه سمة أخرى من سمات العقلية الصهيونية الميكيافيلية التي تحرص على ألا تترك أي إمكانية دون توظيف واختلاق صيغ لاستيعابها.

لكنني أرى أن "الصيغة الشاملة" التي قدمها الدكتور المسيري في موسوعته، هي على أهميتها وقيمتها لا تصلح للاستعمال بوصفها تحديدًا مفهوميًا، وذلك لافتقارها إلى وجاهة التعبير التي تشترط في التعريف المفهومي، فهي كنظرية

نراها صيغة جيدة استطاعت أن تستجمع مختلف أبعاد الظاهرة الصهيونية، ولكنها بسبب من الصيغة المنهجية التي قدمت بها تخرج من سياق التحديد المفاهيمي القابل للاستحضار والتداول إلى صيغة تصور أو مقالة موسعة، لذا لابد من تقديم مفهوم بديل للصهيونية تتوفر فيه الدقة والإيجاز، مع الاقتدار على استحضار حقيقة الصهيونية كحركة استعمارية استيطانية، تلك الحقيقة التي تحاول الصيغة التعريفية الصهيونية أن تخفيها.

وفي هذا السياق واستثمارًا للعديد من الأبحاث نقترح أو نضم صوتنا مع التعريف التالي: "الصهيونية حركة ظهرت في القرن التاسع عشر استجابة لمشكلات أوروبية، وقد استثمرت التراث الثقافي اليهودي والدعم الأوروبي فانتهت إلى إقامة دولة عنصرية في فلسطين، مرتكزة في إقامتها لدولتها هذه على جدلية الإجلاء والتوطين، إجلاء للفلسطينيين أصحاب الأرض وتوطين اليهود بدلاً عنهم".

بماذا يمتاز تعريفنا هذا عن غيره من التعاريف المتداولة؟.. لنحلل مقاطِعهُ: عندما نقول إن "الصهيونية حركة ظهرت في القرن التاسع عشر استجابة لمشكلات أوروبية"، فتلك إشارة إلى الواقع التاريخي الذي شهدته أوروبا، حيث كان الحافز الأول عند الدول الغربية لنشر ودعم فكرة دعم وطن قومي لليهود خارج أوروبا هو "التخلص من اليهود" أولاً وتوظيفهم لخدمة المصالح الاستعمارية الغربية ثانيًا، كل المجتمعات الغربية كانت تتوق للتخلص من اليهود، فنجد مثلاً أن نابليون لم يكن نداءه الشهير لليهود، ودعوته لهم للقدوم إلى فلسطين حبًا باليهود، كان نابليون قد سَنَّ القوانين التي تحد من تحرك اليهود والتضييق عليهم حتى لا يستسيغوا العيش في فرنسا، ولم تنتهي وتلغى تلك القوانين إلا بعد أن فشل نابليون في حملته على مصر والمشرق وعودته إلى فرنسا، واستيلائه على السلطة بانقلاب، ثم تنصيبه إمبراطورًا عليها في مايو ١٨٠٤م، وبالحرب كوَّن نابليون إمبراطورية أوربية عظيمة، ففي عام ١٨٠٥م دخل الحرب ضد بريطانيا والنمسا وروسيا ونجح في التغلب عليهم جميعًا، لكن حملته على روسيا

لم يكتمل نجاحها، فبعد أن دخل الجيش الفرنسي موسكو لم يستطع المقاومة، ولم يتمكن نابليون من تزويد جيشه بالإمدادات اللازمة بسبب البرد الشديد والثلوج فأصاب جيشه الإنهاك وانتشار الأمراض فهلك من هلك من جيشه، حيث قُدِّر من هلكوا حينها بنصف مليون عنصر، وبعد أن عاد إلى فرنسا لم يُمهله الأوروبيون الآخرون، فتحالفت ضده النمسا وانجلترا، وبروسيا وروسيا في معركة سُميَّت "معركة الأمم"، وواجهوا جيشه، وسقطت باريس في أيديهم في ١١ إبريل ١٨١٤م، وتنازل نابليون عن العرش ونُفي في جزيرة "ألبا" في الساحل الشمالي الغربي لإيطاليا، لكنه سرعان ما عاد من جديد وكوَّن جيشًا مرة أخرى، وذهب ليواجه الحلفاء، فهُزِم مرة أخرى عام ١٨١٥م بموقعة "وترلو" الشهيرة أمام القائد البريطاني "كرنجتون" وذلك بالقرب من بروكسيل، تنازل نابليون حينها عن الحكم وتم نفيه إلى جزيرة "سانت هيلانة" بجنوب المحيط الأطلنطي.

وفي هذا السياق نفهم لماذا دعى نابليون الذي كان معاديًا لليهود إلى تشكيل وطن خاص بهم في فلسطين، ونفهم كذلك الدافع إلى صياغة وعد بلفور، مع أن بلفور نفسه كان له موقف معاد لليهود! ولفهم هذه الازدواجية، أي معاداة اليهود مع العمل على تمكينهم من وطن خاص بهم، نحتاج إلى استحضار الإطار الاجتماعي والتاريخي الأوروبي.

فالغرب عاش خلال عصر الأنوار فترة صعود البرجوازية التي ستنجز تحولاً مجتمعيًا هائلاً نتج عنه شرخ كبير في الإطار الاجتماعي والاقتصادي الأوروبي، حيث نجح التحول الاقتصادي والثقافي في أوروبا الغربية وفشل في أوروبا الشرقية، الأمر الذي دفع بجماعات يهودية كبيرة إلى الهجرة من شرق أوروبا إلى غربها، ولم تتحمل أوروبا الغربية هذا الكم الديموغرافي اليهودي الوافد فكان لابد من العمل على تهجيره إلى الخارج وتوظيفه، انسجامًا مع التقليد الاستعماري الذي اشتغلت به أوروبا في استيطان أميركا وغيرها من المستعمرات، وهو تصدير الجماعات والفئات غير المرغوب فيها، ولم تكن فلسطين هي المطلب الأول بل أي بقعة من الأرض، لكن مع ضعف العالم الإسلامي، ومع التخطيط

لتجزئته واستعماره، ولمنع صعود قوة عربية أو إسلامية موحدة، ونظرًا لقيمة فلسطين الاستراتيجية وقيمتها الرمزية للفكر الديني اليهودي، ظهرت داخل الفكر الاستعماري الانجليزي فكرة توطين اليهود في فلسطين تحديدًا لإنشاء دولة تكون عبارة عن حاجز بشري ومادي يقطع جسد العالمين العربي والإسلامي في موقع مفصلي استراتيجي يمنع توحده وتضامَّ أجزائه.

أما قولنا "إنها حركة استثمرت التراث الثقافي اليهودي والدعم الأوروبي" فتلك إشارة إلى أمرين غفل عنهما كثير من التعاريف المتداولة، حيث تذهب هذه التعاريف إلى أن الصهيونية أنشأها الغرب في القرن التاسع عشر، وهو مذهب خاطئ في تفسير نشأة الصهيونية، لأننا نعتقد أنه لابد من التمييز في نشأتها بين ثلاثة مستويات: الصهيونية كفكرة، والصهيونية كحركة، والصهيونية كدولة.

إن الصهيونية كحركة هي بالفعل نتاج سياسي حدث في القرن ١٩، بيد أن الصهيونية كفكرة موجودة في التراث الثقافي اليهودي، كحنين إلى العودة إلى فلسطين ظهر منذ السبي البابلي، وهو ما تعكسه علامات ورموز ومحددات ثقافية كثيرة داخل التراث الديني اليهودي، ومن بينها المزمور ١٣٧، غير أن هذا الحنين كان مجرد فكرة انتظارية مشروطة بنزول "المسيا" (مسيح اليهود)، حيث نجد في الفكر الديني اليهودي تحريمًا شديدًا لهذه العودة، بل تُعتبر عودة اليهود هرطقة وتعجيلاً بالنهاية.

لذا لم يكن ممكنًا للفكرة أن تتحول إلى "حركة" واستراتيجية عملية إلا بعد حدوث تحولات فكرية داخل هذا التراث الثقافي الديني اليهودي، وهي التحولات التي تمثلها إسهامات مفكرين وحاخامات الصهيونية أمثال القلعي وكاليشر.. الذين قاموا بتحريف فكري تجاوزوا به التحريم الديني الذي كان يُحرِّم العودة الجماعية لليهود إلى فلسطين، حيث يشرطها بنزول المسيح (المسيا)، الذي نظر إليه في التراث الديني اليهودي بوصفه الإذن الإلهي بانتقال اليهود جماعيًا إلى فلسطين، فقام هؤلاء الحاخامات بنقد هذه العقلية الانتظارية والدعوة إلى ما يمكن أن

نسميه استنزال المسيح، بمعنى أن عودة اليهود الجماعية إلى فلسطين ستضطر المسيح إلى النزول!

وإن القول بإن الحركة الصهيونية هي "استثمار للتراث اليهودي" هو تأكيد لحقيقة تمكننا من تفسير ما يعجز عنه كثير من التعاريف الأخرى التي تجعل هذه الحركة سواء كفكرة أو كحركة من إنشاء الغرب وحده، حيث إن هذه التعاريف تعجز عن الإجابة على أسئلة عديدة من قبيل: لماذا بالضبط تم اختيار اليهود؟ ولماذا فلسطين؟ وهما سؤالان لا يجدان إجابتيهما إلا باستحضار التراث الثقافي والديني اليهودي، لكن قولنا هذا لا يعني إن الصهيونية نتاج يهودي محض، بل إننا بإشارتنا إلى الدعم الأوروبي، وإشارتنا السابقة إلى كون المشكلة اليهودية مشكلة نشأت داخل المجال الأوروبي تحديدًا، نؤكد أن دور العامل الأوروبي سواء كتحول مجتمعي من الإقطاع إلى الرأسمالية أو كإرادة سياسية استعمارية بتوظيف الجماعات غير المرغوب فيها كأداة للاستخدام الاستعماري، هو دور أساسي في تشكيل الصهيونية كحركة، واستوائها كدولة استيطانية، وعندما نقول في التعريف إن الدولة الصهيونية المُقامة في فلسطين "دولة عنصرية" وإنها "ارتكزت في قيامها على جدلية الإجلاء والتوطين"، فإن هذا القول هو استجماع وإيضاح لحقائق عديدة تسعى الحركة الصهيونية إلى إخفائها..

أولها: الطابع العنصري والإرهابي للدولة اليهودية، وثانيها: أنها لم تأت إلى "أرض بلا شعب"، بل جاءت إلى أرض لها أصحابها، ولذا كانت منهجيتها في الاستيطان تقوم على جدلية الإجلاء والتوطين، إجلاء الفلسطينيين ووضع اليهود موضعهم، وهو الإجلاء الذي استخدمت فيه أساليب إرهابية متوحشة بدءًا بالحرب وانتهاء بالمذابح ضد المدنيين، وهكذا يمكن أن نقول إن هذا التعريف المقترح يوفّر إمكانية لفهم الظاهرة الصهيونية على حقيقتها، ويستحضر مختلف أبعادها، سواء الأبعاد الثقافية أو التاريخية أو السياسية، الأمر الذي يجعل منه تعريفًا دقيقًا يفوق غيره من التعاريف المتداولة.

لا شك بأن اليهود استطاعوا بعد مخاض عسير استمر ألفـــي عـــام أن يوجـــدوا الحركة الصهيونية، وأن يصلوا إلى هدفهم بإحضار ملايين اليهـــود مـــن شـــتى أصقاع الأرض وأن يُنشئوا دولة إسرائيل، لهذا نستطيع أن نقول بـــإن الحركـــة الصهيونية قد حققت هدفها، لذلك فإن إسرائيل حاليًا تشهد مرحلة جديدة تختلـــف عما سبق، أي أن هذه الدولة الإسرائيلية أصبحت موجودة، ولها ذراع عســـكري يحميها بل وأصبحت قوة ذرية بل وأصبحت قوة عظمى إقليمية في المنطقة التـــي توجد فيها، وهذا يعني بأن الهدف الصهيوني قد تحقق بأقصى حلمـــه، وبالتـــالي فإن بقاء الصهيونية نفسها لم يعد له قيمة، لأنها لا تصلح أن تظل فكرًا أبديًا، فإذا كانت قد أنشئت من أجل هدف معين فإن ذلك الهدف قد تحقق! أما إذا لم يتحقـــق الهدف فإنها ستستمر، لذلك يمكن القول إن قيام إسرائيل ونجاحهـــا هـــو نهايـــة للصهيونية.

من هنا يمكن أن نفلسف الأمور، ونقول بإن نهاية الصهيونية هو نهاية إســـرائيل أيضًا، فالمنطقة ما زالت حبلى والتجاذبات وموجات الأحـــداث مـــا زالـــت تثـــور وتصفع السواحل بمفاجآت لا تتوقف منذ إنشاء إسرائيل، في المقابل فإن اليـــأس ولو أنه ينمو ببطء يُصيب الحس اليهودي العالمي كوسيلة إقناع بأنه لا فائدة من وجود إسرائيل في تلك المنطقة من العالم، وأكبر دليل على ذلك فإن أغنياء اليهود في العالم الذين تحمسوا وتبنوا فكرة الصهيونية العسكرية الاحتلالية وعملوا على تمويلها وأداروا ظهورهم للمعارضة الدينية اليهودية، هم أنفسهم لا يفكرون أبـــدًا أن يعيشوا في إسرائيل وعلى مدى عشرات السنين الماضية لم نسمع أحدًا مـــنهم قد هاجر إلى إسرائيل، لهذا نجد المعنى القومي لإسرائيل راح يتلاشـــى الآن مـــع تلاشي الفكر الصهيوني القومي، وصار زعماء إســـرائيل فـــي الآونـــة الأخيـــرة يجاهرون بأن تكون إسرائيل يهودية بمعنى دولة يهودية بدلاً من صهيونية بعـــد أن أخذ يبرز وينتصر المتدينون الذين جانب كبير منهم يعـــارض فكـــرة الدولـــة الإسرائيلية لأنها تخالف تعاليم دينهم.

لا شك بأن اليهود سبقوا الكثيرين في فهم النظام الدولي، وربما هم متفوقون من ناحية كيف يتحولون وكيف يستفيدون من التغييرات التي تطرأ عليه، فعندما كانت بريطانيا هي مركز النظام العالمي كان الرهان اليهودي على لندن، وكان وعد بلفور وإعلان إسرائيل بدعم كامل من بريطانيا، وعندما تحوَّل مركز العالم إلى واشنطن تحولت إسرائيل ويهود العالم إليها، وبمثل ما أسهمت لندن في إعلان الدولة أسهمت واشنطن في بقائها ونفوذها، ثم ها هي الأفكار تتحدث عن دور ألماني في النظام القادم، وها هي الحركة اليهودية باتجاه ألمانيا في السنوات العشر الأخيرة تثبت فهمًا وسبقًا بالغين.

لكن إسرائيل في حقيقة الأمر هي مشكلة لمن يعيش فيها، ومشكلة دائمة لمن حولها، وفي النهاية لا توجد مشكلة ليس لها حل، من ناحية هي مشكلة للعرب وللفلسطينيين بكل صور التناقض البشري، وهي مشكلة بالنسبة لشعبها وتركيبته السكانية وعدم استقراره، ففي المجتمع الإسرائيلي تجتمع كل التناقضات وكل الصعاب ومعظم العقبات وكلها لا حل لها وستظل قنابل موقوتة تساوي في تأثيرها عدم الاستقرار، فهل توجد في العالم دولة بلا حدود ثابتة، نعم توجد إنها إسرائيل، وهل يوجد شعب في حالة حرب على مدى ما ينيف عن ستين عامًا ولا يبدو في الأفق أنه سيترجل لو بقي في أرض المعركة، نعم يوجد هو شعب إسرائيل، هل توجد دولة منذ تأسيسها وجودها وأمنها مرهون بعون الأمم الأخرى، نعم يوجد إنها إسرائيل، ألا تكفي هذه الأسباب وما قد يتمخض عنها من عوامل، وما لم يغفل عنه أعداؤها المحيطين بأن تجعل هذه الدولة في مهب الريح دائمًا، لقد استطاعت إسرائيل أن تهزم ما يحيطون بها مرات ومرات بل في كل حروبها مع الأنظمة، لكن شعبها لن ينسى أنه لو هزمت هذه الإسرائيل مرة واحدة فستحل به الكوارث، أليس هذا مدعاة لتفكير مواطنيها بأن يبحثوا يومًا عن أماكن أكثر أمنًا لهم في منطقة أخرى كالمجتمعات التي أتى منها آباؤهم!

لهذا ربما نكون سباقين لغيرنا إذا قلنا، بإن الإجابة على سؤال "تيدور هرتزل"، إلى أين يذهب اليهود؟ كان خطأ، لأن الإجابة المنطقية هي أن يظل اليهود في

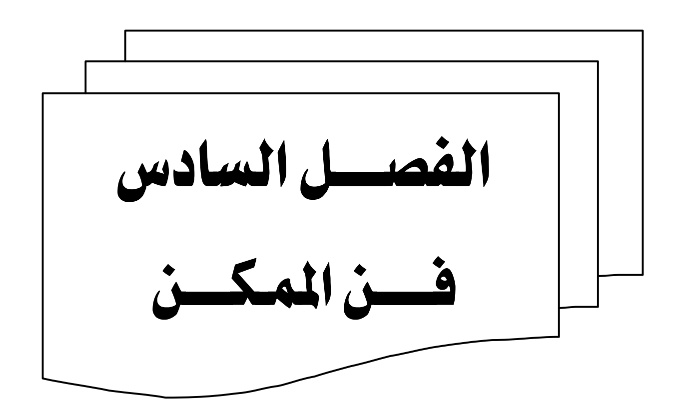
مجتمعاتهم الأولى كون اليهود ربما هم الأقدم من الكثيرين في تلك المجتمعات الذين يقيمون داخلها، لذا فإن استخدام "أين" تصبح بلا معنى، فالمكان في حد ذاته هو وطن وليس معبرًا لليهودي كي يدخل منه إلى مجتمع أصلاً غير موجود في وطن آخر مجهول، يعيش فيه أناس آخرون هم من يقيمون به، لهذا فإن سؤال هرتزل لم يكن خطأ فقط بل غامضًا.

بسبب غموض الأطروحة الصهيونية التي بُنيت على أساسها دولة إسرائيل، تلك التي أوحت بأن الهجرة هي لشعب بلا أرض.. لأرض بلا شعب، وتفاجأ المهاجر اليهودي بأن تلك الأرض مسكونة بشعب آخر، وأنه يصنع مأساة في تلك الأرض، فإنه في النهاية سيصحو وسيجد نفسه أمام خديعة كبرى مبنية على باطل إذ أن فلسطين أرض عليها شعب!

لقد أجمع أهالي منطقة الشرق الأوسط وكثيرون غيرهم على أن بني إسرائيل هم أكثر من سعى للحصول على المال بكل الوسائل الممكنة، يقول "ماركس" عن المال بالنسبة للصهيوني، "هو إله إسرائيل الذي لا ينبغي أن يوجد أمامه إله آخر، والقومية الخرافية لليهودي هي قومية التاجر، الذي هو إنسان المال بشكل عام"، لهذا استطاع اليهود على مر العصور أن يتحكموا بعصب المال وقنواته وتخصيبه، بالصيرفة والمراباة والبورصة وبملكية العقارات الكبيرة وبملكية بيوت المال وجعلوا كل شيء بضاعة قابلة للشراء والبيع.

لهذا كان وعد بلفور أحد صفقات البيع والشراء والمساومة، وإن اليهود حين تدفقوا في شراهة على فلسطين المبيوعة حاملين على ظهورهم مكاتبهم التجارية ومصانعهم الاقتصادية، لم تكن أرض فلسطين تعني لمن أوجدوا إسرائيل جوهرًا روحيًا، وإنما كانت تُمثل مشروع اقتصادي بدليل محاولاتهم العديدة للبحث عن أرض ميعاد في مكان (ما) هذا باستثناء فقراء اليهود الذين ضللوا وأغروا بالذهاب إلى فلسطين، وكانوا بالضبط كالمال أداة للوصول إلى الهدف في أيدي أغنياء اليهود الأوروبيين الباحثين عن المال والسلطة.

لقد جرب الصهاينة أن يجدوا قطعة أرض يقيمون عليها مشروعهم الاقتصادي في الأرجنتين وكينيا وأوغندا وليبيا إلى أن أوجدوا الدولة الدينية الخرافية العنصرية ووصفوها بعلمانية وديمقراطية زائفتين، لذلك فإن هاجس الأمن الاقتصادي هو هاجسهم دائمًا، وحسب مقولة إن رأس المال جبان فهو لا يهمهم أرواح حتى أبناء جلدتهم بل إن الأمن الاقتصادي هو كل همهم، فإن لم يكن هناك استقرار وأمن فإن رأس المال لا ينتج، لهذا فإن كل الاحتكارات الغربية بدافع الشراكة الاقتصادية مع أغنياء الصهاينة في العالم الغربي، دائمًا مجمعين على مساندة إسرائيل ظالمة أو مظلومة، لقد برهنت الأيام منذ إنشاء إسرائيل على أن الدول الغربية لم تتوان في تقديم العون السريع لإسرائيل كلما تعرضت أو كان هناك احتمال أن تتعرض لخطر، بسبب تشابك المصالح الاقتصادية للشركات الأوروبية التي يملكها الأغنياء الذين يسيرون السياسة في المجتمعات التي يطلق عليها المجتمعات الديمقراطية.


الفصـــل السادس
فـــن الممكـــن

وبينما فقدت قيادة المنظمة الصهيونية في ألمانيا فاعليتها نتيجة لهزيمة الألمان في الحرب العالمية الأولى، برز نجم الأستاذ الجامعي الروسي الأصل الدكتور "حاييم وايزمان"، الذي صار يقيم في بريطانيا وأصبح زعيم الموقف، فقد انشأ وايزمان مع رفاقه لجنة سداسية ضم إليها اثنين من اللجنة التنفيذية للمنظمة الصهيونية، وحاول التفاوض مع بريطانيا بخصوص المشروع الصهيوني مقابل دعم اليهود لها في الحرب واستخدام نفوذ اليهود في أمريكا لدفع الولايات المتحدة لدخول الحرب إلى جانب بريطانيا، وفي هذا برز أيضًا الزعيم الصهيوني "لويس برانديس (١٨٥٦- ١٩٤١)" في أمريكا، ومن الدور الذي لعبه كل من وايزمان وبرنديس وآخرين والتنسيق بينهم، نجحت المنظمة الصهيونية في استصدار وعد بلفور من بريطانيا في ٢ نوفمبر ١٩١٧م بإقامة وطن قومي لليهود في فلسطين، وحظي بموافقة حلفاء بريطانيا في الحرب، الولايات المتحدة التي دخلت الحرب في مارس ١٩١٧م، وكذلك فرنسا وإيطاليا.

لقد توافق الاحتلال البريطاني لفلسطين (١٩١٧- ١٩٤٨م) تقريبًا مع زعامة وايزمان الفعلية للمنظمة الصهيونية (١٩٢١- ١٩٤٦م)، وراح المشروع الصهيوني ينطلق إلى آفاق أرحب بعد أن حصل على البراءة الدولية التي كان يحلم بها هرتزل، وفتحت بريطانيا أبواب الهجرة والاستيطان اليهودي، وعمل على بناء المؤسسات السياسية والاقتصادية والتعليمية والاجتماعية الصهيونية في فلسطين، وغضَّت بريطانيا الطرف عن التشكيلات العسكرية السرية لليهود الذين أصبحوا عمليًا دولة داخل دولة.

ولم تفوِّت الحركة الصهيونية الفرصة، فقد ذهبت لجنة صهيونية برئاسة وايزمان إلى فلسطين في إبريل ١٩١٨م، وشكلت جهازًا إداريًا لليهود فيها، استوعب أمور السياسة والاستيطان، والإغاثة والزراعة والتجارة والصناعة والهجرة والمالية والتعليم والعمل، وعلى الرغم من أن يهود أوروبا عانوا من السياسات الهتلرية النازية ضدهم خلال الحرب العالمية الثانية ١٩٣٩- ١٩٤٥، إلا أن المشروع الصهيوني في فلسطين كان هو المستفيد الأول من ذلك، إذ أن المنظمة

الصهيونية العالمية تابعت عملها بصورة فعالة، ووجدت في الاضطهاد النازي مبررًا ودافعًا قويًا للدعاية للمشروع اليهودي في فلسطين، وتمكنت من تضخيم صورة المعاناة اليهودية، وجعلها عقدة أساسية في الشعور واللاشعور الغربي، وظل السؤال الذي لم يجد جوابًا: لماذا يدفع الفلسطينيون فاتورة اضطهاد أوروبا لليهود؟

لقد حققت المنظمة الصهيونية هدفها بإنشاء كيان لليهود في فلسطين وبرز بذلك سؤال واضح عن مبرر استمرار وجود هذه المنظمة، كان بن جوريون صهيوني "استيطاني"، يرى أن دور المنظمة قد انتهى، وركّز هذا التيار على مركزية "إسرائيل" في الحياة اليهودية واستقلالها عن هيمنة المنظمة الصهيونية العالمية.

أما التيار الصهيوني في الخارج "التوطيني" فكان يرفض فكرة الهجرة إلى فلسطين رغم إيمانه بأهمية ذلك، وكان يؤكد أن المنظمة الصهيونية هي التي صنعت "إسرائيل"، وهي قادرة بحكم وجودها في الخارج على القيام بمهمات صهيونية لازمة لا تستطيعها الدولة الإسرائيلية لأسباب كثيرة، ولا بد للمنظمة الصهيونية من المشاركة في صنع القرار السياسي الداخلي والخارجي للدولة، ولابد من تحقيق المساواة بين "إسرائيل" والمنظمة الصهيونية العالمية، التي يجب أن تمنح وضعًا خاصًا يضمن لها التأثير في عمليات التخطيط والتنفيذ الصهيونية والإسرائيلية فتكون إسرائيل هي الجسد للشعب اليهودي والصهيونية هي الروح، إلا أن الأمر قد نفذ سنة ١٩٦٨م عندما حُسمت المعركة لصالح تيار صهيونيِّي الداخل، واستقال ناحوم جولدمان من رئاسة المنظمة، ولكن حالة التوتر والجدل لم تكن تعني شلل العمل، وإنما أمكن التوصل دائمًا إلى حلول توفيقية في دعم المشروع الصهيوني، في سنة ١٩٥٤ م تمكن تيار الداخل من تثبيت هيمنته الفعلية وظل تيار صهيوني الخارج يتراجع تدريجيًا إلى أن أصبحت المنظمة الصهيونية سنة ١٩٦٨م أداة في يد "إسرائيل" بعد أن سلبت "إسرائيل" المنظمة الصهيونية من أهم اختصاصاتها وهو "استيعاب المهاجرين"، عندما استحدثت وزارة الاستيعاب.

هذا، ويختلف الباحثون العرب والمسلمون في النظر إلـى حقيقـة الصـهيونية، فالبعض ينظر إليها بوصفها إفرازًا من إفرازات الاسـتعمار الغربـي وأداة مـن أدواته، والبعض يراها مشروعًا اقتصاديًا غربيًا، والبعض يـرى فيهـا وسـيلة يهودية - أوروبية لحل المشكلة اليهودية في العالم الغربي، والبعض يراها تعبيرًا عن الأماني الدينية أو القومية أو الثقافية اليهودية، ويرى كثير من أبناء التيـار الإسلامي أن الصهيونية ببساطة هي اليهودية نفسها بما تحمله من جذور عـداء وصراع مع الإسلام! ورغم أن هذا قد أتينا عليه قبل قليل ولم يجف الحبر بعـد، فإنه لا بأس أن نوسعه تحليلاً أعمق واستفاضة أكثر.

الإجابة قطعًا لن تكون سهلة هذه المرة، لأن السؤال ليس سهلاً من ناحية عمقـه وكثرة مسارب الإجابة المحتملة، وفي الحقيقة هناك إجابتـان سـتتطابقان فـي النهاية مهما ابتعدتا خلال الإتيان بهما، إحدى الإجابتين إذا أردنا أن نختصر، هي أن الصهيونية ليست اليهودية لأنها حركة تقوم على جهد بشري، والبشر طبعًـا يمكنهم فهم الدين والتعامل معه، الصهيونية هي حركة قائمة على الجهد البشري الذي يمكن أن يفهم الدين اليهودي أو يتعامل معه وفق أشكال ودرجات متفاوتة، فكما أننا لا نستطيع القول إن حـزب الكتائـب المسـيحي اللبنـاني أو الحـزب الديمقراطي المسيحي الألماني هما المسيحية ذاتها، فكذلك لا نستطيع أن نقول إن الصهيونية هي اليهودية، فليس كل من يعمل لمصلحة اليهود هو يهودي متـدين، لأن هناك من يخدم أبناء دينه بدوافع الانتماء القومي أو الحضاري، الصـهيونية ليست اليهودية والدليل الآخر أن بعض اليهود الذين لا يؤمنون بالصهيونية، وهم وإن كانوا قلة قليلة إلا أنهم موجودون، كجماعة "ناتوري كارتا" مثلاً، التي ترفض الاعتراف بالكيان الصهيوني، لأنهم يرون انتظار المسيح الخـاص بـاليهود وأن عودته مرتبطة بالإرادة الربانية، ولا يجوز فرضها أو التعجيل بها كما تم إنشـاء إسرائيل بالقوة.

الإجابة الثانية يمكن تصورها، بأنها الفكرة المركزية في الأيديولوجية الصهيونية التي توجب الامتزاج والتداخل الكامل بين القداسة والقومية، وهي تعبِّر عن نفسها في الإنسان والمكان والزمان، وأهم عناصرها الإنسان أي الإنسان المقدس أو الشعب اليهودي المقدس، لهذا نجد أن رؤية اليهود بوصفهم شعبًا مقدسًا تتكرر في مقولات هرتزل "الليبرالي"، وبن جوريون العمالي الاشتراكي، وبورخوف الشيوعي، وإن كانت تتخفى دائمًا تحت "ديباجات" مراوغة، فالحركة الصهيونية قدمت نفسها امتدادًا لليهودية وليس نقيضًا لها، واستخدم الصهاينة وحتى الملاحدة منهم مقولات دينية، وتعاملوا مع دينهم اليهودي بروح أكثر إيجابية وانفتاحًا، كان "ماكس نوردو" القيادي الصهيوني الكبير الذي كان مقربًا إلى هرتزل، وترأس المنظمة الصهيونية أو كان في البداية نائبًا للرئيس لعدد من المؤتمرات الصهيونية ويعتبر ملحدًا، كان قد قال عن اليهودية، إنها مصدر الطاقة للبناء.

وبإيجاز شديد نقول، بإن المنظمة الصهيونية تتكون من عدة تيارات أو مدارس، وكلها في النهاية تلعب أدوارًا متكاملة، وفي نهاية المطاف لها نسق أيديولوجي واحد، هو حل المشكلة اليهودية التي هي نقطة البداية والنهاية للجميع، أما المحتوى الاجتماعي للدولة فهو مسألة مؤجلة، سيجد لها حلاً، رعايا الدولة أنفسهم بعد قيامها:

الأول: الصهيونية السياسية، التي كان زعيمها الأول تيدور هرتزل وهي التي سعت إلى تحويل المشكلة اليهودية إلى مشكلة سياسية دولية، وهي ترى أن اليهود شعب ذو قومية محددة، وهو غير قادر في الاندماج في المجتمعات الأخرى، ولا بد أن تكون له دولته.

الثاني: هو الصهيونية التصحيحية أو التنقيحية، هي استمرار للصهيونية السياسية، ويعد "فلاديمير جابوتنسكي" المنظّر الأساسي لها، وهي تُغلّب الجانب القومي على الجانب الديني، وتؤكد على العنف كوسيلة للتعامل مع الفلسطينيين.

الثالث: الصهيونية العمالية "الاشتراكية"، التي تـدَّعي أن التركيب الاجتماعي والحضاري اليهودي مختلف عن غيره، وبالتالي فهو غير قادر على الاندماج مع الأوساط الأخرى، لهذا هي تدعو إلى برنامج عمل قائم على تحقيق الأهداف الصهيونية على أسس اشتراكية.

الرابع: هو تيار "أهارون جوردون (١٨٥٦ - ١٩٢٢)" الذي ركَّز على الجانب النفسي، وإلى اقتحام الأرض والعمل، على أكتاف هذا التيار قام البناء الاقتصادي والسياسي الفعلي للكيان الصهيوني، فقد ركز على الجانب العملي في الهجرة والاستيطان وبناء المؤسسات والقوة العسكرية فكان من نتاجه تأسيس الهيستدروت والمستوطنات الزراعية (الكيبوتسات)، وقوات الهاجاناه، وهي الأدوات التي استخدمت لإنشاء الدولة الصهيونية.

الخامس: الصهيونية الدينية، وهي تغلُّب الجانب الديني على الجانب القومي، وتسعى لتطبيق الشعائر اليهودية والشرائع السماوية والاحتكام إلى التوراة.

السادس: الصهيونية الثقافية، وهي ترى أن الخطر الحقيقي الذي يهدد استمرارية اليهودية هو فقدان اليهود للإحساس بالوحدة والترابط وضعف تمسكهم بقيمهم وتقاليدهم، أبرز دعاة الصهيونية الثقافية هو آشر غينزبرغ (١٨٥٦ - ١٩٢٧) المشهور بآحاد هاعام.

وبشكل عام فإن الحركة الصهيونية أثبتت مرونة في استيعاب هذه التيارات التي يظهر عليها التناقض، كما أثبتت التيارات إمكانية التعايش في أجواء الخلاف، بل والاستفادة من تناقضاتها لخدمة المشروع الصهيوني، وظلت الأفكار السياسية، اشتراكية، ليبرالية، شيوعية، وهكذا فإن الصهيونية الحقَّة تمزج بين جميع التيارات (صهيونية توفيقية)، فهي تتحرك دبلوماسيًا لتنال التأييد (سياسية)، ويُوجِدُ المستوطنون حقائق على أرض الواقع تجعل التراجع عنها مستحيلاً (عملية)، وتجمع الضرائب وتشجع الرأسمال اليهودي (التنقيحية والمراجعة)، وتزود التنظيمات العمالية بالمساعدات (عمالية اشتراكية)، وتُعبِّر عن فلسفة

قومية (لا دينية)، وتقدم نفسها على أنها التعبير الوحيد عن اليهودية والمدافع عن التراث اليهودي (دينية).

لا شك بأن هناك فرق بين الصهيونية واليهودية لكن الاثنين مرادفين لشئ واحد، ولا يوجد بينهما تضاد أو قل لا يوجد بينهما تضاد كثير، لذلك سنحاول في عجالة أن نضع صيغة أخرى للتعريف بالصهيونية أو أن نوضح ما هي الصهيونية وما أوجه الاختلاف بينها وبين الديانة اليهودية، يعتقد اليهود في عقيدتهم أن المسيح المخلّص وهو ملك من نسل الملك داود، سيأتي في أخر الزمان ليجمع اليهود من شتاتهم ويعود بهم إلى أرض الميعاد، ويحكم العالم من جبل صهيون ويتخذ من أورشليم عاصمة له، وبعد ذلك يبدأ الفردوس الأرضي الذي سيدوم ألف عام الخ.

وأما الصهيونية كحركة سياسية فلم تظهر رسميًا إلا عام ١٨٩٧م عندما عقد تيودور هرتزل المؤتمر الصهيوني الأول، ولأن القرن التاسع عشر هو عصر القوميات فإن الدولة اليهودية ما هى إلا صورة من صور القوميات على النمط الغربي تمامًا، فلقد انبثقت الحركة الصهيونية من النزعة الاستعمارية التي سادت أوروبا في ذلك العصر.

وخوفًا من رفض اليهود الهجرة إلى فلسطين، استخدمت الحركة الصهيونية وعلى رأسها هرتزل المعتقد الديني لليهود في نسج أسطورة العودة إلى أرض الميعاد.. والادعاء بأن اليهودي الذي يموت خارج أرض الميعاد يظل جسده يصرخ حتى يدفن في أرض الميعاد، وضرورة إعادة بناء الهيكل الذي هدمه الرومان منذ ألفى عام، مع تحويل جميع الشعارات والرموز الدينية إلى شعارات ورموز دنيوية سياسية، وعملت الحركة الصهيونية على تأجيج إحساس اليهود بالاضطهاد وبأنهم ضحايا العداء الأزلي الذي يكنه الآخرون لهم، وذلك كي يفقدوا الشعور بالانتماء إلى أوطانهم التي ولدوا أو يعيشون فيها، ليكون خلاصهم في الهجرة إلى إسرائيل والولاء لها في النهاية، ولذلك حينما ظهرت الحركة الصهيونية عارضتها العديد من المنظمات اليهودية في العالم.

هذا، ويحرص الصهاينة بشدة على طمس الفارق بين الصهيونية واليهودية وأرض الميعاد ويرفعون هذا إلى درجة التقديس، ويعملون على إقناع الآخرين بأن الصهيونية تتفق مع اليهودية، لذلك كلما حاول أي شخص إيجاد الفوارق وكشف زيف الادعاءات الصهيونية يرفعون الدعاوى القضائية ضده ويتهمونه بما يطلقون عليه معاداة السامية.

ورغم تنوع المدارس الصهيونية ما بين يمينية ويسارية ودينية وملحدة ورأسمالية واشتراكية واختلاف اتجاهاتها ورؤيتها للصهيونية، إلا أنها تتفق جميعًا على إسقاط حقوق الفلسطينيين، وقد ظلت المقولة الأساسية التي تستند إليها كل التيارات الصهيونية هي مقولة (الشعب اليهودي)، أي الإيمان بأن الأقليات اليهودية في العالم لا تشكل أقليات دينية لها انتماءات عرقية وقومية مختلفة في المجتمعات التي تعيش فيها، لكنها تُشكل أمة متكاملة موجودة في الشتات أو في المنفى بعيدة عن وطنها الحقيقي في فلسطين وتنتظر بفارغ الصبر للعودة.

والحركة الصهيونية عنصرية سواء في موقفها من العرب أو من يهود الشتات، فهي تُنكر على الفلسطينيين حقهم في وطنهم، وتُنكر أيضًا على يهود الشتات حقهم في الانتماء إلى الأوطان التي يعيشون فيها، وتفترض دائمًا أنهم يتسمون بحالة من الشذوذ المرضي، ولذلك نجد معارضة يهودية تتركز بين اليهود الاندماجيين الذين لا يريدون ترك أوطانهم الأصلية من أجل الانتماء إلى وطن وهمي، مثل بعض اليهود الاشتراكيين الذين يعتبرون الصهيونية حركة إمبريالية تستخدم اليهود من أجل مصالحها الإمبريالية, كما أن هناك فريقًا من اليهود الأرثوذكس يعارضون الصهيونية باعتبارها نوعًا من أنواع الكفر والإلحاد.

لا شك بأن التيار الوطني للحركة الصهيونية الذي رأى أن يكون دور الحركة الصهيونية مقصورًا على الاهتمام بالنواحي الإنسانية كأقليات في مجتمعات بلادهم أثبت صحة نظرته الثاقبة مع الأيام، وهو يكسب أرضًا وتأييدًا على حساب

التيار الصهيوني القومي الذي دعا إلى إنشاء دولة لليهـود واسـتطاع بسـبب إمكانياته المادية أن يظل قائدًا للحركة الصهيونية وإسرائيل.

لا شك بأن الواقعية اليهودية التي تنشد تخليص اليهود مـن قيـود الإمبرياليـة المتمثلة بالتيار القومي الصهيوني تستدعي التقدير والاحتـرام لأولئـك اليهـود الشجعان، الذين ينشدون تخليص اليهود عمومًا من لعب دور القتلة والعملاء في مهمات الدول المتنفذة على مدى أكثر من قرن من الزمان، وكانوا يرغمون علـى تنفيذ ذلك الدور المشين مما جعلهم يخسرون عطف الكثيرين، بل ويربحون عداء الكثيرين أو كما هي إسرائيل حاليًا، يقول "إسحق بارموشيه" في كتابه (الخـروج من العراق):

"كنا نتذكَّر بحزن شديد أن حُكَّام العراق الرجعيين وخدَّام الاستعمار كانوا يصفوننا بأننا يهود، وقد تركنا العراق كيهود ووصلنا "إسرائيل" كعراقيين! كـان المشـهد مأساويًا ومضحكًا في الوقت نفسه، فقد ساعدنا حكام العراق على تأكيد وتثبيـت يهوديتنا، وها هم أبناء ديانتنا يساعدوننا مرة أخرى على تأكيد وتثبيت عراقيتنا! كان الشعور العام مؤلمًا ومثيرًا للحزن في آن واحد، إن الأنبياء اليهود المعروفة قبورهم يثوون في أرض العراق، وقد حافظنا عليهم نحن والعرب مثلمـا يحـافظ الإنسان على بؤبؤ عينه، إن العرب في الديار المقدسة (فلسطين) كـانوا أحسـن الحرّاس وأكثرهم أمانة لقبور أجدادنا وأجدادهم معًا، في الخليل وغيـر الخليـل، وإن تاريخنا وتاريخهم في هذه الديار يرتبط ارتباطًا عضويًا، ولذلك فقد اكتشـفنا أن المستقبل هو للارتباط وليس للانفصال، وأن عوامل القرب، هنا وهناك، كانت وظلت وستبقى أقوى من عوامل البعد.. الخ!"

لكن اليهود الغربيين أيضًا قد عانوا من المأساة التي حلـت بـاليهود علـى يـد الصهيونية وخداعها، في بريطانيا مثلاً، أخذ مثقفون كثيرون من الطائفة اليهودية موقفًا معارضًا ومتشددًا لوعد بلفور عام ١٩١٧م، حتى أن "لوسيان وولف" كـان يساوي بين الصهيونية والعداء للسامية، كان لوسيان وولف أحد مثقفي اليهـود العقلاء الذين لم يلحقوا بركب الحماس العاطفي للدعوة الصهيونية، لأنه كان يعلم

بأن وزير خارجية بريطانيا العظمى "آرثر بلفور" كان قد أصدر عام ١٩٠٥م، بصفته رئيسًا للوزراء، مشروع القانون الخاص بالأجانب، المشروع الذي يحد من دخول المهاجرين اليهود إلى بريطانيا، حيث قال أمام البرلمان البريطاني، "أن لكل بلد الحق في اختيار المهاجرين إليه، وأن مصائب كثيرة أصابت المجتمع البريطاني بسبب تدفق المهاجرين اليهود".

من ناحية أخرى، إن أستاذ القانون الأميريكي ماليسون كان له وجهة نظر وتفسير للخلاف الذي حدث بين يهود بريطانيا وبين الحكومة البريطانية ومعها الحركة الصهيونية اليهودية، وهذا حدث قبل صدور وعد بلفور، فقد ساورت اليهود البريطانيين شكوك عميقة بخصوص الأهداف السياسية الصهيونية، وبعد الكشف عن مسودات تصريح بلفور أصبح هؤلاء اليهود ملتزمين، بصورة لا لبس فيها، بموقف معارض للمنظمة الصهيونية التي كانت تفاوض الحكومة البريطانية، وذلك بغية الحفاظ على القيم اليهودية الأساسية! ولم يكونوا راضين عما تسعى إليه الحركة الصهيونية.

نخلص إلى أن اليهود البريطانيين كانوا ممتعضين من وعد بلفور بسبب أنه يعمم على أن اليهود يمثلون قومية، وهو ما سيضر كثيرًا بالمصالح اليهودية في كثير من دول العالم وبالتالي سيثير عدم رضا كثير من اليهود في العالم، كما أن يهود بريطانيا رفعوا مذكرة للحكومة البريطانية، تقول بإن تصريح بلفور يمس بحقوق المسلمين والمسيحيين في فلسطين لأنه يعني إخلاء المكان وهو ما يعني طرد السكان الحاليين، كما أن تجميع اليهود بذلك الكم في مكان واحد بطريقة تثير عداء سكان فلسطين ومن يحيط بهم هو خطر شديد مع مرور الأيام، كما أن الخطر الذي قد يحدق بمصالح يهود العالم سيقوم على فرضية خاطئة بأن جميع اليهود يشكلون قومية واحدة وأن لهم وطن هو فلسطين، وهو ما قد ينتج عنه أن الشعوب الأخرى ستنظر لليهود من غير الإسرائيليين على أن لهم ولاء مزدوج، وهو ما قد يجعل أوطانهم تنظر لليهود بنظرة الشك وهو ما قد يحرمهم من حقوق طبيعية في المجتمعات التي هم أفراد منها.

قد تكون المسألة أكثر تعقيدًا مما عارضه يهود بريطانيا ومن كل الفرضيات المحتمل حدوثها لليهود، لكن ما حدث هو إعادة تشكيل عالم ما بعد الحرب العالمية الأولى، عالم سيادة النظام الإمبريالي بقيادة الولايات المتحدة الأمريكية، الذي وصل إلى أقصى مراحل صعوده التي ربما لا صعود بعدها، بل وقد يأتي الانحدار سريعًا لأن التاريخ لا يتوقف.

الفكر الصهيوني:

عندما ظهرت الحركة الصهيونية في نهاية القرن التاسع عشر كان يتجاذبها فريقان أو تياران أو رأيان، كان زعماء كل فريق لهم رأي مخالف للصهاينة الآخرين الذين يمثلون التيار الآخر، كان هناك التيار الوطني (التوطيني) والتيار القومي (الاستيطاني)، وكان ما يسمى "التيار الوطني" هو الغالب في هذه الحركة، وهو التيار الداعي إلى بقاء اليهود في بلادهم الأصلية، والعمل على الاندماج في هذه المجتمعات وتظل الحركة الصهيونية سند تنظيمي معنوي كحركة يهودية عالمية، وكانت غالبية هؤلاء من المثقفين والعمال الفقراء أو من الطبقة المتوسطة.

أما التيار الثاني، فكان "التيار القومي" وكان يتزعمه غلاة الصهاينة من كبار الأغنياء اليهود الباحثين قبل كل شيء عن "أرض" يمارسون عليها نشاطهم الاقتصادي بعيدًا عن منافسة البرجوازية الأوروبية القوية، ولم يكن يعنيهم كثيرًا أن تكون هذه الأرض فلسطين أو غيرها، فالموضوع بالنسبة لهم كان مشروعًا اقتصاديا فحسب، وبالفعل فقد طرح في البداية إنشاء دولة لليهود في أوغندا أو غانا! ثم طرح إنشاء دولة في مناطق واسعة من الأرجنتين! ومع ظهور النزاعات العنصرية في أوروبا والمذابح التي تعرض لها اليهود في روسيا أولاً، ثم في باقي الدول الأوروبية، إضافة إلى توظيف رأس المال إعلاميًا وفي إقناع كثير من المترددين من نشطاء الحركة الصهيونية، ازداد أنصار التيار القومي الداعي إلى

وطن قومي لليهود، ونتيجة لعدد كبير من العوامل تم في النهاية اختيار فلسطين لكي تكون هي الوطن القومي المزعوم.

وعما تعرَّض له اليهود في روسيا أيام حكم القياصرة، نقلاً عن كتاب "تاعو شومسكي"، ترجمة أيمن حنا حداد، كتب المؤرخ الصهيوني الشهير، "سيمون مركوفيتش دبناو"، عن أهم المذابح وأكثرها شهرة، التي تمت ضد اليهود الروس أيام حكم القياصرة، تلك التي أدت إلى حملة عالمية في أوروبا الغربية والعالم لإنقاذ اليهود، وعلى أثرها أصيب اليهود بالفزع وراحوا يهاجرون إلى أمريكا وأوروبا الغربية بأعداد كبيرة، فقال عن ذلك:

"عشية الاحتفالات بعيد الفصح المجيد عام ١٩٠٣ م، كانت هناك إشاعات غامضة قد انتشرت في مدينة "كشينيف" بروسيا، قيل إنها تحدثت عن مقتل خادمة مسيحية اتهم فيها اليهود، ولهذا حملت الأحداث في تلك المدينة، بأن هناك منظمة سرية ما، تضمر حقدًا على اليهود، وتُعد لخطة دموية ضدهم"، وفعلاً كان هناك نشرات مطبوعة يدويًا تم توزيعها بالمدينة، تقول بإن قيصر روسيا قد أصدر مرسومًا قيصريًا، يعطي الأذن بمعاقبة اليهود عقابًا دمويًا خلال الأيام الثلاثة لعيد الفصح المسيحي، ولم تقم الشرطة بأي محاولة لسحب تلك النشرات، والسبب _ كما انجلى الأمر لاحقًا _ هو أن الشرطة قد كانت جزءًا من المؤامرة.

عشية احتفالات عيد الفصح، توجَّه ممثلو اليهود في زيارة رسمية إلى حاكم المدينة ورئيس الشرطة، راجين أن يُمنحوا الحماية، فتلقوا ردًا فاترًا بأن الأوامر الضرورية قد أعطيت، وأن الإجراءات المناسبة لضمان أمنهم قد اتخذت، ويتابع "دوبناو" قائلاً، اندلع الحريق الهائل الذي أعد له علنًا بواسطة مثيري الفتنة في اللحظة التي كانت مقررة سلفًا.

ففي يوم الأحد السادس من نيسان، وهو اليوم الأول من الفصح المسيحي واليوم السابع من العطلة اليهودية، بدأت أجراس الكنائس تقرع في وقت الظهيرة، وأخذ حشد كبير من المواطنين والحرفيين الروس، الذين كانوا من دون شك يتصرفون

بناء على إشارة محددة بالانتشار في كل أنحاء البلدة، وبدأوا بمهاجمة البيوت والمتاجر اليهودية، وكان قد سبق تلك الزمر مجموعة من أشقياء الشوارع قاموا بقذف الحجارة على شبابيك البيوت والمكاتب والمحال اليهودية، وحين رأي المشاغبون الذين كان عددهم قد تضخم بانضمام أولئك المقاتلين الشباب أن الشرطة لم تقم بأي مسعى للتدخل، أخذوا في اقتحام البيوت والمتاجر وألقوا بمحتوياتها في الشوارع حيث كانت تحطم أو تنهب من قبل الحشد المحتفل.

ولكن حتى في ذلك الوقت ظلت مفارز الشرطة والجنود، التي كانت متمركزة في الشوارع، دون حراك ولم تقم بأي مسعى لاعتقال المشاغبين، وقد اعتبر توجه الشرطة هذا في أعين الرعاع إثباتًا أكيدًا على أن الشائعات المتعلقة بوجود إذن من القيصر لضرب اليهود أمرًا صحيحًا، فامتلأت الشوارع بالحشود الهائلة من الرعاع في حالة من السكر، وهم يصيحون "الموت لليهود! اضربوا اليهود!".

ويكمل دوبناو قائلاً، في المساء تراجع النهب لصالح القتل فبدأ القتلة المسلحين بالهراوات والسكاكين، بالإغارة على اليهود في السيارات وفي الشوارع وفي البيوت مسببين لهم جراحًا بليغة وقاتلة أحيانًا، لكن رجال الشرطة والجيش ظلوا حتى في تلك الأثناء دون حراك، ولم تتدخل الشرطة على الفور إلا حين قامت مجموعة من اليهود المسلحين بالعصي بمحاولة طرد القتلة في أحد الأماكن، فجردت الشرطة المدافعين من أسلحتهم.

في العاشرة مساءً، توقف النهب والقتل فجأة، وسرت شائعة بأن القيادة العامة للمشاغبين كانت تعقد اجتماعًا لبحث الخطط التالية لعمليات القتل، وأنها كانت تُعد الترتيبات لتنفيذ مجزرة منظمة، ما لبث الجيش أن تسلم الأوامر الضرورية، وخلال يوم السابع من نيسان بكامله، منذ الفجر وحتى الثامنة مساء كانت مدينة كيشينيف مسرحًا لأعمال وحشية قلما وجد ما يوازيها حتى في أكثر العصور بربرية! فخلال ذلك اليوم بكامله كانت العربات تشاهد في الشوارع وهي تنقل اليهود الجرحى والقتلى إلى المستشفيات التي حولت إلى مستشفيات ميدانية للأمراض الوبائية، ولكن هذا المنظر نفسه لم يدفع أيضًا بالشرطة إلى تدَّخل.

وأما حاكم المنطقة "فون رابن"، الذي أتاه في اليوم الثاني للمذبحة وفد يهودي في زيارة رسمية متوسلين إليه أن يوفر لهم الحماية، فقد رد قائلاً بإنه لا يستطيع عمل شئ لأنه لم يتلق تعليمات من عاصمة الإمبراطورية الروسية "سانت بطرسبرغ"، ويواصل دوبناو قائلاً، وأخيرًا في الساعة الخامسة من بعد الظهر، وصلت برقية من مدينة بليف، وفي الساعة السادسة ظهرًا، كانت كتائب كبيرة من الجند بكامل أسلحتهم في الشوارع الرئيسية، وما أن لاحظت الحشود أن الجنود كانوا مستعدين للتدخل حتى لاذت بالفرار بدون إطلاق رصاصة واحدة.

كانت النتيجة أن خمسة وأربعين يهوديًا قتلوا في تلك الأحداث، وثمانية وستين أصيبوا بجراح بليغة أو أقعدوا، وخمسمائة أصيبوا بجراح خفيفة، هذا بالإضافة إلى حالات الاغتصاب التي لم يكن من الممكن تحديد عددها، وفي مقابل العدد الضخم من الضحايا اليهود، كانت هناك حالتي وفاة ضمن المشاغبين.

وعلى إثر ذلك جرت، صرخة من الرعب في عموم روسيا، وفي البلاد المتحضرة من العالم، وعندما انتشرت الأخبار عن مذبحة كشينيف، كان ثمة تحقيق قضائي، ولكن المحاكمة أجريت في روسيا خلف أبواب مغلقة، كان اللصوص والقتلة المأجورون من الطبقات السفلى، وحدهم الذين حوكموا وأدينوا في تلك الأحداث، في حين نجا منظموا المجزرة وزعماؤها من حكم العدالة، رغم أن واحدًا منهم كان قد أطلق الرصاص على رأسه قبل بدء المحاكمة، وقد حُكِم على البعض بالأشغال الشاقة أو بفترات سجن، الأمر الذي روَّع العالم المتحضر خصوصًا في أوروبا الغربية وأمريكا.

وكتب دوبناو أيضًا، لم تترك المذابح اليهودية البوجرومات (جمع بوجروم Pogrom) التي حدثت في بداية الثمانينات من القرن الثامن عشر، ولا الفظائع التي حدثت في موسكو في بداية التسعينات من ذلك القرن، أثرًا يمكن مقارنته بالأثر الفعال الذي سببته مذبحة كشينيف على يهود روسيا، لقد كانت تلك المذبحة عاملاً أساسيًا في موجة الهجرة الكبيرة ليهود روسيا في السنين التالية وكانت

الهجرة في أكثر الحالات إلى الولايات المتحدة، وأوربا الغربية، ولكن إلى فلسطين أيضًا.

كان من ضمن هؤلاء الذين هاجروا لإسرائيل عندما كانوا فتيانًا الشاعر اليهودي (بياليك Chaim Nachman Bialik) الذي كان قد ولد بأوكرانيا وتعلم وعاش في أوروبا الغربية، وهو يُعتبر الشاعر الصهيوني الوطني، وصل بياليك إلى تـل أبيب وعاش فيها، إلا أنه مات في فيينا ودُفِنَ في تل أبيب، كتب قصائده بالعبرية وكتب عن مذبحة كشينيف ومعاناة اليهود فقال في إحدى قصائده المترجمة:

وإذا كان ثمة عدالة _ فلتُظهر نفسها على الفور!
ولكن إذا أظهرت نفسها بعد أن أكون قد مُحيت من تحت السماوات
فلينخلع عرشها إلى الأبد!
ولتتفسخ السماوات بشرٍّ أبدي!
وأنتم يا أيها المتغطرسون
فلتواصلوا عنفكم هذا
ولتحيوا بالدم الذي أرقتموه
ولتتطهروا به.
وليكن ملعونًا ذلك الرجل
الذي يقول: فلنثأر!
فليس ثمة ثأر اخترعه الشيطان بعد
يكافئ دم صغير..
دع الدم يخترق قاع الهاوية!
دع الدم ينز حتى يصل إلى أعماق الظلام
ويفتت هناك، في الظلام
كل أسس الأرض المتعفنة ويصدعها.

المفارقة أن مذبحة "كشينيف" لم تُذكِّر الزعماء الصهاينة، "مناحيم بيجن" و"أريئيل شارون"، شركاء حرب اجتياح لبنان عام ١٩٨٢م، بـأنهم سـمحوا بالضـبط أن

يحدث في مخيمي "صبرا وشتيلا" الفلسطينيين في لبنان بما هو أفظع مما حـدث في كشينيف لليهود، فقد تم كل شيء في صبرا وشتيلا، تحت نظر وسمع الجيش الإسرائيلي الذي اجتاح لبنان عام ١٩٨٢م، لقد كان الجـيش الإسـرائيلي علـى دراية تامة بما كان يحدث في المخيمين الفلسـطينيين، اللـذين أرسـل الجـيش الإسرائيلي إليهما عصابات القتلة، قال دبناو عن مذبحة كشينيف: "كانت مدينـة كشينيف مسرحًا لأعمال وحشية قلما وجد ما يوازيها حتى فـي أكثـر العصـور بربرية!"، فماذا يمكن أن يقال عن مذبحة "صبرا وشتيلا" التي راح فيها ألفين من المدنيين الفلسطينيين، قتلوا بطريقة همجية ووحشية تمَّت بحراسة ورعاية الجيش الإسرائيلي الذي تنتسب عناصره إلى ضحايا مدينة كشينيف عام ١٩٠٣م!

من الطريف ذكره، أن أدبيات الحركة الصهيونية كانت تُسمي فلسـطين باسـمها الأصلي، ولم تكن تسمية إسرائيل قد خطرت لهم على بال، حتى بعد قيام إسرائيل كانت تُسمى "الأراضي المقدسة" حتى العام ١٩٥٢ م على الأقل، لأنهم يعرفون أن شعب إسرائيل المزعوم، كان قد اندثر من الوجود، وذاب بين شعوب المنطقة منذ القرن السادس قبل الميلاد على الأقل! وأن اللغة العبرية نفسها قد انـدثرت مـن الوجود منذ ذلك الزمن أيضًا، وقد كان اليهود يتكلمون الآرامية "المقصود يهـود السبي في بابل وبعد ذلك في فلسطين" ثم بعد ظهـور العربيـة وهيمنتهـا علـى المنطقة تكلم اليهود العربية مثلهم مثل غيرهم من شعوب المنطقـة وذلـك هـو منطق التاريخ وحقائقه.

وعندما قامت الصهيونية بمحاولة إحياء اللغة العبرية، وهي المحاولة التي كـان لليهود الألمان الدور البارز فيها، جاءت العبرية الحديثة اصطناعًا على اصطناع، وهي لا تمت بصلة للغة العبرية الأصلية، ذات الأصل الشـرقي العريـق، فاللغـة العبرية الحديثة غير قادرة على نطق ثلاثة من الأحرف الأساسـية فـي "اللغـات السامية" وهي الحاء والعين والقاف، إضافة إلى قلب الحـروف المـأخوذ عـن الإرامية، وتحويل الألمان الحرف (و) إلى ف، بثلاثة نقاط وهو الحرف الألماني

(w) وهكذا ضاعت اللغة العبرية مرتين، وأصبحت لغة عجيبة هجينة مصطنعة حتى النهاية.

مثال آخر للتزوير البشع الذي تمارسه الصهيونية، هو ادعائها بأن اليهود في جميع أنحاء العالم أتباع دين معين هو الدين اليهودي فقط، ولكنها تذهب أبعد من ذلك، أن تدَّعي بأن هؤلاء إنما هم شعب واحد من عِرق واحد، في واحدة من أكثر الخدع بشاعة في تاريخ الإنسانية.

مثال ثالث للتزوير والخداع، هو ادعائها في وقت لاحق بأن فلسطين، هي الأرض الموعودة، وهي مسرح التوراة، وهي الحاضنة الطبيعية للديانة اليهودية! ورغم فشلهم الذريع في إثبات هذا الأمر وهم ينبشون في تراب فلسطين منذ أكثر من قرنين من الزمان مزودين بكل ما يخطر على بال من إمكانيات تكنولوجية، وملايين الدولارات، وأدعية الحاخامات، وقد أخرجت أرض فلسطين كل أسرارها، ولم يعثر على أثر واحد لكل ما ذكر في التوراة، لا قصور ولا ممالك ولا ما يحزنون، وبقيت أرض فلسطين وفية حتى النهاية، المهم أن كل الحضارات التي مرَّت على فلسطين نعرفها جيدًا ويمكن تزمينها بدقة، وأبرز هذه الحضارات هي الحضارة الكنعانية والحضارة الفلسطينية، حتى إنسان ما قبل التاريخ كان حاضرًا بأدواته البدائية، ليكون شاهد على فضيحة الهدهد هذه، فجن جنونهم وبدأوا يمارسون الكذب علانية، مستفيدين بالدرجة الأولى من غياب الطرف العربي، وصمته المريب، ومستفيدين من بعض أطروحات الفقه الإسلامي البائسة من نوع "العلو الثاني" و"الوعد الإلهي" وهم يوظفون كل ما في حوزتهم من إمكانيات لتزوير التاريخ وإعادة كتابته كما يريدونه هم، بعد كل تلك الرحلة وتقلبات الفكرة نستطيع أن نقول بإن الصهيونية أخذت طابعًا موحدًا بعد مرحلة توحيد المنظمات اليهودية العالمية التي استقت الصهيونية منها هدفها.

لقد تأسست هذه الحركة الحديثة في عام ١٨٩٧م وتألفت من أفكار عديدة عند نشأتها خصوصًا أين ستقام الدولة اليهودية (الصهيونية) وأين بقعة الأرض التي ستحتضن هذه الأمة، تجدر الإشارة إلى أن الكثير من اليهود المتدينين عارضوا

ومازالوا يعارضون الصهيونية بالإضافة إلى عدم انتماء بعض مؤسسي دولة إسرائيل إلى أي دين والكفر باليهودية وغيرها من باقي الأديان، ذلك بالرغم من اعتقاد المتدينين اليهود أن أرض الميعاد قد وهبها الله لبني إسرائيل فهذه الهبة أبدية ولا رجعة فيها إلا إنهم لم يتحمسوا كثيرًا للصهيونية باعتبار أن أرض الميعاد ودولة إسرائيل لا يجب أن تُقام من قبل بني البشر كما هو الحال بل يجب أن تقوم على يد المسيح المنتظر!

نستطيع أن نقول إن الأحداث تعاقبت سراعًا منذ سنة ١٨٩٠م وكان التوجه لمعادات السامية في روسيا هو البداية وكانت من أكثر الدوافع التي ضغطت في اتجاه اختيار أرض لكي يقيم اليهود عليها دولتهم، يُشير كتاب "عالم اليهود" أنه رغم أن الثورة الفرنسية قد رفعت شعارات حقوق الإنسان واستفاد اليهود في أوروبا كثيرًا من مساحة الحرية التي راح المواطنون ينعمون بها، ورغم الازدهار الاقتصادي للجاليات اليهودية في أوروبا التي راحت تُنشيء المصانع والأعمال وتؤسس بيوت المال، رغم هذا إلا أنه لم يكف في نظر مفكري اليهود الذين كانوا قد قطعوا شوطًا في التنظيمات النقابية اليهودية وغيرها، وراحوا يتساءلون بينهم وبين أنفسهم ويكتشفون بأنهم يختلفون مع الناس الذين يعيشون في كنفهم في المجتمعات الأوروبية، أخيرًا وصلوا إلى فكرة الحركة الصهيونية بل وإلى تفسير مستفز لكل اليهود على اختلاف مشاربهم وأوطانهم، وقدموه إلى العامة من بني يهود بطريقة بسيطة ومفهومة، قالوا إذا كان اليهودي له دين مختلف عن الآخرين، وله لغة تختلف عن الآخرين فلابد أن يكون له وطن غير أوطان الآخرين.

وحسب تلك المقولة يبدو أن الفكرة الصهيونية لإنشاء وطن قومي لليهود قد تبلورت إلى أن أصبحت الثالوث الذي اشتهرت به الحركة الصهيونية، الدين اليهودي وشعب الله المختار وأرض إسرائيل، وبهذا استطاع النشطون من مفكري اليهود في بلاد الشتات أن يجددوا فكرة ارتباطهم بفلسطين بعد أن استقر الرأي إلى اختيار فلسطين لكي تكون كيانًا لليهود، واستفادوا من أدبيات التاريخ

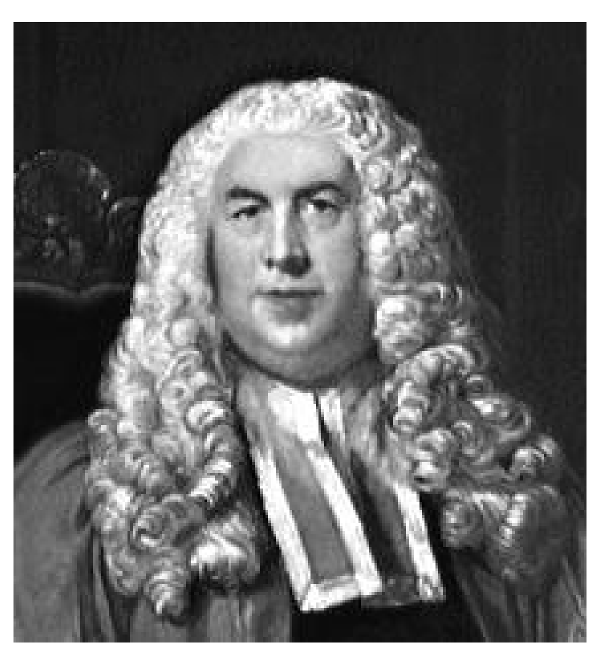
اليهودي كما هو الاعتقاد الشائع بينهم على أن فلسطين هي أرض الميعاد، وأخذ ذلك طابعًا عالميًا منذ أن دخل الرومان مدينة القدس عام ٧٠ قبل الميلاد وتشتت اليهود في أصقاع الأرض، ولولا الصهيونية، لكان الاعتقاد السائد لدى اليهود أن تشرذمهم سينتهي يوم يجمعهم المسيح المنتظر في كيان قومي يوحدهم.

إن التحرر الذي حصل لليهود في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر الذي أشرنا إليه، وانتشار الحركات الليبرالية في أوروبا كان له الأثر البالغ في شعور اليهود بقوميتهم، وقد طال حينئذ هذا الشعور عامة اليهود المقيمين في أوروبا وحتى الذين ابتعدوا عن التديّن اليهودي بصورته التقليدية، هذا وقد تأثر اليهود إلى حد ما بكيفية أو بأخرى بالحركات التي عملت على توحيد بعض الدول الأوروبية واستفادوا من تجاربها مثلما كيف توحدت ألمانيا وإيطاليا وغيرهما، وقال حينئذ بعض نشطاء الجاليات اليهودية، إذا كان يحق للإيطاليين أو الألمان أن يُقيموا دولاً توحدهم، فلماذا لا يحق لنا نحن اليهود نفس الشيء؟ هذا إضافة إلى تنامي شعور كره السامية في بعض المجتمعات الأوروبية أو كما حدث في المجتمع الفرنسي، وإن كان ذلك لم يأخذه اليهود في الحسبان نتيجة حرية ورقي المجتمع الفرنسي بعد الثورة الفرنسية.

نستطيع أن نقول بإن الصهيونية الحديثة قد بدأت نواتها الأولى عام ١٨٠٦م حين اجتمع المجلس الأعلى لليهود بدعوة من "نابليون" لاستغلال أطماع اليهود وتحريضهم على مساعدته، هذا وإن من بين من حملوا على عاتقهم نقل الفكرة الصهيونية من الخيال إلى الواقع هو بدون شك، "تيدور هيرتسل" الذي كتب كراس في العام ١٨٩٦م أسماه "الدولة اليهودية"، وفي العام الذي يليه، نظَّم هيرتزل المؤتمر الصهيوني الأول، وتمخَّض المؤتمر فأنجب "المنظمة الصهيونية الدولية".

وليم بلاكستون William Blackstone:

في الولايات المتحدة الأمريكية كان الانبعاث الديني على أشده في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، حينما كانت المشكلة اليهودية تتفاقم فـــي أوروبا الغربية بسبب هجرة اليهود الروس، وكان "وليم بلاكستون (١٨٢٩ – ١٩٠٠م)" قد وُلد في مدينة آدمز بالولايات المتحدة (الموسوعة الحـــرة Wikipedia)، المدينة التي شهدت حركة وكان لها دور كبير في النشاطات الدينية، حيث كانت موطنًا لمبشر مشهور وعالم في الدراسات الدينية اسمه "تشارلس مني"، الذي اشتهر بمشاركاته الفعالة، وكان له أثر كبيـــر فـــي الحياة الدينية الأمريكية، تأثر وليم بلاكستون منذ شبابه بالانبعاث الـــديني فراح يحضر الاجتماعات الدينية الكثيـــرة، وراح يُشـــارك فـــي الحلقـــات والاجتماعات، وصار من مدرسة التفسير الحرفي للكتاب المقـــدس التـــي أصبحت تنتشر في الولايات المتحدة الأمريكية، المدرسة التي كانت تؤيـــد إقامة وطن لليهود في فلسطين.



وليم بلاكستون ١٨٢٩ – ١٩٠٠م

كان أيضًا من أبرز مفكري هذه المدرسة والداعين لأفكارها وأحد من أسَّسوها، رجل دين بريطاني الأصل من أيرلندا اسمه "نلسون داربي"، الذي لم يلاقي تجاوبًا في بريطانيا لِما كان يدعو إليه من أفكار، قام داربي بعدة رحلات إلى الولايات المتحدة فوجد الناس أكثر قبولاً وتجاوبًا لما كان يبشر به، ووجدوا دعوته أكثر هوى فاعتنقوها وأصبح يُعد اتباع هذه الأفكار بعشرات الملايين، وأصبحت نهجًا دينيًا ومدرسة مشهورة في المجتمع الأمريكي، وحسب أفكار نلسون داربي فإن العالم منذ بدايته لا بد وأن يمرّ بسبع مراحل، واليوم (زمن داربي) العالم يمر في فترة المرحلة السادسة التي هي في رأيه على وشك الانتهاء، انتهت كل مرحلة من المراحل السابقة بعقاب من الرب على شرور الناس وذنوبهم ليُطهِّرهم، وهذه المرحلة أيضًا ستنتهي بعقاب، وبعدها تبدأ المرحلة السابعة والأخيرة التي هي مرحلة الخلاص الأخير التي بعدها سيظهر المسيح عيسى مرة أخرى وينشئ دولته في فلسطين، وستستمر ألف سنة ينعم فيها الناس بالعدل والخير والرفاهة، ويكون العقاب في نهاية هذه المرحلة قبل نزول عيسى على شكل كوارث طبيعية واضطرابات سياسية واجتماعية وأوبئة وأمراض وحروب، وبعدها يظهر الدجال وتكون معركة سيقتل فيها خلق كثير، وهنا يأخذ عيسى المؤمنين ويصعد بهم للسماء، مدة هذه الحوادث ستكون سبع سنين بعدها ينزل المسيح بالمؤمنين إلى الأرض ثانية، وتبدأ حياة الألف عام، لكن نبوءة داربي لم تنتهي إلى ما ذكر بل إنه قال بإن شيئًا مهمًا سيحدث إضافة إلى ما ذُكِرَ، هو ضرورة هجرة وتجميع اليهود في فلسطين وإنشاء دولتهم طبقًا لنبوءة الكتاب المقدس كما يقولون، ومنذ القرن التاسع عشر، نشط أصحاب هذا الفكر، وراحوا يدعون إلى تجميع اليهود في فلسطين بناء على خطة الرب لتحقيق الخلاص.

يعتبر "وليم بلاكستون"، من أخلص تلاميذ هذه المدرسة، وكان من أكثرهم نشاطًا ودعوة لها، وفي عام ١٨٧٨م أصدر كتابًا سمَّاه "عيسى قادم" يؤكد

على صحة هذه التفسيرات، وراح يستشهد بعبارات كثيرة من التوراة والإنجيل دعمًا لها، وفوق هذا ترك عمله وتفرغ تمامًا لدعوته وراح يُبشر بها بين الناس وخصَّص أموالاً كثيرة لهذا العمل حيث كان قد حصل على ثروة من والد زوجته الثري، وعلى هذا أصبح بلاكستون يسافر كثيرًا من أجل دعوته ويُنفق الأموال، وكانت رسالته الأساسية أن يدعو إلى ذهاب اليهود والإقامة في فلسطين لأجل سرعة تحقيق النبوءة.

وحينما انتقل إلى شيكاغو بدأ مرحلة أخرى فأسس في عام ١٨٨٧م جمعية لهذا العمل، وسافر إلى فلسطين لتشجيع من هاجر من اليهود إليها، وعمل على مساعدتهم على الاستمرار والبقاء فيها، وادَّعى بأن وجودهم في فلسطين يجلب البركة للدولة العثمانية التي يمكن أن تسهل الهجرة إلى فلسطين، من أجل تشجيع تهجير اليهود إلى فلسطين عمل على تنظيم مؤتمر في شيكاغو عام ١٨٨٩م دعا إليه لأول مرة عددًا من الشخصيات المسيحية واليهودية المهمة، وأطلق على المؤتمر شعار "ماضي اليهود وحاضرهم ومستقبلهم"، ونص البيان الختامي على مساعدة اليهود على الهجرة إلى فلسطين وإنشاء وطن قومي لهم هناك، وطالب المجتمعون الدول التي يعيش فيها اليهود وخاصة روسيا بالرأفة باليهود، وأرسلوا نسخة من البيان إلى قيصر روسيا بهذا المعنى.

كتب بلاكستون للرئيس الأمريكي ولوزير الخارجية التماسًا بصفته رئيس المؤتمر المسيحي اليهودي، وقَّعه أكثر من أربعمائة وثلاثة عشر شخصية معروفة منهم أعضاء في الكونجرس وقضاة وصناعيون ورؤساء كنائس ورؤساء تحرير صحف، كان من الموقعين على المذكرة جون روكفلر ووليم ماكينلي الذي أصبح فيما بعد رئيسًا للولايات المتحدة الأمريكية، احتوت الوثيقة على "إن الوقت قد حان لكي تعطف الشعوب المسيحية الغربية على اليهود وترجعهم إلى أرضهم"، واقترح عقد مؤتمر دولي بهذا الخصوص، كما اقترح تعويض الدولة العثمانية بالمال عن فلسطين في حال تخصيصها

لليهود، وربط في التماسه بين السياسي والديني، فمن جانب ذكر بعض نبوءات العهد القديم حينما قال بإنها تشير إلى عودة اليهود إلى فلسطين، ومن جانب آخر أكد على فكرة عقد المؤتمر الدولي وأهميته السياسية وقال أتمنى أن يكون الشرف للرئيس ووزير خارجيته بأن يهتما شخصيًا بهذه القضية العظيمة، ويضمنا عن طريق عقد مؤتمر خاص لكي يتم العمل بأن تصبح فلسطين وطنًا لملايين اليهود المشردين، وزيادة في التشجيع ذكر في البيان أن في حال النهوض بالفكرة وتحقيقها سيكون عمل الرئيس ووزير الخارجية كعمل الملك الفارسي قورش، الذي سمح لليهود بالرجوع إلى فلسطين من منفاهم في بابل لبناء هيكلهم وهو يعتبر بطلاً تاريخيًا عندهم، وعندما تسلم الرئيس المذكرة وعد بأنه سينظر فيها باهتمام، لكنه اغتيل في الفترة الثانية من رئاسته.

هذا، وكتب بلاكستون أيضًا مقالة طويلة في مطبوعة مهمة بخصوص موضوع إنشاء وطن لليهود في فلسطين عنوانها، "هل يمكن للولايات المتحدة أن تتدخل من أجل اليهود"، أشار إلى قدرة اليهود على إنشاء دولة لهم تستوعب الملايين، "ويجب أن يكون لها سيطرة على الحرم الشريف وموقع الهيكل المزعوم، وأن إعادة بناء الهيكل تحت الرعاية الإلهية سيشجع اليهود الأرثوذكس على الهجرة ويؤجج فيهم روح الحماس الديني ويهيئ الطريق لليهود الآخرين للمجيء إلى أرض آبائهم"، وتعني فكرته حول سيطرة الدولة اليهودية المقترحة على الحرم الشريف هو أن يهدم من أجل أن يقام مكانه ما يسميه اليهود "الهيكل الثالث".

عندما ظهرت الحركة الصهيونية وتم إعلانها رسميًا في المؤتمر الأول للحركة عام ١٨٩٧م، كان بلاكستون على اتصال بزعمائها، وعندما طرح خيار أوغندا كوطن قومي لليهود أرسل بلاكستون نسخة من الكتاب المقدس إلى هرتزل مؤشرًا على العبارات التي قال له - طبقًا لتفسيره - إنها تتنبأ بهجرة اليهود إلى فلسطين وليس إلى غيرها.

بعد أن نشر كتاب "بروتوكولات حكماء صهيون" فـــي الولايـــات المتحـــدة الأمريكية، وما لاقى من إقبال عند الناس، أخذ يكتب إلى الصحف مؤكـــدًا على تزوير الكتاب ورافضًا صحة معلوماتـــه وفكـــرة الحكومـــة العالميـــة لليهود، واتهم من يؤيد ذلك بالعداء للسامية لأن ما يقرأه الناس افتراء.

وأثناء فترة حكم الرئيس "توماس ويدرو ويلســـون" قـــدَّم مـــذكرة ثانيـــة للرئيس، ووقعها معه هذه المرة ثمانون شخصية معروفـــة، وأرفـــق مـــع المذكرة أيضًا رسالة جاء في بعضها، "كان لي الشرف أن أحصل على تأييد لتقديم المذكرة نيابة عن اليهود، وإني مؤمن بأن تطور الأحداث ينبئ عن قرب حصول اللحظة المناسبة من أجل أن تأخذ قرارًا كريمًا مثل الذي اتخذه قورش ملك فارس، وأنا متأكد من تعاطفك ورغبتك في مساعدة اليهود في وضعهم المأساوي، وأنا أصلِّي أن تغتنم هذه الفرصـــة لتضـــمن لنفســـك ولشعبنا البركة التي وعدها الرب لإبراهيم ونسله وأن يري رحمة لشـــعب إسرائيل".

كتب لويس برانديس زعيم الحركة الصـــهيونية فـــي الولايـــات المتحـــدة الأمريكية رسالة إلى "جيمس روتشايلد" قال له فيها عن المذكرة "وقد كُتبت مذكرة لهذا الغرض (لتأييد الفكرة الصهيونية)، وقعها كثير من الشخصيات المسيحية المعروفة والتي ستقدم إلى الرئيس في الوقت المناسب لتـــدعم الأفكار المتعاطفة"، وكتب برانديس لبلاكستون رسالة مثمنًا فيها جهـــوده، ومعبرًا له عن سعادته العميقة لعمله لصالح الحركة الصـــهيونية ومقـــدرًا التأثير الذي أحدثته مذكرته، وقال إنه يعتبره أبًا للصهيونية "لأن عملـــك سبق عمل هرتزل"، كما قدَّمه في أحد المؤتمرات الصهيونية على أنه أهم حليف للصهيونية من غير اليهود، وخصص بلاكستون قبل وفاتـــه أمـــوالاً كثيرة لـــ"لويس برانديس" لكي ينفقها في مساعدة اليهود على هجرتهم إلى فلسطين.



لويس برانديس ١٨٥٦ – ١٩٤١ م

Louis Brandis

كان لويس برانديس (١٨٥٦ – ١٩٤١ م) حقوقي وزعيم صهيوني في الولايات المتحدة الأميريكية، وُلِدَ في العام ١٨٥٦ م في لويسفيل في الولايات المتحدة لأبوين يهوديين هاجرا من أوروبا، درس الحقوق في جامعة هارفارد وتخرج منها وعمره عشرون عامًا حيث حصل على أعلى معدل درجات في تاريخ الكلية، عمل في حقل المحاماة في مدينة بوسطن ووقف بجانب الفقراء ولما استقر ماديًا صار يتولى بعض القضايا التي تهم الفقراء بدون مقابل، فذاع صيته وأصبح مسموعًا في المجتمع، وصار يطرح القضايا الهامة، وكان اليهودي الأول الذي يُعين في المحكمة العليا في الولايات المتحدة في العام ١٩١٦ م، ولما كان يعتبر عهد الرئيس ويلسون على وجه التحديد العهد المؤسس للعلاقات الأميريكية – الصهيونية، فرغم أن الحكومة البريطانية هي التي أصدرت وعد بلفور عام

١٩١٧م، غير أن صياغته أعدتها بشكل أساسي شخصيات صهيونية في الحكومة الأميريكية بالتنسيق مع بريطانيا، ويعود ذلك إلى تأثر الرئيس ويلسون الشديد بأفكار قاضي المحكمة العليا "لويس برانديس" صاحب الأفكار الصهيونية، "وقد قيل إن ويلسون كان يعتبر برانديس الرجل الذي يدين له بمستقبله السياسي"، لهذا لعب براندیس دورًا بارزًا في العمل الصهيوني، حيث انتخب بعد الحرب العالمية الأولى رئيسًا للجنة التنفيذية المؤقتة للشؤون الصهيونية، وكان من مؤسسي الكونجرس الصهيوني الأمريكي ورئيس اللجنة التنظيمية له، واستثمر علاقاته مع الرئيس الأمريكي ويلسون الذي قدم بركته لتصريح بلفور، زار براندیس فلسطين عام ١٩١٩ م حيث شارك في المؤتمر الصهيوني العالمي، ونشب خلاف حاد بينه وبين حاييم وايزمان حول كيفية تطوير الاقتصاد والاستيطان في فلسطين، لهذا قرر الاستقالة من كافة الوظائف المتعلقة بالصهيونية ولكنه بقي عضوًا في المنظمة، وساهم في إقامة الشركة الاقتصادية لأرض إسرائيل، وتوفي العام ١٩٤١م.

يرى الباحثون مثل "ماكسويل كودر" بأن أفكار بلاكستون ونشاطاته كان لها أثر كبير في ظهور الفكرة الصهيونية وجعل كثير من اليهود يؤيدون المنظمة الصهيونية، وقال آخرون بإن بلاكستون يُعتبر واحدًا من الأمريكيين القلائل الذين لعبوا دورًا رئيسًا في إنشاء وطن قومي لليهود.

آحاد هاعام Ahad Ha-am :

من أعمدة الفكر الصهيوني الذي ترك أثرًا عميقًا في الثقافة الصهيونية "آحاد هاعام"، في مقاله "الحقيقة من فلسطين" سنة ١٨٩١م، قال:

"كانوا عبيدًا في بلدان الدياسوبرا، وفجأة وجدوا أنفسهم وسط حرية بلا حدود، بل وسط حرية لا رادع لها ولا يمكن العثور عليها إلا في تركيا وحدها، ولقد ولَّدَ هذا التحول المفاجيء في نفوسهم ميلاً إلى الاستبداد، كما هي الحال حين يُصبح العبد السوء سيدًا، وهم يعاملون العرب بروح العداء والشراسة فيمتهنون حقوقهم

بصورة معوجة، ثم يوجهون لهم الإهانات دون مبرر كاف ويفاخرون بتلك الأفعال رغم كل ذلك.. نحن نفكر بأن العرب كلهم من الوحوش الهمج الــذين يعيشــون كالحيوانات ولا يفقهون ما يدور.."

(وثائق الصراع العربي الإسرائيلي)



آحاد هاعام ١٨٥٦ – ١٩٢٧ م

Ahad Ha-am

و"آحاد هاعام" كلمة عبرية معناها "واحد من الشعب" واسمه الحقيقي "أشير تسفي غينزبيرغ"، وكان يوقّع على مقالاته باسم "آحــاد هاعــام"، هــو أشــير تســفي غينزبيرغ، المعروف بــ "آحاد هاعام"، وُلِدَ في العام ١٨٥٦ م في "سكفيرا" فــي أوكرانيا، عائلته غنية.. والده عمل في التجارة، التحق بكُتَّاب البلدة فدرس فيــه المواضيع الدينية، واطلع على كتب تفاسير للتوراة والتلمود، ولما بلغ الســابعة

عشرة من عمره زوَّجه والده لفتاة من عائلة متدينة، ورغم هذا الزواج المبكر إلا أنه واصل دراساته للكتب الدينية، وفي الوقت نفسه بدأ يقرأ كتبًا لأدباء يهود غير متدينين أمثال شولمان، ولما زار أوديسا اطلع على مؤلفات الكاتب الروسي الثوري "بساربيف" التي تركت أثرها على تفكيره، تقدَّم لامتحانات نهاية الدراسة الثانوية ثم تعمَّق في اللغة اللاتينية والرياضيات والتاريخ والجغرافيا، وحاول جاهدًا الانضمام إلى إحدى الجامعات في ألمانيا أو النمسا أو حتى في بلده، ولكن على ما يبدو أن الأجواء الجامعية لم ترق له، ورغم هذا الوضع انكب على المطالعة المتواصلة لكتب الفلسفة.

في عام ١٨٨٤م تعرف على جمعية محبي صهيون في مدينة أديسا بروسيا، وشرع بعد ذلك في كتابة المقالات، وهو الذي تأثر بأعمال بيساريف، من أشهر المقالات التي كتبها سنة ١٨٨٥م، "ليس هذا الطريق" ردًا على قرارات المؤتمر الصهيوني الأول، لقد دفعه المقال (ليس هذا الطريق) إلى تأسيس جمعية (أبناء موسى) (بني موشي) والتي عاشت ثماني سنوات (١٨٨٩-١٨٩٧)، وكان هو رئيسها ومنظّر خطوط عملها ونشاطها، إذ كان يرى أن الطريق هو في إحياء الثقافة اليهودية لكن جماهير الحركة الصهيونية كانت تُعارضه في هذا الرأي وفي رأيه القائل بإن استيطان فلسطين يأتي بأسلوب تدريجي وبحذر شديد.

وبالرغم من ذلك فإن "حاييم وايزمان" كان يستشيره أثناء مفاوضاته مع الإنجليز تمهيدًا لإصدار وعد بلفور، وأهم ما نشره مقال بعنوان "الدولة اليهودية والمشكلة اليهودية" سنة ١٨٩٧ م، قال فيه "لقد انقضت عدة أشهر منذ انعقاد المؤتمر الصهيوني لكن أصداؤه لازالت تتردد في الحياة اليومية وفي الصحافة، ومنذ أن عاد أعضاء الوفود وهم يبهرون أسماع الرأي العام بالمعجزات التي ستتم والشعب اليهودي متلهف إلى سماع هذه الآمال، ثم قال متنبئًا بما ستكون عليه هذه الدولة اليهودية في المستقبل:

"إن التاريخ يُحدثنا عن فلسطين أيام حكم هيرودس وأنها كانت دولة يهودية لكن ثقافتنا القومية كانت موضع احتقار، وقد بذل الحكام الرومان كل ما في وسعهم

لاقتلاع هذه الثقافة، وغرس الثقافة الرومانية مكانها، وهكذا ستكون هذه الدولة اليهودية الجديدة أنها ستنشر الموت وتجلب العار على شعبنا".

زار فلسطين عدة مرات وكتب مقالات أثارت ضجة عن المستوطنات منها مقال "حقيقة من أرض إسرائيل"، حَضَرَ المؤتمر الصهيوني الأول ولم يرشح نفسه للهيئة التنفيذية لأجل أن يظل حرًا للتعبير برأيه لمواجهة هرتزل ومستشاره ماكس نوردو، انتقل للعيش والعمل في بريطانيا وعمل مع حاييم وايزمان على إصدار وعد بلفور، وهاجر إلى فلسطين عام ١٩٢٢م وأقام في تل أبيب، دعا هاعام إلى الصهيونية الروحية، ودعا إلى إحياء الإنسان اليهودي، وإلى تحسين قيمهُ التي لحق بها خلل لوجوده في الشتات وفق تعبيراته ومن ثم إلى الوطن القومي اليهودي، فمِن أفكاره أن الدولة اليهودية هي ليست بداية الشعب اليهودي بل نهاية كل شيء، بمعنى تحقيق الحلم على أرض الواقع، ولتأسيس الدولة يجب تحضير الشعب وتربيته قوميًا وأدبيًا لمعرفة فكره وتراثه، توفى هاعام سنة ١٩٢٧م وتحوَّل بيته بعد ذلك إلى مجمع ثقافي ومكتبه.

ماكس نوردو Max Nordau:

من عمالقة الفلسفة الصهيونية، "ماكس نوردو"، مفكر وأديب يهودي، وُلِدَ في مدينة "بيست" بالمجر، اسمه الأصلي "سيمون ماكسيميليان سودفيلد" ثم غيَّره إلى ماكس نوردو، (وثائق الصراع العربي الإسرائيلي)، والده كان "جابرييل سودفيلد" حاخام وشاعر، تعلَّم ماكس العبرية عن طريق أبيه، لكنه ابتعد عن التقاليد اليهودية واتجه أكثر ناحية الثقافة الألمانية كما فعل تيدور هرتزل، عام ١٨٧٥م شرع نوردو في دراسة الطب في جامعة بودابست بالمجر ثم في باريس بفرنسا، وفي عام ١٨٨٣م نشر كتابه "أكاذيب حضارتنا التقليدية"، هاجم فيه الدين والحضارة باسم العلم والفلسفة الوضعية، هذا وقد صدرت له كتب أخرى حملت نقدًا لأدباء ومفكرين، فكان يدعو إلى تحرير العقل من الثقافات التقليدية.



ماكس نوردو ١٨٤٩ – ١٩٢٣م

اعتبر نوردو نفسه وهو في ذروة حياته الأدبية مواطنًا أوربيًا لا وطـن لـه ولا قومية، فقبل تبنّيه العقيدة الصهيونية دعا إلى حل مشـاكل أوروبـا الاجتماعيـة بالعنف وعن طريق تصدير فائضها البشري (اليهود) إلى الشرق.

وفي عام ١٨٩٢م التقى هرتزل وأصبح بعد ذلك ساعده الأيمن، وكـان لاعتناقـه العقيدة الصهيونية فضل كبير في إظهارها بمظهر تقـدمي، وقـد ألقـى نـوردو الخطاب الافتتاحي عن وضع اليهود في العالم، وذلك خلال المـؤتمر الصـهيوني الأول (١٨٩٧ م)، واستمر على هذا المنوال حتى المؤتمر العاشر (١٩١١ م).

أيَّد نوردو مشروع الوطن اليهودي في شرق أفريقيا، لكنه قال عنه بإنـه مجـرد ملجأ لمدة ليلة واحدة، وهو يعني بأنه سيكون نقطة عبور لفلسطين، وبعد مـوت هرتزل عُرِضَتْ عليه رئاسة المنظمة الصهيونية العالمية، لكنه رفض لأنـه كـان متزوجًا من امرأة مسيحية وفضل أن يبقى مستشارًا سياسيًا لحلفاء هرتزل.

كان نوردو يرى أن الصهيونية ما هي إلا حركة لتوصيل يهود أوروبا إلى فلسطين بأسرع ما يمكن، وقد قضى حياته وهو يهاجم حركة أحباء صهيون التسللية التي وُلدت في روسيا، وهاجم دعاة الصهيونية الاثنية بشقيها الديني واللاديني.

يُعتبر نوردو من المفكرين اليهود الذين مدحوا الجيتو اليهودي، لأنه حمى اليهود وحفظ الشخصية اليهودية، لهذا هاجم الانعتاق الفكري، لأنه حطَّم الجيتو ولم يبقى إطارًا للهوية اليهودية، ومن هنا استخدم نوردو مصطلح اليهودي المارونو أو المُرائي الذي ينظر إلى نفسه كأنه أوروبي، لهذا اعتبر نوردو اليهودي المندمج منافقًا، وكان يرى بأن اليهود المندمجين في مجتمعاتهم يبالغون في وطنيتهم أكثر من الناس العاديين.

طوَّر نوردو صورة المارانو المجازية واستخدم صورة مجازية بجيولوجية عضوية فشبَّه اليهود بالبكتيريا؛ كائنات دقيقة لا تراها العين ولكنها في واقع الأمر تقوِّض المجتمع من الداخل وتَفُت من عضده، وذلك إن لم تُعرَّض للشمس أي إن لم تُرحَّل إلى أرض الميعاد.

كان نوردو من أكثر المفكرين الصهاينة إيمانًا بعدالة معاداة اليهود في أوروبا، وكان يرى أن الحل هو الصهيونية التي ستريح الجميع، لأنها ستنقل اليهود إلى وطن خاص بهم، وستمنحهم هوية جماعية لا علاقة لها بالأوهام الدينية، كون معاداة اليهود ناتجة من مجتمعات الحضارة الغربية كما أن المشكلة اليهودية نبعت من تلك المجتمعات أي حل المسألة اليهودية في إطار السياسة العالمية أي الإمبريالية.

قسَّمَ نوردو اليهود إلى أثرياء وحاخامات، وكلاهما لا تحتاجه الصهيونية لأنها البديل للاثنين، وأما ما يخص التمويل فسيقوم به أفراد الطبقة الوسطى والفقراء من اليهود، وهم ما الصهيونية بحاجة إليهم، لأنهم المادة البشرية التي ستستخدمها، هذا وقد أدرك نوردو تمامًا الطبيعة الاستعمارية العملية للدولة

الوظيفية الصهيونية، ولذا فلم يكف عن الحديث عن فائدتها وجدواها بالنسبة للقوى الاستعمارية.

في بداية القرن العشرين، حاول نوردو أن يعرض المشروع الصهيوني باعتبار أنه قادر على المحافظة على سيطرة السلطان العثماني على فلسطين لمواجهة حركة القومية العربية، وكانت هذه أول مرة يتعرض فيها للعرب (المؤتمر الصهيوني السابع - ١٩٠٥ م)، لكن نوردو توصل إلى قناعة بأن انجلترا هي القوة الاستعمارية الكبرى التي تستطيع أن تتبنَّى المشروع الصهيوني وتضعه موضع التنفيذ، وأن تشيِّد دولة وظيفية لها.

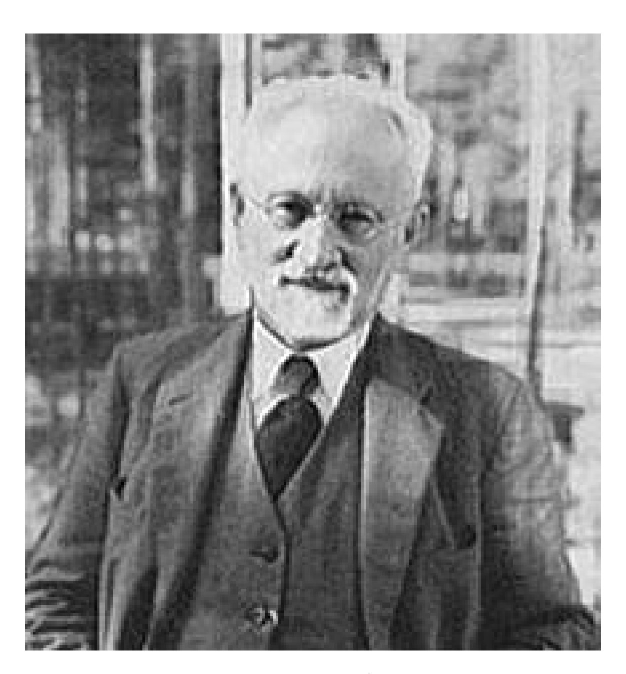
كان نوردو يشعر بأن العرب معارضون بالطبيعة للمشروع الصهيوني، فراح يفسر حركة القومية العربية بطريقة تُسيء إليها وتعمل على تغييبها، كأن يقول في الصحف التي ينشر فيها، بإن الثورة العربية في رأيه تمَّت بقيادة المسيحيين وبعض المسلمين المتعصبين الذين أثاروا مشاعر الفلاحين الجهلة، والقومية العربية وهمٌ، ولا توجد أمة عربية بمفهوم المدنية الأوربية، وإذا حاولوا مقاومتنا، فسوف يتضح لهم بسرعة أن قوتنا لا تقل عن قوتهم.

ورغم فهم نوردو كثيرًا لجوانب المشروع الصهيوني، إلا أنه لم يلعب دورًا قياديًا في الحركة الصهيونية بعد موت هرتزل، فقد ظل يتحرك في إطار الصهيونية الأساسية الشاملة قبل تهويدها، أي أنه صهيوني يهودي غير يهودي، يُعتبر نوردو الأب الروحي للصهيونية التصحيحية فقد كان يشجع الحديث العلني عن أهداف الصهيونية، ولم يعجبه فكرة التنازل عن شرق الأردن، فكان يرى أن نقل ٦٠٠ ألف يهودي مرة واحدة إلى فلسطين وشرق الأردن سيحسم الأمر، وهو في الحقيقة صهيوني يهودي غير يهودي كما أسلفنا، وربما كان يقصد أن ينقل الفائض اليهودي من أوروبا إلى فلسطين ثم يعود إلى اندماجيته.

في عام ١٩٢٣ م توفى نوردو، وبعد ثلاث سنوات تم نقل رُفاته إلى تل أبيب حيث أُطلق اسم تلة نوردو على قسم من المدينة.

سيمون دبنوف Simon Dubnov:

من المفكرين اليهود الشرقيين "سيمون دبنوف"، الذي كان رئيسًا لمركز البحوث اليهودية اليديشية في شرق أوروبا، واليديشية نسبة إلى اللغة التي يتحدث بها اليهود الروس بالرطانة الألمانية، ودبنوف مؤرخ روسي يهودي صاحب فكرة قومية يهود الدياسوبرا.



سيمون دبنوف ١٨٦٠ – ١٩٤١م.

ولد سيمون دبنوف في مدينة مستسيسلو في بليروسيا وتلقى تعليمًا دينيًا عاديًا، لكنه سرعان ما ابتعد وهو في سن الشباب عن التقاليد اليهودية التوراتية وأبطل ممارسة الشعائر الدينية، قرأ عن العلمانية وأتقن العبرية والروسية بالإضافة إلى لغته الأصلية اليديشية، تنقَّل بين عدة مدن روسية بين التجمعات اليهودية وانضم إلى جماعة "آحاد هاعام" (الصهيونية الثقافية العلمانية)، في عام ١٨٨٠ م استعمل وثائق مزيفة واخترق الحظر الذي كان مضروبًا على اليهود ومنعهم من

التنقل وذهب إلى مدينة بطرسبيرج، عمل دبنوف مدرسًا للتاريخ اليهـودي فـي مدينة بطرس بيرج، وأصدر عدة أعمال عن تاريخ الجماعات اليهودية في شـرق أوروبا، (وثائق الصراع العربي الإسرائيلي).

عام ١٩٢٢م هاجر إلى لثوانيا ثم إلى برلين بألمانيا، وفـي عـام ١٩٣٣ م بعـد استيلاء النازيين على السلطة في ألمانيا انتقل إلى مدينة ريجا في لاتفيا، وبعد أن احتل النازي لاتفيا عام ١٩٤١ م كان دبنوف ضمن من جمعوا من اليهـود وتـم قتلهم في معسكر الاعتقال.

تأثر دبنوف بفكر الاستنارة الغربي والفكر المعادي للاسـتنارة، فـرفض الديانـة اليهودية لأنها تتعارض مع الحرية والتفكير العلمي، ولم يهتم بالنبوءات التوراتية عن الشعب المقدس وأرض الميعاد، واهتم بالمنهج الذي يأخذ بالمعطيات المادية والمعنوية، كان دبنوف ينظر إلى اليهود واليهودية باعتبارهما ظواهر اجتماعيـة وتاريخية، وكان يرى أن القومية ما هي إلا مجموعة من الأفراد ينظـرون إلـى أنفسهم على أنهم أمة، لهذا تأثَّر دبنوف بشكل رئيسي بفكرة دولة القوميات كمـا كانت روسيا وإمبراطورية النمسا حيث كل من تلك الإمبراطوريات تكونت من عدة قوميات لها خصوصيتها الدينية ولغتها الخاصة، لكن القوميات في الدولة تتفـق في صنع القرار السياسي من خلال مؤسسات الدولة والتمثيل السياسـي دون أن يكون هذا على حساب القوميات التي تعيش داخل حدود الدولة أو الإمبراطورية.

كان يحبذ دبنوف أن تكون الدولة الصهيونية في وقت ما على ذلك النمط، وهـذا الطرح أو النموذج لتصور التيار الدبنوفي يختلف عما كان سـائدًا فـي أوروبـا الغربية في انجلترا وفرنسا وهولندا وما شابهها من دول حيث الحكم للقومية ذات الأصول الواحدة، راقت فكرة الدولـة المتعـددة القوميـات لـدبنوف لأن فيهـا خصوصية للقومية الواحدة، وفي نفس الوقت توجد حرية فـي الدولـة الحديثـة الجامعة.

كل أطروحات دبنوف كانت تقوم على أن يهود أوروبا الشرقية لهــم خصوصــية تختلف عن غيرهم من جماعات اليهود الأخرى، لكن خصوصيتهم لا تكمــن فــي يهوديتهم العالمية وإنما في يديشيتهم الخاصة النابعة من كــونهم أقليــة داخــل تشكيل حضاري شرقي أوروبي، فيهود اليديشية يشتركون في الخصــائص مــع اليهود الآخرين دون أن يفقدوا خصوصيتهم.

يرى دبنوف كما كثير من مفكري أوروبا في القرن التاسع عشر، بــأن التــاريخ الإنساني مرَّ بعدة مراحل من المادية إلي الروحية ومن البساطة الخارجيــة إلــي التعقيد الداخلي، وقسَّم الأطر القومية إلى ثلاثة، القبلــي، السياســي الإقليمــي، المستقل الروحي، وهذه الأطر مترابطة بشكل عضوي، كان يرى دبنوف أن كــل أمة تمر عبر هذه الأطر خلال فترة تحضرها، فالإطــار القبَلــي، حســب تصــوُّر دبنوف، يرتبط ارتباطًا وثيقًا بالطبيعة، الإطار السياسي أقل ارتباطًا بها، أما الإطار الروحي فهو مستقل عنها إلي حدٍّ بعيد، ويتضح أكثر ما يتضح فــي علاقــة كــل نموذج قومي بالأرض، يؤمن دبنوف بأن الشعب اليهودي شعب روحي فلا يحتاج إلى أرض، وهذا عكس الصهاينة الذين يصرون إلى العودة للأرض وإقامة دولة.

ودبنوف يتصور أن اليهود مروا بالمراحل الثلاث، القبائل العبرانية تجمعــت فــي فلسطين وأقامت دولة، ثم فقد العبرانيون الدولة ثم الأرض، لكنهم حافظوا بطريقة ما على كيان حضاري متشعب ومتداخل مع حضارات أخرى، لكن بقــاؤهم لــيس معجزة تاريخية وهم يشكلون أمة لا دولة ولا أرض لها، وأصبح لهم ميزة أنهــم غير مضطرين إلى استعمال العنف لأنهم ليسوا بحاجــة لاســتعماله، لأن الدولــة القائمة على أرض هي من يمكن أن تلجأ لاستعمال القوة والعنــف، لهــذا كــان لليهود فرصة لتطوير العناصر الروحية في حضارتهم، لم يخلو فكر دبنوف مــن الصواب فقد أثبتت الأيام بأن إقامة الدولة الصهيونية كان السبب فــي اســتعمال العنف ضد الفلسطينيين.

لاحظ دبنوف في عصره تفكك الجماعات اليهودية خصوصًا في روسيا، ولاحظ أن الهجرة اليهودية من روسيا أخذت وجهة الولايات المتحدة وإلى غيرها، ولاحــظ

أن نسبة الاندماج عند اليهود المهاجرين إلى المجتمعات الجديدة عالية، وتصور أن يهود اليديشية سيتحولون إلى يهود روس مثلما صار عليه المهاجرون اليهود الذين اختار غالبيتهم وجهة الولايات المتحدة، وراحوا ينـدمجون في المجتمع الأمريكي وكذلك سيفعل معظم يهود العالم، فالولايات المتحدة تتيح لليهود ولغيرهم تطوير شخصياتهم كجماعات قومية، كون المجتمع الأمريكي هو مجتمع أقليات مهاجرة لكل منها تراث حضاري مختلف عن التراث الحضاري المشترك للأمة الجديدة.

ودبنوف بهذه الرؤية يدحض ادعاءات الصهيونية، وأنها ليست أكثر من وعاء ينتظر قدوم المسيح في إطار سياسي، ولقد أثبتت الأيام نبوءة دبنوف حيث اندمج كثير من يهود اليديشية بالمجتمع الروسي، وأبقوا على ما عندهم كأقلية قومية، كما اتجه كثير من المهاجرين إلى الولايات المتحدة الأمريكية، وراحوا ينـدمجون في المجتمع الجديد ويحتفظون بخصوصيتهم في هذا المجتمع الأمريكي المتعدد الثقافات.

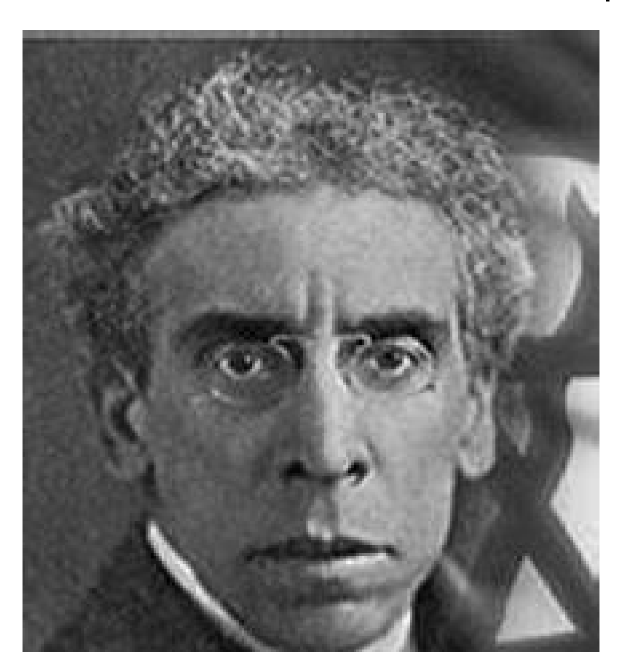
ولكن فات دبنوف أن يتنبأ بما أصبح يحدث من تطور في الزمن الأخير، التطور الذي أدى إلى ارتفاع معدلات الدمج والزواج المختلط والانصهار واختفاء أعضاء الجماعات اليهودية سواء في المجتمع الروسي أو الأمريكي، مجتمعات ما بعد التطور الصناعي والعلمنة، وبروز المجتمعات الحديثة المتشابهة في معظم الدول المتقدمة، التي غزتها العلمنة من أبواب كثيرة حتى صار المجتمع فيها مندمج مع الحركة التي تحكمها آلية المجتمع.

حينما كان يهم دبنوف بمغادرة روسيا في بدء رحلته إلى أوروبا الغربية، قال "إن الهدف من هذه الرحلة هو أكثر من خطة، إننا نود أن نفتح فلسطين ونعود إلى أرض الكيان السياسي اليهودي المستقل الذي سُرِقَ منا قبل ألفي عام، فإن كان هذا أمل فهو ليس حلمًا، يجب أن ننشيء المستوطنات الزراعية في فلسطين، ونشيء المصانع والصناعة، وعلينا أن نطوِّر الصناعة، ونضعها في أيدي اليهود، وفوق هذا علينا أن نُعطي الجيل الجديد التدريب على القتال، وأن نمدهم

بالسلاح، وحينها سيأتي اليوم الذي يصبحون فيه والسلاح في أيديهم، سادة المنطقة".

إسرائيل زانجويل Israel Zangwill:

"إسرائيل زانجويل" روائي إنجليزي يُعتبر زعيم الصهيونية الإقليمية، وُلد في لندن وكان صهيونيًا نشطًا في انجلترا، حينما زار هرتزل لندن وجاء يُبشر بالمنظمة الصهيونية العالمية، كان حريصًا أن يلتقي زانجويل لكي يرتب له اجتماعًا مع قادة الجالية اليهودية في بريطانيا، كان زانجويل مقتنعًا بأن اليهودية لن تكون كما كانت في الماضي إذا خرج اليهود من الجيتو، وقد عالج هذا الموضوع في أعماله الأدبية.



إسرائيل زانجويل

كتاب أطفال الجيتو الذي نشره عام ١٨٩٢م هو تاريخ إحدى الأسر اليهودية التي عاشت في الجيتو، ويقال إنه تاريخ أسرة "إسرائيل زانجويل" نفسه، الكتاب رواية بانورامية تتناول شخصيات يهودية عديدة كلها تفضل الهروب من الجيتو، ففي

الكتاب تناول زانجويل شخصيات يهودية عديدة كان كل همها أن تخرج من الجيتو، ومن أهم الشخصيات التي تناولها في كتاب أطفال الجيتو الشاعر بنحاس، وهو في الواقع صورة كاريكاتورية هزلية للشاعر "نفتالي إمبر" مؤلف نشيد "الهاتيكفاه" النشيد الوطني الإسرائيلي، هاتيكفاه ومعناها الأمل، وهو اسم نشيد الحركة الصهيونية.

من إنجازات زانجويل الأدبية الأخرى "كتاب أبناء الجيتو" الذي نشر أيضًا في عام ١٨٩٢م، وفيه يتحدث عن بعض الشخصيات التي يزعجها ازدواج الولاء والانتماء لعالمين مختلفين، الجيتو اليهودي والأغيار، والكتاب يتناول شخصيات يهودية تترك العقيدة اليهودية، مثل دزرائيلي وهايني ولاسال وشبتاي تسفي.

وأما رواية "حالمو الجيتو"، فقد نشرت عام ١٨٩٨م، وكانت تُعالِج موضوع الجيتو نفسه، وهي مليئة بشخصيات تبحث عن مهرب من الجيتو والقيم الدينية العتيقة التي تُهيمن عليه، أما رواية مآس جيتوية التي نشرت في عام ١٨٩٣م، فإنها تحكي قصة يهودي تزوج من امرأة مسيحية ولكنه لا يملك إلا أن يبقى يهوديًا في الخفاء (هذا ينطبق على زانجويل نفسه)، وروايته "ملك الشحاذين" عام ١٨٩٤م التي تتناول اليهود السفارد (يهود تركيا أصلاً) المقيمين في لندن قبل وصول يهود اليديشية (اليهود الروس)، ومن رواياته الأخرى "كوميديات جيتوية" ١٩٠٧م تلك التي تهتم بمشاكل الجيتو أيضًا.

لزانجويل موقف فريد ومتناقض لكنه واقعي ومتكامل، فهو ينتقد حياة الجيتو ويريد التخلص منه والتخلي عن الأشياء القديمة، لكنه أيضًا تراه معجبًا بالشخصية الجيتوية وفخور بها، لأنها حافظت على التراث والأصالة الثقافية للإنسان اليهودي، يمكن القول بإن رفضه لليهود واليهودية أكثر عمقًا بكثير من إعجابه ببعض جوانب الشخصية اليديشية، يتضح رفض زانجويل لليهود واليهودية حينما يتغنى في كتابه "الدين المقبل" الذي يتمنى فيه أن يأتي دين جديد يُعبر عن الديانتين، اليهودية والمسيحية وكذلك الحضارتين العبرية والمسيحية، وقد صدر له كتاب آخر ألّفه في أواخر أيام حياته اسمه "عقيدتي" نُشر في عام

١٩٢٥م، طالب فيه بيهودية غير يهودية، حتى يتم التوصل إلى عقيـدة عالميـة لكل البشر.

ألَّف زانجويل أيضًا مسرحيات، منها مسرحية "آتون الصهر" التي يتصـور فيهـا الولايات المتحدة على أنها آتون إلهي للصهر، ستذوب فيه كل أجنـاس أوروبـا وتندمج فيه، وتختفي فيه أيضًا كـل الخصوصـيات مـن ضـمنها الخصوصـية اليهودية، إن من أهم آلات الصهر التي يعنيها زانجويل هو الزواج المختلط، وقد كان زانجويل متزوجًا من امرأة مسيحية.

زانجويل ينظر إلى الولايات المتحدة على أنها الترجمة التاريخية النهائيـة لمثـل عصر الاستنارة، التي ستريح الإنسان من عبء التاريخ وتريح اليهود من عـبء الهوية، فقد اعتبر زانجويل وغيره من اليهود الذين استقروا فـي أمريكـا بـأن التراب الأمريكي هو أرض الميعاد بالنسبة لهم، هذا وقد صدرت لزانجويل عـدة روايات أخرى ليس لها علاقة كبيرة بالموضوع اليهـودي مثـل "السـيد" عـام ١٨٩٥م وهي قصة صبي مهاجر من كندا ينجح في أن يصبح فنانًا شهيرًا، ولـه أيضًا رواية "عباءة إلياهو" عام ١٩٠٠م، وهي تحكي عن أحداث حـرب البـوير الأمريكية.

إن موقف زانجويل التوطيني يشبه تمامًا موقف "هرتزل" و"توردو" ويهود غـرب أوروبا بصفة عامة، الذين يعتبرون أنفسهم صـهاينة وملتزمـون بالصـهيونية، ولكنهم يفضلون البقاء في أوطانهم، وأن اليهود واليهودية بالنسـبة لزانجويـل يمثلان له مشكلة تتطلب حلاً لا انتماءً، إن موقف زانجويل هذا ليس له تعريف إلا أنه صهيوني توطيني، وكان أن قدم زانجويل إلى اجتماع المكابيين عـام ١٨٩٦م في لندن، وزار فلسطين عام ١٨٩٧م، وحضر المؤتمر الصهيوني الأول في نفس العام.

كانت توطينية زانجويل عميقة جدًا، وكان جادًا في فكرة التخلص مـن الفـائض اليهودي في أوروبا، لذا فقد شجَّع كثيرًا وألقى بكل ثقله خلـف مشـروع شـرق

أفريقيا لتوطين اليهود، المشروع الذي قال عنه مغريًا بريطانيًــا لقبولــه، بــأن السكان البيض سيتضاعفون إذا ما نُفِذَ المشروع، وسيكون أكثر اســتقرارًا فــي المستعمرة البريطانية، فالاستعمار الاستيطاني بالنسبة إلى زانجويل يُشبه الزواج المُختلَط، وسيلة للتخلص من اليهود، ولتذويبهم في التشكيل الحضاري الغربــي، ولذا حين رفض المؤتمر الصهيوني السابع ١٩٠٥م مشروع شرق أفريقيا، انشق زانجويل عن المنظمة الصهيونية وأسَّس "المنظمة الصهيونية الإقليميــة" التــي كانت تهدف إلى تأسيس إقليم يهودي (ليس بالضرورة في فلسطين)، بهدف إنقاذ وإغاثة اليهود خارج أية تصورات قومية يهودية.

تحمَّس زانجويل في إطار صهيونيته التوطينية، وتوجه يطلب العون من الأثريــاء اليهود المندمجين (لورد روتشيلد ويعقوب شيف)، وحاول توطين بعض المهاجرين اليهود في الولايات المتحدة، ولكنه لم ينجح إلا في توطين بضع عائلات في ولاية تكساس.

حينما أعلن وعد بلفور، كان زانجويل من كبار المتحمسين لاســتيطان فلســطين، والواقع أن هذا الوعد جعل المشروع الصهيوني جزءًا من التشكيل الحضاري، أو على وجه الدقة التشكيل الإمبريالي الغربي، وطالب زانجويل بتفريغ فلسطين مــن سكانها في أسرع وقت، فهو مثل "توردو" و"جابوتنسكي" في عَجَلَــة مــن أمــره ويتمنى اختفاء اليهود حتى يستأنف حياته في غرب أوروبا كمواطن عادي، وقــد وجَّه زانجويل النقد اللاذع للحكومة البريطانية لفشلها في تنفيذ ما جاء في الوعد بسرعة، ومن أقواله، "إن من واجب اليهود بالمستقبل أن يضيِّقوا الخنــاق علــى عرب فلسطين حتى يضطروهم إلى الخروج منها"، ومما قاله زانجويل أيضًا "لابــد أن نُعِد أنفسنا لإخراج القبائل [العربية] بقوة السيف كما فعل آباؤنا، أو أن نكابــد مشقة وجود سكان أجانب كُثر، معظمهم من المحمديين"، ويقول أيضًا "يجــب ألا يُسمَح للعرب أن يحولوا دون تحقيق المشروع الصهيوني ولذا لابد من إقنــاعهم بالهجرة الجماعية"، لكنه مع هذا عاد واكتشف حقيقة الموقف في فلسطين، ووجد

أن المشروع الصهيوني سيرتطم بالسكان الأصليين، لهذا عاد مرة أخـــرى للحـــل الإقليمي، أي أن يتخلى اليهودي عن يهوديته ويسعى إلى الخروج من الجيتو.

كما كان زانجويل من المتحمسين لإنشاء الوطن الصهيوني في ليبيا، فقـــد كـــان المرجع الصهيوني الذي تولى الإشراف على المشروع المقترح في ليبيـــا، وهـــو من تعامل مع اللجنة الصهيونية التي زارت ليبيا لدراسة المشروع ميدانيًا، ذلـــك المشروع الذي كان سينفذ لولا أن الاضطرابات الداخلية قد حدثت في تركيا، وتـــم الإطاحة بالسلطان عبد الحميد الثاني، وتم إسدال الستار على مشروع ليبيا.

من أهم ما كتبه زانجويل مقالاته التي سماها "صوت القدس" التي نُشـــرت عـــام ١٩٢٠م، وكان أن كتب أيضًا خُطب ومقالات وخطابات ونشرها في عام ١٩٣٧م، لكن هذه الكتابات لم تُنشر إلا بعد وفاته، من أعمال زانجويل أيضًا أنه قام بترجمة أعمال "ابن جبيرول" من العبرية إلى الإنجليزية.

نفتالي إمبر Naftali Imber:

"نفتالي إمبر ١٨٥١-١٩٠٩م" هو شاعر يهودي كان يكتب بالعبرية واليديشـــية والإنجليزية، وُلد لأسرة يهودية حسيدية، وتلقَّى تعليمًا دينيًا، وكتب قصيدة وطنية نمساوية فكانت أول جائزة يحصل عليها في الأدب في العام ١٨٧٠ م، بعد وفـــاة والده زار عدة بلدان وقابل زعماء صهاينة من أمثال أوليفانت الصـــهيوني غيـــر اليهودي الذي كان يحاول أن يبدأ حركة استيطانية بـــين اليهـــود، فعمـــل إمبـــر سكرتيرًا له وذهب معه إلى فلسطين عام ١٨٨٢ م.



نفتالي إمبر ١٨٥١-١٩٠٩م

كتب إمبر بالعبرية قصائد بعنوان "تجمة الصباح" والتي منها قصيدة هاتيكفاه، التي أصبحت فيما بعد النشيد القومي لإسرائيل:

"ما دامت روح اليهودي في أعماق القلب تتوق.
ونحو الشرق تتطلع العيون لصهيون.
أملنا لم يُفقَد أبدًا. أمل ألفي عام.
أن نصبح شعبًا حرًا في وطننا.
أرض صهيون وأورشليم".

ذهب إمبر إلى انجلترا حيث تعرَّف إلى "إسرائيل زانجويل"، ثم انتقل إمبر بعد ذلك إلى الشرق وتجوَّل فيه حتى وصل إلى بومباي ويُقال إنه تنصَّر (ويُقال إنه تنصَّر أيضًا بعض الوقت في فلسطين، وهذا ما قاله صديقه إسرائيل زانجويل)، انتقل إمبر بعد ذلك إلى الولايات المتحدة حيث عاش حياة بؤس وفقر وإدمان، وتزوج

من امرأة مسيحية، ترك إمبر بعد موته عدة دواويين من الشعر، وقد نُشـر لـه ديوان شعر في نيويورك عام ١٩٠٥ م بعد مذابح كشـينيف ضـد اليهـود فـي روسيا، وأهداه إلى إمبراطور اليابان التي كانت في حالة حرب مع روسيا.

بقيت سيرة حياة إمبر ذات دلالات رمزية وواقعية، فهو يهودي من شرق أوروبـا وذهب إلى فلسطين مع صهيوني استيطاني غير يهودي، ويترك فلسطين بعد وفاة الصهيوني غير اليهودي، ورغم أن إمبر تلقَّى تعليمًا دينيًا، إلا أن إيمانه الـديني تزعزع تمامًا ويتضح هذا في تَنصُّره بعض الوقت ثم رجوعه عن ذلك ثم زواجـه من امرأة مسيحية ثم انشغاله بالقبَّالاه، لكن تهوُّد هذه المرأة بعد زواجها من إمبر يُبين مدى تَداخُل المسيحية اليهودية بعد أن تمت علمنتها من الداخل، كان إمبـر ممن يبحثون عن الشهرة في سوق الأدب وعن الخلود.

ناحوم سوكولوف Nahum Sokolov:

أما "ناحوم سوكولوف ١٨٥٩ – ١٩٣٦م" فيقول في كتابه (تـاريخ الصـهيونية: "الصهيونية حقيقة بسيطة.. يبدأ تاريخ إسرائيل بالصهيونية، ويُبين هذا التـاريخ في الأزمة السحيقة طريق تحقيق الصهيونية، فالخروج من مصر كان مثلاً للجمع بين الهجرة واستعمار الأرض... والعودة من بابل كانت حدثًا عظيمًا مقابل هـذا اللون من الغيبية القومية، التي تتجاوز مراحل التاريخ وتخلـط بـين المقـولات الاجتماعية".

ناحوم سوكولوف، كان صحفيًا وكاتبًا يهوديًا بولنـديًا، ومـن زعمـاء الحركـة الصهيونية والمؤرخ الرسمي لها، شغل ناحوم سوكولوف مناصب مختلفـة فـي الاتحاد الصهيوني العالمي وكان رئيس الاتحاد بين السـنوات ١٩٣٢ و١٩٣٥م، كان رافضًا للصهيونية حتى حضوره للمؤتمر الصهيوني الأول حيث تغير تفكيره، وصار من أكثر المؤيدين لها، ومن كبار المعجبـين بتيـدور هرتـزل، وعـرَّف الصهيونية بقوله: "ما هي الصهيونية؟ هي في جوهرها وغايتها فلسـطين بكـل

تأكيد، ولكنها في الوقت نفسه، كل ما هو أقوى وأعمق وأكثر حيوية في الديانة اليهودية في العالم أجمع".



ناحوم سوكولوف ١٨٥٩ – ١٩٣٦م"

نشر سوكولوف كتابًا سنويًا بالعبرية طوَّر من خلاله أسلوبًا عبريًا كان له أكبر الأثر في تطوير اللغة العبرية، ولكن أهم كتب سوكولوف كتابه الشهير "تاريخ الصهيونية" عام ١٩١٧م الذي يُعَّدُ أول تأريخ للصهيونية، غير أن اهتمامات سوكولوف الأدبية لم تحل دون أن يصبح زعيمًا صهيونيًا بارزًا، فقد شغل منصب السكرتير العام للمنظمة الصهيونية العالمية، وبنشوب الحرب العالمية الأولى أوفد إلى انجلترا مع حاييم وايزمان للحصول على تأييدها للحركة، كما قام بمهمة مشابهه في إيطاليا وفرنسا وبالفعل حصل على تصريح من فرنسا بتأييد الحركة الصهيونية، وفي نفس العام صدر وعد بلفور.

عام ١٩١٩ ترأس سوكولوف الوفد الصهيوني في مؤتمر الصلح في باريس (مؤتمر فرساي) فقدم برنامج المنظمة الصهيونية للحلفاء عن كيف يمكن تنفيذ مشروع الوطن القومي لليهود في فلسطين.

وعن الباحث الأردني "سمير سمعان": كتب سوكولوف يبرز الصلة الوثيقة بين محاولة إقامة الدولة العربية في الفترة بين (١٨٣١- ١٨٤٠) بزعامة محمد علي باشا وولده إبراهيم باشا، وتبني الاستعمار الفكرة الصهيونية من قبل أن تنشأ منظمتها، حيث لمست بريطانيا احتمال أن ينهض العرب ويقيمون دولة قوية بزعامة مصر في المنطقة، فقال:

"ونشأت (بعد تدخل الدول الأوروبية في شؤون الدولة العثمانية)، مسألة مستقبل فلسطين، هل ستبقى بيد تركية أم هل ستفوز بها بريطانيا العظمى، وكان السائد في الرأي العام البريطاني ضم عكا وقبرص إلى الإمبراطورية البريطانية، فبريطانيا وقد احتلت موقع عكا الحصين كانت لا تضطر إلى السعي لضمان حرية الطريق إلى الهند من أي دولة أخرى، ثم أورد أمثلة عديدة على لسان ساسة بريطانيين نادوا علنًا باستيطان اليهود في فلسطين"، (كتابه تاريخ الصهيونية المجلد الأول ص١٠٤).

من ناحية أخرى، إن الأفكار الفاشية والنازية من ناحية, والأفكار الصهيونية كلاهما هما وجهان لعملة واحدة، لأن جوهر فكرة الفاشية والنازية يقوم على تفوق عرق إنساني على ما عداه، وجوهر الفكر الصهيوني يقوم على أن اليهود هم شعب الله المختار، وأن غيرهم هم من الأغيار.

في عام ١٩٨٣م صدر كتاب "الصهيونية في زمن الديكتاتورية.. التاريخ الموثق لعلاقات الصهيونية والفاشية" للكاتب اليهودي "ليني برينر"، الذي أورد فيه الكثير من الوثائق عن التعاون بين الصهيونية والزعيم الإيطالي الفاشستي، فقد أصبح موسوليني بعد فترة مؤيدًا للصهيونية, وأيدته بالمقابل القيادة الصهيونية بحماس، كان خمسة من مؤسسي حزبه من اليهود، كما نشرت الكاتبة الصهيونية

"بوندي" من اليهود الإيطاليين عن اجتماع زعماء الصهيونية مـــع موســـوليني، فقالت، "قال الوفد الصهيوني من جانبه أن اليهود الإيطاليين سيظلون دائمًا علـــى ولائهم لأرضيتهم الأصلية، ويمكنهم أن يساعدوا على إقامة علاقات مـــع الشـــرق من خلال التجمعات اليهودية هناك"، والتقى "حاييم وايزمـــان" رئـــيس المنظمـــة الصهيونية العالمية عام ١٩٢٣م مع موسوليني وكما التقيا ثانيًا في عام ١٩٢٦م في جو أفضل، وعرض على الصهاينة مساعدتهم في تقوية اقتصادهم، ثم راحـــت الصحافة الفاشية في طبع مقالات تحبذ الصهيونية في فلسطين، وبـــدأ الزعمـــاء الصهاينة في زيارة روما، وظهر "ناحوم سوكولوف" الذي كـــان رئيسًـــا للجنـــة التنفيذية الصهيونية، وبدأ سوكولوف لقاءاته بالدوتشي موسوليني. وقد وصـــفت محادثات سوكولوف وموسوليني بأن الأول لم يمتدح موسليني فقط بصفته إنسانًا بل أعلن أن الفاشية لا يمكن أن تكون ضد السامية، وأن اليهود بصفة عامة لـــن يحاربوا ضد موسليني، لهذا شهدت تلك الفترة علاقة جيدة بين زعماء الصهيونية والدولة الإيطالية حتى أن اليهود رفعوا أعلام الدولة الفاشية في المراكز اليهودية الإيطالية.

مما قاله ناحوم سوكولوف، المنظّر والداعية والمؤرخ الصهيوني المعروف عـــن اغتصاب فلسطين، مقررًا حسم التناقض بين الصهيونية كحركة انبعـــاث روحـــي والصهيونية كحركة استعمارية: أن "نكون صهيونيين فـــي اســـتعمارنا وروحنـــا وديننا"، وهو بذلك يلحق كل من "ديفيد بن جوريون" الذي شبَّه المعارك العنيفـــة، والمذابح الجماعية التي نفّذها الصهاينة ضد الفلســـطينيين بتلـــك التـــي "شـــنّها المستوطنون البيض ضد الطبيعة الوحشية وضد الهنود الأكثر وحشـــية"، ومثـــل "تيدور هرتزل" الذي شبَّه الفكرة الصهيونية بأنها "فكرة استعمارية"، ولذا أرســـل بمشروعه للسير "سيو رودس" ليضع ختم "الشـــرعية البريطانيـــة" علـــى هـــذا المشروع.

جيكوب كلاتزين Jacob Klatzin:

يُعتبر الكاتب الروسي الصهيوني جيكوب كلاتزين (١٨٨٢ – ١٩٤٨ م)، من أهم المنظرين اليهود، فهو ابن حاخام وعالم تلمودي ومن رجال الدين المعروفين، من مواليد بولندا وحاصل على الثقافة الدينية التقليدية، درس الفلسفة في سويسرا وألمانيا على يد هيرمان كوهين، وحصل على الدكتوراة من جامعة برن، هو أحد الكُتَّاب النشطين في الدوريات العبرية، ترأس تحرير دي فيلت بين عامي ١٩٠٩ و١٩١١ م، واشترك مع ناحوم جولدمان في تأسيس دار إشكول لنشر الكُتب العبرية، وساهم في تحرير الموسوعة اليهودية، وأصبح مديرًا للمكتب الرئيسي للصندوق القومي اليهودي بين عامي ١٩١٥ و١٩١٩ م، أقام في سويسرا بعد عام ١٩٣٣ م وغادر في عام ١٩٤١ م إلى أمريكيا بعد أن استولى النازيون على الحكم في ألمانيا، وبعد انتهاء الحرب العالمية الثانية عاد إلى سويسرا ومات فيها. (الموسوعة الحرة **wikipedia**).

تُعتبر كتابات كلاتزكين من أهم وثائق الفكر الصهيوني وأكثرها وضوحًا، حيث تبدو في كتاباته معظم مقولات الصهيونية الدبلوماسية الاستعمارية بشكل واضح، وقد انطلق كلاتزكين في مقولته من أسس بجيولوجية مادية علمانية لا تَقْبل أي تجاوز للمادة أو التاريخ كظاهرة مادية، كما ينطلق من رفض عميق لليهودية يقترب من الكره، وهو يرى أن الجماعات اليهودية ليست جديرة بالبقاء، لأنها مشوهة تشويهًا مرعبًا جسدًا وروحًا، فالمنفى يُفسد شخصية الإنسان وكرامته ويُحوِّل اليهود إلى كائنات بشرية مُمزَّقة ومُحطَّمة وفاقدة لطبيعتها.

لهذا يرى كلاتزين أن الجماعات اليهودية كانت تستطيع التماسك قبل حركة التنوير نظرًا لوجود الدين اليهودي الذي كان بالنسبة إليهم بمنزلة هيكل المنفى، لكن الهيكل المتنقل قد تحطم بفعل الابتعاد عن الدين وفوران العلمانية في المجتمعات التي يقيم اليهود فيها خصوصًا أوروبا الغربية، ويرى أنه لا بد من بدء تاريخ جديد لليهود، فرفض الصهيونية الاثنية أو ما يُسمى "الدينية العلمانية"، لأن المقياس الديني يُعرِّف اليهودي بأنه من يعتنق اليهودية، والعلماني الذي يقال له الروحي يُعرِّف اليهودي بأنه من يتبنى القيم اليهودية، وكلا المقياسين ذاتي

يستند إلى إيمان الفرد وليس له صفة مادية، ويطرح كلاتزكين، بدلاً مــن ذلــك، صيغته على طريقة هرتزل التي يُسميها التعريف العلماني، فيرى أن اليهودي هو المُشارك فقط في التاريخ اليهودي بالمعنى المادي الذي ينشد الاستمرار في هــذا التاريخ.

بهذا يكون كلاتزين قد طرح مقياسًا موضوعيًا وذاتيًا في نفس الوقت، ويُضــيف عنصرين موضوعيين آخرين لتحقيق الهدف، هما الأرض القومية واللغة القومية، لأن بدونهما لا معنى للقومية، والقومية هنا لا تحقق نفسها إلا من خلال الدولــة اليهودية، ويرى أن المهم هو إقامة الدولة حتى تتحقق المضامين التــي تضــفي لونًا قوميًا، لأن استعمار الأرض غاية في حد ذاته وبها تتحقق الحيــاة القوميــة الحرة، ويصير اليهود بذلك شعبًا طبيعيًا ويستمر في حياته القومية على أرضــه، لأن الأرض هي التي تحدد حياة الأمة واللغة وليس الأفكار الدينيــة أو الثقافيــة، اعتبر كلاتزين أن الاهتمام بالأمور الدينية والروحية هو نوع من أنواع المرض.

هذا، وتنبأ كلاتزكين بأن الانتماء اليهودي مع الأيام سيصبح انتماءً عاديًا طبيعيًــا قوميًا صرفًا لا علاقة له بالدين واللغة، وسينتهي الأمر بــاليهود إلــى أن تكــون الأرض واللغة هي كل ما لهم وليس المضمون الديني أو الأخلاقي كما كان اليهود في السابق أو ما كان سببًا في تشتيتهم، يقول كلاتزين إن من يقول غير ما سبق فكأنه يحجب النور عن الذي أتى به هرتزل.

ويتساءل الفيلسوف كلاتزين، ما مصير الجماعات اليهوديــة فــي العــالم، فهــو كالعلمانيين مثل هرتزل ونوردو وجابوتنسكي، كان يرى ضرورة إخلاء أوروبا من يهودها، وضرورة تصفية الدياسبورا (يهود العالم) تمامًا، لأن حياة يهود المنفــى مؤقتة، فأهميتها تكمن فيما تخدم فقط ما يمكن أن يتفق مع مشــروع اســتيطان فلسطين، من وجهة نظره أيضًا، أن حياة المنفى لا تستحق الإبقاء عليها كغايــة في حد ذاتها، لكنها تستحق البقاء فقط إن كانت واسطة انتقال إلى فلسطين بمعنى أن يهود المنفى يجب أن يُركز على استخدامهم لمد العون لمصلحة الاســتيطان، ولأجل الاستفادة منهم، يجب عمل فواصل بينهم وبين الشعوب التي يقيمون بــين

ظهرانيها.. هكذا كان يرى كلاتزين، فمع الوقت سيَضعُف الوجود اليهودي في العالم بالتدريج، وسيظهر نمط يهودي جديد مختلف تمامًا عن نمط يهود العالم، وهذا سيؤدي إلى تقسيم اليهود إلى قسمين، داخلي وخارجي.

لقد ذهب كلاتزكين متفائلاً لرؤيته بأن قال، إن يهود العالم سيختفون بعد انتهاء هذه المرحلة المؤقتة، ولاحَظ أن عملية اندماج اليهود في المجتمعات الغربية كانت قد بدأت وأخذت وتيرتها تتصاعد، وصارت عدوى الاندماج تصيب قطاعات كبيرة وبدا تأثيرها أكثر عمقًا، وسوف تتكفل هذه العملية بتصفية يهود العالم فيتحقق التمييز بين يهود الخارج ويهود إسرائيل، وبين بصورة أكثر دقة علاقة المستوطنين الصهاينة في فلسطين بالجماعات اليهودية في العالم، فاعتبر أن دور يهود العالم هو أن يكونوا أتباع للدولة الصهيونية يعطونها العون والمساعدة ويتناقصون مع الأيام بالاندماج في أوطانهم وبالرحيل إلى إسرائيل حتى يختفون من التاريخ.

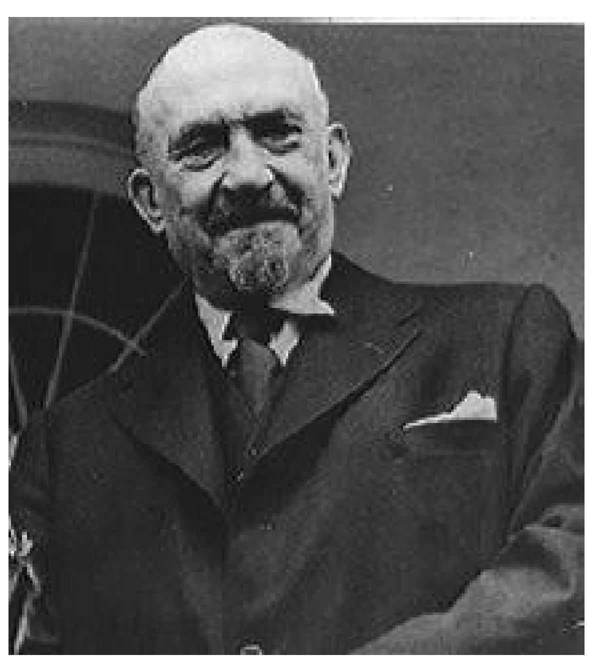
هذا، وقد أدرك كلاتزكين أن هناك صهيونيتين (توطينية غربية واستيطانية شرقية)، وأشار إلى ذلك في كتاباته كثيرًا، فقد قال في أحداها، مجموعة الحدود (١٩١٤ م)، قال "إن هرتزل لم يظهر نتيجة وعي قومي يهودي وإنما ظهر نتيجة وعي إنساني عالمي"، وهو يعني الوعي الغربي، فالصهيونية بين اليهود الغربيين تتغذى بعدد من العوامل الإنسانية العلمانية غير القومية وليس على الديانة اليهودية، فإيمان الصهيوني هو إيمان بقوة الخير والجمال أي بالقيم العلمانية التي لا علاقة لليهودية بها.

خلاصة القول إن كلاتزين يرى أن الصهيونية بالنسبة للغرب تعني الانتماء للحضارة الغربية، وللشرق تعني أن صهيونية يهود الشرق مرفوضة لأنها تعتمد على اليهودية الدينية والاثنية، ومع ذلك فرغم أن كلاتزين تحدث كثيرًا عن يهود المنفى ووجوب تصفيتهم، إلا أنه عاش خارج فلسطين في سويسرا والولايات المتحدة وألمانيا، عالم القيم الغربية، ومات في سويسرا معظم كتابات "جيكوب

كلازين" جمعت في كتابه الذي سماه "تخوم"، من أهم أعمال كلاتزين "معجم للمصطلحات الفلسفية العبرية".

حاييم وايزمان Haim Weizman :

عن الموسوعة الحرة wikipedia، يُعَّدُ "حاييم وايزمان" أشهر الشخصيات الصهيونية بعد هرتزل، وقد لعب الدور الأهم في استصدار وعد بلفور الشهير عام ١٩١٧م، وكان رئيسًا للمنظمة الصهيونية العالمية منذ عام ١٩٢٠م وحتى عام ١٩٤٦م، ثم انتخب كأول رئيس لدولة إسرائيل عام ١٩٤٩م.



حاييم وايزمان ١٨٧٤م – ١٩٥٢م

وُلِدَ "حاييم وايزمان" في بلدة "موتول" في ولاية "بنسك" إحدى ولايات روسيا البيضاء عام ١٨٧٤م، كان والده من وجهاء موتول المتدينين وكان يعمل تاجرًا للأخشاب يقوم بتقطيعها من الغابات ثم ينقلها بعد ذلك إلى الموانئ الروسية لتصديرها.

بدأ حاييم وايزمان حياته الدراسية في معبد البلــدة حيــث درس مبــادئ الــدين والتاريخ اليهوديين واللغة الروسية ولغة "اليديش" التي كان يتحدث بهــا يهــود روسيا، ثم أرسله أبوه إلى مدينة "بنسك" لتلقي تعليمه العالي هناك متخصصًا في الكيمياء، وأكمل دراسته في مدرسة "البولتيكنيكوم" الألمانية التــي كانــت تُعتبــر أشهر معاهد تدريس الكيمياء في أوروبا آنذاك وحصل منها عــام ١٨٩٩م علــى درجة الدكتوراه مع مرتبة الشرف، وفي عام ١٩٠١ م اختارته جامعــة جنيــف للعمل بها محاضرًا مساعدًا، وفي عام ١٩٠٤ م أصبح أستاذًا بجامعة مانشســتر في بريطانيا.

تزوج حاييم وايزمان من "فيرا" وأنجب منها ولدين هما بنيامين وميخائيل، وقــد توفي الأخير في حادث تحطم طائرة أثناء الحرب العالمية الثانية، آمن وايزمــان بضرورة إنشاء وطن قومي لليهود يحفظ لهم هويتهم وكيانهم من الــذوبان فــي المجتمعات التي كانوا يعيشون فيها، وقد وهب علمه وجهده وماله لتحقيق هــذا الأمر، وكان يسعى دائمًا إلى التقريب بين الفرقاء اليهود وجمع كلمتهم ومحاولــة التنسيق بين جهودهم لخدمة الهدف الأعلى وهو إقامة الدولة، كان مــن مــنهج وايزمان في العمل السياسي استعمال كافة الوسائل المتاحــة لتحقيــق الهــدف، فاستعمل الدبلوماسية والعلاقات الشخصية ووسائل الإعلام والمال والتنظيم الدقيق للجماعات والمنظمات الصهيونية، ثم الوسائل العسكرية لتحقيق ما يحلم به اليهود، وبالفعل نجح في ذلك عام ١٩٤٨ م، هذا ويعتبر وايزمان أول من حــوّل مســار الحركة الصهيونية إلى مجال الاستيطان والتعمير بدلاً من سياســة المفاوضــات والاتفاقية التي كان هرتزل يحصر تفكير الحركة فيها، وحصل وايزمان على وعد بلفور الذي بنى عليه اليهود دولتهم.

بدأت اهتمامات وايزمان بالسياسة في وقت مبكر حيث كان يرفض فكرة انــدماج اليهود في أوروبا حتى لا يفقدوا هويتهم وكيانهم، رغم أن هــذه الفكــرة كانــت تسيطر على معظم اليهود آنذاك خوفًا من الاضطهاد الذي كــانوا يشــعرون بــه، وأثناء دراسته في مدرسة "البولتيكنيكوم" كان طالبًا مميزًا ونشيطًا وسط الطــلاب

اليهود في ألمانيا ونشط في إقامة علاقات بينه وبين غيره من الطلاب في الجامعات الأوروبية المختلفة.

كلَّف المؤتمر الصهيوني الثاني حاييم وايزمان بتشكيل الوفد الروسي لحضور المؤتمر، وفي عام ١٩٠١م كلَّفه بحمل اليهود على شراء أسهم البنك اليهودي الدولي وبنك الاستعمار اليهودي، وبزغ نجمه داخل المؤتمر واختير عضوًا في الحركة الصهيونية، كانت أهم إنجازات وايزمان خلال الحرب العالمية الأولى حيث ساعدت اكتشافاته العلمية وبالأخص مادة "الأستون" في تقربه من القيادات السياسية والعسكرية البريطانية التي راح يلح عليها في استصدار قرارًا بإنشاء وطن قومي لليهود في فلسطين فكان وعد بلفور عام 1917م.

كانت المرة الأولى التي سافر فيها وايزمان إلى فلسطين عام ١٩٠٨ م حينما اتهمه خصومه السياسيون بأنه يجاهد من فوق المنابر بالكلمات ولا يعرف شيئًا عن أوضاع اليهود هناك ولا يتحمل العيش وسطهم، ووجد بعد سفره أن اليهود في فلسطين يعملون في مزارع المليونير اليهودي "روتشيلد" وليس عندهم روح المغامرة ويغلب عليهم التواكل، فلما عاد مرة أخرى إلى بريطانيا قرر العمل بأسلوب مختلف يعتمد على تشجيع الهجرة إلى فلسطين على أن يعتمد اليهود على أنفسهم وسواعدهم في العيش هناك.

والمرة الثانية التي سافر فيها إلى فلسطين كانت في عام ١٩١٨ م، ضمن وفد صهيوني قررت الحكومة البريطانية إرساله إلى هناك، لدراسة الأوضاع على الطبيعة في ضوء تصريح بلفور، وقد نصحه الجنرال اللنبي قائد القوات البريطانية في فلسطين بزيارة الأمير "فيصل ابن الشريف حسين" أمير مكة وقائد الجيش العربي وقتئذ، فقابله وربط بينهما علاقة استمرت مدى الحياة، وفي تلك الزيارة وضع حجر الأساس للجامعة العبرية التي افتتحت بعد ذلك بسبع سنوات ١٩٢٥ م.

قال لورد "باسفيلد" عن حاييم وايزمان، "إذا كان لورد روتشيلد لـــه الفضـــل فـــي صدور وعد بلفور عام ١٩١٧م، فإن حاييم وايزمان له الفضل في جعل الـــرئيس الأمريكي هاري ترومان يعترف بإسرائيل عـــام ١٩٤٨م، وأن الصـــراع العربـــي الصهيوني غير عادل، لأن اليهود كان لهم حاييم وايزمان، والعرب ليس عنـــدهم مثله". (كتاب الحصار – كونر كروز أبريان)

بعد موت تيدور هرتزل عام ١٩٠٤ م، أصبح وايزمان بالتدريج أعظم صوت فـــي عالم الصهيونية، فهو عكس هرتزل الذي كان يصادق القادة فقط، كان وايزمـــان قريبا من الناس العاديين ومن كبار الساسة والقادة في انجلترا، كانـــت علاقتـــه متينة مع جيل "ديفيد لويد جورج" و"آرثر بلفور" و"ونستون تشرشل"، وكذلك مـــع حزب العمال في البرلمان البريطاني مثل "هربرت صـــموئيل"، كمـــا أن وايزمـــان استطاع أن يبني علاقة مع فقراء اليهود في بريطانيا، هذا عوضًا عن الشخصيات البارزة، وحصل وايزمان على ثقة دوائر السلطة في بريطانيا حينما لبى الطلـــب بتوفير كميات من مركب السائل الشديد الاشتعال، الذي كان أحد عناصـــره مـــادة "الأستون" الذي اخترعه وايزمان، والذي كان يلزم لصناعة الـــذخيرة العســـكرية التي أفادت بريطانيا كثيرًا في الحرب.

حينما اندلعت الحرب العالمية الأولى وانضمت تركيا بجانب ألمانيا، دعا وايزمـــان بريطانيا وفرنسا باقتسام التركة العثمانية كمدخل لبداية تحقيق الـــوطن القـــومي اليهودي، وهنا يتبين كيف كانت تتشكل المصالح بين الصهيونية والدول الغربية.

حينما طلب "ديفيد بن جوريون" من "حاييم وايزمان" أن يكون رئيسًـــا لإســـرائيل، قبِلَ وايزمان المنصب بلا تردد، إلا أنه أدرك متأخرًا بأن هذا المنصب ما هـــو إلا منصب بروتوكولي احتفالي وليس أكثر، توفي وايزمـــان فجـــأة عـــام ١٩٥٢ م، واعتبر من أكثر الزعماء اليهود الذين تركوا أثرهم في الصهيونية الحديثة.

اتفاقية فيصل وايزمان:

اتفاقية فيصل وايزمان، وُقّعَتْ من قِبَل الأمير "فيصل" ابن الشريف حسين مع حاييم وايزمان رئيس المنظمة الصهيونية العالمية في مؤتمر باريس للسلام عام ١٩١٩م، يُعطي بها لليهود تسهيلات في إنشاء وطن في فلسطين والإقرار بوعد بلفور، وقد نصت على.. (انظر الوثائق في نهاية الكتاب للاطلاع على نص اتفاقية فيصل – وايزمان)

هذا، ومن المعلوم أن وايزمان كان قد رفض في عام ١٩٠٣ م فكرة اختيار أوغندا مكانًا بديلاً لليهود يُنشئون عليه دولتهم بعيدًا عن فلسطين, وقال عام ١٩٠٦ أثناء مقابلته جيمس آرثر بلفور، "إن اليهود يعتقدون أن استبدال فلسطين بأي بقعة أخرى في العالم نوع من الكفر، فهي أساس التاريخ اليهودي، ولو أن موسى نفسه جاء ليدعو إلى غيرها ما تبعه أحد، وسيأتي اليوم الذي سننجح فيه في استعادة بلادنا، فهذا أمر لا شك فيه".

انقسمت الحركة الصهيونية بعد فكرة أوغندا والمؤتمر الصهيوني السابع عام ١٩٠٧ م إلى قسمين: الصهيونية السياسية التي كانت تسعى للحصول على تصريح من السلطان العثماني قبل التفكير في العودة إلى فلسطين، والصهيونية العملية التي عملت على إحياء اللغة العبرية، والاهتمام بالناحية الروحية وخلق واقع صهيوني في فلسطين.

وقد نص صك الانتداب البريطاني في فلسطين في مادته الرابعة على "إقامة وكالة يهودية معترف بها لتقديم النصح للإدارة البريطانية، والتعاون معها في الميادين الاقتصادية والاجتماعية وغيرها فيما يتعلق بتأسيس الوطن القومي اليهودي مع اعتبار الجمعية الصهيونية القائمة هي الوكالة اليهودية حتى يتم تشكيلها"، فدعا وايزمان المنظمات اليهودية العالمية للاجتماع عام ١٩٢٩ م لانتخاب أعضاء الوكالة وتم الاجتماع وانتخبت الوكالة وظهرت إلى الوجود في العام نفسه وأصبحت تتحدث باسم اليهودية العالمية.

وافق وايزمان على الكتاب الأبيض الذي أصدرته الحكومة البريطانية عام ١٩٣٠م

بعد اتصالات هادئة أجراها مع رئيس الحكومة رمزي ماكدونالد على السماح بهجرة ٤٠ ألف يهودي إلى فلسطين عام ١٩٣٤ و٦٢ ألفا عام ١٩٣٥، وحصل بذلك على خطاب بالموافقة من ماكدونالد فأعلن موافقته على الكتاب الأبيض لكن المؤتمر الصهيوني رفض ذلك، وطالب بوضع مواثيق تضمن ما أسماه بعدم التنازل ونصحهم وايزمان بالعمل وبألا يضيعوا أوقاتهم في مثل هذه المواثيق لكن المؤتمر رفض وأسقط وايزمان وانتخب مكانه سوكولوف للرئاسة، لكن وايزمان عاد ونجح في الانتخابات التي أجريت عام ١٩٣٥ م.

في هذه الأثناء اختير وايزمان مستشارًا كيميائيًا فخريًا لوزارة التموين التي كان يرأسها "هربرت موريسون" وخصص له معمل يجري فيه أبحاثه وتجاربه وبدأ تجاربه في إنتاج البنزين الصناعي عن طريق التقطير وعن عمليات التخمير واستخراج الكحول والمطاط الصناعي.

قال حاييم وايزمان في مذكراته، "إن إنشاء الكيان السعودي هو مشروع بريطانيا الأول.. والمشروع الثاني من بعده إنشاء الكيان الصهيوني بواسطته، وإنه يتمنى بعد انتهاء الحرب مساعدة "عبد العزيز آل سعود" في أن يصبح سيدًا على الشرق على ألا يعارض في تحقيق أهدافه"، وحينما غادر وايزمان بريطانيا عام ١٩٤٢ م لتلبية دعوة من الولايات المتحدة للإقامة بها لمواصلة إنتاجه من المطاط الصناعي، قال له تشرشل وهو يودِّعه، "أريدك تعلم يا وايزمان إنني وضعت مشروعًا لكم يُنفَّذ بعد نهاية الحرب (الحرب العالمية الثانية) يبدأ بأن أرى ابن سعود سيدًا علي الشرق الأوسط وكبير كبرائه، علي شرط أن يتفق معكم أولاً، ومتى قام هذا المشروع، عليكم أن تأخذوا منه ما أمكن وسنساعدكم في ذلك، وعليك كتمان هذا السر، ولكن انقله إلي "فرانكلين روزفلت"، وليس هناك شيء يستحيل تحقيقه عندما اعمل لأجله أنا، و"روزفلت" رئيس الولايات المتحدة الأمريكية".

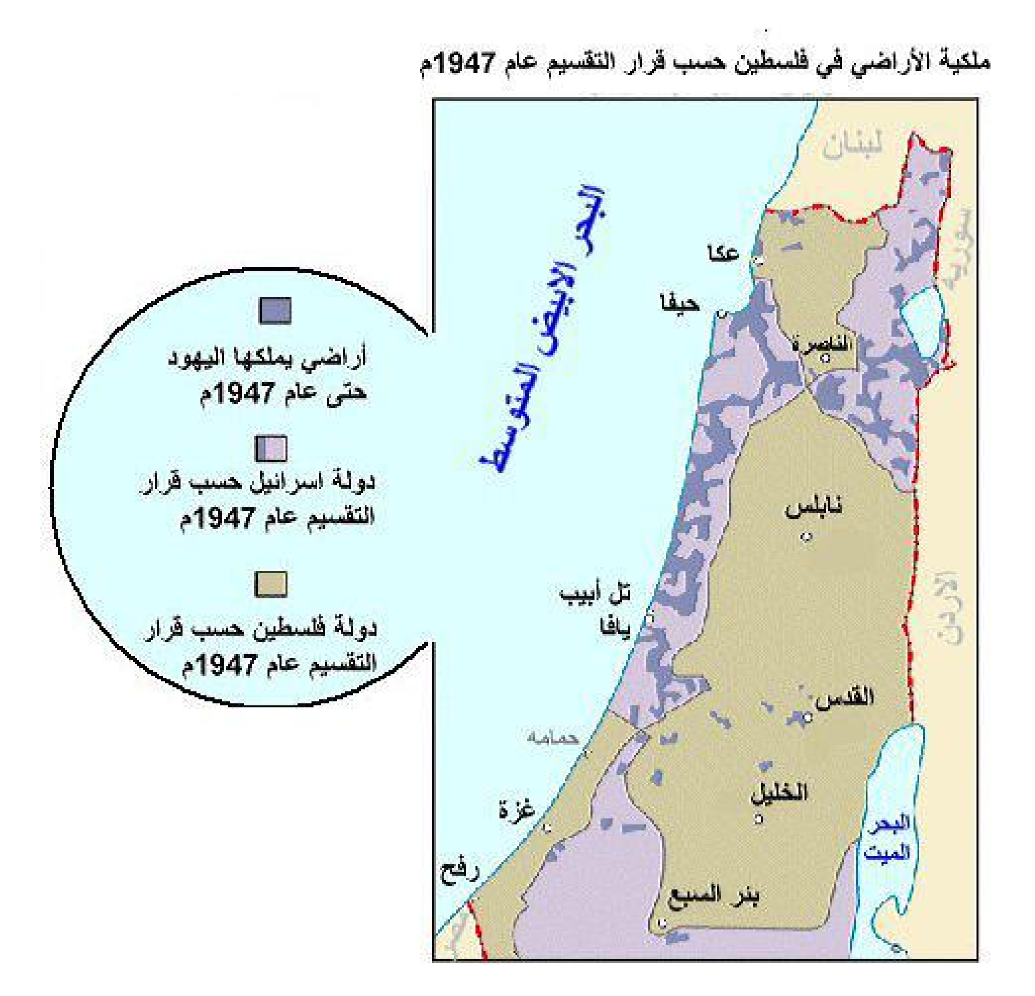
وفي عام ١٩٤٧ م وأثناء إقامة وايزمان في الولايات المتحدة عرضت بريطانيا القضية الفلسطينية برمتها على الأمم المتحدة، وركز وايزمان جهده لمتابعة

مشروع تقسيم فلسطين كما عرض آنذاك، و قد لعب وايزمان دورًا رئيسيًا في قيام إسرائيل، فقد اتفق وايزمان ورئيس الولايات المتحدة الأميريكية ترومان على خطة التقسيم التي ستعمل الولايات المتحدة بثقلها على إقرارها في داخل أروقة الأمم المتحدة، واتفق معه على أن صحراء النقب ستكون تابعة لإسرائيل بعد أن أثبتت الأبحاث العلمية وجود المياه الجوفية بها وعلى أن يكون لإسرائيل منفذ على البحر الأحمر.

وصدر قرار التقسيم بالفعل في ٢٩ نوفمبر عام ١٩٤٧م بموافقة ٣٣ صوتًا ضد ١٣ صوتًا، وقبل اليهود القرار على الفور لأنه أعطاهم الأرض التي كانوا يحلمون بها، بينما قاوم العرب هذا القرار، ولكي تتجنب واشنطون الغضب العربي والإسلامي تحايلت على الوضع فقررت في ١٩ مارس عام ١٩٤٨م، إعادة النظر في الأمر، وعرض الموضوع على الجمعية العامة للأمم المتحدة لاتخاذ قرار بوضع فلسطين تحت الوصاية الدولية بمجرد انتهاء الانتداب يوم ١٥ مايو ١٩٤٨م، لكن رد وايزمان كان قاطعًا "إنني لا أقيم وزنًا لخرافة القوة العربية العسكرية ولابد لليهود من إعلان استقلالهم في اليوم التالي لانتهاء الانتداب، هذه هي الخطوة العملية للخروج من هذا الموقف"، وبالفعل في ١٤ مايو ١٩٤٨م أعلن بن غوريون قيام الدولة اليهودية واعترفت بها على الفور الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي.

لقد كان وايزمان علمانيًا، وكان يُدرك علمانية الحضارة الأوروبية، ويُدرك أيضًا تلاقي المصالح الإمبريالية والصهيونية، فدولة اليهود تحتاج إلى حماية وبريطانيا تحتاج إلى قاعدة في المنطقة، أي أن وايزمان كان يدرك أن الدولة الصهيونية دولة وظيفية، وقد كان وايزمان من المطالبين بإدخال الصفة الإثنية على الصيغة الصهيونية الأساسية الشاملة، وقد كان على خلاف مع "فلاديمير جابوتنسكي" الذي كان يتبنى الحد الأقصى ويُعلن دائمًا عن الأهداف، ويُسجل لوايزمان أنه وسَّع الوكالة اليهودية لتضم يهودًا ليسوا صهاينة حتى يدعون بين جماعاتهم للمشروع الكبير.

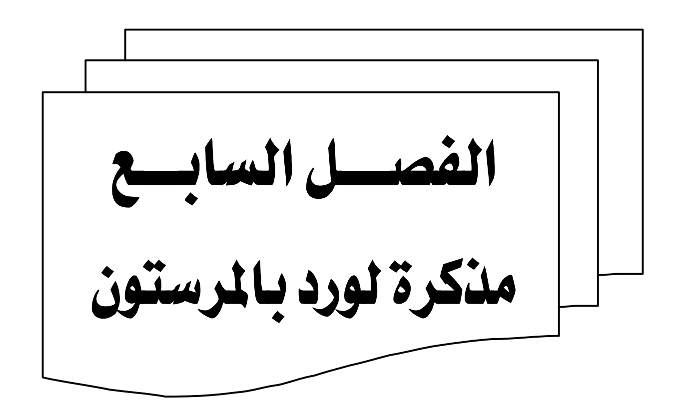
ملكية الأراضي في فلسطين حسب قرار التقسيم عام 1947م



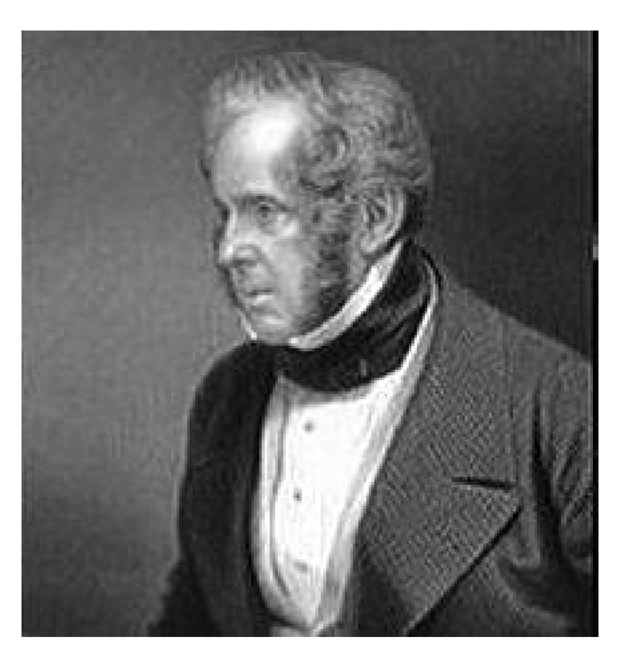
يقال إن وايزمان حينما عرف عن طرد العرب من مدنهم وقــراهم عــام ١٩٤٨م قال عن ذلك، إنها معجزة أدَّت إلى تطهير أرض إسرائيل، وهذا يدل أن وايزمـــان كان يتحرك داخل إطار حلولي بدون إله كونه علماني، فحينما عُــرض عليـــه أن يكون اليهود في فلسطين في وضع الأقلية، وعليهم بأن يتعايشـــوا مـــع العـــرب الفلسطينيين، تمتم بكلمات ذات نسق حلولي مثل، "الرب سيضع يده مـــرة ثانيـــة ليستعيد بقية شعبه ويرفع راية لكل الأمم، وســـيجمع المشـــردين مـــن إســـرائيل وسيجمع المشتتين من يهودًا من أركان الأرض الأربعة".

كان وايزمان سياسيًا محنكًا وماكرًا، فقد كان يُعلن ما لا يضـــمر، وكـــان يـــراوغ كثيرًا في خطابه السياسي المُعلن لأي جهة أو فريق، كان يقول مثلاً بإنه ليس من الضرورة أن يكون اليهود أكثرية في فلسطين وهو يعني العكس، لأن أفعاله تكون في العادة غير أقواله، وربما كان يعلن مثل تلك الشـــعارات لأجـــل عـــدم إثـــارة مسئولي الإمبراطورية البريطانية التي تهتم في العادة بمصالحها العليا والبعيـــدة أحيانًا مع العرب، ووايزمان في نفس الوقت حينما يُعلن قبوله المراوغ أن يكـــون اليهود أقلية في فلسطين، فإنما هو في نفس الوقـــت يُغضـــب زعمـــاء الحركـــة الصهيونية الآخرين، الذين سمعوا منه سابقًا عن مواقفه المتشددة بـــأن يكـــون اليهود أكثرية في فلسطين! في عام ١٩٣١م كلَّفه هـــذا الأســـلوب المـــراوغ أن اهتزت ثقة الصهاينة به فخسر الانتخابات وتخلى عن رئاسة الوكالة اليهوديـــة، ومع صعود هتلر للسلطة، زاد عدد المهاجرين اليهود إلى فلسطين وأعيد انتخاب وايزمان لرئاسة الوكالة اليهودية عام ١٩٣٥م.

وفي عام ١٩٤٨ اختير وايزمان رئيسًا للمجلس الرئاسي المؤقـــت، وفـــي عـــام ١٩٤٩ انتُخِبَ كأول رئيس للدولة الإسرائيلية، وقد ألَّف وايزمان في عام ١٩٤٩ كتابه الذي يتضمن سيرته الذاتية "التجربة والخطأ" وبعد صراع مع المرض توفي عام ١٩٥٢ م عن عمر يناهز ٧٨ عامًا.


الفصــــل السابــــع
مذكرة لورد بالمرستون

حينما تولى "اللورد بالمرستون ١٧٨٤ – ١٨٦٥ م" وزارة الخارجية البريطانية عام ١٨٣٠م أول مرة؛ كان ضعف الإمبراطورية العثمانية واضحًا، خاصة عندما احتل محمد علي باشا منطقة بلاد الشام، كانت روسيا وفرنسا تتلهفان على موت الدولة العثمانية أملاً في الحصول على نصيبهما من ممتلكات الإمبراطورية العثمانية، لذا ومن باب المنافسة مع روسيا وفرنسا، بدا بالمرستون وكأنه يحاول أن تبقى الدولة العثمانية سليمة وحية، وهو في الحقيقة كان يبحث عن من يحمي مصالح بريطانيا في الشرق العربي، وقد وجد ضالته في اليهود وذلك بتأسيس كيان لهم في المستقبل، بحث الأمر مع اللورد "شافتسبري" الذي أفصح عن مشروع أعده منذ زمن، واطلع بالمرستون عليه، وهو الاستيطان اليهودي في فلسطين وتكثيفه، لم ينجح مشروع شافتسبري لكن صاحبه لم يعرف اليأس وهو صاحب الجملة المأثورة، "فلسطين أرض بلا شعب إلى شعب بلا أرض"، حيث أصبحت تلك الجملة فيما بعد أول الشعارات عند الصهاينة.



لورد بالمرستون ١٧٨٤ – ١٨٦٥ م

في عام ١٨٠٧ م خلال تصاعد المشاريع البريطانية البروتستانتية، واهتمام

بريطانيا بفلسطين والمسألة اليهودية، تم في بريطانيا تأسيس "الجمعية اللندنية لنشر المسيحية بين اليهود"، لأن ذلك سيُعَجِّل من عودتهم إلى فلسطين، على إثر ذلك أقامت بريطانيا كاتدرائية للانجليكان في القدس عام ١٨٤٤ م، وممن تأثروا بالمشروع كان "أنتوني أشلي كوبر" الذي اشتهر باسم "اللورد شافتسبري"، الذي كانت تربطه علاقة قرابة مع "بالمرستون" وزير خارجية بريطانيا إلى جانب التقاء أفكارهما حول مصالح بريطانيا الاستراتيجية في الشرق والاهتمام الديني بمستقبل اليهود، كان شافتسبري يعتقد اعتقادًا عميقًا بالظهور الثاني للمسيح، وظل هذا الاعتقاد أحد القوى المحركة الدائمة في حياة شافتسبري، الذي كان يقول عن نفسه أنا "إنجيل الإنجيليين" وهو يعني بذلك أنه كرَّس حياته من أجل رسالة دينية.

في فلسطين بالذات وحول ساحل البحر الأبيض المتوسط، كانت تدور في ذلك الوقت أحداث خطرة خلقت فرصة وصنعت منعطفًا تاريخيًا، وراحت توجد ظروفًا جديدة بسبب تقدم قوات "محمد علي باشا" والي مصر شمالاً عام ١٨٣١ م بينما كان أسطوله يحاصر الحامية العثمانية في عكا، فبعد سقوط عكا اندفعت قوات "إبراهيم باشا" ابن محمد علي إلى الشمال، فاحتل سوريا وراح يهدد عاصمة الخلافة العثمانية، وعلى إثر شعور بريطانيا بالقلق من جراء التهديد الروسي لأملاك الخلافة العثمانية بعد أن استعانت تركيا بالروس لوقف جيش محمد علي، وحيث كانت قد بدأت وحدات الجيش الروسي على الفور بالاستعداد للتقدم إلى الجزء التركي من الأراضي العثمانية، عمل بالمرستون على عقد اتفاق مع القوى الأوروبية الرئيسية (فرنسا والنمسا) للتعاون والعمل على وقف الخطر الروسي، وذلك بالضغط على محمد علي لوقف حملته على دولة الخلافة.

كان موقف فرنسا على إثر حملة محمد علي وتوسعه خارج مصر قد بدا أنها تستفيد وأن نفوذها يتسع، حيث أن "محمد علي" كان قد استعان بالضباط الفرنسيين لتدريب قواته، وبذلك يمكن أن يعود نفوذ فرنسا في المنطقة، لكنها الآن أمام الخطر الروسي الكبير الذي قد لا يدع لها شيئًا من النفوذ، بالنسبة

لروسيا فقد وجدت في الاستجابة لطلب الحماية الموجَّـه إليهـا مـن السـلطان العثماني فرصة للتقدم نحو مضيق الدردنيل، وفي نفس الوقت هي قلقة من تزايد النفوذ الفرنسي المحمول على خيول جيش محمد علي الذي يهدد بإسقاط الخلافة العثمانية.

وأما بالنسبة إلى النمسا فلم يكن لها طموحات في مصر أو في سوريا والمنطقـة بصفة عامة، لكنها كانت ترى خطرًا في التقدم الروسـي إلـى البسـفور، وأمـا بريطانيا فقد كانت مصالحها تتضارب مع الجميـع، فوجـدت أن حمايـة أمـلاك السلطان وضمان بقاء دولته هو ضمان لحماية الطريق إلـى الهنـد، فـي عـام ١٨٣٤م عقد بالمرستون اتفاقًا تجاريًا مع تركيا تتعهد فيه بريطانيا بحماية أملاك الدولة العثمانية مقابل بعض التسهيلات، وفتح قنصلية بريطانية في القدس بنـاء على إلحاح اللورد شافتسبري الذي اعتبره المؤرخون صهيونيًا غيـر يهـودي، وحيث أنه كان قد نشر في عام ١٨٣٣ م مقالاً طويلاً وضع فيه تصوره لمسـألة عودة اليهود إلى فلسطين، واتجه إلى وزير الخارجية بالمرستون لتحقيق هدفـه، في يومياته كتب شافتسبري:

"بعد العشاء تُركتُ وحيدًا معه، فقدمت خطتي، التي بدا وكأنه جُذب إليها، طـرح أسئلة عديدة وأجبت عليها، كان علي أن أجادل سياسيًا واقتصاديًا وماليًا حول كل جوانب الخطة، لقد اختار الله بالمرستون ليكون أداته من أجل خير شعبه القديم".

لم يكن بالمرستون متدينًا لكنه كان يستجيب للرأي العام البريطاني الذي كان يتابع أحداث منطقة شرق البحر الأبيض المتوسط، في العام ١٨٣٨م حـاول السـلطان استعادة سلطته في سوريا وفلسطين فأرسل جيشًا لانتزاعها من حكم محمد علي، مستغلاً ثورة السكان في سوريا ضد حكم إبراهيم باشا، إلا أن جيشه هُزِمَ هزيمة نكراء، واستسلم الأسطول العثماني لجيش محمد علي، وتـوفي السـلطان سـنة ١٨٣٩م حتى قبل ورود أخبار الهزيمة إلى عاصمة الخلافة، فـي هـذه الأثنـاء أصبح محمد علي أكثر تصميمًا على إسقاط الخلافة العثمانية وإعادتها إلى العرب بقيادة مصر، فدخلت جيوشه سهول الأناضول مدعومة بتأييد فرنسـي لا يخفـى

على أحد، وهنا دعا قيصر روسيا كُلاً من بريطانيا وبروسيا والنمسا إلى اتخـــاذ الخطوات الضرورية لأجل إيقاف جيش محمد علي والنفوذ الفرنسي في المنطقة، اجتمعت القوى الأربع في لندن واتفقت على وقف محمد علي ومنحه فقــط إدارة فلسطين إضافة لمصر فرفضت فرنسا الاقتراح.

في ١١ أغسطس ١٨٤٠م وبعد لقاء آخر بين شافتسبري وبالمرســتون، أرســل الأخير إلى سفيره في اسطنبول مذكرة، وهكذا صار يرى بالمرستون ويتحســس العلاقة بين سياسة حكومته ومشروع لــورد شافتســبري، وفــي يــوم رســالة بالمرستون إلى سفيره في اسطنبول كان الأسطول البريطاني قد بدأ قصف بيروت وتقدمت وحدات بريطانية فاحتلت صيدا ثم عكا، وأوقــف محمــد علــي وحُطِــمَ مشروعه، ولم يكن "لويس فيليب" ملك فرنسا مستعدًا لخوض معركة ضد القــوى الأوروبية مجتمعة حول مصير الدولة العثمانية، وهكذا كانت معاهدة لنــدن عــام ١٨٤١م التي وقَّعت عليها فرنسا أيضًا وتم فيها إقرار ولاية محمد علي وإدارتــه الوراثية لمصر، وازداد اهتمام بريطانيا بمصر وفلسطين.

كان بالمرستون يقول إن تركيا بلد متأخر وبحاجة إلى اللحاق بركــب الحضــارة الغربية، وعلى ذلك تم افتتاح أول قنصلية بريطانية في القدس عام ١٨٣٤م وذلك لحماية المصالح البريطانية في الشرق، والاهتمام بتشجيع اليهود للهجــرة إلــى فلسطين، كانت التعليمات البريطانية للقنصلية في القدس الاهتمام بشؤون اليهود وتسجيلهم في القنصلية بقصد حمايتهم، وكانت الحماية البريطانية لليهود الــذين يحملون جنسيات أجنبية، أما يهود الإمبراطورية العثمانية فكانوا يُعتبرون رعايــا للإمبراطورية خاضعين لتشريعات السلطان.

لذا يُلاحظ بأن لبريطانيا دور مبكر، وكانت تُخطط بتكتم مــع الســلطان العثمــاني لتجميع اليهود في فلسطين تحت الحماية البريطانية وبموافقــة الســلطان، إلا أن الهدف الأول من هذا التخطيط كان المصلحة البريطانية تجاريًا وذلك بسبب موقع فلسطين على الطريق بين بريطانيا والهند.

بعث "اللورد بالمرستون" رسالة عام ١٨٤٠م إلى السفير البريطاني فـــي تركيـــا، طلب فيها حث السلطان على إصدار قرار بتشجيع تجميع اليهود المبعثـــرين فـــي أوروبا تحت حماية السلطان ومباركته، وقال إنه إذا صدر مثل هذا القرار فإن ذلك سيعمل على انتشار روح الصداقة تجاه السلطان وبين جميع يهود أوروبا.

(نص مذكرة بالمرستون إلى سفيره – انظر الوثائق في نهاية الكتاب)

ولأسباب اقتصادية وسياسية واستعمارية لمنافسة بريطانيا العظمى في ذلك العصر، والعمل على شل حركة التجارة البريطانية بين الهند وأوروبا، عملت أيضًا فرنسا بقيادة "نابليون بونابرت" على احتلال مصر والتوجه نحو بلاد الشـــام، وراحـــت تحاول استغلال اليهود الآداة الدائمة لخدمة المتنفذين في العـــالم حينمـــا تلتقـــي المصالح، فأصدر نابليون نداءه الشهير إلى يهود العالم ســـنة ١٧٩٩م. (نـــص النداء في قسم الوثائق في نهاية الكتاب)

وقد نُشر أيضًا خطاب العالم الطبيعي "جوزيف بريستلي" إلى نسل إبراهيم وإسحق ويعقوب سنة ١٧٩٩م:

"فلسطين، مجد البلاد قاطبة، تؤلف الآن جزءًا من الإمبراطورية التركيـــة، وهـــي تكاد تكون خالية من السكان، أرضها لا تعرف الحراثة أبدًا، إنها فارغة ومستعدة لاستقبالكم، غير أنه ما لم (تنهار) هذه الدولة التي تحتفظ لنفســـها بتلـــك الـــبلاد دونما أية منفعة يجنيها، فمن المحال أن تُصبح بلادكم، لـــذا فأنـــا أصـــلي جـــديًا لأغلالها". (المكتبة الحرة wikisource).

كان السعي اليهودي حثيثًا، وكان متلهفًا ومستميتًا أن يكون لليهود وطن فـــي أي بقعة من الكرة الأرضية وبأي ثمن، فهنا نلمس من الرسالة التي كتبهـــا تيـــدور هرتزل إلى الثري اليهودي روتشيلد أحد ممولي الاســـتيطان الصـــهيوني، بـــيَّن هرتزل في رسالته أن الحركة الصهيونية لم تكن تبحث فقط عن فلسطين لتوطين اليهود بها، وهو ما يبطل دعاوي اليهود الكثيرة التي يربطونها باليهودية، وهـــو

ما يثبت بأن الصهيونية ليست أكثر من حركة استعمارية مغـامرة تسـتند علـى المنفعة فقط، في ١٥ يونيه عام ١٨٩٥م كتب هرتزل إلى روتشيلد يقول:

لقد تركنا مفاوضينا الدبلوماسيين في أمريكا الجنوبية، يُتممون معاهدات الإحـلال مع الدول هناك، لقد انتهت هذه المعاهدات الآن ونحن متأكدون من الـبلاد التـي سنحتلها، ليس هناك شك من أن هذه العملية شرعية ولكنها ليست خاليـة مـن الوساوس، نحن نعرف أن الثمن يزداد ازديادًا لا يدري به البائع في البدء، ولهذا السبب وبعد أن تتم معاملات البيع والشراء نُعطي البائع حق الاختيـار بـين أن يقبض الثمن نقدًا أو يأخذه أسهمًا حسب القيمة الاسمية، أما إذا ظن بـأن الأمـر كله خديعة فإنه بذلك يسيء إلى نفسه أكثر، وعلى كل حال فلن يكون علينا لـوم في شيء، إن أرض اليهود الجديدة يجب أن تستكشف وتستخدم بجميع الوسـائل الحديثة، وعندما يقرر علماؤنا الجغرافيون البقعة التي سـنأخذها وبعـد أن تـتم معاملات الشراء وعقوده الدولية والخاصة، ستسير سفينة إلى ذلك المكان لتستلم الأرض، ستحمل هذه السفينة موظفين إداريين وفنيين مختلفين ومنـدوبين مـن الجماعات المحلية، سيكون عمل هؤلاء الرواد مقسمًا في ثلاثة أمور:

أولاً: دراسة خصائص البلاد الطبيعية درسًا دقيقًا.

ثانيًا: تأسيس إدارة مركزية محكمة.

ثالثًا: توزيع الأراضي.

وهذه الأعمال الثلاثة تتلاحم معًا، ولا بد أن نوسعها بحكمة لتتناسب وغايتنا التي هي معلومة لدى الجميع، هناك أمر واحد لم نوضحه بعد، وهـو طريقـة توزيـع السكان على المناطق المختلفة بالنسبة للجماعات المحلية، شرط مهم هنا أن نفكر بالطقس ونُعطي لكل فئة ما يشبه الطقس الذي هم متعودون عليـه فـي مكـان إقامتهم الأول، بعد هذا التقسيم العام تأتي الاعتبارات الأخرى الخاصة، وسـيكون كل شيء مُنظمًا منذ البدء، وحتى على السفينة التـي ستسـير لاحـتلال الـبلاد سيعرف كل واحد مهمته واضحة، العلماء والفنيون والرؤساء والموظفون وأخيرًا

وأهم، الجميع الممثلون المعتمدون للجماعات المحلية، وعندما تبدو بلادنا الجديدة من بعيد سيرتفع علمنا على سارية.

لورد آرثر بلفور Lord Arthur Balfour:

وأما "لورد آرثر بلفور" فقد ولد في "ويتنهام" باسكتلندا عام ١٨٤٨م، درس العهد القديم وعمل دراساته العليا في "كمبرج" و"إيتون بـانجلترا"، زار فلسـطين عـام ١٩٢٥م وحضر افتتاح الجامعة العبرية بالقدس.



لورد آرثر بلفور ١٨٤٨م

انتخب بلفور في البرلمان وعمل وزيرًا لاسكتلندا عـام ١٨٨٧م، وعمـل وزيـرًا لشئون أيرلندا من عام ١٨٨٧م لغاية ١٨٩١م، ثم عمل وزيرًا للخزانة لبريطانيـا وأصبح في عام ١٩٠٢م لغاية ١٩٠٥ رئيسًا للوزراء..

في ٢ نوفمبر عام ١٩١٧م أصدر تصريحًا مكتوبًا باسم الحكومة البريطانية إلـى اللورد "روتشيلد" يتعهد فيه بإنشاء وطن قومي لليهود، وارتبط اسمه عند العرب بذلك التصريح الذي سمي بوعد بلفور.

(نص وعد بلفور في قسم الوثائق في نهاية الكتاب).

تلقَّى بلفور تعليمًا دينيًا من أمه في طفولته، واهتم بتعاليم العهد القديم، خصوصًا في تفسيراتها الحرفية البروتستانتية التي تدَّعي بأن فلسطين هي أرض الميعاد للشعب اليهودي، ورؤية بلفور لليهود متأثرة بالرؤية الألفية الاسترجاعية التي تراهم باعتبارهم شعبًا مختارًا ومجرد وسيلة للتعجيل بخلاص البشر، وهي الرؤية التي تمَّت علمنتها فتحوَّل اليهود إلى الشعب العضوي (المختار) المنبوذ.

ويتجلى هذا المزيج من الكره والإعجاب من جانب بلفور في تلك المقدمة التي وضعها بلفور في مقدمة كتاب سولوكوف "تاريخ الصهيونية" حيث يُبدي معارضته لفكرة المُستوطَن البوذي أو المُستوطَن المسيحي، فالمسيحية والبوذية من وجهة نظره هما مجرد أديان، ولكنه يَقْبل فكرة المُستوطَن اليهودي لأن "العِرْق والدين والوطن" أمور مترابطة في حالة اليهود كما أن ولاءهم لدينهم وعِرْقهم أعمق بكثير من ولائهم للدولة التي يعيشون فيها، إن هذا الشعب العضوي يتميَّز أعضاؤه بالنشاط والحركية، ولذا فقد حققوا نجاحًا باهرًا في المجتمع.

لكن بلفور في نفس الوقت يرى أن هذا الشعب العضوي المختار هو أيضًا جماعة أجنبية معادية تؤمن بدين هو محل كره مُتوارَث من المحيطين بها، أدَّى وجودها في الحضارة الغربية إلى بؤس وشقاء استمرا دهرًا من الزمان وتطلب أن يرتاح المجتمع البريطاني من هذا الفائض البشري غير المنتج، الذي يتعاظم عدده كلما مر الوقت، ولأن تلك الحضارة لا تستطيع طَرْد أو استيعاب هذه الجماعة، فهُم يتسببون في كوارث تحيق بانجلترا كما فعل يهود اليديشية المهاجرون إليها، وأن بلفور يدرك جيدًا أن ولاء اليهود للدولة التي يعيشون فيها ضعيف إذا ما قُورن بولائهم لدينهم وعرْقهم، وذلك نتيجة طريقتهم في الحياة ونتيجة عزلتهم، وخَلَصَ بلفور إلى أنه ليس من مصلحة أي بلد أن يكون فيه يهود، مهما بلغت وطنيتهم وانغماسهم في الحياة القومية.

وانطلاقًا من كل هذا، فقد تبنَّى قانون الغرباء الذي صدر بين عامي ١٩٠٣ و١٩٠٥م والذي كان يهدف إلى وضع حدٍّ لدخول يهود اليديشية إلى انجلترا، وقد أدَّى موقفه هذا إلى الهجوم عليه من قِبَل المؤتمر الصهيوني السابع ١٩٠٥م

حيث وُصفت تصريحاته بأنها "معاداة صريحة للشعب اليهـودي بأسـره"، كما هاجمته بعض الصحف البريطانية، وقد يبدو الأمر لأول وهلة وكأنـه نـوع مـن التناقض الواضح الذي يقترب من الشيزوفرانيا، ولكن أفكار بلفور الاسـترجاعية (علمانية كانت أم دينية تُعبِّر عن رغبة في التخلص من اليهود لخدمة الحضـارة الغربية، فالشعب العضوي المنبوذ لا يمكن أن يحـل مشـكلته داخـل التشـكيل الحضاري الغربي عن طريق الاندماج في المجتمعات الغربية، وإنما يمكنه حلهـا من داخل التشكيل الاستعماري الغربي عن طريق التحول إلـى مـادة اسـتيطانية نافعة بيضاء تُوطَن خارج أوروبا في أية بقعة في آسيا أو أفريقيا، وبالفعل تعمَّق اهتمام بلفور بالمسألة اليهودية حـين حضـر هرتـزل وتفـاوض مـع وزيـر المستعمرات "جوزيف تشامبرلين" ووزير الخارجية "لانسدون" لإيجاد وطن لليهود خارج أوروبا، فتم عرض مشروع أوغندا وغيره.

في عام ١٩٠٥م، قام بلفور بمقابلة حاييم وايزمان في مانشسـتر وأعجـب بـه كثيرًا، ولكنه نسي فكرته الصهيونية إلى حدٍّ كبير في فترة الحرب، ثم قابله مـرة أخرى عام ١٩١٥م وناقش معه الأهداف الصـهيونية بعـد أن كانـت الـوزارة البريطانية قد ناقشتها عام ١٩١٤م، وعندما عُيِّن وزيرًا للخارجية في وزارة لويد جورج عام ١٩١٦م، عاد بلفور لاهتمامه القديم بالصهيونية بسبب تزايد أهميـة فلسطين في المخطط الإمبريالي البريطاني، وقد بيَّن بلفـور تصـوُّره لمسـتقبل فلسطين في إحدى المذكرات حيث قال: إن الصهيونية، سواء أكانت على حـق أم كانت على باطل، خيِّرة كانت أم شريرة، فإنها ذات جذور متأصلة في "تعاليم قديمة وحاجات حالية وآمال مستقبلية"، التقت رؤية بلفور مع صديقه وايزمـان بـدفع الهجرة اليهودية بعيدًا عن بريطانيا إبان تدفق المهاجرين اليهـود مـن روسـيا ومناطق الإمبراطورية الروسية في أواخر القرن التاسع عشر، حيث حـدث قمـع شديد لليهود في روسيا القيصرية وتعرضوا إلى بعض المجـازر هنـاك، تعامـل بلفور مع الصهيونية باعتبارها قوة اقتصادية تستطيع التأثير في السياسة الدولية وكانت بريطانيا تطمع بإبقاء تحالف أغنياء اليهود معها، وكان بلفـور يطمـع أن

يساعده النفوذ اليهودي في الولايات المتحدة على إقناع الرئيس الأمريكي "ودرو ويلسون" بدخول الحرب العالمية الأولى مع بريطانيا ضد ألمانيا وتركيا.

كان بلفور شخصية ذكية وسياسي بعيد النظر والرؤية، كان يجمع بين الحزم مع اليهود على طريقته وبين العطف الإنساني عليهم في الظاهر، وبدا هذا حينما أصدر وعد بريطانيا الشهير للصهيونية عام ١٩١٧م حينما شدد على ألا تتضرر مصالح السكان الأصليين بما سينشأه اليهود في فلسطين من وطن لهم، وأما في الحقيقة فقد كان بلفور قلقًا من تزايد عدد اليهود القادمين من روسيا إلى بريطانيا وما يمكن أن يحدثوه من تغييرات في المجتمع البريطاني خصوصًا وأن غالبيتهم من المعدمين الفقراء، وقد ازداد قلقه أكثر بعد أن أقفلت الولايات المتحدة أبوابها للهجرة اليهودية بعد أن استوعبت الكثير منهم، فأصبح ضغط الهجرة على أوروبا الغربية حيث كانت بريطانيا إمبراطورية لا يمكنها أخلاقيًا وإنسانيًا إلا أن ترفع شعارات إنسانية لصالح المهاجرين اليهود.

لهذا وجد بلفور أنه لا يوجد منفذ للتخلص من تدفق المهاجرين اليهود إلى بريطانيا وتشجيع يهود بريطانيا بمغادرتها إلا أن يكون هناك ما يشجع على ذلك، فكان أولاً عرض مناطق في العالم على اليهود لكي يقيموا عليها دولتهم، ولما لم يقبلوا كان وعد بلفور، بهذا يمكن القول بإن آرثر بلفور قد قام بمهنية سياسية عالية في فترة حرجة في السياسة العالمية، ولحساسية القضية فقد كان بلفور يمشي بأناة كما لو أنه يمشي على حد السيف في سياسته الداخلية والخارجية لأجل أن يخدم بريطانيا العظمى، وفي نفس الوقت لكي يبدو متعاطفًا وصديقًا لليهود.

لهذا يمكن القول بإن بلفور لم يكن ليصدر الوعد الشهير بإنشاء وطن قومي لليهود في فلسطين، إلا لأنه كان وطنيًا بريطانيًا أولاً وقبل أي شيء، وكان هدفه أولاً وأخيرًا هو الحد من الهجرة اليهودية إلى بريطانيا ونقل يهود بريطانيا إلى خارجها وليس أكثر، حتى أنه شدد كثيرًا على صديقه الصهيوني "حاييم وايزمان" لإقناعه بالموافقة على جعل الوطن اليهودي في شرق أفريقيا وليس في فلسطين.

يقول ما معناه "كونور كروز أبريان" المتعاطف مع الصهيونية في كتابه (الملحمة الإسرائيلية والصهيونية) ذاكرًا روح أحد الحوارات التي كانت تـتم بـين بلفـور وصديقه وايزمان، قال أبريان حينما حاجج بلفور الصـهيوني حـاييم وايزمـان، "لماذا لا يوافق اليهود أن يُنشئوا لهم وطنًا في أفريقيا"، رد وايزمان على بلفور، "أنت كبريطاني لو طُلب منك أن تستبدل انتماءك إلى باريس وليس إلى لندن لكي تعيش فيها فهل توافق؟" كان رد بلفور عليه "ولكن لندن موجودة وأنت لا توجـد لك مدينة"، حينها أجاب وايزمان "القدس كانت موجودة حينما كانت لندن ما زالت مستنقعات بلا بشر".

ألَّف بلفور عدة كتب في الفلسفة والدين منها: دفاع عن الشك الفلسفي ١٨٧٩م، وملاحظات أولية لدراسة اللاهـوت ١٨٩٣م، ودراسـة فـي العقائـد المألوفـة ١٩٢٣م، هذا ولقد قيل الكثير عن مبررات وعـد بلفـور، الـذي صـنع نكبـة للفلسطينيين، الذين كانوا آمنين في وطنهم فصاروا بعده لاجئين، وهنا يغرينـا أن نقتبس بعض ما قيل عن وعد بلفور من مقال بحثي قيِّم للدكتور "إبراهيم حمامي"، تحت عنوان "قرنين على وعد بلفور"، من البحث نقتطع بعض الفقرات ونشير إلى غيرها.

قال البعض إن بريطانيا لم تكن تتآمر على العرب في فلسطين، وأن كل ما حـدث ببساطة، هو أن بريطانيا أرادت أن تكافيء اليهـودي "حـاييم وايزمـان" علـى اختراعه مادة "الأستون" خلال الحرب العالمية الأولى، المادة التي تلزم للصناعات العسكرية، وأن الأسطورة تقول "إن لويد جورج رئيس الوزراء البريطاني آنـذاك سأل وايزمان بماذا يستطيع أن يكافئه، فأجابه وايزمان اصنع شيئًا لشعبي، فتأثر أساطين الإمبراطورية وأصدروا الوعد"، وهنا أيضًا يؤكد حاييم وايزمـان مـدى إعجاب "لويد جورج" بالعهد القديم (التوراة)، عندما تحدث عن أحد لقاءاته معـه، حيث قال: "وصلت إلى مقر رئيس الوزراء في داوننج سـتريت بلنـدن، وكانـت الشوارع مكتظة بالأهالي المهللين، ولما وصلت على لويد جورج وجدته يقرأ في

مزامير داود، وعرضت عليه خلاصة مستعجلة لأعمالنا وزياراتنا لبلاد فلسطين". (التجربة والخطأ)، مذكرات حاييم وايزمان.

حتى البحاثة "ميخائيل بار زوهر" يقبل هذا التعليل في كتابه "النبي المسلح" حياة بن غوريون، كما أن لورد آرثر بلفور برر الوعد، لأن اليهود عانوا في أوروبا ودفعوا ثمنًا باهظًا بسبب العداء للسامية، وبسبب ما ارتكب في حقهم من جرائم وعنصرية وظلم، وأن "لويد جورج" أحد رؤساء وزراء بريطانيا السابقين، قال أيضًا في كتابه "الحقيقة حول معاهدات الصلح" عن بعض العوامل والأسباب التي جعلت بريطانيا تُصدر وعد بلفور عام ١٩١٧م، "الحكومة الألمانية في سنة ١٩١٦م كانت تُطالب الأتراك العثمانيين بالسماح بهجرة اليهود إلى فلسطين، وأن ألمانيا تود أن تستولي على النفوذ في المنظمة الصهيونية العالمية، وأن ألمانيا تحدثت مع وزير الباب العالي السلطاني "طلعت" في اسطنبول".

لكن مهما قيل فإن السبب الرئيسي في وعد بلفور هو توظيف المادة البشرية المتمثلة باليهود الصهاينة ومن تبعهم لخدمة النفوذ الغربي، التي خصت به بريطانيا نفسها دون غيرها في فلسطين حتى ذلك الوقت، وهو الهدف البعيد الذي أشارت إليه الصحافة البريطانية في تلك الفترة قبل وبعد صدور وعد بلفور، فقد كتبت صحيفة "ساندي كرونيكل" في تلك الفترة، "إنه لا يوجد جنس بشري في العالم كله يمكن أن يقوم لنا بهذه الخدمة غير اليهود بأنفسهم، فلدينا الآلة الصهيونية المحركة التي ستجعل الإمبراطورية البريطانية آمنة في تلك المنطقة من العالم"، كما أن صحفًا أخرى كانت لا تنفك تُحذر الحكومة البريطانية خوفًا أن تقع فلسطين تحت سيطرة قوة عالمية أخرى تضر بالمصالح البريطانية في المنطقة، نشرت إحدى الصحف في ذلك الوقت أيضًا، "أنه من الضروري قيام حاجز حضاري بين مصر وتركيا، فمصر طامعة في وراثة الخلافة العثمانية، وقد شاهدنا حرب محمد علي باشا والي مصر ضد الخلافة العثمانية وكيف أنه كاد أن يُسقط الخلافة العثمانية لولا تدخل الحلفاء وإعادته إلى داخل حدود مصر فقط". وكتبت صحيفة "جلاسكو هيرالد" البريطانية ما معناه، أن الدفاع عن قناة السويس

أمر ضروري، وأن صدور الوعد سيكون له أثر مدوي في العالم خصوصًا عند القوى المتنفذة في العالم مثل روسيا وبولونيا والمجر، لهذا فإن توطين شعب آخر مرتبط عضويًا ببريطانيا سيؤمن قناة السويس هذا الشريان الحيوي الموصل إلى المستعمرات البريطانية في الشرق وخصوصًا إلى الهند، قال أحد الكُتَّاب اللامعين اسمه "تورمان بنتويتش" في كتابه "إسرائيل الناهضة" عام ١٩٦٠م، "لقد ربط حاييم وايزمان الصهيونية بنجم انجلترا، وهو يعتقد أن بناء فلسطين يتوجب أن يكون شراكة بريطانية يهودية".

عام ١٩١٩م ألقى "ماكس نوردو" أستاذ هرتزل ونائبه خطابًا في احتفال جرى في ألبرت هول بلندن، حضره كبار الإمبرياليين "لويد جورج" و"اللورد بلفور"، وكان ماكس نوردو قد تخلص من ولائه لألمانيا بعد هزيمتها في الحرب العالمية الأولى، وربط في خطابه دولاب الصهيونية بالقطار البريطاني قال "تعرف (أيها السادة) ما تتوقعونه منا، تريدون أن نكون حرس قناة السويس، علينا أن نكون حراس طريقكم إلى الهند عبر الشرق الأدنى، نحن على استعداد لأن نقوم بهذه الخدمة العسكرية ولكن من الضروري تمكيننا من أن نصبح قوة حتى نقدر على القيام بهذه المهمة"، ولم يستمع البريطانيون حينذاك إلى اعتراضات العرب ولا إلى اضرابات الفلسطينيين فقد حالت أصوات مدافع الحرب والبحث عن المنافع دون سماع أصوات العرب الذين كان معظمهم ما زالوا في أرض الأعداء (العثمانية).

"في حزيران/ يونيو ١٩١٧م ألقى "مرمادوك بيكثول"، الذي اشتهر فيما بعد بترجمته للقرآن، محاضرة في قاعة "كاكستون" نشرتها فيما بعد الجمعية الإسلامية المركزية في لندن في كراس بعنوان "المصالح الإسلامية في فلسطين"، كان الغرض من تلك المحاضرة كما قال صاحبها، هو إزالة الجهل الخطير المتفشي عندئذ في بريطانيا، ليس بين عامة الناس فحسب بل حتى بين الوزراء، وذلك بشأن ما ينطوي عليه تطبيق الخطة المقترحة من مضامين ومخاطر "بإنشاء دولة يهودية في فلسطين في ظل سيادة إحدى الدول المسيحية"،

واشتملت تلك المحاضرة على عرضٍ وافٍ لمكانة فلسطين والقدس في الإسلام وفي التاريخ العربي"، قُدِّم نَصّ المحاضرة المطبوعة إلى وزارة الخارجية البريطانية كاحتجاج إسلامي على وعد بلفور، فكانت ملاحظات "مارك سايكس" مهندس اتفاقية "سايكس بيكو ١٩١٦م"، أن صاحب المحاضرة شخص موالي "لتركيا"، ونسي مارك سايكس أن فلسطين مُقدسة لدى أتباع الديانات الثلاث: اليهودية والمسيحية والإسلام، ومن الخطأ الاهتمام بمصالح الديانتين الأوليتين فقط وتجاهل الثالثة.

وحينما عادت الجالية الإسلامية للاحتجاج إلى وزير الداخلية البريطاني، وكان قد مضى على صدور وعد بلفور خمسة أيام، لم يكتف وزير الخارجية مارك سايكس بنعت من قدَّموا العريضة الأولى بالموالاة لتركيا بل وصفهم بالعملاء لتركيا (العدو)، وحض على عدم الاهتمام باحتجاجاتهم، ونفس الشيء حينما تم تجاهل أيضًا الاحتجاج الذي وجَّهه "أمير علي" من مجلس شورى الملك البريطاني في ١٠ نوفمبر ١٩١٧م إلى اللورد هاردينج الوكيل الدائم لوزارة الخارجية ومندوب الملك السابق في الهند، فقد رغب السيد أمير علي أن يسترعي انتباه بلفور إلى واقع، "أن فلسطين هي في نظر المسلمين أرض مقدسة دون أدنى شك"، وأن مدينة القدس لا يفوقها قدسية وطهارة عندهم سوى مكة والمدينة، وبيَّن أن من "الغبن والإجحاف" بالإسلام وضع أحد "أقدس أقداسه" تحت السيطرة اليهودية.

وفور صدور وعد بلفور سارعت دول الغرب، وعلى رأسها "فرنسا" و"إيطاليا" و"أمريكا" بتأييده، بينما كان في مناطق العالم العربي وقع الصاعقة، واختلفت ردود أفعال العرب عليه بين الدهشة والاستنكار والغضب، كانت فرنسا صاحبة أول بيان صدر تأييدًا لتلك المبادرة، فقد أصدر وزير الخارجية الفرنسي بيانًا عبَّر فيه عن الارتياح عن التضامن بين الحكومتين الإنجليزية والفرنسية في قضية إسكان اليهود في فلسطين، وإزاء حالة السخط والغضب التي قابل العرب بها "وعد بلفور" أرسلت "بريطانيا" رسالة إلى "الشريف حسين" إمعانًا في الخداع

والتضليل، حملها إليه الكولونيل "باست" تؤكد فيها الحكومة البريطانية أنها لن تسمح بالاستيطان في "فلسطين" إلا بقدر ما يتفق مع مصلحة السكان العرب.

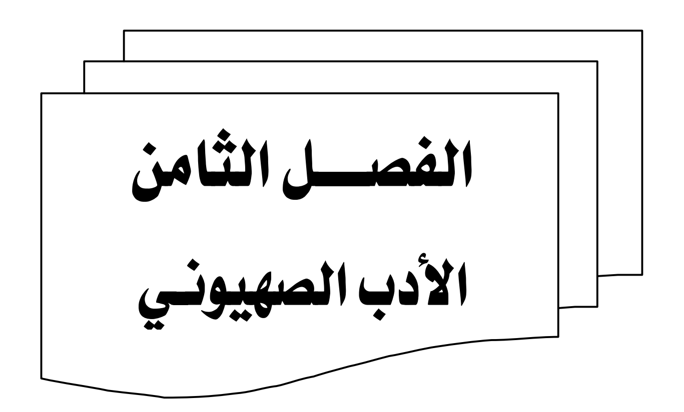
في عام ١٩١٨م صادق الرئيس الأمريكي (ولسون) رسميًا على وعد (بلفور) وقال "أغتنم الفرصة لأعبر عن الارتياح الذي أحسست به نتيجة تقدم الحركة الصهيونية في الولايات المتحدة والدول الحليفة، منذ إعلان السيد بلفور باسم حكومته عن موافقتها على إقامة وطن قومي لليهود في فلسطين، ووعْده بأن تبذل الحكومة البريطانية قصارى جهدها لتسهيل تحقيق ذلك الهدف"، وبعد ذلك أقر الكونجرس وعد بلفور وفقًا للشروط التي يتضمنها وعد الحكومة البريطانية، ولم يكن هذا فقط بل إن الكونجرس الأمريكي (مجلس النواب) أصدر بيانًا قال فيه، "حيث أن الشعب اليهودي كان يتطلع لقرون طويلة ويتشوق لإعادة بناء وطنه القديم، وبسبب ما تمخضت عنه الحرب العالمية، ودور اليهود فيها، فيجب أن يُمكَّن الشعب اليهودي من إعادة إنشاء، وتنظيم وطن قومي في أرض آبائه"!

في مجلس الشيوخ الأمريكي بعد صدور وعد بلفور، ألقى رئيس لجنة العلاقات الخارجية، خطابًا قال فيه، "إنني لم أحتمل أبدًا فكرة وقوع القدس وفلسطين تحت سيطرة المحمديين، إن بقاء القدس وفلسطين المقدسة بالنسبة لليهود، والأرض المقدسة بالنسبة لكل الأمم المسيحية الكبرى في الغرب، في أيدي الأتراك، كان يبدو لي لسنوات طويلة وكأنه لطخة في جبين الحضارة، من الواجب إزالتها".

في ١١ ديسمبر١٩١٧م أي بعد أسابيع فقط من الوعد، دخلت الجيوش البريطانية بقيادة الجنرال اللنبي القدس، وقال عبارته الشهيرة "الآن انتهت الحروب الصليبية"، في مؤتمر فرساي يناير ١٩١٩م قدَّمت الحركة الصهيونية خطة تنفيذ مشروع استيطان فلسطين، ودعت إلى إقامة وصاية بريطانية لتنفيذ وعد بلفور، وأن تشمل حدود فلسطين ضواحي صيدا ومنابع الليطاني ونهر الأردن وحوران وشرق الأردن والعقبة وأجزاء من صحراء سيناء المصرية.

في ٢٧ يناير ١٩١٩م عُقِد المؤتمر العربي الفلسطيني الأول، وقرر رفض تقسيم الشام إلى دويلات، مع اعتبار فلسطين جزء من بلاد الشام وليست دولة مستقلة، كما شكَّل حكومة وطنية فلسطينية، وفي ١٩١٩/٠٢/٠٢م في باريس خلال انعقاد "مؤتمر الصلح" تخلى الشريف حسين عن فلسطين مقابل إعطائه دولة على الأرض العربية، ووافق على اعتبار فلسطين تحت وضع دولي وليس بالضرورة أن تكون تابعة للدولة العربية الجديدة! وهكذا تم أول تنازل عربي رسمي عن أرض فلسطين! بعد ذلك وجه "فيصل بن الحسين" رسالة إلى الزعيم الصهيوني الأمريكي "فرانك فورتر" يقول فيها: "نحن العرب وخاصة المثقفين منا ننظر برغبة شديدة إلى النهضة الصهيونية، وسوف نعمل كل ما بوسعنا لمساعدة اليهود، ونتمنى لهم وطنًا ينزلون فيه على الرحب والسعة!".

في ٣١ مايو ١٩٢٠م صدر إعلان الانتداب على فلسطين في مؤتمر "سان ريمو" وعُيِّن البريطاني الصهيوني "هربرت صموئيل" مندوبًا ساميًا في القدس، وكان وزيرًا للداخلية البريطانية ومتعاطفًا مع الصهاينة، وبعد ثلاثة أيام فقط من إعلان صك انتداب بريطانيا على فلسطين، كشفت بريطانيا عن مضمون وعد بلفور، واحتج الفلسطينيون وحدثت اشتباكات لأول مرة بين الحرس البريطاني والعرب. وبعد أن أصبح "ونستون تشرشل" وزيرًا للمستعمرات عقد مؤتمرًا في القاهرة للعسكريين والموظفين البريطانيين، وذلك لمراجعة الوضع البريطاني في المنطقة، وأوصى المؤتمر بالاستمرار في تنفيذ وعد بلفور، وأن تُشكَّل في شرق الأردن إمارة عربية بقيادة الأمير عبد الله يكون مسؤولاً عنها أمام المندوب البريطاني دون أن تكون المقاطعة مشمولة في النظام الإداري لفلسطين، ودون أن تنطبق عليها شروط الانتداب، وليكون شرق الأردن مستعدًا لاستقبال من يضطر من الفلسطينيين للمغادرة!


الفصـــل الثامن
الأدب الصهيونـي

ُيبنى الأدب الصهيوني على معالم فلسفة دراسة ما قدمه المفكــرون والفلاســفة اليهود في بلورة الفكر السياسي الصهيوني من أمثال الصهيوني اليهودي الألماني "موسيس هيس" صاحب كتاب روما والقدس، والمفكر "ليو بنسكر" رئيس جمعيــة أحباء صهيون التي تكونت في روســيا، و"تيــدور هرتــزل" مؤســس الحركــة الصهيونية وصاحب كتاب دولة اليهود، و"آحاد هاعام" صاحب فلسفة الصــهيونية الثقافية، و"آرون دافيد جوردون" صاحب دين العمــل و"فلاديميــر جابوتنســكي" صاحب فلسفة القوة، وباستقراء ما كتبه هؤلاء المفكرين الصهاينة وغيرهم مــن القادة اليهود، نستطيع أن نستدل على النظام التربوي الذي تنشأ علــى أساســه المناهج التربوية والأهداف التي تحقق ذلك.

من معالم هذه الفلسفة التربوية الصهيونية، هو ما بني منها على أسباب احتقار اليهود واضطهادهم في جميع أنحاء العالم، على مر التاريخ في البلدان التي حلوا فيها منذ العصر الفرعوني، لهذا برزت المشكلة اليهوديــة فــي العــالم بســبب التحولات والتقلبات وصدام المصالح بين الدول العظمى، وراح الجميع يدفعون في اتجاه إيجاد مخرج للمشكلة اليهودية، فوجد زعماء اليهود متنفسًا لهــم، فقامــت الحركة الصهيونية العالمية، وراحت تعمل علــى شــتى الأصــعدة لــدى الــدول والزعماء في العالم، وصورت اليهود على أنهم شــعب منبــوذ ومضــطهد، وأن مشكلتهم ليس لها حل ماداموا مبعثرين في العالم على شــكل جماعــات صــغيرة العدد في المجتمعات التي يقيمون فيها.

يقول "هرتزل" في كتاب دولة اليهود، "إني اعتبــر أن الاضــطهاد ضــرورة مــن ضروريات الصهيونية، فاللا سامية فيها بعض عناصر التلهي القاسي والمنافســة التجارية والتعصب الموروث واللا تسامح الديني، ولكنني أجد فيها أيضًا الحاجــة الملحة للدفاع عن النفس"، وقد نجحت الصهيونية في ذلك مما جعلها تؤكد علــى هذا المعنى في المناهج الدراسية في إسرائيل لتعميق هذه المفــاهيم، لقــد ظــل اليهود على خلاف مع سائر الأمم القديمة حيث يعتقد "آحاد هاعام" أن سر بقــاء الشعب اليهودي، هو فيما عمله الأنبياء في أن يحترم قوة المــادة، أي هــدف لا

يعتمد على الثقافة القومية وخاصة الهدف السياسي، فتظل قوة المادة قادرة على الإغراء وتحويل الناس عن الإخلاص إذا ما سعوا وراء المادة والسلطة، ويعتقد "هاعام" بقوله "إن قادة إسرائيل إذا لم يكونوا مثقفين بالثقافة اليهودية، فإنه مهما بلغ إخلاصهم لدولتهم ومصالحها، فإن مقياس هذه المصالح سيكون وفقًا للحضارات الأجنبية، لأنهم هم أنفسهم اقتبسوها وسوف يحاولون بالاقتناع أو بالقوة أن يثبتوا أن تلك الحضارات في الدولة اليهودية ستحولها في النهاية من دولة يهودية إلى دولة ألمان أو فرنسيين من شعب يهودي.

ويبرر "آحاد هاعام" دور التربية في تحقيق ما يدعو إليه، فيقول ما معناه، بأن الحياة القومية الكاملة تتضمن شيئين، إفساح المجال للقدرات المبدعة للأمة من خلال ثقافة قومية خاصة بها، ونظام من القيم يمكن من خلاله لجميع أفراد الأمة أن يتشربوا تلك الثقافة وينصهرون فيها، وهذان الجانبان يعتمدان على بعضهما، وإذا لم يتشرب الأفراد بالثقافة القومية فإن نمو الأمة سيتوقف، وإذا لم تستخدم هذه القدرات في خدمة تنمية الثقافة القومية بشكل كاف فإن تربية الصغار ستصبح ضيقة وسيتضاءل تأثيرها تدريجيًا على الأفراد.

أما عن اللغة فإنها لا تكفي وحدها لإيجاد قومية مشتركة، حيث نرى أن كثيرًا من دول العالم تتكلم الإنجليزية مثل الولايات المتحدة الأميريكية وكندا واستراليا وكثير من المستعمرات البريطانية، ولم تدَّع انجلترا أن هذه الدول تكون القومية البريطانية، بالإضافة إلى أن هناك ثلاث لغات تجمع اليهود هي لغة اليديش واللغة العبرية القديمة والعبرية الحديثة.

ونفس الشيء بالنسبة لرابطة الدين كأحد مقومات القومية المشتركة فإنها لا تنهض دليلاً قاطعًا على اكتساب هذه القومية، فالدين وحده لا يمكن أن يخلق القومية أبدًا وإلا لأصبح أصحاب الدين المسيحي قومية واحدة من شرق الصين إلى أميركا اللاتينية، وينطبق القول كذلك على الثقافة حيث أن توزع اليهود بين الأمم جعلهم يحملون صفات مغايرة من ثقافات تلك الشعوب.

أما بالنسبة للتاريخ فنورد قول الفيلسوف "جان بول سارتر" في هذا الصدد "إنني أنكر حق اليهود في اصطناع قومية وطنية، أو حتى اشتراكهم في عاطفة واحدة أو تاريخ واحد، أو تراث فكري مشترك، ذلك لأن تاريخ وطن اليهود في فلسطين قد اندثر منذ ألفي سنة، فليس سوى العقيدة الدينية رابطة تؤلف بينهم ويشتركون فيها".

وكما نرى فلقد أنبتت الصهيونية فلسفة "آحاد هاعام"، وأوجدت لها جذورًا في الدين اليهودي والكتب الدينية واستفادت منها وغذتها، ففكرة أن اليهود موعودون بوراثة الأرض المقدسة في فلسطين جاءت في كثير من نصوص التوارة، فأضحت الصهيونية دينًا قوميًا، حيث التحمت العقائد الروحية المتزمتة، والتقاليد الاجتماعية المتعصبة، والمبادئ السياسية المتطرفة، فجاءت فكرة الحنين إلى أرض الميعاد! والدعوة إليها كعقيدة دينية ذكروها حيث كتبوا التوارة والتلمود وغيرهما من الكتب، ولقد ذكر في أحد المزامير:

"على أنهار بابل هناك جلسنا
بكينا أيضًا عندما تذكَّرنا صهيون
لأن هناك سألنا الذين سبونا كلام ترنيمة
ومعذبونا سألونا فرحًا قائلين:
رنموا لنا ترنيمات صهيون
فكيف نرنم ترنيمة الرب في أرض غريبة؟
إن نسيتك يا أورشليم تنسني يميني،
ليلتصق لساني بحنكي إن لم أذكرك،
إن لم أفضل أورشليم على أعظم فرحي".

استحوذ موضوع الأرض في الأدب الصهيوني اليهودي على مساحة واسعة في الفكر الاستيطاني لفلسطين، لأن الصهيوني قد أدرك أهمية الأرض، وكونه أراد أن يصنع قومية، لأن سعيه إلى عمل كيان للأمة اليهودية لم يكن سهلاً، وذلك لافتقاده لأساسيات البناء، فبناء الدولة يحتاج في الأساس إلى أرض ينطلق منها

الإنسان لكي يواجه التحديات الداخلية والخارجية، وهذا ما لم يكن متوفرًا لليهودي الصهيوني، لذا يُعتبر موضوع الأرض من أهم محاور الأيديولوجية الصهيونية منذ أن كانت فكرة، وموضوع الأرض من ناحية أخرى، لم يكن جديدًا، فقد استأثر على اهتمام مفكري الصهيونية الأوائل ثم اهتمام من أتوا منهم بعد ذلك.

المفارقة أن اختلاف الأدباء الصهاينة في طرق تناولهم لموضوع الأرض، وطرحه حسب العقيدة الفكرية والدينية والسياسية لم يأت بجديد، عدا تلوين أطراف الصورة التي رسمها الواحد منهم للأرض الفلسطينية، بمعنى أن الاختلاف كان فنيًا فقط من الخارج، ولم يمس الفكرة التي رسموها في مخيلاتهم، الدليل أن الأهداف بقيت واحدة موحدة ولم تتبدل رغم تواجد هؤلاء الأدباء والمفكرين في بيئات وظروف مختلفة وانتماءات سياسية مختلفة.

إن المفكرين الصهاينة ظلوا ينظرون إلى فلسطين من واقعها الديني في الأدب اليهودي، وهذه تبدو ظاهريًا بعيدة عن مفهوم الصهيونية اللاديني، لكنها ليست كذلك لأنها جزء من الصورة الدعائية التي رسمتها الصهيونية للأرض الفلسطينية ووضعتها لخدمة أهدافها، إن أهم ما في المشروع الصهيوني هو العمل الدعائي الذي يحث اليهود على الهجرة إلى فلسطين، وهنا لا مناص للادينيين الصهاينة إلا أن يدعو اليهود للهجرة إلى فلسطين من مصادر وأطروحات يتوجب أن تلتقي في مركز الفكرة الصهيونية، كون البعد الديني لصورة الأرض الفلسطينية هو أساس قوة التأثير فيها، بل هو الأكثر جذبًا للمفكرين لمعالجة الإسقاطات الصهيونية التي تأتي وتذهب مع الأيام، لهذا وجب التوقف ولو قليلاً عند البعد الديني والحديث عنه.

لا نبالغ حينما نقول إن الحديث عن أرض فلسطين هو الأقدم في الأدب اليهودي، بل إن أدباءهم وشعراءهم قد أسهموا بالكثير عن الأرض أكثر من أي شيء آخر، حتى قبل أن توجد الصهيونية كفكرة سياسية أي قبل قيام إسرائيل بزمن، ويمكن أن يدرك هذا كل من قرأ نتاجات الأدباء اليهود أينما عبَّروا عن حنينهم للأرض

الفلسطينية، لقد زاروها وحجوا إليها وأقاموا فيها أحيانًا، ليس بهدف استعمارها وإنما كونها مقدسة ومباركة كما ذكرت في التوراة وفي غيرها من كتب اليهود، وهذا إنما يدل على أنهم كانوا يحنون إليها ويشتاقون كونها مقدسة، ولأنهم يرتبطون عاطفيًا بها، ولم يكن هذا الارتباط والحنين بسبب سياسي أو عن خلفية أيديولوجية، ولولا أن الأرض كانت هي محور المشروع الصهيوني لما كان للفكرة الصهيونية لزوم، لذا نجد أن الصهيونية رغم أنها ذات أيديولوجية علمانية بحتة، فإنها لا تبتعد في أطروحاتها عن القدسية الدينية التي يعطيها اليهود للأرض.

الأدباء والشعراء اليهود كتبوا الكثير عن الحنين الديني لأرض فلسطين، فعلى مدى الأزمان لم يشيروا إلى حنين سياسي لفلسطين، بقوا هكذا حتى جاءت الصهيونية، وراحت توظف حنينهم الديني للأرض في خدمة صور الأيديولوجية السياسية المختلفة للطيف الصهيوني العام حسب المدارس الفكرية الصهيونية، إلى أن تحول الحنين إلى مشروع استعماري استيطاني للأرض، لقد ساهمت قدسية الأرض الفلسطينية على توحيد التيارات الصهيونية، مما جعل مشروع الوطن القومي اليهودي يبدأ عملاقا، وعد بلفور وضمانة دولة كبرى للتنفيذ.. قيام دولة إسرائيل وحماس يهود العالم بعد أن جمَّدوا خلافاتهم التفسيرية وتركوها لمن يستوطن الأرض ليحلها بكيفية ما، هذا عوضًا عن التفاف العالم المسيحي حول المشروع الصهيوني ظلاً وحماية.

إن المفهوم الصهيوني بالنسبة لأرض فلسطين قد تطور، والصهيونية راحت علنًا توظف البعد الديني عند اليهود لأجل الأيديولوجية السياسية، بل ذهب بعض الصهاينة إلى أبعد من ذلك بأن أضافوا التقديس على الوطنية الإسرائيلية، وطبعًا لن تكون هناك وطنية بدون أرض، فالتقديس هنا صار للأرض، قال موشيه ديان يومًا: "إن أرض إسرائيل هي ربَّهُ الوحيد"!

لم تتردد الصهيونية أن تُضفي على احتلالها للأرض الفلسطينية بُعدًا دينيًا أيضًا رغم أنها علمانية، فراحت تدَّعي عبر آلتها الإعلامية بأنها حينما تستولي على

أرض من الفلسطينيين، إنما هي تستعيد حقًا وليس احتلالاً، والغريب أنها استطاعت فعلاً أن تخدع العالم وجعلته يُصدق أن المقاوم الفلسطيني حينما يتصدى للاحتلال الإسرائيلي إنما هو معتدي وإرهابي، وهذا يعود إلى مهارة الصهيونية في توظيف الدين في خدمة السياسة، لهذا حينما تحقق الصهيونية إنجازًا ملموسًا على أي صعيد على حساب العرب؛ فإنها توظف السياسة للدين ما دام سيخدم الهدف الصهيوني، فنجد أنها تدفع العالم بأن يعلن أن إسرائيل يتوجب أن تكون دولة يهودية بالمعنى الديني، وقد لمسنا هذا على لسان الرئيس الأمريكي "جورج بوش" الذي كرر أكثر من مرة بناء على الرؤية الصهيونية التي يُطالب بها الزعماء الإسرائيليون من الفلسطينيين، وهُم بهذا المطلب يبيتون للحصول على ثمن كبير من الفلسطينيين، لأن في حال إقرار الفلسطينيين بيهودية الدولة الصهيونية، فمعنى ذلك سقوط حق العودة للاجئين الفلسطينيين.

كما أن تبني الصهيونية للبُعد الديني يُعتبر دعوة للمستوطنين اليهود بأن يتشبثوا بالأرض، فالصهاينة يوقنون بأن لا شيء يربط اليهود في فلسطين سوى ما استقر في وجدانهم من خلال قراءاتهم عن فلسطين في الكتب الدينية المختلفة، وهم ينشدون أن يحولوا العلاقة الدينية العاطفية بين المستوطن اليهودي وأرض فلسطين إلى بديل للعلاقة الوطنية الطبيعية التي تربط أي إنسان بأرض وطنه، فصار يُروَّج للوطنية في الدولة الصهيونية على أنها نوع من التدين، إن من المؤكد أن جملة الأهداف السابقة التي كانت نصب أعين مؤسسي الصهيونية، كانت نصب أعين رواد أدبها أيضًا، لاسيما وأن بعضهم كان من أولئك المؤسسين للمنظمة الصهيونية، الذين تمسكوا بالأهداف فسخَّروا طاقاتهم الفنية والأدبية أيضًا لإبراز البُعد الديني لصورة الأرض الفلسطينية وكأنه بُعد تاريخي سياسي (تزييف)، وهم يتوخون من وراء هذا تحفيز اليهود الآخرين للهجرة إلى فلسطين واستيطانها.

مما يلفت نظر المتتبع للأدب الصهيوني، إن المفكرين الصهاينة الأوائل حاولوا دائمًا تشكيل صورة الأرض الفلسطينية ليس بناء على ما رأوه على أرض الواقع

ولمسوه وعايشوه حسيًا ورأوا من معالم جغرافية فلسطين، وإنما كتبوا من مجموع صفاتها وجغرافيتها كما تحدثت عنها التوراة، ذلك لاعتقادهم أن تلك الصفات التوراتية يمكن أن تتسلل إلى الوجدان الديني للقاريء اليهودي، وتؤثر عليه نفسيًا وعاطفيًا لكي يتجاوب مع الدعوة إلى الهجرة إلى فلسطين، إن الأدب هو ابن البيئة لذا فإن أولئك الأدباء الذين يصفون فلسطين من خلال التوراة، وحتى لو أنهم أتوا إلى فلسطين زائرين وشاهدوا معالمها، فإن نتاجهم الأدبي سيظل يحكي عن فلسطين كما ذكرتها التوراة، لأن اللاوعي عند الأديب مُشبَّع بتراث ديني في الوجدان مفصول عن البيئة والظروف الاجتماعية في الوطن الذي وُلِدَ فيه أو في فلسطين، وإلا لماذا كانت الصهيونية علمانية ومعظم زعمائها لا دينيين، سواء من نشأ منهم في البلاد الاشتراكية أو اليهود الأوروبيين الغربيين الذين ابتعدوا عن اليهودية مسافة بعيدة واعتنقوا الليبرالية وصهيونيتهم توطينية بمعنى أنهم لن يهاجروا إلى فلسطين.

إن من الطبيعي كما ذكرنا أن يكون الأدب الصهيوني، سواء كان نثرًا أم شعرًا، إنما هو يتحدث عن بيئة المفكر مهما حاول أن يقترب بالمعاني لربطها بفلسطين، ويبدو هذا واضحًا في الأعمال الأدبية، سواء كانت رواية أو شعرًا، وفي هذا يقول أحد النقاد عن كتابات الأديب "برزيلاي" في هذا الموضوع "إن الأرض التي يصفها برزيلاي هي أرض التوراة، وليست الأرض التي يعيش عليها..". يقصد أرض فلسطين التي هاجر إليها الأديب برزيلاي الموجه إليه النقد، وتقول الناقدة الإنجليزية الدكتور "رايزا دومب" في الإشارة إلى مدى ابتعاد الأدباء الصهيونيين الإسرائيليين عن أرض إسرائيل، "منذ أيام الحاخام "زئيف يافيتش" إلى المفكر "موشيه سيملانسكي" لم يصفوا تلك الأرض كما هي عليه في الواقع، بل كما رغبوها هم أن تكون..".

سنلاحظ أن فجوة اللا واقعية ستزداد اتساعًا مع الوقت كلما اهتم الأدباء الصهاينة الإسرائيليون بأطروحاتهم الأيديولوجية وأهدافها، إن التزامهم سيدفعهم إلى المبالغة في الابتعاد عن الواقع وهم لا يدرون بينما يحاولون الترويج على أن

فلسطين كانت "أرض بلا شعب" حينما غزوها، ولكن ما سيبقي أعمالهم قزمة، هو التاريخ الذي يكتبه الفلسطينيون بالدم منذ ما ينيف عن ستين عامًا وهم يقاومون الهجرة والاستيطان الصهيوني لأرضهم.

استمر الأدباء التالين الذين جاءوا إلى فلسطين بعد من سبقوهم من أصحاب الفكرة الصهيونية قبل الاستقلال، وظلوا يضفون الصبغة الدينية على الأرض الفلسطينية، لكن دوافعهم لم تكن صادرة عن عمق ديني توراتي لصورة أرض فلسطين بل كانت بدوافع استيطانية استعمارية فقط وإنهم سخَّروا الدين اليهودي لخدمتها مما جعل فكرة الدولة الإسرائيلية من أساسها شيئًا مؤقتًا فلم تحصل بعد كل هذه السنين على الأمن بعد.

لقد استطاع أدباء الصهيونية اشتقاق البُعد التاريخي من البُعد الديني، فلما كان معظم أدباء الصهيونية من العلمانيين واللادينيين، لإيجاد جسر بين علمانيتهم وميلهم في استثمار أساطير الدين اليهودي التي تقدس فلسطين بطريقة ما تخدم صهيونيتهم بهدف إغراء يهود العالم بالهجرة إلى فلسطين، عمدوا مثل كل أتباع الصهيونية العلمانية إلى التعامل مع تلك الأساطير الدينية بوصفها روابط تشد اليهودي روحيًا إلى فلسطين، الروابط التي على أساسها بنوا زعمهم بوجود الحق التاريخي لليهود، من هنا أو من هذه الناحية بالذات، يمكن القول بإن البُعد الديني لمعالم أرض فلسطين في الأدب الصهيوني بدأ اتصاله التوراتي يتحول إلى بُعد تاريخي بعد ولادة المنظمة الصهيونية عام ١٨٩٧م، وهو ما يعني أن الهدف الديني أخذ في التقلص، وأن الهدف الأيديولوجي الاستعماري يطغى عليه خاصة بعد قيام إسرائيل، بل إن الحديث عن أرض التوراة في نصوص الأدب الصهيوني الإسرائيلي الأحدث صدورًا، يكاد يتطابق فيه البعد الديني لصورة تلك الأرض، مع ما يمكن أن يُسمى بالبعد الوطني.

هذا ويمكن القول إن الصورة التي يرسمها الأدباء المحدثون في إسرائيل لأرض فلسطين تتطابق في تكوينها الأبعاد الثلاثة "الديني والتاريخي والوطني" كأنها بُعد واحد، إن قصيدة "أرض" للشاعرة الإسرائيلية "شيقا بيقوف" هي أحد هذه الأنماط،

فالشاعرة تصف فلسطين بأنها أرض دائمة الإشراق، وأرض العسل واللبن.. الشاعرة استعارت العبارتين التوراتيتين ذائعتي الانتشار في الأدب الصهيوني، وهنا ننشر جزء من القصيدة: "أرضٌ، أرضٌ، أرضْ..، أرضٌ سماؤها زرقاءُ بلا غيم، والشمسُ لها، عسلٌ ولبن، أرضٌ سنُولدُ فيها، أرضٌ سنحيا فيها، وسنبقى، وليكنْ ما سيكون..".

طالما أن الأدب الصهيوني لم يتردد أن يظل يدور حول محور الدين لأن لا يوجد غير الدين يصلح كوسيلة لمخاطبة اليهود في العالم لشدهم إلى فلسطين، ولطالما أن الحنين والألم يصنعان الاشتياق إلى الأرض من إيحاء الأجواء الدينية، فإن الحب والوله والتغزل بحب الأرض يدغدغ العواطف ويصنع فيها العشق غير المنظور، فيصبح عامًا يشد القاريء اليهودي، أن يشد الرحال بسبب الشعور الديني المغلف بالحب والحنين إلى أرض فلسطين، وهذا أيضًا يُلمس في الأجزاء الأخرى غير المنشورة من القصيدة السابقة، وفي الأدب الصهيوني بصفة عامة، رغم علمانية المنظمة الصهيونية.

لقد استطاع الأدباء والشعراء اليهود، أن يتغلبوا على علمانيتهم حينما تغنوا بالطبيعة على طريقة الأدباء الأوروبيين، لكن الصهاينة تغنوا بالطبيعة على غير طريقة الشعراء الأوروبيين، ففي الوقت الذي تغنى الشاعر الأوروبي بالطبيعة كالطفل الذي يهنأ بالارتماء في حضن أمه الطبيعة الجميلة، نجد الصهيوني العلماني يتغنى بالطبيعة وهو يعني أرضًا بعينها، يفصل الجمال وحسن المشاهد وهو يشير بالمعاني المجازية إلى أرض بعينها هي فلسطين، لكي يصنع حبًا لم يكن بين اليهودي الغريب والأرض التوراتية التي تحدثت عنها الروحانيات في الأدب اليهودي، الأديب حينما يتحدث عن الأرض ويذكر الجبال والوديان والتلال والأشجار وشاطيء البحر إنما هو يعني أي جبال وأي تلال وأي شاطيء، فلا شيء يربطه بذاك المكان لأنه لم يعش فيه قبلاً ولم يشاهده في حياته قط، فأي علاقة تربط اليهودي بأرض فلسطين حتى وإن شدَّه إليها حب الفضول يومًا!

هذا يلتقي مع أي تجربة إنسانية أخرى، يمكن أن يعيشها المرء وهو على قيد الحياة، أذكر (الكاتب) بعد أن هاجرت بأسرتي إلى كندا، بعد أن ضاقت الأرض العربية بنا، أني اشتريت مزرعة في الريف الكندي مساحتها (١٢٠٠) دونم، وبها بيت وأشياء أخرى، ولمَّا كانت أسعار الأراضي الزراعية في ذلك الوقت رخيصة نوعًا ما، وبسبب أنني كنت محرومًا من التملك في البلاد العربية كوني فلسطيني الأصل، كانت الأرض تصلح للزراعة العادية ولزراعة الأشجار أيضًا، كان بالمزرعة كما أشرت بيت ريفي كبير مجهز بكل شيء للإقامة فيه من خط الهاتف إلى الكهرباء إلى هوائي التلفاز وغيره.. وأعطيتها اهتماما كبيرًا، ولمَّا كانت الأرض مُهملة منذ زمن طويل فقد نبتت الأشجار على اختلاف أنواعها في تلك الأرض، هذا بالإضافة إلى أشجار الصنوبر المزروعة منذ عشرات السنين بهدف تربيتها لبيعها كأخشاب ثمينة، ما دفعني لشراء تلك المزرعة هو أن جذوري الفلسطينية العربية، إنني كنت ابن إحدى القرى الفلسطينية التي كانت تقع ملاصقة لبلدة "أسدود" من جهة الجنوب، أو على بُعد ثلاثين كيلومترًا شمال مدينة غزة على شاطيء البحر، فقد ولدت في بلدة حمامه وشاهدتُ الريف الفلسطيني هناك، وكان أهلي وأقاربي يعملون بالزراعة، فإن لم أكن خبيرًا في زراعة الأرض إلا أن الزراعة تسري في دمي من خلال المعايشة حينما كنت طفلاً قبل أن نُجبر على مغادرة حمامه عام ١٩٤٨م.

حينما كنت اذهب إلى المزرعة التي اشتريتها في كندا في أيام العطلة الأسبوعية للتمتع بالإقامة في البيت الريفي هناك والتجوال في الممرات بين الأشجار الكثيفة، كنت مبهورًا بجمال الريف الكندي الخلاب، خصوصًا في الفصول الثلاثة الأخرى من السنة ما عدا فصل الشتاء، وحقًا قيل إن من الجمال وجود الماء والخضرة.. وكان هذا منه الكثير في المزرعة، كان كل شيء جميل، بل ومن أبدع ما أتى به الخالق، كنت كثيرًا ما اذهب وحيدًا إلى المزرعة، كان الأبناء خلال أيام الأسبوع بالمدارس، مرات كانت الزوجة تصحبني إلى المزرعة لتفقد البيت والحاجيات هناك، وكنت في كل مرة أزور فيها المزرعة أقضي فيها سويعات قليلة ثم أعود

إلى بيتنا في المدينة، لكنني في مرات كثيرة كنت اذهب وحيدًا، وكنتُ اترك السيارة بجانب البيت.، وأمضي متمشيًا في طرقات المزرعة أو بين الأشجار الكثيرة والكثيفة التي كنتُ والأبناء قد صنعنا منها متنزهًا جميلاً بعد أن شذبنا الأغصان التي تمنع المرور من تحت الأشجار المتلاصقة، اشترينا تراكتور لكي يمكن السير به على أرضها الوعرة ولكي نستعمله للجر أو سحب مقطورة خلفه، واشترينا سيارة نصف نقل خصيصًا لأعمال المزرعة، لكننا لم نكن نهدف من كل هذا إلا التمتع بالملكية وليس للزراعة أو إنتاج أيًا من المحاصيل، كون الزراعة تحتاج إلى جهد كبير وأفرادًا متفرغين، وهو ما لم يكن متوفر لدينا، إلا أن ملكية المزرعة وكونها مسجلة باسمي كان هذا يكفي في ذلك الوقت.

وكون البيوت الريفية متباعدة عن بعضها تمشيًا مع كبر مساحات المزارع في المنطقة، وكون استعمال الآلة في الزراعة شائعًا فإن عدد السكان وقلة أعداد أفراد الأسر الريفية يعتبر عاديًا، كان الشائع أن يُقيم في أي مزرعة شخص واحد أو اثنين في المتوسط العام، وهذا كان يكفي لكل شيء في المزرعة ما دامت الآلات المتعددة الاستعمال متوفرة لدى صاحب الأرض، لهذا لم يكن هناك أشخاص كثيرين يمكنني أن أزورهم أو أتحدث إليهم وأقضي معهم وقتًا طويلاً، كنت في كل مرة أزور فيها المزرعة، أسير بين الأشجار وعلى الأعشاب متمتعًا بما أشاهد من أشجار وبرك الماء والطيور والحيوانات البرية (الغزلان بالذات)، وبينما أنا كذلك كان في داخلي دائمًا يدور حديث صامت بيني وبين نفسي، كنت دائمًا أتحدث مع نفسي ومع أرض المزرعة التي كنت أكاد لا أصدق إنني أملكها..
كان هذا إحساس خفي، كنتُ كثيرًا ما أتساءل بيني وبين نفسي، هل هذه الأرض لي حقًا، وهل سأبقي عليها وأبقي على ملكيتها؟! هل سأحبها كما كنت أحب ريف بلدتي "حمامه" في فلسطين حينما كنتُ طفلاً، كنت في الحقيقة أوجه أسئلة أكثر من هذا، وحينما كنت أعطي نفسي شيئًا من الراحة من عناء استقبال أسئلتي كنت اذهب ثانية إلى التساؤل، "لماذا أنا هنا"، "هذه الأرض أكبر مساحة مما كان لوالداي في بلدة حمامه التي هاجرنا منها أصلاً، ألا يجب أن ننسى ونندمج

ونعيش حياتنا في الوطن الجديد كندا! ألا يعوِّض هذا عن حمامه؟!" ورغم أنني كنت أشعر بالانتصار لأنني أصبحت أملك أرضًا، إلا إنني لم أكن سعيدًا، لأنني حينما أكون بالمزرعة كانت لا تغادرني الأسئلة والتساؤلات، فقد كنت أشك رغم ملكيتي القانونية لذاك العقار.

مرت عدة سنوات على هذا المنوال وأنا أحاكي نفسي.. وأحكي مع الأرض حتى كان عام ١٩٩٤م حينما دخلت السلطة الفلسطينية إلى أطراف فلسطين (غزة والضفة)، في عام ١٩٩٥م ذهبتُ إلى مدينة غزة بغرض الزيارة، أمضيتُ شهرًا وبعض الشهر، ثم عدتُ مسرعًا إلى كندا، قمتُ بلا تردد ببيع المزرعة والعودة ثانية إلى غزة، كنت أهدف إلى الاستقرار النهائي في فلسطين، ثم توالت الأحداث ولم يتحقق الأمل!

الأرض هي الأرض في كل مكان، لكن البيئة ليست البيئة في كل مكان، والظروف الاجتماعية ليست هي أيضًا، وإلا لماذا قمت ببيع المزرعة وذهبت إلى فلسطين رغم أن المزرعة كما الريف الكندي بصفة عامة ربما أجمل طبيعة في هذا العالم، الإنسان يحن إلى مسقط رأسه دائمًا، وما عدا ذلك من الأوطان ما هو إلا وهم يعيشه، وفيه يعيش الإنسان السنين كاللحظات العابرة، وسرعان ما يعود إلى حب مسقط رأسه، الحب المتغلغل في ذرات الجسد، الحب الذي يُبقي الروح ثملة لا تفيق منه أبدًا، قد يتغنى الواحد منا بوطن جديد وببيت جديد وبمزرعة جديدة وبأي شيء آخر، لكن لا شيء مثل مسقط الرأس مهما تصنَّع الواحد منا، ومهما جادت القريحة أو أخصب الخيال، خصوصًا حينما يشعر بشيء من الاستقرار المادي.

نعم أنا مسلم ويربطني الكثير بمكة مدينة الإسلام الأولى، ونفسي تهفو إليها، وأحبها وأقدسها، ولكنني ما حلمت يومًا قط أن أقيم فيها، ولن ترقى مكة بأي حال من الأحوال كمجرد أرض، بأن أفضِّل الإقامة فيها على بلدتي الخالدة حمامه في فلسطين، ولما كنا جميعًا بشر فإن حب الأدباء والشعراء الصهاينة لأرض فلسطين والتغزل بها، ليس سوى حب غير واقعي، وهو غير منطقي كون الأديب

والشاعر الصهيوني هو أيضًا غير ديني، فأين علاقته بأرض فلسطين إلا إذا كانت العلاقة لشيء آخر وسبب آخر، لماذا لا نعتبر أن هدف المفكر الصهيوني اليهودي ما هو إلا بغرض خداع فقراء اليهود بوعدهم بأرض العسل واللبن لدفعهم للهجرة إلى فلسطين، لإيجاد زعامة دنيوية مادية، وما هي في حقيقتها سوى أنها إمبريالية استعمارية بهدف الهيمنة، وهو ما عنته القوى الغربية التي باركت قيام الدولة الوظيفية (إسرائيل).

إن من أبرز أدباء الصهيونية الرومانتيكيين ممن لوَّنوا البعد الديني لصورة الأرض الفلسطينية لتمرير خطة الخداع، الروائي الصهيوني "شموئيل يوسف عجنون"، الذي منذ أن اتخذ قراره بالهجرة إلى فلسطين؛ ما فتأ يتحدث عن ذلك القرار، وما زال يصف الأرض كمسكن مبارك مثل كلمات الرب المقدسة، "فمستوطناتها مظللة بظلال أشجار الزيتون، وكل الحقول مكسوَّة بالغلال، وما بقي من أشجارها مزينٌ بالفاكهة، أما السهول فتتفتح الأزهار فيها وتتمايل أشجار الغابات، والسماء زرقاء كلها، وجميع البيوت تضج"، والأديب عجنون هنا يحرص على تلوين البعد الديني لصورة الأرض بدافع ترغيب الغير بالقدوم إليها، بل إن من السهل أن تجد أديبًا صهيونيًا آخر يتغنى بالقدس، لكي يوظف مظاهر الاغتراب لتأكيد البعد الديني/اليهودي لأرض فلسطين، وذلك من خلال الطابع التوراتي الأسطوري الذي يُرمَز إليه بقبور أنبياء بني إسرائيل مثلاً.

لقد اعتاد الصهاينة من سياسيين وأدباء بمن فيهم من تقلدوا مناصب الوزراء ورؤساء الوزارات، أن ينكروا وجود السكان في فلسطين قبل أن يأتي اليهود إليها ويقيموا دولتهم (أرض بلا شعب، لشعب بلا أرض)، وما كانوا ينشدون سوى إعطاء بعض الأخلاقيات لاحتلالهم لفلسطين، وهم إنما كانوا يودون أن يؤكدوا بأن فلسطين فارغة من السكان، وأن إقامة وطن قومي لليهود في فلسطين لا يُشكِّل اعتداء على أحد، لذلك لم يخلو الفن الصهيوني من الإشارة بالطرق المختلفة على أن فلسطين لم يكن بها أحد حينما أتوا إليها لكي يقيموا دولتهم الصهيونية.

من تلك الوسائل التي لا تُكلف شيئًا، هي عدم الإشارة إلـــى الفلســطينيين، فـــي المتحف الإسرائيلي بمدينة "عكا" تجد قصة إنشاء الدولة الإسرائيلية مكتوبة على لوحات وواجهات واضحة جدًا، وبطريقة سرد تاريخي لم يغفل لا شاردة أو واردة حسب ما يهدفون، كل شيء هناك مكتوب بــثلاث لغــات، العبريـــة والإنجليزيـــة والفرنسية، أما اللغة العربية فليس لها وجود، كما أن لا إشارة البتة إلى الشـــعب الفلسطيني في تلك اللوحات، حتى أن حرب ١٩٤٨م يقولون عنهــا إنهــا حــرب الاستقلال، وقد تمت بين المقاومين اليهود والجيش البريطــاني المحتــل دون أي ذكر لا للفلسطينيين ولا حتى للجيوش العربية التي يتحدثون عنهــا كثيــرًا فـــي ظروف أخرى خارج رسالة المتحف.

لقد اتبع أدباء الصهيونية الأسلوب غير المباشر في طرحهم لقضايا الاســتيطان، لأن المباشرة قد تؤدي إلى تناقض، وقد تقود إلى فضح حقائق الواقع ومعطياته، لهذا آثر معظم الأدباء الصهاينة إلى عدم المباشرة في طرح ما يزعمــون، وفـــي أحايين كثيرة كانوا يجدوا أقلامهم وقد جفَّ حبرها حين الكتابة عن الفلسطينيين لا مدحًا ولا ذمًا بغرض التجاهل وإنكار لوجودهم، وذلك للإبقـــاء علـــى معنـــى أن فلسطين لم تكن مسكونة ببشر حينما قــدموا إليهـــا، مـــن هنـــا نجــد أن الأدب الصهيوني قبل قيام إسرائيل كان عن عمد يشيع بأن فلسطين أرض خالية، ممـــا جعل الصهاينة الآتين بعد قيام الدولة، يجعلون من هذا النفي قاعــدة يمجــدونها ويعطونها بُعدًا زمنيًا، لأجل توظيفها لمرحلة ما بعد قيام إسرائيل، لذلك تجد فـــي خطاب الدكتور حاييم وايزمان ما يؤكد هذا حينما قال في خطاب له عام ١٩٣١م، "إذا راجعتم الأدب الصهيوني الصادر قبل الحرب (يقصد الحرب العالمية الأولـــى) فبالكاد تجدون كلمة عن العرب فيه".

وحتى بعد قيام إسرائيل فإن الأدب الصهيوني بقي حريصًا على الاستمرار في نفي الوجود العربي في فلسطين، "الحروب الصليبية" هي رواية للإسرائيلي "عــاموس عوز"، نجد أنه أغفل فيها ذكر العرب بتاتًا، رغــم أن العــرب اكتــووا بــويلات الحروب الصليبية لأكثر من قرنين من الزمان كما يجمع على ذلك كل المــؤرخين

من غير الصهاينة! ونفس الشيء فعله الأديب "شموئيل يوسف عجنون" في قصته الرمزية "من عدو لحبيب"، التي لم يجد بطل الرواية من يمنعه من استيطان القدس سوى الريح! فقد ظل يتصارع مع الريح حتى انتصر عليها في النهاية، أما الإنسان العربي صاحب الأرض الحقيقي الذي جبلت الأرض بعرقه ثم بدمائه عبر آلاف السنين فليس له مجرد أثر أو ظِل في القصة.



شموئيل يوسف عجنون ١٨٨٨م – ١٩٧٠م

لو كان السارق يعلم بأن أمره سينكشف لما سرق، فكل اللصوص حينما يقدمون على السرقة يكونون موقنين بأن أمرهم لن يكتشفه أحد! حينما تحدث الأدب الصهيوني قبل قيام إسرائيل عن أرض فلسطين، تغنى بجمالها وإبداع مشاهدها، قال عن الأشجار وعن الحقول وعن السماء الزرقاء، وها هو الأديب عجنون

أيضًا يُنهي قصته القصيرة "من عدو لحبيب" التي أشرنا إليها قبل قليل، فبعد أن بنى بطل القصة بيتًا قويًا وصار يتحدى به ريح فلسطين كونه غريب، قال البطل: "وقفتُ أمام بيتي، فرأيت أن كل الأرض حوله قفراء لا أشجار، ولا بستان، فقط التراب والحجارة!"، انظر كيف أن التناقض هنا لم يخدم السارق! الأديب عجنون في البداية مدح أرض فلسطين، تحدَّث عن سمائها وأشجارها.. الخ، والآن هو يقول عنها قفراء موحشة!

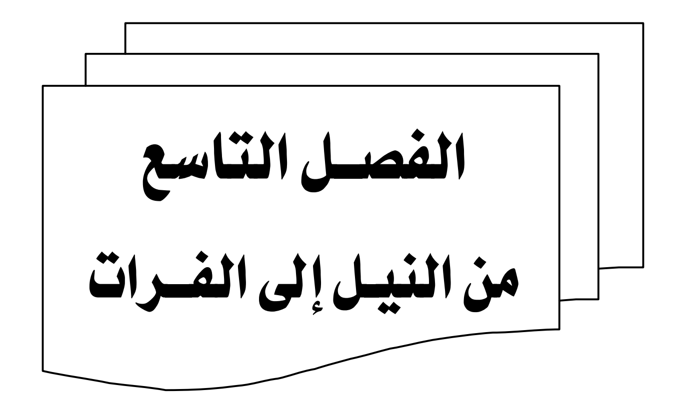
هذا، وعندما ينتقل الأدب الصهيوني إلى بُعد آخر، وحينما يُشير تحديدًا إلى الوجود العربي، فإنه لا يُعطي أي فرصة لاعتبار أن العربي موجود أصلاً في هذه الأرض، إنما هو قد أتى حينما أجبر اليهود على تركها، وإن وجد ضرورة في ذكر العربي في عمل أدبي ما فإنه يُشير إليه في ومضة سريعة لا تُعطي لوجوده تاريخًا أو بُعدًا زمنيًا، وسرعان ما يقع في التناقض مرة أخرى حينما يقول إن العربي جاء إلى أرض إسرائيل لكي ينتفع ويعمل عند اليهود، فكيف أن اليهودي قد قدم إلى الأرض توًا ولم يكن فيها، وكيف أنه موجود وأن العربي غير الموجود أتى ليعمل عند اليهودي غير الموجود أصلاً! كما أن الأدب الصهيوني يصوِّر العربي على أنه خائن ومخادع وجبان وغير موثوق بوعده، وهناك الكثير الكثير من الروايات الصهيونية التي تتجلى في وصف العربي.

تقول الشاعرة الإسرائيلية "نعمي شيمر" في إحدى قصائدها متجاهلة وجود الشعب الفلسطيني متحدثة عن الخواء الحضاري الفلسطيني، زاعمة أن مخلفات أجدادها القدامى ما زالت على حالها، ودليلها أنها عثرت عليها ووجدتها كما وصفتها كتب الآثار اليهودية، وهو ما يسهل على المهاجر أن يتعرف بسهولة على فلسطين منذ أن تركها أولئك الأجداد اليهود، قبل آلاف السنين! بدليل أنها تعثر عليها وقد بقيت تمامًا، كما وصفتها كتب الآثار اليهودية، الأمر الذي يُسَهِّل عليها وعلى من هاجر معها من اليهود الاهتداء إلى فلسطين، تقول الشاعرة نعمي شيمر في إحدى قصائدها مؤكدة على أن فلسطين ظلَّت خالية من السكان منذ أن تركها أجدادها اليهود منذ آلاف السنين عدا مخلفات الحضارة اليهودية القديمة:

"إنْ كنتُ نسيتُ الطريقَ، المعروفة منذ سنين، فعلى جانبَي هذي الطريــق.. هنــا وهناك، تُركَتْ لي صُور..".

لاشك أن (شيمر) وهي تصف لنا تلك الصور الخيالية، وطريقة اهتداء المهاجرين اليهود بها، كانت متأثرة بإحدى حكايات الأطفال الذين خرجوا باحثين عــن كنــز، ومعهم خريطة مضحكة تُحدِّد مكان ذلك الكنز، فتراهم ينطلقون من شجرة معينة.. على بعد ثلاث خطوات منها إلى الأمام، وأربع إلى اليمين، ثم عشرة إلى الوراء، يوجد سهم يشير إلى موقع ذلك الكنز، يُشبه ما تقوله الكلمات التالية من قصــيدة (شيمر): "ها هو سهمٌ موجَّهٌ، مرسومٌ بالجير الأبيض، اذهــبْ وأنــت - باتجــاه السَّهم - أو اذهبي خطوتان، ثم أربعُ من هنا.. مقلعُ حجارةٍ على جانبِ الطريــق، وعليهِ ظلٌّ شجرة، وبئرٌ أو اثنتان لي، لتحديد الطريق، لإشارة"، والشــاعرة هنــا تُشير إلى عدم وجود حضارة في تلك الأرض، والدليل عدم وجود بشر فيها، وإلا لما بقيت الأشياء القديمة على حالها منذ أن تركها أجدادها اليهود، ومن ناحيــة أخرى يود الأدباء الصهاينة أن يقولوا بإن اليهود هم الذين ينشئون الحضــارات، يأتون إلى الأرض القفراء، ويحيلونها جنانًا.

كما أن الأدب الصهيوني يُركز على تفوق العنصر اليهودي ويشيد بتميــزه علــى سائر الأجناس البشرية ويود أن يرسخ في الوجــدان، أن الصــهاينة هــم بُنــاة حضارة كما اليهود دائمًا، وهم في نفس الوقت يشيرون إلى تخلف العرب، وأنهم يستحقون احتلال الأرض لتطويرها ولكن ليس قبل طرد أهلها المتخلفين.


الفصـل التاسع
من النيـل إلى الفـرات

كان تصور هرتزل لإنشاء الدولة اليهودية في المشرق العربي سيبدل الأوضـــاع في منطقة الشرق الأوسط، وسيأتي بنظم ومعادلات تضاد بعضها بعضًا، وسيخلق عداوات، وتوقع أن من سيسود هناك هو القوي لأن منطقة لا يحكمها أهلها وفيها ما فيها من مشاكل داخلية وتَخلُّف حضاري هي مدعاة للأمم المتنفذة فـــي العـــالم لكي يكون لها دور محوري في أوضاعها، لذا رأى هرتزل بأن من يود أن يعيش في تلك المنطقة يجب أن تكون القوة المؤثرة بجانبه، لأن منطق حق القوة أقوى من قوة الحق، فعلاقات الدول اليوم وغدًا ستظل تحكمها القوة أو هكذا كان يرى.

لقد أراد هرتزل منذ البداية أن يكون المشروع الذي يتحمس له قوي ومبني على أساس متين، وهو الذي خبر السياسة الدولية في عصره، كونه مثقف وحيث أنه كان يعمل مراسلاً لإحدى الصحف، ذلك العمل الذي كان يتيح له أن يطلـــع علـــى دسائس السياسة العالمية، وعلى كيف كانـــت المنافســـة بـــين الإمبراطوريـــات البريطانية والفرنسية والألمانية والعثمانية، كل هذا الحيز من إتاحة المعلومـــات وقضايا الحروب والنزاعات، جعل هرتزل يمســـك بطريقـــة أو بـــأخرى بتلابيـــب السياسة العالمية، فعندما خلص إلى رأيه بأن القوة هي التي تصنع كل الأهـــداف، ذهب إلى انجلترا وراح يلتقي مع العمال اليهود المتحمسين، وصار يقـــدم نفســـه لهم على أنه من سيدافع عنهم بل وسيكون قائدًا لكل يهود العالم.

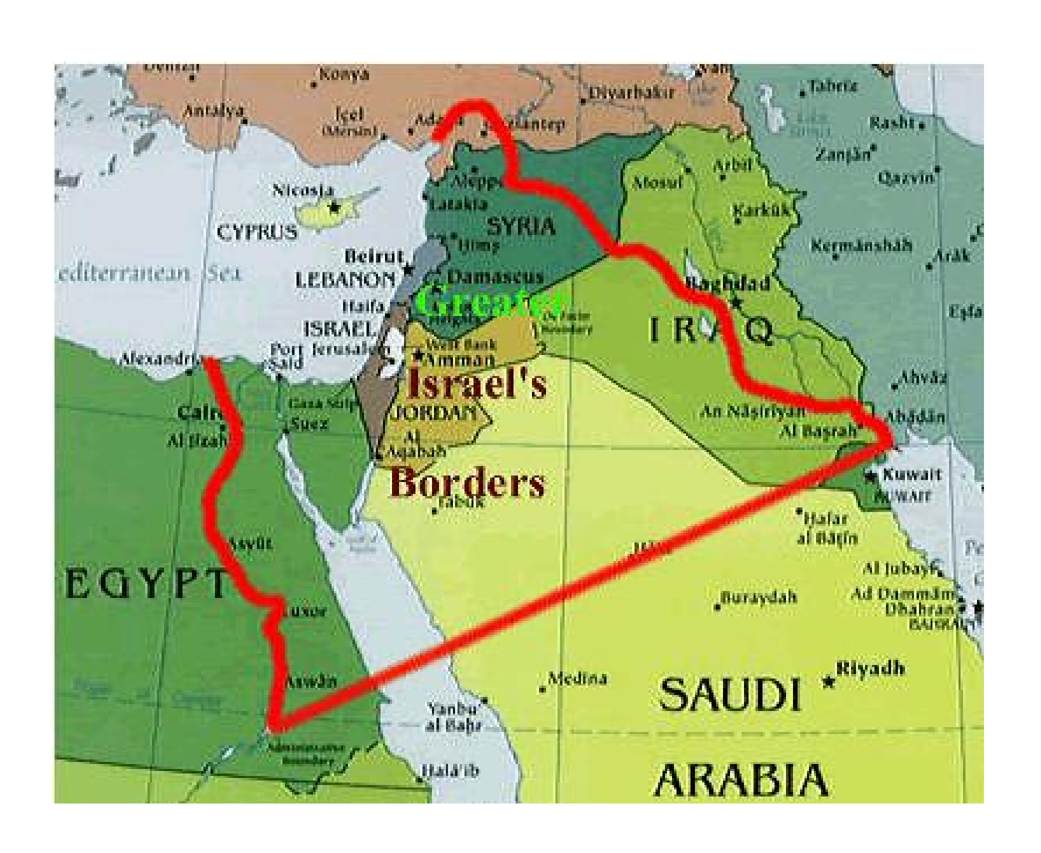
لم يكن هرتزل صاحب سلطة، ولم يكن متاحًا له مقابلة السياسيين والزعماء فـــي الدول الأوروبية فهو ليس أكثر من صحفي يعمل مراسلاً لإحدى الصحف ولـــيس أكثر، لكن توجهه للعمال اليهود وللجاليات اليهودية كان الهدف منه هو أن تضغط الجاليات اليهودية على أغنياء اليهود الأوروبيـــين، وتطـــالبهم بالســـعي لـــدى الحكومات الأوروبية لأجل الحصول على دعم لحركة هرتزل، التي لقيـــت ترحيبًـــا كبيرًا من كثير من أغنياء اليهود، وتحمس لها القوميون اليهـــود الـــذين وقفـــوا بجانب علمانية هرتزل، وتأثروا بالمجتمعات الأوروبية التي اتجهت إلـــى الدولـــة القومية.

هذا، وحينما نضجت الفكرة دعي إلى المؤتمر الصهيوني الأول فحضره كافة الطبقات اليهودية في العالم، حضره البرجوازيون والقوميون والوطنيون، والطلاب والعمال والاشتراكيون والثوريون والتجار والمتدينون ورجال المال والأعمال، كان مؤتمر بازل الصهيوني عام ١٨٩٧م مهرجانًا ضخمًا حضره جمع كبير من رجال الصحافة والإعلام، وعمل ضجة إعلامية كبيرة ألهبت حماس التيار القومي اليهودي الذي وجد تأييدًا من الرأسمالية الغربية لأجل تدشين مشروع اقتصادي كبير بحجم إنشاء دولة رأسمالية في منطقة ستكون مرتكزًا دائمًا لأوروبا الرأسمالية.

بعد انتهاء المؤتمر قال هرتزل لمحدثيه من الصحفيين، قد تسخرون مني إذا قلت بإننا قد أقمنا الدولة اليهودية في فلسطين، بعد خمسين عامًا تحققت نبوءة هرتزل، كان "ماكس بودنهماير" أحد رفاق هرتزل ومستشاره، وكان قد حضر معه أيضًا المؤتمر الصهيوني الأول في مدينة بازل، وكان يعلم حتى قبيل انعقاد المؤتمر، بأن السلطان العثماني كان قد رفض رفضًا قاطعًا كل الإغراءات التي قدمها هرتزل لتركيا لقبول الموافقة على هجرة اليهود إلى فلسطين، وفي هذا قال بودنهايمر بينما كان في سفينة تعبر به مضيق الدردنيل في تركيا، "إن لأحلامنا أجنحة لا تعرف الحدود، وإن المنطقة ما بين نهري النيل والفرات يجب أن تفتح أمام الاستيطان اليهودي لتحقيق الوعد الإلهي لليهود بالدولة اليهودية الكبرى".

الحلم الصهيوني مبني على ما جاء في الكتاب المقدس عند اليهود، ذلك الذي يقول في سفر التكوين:

"٨ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ عَقَدَ اللهُ مِيثَاقًا مَعْ أَبْرَامَ قَائِلاً: سَأُعْطِي نَسْلَكَ هَذِهِ الأرض مِنْ وَادِي الْعَرِيشِ إلى النَّهْرِ الْكَبِيرِ، نَهْرِ الْفُرَاتِ ١٩ أَرْضَ الْقَيْنِيِّينَ وَالْقَنِزِّيِّينَ، وَالْقَدْمُونِيِّينَ ٢٠ وَالْحِثِّيِّينَ وَالْفَرِزِّيِّينَ وَالرَّفَائِيِّينَ ٢١ وَالأَمُورِيِّينَ وَالْكَنْعَانِيِّينَ وَالْجِرْجَاشِيِّينَ وَالْيَبُوسِيِّينَ".



Konya
Antalya
Içel (Mersin)
Diyarbakir
Tabriz
Rasht
Zanjān
Qazvin
Mosul
Arbil
Kirkūk
Nicosia
CYPRUS
Aleppo
Latakia
SYRIA
Ḩimş
Kermānshāh
Arāk
Beirut
LEBANON
Damascus
Baghdad
Greater
Haifa
ISRAEL
Alexandria
Port Said
Jerusalem
West Bank
Amman
Israel's
JORDAN
Cairo
Al Jizah
Gaza Strip
Suez
Al Aqabah
An Nāşiriyah
Al Başrah
Ahvāz
Ābādān
Kuwait
KUWAIT
Borders
Tabūk
Ḩafar al Bāţin
Asyūţ
EGYPT
Al Jubayl
Ad Dammām
Dhahran
BAHRAIN
Buraydah
Luxor
Aswān
Medina
Riyadh
SAUDI
Yanbu' al Baḩr
Ḩalā'ib
ARABIA

رغم كل المتاعب التي كانت تعانيها الخلافة العثمانية، فإنها باتت تُدرك حقيقة الخطر الصهيوني الذي كان يحيق بأرض فلسطين، ذلك الخطر الذي كان يتمثل بالسعي إلى استيطان فلسطين في الوقت الذي كان هرتزل وحلفاؤه يعدون للمؤتمر اليهودي الأول، كان العثمانيون يتابعون ما كان ينشره مؤيدوا الاستيطان اليهودي في صحف الدول الأوروبية، فقد كتب البروفسور "فيتال" في إحدى الصحف بعد أن أيقن رفض السلطان العثماني لمطالب الحركة الصهيونية، قال فيتال إن تفكيرنا الآن منصب على إقامة وطن يهودي تحت الحماية الدولية بعد أن صار الباب التركي موصودًا أمام هدفنا، وقد عنى قول فيتال هذا الكثير للدولة العثمانية، وأدرك السلطان العثماني خطورة ما قد تؤول إليه الأوضاع في فلسطين والمنطقة، كأن تتدخل دول أخرى مثلاً للمساعدة في تحقيق المشروع الصهيوني، وهو ما جعل تركيا ترسل مندوبًا لحضور مؤتمر بازل للمراقبة عن قرب لما قد سيصدر عن المؤتمر.

كتب "أحمد توفيق" باشا سفير الدولة العثمانية في برلين آنذاك إلى وزارة الخارجية في تركيا: "إن هناك خطة جادة لتأسيس دولة يهودية في فلسطين، وإن المستوطنين اليهود بفلسطين يعملون على بسط نفوذهم ونشر الفكر الصهيوني في بقاع فلسطين المختلفة، وإن قرارات المؤتمر الأول تشير بشكل خفي إلى هذا الهدف".

ورغم كل محاولات هرتزل للحصول على موافقة السلطان العثماني كما أسلفنا، فقد فشل في أن يجد مدخلاً واحدًا لكي يتسلل منه، ووجد أن كل الأبواب صارت مقفلة في وجه مشروعه، فمن مواقف السلطان العثماني في وجه محاولات الحركة الصهيونية، أنه قال للكونت البولوني "فيليب دي نيولنسكي" وكان الأخير صديقًا لهرتزل، قال السلطان عبد الحميد "إذا كان هرتزل يكن لك الصداقة كما أكنها لك، فمن المناسب أن تبلغه أن يقف عند هذا الحد ولا يخطو خطوة أخرى، إن ملكية هذه الأرض لا تعود لي شخصيًا ولا إلى الحكومة العثمانية، إنها ملك

للشعب المسلم الذي قدم دمه دفاعًا عن هذه الأراضي، فإذا كان لابد من ترك هذه الأرض فلن يكون ذلك إلا بإهدار الدم".

كان رفض الدولة العثمانية للمشروع اليهودي واضحًا وجليًا، وكان يـــدل علـــى النظرة البعيدة للسلطان عبد الحميد الذي ربما تخيل ما قد سيأتي من بعد تحقيـــق مشروع كالمشروع الصهيوني في فلسطين، حيث ستكون فرصة للدول العظمـــى لزيادة نفوذها في المنطقة.

لقد أثبتت الأيام بأن السلطان عبد الحميد كان مصيبًا حينما وقـــف بحـــزم أمـــام مطالب هرتزل، فلقد رأينا كيف آلت الأمور بعد خلـــق الكيـــان الإســـرائيلي فـــي فلسطين، لم تحل المشكلة اليهودية، وها هي الستين عامًا التي مرت منذ إنشـــاء إسرائيل تثبت ذلك، هذا بالإضافة إلى ما حل بشعب كامل هو الشعب الفلســـطيني صاحب الأرض نتيجة لمشروع الدولة اليهودية.

إن ما يلفت النظر هو أن هرتزل توقَّع إنشاء دولة لليهود، وتوقـــع انقـــلاب فـــي العلاقات العامة بين هذه الدولة ومحيطها ممن يعيشون حولها من بشر، وهو مـــا يُفسر المسئولية التي تقع على أصحاب الشأن فيما قد تؤول إليه الأمـــور تجـــاه الدولة اليهودية مع مرور الزمن، ما دام الرفض العربـــي والإســـلامي مســـتمرًا للكيان الصهيوني، فإن المشروع الصهيوني لم يحقق النجاح بعد حتى وإن علـــت إسرائيل علوًا كبيرًا، وسيظل الحكم للأيام.

خديعة بريطانيا للشريف حسين بن علي:

"الشريف الحسين بن علي"، هو الحسين بن علي بن محمد بن عبد المعـــين بـــن عون، من أحفاد أبي نمي بن بركـــات الحســـني الهاشـــمي القرشـــي (١٨٥٤ - ١٩٣١م)، أول من نادى باستقلال العرب عن الإمبراطورية العثمانية وقاد الثورة العربية الكبرى سنة ١٩١٦م، وآخر من حكم مكة من الأشراف الهاشميين.

ولد الشريف حسين في الآستانة بتركيا حيث كان أبوه منفيًا فيها، انتقل مع والده إلى مكة وكان عمره ثلاث سنوات، نشأ وتعلم وتفقَّه ونظم الشعر وتعلم الفروسية والصيد، أحبه عمه الشريف "عبد الله باشا" أمير مكة فوثـــق بـــه وعهـــد إليـــه بالمهمات، أحكم صلته بالقبائل في نجد، ولما مات أبوه وعمه وآلت إمـــارة مكـــة إلى عمه الثاني "عون الرفيق"، لم يحتمل العم تدخل الشريف حسين فـــي شـــؤون الإمارة، التي كانت تابعة للدولة العثمانية في ذلك الوقت، فما كان من عمه إلا أن طلب من السلطات العثمانية إبعاده من الحجاز، فتم نفيه إلى الأستانة، وصار فيها من أعضاء مجلس "شورى الدولة".

أقام في تركيا إلى أن توفي عمه "عون الرفيق"، ثم توفي عمه الثالث "عبد الإلـــه" فعيِّن أميرًا لمكة سنة ١٩٠٨م فعاد إليها، وقاد بحملة إلى بلاد عسير بالحجـــاز، كانت نجدة للترك، فقاتل "الإدريسي" في عسير، وفي مسعى بريطانيـــا لتقـــويض أركان الخلافة العثمانية، استخدمت النزعة القومية لتحقيق هدفها فشجعت علـــى إنشاء جمعية الاتحاد والترقي في تركيا التي تنادي بتفوق الأتراك وفصلهم عـــن العالم العربي، ولما نشبت الحرب العالمية الأولى سنة ١٩١٤م، واشتدت جمعيـــة "تركيا الفتاة" السرية في العمل بواسطة حزبها العلني "الاتحـــاد والترقـــي" علـــى تتريك العناصر في الدولة، فقتلت جمهرة من حملة الفكرة العربية وطلائع يقظتها الحديثة، وشرَّدت الكثيرين، ونمت في بلاد الشام والعراق والحجاز روح النقمـــة على الترك والدعوة إلى الانفصال عنهم.

انتهز البريطانيون الفرصة، وهم في حرب مع دولة آل عثمان وحليفتها ألمانيـــا، فاتصلوا بالشريف حسين، وكاتبوه من مصر، وكان على غير وفاق مع مـــوظفي "الدولة" العثمانية في الحجاز، فنهض وأطلـــق رصاصـــته الأولـــى بمكـــة ســـنة ١٩١٦م، حاصر من كان في البلاد الحجازية من عساكر الترك، وأمـــده الإنكليـــز بالمال والسلاح، ونُعت بالملك "المنقذ"، ووجه ابنه فيصل إلى سورية فدخلها مـــع الجيش البريطاني فاتحًا، وبانتهاء الحرب العالمية (سنة ١٩١٨م) تـــم اســـتيلاء الحسين على الحجاز كله، وأرسل ابنه الثاني "عبد الله" بجيش ضـــخم لإخضـــاع

واحتي "تربة" و"الخُرمة" في شرقي الطائف، وكانتا مواليتين لابن سعود الملك عبد العزيز بن عبد الرحمن، زعيم نجد في ذلك الحين، فعسكر بينهما، فباغته رجالهما يقودهم بعض أتباع ابن سعود سنة ١٩١٩م فانهزم عبد الله بفلول قليلة من عساكره، وأضاع الحسين في هذه الحملة أكبر قوة جمعها.

تداعت الأمور أكثر، فأخرج الفرنسيون ابنه فيصل من سورية بعد معركة ميسلون سنة ١٩٢٠م واحتلوها، ولما استنجد بعض زعمائها بالحسين، وجَّه إليها ابنه "عبد الله" لكي يثأر لأخيه، أو ليجمع على حدود سورية قوة تكون نواة لجيش يقلق المحتل، اقترب عبد الله من سوريا، ونزل ببلدة عمّان (عاصمة الأردن حاليًا) ودعاه الإنكليز إلى القدس، فاتفقوا معه على أن تكون له إمارة "شرقي الأردن" فأقام بعمان، وتناسى ما جاء من أجله.

ولما استفحلت ثورة العراق على الإنجليز، ساعدوا فيصل بن الحسين على اعتلاء العرش في بغداد فتولاه، وأصبح للحسين جناحان قويان: فيصل في شمال شبه الجزيرة، وعبد الله في شمالها الغربي. ولما حاول ابن سعود أن يتقرب إليه راغبًا في الصلح وكان الحسين قد زار عمان سنة ١٩٢٤م وبايعه الناس بالخلافة، عاد إلى مكة ملقبًا بأمير المؤمنين، فأراد أهل "نجد" الحج، فلم يأذن بدخولهم الحجاز، فاشتد توتر الحال بينه وبين ابن سعود، وأقبلت جموع من نجد وتربة والخرمة إلى مدينة "الطائف" فمزقت جيش الحسين المرابط فيها، واحتلتها، وسرى الذعر إلى مكة.

ولما اتصل الشريف حسين بالقنصل البريطاني في جدة طالبًا العون، أجابه هذا بأن حكومته قررت الحياد، اجتمع بجدة بعض ذوي الرأي من أهلها وأهل مكة، فاتفقوا على نصح الحسين بالتخلي عن العرش لكبير أبنائه "علي" ففعل، وانتقل من مكة إلى جدة سنة ١٩٢٤م ثم ركب البحر إلى "العقبة" التي كانت تقع عند آخر حدود الحجاز في الشمال، وكانت في ولاية ابنه عبد الله، فأقام بضعة أشهر، ثم أخبره ابنه عبد الله بأن البريطانيين يرون أن إقامته فيها قد تحمل "ابن سعود" على مهاجمتها، وتلقى إنذارًا بريطانيًا بوجوب رحيله عنها، ووصلت إلى مينائها

مدمرة بريطانية، ركبها وهو ساخط، إلى جزيرة قبرص سنة ١٩٢٥م فأقام ست سنين في قبرص ومرض، فأذن الإنجليز بسفره إلى عمّان، فجاءه ابناه فيصل وعبد الله، وصحباه إلى عمان، فمكث معتلاً ستة أشهر وأيامًا، ووافته المنية، فحمل إلى القدس، ودفن في المسجد الأقصى. (عن ملوك العرب).

لكن الأمور لم تكن فقط بذاك الاختصار كما ورد في الحديث السابق عن الشريف حسين بن علي، فقد يكون من المفيد للقارئ العربي الإطلاع على تطورات الأحداث خلال الحرب العالمية الأولى ومقارنتها بما حدث بعد ذلك:

نشبت الحرب العالمية الأولى سنة ١٩١٤ م، ونمت روح النقمة على العثمانيين في بلاد المناطق العربية خصوصًا في الشام والعراق والحجاز، وحلم العرب في الاستقلال من تبعية الحكم التركي العثماني، فانتهز البريطانيون الفرصة بينما هم في حرب مع دولة آل عثمان والألمان، اتصلوا بالشريف حسين من مصر، ووعدوه بخلافة عربية إسلامية، من مصر إلى بلاد فارس ما عدا مصالحهم في الكويت وعدن والساحل السوري إن هو عاونهم وثار على العثمانيين.

وكان قد تم وضع مبادئ الثورة العربية بناء على الاتفاق الذي تم بين الشريف حسين حاكم مكة وبين قادة الجمعيات والمنظمات العربية في سوريا والعراق، ضمن ميثاق قومي عربي موحد يهدف إلى إقامة الدولة العربية الموحدة، وعلى ذلك تمَّت مكاتبات ومراسلات بين الشريف حسين بن علي وهنري مكماهون ممثل ملك انجلترا في مصر، بعد أن أرسل "الشريف حسين" ابنه "فيصل" إلى دمشق سنة ١٩١٥م لكي يتصل بزعماء الحركة القومية العربية وعرض الأمر عليهم فباركوا القيام بالثورة، وتعبيرًا عن الموافقة ومباركة الحركة أعطت جمعيتي "العربية الفتاة" و"العهد" فيصل بن الحسين خريطة لحدود الدولة العربية لكي تعينهم أثناء الحرب، كما وضعوا لائحة بها عدة مطالب يريدون الحصول عليها عند نيل الاستقلال أو ما سمي بروتوكول دمشق، وهو البروتوكول الذي وضعه العرب عند موافقتهم على إقامة الثورة العربية الكبرى ومبايعة قيام الثورة للشريف

حسين، وقد وضعوا به عدة مطالب لكي يتم التفاوض عليها مع بريطانيا بعد قيام الثورة، وكانت تلك المطالب هي:

"إلغاء الامتيازات الأجنبية، وعقد تحالف دفاعي بين بريطانيا والدولة العربية المستقلة، ومنح بريطانيا الأفضلية في الشؤون الاقتصادية، وأن تعترف بريطانيا باستقلال البلاد العربية الواقعة ضمن الحدود، شمالاً والتي تبدأ عند خط مرسين واطنة وتمتد على أورفة وماردين وجزيرة عمر ثم أخيرًا حدود فارس، أما من ناحية الشرق فهي كانت حدود إيران حتى الخليج العربي وفي الجنوب كان المحيط الهندي ما عدا جزء عدن، وأما من ناحية الغرب فكان البحر الأحمر والأبيض المتوسط حتى مرسين في تركيا".

وهكذا، فقد احتدم الخلاف أكثر بين العرب والعثمانيين خصوصًا عندما تم تعيين "وهيب باشا" العثماني بأن يكون واليًا على الحجاز، وذلك من أجل أن يجمع في قبضة يده السلطة على الحياة المدنية والعسكرية وبالتالي محاولة القضاء على الشرافة وحكم الشريف حسين، وهكذا أصبح الاحتدام بين الدولة العثمانية والشريف حسين فبادرت بريطانيا بأن تجعل نفسها حليفًا للشريف حسين بالتطميع في إقامة الدولة العربية التي طالما حلم بها كل العرب.

(انظر مراسلات الحسين – مكماهون في قسم الوثائق في نهاية هذا الكتاب)

بدأت المراسلات بين الحسين ومكماهون في ١٩١٢م عند زيارة "عبد الله ابن الشريف حسين" للمعتمد البريطاني في القاهرة "كتشنر" ليتباحثا في شأن الوضع العربي العثماني في الحجاز، وعن موقف بريطانيا إذا ما نشبت حرب بين الحسين والاتحاديين في تركيا، كان اللقاء بالنسبة لبريطانيا مثمرًا، فعلى الأقل أصبحت بريطانيا على دراية لما يطمح إليه العرب، وستستغله إذا ما تبدلت الظروف، فقد كانت في ذلك الوقت على علاقة حسنة مع الخلافة العثمانية، فلما ساءت بعد ذلك العلاقة بين تركيا وبريطانيا حينما زادت أطماع الأخيرة في الممتلكات العثمانية، راحت بريطانيا تُعيد النظر في العرض الذي كان قد طرحه عليها عبد الله ابن

الشريف حسين، فاستأنفت المفاوضات سنة ١٩١٤م وتم إعادة الاتصالات والتجهيز للحرب والثورة على تركيا.

كانت الرسالة الأولى التي أرسلها الشريف حسين إلى المعتمد البريطاني في القاهرة هي وثيقة بروتوكول دمشق القومي العربي، لكي يكون الأساس العام للتحالف العربي البريطاني ضد الأتراك، لكن بريطانيا ومعها فرنسا الحليفتين ضد دولة العثمانيين خدعتا العرب، واستعملتهم بريطانيا كطعم ضد الأتراك لتحقيق مصالح الدولتين، فعملت بريطانيا وفرنسا اتفاقًا سريًا خلف ظهر الحلفاء العرب وتقاسمتا مغانم دولة العثمانيين ولم تكن الحرب قد انتهت بعد، فكانت معاهدة "سايكس – بيكو سنة ١٩١٦ م" خديعة للعرب.

وعلى هذا الأساس عملت القوات العربية بقيادة الأمير فيصل على نسف خط سكة حديد الحجاز الذي كان يربط بين الحجاز والخلافة العثمانية، واحتلت ينبع والعقبة التي اتخذتها القوات العربية نقطة ارتكاز لها، لتمولها بريطانيا بالإمدادات العسكرية، وفي ثلاثة أشهر فقط منذ بدء إعلان الثورة تم الاستيلاء على مدن الحجاز الكبرى باستثناء المدينة المنورة التي بقيت محاصرة حتى نهاية الحرب، استطاع أفراد القبائل مساعدة ضابط المخابرات البريطاني الشهير "لورنس" من منع وصول الدعم التركي للجيش في منطقة الحجاز والمدينة المنورة ومعان ودمشق والعقبة وأخيرًا حلب في عام ١٩١٩م، وليس هذا فحسب بل إن الجيش العربي بقيادة فيصل بن الحسين هو الذي استولى على الأردن، وبذلك تمت محاصرة الحاميات التركية في فلسطين، فكانت مهمة الجيش البريطاني بقيادة الجنرال اللنبي سهلة في الدخول إلى القدس واحتلال فلسطين.

وأما المراسلات بين الشريف حسين ومكماهون فقد تمت في إطار ما كانت تجريه الاستخبارات البريطانية في مكتبيها بمصر وبالهند، وذلك حول إمكانية قيام ثورة عربية ضد الأتراك العثمانيين من جهة، ولطمأنة رعايا بريطانيا من المسلمين بسلامة الأماكن المقدسة من جهة أخرى، وقد جرت المراسلات على مرحلتين:

المرحلة الأولى: بواسطة الشريف "عبد الله" النجل الثاني للشريف حسن بن علي، الذي حاول معرفة موقف الحكومة البريطانية في حال اضطرار الشريف إلى الدفاع عن الحجاز، وحمايته من تعديات الأتراك، وكان ذلك بينما هو يمر بالقاهرة في طريقه إلى اسطنبول، حيث كان يلتقي اللورد "كتشنر" المعتمد البريطاني، و"رونالد ستورز" السكرتير الشرقي في دار الاعتماد، قال اللورد كتشنر: "إذا ساعدت الأمة العربية انجلترا في هذه الحرب التي فرضتها تركيا علينا فرضًا، فإن انجلترا ستضمن عدم وقوع تدَّخل في الشئون الداخلية لجزيرة العرب، وستقدم للعرب كل مساعدة ضد أي عدوان خارجي".

المرحلة الثانية: وقد بدأها "وينجيت" بواسطة السيد "علي الميرغني" الذي اقترح بعد اتصالاته في مذكرة من الخرطوم مؤرخة في ٦ مايو ١٩١٥م، بأن تلتزم بريطانيا بمطالب الحسين، وعلى ذلك استكملت الاتصالات مع "هنري مكماهون" أو ما سمي "مراسلات الشريف حسين – مكماهون".

بدأت المراسلات بين الشريف حسين ومكماهون في ١٤ يوليو ١٩١٥ م واستمرت حتى ١٠ مارس ١٩١٦ م وبلغ مجموع الرسائل المتبادلة فيها عشر رسائل، وكان هدف الإنجليز منها إشعال الثورة ضد الأتراك، الرسالة الأولى التي بعثها الشريف حسين حملت إلى مكماهون مقترحات محددة بشأن حدود الدولة العربية التي طالب باستقلالها، وأن توافق بريطانيا على إعلان خليفة عربي للمسلمين، وألمح الشريف حسين أن هذه المطالب نهائية للبلاد العربية، ولا يقبل العرب المساومة عليها، وفي أغسطس ١٩١٥م بعث مكماهون برده على رسالة الشريف، وموافقة بريطانيا على أن يكون الخليفة عربيًا عند إعلان الخلافة، لكنه حاول إقناع الحسين بإرجاء الكلام في مسألة الحدود المقترحة للدولة العربية.

لم يكن رد مكماهون سارًا للشريف حسين، فكتب إلى مكماهون رسالة يُعرب فيها عن دهشته لتهربه من مسألة الحدود وهي مسألة جوهرية، فأجابه مكماهون برسالة في ٢٤ أكتوبر ١٩١٥م بتعهدات قوية في قيام الدولة العربية وحمايتها،

وعلى هذا الأساس ظل العرب بعد الحرب يتهمون بريطانيا بأنها لم تف بوعـدها لهم.

في ١٥ نوفمبر ١٩١٥م رد الحسين على مكماهون برسالة جاء فيها: "رغبة في تسهيل الاتفاق وخدمة الإسلام واجتناب كل ما من شأنه تعكير صفو المسلمين، واعتمادًا على نيات بريطانيا العظمى ومواقفها الحميدة فإننا نتنازل عن إصرارنا على ضم مرسين وأطنة إلى المملكة" إلا أنه تمسك بولايتي: حلب وبيروت، إلا أن مكماهون بعث إليه برسالة أصرّ فيها على استثناء حلب وبيروت من الدولة العربية، ودعى الشريف حسين إلى البدء بالثورة، فعاد الشريف حسين إلى إرسال مُكاتبة أخرى إلى مكماهون يُبلغه فيها استعداده للتنازل عن منطقة غرب دمشق، حلب، حمص، على أن يكون من حق العرب المطالبة بها بعد انتهاء الحرب.

في ١٠ مارس ١٩١٦م بعث مكماهون برسالة إلى حسين بموافقة بريطانيا على جميع مطالبه عدا أنه طلب استبعاد محمية عدن ومرسين وجنوب العراق وحمص مبدئيًا أن تكون جزء من الدولة العربية، على أن يكون من حقه المطالبة بها بعد انتهاء الحرب.

لم تُسفر تلك الرسائل عن منح العرب أية مطالب، فكان فقط نصيب الشريف حسين أن خلَّد اسمه في التاريخ بوصفه قائد الثورة العربية الكبرى، وبعد انتهاء الحرب العالمية الأولى في عام ١٩١٨م بدأت انجلترا وفرنسا تقسيم أملاك الخلافة العثمانية أو تركة الرجل المريض كما أسموها، وطبَّقوا اتفاقية سايكس بيكو الشهيرة مع تعديل يجعل فلسطين تحت الانتداب البريطاني، وشرع في تنفيذ وعد بلفور بطريقة عملية وجادة على الأرض في فلسطين.

اتفاقية سايكس – بيكو ١٩١٦م The Sykes – Picot:

كانت أنظار الصهاينة ترنو لاستيطان فلسطين، وقد زاد من نشاطهم واهتمامهم سعي الدول الغربية الكبرى لمد نفوذها في الشرق بعد أن تمت الإطاحة بنظام

حكم السلطان العثماني عبد الحميد الثاني الذي لم يتزحزح عن رفضه قيد أنملة للتصريح لليهود باستيطان فلسطين بصفة رسمية، وبتصريح من دولة الباب العالي، كانت القوى الاستعمارية "فرنسا وبريطانيا" تسعى لاقتسام تركة الدولة العثمانية (رجل أوروبا المريض)، فبينما كانت الحرب مستعرة عقدت بريطانيا وفرنسا وروسيا القيصرية اتفاقية "سايكس – بيكو"، حيث مثَّلَ انجلترا في المفاوضات "مارك سايكس" عن بريطانيا و"فرانسوا جورج بيكو" عن فرنسا وشهدت على الاتفاقية روسيا القيصرية بـ "سيرجي سازانوف".

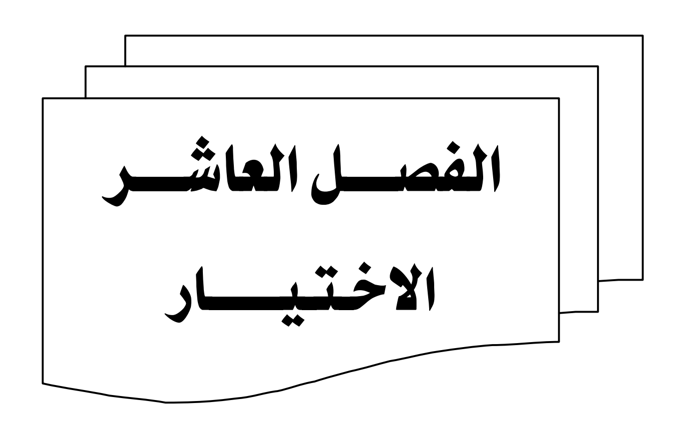
"مارك سايكس" هو الابن الوحيد للسير "تاتون سايكس" البارون الخامس من سيلدمير من زواج غير سعيد مع كريستينا كافيندش- بينتينك، انتهى بتخلي تاتون عن زوجته ماليًا وطلاقها عبر الصحف، عاش مارك متنقلاً بين والدته التي أقامت فيما بعد في لندن، ومزرعة والده في يوركشاير الشرقية ومنزله في قصر سيلدمير، تحولت والدته فيما بعد للكاثوليكية وتبعها هو كذلك، ومما تجدر ملاحظته أن سايكس كان على عكس الغالبية الساحقة من الصهاينة غير المسيحيين الذين يأتون من أوساط بروتستانتية، كان دبلوماسي ورحالة بريطاني وُلد في لندن وتلقّى تعليمه في موناكو وبروكسل وكمبردج، عمل في الجيش البريطاني بعض الوقت في جنوب أفريقيا ١٩٠٢م، وسافر إلى سوريا والعراق، وكثيرًا ما سافر في صباه مع والده لمناطق الشرق الأوسط ضمن الدولة العثمانية، هذا بالإضافة إلى مناطق أخرى من المستعمرات البريطانية.

مثّل بريطانيا في محادثات اقتسام النفوذ مع فرنسا وروسيا في أراضي الإمبراطورية العثمانية في المشرق العربي والأناضول ووقَّع على اتفاقية سايكس-بيكو، وعُيِّن ملحقًا فخريًا للسفارة البريطانية في اسطنبول، وعُيِّن بسبب خبرته الواسعة في شئون الشرق مساعدًا لوزارة الحرب البريطانية، وكانت وظيفته تزويد مجلس الوزراء بالمعلومات والمشورة حول شئون الشرق الأوسط، ولم يكن سايكس من صانعي القرار إلا أنه كان مؤثرًا جدًا فيه بسبب شهرته كخبير في شئون الشرق الأوسط وحظوته لدى أصحاب السلطة، بل يرى كاتب

سيرة حياته أنه كان القوة المحركة للسياسة البريطانية الخاصة بفلسطين التي أدَّت إلى إصدار وعد بلفور ثم الانتداب البريطاني على فلسطين، أشارت بعض المصادر إلى دوره في إصدار وعد بلفور، بعد موته اعتبرته الحركة الصهيونية على لسان "ناحوم سوكولوف" صديق حاييم وايزمان "*سقط كالبطل إلى جانبنا ..*"

وأما فرانسوا جورج بيكو (١٨٧٠ – باريس ١٩٥١م)، فهو سياسي ودبلوماسي فرنسي وقَّع اتفاقية سايكس - بيكو عن الجانب الفرنسي بحضور سيرجي سازانوف ممثل روسيا على أن يتم التفاهم مع روسيا على مناطق أخرى تهم روسيا خاصة، هذا وقد أصبح بيكو فيما بعد مسئولاً عن إلحاق مناطق المشرق العربي للنفوذ الفرنسي والتأسيس للانتداب الفرنسي على سوريا، كانت اتفاقية سايكس بيكو عبارة عن تفاهم سري بين فرنسا وبريطانيا لاقتسام منطقة الهلال الخصيب بعد تهاوي الإمبراطورية العثمانية التي كانت تسيطر على تلك المنطقة حتى الحرب العالمية الأولى، تم التفاهم على الاتفاقية بين تشرين الثاني ١٩١٥م وآيار ١٩١٦م، وكانت على صورة تبادل وثائق تفاهم بين وزارتي خارجية بريطانيا وفرنسا وروسيا القيصرية آنذاك، إلا أن أمر الاتفاقية قد تم فضحه بعد تولي الشيوعيين الحكم في روسيا عام ١٩١٧م مما أثار الشعوب التي مستها الاتفاقية وكانت ردة الفعل الشعبية المباشرة قد ظهرت في مراسلات الشريف حسين ومكماهون البريطاني.

(نص اتفاقية سايكس بيكو – انظر قسم الوثائق في نهاية الكتاب)


الفصـــل العاشـــر
الاختيـــار

كانت الحركة الصهيونية منذ أن توجهت لتنفيذ مشروع إقامة الــوطن اليهــودي على أرض فلسطين تعمل في اتجاهين، اتجاه دينـــي واتجــاه سياســي، وكـــان الاتجاهان يسيران بالتوازي، هكذا ظلا بعيدين لا يتلامسان، وذلك لعــدم حصــول تشويش وبلبلة في أفكار الشعوب الأخرى خصوصًا تلك الأمم والشعوب التي تؤيد مشروع إقامة دولة إسرائيل، لهذا كان من الصواب لقادة الحركة الصهيونية، أن يجعلوا أهدافها دينية وسياسية، إبقاء على التخصص وعدم إمكان حدوث صــدام بين العلمانيين منهم والمتدينين، وبذلك يظل العطاء والســعي والبنـــاء مســتمر للوصول إلى الغاية المنشودة.

كان من أهم أهداف الحركة الصهيونية دينيًا، شحن الأفراد والجماعات في الشتات اليهودي لتحفيزهم بالذهاب إلى أرض الميعاد (فلسطين)، وكذلك العمل على بــذل جهد أكبر لتشجيعهم للتمسك بالديانة اليهودية التي يُعتبــر أفرادهــا هــم وقــود الصهيونية إعلاميًا وبشريًا لأجل الهجرة إلى الوطن الموعود، كان مــن أهــداف الصهيونية أيضًا، هو إشاعة روح الانتماء والتعصب الديني حتى إذا احتاج الأمر العمل على قتال أهل الأديان الأخرى من أجل الوصول إلى الهدف المنشود.

أما الهدف السياسي فقد كان تهويد فلسطين، وذلك بجلب المهاجرين اليهود إليها، وتشجيع الآخرين على الهجرة، وإقامــة المســتوطنات علـــى أرض فلســطين، وتأسيس مقومات سياسية واقتصادية وعسكرية للدولة القادمة، وكذلك العمل في نفس الوقت على انتزاع اعتراف العالم بالدولة القادمة، وليس هذا فحســب بــل العمل على تحفيز الدول المتنفذة على حماية الدولة الوليدة أمنيًا، ودعمها بأقصى ما يمكن عسكريًا لكي تستمر في البقاء، وفرضها على العرب حتـــى لـــو احتـــاج الأمر استعمال القوة المسلحة رغم أن تلك الدول ليست يهودية، وهنا يتضح تأثير الصهيونية على دول مثل الولايات المتحدة وروسيا ودول أوروبا، الهدف الذي لا يقل أهمية هو رعاية شئون اليهود في العالم وتنظيمهم وتوحيد جهــودهم حتـــى يكونوا جاهزين عند الحاجة لتحقيق مصالح الدولة القادمة وخدمتها حتى وهم في مواطنهم الأصلية.

مذكرة هربرت صموئيل Herbert Samuel:

هربرت صموئيل سياسي بريطاني صهيوني من عائلة يهودية عريقة في عالم المال والتجارة، كان أول وزير يهودي بريطاني يتبنى الفكرة الصهيونية عام ١٩١٤م، لعب "هربرت صموئيل" دورًا هامًا في خدمة الصهيونية، فمن ناحية راح - من باب الولاء لبريطانيا - يقدم نصائحه للحكومة البريطانية بدعوى الحرص على المصالح الإمبراطورية بأسلوب ماكر، يؤدي إلى أن الحل الأمثل لفلسطين هو وضعها تحت الحماية البريطانية إذا ما تم هدم الخلافة العثمانية، ذلك لأجل أن يطلق يد المنظمة الصهيونية في تهويد الأرض الفلسطينية عن طريق تدفق المهاجرين اليهود وبناء المستوطنات تمهيدًا لاستحقاق إعلان دولة إسرائيل.



هربرت صموئيل

لقد عمل "هربرت صموئيل" مستشارًا للحكومة البريطانية في الشأن الفلسطيني خلال الحرب العالمية الأولى، ثم عُيِّن بعد ذلك معتمدًا بريطانيًا في فلسطين إبان

حكم الانتداب البريطاني، في مذكرته إلى الحكومة البريطانية عام ١٩١٥م أشار إلى أن أي وضع لفلسطين تحت الاحتلال الفرنسي الحليف لا يعتبر مطمئنًا بالنسبة للمصالح البريطانية، فإذا كانت صحراء سيناء تحمي قناة السويس من تركيا، فإن الأمر يعتبر خطيرًا إذا ما كانت فرنسا في فلسطين، غامزًا في قناة أن فرنسا دولة عظمى كبرى ولها جيش قوي ويمكن أن يهدد المرور في قناة السويس، ثم إن فرنسا لها أطماع في المنطقة منذ فشل حملتها العسكرية بقيادة "نابليون بونابرت" في أواخر القرن التاسع عشر، الذي قال قولته المشهورة "تحت أسوار عكا دفنت آمالي في الشرق".

أشار صموئيل أيضًا إلى أن ترك فلسطين تحت الإدارة التركية بعد هزيمة تركيا ليس من مصلحة البلد ولا أهلها خصوصًا الجالية اليهودية، لأن تركيا لم تقدم شيئًا لتطوير فلسطين، فالأتراك غرباء عن البلاد وهمهم هو جلب الضرائب وإرسالها إلى تركيا، كما أن فكرة تدويل فلسطين ووضعها تحت إشراف عدة دول يجعلها مسرحًا للدسائس والمؤامرات، وسيعمل كل فريق على أن تكون لدولته السلطة الفعلية على البلاد، فكما الخطر الفرنسي ماثل للعيان فإن الخطر الألماني أيضًا ربما هو الأشد، من ناحية سيطرة ألمانيا على فلسطين، حيث أن لألمانيا مصرفًا ومستعمرات زراعية فيها، وقد يزداد نفوذ ألمانيا خلال سنوات قليلة إلى درجة أن يمتد حتى إلى مصر، كما أن ممارسة الحكم على البلاد بواسطة لجنة منتدبة تتألف من ممثلي عدة دول تكون كمن يضع البلاد تحت أيد مشلولة.

وقد خلص هربرت صموئيل في نصيحته للحكومة البريطانية إلى القول، إن الاحتمال الآخر الذي يفضله هو أن تكون فلسطين محمية بريطانية، أو أن تأسس في فلسطين دولة يهودية، وقال في تلك المذكرة متباهيًا بإن تدفق المهاجرين اليهود قد جعل سكان المستعمرات الزراعية يقدَّرون بحوالي خمسة عشر ألفًا، وأضحى عدد اليهود في فلسطين حوالي سدس عدد السكان المحليين، وهو ما يؤكد أن معظم سكان دولة إسرائيل الحالية ونحن في القرن الحادي والعشرين هم

من نسل المهاجرين اليهود، الذين قدموا من كل جهات الدنيا الأربـــع إلـــى أرض ليست وطنهم.

بيَّن هربرت صموئيل في مذكرته للحكومة البريطانية أيضًا، أن إقامة دولة يهودية في فلسطين تضم الغالبية المطلقة لرعايا الدولة من العرب، لا يشكل صمام أمـــان للدولة اليهودية، ولن يساعد على تطورها وازدهارها، لهذا هو يفضل أن يكـــون سكان الدولة من اليهود فقط، وقال حاثًا بريطانيا على الأخـــذ بيـــد اليهـــود فـــي فلسطين:

"إن الإمبراطورية البريطانية، باتساعها وازدهارها الحاضر، ليس لديها بعـــد مـــا تضيفه إلى عظمتها، لكن فلسطين على صغر مساحتها تنتفخ ضخمة في مخيلـــة العالم، حتى أن كل إمبراطورية، مهما كانت عظيمـــة، قـــد ترفـــع مـــن مكانتهـــا ومركزها بامتلاكها لها، إن ضم فلسطين إلى الإمبراطورية البريطانية سوف يزيد حتى في لمعان التاج البريطاني، ويشكل جانبًا شديد القوة لشعب المملكة المتحدة والممتلكات المستقلة، خصوصًا إذا ظهر كوسيلة معلنة لمســـاعدة اليهـــود علـــى احتلال البلاد من جديد، هناك عطف واسع الانتشار وعميق الجذور فـــي العـــالم البروتستانتي على فكرة إرجاع الشعب العبراني إلى الأرض التي أعطيت ميراثًـــا لهم، وهناك اهتمام شديد بتحقيق النبوءات التي توقعت ذلك مسبقًا".

وأيًا ما سيكون عليه حال فلسطين بعد هزيمة تركيا فإن هربرت صموئيل يأمل أن يمنح الحكم البريطاني تسهيلات للمنظمات اليهودية في شراء الأراضي، وإقامـــة المستعمرات وإنشاء المؤسسات الدينية والتربوية اليهودية فيهـــا، هـــذا وكـــان الهدف الاستراتيجي الأول للحركة الصهيونية هو دعوة الدولة العثمانية بالسماح لليهود بالهجرة إلى فلسطين والإقامة بها، وبعد أن رفـــض الســـلطان العثمـــاني طلبهم عرضوا عليه بيع بعض الأراضي الفلسطينية فرفض رفضًا تامًا، فيما بعد، انتهجت المنظمة سبيل الهجرة بأعداد صغيرة وتم تأســـيس الصـــندوق القـــومي اليهودي في عام ١٩٠١م وكذلك تأسيس البنك "الأنجلو- فلسطيني" فـــي العـــام ١٩٠٣م.

قبل عام ١٩١٧م أخذ الصهاينة أفكارًا عديدة وكان الهدف من تلك الأفكار كلها هو إقامة الوطن اليهودي المنشود في أماكن أخرى غير فلسطين، مثـل الأرجنتـين وأوغندا وكينيا وغيرها، وبعد نقاشات واختلافات بين زعماء الحركة الصـهيونية استقر الرأي إلى اختيار فلسطين، وبعد هزيمة وتفكك الإمبراطورية العثمانية فـي العام ١٩١٨، وفرض الانتداب الإنجليزي على فلسطين من قِبل عصبة الأمم فـي العام ١٩٢٢م، سارت الحركة الصهيونية مسارًا جديـدًا نتيجـة تغيـر أطـراف المعادلة وكثفت الجهود في إنشاء كيان للشعب اليهودي في فلسطين وعملت على تأسيس البنية التحتية للدولة المزمع قيامها، وقامت المنظمة الصـهيونية بجمـع الأموال اللازمة لهكذا مهمة، وقامت بالضغط على الإنجليز كي لا يسعوا إلى منح الفلسطينيين استقلالهم، فقد كانت فلسطين تُعتبر منطقة يسكنها شعب مؤهل بـأن تكون له دولة ولا ينقصه إلا الإعداد لذلك، أما كيـف تطـورت الأحـداث خـلال الانتداب البريطاني على فلسطين فهو ما سنعبر عليه في حينه.



أدولف هتلر ١٨٨٩ – ١٩٤٥ م

: Adolf Hitler

لا شك بأن المعارضة اليهودية تزايدت للمشروع الصــهيوني مــن قِبــل بعــض الجهات اليهودية البارزة في شتى أنحاء العالم، بحجــة أن باســتطاعة اليهــود التعايش في المجتمعات التي يقيمون بينها بشكل مساوي للمــواطنين الأصــليين لتلك البلدان، لكن صعود "أدولف هتلر" في عام ١٩٣٣م للحكم في ألمانيا، سرعان ما جعل اليهود يعودون إلى تأييدهم للمشروع الصهيوني وزادت الهجرة اليهودية إلى فلسطين، خصوصًا وأن دولاً كثيرة في الغرب وعلى رأسها الولايات المتحــدة الأمريكية قد رفضت قبول المهاجرين اليهود خلال الحرب العالمية الثانيــة، وقــد حدا تواجد اليهود بكثرة في فلسطين إلى امتعاض العرب الفلسطينيين وثــورتهم، وأدى ذلك إلى أن صار اليهود ينشئون تنظيمات مسلحة في فلسطين.

لقد كان من أهم نتائج المؤتمر الصهيوني الأول عام ١٨٩٧م هو إقامة المنظمــة الصهيونية العالمية، لتنفيذ البرنامج الصهيوني الــذي يــنص علــى أن "هــدف الصهيونية هو إقامة وطن قومي لليهود في فلسطين يضمنه القانون العام"، وعلى هذا الأساس عملت هذه المنظمة بجد ومثابرة لجعل القرار حقيقة، وهو ما تحقق بعد على أرض فلسطين عام ١٩٤٨م.

اتخذت المنظمة لنفسها عدة مؤسسات وأجهزة داخلية تقوم على تنفيذ هدف إقامة الدولة، من هذه الأجهزة رئيس المنظمة ونائب الرئيس ومكتب التوجيه المركزي واللجنة التنفيذية والمجلس العام والمؤتمر الصهيوني، وهو السلطة التشــريعية العليا في الحركة الصهيونية، أما الأجهزة المحلية في المنظمة في كل بلــد علــى حدة فقد ترك تقرير شكلها النهائي وشكل العضوية فيها للظروف المحلية السائدة في كل دولة يقيم اليهود فيها.

وعلى هذا فقد فتحت المنظمة باب العضوية فيهــا لكــل مــن يــؤمن بالأفكــار الصهيونية ويعمل على الإسراع بتحقيق أمــاني وتطلعــات الشــعب اليهــودي، وازدادت العضوية بصورة سريعة، ففي المؤتمر الصهيوني السادس الذي انعقــد

عام ١٩٠٣م وصل عدد الأعضاء إلى ٦٠٠ عضو، وعدد الجمعيات الصـــهيونية إلى ١٥٧٢ جمعية موزعة على بلدان مختلفة، ولما أصبح "حاييم وايزمان" رئيسًا للمنظمة الصهيونية؛ أصبح عدد الأعضاء في عام ١٩٣٩م حوالي ١,٥ مليـــون عضو.

كان الحماس بين الأعضاء والمندوبين في المنظمة الصهيونية على أشده لتحقيق الهدف الصهيوني، وفجأة نشب خلاف بين اتجاهين داخل الحركة الصهيونية كـــاد الخلاف أن يؤثر على اندفاعها، الاتجاه الأول كان يقوده "تيدور هرتـــزل"، وكـــان يرى أن تحقيق الهدف الصـــهيوني وإقامـــة الدولـــة اليهوديـــة لا يـــتم بإقامـــة المستعمرات بصورة متقطعة، وإنما عبر عمل سياسي كامل على الصعيد العالمي، ولذلك كرَّس أصحاب هذا الاتجاه جهودهم من أجل الحصول على موافقـــة الـــدول الكبرى وبالأخص تركيا العثمانية، وأما الاتجاه الثاني فقد تزعمه "حاييم وايزمان" و"ديفيد بن جوريون"، وكانا يريا بأن تهجير أكبر عدد من اليهود إلـــى فلســـطين وإقامة المستوطنات هو الضمانة الأكيدة لجعل الأمر الواقع بعد ذلـــك هـــو الحـــل الأمثل.

خلال الحرب العالمية الأولى تأثرت المنظمة الصهيونية تأثرًا سلبيًا فـــي بعـــض جوانب المشروع الصهيوني وإيجابيًا في جوانب أخرى منه، فقد دبَّـــت الفوضـــى الإدارية في صفوفها وانقطعت مكاتبها المركزية عن الأجهزة والوحدات المحليـــة والأعضاء، وتعرضت الأجهزة الصهيونية في فلسطين إلى هزات قاسية أدت إلـــى حل الكثير منها وهجرة الكثير من الصهيونيين إلى خارج فلسطين، إلا إنها بعـــد إعادة تقييم وبجهود حاييم وايزمان استطاعت أن تلخص أهدافها وتجعلها قابلـــة للتطبيق، وأوجزت تلك الأهداف ضرورة هزيمة تركيا وانتصار الحلفاء، والعمـــل من أجل أن تكون فلسطين تحت الحكم البريطاني بعد الحرب، وكذلك العمل علـــى زيادة الهجرة اليهودية إلى فلسطين بأكبر عدد ممكن وليكن مليون مهاجر يهودي جديد.

وعلى ذلك ما كاد الحلفاء يعلنون انتصارهم إلا وصدر وعد بلفور عـــام ١٩١٧م، وبعد ذلك انشأ الصهاينة الصندوق التأسيسي لفلسطين، الذي اختص بنشـــاطات الهجرة والاستيطان (الوكالة اليهودية الموسعة)، التي ضمت غيـــر الصـــهيونيين أيضًا.

الحاج أمين الحسيني:

الحاج "أمين الحسيني" عاش هموم قضية فلسطين حتى أخر نَفَس في حياته، أثناء حياته دعت المنظمات الصهيونية لقتله قائلة: "يجب أن يموت أمين الحسيني حتى نجد من الفلسطينيين من يتفاوض معنا"، وبعد موته قال أحد زعماء إسرائيل "قد كان مقدرًا أن تنشأ دولة إسرائيل خلال عشر سنوات أو خمس عشرة سنة من بدء المشروع، ولكن أمين الحسيني جعل الأمر يحتاج إلى عشرات السنين". (الموسوعة الحرة)

ولد الحاج أمين الحسيني في القدس عام ١٨٩٥م، وخلال الحرب العالمية الأولى كان قد بلغ الثانية عشرة من عمره، تعلم ركوب الخيل في أراضي العائلـــة فـــي قالونيا، وقرب هذه القرية أقام اليهود مستعمرة تدعى موتسا، كان هرتزل قد زرع بها أول شجرة، ولكن أمين وأصدقاءه من الصبية أرادوا أن يظهـــروا عـــداءهم للصهيونية فاجتث أمين تلك الشجرة.

توفي والده مفتي القدس عام ١٩٠٨م، وفي عام ١٩١١م ســـافر الشـــاب أمـــين الحسيني إلى الأزهر للدراسة، في مصر درس في جامعة الأزهر وفي دار الدعوة والإرشاد، وكذلك درس بكلية الآداب بجامعة القاهرة، إلا أنه لم يتخرج من الأزهر فقد حدث أن أخيه الأكبر "كامل" الذي ورث الإفتاء عن والده، اســـتدعى الطالـــب أمين لكي يؤديان سويًا فريضة الحج، وحدث آنذاك أن الحرب العالمية الأولى قـــد اندلعت، وتعذر عليه العودة إلى مصر، درس في الكلية الحربية باسطنبول وتخرج برتبة ضابط صف، والتحق بالجيش العثماني ثم تفرغ للثورة العربية، وانضم إلى جيش الشريف "حسين بن علي" بهدف إقامة دولة عربية، بعد صدور وعد بلفور

قرر العودة إلى فلسطين وبدأ الكفاح ضد الوجود اليهودي فيها، وعلى إثر ذلك تم اعتقاله من قِبَل القوات البريطانية، إلا أنه استطاع الهرب إلى دمشق فحُكِم عليه غيابيًا بالسجن ١٥ عامًا ثم أسقِطَ الحكم عنه في نفس العام.



أدولف هتلر و الحاج أمين الحسيني

انتُخِب مفتيًا عامًا للقدس عَقِب وفاة أخيه كامل الحسيني المفتي السابق، وأصدر فتوى اعتبرت من يبيعون أرضهم لليهود والسماسرة الذين يسهلون هذه العملية خارجين عن الدين الإسلامي ولا يجوز دفنهم في مقابر المسلمين، شارك أمين الحسيني في العمل الوطني الفلسطيني منذ نهاية الحرب العالمية الأولى في عام ١٩١٨م، وشارك في عقد المؤتمر "العربي الفلسطيني الأول" عام ١٩١٩/١٨م، والمظاهرات الفلسطينية في عام ١٩٢٠م، وعقب استشهاد عز الدين القسام سنة ١٩٣٥م اختير الحاج أمين رئيسًا للهيئة العربية العليا التي أنشِئَتْ في نفس العام، رفض الحاج أمين مشروع التقسيم فسعت بريطانيا لاعتقاله فلجأ إلى الحرم الشريف، ولم تقتحمه السلطات البريطانية خوفًا من إثارة مشاعر المسلمين، وظل يقاوم من هناك، ولما تأزمت الأمور أصدر المندوب السامي البريطاني قرارًا بإقالة المفتي أمين الحسيني، وسعت بريطانيا للقبض عليه، إلا أنه هرب إلى لبنان فاعتقله الفرنسيون إلا أنه لم يسلم للإنجليز، واضطر لترك لبنان بعد ذلك فتنقل

في أكثر من بلد عربي، لجأ إلى العراق أيام حكم "رشيد عالي الكيلاني" الوطني، الذي في عام ١٩٤١م أعلن الحرب على بريطانيا، فاجتاحت بريطانيا العراق وهرب الحاج أمين إلى طهران، ولما اجتاح البريطانيون والروس والأمريكان إيران ودخلوا طهران اضطر إلى التخفي ولجأ إلى السفارة اليابانية، وتم تهريبه في عربة قش ثم إلى المطار محمولاً على نقالة للمرضى ووصل إلى تركيا.

أقام في تركيا التي كانت تلزم الحياد في الحرب العالمية الثانية، ومنها إلى برلين بألمانيا، استُقبِلَ في برلين بحفاوة بالغة مثل رؤساء الدول، إلا أن هتلر لم يكن في برلين آنذاك، كان يتفقد الجبهة الروسية، أعد قطار خاص لكي ينقل الحاج أمين من برلين إلى حيث يوجد هتلر، واستقبله هتلر بحميمية وقال له: "كنت انتظرك طويلاً وانتظر الحديث معك لأننا حلفاء ضد الصهيونية"، أقام الحاج أمين في برلين وكان يسمع صوته في إذاعة برلين العربية وكان يوجه نداءات للفلسطينيين بمقاومة الإنجليز إلى أن صار الألمان يخسرون في جبهات الحرب، وصار الحلفاء يسجلون انتصارات مميزة، وحين دخل الحلفاء ألمانيا وبرلين ترك الحاج أمين الحسيني ألمانيا وهرب إلى النمسا، ولم يرتاح هناك حيث النفوذ اليهودي مؤثرًا فيها، فذهب إلى فرنسا واعتُقِل عند الحدود وفُرِضَتْ عليه الإقامة الجبرية في فيلا قريبة من باريس، وكان معه في تلك الفيلا "معروف الدواليبي" الذي أصبح فيما بعد رئيسًا لوزراء سوريا، بعد عام من الإقامة الجبرية استطاع الهرب من فرنسا وفرَّ إلى إيطاليا بعد أن حلق ذقنه واتجه بالطائرة إلى مصر بجواز سفر معروف الدواليبي.

في أحد الأيام ذهب إلى بوابة قصر عابدين بالقاهرة فسأله الحرس ماذا تريد، فقال أريد مقابلة الملك فاروق، ولما سألوه من أنت، أجابهم بأنه الحاج أمين الحسيني، فأتى من الحرس الكثيرين وهم لا يصدقون وراحوا يقبلون يديه فقد كان له شعبية كبيرة بين المصريين وذاع صيته في البلاد العربية كمناضل، سمع الملك فاروق الجلبة خارج القصر فسأل ماذا يحدث بالخارج، فقيل له إن الحاج أمين الحسيني يطلب الدخول إليك، ما كان من الملك إلا أن خرج هو بنفسه

واستقبل الحاج أمين مُرحبًا واحتفى به، وأمر بإعداد سكن مناسب للحاج أمـــين، وسكن في فيلا بعيدًا عن الناس إلى أن نبتت ذقنه.

في عام ١٩٤٨م فُرِضَتْ على الحاج أمين الإقامة الجبرية في منزلـــه بالقـــاهرة، وشددت عليه الرقابة إلى أن اندلعت ثورة ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢م، وظلت علاقته جيدة مع قيادة الثورة حتى سنة ١٩٥٥م، في عام ١٩٥٩م قـــرر الهجـــرة إلـــى سوريا ومنها إلى لبنان حتى وافته المنية سنة ١٩٧٥م.

لورد روتشيلد Lord Rothschild:



لورد روتشيلد Lord Rothschild

قيل إن كل الأبواب فُتحت لهذا الزعيم الصهيوني صاحب الثروة التي هزمـــت دول ونصرت أخرى، لورد روتشيلد هو ابن عائلة صهيونية يهودية غنية بطريقة غير عادية بمقاييس الفترة التي عاش فيها، مؤسس عائلة روتشـــيلد الشـــهيرة هـــو

"إسحق إكانان"، ولقب "روتشيلد" يعني "الدرع الأحمر"، في إشارة إلى الدرع الذي ميَّز باب قصر مؤسس العائلة في فرانكفورت في القرن السادس عشر، والد لورد روتشلد هو "مائير أشيل روتشيلد"، عمل تاجرًا للعملات القديمة، هو الصائغ اليهودي حامل أختام إمبراطورية روتشيلد، فبعد أن أنهك والده التجوال في أراضي أوروبا الشرقية، استقر الوالد نهائيًا في فرانكفورت بألمانيا عام ١٧٥٠م، حيث افتتح محلاً للصرافة في منطقة جود ينسراس وسرعان ما تحول إلى مؤسسة كبرى بعد ذلك، فوق باب دكانه وبيته كان يعلق درعًا أحمرًا يُقرأ باللغة الألمانية "روتشيلد"، وعندما توفي الأب ترك ابنه "مائير أشيل روتشيلد" الذي كان قد درَّبه علي كل ما يتعلق بأمور مهنة الصياغة والربا، وكان في نيته أن يُدربه ليصبح حاخامًا ولكن الموت حال دون ذلك، ولكن فشله في تحقيق ذلك لم يمنعه من أن يورِّث الصغير مائير أفكاره وعقائده المتطرفة ويبث فيه روح التآمر والخديعة ومبدأ الغاية تبرر الوسيلة.

بدأ الابن مائير حياته ككاتب في مصرف أوبنهايمر، ولم تمض فترة طويلة حتى أظهر عبقرية شيطانية في شؤون الصرافة والأنشطة الربوية، مما أغرى أصحاب المصرف بتصعيده في السلم القيادي لإدارة المصرف، قبل أن يقدموا له مكافأة أكبر بجعله شريكًا في المصرف.

بعد أن أصبحت لدى مائير كل الأدوات اللازمة لمضاعفة رأس مال الأب الذي تركه بعد وفاته، وتحويل مؤسسته الربوية في فرانكفورت إلى نواة لإمبراطورية كبرى تحمل اسم العائلة فيما بعد، قرر التفرغ لهذا الهدف، وعمل إلى تحويل الدرع الأحمر الذي كان لا يزال فوق باب دكانه إلى رمز لأكبر إمبراطورية مالية عرفها العالم في ذلك الوقت، ولمعرفته بالدلالة السرية لهذا الدرع، قرر مائير أن يتخذه اسمًا جديدًا لعائلته، وهكذا انبثقت إلي الوجود عائلة روتشيلد، ويعتبر مائير روتشيلد الذي عاش في الفترة ما بين ١٧٤٣ - ١٨١٢م، وزوجته اليهودية "جوتا شنابير" هما المؤسسان الحقيقيان لآل روتشيلد أشهر أباطرة المال والنفوذ.

كان لمائير عشرة من الأبناء: خمس إناث وخمسة ذكور استطاع أن ينقل إليهم ما تعلَّمه من أبيه، وزاد عليه وتمكَّن من تدريبهم تدريبًا عاليًا ليصبحوا من أبـــاطرة المال والذهب، كان أقدر هؤلاء الأبناء ناثان، الذي أظهر مقدرة خارقة في شؤون المال، حتى أنه أوفده إلي انكلترا وهو في عامـــه الحـــادي والعشـــرين، بهـــدف السيطرة علي مقدرات انكلترا الاقتصادية، تلقي ناثان روتشيلد لدي سفره مبلـــغ ٢٠ ألف جنيه إسترليني، فاستطاع إثبات مقدرته المالية بتحويلها إلي ٦٠ ألـــف جنيه خلال فترة وجيزة من الزمن.

بسبب كثرة الدويلات الألمانية، واحتفاظ كل منها بعملتها المستقلة، فقد كان يتعين على المتنقلين بين هذه الولايات تغيير العملة عند السفر من ولاية لأخرى، وهنـــا كانت عبقرية مائير الذي جنى ثروة من عمليات تغيير النقود أو العملة، لا ســـيما وأن مائير كان قد تعلم في صباه معادلات النقود بين الدويلات، فكـــان يتقاضـــى رسمًا صغيرًا على كل تحويل، ثم درس علم العملات هواية جانبية وجمع العملات النادرة، أصبحت له علاقة مع الأمير "فلهلم الهانغاوي"، وحصل منه علـــى لقـــب "وكيل التاج" الذي ساعده في عمله بفرانكفورت وجعله يسيطر على عالم المـــال في ألمانيا، ومع اختراق مائير للقصر الملكي، وحصوله على امتيازات كثيرة، بلغ دخله السنوي عام ١٧٩٠م ثلاثة آلاف جولدن، ونمت ثروة الأسرة نموًا ســـريعًا خلال حروب الثورة الفرنسية، وشُغِل مائير بتموين الجيوش، وعُهد إليه بإخفـــاء أموال الأمراء وأحيانًا باستثمارها، استطاع مـــائير بدهائـــه أن يوطـــد علاقتـــه بفردريك الثاني، وأصبح لأبنائه وبناته نفوذًا كبيرًا خاصة بعد زواجهم من عائلات وشخصيات لها قدر كبير من القوَّةِ والنفوذ، ووصلوا إلى مناصب ومراكز سياسية واقتصادية كبيرة.

توسع مائير روتشيلد في أعماله، وافتتح فروعًا لهذا العمل المربح في عدة دول، وعمل على تسجيل كل فرع للمؤسسة المالية التي أنشأها في كل دولة باسم أحـــد أبنائه الخمسة، وجعل هذه الفروع تتواصل مع بعضها حتى تُحقق أكبر قدر مـــن الربح، وسخَّر جزء كبيرًا من هذا العائد لصالح الجاليات اليهودية، كلما اســـتطاع

إلى ذلك سبيلاً، سواء لليهود الذين هاجروا من روسيا إلى أوروبا الغربية أو لبناء المستوطنات اليهودية في فلسطين.

ولمَّا حضرت الوفاة مائير روتشيلد عام ١٨١٢م وكان يقارب السبعين من عمره، دعا جميع أبنائه إلى فرانكفورت وقال لهم: "تذكَّروا يا أبنائي أن الأرض جميعًا ينبغي أن تكون لنا نحن اليهود، وأنَّ غير اليهود حشرات يجب ألاَّ يملكوا شيئًا"، وجعلهم يُقسمون أمامه على ألاَّ ينفرد أحدهم بعمل دون الآخرين، وأن يعملوا مترابطين مجتمعين. (كتاب: آل روتشيلد – مجدي كامل)

ويمكن القول إن الانطلاقة القوية لمائير روتشيلد في عالم المال، كانت مع ومن خلال الأمير فريدريك الثاني، فقد كان الأمير فريدريك من أكثر رجال ذلك العصر ثراء، وهذا الأخير كان بحاجة لرجل لا يعرف إلا لغة المال ليستخدمه فوجد في روتشيلد ضالته، كما وجد فيه روتشيلد مطيته.

في عام ١٧٧٣م، جمع روتشيلد اثني عشر شخصًا من أغنى أغنياء اليهود، كلهم ينتمون مثله إلى ما يعرف بجماعة "النورانيين"، بغية إقناعهم بضرورة تكوين شراكه للسيطرة على ثروات الأمم الطبيعية، والبشرية على السواء، والنورانيين هم جماعة من اليهود وضعوا مخططًا لإحكام قبضة اليهود على العالم، وكلمة النورانيين تعني "حملة النور".

كانت بيوت مال روتشيلد تضع ولاءها في خدمة الدول التي تسجل فيها، أي الفرع الفرنسي يكون مواليًا لفرنسا، والفرع الإنجليزي يكون مواليًا لبريطانيا، وكذلك الفرع الألماني والنمساوي وغيرهما، أثناء الحروب النابليونية في أوروبا كان الفرع الفرنسي يدعم نابليون ضد النمسا وانجلترا وغيرها، وكانت فروع روتشيلد في النمسا وانجلترا تدعم الحرب ضد نابليون، يمكننا الآن أن نتخيل خبث رأس المال اليهودي، وليس هذا فقط بل واستغلت مؤسسات روتشيلد ظروف الحروب النابليونية وعملت على تهريب البضائع الضرورية بين الدول وحققت أرباحًا كبيرة، لكنها في النهاية كانت تهتم بمصلحة اليهود في هذه الدول

ولا شيء غيرهم، فبالتآمر على الدول التي يمتلكون فروعًا لإمبراطوريتهم فيهـــا، وزرع الفتن وإشعال الثورات، وإذكاء الصراعات من خلف الكــواليس، ودفعهـــا لشن الحملات والحروب بعد السيطرة عليها بدفع خزائنها للإفلاس ثــم إقــراض حكوماتها، ثم الحصول على امتيازات تخوِّل لهم استصدار مـــا يحلــو لهــم مــن قرارات تصب في خانة اليهود كما فعلت انجلترا بتسليمهم فلسطين.

لذا فقد أرسل "مائير أشيل روتشيلد" أولاده الخمسة إلى انجلترا وفرنسا وإيطاليـــا وألمانيا والنمسا لإدارة مؤسساته المالية، وكان حريصًا بأن يتزوج أبنـــاؤه مـــن بنات الأسر اليهودية الغنية، مؤسس الفرع الإنجليزي "ناثان ماير روتشيلد" مثلاً، تزوج أخت زوجة "موسى مونتفيوري" الثري اليهودي، وزعيم الطائفة اليهوديـــة في انجلترا.

قيل إنه بعد أن انتصرت انجلترا على فرنسا في معركة "ووترلو"، وعلِـم الفـــرع الإنجليزي قبل أي شخص من خلال شبكة المعلومات بين مؤسسات روتشيلد، قيل إن "ناثان روتشيلد" مدير مؤسسة روتشيلد في بريطانيـــا، جمـــع أوراق ســـنداته وعقاراته في حقيبة ضخمة، ووقف بها مرتديًا ملابس رثة أمام أبواب البورصـــة في لندن قبل أن تفتح أبوابها، ولما سأله المضاربين عن الحـــال ولمـــاذا يبـــدو حزينًا، لم يجبهم بشيء! وما أن فتحت البورصة أبوابها حتى هرع ناثان متظاهرًا رغبته الماسة في بيع كل سنداته وعقاراتـــه، وكـــان الجميـــع يعلمـــون بشـــبكة المعلومات بين مؤسسات روتشيلد فظنوا أن بريطانيا قد خسرت الحرب، واستطاع في ذلك اليوم بواسطة سماسرته السريين إلى أن يشترى الشيء الكثير من أسهم الغير بأسعار زهيدة جدًا، وعند الظهر وصلت الأخبار التي تعلن فوز انجلترا فـــي معركة ووترلو فإذا بأسعار البورصة البريطانية تقفز وتُســـجل أرقامًـــا قياســـية عالية، فعاد وباع الأسهم التي اشتراها في الصباح واســـتطاع أن يحقـــق ربحًـــا وافرًا، ولم يلتفت إليه أحد، فالناس صاروا مشغولين بأخبار دحر جيش نـــابليون في تلك المعركة التي كانت فاصلة في التاريخ.

لقد عملت مؤسسات روتشسلد في الدول الأوروبية في مجال مد خطـوط السـكك الحديدية وصناعة الأسلحة وبناء السفن وصناعة الأدوية، وساهمت في مشـاريع خلف البحار، وعملت في خدمة الدول الاستعمارية في الهند ومصر وغيرها سواء بإعطاء القروض للدول أو بمد خطوط السكك الحديدية وما شابه مـن مشـاريع عملاقة، كما اهتمت بصناعة الأسلحة والعتاد الحربي اهتمامًا شديدًا، أما عن دعم إمبراطورية روتشيلد لإنشاء دولة إسرائيل فحدث ولا حرج.

كانت الحروب بالنسبة لمؤسسات روتشيلد استثمارًا، فكانت تشجع على نشـوب الحروب بين الدول لتروج تجارة السلاح ومستلزمات الحرب، وخفـض العمـلات ورفعها والتنقل بين الذهب والعملات المحلية، كما أن إعادة إعمـار مـا دمرتـه الحرب هو استثمارًا، وأن إعطاء القروض للدول وجني أرباح الفائدة هو أربـاح أيضًا، قيل إن مؤسسة روتشيلد في فرنسا موّلت الحروب النابليونية بمائة مليون جنيه استرليني، وأن الفرع الإنجليزي لروتشيلد موّل الحكومة الإنجليزية بسـتة عشر مليون جنيه استرليني لحرب القرم، كما قدَّمت هـذه المؤسسـات تمـويلاً لرئيس الحكومة البريطانية "ديزرائيلي" لشراء أسهم قناة السويس من الحكومـة المصرية عام ١٨٧٥م.

كان لأسرة روتشيلد علاقات مميزة مع العائلة المالكة البريطانية ومـع رؤسـاء الوزارات والزعماء والمسئولين في بريطانيا، ونفس الشيء كـان مـع ملـوك وسياسيي فرنسا، ووظف آل روتشسلد هذه الاتصالات بعد ذلك لتحقيق ما أرادوا تحقيقه لليهود في فلسطين.

لم يكن بيت روتشيلد مقتنعًا بمسألة الوطن القومي لليهود عند بدايتها علـى يـد "هرتزل"، ولكن أمران حدثا كانا قد غيَّرا من توجه آل روتشيلد، الأمر الأول هـو هجرة عدد كبير من يهود روسيا وغيرها إلى الدول الأوروبيـة، ممـا أدى إلـى مشاكل وامتعاض حتى بين اليهود أنفسهم، الأمر الثاني كان تقريرًا بريطانيًا صدر عام ١٩٠٧م قال بإن منطقة شمال أفريقيا وشرق البحر الأبيض المتوسـط همـا وريثا الحضارة الغربية مستقبلاً، لكن هذه المنـاطق تتسـم بالعـداء للحضـارة

الغربية، لذا يجب تقسيمها، وإثارة العداء بين طوائفها العرقية والدينيـــة، وعـــدم نقل التكنولوجيا إليها، ويتوجب زرع جسم غريب بينهما يفصل مـــا بـــين شـــرق البحر الأبيض المتوسط والشمال الأفريقي، وأما الأمر الآخر الذي شجع روتشيلد لتبني فكرة إنشاء وطن لليهود، فهو أن "ليونيل روتشيلد فـــي الفتـــرة "١٨٦٨- ١٩٣٧" كان المسئول عن فرع انجلترا حينما تقرب إليه كل من "حاييم وايزمـــان" أول رئيس لإسرائيل فيما بعد، و"تاحوم سوكولوف"، وأقنعاه بالسعي لدى الحكومة البريطانية صاحبة الانتداب على فلسطين بالعمل على إقناعها بإنشاء وطن قومي لليهود في فلسطين، ولتوريط روتشيلد نصَّبوه رئيسًا شـــرفيًا للاتحـــاد اليهـــودي الصهيوني في بريطانيا وأيرلاندا، ونجحت الخطة وعمل ما استطاع روتشيلد مـــن أجل صدور وعد بلفور الشهير، وأكثر من ذلك عمل على موافقة بريطانيا علـــى إنشاء الفيلق اليهودي وجمع لـــه المتطـــوعين، وتـــولى والـــده تمويـــل بنـــاء المستوطنات، ومن أهم المشروعات التي أقامها مبنى الكنيست الإسرائيلي الحالي.

هذا وإن "إدموند دي روتشيلد" مؤسس فرع العائلة في فرنسا أحد الأبناء الخمسة لجيمس ماير دي روتشيلد (١٧٩٢ - ١٨٦٨)، قد ساهم كثيـــرًا فـــي مشـــاريع الاستيطان في فلسطين، حتى إنه يُلقَّب أبو السكان في فلسطين، وقد وصل إنفاقه على المستوطنين خلال الفترة بين ١٨٨٣ و١٨٩٩م نحو مليون وســـتمائة ألـــف جنيه استرليني في حين كان إسهام حركة أحباء صهيون سبع وثمانين ألف جنيه استرليني فقط.

من الجدير بالذكر أن روتشيلد اشترى أرضًا في فلسطين في أواخر عام ١٨٨٣م لإقامة مستوطنة زراعية نموذجية لحسابه الخاص أطلق عليها اسم والدته، كمـــا أسس عدة صناعات للمستوطنين الصهاينة مثل صناعة الزجاج وزيت الزيتـــون، وعددًا من المطاحن في حيفا، وملاحات في عتليت، وساهم فـــي تأســـيس هيئـــة كهرباء فلسطين سنة ١٩٢١م، هذا عدا صناعة النبيذ وأشياء أخرى.

لم يكتف روتشيلد بدعمه للوطن القومي اليهودي بما سبق ذكره بل إنـــه ســـاهم مساهمة كبيرة في مجال التعليم أيضًا، وأمدَّ بالمال أيضًا بناء الجامعـــة العبريـــة

بالقدس كما أسلفنا، وفي الحقيقة وبغَّضِ النظر عن نوايا أغنياء اليهود الذين ساهموا بأموالهم، فإنه لولا مساهماتهم وعطائهم السخي من خلال الحركة الصهيونية، لما قام لليهود قائمة في فلسطين.

قال ناثان روتشيلد، مؤسس الفرع الإنجليزي لعائلة روتشيلد: "لم يعد يعنيني من قريب أو بعيد من يجلس على عرش بريطانيا، لأننا منذ أن نجحنا في السيطرة على مصادر المال والثروة في الإمبراطورية البريطانيّة، قد نجحنا بالفعل في إخضاع السلطة الملكية لسلطة المال التي نمتلكها".

ديفيد ولفسون David Wolfson:

تعرَّف إلى أفكار هرتزل من خلال كتاب "دولة اليهود" الذي نشره هرتزل، فبعد قراءة الكتاب، سافر فورًا إلى فيينا حيث قابل هرتزل وقامت بينهما صداقة قوية، وقد كان كل منهما يكمل الآخر فأحدهما ذو خلفية ليبرالية اندماجية وسط أوروبية علمانية والآخر ذو خلفية محافظة أرثوذكسية شرق أوروبية متدينة، وقد أخبره هرتزل بجهله التام بمن سبقه من المفكرين الصهاينة وبحال اليهود في شرق أوروبا، وأكد ولفسون لهرتزل أهمية الجماهير اليهودية في شرق أوروبا كمادة استيطانية لإنجاح الفكرة الصهيونية التي نادى بها هرتزل.

وُلد ديفيد ولفسون ١٨٥٦ – ١٩١٤م، في ليتوانيا وتلقى تعليمًا تقليديًا وانتقل إلى ألمانيا عام ١٨٧٢، زعيم صهيوني، وثاني رؤساء المنظمة الصهيونية العالمية، فقد تولى رئاسة المنظمة الصهيونية عام ١٩٠٤م بعد وفاة "تيور هرتزل"، شارك قبلاً في تجارة الأخشاب عام ١٨٨٨م، واستقر في كولونيا بألمانيا حيث تخلَّى عن إيمانه باليهودية الأرثوذكسية، مارَسَ نشاطه الصهيوني من خلال الجمعية الأدبية اليهودية في كولونيا حيث كان يحاضر عن التلمود والقبَّالاه، وفي هذه الجمعية، قابل "ماكس بودنهايمر" وأسسا سويًا (عام ١٨٩٣م) جمعية لتوطين اليهود في فلسطين على مبادئ أحباء صهيون.



ديفيد ولفسون ١٨٥٦ – ١٩١٤م

أسَّس ولفسون صندوق الائتمان اليهودي، واختلف مع هرتزل في أسلوب إدارته، حيث كان هرتزل يرى أن الصندوق أداة سياسية بينما كان ولفسون يراه مشروعًا ماليًا، عمل ولفسون بشكل دءوب على توحيد الحركة الصهيونية بالعمل كوسيط بين هرتزل ومعارضيه، وبعد موت هرتزل، ورغم معارضة الصهاينة العمليين، تسنَّم ولفسون منصب رئيس المنظمة الصهيونية العالمية بعد تعفف، وحرص أثناء عمله على توحيد صفوفها، قابل لفسون عدة شخصيات أوروبية حاكمة لتسهيل حركة الصهاينة في أوروبا، لم يُجدَّد انتخابه عام ١٩١١م رئيسًا للمنظمة الصهيونية العالمية، لكنه ظل رئيسًا لصندوق الائتمان اليهودي وهو ما يدل على نجاح سياسته المالية العملية.

اليعازر بن يهوذا Eliezer Ben-Yehuda:

اليعازر بن يهوذا (١٨٥٨-١٩٢٢م) واسمه الحقيقي "اليعازر اسحق برلمان" ولد في لثوانيا عام ١٨٥٨م، أول مقال كتبه هو "سؤال صعب" حيث نشره في جريدة

"هشاحار"، تطرق فيه إلى الوطن التاريخي لليهود، في باريس التقى بسائح يهودي أخبره أن اليهود في آسيا وشمال أفريقيا يتكلمون بالعبرية، فاستنتج بن يهوذا أن هذه اللغة ما زالت حية.



اليعازر بن يهوذا ١٨٥٨ – ١٩٢٢م

إليعزر بن يهوذا كان من طلائع المبادرين إلى إحياء اللغة العبرية كلغة تخاطب، بعد قدومه إلى فلسطين عام ١٨٨١م كان أول من استخدم اللغة العبرية في منزله وفي المدرسة، واخترع الآلاف من الكلمات الجديدة، فحينما هاجر إلى فلسطين وفور وصوله إلى ميناء يافا قرر مع زوجته أن يتكلما بالعبرية فقط، وأصدر أسبوعية بعنوان (هتسفي) التي تحولت إلى يومية واستمرت في الصدور حتى بداية الحرب العالمية الأولى عام ١٩١٤م.

من أهم أعماله أنه وضع قاموس باللغة العبرية، واستطاع الضغط مع آخرين على المندوب السامي البريطاني في فلسطين وأجبروه على اعتبار اللغة العبرية لغة رسمية في فلسطين بجانب العربية والإنجليزية، توفي عام ١٩٢٢م.

ابن شوشان ibn Shoshan :

وقد ولد عام ١٩٠٦ في روسيا، في عام ١٩٢٥م عندما هــاجر إلــى فلســطين مارس كتابة القصص والترجمة من الروسية إلى العبرية، أبرز أعماله أنه وضع قاموس عبري في سبعة أجزاء هو الأكثر شيوعًا في الأوساط الإسرائيلية، منحته الحكومة الإسرائيلية جائزة إسرائيل لعام ١٩٧٨م تقديرًا لخدماته في مجال اللغــة العبرية وإحيائها.

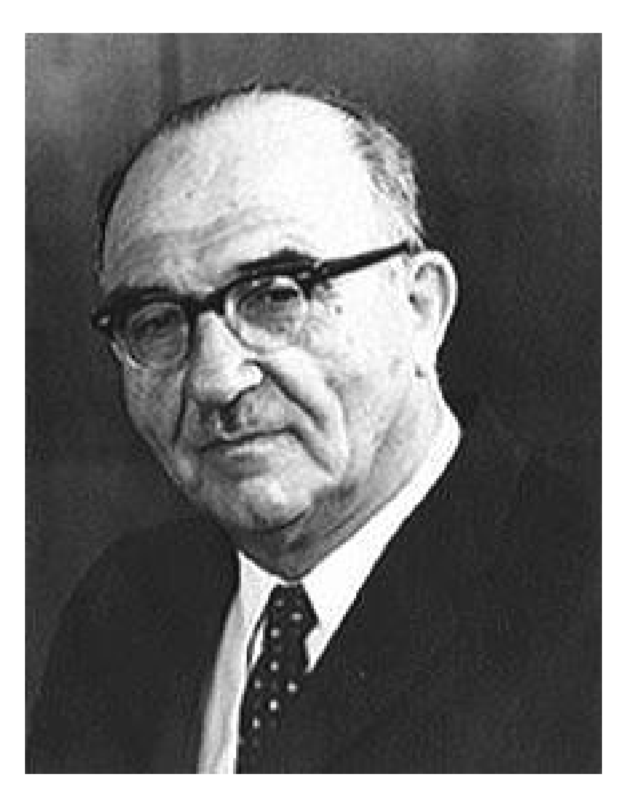
اسحق حاييم بيريتس Yitzhak Haim Peretz:

ولد عام ١٩٣٨م في المغرب، وهاجر إلى إسرائيل عام ١٩٥٠م، وهو من أوائــل قياديي حزب (شاس)، عُيِّن حاخامًا رئيسًا وتولى منصب وزيــر الداخليــة فــي ثمانينيات القرن العشرين وتولى بعد ذلك عدة وزارات، عُرِف عنه كثرة إصــداره تعابير جارحة ومهينة، منها أنه قال: (امرأة شرقية) تُقَبِّل كتــاب التــوراة بــدمع وخشية، تمتلك حكمة وثقافة أكثر من خمسين بروفسور يعلمون أولادنا أننا ولدنا قرودًا.

ليفي اشكول Levi Eshkol :

ولد عام ١٨٩٥م في أوكرانيا، في صباه انضم إلى حركة (شباب صهيون)، هاجر إلى فلسطين عام ١٩١٤م، وتطوع مع الفيلق اليهودي إلى جانب بريطانيــا فــي الحرب العالمية الأولى، لعب دورًا في إدارة بعض شركات الإسكان اليهودية فــي فلسطين، وأدار شركة المياه (مكوروت).

التحق بمنظمة الهاجاناه منذ عشرينات القرن العشرين، تقرب مــن ديفيــد بــن جوريون حتى أصبح مساعده، وتولى منصب المدير العام لوزارة الــدفاع، بعــد حرب ١٩٤٨م دخل الكنيست.



ليفي اشكول ١٨٩٥ – ١٩٦٩ م

أوصى بن جوريون بعد استقالته بأن يتولى اشكول منصب رئاسة الوزارة، إلا أنه لم يقبل وتولى موشيه شاريت المنصب، ولما عاد بن جوريون على إثر فضيحة بنحاس لافون إلى رئاسة الوزارة ثم بعد ذلك استقال نهائيًا من الحياة السياسية تولى اشكول رئاسة الوزارة والدفاع، كان نهج ليفي اشكول السياسي هو الدفاع عن منابع نهر الأردن، وفي المجال الخارجي عمل على إقامة علاقات على أرفع المستويات بين إسرائيل وألمانيا، توفي ليفي اشكول عام ١٩٦٩م في القدس.

مائيربار أيلان Meir Bar-Ilan :

ولد عام ١٨٨٠م في بولندا، تعلم في مدارسها الدينية اليهودية، والتحق بجامعة برلين، أصبح حاخامًا، هاجر إلى الولايات المتحدة عام ١٩١٣م حيث أظهر فيها

اهتمامًا ونشاطًا صهيونيًا ملموسًا، وضع عدة كتب منهـــا (مـــن فولـــوجين إلـــى أورشليم) و(في طرق اليقظة)، أُطلِقَ اسمه على جامعة بار أيلان في إسرائيل.

شموئيل يوسف عجنون Shmuel Yosef Ajnon :

وعجنون (١٨٨٨ – ١٩٧٠م) تلفظ بالجيم المصرية، أو باسمه المختصر شـــاي عجنون، هو كاتب يهودي إسرائيلي بولندي، ولد عجنون في عـــام ١٨٨٨م فـــي بولندا، أبوه كان مؤهلاً لمنصب حاخام ولكنه تنازل عن هذا المنصـــب واشـــتغل كتاجر فراء، أخذ عجنون التعليم الأساسي من أهله ولم يسجل في أيـــة مدرســـة، عندما كان في الثامنة من عمره تمكن من الكتابة بلغتي اليديشية والعبرية، فـــي الخامسة عشر من عمره نشر أول قصيدة له باليديشية، وفي السنة اللاحقة نشر أول قصيدة بالعبرية، عمل محررًا لإحـــدى الصـــحف، وتـــأثر بأفكـــار الحركـــة الصهيونية التي شاعت في المجتمعات اليهودية الأوروبيـــة فـــي بدايـــة القـــرن العشرين.

هاجر إلى فلسطين عام ١٩٠٧م، وبعد فترة أصبح علمانيًا لفترة معينـــة، ولكنـــه اعتنق أسلوب الحياة الديني من جديد في فترة لاحقة، كتب عـــدة روايـــات، فـــي ألمانيا تعاون عجنون مع الفيلسوف اليهودي النمساوي الذي هاجر إلى القدس في سنة ١٩٣٨م "مارتين بوبر" في جمع ونشر حكايات شعبية من الطوائف اليهودية الحسيدية، نُشرت له عدة روايات منها "طلعت العروس" تناول فيها رجلاً يهوديًـــا في بولندا خرج يبحث لابنته عن عريس.

حصل عجنون على جوائز في الآداب منها جائزة نوبل، حيث تقاسمها أيضًا مـــع الكاتبة اليهودية السويدية "تللي زاكس"، وفي تلك المناسبة ألقى خطابًا مؤثرًا عن أحلامه الصهيونية وأرض الميعاد، توفي عجنون في القـــدس فـــي ١٧ فبرايـــر ١٩٧٠ وترك وراءه مخطوطات كثيرة.

يزهار سميلانسكي Yizhar Smillanski :

كاتب إسرائيلي من مواليد ريحفوت بإسرائيل عام ١٩١٦م، والده زئيف سميلانسكي، أحد أبرز أوائل الصحافيين الإسرائيليين، تخرَّج يزهار من كلية الأساتذة في القدس، نُشرت أول قصة قصيرة له في مجلة «جليونوت» الأدبية عام ١٩٣٨.

انضم إلى الهاجاناة في حرب عام ١٩٤٨م كضابط توجيه، وفي عام ١٩٤٩م انتخب في أول كنيست على لائحة الماباي بإلحاح من بن غوريون، واستمر عضوًا في الكنيست حتى عام ١٩٦٧م، نشر عام ١٩٥٨م أبرز رواياته "أيام الزيكلاغ" التي تعتبر في إسرائيل أفضل رواية أُلِّفَت عن حرب عام ١٩٤٨م، وقد جعلته تلك الرواية أبرز كاتب في ما يسمى جيل ١٩٤٨م.

شاؤول تشرنحوفسكي Shaul Chernhovski :

(١٨٧٥-١٩٤٣) شاعر عبري من مواليد روسيا، ويُعد هو و"بياليك" قطبي الأدب العبري في روسيا، وتشرنحوفسكي هو ابن لأبوين متدينين تأثرا بأدب الهيسكلاه (الاستنارة)، ولكنهما انضما إلى حركة أحباء صهيون، أبدى اهتمامًا كبيرًا بالأدب العبري الحديث وخصوصًا أعمال "ليفنسون" و"جوردون" وغيرهما، في عام ١٨٩٨م نُشرت له أول مجموعة شعرية بعنوان "تبوءات وأحلام".

درس الطب بألمانيا منذ سنة ١٨٩٩م وأكمله في سويسرا، كتب الكثير من القصائد الطويلة ونشرها في مجموعة عام ١٩١٠م، وفي عام ١٩٣١م هاجر إلى فلسطين وأيَّد الغزو الصهيوني لفلسطين واشتغل بالدعاية، وقد أسهم "تشرنحوفسكي" إسهامًا كبيرًا في الأدب العبري سواء بترجماته المتنوعة أو بكتاباته للقصائد متعددة الأغراض.

لورد شافتسبري Lord Chavtsebre :



لورد شافتسبري السابع ١٨٠١ - ١٨٨٥م

هو أنطوني أشلي كوبر، لورد شافتسبري السابع ١٨٠١ - ١٨٨٥م، واحد من أهم الشخصيات الإنجليزية في القرن التاسع عشر، كان شافتسبري زعيم حزب الإنجيليين، ولذا فإننا نجد أن اليهود كانوا أحد الموضوعات الأساسية في فكره كما كانوا محط اهتمامه الشديد، إضافة إلى أنه كان أخ لزوجة بالمرستون رئيس الوزراء البريطاني الذي كان يثق به كثيرًا ويأخذ بمشورته، كان خطاب شافتسبري خليطًا من العناصر الاجتماعية والأساطير الدينية حيث مزج بين الحاضر والزمان الغابر والتاريخ المقدَّس، وقد كان هذا الخطاب يَصدُر عن فكرة الشعب العضوي المنبوذ بطريقة لم يعمل بها أي مفكر أو أديب صهيوني في عصره، سواء كان يهوديًا أو غير يهودي، كان شافتسبري يتحدث من داخل نطاق العقيدة الألفية والاسترجاعية بعد علمنتها تمامًا، فاليهود بالنسبة إليه يكونون شعبًا عضويًا مستقلاً وجنسًا عبريًا يتمتع باستمرار لم ينقطع.

كان يرى شافتسبري أن اليهود قد أصبحوا جنسًا غريبًا منبوذًا في المجتمعات الأوروبية وفي العالم، وأصبحوا متعجرفين سود القلوب منحطين خلقيًا، ومنغمسين في العناد والجهل بالإنجيل، ووجودهم بالمجتمعات التي يعيشون فيها يعتبر خطأ، وهو يعارض منحهم الحقوق المدنية والسياسية في بريطانيا، وأن هذا الشعب (اليهود) لهم علاقة خاصة مع منطقة بعينها هي فلسطين، وأن عودتهم إليها هي الحل الصحيح لأجل عودة المسيح ومن ثم خلاص البشر.

قال شافتسبري في أطروحته البليغة وهو يعني اليهود، "إن أي شعب لابد أن يكون له وطن، الأرض القديمة للشعب القديم"، وهي صيغة علمانية خافتة لشعار "الأرض الموعودة للشعب المختار"، ثم طوَّر هذا الشعار ليصبح "وطن بلا شعب لشعب بلا وطن"، فهو إذن صاحب هذا الشعار الصهيوني الشهير.

يقول الصهاينة بإن جذور الدولة الإسرائيلية حسب الفهم التوراتي تعود إلى أن هذه البلاد (فلسطين) هي المركز الروحي لليهودية، وهي قلب الممالك الإسرائيلية القديمة، مملكة إسرائيل ومملكة السامرة، بعد تأسيس الصهيونية الحديثة عام ١٨٩٧م، وصدور وعد بلفور عام ١٩١٧م، وانتداب بريطانيا بعد الحرب العالمية الأولى بقرار من عصبة الأمم على فلسطين تم إنشاء دولة إسرائيل.

وهنا، إذا كان لا بد أن نُعرِّف الدولة الصهيونية، فإنها تقع على أرض فلسطين التاريخية أو على أنقاض المدن والقرى الفلسطينية التي هجرها أهلها قسرًا أو إرهابًا عام ١٩٤٨م، وقد بلغ عدد سكان هذه الدولة حتى عام ٢٠٠٨م سبعة ملايين وثلاثمائة وسبعين ألف نسمة، منهم ٥,٥٧ مليون من اليهود، كما أن بها من الفلسطينيين (مسلمين، ومسيحيين، ودروز، وسامريين وغيرهم) الذين لم يغادروا أماكنهم عام ١٩٤٨م، علمًا بأن إسرائيل عن عمد تُطلق على هؤلاء عرب إسرائيل، وهي تقصد إنكار الهوية الوطنية للفلسطينيين كشعب.

يُعتبر لورد شافتسبري من أبرز المفكرين الإنجليز الذين كان لهم باع طويل في خدمة الصهيونية الفكرية والسياسية، ففي عام ١٨٣٨م نشر شافتسبري في

إحدى المجلات المشهورة في بريطانيا عرضًا لكتـــاب أحـــد الرحالـــة الـــذي زار فلسطين، بدأ مقاله بالديباجة الدينية عن قضية اليهود، ثم تحدث عـــن جغرافيـــة فلسطين ومناخها، وامتدح إمكانية زراعة تلك الأرض، وأوحى بـــأن المســـاعدات السخية ستأتي من بريطانيا إذا ما سكنها اليهود، وهو بذلك يتوافق مع الصـــيغة الصهيونية الأساسية التي تقول عن اليهود بإنهم شعب عضوي منبوذ سيصـــبح نافعًا إذا نُقِلَ خارج أوروبا لتوظيفه لصالحها.

من أهم الوثائق الصهيونية غير اليهودية التي اشتملت على الصيغة الصـــهيونية الأساسية بكل وضوح، تلك الوثيقة التي بعث بها شافتســـبري إلـــى بالمرســـتون رئيس وزراء بريطانيا في ٢٥ سبتمبر ١٨٤٠م، ودعا فيها إلـــى حـــل المســـألة الشرقية وتطوير المنطقة الممتدة من جهة الرافدين بالعراق حتى البحر الأبـــيض المتوسط التي وعد الإله بها إبراهيم بناء على أحد تفسيرات الرؤيـــة التوراتيـــة، وقد أشار شافتسبري في مذكرته أيضًا إلى أن تلك المنطقة ســـتحتاج إلـــى مـــال وجهد، ولن تبخل بريطانيا أن تدعم هذه الفكرة، فالجنس المنبوذ الـــذي لا ينـــتج سيصبح منتجًا وسيسعى إلى المال بسبب وجوده الوظيفي في المنطقة الجديـــدة، أي أن اليهود الذين لا ينتجون في بريطانيا وأوروبا، سيصبحون قادرين على فعل العمل المفيد لهم، عوضًا عن كونهم قاعدة متقدمة لبريطانيا في المنطقة تحمـــي مصالحها (أهل المنطقة في فلسطين ومحيطها من العرب لم يدركوا تلـــك الخطـــط والأفكار التي تبلورت مع الأيام لكي تصبح أيديولوجية ومشروع سياسي وقـــومي صهيوني).

ثم يُضيف شافتسبري في مذكرته بأن على الدول العظمى أن تقدم ضمانًا أمنيًـــا على صورة معاهدة موقَّعة لهؤلاء اليهود حتى يحصـــلوا علـــى المســـاواة مـــع الآخرين في المنطقة، وهو ما يُشجع الشعب اليهودي المرتبط عاطفيًا بفلســـطين بسبب الذكريات القديمة التي يحملها أعضاؤه، إن هذا الشعب "جـــنس معـــروف بمهاراته وثروته المختبئة ومثابرته الفائقة، وأعضاء هـــذا الجـــنس يمكـــنهم أن يعيشوا في غبطة وسعادة على أقل شيء، ذلك أنهم ألفوا العذاب عبـــر العصـــور

الطويلة، وحيث إنهم لا يكترثون بالأمور السياسية، فإن آمالهم تقتصر على التمتع (بالأموال) التي يمكنهم مراكمتها، إن عصورًا طويلة من العذاب قد غرست في هذا الشعب عادتي التحمل وإنكار الذات".

وقال شافتسبري "إذا رأينا عودتهم في ضوء استعمار فلسطين، فإن هذه الطريقة هي أرخص الطرق وأكثرها أمنًا في الوفاء بحاجات هذه المناطق غير المأهولة بالسكان، وهم سيعودون على نفقتهم الخاصة دون أن يُعرِّضوا أحدًا - سوى أنفسهم - للخطر"، أي أنهم أداة آمنة كفء وسيخضعون للشكل القائم للحكومة، فهم لم يصوغوا أية نظرية سياسية مُسبَقة يهدفون إلى تطبيقها، وقد تم ترويضهم في كل مكان تقريبًا على الخضوع الضمني للحكم المطلق ولا تربطهم رابطة بشعوب الأرض، ولذا لابد لهم من الاعتماد على قوة ما، وسيعترف اليهود بملكية الأرض لأصحابها الحقيقيين، حيث سيكتفون بالحصول على الفائدة من خلال الطرق المشروعة مثل الإيجار والشراء، ولن يتطلب المشروع أية اعتمادات مالية من القائمين على المشروع، ولهذا فإن ثمرتها ستعود على العالم المتحضر أي الغربي بأسره.

اللافت للنظر أن مذكرة شافتسبري كُتبت قبل عشرين عامًا قبل ميلاد هرتزل، إلا أنها احتوت على معظم ملامح المشروع الصهيوني بالذات فكرة توظيف الحالة المكروهة غير العادية وغير المنتجة في المجتمعات الغربية لتصبح في خدمة هذه المجتمعات، بنقل اليهود لكي يصبحوا كتلة واحدة عضوية لتخدم الغرب كله.

وفي عام ١٨٧٦م، كتب شافتسبري مقالاً آخر أكد فيه، بأن سوريا وفلسطين ستصبحان شديدتي الأهمية من الناحيتين الجغرافية والتجارية بعد فترة وجيزة، وبعد الحديث عن الأمجاد الغابرة القديمة، تساءل شافتسبري فقال: "من تجار العالم بالدرجة الأولى؟ لكن الإجابة معروفة ضمنا"، ثم استطرد "إن فلسطين في حاجة إلى السكان ورأس المال، وبإمكان اليهود أن يعطوها الشيئين معًا، وانجلترا لها مصلحة في استرجاعهم، لأنها ستكون ضربة لانجلترا إن وُضع منافسوها في سوريا، لكل هذا يجب أن تحتفظ انجلترا بسوريا لنفسها كما يجب أن تدافع عن

قومية اليهود وتساعدهم حتى يعودوا فيكونوا بمنزلة الخميرة لأرضهم القديمـــة، إن انجلترا أكبر قوة تجارية وبحرية في العالم، ولهذا فلابد لها أن تضطلع بـــدور توطين اليهود في فلسطين، وهذه ليست تجربة مصطنعة، إنهـــا الطبيعـــة، إنـــه التاريخ".

وقد قام شافتسبري بعدة محاولات لتحويل صهيونيته الفكريـــة إلـــى صـــهيونية سياسية، فتحدَّث مع بالمرستون رئيس وزراء بريطانيا أيضًا عن استخدام اليهود كرأس حربة لبريطانيا في الشرق الأوسط، ففتح بالمرستون قنصلية في القـــدس بناءً على إلحاحه على ضرورة مقاومة مصالح الدول الأخرى في فلسطين، وحتى تجد بريطانيا من تحميه كما كان يفعل الآخرون، فقد كانت فرنسا تحمي الكاثوليك وكانت روسيا تحمي الأرثوذكس، وعُيِّن "وليام ينج" قنصلاً لتقديم الحماية لليهـــود والطوائف المسيحية، وهكذا قدِّمت الحماية (أي التبعية لانجلترا) لأي يهودي دون التثبت من أصله، وقد وافق الروس بين عامي ١٨٤٧ و١٨٤٩م على أن يقـــوم الإنجليز بحماية اليهود الروس، المادة البشرية التـــي ستســـتخدمها الصـــهيونية الغربية، وكما قال سوكولوف، إن حماية اليهود جزء من اهتمام انجلترا السياسي بالمسألة الشرقية.

كما أن شافتسبري حث بالمرستون على أن يكتب للسفير البريطاني في "اسطنبول" عاصمة تركيا عن فكرة الدولة اليهودية، وقد تحرَّك بالمرستون بناء على نصيحة شافتسبري وأرسل خطابًا بهذا المعنى، وحتى بعد أن ترك بالمرستون الـــوزارة، استمر شافتسبري في نشاطه، وبدأ في وَضْع الأساس العملي لتحقيق حلمه فـــي استرجاع اليهود إلى فلسطين تحت رعاية انجلترا البروتستانتية، فساهم في جهود تأسيس أسقفية ألمانية إنجليزية تهدف إلى استرجاع اليهود، وقد اختيـــر حاخـــام يهودي مُتنصِّر أسقفًا لها، وكان شافتسبري يَعُدُّ هذا تتويجًا لجهود جمعية اليهود، ذلك أن تأسيس الأسقفية كان بمنزلة العلامة على ابتداء عودة اليهود.

لقد أصبح شافتسبري رئيسًا لصندوق استكشاف فلسطين، ورغم أنه يؤكـــد فـــي كتاباته دائمًا أن روح العودة موجودة عند اليهود منذ ثلاثة آلاف عام، وأن الأمة

اليهودية أمة عضوية تحن إلى وطنها ولابد أن تحصل عليه فإنه يلاحَظ أن اليهود الحقيقيين الذين يقابلهم في الحياة تنقصهم الوحدة التي يفترض هو وجودها حسب رؤيته الإنجيلية الحرفية، وعلى كلٍّ، فإنه يذكر في أحد خطاباته إلى بالمرستون أن اليهود "غير متحمسين للمشروع الصهيوني، فالأغنياء سيرتابون فيه ويستسلمون لمخاوفهم، أما الفقراء فسيؤخرهم جَمْع المال في بلاد العالم، وسوف يفضل بعضهم مقعدًا في مجلس العموم في بريطانيا على مقعد تحت أشجار العنب والتين في فلسطين، وقد تكون هذه أحاسيس بعض الإسرائيليين الفرنسيين، أما يهود ألمانيا الكفار فيُحتَمل أن يرفضوا الاقتراح". (موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية)

وعلى هذا، فإن شافتسبري قد اكتشف المشكلة الأساسية في الصيغة الصهيونية الأساسية وهي أن المادة البشرية المُستهدَفة لن تخضع بسهولة لأحلامه الإنجيلية الحرفية الاستيطانية، ولن تقبل ببساطة أن يتم انتزاعها من أوطانها، وهو ما أثبتته الأيام رغم أن الدولة الصهيونية قد أقيمت، لكن معظم اليهود لم يهاجروا إليها.

هذا، ومن الشخصيات المهمة من أمثال لورد شافتسبري، الصهيوني غير اليهودي أيضًا "سير لورانس أوليفانت"، الذي كان أيضًا أحد أصدقاء لورد شافتسبري، عمل أوليفانت في السلك الدبلوماسي البريطاني في الشؤون الهندية، وكان عضوًا في البرلمان البريطاني، وأوليفانت كما معظم الصهاينة ينطلق من فكرة الشعب العضوي المنبوذ، وهو يرى أن اليهود جنس عضوي يتسم أعضاؤه بالذكاء في الأعمال التجارية وجمع المال، ووجودهم في المجتمعات الأوروبية خطأ فجذورهم توجد في فلسطين وهناك سينجحون وسيصبحون منتجين بدلاً من سلبيتهم في بلاد الاغتراب، دعا أوليفانت بريطانيا إلى تأييد مشروع توطين اليهود، لا في فلسطين فقط، وإنما في الضفة الشرقية للأردن، كانت فكرة مشروعه أن يتم إنشاء شركة استيطانية لتوطين اليهود برعاية بريطانيا في فلسطين ويكون مركز الشركة في اسطنبول، وخطته هذه لم تكن تختلف عن خطة هرتزل فيما بعد، ثم اتجه إلى اسطنبول لعرض مشروع سكة حديد وادي الفرات، وقدَّم طلبه إلى

السلطان بإعطاء اليهود قطعة من الأرض بعرض ثلاثة كيلو مترات على حـــافتي الطريق المقترح، وفي عام ١٨٨٠م نشر كتابه "أرض جلعاد" الـــذي نـــادى فيـــه بضرورة توطين اليهود في فلسطين.

فلاديمير جابوتنسكي Vladimir Jabotinsky :

ولد جابوتنسكي عام ١٨٨٠ في "أوديسا" بروسيا، ويعد هذا اليهـــودي الروســـي مؤسس وزعيم ما اصطلح المؤرخون اليهود على تسميته بـــ "الحركة التصحيحية الصهيونية"، ويعتبر أحد أكبر رموز التطرف في تاريخ الحركة الصهيونية، فقـــد قيل عنه إنه كان لديه نزعات صهيونية منذ صباه.



فلاديمير جابوتنسكي ١٨٨٠م – ١٩٤٠م

درس جابوتنسكي الحقوق في جامعات سويسرا وإيطاليا، وكانت بداياته في العمل العام في الكتابة الصحافية لبعض الصحف الروسية، وظهرت عليه علامات التقرب من الصهيونية في أعقاب بعض الأعمال المضادة لليهود في أوديسا عام ١٩٠٣م، توصل جابوتنسكي إلى قناعة بأن مصير الصهيونية مرتبط إلى حد كبير بمسألة "انتزاع فلسطين من أيدي الأتراك"، وأنه من الضروري المساهمة في المجهود الحربي لتحقيق هذه الغاية إلى جانب الحلفاء خلال الحرب العالمية الأولى، ولم يمض وقت طويل حتى تولى جابوتنسكي قيادة الوحدة رقم ٣٨ في الجيش البريطاني، وكان ذلك في عام ١٩١٧م ورُقي إلى رتبة ليفتينانت، وكان من أوائل الجنود الذين عبروا الأردن.

هذا، وإن الصهيونية التصحيحية هي تيار نابع من شرق أوروبا من فكر جابوتنسكي في الحركة الصهيونية، ظهر في عام ١٩٢٣م، ودعى إلى الهيمنة العمالية على الاستيطان الصهيوني في فلسطين، وليس هذا فقط بل هيمنة صهاينة الخارج الليبراليين على النشاط الدبلوماسي أيضًا، كان دعاة هذا التيار يريدون بناء مستوطنات يهودية مستقلة بجهودهم وإمكانياتهم، وهذا يعود إلى الأصول الطبقية لموجات الهجرة اليهودية، حيث أن موجات الهجرة الأولى كانت تتكون من البرجوازية الصغيرة التي لم تكن تملك شيئًا، إلا أن الموجات الأخيرة من الهجرة بعد عشرينات القرن العشرين كانت تضم بعض الرأسماليين، وكان يرى جابوتنسكي كما هرتزل ونائبه نودرو، إن أساس هوية اليهود ليس التراث الديني أو الاثني وإنما هو معاداة السامية، وكان يرى جابوتنسكي إن مشكلة اليهود في الأساس، هي رفضهم من قِبل الأوروبيين وهو ما يعني مشكلة الفائض اليهودي في أوروبا، إلا أن جابوتنسكي اعتقد أن اليهود يعودون إلى الشعوب الأوروبية.

في المؤتمر الصهيوني الرابع عام ١٩٢٥م طالب مندوبوا الحركة التصحيحية، بأن يتم إنشاء الدولة الصهيونية على جانبي ضفتي نهر الأردن، ومصادرة جميع الملكيات ووضعها تحت تصرف الحركة الصهيونية، وعلى ذلك عمل التصحيحيون

على تفريغ أوروبا من فائض اليهود وتم ترحيلهم إلى فلسطين، وشجعوا هجـرة الرأسمالية لأجل خلق الأعمال وتحريـك الاقتصـاد، وطـالبوا بتكـوين وحـدات عسكرية.

يؤخذ على هذا التيار من الصهاينة أنه لم يستوعب طبيعة المرحلة حيث وقف في وجه الجميع، وقد بدا مشروع الصهيونية التصحيحية بأنه مشـروع اسـتعماري كان يريد تحقيق الهدف بأقصى سرعة، بواسطة القوة العسكرية وبرعاية الدولـة المنتدبة على فلسطين، بل إنه كان يدعو إلى قمـع العـرب دون الرجـوع إلـى البريطانيين.

في أواخر عام ١٩٣٤م، تقابل جابوتنسكي وبن جوريون في لندن واتفقـا علـى تجنب الصراع واقتصاره على الحوار السياسي، كما اتفقا علـى التوفيـق بـين الحركات العمالية من ناحية الاضرابات والتحكيم الإجباري.

في عام ١٩٣٥م، انفصل التصحيحيون وأسَّسوا منظمة صهيونية جديدة وعقـدوا أول مؤتمر لهم في فيينا في نفس العام، وتم انتخاب جابوتنسكي رئيسًا لها، وكان مقرها في لندن بين عامي ١٩٣٦ و١٩٤٠م، كان برنامج المنظمة هـو ثوابـت الحركة التصحيحية، إضافة إلى إحضار جميع يهود العالم خلال عشـر سـنوات، وكذلك التركيز على الجانب العسكري خصوصًا في الكيبوتسات الزراعية المسلحة.

كانت الصهيونية التصحيحية أكثر واقعية من غيرها كونها مثَّلت حقيقة الصهيونية المتفاهمة مع القوى الغربية لأجل ترحيل اليهود إلى فلسطين، والتغطية على مـا قد تقوم به ضد السكان العرب من عدوان وعنـف، حيـث أن عقيـدة الحركـة التصحيحية هي استعمال أقسى درجات العنف ضد العرب لأجل تحقيـق الـوطن الصهيوني، وإن كانت تستعمل في ديباجتها أحيانًا الأساليب الناعمة، فقـد كانـت تُعلن عن حقيقتها كلما اشتد عودها وقويت.

كان جابوتنسكي متطرفًا جدًا حتى أنه رفض كل المُثُل الإنسانية، وأعلن أن العـالم إن هو إلا ساحة لصراع الجميع ضد الجميع، في كتاباته تحدث عن الإرادة وعـن

قدرة الإنسان على صياغة المستقبل بإرادته، وتوصل إلى قناعة بأن الذات هي المقدس الوحيد، فطالب أن يتعلم اليهود ذبح الآخرين (الأغيار)، وكان يود دمج اليهود في العالم الغربي الاستعماري لكي يتعلموا منهم كيف يسيطرون على الآخرين.

بعد سقوط الخلافة العثمانية، انتقل جابوتنسكي إلى تركيا ليُصبح مسئولاً عن صحف الدعاية الصهيونية التي كانت تصدر بلغات مختلفة، وفي عام ١٩٢١م انتُخب جابوتنسكي عضوًا في اللجنة الصهيونية، وجابوتنسكي لم يعترف أبدًا باليهودية وقال إن الشعب اليهودي هو المعبد الذي يتعبد فيه، كان يفضل أن تظل الصهيونية بعيدة عن اليهودية، وألا تبتلع منها إلا جرعة صغيرة، كما أنه كان يرفض التعريف الاثني لليهود وفضل عليه الموروث الحضاري الغربي لأن اليهود كما كان يقول هم مُستوعبون الحضارة الغربية، في الفترة الأخيرة كان جابوتنسكي لا يمانع أن يوظف الدين اليهودي في خدمة السياسة!

كان جابوتنسكي أيضًا يقبل معاداة السامية لليهود، لأنها على حد قوله تولِّد إحساس اليهودي بنفسه، وكان يرى أن العِرق هو الأساس في الأمة وليس الاثنية والديانة والأرض واللغة، وكان يهزأ حينما يتحدث الصهاينة الآخرون عن اليهودية والشعب العبري وأرض الميعاد.

كان جابوتنسكي مقتنع تمامًا بالانتماء إلى الحضارة الغربية، لهذا ساهم في تأسيس جماعة بريطانية تطالب بجعل فلسطين دولة صهيونية، إلا أنه لم يكن مطمئنًا تمامًا لبريطانيا، لذلك كان دائم البحث عن حلفاء آخرين، فاتصل بالزعيم الإيطالي الفاشي "موسيليني" وبزعماء آخرين من دول أوروبا الشرقية، كما أنه عارض تقسيم فلسطين بين العرب واليهود، كان الهدف من تحالفاته مع الآخرين ليس الاستغناء عن بريطانيا، بل للضغط عليها حين الضرورة، أو كما كان يفعل هرتزل بل إنه كان مؤيدًا لخطة هرتزل، وكان دائمًا ينادي باتبَّاعِها وتنقية الحركة الصهيونية من الشوائب التي علقت بها بعد موت هرتزل.

وأما عن العرب فقد كان يرى جابوتنسكي، بأن تفاوت الرقي بالأجناس يسمح لليهود بأن يفرضوا ثقافتهم بالقوة على العرب المتخلفين، فالشعب اليهودي منتمي عضويًا إلى الحضارة الغربية المسيطرة التي تحكم الشعوب الأخرى، وهو دور اليهود حينما يقيمون دولتهم في فلسطين حينما يحتاج الأمر إلى تركيع العرب لجعلهم يقبلون بالواقع الذي يُمليه التفوق العرقي!

كان ديفيد بن جورين يطلق على جابوتنسكي بأنه متطرف لأنه يطالب بالحد الأقصى ويجاهر بذلك، وأنه لو اتبع أسلوبًا ناعمًا وخطوة خطوة فسيصل أيضًا إلى ما يريد، يعتبر جابوتنسكي الأب الروحي والسياسي لحركة "حيروت" التي تزعمها مناحيم بيغين، وتركت أفكاره أثرًا بالغًا عليه وعلى كثيرين من أتباعه، توفي جابوتنسكي في فبراير ١٩٤٠م في الولايات المتحدة ونُقِل رفاته إلى القدس عام ١٩٦٤م، وحل مكانه مناحيم بيجين في قيادة هذا الاتجاه.

وعن الحركة الصهيونية، كلمحة عابرة لأجل وضع النقاط على الحروف بعد أن أضحت كثير من المعلومات عن مشروع الوطن القومي الصهيوني قد اتضحت، فبإيجاز يمكن القول: إن التاريخ الرسمي للمنظمة الصهيونية العالمية، بدأ رسميًا كما أشرنا منذ المؤتمر الصهيوني الأول عام ١٨٩٧م، لكنها لم تأخذ هذا الاسم إلا سنة ١٩٦٠م، فقد كان اسمها قبل هذا التاريخ المنظمة الصهيونية فقط، ولقد تم تعريف المنظمة الصهيونية العالمية عند تأسيسها حسب قوانين المؤسسات النقابية والجمعيات والأحزاب الرسمية، وأصبح لها صفة قانونية يمثلها مجلس منتخب ولها قانون تأسيسي وتتكون من أعضاء ملتزمين ببرنامج المؤتمر الصهيوني، وتم تخويل مجلس إدارة المنظمة الذي رأسه في البداية "تيدور هرتزل" بالتفاوض مع الحكومات، وكذلك العمل على التوفيق بين الصهاينة التوطينيين والصهاينة الاستيطانين، ونتيجة لهذا تم إنشاء مؤسسات بنكية ومجالس وجمعيات تابعة للمنظمة من أجل جمع الأموال لشراء الأراضي، وبناء المستوطنات، في عام ١٩٠٣م عند انعقاد المؤتمر الصهيوني السادس بلغ عدد الأعضاء المشاركين ٦٠٠ عضو، كما ازداد عدد الجمعيات التابعة إلى ما يربو

على ١٥٠٠ جمعية في الدول المختلفة، وعند بداية الحرب العالمية الثانية، بلـــغ عدد الأعضاء مليون عضو، وفي عام ١٩٤٦م بلغ عدد دافعي رســـوم عضـــوية المنظمة الصهيونية ما يزيد عن المليونين ومائة ألف حيث كانت العضوية تعنـــي دفع الاشتراكات وليس أكثر.

هذا، وكما علمنا فقد ابتدأت المنظمة الصهيونية من مدينة بـــازل بسويســـرا ثـــم أصبح مقرها مدينة كولونيا بألمانيا، موطن "ديفيد ولفسون" الذي ترأس المنظمة بعد وفاة هرتزل في الفترة ١٩٠٥-١٩١١م، ثم انتقل المقر إلى برلين فـــي ظـــل رئاسة "أوتو واربورج" ١٩١١-١٩٢٠م، بعد صدور وعد بلفور انتقلت المنظمة إلى لندن ببريطانيا لكي تكون في مركز الثقل العالمي هناك، حيث رأســـها حـــاييم وايزمان ١٩٢٠-١٩٣١م، لكنها في عام ١٩٢٠م انتقلت رسميًا إلى القدس وإن كان قد بقي من المنظمة مراكز هامة في لندن، الموقع الذي لا يستغنى عنه حيث مكان إقامة رئيس المنظمة ومجموعة من أعضاء الهيئة الإداريـــة، وفـــي عـــام ١٩٣١– ١٩٣٥م رأس المنظمة "ناحوم سوكولوف".

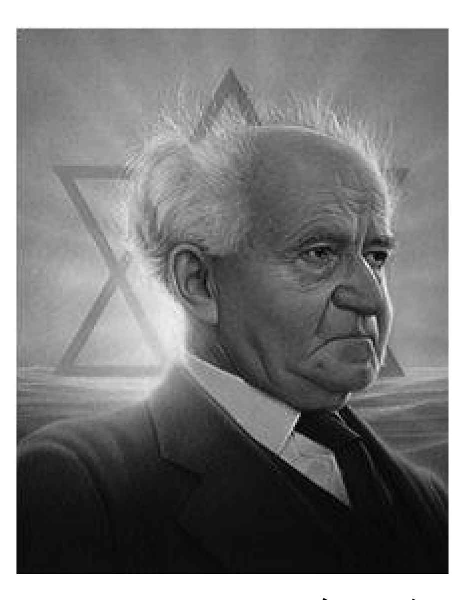
كان تنافس التيارات داخل المنظمة الصهيونية على أشده، إلا أنه لم يكـــن خلافًـــا على المبدأ بقدر ما كان خلافات على تفضيل بند على آخر، كان التيـــار العمـــالي يود التركيز على بند الاستيطان وإعطائه الأولوية بكل الطرق ليتم بأقصى سرعة، في حين كان تيار هرتزل يرى أن تكون الأولوية على الدبلوماسية والتفاوض مع القوى الغربية لاستصدار ميثاق دولي يسمح باستيطان فلسطين تحـــت القـــانون وتحت الحماية الدولية.

حدثت خلافات أخرى بين قيادات المنظمة الصهيونية، منها على ســـبيل المثـــال الانقسام الذي حدث في عام ١٩٣٣م حينما انشق الصهاينة التصحيحيين بزعامة "فلاديمير جابوتنسكي" عن المنظمة بعد أن طلبوا أن تجـــاهر المنظمـــة بـــإعلان هدفها بإقامة دولة لليهود في فلسطين، وأسَّسوا منظمة أخرى ســـموها المنظمـــة الصهيونية الجديدة، حدثت خلافات أخرى بين الصهاينة، لكنهم بعد عدة ســـنوات

عادوا إلى صفوف المنظمة الأم، لأن الخلافات كانت على آلية التنفيذ وليس على المبدأ.

بعد صدور وعد بلفور وانتهاء الحرب العالمية الأولى، بوشر بتنفيذ إقامة الدولـــة الصهيونية بإرسال المهاجرين وإرسال الأموال والإسراع في بناء المســـتوطنات، وبقيت المنظمة وبفرعيها التنفيذي والدبلوماسي تعمل في خدمة المشروع الكبير فكانت المنظمة الصهيونية والوكالة اليهودية شيئًا واحدًا لتحقيــق هــدف قيــام الدولة، وبقي الاسم الشائع الذي يعني كل الأنشطة الصــهيونية، هــو "المنظمــة الصهيونية العالمية" بما في ذلك إشرافها على تياري الصهيونية الاثنـــي الـــديني والاثني العلماني فبقيت التناقضات محصورة في نطاق ضيق، لأن الجميع كـــانوا مخلصين للمبدأ.

ديفيد بن جوريون David Ben-Gurion :



ديفيد بن غوريون ١٨٨٦ – ١٩٧٣م

لا ترجع شهرة ديفيد بن غوريون إلى كونه أول رئيس وزراء إسرائيلي ١٩٤٨- ١٩٥٣ فحسب، بل لكونه واحدًا من المؤسسين الأوائل للدولة الصهيونية حيـــث

قاد انتصارات اليهود على العرب في حرب ١٩٤٨م التي انتهت بقيام إسـرائيل، وكان عنصرًا فاعلاً في حربي ١٩٥٦ و١٩٦٧م.

ولد حاييم أفجدور جرين (ديفيد بن غوريون) في بولنسك (بولنـدا الآن) التابعـة لروسيا عام ١٨٨٦م، وكان يعمل في المحاماة، وقد أثَّرت عليه أفكار حزب العمال الاشتراكي الذي عرف بـ (عمال صهيون) في بولنسك، حصل بن غوريون علـى شهادة الثانوية في بولنسك ثم أكمل دراساته الجامعية بجامعة القسطنطينية فـي تركيا عام ١٩١٢م وحصل بعد عامين على درجة جامعية في القانون.

اقتنع بن غوريون في وقت مبكر بضرورة الهجرة إلى فلسطين، فقرر القيام بذلك عام ١٩٠٦ م، وعمل في ذلك الوقت بفلاحة الأرض في يافا، بعد أربعة أعوام أي في عام ١٩١٠م انتقل إلى القدس للعمل محررًا في صحيفة الوحـدة "أهـودوت" الناطقة باللغة العبرية، وكان ينشر مقالاته باسم (بن غوريون) الذي يعنـي فـي اللغة العبرية ابن الأسد، نجح بن غوريون بعد عودته إلى فلسطين فـي تأسـيس اتحادات عمال اليهود "الهيستدروت" عام ١٩٢٠م، وعُيِّن سكرتيرًا عامًا له مـن ١٩٢١م وحتى ١٩٣٥م.

قال بن جوريون في مذكراته: في عام ١٩٣٦م قام هو وزوجته وحاييم وايزمـان بزيارة "لويد جورج" رئيس وزراء بريطانيا في بيتـه بمدينـة "تشـورث"، فلمـا وصلوا وجدوا لويد جورج جالسًا على مقعد أمام بيته، قال بن جوريون بأن لويد جورج استقبلهم بحرارة، "وقادنا فورًا إلى الداخل لتناول الشاي"، سألنا عن وزير المستعمرات البريطاني الجديد فرد حاييم وايزمان بأنه لم يقابله بعد تعيينه ولكنه كان متعاطفًا على الدوام، رد عليه لويد جورج على الفور: "أنتم لستم بحاجة إلى التعاطف بل إلى الشجاعة والعمل والقوة الدافقة"، سألنا عن المنـدوب السـامي البريطاني في فلسطين، وعن موظفي الانتداب، فأجاب وايزمان بـأن المـوظفين كالمعتاد يُظهرون العداء أو عدم الرغبة في مساعدتنا، وأشار بالذات إلى قاضـي القضاة "ماك دونل"، علَّق لويد جورج قائلاً: "ألا يدركون بأن الأمر سوف يصـبح أكثر سوء إذا ما بقيت فلسطين في يد المسلمين"، استمر لويد جورج يتحدث عن

الوضع في فلسطين: "العرب يخشون أن تصبح فلسطين دولة عبرية، حسنًا، فإن فلسطين ستصبح حتمًا دولة عبرية"، وأضاف لويد جورج بقوة: "وسوف تصبح دولة عبرية"، مؤكدًا بصفة خاصة عبارة "سوف تصبح حتمًا"، ثم استطرد متحدثًا عن المناقشة في البرلمان يوم الجمعة المقبل فقال: "إنكم بحاجة إلى شخصية هامة من بين أنصار الحكومة مثل "ونستون تشرشل" أو من الأفضل "استن تشمبرلين" ليشرح قضيتكم"، فعلقت مدام حاييم وايزمان بأننا يجب أن نكون حذرين من تشمبرلين لأنه كان قد صرَّح في اجتماع له معنا بأنه يجب ألا تؤدي الهجرة اليهودية إلى أغلبية يهودية، فرد لويد جورج، "هذا هراء"، ثم سأله وايزمان عما إذا كان سيشترك في المناقشة، فردَّ لويد جورج في باديء الأمر أنه ليس ملمًا بالوضع الراهن، فرد وايزمان بأنه سوف يمده بالمعلومات الضرورية، فقال لويد جورج، "حسنا سوف أحضر إلى العاصمة لنتباحث في الأمر".

بعد إقامة دولة إسرائيل عام ١٩٤٨م أصبح بن غوريون أول رئيس وزراء لها، وعمل فور توليه منصبه الجديد على توحيد العديد من المنظمات الدفاعية التي كانت موجودة آنذاك في قوات واحدة أطلق عليها قوات الدفاع الإسرائيلية **IDF** أي "وزارة الدفاع الإسرائيلية".

ظل بن جوريون يعمل على حشد الإمكانيات اليهودية العالمية من أجل قهر العرب في فلسطين باتبَّاع استراتيجية جعلته أسطورة في نظر الشبيبة الصهيونية، فقد ظل يكرر للمتحمسين الصهاينة بأن "جنود موسى ويوشع وداود لم يكفُّوا عن القتال، وكذلك جنود صهيون (دولة إسرائيل) لن يتوقفوا عن القتال"، كان يُشبِّه اغتصاب فلسطين وطرد أهلها كأنه استمرار لصراع العبرانيين مع الفراعنة والآشوريين والبابليين والفينيقيين.

اعتزل الحياة السياسية عام ١٩٧٠م وألَّف العديد من الكتب منها "إسرائيل.. تاريخ شخصي" الذي أصدره عام ١٩٧٠م، و"اليهود في أرضهم" الذي صدر له بعد سنة من وفاته في عام ١٩٧٣م عن عمر ناهز ٨٧ عامًا.

مشاهد من حرب ١٩٤٨م:

في فبراير سنة ١٩٤٨م استقبل وزير خارجية بريطانيا "إرنيست بيفين" في لندن "توفيق أبو الهدى" رئيس وزراء الأردن، وحضر اللقاء الجنرال البريطاني "جون جلوب" قائد الجيش الأردني (العربي) في ذلك الحين، نقل أبو الهدى في تلك المقابلة إلى رئيس وزراء بريطانيا تأكيد الملك "عبد الله ابن الشريف حسين" ملك الأردن، بأن الجيش العربي بقيادة جلوب باشا سيدخل المناطق التي نص عليها قرار الجمعية العامة للأمم المتحدة في ٢٩ نوفمبر سنة ١٩٤٧م (قرار التقسيم)، وعبَّر بفين في المقابلة عن موافقته لأبو الهدى، إلا أنه حذَّر من دخول الجيش العربي إلى المناطق التي أقرت لليهود حسب قرار التقسيم بما في ذلك مدينة القدس التي نص قرار التقسيم أن تكون دولية.

كانت نصيحة بفين لرئيس وزراء الأردن على مسمع من الجنرال جلوب قائد الجيش مفيدة جدًا للإسرائيليين، كان قد حصل الأردن على الاستقلال من بريطانيا سنة ١٩٤٦م، إلا أنه بشكل أو بآخر كان محمية بريطانية، وكان يعتمد في كثير من الأمور على بريطانيا، مثل تسليح الجيش وتدريبه والصرف عليه وعلى مرافق الدولة.

كانت نصيحة بفين قد عجَّلت بالصراع وبدء الحرب بين العرب واليهود لسببين، الأول أن الجيش العربي سيدخل المناطق المخصصة للفلسطينيين حسب قرار التقسيم، والثاني أن النتيجة لن تُرضي المفتى "الحاج أمين الحسيني"، وذلك خوفًا من ضم المناطق الفلسطينية للأردن، كما لن تُرضي كل من سوريا ومصر أن يستفرد الأردن بكل هذا النفوذ.

لما كان قرار التقسيم قد وضع مدينة القدس دولية، فإن ما جعل الأمر أكثر صعوبة هو أن بريطانيا لم تُبدي استعدادًا لتأخير انسحابها من فلسطين، بناء على توقيت انتهاء الانتداب الذي منحته لها الأمم المتحدة، فلم ترد بريطانيا أن تأخذ على عاتقها التعامل مع الفوضى التي أصبحت في فلسطين، اليهود يودن أن

يُعلنوا دولة لهم والعرب يرفضون، وكِــلا الطــرفين أضــحوا مُعــادين للوجــود البريطانـي، ثم إن أنظار العالم كلها كانت تتجه نحو فلسطين لما لها مـــن أهميـــة دينية ثم استراتيجية، لهذا رفضت بريطانيا تأجيل موعد انسحابها لأجل أن تتفادى أن تكون طرفًا في الصراع وحتى لا تصطدم مع القوى الدولية بســبب اخـــتلاف وجهات النظر المتوقعة من أطراف كثيرة.

تم عقد اجتماع لمجلس الجامعة العربية بالقاهرة، وفي الاجتماع أعلن الملك "عبد الله ابن الحسين" بأن الجيش العربي سيدخل فلسطين فور انتهاء مــدة الانتـــداب البريطاني، عمل إعلان الأمير عبد الله ضجة آنذاك في مجلس الجامعـــة العربيـــة خصوصًا وأن "محمود فهمي النقراشي باشا" رئيس وزراء مصر لم يكـــن راغبًـــا في دخول فلسطين بقوات نظامية عربية خصوصًا وأنه يعلم بأن جيش بلاده ليس مستعدًا، ولكن مادام أحد الجيوش العربية سيدخل فلسطين فلن يستطيع أحد مـــن الزعماء العرب أن يؤخر اشتراك بلاده في تلك الحرب خوفًا من خسارة شـــعبيته في دولته.



"كلمنت أتلي" رئيس وزراء بريطانيا من ١٩٤٥/٧/٢٦ - ١٩٥١/١٠/٢٦ م

Clement Attlee

كان الجو العام في الشارع العربي مشحون ومملوء حماسة وثقة، وكان الجميع يعتبرون أن الحرب في فلسطين ما هي إلا نزهة وكانت المعنويات عالية لا تطال، كتب أحد رؤساء الوزارة في بريطانيا "كلمنت أتلي" في مذكراته عن تقرير وزارة الخارجية البريطانية وعن رئاسة أركان الجيوش البريطانية، قال بناء على التقرير، "إذا ما نشبت الحرب بين اليهود والعرب فإن العرب سيرمون اليهود في البحر".

لم يكن "ديفيد بن جوريون مطمئنًا كما يجب حين أعلن قيام دولة إسرائيل، قال "لم أكن مسرورًا في داخلي وكنتُ قلقًا في أعماقي كما كنت يوم قرار التقسيم فقد كنت مثل المكلوم"، كانت كل التقارير الإحصائية لا تدل على أن هناك أمل في فوز المنظمات الصهيونية التي لم تختبر الحرب بعد مع الجيوش العربية النظامية، هذا عدا أن هذه المنظمات كانت تفتقر إلى كل شيء مقارنة بالجيوش العربية التي كان يبدو لها طائرات ومعدات وآليات كثيرة، لكن المنظمات الصهيونية كانت تتمتع بروح وبمعنويات عالية ولا تقل عن حماس العرب وكان لها هدف واضح، وكان لديها الإصرار لخدمة الهدف الصهيوني البعيد، كانت التقارير تُشير إلى عامل مهم، صحيح أن ليس كل العرب لديهم الاستعداد أو منتمين إلى الحرب، إلا أن عدد العرب الذي يتجاوز الأربعين مليونًا في ذلك الزمن، هو ذو فارق كبير بالنسبة لليهود الذين لم يصل عددهم بعد مليونًا في فلسطين.

في أبريل سنة ١٩٤٨م عقد رؤساء أركان الجيوش العربية اجتماعًا في دمشق، وتم فيه وضع خطة الدخول في فلسطين إذا ما قرر الصهاينة إعلان دولتهم، كانت الخطة كالتالي:

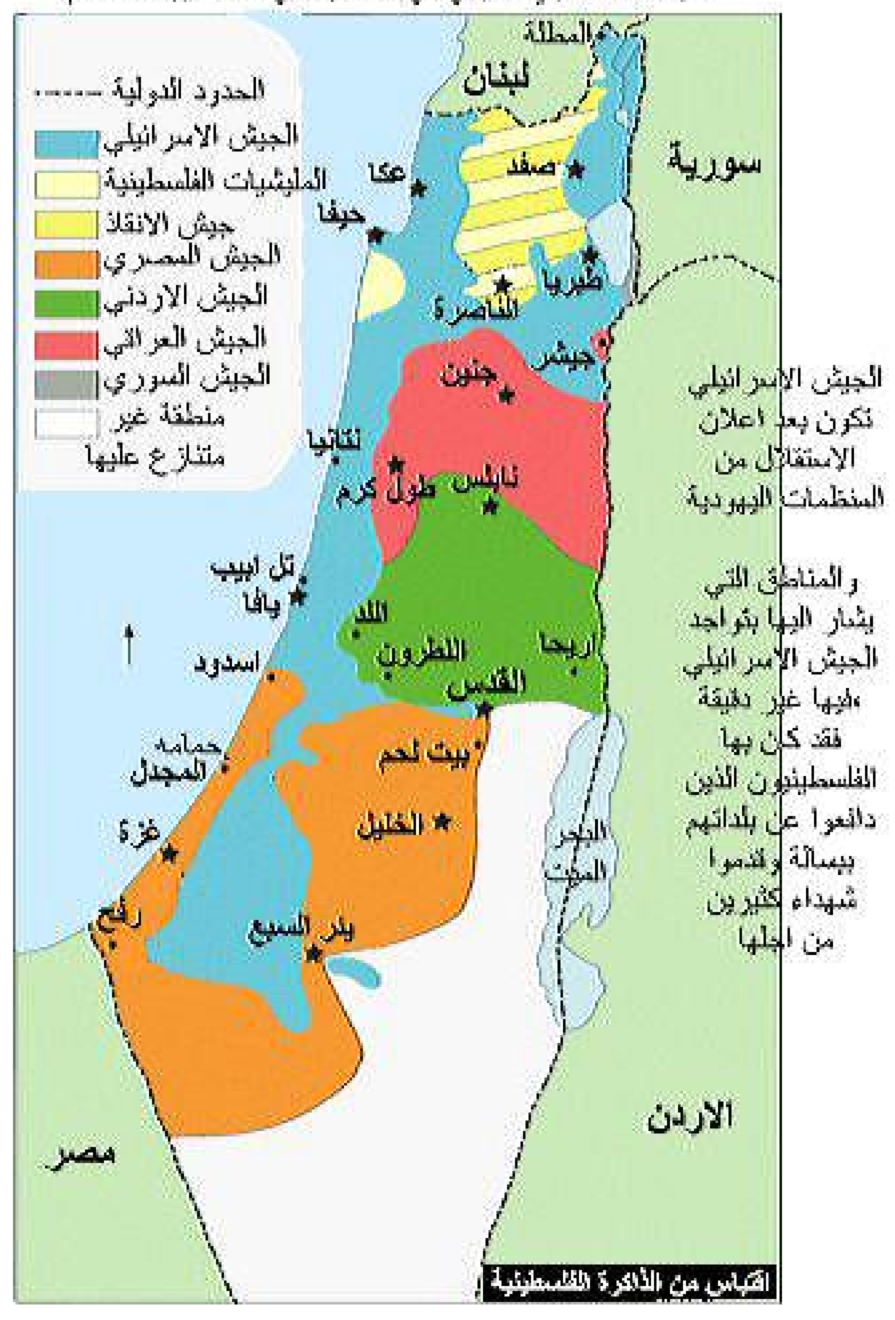
السوريون واللبنانيون سيدخلون شمال فلسطين إلى مدن طبريا وصفد والناصرة، والهجوم الرئيسي سيكون من قِبل الجيش العراقي والجيش العربي الأردني في منطقة جنوب بحيرة طبريا ثم يتحرك في اتجاه مدينة حيفا وهي الهدف الرئيسي للهجوم، أما دور الجيش المصري فقد تقرر أن يقوم بالقضاء على القوات الصهيونية جنوب مدينة يافا.

كان التنسيق والتعاون من الناحية العملية معدوم بين الجيوش العربية، صحيح أن الأمير عبد الله كان اسميًا قائدًا للجيوش التي دخلت فلسطين لكن لا أحد كان يُعطيه اهتمامًا عدا جيشه، ولم يهتم هو أيضًا بالجيوش العربية الأخرى، كانت فرص النجاح كبيرة لو كان التنسيق فعليًا بين الجيوش العربية، وكان بالإمكان الوصول فعلاً إلى حيفا، لكن الأمير عبد الله لم يكن مهتمًا بمدينة حيفا، فقد كان ملتزمًا بنصيحة "إرنيست بيفين" على أن يتواجد فقط في الضفة الغربية أو المنطقة التي أقرها قرار التقسيم وفي القدس التي كانت نظريًا دولية.

دخلت القوات السورية وادي الأردن المليء بالمستعمرات اليهودية، وكان لصمود مستعمرة ديجانيا في وجه القوات السورية النظامية أثر كبير على معنويات المنظمات الصهيونية في المستعمرات الأخرى حيث اكتشف اليهود بأن المستعمرة يمكن أن تصمد في وجه الجيوش النظامية، كان ضمن المقاومين اليهود في ديجانيا "موشيه ديان" ومعه سبعين من المقاتلين الآخرين، وبحلول ٢٣ مايو ١٩٤٨م كان قد انسحب السوريون من وادي الأردن.

تقدم الجيش اللبناني قليلاً في منطقة الجليل إلا أن اليهود صدوه بهجوم مضاد ودخلوا الأراضي اللبنانية، إلا أن جيش التحرير العربي بقيادة فوزي القاوقجي وهو جيش من المتطوعين العرب استطاع أن يدخل وسط الجليل من جهة بوابة "مالكيا" بلبنان ووجد ترحيبًا من المحليين الفلسطينيين في الجليل، وفي هذا الوقت عاد السوريون إلى الهجوم في وادي الأردن واستطاعوا احتلال مستعمرة "مشمار هياردين" وسيطروا على موقع استراتيجي في وادي الأردن، هو جسر بنات يعقوب.

دخل العراقيون الحرب جنوب منطقة حرب السوريين واللبنانيين وجيش التحرير بقيادة فوزي القاوقجي، وحاولوا الاستيلاء على مستعمرة "جيشر" إلا أن اليهود ردوهم، استطاع العراقيون بعد ذلك احتلال مستعمرة "جيوليم"، لكن الإسرائيليين بهجوم مضاد استعادوا المستعمرة واحتلوا قرى عربية أخرى ونصبوا حصارًا على مدينة جنين وانتهى دور الجيش العراقي في حرب ١٩٤٨م.


التواجد العسكري العربي في فلسطين في 14 مايو 1948م
الحدود الدولية
الجيش الاسرائيلي
المليشيات الفلسطينية
جيش الانقاذ
الجيش المصري
الجيش الاردني
الجيش العراقي
الجيش السوري
منطقة غير متنازع عليها
المطلة
لبنان
سورية
عكا
صفد
حيفا
طبريا
الناصرة
جيشر
جنين
نتانيا
طول كرم
نابلس
تل ابيب
يافا
اللد
اللطرون
اريحا
اسدود
القدس
حمامه
المجدل
بيت لحم
الخليل
غزة
البحر الميت
رفح
بئر السبع
الاردن
مصر
اقتباس من الذاكرة الفلسطينية
الجيش الاسرائيلي تكون بعد اعلان الاستقلال من المنظمات اليهودية
والمناطق التي يشار اليها بتواجد الجيش الاسرائيلي فيها غير دقيقة، فقد كان بها الفلسطينيون الذين دافعوا عن بلداتهم ببسالة وقدموا شهداء كثيرين من اجلها

في النقب كان على اليهود أن يواجهوا أكبر وأقوى جيش عربي هو الجيش المصري، على الساحل جنوب يافا أو تل أبيب استطاعت المنظمات الصهيونية إيقاف الجيش المصري عند مستعمرة "مردخاي ياد"، أو ما يُسمى حاليًا ميناء أشدود وبالعربي أسدود، كانت فترة صمود مستعمرة مردخاي ياد لمدة خمسة أيام في وجه القوة المصرية الكبيرة قبل أن يتم إجلاءها وتسقط للمصريين، كان هامًا في بقاء إسرائيل في ذلك الوقت فقد كان الجيش المصري ذاهب لدخول تل أبيب.

كانت الأيام الأولى لبداية الحرب حاسمة بالنسبة للدولة الإسرائيلية الوليدة، كان كل يوم يمضي ولم يُقضى على تلك الدولة مكسبًا للإسرائيليين وخسارة للعرب، حتى ذلك الوقت كان سلاح المنظمات الصهيونية المقاتلة في فلسطين ليس بالشيء الحاسم، ومعظم الأسلحة كانت تتم بالتهريب ولم تكن الدول تسمع لهم علنًا باستيراد السلاح، في المقابل كان اللواء المصري الذي وصلت طلائعه إلى أسدود "مرخاي ياد"، كان لديه عتاد تقليدي ليس بالشيء الهين، تقول بعض المصادر المتعاطفة مع إسرائيل، كان لدى المصريين في الحملة ٥٠٠ آلية عسكرية وعدة كتائب مشاة ومدفعية ثقيلة، وكانت لهم سيطرة جوية في ساحات المعارك حيث أنهم يملكون طائرات، ولولا أن إسرائيل استطاعت أن تحصل على أربع طائرات نوع "ميسرشميت" كانت استعملتها يوم ٢٩مايو١٩٤٨م حيث راحت الطائرات الإسرائيلية تضرب القوات المصرية وأوقفتها عند أسدود، لولا ذلك لدخل المصريون تل أبيب، خسارة الإسرائيليين في الحرب كانت في منطقة المركز القدس، كانت الخسائر البشرية من قِبل الجيش العربي التابع لشرق الأردن والذي كان يقوده جلوب باشا.

لم يكن الخوف من الجيش العربي على بقاء الدولة الصهيونية، إنما كان كما قال بن جوريون هو الخوف على منع اليهود من مدينة القدس، في ٢٩ مايو ١٩٤٨م وافق مجلس الأمن الدولي على عمل هدنة إلا أن الالتزام بها كان يوم ١١ يونيه ١٩٤٨م.

في المسرح الدولي، اعترف الرئيس "هاري ترومان" بإسرائيل في ١٥ مايو ١٩٤٨م وبعد مرور ثلاثة أيام اعترف بها أيضًا الاتحاد السوفييتي، كان اعتراف ترومان بإسرائيل قد وضع رئيس الوزراء البريطاني (كلمنت أتلي) في معضلة، كانت بريطانيا حريصة في علاقاتها مع العرب والإبقاء على صداقتهم لحفظ مصالحها ونفوها خصوصًا في مصر والعراق والأردن.

وحسب الكتاب الأبيض الذي أصدرته وزارة الخارجية البريطانية قبلاً والذي يؤكد على صداقة العرب، فإن بريطانيا من المفترض أنها تؤيد العرب في ذلك الوقت وأن تكون ضد تقسيم فلسطين، وما دام العرب قد دخلوا الحرب فالمفروض أن تكون بجانبهم لمنع التقسيم الذي رفضه العرب، ولكن في تلك الأيام كانت بريطانيا في أمَّس الحاجة إلى علاقة جيدة مع الولايات المتحدة التي وضعت ثقلها الآن واعترفت بإسرائيل، وبريطانيا كانت تتجنب أي احتكاك مع أمريكا حيث كان قد صدر مشروع مرشال لإعادة ما دمرته الحرب في أوروبا، وكان مشروع مارشال يشمل بريطانيا أيضًا، لهذا وَقَعَتْ بريطانيا بين نارين لأن المصالح دائمًا هي التي تقود الدول.

في ١٧مايو١٩٤٨م قدَّمت الولايات المتحدة مشروعًا بإمكان تدَّخل القوى العظمى عسكريًا لوقف القتال في فلسطين، بمعنى وقف ما يُسمى بالهجوم العربي على إسرائيل، ذلك حسب المادة ٣٩ من ميثاق الأمم المتحدة، لكن بريطانيا قدمت مشروعًا معدلاً للمادة ٣٩ ونجحت في تمريره في مجلس الأمن، وهي بذلك كانت تسعى كما قيل لخدمة أصدقاءها العرب، ما كان يحدث ذلك حتى ثارت ثائرة اللوبي المؤيد للصهيونية في الولايات المتحدة، وراح يُطالب بوقف تنفيذ الجزء المخصص من الدين لبريطانيا بناء على مشروع مارشال الشهير.

لم يكن من رئيس الوزراء البريطاني حينذاك إلا أن خضع للتهديد الأمريكي وتراجع عن شحن السلاح اللازم للعرب، وأصدر مجلس الأمن قرارًا بوقف إطلاق النار ووقف شحن السلاح إلى المنطقة، وعمل بالقرار بدء من ١١ يونيه، وبذلك أنقذت إسرائيل من وقت عصيب.



هاري ترومان ١٨٨٤م – ١٩٧٢م

Harry Truman

كثير من الكتاب الأمريكيين المتعاطفين مع إسرائيل في ذلك الوقت، كتبوا وانتقدوا سياسة الرئيس الأمريكي بسبب تأييده لوقف تصدير السلاح إلى المنطقة ظنًا من هؤلاء بأن إسرائيل كانت في أمَّس الحاجة إلى السلاح، لكنهم نسوا أن أمريكا كانت تأخذ في اعتبارها أن إسرائيل لها مصادر مختلفة لإحضار السلاح؛ علنًا وبالتهريب، استطاعت في ذلك الوقت أن تُحضر سلاح وطائرات من بلاد مثل تشيكوسلوفاكيا وغيرها، لكن الموقف الأمريكي كان ينظر أبعد من ذلك، كان يريد أن يوقف بريطانيا من تسليح العرب التي تود الإبقاء على ثقتهم بها، وبإصدار قرار من مجلس الأمن فإن دولة مثل بريطانيا لها حق فيتو يمكن أن تلتزم بالقرار، منذ تلك الأيام فقد العرب أهم مصدر لاستيراد السلاح وتدريب الجيوش ولم يعد لهم قوة عظمى يستندون إليها، أمريكا اعترفت بإسرائيل وكذلك الروس،

وها هي بريطانيا الصديقة الحامية تجبر أن تدير ظهرها للعرب، وتحجب عنهم السلاح الذي هم في أمَّس الحاجة إليه.

بالنسبة للإسرائيليين كانت الهدنة كما قال أحد قادتهم "مثل المن والسلوى من السماء"، أعطتهم نفسًا وجعلتهم يُعيدون تنظيم أنفسهم، وها هو قد أصبح لهم طائرات ويستعدون للجولة القادمة، لكن لم يمضِ سوى عشرة أيام على بدء مفعول الهدنة العربية الإسرائيلية الأولى، إلا ونشب خلاف داخلي بين الصهاينة أنفسهم كاد أن يؤدي بحياة الدولة الوليدة إسرائيل، في ٢٨ مايو ١٩٤٨م أصدر ديفيد بن جورين القرار رقم ٤ بإنشاء جيش الدفاع الإسرائيلي، لكن كان من الصعب تطبيق قرار بن جوريون رقم ٤ بدمج المنظمات الصهيونية مع بعضها أثناء الحرب، إلا أن حادثة الباخرة "التالينا" أعطته الفرصة لكي يضع قراره موضع التنفيذ.

التالينا هو اسم حركي للباخرة التي أحضرت السلاح المقدم مجانًا من الحكومة الفرنسية التي وعدت أيضًا بمزيد من السلاح لمنظمة الاراجون الصهيونية اليهودية، والتي فوض فيها الزعيم الصهيوني جوبنسكي لجلب السلاح والمتطوعين لإسرائيل، كانت إسرائيل كما يقول بن جوريون في حاجة ماسَّة لحمولة التالينا من السلاح، لكن إبحار الباخرة من ميناء فرنسي في البحر الأبيض المتوسط أمام كل العالم وخاصة تحت أعين المراقبين الدوليين الذين يعلمون بقرار مجلس الأمن الذي نص على وقف تصدير السلاح إلى المنطقة، جعل بن جوريون لا يريد صدامًا مع مجلس الأمن والعالم الذي هو بحاجة إلى أي شيء منه، كما أن بن جوريون أيضًا كان يرى أن إفراغ حمولة السفينة لمنظمة الاراجون ربما يجعل "مناحيم بيجن" زعيم الاراجون يتحدى سلطة الحكومة الانتقالية التي يرأسها، لذا قررت حكومة بن جوريون عدم السماح بإفراغ السفينة ولو باستعمال القوة لو أدى الأمر إلى ذلك، في ٢١ يونيه ١٩٤٨م عمل الهاجانا التي أصبحت جيش الدفاع الإسرائيلي على إشعال النار في الباخرة التالينا، وقتل ١٥ شخصًا كلهم من الارجون، وأصبحت اليهود على وشك حرب

أهلية بينهم، وتم تجنب ذلك حينما أعلن مناحيم بيجن وكان على السفينة حين اشتعال النار بها، أعلن من إذاعة سرية للاراجون بأنه لن يخضع لسلطة حكومة بن جوريون، إلا أنه لن تكون أنشطة لمنظمته العسكرية في مناطق الحكومة أي في منطقة قرار التقسيم المخصصة لليهود، لكنه سيحارب في مناطق الأعداء، انتهت مشكلة الباخرة التالينا إلا أن احتراقها أمام تل أبيب كان له أثر في نفس الكثيرين من اليهود بعد ذلك.

انتهت الهدنة الأولى، وأصبحت أمريكا تبحث عن سلام دائم في المنطقة بعد أن أطمئنت إلى بقاء إسرائيل وأصبح ليس سهلاً على العرب القضاء عليها، وصار البحث عن إيجاد خطة لتعويض الأصدقاء العرب عن الهزيمة مقابل بقاء إسرائيل.

قدمت اقتراحات كثيرة للسلام، وأرسل مندوبين ووسطاء عن طريق الأمم المتحدة، وصار البحث عن هدنة دائمة وإيجاد سلام دائم، قبل يوم ٨ يونيه بيوم واحد اندلع القتال في النقب بين الإسرائيليين والمصريين، وبعد ذلك في منطقة القدس وفي شمال فلسطين، وبعد عشرة أيام لم يربح العرب شيئًا بل إن المصريين خسروا مناطق كبيرة في النقب، واستطاع اليهود توسيع الممر إلى القدس وجعلوه أكثر أمانًا، كما أن اليهود احتلوا مدينتي اللد والرملة ودفعوا بسكانهما إلى إخلائهما، وبحلول الهدنة الثانية كان ما يقارب المليون فلسطيني قد أجبروا على ترك مدنهم وقُراهم بسبب الحرب وبما فعله اليهود من قتل في بعض المناطق.

تقول الرواية اليهودية الإسرائيلية بإن المنظمات الصهيونية لم تكن في البداية تهدف إلى طرد الفلسطينيين من بلادهم وأن الفلسطينيون تركوا من أنفسهم، لكن هذا لا يمكن تصديقه خصوصًا وأن إسرائيل منذ حكومة بن جوريون الأولى وبعد ستين سنة ما زالت ترفض السلام القائم على عودة اللاجئين الفلسطينيين إلى بلادهم.

في الجولة الثانية من الحرب، اختار بن جوريون مقاتلة المصريين في النقب على مقاتلة الأردنيين في الضفة الغربية لأكثر من اعتبار، منها أن الملك عبد الله اتهمه العرب بالعمالة لإسرائيل ووصمه المصريون والحاج أمين الحسيني بالخائن، والإسرائيليون يقولون بإن الفضل في بقاء إسرائيل في حرب ١٩٤٨م يعود إلى الروس وإلى الملك عبد الله، الروس كانوا يعارضون توسيع نفوذ الملك عبد الله في فلسطين الذي جيشه يديره البريطانيون بقيادة جلوب باشا، وأن روسيا يهمها ألا يزداد النفوذ البريطاني في القدس والمنطقة، وأما بالنسبة للملك عبد الله فلإنه غير نهم مثل الأعداء العرب الآخرين مثل المصريين والسوريون مثلاً، فهو قد التزم بقرار التقسيم وبتوصية حلفائه الإنجليز، وصحيح كما يقول بن جوريون، إن الضفة الغربية (يهوذا والسامرة) تهم اليهود إلا أن المصريين والسوريين يمثلون في ذلك الوقت خطر أكبر على بقاء إسرائيل، مصر هي الدولة العربية الكبرى وإمكانياتها البشرية والمادية حتى ذلك الوقت هي الأكبر، وهزيمتها تعني الكثير لسلامة الدولة الصهيونية، وما أن توقع مصر اتفاقية هدنة مع إسرائيل حتى يأتي بعدها العرب الآخرين موقعين، من ناحية أخرى كانت هزيمة المصرين في النقب تجعل الملك عبد الله يخفف من مطالبه بتلك المنطقة فهو سريًا كان يفضل أخذ إسرائيل للنقب على أن يبقى مع مصر.

قامت إسرائيل في أكتوبر ١٩٤٨م بهجوم أول على تواجد المصريين في النقب واستطاعت أن تخلي معظمة من الجيش المصري، وفي الهجوم الإسرائيلي الثاني على النقب أيضًا استطاع الإسرائيليون إخراج المصريين من كل النقب، وأخرجوا الجيش العربي من منطقة صغيرة بالنقب أيضًا وأجبروه بأن يتراجع إلى الضفة الغربية، ثم راح الإسرائيليون يندفعون داخل صحراء سيناء المصرية.

يقول "كونر كروز أبريان" كان لدخول القوات الإسرائيلية في ديسمبر ١٩٤٨م إلى سيناء والتوغل فيها أثر كبير لدى البريطانيين، وعرضوا على الحكومة المصرية تطبيق المعاهدة البريطانية المصرية الموقَّعة سنة ١٩٣٦م للدفاع عن الأرض المصرية، لكن المصريين رفضوا وفضَّلوا توقيع هدنة بشروط إسرائيلية بإشراف

الوسيط الدولي "رالف بانش" على أن يكونوا مدانين للصداقة البريطانيـــة، وهـــم بذلك كانوا متأثرين بوقف بريطانيا شحن السلاح لهم، وقد أشرنا إلى قرار مجلس الأمن بهذا الخصوص وموقف الولايات المتحدة.



رالف بانش**Ralph Bunche**

كان لتواجد الجيش البريطاني في منطقة قناة السويس قد جعلهم يراقبون الموقف بطائرات الاستطلاع البريطانية على الحدود المصرية الإسرائيلية في المنطقة التي احتلتها إسرائيل في سيناء، استطاعت إسرائيل في تلك الأيـــام أن يكـــون لـــديها المقدرة على إسقاط خمس طائرات استطلاع بريطانية في يـــوم ٧ ينـــاير ســـنة ١٩٤٩م قبل أن توقع اتفاقية الهدنة مع مصر، وهو ما يُشير إلى المـــدى الـــذي كانت فيه القوات الإسرائيلية تتطور وتتسلح بسرعة في كل يوم بعتاد جديد.

لقد صدق حدس بن جوريون حينما وضع استراتيجيته على الـــتخلص أولاً مـــن المصريين وإجبارهم على توقيع هدنة مع إسرائيل وانتظار تسابق العرب الآخرين على توقيع هدنة أيضًا مع إسرائيل، فقد تم توقيع الهدنة مع مصر في ٢٤ فبراير ١٩٤٩م، ومع لبنان في ٢٣ مارس، ومع الأردن في ٣ أبريل، ومع سوريا فـــي

٢٠ يوليو من نفس العام، العراق فقط لم يوقع هدنة مع إسرائيل لأنه ليس دولة محاذية لإسرائيل، كانت حرب ١٩٤٨م نكبة بكل المقاييس في الضمير العربي.



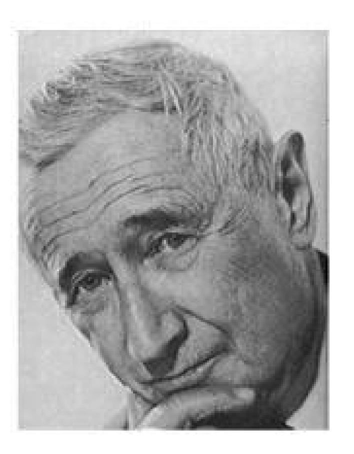
اطفال فلسطينيون طوحت بهم النكبة عام 1948م في مخيمات الشتات

ناحوم جولدمان Nahum Goldmann :

وُلِد "ناحوم جولدمان" في ليثوانيا ونشأ ودرس في ألمانيا حيث حصل على الدكتوراه في القانون، انضم إلى الشبيبة الصهيونية حينما كان عمره خمسة عشر عامًا، في ألمانيا انشأ دارًا للكتب العبرية، كان أحد أعضاء جماعة الصهاينة الريديكاليين، حضر جميع المؤتمرات الصهيونية منذ عام ١٩٢١م، ساهم في تأسيس المؤتمر اليهودي العالمي عام ١٩٣٦م بمباركة الزعيم الإيطالي موسيليني.

يعتبر ناحوم جولدمان ظاهرة فريدة في تاريخ الحركة الصهيونية مقارنة بالآخرين، لهذا سنسلط الضوء على هذه الشخصية الصهيونية الخطيرة التي خدمت الصهيونية دون أن يكون لها دور ملموس في سياسة الدولة اليهودية، حتى قيل عنه إنه لم يقم طويلاً في إسرائيل، فتركها واستقر في مدينة جنيف

بسويسرا وأصبح مواطنًا فيها فأصبح ولاءه مزدوجًا، فقال عنه غلاة الصـــهاينة، ناحوم جولدمان رئيس بلا دولة.



ناحوم جولدمان ١٨٩٤ – ١٩٨٢م

ناحوم جولدمان يُعتبر المنظر الأول للصهيونية العالمية، وهو المؤسس للمــؤتمر اليهودي العالمي الذي عمل على نهب فلسطين واغتصابها، جولدمان هو القائــل في كتبه ومذكراته، بإنه يصعب على المرء أن يسوق إسرائيل للعالم علــى أنهــا دولة محبة للسلام، كان جولدمان أحد دهاة منظري الصهيونية في عصره، وكان قد أدرك أن المشروع الصهيوني لاستيطان فلسطين مهدد بالفشل، حيث أن كثيرًا من اليهود كانوا مترددين في ركوب المغامرة والقدوم إلــى إســرائيل، وكــانوا يفضلون البقاء في الأوطان التي ولدوا فيها ونشأوا فيها، لهذا لم يتورع زعمــاء الصهيونية من أمثال جولدمان على مشاركة أعداء السامية في إثارة العداء ضــد اليهود في فترة معينة وافتعال الخراب والدمار للمصالح اليهودية، وإحداث بعض المجازر ضد اليهود لحثهم على طلب الهجرة إلى ما أطلقوا عليه أرض الميعــاد، كان جولدمان من الصهاينة الذين كانوا يقولون، إذا لم يوجد اضطهاد ضد اليهود في البلاد التي يقيمون فيها، فإن علينا أن نوجده لأجل أن يتوجهوا إلى فلسطين! لقد كان يحدث تحالفًا أحيانًا بين أعداء السامية وبــين المؤسســات الصــهيونية

كالمؤتمر اليهودي العالمي الذي كان يترأسه ناحوم جولدمان أو كما حدث مع الحكومات الفاشية في ألمانيا وإيطاليا.

في عام ١٩٢٣م التقى "حاييم وايزمان" رئيس المنظمة الصهيونية العالمية مع الزعيم الإيطالي، الدوتشي موسيليني، وفي الاجتماع وعد موسيليني حليف هتلر فيما بعد بأن يقدم مساعدات للهجرة اليهودية للإسراع في استيطان فلسطين، فقد وعد حينها موسيليني بمد المساعدة للحركة الصهيونية من أجل بناء أسطول بحري لنقل المهاجرين والمساعدات إلى فلسطين، ووعد بتدريب عدد من الطيارين اليهود، وفي لقاء موسيليني مع "ناحوم جولدمان" في ١٣ نوفمبر سنة ١٩٣٤م أكد مساندته للمشروع الصهيوني ووافق على تأسيس المؤتمر اليهودي العالمي.

وحينما وصل "أدولف هتلر" إلى قمة السلطة في ألمانيا إحدى قلاع الدول الأوروبية، تبادر للبعض بأن ذلك سيشعل نار المخاوف في نفوس قادة الحركة الصهيونية، وكان العكس هو ما حدث بالضبط، فقد استطاعت المؤسسات الصهيونية أن تُسيطر على يهود أوروبا بسبب تطرف النازية، ووجد وايزمان وجولدمان وغيرهما من زعماء الصهيونية فرصتهم للتعجيل في دفع عجلة الهجرة اليهودية إلى فلسطين، وليس هذا فحسب بل إن كثيرًا من زعماء الصهيونية كانت لهم علاقات مع هتلر مثل حاييم وايزمان قبل صعود الأول إلى قمة السلطة، وأن النازيين كانوا يُمولون من بيوت المال الصهيونية وهو ما ساعدهم كثيرًا في الوصول إلى السلطة، وقد ثبت بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية أن النازيين قد حصلوا في سنة ١٩٢٩م على مبلغ ١٠ ملايين دولار من البنك الصهيوني "مندلسون آند كامباني" بأمستردام، وفي عام ١٩٣١ حصلوا على مبلغ ١٥ مليون دولار، وفي عام ١٩٣٣م بعد أن أصبح هتلر مستشارًا لألمانيا، أرسل له الصهاينة مبلغ ١٢٦ مليون دولار، وقد أشار إلى هذا ناحوم جولدمان في مذكراته.

ترأس جولدمان المؤتمر اليهودي العالمي من سنة ١٩٥٣م لغاية ١٩٧٧م، وكان رئيسًا للمنظمة الصهيونية العالمية من عام ١٩٥٦م لغاية ١٩٦٨م، وأصبح مواطنًا في إسرائيل عام ١٩٦٤م، إلا أنه لم يكن له دور فعال في الحياة السياسية في إسرائيل، ومن أهم الإنجازات التي أضيفت إلى خدمته للصهيونية هو اتفاقية التعويضات الألمانية لليهود الذين خسروا ذويهم على يد النازية في معسكرات الاعتقال، هذا وقد دُفعت معظم التعويضات إلى دولة إسرائيل عدا ما دُفِع للأفراد، وقد أشار جولدمان إلى قيمة التعويضات التي دفعتها ألمانيا بما يقارب الأربعة بلايين دولار، وهي تعني الكثير في سنوات القرن العشرين.

الغريب في أمر ناحوم جولدمان أنه بعد فشله في انتخابات الرئاسة للمنظمة الصهيونية العالمية عام ١٩٦٨م، صار ينتقد الحكومة الإسرائيلية بشدة ثم انتقل للعيش في سويسرا كما أسلفنا، وفي سنة ١٩٦٩م حاول زيارة مصر، إلا أن جولدا مائير رئيسة وزراء إسرائيل آنذاك رفضت الفكرة، هذا وقيل عن جولدمان إنه قد طلب من الرئيس الأمريكي "جيمي كارتر" حينما كان الأخير في سدة الرئاسة الأمريكية بأن يحطم اللوبي الصهيوني الموالي لإسرائيل في الولايات المتحدة.

كانت تتنازع ناحوم جولدمان فلسفتان، الفلسفة الأولى الناحية القومية من شق الفكرة الصهيونية التي تحيل القضية اليهودية إلى أنها مقدسة، وأن اليهود هم مركز التاريخ البشري، ولن يستوي الأمر إلا بتحقيق هدفهم، وأن عودتهم إلى أرض الميعاد هي الحق وما يجب أن يكون، وأن الأغيار من الآخرين "ما هم إلا كالذين صلبوا المسيح صاحب الرسالة السمحاء، وحتى لو كان للفلسطينيين حق في فلسطين فإنه يجب ألا يقارن مع حق اليهود المقدس في أرض الميعاد".

في الشق الثاني (فلسفة جولدمان الثانية) يكمل الفلسفة الأولى برؤية أقل حلولية بمعنى أقل إضفاء على قدسية المشروع اليهودي الذي يعمل على احتلال فلسطين وفرض إسرائيل على أنها دولة الله على الأرض، يقول جولدمان في هذا، بإنه يؤمن أن الإله لا يتجسد في كل تعرجات ونتوءات التاريخ اليهودي ولا يتدخل

دائمًا فيه، وهو يعني أن هناك خيار واسع للإنسان يصيب فيه أو يخطي ولا يُعتبر الإله مسئولاً عنه، ولو فرضنا العكس أي أن الإله يتدخل في كل شيء فإن هذا الإله إذا كان مسئولاً عن انتصارات إسرائيل في الحرب على العرب فإنه أيضًا مسئول عن المذابح النازية لليهود، فأين القدسية هنا لشعب الله المختار، ويخلص جولدمان بفلسفته الصهيونية الوسطية بما معناه، أن الإله منزَّه عن الطبيعة والتاريخ، لذلك فإن الإنسان مُخيَّر وليس مُسيرًا.

تقول الموسوعة المعرفية الشاملة، ولأن جولدمان قادر على رؤية التاريخ اليهودي بهذه الطريقة، فإنه قادر على تقييمه وعلى التهكم على الرؤية المشيخانية الميلودرامية، فهو يعقد مقارنة بين الإنجليز واليهود فيقول: "في القرن الماضي فقَد الإنجليز إمبراطوريتهم ولكنهم تخطوا أحزانهم، أما اليهود فقد فقَدوا الهيكل منذ ألفي عام ولم يَكفُّوا عن النواح عليه منذ ذلك الوقت بل خصصوا يومًا للنواح، لو فقَد اليهود إمبراطوريتهم لصاموا يومًا من كل أسبوع"، أي أنه يرى أن المركزية التي يخلعها اليهود على أنفسهم أو تخلعها الحلولية اليهودية عليهم ترهقهم تمامًا وتُفقدهم إنسانيتهم وتضع على كاهلهم عبئًا ثقيلاً.

وما دام الأمر هكذا بمعنى أن التاريخ ليس موضع حلول (تقديس)، وإنما هو مجال عريض لحرية الإنسان، فلا حتمية للصراع اليهودي مع الفلسطينيين، وأن فلسطين ليست أرض بلا شعب كما يدعي الصهاينة الحلوليين القوميين، وأن معاداة اليهود ليست أبدية، وأن كل اليهود لا يتمتعون برابط مقدس فيما بينهم أو بينهم وبين إسرائيل.

وإذا كان التاريخ ليس موضع التقديس الإلهي وإنما مجال لحرية الإنسان، فلا حتميات إذن، لا حتمية في الصراع العربي الإسرائيلي، والأرض الفلسطينية ليست أرضًا بلا شعب كما ادعى من ادعى من الصهاينة، لقد استطاع جولدمان برؤيته الفلسفية الإنسانية أو التوطينية، بأن يعطي معنى مغاير لمن يسبغون على المشروع الصهيوني ثوب القداسة، أصبح مَن يهودي يشعر بالولاء تجاه البلد

الذي يعيش فيه، ومن حقه أيضًا أن يشعر بالولاء تجاه إسرائيل بدون أن يشعر بأي تناقض.

جولدمان في الحقيقة برؤيته هذه، كان قد حرر يهود العالم من عبء الرؤية التقديسية لأرض إسرائيل، وجولدمان بهذا جعل إسرائيل محصورة في دائرة القداسة، وأما ولاء اليهودي لها فلا يعدو عن ولاء ديني أو كما ترمز الأماكن المقدسة للأديان الأخرى بالنسبة لمعتنقيها المقيمين في مختلف البلاد والأمصار، وبنفس الطريقة فإن ولاء اليهودي لليهودية هو ولاء سياسي تاريخي فقط، لهذا صار جولدمان يعطي ولاءه لجنيف العلمانية وللقدس الحلولية (المقدسة)، وهو بهذا يرى ليس من الضروري أن يُقيم جميع اليهود في إسرائيل، ووجد جولدمان أن عودة اليهود إلى فلسطين ليست حتمية أو ضرورية أو محببة، ويمكن لليهودي أن يظل في وطنه الأصلي أين كانت ولادته وأن يحتفظ بحقوق المواطنة ويدافع عن حقوقه فيها، ولا يصح للمستوطن اليهودي في إسرائيل أن ينتقد اليهودي الذي لا يُقيم في إسرائيل أو يضغط عليه للهجرة إلى فلسطين.

إلا أن ناحوم جولدمان ذهب في رؤيته إلى أبعد من ذلك في تفسيره لفلسفة الولاء، فقال إنه ليس من الضرورة نشر الدعاية بين اليهود السوفييت لتشجيعهم على الهجرة إلى إسرائيل، بل يجب النضال من أجل تحسين أوضاعهم وتمتعهم بحقوق المواطنة الكاملة في وطنهم، ويجب أن يكون ولاء اليهود أولاً لأوطانهم وتكون العلاقة مع إسرائيل في المرتبة الثانية، وعلى المنظمة الصهيونية العالمية الحفاظ على مصالح اليهود أينما كانوا، سواء في إسرائيل أو في بلدانهم.

يرى جولدمان أن تكون إسرائيل بمثابة المركز الروحي بالنسبة لليهود وليس أكثر، بحيث تولد فيها الأفكار الجديدة المتجددة، وتكون مصدر إلهام للشعب اليهودي المشتت، ويُشكّل تَضامُن يهود العالم مع إسرائيل، أو المركز الروحي، جزءًا أساسيًا في حياة كل منهما، فإذا كان وجود يهود العالم مستحيلاً بدون الدولة فوجود الدولة الصغيرة مستحيل بدون الدياسبورا، أي أن هناك مركزين لليهودية.. إسرائيل ويهود العالم.

ومما يجدر ذكره، أن جولدمان لاحظ أن إسرائيل تعتمد بصفة عامة على الغـرب الرأسمالي مع أنه كان يرى أن على إسرائيل أن تتعامل مع الواقع العربي المحيط بها، خصوصًا تطلعات الحركة الوطنية الفلسطينية لأهل البلاد، ويـرى أيضًـا أن الزمن لا يعمل لصالح إسرائيل في المنطقة، لأن الانتصارات الإسـرائيلية علـى العرب لم تنجح حتى الآن في حسم المسألة، وبناء على هذا المنطـق كـان رأي جولدمان أن تعترف إسرائيل بمنظمة التحرير الفلسطينية ولكن بشروط إسرائيلية! وأن تعمل من أجل السلام، وأن تسرع الخطى حتى تكون مقبولة فـي المنطقـة، وأن تتبع الحياد في النزاعات الإقليمية والدولية، يرى جولدمان أن حياد إسرائيل سيتيح لها أن تمثل وجهي الصهيونية الوجه المقدس والوجه الإنساني، فإسرائيل المحايدة ستعطي معنى إيجابي للآخرين، لما عاناه اليهود على مدى ألـف عـام، وحيادها أيضًا سيخلق تعاونًا مع بحر العرب المحيط بها، وأما التبرير السياسـي لحياد إسرائيل من وجهة نظر جولدمان أيضًا، فلأن اليهود في إسرائيل لا يُمثلون أكثر من عشرين بالمائة من يهود العالم، وليس من المتوقـع أن يـأتي جميـع اليهود إلى إسرائيل خلال العقود القليلة القادمة، فبدون تضامن يهود العـالم مـا كان لإسرائيل أن تقوم أو تستمر حتى هذا الوقت، وكان يرى جولدمان أيضًـا، أن حياد إسرائيل الذي يراه هو لو استمع إليه أصحاب القرار فـي الدولـة العبريـة سيوفر ليهود العالم مركزًا ثقافيًا وأخلاقيًا ودولة ليس لها مشاكل مـع الآخـرين، وسيرفع يهود العالم عن كاهلهم تهمة الولاء المزدوج التـي تـؤرقهم، وتجعـل الآخرين ينظرون إليهم بريبة دائمًا.

يرى جولدمان أيضًا وهو يعمل على تلميع فلسفته بالنسبة لتفضيله حياد إسرائيل، فيرى لو أنها كانت كذلك وحلت مشاكلها مع العالم العربي، فإنها لن تبق مرتهنـة بالمصالح الغربية، وحينها سيقبلها العالم العربي كأمر واقع على نحو أسـهل، إلا أن جولدمان بتلك الرؤى والفلسفة، إنما ينسى أو يتجاهل بأن إسـرائيل أقيمـت على أملاك الغير، وهو في فلسفته التي قدمها كحل عملي يمكن أن يكون مقبـولاً عند العرب، وربما افترض أن ينسى العرب موضوع سـلب الأرض الفلسـطينية،

وأن يقبلوا التعامل مع إسرائيل الموجودة كأمر واقع، أو كأنه يقول نحن اليهـود وأنتم أيها العرب كنا نغط في النوم، وها نحن قد صحونا وفتحنا أعيننا ودعونـا نضع أيدينا بأيدي بعضنا ونسير معًا إلى الغد، ناحوم جولـدمان لا يختلـف فـي تصور نتائج فلسفته لو تحققت على أرض الواقع عن رؤية "جولدا مائير"، التـي ظلت حتى عام ١٩٦٩م تنكر وجود شعب اسمه الشعب الفلسطيني، كانت تقول "لا يوجد شعب فلسطيني.. أين هو الشعب الفلسطيني".

قبل موت ناحوم جولدمان بثلاث أعوام، نشر إعلانًا في صحيفة ألمانية، دعى فيه إلى اعتراف متبادل بين إسرائيل والفلسطينيين، وكان قد صدر له كتاب تحت اسم "إلى أين تمضي إسرائيل"، قال "إن من أهم نتائج حـرب أكتـوبر الـذي حققـه المصريون، إن تلك الحرب قد وضعت حدًا لأسطورة جيش إسرائيل الذي لا يقهر، وكان لتلك الحرب آثارًا نفسية على الإسرائيليين أنهت ثقتهم في تفـوقهم الـدائم على العرب".

كثيرًا ما انتقد ناحوم جولدمان الحاخامات والمتطرفين في إسرائيل الذين يحاولون التأثير في سياسة الدولة العبرية، كان يقول لهم متهكمًا، "من الناحيـة الدينيـة، حددتم لنا ما ينبغي عمله حتى قبل الدخول إلى الحمام، فاتركوا لنا مجالاً صـغيرًا للمناورة في الأمور السياسية"، فما كان من "شيمون بيريز" إلا أن التقط الفكـرة، وفي مؤتمر مدريد الشهير سنة ١٩٩١م الذي ضم ممثلين عن العرب والإسرائيليين برعاية أمريكا، دعى فيه إلى شرق أوسط جديد بزعامة إسرائيل، وصدر له كتاب "الشرق الأوسط الجديد" تحدث فيه طويلاً عن الاسـتقرار ومنـافع السـلام مـع إسرائيل لأهل المنطقة، كما أن إدارة جورج بوش الابن الرئيس الأمريكي، أيضًـا التقط فكرة جولدمان ودعا إلى شرق أوسط جديد، وبذلك نجحت إسـرائيل ولـو لفترة أن تُخفي دورها الحقيقي.

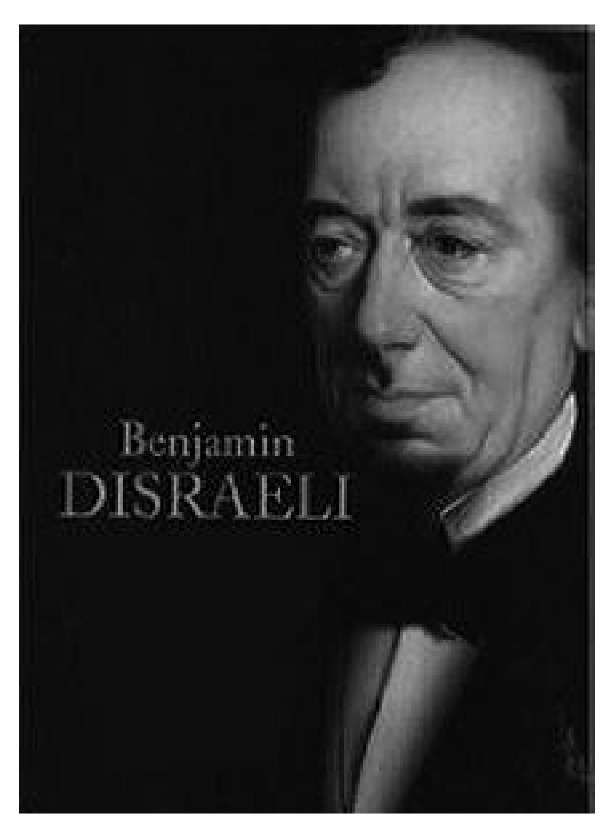
وعندما يتحدث الصهاينة عن جولدمان يقولون إنه "رئيس بـلا دولـة"، بسـبب وجوده في الخارج، أما المتدينون اليهود فإنهم يطلقون عليه "ريش جالوتـا" أي "رأي المنفى"، وهو الاسم الذي يطلقونه على رؤساء طوائفهم الـذين وضـعوا،

خلال المنفى البابلي في القرن السادس قبل الميلاد، قواعد بقاء اليهود رغم شتاتهم.

إن حقيقة ناحوم جولدمان في نظر المتطرفين اليهود، بأنه يمثل إمكانية تعايش المظهر والجوهر المتناقضين، كما في حالة الفيلسوف "ابن ميمون" الذي حقق شهرة في الأندلس وبقي يهوديًا حتى النخاع، ومثل "دزرائيلي" رئيس وزراء بريطانيا الذي ساهم في بناء الإمبراطورية البريطانية وظل يهوديًا وفيًا، ومثل الدكتور "هنري كسينجر" الذي وضع قوة أمريكا في يد إسرائيل وبقي يهوديًا وفيًا لوطنه أمريكا، قال جولدمان عن نفسه: "لقد وصفني أحد كبار الصحافيين الأمريكيين بإنني أحد زعماء الاستيطان في فلسطين، وبأنني أحد قادة المعارضة لهذا الاستيطان في الوقت نفسه".

وبالمناسبة يُعتبر "بنجامين دزرائيلي" أول رئيس وزراء بريطاني يهودي، عمل الكثير للإمبراطورية البريطانية، كان ديمقراطيًا وبرلمانيًا مفوهًا، وقد صدرت أكثر الكتب عن سيرته وتأثيره في السياسة البريطانية أكثر من أي زعيم آخر، قبل ظهور "ونستون تشرشل" على مسرح السياسة البريطانية، كان دزرائيلي شاملاً يعرف القديم والجديد وكان ابن عصره، وفي هذا كان يشبه السياسية المخضرمة "مرجريت تاتشر" رئيسة الوزارة البريطانية في تسعينات القرن الماضي التي كان يطلق عليها، المرأة الحديدية.

كان دزرائيلي رئيسًا لوزراء بريطانيا عام ١٨٦٨م إبان فترته الأولى، وكان حاسمًا إلا أنه لم يصنع الكثير لبريطانيا في تلك الفترة لقِصَر المدة، الفترة الثانية التي ترأس فيها الوزارة كانت من عام ١٨٧٤م لغاية ١٨٨٠م، برهن فيها دوره القيادي، في عهده امتد نفوذ بريطانيا إلى قناة السويس في مصر وحتى الهند، اهتم بالسياسة الخارجية واهتم بإبقاء مركزًا مميزًا لبريطانيا في أوروبا، ومما يُحسب له أن في عهده تم العمل على تطوير مبادىء حزب المحافظين، وذلك بسن القوانين والتعديلات.



بنيامين دزرائيلي ١٨٠٤ – ١٨٨١ م

في مؤتمر برلين عام ١٨٧٨م لعب دزرائيلي دورًا هامًا في إيقاف النفوذ الروسي في البلقان، وأبقى دور بريطانيا فاعلاً، في إحدى رواياتـــه اقتــرب مــن علاقـــة المسيحية واليهودية فقال إن المسيحية هي خاتمة اليهودية، ورغم أن هــذا لــم يعجب الكثيرين إلا أنه أصر على رأيه وصمد أمام العواصف من كل الاتجاهــات، وأما في الحقيقة، فقد كان دزرائيلي أكثر من أي سياسي آخر شغل الــرأي العــام البريطاني في عصره قبل وجود "ونستون تشرشل".

بنجامين دزرائيلي هو ابن "اسحق دزرائيلي"، الذي كان كاتبًا ومؤرخًــا ومعجبًــا بــ"موسيس مندلسون"، بنجامين دزرائيلي يعود في نسبه إلى أنه يهودي إيطالي، كان اسحق والد بنجامين على خلاف مع الكنيس السفاردي، وقــد عمَّــد أبنـــاءه بالكنيسة الإنجيلية حينما كان بنجامين في الثالثة عشرة من عمره، فكانت نشــأته

مسيحية، وبدون هذا لم يكن ليصبح بنجامين عضوًا في البرلمان عام ١٨٣٧م أو رئيس وزراء فيما بعد، عام ١٨٣٠م قام مع خطيب أخته وليم ميرديفا برحلة بحرية حول البحر الأبيض المتوسط استغرقت ستة عشر شهرًا، تركت تلك الرحلة انطباعًا كبيرًا في نفسه، في القدس عرف العلاقة بين يهوديته والمسيحية، وبدا هذا في روايته التي صدرت عام ١٨٣٣م.

اللوبي المسيحي الصهيوني :

لا بد من الإشارة إلى اللوبي الصهيوني واللوبي المسيحي الصهيوني خصوصًا أن كلاهما وجدا في الولايات المتحدة الأمريكية، لهذا يمكن القول وببساطة بإن اللوبي المسيحي الصهيوني استطاع منذ ما قبل حكم الرئيس الأمريكي "رونالد ريجان" بقليل، استطاع أن ينتزع من صنوة اللوبي اليهودي الزعامة في الولايات المتحدة الأمريكية، ذلك بسبب اتساع الدائرة الانتخابية التي يمثلها عشرات الملايين من المسيحيين الأصوليين، الذين يأخذون بالتفسير الحرفي لما ذكرته التوراة، هذا وإن معظم نواب الحزب الجمهوري في الكونجرس الأمريكي هم من هؤلاء المسيحيين الأصوليين المتصهينيين، لكن التوافق بين المسيحية الصهيونية في أمريكا واللوبي اليهودي ما كان ليتم لولا أن عاملي الثقافة الدينية والسياسية قد جمعتا هؤلاء بهؤلاء، الثقافة الدينية التي يمثلها اللوبي المسيحي الصهيوني التي تأخذ بقوانين شريعة موسى كما وردت في التوراة، والثقافة العلمانية الصهيونية التي تتخذ أحيانًا من الدين شعارًا أو ستارًا تفاديًا للنقد من قبل المتدينين اليهود إذا ما استوجب وذلك لتحقيق الهدف الاقتصادي التي تمثله في الأصل مجموعة الاحتكارات العالمية التي تسمى بإسرائيل.

كان للحروب المذهبية بين الكاثوليك والبروتستانت أثر ما جعل الكثير من البروتستانت يهاجرون جماعات إلى أمريكا الشمالية، وذلك كون الكاثوليك من الأسبان والبرتغاليين قد سبقوهم إلى أمريكا الجنوبية، في أمريكا استطاع المهاجرون البروتستانت أن يعبِّروا عن ثقافتهم الدينية التوراتية بكل حرية،

وشبَّهوا خروجهم من أوروبا إلى أمريكا كخروج اليهود أيام موسى عليه السلام من مصر إلى فلسطين، ونظروا إلى أمريكا باعتبارها بلاد كنعان الجديدة، واعتبروا الهنود الحمر سكان أمريكا الأصليين – على أنهم الكنعانيون العرب سكان فلسطين الأصليين، كانت التوراة المحرَّفة تذكرهم بمجازر اليهود للكنعانيين، لذلك لم يتورعوا أن يفعلوا نفس الشيء للهنود الحمر، أكثر من هذا فقد كان المهاجرون البروتستانت الأوائل يؤدون صلواتهم باللغة العبرية، وكانوا يسمون أبنائهم وبناتهم بأسماء أنبياء وأبناء وبنات بني إسرائيل، الذين ذكروا في التوراة، وأدخلوا اللغة العبرية في مدارسهم.

يمكن القول بإن اللوبي المسيحي الصهيوني وُجِدَ منذ أن وطأت أقدام المهاجرين الأوربيين الأوائل من البروتستانت أرض القارة الجديدة، حيث أطلقوا عليها أورشليم، مُشبِّهين أنفسهم بالعبرانيين القدماء الذين وطأوا أرض كنعان مع سيدنا إبراهيم، لهذا فقد دخل في عمق الثقافة السياسية الأمريكية، أن اليهود هم شعب الله المختار كما قال "مارتن لوثر" صاحب كتاب "المسيح ولد يهوديًا"، كما أن هؤلاء يعتقدون بأن اليهود هم الشعب المفضل عند الرب ولا بد أن يؤمنوا بأن هناك ميثاقًا إلهيًا يربط ما بين اليهود وبين فلسطين ولكي تتحقق نبوءة عودة المسيح لا بد أن يجتمع اليهود في فلسطين.

لهذا ونتيجة لشيوع الأصولية المسيحية عند المهاجرين الأوائل، كان أول كتاب صدر في العالم الجديد "سفر المزامير"، وكانت أول مجلة صدرت هناك "اليهودي"، وأول درجة دكتوراة منحتها جامعة أمريكية كانت من جامعة "هارفارد" الشهيرة سنة ١٨٤٢م وكان موضوع البحث "العبرية لغة الأم"، منذ ذلك الحين راح يتشكل اليمين الأصولي أو الصهيوني في العالم الجديد.

لهذا لم يتوان بعد ذلك الرئيس الأمريكي ويلسون بالموافقة على وعد بلفور عام ١٩١٧م، حيث رأى ما معناه بعبارته الشهيرة أن من العدل أن تعود البلاد إلى أهلها، والمقصود هنا فلسطين إلى اليهود، أيضًا بعد أن أعلن بن جوريون استقلال دولة إسرائيل اعترفت بها الولايات المتحدة فورًا وكان ذلك في عهد

الرئيس "هاري ترومان"، إلا أن حرب عام ١٩٦٧م التي تم فيها احتلال إســرائيل للقدس، كان لها دويًا هائلاً بين اليمين المسيحي حيث أعطى ذلك زخمًا للأصولية المسيحية فازداد نفوذها وراح يؤثر في مراكز الاقتراع بعد ذلك، حتى أن الرئيس "جيمي كارتر" لوَّن حملته الانتخابية بعبارة، "إنني مسيحي ولد ثانية" وظل يكررها طيلة حملته الانتخابية حتى فاز برئاسة الولايات المتحدة الأمريكيــة، هــذا عــدا الاهتمام الأمريكي الدائم بمساندة إسرائيل، كون وجودها حليف للولايات المتحــدة الأمريكية في منطقة الشرق الأوسط، فهي تخدم بأشكال كثيرة المصالح السياسية والاستراتيجية والاقتصادية للولايات المتحدة، وهنا تطابقــت مصـــالح وسياســة الولايات المتحدة الأمريكية ليس فقط مع إسرائيل كحليف استراتيجي بــل أصــبح وجود إسرائيل عزيزة فوق كل الاعتبارات، يمكن للولايات المتحدة ألا تتردد فـــي الوقوف إلى جانبها ظالمة أو مظلومة في أي وقت.

لا شك بأن وصول "رونالد ريجان" إلى السلطة بمساعدة الأصولية المسيحية قــد زاد من هوس اليمين المتصهين مما جعل ريجان يركب الموجة، وفي يــوم مــن الأيام هدد بحرب ذرية عالمية لو حاول العرب أو الاتحاد السوفييتي غزو إسرائيل (صحيفة أمريكية).

موشيه شاريت Moshe Sharett :

ولد "موشيه شيرتوك" الذي غيَّر اسمه بعد ذلك إلى الاسم العبــري شــاريت فـــي أوكرانيا بروسيا عام ١٨٩٤م، وهاجر مع عائلته إلـــى فلســطين عــام ١٩٠٨م، واستقر في قرية عين سينيا بين نابلس والقدس، وفي تلك البيئة العربيـــة تعلــم موشيه اللغة العربية ودرس اللغة العبرية، وانتقلت عائلتــه فـــي عــام ١٩١٠م للعيش في مستوطنة (بيت أهوزت) داخل حيفا التي أصبحت فيما بعد النواة الأولى لمدينة تل أبيب.



موشيه شاريت ١٨٩٤ – ١٩٦٥ م

كان موشيه شاريت أول وزير خارجية ورئيس الوزراء الثاني لدولة الكيان الصهيوني، فقد قدَّم جهودًا كبيرة وبخاصة في تدعيم العلاقات والروابط السياسية والاقتصادية مع بريطانيا وساهم في تأسيس قواعد الدبلوماسية الإسرائيلية حينما اختير أول وزير خارجية لها عام ١٩٤٩م، غير أن أهم إنجازاته هو إعادة تنظيم الوكالة اليهودية والمنظمة الصهيونية العالمية التي اختير رئيسًا لها عام ١٩٦٠م.

مناحم بيجين Menachem Begin :

ولد مناحم بيجين عام ١٩١٣م في مدينة بريست لتوفيسك في روسيا، وبعد أن أكمل تعليمه الأول سافر إلى بولندا والتحق بجامعة وارسو؛ حيث حصل فيها على شهادة عليا في الحقوق، كان عضوًا نشطًا في الحركة الصهيونية، وأصبح رئيسًا لحركة "بيتار" الصهيونية عام ١٩٣٩م التي كانت تسعى لإقامة دولة على ضفتي نهر الأردن.



مناحيم بيجن ١٩١٣ – ١٩٩٢م

عندما غزا الألمان وارسو عام ١٩٣٩م فرَّ بيجن من بولندا، ومات والداه وأخوه في معسكرات الاعتقال، قبضت عليه السلطات السوفييتية وأرسلته إلى سيبيريا عام ١٩٤٠م، وفي عام ١٩٤١م أطلق سراحه، وانضم إلى الجيش البولندي في المنفى، ثم رحل إلى فلسطين عام ١٩٤٢م، وتزعم بيجين عصابة الأراجون، وشارك في عملية اغتيال الوسيط الدولي للأمم المتحدة الكونت "فولك برنادوت" حيث تم تنفيذ العملية في يوم ٩ أبريل عام ١٩٤٨م، بتعاون عصابته (الأراجون) مع عصابات الهاجاناه، وذلك بسبب اقتراح برنادوت وضع حد للهجرة اليهودية ووضع القدس بأكملها تحت السيادة الفلسطينية.

انضم إلى منظمة "أراجون تسافي ليؤمي" المتطرفة ثم أصبح زعيمها من ١٩٤٣م لغاية ١٩٤٨م، مارست منظمة أراجون القتل ضد الفلسطينيين والبريطانيين في فلسطين، ونفذت مجزرتي "دير ياسين" و"بئر السبع" حيث قتل فيهما من الفلسطينيين أطفال ونساء وشيوخ.

بعد قيام إسرائيل أسس بيجن حزب "حيروت" وأصبح عضوًا في الكنيست الإسرائيلي وتزعم المعارضة فيه حتى عام ١٩٦٧م، حين انضم إلى حكومة الوحدة الوطنية وأصبح وزيرًا بلا حقيبة وزارية حتى عام ١٩٧٠م، حين انسحب وحزبه من الوزارة نتيجة لقبول حكومة "جولدا مائير" لمشروع السلام الذي قدمه وزير الخارجية الأمريكي "روبرت روجرز"، للانسحاب من الأراضي العربية المحتلة في كل من سيناء والجولان والضفة وغزة عام ١٩٦٧م.

عام ١٩٧٠م انضم بيجن إلى ائتلاف الليكود، وفي ١٧ مايو ١٩٧٧م فاز حزب الليكود بزعامة بيجن في الانتخابات، وفي ٢١ يونيه من نفس العام شكل بيجن الحكومة، عُرِف عنه أنه لا يقبل المساومات خاصة بقضية الأراضي المحتلة، لكنه أجرى مفاوضات السلام مع الرئيس المصري "أنور السادات" أدت إلى توقيع اتفاقية كامب ديفيد عام ١٩٧٩م تحت رعاية الرئيس الأمريكي "جيمي كارتر"، اشتملت الاتفاقية على انسحاب إسرائيل من شبه جزيرة صحراء سيناء المصرية، وكان ذلك على مراحل.



محمد أنور السادات ١٩١٨ – ١٩٨١ م

أثناء تولي مناحيم بيجن رئاسة الوزارة الإسرائيلية أعطى الضوء الأخضر للجيش الإسرائيلي في يونيه ١٩٨٢م بغزو لبنان للقضاء على المقاومة الفلسطينية في لبنان، وحدثت مجزرة للمدنيين الفلسطينيين لن تُنسى في التاريخ في معسكري "صبرا وشتيلا" للاجئين الفلسطينيين، هزت الضمير الإنساني وفضحت لا إنسانية إسرائيل ضد العرب، كان من تداعيات المجزرة ضد الفلسطينيين أن استقال مناحيم بيجن من رئاسة الوزارة عام ١٩٨٣م.

عام ١٩٨١م لم يتردد بيجن في إعطاء الأوامر بقصف المفاعل الذري العراقي وتدميره، حينها شجب العالم ما قامت به إسرائيل في العراق في ذلك الوقت، وبعد ذلك تغير الشجب في الغرب إلى مدح حينما اصطدم الأمريكان بنظام الرئيس "صدام حسين" في العراق.

كرئيس للوزراء ظلَّ مناحيم بيجن ينظر إلى الضفة الغربية على أنها يهوذا والسامرة التي ذُكِرت في العهد القديم، وكان يُشجع بناء المستوطنات فيها، رغم معارضة الكثيرين من بعض الأحزاب الإسرائيلية وشجب الأمم المتحدة، لكنه كان يقول إنه لا يعبأ برأي أحد، فإسرائيل موجودة الآن وهذا هو المهم عنده.

من إنجازات عهد مناحيم بيجن لإسرائيل، أنه عمل على ضم هضبة الجولان السورية إلى إسرائيل، التي احتلت في حرب عام ١٩٦٧م، كما عمل بيجن على تحويل وحدة النقد الإسرائيلية من الليرة إلى الشيكل الذي كان يستعمل قديمًا عند اليهود، وتحت ظل حكومته أيضًا أعلن الكنيست الإسرائيلي، بأن القدس موحدة وعاصمة أبدية لإسرائيل.

يقول محبو مناحيم بيجن أن لولا شجاعته وإيمانه بما كان يعتقد ويُعلن، وجرأته حينما تفاوض مع مصر وحقق اتفاقية كامب ديفيد الشهيرة بين مصر وإسرائيل، لولا ذلك لما تجرأ "اسحق رابين" و"شمعون بيريز" على الجلوس مع ياسر عرفات رئيس منظمة التحرير الفلسطينية وتوقيع اتفاق أسلو عام ١٩٩٣م.

بعد أن توفت زوجة مناحيم بيجن، استقال من رئاسة الوزارة، ثم اعتزل الحياة السياسية، بعد ذلك تدهورت حالته الصحية وأصيب بالاكتئاب، وعاش بقية حياته منعزلاً في شقته حتى وفاته في تل أبيب في ٩ مارس ١٩٩٢م.

جولدا مائير Golda Meir :

وُلدت جولدا مابوفيتز في مدينة كييف بأوكرانيا، وهاجرت مع عائلتها إلى الولايات المتحدة الأمريكية عام ١٩٠٦م، تخرجت من كلية المعلمين وقامت بالعمل في سلك التدريس وانضمَّت إلى منظمة العمل الصهيونية عام ١٩١٥م، ومن ثمَّ قامت بالهجرة مرَّة أخرى ولكن هذه المرَّة إلى فلسطين وبصحبة زوجها في عام ١٩٢١م، سكنت مدينة تل أبيب وعملت في مختلف المهن بين اتحاد التجارة ومكتب الخدمة المدنية قبل أن يتم انتخابها في الكنيست الإسرائيلي في عام ١٩٤٩م.



جولدا مائير ١٨٩٨ - ١٩٧٨م

عملت جولدا مائير كوزيرة للعمل وكوزيرة للخارجية في أكثر من تشكيل حكومي ثم أصبحت رئيسة للوزراء، ماتت جولدا مائير سنة ١٩٧٨م، ودفنت في مدينة القدس، وكان يطلق عليها الغربيون أم إسرائيل الحديثة.

تقول "جولدا مائير" في مذكراتها :

"أما بالنسبة للفكرة القائلة إن اليهود هم شعب الله المختار، فلم أكن يومًا من محبذي هذه الفكرة، إذ كنت أؤمن وما زلت بشكل منطقي أن ليس الله هو الذي اختار الشعب اليهودي، وهم الشعب الأول في التاريخ الذي قام بشيء حقيقي نحو الله، وهذا ما يجعلهم الشعب الفريد".

لا شك بأن جولدا مائير هي من مؤسسي دولة إسرائيل، وأحد رموز الحركة السياسية التي ساهمت كثيرًا في إنشاء إسرائيل تحت شعارات النبوءات الدينية المُحرَّفة التي تنص على أن اليهود هم شعب الله المختار، وأن فلسطين هي أرض الميعاد، لأن الله قد وعدهم بها، إن إشارتها في مذكراتها إلى هذه الناحية وهي تعي ما تقول، يؤكد أن إسرائيل لا تقوم على قاعدة دينية حتى بقناعة زعماء الصهيونية أنفسهم، وأن الصهاينة كل ما فعلوه هو أنهم سرقوا وطنًا من الآخرين بمساعدة اللعبة التي مارستها الدول العظمى.

من ناحية أخرى، إن الصهيونية لم تغفل كيف تستفيد من علاقاتها بالزعماء العرب، فقد كان الصهاينة يعملون كخلية نحل واحدة من أجل الوصول إلى هدفهم، صحيح أن الخلافات كانت حادة بينهم أحيانًا أو بين التيارات الصهيونية التي كانت تتنافس من أجل تحقيق حلمهم، لكنهم جميعًا كانوا يعملون كخلية واحدة ولكن لكل واحد منهم دور ومهمة ما، كان من ضمن ما نشطت به المنظمات اليهودية، الاتصال والتفاوض مع الزعماء والحكومات العربية أيضًا، سواء عن طريق مباشر أو بطرق غير مباشرة، وإن مثل تلك اللقاءات قد تعددت مع الدول العربية أو مع زعيم هذه الدولة العربية أو تلك.

وهنا لا بد من الإشارة والإنصاف، بأن الزعماء العرب الذين التقوا بزعماء اليهود على مدى تاريخ القضية الفلسطينية، لم يكن هدفهم سوى مصالحهم الشخصية والحفاظ على ملكياتهم باعتبار أن الدولة التي يحكمونها هي إرثهم، ومن ثمَّ هم كانوا يخدمون أنفسهم لكي يحافظوا على ما يملكون من جغرافيا

وبشر من رعيتهم، وبعد ذلك لا شيء! وأما وصمهم بالخيانة فهذا يعتمد على نية من يتهم ومن توجه إليه التهمة.

وهنا نظن بأن القناعات لا تتطابق بين المتهم وبين من توجه إليه التهمة، فالأول هو الإنسان العادي الذي ما زال يرى بأن المنطقة العربية تمثل جسدًا واحدًا، وأن أي تعاون مع الأعداء على حساب أي قطعة أو شعب من الوطن العربي هو خيانة، وأما الثاني فلا يعتبر نفسه خائنًا من منظوره الخاص فهو يرى نفسه مناضلاً وجادًا، لأنه يحافظ على حماية بلده في ظروف بحرها هادر وأمواجها عاتية وليس له نصير! وكل هذه التعابير أو المبررات لا ترقى إلى تبرأة من لم يأخذ في الحسبان المصلحة القومية العليا في كل ما له علاقة بفلسطين أو بغيرها من الأقاليم العربية حينما تتعرض إحداها للأخطار.

وهنا تحكي جولدا مائير في مذكراتها عن إحدى لقاءاتها التي تمت مع الملك عبد الله ملك الأردن في مدينة عمان قُبيل إعلان دولة إسرائيل بأيام قليلة:
"كانت المرة الأولى التي قابلت فيها عبد الله في أوائل تشرين الثاني نوفمبر عام ١٩٤٧م، بعد أن وافق على مقابلتي بصفتي رئيسة للقسم السياسي في الوكالة اليهودية في بيت في (نهارين)، حيث كانت شركة الكهرباء الفلسطينية تدير محطة توليد الطاقة بالماء، أتيت إلى نهارين بواسطة أحد المختصين بشئون العرب واسمه الياهو ساسون، بعد تناولنا قهوة الاستقبال العادية، بدأنا بالحديث، كان عبد الله رجلاً متزنًا وجذابًا يُتقن فن التخاطب، ويحب الدخول في صلب الموضوع، فقال "لن نشترك في أي هجوم عربي ضدكم، سنبقى دائمًا أصدقاء"، كان مثلنا يريد السلام أكثر من أي شخص آخر، وكان عدونا المشترك هو مفتي القدس "الحاج أمين الحسيني"، ولم يكتف بذلك بل اقترح أن نجتمع مرة ثانية بعد عرض القضية والتصويت عليها في الأمم المتحدة".

وتُكمل جولدا مائير في مذكراتها عن لقاء الملك عبد الله:
كان عزرا دائين واحدًا آخر من المختصين بأمور العرب ومن الذين التقى بعبد الله من قبل، وقد أفادني بمفهوم الملك العام عن دور اليهود: "لقد كانت العناية الإلهية

هي التي نشرت اليهود في العالم الغربي حتى يستوعبوا الثقافة الغربية وينقلوها إلى دول الشرق الأوسط معهم، وهكذا يعملون على تنشيط وإحياء المنطقة" مهما يكن، فقد قال – وانين – إن الملك عبد الله مخلص في صداقته ولكن لا تتكلوا عليه بالضرورة.

خلال شهر يناير كانون الثاني، وشباط فبراير حافظنا على اتصالنا بعبد الله كقاعدة من خلال الرسائل المتبادلة فيما بيننا، ومرت الأسابيع وأصبحت رسائلي إليه تحمل الكثير من القلق والشكوك، فقد كان الجو مشبعًا بشائعات التخمين والحدس، وصلتني تقارير تقول إنه بالرغم من تعهده ومعاهدته معنا فقد ثبت أنه سينضم إلى عصبة الأمم فيما تقرره، سألته هل هذا حقيقي؟ كان الجواب من عمان بالنفي والإنكار، لقد استغرب الملك عبد الله واغتاظ من سؤالي هذا، وطلب مني أن أتذكر ثلاثة أشياء: أنه كان بدويًا يعني أنه رجل شريف، وأنه ملك لذلك تضاعف الشرف، وأخيرًا أنه لم يحنث عهدًا قطعه مع امرأة.

في بداية آيار مايو كان عبد الله قد رمى ثقله في عصبة الأمم، طلبنا مناقشة حسنات وسيئات اجتماع آخر قبل أن يفوت الأوان فربما نستطيع إقناعه في اللحظة الأخيرة، وإذا لم يكن كذلك فربما استطعنا اكتشاف أو استنتاج مدى عمق إيمانه بعمله، وإلى أي مدى سيكون في الحرب التي سيشنها ضدنا الفيلق العربي المدرب والمُجهَّز من قبل بريطانيا، الواقع كان هناك شيء آخر، بل اعتبار آخر في الميزان، غير الفيلق العربي الذي يُعتبر أفضل جيش في المنطقة، وهو إذا بقي شرق الأردن خارج ساحة القتال، فسيُصبح من الصعب على الجيش العراقي دخول فلسطين والمشاركة في الحرب ضدنا.

وتكمل جولدا مائير:

كان بن جوريون من مشجعي فكرة أن نجرب مرة ثانية، لذلك طلبت اجتماعًا آخر وطلبت من عزرا وانين مرافقتي، هذه المرة رفض عبد الله الحضور إلى نهارين وقال للوسيط إن ذلك يشكل خطرًا كبيرًا، فإذا أردت أن أقابله فعليَّ أن أحضر إلى عمان، وأتحمل كافة المخاطر التي تنجم عن ذلك، وأخبرنا ألا نتوقع إنذاره للفيليق

العربي بحقيقة وجود ضيوف يهود قادمين من فلسطين، ولن يستطيع تحمل أية مسئولية لما يمكن أن يحدث لنا أثناء الطريق، فالمشكلة الوحيدة كانت في الوصول إلى تل أبيب التي كان الوصول إليها صعبًا تمامًا كالوصول إلى عمان نفسها، انتظرت في القدس منذ الصباح الباكر حتى الساعة السابعة موعد وصول طائرة قادمة من تل أبيب، وعندما وصلت كان الطقس عاصفًا تعذر معه الإقلاع، ولو كانت الظروف طبيعية لأجلت رحلتي إلى اليوم الثاني، ولكن لم نعد نستطيع إضاعة يوم واحد، كان التاريخ ١٠ مايو ١٩٤٨م والدولة اليهودية ستعلن في ١٤ منه، وهذه هي فرصتنا الأخيرة لنتحدث إلى عبد الله، لذلك صمَّمتُ على الوصول إلى تل أبيب حتى على متن هذه الطائرة التي كانت تبدو وكأنها ستتحطم من شدة الرياح، وبعد إقلاعنا وصلتنا رسالة من المرصد الجوي في القدس تقول إن الطقس رديء جدًا ومن الصعب بل من الخطر علينا أن نحاول.

في اليوم الثاني سافرتُ إلى حيفا بالسيارة حيث كان مقررًا لقاء عزرا دانين ومرافقته لي، الذي أقبل متخفيًا، كان يتكلم العربية بطلاقة، ومعتادًا على العادات العربية، ولن يشك امرؤ في أنه غير عربي، بالنسبة لي فقد ارتديت ثيابًا تقليدية عربية، عبارة عن فستان غامق فضفاض، لم أكن أجيد العربية، وبما إنني سأمثل دور زوجة عزرا دانين فإنه من غير اللائق أن أتكلم مع أحد وأنا مع زوجي حسب العادات العربية والإسلامية خاصة، وهكذا وجد المخرج المناسب.

شرح لي عزرا طبيعة الطريق التي سنسلكها وكيف إننا سنغير السيارات بين الفترة والأخرى حتى لا يستطيع أحد مراقبتنا، وفي نقطة معينة ليست ببعيدة عن القصر سيقودنا شخص ما إلى عبد الله، المهم أن نتحاشى إثارة الشكوك من قِبل الجيش الأردني في نقاط التفتيش التي سنمر بها قبل الوصول إلى المرشد الذي سيقودنا إلى الملك، لقد كان الشخص الذي سيقودنا إلى الملك من المقربين لديه، رجل بدوي كان الملك قد ربَّاه واحتضنه منذ الصغر، لذلك أوكل إليه إنجاز المهمات الخاصة والخطيرة، كانت شبابيك ونوافذ السيارة مغطاة بقطع سوداء من القماش، وقادنا – عزرا وأنا – إلى بيته، وبينما كنا ننتظر قدوم عبد الله، تحدثت

إلى زوجة دليلنا الجميلة الحلوة، التي انحدرت من عائلة تركية غنيـــة معروفـــة، فشكت لي عن حياتها الروتينية المملة في شرق الأردن، ولكنها لم تكن هي أفضل مني في حياة الروتين، أومأت برأسي.

دخل عبد الله الغرفة وكان شاحب الوجه تعبًا، وقام عزرا بدور المتـــرجم، بـــدأت الكلام بالنقطة المهمة، سألته:

- هل حنثت بعهدك لي؟ لم يجب على سؤالي مباشرة بل قال:

- عندما أعطيتك وعدًا كنتُ أفكر بأنني سأستطيع التحكم بقدري وحدي، وأستطيع أن افعل ما أظنه صوابًا، ولكن ظهر لي غير ذلك، ثم تابع قوله: قبـــل أن احضـــر هنا كنتُ واحدًا من ممثلي خمسة بلدان، مصر وسوريا ولبنان والعـــراق والأردن، وما زال يعتقد أن الحرب يمكن تجنبها، ثم سألني: لِمَ أنتِ علـــى عجلـــة لإعـــلان دولتكم؟ لِمَ هذه السرعة! أنتِ لستِ صبورة.

- أخبرته أن الشعب الذي انتظر أكثر من ألفي سنة لا يمكن وصـــفه بـــالعجول، ويبدو أنه اقتنع برأيي، قلت: ألا تعلم بإننا نحن الوحيدون حلفاؤك في هذا الخطر، وأن الآخرين هم أعداؤك؟

- قال: نعم، أنا اعلم ذلك، ولكن ما الذي أستطيع عمله؟ إن الأمر ليس بيدي.

- قلت: يجب أن تعلم إنه إذا اجبرنا على الحرب، فسنحارب وسننتصر.

تنهد، وقال ثانية:

- نعم اعرف ذلك، إنه من واجبكم أن تحاربوا، ولكن لمـــاذا لا تنتظـــرون بضـــع سنوات أخرى، أبطلوا طلبكم للهجرة الحرة، وسأحتل كل البلد وستمثلين أنت فـــي البرلمان، سأعاملك معاملة حسنة، ولن تكون بيننا حرب.

حاولتُ أن اشرح له بأن خطته غير منطقية وقلت:

- تعلم ما عملنا، وماذا فعلنا، وكم قاسينا في ذلك، هل تعتقد أننا عملنا ذلك لنمثل في برلمان دولة أجنبية؟ أنت تعرف ماذا نريد وماذا نطمح، فإذا لم تقدم سوى ما قدمته الآن، إذًا ستكون الحرب وسنربحها، وربما نستطيع الالتقـــاء ثانيـــة بعـــد الحرب، وبعد أن نكون قد حصلنا على دولة يهودية.

- قال دانين: أنت تعلق أهمية على أعمالك ومهماتك، أنت لا تملك أصدقاء حقيقيين في هذا العالم، وسنحطم دباباتك كما حطمنا خط ماجينو (خط من الحصون الدفاعية أنشيء قبل الحرب العالمية الثانية لحماية حدود فرنسا الشرقية ولكن الألمان حطموه في نيس).

كانت كلمات شجاعة خاصة وأن دانين عرف تقييم سلاح دولتنا تمامًا، ولكن عبد الله قال:

- إن من واجبكم أن تحاربوا، ثم أضاف: إن الحوادث تلك يمكن أن تتغير، وكلنا بالطبع يعرف ما ينتظرنا، وما يخبيء لنا.

لم يكن عندي ما أقوله أردت الخروج، ولكن عزرا دانين وعبد الله دخلا في مناقشة جديدة، قال دانين:

- أرجو أن نبقى على اتصال، حتى بعد بداية الحرب.

أجاب عبد الله:

- بالطبع يجب أن تأتي لتراني.

- سأل دانين: ولكن كيف أستطيع الوصول إليك؟

- أجابه عبد الله مبتسمًا: لا أخالك تعجز عن إيجاد طريقة (ثم لامه لأنه لم يتخذ الاحتياطات الأمنية الكافية لحياته).

- أجاب دانين: أنت تُصلي في الجامع وتسمح لمواطنيك أن يقبلوا ظهر كفك وعمامتك وأطراف ثوبك، فربما استطاع أحد أن يلحق الضرر بك، حان الوقت لتبطل هذه العادة من أجل الحفاظ على حياتك.

- أجاب عبد الله: "ولدتُ بدويًا، رجلاً حرًا، وسأبقى حرًا، دع هؤلاء الذين يريدون قتلي أن يفعلوا إن استطاعوا، لن أضع نفسي في الأغلال، ثم ودعنا وانصرف.

هذا، وقد أشارت جولدا مائير في مذكراتها أيضًا إلى الأرقام المذهلة للهجرة اليهودية في السنوات الأولى لإعلان دولة إسرائيل، الدولة التي كان الزعماء الصهاينة يذرفون دموع التماسيح عليها حينما كانوا يستجدون الأقوياء في العالم، ولقد رأينا أيضًا كيف أنهم كانوا في حرب ١٩٤٨م يشكون ضعفهم

وخوفهم من العرب الذين ينوون رميهم في البحر، فلو كان الصهاينة صادقون لما كانت نبرة عزرا دانين وجولدا مائير المُهدِدة والمتوعِدة للملك عبد الله وتكرارهم بأنهم سينتصرون في الحرب، ولما استطاعت إسرائيل أن توطّن هذا العدد الكبير من المهاجرين المشتملين على نساء وأطفال ومسنين في بيوت وليس في خيـــام، فلولا أن مخططهم كان طرد الفلسطينيين من دورهم لإسكان المهاجرين اليهـــود، وأن الحركة الصهيونية كانت مستعدة وكل شيء مُخطط له بعناية، وأن الإمكانيات المتوفّرة تحت أيديهم كانت كبيرة؛ لما استطاعوا أن يفعلوا ما فعلوه فـــي ســـنين قليلة.

عام ١٩٤٩م حضر ٢٥ ألف يهودي أوروبي من مخيمات قبرص، و٧٥ ألف من مخيمات الحجز الألمانية والنمساوية، عام ١٩٥١م حضر إلى إسرائيل ٢٣ ألـــف يهودي من يهود تركيا، وحضر ٢٠ ألف يهودي من تشيكوسلوفاكيا، وحضر مـــن بلغاريا ٧ آلاف يهودي، وحضر ٢٥ ألف يهودي من بلاد المغرب العربي، وحضر ٥ آلاف من الصين، عام ١٩٥٠م حضر على مدى ١٢ شهر ١٢١ ألـــف يهـــودي من العراق، عام ١٩٥١م حضر ٢٨ ألف يهود من بولندا.

توفيت جولدا مائير بمرض السرطان عام ١٩٧٨م، وصـــار يتـــذكرها محبُّوهـــا ومؤيدوها بأنها كانت مثل أنثى الأسد في قوتها بالنســـبة للإســـرائيليين، الـــذين يقدرون دورها حينما قادت إسرائيل في أيامها الصعبة حســـب تقـــدير الـــبعض، وكانت من الطلائع الصهيونية في شبابها حينما ركبت السفينة فـــي العشـــرينات وتوجهت إلى فلسطين.

موشيه ديان Moshe Dayan :

وُلد موشى ديان في فلسطين عندما كانت تحت الهيمنة العثمانية، وعندما بلغ ١٤ عامًا التحق دايان بمنظمة الهاجاناه العسكرية والبلماخ في بداية تكوينهـــا قبيـــل الحرب العالمية الثانية.



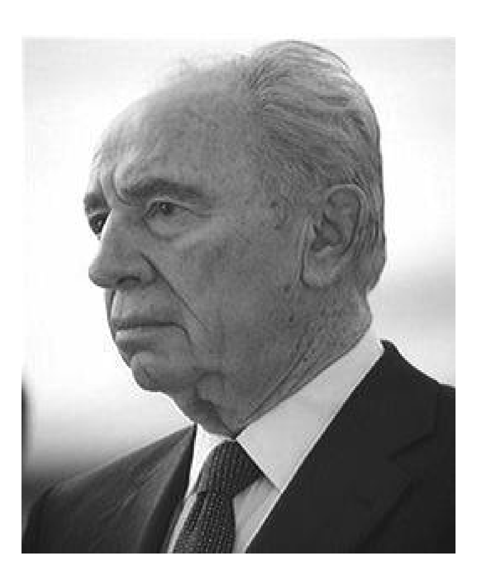
موشيه ديان ١٩١٥ – ١٩٨١ م

شغل دايان العديد من الأدوار المهمة في حرب ١٩٤٨م، وأعجب به رئيس الوزراء الإسرائيلي ديفيد بن جوريون أشد الإعجاب واختاره وشيمون بيريز لحمايته الشخصية، وترقى في المناصب العسكرية إلى أن وصل لمنصب رئيس الأركان في الجيش الإسرائيلي ثم أصبح في أكثر من حكومة إسرائيلية وزيرًا للدفاع في إسرائيل.

تحدَّث "موشيه ديان" عن بلاء الجيش المصري والجيش السوري في حرب يوم الغفران سنة ١٩٧٣م كما سماها الإسرائيليون فقال:
"أما المستوى القتالي للجنود العرب، فيمكن اختصاره بالآتي، لم يعمدوا هذه المرة إلى الهرب الذي كان في الماضي صفة مشتركة لهم (...) ففي حرب يوم الغفران لم يهربوا حتى عندما كانوا يتعرضون لخسائر جسيمة ويشعرون بأن المعركة خاسرة، فقد كانوا ينسحبون، كذلك تحسنت المزايا التكتيكية للجندي العربي هذه المرة فإن ثمة وحدات قد قاتلت حتى أخر جندي، والقيادات تميزت بالجدارة وبإجادة استخدام أحدث الوسائل التكنولوجية التي وُضِعَتْ تحت تصرفها، فقد صح

حدسي بأننا حتى لو نجحنا هذه المرة بالتفوق عليهم فلن نشهد انهيار الجيوش العربية انهيارا كاملا"، في ١٦أكتوبر١٩٨١م، مات دايان متأثرًا بسرطان القولون في مدينة تل أبيب ودُفن في "تاهال" حيث نشأ.

شيمون بيريز Shimon Peres :



شيمون بيريز

وُلِدَ "شمعون بيريز" في بيلوروس سنة ١٩٢٣م، وهاجر إلى فلسطين مع عائلته عندما كان يبلغ من العمر أحد عشر عامًا، ونشأ في تل أبيب وتعلَّم في المدرسة الثانوية الزراعية في بن شِيمن، وقضى بضع سنوات في كيبوتس غِيفَاع وكيبوتس ألُوموت الذي كان من بين مؤسّسيه، عمل موظَّفًا في الخدمة المدنية، وفي عام ١٩٤٣م انتُخِب سكرتيرًا لحركة الشبيبة التابعة لتيار الصهيونية العُمّالية، وعضو في البرلمان الإسرائيلي.

في عام ١٩٥٩م انتُخِب بيريز عضوًا في الكنيست وظلَّ عضوًا فيها منذ ذلك الحين، ومن بين إنجازاته، إقامة الصناعات العسكرية الجوية، وكان مسؤولاً عن البرنامج النووي الإسرائيلي، شغل شمعون بيريز منصب رئيس الوزراء خلال

فترتين غير متتاليتين، كانت أولاهما من عام ١٩٨٤م وحتى عام ١٩٨٦م، وفــي ١٣يونيو عام ٢٠٠٧م انتخبت الكنيست شمعون بيريز في منصب الرئيس التاسع لدولة إسرائيل، بعد توقيع اتفاق أسلو عام ١٩٩٣م صــدر لــه كتــاب "الشــرق الأوسط الجديد".

ستيفن وايز Stephen Wise :



ستيفن وايز ١٨٧٤ – ١٩٤٩ م

وُلِدَ الدكتور ستيفن وايز عام ١٨٧٤م في بدابست بالمجر، ارتحل مع أسرته إلــى الولايات المتحدة حينما كان عمره ١٧ شهرًا، أصبح حاخامًا عام ١٩٠٠م، حصل على الدكتوراه من جامعة كولومبيا عام ١٩٠٢م، بدأ نشــاطه الصــهيوني فــي تسعينيات القرن التاسع عشر، كان وثيق الصلة بتيودور هرتزل حيث التقيا فــي بازل في المؤتمر الصهيوني الثاني عام ١٨٩٨م، هو حاخام مــن أوائــل دُعــاة الصهيونية، ورائد من رواد الفكر الصهيوني، كان مؤسس وحبر الكنيس الحر في مدينة نيويورك، نظَّم أول فرع من اتحاد الصــهيونيين، والمنظمــة الصــهيونية بأمريكا، كان عضوًا في عدة منظمات ومكاتب تعمل لصالح اليهود فــي الولايــات

المتحدة وعلى نطاق عالمي، يُعد ستيفن وايز زعيم الكونجرس اليهودي الأميريكي، وحاخام أمريكي وقائد صهيوني توطيني.

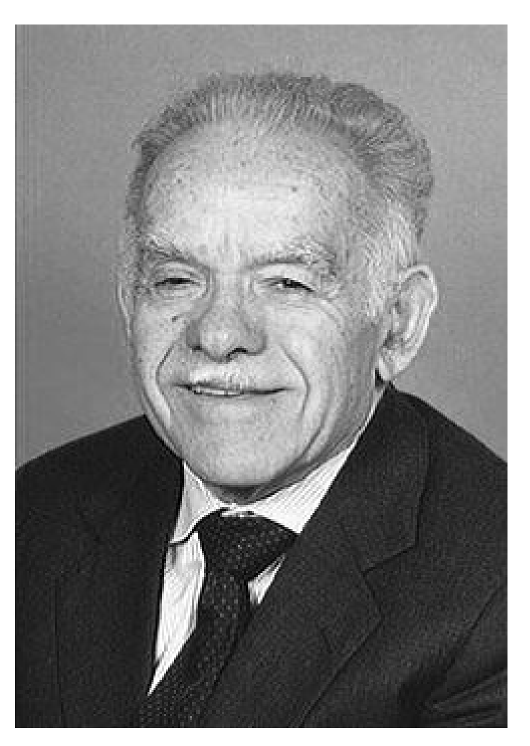
بعد صدور وعد بلفور عام ١٩١٧م، بعث الرئيس الأمريكي "ودرو ويلسون" عام ١٩١٨م مذكرة إلى "الحاخام ستيفين وايز"، يؤكد له فيها تأييده لوعد بلفور، كما أيَّد الكونجرس الأمريكي في عام ١٩٢٢م وعد بلفور، يُعتبر ستيفن وايز مؤسس المؤتمر اليهودي الأمريكي عام ١٩١٨م، وكان نائبًا لرئيسه في الفترة ١٩٢٢-١٩٢٥م، ثم ترأسه بين عامي ١٩٣٦ و١٩٤٩م، وهو أكبر وأقدم منظمة يهودية أمريكية بل هو المنظمة التي تكفَّلت بمساندة الأمريكيين لإقامة وطن قومي يهودي في فلسطين.

تأسس المؤتمر اليهودي العالمي بمبادرة من المنظمة الصهيونية العالمية، حيث رأى زعماؤها (ماكس نوردو، وناحوم سوكولوف، ولويس برانديز، وناحوم جولدمان، وستيفن وايز وغيرهم) أن من المفيد أن تؤسَّس منظمة عالمية موازية تضم كل اليهود الصهاينة واليهود غير الصهاينة في الولايات المتحدة سواء بسواء، قام المؤتمر اليهودي العالمي بدور الوسيط بين إسرائيل وألمانيا لعقد اتفاقية التعويضات، ووقَّع ناحوم جولدمان عام ١٩٥٢م (ممثلاً عن المؤتمر) على اتفاقية لوكسمبورج للتعويضات التي حصلت إسرائيل بموجبها على تعويضات قُدِرت بحوالي ٩٠ مليار مارك ألماني، يدين اليهود بالفضل إلى وايز فيما يتعلق بخلق رابطة لا تنفصم بين اليهود والأمريكيين على مستوى صناعة القرار في واشنطون.

في مؤتمر السلام في فرساي، تحدَّث وايز بلسان الحركة الصهيونية، كان وايز صهيونيًا توطينيًا من الدرجة الأولى، فبعد إعلان الدولة لم يهاجر إليها، ولعله لو طال به العمر لاصطدم بين جوريون، وليتم القضاء على نفوذه كما حدث مع بقية القيادات الصهيونية التوطينية التي كانت تتصوَّر أن بوسعها التحكم في المُستوطَن الصهيوني من خلال المنظمة، هذا ويدين اليهود بالفضل إلى وايز فيما يتعلق

بخلق رابطة لا تنفصم بين اليهود والأمريكيين على مستوى صناعة القرار في واشنطن.

إسحق شامير Yitzhak Shamir :



اسحق شامير ١٩١٥ – ٢٠٠٦ م

شامير هو أحد قادة إسرائيل، اشتهر بلاءاته الثلاث: "لا للقدس، لا للدولة الفلسطينية، لا لعودة اللاجئين الفلسطينيين إلى ديارهم".

وُلِدَ إسحق بيريز نتيزكي في بولندا عام ١٩١٥م، درس القانون في جامعة وارسو عام ١٩٣٤م لمدة عام واحد فقط ولم يُكمل دراسته، وفي نفس العام ١٩٣٥م فضَّل الهجرة إلى فلسطين قائلاً "لا يمكنني البقاء في بولندا بينما يجري بناء دولة يهودية في فلسطين"، وفور وصوله إلى فلسطين التحق بمنظمات "الهاجاناه" ثم بمنظمتي أراجون وشتيرن الصهيونيتين.

التحق بالجامعة العبرية بالقدس واختار هذه المرة دراسة التاريخ، لكنه هجر الجامعة في عام ١٩٣٧م لكي ينضم إلى عصابة "أراجون تسامي ليؤومي"، وهي منظمة إرهابية يهودية سرية حاربت العرب، والبريطانيين المنتدبين على فلسطين في ذلك الوقت، اتهم بالتورط في عملية اغتيال "الكونت برنادوت" وبسبب هذا أصبح شامير مطلوبًا من قِبل السلطات البريطانية باعتباره إرهابيًا، انضم شامير إلى جماعة "أوهامي حيروت يزرائيل" الإرهابية (مليشيات عصابة شتيرن)، واعتقلته السلطات البريطانية عام ١٩٤١م، ولكنه تمكن من الهرب، اعتقل مرة أخرى عام ١٩٤٦م من جانب السلطات البريطانية أيضًا، وأرسل إلى معسكر اعتقال في إريتيريا، ولكنه بعد أربعة شهور تمكن من الهرب مرة أخرى، ذهب إلى باريس وبقي فيها إلى أن عاد إلى فلسطين في مايو ١٩٤٨م.

عمل اسحق شامير في جهاز المخابرات الإسرائيلي (الموساد) في الفترة من ١٩٥٥م لغاية ١٩٦٥م، وبعد ذلك عمل مديرًا لمصنع في مستوطنة كفار سانا حتى عام ١٩٧٠م، عندما انضم لحزب حيروت الذي كان يتزعمه مناحيم بيجن، وانتخب رئيسًا للجنة التنفيذية لحزب حيروت عام ١٩٧٣م، بعد فوز تكتل ليكود عام ١٩٧٧م انتخب رئيسًا للكنيست، وفي عام ١٩٧٨م امتنع عن التصويت على تأييد اتفاقية كامب ديفيد.

عُيِّنَ شامير وزيرًا للخارجية في مارس ١٩٨٠م، وانتخب رئيسًا للوزراء من أكتوبر ١٩٨٣ لغاية ١٩٨٤م، خلفًا لمناحيم بيجن الذي قرر اعتزال الحياة السياسية واستقال من رئاسة الوزارة إثر حرب لبنان، كما خلفه شامير أيضًا في رئاسة الحزب، بعد انتخابات الكنيست عام ١٩٨٤م توصل إلى اتفاق مناورة على السلطة مع زعيم حزب العمل "شمعون بيريز" وأصبح شامير بموجب ذلك نائبًا لرئيس الوزراء بريز ووزيرًا للخارجية حتى عام ١٩٨٦م، ثم تبادل المناصب مع بيريز، فأصبح شامير رئيسًا للوزراء من ١٩٨٦ لغاية ١٩٨٨م.

في أعقاب الانتخابات عام ١٩٨٨م، نجح شامير في تشكيل حكومة بالتحالف مع حزب العمل حتى ١٩٩٠م، وفي يوليو من العام نفسه ترك حزب العمل الائتلاف

وسقطت الحكومة، وكوَّن حزب الليكود مع أحزاب محافظة صغيرة حكومة ائتلافية جديدة برئاسة شامير، وظلَّ رئيسًا للوزارة حتى يونيه ١٩٩٢م عندما قرر اعتزال العمل السياسي، خلال رئاسة شامير للوزارة الإسـرائيلية، عمـل علـى تـدعيم المستوطنات اليهودية في الضفة وغزة في الأراضي المحتلة، وعمل علـى قمـع الانتفاضة عام ١٩٨٨م حيث قتلت قوات الاحتلال مئات الفلسـطينيين وفرضـت حظر التجوال لفترة طويلة، من المعروف عن شامير أنه رفـض جميـع خطـط السلام الخاصة بالأراضي المحتلة بناء على مبدأ مؤتمر مدريـد بأسـبانيا عـام ١٩٩١م الذي رعته الولايات المتحدة، في عام ١٩٩٦م خسر الانتخابات الحزبية أمام بنيامين نتنياهو الذي حل مكانه، وابتعد عن الحياة السياسية وتوفي عن عمر ناهز الـ ٨٧ عامًا.

إسحق رابين Yitzhak Rabin :



اسحق رابين ١٩٢٢ – ١٩٩٥ م

هو صاحب فكرة الفصل بين الفلسطينيين وإسرائيل وبناء الجدار العازل، وإسحق رابين هو من عتاة الصهاينة الذين لعبوا أدوارًا مهمة في تاريخ الصراع العربـي الإسرائيلي.

إسحق رابين ١٩٢٢ – ١٩٩٥م، رجل سياسي وجنرال عسكري سابق في الجيش الإسرائيلي وخامس رئيس وزراء إسرائيل في فترتين، الفترة الأولى من ١٩٧٤م إلى ١٩٧٧م وفي الفترة الثانية من ١٩٩٢ إلى ١٩٩٥م حينما اغتاله متطرف يهودي، فيصبح رابين أول رئيس وزراء إسرائيلي يموت اغتيالاً ويُعد من أشهر رجالات منظمة البالماخ الصهيونية المتفرعة من الهاجاناه العسكرية.

وُلد رابين في مدينة القدس إبَّان الانتداب البريطاني لفلسطين لأبوين هاجرا من روسيا إلى الولايات المتحدة الأميريكية، ومنها هاجر والده إلى فلسطين عام ١٩١٧م ضمن المهاجرين الأوائل، التحق بعصابات الهاجاناه وكانت والدته من النساء اللاتي لعبن أدوارًا هامة في قوات الهاجاناه، درس في المدرسة الزراعية اليهودية "كادوري" في الجليل، في عام ١٩٣٨م ضمن فترة دراساته اشترك في دورة عسكرية قصيرة نظمتها الهاجاناه، وتخرج رابين من مدرسة "كادوري" بامتياز في سنة ١٩٤٠م، في عام ١٩٤١م انضم إلى "الهاجاناه" وأصبح من كبار قادتها مما أدى إلى اعتقاله من قبل السلطات البريطانية في يونيو ١٩٤٦م.

عند انتهاء الحرب اشترك في محادثات الهدنة التي دارت بين إسرائيل ومصر في جزيرة رودس اليونانية، في كانون ديسمبر سنة ١٩٦٣م عيَّنه ليفي اشكول (رئيس الوزراء الإسرائيلي في ذلك الحين) رئيسًا لأركان الجيش الإسرائيلي، وعندما اندلعت حرب الأيام الستة في عام ١٩٦٧م كان لم يزل رابين بمنصب رئيس الأركان، وعندما اندلعت حرب ١٩٤٨م تم تعيينه قائدًا لسرية "هارئيل" التي قاتلت في منطقة القدس.

في فبراير ١٩٦٨م تقاعد رابين من الحياة العسكرية، وانخرط في السلك الدبلوماسي كسفير لإسرائيل لدى الولايات المتحدة الأمريكية، أمّا بالنسبة لحياته السياسية الداخلية، فقد حصل على مقعد في الكنيست الإسرائيلي في كانون الثاني/ يناير بعد أن انضم لحزب العمل الإسرائيلي، مع حصوله على المقعد البرلماني تعين أيضًا لمنصب وزير العمل في الحكومة التي ترأستها جولدا مائير.

عام ١٩٧٤م وقعت أزمة سياسية في أعقاب إعلان تقرير قاس بشأن جهوزية الجيش الإسرائيلي لحرب أكتوبر سنة ١٩٧٣م الأمر الذي أجبر جولدا مائير على الاستقالة من منصب رئيسة الوزراء، ومن نتائج تلك الأزمة انتخاب رابين كرئيس لحزب العمل وخلف جولدا مائير في رئاسة الوزراء، اشتهر رابين في الفترة الأولى لرئاسة الوزراء بعملية "مطار عنتيبي"، فقد أعطى رابين أوامره للجيش الإسرائيلي لإنقاذ ركاب الطائرة الفرنسية المخطوفة بعد إقلاعها من إسرائيل.

في ٢٠ ديسمبر ١٩٧٦م استقال رابين من منصب رئيس الوزراء إثر أزمة برلمانية نجمت عن هبوط طائرات عسكرية أرسلتها الولايات المتحدة للجيش الإسرائيلي في يوم الجمعة بعد غروب الشمس، مما أثار غضب الأحزاب الدينية المشاركة في الائتلاف الحكومي لاعتباره انتهاكًا لقدسية يوم السبت في اليهودية، وأسفرت استقالة رابين إلى تبكير الانتخابات، وتحديد موعدها لشهر مايو ١٩٧٧م، في فبراير١٩٧٧م تغلب إسحاق رابين على شمعون بيريز في الانتخابات الداخلية لحزب "همعراخ" وتعين مرشح الحزب لرئاسة الوزراء، ولكن في ١٥ مارس ١٩٧٧م كشف الصحافي "دان مرغاليت" في صحيفة هآرتس أن عقيلة رابين تدير حسابًا مصرفيًا في الولايات المتحدة مخالفة للقانون الإسرائيلي آنذاك، تحمَّل إسحاق رابين المسؤولية عن هذه المعصية، مما أدى إلى إجراء انتخابات داخلية جديدة وترشيح شمعون بيريز لرئاسة الوزراء، خسر "همعراخ" الانتخابات في مايو ١٩٧٧م، وخلف مناحيم بيجن رئيس حزب الليكود، إسحاق رابين في رئاسة الوزراء، بينما امتثل شمعون بيريز رئيس المعارضة البرلمانية، أما رابين فظل عضوًا في الكنيست دون منصب خاص.

في عام ١٩٨٤م وفي ظل التعادل في نتائج الانتخابات بين الكتلتين البرلمانيتين، اضطر كلا الحزبان المتنافسان الرئيسيان، حزب الليكود وحزب العمل، على التعاون في تشكيل "حكومة وحدة وطنية"، وانضم رابين لهذه الحكومة التي ترأسها شمعون بيريز واسحق شامير بالتناوب، وتولى فيها وزارة الدفاع، في

تلك الفترة اندلعت الانتفاضة الفلسطينية الأولى ١٩٨٧م ضد الاحتلال الإسرائيلي، واشتهر رابين وقتها بتعليماته لقواته بكسر عظام المتظاهرين الفلسطينيين.

في عام ١٩٩٢م، تمكَّن رابين من الفوز بمنصب رئيس الوزراء للمـــرة الثانيـــة ولعب دورًا أساسيًا في "معاهدة أسلو" للسلام التي أنجبــت الســلطة الفلســطينية وأعطتها السيطرة الجزئية على كل من قطاع غزة والضفة الغربية، وفي الفتـــرة الثانية لرئاسة رابين للوزراء، توصلت إسرائيل لاتفاقية ســلام مــع الأردن مــع اتّساع كبير في بقعة المستوطنات الإسرائيلية في كل من الضفّة الغربية وقطـــاع غزّة.

ولدوره الريادي في اتفاقية أوسلو للسلام، فقد تمَّ منح رابين جائزة نوبل للســلام عام ١٩٩٤م مع كل من ياسر عرفات رئيس السلطة الفلسطينية شمعون بيريـــز وزير خارجيته، وفي ٤ نوفمبر ١٩٩٥م، وخلال مهرجان خطابي مؤيِّد للسلام في ميدان "ملوك إسرائيل" (اليوم: ميدان رابين) في مدينة تل أبيـــب، أقـــدم اليمينـــي المتطرّف "ايجال أمير" على إطلاق النار على إسحق رابين وكانت الإصابة مميتـــة إذ مات على إثرها على سرير العمليات في المستشفى ساعة محاولة الأطباء إنقاذ حياته.

يُشير المؤرخ اليهودي "ايلان بابي" في كتابه "التطهير العرقي لفلســطين"، بـــأن إسحق رابين هو أحد مهندسي ومخططي ومنفذي عملية ترحيل الفلسطينيين التي نفذتها الحركة الصهيونية على أرض فلسطين.

بنيامين نتنياهو Benjamin Netanyahu :

يُعتبر نتنياهو صقر من صقور الصهيونية الجدد، وهو أول رئيس حكومـــة فـــي الكيان الصهيوني في انتخابات مباشرة، وأول رئيس حكومة يولد بعد إعلان قيـــام الكيان الصهيوني، وقد شغل منصب رئيس الوزراء من ١٩٩٦ إلى عام ١٩٩٩م.

هو عضو في حزب الليكود الإسرائيلي، خــدم فــي القــوات الخاصــة للجــيش الإسرائيلي وأب لثلاثة أبناء (واحدة منهم من زواجه السابق).



بنيامين نتنياهو ١٩٤٩ م

وُلِد نتنياهو عام ١٩٤٩م في فلسطين المحتلة، وأقام مع والديــه فــي الولايــات المتحدة في السنوات ١٩٥٦ – ١٩٥٨م، ومرة أخرى فــي الســنوات ١٩٦٣- ١٩٦٧م حيث عاد إلى إسرائيل للخدمة في الجيش الإســرائيلي فــي الســنوات ١٩٦٧- ١٩٧٢م، وصل إلى رتبة نقيب في وحدة الاستطلاع التابعــة للأركــان العامة (سيريت ماتكال) وبعد إنهائه لخدمته العسكرية عاد إلــى الولايــات حيــث حصل على شهادة البكالوريوس في الهندسة المعمارية.

أثناء توليه رئاسة الوزراء، كأصغر رئيس حكومة في تــاريخ دولــة إســرائيل، فاوض ياسر عرفات في المفاوضات المشهورة بمفاوضات "واي ريفــر"، والتــي يرى البعض أنه حاول إعاقة أي تقدم في سير المفاوضات بخلاف رئاسة الوزارة التي سبقته والتي تلته، فقد قطعت تلك الحكومات تقدمًا ملموسًا بالمقارنــة مــع عهده، واتصف عهده بالهدوء النسبي باستثناء بعــض العمليــات الاستشــهادية الفلسطينية داخل إسرائيل، في عام ١٩٩٦م اتفق مع رئيس بلدية القــدس علــى الاستمرار في نفق السور الغربي للمسجد الأقصى مما أشعل شــرارة فلســطينية

استمرت ٣ أيام سقط خلالها القتلى من الجانبيين، وبعد هزيمته على يد غريمه إيهود باراك في الانتخابات العامة عام ١٩٩٩م اعتزل العمل السياسي بشكل مؤقت، في عام ٢٠٠٢م ترك حزب العمل المشاركة في الحكومة الإسرائيلية وأصبح منصب وزير الخارجية شاغرًا، فقام رئيس الوزراء أرئيل شارون بتعيينه وزيرًا للخارجية، وعمل على منافسة شارون في زعامة حزب الليكود إلا إنه فشل في المنازلة، وبعد انتخابات ٢٠٠٣م تم تعيينه وزيرًا للمالية في حكومة شارون الائتلافية.

قام بتأليف العديد من الكتب منها: "محاربة الإرهاب" و"مكان بين الأمم"، وفقد نتنياهو أخوه الأكبر عام ١٩٧٦م نتيجة اقتحام الطائرة الإسرائيلية المخطوفة في مدينة "عنتيبي" الأوغندية.

وُلد بنيامين نتنياهو في تل أبيب في ٢١ من تشرين الأول أكتوبر ١٩٤٩م، وكان جنديًا وضابطًا في إحدى وحدات الكوماندو الخاصة في جيش الدفاع (١٩٧٢-١٩٦٧م)، وبعد تخرّجه من معهد "ماساتشوسيتس" للتكنولوجيا بدرجة البكالوريوس في الهندسة المعمارية ودرجة الماجستير في إدارة الأعمال، كان نتنياهو يعمل مستشارًا وشغل منصب مدير في قطاع الصناعة في الولايات المتحدة وإسرائيل، ومنذ ١٩٧٦م كان نتنياهو مديرًا لمعهد يوناتان وهو مؤسسة لبحث سبل مكافحة الإرهاب.

شغل نتنياهو منصب مندوب إسرائيل لدى الأمم المتحدة (٨٨-١٩٨٤م) وكان نائبًا لرئيس البعثة الدبلوماسية في الولايات المتحدة (١٩٨٤-١٩٨٢م)، في ١٩٨٤م، كان نتنياهو عضوًا في الوفد الإسرائيلي الأول للمحادثات الاستراتيجية الأمريكية الإسرائيلية، وكان نائبًا لوزير الخارجية (١٩٩١-١٩٨٨م) ونائب وزير في ديوان رئيس الوزراء (١٩٩٢-١٩٩١م)، وكان نتنياهو عضوًا في الوفد الإسرائيلي لمؤتمر مدريد للسلام في١٩٩١م ولمحادثات السلام في واشنطن التي أعقبت هذا المؤتمر، نتنياهو عضو في الكنيست منذ ١٩٨٨م، وفي الكنيست الـ١٣ (١٩٩٦-١٩٩٢م)، كان نتنياهو عضوًا في لجنتي الخارجية والأمن

والدستور والقانون والقضاء البرلمانيتين، وبعد هزيمته في الانتخابات في ١٩٩٩م استقال نتنياهو من رئاسة حزب الليكود ومن الكنيست الــ١٥.

كان بنيامين نتنياهو وزيرًا للخارجية اعتبارًا من تشرين الثــاني نــوفمبر٢٠٠٢م وحتّى شباط فبراير٢٠٠٣ حيث عُيِّن وزيرًا للمالية، واستقال من منصبه هذا فــي آب أغسطس ٢٠٠٥م، حقق حزب الليكود نتائج مهمة في الانتخابات التي أجريت في ١٠ فبراير ٢٠٠٩م، إذ تمكن من مضاعفة عدد مقاعده في الكنيست إلى ٢٧ مقعدًا على الرغم إنه جاء في المرتبة الثانية بعد حزب كاديما بزعامــة تســيبي ليفني والذي حصل على ٢٨ مقعد، لكنه استطاع مدعومًا بالمكاسب التي حققتهــا أحزاب اليمين في الانتخابات وعددها ٦٥ مقعد من أصل ١٢٠ في الكنيســت أن يصبح الأوفر حظًا في تشكيل الحكومة الجديدة، حيث أوكل إليه رئــيس الدولــة شمعون بيريز هذه المهمة يوم ٢٠ فبراير ٢٠٠٩م، وحازت حكومته علــى ثقــة الكنيست في ٣١ مارس ٢٠٠٩م.

أرئيل شارون Ariel Sharon :

يعد أرئيل شارون مــن السياســيين والعســكريين المخضــرمين فــي الســاحة الإسرائيلية، وأرئيل شارون هو الرئيس الحادي عشر للحكومة الإسرائيلية.

وُلد أرئيل شارون في عام ١٩٢٨م في قرية كفار ملال بفلسطين، أيــام الانتــداب البريطاني.. القرية اليوم في وسط إسرائيل، كان اسم عائلته الأصلي "شــاينرمان" وكان والداه من اليهود الأشكناز الذين هاجروا من شرقي أوروبا، إذ ولد أبوه في بولندا بينما ولدت أمه في روسيا، تذكُر بعض المصادر الأخرى بأن والده ينحــدر من أصول فارسية حيث سكن مدينة أصفهان الإيرانية.

انخرط شارون في صفوف منظمة الهاجاناه عام ١٩٤٢م وكان عمره آنــذاك ١٤ سنة، وانتقل للعمل في الجيش الإسرائيلي عقب تأسيس دولة إسرائيل.



أرئيل شارون ١٩٢٨ م

شارك في معركة القدس ضد الجيش الأردني ووقع أسيرًا بيد الجيش العربي الأردني في معارك اللطرون عام ١٩٤٨م وقد أسره يومها النقيب حابس المجالي (أصبح برتبة مشير فيما بعد) الذي عالجه ونقله إلى الخطوط الخلفية، ثم إلى المفرق في الأردن حيث أقيم معسكر اعتقال الأسرى اليهود، وتم تبديله بأسير عربي عندما جرى تبادل الأسرى بعد الهدنة الثانية.

وبعد فترة انقطاع عن الجيش قضاها على مقاعد الجامعة العبرية، عاود الجيش الإسرائيلي سؤاله للانضمام للجيش وترأس الوحدة ١٠١ ذات المهام الخاصّة، وقد أبلت الوحدة ١٠١ بلاءً حسنًا في استعادة الهيبة لدولة إسرائيل بعد خوض الوحدة لمهمَّات غاية في الخطورة إلا أن وحدة شارون العسكرية أثارت الجدل بعد مذبحة قبية في خريف ١٩٥٣م والتي راح ضحيّتها ١٧٠ من المدنيين

الأردنيين، قام بمجزرة بشعة في اللد عام ١٩٤٨م وحصد خلالها أرواح ٤٢٦ فلسطينيًا بعد أن اعتقلهم داخل المساجد.

يُعتبر أرئيل شارون شخصية مثيرة للجدل في داخل إسرائيل وخارجها، فبينما يراه البعض بطل قومي، يراه آخرون عثرة في مسيرة السلام، بل ويذهب البعض إلى وصفه كمجرم حرب بالنظر إلى دوره العسكري في الاجتياح الإسرائيلي لجنوب لبنان عام ١٩٨٢م، وقد اضطر سنة ١٩٨٣م إلى الاستقالة من منصب وزير الدفاع بعد أن قررت اللجنة الإسرائيلية القضائية الخاصة للتحقيق في مذبحة صبرا وشتيلا؛ أنه لم يفعل ما يكفي للحيلولة دون وقوع المذبحة.

في عام ٢٠٠١م فاز شارون بأغلبية ساحقة في الانتخابات الإسرائيلية العامة إذ تبنى مواقف سياسية أكثر اعتدالاً، وفي سنة ٢٠٠٤م بادر شارون تحت ضغط المقاومة الفلسطينية بالانسحاب الإسرائيلي من جانب واحد من قطاع غزة، حصل شارون على مقعد في الكنيست الإسرائيلي بين الأعوام ١٩٧٣ و١٩٧٤م، وعاود المشاركة في الكنيست من العام ١٩٧٧م، وعمل شارون مستشارًا أمنيًا لإسحق رابين ثم شغل منصب وزير الزراعة بين الأعوام ١٩٧٧ إلى ١٩٨١م، وفي فترة رئاسة مناحيم بيجن للحكومة الإسرائيلية عمل شارون وزيرًا للدفاع.

في ٢٨ سبتمبر ٢٠٠٠م (يوم الخميس) قام شارون بزيارة الحرم الشريف بالقدس رغم معارضة شديدة من قبل لجنة الوقف الإسلامي التي تدير الحرم والقادة الفلسطينيين، وأدت الزيارة إلى اشتباكات بين الشرطة الإسرائيلية والمُصلين الفلسطينيين الذين تظاهروا ضدها، انتهت ب٢٠ قتيلاً وب١٠٠ جريح من بين المتظاهرين الفلسطينيين و٢٥ جريحًا من بين الشرطيين الإسرائيليين، وفي اليوم التالي انتهت صلاة الجمعة في مسجد الأقصى بمظاهرات ضد ما سماه الفلسطينيين بـ "تدنيس شارون للحرم الشريف"، فتدهورت المظاهرات إلى اشتباكات عنيفة مع الشرطة الإسرائيلية وكانت أول حدث فيما سمي بعد ذلك بانتفاضة الأقصى التي استمرت ٤ سنوات، وقد قتل خلال الانتفاضة تسعة آلاف من الفلسطينيين خلال ثلاث سنوات فقط.

الفصل الحادي عشر

لا شيء غير الحقيقة

رُوي عن الرسول صلى الله عليه وسلم أنه قال: "سام أبو العـرب، ويافـث أبـو الروم، وحام أبو الحبش"، وقد روي عن الطبري أنه ذكر جملة من الأحاديث عن الرسول بهذا المعنى.

من خلال محاولات الكثير من الباحثين والمؤرخين نجد أن البشـرية مـا زالـت حائرة لمعرفة من أين جاء الساميون الأوائل مثلاً، وأيـن كـان مـوطنهم الأول، وربما نحن وغيرنا لن نجد جوابًا يطابق جوابًا آخر وستظل الأجوبة متقاربـة أو متباعدة، وستبقى تأخذ شكل النظريات والتفسيرات والفرضـيات، لهـذا لا يجـد الكثيرون من الباحثين في النهاية إلا أن يستسلموا لما ذكرته الكتب المقدسة.

في هذا الكتاب لن نقف عند تفسير معين إذا افترضنا بأننا أحرار فيما نقول ومـا نعتقد، فلن نرفض رأي أو وجهة نظر بالذات، لكننا سنسـتخلص ممـا عرفنـاه بالاستقراء وبالمقارنة والاستنباط، وسنقدم وجهة نظرنا المختلفة قليلاً عما تعودنا أن نتلقاه من آراء، ذلك كوننا بشر أيضًا لا يحجب تواصلنا عن الـرأي الآخـر، سوى عدم قناعتنا بما كان ذلك الرأي الآخر عليه أو عدم قبولنا للصورة التي قدِّم بها الرأي الآخر وأوحت بما أوحت لنا كقراء من معنـى مـا زال يقـدم شـكوكًا وعلامات استفهام يزداد عددها مع مرور القرون والأيام.

فبينما يرى الغير من خلال البحث والاستنباط، ويقودهم في هذا ما ورد في الكتب المقدسة ذلك بأن بابل كانت المهد الأول للسـاميين، ورأى آخـرون أن جزيـرة العرب هي المهد الأول لأبناء سام، وذهب قلة إلى أن أفريقيا هي وطن سام بسبب صلات اللغات، فإننا نجد أن المنطق وتطور حياة البشـر علـى كوكـب الأرض خصوصًا وأن حركة جزيئات المادة التي تتكـون منهـا الأرض لا تتوقـف عـن الحركة حيث أثبتت البحوث الجيولوجية بأن لا طبقات الأرض ولا مواقع البحـار كانت ثابتة عبر الأزمنة، لقد ثبت أن كثيرًا من مناطق الكرة الأرضية كانـت فـي الماضي مغمورة بالماء مثلاً، لذا فإن لا شيء ثابت على هذا الكوكب بـدء مـن الإنسان نفسه.

لهذا لا يمكن الجزم برأي أن المهد الأصلي للسامية هو بابل، لأن أكثر الحركات والهجرات عند أغلب الأمم السامية كانت من نزوح جموع سامية من أرض جزيرة العرب إلى بلاد ما بين النهرين، العراق حاليًا، وإلى سوريا وفلسطين، وإلى وادي النيل، وحتى إلى الحبشة، لهذا أيضًا يمكننا القول بإن من المحتمل أن تكون أقدم الهجرات من شبه الجزيرة العربية كانت إلى بلاد ما بين نهري دجلة والفرات وحيث نشأت هناك حضارات متعددة كما هو الحال حينما نشأت الحضارات على ضفاف الأنهر أو كما حدث في مصر والصين في العصور القديمة.

ونفس الشيء أو لمغريات أخرى أوجبتها الحاجة، كانت الهجرة الكنعانية والآرامية التي تركت جزيرة العرب حينما كانت المنطقة مسكونة بالقبائل التي تعتمد على المواسم والفصول لأجل توفير سبل العيش بالتنقل من منطقة إلى أخرى، كانت إذا ما وجدت أرضًا خصبة استقرت فيها وتغير نمط الحياة، وكان يتحول مجتمع القبيلة إلى مجتمع الدولة، التي حينما تقوى كان يصير لها نفوذ وتصبح إمبراطورية، هذا وقد اتفق الباحثون على أن هجرات أخرى حدثت في التاريخ بعد الهجرات الأولى، كهجرة الهكسوس حينما غزوا مصر، وكما هاجر العبرانيون من آشور إلى فلسطين.

إن كثيرًا من المؤرخين ينسبون الهكسوس بأنهم قوم من العبرانيين، ولماذا لا يكونون كذلك ما دام يعود نسبهم إلى المنطقة الممتدة من شبه الجزيرة العربية إلى العراق وإلى بلاد الشام، لذا يمكن القول بإن الاكديون والاموريون والكنعانيون والآراميون والعرب كانوا أمة واحدة أو فروع لأصل واحد أساسهم العرب القحطانيين، وأن من أول الأقوام العاربة التي هاجرت من شبه الجزيرة العربية هم الاكديون الذين أسسوا أول مملكة قوية في بلاد الرافدين في القرن الرابع والعشرين قبل الميلاد، تقول الباحثة غادة أحمد محمد "إن هذه الأقوام كانت وقت تأسيس مملكتها الأولى من القوة وكثرة العدد والعدة ما مكنها من السيطرة على زمام الحكم، وعزا بعض الباحثين أن هذه المملكة هي أول إمبراطورية في

التاريخ"، لذا يمكن القول بإن اليهود قد استمدوا منها بسبب انتمائهم إلى قبيلة العبرانيين ما استوحوه على هواهم من التاريخ، وما أوجدوا بعد ذلك من نبوءات وفضائل لهم فوق كل البشر خصوصًا وإن كل كتاباتهم تمَّتْ بعد أن أصبحوا غرباء عن أصولهم وعن بلادهم الأصلية، فأضحوا متحررين من رقابة القوم الذي نشأوا بينهم، كل الأمم وكل الشعوب تتباهى بأنها الأفضل والأعرق، والأكثر أصالة من غيرها، سواء كانت غنية أو فقيرة، متحضرة أو قبلية قديمة أو حديثة، فهل الأمة الأمريكية مثلاً، تعتبر الشعب المصري أفضل لأن له حضارة عمرها سبعة آلاف سنة أو أن الشعب البريطاني يعتبر أن الأمة اليونانية أفضل من الشعب البريطاني لأن منها أرسطو وسقراط، لو ذكرنا أمثلة ووضعنا المقارنات فلن ننتهي، إذن لماذا لا نفترض بأن اليهود بسبب هجرتهم الأولى والثانية والثالثة إلى أرض كنعان وإلى مصر وإلى أرض كنعان ثانية ثم الشتات الذي أصابهم بعد ذلك على يد الفرس والآشوريين والرومان، لماذا لا نعتبر أن كل ذلك قد أعطاهم الفرصة لكي يتعلموا الكثير من الشعوب التي عاشوا بينها، وجعلهم ينتقون ويستفيدون من علوم الغير وتجاربهم، فأضحوا حريصين مثل كل الأغراب الذين يعيشون كأقليات بين الشعوب الأخرى، ولذلك فقد يكون من الجائز أن يكون كل هذا قد منحهم وعيًا خاصًا جعلهم يستفيدون من تجارب الغير كما أسلفنا، فكتبوا تاريخ الآخرين ودسوا تاريخهم بما يصفون به أنفسهم على لسان الإله بأنهم شعب الله المختار.

وكعادة الدول والممالك حينما يشتد عودها، فإنها لا تتردد في غزو جيرانها، نجد أن "سرجون" الاكدي ملك آشور تمكن من القضاء على المملكة السومرية "إسرائيل" وأسَّس أول إمبراطورية عربية "آشورية"، لذا كان هناك من يقول بإن من الصواب اعتماد مصطلح العرب – العاربة، بدلاً من مصطلح السامية.

إذا اقتربنا أكثر نجد أن من المتفق عليه، هو أن العبرانيين نسبة إلى إبراهيم العبري، أما المختلف عليه، فهو سبب تسميته بالعبري، لأن هناك من يقول إن سبب التسمية هي لأنه عَبَرَ مع قومه النهر إلى فلسطين أو أن اسم جده "عيبر".


الامبراطورية الأشورية
أراراط
حر قزوين
أشور
مادي
نهر الفرات
نهر دجلة
بابل
البحر الكبير (المتوسط)
مصر

تذكر كتب التاريخ بأن العبرانيين جاءوا إلى فلسطين على ثلاث دفعات، كانت الأولى حينما جاؤوا مع سيدنا إبراهيم من بلاد الرافدين في القرن ١٨ ق.م، والثانية حينما أتوا مع الآراميين في القرن ١٤ ق.م، والثالثة من مصر مع موسى في القرن ١٣ ق.م، ويُعتبر العبرانيون هم خامس من استوطن أرض كنعان بعد العموريين والآراميين والكنعانيين والفلسطينيين.

وهنا لا بد من وقفة مع القارئ للقول بإن الفكرة التي نسوقها في هذا الكتاب ليست لكي يضحي الكتاب أحد كتب التاريخ التي تعج بها المكتبات العامة والخاصة في العالم العربي، وليست فكرة الكتاب الأساسية هي تسفيهها لبعض المعتقدات الدينية، لأن ما ذُكر من بعض المواقف التاريخية وتطور الأحداث، لا يعدو الهدف منه إلا ترك أثر في نفس القارئ لكي يُطلق العنان للعقل، ويستنتج بنفسه كيف يستطيع البشر أن يغتصبوا التاريخ والدين، وكيف يمكنهم أن يفرضوا ثقافة هم يخترعونها على الآخرين، وهو بالضبط ما استطاع فعله شُعبة من العرب الأقدمين الذين لوّنوا أنفسهم وأطلقوا عليها اسم قوم العبرانيين، مستغليين ما تم بناؤه من تقدم وتطور في حضارة ما بين النهرين التي عاش أجدادهم فيها، ولما شعروا بتفوقهم غزوا جيرانهم إلى أن وصلوا إلى أرض كنعان فاستحسنوها، ولما أرادوا أن يقيموا فيها بصفة دائمة بعد أن وجدوا الحياة مريحة نوعًا ما فيها خصوصًا وأنهم سكنوا مصر المتفوقة على حضارتهم الأصلية قبلاً ولم يقدروا على المنافسة، فوجدوا أن الحل هو غزو فلسطين مرة ثالثة لأنها الأسهل، هذا وقد اتفق المؤرخون جميعًا على أن اليهود اختلفوا فانقسمت دولتهم إلى دولتين كما ذكرنا في غير مكان، هما دولة يهوذا وعاصمتها القدس في الجنوب ودولة إسرائيل وعاصمتها السامرة في الشمال، لكن قبل المضي هنا نجد من الأهمية أن نذكر بأن العبرانيين لو كانت فلسطين الأفضل لهم أساسًا لما غادروها إلى مصر، وهذا لو نحينا جانبًا قصة يوسف بن يعقوب واستعملنا العقل فقط.

لقد أدى ظهور الملك الآشوري تغلات بلاسر الثالث (٧٤٥-٧٢٧ ق.م) إلى الحد من توسع مملكة إسرائيل، وقام شلمنصر الخامس وبعده "سرخون الثاني" بتأديب "يوشع" ملك الإسرائيليين وتلاشت بذلك مملكة إسرائيل عام ٥٨٦ ق.م، بعد ذلك هاجم نبوخذ نصر مملكة يهوذا التي كانت عاصمتها القدس، فاحتلها ودمر القدس، وسمل عينَي "صدقيا" مَلِكَها وقتل أولاده أمام عينيه، وسبى أهلها إلى بابل، وأنهى أخر مملكة عبرية في التاريخ.

مما يلفت الأنظار أيضًا وحتى في زمن كتابة هذه السطور، أن الأخبار تتوارد على أن مجلس محافظة بابل بالعراق، قرر استبدال اسم محافظة بابل ليصبح "الحلة" التي هي أيضًا إحدى مدن محافظة بابل، ولا شك بأن تغيير اسم بابل كما يقول أبناء العراق له علاقة بدول أجنبية مثل إسرائيل مع ما يعني ذلك للتأثير على كتب التاريخ ومكانة بابل وما ترمز إليه بالنسبة لأهل المنطقة، وقد قيل إن جهات أجنبية قد صرفت نقودًا بأشكال مختلفة لأجل دعم تغيير اسم بابل.

هذا، وسنرى في الكتاب كيف استطاع هؤلاء مستفيدين من خبرتهم مع تقلبات الأزمان والدول، ومع ما أصابهم من دمار وأخطار أن يتمكنوا في هذا الزمن باقتدار بالسطو على فلسطين وطرد أهلها، كونها الحلقة الأضعف في فترة من فترات التاريخ وحيث صادف أيضًا أنها في موقع لافت لأنظار العالم.

قبل أيام الهجرة اليهودية الأولى إلى فلسطين في الربع الأخير من القرن التاسع عشر حينما راحت تضعف الخلافة العثمانية وقبل أن يتم تمزيقها وتقطيعها نتيجة للحرب العالمية الأولى، ما كان لليهود أن يقيموا دولة لهم في فلسطين كما لم يستطيعوا ذلك قبل ألفي عام، والسبب ببساطة هو لأنهم كانوا لا يقوون على ذلك، وحينما استطاعوا ماديًا بكل ما تعنيه الكلمة حيث توفر المال والإمكانيات والتحالفات مع الإمبراطوريات والقوى المتنفذة، صنعوا ما أرادوا بإرادات البشر، فلو كانوا المفضلين عند الرب لما تركهم٢٠٠٠ سنة لكي يعودوا الآن للقدس، لأن ما حدث في فلسطين لم يكن إلا بسبب توفر العوامل الدنيوية والمناخ، وميزة بني إسرائيل

أنهم منظمون كأفضل الأمم، ويجيدون اغتنام الفرص، والآخرين من أهل المنطقة هم عكس ذلك.

لو تمعنا في الأمر أكثر، لوجدنا أن الدافع الديني لليهود لم يكن هو سبب تجمعهم وتعاونهم، لأنهم عاشوا ألوف السنين في أوطانهم الأصلية ولم يحركهم دين من أجل الذهاب إلى القدس، وحتى حينما قوي نفوذهم وأضحى لهم اتحادات وتنظيمات وبعد أن أوجدوا المنظمة الصهيونية العالمية، كانوا ينظرون للقدس كأي بقعة أخرى مدرجة على جدول أعمال إمكان الخيارات لكي تكون وطنًا لليهود لو قدروا أن يحصلوا على موافقة الدول الكبرى، بل حينما استعصى على زعمائهم التفاهم مع السلطان عبد الحميد ووجدوا رفضًا تامًا منه، لم يدفعوا حلفاؤهم على اعتبار المشروع اليهودي لاستيطان فلسطين هو مشروع مقدس رغم أن المسيحية الصهيونية في أوروبا وأمريكا كان لها تأثير ونفوذ، إذن هناك أسباب أخرى جعلت الصهيونية تتمكن من الوصول إلى فلسطين.

بالنسبة إلى يهود الإمبراطورية الروسية الذين كانوا يعانون من مضايقة الروس لهم حتى وإن كان بعض زعمائهم قد نادوا برغبتهم الهجرة إلى فلسطين، فلم تكن فلسطين بالنسبة لهم سوى أنهم كانوا لا يعرفون اسمًا غيرها، كونها مذكورة في التوراة، وأما ذكر القدس في أدعيتهم في المناسبات كأن يقول الواحد للآخر "العام القادم في أورشليم" أو ما هو بهذا المعنى، فلا يعدو ذلك إلا أن المقصود مشابه لما يقوله المسلم للمسلم وهو يتمنى الخير لأخيه، يقول "في مكة أو على عرفات العام القادم"، بمعنى أنه يتمنى لأخيه أن يؤدي فريضة الحج أو يزور المكان الشريف، وليس المعنى أن الواحد يتمنى للآخر أن تكون إقامته الدائمة في مكة، لو عرضت مكة مثلاً على كل المسلمين لكي يقيموا فيها بصفة دائمة لما أقام فيها إلا نفر قليل، والدليل أن سكان المملكة العربية السعودية لا يقيمون كلهم في مكة ومعظمهم من المسلمين.

بابا الكاثوليك يقيم في روما أيضًا، فهل كل مسيحي العالم من الكاثوليك يقيمون في روما! لهذا فمن المنطق أن تكون نظرة اليهود إلى القدس قديمًا وحديثًا هي

التعامل مع القدس كما يتعامل المسلم مع مكة والكاثوليكي مع روما، وأكبر دليل على ذلك، ها هي إسرائيل دولة مستقلة وقوة ذرية وقوة عظمى إقليمية واقتصادها مزدهر وتستورد العمالة من الدول الأجنبية، فهل أتاها كل يهود العالم لكي يقيموا فيها، طبعا لا، إن إسرائيل تصنع المستحيل لأجل استقدام مهاجرين جدد من يهود العالم، وتحاول بشتى الوسائل أن توصل رسالة ليهود العالم، فتقول لهم نحن نمثلكم ونحن نسهر على أمنكم، إسرائيل تقول علنًا بأنها مسئولة عن أمن كل يهودي في أي دولة هو يعيش فيها، ومع ذلك ما زالت عاجزة عن جذب يهود أوروبا وأمريكا للقدوم والعيش فيها.

بطريقة أخرى، هل اليهود الإسرائيليين أكثر تدينًا من الذين يعيشون في بلادهم الأصلية، طبعًا لا، إذن هناك عوامل أخرى جعلت اليهود الصهاينة يستطيعون أن يحققوا حلم الدولة التي خططوا لها على أرض فلسطين التاريخية، إن عامل الدين ليس أساس بناء الصهيونية العالمية، علمًا بأن الصهيونية بدون الشعار الديني تفقد حجتها أمام اليهود وأمام غير اليهود، ويفتضح أمرها وتصبح عصابة قامت بأكبر خديعة لليهود وللمسيحية الأصولية.

هذا، وحينما تعرف الصهيونية بالمعني الديني اليهودي الذي يُشير إلى جبل صهيون في القدس، إنما ذلك هو تعريف هُلامي عام لا يسمى الأشياء بأسمائها الحقيقية وإن كثرت مرادفات التعريف، لا شك بأن مقولة العودة إلى صهيون أضحت الفكرة المحورية في النسق الديني اليهودي العام، أما الصهيونية كلفظة بمدلولها السياسي الحديث فهي بلا شك تعود إلى الصحافي اليهودي النمساوي "ناتان بيرنباوم" الذي كان أول من استعملها في مقالة له بعنوان "التحرر الذاتي" عام ١٨٨٦م، وبعد ذلك أتت تعريفات كثيرة، وقال هرتزل مُعرفًا الصهيونية بأنها حركة الشعب اليهودي في طريقه إلى فلسطين.

الصهيونية وكل التعريفات التي أتت بمعناها، كلها اختُرِعَت في النصف الثاني من القرن التاسع عشر وبالتحديد في الربع الأخير من ذلك القرن، إن كل ما قاله ناتان بيرنباوم، هرتزل، بنسكر وموزيس هيس وكل أساطين الصهيونية لم يعطوا

تعريفًا دقيقًا ومحددًا خصوصًا ما له رابط ديني، ثم أين الدين من الصهيونية التي اخترعها أمثال هرتزل العلماني، ألا يُظن بأن هناك تزييف وطمس وخلط لمفهوم الديانة اليهودية حينما تربط بالصهيونية.

حينما يأتي المرء بفكرة ما جديدة، فإننا نقول هو فكَّر وقال ما قال وذكر ما ذكر، وإن فكرته تعني كذا وكذا، وسرعان ما ترتبط الفكرة بالمحسوسات والمنظورات وببقية الحواس الأخرى التي لدى الإنسان، إذن الفكرة هي مخلوق أوجدها مخلوق يناقشها مخلوق، ويكون لها عمر مثل أي كائن على الأرض، فقد تستمر الفكرة ألف سنة وقد تموت بعد نطقها لعدم منطقيتها وضحالتها، وقد تستمر ولكن ليس إلى نهاية، الصهيونية كفكرة وإن نجحت أو تم تطبيقها على مدى الستين عامًا الماضية وقد تستمر أكثر لأسباب اجتماعية أو اقتصادية أو سياسية، ولكن سيكون لها أجل معين مثل كل شيء على الأرض.

لقد استطاعت إسرائيل وكما عمل الإعلام الصهيوني أن تضع صورًا تحذيرية للآخرين من يكونون على أن من يتجاوز تلك التحذيرات يُعتبر معاديًا للسامية وعممت ذلك على كل دول العالم، حتى أن الاتحاد الأوروبي قد أقر رسميًا بذلك وأن الدول الغربية كلها صارت تعتبر تلك التحذيرات جنحًا جنائية تطال من يخالفها من يكون من البشر، من تلك التحذيرات:

- اتهام الصهيونية أو اليهود أو إسرائيل بإيذاء البشر، أي أن كل ما فعلته دولة إسرائيل مع الفلسطينيين هو مجرد دفاع عن النفس.

- مناقشة الهلوكست اليهودي، أي يتوجب اعتماد الرواية الصهيونية فقط، وإن كان البشر هم من وضعوها.

- إنكار حق دولة إسرائيل في الوجود، أي أنه يتوجب على الفلسطينيين والعرب أن يعترفوا بإسرائيل كما تريد هي، أن تأخذ ما تريد من الأرض وأن تعطي ما ترضى للفلسطينيين، إن أعطت فهي تُقدم تضحيات مؤلمة، فصاحب الحق الأصلي آخذ وإسرائيل مضحية.

- اتهام اليهود بموالاتهم لدولة إسرائيل أكثر من ولائهم لدولهم التي يعيشون فيها، وهذا يعني أنه لا يوجد نفوذ يهودي صهيوني في الدول الأخرى! فكيف يفسر في المجتمعات الغربية أن الجاليات اليهودية تتمتع بما تحسد عليه من ميزات مقارنة بالآخرين من أوجه كثيرة من الحياة.

- اتهام اليهود بالسيطرة على مقدرات الدول الإعلامية والاقتصادية، أما السيطرة الإعلامية والاقتصادية فحدث ولا حرج، فلا مجال هنا لوصف السيطرة اليهودية في المجتمعات الغربية بصفة عامة.

- اتهام اليهود بقتل المسيح، نحن نعلم بأن النصارى يعتقدون وفق نصوص أناجيلهم بأن دم المسيح في عنق اليهود، بل ربما كان اليهود يعترفون بذلك ويفتخرون به.

- المقارنة بين سياسة إسرائيل والسياسة النازية، بلا مقارنة هنا نسأل، ماذا يُطلق على ما اقترفه الإرهاب المنظم من مذابح وقتل من قِبل دولة إسرائيل ضد الفلسطينيين؟

مما سبق يمكن القول بإن الصهيونية المتمثلة بدولة إسرائيل ومن يساندها، يعتبرون أن كل ما تقرَّه الصهيونية ودولة إسرائيل هو مقدس، وفي الحقيقة هو الخطر بعينه، فلا شيء من المفترض أن يعتبر مقدسًا ما دام من أعمال البشر أو مما تفوهوا به، ويظل دائمًا قابلاً للنقاش، فلماذا يخاف الصهاينة مراجعة غيرهم لما ذكرنا من نقاط تحذيراتهم للآخرين، أليس الحقيقة فقط هي ما لا يقبل التصويب ولا يجب مناقشته.

إن الحقيقة ببساطة لا تُناقش لأنها حقيقة، لكن الصهاينة العلمانيين الذين عمر حركتهم ما يزيد قليلاً على مائة عام، يضعون قوانينهم وقراراتهم وأحلامهم وأطماعهم وظلمهم للآخرين موضع التقديس فيربطونه بالديانة اليهودية، ويجب على العالم أن يفهم جيدًا إنَّ رفض شيء لإسرائيل هو لا سامية وعنصرية.

من ناحية أخرى، أين العلاقة الدينية اليهودية للحركة الصهيونية، ونحن نعلم أن الصهيونية ما كانت لتوجد لولا أن تغييرات وأحداث عبرت بها المجتمعات التي تواجد فيها اليهود بصورة ملموسة، فلولا التحولات الاجتماعية وبروز الدولة القومية وحركات الإصلاح العلمانية، لما فُرض "الجيتو" مثلاً، ولولا اضطهاد اليهود في روسيا لما وُضِعت بذور الصهيونية، وحتى من هاجر من اليهود الروس اتجه معظمهم إلى أمريكا وبلاد أوروبا وجزء يسير ذهب إلى فلسطين، إذن السبب الرئيسي لولادة الصهيونية هي العنصرية التي تبناها أغنياء اليهود في أوروبا الغربية لأجل توظيفها اقتصاديًا أيضًا، وذلك لخلق مشروع اقتصادي مهيمن عليه من قِبلهم ويظل مِلكًا لهم يحاربون بسهولة من ينافسهم في مشاريعه الاحتكارية، حتى ولو كان هذا المشروع على صورة وطن لليهود في أوغندا أو في غيرها أو أن يكون فلسطين، فهل هذا من اليهودية بشيء؟ إذن إضفاء الصفة الدينية على إسرائيل ليس أكثر من خداع مؤقت يقبل التغيير في أي وقت إذا اقتضت مصالح من يعنيهم الأمر.

هذا، ومن الملاحظ أن زعماء الدولة الصهيونية ما فتئوا يلحون على الإدارة الأمريكية الفاعلة في هذا الزمن في السياسة العالمية على اعتراف العالم في عصر العولمة، بأن إسرائيل هي دولة يهودية أي صبغتها دينية رغم أن جوهر الدولة ونظامها ليس دينيًا، أعلن الرئيس الأمريكي السابق جورج دبليو بوش في إحدى المؤتمرات في شرم الشيخ بمصر، بأن إسرائيل مهما نظر إليها العرب والعالم بأي كيفية هي دولة يهودية.

المفارقة أن الإعلان جاء على لسان رئيس أكبر دولة ذات نفوذ في العالم بأن إسرائيل دولة يهودية بمعنى دينية، في الوقت الذي تقود فيه أمريكا العالم بثورة العولمة التي تطمس في لججها الديانات والقوميات، وهذا يعني أن إسرائيل بالنسبة للغرب هي فوق كل الدول والأمم والأنظمة، فهل يا ترى أن إسرائيل تعتبر المرجع المقدس بالنسبة للبشرية، وأن الصهيونية متجهة فعلاً لحكم العالم، وأن كل ما تقوله إسرائيل وزعماؤها يجب اعتباره مقدسًا لا يقبل إعادة التفكير!

كيف تعتبر مقولات زعماء إسرائيل مقدسة وهي تخلو من الخير، حينما يقول أحد زعماء إسرائيل بإن الفلسطيني الجيد هو الفلسطيني الميت ألا يعتبر هذا عنصرية، وحينما تقول أم إسرائيل كما أطلق الأمريكيون على جولدا مائير أحد رؤساء وزراء اسرائيل حيث ظلت حتى عام ١٩٦٩م تُنكر وجود الشعب الفلسطيني، ألا يعتبر هذا في مقدسهم كمن ينكر وجود المحرقة بل وأكثر، لأن إنكار وجود الشعب الفلسطيني هو إنكار شعب بأكمله وليس مجرد إنكار جزء منه، أليس أن يقول الإسرائيليون بإن دولة إسرائيل هي يهودية وتجد أن رئيس الولايات المتحدة يؤيد ذلك، هو جريمة ضد ما يزيد عن خمس عدد سكان إسرائيل من العرب وغيرهم من أهل المعتقدات الأخرى.

إذا كان ما يتهم به الفلسطينيين دولة إسرائيل وزعماءها يقبل التشكيك والنقاش والإنكار في أغلب الأحيان تحت مبرر شيطاني اسمه الدفاع عن النفس، فلماذا لا يقبل التشكيك ما تقوله الصهيونية وما تخاف أن يعيد التفكير به الآخرون، حينما يقول زعيم صهيوني بمرتبة حاييم وايزمان، "إن أعداء أعداء اللا سامية من اليهود الأوروبيين هم أكثر خطرًا على المشروع الصهيوني من أعداء السامية"، فهل هذا مقدسًا لا يقبل التشكيك، بينما الزعيم الصهيوني يعني أن المقصود أن أعداء أعداء اللا سامية إنما هم يضعون العصا في دولاب المركبة الصهيونية المتجهة لاستيطان فلسطين، لأنهم لا يؤمنون ولا يريدون سكنى فلسطين، كونهم من أهل الديانة اليهودية التي لا تعترف بقيام دولة لليهود، حسب تفسير ما قاله حاييم وايزمان فإن أولئك يستحقون التجريم لأنهم يخالفون دين الصهيونية، دين اتحاد الاحتكارات المالية المتمثلة أو تبدو على صورة دولة اسمها إسرائيل، أو التي مثلها قبلاً هو ولورد روتشيلد وأمثالهما قبل أن تُصبح واقعًا على أرض فلسطين.

يُستدل من كافة الدراسات وكتب التاريخ ومراحل تطور الفكر الصهيوني خصوصًا في أوروبا الغربية، بأن الصهيونية أساسًا كفكرة لم تكن أيديولوجية إنما كانت مشروعًا، وفي الحقيقية كانت مشروعًا يهوديًا، لكن المشروع اليهودي كان قد سبقه مشروع مسيحي وجد أصلاً بسبب الهجرة اليهودية إلى أوروبا الغربية،

ومن هنا صارت المجتمعات الغربية تتململ وتضيق باليهود الفقراء القادمين من الإمبراطورية الروسية، وهو ما جعل زعماءهم في الحكومات والبرلمانات يسعون إلى التخلص مما أصبح يضايق مواطنيهم فعملوا على استحداث "الجيتو" اليهودي في بلادهم، ويمكن القول بإن المشروع المسيحي قد أدى إلى التفكير في خلق صيغة أكثر عملية بالنسبة للمشكلة اليهودية، ومن هنا برز المشروع اليهودي وراح يتطور بالتنسيق مع المشروع المسيحي وتم مزج المصالح المادية بالحاجات الإنسانية للقائمين على المشروعين، ومن هنا راحت تتطور وتتحسن فكرة الصهيونية إلى أن أضحت أيديولوجية وصار يتم تسويقها لليهود ولغير اليهود بالخداع تارة وبالرشوة تارة أخرى، لكن اليهودي كان أقدر الأشياء على التنفيذ.

توظيف السلبيات:

تُعتبر الحركة الصهيونية أكبر تحدي واجه الوجود العربي في فلسطين التاريخية، وأشرس وأقوى أيديولوجية كيانية تحدت العرب على ملعبهم، فقد عملت الصهيونية وما زالت على تحطيم الإرادة العربية، لذا هي أكبر تحدي وجودي واجه العرب المسلمين حول مدينة القدس في العصر الحديث، لقد استطاعت الحركة الصهيونية أن تجعل الشتات اليهودي المفترض أن يكون محكومًا بقوانين المجتمعات التي يعيش فيها بهيمنة رأس المال، أن يكون أساسًا فكريًا وتنظيميًا جديدًا لليهود الذين عبرت عليهم عواصف التغيير التي مسَّت الشعوب التي عاشوا بينها عبر التاريخ الإنساني الطويل، فأوجدت القومية الصهيونية، ودفعت إلى الحاجة للأرض، وأقنعت الكثير من اليهود برفض المنافي، وعملت على الشروع في إيجاد ثقافة مشتركة بين اليهود، واستطاعت أن تتغلب على تناقضات الجماعات الصهيونية بعلمانية الحركة الصهيونية، وأخذت من الحضارة الغربية ثمرة ما وصلت إليه من رقي وصلت إليه أوروبا نتيجة ثورات، بعد أن تخطت التقاليد والأنظمة والدين، ذلك منذ الثورة الإصلاحية في القرن السادس عشر،

واستمرارها في الثورة العلمية، حينما كان جاليليو ونيوتن وغيرهما من فرسان الفكر والاختراعات العلمية، أولئك الذين نبغوا في القرن السابع العشر، وفي الثورة الصناعية في القرن الثامن عشر، ووصول هذه الثقافة إلى الذروة في الثورة السياسية (الفرنسية)، التي رفعت شعار المساواة وحقوق الإنسان.

واستطاعت الصهيونية أن تتغلب على العرب وهم في أرضهم، وحيث كان هذا رغم كل شيء يعطي العرب أسباب التفوق لو كانوا على شيء من التنظيم أو كما فعل اليهود من أجل إنشاء دولة إسرائيل منذ السبي البابلي ومنذ تدمير الرومان لآخر معاقلهم في القدس، ومنذ طردهم من الأندلس على يد الفرنجة، فرغم أن منطق الصهاينة وحجتهم لا تجد سندًا أخلاقيًا في اغتصابهم لفلسطين، إلا أنهم قد استطاعوا أن يفرضوا وجودهم بالتنظيم أولاً ثم بقوة رأس المال ثانيًا وتأثيراته في الجهات الأربع من العالم، وبالقوة العسكرية ذات المهنية العالية بعد ذلك، استطاعوا منذ ما يزيد عن قرن من الزمان أن يشرعوا في الهجرة إلى فلسطين وأن يقيموا دولة لهم، ورغم أن العرب قد هبُّوا لإيقاف الزحف الصهيوني إلا أن الصهاينة استطاعوا أن يحيدوا القوة العربية المبعثرة وأن يجعلوها أثرًا بعد عين، وليس هذا فقط بل إن اليهود الإسرائيليين كانوا في كل حروبهم يحشدون قوة عسكرية تتفوق من ناحية العدد والعدة على كل الجيوش العربية المقذوفة في أرض الصراع.

ليس صعبًا والحال كذلك أن نتصور المهانة والذل الذي أصاب الأنظمة العربية لو استقرأنا تاريخ الصراع العربي الصهيوني على مدى سنوات النصف الثاني من القرن العشرين أو بعد أن أعلنت دولة إسرائيل عام ١٩٤٨م، لقد هبَّ العرب أو من استطاع منهم في ذلك الوقت، هبوا للذود عن حياض فلسطين واستمر العداء العربي على أشده لإسرائيل ومن ساند إسرائيل من دول العالم كبيرها وصغيرها، رغم أن الإمكانيات العربية في ذلك الزمن كانت خجولة إلى أن استطاعت إسرائيل أن تغير مجرى الصراع في حرب الأيام الستة، لا لأنها هزمت الجيوش العربية على ثلاث جبهات واحتلت أراض أخرى من الوطن العربي أضعاف مساحة

فلسطين التاريخية فقط، وإنما لأنها هزمت الأنظمة العربية في منطقة اللاوعي وأقنعتها بأن لا فائدة من الحرب مع إسرائيل.

بعد حرب ١٩٦٧م انكفأ العرب مبتعدين عن ساحة الصراع العسكري ولم يبق في الساحة سوى الشعب الفلسطيني، بإمكانياته الذاتية المتواضعة مع بعض المساعدات العربية من بعض الأنظمة، التي صنفها الإعلام الصهيوني العالمي بالدول المارقة، بعد ذلك تمَّت المصالحة بين إسرائيل وبين بعض الأنظمة العربية، وعلى إثر ذلك تم جر منظمة التحرير الفلسطينية بسبب قلة الإمكانيات وتخلي العرب أن تمضي في طريق التنازلات لإسرائيل، ولم يكتف العرب الفاعلين إقليميًا بأن يظلوا على الأقل على الحياد بين إسرائيل والفلسطينيين بل إنهم راحوا يتوسطون بين الفلسطينيين وإسرائيل بعد أن تخلوا عن العداء لإسرائيل المغتصبة لأرض فلسطين، وأكثر من ذلك أصبحت الأنظمة العربية جهارًا تنصح وتضغط أحيانًا على الفلسطينيين من أجل إعطاء المزيد من التنازلات لإسرائيل، سبحان مغير الأحوال!

من هنا يستطيع المرء لو قام بوزن الأمور بمقياس ثقافات الأمم، أن يفهم بسهولة أن الأيديولوجية الصهيونية قد تفوقت وانتصرت حتى الآن على الفلسطينيين وعلى العرب أجمعين، ومن هنا أيضًا نجد لزامًا علينا أن نذهب إلى أخر حدود المنطق لكي نعرف لماذا انتصرت الصهيونية على العرب في عقر دارهم، لذا سنحاول أن نُسلط الضوء على كيف استطاع الصهاينة أن يطوروا سعيهم وأن يوجدوا منظمة بحجم وقوة المنظمة الصهيونية العالمية، لذا فقد أصبح لزامًا علينا أن نجد إجابة للسؤال الذي راح يفرض نفسه: من هم الصهاينة؟ كيف تم خلق المشكلة اليهودية لكي تحتل مركز الصدارة في العالم؟ ما هو سبب استمرارها رغم أن السعي من أجلها احتاج إلى ما يزيد على قرنين من الزمان حتى تبلورت على الصورة المحكمة التي صنعت دولة يهودية على تراب فلسطين دون أن تحيد عن مسارها على مدى الحقبات؟؟!

لا شك بأن عوامل كثيرة قد لعبت أدوارًا هامة في حياة اليهود، وجعلت الكثيرين منهم كل لأسبابه أن يعمل من أجل إنشاء دولة لليهود، حتى أن كثير من نشطاء اليهود في البداية لم يكن يهمهم أين يمكن أن تقام دولة اليهود، وقد رأينا أنه بعد أن كاد يشتد عود الحركة الصهيونية فقد دبَّ الخلاف بين أكثر من تنظيم صهيوني وذلك خلال التمهيد للمؤتمر الصهيوني الأول، بسبب عدم تحديد هدف أين يتوجب إنشاء الدولة اليهودية، إلى أن تغلَّب التيار الصهيوني الذي اختار فلسطين لأسباب دينية واقتصادية وسياسية وفضَّلها على غيرها.

يمكن القول بسهولة، بإن العرب (الفلسطينيين) لم يكونوا سببًا في خلق المشكلة اليهودية في العالم، فلم يكن العرب هم من سَبوا اليهود إلى بابل قبل ٢٥٠٠ سنة قبل الميلاد، ولم يكن العرب هم من طردوا الجالية اليهودية من القدس في القرن الثاني الميلادي حينما قضى عليهم الرومان، ولم يكن العرب الفلسطينيون في العصر الوسيط من طردوا اليهود من أسبانيا، بل إن العرب ابقوا على اليهود وأحسنوا وفادتهم سواء في شمال أفريقيا أو في المشرق العربي، وعاش اليهود بينهم وتمتعوا بالأمن والأمان والعمل، لكن خروج اليهود من الأندلس في القرن الخامس عشر ولجوء قسم كبير منهم إلى أوروبا الغربية كان قد أشعل نار العنصرية ضد اليهود من قبل أوروبا المسيحية مما جعلهم يعانون من عدم الاستقرار خصوصًا في ألمانيا، مما جعل أعمالهم وتجارتهم أيضًا تنحصر وتضيق وقد سبب ذلك قلقًا وعدم استقرار لهم.

وحينما جاءت الثورة الفرنسية بشعارات المساواة وحقوق الإنسان ارتاح اليهود قليلاً، وعادوا إلى أعمالهم فأنشئوا المصانع وفتحوا الأعمال وانشأوا بيوت المال من بنوك وغيرها، إلا أن الأمر قد عاد ثانية ولقوا ما لقوا من تمييز من الشعوب الأوروبية مما جعل حاخاماتهم ومفكريهم يجولون في خواطرهم ويبحثون عما يمكنهم أن يفعلوه، وصاروا يبحثون عن سبب عدم اندماج الجاليات اليهودية في المجتمعات التي تعيش فيها، ولقد ولَّدَ هذا لديهم شعورًا جديدًا يُعتبر أولى بذور الأيديولوجية الصهيونية الحديثة.

لقد كان لظهور دور الدولة القومية في أوروبا أيضًا أثر كبير في دفع اليهود إلى البحث عن هوية تؤَّمن لهم الاستقرار الاقتصادي وتحمي أملاكهم وأموالهم، لـــذا صار أغنياء اليهود الأوروبيين يبحثون عن وسيلة لكي يتوفر لرؤوس أمـــوالهم حرية أكثر وأمانًا للتنقل والعمل والنجاح، وقد رأينا بعد قيام دولة إسرائيل كيـــف أضحت تلك الدولة تتضخم اقتصاديًا بأكثر مما تستطيع أن تبتلع، وأصبحت مركز الشبكة الاقتصادية ليهود العالم، فلم يمض على إنشاء إسرائيل نصف قرن إلا وقد أصبح اقتصادها أكبر من مجموع اقتصاديات الدول المحيطة بها رغم حداثتها في الوجود، ورغم أن كل القادمين إليها من المهاجرين اليهود هم من المعدمين، بـــل وأضحت نقطة جذب للأيدي العاملة من غير اليهود أيضًا للعمـــل فـــي المـــزارع والمصانع، ولم يكن ليتوفر هذا إلا لأن أغنيـــاؤهم نقلـــوا جـــزء مـــن ثـــرواتهم واستثمروها في الدولة الوليدة، لهذا يمكن القول بإن إســـرائيل أضـــحت معمـــلاً ومختبرًا لكل ما يمكن بحثه وطبخه لتحقيق أهداف أغنياء اليهود في الغرب بصفة عامة، وهو ما جعل الغرب المُسَيْطَر عليه اقتصاديًا من قِبل اليهـــود إلا أن يظـــل مستنفرًا للحفاظ على الثروة الاقتصادية التي وضعها مواطنيه من أغنياء اليهـــود واستثمروها في إسرائيل التي ألبسوها ثوبًا مزخرفًا حاملاً لشعارات ما أنـــزل الله بها من سلطان من دينية ووطنية وأخلاقية والحادية لأجل أن تظل عروسًا مغرية لكل صاحب مصلحة من المتنفذين في العالم.

إضافة لما سبق، فربما ليس من الإنصاف أن نُغفل دور بعض الأفراد الذين لعبوا دورًا هامًا في الحركة الصهيونية، فمما لا شك بأن هناك شخصيات بـــارزة فـــي تاريخ الحركة الصهيونية لا يمكن طمس ذكرها قد ساعدت على بـــروز الحركـــة الصهيونية ووصولها إلى هدف قيام الدولة اليهودية في فلسطين، ولـــيس هنـــا مجال للحديث عن كل زعماء الصهيونية البارزين وما قدموه من أجل منظمـــتهم، لكن لا يمكن بحال من الأحوال تجاهل دور الشخصية العبقرية السياسية اليهودية الشابة التي لعبت دورًا رائدًا في خدمة القضية اليهودية خلال النصف الثاني مـــن القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، تلك هي شخصية الصحفي النمساوي

اليهودي المجري الأصل "تيدور هرتزل" صاحب كتاب "دولة اليهود" الذي صدر في عام ١٨٩٥م، فلقد كان المؤتمر الصهيوني الأول عام ١٨٩٧م الذي انتُخِب هرتزل رئيسًا له، نقطة تحول في تاريخ الحركة الصهيونية وتاريخ اليهود في العالم حتى أن هرتزل قال بعد انتهاء المؤتمر "أستطيع أن أقول، بإننا قد أقمنا الدولة الصهيونية في فلسطين".

كما يمكن القول أيضًا بإن نجاح الحركة الصهيونية قد قام على عوامل سلبية، لكن الفضل يعود كما أسلفنا لفاعلية وقوة رأس المال اليهودي الذي لعب كل الأدوار في خلق إسرائيل، وليست المباديء والمُثُل والشعارات وحدها التي قادت إلى تحقيق الهدف.

هذا ويمكن القول بسهولة بإن فكرة الدولة الإسرائيلية هي فكرة شيطانية نُسِجَت من أوهام ليس لها أرض يمكن الوقوف عليها، فمن العوامل السلبية أيضًا التي بُنيت على أساسها إسرائيل، أن فكرة الصهيونية ارتبطت بشيء لا أخلاقي مثل معاداة السامية، رغم أن الفلسطينيين أيضًا وهم من أقيمت إسرائيل على أنقاضهم هم ساميون، إن إنشاء الدولة اليهودية قد أقيم على أرض الغير بل كانت الأرض مسكونة، لذا كان لغياب السبب الأخلاقي دورًا إيجابيًا في دعم إنشاء الدولة اليهودية خصوصًا حينما ساعد وبارك قيامها دول الاستعمار.

إن علاج الخطأ بخطأ أفظع منه هو خطأ كبير، وذلك لأن المجتمعات الأوروبية وجدت ضالتها من الانتقام من اليهود بلفظهم من الدول الأوروبية وتحولهم من أعداء إلى أصدقاء في معادلة شيطانية لا تقبل التأويل وتطمس الخطأ: فاليهود كانوا مكروهين وغير مرغوب بهم في كل دول أوروبا والولايات المتحدة، وتقلبات معاداة السامية لا تنفك ما تكاد تهدأ حتى تعود ثانية، ولما استطاع زعماء الحركة الصهيونية الناطقين باسم أغنياء اليهود أن يتحالفوا مع الحكومات الغربية ورفعوا شعار تخليص اليهود من الظلم ومعاداة السامية بخلق وطن قومي لهم، أضحى اليهود مركز العطف والاستحسان والمباركة من قِبل الشعوب الغربية التي باركت قيام إسرائيل، وأضحى اليهود ممنونين وشاكرين للغرب وأصبح

المصير واحدًا هنا وهناك، لكن الوازع الديني في كلمة (الصــــهيونية) كمصـــطلح للدلالة على أهمية الجسر الديني التاريخي بين (صهيون) الأمــس والصـــهيونية اليوم لا يمكن إغفاله حتى يتم التزاوج بين الدين والسياسة والاقتصاد، أي بـــين أرض التوراة ومملكة داود وسليمان في القرن العاشر قبل الميلاد، وبين الحركـــة السياسية ذات البُعد الاقتصادي في نهاية القرن التاسع عشر، هـــذا وقـــد وردت كلمة (صهيون) في التوراة (١٥٢) مرة، وفي العهد الجديد (٧) مرات، وتأكيـــدًا لأهمية الجذر الديني يقول "هربرت بارس" في شرحه لطبيعة الصـــهيونية: "تعلــم اليهود أنهم نفوا لأنهم ارتكبوا الخطيئة، وعندما يُكفّرون عن خطايـــاهم يعـــودون إلى أرض الميعاد"، وقد استغل زعماء الحركة الصهيونية هـــذه المقولـــة أبشـــع استغلال لكي يوجهوا بقوة أنظار اليهود نحو فلسطين للبحث عن هويـــة، الأمـــر الذي خلق رابطة وحدوية (ملفقة) بين اليهود في الشـــتات وبـــين مقولـــة أرض الميعاد، من ناحية أخرى ارتبطت العاطفة اليهودية بمعـــاداة الســـامية الحديثـــة، فتوجه اليهود نفسيًا وفكريًا نحو حل مشترك ببناء وطن خـــاص بهـــم علـــى أن يعتمدوا في ذلك على الدوافع التي تثير العواطف التاريخية أو المعاصرة، ســـواء كانت إيجابية أم سلبية.

مع بروز القوميات وانتشارها في أوروبا كان السؤال الذي طرحه اليهـــود علـــى أنفسهم، هل بإمكان اليهود أن يُساهموا في بناء حضارة قومية فـــي أوروبـــا أو يكونوا مواطنين فيها، كان جواب زعمائهم ما معناه، نعم لحضارة قومية لليهـــود ولكن قبل ذلك يجب أن يكون لليهود قومية على أرضٍ لهم يكتسبون فيها شرعية تاريخية، وهذا ما دفع بالتطلع إلى فلسطين، وهكذا استمرت الحركة الصـــهيونية تتطور مع الأيام والسنين من أجل هدف لم تَحد عنه.

هذا، وكان دور الاستعمار الغربي درسًا بليغًا لزعماء الحركة الصـــهيونية، فقـــد جعل التيار القومي (الاستيطاني) من الصهيونية ينتصر على التيـــار الصـــهيوني الوطني (التوطيني) الذي كان يدعو إلى اندماج اليهود في مجتمعـــاتهم الأصـــلية بسبب أنه لا يكفي أن يهاجر اليهود مثلاً إلى فلسطين ويعيشون في كنف الدولـــة

الحاكمة هناك ويشكلون قوة استعمارية لها ما لها من أهداف، لقد تعلَّم الصهاينة من الاستعمار الغربي بأن الأيام دول وأن الاستعمار لبلاد الغير سيزول مهما طال أمده، لذا سعوا إلى خلق وصناعة شعور قومي لدى المتدينين اليهود حتى يدفع هؤلاء إلى البحث عن وطن لكي يكون استعمارًا استيطانيًا يملك حاضر الأرض ومستقبلها، وبذلك جسدت الصهيونية في تحالفها مع كبرى الدول الاستعمارية تحالفًا لا حياة لها من دونه.

لا شك بأنه ما زالت هناك تناقضات في الدعوة الصهيونية لم تحل بعد حتى يومنا الحاضر، وما زالت تطفوا إلى السطح أحيانًا فتتوتر الأشياء، وهو ما يشكك في استمرار الدولة الصهيونية كفكرة وكنظرية وكاستمرار على أرض فلسطين، هناك تناقضات لا يمكن تجاوزها ولم تجد حلولاً بعد، هناك التناقض العلماني الذي تتبناه الحركة الصهيونية التي لا تعترف بالدين، وهناك الجذور وأدوات الدين اليهودي التي كثيرًا ما تتصادم مع فكرة إنشاء دولة لليهود في زمن الحياة الدنيا، كما أن هناك تناقض بين الفهم الغربي للحضارة الحديثة وبين الحضارة الشرقية اليهودية التي تتناقض كثيرًا مع الحضارة الغربية في المأكل والنوم وأيام العمل وروتين الحياة اليومي، هناك تناقض رغم كل ما فعلته الحركة الصهيونية حتى الآن، وما صنعته من شعارات بين الصهيونية وبين حاخامات وطوائف من اليهود لا يُغفل وزنهم، ينكرون أن يكون لليهود وطن قومي كون اليهودية دين وليست قومية كما يفهمونها.

بعد قيام دولة إسرائيل عام ١٩٤٨م نشب خلاف بين زعماء الحركة الصهيونية الذين أسَّسوا دولة إسرائيل، رأى فريق منهم بأن تُدمج المنظمة الصهيونية بالدولة الناشئة وتهتم بأمور إكمال وتقوية الدولة الفتية، ورأى البعض الآخر أن تظل المنظمة وتستمر في خدمة الشئون اليهودية في الخارج، ولم يطل الخلاف حتى تم الاتفاق إلى دمج المنظمة الصهيونية بالدولة عام ١٩٤٨م بعد انتخاب حاييم وايزمان رئيسًا للمنظمة.

هذا ولم يهدأ نشاط المنظمة الصهيونية، فكما عدلت أهدافها بعد قيـام إسـرائيل، عملت أيضًا على تعديل أهدافها بعد حرب ١٩٦٧م، ففـي عـام ١٩٦٨م انعقـد المؤتمر الصهيوني السابع والعشرون، وصدر برنامج سُمِّي "برنامج أورشـليم"، صدر عن ذلك بيان يؤكد على وحدة الشعب اليهودي ومركزيـة أرض إسـرائيل، وأوصى بجلب اليهود من كل أصقاع الأرض والتشجيع على الهجرة، والمحافظـة على أصالة الشعب اليهودي من ناحية التشجيع على التعلـيم اليهـودي الـديني واللغة العبرية وبث القيم والثقافة اليهودية، كما أوصى المؤتمر بأن تكون الكلمة العليا لدولة إسرائيل وليس للمنظمة الصهيونية خصوصًا في موضـوع الهجـرة اليهودية، وعلى ذلك تأسست "وزارة الاستيعاب" للقادمين الجدد، وبـذلك تخلـت المنظمة الصهيونية عن دورها التاريخي للدولة.

تقول إحصائيات المنظمات الدولية إن ما يزيد عن ٨٠% من أراضي الفلسطينيين تم اغتصابها من قِبل المنظمات اليهودية قبل وخلال عـام ١٩٤٨م، ممـا جعـل الفلسطينيين يعيشون في دولة تعتبرهم مواطنين من الدرجة الثانيـة وهـو مـا يتنافى مع مباديء حقوق الإنسان التي أقرتها الدساتير والمواثيق العالمية، كمـا وأن القانون الإسرائيلي لا يعترف بزواج اليهود من غيرهم إذا تم الزواج خـارج إسرائيل، إذن على المرء ألا يحتار فعليه أن يقرر إما هو مع العـدل والمسـاواة بين المواطنين في إسرائيل عربًا ويهودًا أم مع الدولـة اليهوديـة التـي تحكـم بالقوانين العنصرية أو ما نشأت عليه الصهيونية العالمية التي وُلِدت من رحمهـا تلك الدولة.

ليس للإنسان في إسرائيل خيار أن يُطالب بدولة يتساوى فيها الناس جميعًا، ومن يعترض فإما هو يدعو إلى إزالة إسرائيل إذا كان فلسطينيًا وإن كان يهوديًا فهـو كاره لذاته، وإن طالب بتطبيق قوانين حقوق الإنسان فإنه مُعادي لوجود إسرائيل أو مُعادي للسامية، وفي كل الحالات يكون المعترض في موقع الدفاع.

تُعتبر إسرائيل كيان فريد بين الدول، فلو طالبت بأن تكون بريطانيا دولة واحـدة موحدة يتساوى فيها الناس جميعًا أمام القانون، فلن يعترض أحد على ما تقـول،

ونفس الشيء عن الولايات المتحدة وعن أي بلد آخر من القارات الخمس، لكـن لو طالبت هذا في إسرائيل فإنك متهم باعتراضك على وجود إسرائيل نفسها، لهذا أضحى جليًا أن حق "الدولة اليهودية" في الوجود غير متطابق مع القيم العالميـة الراسخة في المساواة بين مواطني الكيان الواحد.

لذا فإن الصهاينة أيضًا، أولئك الذين انشأوا إسرائيل على حساب العـرب فـي فلسطين، ربما لم يدركوا أن الغرب الذي مهَّد لهم ذلك، وقدَّم كل شيء ومـا زال، هو نفس الغرب الذي كان يستخدمهم على مر السنين للتآمر كلمـا احتـاج، وإن دورهم بقي كما هو خَدمًا للأقوياء من أجل الفائدة المادية التي لا أحد يُنكر بـأن لها دورًا هامًا في صناعة الأحداث، إلا أن دورها لا يصمد دائمًا مع تغير الأزمان، لقد رأينا كيف كان حال اليهود في أوروبا قبل الثورة الفرنسية، وكيف كان حالهم قبل ذلك حينما خرجوا من أسبانيا، وكيف صار حالهم بعد الثورة الفرنسية ثم ماذا حدث لهم في الحرب العالمية الثانية فهل نفعهم المال، المال قد يخدم فـي بعـض الظروف لكنه لا يساعد في كل الظروف، وما دامت الأيام ثواني ودقائق وساعات والزمن لا يتوقف فإن كان المرء في لحظة معينة يفكر في أمر مُعـادي لشـخص آخر فإنه يتوجب على المرء نفسه ألا يغيب عن فكره بأن الشخص المقصود ربما هو أيضًا يفكر بطريقة عدائية ولكن بأسلوب مختلف، وكذلك هي الأمم والشـعوب وقادتها والأيام دول.

لو أردنا مثلاً أن نتصور كيف كان يفكر زعماء الحركة الصهيونية في فتـرة مـا بعد صدور وعد بلفور وقيام دولة إسرائيل، وكيف كانت تُفكر النخب البريطانيـة في ذلك الوقت، فربما نجد مزيجًا من التوضيح عما آلت إليه الأمور.

الصهاينة كانوا منهمكين كيف يـدفعوا بالمهـاجرين إلـى فلسـطين وينشـئون المستوطنات، وكان لا هدف يعلو عن هدف قيـام الدولـة اليهوديـة، والنخـب البريطانية من ناحية أخرى لم تضع أي اعتبار لليهود رغم أنها هي نفسها مـن عمل على إصدار وعد بلفور! فحينما كان يقتل اليهود على أيدي النازية لم يـدير الإنجليز بالاً لما كان يحدث لليهود، قال السير "رونالد ستورز" أول حاكم للقـدس

تحت الانتداب البريطاني، "إن قيمة السيادة اليهودية على فلسطين تكمن بالنسبة لانجلترا في إقامة كيان يهودي مَلَكي موال على طريقة أيرلندا الشمالية، وذلك في بحر من العروبة المعادية"، إذن لم تكن أغراض الإنجليز إنسانية أو خيِّرية، وهذا بالضبط ما كان يهم بريطانيا في ذلك الوقت، بل يمكننا أن نتخيل كيف كانت نظرة فرنسا والولايات المتحدة أيضًا للدولة اليهودية القادمة.

من هنا يتضح أن كل شيء تقوم عليه إسرائيل هو زائف، لأنها لم تولد ولادة طبيعية في بيئة ومناخ طبيعي، فأسبابها ومادتها وصناعها وفكرتها ما زالت في مهب الريح، لأن وجود إسرائيل كان لأهداف زمنية تعتبر آنية في عمر الإمبراطوريات والدول، كأن تكون مثلاً مانعة الصواعق للصراع الطبقي (والوطني) الدائر في المنطقة العربية، ومستفزة للكراهية العربية، وراعية للحروب الإثنية (الطائفية)، ذلك لأجل أن يتسنى للأنظمة العربية الجالسة على برميل بارود من التناقضات والفساد والثورة، الاستمرار في السلطة عن طريق تحويل سخط الجماهير باتجاه إسرائيل، وهو ما جعل فرنسا تمد إسرائيل في البداية بالسلاح والطائرات، وجعل الولايات المتحدة بعد ذلك تمد إسرائيل بالعتاد الثقيل.

إن وجهة نظر النخبة التي تتحدث من خلف الكواليس في الغرب، أن استفزاز الحرب الإثنية في المنطقة العربية من قِبل إسرائيل هو أساس وظيفة الدولة اليهودية بل إن أغلبية اليهود الذين ذاقوا ويلات النازية من ضحايا الهولوكوست كونهم قد فهموا درس لعبة الأمم أكثر من غيرهم من أبناء عقيدتهم، فحين خُيِّروا بين الولايات المتحدة وإسرائيل، اختاروا الذهاب إلى الولايات المتحدة لأنها بدت أنها تمنحهم ما يريدونه حقًا، مجتمعًا يتساوى فيه الناس جميعًا أمام القانون، ويُعامل فيه اليهود كغيرهم تمامًا، وليس كحال خُمس سكان إسرائيل (حتى سنة ٢٠١٠م) من الفلسطينيين الذين رغم أنهم أصحاب الأرض الأوائل وأقدم من إسرائيل، يُعاملون كمواطنين من الدرجة الثانية.

الفصل الثاني عشر

الغايـة تُبرر الوسيلة

لم أجد عنوانًا لهذا الباب غير "الغاية تُبرر الوسيلة"، فلقد أقام أصحاب المشروع الصهيوني في فلسطين دولتهم على الزيف والتضليل والرشوة واستعمال كل كلمات اللغة وكل السلوكيات، خيرها وشرها، حلوها ومرها، الأصولية والإباحية، ولم يقيموا وزنًا لقيمة أو فضيلة، لا يوجد شعب في العالم يجمع كل التناقضات كما تجتمع في الشعب الإسرائيلي الذي جيء بقطعانه من كل حدب وصوب، فتجد معظم أعراق الجنس البشري موجودة به، ولذا فهو يموج بتيارات ومذاهب ما أنزل الله بها من سلطان، نظام المجتمع الإسرائيلي يحمل كل أطياف الفكر البشري، قديمة وحديثة، ديني وعلماني، ديمقراطي، ليبرالي، اشتراكي الخ، لذا فهو يستعمل تلك الأيديلوجيات كلما لائمت إحداها ما يمكن أن يكون من عائدها مصلحة، إذن لا غرو أن يصدر عن هذا المجتمع الشيطاني ما لا يرضاه غيره، ولأن الأساس أن عناصره نفعية فيمكن أن يُتوقع منه أي شيء ليس في صالح الآخرين، الذين يُطلق عليهم الأغيار.

في أحد مواسم جني ثمر الزيتون الفلسطيني تناقلت وسائل الإعلام، أن بعض المستوطنين اليهود سألوا الحاخام الأكبر "يوسف أوفاديا" عن ثمر بساتين شجر الزيتون التي لم يستطع مُلاَّكها الفلسطينيين من أهالي الضفة الغربية جني ثمارها بسبب الحواجز التي يضعها الجيش، سألوه هل يصح لهم شرعًا جني ثمر الزيتون الفلسطيني؟! أفتى الحاخام الأكبر يومها بأنه يصح قطف ثمر الزيتون الفلسطيني والانتفاع به على قاعدة، ما دام يحق لليهود الاستيلاء على أملاك الأغيار، فإنه أيضًا يحق أن تؤخذ جهودهم أيضًا! ودولة أقيمت على الباطل ماذا يتوقع منها غير الباطل!

فضيحة لافون Pinhas Lafon :

هي عملية سرية فاشلة قامت بها المخابرات الصهيونية وشرع بتنفيذها في مصر في صيف عام ١٩٥٤م، وقد سُمِّيت بعملية "سوزانا" حيث كان الهدف منها عمل تفجيرات لمصالح أمريكية وبريطانية ومصرية داخل مصر، وقد خطط للعملية

وأشرف على تنفيذها "بنحاس لافون" الذي كان وزيرًا للدفاع الإسرائيلي في ذلك الوقت، ولذلك سُميت بفضيحة لافون!

تُعتبر عملية سوزانا من أشهر العمليات الإرهابية في المنطقة التي رعتها دولة عضو في الأمم المتحدة، وتُعتبر من المهمات الإجهاضية التي كانت ستخدم إسرائيل، كان الهدف منها زعزعة الأمن المصري والإساءة إلى التقارب المصري – الأمريكي الذي كان في بداية غزل بين أمريكا ومصر ظهرت بوادره حينما قدَّمت السفارة الأمريكية مبلغ ثلاثة ملايين دولار من أجل الأمن الشخصي "لجمال عبد الناصر"، الذي أوحى بعد ذلك بأن يبنى شيء يرمز إلى العلاقة المصرية الأمريكية بهذا المبلغ، فتقرر بناء برج القاهرة، حيث ارتأى مجلس قيادة الثورة أن أمن مصر مستقر وشعبية جمال عبد الناصر في طول البلاد وعرضها كاسحة، ولا حاجة لاستعمال ذلك المبلغ في حماية نظام الحكم.

ترجع وقائع تلك العملية حينما كانت مصر تتهيأ للاستقلال التام عن بريطانيا بعد الشروع في مفاوضات الجلاء التي بموجبها كانت ستنسحب القوات البريطانية من منطقة قناة السويس، كانت الولايات المتحدة برئاسة "دوايت ايزنهاور" الرئيس القوي الذي كان قبلاً قائدًا لقوات الحلفاء في أوروبا في الحرب العالمية الثانية، والذي كان يبدو بأنه غير عابيء حتى لو أن تحسين العلاقة مع مصر يكون ولو على حساب جزء مما لإسرائيل عند أمريكا، فقد كان ايزنهاور يتطلع إلى علاقة مصر كون أمريكا كانت ساعية إلى ميراث نفوذ الإمبراطوريات القديمة في المنطقة العربية بريطانيا وفرنسا.

كانت الخطة التي وضعتها المخابرات العسكرية في الجيش الصهيوني، الإضرار بالمصالح البريطانية والأمريكية، لأجل زعزعة الأمن المصري وجعل بريطانيا تعدل عن سحب قواتها من مصر، وكذلك توتير العلاقة بين مصر والولايات المتحدة، تم تجنيد مجموعة من الشباب اليهود من المقيمين في مصر، ورتبت الأمور على أساس عمل تفجيرات في دور السينما والمنشآت العامة والمصالح الأمريكية والبريطانية الموجودة في القاهرة والإسكندرية.



بنحاس لافون

أسَّس بنحاس لافون في البداية ما سُـمي بالمجموعـة "١٣١" برئاسـة المقـدم موردخاي بن تسور، الذي قام بدوره بتكليف الرائد "أبراهـام دار" فـي الجـيش الإسرائيلي، بالسفر إلى مصر، والبدء في تجنيد العناصر اللازمة لتنفيذ الخطـة، في نهاية عام ١٩٥٣م نجح أبراهام دار في دخول مصر بجواز سفر كرجل أعمال بريطاني تحت اسم "جون دارلينج"، ولم تمضِ سوى أسابيع قليلة على اسـتقراره في القاهرة حتى تلقى أوامر التنفيذ.

في ٢ يوليو ١٩٥٤م حدث انفجار في مبنى البريد الرئيسي بالإسـكندرية، عثـر بعدها فريق التحقيقات المصري على بعض الأدلة وكانـت عبـارة عـن علبـة

اسطوانية الشكل لنوع من المنظفات الصناعية كان شائعًا في هذا الوقت، إلى جانب بيت نظارة طبية يحمل اسم محل شهير في الإسكندرية، كان يملكه أجنبي يدعى "مارون أياك"، وقد تبين فيما بعد أن العلبة كانت تحتوى على مواد كيميائية، وقِطع صغيرة من الفوسفور الأحمر.

في ١٤ يوليو ١٩٥٤م وقع انفجار في المركز الثقافي الأمريكي بالإسكندرية، وبينما فريق التحقيق المصري يقوم بعمله للبحث عن أسباب الحادث، هزَّ انفجار آخر المبنى الثقافي الأمريكي في القاهرة، وكانت نتائج التحقيق هو وجود نفس مخلفات حادث ٢ يوليو وأيضًا وجود بيت نظارة طبية من نفس نوع ما وجد في بقايا الحادث الأول، في تلك الأيام أعلنت الصحف المصرية أن أسباب الحادثين هو ماس كهربائي.

في ٢٣ يوليو ١٩٥٤م والذي يصادف الذكرى السنوية الثانية للثورة، كانت مجموعة "دارلينج" قد أنهت استعداداتها لوضع كميات مختلفة من المتفجرات في عدد من المرافق العامة في القاهرة والإسكندرية، من بينها محطة باب الحديد، ومسرح "ريفولي" بالقاهرة، وسينما "مترو" و"ريو" في الإسكندرية، إلا أن المرحلة الثالثة كان مآلها الفشل وذلك بعد أن اشتعلت النيران فجأة في جيب أحد العملاء المكلفين بوضع المتفجرات بدار سينما "ريو"، وبينما كان المارة يهرعون إلى الرجل وقد أمسكت به النيران لإطفائه، ظنًا منهم أنها محاولة انتحار، ساورت الشكوك رجل شرطة كان موجودًا أمام دار العرض السينمائي، فاصطحب الرجل الذي أصيب بحروق إلى المستشفى، وأبلغ مرؤوسيه بالحادث الغريب.

في المستشفى صدر التقرير الطبي عن الحادث يقول إن جسم الشاب المحترق كان ملطخًا بمسحوق فضي غريب، طال "جراب نظارة" يحملها في يده، مرجحًا أن يكون الاشتعال قد نتج عن تفاعل كيميائي، وبتفتيش الشاب كانت المفاجأة، حيث عثرت أجهزة الأمن معه على قنبلة أخرى عليها اسم "مارون أياك" صاحب محل النظارات.

في إفادته أمام جهاز المخابرات المصري اعترف اليهـودي "فيليـب ناتاسـون"، البالغ من العمر ٢١ عامًا، بعضويته في منظمة إرهابيـة هـي المسـئولة عـن التفجيرات الغامضة، وقد عُثِر في منزله حينذاك على مصنع صـغير للمفرقعـات وبعض الأواني التي تضم مواد كيميائية سريعة الاشتعال، وبعض القنابل الحارقة الجاهزة للاستخدام، فضلاً عن بعض الأوراق التي تشرح طريقة صنع القنابل.

في البداية، زعم الثلاثة أنهم يحبون مصر، ويرغبون في المساهمة في قضـيتها الوطنية، بمحاربة الإنجليز والأمريكان حتى يخرجوا من البلاد بالقوة، لكن قبل أن تنتهي التحقيقات فجَّر تقرير المعمل الجنائي مفاجأة تدحض تلك المزاعم، مشـيرًا إلى العثور على شرائح ميكروفيلم دقيقة للغاية، لصقت في ظهور بعـض طوابـع للبريد، كانت أجهزة الأمن قد عثرت عليها في منزل فيليب ناتاسون، الميكروفيلم وقتها كان مقصورًا في استخداماته على أجهزة المخابرات وشـبكات التجسـس، ومن ثم فقد بدأت شبهة التجسس تحوم حول العملية، وبعد تكبير الشرائح، تبـين أنها تحتوى على سبع وثائق عن تركيب واستعمال القنابل الحارقة، إضافة إلـى شفرة لاسلكي. (شبكة المعلومات العربية)

ألقت السلطات المصرية القبض على أعضاء الشبكة، وقدِّموا للمحاكمة وحوكموا وحكموا، تراوحت الأحكام على أعضاء شبكة التخريب بين الإعدام والحكم لعـدة سنوات، ولم تخضع مصر للضغوطات الكبيرة من رؤساء الـدول الـذين طـالبوا بالإفراج عن المحكومين لأسباب إنسانية، في تلك الأثناء تلقى جمال عبد الناصـر رسائل من كل من الرئيس ايزنهاور رئيس أمريكا ونسـتون تشرشـل رئـيس وزراء بريطانيا وغيرهما، أفرجت مصر عن المحكومين بعد نكسة ١٩٦٧م ضمن صفقة تبادل الأسرى مع إسرائيل.

جماعة السيكارى :

"تاخمان بن يهودا" وهو أستاذ الاجتماع في الجامعة العبرية، اطلع علـى دراسـة رابوبورت في العام ١٩٨٧ في سياق بحثه عن تاريخ الاغتيالات السياسـية فـي

المنطقة أو بلغة الاختصاص "تاريخ العنف السياسي"، ولما اكتشف ناخمان حقيقة جماعة السيكارى تعمق في دراستها، وبالإطلاع على المعلومات المتوافرة عنها، وجد أن أعضاء هذه الجماعة كانوا من اليهود المُعادين للمجتمع والمنبوذين من الجميع، حتى من اليهود أنفسهم الذين طردوهم من القدس مما اضطرهم للجوء إلى حصن الماسادا قبل فترة طويلة من الغزو الروماني، وكانوا خلال هذه الفترة (الفاصلة بين طردهم وبين تدمير الرومان للقدس) يشنون غارات على القرى اليهودية المجاورة وينهبونها ويرتكبون مجازر بشعة بحق سكانها.

ويعزي ناخمان بأن قرار إبعادهم عن القدس هو ما أخَّرَ الرومان عن التوجه إليهم حتى عام ٧٣م، حاصرهم الرومان ما بين ٤ إلى ٨ شهور وفي النهاية سقط الحصن بعد أن كان قائد مجموعة السيكارى قد أمر أتباعه بقتل بعضهم بعضًا حتى لا يُنكل بهم الرومان، وناخمان يستند في تقديره إلى مؤرخ قديم يدعى "يوسف فلافيوس" الذي قال بإن الفيلق الروماني سعى إلى حصار حصن الماسادا، وكان في الحصن ٩٧٩ من اليهود من مختلف الأعمار، وفي النهاية لم ينج من الحصن سوى سبعة أشخاص.

كلمة السيكارى اشتُقت من الكلمة العبرية "سيكا" وتعني الخنجر، كانت هذه الجماعة تغتنم فرصة الأعياد فتسطوا على قرى اليهود وتمارس الإرهاب، والمسادا بين الواقع التاريخي والأسطورة استغلها اليهود وطبقوها لكي تتحول في التاريخ اليهودي من قصة جماعة إرهابية إلى أسطورة تمجيد.

يقول الباحثون بإن نجاح ناخمان بجعل الفرضية ممكنة لأسبابها التي ذكرت، فإن المسادا تحتمل آراء وفرضيات أخرى، الفرضية الفلكلورية التي تعتبر أن المسادا جزء من التاريخ اليهودي المنتهي، وحسنًا أن تضاف ثلاث سنوات أخرى لإبراز المسادا كجماعة من المقاومين، فرضية اختلاق التاريخ واعتبار السيكارى حلقة من حلقات البطولات وتوظيفها صهيونيًا، فرضية الجهل التاريخي فالرومان مجرد غزاة همهم كان الاستيلاء على المنطقة وهم لا يعرفون من اليهودي وغير اليهودي، وحينما اكتشفوا أن السيكارى هم أيضًا من اليهود حاصروهم.

أما التوظيف التاريخي للماسادا، فإن الصهيونية جرت العادة أن تهمل الأساطير التوراتية التي ترفض أن يكون لليهود دولة، ولأنها حركة علمانية فإنها اعتادت الربط بين الهولوكست الحديث والسبي البابلي باعتبار أن السبي البابلي هو الهولوكست الأول، وهكذا فإن قصة الماسادا جاءت لتلبي حاجة صهيونية حيوية، وهي الحاجة لإقناع اليهود بأن أجدادهم قد فضلوا الموت على مبارحة الأرض ومفارقتها عبر الأسر، كما أنهم كانوا مقاتلين شجعان ومستعدين للموت، وبذلك نسجت هذه الأسطورة لمحاجة أصحاب الطروحات اليهودية الداعية (قبل قيام إسرائيل) لإقامة دولة صديقة لجيرانها وبدون حرب، كما أنها وظفت كعامل جذب لليهود الذين يعيشون في الشتات تحت ضغوط التفرقة.

المد والجزر:

من ينظر إلى علاقة الدولة الصهيونية بالجماعات اليهودية في العالم، يجد أن خلافات كثيرة تفجرت على مدى سنوات وجود هذه الدولة، وهذا يوضح بأن لا الصهيونية بصورة مطلقة تمثل يهود العالم جميعًا، ولا يهود العالم يعترفون بإسرائيل ممثلة لهم، وقد ذكرنا سابقًا لو أن إسرائيل حقيقة هي المركز الأخلاقي لليهودية لهاجر إليها كل اليهود من شتى بقاع الأرض، نحن لا نرى سوى يهود روسيا وأوروبا الشرقية هم غالبية الذين هجروا أوطانهم الأصلية إلى إسرائيل بسبب العنصرية أو بسبب ضيق أحوالهم المعيشية.

ونجد من ناحية أخرى، بأن كثيرًا من زعماء اليهود وحاخاماتهم في الغرب يهاجمون علنًا دولة إسرائيل، وينعتونها بأنها لا تمثلهم وإنهم لا يعترفون بها كونها لا تقوم على النبوءات الدينية اليهودية الصحيحة، فما زالت هذه الدولة مثلاً لا تُعرِّف من هو اليهودي حتى الآن وبعد ستين عامًا من قيامها، وهل الدولة يهودية حقًا أم أنها تُقدِّم نفسها بهوية إسرائيلية علمانية، وهل هي لأجل الدفاع عن مصالح اليهود بصفة عامة أم أنها تُدافع عن مصالحها ونست شعارات تأسيسها، إن مثل تلك التساؤلات لا تأتي من فراغ، كثيرًا ما يثيرها زعماء

الطوائف اليهودية في العالم حينما لا يجدون غطاء من الدولة الإسرائيلية لهم، الدولة التي تدَّعي بأن أمن كل يهودي في العالم يهمها وتعد بحمايته.

إبان حكم العسكريين في الأرجنتين مثلاً أيام حكم رئيس وزراء إسرائيل "إسحق شامير" الليكودي اليميني المتطرف، تفاجأ يهود الأرجنتين بأن دولة إسرائيل لم تعطِ اهتمامًا لطلباتهم بالمساعدة لجعل حكومة الأرجنتين العسكرية تُطلق سراح اليهود الذين اعتقلتهم ضمن المعارضة بالأرجنتين وحيث كان النظام الأرجنتيني آنذاك متطرفًا وذا ميول فاشستية، كانت السفارة الإسرائيلية ترفض التدخل لدى الحكومة الأرجنتينية لصالح المعتقلين اليهود، وكانت الأعمال والمؤسسات اليهودية في العالم أيضًا تتأثر بما يحدث من حروب ونزاعات عسكرية بين العرب وإسرائيل، وكان يتأثر أصحاب هذه المؤسسات ويعيشون في قلق وإسرائيل لا تلتفت إليهم، إذن بقي القلق دائم ومع ذلك لم يترك اليهود بلدانهم ويذهبوا إلى إسرائيل وهذا هو المهم، فهل من سبب إلا أن تكون إسرائيل ليست قِبلتهم أو إنها لا تمثلهم ولا يرتبطون بها دينيًا كونهم يعلمون بأن الصهيونية ليس لها عقيدة يهودية دينية حقيقية أو إنها تقوم على باطل وافتراء، وأن مقولة أرض الميعاد ما هي سوى لذر الرماد في العيون.

وحتى اليساريون اليهود فهم يذهبون إلى أبعد من ذلك، ويتساءلون كيف تكون إسرائيل ذات قيم يهودية حقيقية، وهي تتحالف وتتعامل وتتعاون اقتصاديًا وعسكريًا مع النظم العسكرية المكروهة من شعوبها في هذا العالم، أو كما كانت علاقة إسرائيل بحكومة جنوب أفريقيا أيام الحكم العنصري، وحتى الليبراليون اليهود في العالم أبقوا مسافة بينهم وبين إسرائيل حينما تقوم بأعمال همجية كمذابح صبرا وشتيلا وقانا، ودمار جنوب لبنان في عام ٢٠٠٦م، والدمار والحصار والتجويع والقتل الذي أحدثته في قطاع غزة حتى عام ٢٠١٠م تاريخ نشر هذا الكتاب، بل إن كثيرًا من الاستطلاعات تُبين بأن قسم لا يستهان به من يهود الولايات المتحدة يُطالبون بين الفينة والأخرى الحكومة الأمريكية بأن تختلف مع دولة إسرائيل الصهيونية في سياسة الولايات المتحدة تجاه الفلسطينيين.

الصهيونية، هي إحدى أطياف المعرفة العلمانية الشاملة التي أوجدها الفكر الـذي ازدهر في القرن التاسع عشر، الذي أنتج النظرية العرقية الغربية، وراح يصـنف البشر إلى درجات بسبب اختلاف الخصائص التشريحية والاثنية والبيئية، لذا نجد أن كثيرًا من المقولات والتفسيرات الصهيونية فيها تعالي ومعاداة للآخرين، لـذا يرى الصهاينة أنهم موقنون بعداء الغير لليهود، وأن هذا العـداء موجـود فـي طبيعة البشر، والمجتمعات التي كانت تستضيف اليهود كانت تنظر إلـيهم دائمًـا وفي كل عصر بأنهم عضو غريب غير مرغوب به، وأقر أحـد الصـهاينة بـأن العداء لليهود هو دفاع مشروع عن الذات، ورأى هرتزل في زمنه بـأن العـداء الحالي لليهود يختلف عن التعصب الديني في الماضي، ووصف العـداء الحـديث بأنه حركة بين الشعوب المتحضرة تحاول بها التخلص من ماضيها، وعـن هـذا قال "اسحق شامير" أحد رؤساء الوزارة الإسرائيلية السابقين، بـإن البولنـديين يرضعون العداء لليهود مع لبن أمهاتهم، وشامير هنا يُعادل بين الفعل الأخلاقـي والفعل البيولوجي، وهو في إطار الحلولية يقر بأمر بدون ربطه بقدرة الإله، وهو ما فعله وايزمان وهتلر، يقول وايزمان عن معاداة اليهود بإنهـا مثـل البكتيريـا تكون ساكنة، وحينما تسنح لها الفرصة فإنها تعود للحياة، والصـهاينة هنـا لا يميزون أنواع العداء لليهود بل يرونها كُلاً عضويًا واحدًا قابل للتكـرار فـي أي مكان وزمان، كما يرون أن لا فائدة لمحاربة العـداء باعتبـاره أحـد الثوابـت والحتميات.

ليس الأغيار وحدهم هم الذين يعادون اليهود، إنما الصهاينة أيضًـا لأن جـوهر اليهودي يميزه عن الآخرين ولا يتغير، اليهود دائمًا يهود وهم يتصـرفون مثـل الآخرين فتصرفهم مصطنع لا يُعبر عن اندماجهم في أوطانهم التي ولـدوا فيهـا، ومن هنا يعيش اليهود في ازدواجية ذاتية، ولن يكونوا مـوالين لأوطـانهم ولاء كاملاً، ويأخذ الآخرون على اليهود بأن ولاءهم مشكوك به دائمًا، لذلك هم خطـر على المجتمع الذي يعيشون فيه، النازيون مثلاً كانوا يتعـاملون مـع الصـهاينة

كونهم يعلنون انتماءهم وهويتهم الحقيقية بأنهم يهود ليس مكانهم في ألمانيا، فكانوا لا يثقون باليهود العاديين الذين يعيشون ازدواجية الولاء.

لقد كان تحالف الصهاينة والمعادين لليهود يبدو منطقيًا لتحقيق هدفهما المشترك الذي يتمثل في نقل اليهود إلى وطنهم المزعوم في فلسطين، لأن اليهود هم شعب عضوي يجب أن ينقل إلى وطن عضوي، ومكانهم لا يجب أن يستمر في مجتمعات الأغيار، لذا كان الصهاينة والمعادين لليهود يعارضون دمج اليهود في مجتمعاتهم أو إعطائهم الحقوق المدنية والسياسية الكاملة، ويرون أن الأفضل هو ترحيلهم أو طردهم.

يرى اليهود أن الجزء يعبر عن الكل، فاليهود هم شعب عضوي فإن أصاب الكل مكروه يتأثر الجزء، وإن أصاب الجزء في شيء كالعبقرية مثلاً، فإن الفخر يعود على الكل، ويتفق مع هذا أعداء اليهود الذين يعتبرون أن خطأ الجزء ينسحب على الكل، بهذا يتساوى موقف الصهاينة مع موقف أعداء اليهود، فالحديث عن الخطأ هنا كالحديث عن العبقرية.

يقول الدكتور عبد الوهاب المسيري في الموسوعة: "تبنَّى الصهاينة كثيرًا من مقولات المعادين لليهود في الغرب، وكثيرًا من صورهم الإدراكية النمطية، وتزخر الكتابات الصهيونية بالحديث عن الشخصية اليهودية المريضة غير الطبيعية والهامشية وغير المنتجة التي لا تجيد إلا العمل في التجارة، بل إن ماكس نوردو، ومن بعده هتلر، طبَّق الصورة المجازية العضوية؛ لا على معاداة اليهود بل على اليهود أنفسهم، فقد شبههم بالكائنات العضوية الدقيقة التي تظل غير مؤذية على الإطلاق طالما أنها في الهواء الطلق، لكنها تُسبِّب أفظع الأمراض إذا حُرِمت من الأكسجين، ثم يستطرد هذا العالم العنصري ليحذر الحكومات والشعوب من أن اليهود يمكن أن يصبحوا مصدرًا لمثل هذا الخطر، وقد ذكر يهودا جوردون أن تفوُّق اليهودي المستنير يكمن في أنه يعترف بالحقيقة، أي يَقْبل اتهامات المعادين لليهود، وقد قال برنر: "إن مهمتنا الآن هي أن نعترف بوضاعتنا منذ بدء التاريخ حتى يومنا هذا، فاليهود شعب نصف ميت يعيش بقيم السوق، لا يمانع في حياة

كحياة النمل أو الكلاب، مصاب بطاعون التجول، ويمكن أن نجد عبارات مماثلة أو أكثر قسوة في الأدبيات الصهيونية، ومن هنا؛ يؤمن الصهاينة بضرورة تطبيع الشخصية اليهودية حتى تتفق مع نمط الشخصية غير اليهودية الطبيعية السوية".

من الأمثلة التي تبرهن على عداء الصهاينة لليهود الذين لا يعيشون في إسرائيل في فترة الدفع لاستيطان فلسطين وتحالفهم مع أعداء السامية، أن تيدور هرتزل أبدى استعداده للتعاون مع وزير الداخلية الروسي "فون بليفيه"، كما أن فلاديمير جابوتنسكي مع "بتليور" الاكراني الذي قامت قواته بذبح آلاف اليهود في الفترة ما بين عامي ١٩١٨ و١٩٢١م، وتحالف الصهاينة والنازيين، وفي الوقت الحالي نجد تحالفًا صهيونيًا مسيحيًا خصوصًا بالولايات المتحدة الأمريكية، وكما حدث في العراق سنة ١٩٥١م حين ألقى عملاء الصهيونية القنابل على أحد المعابد اليهودية في بغداد، أما الشيء الأغرب فقد قال الزعيم الصهيوني "كلاتزكين" إنه بدلاً من مناهضة المعادين لليهود فإنه يجدر بنا أن نُقيم جمعيات لمناهضة أصدقائنا الذين يدافعون عن حقوق اليهود في أوطانهم الأصلية.

إن معاداة اليهود لم تقتصر على اليهود المقيمين في الخارج بل إنها امتدت إلى اليهود الذين قدموا إلى فلسطين واستوطنوا الدولة الإسرائيلية، فاليهود الذين ولدوا في فلسطين يرون يهود المنفى من خلال مقولات معاداة السامية وما أطلقت على اليهود من نعات، لهذا نجد أن الأدب الإسرائيلي فيه الكثير عن رفض ثقافي وأخلاقي وعرقي ليهود الخارج، ومع كل ما فعلته الصهيونية من تقلبات وتسلقات إلى درجة تحالفها مع أعداء اليهود بهدف جعل اليهود جميعًا يغادرون بلادهم إلى فلسطين، إلا أنها أخفقت في تحقيق هذا الهدف، والدليل أن معظم المهاجرين اليهود إما توجهوا إلى الولايات المتحدة مباشرة أو توجهوا إليها أيضًا بعد أن أقاموا فترة زمنية في إسرائيل، عملاً بقوانين الهجرة المشروطة من بلادهم الأصلية.

"بوروخوف"، مؤسس الصهيونية العمالية، قال عن يهود الولايات المتحدة بأنهم سيمرون بنفس الظروف التي مر بها يهود أوروبا وسيصيبون من الثراء الكثير،

وحينها سيكرههم الناس فيطردونهم، فاليهود ها هم وقد تركزوا على قمة الهرم الإنتاجي، لم يعاديهم الناس في الولايات المتحدة بسبب طبيعة الهرم الإنتاجي الأمريكي كون العمالة بالزراعة قد تقلصت نسبتها كثيرًا، والصناعة لم تعد تلك الصناعة التقليدية التي لا تختلف كثيرًا عن استعمال الفلاح بجهده العضلي، فقد تطورت وتعقدت وأصبحت تحتاج إلى مهارة عالية، وحتى المُنتج الصناعي الواحد يحتاج إلى خبرات خاصة حينما ننظر إلى الآلة التي تنتجه حسب مصدرها ونظام تشغيلها، وأصبحت كل آلة تحتاج إلى عامل متخصص لتشغيلها، كما أن حجم الخدمات الاقتصادية أصبح ضخمًا، وهو ما جعل قاعدة الهرم العمالي ليست أكثر أهمية من قمته.

إسرائيل ويهود المنفى:

إن مركزية إسرائيل تعني بكل وضوح، أن المركز الأخلاقي لليهودية في العالم هو إسرائيل، ولما قام الصهاينة بعلمنة الحركة الصهيونية فإنهم لم يجدوا صعوبة في إبقاء الشعار حيًا فنادوا بضرورة أن تُصبح الدولة الصهيونية مركز حركية الجماعات اليهودية في العالم، وأن تكون الدولة الصهيونية الملجأ الوحيد لليهود، وبأن تقوم وحدها بالدفاع عنهم، بدلاً من المقولة الدينية أرض الميعاد وشعب الله المختار، وأضاف أيضًا الصهاينة العلمانيين بأن الحرب التي يقومون بها في المنطقة هي دفاع عن جميع يهود العالم، وهي دافع إلى عدم اندماج اليهود في أوطانهم وإبقائهم محافظين على الهوية اليهودية، وفكرة مركزية إسرائيل عند الصهاينة القدامى كانت تعني اختفاء الأجزاء أي هجرة اليهود إلى فلسطين، لكن دعاة الصهيونية التوفيقية أو التصالحية من الاثنيين، والدينيين، والعلمانيين، يذهبون إلى ساحة أرحب وأسهل، فيعتبرون أن مركزية إسرائيل هي مركزية ثقافية بالدرجة الأولى.

أما المفكر "دبنوف" ومن جاء بعده ونادوا بقومية الدياسوبرا (القومية اليديشية)، فقد عارضوا فكرة أن تكون إسرائيل المركز الثقافي ليهود العالم، وطرحوا فكرة

بديلة عن ذلك، هي أن مركز يهود العالم يجب أن يكون متنقلاً حسب مدى ازدهار الجماعات اليهودية حضاريًا وثقافيًا، فالمكان الأكثر ثقافة وحضارة هو الذي يشكل المركز، وليس بالضرورة أن يكون المركز إسرائيل (فلسطين)، فربما يصبح الأندلس أو بابل أو روسيا أو الولايات المتحدة أو إحدى الدول الأوروبية، لكن ظهور الصهيونية التوطينية (الصهاينة الذين بقوا بالخارج) زاد من أهمية أن تكون إسرائيل المركز الأخلاقي ليهود العالم، بعد أن أحجمت الجماهير اليهودية عن الهجرة إلى فلسطين، فاكتفى التوطينيون اليهود بجعل إسرائيل مركزًا بديلاً عن الاستيطان الفعلي، وهذا يشبع الحنين اليهودي إلى صهيون ولا يُترجم إلى سلوك أو فعل، وقد أصبح هذا حجر الأساس الآن في البرنامج الصهيوني في الولايات المتحدة الأمريكية.

الدعاية الصهيونية من ناحية أخرى تروِّج، بأن معظم يهود العالم صهاينة يقفون وراء إسرائيل، وقد يكون في هذا القول شيء من الحقيقة السطحية المباشرة، ومع أن يهود إسرائيل يُشكلون حوالي ثلث يهود العالم، وأن الحركة الصهيونية تُهيمن على معظم الجمعيات والمؤسسات اليهودية في العالم ومنها جمعيات يهودية أرثوذكسية وإصلاحية يوجد بينها وبين الصهيونية تناقض من ناحية العقيدة اليهودية، ورغم أن اليهودية الأرثوذكسية ترى أن اليهود شعب بالمعنى الديني فقط، والإصلاحيون يرون أن اليهود ليسوا شعبًا وإنما جماعة دينية يؤمن أفرادها بالعقيدة نفسها، ومع ذلك أصبح من يرفضون الصهيونية بشكل علني أقلية بسبب الهيمنة الصهيونية على المؤسسات والإعلام.

إن كثيرًا من المؤسسات اليهودية في المنفى تختلف مع الصهيونية، وكثيرًا من اليهود الصهاينة واليهود غير الصهاينة من جهة يختلفون مع إسرائيل، الدولة الإسرائيلية تحاول أن تكون علاقتها بيهود العالم علاقة هيمنة معنوية وأمنية، أليست هي المركز الأخلاقي لليهود في العالم، وهي الحماية والأمن ليهود العالم أيضًا، وهي التي تتدخل لدى الدول فيما يخص أمور اليهود أو هو المفترض، وتعمل أقصى جهدها لحماية أي يهودي في العالم إذا تمكنت من ذلك، لذلك هي

تحصل في المقابل على الدعم المادي والإعلامي من يهود العالم، لكنها أيضًا لا تسمح ليهود العالم بالتدخل في شئونها، فهم رفضوا الهجرة إليها وفضلوا البقاء أين ما يعيشون، ولهذا يُقدمون المساعدات للدولة تكفيرًا لرفضهم القدوم إلى إسرائيل والمشاركة في خلاص البشر! وهم يتساءلون كيف يُطلب منهم قبول وتأييد القرارات السياسية التي تصدرها إسرائيل بدون مشاركتهم في تلك القرارات، ويُطلب منهم أن يقدموا الدعم لإسرائيل، كما أن كثيرًا من يهود العالم لا يرون إسرائيل دولة يهودية بالمعنى الديني، وإنها ذهبت في العولمة إلى مدى لا يوافقون عليه، فكثير من المسئولين والموفدين الإسرائيليين لم يقرأوا التوراة في حياتهم ولم يذهبوا إلى معبد يهودي قط، ولا يعرفون كيف تُقام الصلوات، وحين تتهم الدولة الصهيونية أعضاء الجماعات اليهودية بأنهم آخذون بالانصهار في المجتمعات الغربية، يرد يهود الخارج بأن إسرائيل العلمانية هي التي تتغير، وأن ما يحدث في إسرائيل هو بلورة لظهور قومية إسرائيلية جديدة لا علاقة لها بالديانة اليهودية وبالتالي لا علاقة لها بيهود العالم، ويرى بعض المفكرين اليهود بأن قيام الدولة الصهيونية أدى إلى انهيار اليهودية وتآكلها من الداخل فأصبحت الدولة هي الديانة بدلاً من اليهودية، وأضحت التبرعات التي يقدمها يهود العالم هي أهم شعائر العبادة.

يمكن الاستنتاج بأن العلاقة بين يهود العالم والدولة الصهيونية ليست على ما يرام أو كما يريد الصهاينة في إسرائيل، لهذا تجد إسرائيل تقوم بحملة ثقافية إعلامية بين وقت وآخر، تذكر الجاليات اليهودية في الخارج بأن الديمغرافيا مهمة لليهود وأن الدولة اليهودية في فلسطين هي العضد الذي يمكن لليهود أن يكونوا فيها معززين مكرمين، لذلك فهي تسعى لكي تعود إلى شن حملة إعلامية للهجرة والعودة إلى شعارات بناء الوطن القومي التي استعملتها الصهيونية حين شرع في تأسيس الحركة تحت ستارها.

ولكن يبدو بأن الوقت قد فات على تلك المقولات القديمة التي استعملها زعماء الصهيونية، حينما حدث ما حدث لليهود في بعض بقاع العالم وليس الآن والجنس

البشري متجه نحو العولمة، ومعظم دساتير الدول صارت تُكتب بخطوط عريضة وتؤكد على حرية الإنسان في السفر متى أراد والإقامة في أي بلد يريد، وهذا ما يجعل إسرائيل بالنسبة ليهود العالم أحد الأوطان التي يمكن أن يعيش فيها اليهود، وفي السياق الأوسع أحد أوطان اليهود مثل الأرجنتين أو الولايات المتحدة أو بريطانيا أو إيران وغيرها من البلاد والدول التي تعيش فيها جاليات يهودية، وهذا يعني أن عدد سكان إسرائيل قد يعودون إلى الهجرة المعاكسة حسب ما يمكن أن يحدث من تجاذب للمصالح التي تدفع أصحابها إلى التنقل أو العيش الدائم في بقعة ما على هذا الكوكب.

وحسب معطيات مركز الإحصاء المركزي في إسرائيل عام ٢٠٠٧م، وصل إلى إسرائيل ١٨١٢٩ مهاجر فقط وهو أقل عدد وصل في السنة الواحدة منذ العام ١٩٨٨م، وتُشير القراءة التي ذكرها الدكتور عبد الوهاب المسيري في أحد مقالاته، بأن ٧٠% من يهود الولايات المتحدة الأمريكية لم يكونوا أبدًا في إسرائيل ولا ينوون زيارتها، و٥٠% من يهود الولايات المتحدة متزوجون زواجًا مختلطًا، ويهود الولايات المتحدة يرون أنفسهم جزءًا من أمة قديمة، ويُعرِّفون يهوديتهم كما يُعرِّفها الأمريكيون باعتبار أنهم كما الكثيرين من مواطني الولايات المتحدة لهم ديانة مختلفة وليس أكثر، وهم لا يريدون تغيير هذا الحال الذي هو أساس نجاحهم في القارة الجديدة، هذا بالنسبة ليهود أمريكا التي تُعتبر الحليف الأول لإسرائيل وترتبط معها بعلاقة مميزة وقواعد أمنها ومصالحها الاقتصادية منسجمة تمامًا مع دولة إسرائيل.

لهذا فرغم ما تمثله إسرائيل من خطر آني على العرب وعلى الفلسطينيين بالذات، فإن وجودها في فلسطين ليس أبديًا، لأن الهجرة اليهودية إلى إسرائيل سرعان ما ستتحول إلى إنسانية طبيعية ستأخذ طابع أسباب الطرد والجذب، وليس التطلع الأبدي للهجرة إلى الوطن القومي اليهودي الذي قال الذين يأخذون بالتفسير الحرفي للتوراة بإنه أرض الميعاد، لذلك إن تغير الظروف التي جعلت اليهود الذين اضطهدوا بسبب العنصرية والحروب يتعلقون بكل وسائل النجاة التي اتيحت لهم،

لم تعد تلك الظروف موجودة ولهذا سرعان ما ستعود الأمور إلى طبيعتها، هذا لو أحسن العرب كيف يمكن أن يتعاملوا مع إسرائيل من خلال استراتيجية السلام، ذلك لأجل محاصرتها أيضًا بالسلام ومنع توسعها أولاً، ومن ثم استيعابها حتى بالصور الاقتصادية المتشعبة إلى أن تعود إسرائيل كما بدأت، سكانها متباعدين ديمغرافيًا وجغرافيًا مهما حاولت أن تبقي المهاجرين من روسيا مثلاً البقاء والإقامة في إسرائيل حيث أن قانون العودة أو الهجرة لإسرائيل، يحتم على المهاجرين الجدد من روسيا ودول أوروبا الشرقية بألا يتوقفوا في أي بلد في الطريق بين إسرائيل ووطنهم الأصلي، بمعنى أن يهاجروا أولاً إلى إسرائيل، ويقيمون مدة فيها تتجاوز العام ومن ثم يسمح لهم بترك إسرائيل إلى الخارج.

بعد حرب لبنان عام ٢٠٠٦م (حزب الله – إسرائيل) أشاع مسئولي الخارجية الأمريكية بأن الشرق الأوسط الجديد سيولد من رحم تلك الحرب، وقيل الكثير عن مصطلحات كلها كانت تشير إلى الشرق الأوسط، مثل الشرق الأوسط الكبير، والشرق الأوسط الجديد على نمط النظام العالمي الجديد مما جعل الناس في المنطقة يتكهنون تفاؤلاً مرة وتشاؤمًا مرات كون هذه العبارات قائليها هم الأمريكان وبعض الإسرائيليين أمثال "شيمون بيريز" رئيس دولة إسرائيل (عام ٢٠١٠) حيث كان له كتاب أعطاه نفس المعنى "الشرق الأوسط الجديد"، منذ الحرب العالمية الأولى لم يحظ العرب بوعد قطعه الغرب لهم، لهذا حينما يتحدث مسئولي الخارجية الأمريكية أو يهود إسرائيل عن ازدهار الشرق الأوسط نشعر بأن هناك مكيدة للعرب وكارثة ستحل بهم، أو في أحسن الأحوال ستظل قيود التبعية تكبلهم ويبقى الضعف يسكن جنباتهم، وهنا لا يمكن للعرب أن يتصوروا شرقًا أوسطيًا جميلاً لأهله ما دام بنائيه هم الأمريكان وإسرائيل، لأنهم لا يجدون تصورًا ممكنًا على نمط الوعود الغربية لهم، إلا إذا كان الغرب بزعامة أمريكا يعد للاستمرار في الدور الذي بدأه منذ أواخر القرن التاسع عشر حينما كان يعد للقضاء على الخلافة العثمانية، ثم راح يعد لوطن قومي لليهود بهدف تقسيم المنطقة العربية إلى دويلات وشراذم متناحرة ضعيفة أو كما هي الآن، فكلما

أحست الضعيفة منها بالمهانة من جارها القوى لا تجد إلا الاستعانة بمن يعتبر مرجعية لها من الدول المتنفذة، وكما غرست إسرائيل في المنطقة وقامت بدورها من ناحية فصل عرب أفريقيا عن عرب آسيا، فإن التفكير الأمريكي والتبعية البريطانية له لم تبدل استراتيجيتها تجاه العرب اللهم باعتماد ظروف العصر وأدواته وما به من مشاكل يمكن توظيفها لاستمرار الواقع المؤلم، وهم لا يعدمون وسيلة لخلق الشعارات البراقة التي ظاهرها الرحمة وباطنها العذاب للفت نظر العامة كمبرر للحكومات المحلية لإبعاد الحرج عنها، وبهذا تريح قصارى النظر من قادة العرب المكبلين بجميل بقائهم في كراسي الحكم.

من هنا نجد أن الاستراتيجية الأمريكية تتحالف مع الدولة الصهيونية العطشى إلى مياه الأنهر العربية، وإلى أموال البترول العربي، وإلى الأيدي العاملة العربية الرخيصة، بعد أن صار العامل الكوري والهندي والتركي الذي تستخدمه إسرائيل في آلتها الصناعية والإنتاجية، صار يجد عملاً مساويًا في الأجر لما يقوم به في إسرائيل في وطنه الذي أصبح يصعد على سلم التطور ويلحق بالعصر الصناعي بعكس العامل العربي الذي يملأ أرصفة العواصم العربية في بيروت ودمشق وعمان وفلسطين والقاهرة وما أدراك ما حجم البطالة في بلاد العرب، ولأن الصراع بين الفشل والنجاح مستمر بالنسبة للصهيونية في إسرائيل لذا لا بد للعرب الأمريكي أن يذلل الصعاب وأن يأتي بمقولات ومشاريع على نمط ما يسوق له في المنطقة، كالشرق الأوسط الجديد وما شابه.

يقول الدكتور "عبد الوهاب المسيري" عما يُتوقع من الوعود الأمريكية في هذا، "إما في إطار عالم عربي مقسم إلى دويلات إثنية ودينية بحيث تعود المنطقة إلى ما قبل الفتح الإسلامي، أي منطقة مقسمة إلى دويلة فرعونية في مصر وأخرى آشورية بابلية في العراق وثالثة آرامية في سوريا ورابعة فينيقية في لبنان، وعلى القمة تقف دولة عبرية متماسكة مدعومة عسكريًا من الولايات المتحدة في فلسطين، ففي إطار التقسيم تُصبح الدولة الصهيونية الاستيطانية المغروسة غرسًا في الجسد العربي، دولة طبيعية بل وقائدة"، وهذا يذكرنا أيضًا ولو بطريقة أخرى

بما قاله "ديفيد بن جوريون" الزعيم الصهيوني العلماني خلال حرب ١٩٤٨م، قال بن جوريون في مذكراته "إن نقطة الضعف في الائتلاف العربي هي سيادة المسلمين في لبنان فهي سيادة زائفة، يمكن بسهولة قهرها، وبدلاً من ذلك ستقوم دولة مسيحية تكون حدودها الجنوبية علي نهر الليطاني، وستكون الدولة الصهيونية علي استعداد لتوقيع معاهدة مع هذه الدولة، وبعد أن نكسر الفيلق العربي ونضرب عمان بالقنابل، سوف يكون بإمكاننا إزالة دولة الأردن، وبعد ذلك سوف تسقط سوريا، وإذا اجترأت مصر علي محاربتنا فسوف نقصف بورسعيد والقاهرة والإسكندرية، وهكذا نُنهي الحرب ونقضي قضاء مبرمًا علي مصر، وآشور بالنيابة عن أسلافنا".

لا شك بأن المشروع الصهيوني على كل ما به من زيف وتضليل، استطاع أصحابه أن يوجدوا ثقافة جديدة في العالم بدلت إلى حد ما صورة اليهودي في نظر شعوب الأرض، وهذا ما أغرى الكثير من اليهود اليساريين والعلمانيين وكذلك الانتهازيين من يهود أوروبا أن يجدوا من خلال انتمائهم للصهيونية شيئًا يفتقدونه في الماضي أو كما كانوا عليه وهم يعيشون في الجيتو أو وهم متهمين بنهب مقدرات الشعوب، فوجود إسرائيل والدور الذي قامت به في المنطقة العربية، وكون أصبح لها ذراع عسكري طويل وقوة اقتصادية وهيمنة إعلامية تخطت كل حدود الدول، كل هذا جعل كثير من يهود العالم ممن أشرنا إليهم دون أن يتحققوا من طبيعة الدولة الصهيونية العنصرية حيث ظلوا مخدرين بما حل باليهود في الماضي سواء في روسيا أو في أوروبا الغربية دون أن يعوا كيف قامت إسرائيل ولماذا وُجدت أصلاً، وهل هي مشروع يهودي حقيقي أم أنها مشروع أراده الغرب أن يتحقق في زمن معين لينطبق عليه القول التالي: إن الغرب إذا كان قد بنى الدولة الصهيونية لأهداف استراتيجية فإنه نفس الغرب يمكن أن يهدم هذه الدولة في زمن آخر إذا كان هدفه في ذلك الوقت لا يحتاج أن تكون موجودة، لكن إسرائيل استطاعت حتى الآن أن تقنع كثير من اليهود بأنها مركزًا أخلاقيًا ليهود العالم، واستطاعت أن توهم البعض بالنبوءات القديمة

بمقولات شعب الله المختار وأرض الميعاد، وأن كل ما له علاقة من بشر وحجر ويوجد على أرض إسرائيل هو مقدس، وبالتالي كل ما يصدر عنها فهو مقدس أيضًا، ولذلك استطاعت الصهيونية أن تغرس في وجدان حتى من هم من غير اليهود من المسيحيين الأصوليين، استطاعت آلة الإعلام الصهيونية غير الدينية أن تستغل الأقاويل الدينية، وتوظفها لما يمكن أن يقويها ويجلب لها الدعم والمؤيدين، مستمدة ذلك من الرؤية التي لها جذور في الطبقة الحلولية في العقيدة اليهودية التي تشير بأن الإله يمكن أن يحل في البشر أو كما جاء ذكره حرفيًا في العهد القديم بأن الله يمكن أن يصبح إنسانًا يرتبط بالأرض وبذلك تصبح إسرائيل محورية ليهود العالم، انظر التالي:

الإصحاح الثاني والثلاثون (سفر التكوين):

"(٢٢) ثم قام في تلك الليلة وأخذ امرأتيه وجاريتيه وأولاده الأحد عشر وعبر مخاضة يبوق. (٢٣) أخذهم وأجازهم الوادي وأجاز ما كان له. (٢٤) فبقي يعقوب وحده. وصارعه إنسان حتى طلوع الفجر. (٢٥) ولما رأى أنه لا يقدر عليه ضرب حق فخذه. فانخلع حق فخذ يعقوب في مصارعته معه. (٢٦) وقال أطلقني لإنه قد طلع الفجر. فقال لا أطلقك إن لم تباركني. (٢٧) فقال له ما اسمك. فقال يعقوب. (٢٨) لا يدعى اسمك في ما بعد يعقوب بل إسرائيل. لأنك جاهدت مع الله والناس وقدرت. (٢٩) وسأل يعقوب وقال اخبرني باسمك. فقال لماذا تسأل عن اسمي. وباركه هناك".

من هنا أصبح اليهودي السائر في ركب الصهيونية منقادًا أيضًا لعلمنة العقيدة الدينية، وذلك بأن نودي عليه بأن إسرائيل هي مركز الجماعات اليهودية في العالم، وأن الدولة الصهيونية هي الملجأ الوحيد لليهود، وهي القائمة بالدفاع عنهم ولو بآلة الإعلام التي تتحدث باسمهم، وقال الإعلام الصهيوني ليهود العالم بأن الحروب التي تخوضها إسرائيل هي دفاع عنهم، وأن إسرائيل وهو المغري للجاليات اليهودية في الخارج هي من طور التراث اليهودي وعمل على استمراره بل وحسن صورة اليهودي أمام الأغيار، فبدلاً من صورة اليهودي المرابي

والجبان والمتآمر، صار اليهودي بفضل إسرائيل يُعتبر مقاتل عنيف وشرس وهو بذلك يستعيد شخصيته واحترامه بعد آلاف السنين من الذل والاحتقار، هذا ولا شك بأن الصهيونية استطاعت أيضًا على مدى سنوات وجود إسرائيل أن تزحزح قناعة كثير من يهود العالم بأن يكونوا بولاء مزدوج بدلاً من ولائهم فقط لأوطانهم الأصلية، وصاروا يعتبرون إسرائيل أيضًا وطنًا جديدًا، لكن أمور الولاء لا تأتي أو تذهب في يوم وليلة، هي تأتي على صورة ظاهرة تأتي بطيئة وتختفي بطيئة لو كان لها أن تختفي، أو هي مثل الليل والنهار حيث لا يوجد خط فاصل بين ظلام الليل وضوء النهار لكن التحول يتم في النهاية ولو كان بطيئًا وتدريجيًا، إن إحدى ميزات الحركة الصهيونية التي يقود بقايا أيديولوجيتها إسرائيل هي المرونة، وأنها تجتاز كل الحواجز وتنتقل مواقفها من أقصى ناحية إلى أقصى الناحية الأخرى، ولا شك أن هذا قد ساعد إسرائيل كثيرًا على الاستمرار في صعودها على حساب جيرانها العرب، فهي تركب الموجة المواتية وتنتهز كل فرصة، ما كاد العالم يفجر ثورة التكنولوجيا الإلكترونية الحديثة إلا وراحت الصهيونية تطوِّر نفسها وبسرعة غير عادية حتى أنها راحت تمس أسس العقيدة الصهيونية حتى بهذه التكنولوجيا، ولماذا تتباطأ إذا كان نظام المجتمع علماني والأجنحة الدينية غير منسجمة مع بعضها وتعتمد كلها على تحالفها مع الأحزاب العلمانية في أمورها الاقتصادية، الصهيونية ترى الآن وبلا وجل أن ليس من المهم أن يُقيم اليهودي في إسرائيل، بمعنى أنه ليس من الضروري أن يُهاجر يهود العالم إلى إسرائيل ما داموا يستطيعون أن يُقيموا أعمالاً تعود بالفائدة المادية التي يمكن بجزء منها تقديم المساعدة لإسرائيل الدولة وكل ذلك يمكن إنجازه بالتكنولوجيا الحديثة دون الحاجة إلى السفر والتنقل، وهذا ما يؤكد الآن بأن النظرية الصهيونية لا تتوقف عن التطور، يا ترى هل هذا فشل في التطبيق أم إنه نجاح وتحول إلى العالمية لكي تُصبح الصهيونية هي المسيطر على أمم الأرض!!

لكن الصهيونية في حقيقة الأمر تخدع نفسها حينما تستتر خلف العصر الإلكتروني وتقبل أن يظل اليهود في بلادهم الأصلية بحجة أن يُقيموا مشاريع تستفيد منها الدولة الإسرائيلية، فاليهود في الأصل صاروا يستبدلون أرض الميعاد المزعومة، بأرض المدينة الذهبية الولايات المتحدة الأمريكية حيث الاستقرار وفرص الحياة الأفضل بعد أن عرف حجم الدولة الصهيونية وما يمكن أن تصير عليه بين العرب الذين لابد سيأتي فيه يوم ويمسكون بشيء من حضارة العصر، والصهيونية تُدرك أنها ابنة عصرها لأنها وجدت في القرن التاسع عشر حينما وجد الفكر العنصري والنازي والقومي، وهي لا تثق بأحد، لهذا يبقى الصهيوني متوجسًا وشاكًا في الصديق قبل العدو، فلا يخضع أو يحتكم لوازع من فضيلة أو قيمة، لهذا فالغاية عنده أولاً وقبل كل شيء، والوسيلة أيًا كان نوعها لها ما يبررها ما دامت تحقق الغاية، لذا فهي استنفذت كل شيء متاح في الأدبيات اليهودية سواء الدينية أو العنصرية أو التآمرية، ولذلك فهي على استعداد أن تفعل ما تستطيع لأجل الحفاظ على ما أنجزته حتى وإن صنعت حربًا عالمية ثالثة، لكن الصهيونية تبقى بالنسبة للعرب مشكلة يتعمق كرهها في كل يوم في الضمير العربي والإسلامي وإن بدا على السطح غير ذلك، وما دامت هي مشكلة فلابد أن يكون لكل مشكلة حل، طال الزمن أم قصر.

إن موضوع نهاية إسرائيل متجذر في الأدب الصهيوني اليهودي، فلقد كان الصهاينة الأوائل مسكونين بهاجس النهاية في يومًا ما، ولما أعلنوا قيام دولة إسرائيل ازداد عندهم ذلك الهاجس، لأن العرب الفلسطينيين الذين سُلبت أرضهم هم وأبنائهم وأحفادهم أصبحوا أعداء دائمين للدولة التي تجثم على أرضهم وتصادر استقرارهم، قال ما معناه عن هذا الدكتور "هنري كسينجر" اليهودي الأمريكي الذي تبوأ أعلى المراكز في أكثر من حكومة أمريكية، قال إن المشكلة التي لم يعمل لها حساب عند إنشاء إسرائيل، هي ظهور الحركة الوطنية الفلسطينية التي أكدت وجود شعب في فلسطين التاريخية قبل قيام إسرائيل، لقد أضحى الإسرائيلي بين نار الأعداء الجدد وبين أعداء الأمس المسكون بهم بما

لاقاه على أيديهم في الدياسوبرا حينما كانوا ينظرون إليه على أنه آفة ضارة يجب التخلص منها.

في مقابلة نادرة خلال الحرب الإسرئيلية على قطاع غزة عام ٢٠٠٩م، تمَّت على قناة "فوكس نيوز" الإخبارية التلفزيونية الأمريكية التي استضافت فيها رجل الدين اليهودي الأرثوذكسي الحاخام "يزرويل ويس"، وشاهدها الملايين من الأمريكان وغيرهم، كان لأهميتها وتوقيتها أثر مدوي في العالم، وقد أطلقت عليها قناة فوكس نيوز، بأنها أهم مقابلة تلفزيونية على سطح الكرة الأرضية، أجرى الحوار "نبيل كافوتو":

- نبيل كافوتو: ما المانع إذن في أن تكون لكم دولة؟ وما المانع في أن يكون لكم بلد تنتمون إليه؟ وما المانع في أن تكون لكم حكومة؟
* الحاخام ويس: يجب أن لا تكون لنا دولة، يجب أن نعيش بين جميع الأمم كما ظل يفعل اليهود منذ أكثر من ألفي عام كمواطنين مخلصين يعبدون الله ويتصفون بالرحمة الربانية، وعلى العكس مما يعتقد الناس هذه الحرب ليست دينية فقد كنا نعيش بين المجتمعات المسلمة والعربية دون أن تكون هنالك حاجة إلى رقابة منظمات الأمم المتحدة لحقوق الإنسان.
- دعني أسألك هذا السؤال أيها الحاخام، هل كانت حياة اليهود أفضل قبل قيام دولة إسرائيل اليهودية؟
* نعم كانت أفضل بنسبة ١٠٠%، ففي فلسطين لدينا شهادة الجالية اليهودية التي كانت تعيش هناك وغيرها من الجاليات في أماكن أخرى بأنهم كانوا يعيشون في توافق وأنهم ناشدوا الأمم المتحدة بذلك حسب الوثائق التي بحوزتنا، حيث أن كبير حاخامات اليهود في القدس قال "نحن لا نريد دولة يهودية"، وعند اتخاذ قرار قيام إسرائيل تم تجاهل سكان ذلك البلد من المسلمين والمسيحيين واليهود.
- على أية حال لم يكن لديكم بلد تنتمون إليه ولكنكم كنتم غرباء لدرجة أن تعرضتم للاضطهاد والقتل عبر الألفية الماضية وخصوصًا ما حدث قبل خمسين أو ستين عامًا؟

* هنالك قتل بسبب معاداة السامية وهنالك موضوع آخر عندما تثير العداء يخلق معاداة السامية من خلال الصهيونية، أي بعبارة أخرى أن الأمر لم يأتِ هكذا دون سبب حيث أنك تطرق نوافذ جيرانك وتدعوهم إلى معاداة السامية.

- أنت يهودي أرثوذكسي حسب علمي، ما هو رأي اليهود التقليديون في ذلك الموقف؟

* الرأي الغالب لدى اليهود، هو صحيح أنه لا يجب أن تكون لدينا دولة ولكنها قامت، غير أن الدعاية الصهيونية بأن العرب يريدون رمي أي يهودي في المحيط وبأن هنالك حقد دفين لليهود مكنهم من إقناع الكثيرين من اليهود، وهو ما جعل هؤلاء يخافون.

- حسنا.. لا يمكنك أن تلومهم فهذا صحيح، أقصد أن لديك مثلاً رئيس إيران الذي يقول إن المحرقة لم تقع أصلاً ولو كان الأمر بيده لدمر إسرائيل وقضى على جميع اليهود.

* هذا كذب واضح، فهو لديه جالية يهودية في إيران ولم يقتلهم عندما سنحت له الفرصة.

- إذن أنت لا تأخذ كلامه على أنه يريد قتل اليهود؟

* بل هو يريد تفكيك الكيان السياسي، وفي الحقيقة نحن مجموعة من رجال الدين اليهودي ذهبنا لزيارة إيران العام الماضي، واستقبلنا القادة الإيرانيون والتقينا بنائب الرئيس حيث أن الرئيس كان في زيارة إلى فنزويلا في ذلك الوقت والتقينا كذلك بالزعماء الروحيين وكلهم بيَّنوا وبكل صراحة بأنهم ليسوا في نزاع مع اليهود.

- إذن أيها الحاخام أنت تعتقد أنه طالما أن إسرائيل موجودة فلن تأتي بخير.

* اليهود يعانون والفلسطينيون يعانون ونحن نصلي من أجل التعجيل بتفكيك هذه الدولة اليهودية بطريقة سلمية.

- إنه لأمر مثير أيها الحاخام، فهي وجهة نظر لا نسمع عنها في الغالب.

وتدور الأيام، لكن أرض إسرائيل يبدو أنها لا ترتوي فهي دائمًا تنتظر الدماء، لهذا لن تختفي مشاهد توابيت الموتى ولا القبور التي ستظل تتجدد مع الأيام، وهو ما كان على مدى السنوات منذ قيام إسرائيل على أرض فلسطين التاريخية، كان الموت يولد مع ميلاد كل صهيوني في إسرائيل، وهذا يقود إلى سؤال، هل ستبقى الدولة الصهيونية على قيد الحياة بأي ثمن؟ إلى متى؟ الجواب ليس صعبًا لأن روح الخصم هي التي ستحدد بقاء أو فناء إسرائيل ولا حل غير ذلك، الروح التي لا تتنازل وتُصر على الانتصار، ليس بالضرورة في ساحة الصدام المسلح، هي التي تعني التصميم والوعي بعدالة الهدف الذي تضحي من أجله ولا تعتبر وجود خيار آخر غير الانتصار.

وفناء إسرائيل طبعًا لن يتم بسهولة ما دام في جعبة الصهاينة ما يمكن أن يطوِّروا به المشروع الصهيوني، لماذا لا نعتبر أن الصهيونية العلمانية هي الوجه العلماني للمسيحية الصليبية، وأن هؤلاء يرون بأن الحروب الصليبية لم تنتهي وأن الصراع والمواجهة مع الحضارة الغربية وما إسرائيل وشراذم يهود العالم سوى أدوات صغيرة، ودعنا نتذكر قول "لويد جورج" رئيس وزراء بريطانيا الذي أصدر وزير خارجيته، لورد آرثر بلفور وعده الشهير لليهود، قال لويد جورج ما معناه عن احتلال القدس في الحرب العالمية الأولى بقيادة الجنرال "اللنبي"، قال إن الجنرال اللنبي الذي قاد القوات البريطانية التي احتلت فلسطين، شن وربح آخر الحملات الصليبية وأعظمها انتصارًا، فهل قول لويد جورج هنا يعني أن الحروب الصليبية قد انتهت وكون بريطانيا هي من أوجد إسرائيل، هل يعني هذا أن إسرائيل هي امتداد للاستيطان الصليبي، وأن الصهاينة في إسرائيل يتفاخرون بوجود الخرائب والآثار الصليبية التي تكثر الآن في فلسطين نتيجة ما يقومون به من حفريات لكي يؤكدوا صليبية هذه الأرض وتبعيتها الجغرافية للمسيحية الأصولية الغربية، وهو ما يعني أن الصهيونية ما زالت تستطيع أن تناور وأن تؤثر.

لقد استطاعت إسرائيل حتى الآن أن تلجم الإعلام العالمي وبصفة خاصة الإعلام في الدول الغربية التي يبدو أنها تسيطر عليه بل وتقوده أيضًا فيم يخص مصالحها، لقد استطاعت أن تضع قيودًا وحدودًا لما يمكن أن يقال فيه عن إسرائيل، وأبقت تهمة معاداة السامية سوطًا يرف تخويفًا وإرهابًا أمام عيني من يحاول أن يتجرأ بأن يُشكك في أي شيء يصدر عن سياسة الدولة الصهيونية، وقد رأينا خلال وسائل الإعلام العالمي، إن الكثيرين من الأدباء والمفكرين من أساتذة جامعات وغيرهم قد سُلبت حقوقهم وطُردوا من أعمالهم، لأنهم هاجموا إسرائيل وانتقدوا الصهيونية بمنطق بليغ، وقد يقول قائل لكننا قبل قليل علمنا كيف أن قناة فوكس نيوز الإخبارية قد سمحت بما قاله الحاخام اليهودي الأرثوذكسي "يزرويل ويس" عن إسرائيل على مسمع الدنيا! حتى وإن تجرأ "الحاخام ويس" وقال ما لا يُرضي إسرائيل الصهيونية فهو ما زال في نظر من يختلف معهم من اليهود، يهودي مقدس يحق له ما لا يحق للأغيار، وهذا يجعلنا نذكر على سبيل المثال لا الحصر، أن في برنامج قناة إيه. بي. سي، البرنامج المسائي واسمه "تايت لاين" الذي يقدمه اليهودي الصهيوني "تيد كوبيل"، طرح مقدم البرنامج (كوبيل)، السؤال التالي على ضيف البرنامج حيث كان رئيس رابطة "مكافحة التشهير":

* هل من العداء للسامية أن تنتقد سياسات حكومة إسرائيل تجاه الفلسطينيين؟

أجاب الضيف ما معناه، بأن إسرائيل دولة مستقلة وذات سيادة، وأن انتقاد سياساتها مسموح طبعًا، لكنه شدد على أن معارضة فكرة (مبدأ) الدولة اليهودية هو تجاوز للخطوط، وهو عداء للسامية، حينها ما كان من تيد كوبيل مقدم البرنامج إلا أن تبسم موافقًا، ولم يقل شيئًا أو بما معناه أنه غير مسموح أن يقول المرء رأيه كما يريد.

من ناحية أخرى، نجد الجرأة من جماعة يهودية أرثوذكسية، هي "تاطوري كارتا" بمعنى حارس المدينة، ترفض هذه الجماعة كل صور الصهيونية وتُعارض وجود دولة لليهود على أرض فلسطين، تأسست هذه الجماعة سنة ١٩٣٥م، ومعظم

أعضاؤها يتواجدون في القدس ولندن ونيويورك، يُركز أتباع هــذه الجماعــة أو المذهب على التفسير الحاخامي الذي ينص أنه بسبب خطايا اليهــود فإنــه تــم طردهم من أرض إسرائيل، وبناء على التلمود البابلي فإن أي محاولة لاســترداد أرض إسرائيل بالقوة هو مخالفة للإرادة الإلهية، أمــا دولــة إســرائيل فســيتم إنشاؤها عندما يأتي المسيح.

هذا، ولقد ظن كثير من اليهود الليبراليين بأن الصهيونية اليهودية في إســرائيل هي الوجه الآخر لليبرالية، وأنهم ظنوا بأن الصهيونية تسير من السياسة اليمينية إلى السياسات الليبرالية واليسارية، وصولاً إلى الجناح اليســاري مــن الحــزب الديمقراطي في الولايات المتحدة، وبهذا هم يقبلون ضمنًا وجــود إســرائيل ذات النهج الليبرالي، لكن حرب ١٩٦٧م جعلت المفكرين اليهود يحتارون بين البقــاء مع مُثُلهم الليبرالية العليا أو مع دولة إسرائيل التي تفرض نفسها بــالقوة، وقــد ازدادوا قناعة حينما وجدوا أن العرب جنحوا للسلام وكل ما يطلبونه هــو وطــن للفلسطينيين المغتصبة حقوقهم ولم يعودوا ينادون برمي يهود إسرائيل في البحر، أما دولة إسرائيل فقد تباطأت في الاستجابة، وهو ما جعل المفكرين اليهود يودون أن يتخلصوا من عار إهانة قيمهم الليبرالية، لهذا يكثر فــي مقــالات الصــحافة اليهودية الليبرالية استعمال كلمة العار حينما ينتقدون سلوكًا إسرائيليًا مــا ضــد الفلسطينيين في قطاع غزة أو في الضفة الغربية.

لقد صار كثير من الليبراليين اليهود يُدركون جيدًا، بأن الهولوكست لم يكن السبب في إنشاء إسرائيل، لأن الدول الأوروبية بصفة عامة هي التي ساهمت في خلــق إسرائيل لأسبابها هي، فوعد بلفور صدر قبل الهولوكست، والحركة الصــهيونية وُجِدت قبل الهولوكست أيضًــا، ومخططــات الهجــرة اليهوديــة وُجِــدت قبــل الهولوكست، لهذا يرى هؤلاء بأن إسرائيل كانت ليست أكثر مــن عــدوان علــى أناس كانوا آمنين قبل أن يعلن المستوطنين اليهود دولتهم.

لا شك بأن بناء الدولة اليهودية أخذ صورة ونمط الطابع الغربــي، حيــث جعــل الديمقراطية ركيزة أساسية للمجتمع الإسرائيلي، وأعطى في نفس الوقت الحــق

لسلطة الدولة بأن تربط الأمن بشروط التطبيق، وبذلك أبقى الصهاينة مجال المناورة مفتوحًا لحرمان بعض فئات المجتمع الإسرائيلي من غير اليهود من الديمقراطية كلما استوجبت المصلحة العليا الصهيونية ذلك، خصوصًا مع كل ما يمكن أن يتحدى هذا النهج، لأجل أن يظل مجال التأكيد على يهودية الدولة من ناحية التحول الديمغرافي مستمرًا في بناء مجتمع الأكثرية اليهودية.

بعد أن وضعت الخطوط العريضة ونصبت أعمدة الدولة كما أرادها مصمموها، أضحت مشكلة الأمن هي الهاجس الدائم للدولة، لهذا تم ترتيب القاعدة الاقتصادية في المجتمع الإسرائيلي، ولعبت السياسة أيضًا دورها من ناحية خلق أوضاع وظروف غير عادية في المنطقة مثل الاشتراك في حرب ١٩٥٦م (العدوان الثلاثي)، وكذلك المناوشات التي ظلت شبه مستمرة بين العرب المحيطين بفلسطين المحتلة والدولة العبرية حتى تجاوزت منتصف ستينات القرن العشرين، بعد حرب الأيام الستة عام ١٩٦٧م، يمكن القول بإن أمن الدولة الإسرائيلية قد تحقق بدرجة كبيرة، وراحت تنطلق بسرعة نحو الخارج لفك الحصار الاقتصادي المضروب حولها من قبل العالم العربي.

إن الدور الريادي الذي لعبته مصر في مقاومة إسرائيل خارجيًا بقيادة جمال عبد الناصر كان بدون أدنى أي شك يضايق كثيرًا الصهاينة في إسرائيل، لأنه جعل إسرائيل بقعة صغيرة غريبة مطوقة ببحر من العرب، حينما انتهت الحرب العالمية الثانية بكل تضحياتها، تشكَّل نظام عالمي جديد، وصعد المسرح كل من الولايات المتحدة الأمريكية والاتحاد السوفييتي، ودخل العالم زمن الحرب الباردة بين القطبين، وعلى إثر ذلك نشأت الأحلاف العسكرية فتم استقطاب دول كثيرة من قِبل المعسكر الاشتراكي بقيادة روسيا السوفييتية والمعسكر الرأسمالي بقيادة الولايات المتحدة، كان لنتيجة هذا الاستقطاب الشديد أن تولدت حركة الحياد الإيجابي التي جذبت العشرات من الدول ولفتت أنظار القطبين الكبيرين وصارا يحاولان كسب ود زعماء الحركة لكسب التأييد المعنوي لما يمثلانه من مباديء وقيم لخدمة البشرية.

وصل الدور المصري العربي قمته حينما صعد عبد الناصر إلـى العالميـة علـى مسرح السياسية الدولية، حيث انشأ كتلة الحياد الإيجابي مع "جوزيف بروز تيتو" رئيس الاتحاد اليوغسلافي، ورئيس وزراء الهند "جـواهر لال نهـرو"، ودخـل السياسة العالمية من باب عريض واتجهت الأنظار إلى مصر ودورهـا القـومي العربي بعد مؤتمر باندونج الشهير الذي عُقد في سـنة ١٩٥٥م، نتيجـة لهـذا اقتربت دول الكتلة الاشتراكية من مصر وتصادقت معها وبفضل ذلك حصلت مصر على عقد صفقات للأسلحة الروسية ونشأت صداقة وطيدة، أيضًا راحت أمريكـا تُغازل مصر فشرعت بتقديم مساعدات القمح، وفي عام ١٩٦٣م وصل الأمـر أن تبادل رئيس الولايات المتحدة "جون كندي" الرسائل مع عبد الناصر بخصوص حل القضية الفلسطينية، في إحدى ردود جمال عبد الناصر على الرئيس كندي، قـال عبد الناصر "لقد أعطى من لا يملك وعدًا لمن لا يستحق، وتعاون الاثنان مـن لا يملك ومن لا يستحق على أن يسلبا صاحب الحق الشرعي حقه.."، وكان يقصـد جمال عبد الناصر، من لا يملك هو بريطانيا صاحبة وعد بلفور، ومن لا يسـتحق الصهيونية، وصاحب الحق الشرعي هم الفلسطينيين.

طبعا هذا لم يرح آنذاك الدولة الإسرائيلية الفتية، فراحت تتطلع لكي توجد نـوع من التوازن مع ما تفعله مصر الناصرية، وجدت أن انفتاح إسرائيل على أفريقيـا هو رد عملي على ما تقومه مصر الناصرية، لأن عمل علاقـات إسـرائيلية مـع الدول الأفريقية سيحقق لإسرائيل مكاسب ليس فقط مصالح معنوية كما اسـتفادت مصر من كتلة الحياد الإيجابي، وإنما مصالح اقتصادية أيضًا واستراتيجية.

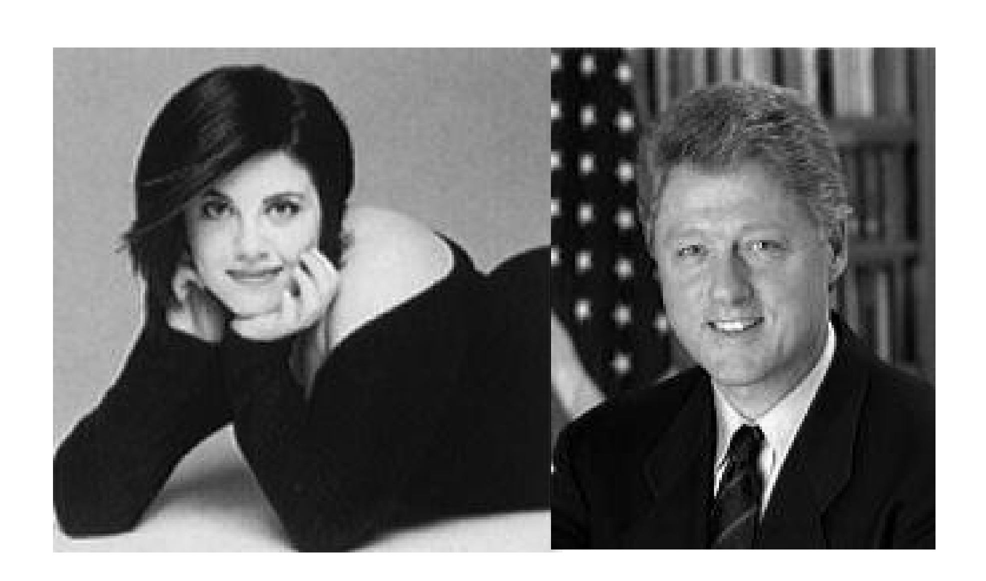
كان توجه إسرائيل نحو القارة السوداء وعمل علاقات مع دولها نافعًا ومفيدًا على أكثر من صعيد للدولة العبرية، بل أن العامل الاقتصـادي كـان مفتـاح النجـاح الإسرائيلي في أفريقيا، لقد استطاعت إسرائيل من خلال دخولها الاقتصادي فـي أفريقيا أن توجد سوقًا لمنتجاتها للتعويض عن الحصار الـذي تضـربه حولهـا المقاطعة العربية، واستطاعت إسرائيل أيضًا أن توجد مزيدًا من الاعتراف بها من دول العالم، وهو ما ساهم في إيجاد نوعًا من التوازن مع دور مصـر وعلاقاتهـا

المتنامية مع دول كتلة الحياد الإيجابي وغزل القطبي الحرب الباردة لها، وأكثر من ذلك أضحت إسرائيل تُهدد المجال الحيوي لمصر من ناحية تأثيرها المفترض نتيجة توغلها في أفريقيا حيث جنوب السودان وأوغندا وشرق أفريقيا والبحر الأحمر وبهذا صارت تؤثر على الأمن القومي المصري حيث منابع نهر النيل الذي يعتبر شريان الحياة في مصر.

الممثل الأمريكي الشهير "مارلون براندو" قال في لقاء تلفزيوني له في برنامج "لاري كنج" اليهودي الأمريكي الذي يذاع يوميًا في التاسعة مساء ويعاد بثه في الواحدة بعد منتصف الليل، قال براندو في الخامس من إبريل سنة ١٩٩٦م، "اليهود يحكمون هوليود، بل إنهم يملكونها فعلاً"، وعلى إثر ذلك قامت قيامة الإعلام الأمريكي على مارلون براندو ولم تقعد إلا حينما استسلم واعتذر، إلا أن الكثيرين راحوا يتساءلون، كيف يمكن لأقلية يبلغ عددها ٢,٥% من عدد السكان في أمريكا أن تسيطر على صناعة السينما في هوليود؟! وربما أدرك اليهود أكثر من غيرهم أهمية السيطرة على وسائل الإعلام، سينما وصحافة وشبكات إذاعة وغيرها.

البروتوكول الثاني من بروتوكولات حكماء صهيون يقول، "من خلال الصحافة اكتسبنا نفوذًا ولكن أبقينا أنفسنا في الظل"، وربما ينسحب هذا على فضيحة الرئيس الأمريكي "بيل كلينتون" وكيف كان جميع الأطراف فيها من اليهود، وشاهدنا كيف عالجها الإعلام بإخراج متقن، الفتاة صاحبة الدور الأول مع كلينتون "لوينسكي" يهودية، والمحقق المستقل يهودي الذي ترأس فريق التحقيق مع كلينتون، والمحامي يهودي الخ.

في كتاب أصول النزاع العربي اليهوديّ حول فلسطين، تأليف الصهيوني "جون بيترز"، وقد بيع منه الكثير بسبب مهارة التسويق، فكرة الكتاب الأساسية هي أنّ فلسطين كانت أرض خالية حينما جاء إليها المستوطنون اليهود، فأحالوا صحاريها إلى أراضي مزدهرة، ولما أصبحت كذلك طمع الجيران العرب وراحوا يدعون بأنها أراضيهم.



الرئيس بيل كلينتون ولوينسكي

كان هذا لمحة شاردة بالنسبة للإعلام، وأما الاقتصاد وميادين المال فليس القارئ بحاجة للاستزادة منها، فالصهيونية مفروضة على العرب ولا يستطيع أحد أن يُنكرها، وشيء طبيعي أن يُدرك العرب أن قوة الصهيونية ونجاحها هو بسبب ما يعاني العرب من أمراض كغيبوبة الضمير وقلة الوعي على كل المستويات وغياب روح العمل الجماعي، هذا عدا الخلاف والاختلاف بين الأنظمة العربية الذي أضر كثيرًا وأدى إلى خلق نوع من العنصرية الفكرية بين أبناء هذا البلد العربي أو ذاك.

وفي المقابل رغم ما أضحى عليه العرب، فإن المشروع الصهيوني رغم كل نجاحاته ما زال هشًا أو هكذا يُقيمه أساطين الصهيونية من المؤرخين اليهود الجدد ولذلك ترى تخبط المنظرين الاستراتيجيين الصهاينة، ولولا أن إسرائيل لها سند عالمي مادي وإعلامي لتفتت مجتمعها وأضحى أثرًا بعد عين.

حالة "بيني موريس" تُمثل أحد أوجه الفكر القيادي الصهيوني المنفعل الذي كاد أن يُصاب باليأس، لهذا فهو يقف وظهره للحائط أمام العدو الفلسطيني الذي ظنه في البداية غير موجود والآن يرى استحالة السكوت عليه، هو يرى أنه لا بد من

استئصال أحد العدوين بمعنى إزالة أحدهما عن ساحة الصــراع، فــرغم ظهــور تيارات في المجتمع الإسرائيلي تدعو للسلام فإن بيني موريس يُمثل في المقابــل مستوى مغلق، لهذا نجد المجتمع الإسرائيلي متقلب المزاج تارة الغالبيــة نحــو السلام وتارة أخرى إلى رفض الآخر المتمثل بالشعب الفلسطيني، وحتــى دعــاة السلام كثيرًا ما يشيحون وجوههم عن فكرة السلام حينما ينظرون بشــيء مــن الواقع على أن هناك حقوق للفلسطينيين ترقى بأن يكون لهم كيان على الخاصرة الإسرائيلية.

"بني موريس" مؤرخ إسرائيلي ولد في إسرائيل سنة ١٩٤٨م، يعتبر مــن أكثــر المؤثرين في الفكر الصهيوني حيث يُعتبر من المؤرخين الإسرائيليين الجدد.



بني موريس Benny Morris

عام ١٩٤٧م هاجر والداه إلى فلسطين واستقرا في كيبوتس "عــين هــاهورتش" جنوب مدينة حيفا، بعد الثانوية العامة التحق بالجيش وبعد الخدمة درس التاريخ في الجامعة العبرية بالقدس، حصل على الدكتوراه من جامعة كمبريدج، عمل في جريدة الجيروساليم بوست لمدة اثنا عشرة عامًا وخلال ذلك اطلع على أرشــيف الحكومة الإسرائيلية، كانت أولى مؤلفاته نشرات عن طريق جامعة كمبريدج ثــم جمعها في كتاب سماه "نشوء مشكلة اللاجئين الفلسطينيين"، عمل أستاذًا جامعيًــا في جامعة بن جوريون بالنقب.

صرح بيني موريس في لقاء صحفي مع صحيفة هـآرتس فـي ٩ ينـاير عـام ٢٠٠٤م، بأن ديفيد بن جوريون اخطأ خطأ استراتيجيًا كبيـرًا لأنـه لـم يطـرد الفلسطينيين جميعًا عام ١٩٤٨م، وأنه يرى بأن دولة إسرائيل لن تكون يهوديـة بالمعنى الصحيح بدون طرد ما تبقى من العرب الفلسطينيين الذين يعيشون داخل الخط الأخضر، اعتبر كثير من المحللين أن رأي موريس هذا يعتبر انقلابًا علـى كل نشاطاته السابقة حينما كان يرفض الخدمة في الجيش حتى أنه ترك الخدمـة قبل حرب ١٩٦٧م ورفض الخدمة في المناطق الفلسطينية، وعلى إثر ذلك سجن، وحينما خرج من السجن أعلن أنه من المؤرخين الجدد.

الحركة الإصلاحية اليهودية:

كان الصهيوني اليهودي "موسيس مندلسون" قبيح المنظر وفوق هذا كان أحـدبًا أيضًا منذ ولادته، التقى يومًا تاجرًا في هامبورغ بألمانيا، وكان برفقة التاجر ابنته الجميلة "فرومتي"، أعجب مندلسون بجمال فرومتي من أول نظرة فتعلّق بالفتـاة ولم يجرؤ أن يبوح لها بما في قلبه، فلمّا حانت لحظة الفراق لم يجـد نفسـه إلا أمام غرفة مكتب فرومتي بالمتجر، ما كان منه إلا أن تجرأ وعرض عليها الزواج فأبت ذلك بدون تردّد، وأشاحت بوجهها عنه وعلـى وجههـا علائـم اسـتغراب واضحة من جرأة هذا الشاب القبيح الأحدب الذي يطلب يد فتاة مثلها بذات الجمال والمنزلة، والفرق بينهما واضحًا وضوح الشمس الساطعة في منتصـف النهـار، لما شاهد مندلسون كل ذلك على وجه الفتاة وتصرفها، بادرهـا بالسـؤال: هـل تؤمنين بأن عقد اقتران إنسان بآخر قد أبرم في الجنان قبل ولادتهما؟

- قالت فرومتي بتثاقل واستنكاف: نعم، اعتقد ذلك!

= قال مندلسون: أنا أيضًا اعتقد ذلك.. وأتذكّر أنني عندما ولدت في الجنة جـاء ملك الزواج، وقال، "من هي الفتاة التي ترغب في الاقتـران بهـا أيهـا الشـاب الجميل؟"، فرفعت إحدى الفتيات يدها، فقال لها مَلَكُ الزواج "أنـت بنـت قبيحـة وحدباء فمثلك أن تتزوج من شاب جميل ووسيم مثله؟" سكتت الفتـاة وأطرقـت

رأسها خجلة، لم اطق ذلك المشهد، فقلت لملك الزواج، "أنا مستعد لأمنح جمـالي وحيويتي لهذه الفتاة وآخذ منها شكلها القبيح وحدبتها حتى آخر لحظة من عمري حتى لا تكون بعد هذه اللحظة خجلة أمام أحد".

عندما سمعت "فرومتي" هذه القصة من ذلك الشاب، رفعت عينيها إليه وتأملت في شكله فرأت أمامها شابًا رقيقًا وملائكيًا رغم كل ما كان يعتريـه مـن قـبح فـي المظهر والشكل فوافقت على الزواج منه، وكـان مـن ذلـك الـزواج "فلـيكس مندلسون" الموسيقار الألماني الشهير هو حصيلة الاقتران بين موسيس مندلسون وفرومتي.

ولد موسيس بن منديل عام ١٧٢٩م بمدينة داسو بألمانيا حيث كان يهود ألمانيـا في ذلك الوقت لا يتبعون أسماءهم بأسماء عائلاتهم اليهوديـة، كـانوا يكتفـون بإتباع أسمائهم باسم الأب فقط حسب الطريقة اليهودية القديمة، في عصر لاحـق أمرت السلطات الألمانية أن تكتب أسماء العائلات اليهودية للأشخاص حتى يكون اليهود أكثر علمانية في المجتمع، عاش "موسيس مندلسون" في عصـر يعـرف بعصر التنوير، وكان اليهود فيه من أكبر المستفيدين منه، وأدى ذلك العصر إلـى تغير التفكير لدى الأفراد والحكومات، وأضحى الانفتاح على الأديـان والتسـامح تجاه الأديان الأخرى والجماعات الإثنية ملموسًا، وأدى إلى إتاحة الفرصة لليهود إلى الاندماج في المجتمعات الأوروبية بعيدًا عن الجيتوات، رغم أن قيودًا كثيـرة ظلت دون تغيير، مثل المشاركة في الحياة السياسية والتعليم.

استطاع الفيلسوف "موسيس مندلسون" أن يحقق مكانة مرموقـة فـي الوسـط الثقافي والفكري في ألمانيا فأطلقوا عليه ألقابًا تقديرية منها (سقراط اليهـودي) و(أفلاطون برلين) وحظى بصداقة بعض أعلام الثقافـة الألمانيـة مثـل الكتـاب المسرحيين والنقاد.

في عام ١٧٧١م أرسل عالم لاهوت سويسري يدعى "لافاتير" إلى مندلسون كتابًـا يدافع فيه عن المسيحية وطلب من مندلسون الباقي على دينه اليهودي أن يبـرر

استمراره على دينه على الرغم من قوة الحجة المسيحية التي تضمنها الكتاب، وتحداه قائلاً، "كيف تبقى يهوديًا والحق أمامك واضح؟"

وجد مندلسون نفسه في مأزق في مجتمع يثبت أنه ما يزال منطويًا على الكثير من العداء لليهود على الرغم من تسامحه المفترض، ما كان من مندلسون إلا أن انكب على مواجهة التحدي بالعودة إلى تراثه ثم قام بتأليف كتاب عنوانه (القدس).. القوة الدينية اليهودية، دافع في كتابه عن الدين اليهودي من زاوية تنويرية أراد منها دحض التحدي بما هو أقوى منه، فقال "اليهودية دين عقلاني لا أهمية للوحي فيه ولا دور يذكر للماورائيات"، وهو بهذا قد جعل اليهودية دينًا يناسب عصر التنوير لا دينًا سماويًا، وهو بذلك كان من الذكاء بأن قلب الطاولة على "لافاتير" وأمثاله، وأثبت تفوق اليهودية واعتبرها الأنسب لعصر التنوير من الدين المسيحي، وكأنه كان يقول في رده: لماذا لا تصيرون أنتم يهودًا؟ وربما بعد هذا انطلق مندلسون في حركته الإصلاحية فراح يتحدى الانطواء والجمود ويثبت بأن اليهودية دين وليست قومية.

يقول الباحثان العربيان الدكتور عبد الوهاب المسيري والدكتور لطف الله حيدر (نقتطف من آرائهما)، إن ظهور الحركة الإصلاحية اليهودية يعود إلى القرن الثامن عشر الميلادي، فقد صار يوجد جانبان في اليهودية، واحد إنساني يقبل الآخر ويريد التعايش معه، والثاني غير إنساني بل عدواني ويرفض الآخر تمامًا، في القرن التاسع عشر ظهرت حركة الاستنارة اليهودية، وظهرت اليهودية الإصلاحية التي أكدت الجانب الإنساني وعمَّقته وحذفت من الصلوات اليهودية أية إشارات لإعادة بناء الهيكل وللعودة للأرض المقدسة، فمنذ القرن الثامن عشر وجد اتجاهين دينيين رئيسيين، متميزين ومتنافسين في الحياة اليهودية الاجتماعية والفكرية، ارتبط الاتجاه الأول ارتباطًا عضويًا باسم مؤسسة "موسيس مندلسون" (١٧٢٩-١٧٨٦ م) ودعا إلى التخلي عن العقائد اليهودية والطقوس الدينية القديمة، بينما كان الاتجاه الثاني يجسد النزعة نحو التمسك الصارم بحرفية التعاليم اليهودية التوراتية، فسمي الاتجاه الأول (التيار الغربي) نظرًا

لانتشاره الواسع بين يهود غرب أوروبا، وأطلق على الاتجاه الثاني اسم (التيـــار الشرقي) نسبة إلى شطر أوروبا الشرقي.



موسيس مندلسون ١٧٢٩ – ١٧٨٦م

Moses Mendelson

في البداية نبتت الحركة الإصلاحية اليهودية في ألمانيا حيـــث مولـــد الفيلســـوف اليهودي موسيس مندلسون، لكنها انتشرت انتشارًا واسعًا في الولايات المتحـــدة الأمريكية، ووصل عدد أعضائها مليونين، ولـها ٧٠٠ معبـــد، ولـهـــا مؤسســـات علمية واجتماعية، وتُعتبر هذه الحركة أكبر الفِرق الدينية اليهودية فـــي الغـــرب، كما اعترفت روسيا باليهودية الإصلاحية باعتبارها مذهبًا يهوديًا وأصبح للحركة مقر في موسكو، ومن المتوقع أن تنتشر الحركة الإصلاحية اليهودية لأنـها صيغة مخففة سهلة من العقيدة اليهودية تناسب يهود العالم، وتحقق لـهم الراحة فـهـــي تتكيف بسرعة مع روح العصر، وكل عصر.

تأسست الحركة كما أشرنا على يد موسيس مندلسون (بن مناحم)، الذي ولد فـــي ألمانيا ومات فيها، وهو من أشاع العلوم العصرية بين اليهود، وكان قد جمع بين

علوم الدين اليهودي وفلسفته ومعارف القرن الثامن عشر، كان شعاره الاستجابة للعادات وأعراف المجتمع العصرية مع المحافظة والإخلاص لدين الآبـاء"، أعـاد مندلسون صياغة العقيدة اليهودية ورفض الاعتراف بأي ركن من أركانها الثابتة والمتوارثة مما لا يمكن للعقل البشري بنوره الفطري أن يهتدي إليه أو يتثبت من صحته، وأعلن صراحة في كتابه "القدس"، "أنا لا أقر بمبدأ خالـد إلا مـا أمكـن تأسيسه أو التحقق من صدقه بالعقل".

عمل مندلسون على ترجمة الأسفار الخمسة (البنتاتوخ) لكي يجعل اليهود الألمان يستبدلون لغتهم بالألمانية لأجل جعل الأجانب يقبلونهم، عاش مندلسـون وشـهد الثمرة الأولى لجهوده التربوية وذلك بافتتاح أول مدرسة يهودية حرة في بـرلين عام ١٧٧٨م حيث كانت أول مدرسة يهودية حديثة جمعت في برامجها التعليميـة بين العلوم الدينية والعلوم العصرية التي كانت تدرس جميعًا باللغة الألمانية.

من أنصار مندلسون "تفتالي هرتس ويسلي (١٧٢٥-١٨٠٥ م)" الشاعر الـذائع الصيت والشهرة، كان متحمسًا لدعوة مندلسون فدعا إلى الانصهار فـي ثقافـة العصر، ودعا في كتابه "كلمات عن السلام والحقيقة" يهود النمسا والمجـر إلـى الاستجابة لنداء الإمبراطور جوزيف الثاني الذي دعا إلى استخدام اللغة الألمانيـة وإنشاء المدارس الحديثة لتعليم العلوم العصرية ذات الصلة بروح العصر ومطالبه.

هذا، ومن أتباع مندلسون "ديفيد فرايد لندر (١٧٠٦-١٨٣٤ م)" زعـيم الجنـاح الثوري الذي يُشار إليه أحيانًا بصفة "الليبرالي"، وهو أحد أكثر تلامذة مندلسـون والمؤسس الحقيقي لحركة الإصلاح، الذي ذهب في جهوده إلى حـدود متطرفـة فقدم في عام ١٧٩٩م التماسًا إلى السلطات الكنسية البروتستانتية ببرلين يطلـب فيه السماح له ولأنصاره ومريديه الاشتراك في مراسيم الكنيسة، شرط أن يُعفـوا من القول بألوهية المسيح، أو أي عقيدة تنافي العقل، ومن ممارسـة الطقـوس الدينية التي هي من لوازم المسيحية، وكان طبيعيًا أن ترد الكنيسة طلبـه، كـان فرايد لندر أحد المفكرين اليهود الذين نادوا بالتخلي عن عقيدة الماشـيّح التـي تسببت في عزل اليهود عن العالم غير اليهودي، وكان فرايـد لانـدر يـرى أن

المسألة اليهودية في شرق أوروبا لا يمكن حلها إلا عن طريق الإصلاحات التي تؤدي إلى الاندماج في مجتمعات الدول التي يعيشون فيها.

من أتباع مندلسون أيضًا اليهودي الإصلاحي "إسرائيل يعقوبزون" الذي خصص أول هيكل للطائفة في بيته وكان ذلك في زيزن بألمانيا، ثم هيأ هيكلاً آخر في بيته ببرلين سنة ١٨١٥م، ومن الإصلاحيين الأشداء "إسحاق صمويل ريدجو" (١٧٨٤ - ١٨٥٥ م) وهو يهودي إيطالي، ومنهم أيضًا الحبر اليهودي "صموئيل هولدهايم" (١٨٠٦-١٨٦٠ م) من زعماء هيكل برلين عام ١٨٤٩م، وقد أقدم على استبدال السبت اليهودي ومراسيمه بالأحد المسيحي وطقوسه، ومع ظهوره بدأت حركة الإصلاحيين تذهب أشد تطرفًا وغلوًا من قبل، فقد صرح بأن اليهودية عقيدة دينية وأخلاقية صرفة ليس فيها ما يشير إلى خصائص قومية.

ومن الإصلاحيين النشطين الذين لهم مؤلفات كان "إيوجين بورويتز" حاخام ومفكر ديني إصلاحي وُلد في نيويورك، ومنهم كوفمان كولر (١٨٤٣ - ١٩٢٦م) أحد زعماء اليهودية الإصلاحية الذي وُلد وتلقَّى دراسته في ألمانيا، ثم استقر في الولايات المتحدة عام ١٨٦٩م، وعمل حاخامًا للجماعة الإصلاحية في شيكاغو ونيويورك، كان معارضًا قويًا للصهيونية.

كانت لمندلسون آراء جديدة على اليهود من الناحية السياسية والإنسانية العامة، وهي تُعتبر دستورًا للحركة الإصلاحية اليهودية، وخلاصتها:

١ - أن اليهود يجب أن يندمجوا في إنسانية العصر، وأن يخرجوا من قوقعة العنصرية التي حبسوا أنفسهم فيها طيلة قرون طويلة.

٢ - أن اليهودية دين فقط، وليست جنسية، وأنه من الخطأ أن أقول "يهودي إنجليزي" أو "يهودي روسي"..الخ، والأصح أن يقال إنجليزي متدين باليهودية، وروسي متدين بها، وهكذا.

٣ - أن المساواة في الحقوق المدنية بين اليهود وغيرهم غير ممكنة إلا إذا اعتبر اليهود أنفسهم مواطنين في البلاد التي يعيشون فيها، لا يتميزون بلباس أو أكل أو لغة.

٤ - لا يمكن ذلك إلا إذا تحدث اليهود بلغات أوطانهم، وتعلموا في مدارسها، وحاربوا في جيوشها، ولبسوا من الملابس ما يشبه بقية المواطنين، وخرجوا من الجتو وأقاموا مع غيرهم من الناس.

لم يغير مندلسون بنفسه شيئًا من الشرائع والطقوس التقليدية القديمة، ولم يتحقق في حياته شيء مما أراده إذ لم تختف مظاهر التعصب والكراهية والتمييز الديني ضد اليهود واليهودية، لكن أتباعه غيَّروا الشيء الكثير، لكي يُعطوا للدين اليهودي صورة إنسانية ووطنية دون أن يضطروا إلى القيام بالتعمية على شكل شريعتهم، ورغم أن الحركة استهدفت ابتداء، فإن السبب الجوهري وراء نشاط الحركة ونموها الذي هيمن على مساراتها كان يتمثل في الدعوة إلى التوافق مع مطالب العصر والانصهار في المجتمع الغربي الحديث.

هذا، وكان للحركة الإصلاحية اليهودية عدة مؤتمرات صاغت منطلقاتها، كان المؤتمر الأول الذي عُقد في مدينة فرنكفورت عام ١٨٤٥م أخطرها تاريخيًا، لأن الحركة دعت إليه لنزع الخلاف الذي حصل بين بعض أفرادها بسبب إنكارها لقدسية التوراة.

مما فعله أتباع مندلسون نتيجة لتلك المؤتمرات والجهود الأخرى أنهم عدلوا فكرة التوراة حتى أصبحت بالنسبة لهم مجرد نصوص أوحى الله بها للعبرانيين الأولين، فيجب احترامها لكن يجب أن تتكيف مع العصور المختلفة، فيكون للقانون الإلهي السلطة والحق طالما كانت أوضاع الحياة التي جاء لمعالجتها مستمرة، وعندما تتغير الأوضاع يجب أن ينسخ القانون، حتى وإن كان الإله صاحبه ومُشرعه، أي أن الشريعة فقدت سلطتها الإلزامية المطلقة وأصبحت روح العصر النقطة المرجعية والركيزة النهائية.

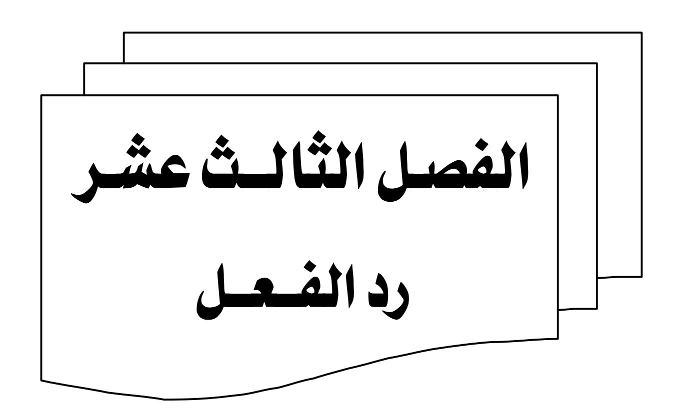
التجربة الواقعية أثبتت أن (الديانة اليهودية) بدون طقوسها الخاصة التقوقعية تُصبح لا شيء، ولذا كان من اليسير، بل من المنطقي بالنسبة لليهود المندمجين المعتنقين للمذهب الإصلاحي أن يعتنقوا المسيحية، فأولاد موسيس مندلسون

وأولاد فرايد لندر، كلهم اعتنقوا المسيحية، ويذكر أبراهام ليون أنه خلال ثلاثين سنة تحول نصف يهود برلين إلى المسيحية، وكان كثيرون أيضًا يخرجون من الدين ويعتنقون المسيحية رغبة في السلام وإيثارًا للاندماج وأملاً في الحصول على مراكز متقدمة في الحياة، ولقد كفر كثير من أتباع مندلسون بالدين عمومًا فتابع كل عقله إلى حيث هداه، عملاً بوصايا مرشدهم.

نتيجة لما سبق، ولما كان أيضًا على الإصلاحيين أن يواجهوا العالم غير اليهودي، مطالبين الأمم الأخرى بالشرائع الضرورية للاندماج والمواطنة، أي أنهم كانوا مضطرين إلى أن يخوضوا معركة الحرية وحقوق الإنسان في نفس الوقت، ولما كانت الحركة معارضة ومخالفة لما أكدته مسيرة التاريخ اليهودي كان سرعان ما ظهرت عيوب الحركة للمؤمنين بالعقيدة اليهودية، ولهذا لم تسر الأمور بالنسبة لهم يسيرة هينة، مما سبب أن انكمش كثير من اليهود عن حركة الإصلاحيين، وتخلت الحركة بالتدريج عن رؤيتها الليبرالية، وأخذت في تعديل رؤيتها بشكل يتواءم مع الرؤية الصهيونية، وبالفعل بدأ الإصلاحيون في العودة إلى فكرة القومية اليهودية الصهيونية، وإلى فكرة الأرض المقدسة، وقد حاولوا تبرير هذا التحول فبيَّنوا أن الأنبياء كانوا يؤيدون الاتجاه القومي الديني دون أن يتخلوا عن الدفاع عن الأخلاقيات الإنسانية العالمية، ودون أن يجدوا أي تناقض بين الموقفين.

عام ١٩٣٥م كان بداية انهيار التيار الإصلاحي، وقد جاء في البيان الختامي للمؤتمر المركزي له: "كانت المقررات التي اتخذها المؤتمر المركزي للحاخامات الأمريكيين تصب في الخط المعارض للصهيونية، إلا أننا مقتنعون بأن القبول بالبرنامج الصهيوني أو رفضه يجب أن يترك أمره للحرية الشخصية لأعضاء المؤتمر، لذلك فإن المؤتمر لن يأخذ أي موقف من موضوع الصهيونية"، وفي العام ١٩٣٧م في مؤتمر كولومبس، جاء في البند الخامس من البيان الختامي: "إن اليهودية هي الروح، وإسرائيل الجسد"، وأضاف البيان: "يجب على كل يهودي تقديم العون لبناء فلسطين وطنًا لليهود، لا من أجل أن تكون مأوى

للمستضعفين فحسب بل لتكون مركزًا للحضارة اليهودية والحياة الروحية"، بل قد تزايد النفوذ الصهيوني داخل معسكر اليهودية الإصلاحية إلى درجة أن الاتحاد العالمي لليهودية التقدمية (أي الإصلاحية) عقد مؤتمره السنوي الخامس عشر في مدينة القدس للمرة الأولى عام ١٩٦٨م، وذلك عقب عدوان١٩٦٧م في غمرة الحماس القومي الذي اكتسح يهود العالم نتيجة للانتصار الإسرائيلي على العرب، وقد تزايدت أيضًا العناصر القومية في الشعائر الإصلاحية (حيث تُتلى الآن بعض الصلوات بالعبرية)، كما أن الإصلاحيين ينفخون في البوق (شوفار) في المعبد في عيد رأس السنة وأدخلوا بعض العناصر التراثية على الصلوات الأخرى، وبدأت اليهودية الإصلاحية، ابتداء من منتصف السبعينات تُساهم بشكل واضح في الحركة الصهيونية، حيث أصبحت ممثلة فيها من خلال جمعية أراز (جمعية الصهاينة الإصلاحيين في أمريكا)، وقد انضم الاتحاد العالمي لليهودية التقدمية إلى المنظمة الصهيونية العالمية عام ١٩٧٦م.



الفصل الثالث عشر

رد الفعل

لا ينكر أحد، قاصي أو داني، بأن الفلسطينيين قدموا من الشـــهداء والتضـــحيات والمثابرة وعدم الاستسلام في سبيل التحرر الوطني ما لم يقدمه أو يتحمله شعب آخر في التاريخ عدا سكان أمريكا الأصليين، صحيح أن هناك شـــعوب وحركـــات وطنية قدمت من التضحيات الكثير إلا أنها لم تطـــرد مـــن أرضـــها كمـــا حـــدث للفلسطينيين بدون استعداد، فرغم كل تلك التضحيات الكثيـــرة والمتنوعـــة التـــي قدمها الفلسطينيون، فإنهم لم ينجزوا شيئًا على صعيد التحرر الـــوطني وتقريـــر المصير، ففي كل مرحلة مـــن مراحـــل الصـــراع مـــع المســـتوطنين الصـــهاينة (إسرائيل)، كان الفلسطينيون يقدمون أفواجًا من الشهداء من أجل حريتهم.. فكـــم أريقت دماء، وكم هدمت بيوت، وكم جرفت مزارع، وكـــم أهـــين البشـــر، وكـــم تضاعف عدد الأيتام والثكالى والأرامل والمكلومين، ومع ذلك وللأسف لم تأتِ كل تلك التضحيات أكلها، أساسًا بسبب غياب القيادة المتزنة التـــي تأخـــذ بأســـباب العصر، وغياب البرنامج الثوري المقدس الذي لا يحيد (تم التنـــازل عـــن البنـــد المفصلي في الميثاق الوطني الفلسطيني الذي يدعو إلى تحرير فلسطين كلها من العنصرية الصهيونية)، كما أن غياب البوصلة الواضحة التـــي تتمثـــل بـــالخبراء والفلاسفة والمستشارين والمنظرين والاستراتيجيين الذين لم تعطى الفرصة لهـــم كمؤسسات متخصصة لا تتأثر بتدخل السياسيين، أدى إلى ضبابية طريق التحرير، الفلسطينيون والعرب كانوا على مدى ما يزيد عن سنين الستين عامًا التي مضت، كانوا يضعون الخطط ويعتمدونها وعند الشروع في التنفيذ أو خلاله، سرعان مـــا كانوا يُغيِّرون الخطط أو يعودون إلى نقيضها عما أقروه وذلك بســـبب الارتجـــال واكتشاف الأخطاء في اللحظة الأخيرة بل إن الأسوأ كان كل فريق إما يُخوِّن مـــا سبقه من القادة أو يعتبره جاهلاً، وهذا يكفي لكي نعرف فَرق الأداء بين العـــرب وإسرائيل.

في المقابل عند الصهاينة، كان كل شيء واضح في جبهة الأعداء، الذين كـــانوا يعرفون كل ما يودون وما يسعون إليه، حتى دقائق الأمور الآنية والمرحلية كانوا يلتزمون بها، وكانوا دائمًا على وعي تام بلعبة الأمم، كانوا يضعون الخطط التـــي

يمكن حين التطبيق أن تلائم مصالح الدول المتنفذة أيضًا إضافة إلـى المصـلحة الصهيونية، لم يحدث في مرة واحدة أن أتت حكومة في إسـرائيل سـواء مـن اليمين أو اليسار، معتدلة كما قد يطلق عليها أم متطرفة، ما حدث مرة أن حكومة إسرائيلية واحدة عملت بعد فوزها على إلغاء قرار كانت قد اتخذته حكومة سابقة، وكل ما كانت تفعله الحكومة الجديدة إذا لم تكن متحمسة لقرار سياسي كـان قـد صدر عن الحكومة السابقة، هو أنها كانت تبطيء في التنفيذ أو تتلكأ فيه.

ووصل الصراع إلى مرحلة أصبح فيها يستعصي على الحل، ولم يجد العرب منفذًا سوى أن ينصاعوا إلى تقديم التنازلات لإسرائيل عن طريق ملاءمة مواقفهم مـع عجزهم وضعفهم، الذي تمثل بقول وزير الدفاع الإسرائيلي "موشيه ديـان" بعـد الهزيمة العربية عام ١٩٦٧م، "أنا أجلس بجانب الهاتف لأجل أن اسمع من يطلبنا من العرب لكي يصنع السلام معنا".

كان قد تحفظ العرب على قيام إسرائيل سنة ١٩٤٨م، وبسبب هذا التحفظ نشـبت ثلاث حروب بين العرب وإسرائيل، ولم يكسب العرب مع الأسف من هذه الحروب شيئًا بل العكس خسروا، وكانت الأمم المتحدة قد أقرَّت مشروع تقسـيم فلسـطين بين الفلسطينيين واليهود مناصفة تقريبًا سنة ١٩٤٨م، بعد قيام إسرائيل ونشوب الحرب الأولى بين العرب واليهود ورفض العرب لمشروع التقسيم بسبب ما أشرنا إليه من عدم قناعتهم بوجود إسرائيل وهي الاستراتيجية التي أكدها العـرب فـي الخرطوم بعد حرب ١٩٦٧م، لا تفاوض لا صلح لا اعتراف، فـي الوقـت الـذي كانت تدعي فيه إسرائيل رغبتها في السلام والتعايش مع العرب بشـرط القبـول بوجودها من قبلهم، لكن هذا الادعاء الإسرائيلي قد انكشفت حقيقته بعـد أن قـام العرب بتعديل كبير في استراتيجيتهم؛ فبعد زيارة الرئيس المصري الراحل أنـور السادات لإسرائيل سنة ١٩٧٧م ومن ثم توقيع معاهدة السلام بين البلـدين عـام ١٩٧٩م، وما حصل في اتفاق أوسلو بين الفلسطينيين وإسرائيل عـام ١٩٩٣م، ومعاهدة السلام بين الأردن وإسرائيل عام ١٩٩٤م، والمفاوضات التي تمَّت بـين سوريا وإسرائيل والتي لم تحقق شيئًا، وترتب على ذلك اعتراف مصـر والأردن

بإسرائيل واستعداد سوريا والسلطة الفلسطينية وبقية العرب للقيام بــذلك مقابــل إكمال عملية السلام، وهو ما يعني انسحاب إسرائيل من هضبة الجولان السورية ومن الضفة الغربية وقطاع غزة وإقامة دولة فلسطين (الأرض مقابل السلام)، إلا أن ما حصل هو أن إسرائيل بدأت تتراجع وتتلكك، بل إنها تراجعت عن تنفيذ مـــا اتفقت عليه مع السلطة الفلسطينية وأعلنت بأنها لن تنسحب من كــل الأراضـــي الفلسطينية التي احتلت عام ١٩٦٧م بشكل كامل، فــبعض الإســـرائيليين رأى أن الانسحاب (٩٠%) في عهد حكومة (باراك)، أما (شارون) فيقــول بــإن الدولـــة الفلسطينية ستكون في حدود (٤٠%) من الأراضي المحتلة، بل أن إسرائيل ومن يقف معها راحوا يُطلقون على المقاومة الفلسطينية صفة الإرهاب، وبالفعــل تـــم وضع حركة المقاومة الإسلامية حماس على قائمة الإرهاب في الولايات المتحـــدة الأمريكية، السؤال الآن ماذا كانت تنتظر إسرائيل من الفلسطينيين مع اســـتمرار الاحتلال والحرمان والفقر؟!

لقد أصاب الصراع العربي الإسرائيلي كل موطن للأمل وهدمـــه، وفـــتح الأعـــين وأشعل العواطف، وأبقى العقول بلا عقول بل أحاط البصائر بضباب كثيـــف جعــل الرؤية لا تتجاوز رد الفعل المتقهقر على ما يحدثه الأعداء مـــن أحـــداث، وظـــل العالم حسب مشيئة الحياة يتحرك ويتطور وبقي العرب على حالهم فـــي أحســـن الأحوال، بقي نسبة العشرة بالمائة الأغنياء من العرب يتسلون بما بين أيديهم من ثروات كالدمى، وبقي الفقراء التسعون بالمائة يرنون إلى ما بين أيدي الأغنياء، وما بين هؤلاء وهؤلاء كانت تخرج انتفاضات شعبية موسمية غير منظمة هنا أو هناك، وغير مُعد لها جيدًا لأسباب ليس الحكام وحدهم الملامون عليها.

وليس هذا قولاً ساحرًا أو فريدًا من نوعه، إنما يمكن أن نسمع آراء مماثلة مـــن أي شخص يحيا في الوطن العربي الكبير من شاطيء المحيط الأطلسي حتى مدينة البصرة على الخليج العربي، وبقيت حقوق الإنسان العربي في بـــلاده مصـــادره، وظل النمو الاقتصادي بطيئًا، واستمرت الأحكام العرفية في البلاد، لأجل ألا يعلـــو صوت على صوت المعركة مع العدو الذي لم يترك المنطقة لكي تستقر.

قال الرئيس حسني مبارك عن هذا، "التجاهل العمدي للانتهاكات اليومية لحقوق الإنسان التي ترتكبها إسرائيل في المناطق الفلسطينية المحتلة؛ لن تساعد سعينا نحو الإصلاح ولكنها قد تُدَّعم الإرهاب والتطرف الذي ينبع من اليأس والإحباط الذي تعانيه المجتمعات العربية"، وكان صادقًا في هذا القول.

الاتحاد الأوروبي له مصالحه في إيجاد نوع من السلام المقبول في المنطقة فمن أولوياته الاستراتيجية بناء على وثيقة الأمن الأوروبي، إنه بدون إيجاد سلام في الشرق الأوسط ستكون الفرص ضئيلة للتعامل مع المشاكل الهامة مع أهل المنطقة، مثل الدمقرطة والليبرلة والتنمية الاقتصادية والتعاون الأمني.

إذن الصراع العربي الإسرائيلي هو محور مشاكل المنطقة وهذا ما يجعل واشنطن قلقة كما الرئيس المصري والاتحاد الأوروبي، وهنا لا يمكن إلا أن نلمس الصراع الخفي بين الاتحاد الأوروبي والولايات المتحدة على مناطق النفوذ، وإن كان الطرفان ينتميان إلى ثقافة واحدة، الولايات المتحدة تريد الاتحاد الأوروبي ليس اتحادًا كما يشتهي الأوروبيون، الولايات المتحدة تريد أن تجر أحيانًا بذيلها من تراه مناسبًا من الدول الأوروبية فرادى لكل مهمة على حدة كما كان حينما احتلت العراق وتبعتها بريطانيا، لكي تكافئها بشظف من فتفوتة خبز مما ستكسبه من العراق، الذي قد يكون على شكل مشروع إعماري لشركة بريطانية وما شابه ما دام الاقتصاد هو الأهم عند العالم الرأسمالي، والاتحاد الأوروبي أيضًا يتطلع بأن يكون هو الأحق في قيادة البشرية مستقبلاً، ما دامت الحضارة الغربية هي حضارة أوروبا أصلاً، وإن على دولة المهاجرين الولايات المتحدة الأمريكية أن تعود إلى حجمها المعنوي وتبقى مستودعًا اقتصاديًا يسند أوروبا أي أن يكون الاتحاد الأوروبي في الأمام وأمريكا خلفه لا العكس.

ما دام الأمر بهذه الصعوبة بل بهذا التعقيد فليس من المستبعد أن تكون مشاريع السلام المقدمة من قِبل أمريكا للفلسطينيين والإسرائيليين أقل حرارة، بل وبطيئة الحركة أو أليست الدولة الصهيونية مادة بشرية وجزء عضوي غربي لها وظيفة لخدمة مصالح القوة المتنفذة الأولى دائمًا، حينما كانت بريطانيا وفرنسا هما

الدول الأولى في العالم كانت إسرائيل تستمع إليهما جيدًا، وأما الآن فإن أمريكا فقط من تستمع إليه إسرائيل وإن أبقت الباب مفتوحًا ومواربًا للدول الأوروبية، فالصهاينة من أكثر الناس الذين يدركون لعبة الأمم، وقد خبروها حينما تنقلوا بين هذه الدولة وتلك حينما كانوا يعدون العدة للقيام بمشروع الوطن القومي اليهودي.

وحينما يحتج العرب على البطء الأمريكي في الإسراع في إنجاز الحل السلمي، يكون من السهل أن تدَّعي أمريكا بأن الظروف غير مهيأة بعد لتحقيق السلام، أو أن هناك إرهابيون أو متطرفون أو إسلاميون يعيقون السلام، وما الأمر في الحقيقة ليس أكثر من مناورات وكسب الوقت لأن الاستراتيجية الأمريكية يكون لها أهداف أخرى أو أن هناك ما يمكن أن يوظف لأمر ما في المنطقة أو العالم أو للحصول على مزيد من الابتزاز للأنظمة العربية في أمور الخطط الاستراتيجية المنتظر الشروع فيها.

كل هذا يحدث بينما العرب يتسولون على أبواب العواصم الغربية طلبًا للمساعدة، يطلبون من الاتحاد الأوروبي أن يدفع أمريكا في اتجاه الحل السلمي للضغط على إسرائيل، وقد يشرعون في صفقة اقتصادية مع روسيا لأجل أن يكون لها رأي خلال اللجنة الرباعية، للأسف بقي هذا هو الأسلوب الوحيد للاستراتيجية العربية منذ عشرات السنين، وظلت الإرادة العربية مكبلة وغائبة، لم يفكر العرب أو يلتفتوا إلى علاقاتهم الداخلية كعرب، لا نقول بديلاً عن التعامل مع عواصم العالم للحصول على مواقف إعلامية أو تأييد دبلوماسي لحقوقهم، وإنما لتحقيق النمو الاقتصادي الحقيقي والتوجه نحو توحيد المواقف والإمكانيات، وجعل الآخرين من القوى العالمية تشعر بأهميتهم ليس كمواد خام وبترول أو موقع، وإنما كقيمة بشرية يمكن أن يكون لها حساب في المعادلات الدولية.

من يتمعن في الموقف الأمريكي يجد أنه الموقف المراوغ الأكثر وليس إسرائيل فقط، أما إسرائيل فهي تنفذ ما تطلبه منها الولايات المتحدة وتلتزم به أيضًا، أما الولايات المتحدة فهي التي تستطيع فعل كل شيء، ورغم ذلك فقد قدمت حلولاً

عدة لإنهاء الصراع العربي الإسرائيلي، لكن أيًا منها لم يتم تنفيذه كاملاً، اللهـم إنها اعتادت أن تضع حلاً جديدًا في كل مرة بدلاً من القديم لمجرد إبقاء الأمـور في ذاكرة الناس وجعلهم ينتظرون ولا يدرون ماذا سيأتي بعد ذلك.

من المفروض أن كل ذي عقل من العرب عليه أن يكون مقتنعًا بـأن الحكومـة الإسرائيلية، ما كانت أن تقرر الانسحاب من طرف واحد من قطاع غزة، وتـدمير كل مستعمراتها هناك، إلا إذا كان هذا رؤية أمريكية، في المقابل تحدَّث الكثيـرون عن مستقبل المنطقة بعد أن فرغ قطاع غزة من الجيش الإسرائيلي، عبر وسـائل الإعلام سئل الأستاذ صائب عريقات كبير المفاوضين الفلسطينيين في محادثـات السلام الاسرائيلية الفلسطينية في ذلك الوقت عما سيحدث بعد أن تـم انسـحاب إسرائيل من قطاع غزة، فكان جوابه على التليفزيون بأنه لا يدري ماذا سـتقرر أمريكا، ونفس الشيء أجاب الأستاذ أحمد قريع مسئول ملف "اتفاقية أسلو" وهـو من ضمن أصحاب القرار في القيادة الفلسطينية وممن يلتقون مع الإسـرائيليين والأمريكان، ولما سئل الرئيس محمود عباس أيضًا نفس السؤال، أجاب بأنـه لا يدري ماذا سيقرر الأمريكان فعله بعـد انسـحاب إسـرائيل أو مـاذا سـيعطون الفلسطينيين، فإذا كان هؤلاء القـادة السياسـيون لا يعرفـون ولا يـدرون ولا يتوقعون فإن الأمور غامضة، وهذا في حد ذاته إهانة للعقـل العربـي وللنظـام العربي ككل، وهذا لا يعادل فتح الأسواق العربية وخدمة الولايات المتحـدة فـي المنطقة ونهب الثروات العربية خفية وعلنًا.

إن الولايات المتحدة لا ينقصها الحلول لكي تنفذ الحلـول السـلمية، لأن معظـم الترتيبات الأساسية تمَّت في الواقع، هناك محاضر من محادثات طابا التي تمـت منذ وقت طويل، وهناك مسودات تفصيلية من مجموعة الهيئة الدوليـة، وهنـاك المبادرة العربية للسلام ٢٠٠٢م، وهناك خريطة الطريق التـي يؤيـدها الاتحـاد الأوروبي، والأمم المتحدة وروسيا و(نظريًا) الولايات المتحدة، ولدينا اتفاق جنيف – معاهدة السلام غير الرسمية التي وقعها العديد مـن الشخصـيات الفلسـطينية

والإسرائيلية، وهناك قرارات دولية وتوصيات لا عد لها ولا حصر وكلها قانونيـــة وشرعية، فماذا بعد!

الإرادة السياسية المنصفة بشكل أصيل، والجاهزة لممارسة نفس الضـــغط الـــذي يقع حاليًا على الفلسطينيين والعرب لتمارسه على الحكومة الإســـرائيلية تلكـــأت، فور حدوث ذلك سوف يبدأ باقي العالم في لعب دوره الجاد والمســـئول لتحقيـــق سلام قابل للعيش مع التسليم بطبيعة وتاريخ الصراع، فلا توجد مشكلة ليس لهـــا حل، الحل الذي يرضي كل الأطراف، فالسلام الملموس الذي يمكن بيعه لكل مـــن العرب والإسرائيليين مادام عادلاً وواقعيًا على وجه العموم هو السلام الذي سوف يقوض أساس الجماعات المتطرفة عند الجانبين ويبدأ في تهميشهم، ويجب على العرب وخاصة الفلسطينيين ألا يتوقفوا عند هزائم وأحزان الماضي وما شابه بل يجب التفكير في مستقبل واعد حتى وإن أبقوا في ذاكرتهم ما فقدوه.

الخطوة العملية الوحيدة التي تستطيع الولايات المتحدة أن تتخذها لإعادة الاعتبار لسمعتها عند العرب والفلسطينيين، بينما تتقدم في نفس الوقت بقضية الإصـــلاح الديمقراطي، هي أن تجعل من السلام العادل بين العرب وإسرائيل أســـبقية، وأن تتحرك بقوة وبسرعة في هذا الطريق الذي سيُعيد الثقة بل يبنيها علـــى أســـس الاحترام والعدل.

بالنسبة للعرب كجامعة عربية، فالعرب ليسوا جاهزين للشروع في مفاوضات مع إسرائيل للتطبيع، وقد قيل هذا في أكثر من مناسبة علـــى لســـان الأمـــين العـــام للجامعة العربية، سئل عمرو موسى الأمين العام للجامعة العربيـــة فـــي إحـــدى المرات، هل العرب مستعدين للتطبيع مع إسرائيل قبل أي شيء، فكان رده، "فـــي المشمش".. وفي المشمش مثل شعبي معناه في هذه الحالة إن ذلك بعيدًا ويُشـــبه المستحيل أن يحدث، بالنسبة للإسرائيليين، إذا ما طلب مـــنهم الانســـحاب مـــن الأراضي العربية المحتلة في غياب أوراق ضغط عربية حقيقية، فـــإنهم يقولـــون هذا مستحيل أن يحدث، فلا انسحاب قبل التطبيع مع دول الجامعـــة العربيـــة! إذن إسرائيل بحاجة للتطبيع والعرب بحاجة لانسحابها من أراضيهم، وهذا مـــا جعـــل

الطرفان مسترخيان إلى حد ما رغم معاناتهما، وأصبح يمثل حالة من اللا حرب واللا سِلم، ورغم أن الطرفان ينزفان كل بطريقة ما، إلا أن هكذا وضع أصبح مقبولاً من الطرفين، واكتفيا بتبادل الاتهامات وليس أكثر من ذلك، عدا هذا فإن الفلسطينيين وحدهم هم من يكتوون بالنار، ووصل الجميع إلى باب مسدود.. ما الحل؟ فإسرائيل قوية ومتماسكة، ويبدوا أنها ستظل كذلك لفترة طويلة قادمة، لأنها تملك عناصر قوة علمية وصناعية ومالية متناغمة مع بعضها بدون إبطاء، ولها غطاء دولي قادر على حمايتها، الفلسطينيون العرب في ظل النظام العالمي الذي تفرضه أمريكا، لا يستطيعون إحداث حسم للصراع، ففي أي محاولة سيكون العرب هم الخاسرون، وقد تظل خسارة الفلسطينيين دائمة بسبب عدم تطور الحركة النضالية الفلسطينية نتيجة التدخلات الخارجية الإقليمية والدولية.

المفاوضات السياسية هي لتسوية المنازعات والصراعات الكبرى، وهي عملية سياسية والسياسة لها تعبيراتها العسكرية والدبلوماسية والإعلامية، ويفوز فيها من يستطيع تغيير الخصم ودفعه لتغيير أولوياته بحيث يكون مستعدًا للتنازل عن الجائزة موضع النزاع، والهدف دائمًا من أي عملية تفاوضية هو تغيير البيئة التفاوضية، وإقناع الطرف المقابل بأنه شريك فعلي في حل ملزم، بالنسبة للعرب هناك تجربة سابقة كان من المفروض أن يكون جيل السياسيين في الوقت الحاضر قد تعلم منها، مصر كان لها أرض محتلة، وسوريا لها أرض ما زالت محتلة.

الرئيس أنور السادات تحدى كل الصعاب المحلية والعربية وتجاوزها، وقبل التفاوض مع إسرائيل خلال عملية سياسية معتبرًا أن ليس هناك إهانة أكبر من أن تبقى أرض سيناء تحت الاحتلال، فإن كان التقدم نحو إسرائيل من قِبل مصر هو بسبب الضعف وعدم القدرة على المواجهة، فإن بقاء الاحتلال لصحراء سيناء هو الذل بعينه، الرئيس حافظ الأسد رفض أسلوب الرئيس السادات واختار إيجاد التوازن الاستراتيجي مع إسرائيل، أي أن استعادة الجولان يمكن أن تعود بحرب جديدة مع إسرائيل، لكن لا التوازن الاستراتيجي بين العرب وسوريا بالذات قد

تحقق ولا الحرب قد حدثت، فكان أن السادات قد استعاد سيناء بالمفاوضات وباتفاقية بشروط إسرائيلية، وما زالت الجولان محتلة.

بشكل ما إن مبادرة السلام العربية، مبادرة الأمير عبد الله آل سعود (أصبح ملك السعودية بعد ذلك) يمكن اعتبار أن فيها بعض خصائص فلسفة السادات التفاوضية، فهي تقدم عرضًا مغريًا لإسرائيل بالمطالبة بالانسحاب مقابل العلاقات الطبيعية، وهي بالتالي تُسجل النقطة الأولى لعملية سلام ناجحة، والمفروض عمل صعقة كهربائية كما فعل السادات بالمجتمع الإسرائيلي من قمة الهرم حتى القاعدة حينما زار القدس، تلك الزيارة التي جعلت كل فرد في إسرائيل يبدأ الحساب من جديد، وكان هذا في حد ذاته كافيًا لاعتباره نقطة في صالح الرئيس السادات، خبراء الاستراتيجية يقولون بإن بداية النصر على الخصم تبدأ حينما تستطيع أن تجعله يغير خططه التي أمضى وقتًا طويلاً قبل أن يعتمدها.

الرئيس السادات جعل إسرائيل تحت إغراء الاعتراف بها أن تغير خططها وأن تضع حسابات جديدة، ماذا يضر لو دخل العرب مع الفلسطينيين على خط موازي وشرعوا في التفاوض مع إسرائيل وعدم التوقيع مع إسرائيل قبل أن يوقع الفلسطينيون، ربما يصبح هذا دافعًا جديدًا أمام العالم خصوصًا الولايات المتحدة التي سترعى كل الاتفاقات المحتملة وستشرف بطرق كثيرة على المفاوضات أن لم تكن طرفًا مباشرًا فيها، بهذه الكيفية يمكن إبقاء القضية على المسرح الدولي، ويمكن تعويد المواطن الإسرائيلي على احتمال وجود سلام شامل مع العرب، وقد يدفع الحكومة الإسرائيلية عند المنعطفات الحرجة في المفاوضات أن تتحمل المسئولية وتقترب أكثر من صيغة السلام العربية. (المبادرة العربية للسلام)

قد يقول قائل إن هذا الطرح لا يكفي للحصول على الدولة الفلسطينية وتحقيق الانسحاب من الجولان أو فمن سيضغط على إسرائيل بعد أن غاب الاتحاد السوفييتي بلا عودة، ثم إن السادات ذهب إلى إسرائيل بعد أن حقق حرب ١٩٧٣م، ولم يكن غائبًا عن القيادة الإسرائيلية ماذا حدث لمواقعهم في خط بارليف الشهير على الضفة الشرقية لقناة السويس، رغم عدم وجود التوازن

الاستراتيجي الكامل بين مصر وإسرائيل في ذلك الوقت، الجواب على هذا ليس صعبًا فحتى الاتحاد السوفييتي يعتبر من أولى الدول التي اعترفت بإسرائيل حين قيامها عام ١٩٤٨م، فقد اعترف الاتحاد السوفييتي بإسرائيل بعد ثلاثة أيام فقط من إعلانها، والاتحاد السوفييتي يُقر بأن الشرق الأوسط هو منطقة للنفوذ الغربي وإن كان يبيع أنواعًا محددة من السلاح لبعض الدول العربية، وحتى أن الأمريكان كانوا يجاهرون علنًا بأنهم لن يسمحوا بتفوق السلاح الروسي في أيدي العرب على السلاح الأمريكي في أيدي الإسرائيليين فالأمور محسومة سلفًا، وقد رأينا كيف كان عتب "جمال عبد الناصر" على القيادة السوفييتية التي كانت لا تُعطي مصر والعرب أنواع السلاح المناسبة التي كان أغلبها أسلحة دفاعية، فماذا كان الروس السوفييت يستطيعون أكثر مما حدث، رغم أن الهزيمة العربية الكبرى التي حدثت للعرب كانت أيام تجلي الاتحاد السوفييتي في الساحة العالمية، فما دمنا لا نستطيع مواجهة إسرائيل لانتزاع حقنا فإن المفاوضات وإنقاذ ما يمكن إنقاذه هو نصر في حد ذاته بدلاً من تجميد كل شيء والبقاء مكانك سر فإن كنت لا تتقدم فإن غيرك يتقدم ويتطور! من المفروض ألا يُضيِّع العرب وقتًا فالوقت له ثمن، في الماضي البعيد كانت إسرائيل تستجدي العرب الاعتراف بها بمعنى قبولها في المنطقة، والآن نحن نستجديها ومستعدين أن نُقدِّم أكثر من الاعتراف بها من أجل الانسحاب من أراضينا مقابل الاعتراف بها! كل شيء رفضناه في الماضي عدنا نلتمس استعادته.. متى ينتهي هذا النوع من السياسة!

قد يقول أحدنا إن إسرائيل غير جادة في عملية السلام ما دمنا لا نطبق مبدأ "ما أخذ بالقوة لا يُسترد إلا بالقوة"، وهذا ممكن وقد يكون صحيحًا تماما، ولكن أين هي القوة؟ ألمانيا في الحرب العالمية الأولى تم تمزيقها وتركيعها أمام الحلفاء المنتصرين على قاعدة "الويل للمغلوب"، في مؤتمر فرساي عام ١٩١٩م ألزم الحلفاء ألمانيا بمعاهدة مذلة، فقد فرضوا عليها غرامة مالية كبيرة، وفرضوا قيودًا على تسليح الجيش الألماني، واقتطعوا أجزاء من أراضي ألمانيا، وكانت النتيجة بأن تلك الاتفاقية قد وضعت بذور الحرب العالمية الثانية، وفعلاً حينما

استردت ألمانيا عافيتها عادت للمواجهة، العبرة من هذا هي الاستفادة من الوقت الذي لا يعمل بأي حال من الأحوال في صالح العرب، والمفروض أن نعمل جهدنا في الوقت الحاضر ونضع بذورًا للأجيال القادمة، ونُكمل ما علينا بحل مشاكل مجتمعاتنا التي تحتاج إلى الكثير بدلاً من النزيف الاقتصادي الذي يخسره العرب في كل يوم، وبدلاً من وقف حالنا لا نتحرك خطوة واحدة إلى الأمام، العالم من حولنا لا يتوقف عن المسير أو كأننا لا نعلم بأننا إذا لم نتقدم وحتى لو بقينا في أماكننا فإن الآخرين يتقدمون! لقد آن الأوان، أن يُصارَح المواطن العربي من قِبل الأنظمة وأن يعرف الحقيقة، وأن يقتنع بمدى حدود قدرتنا كعرب للتصدي لإسرائيل التي تُمثل دولة الإمبراطورية الأمريكية في المنطقة، إن إحدى القضايا الهامة التي ما زالت تفرض نفسها في غياب التنسيق العربي، هي استفراد إسرائيل والمساندين لإسرائيل بالشعب الفلسطيني ذي القدرة والإمكانيات المحدودة دائمًا، لم يكن الشعب الفلسطيني في أي مرحلة من مراحل الصراع العربي الإسرائيلي في موقف القوة أو المبادرة، فلو أخذنا فترة الخمس سنوات الأولى من القرن الحادي والعشرين كمثال فقط، نجد أن أمورًا كثيرة قاهرة قد اعترضته في السياسة وفي الميدان، ولم يقدر عليها وجعلته يفقد توازنه، من تلك العوارض مجيء حزب الليكود اليميني برئاسة الجنرال "أرئيل شارون" إلى الحكم في إسرائيل بعد أن أصبحت المنطقة العربية تتأثر بما يحدث في سوق الانتخابات الإسرائيلية، ثم استحداث حزب "كاديما" برئاسة شارون أيضًا، ثم حدوث زلزال الحادي عشر من سبتمبر ٢٠٠١م، الذي جعل الولايات المتحدة تسقط أنظمة الحكم في دولتين، أفغانستان والعراق، وما تلا من تداعيات في منطقة الشرق الأوسط، وإطلاق يد إسرائيل لكي تفعل ما تريد بالشعب الفلسطيني في الأراضي المحتلة، وتبع ذلك تشكيل مناخ دولي بدا العجز العربي فيه واضحًا ومخزيًا، وجعل القضية الفلسطينية تمر بمرحلة من أسوأ مراحلها، بل لا تقل عن نكبة عام ١٩٤٨م وهزيمة ١٩٦٧م.

فقد اختلفت الانتفاضة الفلسطينية التي أطلقها الشعب الفلسطيني عام ٢٠٠٠م عن الانتفاضة التي انطلقت عام ١٩٨٧م، الانتفاضة الأولى كان لها تأثير ونتائج إيجابية يعود الفضل فيها ليس لقدرة الشعب الفلسطيني وبلاؤه في ميدان الصِدام مع الجيش الإسرائيلي، إنما لأنه بأقل الخسائر استطاع أن يخترق الحاجز النفسي ويهدم الأسوار والتحصينات التي تمنع الإسرائيلي والأمريكي والرأي العالمي بصفة عامة أن يعلم جيدًا أن الفلسطينيين أيضًا بشر يستحقون أن يتم التفاهم معهم، ولو بمقاييس الاستعمار والاستيطان وليس من مصلحة المستعمر أو المستوطن أن يتجاهلهم بعد أن بدا أنهم يمكن أن يكونوا شركاء وجيران متعقلين عملا بمبدأ، "عدو عاقل خير من صديق جاهل".

كان للانتفاضة الأولى تأثير واضح على الموقف في كل من إسرائيل وأمريكا، فقد حققت بواسطة الحجارة اختراقًا مهمًا داخل إسرائيل تَمَثَّل في إبداء قوى حزبية مهمة تفهمًا لدوافع نشوبها، وأثر هذا في الدوائر الحزبية والشعبية في قطاعات كثيرة في المجتمع الإسرائيلي، وأصبح يرى الكثيرون في إسرائيل أنه لا يتوجب وقف الانتفاضة الفلسطينية بالقوة بل بالمفاوضات التي تؤدي إلى تسوية سلمية مقبولة من الشعبين، كما أن الانتفاضة الأولى حققت اختراقًا مهمًا داخل الولايات المتحدة الأمريكية بالنسبة للقضية الفلسطينية على مستوى الحكومة الأمريكية ومجلس النواب ووسائل الإعلام والرأي العام، وانعكس ذلك على الرأي العام العالمي بما فيه حلفاء إسرائيل ومؤيدي أمريكا وعلى المتعاطفين أيضًا مع العرب بصفة عامة وعلى الفلسطينيين بصفة خاصة.

بسبب الانتفاضة الأولى.. في إسرائيل انتهى عهد حكومات اليمين وجيء بحكومة حزب العمل بقيادة "اسحق رابين" عام ١٩٩٢م وبغالبية كبيرة. وأعطى الشارع الإسرائيلي ثقته للحكومة لأول مرة من أجل السلام فكان "اتفاق أسلو" سنة ١٩٩٣م بغض النظر عن تقييم برنامج أسلو سلبًا أو إيجابًا، لكن المهم أن القضية الفلسطينية تحركت بموجب اتفاق أسلو بدلاً من الركود الذي نتائجه لا تحمد بسبب تكريس الأمر الواقع الذي لم يكن في مصلحة الشعب الفلسطيني بكل

المقاييس، من نتائج الانتفاضة الأولى أن أقيمت سلطة فلسطينية واستعاد الفلسطينيون جزءًا من الأرض وبدأوا بناء مؤسسات كيانهم الوطني القادم وأخذ العالم بأسره يتعامل مع هذه الحقائق الجديدة، فيما أخذ الإسرائيليون يتعايشون معها أيضًا.

أما الانتفاضة الثانية التي جرى عسكرتها فقد أدت خصوصًا بعد انهيار مفاوضات عرفات - باراك في "كامب ديفيد"، برعاية "بيل كلينتون" عام ٢٠٠٠م، إلى أمور عكس نتائج الانتفاضة الأولى، كانت خسارة الفلسطينيين ما ربحوه في أمريكا منذ الانتفاضة الأولى وعلى امتداد السنين العشر لعملية السلام، وخسارة التفهم وأحيانًا التعاطف عند جهات إسرائيلية عدة ينتمي معظمها إلى اليسار، وعودة سيادة منطق الأمن أولاً عند غالبية الإسرائيليين على منطق السلام.

إن عدم التنسيق الجاد والفعَّال بين حركة المقاومة والسلطة الفلسطينية أوجد فجوة واسعة في الجبهة الداخلية الفلسطينية، وخلق حالة من الخلل على كل المستويات السياسية والأمنية والاجتماعية والاقتصادية، وهذا الخلل حجَّم الفعل الانتفاضي العام، ورفع وتيرة الفعل الاستشهادي الذي أخذ في اتجاه عسكرة المجتمع الفلسطيني واختفاء النساء والأطفال من الشوارع، وصار الإعلام العالمي يُبرز الملثمين ونتائج ما كان يبليه الاستشهاديين حينما كانوا يضحون بأنفسهم ويقدمون أشلاء المدنيين اليهود أمام كاميرات وسائل الإعلام، وخلق جملة من الظروف الذاتية والموضوعية من جهة، والإقليمية والدولية من جهة أخرى، ساهمت في الحد من تطور الفعل المقاوم الفلسطيني، مما سهَّل على إسرائيل إمكانية تفكيك هذه الظاهرة، قياسًا بقدراتها العسكرية المخيفة التي بلا مبالغة بسبب الاحتراف لديها تستطيع الإجابة على كل سؤال قتالي، حين أصبح الوضع كما ذكرنا قال كبار جنرالات الجيش الإسرائيلي إنهم سينهون تلك الحالة خلال فترة من سنة إلى خمس سنوات.. وقد كان.

وهنا لا يمكننا أن نمضي إلى ما بعد هذا إلا أن نُشيد بالأجنحة العسكرية لحركات المقاومة وبأبطال الانتفاضة بدء بالشهداء الذين سطروا بطولات ستكتب بحروف

من نور في صفحات التاريخ العربي الإسلامي، إلا أن العبء كان أكبر من طاقة الفلسطينيين والعرب مجتمعين في تلك الفترة العصيبة من الزمن.

إن غياب الهدف المرحلي في الانتفاضة الثانية قد قزم النتائج على صعيد تقرير المصير للشعب الفلسطيني، ليس لأن الانتفاضة كان ليس لها هدف استراتيجي، بل لأنها افتقرت إلى تجزيء الهدف الكبير إلى أهداف مرحلية صغيرة حتى يسمح بتمريرها الرأي العام الغربي المساند لإسرائيل، وفي نفس الوقت يمكن أن تتجرعه إسرائيل نفسها، فإذا ما تجاوز الأمر الهدف السياسي المنشود والمنظم والهادف فقد تُصبح القضية برمتها مجرد عبث قد يؤدي إلى وأد روح العمل الوطني بما فيه مهمة الانتفاضة، إن كل معركة أيًا كان حجمها، لا بد وأنَّ لها - في نهاية المطاف - سقفًا أو مطلبًا سياسيًا واضحًا متبلورًا لدى الجمهور أو السلطة والقوى في آن واحد.

من ناحية، لقد أدت العمليات الاستشهادية إلى جعل الانتفاضة خارج سكة المسار الدولي حينما تلاقت صدفة مع حادث الحادي عشر من سبتمبر ٢٠٠١م، حين أطيح ببناء المركز التجاري العالمي بنيويورك فاضطر الشعب الفلسطيني أن يدفع ثمنًا باهظًا من الأرواح والممتلكات، لكن المقاومة فرضت نفسها أخلاقيًا في أرض الواقع حينما تحدت ديمقراطيًا القيم الغربية وفازت في الانتخابات التشريعية في المناطق الفلسطينية، فكان من نتيجتها أن إسرائيل تخلَّت عن قطاع غزة بدون أية شروط، وبدا هذا نصرًا للمقاومة شدَّ من عزيمتها وجعلها تأخذ زمام المبادرة وتتقدم على السلطة الوطنية الفلسطينية، وأوصلها بسبب الأخطاء الداخلية التي ارتكبتها السلطة إلى أن تستفرد بحكم قطاع غزة ليس فقط بطرد الجيش الإسرائيلي منه، بل وبطرد أجهزة السلطة الفلسطينية الرسمية من القطاع كله، وهنا وقع الخطأ الكبير الذي فرض نفسه على الجميع!

لو توقفنا قليلاً لا بهدف الاستراحة، إنما لنتذكر لمحة عن فكرة وهدف تأسيس حركة المقاومة الإسلامية حماس، وما أتى بعد ذلك من منظمات إسلامية كالجهاد مثلاً، نجد أن إيجاد الحركة الإسلامية كان هدفًا إسرائيليًا كما يؤكد الكثير من

المهتمين، بل إن كل المنظرين لا يختلفون في إن إسرائيل هي من غـض النظـر وساهم بالصمت على إنشاء حركة إسلامية؛ لكي تنافس الحركات القومية العلمانية بقيادة حركة التحرير الوطني الفلسطيني فتح، وانبهر الفلسـطينيون وظنـوا أن إسرائيل قد أخطأت في هذا، لأن حركة المقاومة الإسلامية حماس أثبتـت بأنهـا حركة وطنية أيضًا، فخاب ظن الإسرائيليين أو هكذا بدا لنا.

لو أن الأمر قد انتهى إلى هذا الحد لقلنا بإن الحركة الوطنية الفلسطينية تسير في الاتجاه الصحيح، وأن هذا التطور هو أمر طبيعي للشعوب التي تبحث عن تقريـر المصير، فريق يُسلِّم الراية لفريق آخر، لكن النتيجة صارت تؤكد في كل يوم يمر بعد عام ٢٠٠٧م، أن استيلاء حماس على السُلطة في قطاع غزة؛ قد حقق الهدف الإسرائيلي الأصلي من التساهل حينما تم تأسيس حركة حماس الشرخ الفلسطيني الذي انتظرته إسرائيلي قد حدث، والعبرة من هذا هي أن الخطورة تكمن في عمق الخطة الإسرائيلية وفي سطحية الاستراتيجية الفلسطينية، إسـرائيل كانـت قـد وضعت هدفًا لها حينما تساهلت مع حركة حماس حين تأسيسها، وحاربتها إلى أن جعلت منها بطلاً وطنيًا ودينيًا، وتراخت لها في موضوع الانسحاب من قطاع غزة ولم يكن في استراتيجيتها القضاء نهائيًا على حماس بل كانت تهدف إلى احتوائها، وإلا لماذا وافقت على إشراكها في الانتخابات التشريعية ضمن السلطة الفلسطينية رغم أن حماس قاتلت إسرائيل بشجاعة وشراسـة مميـزة، وإن إسـرائيل الآن تتراخى أمام الانفصال الفلسطيني الفلسطيني، رغم أنها تساند السـلطة الوطنيـة الفلسطينية في الضفة الغربية وتدعمها، ولـولا أن حمـاس تـرفض الاعتـراف بإسرائيل، لقدمت لها إسرائيل ما تقدمه للسلطة مـن مسـاعدات، باختصـار إن الخلاف بين حماس وفتح جعل الهدف الإسرائيلي من تأسيس الحركة الإسـلامية سنة ١٩٨٧م يحقق الهدف الذي وجد في عقول زعماء الدولة الصهيونية، الذين راهنوا على نجاح الخطة، إنه يجدر بنا أن نتنبه كيف يُخطط العدو بنَفَس طويـل بل كيف يجعل له خططًا في المدى القريب وأخرى للمدى البعيد، نجد أن إسرائيل قد حققت هدفها من السماح وغض النظر عن وجود حركة المقاومـة الإسـلامية

حماس إلى أن تحقق الهدف بعد عشرين عامًا من المسافة بين عام ١٩٨٧م، عام إذاعة البيان الأول لحركة حماس، وبين عام ٢٠٠٧م حينما استولت الحركة نفسها على الحُكم في قطاع غزة.

يقول الباحث السوري "الدكتور عبد الله تركماني" وعودة إلى الحديث عن الانتفاضة الثانية، نجد إنه بسبب صيف سنة ٢٠٠٠م الحار، الذي ظهر فيه مقدار انسداد آفاق الانتفاضة في أن تكون مدخلاً إلى تحسين شروط المفاوض الفلسطيني عما كان الحال عليه، وتحولها إلى عامل إضعاف بسبب حادث ١١ سبتمبر ٢٠٠١م بالقياس إلى لحظة البدء، إذا أردنا الدقة، في ظل اصطفاف المجتمع الدولي مع إسرائيل خصوصًا بعد طغيان العمليات الاستشهادية على فاعليات الانتفاضة، وطبعها بطابعها، وفي ظل العجز العربي أنظمة وشارع عن تشكيل مظلة واقية للفلسطينيين، فيما أعطت الوقائع الميدانية لمجابهات الانتفاضة ميلاً واضحًا لمصلحة الطرف الإسرائيلي على الأرض، لقد كان جديرًا بالمقاومين الفلسطينيين أن يعوا التغيير الذي طرأ علي المجتمع الدولي بما جعله يتحول إلى رفض واستنكار العنف بكل صوره، ومن ثم كان ينبغي على منظمات المقاومة الفلسطينية أن توقف أعمال العنف ضد المدنيين، مهما كانت ضراوة الاستفزاز الإسرائيلي، فلقد كانت المعركة بعد الحادي عشر من سبتمبر هي معركة إعلامية بين صورة "الإرهاب" وصورة السلام، بين طفل يحتمي بحضن أبيه الأعزل من رصاص الجنود الإسرائيليين الذي أرداه قتيلاً، في مقابل صورة أشلاء دامية لمدنيين تتدلى أطرافهم من الحافلات، ليراها العالم كله، وهو يعرف أنهم مدنيون أبرياء، حيث ترتبط صورهم في أذهان الملايين بصور أولئك الأبرياء الذين اضطروا إلي القفز من أعلي برجي التجارة العالمية في نيويورك هربًا من الموت حرقًا إلى الموت سقوطًا..

إن ما يواجه الفلسطينيين على كافة المستويات الآن ويواجهنا كعرب، هو المقدرة على التكيف مع الواقع السياسي ومع المستجدات دائمًا، وانتزاع العبر من الكبوات الماضية وتصحيح المسار كلما أخذ في الانحراف، بهذا يمكن استعادة

الموقع الأخلاقي ويمكن استكشاف آفاق الممكن، ويعود الجميع إلى تركيز النظر على الاحتلال وما يفعله في حياة الفلسطينيين، وأن يكون جزء من الاهتمام لمحاولة التأثير على المجتمع الإسرائيلي لأجل كسبه، لكي ينحاز إلى قضيتنا الإنسانية التي هي صورة لا تنسلخ عن قضيتنا الوطنية.

بالنسبة للنظام العربي، فلديه مشكلة في أنه يفهم السياسة الأمريكية الإسرائيلية، لكنه لا يجرؤ على مصارحة مجتمعه بما يعرف، تجد النظام العربي أو الزعيم العربي يتحدث بلغتين، واحدة لمواطنيه، وأخرى مع العالم الخارجي إذا أراد أن يجد من يستمع إليه، ولا يستطيع غير هذا، هو مجبر أن يظل في فلك السياسة الأمريكية لكنه لا يقوى على مصارحة جماهيره، والمزيد من السير والاقتراب من جوهر السياسة الأمريكية معناه انحدار أكثر وفقد أكثر وابتزاز أكثر، ويجعله ضعيفًا في الداخل وفي الخارج مما قد يسبب له الحرج على الصعيدين، إن ابتعاد النظام العربي عن السياسة الأمريكية يتطلب استحقاقات لا يقوى على دفع ثمنها من إمكانيات الوطن، ونجد أنه يبقى في مكانه، فهو مع السلام بخطة عربية واهية لكي تكون ستارة يحتمي خلفها وكفى المؤمنين شر القتال، وموقف عربي كهذا أمام دولة عملاقة فتية كأمريكا، لم يتجاوز عمرها بعد ٣٥٠ عامًا، وتتصدر كوكب الأرض في هذا العصر، تجتاح الدول جماعات لا فرادى، طبيعي أن تأخذ على عاتقها مهام إعادة بناء الأوضاع السياسية والاقتصادية والأمنية على أنقاض البنى المتداعية في المنطقة العربية على إثر احتلال العراق في ٩ أبريل ٢٠٠٣م، وما نتج عنه من معادلات جديدة في المشهد الجيو – استراتيجي في المنطقة، فأصبح الدور المرسوم للمنطقة العربية لا يأتي من داخل المنطقة بل من خارجها، كما أنه لا يُعبِّر عن طموحات أهل المنطقة أو أحلامهم في المستقبل بل هو يوضع من أجل إبقاء المنطقة تابعة بكل ما يعني المعنى، ويكون هذا بمعزل عما إذا كان ذلك يُعبِّر عن متطلبات المستقبل في التطور الاقتصادي والسياسي والقومي للمنطقة، فالمصالح الاستراتيجية للدول الكبرى يكون لها الأولوية.

وتلك الحقائق تفرض على العرب أنظمة حكم ونخب ومؤسسات تــربط برامجهــا بين الإصلاح والتحدي الذي يمكن أن يوصل إلى سلام لعتق المواطن العربي مــن قوانين الطوارىء والجمود المفروضة عليه، ولكي يفتح بــاب الحداثـــة وخلــق الأعمال ودفع عربة المجتمع في المسارات الصحيحة المؤدية إلـــى الديمقراطيـــة والسلام الحقيقيين، إن معاهدات السلام الثلاثة بين إسرائيل من ناحية وبين كــل من مصر والأردن ومنظمة التحرير الفلسطينية، لم تكن سوى محاولات ارتجاليـــة أو هروب من مواجهة الموقف بسبب العجز عن حشد الإمكانيات المتاحة للتعاطي مع التحديات التي فرضها الصراع.

لا شك بأن المبادرة العربية التي أطلقها مؤتمر القمة العربي فـــي بيـــروت عـــام ٢٠٠٢م حيث كان العرب متهمون في حادث ١١ سبتمبر ٢٠٠١م أبقــت علـــى شيء من ماء الوجه وهدَّأت قليلاً من الاندفاع الأمريكي، لكنها لم تمنع إســـرائيل من تحديها بكل استخفاف حينما قرر شارون رئيس وزراء إســـرائيل أن يجتـــاح مدن الضفة الغربية بعد ٩ أيام فقط من إطلاق تلك المبادرة، وأن يضـــع رئـــيس السلطة الفلسطينية ياسر عرفات تحت الإقامة الجبرية في مبنى المقاطعـــة بـــرام الله، وكأن إسرائيل وجدت مسارًا آخر غير المسار الفلســـطيني، فلمـــاذا لا تُعيـــد القضية إلى جعلها إقليمية بحجم أنها تواجه عالمًا عربيًـــا مترامـــي المســـاحات وعنده ما عنده من الخيرات وعدد السكان الذي لا يمكن مقارنة إســـرائيل بـــه لا جغرافيًا ولا ديمغرافيًا، لقد وجد شارون أن يواجه العالم العربي بمستوى مبـــادرة السلام العربية على أن يواجه الفلسطينيين العزل في نظر المجتمع الدولي الـــذي يتعاطف مع الضعيف بحكم الطبيعة الإنسانية، لهذا تم اجتياح الصـــفة الغربيـــة، وكأن شارون يقول للعرب هيا نتفاوض ونتصالح معكم ولنبقي القضية الفلسطينية بعد ذلك مع إمكانية أن يوقف ما حققته الحركة الفلسطينية الوطنية من تقدم على صعيد الاقتراب من إقامة الدولة الفلسطينية المستقلة، وبذلك فإن إسرائيل أدخلت خيارات أخرى لاحتمالات السلام مع العرب، فلماذا لا يكون هناك إمكانية إلحـــاق

غزة مثلاً بمصر والضفة بالأردن أو جعل هذا أحد الأوراق التي يمكن أن تلعب بها إسرائيل على طاولة المفاوضات حين العودة للمفاوضات.

يمكن القول بإن العرب حينما أطلقوا مبادرة الأمير عبد الله آل سعود في ذلك الحين؛ لم يكن لديهم شيئًا غيرها سواء قبل أو بعد إعلان المبادرة، فهي أيضًا لستر العورة، وفي أحسن الأحوال كما يردد البعض للإبقاء على الثوابت العربية، من ناحية أخرى، فليس من المستغرب أن يكون هناك شريك من خارج المنطقة إذا ما بادر العرب أو إسرائيل إلى مفاوضات للسلام وذلك لأكثر من سبب، محليًا بسبب عدم توفر التوازن الاستراتيجي بين العرب وإسرائيل، فإن الجانب العربي ليس لديه أوراق ضغط على إسرائيل لكي يساومها على حل سِلمي معقول، وكون إسرائيل هي الدولة الأقوى في المنطقة عوضًا أن أمنها مضمون من القوى العالمية وخاصة أمريكا في الوقت الحاضر، أي أنه محظور أن تحدث لها هزيمة نكراء على يد أي جيش في المنطقة، إسرائيل أيضًا هي التي تحتل الأرض العربية وبالتالي فإن الفرق سيكون كبيرًا بين ما قد تُطالب به إسرائيل العرب على طاولة المفاوضات وبين ما يمكن أن يقبل به العرب كحد أدنى من استعادة لحقوقهم، لذا كانت أهمية أن يكون وجود طرف خارجي بالإضافة لوجود العرب وإسرائيل، هذا إذا ما كان يرجى الوصول إلى اتفاق سلام، بل ويجب أن يكون الطرف الخارجي جهة موثوقة من قِبل إسرائيل ويملك القدرة على الضغط على إسرائيل باعتبارها طفلاً مدللاً قد يُخطيء في تحديد مصالحه أو لا يفهم أن عليه أن يلتزم عند حد معين، لهذا كان لوجود الشريك الأمريكي ضرورة إذا ما أريد أن يكون هناك اتفاق أو كما كانت الولايات المتحدة راعيًا لاتفاق مصر وإسرائيل في كامب ديفيد، واتفاق الأردن وإسرائيل في وادي عربا أو اتفاق أسلو الشهير بين الفلسطينيين وإسرائيل، وهو ما يتوقع حدوثه أيضًا عند أي اتفاق قادم بين الفلسطينيين وإسرائيل أو بين إسرائيل وسوريا مستقبلاً.

خارجيًا، إن وجود طرف خارجي لكي يرعى المفاوضات شيء ضروري، لأن إسرائيل ليست دولة عادية فقد صنعتها القوى الدولية والأمم المتحدة، وإن كان

للصهاينة دور في إنجاز مشروع الوطن القومي لليهود فإن قضية اليهود أصلاً هي قضية عالمية منذ أواخر القرن التاسع عشر، والقضية الفلسطينية قضية دولية، إلا أن المشروع ما كان يمكن تحقيقه بدون الإرادة الدولية التي تمثلت أولاً في أصحاب المصالح في زرع دولة وظيفية في فلسطين، تلك المنطقة التي دائمًا تتجه إليها عيون من يودون السيطرة عليها فقد كانت فلسطين المكان الذي تبدأ باحتلاله القوى الكبرى حينما تأتي لاحتلال المنطقة حيث تستمد القضية الفلسطينية عالميتها من الموقع الجغرافي السياسي الاستراتيجي في استراتيجيات الدول الكبرى وفي الصراع بين الدول الاستعمارية، فعلى الدوام اعتبرت الدول الكبرى بأنَّ السيطرة على فلسطين تُسهِّل عليها السيطرة على العالم العربي، لهذا إن من مصلحة إسرائيل والعرب وقبل هذا من مصلحة أمريكا طبعًا أن تكون الأخيرة مشاركة وراعية وضامنة لأي اتفاق سلام بين العرب وإسرائيل في إطار استراتيجيتها لتعزيز هيمنتها كقطب أوحد على العالم، وعلى ذلك لا يمكن اعتبار الصراع العربي الإسرائيلي صراعًا محليًا، ولو كان كذلك لما كانت أوروبا وأمريكا وروسيا مهتمة به، وإنه من أكثر البؤر الساخنة في العالم التي تهتم به الأمم المتحدة بسبب اهتمام القوى العالمية المتنفذة في الهيئة الدولية.

إن للولايات المتحدة الأمريكية مصالح في الشرق الأوسط، أولها أن تظل إسرائيل قوية كحليف استراتيجي دائم وقد أوجدوها لتبقى، وللولايات المتحدة الأمريكية مصالح نفطية في المنطقة ويهمها أن تكون المنطقة مستقرة، ومن مصلحتها أن يكون هناك سلام بين العرب وإسرائيل، ولكن ليس على حساب إسرائيل بأي حال من الأحوال بل سلام يؤمِّن مستقبل إسرائيل في المنطقة، لذلك فإنه يجب أن يفهم المفاوض العربي بأن الولايات المتحدة تنحاز بشكل تام للموقف الإسرائيلي في المفاوضات سواء كانت راعيًا لمفاوضات السلام أو شريكًا كاملاً فيها بسبب أن العلاقة الأمريكية الإسرائيلية تتعدى البُعد الاستراتيجي لتشكل تلاحمًا عضويًا، ولذلك فإن أمريكا تتبنى الموقف الإسرائيلي ولن تكون الراعي العادل للمفاوضات بين العرب وإسرائيل، لذلك فإن الولايات المتحدة قد عملت على تهيئة الظروف

في الشرق الأوسط بعد احتلال العراق ودفعت العرب بأن يتحـدثوا عـن تطبيـع جماعي مع إسرائيل وليس كل دولة على حدة، بمعنى أن يوقّع العرب كُـلٌ علـى حدا مع إسرائيل باتفاقية منفصلة ولكن الكل يوقع في آن واحد، فإسرائيل معنيـة أن تعقد اتفاقيات السلام مع العرب، كل دولة على حِدا، وبشروط خاصـة، ذلـك لأجل ألا يُبطل الآخرون المعاهدات مع إسرائيل إذا ما نجم خلاف ما بين إسـرائيل وإحدى الدول العربية.

الولايات المتحدة الأمريكية ليست في عجلة من أمرهـا، فهـي طـرف وشـريك وراعي في مشروع أو مشاريع السلام العربية الإسرائيلية، ودورها يقتصر علـى تذليل الصعاب وليس على تقديم الحلول، وبهذا تظل دون أن يكون عليها التـزام لأحد الأطراف، ذلك لأجل أن تضع وزنها عندما يتعارض شـيء مـع مصـالحها الخاصة بما في ذلك على إسرائيل لو احتاج الأمر كون العلاقـة بـين إسـرائيل وأمريكا كدول تختلف عنها كما هي علاقة أمريكا مع العرب، إسرائيل لديها قـوى داخلية في الولايات المتحدة مثل اللجنة الأمريكية العامـة للشـئون الإسـرائيلية "ايباك"، وغيرها من المنظمات اليهودية المؤثرة في القرار السياسي الأمريكـي، خصوصًا ما كان له علاقة بإسرائيل، لذلك تظل الولايات المتحدة حذرة فيما يخص إسرائيل إذا كان هناك ما يمكن أن يتعارض مع المصالح الأمريكية العليا، فلو أن أمريكا تدخلت في المفاوضات كشريك كامل فمعنى ذلـك أنهـا سـتتحمل بعـض المسئوليات كاملة، وأن عليها في تلك الحالة أن تكون شريكًا فـي كـل صـغيرة وكبيرة، وهو ما قد يجلب لها المتاعب الداخلية في الكونجرس ومجلس الشـيوخ والقوى غير المنظورة المسيطرة على وسائل الإعلام التي أشرنا إليها، وهي من ناحية أخرى تقول للطرفين وخاصة للطرف العربي إن تأثيرها على إسرائيل يظل محدودًا لكنها تملك حسن النية تجاه العرب وهي تفعل أقصى طاقتها فـي تـذليل الصعاب، وفي نفس الوقت هي ملزمـة أن تتفـق مـع الإسـرائيليين كحليـف استراتيجي معلن بأن تتفهم الموقف الإسرائيلي كما هو عليه.

لذا رمت أمريكا في الهواء شعار الدولتين في فلسطين التاريخية وأعطت إسرائيل الضوء الأخضر لكي تُمهد للحل علـى طريقتهـا بـدون خطـة زمنيـة محـددة ومضمونة، حين توقيع اتفاق أسلو تحت الرعاية الأمريكية قيل بإن الحل النهائي لن يتجاوز عام ١٩٩٩م، وبعدها جُددت المدة لثلاث سنوات ثم لسنتين ثم لأخـر سنة للإدارة الأمريكية الثانية التي كان فيها الرئيس "جورج بوش" الابن، وبعـد ذلك دخلت مرحلة بلا تحديد مدة زمنية، وهكذا اختزلت القضية الفلسـطينية بعـد أحداث ١١ سبتمبر ٢٠٠١م وأدخلت قسرًا في ملف الإرهاب بعد أن كانت قرارات مجلس الأمن الدولي ذات الأرقام ١٨١ و١٩٤ و٢٤٢ و٣٣٨ تضع القضية منـذ العام ١٩٤٧م على الأقل في ملف تقسيم أرض فلسطين بـين العـرب واليهـود، فوجدت الولايات المتحدة المبرر الفلسفي والأخلاقي والسياسي بعد انتهاء الحرب الباردة لكي تفرد عضلاتها بحرية على طول وعرض الكرة الأرضية وحيثما توجد مصالح أمريكية، ومع موجة مكافحة الإرهاب ومحاربة العدو الإسـلامي الخفـي راح يتقارب الموقف الأمريكي مع الموقف الإسرائيلي مع كل عملية استشـهادية كان ينفذها الفلسطينيون داخل فلسطين المحتلة حتى أصبحت عملية السلام تابعة لأمن إسرائيل، وصار على العرب أن يحاربوا أنفسهم أو يحاربوا المتطرفين منهم لأجل أن يتحقق الأمن الإسرائيلي إذا ما أرادوا أن يحصلوا على مفاوضات جـادة مع إسرائيل، وحلت المفاوضات كمفاوضات هي الهدف بعد الخطاب الـذي ألقـاه جورج بوش الابن في ٢٤ يونية ٢٠٠٢م حينما أطلق شعار الدولة الفلسـطينية المستقلة بناء على التطورات التي حدثت منذ انطلاقة انتفاضـة الأقصـى عـام ٢٠٠٠م، لكنه في نفس الخطاب أدخل معادلة جديدة لحل مشكلة الصراع العربـي الإسرائيلي، وتمثل ذلك في "السلام مقابل الأمن" بدلاً من "الأرض مقابل السـلام"، وقد امتعض من الخطاب ياسر عرفات فتحيَّن الفرصة وانتقده على الهواء أمـام وسائل الإعلام، وربما كان اعتراض عرفات على ما قاله بوش هو القشـة التـي قصمت ظهر البعير وحدث الطلاق بين أمريكا وعرفات، وما حدث بعد ذلك ما هو إلا من تجليات التراجع الأمريكي عن دعم بقاء عرفات في السلطة، فراحت أمريكا قبل إسرائيل تُضيق عليه وترفضه، ومضت تستغل أخطاؤه وصارت تفرض عليه

رموز الحكم الذين تراهم مناسبين، بدء من محمود عباس كرئيس للوزراء وسلام فياض وغيرهم إلى إعطاء الضوء الأخضر لائيريل شارون (رئيس الوزراء) في إسرائيل لوضعه تحت الإقامة الجبرية حتى انتهى مقتولاً بالسم، والله أعلم.

قد تكون الرؤية الأمريكية لحل النزاع الفلسطيني – الإسرائيلي في المدى البعيد مختلفة عن الرؤية الإسرائيلية، لكنها متطابقة في الوقت الراهن ولا توجد اختلافات كثيرة، إن إعطاء الضوء الأخضر للحكومة الإسرائيلية لشن العدوان على غزة في ٢٧ ديسمبر ٢٠٠٨م قد أوجد وضعًا شديد الخطورة في المنطقة قد تكون له تداعيات وتقلبات يصعب التنبؤ بها، ولا بد أن يكون لنتائج هذا العدوان استحقاقات، كما لا يفوتنا أن ننوه إلى أن سلوكيات إسرائيل ضد الفلسطينيين جعلت كثيرًا من اليهود الأمريكان يشعرون بالحرج أمام مواطنيهم الأمريكان، وإن سلوك إسرائيل بات من عوامل الانشقاق الأوروبي الأمريكي لتضارب المصالح في المنطقة.

من معوقات السلام أيضًا أن اتفاق "أسلو" صار تاريخًا فبعد حوالي مرور عشرين عامًا على توقيعه، جاء بعده عدة أوراق واتفاقيات واقتراحات كخطة الطريق الأمريكية التي باركتها اللجنة الرباعية وخصوصًا الاتحاد الأوروبي، ثم إن سور البناء العازل الذي قسم الضفة الغربية، وازدياد الاستيطان في المناطق الفلسطينية، كل هذا أخذ ينقص من إمكانية إيجاد دولة فلسطينية مستقلة ذات سيادة، هذا بالإضافة إلى نهم التوسع الإسرائيلي الذي كلما ازداد تناقص الحق الفلسطيني، فالجامعة العربية هزيلة، والأنظمة العربية لا حول لها ولا قوة، وإسرائيل راكبة الموجة الأمريكية دائمًا تلائم بين مصالحها والمصالح الأمريكية الساعية إلى مد نفوذها في المنطقة، وهكذا صار حاضر الفلسطينيين شك ومستقبلهم ضباب.

لماذا لا يتوقف العرب عن خداع أنفسهم والجري خلف التمنيات التي لا تَمُتُ للواقع أبدًا بصلة عدى التضليل، هذا الواقع الذي ينطق على استحياء بأن إسرائيل غير معنية بسلام حقيقي مع الفلسطينيين عدا أنها تغطي فترات تنفيذ

المشروع الصهيوني الأبدي في المنطقة بالآلة الإعلامية الرهيبة التـــي تملكهـــا، وهي إنما تطبق برامجها المرحلية منذ أن تقرر إنشاؤها وليس أكثر، وأما السلام الذي يتحدثون عنه فهو ليس سلامًا، فمهما نادى حزب العمــل بالســلام ومهمـــا ادعت أو وافقت القيادة الإسرائيلية على الشروع في خطة سلام فإن كل اهتمامات الصهاينة هو ليس أكثر من كسب الوقت لمزيد من الاستيطان، ومن يشك في هذا فليقارن بين حجم الاستيطان حين توقيع اتفاق أسلو وحجمه بعد عشـــر ســـنوات مثلاً، فالصهيونية لم تكن في يوم بحاجة إلى السلام لأنها لم تكن يومًا في خطـــر، فقد اعدوا لكل شيء وهم ينفذون المراحل وليس أكثر بل هم يتعاملون مع العرب نفسانيًا، هم يفهمون النفسية العربية جيدًا، يعلمون متى يستفز العربي ومتى يقبل أو يرفض، لذلك قبل الصهاينة قرار التقسيم عام ١٩٤٨م وهم يعلمـــون قـــوتهم وقوة العرب، ويعلمون في نفس الوقت أن العرب سيرفضون التقسيم في حينـــه، ولقد رفض العرب قرار التقسيم فعلاً وهم لا يعلمون قوتهم ولا قـــوة العصـــابات اليهودية التي كانت ستواجههم، فكانت النتيجة تحقيق أول مرحلة من المشـــروع الصهيوني، وفي عام ١٩٦٧م عملوا على إزاحة مصر مـــن الصـــراع العربـــي الصهيوني، وشرعوا في شطب القضية الفلسطينية.

يقول الكاتب الأمريكي "ستيفن غرين" يـــدحض فـــي كتابـــه (الانحيـــاز) مـــزاعم الصهيونية، ويصف النصر الذي حققه اليهود في عام ١٩٤٨م الذي ادعى فيـــه اليهود المعجزات، بأنه ليس نصرًا كما يمكن أن يسمى إنما هو مجرد هراء وكذب وزيف وتضليل، لأن النصر اليهودي كان مؤكدًا قبل أشـــهر مـــن انـــدلاع حـــرب ١٩٤٨م، وذلك بسبب التفوق اليهودي الهائل على العرب في الرجال والمعـــدات والأسلحة، كما أمدت يومئذ مصادر الاستخبارات الأمريكية والبريطانية والفرنسية التي اعتمد عليها المؤلف في مادة كتابه، فقال إن أسطورة النصر الإعجازي الذي حققه اليهود لم يتم في ساحات المعارك، وإنمـــا فـــي الكتـــب وأفـــلام الســـينما الصهيونية وفي التلفزيون في الخمسينات والستينات، وكلها كانت لأهداف دعائية

ترمي إلى تأكيد المزاعم بأن جيش الدفاع الإسرائيلي حقق إنجازات أسطورية من أجل إرهاب العرب نفسيًا وتأمين التعاطف العالمي مع الدولة اليهودية.

ما لم يكن بيد العرب أداة ضغط تعطيهم نوع من النفوذ عند الغرب خصوصًا عند الولايات المتحدة فلن يتوقع الفلسطينيون أملاً في الحصول على كيان مستقل كامل السيادة خصوصًا ما دام الفلسطينيون يخلطون بين المقاومة ومشاريع السلام!

كما أن كافة الحكومات المستنيرة تلجأ لشعوبها للحصول على مشورتها وضمان موافقتها بل يكفي أن يكون رد صاحب القرار بأن الشعب لم يوافق على المبادرة أو الاتفاقية أو أي تحرك آخر حتى يتم احترامه، إن العقلية العربية السياسية الرسمية تعتمد كثيرًا على ما يسمى بالشرعية الدولية وقراراتها رغم أن تلك القرارات لم تستطع أن تلبي طموحات الشعوب في الحرية والتنمية والتقدم لما تحمله من ازدواجية في التعامل مع المجتمع الدولي، فلماذا تهمل الأنظمة العربية رأي شعوبها! قد يكون أيضًا أن الشعوب العربية كجماهير لم تدرك حقائق الصراع العربي الصهيوني بعد!

الصراع العربي الإسرائيلي لم يتوقف منذ قيام إسرائيل حتى اللحظة، وقد أخذ صورًا مختلفة على مدى سنوات تطور الحركة الوطنية الفلسطينية، لا شك بأن العرب قد اهتموا بمأساة الشعب الفلسطيني كلٌ حسب موقعه وقناعاته وإمكانياته ومدى انتمائه والمقصود هنا الدول والزعماء، لقد تبدلت أشياء كثيرة وذهبت قيادات وأتت أخرى وتقلبت أزمان ومواقف لدول كثيرة اقتربت من قضية الصراع العربي الإسرائيلي أو ابتعدت، وتبدل الحلفاء والمرجعيات لدول المنطقة العربية، لكن الشيء الذي ظل ثابتًا، وبقي يعمل على وتيرة واحدة ولم يغير لونه، هو أن العرب قد خسروا كل الجولات العسكرية وغيرها مع إسرائيل منذ أن كانت الأخيرة مجموعة منظمات صهيونية إلى أن أصبحت إسرائيل دولة عظمى إقليمية خارج دول الغرب المعروفة عالميًا واستطاعت أن تبرز اليهودي كمقاتل شرس وذو إرادة بعد أن كان قد أخذ مكانه في التاريخ كضعيف وجبان ومرابي، وها هي

قد أخذت إسرائيل مكانها كدولة ذريَّة مثـل الصـين والهنـد وروسـيا وكوريـا الشمالية، وأضحى لها شهرة عسكرية عالمية وطيران حربي أسطوري.

لقد خسر العرب ليس فقط معارك الحرب العسكرية بل معارك بناء الإنسان الفـرد الناجح في مجتمعه، وخسروا نهج بناء الدولـة الحديثـة، وخسـروا المعركـة الاقتصادية، وصار تقييم الإنسان الإسرائيلي يساوي المئات وأحيانًا الألوف مـن العرب البشر، ويبدو ذلك كمثال من حجم أعداد تبادل أسرى الحروب بين إسرائيل والعرب والمقاومة الفلسطينية، ويظهر ذلك أيضًا من خلال إنه في حالة قتل رجل أو امرأة إسرائيلية تقوم الدنيا ولا تقعد رغم أن قتل العرب والفلسطينيين من قِبل الإسرائيليين يُعتبر عاديًا ولا أحد يلتفت إليه، كل هذا تم لإسرائيل بفضل التفـوق الإسرائيلي في الميادين العسكرية والإعلامية والمنفعية والعلاقة مع الأمم الأخرى التي تقبل كل شيء من إسرائيل ما دام للأخيرة نفوذ صنعته بنفسها عند الآخرين لسبب أو لأخر، بسبب إدارتها المميزة للصراع بعكس التخبط العربي الـذي لـم يسجل نجاحًا واحدًا على ما يزيد عن ستين عامًا.

الشيء اللافت للنظر أيضًا، هو أن العرب كثيرًا ما يغيرون خططهم في المواجهـة مع إسرائيل ليس من أجل التطوير وإنما لكي يصابوا بالفشل، فإنهم ظلوا منذ عام ١٩٤٨م ينتقلون من فشل إلى آخر دون أن يستفيدوا من فشـلهم، فقـد غيَّـروا التحالفات وفشلوا ولم يربحوا لأن التغيير كان يأتي من شخص واحد، لذا يمكـن القول بإن السياسة العربية الخاطئة منذ البداية هي التي خلقت من إسرائيل دولة كبيرة، ولنا أن نتخيل لو أن العرب قد أدركوا حجم ما ينتظرهم وقبلوا قرار تقسيم فلسطين، لربما بقيت إسرائيل دولة صغيرة وربما ارتبطت بـذيل إحـدى الـدول العربية، لكن مهاجمتها بشراذم القوات العربية في سنة ١٩٤٨م جعل منها دولـة كبيرة أكبر نفوذًا وقوة من كل العرب، لأن العالم الغربي ذي المصلحة في إيجادها أراد لها أن تكون، لأن وجودها واستمرارها هو حل لإحدى مشاكله المستعصـية، وقتل اليهود في ألمانيا لم يكن أبدًا بعيد عن شـعور الآخـرين فـي المجتمعـات

الأوروبية في الدول من غير ألمانيا، وإلا لماذا كان وعد بلفور حتى قبل الحكم النازي في ألمانيا مثلاً!

لقد ظل العرب يديرون الصراع مع إسرائيل على وتيرة واحدة، وأسَرَتْهُم الشعارات المثالية المغرية مثل، لا قبول بإسرائيل، ولا مساومة، ولا اعتراف، ولا تفاوض، ولا تعايش، وحرب حتى النصر الخ، لكن كل هذه الشعارات تهاوت واحدة تلو الأخرى بين تخبط عربي أتى أولاً حتى أصبحت تلك الشعارات في خبر كان.

إذن كانت هناك مشكلة عند العرب، هي ربما أن العرب نسوا أن السياسة هي فن المكن ولا شيء فيها مقدسًا، إسرائيل وعت ذلك منذ البداية، فحينما أعلنت دولة إسرائيل، سأل احدهم "ديفيد بن جورين"، لماذا لم تُعلن القدس عاصمة لإسرائيل، فكان رد بن جوريون "ليس الآن" رغم أن القدس تمثل ما تمثل لليهود حسب نبوءاتهم التوراتية، وفي عام ١٩٥١م أعلن بن جوريون القدس عاصمة لإسرائيل، لهذا نرى أن بن جوريون يقبل بدولة بدون أن تكون عاصمتها القدس التي لها ما لها عند الأصوليين اليهود "لتنسني يميني إن نسيتك يا أورشليم".

أليس من الضروري أن يُعيد العرب الحسابات ولو لمرة واحدة، ويخضعونها لحساب الربح والخسارة، وأن يأخروا الأيديولوجية ويقدموا السياسة، لأن عدوًا مثل إسرائيل التي لا تغفل شيئًا، لا يمكن التعامل معها إلا بعقلية اليهودي الباحث عن الربح وتفادي الخسارة، من حسن الحظ أن أصواتًا كثيرة أضحت تنادي الآن في الساحة العربية وتلح بإعادة الحساب والبحث عن وسائل أخرى للتعامل مع إسرائيل، لأنها أدركت بأن العرب ليس لهم طاقة في مقارعة إسرائيل في ساحة النزال، يقتل العرب إسرائيلي واحد فيقتل الإسرائيليين خمسمائة، وصار من المؤكد أن إسرائيل يمكنها أن تحارب العالم العربي مجتمعًا بظروفه الحالية وتنتصر عليه، وهنا ليس من العدل أن يُتهم من ينادون بإعادة النظر بالتخاذل أو باليأس أو بما يحويه قاموس التهم التي لا يحبها الإنسان الغيور على وطنه وانتمائه.

إذن نحن الآن أمام نهجين عربيين، أحدهما نهج يعتقد أن باستمرار القتال المسلح يستطيع أن يحقق الأهداف الوطنية الفلسطينية، وفريق آخر يرى أن أسلوب استعمال القوة سوف يجعل الفلسطينيين على دربِ الخسائر المستمرة، وربما ينتهون على نفس نهج الهنود الحمر الذين ظلوا رافضين إلى أن انتهوا ولم تعد لهم قائمة، إذن لا بد من تغيير جريء في طرق التعامل مع إسرائيل المنتصرة حتى الآن، فإما أن يستمر العرب على نفس النمط الذي ظلوا فيه منذ عام ١٩٤٧م و١٩٤٨م وربما سيلاقون ما هم فيه على مدى ما يزيد عن الستين عامًا الماضية، لقد آن الوقت أن يعاد النظر في مقولة استمرار ثقافة المقاومة.

قال "زئيف بيليسكي" أحد رؤساء الوكالة اليهودية في تقرير قام بنشره في جريدة هآرتس بتاريخ ٩ مارس ٢٠٠٩م تحت عنوان "ضمان المستقبل"، قال ما معناه، بإننا قلنا الكثير وكتبنا على الحيطان لفترة طويلة وحذرنا الشعب اليهودي في الشتات في هذا المنعطف الخطير، إن ما يحدث في هذا الزمن يمكن أن يتحول إلى كارثة من نوع آخر للشعب اليهودي ليس بسبب الاضطهاد والعنصرية أو معاداة السامية، إننا أمام مأساة من نتاج حقبة جديدة، فالبيانات التي أمامنا تتحدث عن نفسها، وحيث أن بعض الدراسات بالنسبة للجاليات اليهودية في الدول، تشير إلى إن نسبة المواليد في شمال أمريكا قد انخفضت إلى معدل ٥٠ بالمائة للجالية اليهودية، وانخفضت إلى ٤٠ بالمائة لليهود في فرنسا وانجلترا، و٤٥ بالمائة ليهود البرازيل والأرجنتين، و٨٠ بالمائة لليهود في روسيا، كما أن تواصل هذه الجاليات مع سكان إسرائيل وصل إلى أدنى مستوى وأصبح مُقلقًا، إن أقل من ٢٤% من الشبان اليهود في أمريكا الشمالية ينتمون إلى منظمات يهودية، وأقل من ٥٠% من الشبان اليهود الذين تقل أعمارهم عن ٣٥ سنة يشعرون بانتماء إلى الشعب اليهودي، وأقل من ٢٥% ممن تقل أعمارهم عن ٣٥ سنة ينتمون إلى الصهيونية، ٦٠% لم يزوروا إسرائيل مرة واحدة في حياتهم، ونسبة كبيرة جدًا منهم لم تعد تعتبر إسرائيل عنصرًا رئيسيًا في تحديد هويتهم اليهودية، ورغم أن إسرائيل قد مضى على وجودها ستين عامًا وما زالت مستمرة إلا أن نسبة

الانحدار في انتماء يهود الشتات إليها ما زال مستمرًا، ويزيد على ذلك زئيف بيليسكي، فيقول إن ما يؤسف له هو أن غالبية أبناء الجاليات اليهودية في الخارج وهم النسبة الأكبر عددًا من يهود العالم لا يجيدون اللغة العبرية ولم ينالوا قسطًا من التعليم اليهودي.

وكان الدكتور "جي بكور" قد أشار في عدد جريدة هآرتس ٦ مارس ٢٠٠٩م إلى أنه بعد مضي ٧٠ سنة ما زال اليهودي لا يشعر بالأمان حينما يسير وسط الناس في شوارع أوروبا خصوصًا إذا كان يبدو عليه ما يشير بأنه يهودي، لهذا فهو يحتاج إلى حراسة أمنية إذا ما أراد دخول المؤسسات والمحال، وأن دور العبادة اليهودية يجب أن تكون مغلقة وتحت حراسة مشددة وتبدو مثل القلاع المحصنة، وأن اليهود الذين يعيشون في الظل ولا يبرزون هويتهم اليهودية أمام العامة يبقوا منتظرين يومًا تثار لهم فيه المشاكل إما في المدرسة أو في أي مجال من مجالات الحياة.

يقول الدكتور جي بكور أيضًا بأنه زار دولاً أوروبية والتقى مع فئات مختلفة من يهود أتراك وفرنسيين وانجليز وغيرهم، وأن تلك الزيارة كانت قبل العملية التي أطلق عليها الجيش الإسرائيلي "الرصاص المصهور" أو حرب غزة ٢٠٠٩ م، فوجد اليهود في ذعر شديد ويبدون بائسين يُخفون نجمة داود حتى لا يتعرف على أصولهم الناس ويسمعون نبرات العداء للسامية حينما يسيرون في الشوارع، فهل يمكن أن يعيش اليهود في أوروبا بعد اليوم بأمان، أقول ذلك مستحيل بعد ٧٠ عامًا، ويتساءل جي بكور لماذا يبقى اليهود في أوروبا يعيشون في قلق دائم مهددين، فماذا ينتظرون والأزمة الاقتصادية التي اجتاحت العالم تنعكس على اليهود عليهم ويتهمون بأنهم خلف الأزمة لأن البنوك الاستثمارية الكبرى التي يشغلونها ما زالت تعمل رغم الأزمة العالمية حتى أن نائب وزير الخارجية في جنوب أفريقيا تحدث عن ذلك، ويشير أيضًا إلى أن العداء لليهود يزداد في أوروبا وهو مستمر حيث المسلمون يغزون تلك القارة ويزدادون عددًا فيها، ويلفت النظر أيضًا إلى أن اليهود يدفعون ثمن عداء المسلمين لإسرائيل،

والدكتور جي بكور بهذا يحفز اليهود ويحرضهم ويطـالبهم بـأن يـذهبوا إلـى إسرائيل حيث الأمان لهم ولأطفالهم لأن لا مستقبل لهم في أوروبا وأن إسـرائيل ليست مشكلة إنما هي الحل.

(انظر نص خطاب إيهود المرت أمام دورة مجلس أمناء الوكالة اليهودية بمناسبة مرور ٦٠ عامًا على قيام دولة إسرائيل في قسم الوثائق في نهاية الكتاب)

هذا، فبعد أن استتب الأمر ونجح المشروع الصهيوني في بناء الـوطن القـومي لليهود، وأضحت إسرائيل دولة مُعترف بها دوليًا وعربيًا أيضًـا، لا وبـل دولـة عظمى ذرية بعد أن تعملقت اقتصاديًا (عام ٢٠٠٧م بلـغ النـاتج القـومي فـي إسرائيل ١٧٠ مليار دولار) رغم انخفاض سعر الدولار الأمريكي، وذلك بعـد أن استوعبت كل يهود العالم الذين واجهوا صعوبات في بلادهم الأصـلية، وبعـد أن كانت إسرائيل هي مشروع الصهيونية، فقد أضحت الصهيونية بكل ما تعني هـي مشروع الدولة العبرية من اللحظة، أو كما أشار رئيس الوزراء الإسرائيلي فـي كلمته أمام أمناء الوكالة اليهودية، وهو ما يعني توجه إسـرائيل إلـى الشـتات اليهودي لإعادة بنائه من جديد، لكي يتلائم مع الهدف الأسمى الصـهيوني لكـي تخلق إسرائيل محيطًا يهوديًا عالميًا أكثر ترابطًا حتى عن ذي قبل، وهـو شـيء طبيعي أن تكون إسرائيل أقدر على الحركة من الحركة الصـهيونية حينمـا تـم تأسيسها، فإسرائيل دولة لها مؤسساتها وتتمتع بحرية أكثر ممـا كـان للحركـة الصهيونية التي كانت تستجدي الزعماء والدول، وفي الحقيقـة فـإن إسـرائيل ستحارب على جبهتين، الأولى عمل شراكة بين يهود الشتات وإسرائيل أساسـها اليهودية والصهيونية وغايتها كما هو دائمًا المنافع المادية، وهي ستعمل علـى تطوير المشاريع الاقتصادية مع يهود الشتات وليس بالضـرورة أن يـأتوا لكـي يعيشوا في إسرائيل حتى يبقوا رصيدًا استراتيجيًا للتأثير على حكوماتهم بما يخدم إسرائيل، لهذا يمكن القول بإن المعركة القادمة مع العـرب، التـي تتجـه إليهـا إسرائيل هي المعركة الاقتصادية، ذلك بعد أن فشل العرب في ساحة الحرب وقـد جربوا أكثر من مرة ولم ينجحوا.

هذا، وأن هناك مؤشرات على أن حتى العرب الذين فشلوا في الحروب مع إسرائيل ووصلوا إلى قناعة بأن لا جدوى من الحرب معها في هذا العصر، لم يتخلوا بعد عن فكرة المقاومة حتى وإن كانت من نوع المقاومة السلبية وإن أخذت صورة المنافسة الاقتصادية مثلاً.

لو أردنا أن نضع في كلمات قليلة، لماذا روح المقاومة لم تغادر العرب فإننا سنحتاج إلى مساحة كبيرة لذكر الحقائق والأسباب، لكننا سنحاول أن نستلهم مما عند الآخرين فربما به من الشبه مما قد يقربنا من التصور لماذا روح المقامة لن تغادر العرب، ربما هي بشكل معين تشبه الروح التي عند أهالي إقليم كويبك في كندا تجاه الغالبية الكندية من أصل أنجلو سكسوني..

في كندا التي تقع ملاصقة للولايات المتحدة الأمريكية من جهة الشمال، توجد مقاطعة كويبك الناطقة بالفرنسية، أهلها يحاولون دائمًا الانفصال عن كندا لأن أصول سكانها البيض من الفرنسيين الذين اكتشفوا كندا في بداية استعمار العالم الجديد، ولما كانت المستعمرات البريطانية في الجنوب أو ما يسمى الآن بالولايات المتحدة الأمريكية فقد حدث ما حدث من حروب بين هذه المستعمرات، إلى أن استقر الأمر بتفوق بريطانيا واحتلالها للمستعمرات الفرنسية فيما يسمى بكندا اليوم، ومنذ ذلك الحين دخل إقليم كويبك النفوذ البريطاني، وبعد ذلك تكوَّن الاتحاد الكندي المستقل (دولة كندا) الذي يضم كل أقاليم كندا بما في ذلك إقليم كويبك الناطق بالفرنسية وأضحت كندا دولة مستقلة إلا أنها تدين أدبيًا للتاج البريطاني، فرغم أن كويبك تُمثل أكبر إقليم من ناحية مساحة الأرض في كندا، وثاني أغنى وأكبر إقليم في كندا من ناحية عدد السكان، وتُعتبر الإقليم المدلل حيث إنها أعطيت خصوصيات وصلاحيات دستورية أكثر من أي إقليم آخر في كندا، ورغم أن نظام الحكم ديمقراطي في كل كندا ولا يوجد أي أثر سلبي لإقليم كويبك كونه ضمن الاتحاد الكندي، إلا أن مواطني كويبك ما زالوا يُطالبون بالانفصال عن كندا بدون أية مبررات أساسية تدعوا إلى ذلك إلا لأنهم لم يحصلوا على ما هم به من رغد العيش والحرية بإرادتهم وحدهم وكان ضمن النهج الديمقراطي العام.

لذا نقول، إن روح المقاومة عند العرب تجاه إسرائيل لن تختفي لأن هناك حقًا للعرب لم يحصلوا عليه بعد، أكثر من المطلب المعنوي لأهالي إقليم كويبك في كندا الذين ما زالوا يملكون ويعيشون على أرضهم، وهم بذلك لديهم الحجة والمبرر الأقوى مما هو عند أهالي إقليم كويبك، العرب لديهم المال وثرواتهم مما حباهم الله المتمثلة بالنفط، وهي تزداد مع الأيام، في مقابل ذلك إن التطور الطبيعي لإسرائيل والأسباب التي بنيت عليها جعلتها في توازن اقتصادي مع العرب مجتمعين مع فارق علاقاتها الاقتصادية الناجحة مع دول العالم التي تتفوق بها على العرب، لهذا فلأجل أن تستمر ديمومة الحياة وخلف الأكمة ما خلف الأكمة فإن المنافسة التي تُخفي وراءها العداء لن تتوقف، ونحن نعرف أنه حتى الحلفاء أيضًا يتنافسون من أجل تحقيق أكبر الفوائد وهذا شيء طبيعي، فكيف وإن العداء متأصل بين العرب واليهود، فلا بأس إذن أن يتحول إلى منافسة اقتصادية تُبقي النار تحت الرماد ويحاول كل طرف أن يتعايش مع الواقع المفروض عليه خصوصًا إذا كان هناك ما يمكن أن يخضع للجمع والطرح والربح والخسارة مع الأيام.

بعد دورة زمنية تجاوزت الستين عامًا، شهدت فيها منطقة الشرق الأوسط تغييرات وتطورات ليست بسيطة، صار يدرك كل من العرب واليهود أنه لا بد أن يكون بينهم شيء من التعامل والكل يهدف إلى الوصول في نهاية المطاف إلى هدف معين، وكذا يفرض الأمر الواقع بين العرب واليهود أن يكون هناك نوع من قبول الآخر إذا استجاب هذا الآخر لحد مقبول مما يقبله الطرف الأول.

مع مرور الوقت، أصبح لدى الطرف العربي والطرف الإسرائيلي رؤية إنسانية لكل طرف بالنسبة للآخر، استطلاعات الرأي في الأحوال العادية حينما يكون هناك نوع من الهدوء النسبي بين العرب وإسرائيل خصوصًا بين الشباب اليهودي بصفة عامة، بنيت على أن اليهودي فخور بالتجربة الإنسانية اليهودية أو بما أنجزت إسرائيل، وفي نفس الوقت يفهم أن هناك وجهة نظر عند الطرف العربي أو الآخر، واستطلاعات الشباب اليهودي العلماني تشير إلى أنه ارتاح للتجربة

اليهودية من ناحية الإنجاز الإسرائيلي حتى الآن، ويتفهم أيضًا شرعية رؤية الطرف العربي (الفلسطيني).

اللافت للنظر أن استطلاعات الرأي عند اليهود خلال الأزمات حيث الحروب والنزاعات مع العرب، تكون فخورة جدًا بالشرعية التي تنجزها السياسة الإسرائيلية من إهانات وإذلال ضد العرب.

أما استطلاعات الرأي عند العرب، فهي تُشير إلى أن الإنسان العربي عبر عدة مراحل منذ قيام إسرائيل، رفض الوجود الإسرائيلي وظلت روح المقاومة تسكنه من أجل التحرير ورفع الظلم، ومع الأيام ازداد كرهًا لإسرائيل ثم ابتلع السم وأضحى يسكت على الإهانة ثم خضع للشروط الإسرائيلية، ومع الوقت صار يستجدي إسرائيل كلما شعرت بارتياح أكثر واستقرت في فلسطين أكثر، أخيرًا صحى على الحقيقة المؤلمة التي لا بد فيها أن يقبل الشرعية الإسرائيلية إذا أراد هذا الإنسان العربي أن يُغادر الموقع الذي طال مكوثه فيه بلا فائدة، وصارت تعلوا الأصوات وجهات النظر التي تطالب بالاستماع إلى الطرف الإسرائيلي عسى أن يكون عنده ما يريح أفضل من الواقع الحالي للعرب المهزومين.

ومن ثم يمكن القول بإن الشرعية العربية (الفلسطينية) والشرعية الإسرائيلية المتمثلتين بالجيل الجديد فيهما، تحاولان الآن أن تلتقيا في منتصف الطريق على الأقل من أجل المستقبل الذي سيحكم بينهما بعد ذلك دون تحديد مدى هذا المستقبل، يدفعهما إلى هذا ما يرى كل منهما من صعوبات ستواجهه إذا استمر بنفس الحدة على ما هو عليه من رفض وتكرار لحلقات الصراع التي أضحت لا تبدل من الأمر شيئًا في كينونة الوجود لكل منهما عدا السلبيات والمفاجآت التي تظهر فجأة أحيانًا هنا وهناك وتفرض نفسها خصوصًا على الطرف العربي الذي هو دائمًا بلا استعداد ولا يحسب للخطوة التالية.

آنيًا إسرائيل تريد اعتراف العرب بها والتطبيع معهم، وآنيًا العرب يريدون وطنًا للفلسطينيين، وهذا لن يتم إلا بالتفاوض الجاد بين الطرفين، أن يلتزم العرب بما

يتم التفاوض عليه وأن تكون إسرائيل جادة ولا تراوغ في التنفيذ، ولأجل ضبط الأمور لكي تظل في مسارها الصحيح فلا بد من إيجاد مؤسسة تفاوض عربية ذات أفق أوسع من الاتكال في التفاوض على شخص واحد، عدا صاحب القرار الذي يرتجل الموافقة أو الرفض بعقل الإنسان الواحد، حيث لا يتوجب أن يملك شخصًا واحدًا أن يُقرر مصير شعب بأكمله.

لقد أثبتت الأيام أن العرب يزدادون عداء لإسرائيل كلما كان الصدام عسكريًا، وينتقل عداؤهم من جيل إلى آخر حتى وإن أصيب العرب بهزائم في ساحة النزال، وهذا شيء طبيعي حينما يزداد حجم الإهانة، بالنسبة لإسرائيل أثبتت حروبها مع العرب أنها تؤخر اعتراف العرب بها وهذا تداعي طبيعي، والاعتراف هنا ليس المقصود به عقد معاهدة سلام مع هذا الزعيم العربي أو هذه الحكومة، إنما ما يهم الإسرائيلي هو اعتراف الطفل العربي الجالس في مقعد الدراسة بإسرائيل وبموقع إسرائيل في كتب الجغرافيا والتاريخ في مقررات مناهج التعليم العربية.

بناء على السياسة التي اعتاد العرب إتباعها في معالجة القضية الفلسطينية المتمثلة باستمرار المقاومة فقد أثبتت الأيام ونتائج الحروب والاشتباكات مع الجيش الإسرائيلي بأن لا طاقة للمقامة بأن تلجم إسرائيل وتجعلها تتنازل عما اغتصبته من حقوق للفلسطينيين على الأقل في هذا العصر، لقد وصل الموقف العربي من الانحدار في ساحة القتال وفي الإعلام العالمي على أن العرب معتدون، وأن إسرائيل تدافع عن نفسها، كان في الماضي إذا قام ناشط فلسطيني مقاوم بعملية فدائية ضد إسرائيل، كانت تصفه إسرائيل بالمخرب، الآن أصبحت حركة المقاومة الفلسطينية برمتها على لائحة الإرهاب العالمي وأصبح الضحية مجرمًا، أليس هذا ما وصل إليه الموقف العربي الفاقد لأي شيء.

إن الصهيونية لا زالت فتية ولا زالت قادرة على إلحاق الهزائم بالأنظمة العربية، فرادى ومجتمعين، ولا زالت الولايات المتحدة الأمريكية الحليفة الأولى لإسرائيل، هي قائدة الحضارة الغربية منذ نهاية الحرب الباردة وأنها ليست في طور الشيخوخة كما يشيع بعض الحالمين من العرب والمتفائلين، إن الحديث بهذه

الكيفية لا يعتبر وصفًا صحيحًا للواقع، وفي الوقت نفسه ليس انهزامًا أو يأسًـا، إنما هو دعوة لتغيير ما اعتاد عليه العرب من الهروب مـن مواجهـة الواقـع، والهروب إلى الأمام للبقاء على النهج القـديم الـذي يكـاد أن يجعـل القضـية الفلسطينية تتلاشى من ذاتها.

الواقع الحالي هو أن الأرض فيما تبقى من أشـلاء الـوطن الفلسـطيني جـاري مصادرتها في كل يوم والمستعمرات تبنى على حساب الفلسطينيين بـلا إبطـاء، ومضايقة السكان الفلسطينيين في الضفة والقطاع تزداد في كـل يـوم، وتفريـغ المناطق الفلسطينية من أهلها جاري على قدم وساق ومن يشك في هذا فليسـأل كم من الفلسطينيين يتركون في كل شهر الضفة وغزة ويهـاجرون إلـى الـدول الاسكندنافية وغيرها، وكم من المهاجرين اليهود الجدد القـادمين للإقامـة فـي إسرائيل يصلون في كل شهر بل كيف أضحى الفلسطينيون سبعة ملايين يعيشون خارج فلسطين وأهل الداخل أقل من خمسة ملايين بما فـي ذلـك مـن يحملـون الهوية الإسرائيلية.

إن استمرار معالجة القضية الفلسطينية على النمط القديم سيؤدي إلـى تصـفية القضية الفلسطينية وستصبح كل التضحيات التي قدمها الشعب الفلسطيني خسارة لا نفع منها، فقد يكون من الصالح الوطني أن يستفاد من التضحيات وما تركـت معاناة الشعب الفلسطيني في نظر الأمم التي ما زالت تعطف على قضية الشـعب الفلسطيني، وأن يستغل هذا كأوراق أمام العالم علـى طاولـة المفاوضـات مـع إسرائيل ومن يساندها من الدول قبل فوات الأوان، فإذا مـا أحسـن المفـاوض الفلسطيني بالذات في معركة السلام فإنه قد يأتي بما لـم تسـتطع المقاومـة أن تحققه بالحديد والنار.

يحضرنا هنا القول بإن الولايات المتحدة الأمريكية أيام الحرب الباردة، كانت تُطلق شعارًا لكي يسمعه العرب حتى بوجود الاتحاد السوفييتي في السـاحة العالميـة، كانت تقول عن الحروب العربية الإسرائيلية، بأنها لن تسمح بانتصـار السـلاح الروسي على السلاح الأمريكي، ذلك باعتبار أن العرب كانوا يستوردون السـلاح

من الكتلة السوفييتية التي كانت تقودها روسيا، لو كان هذا القول صحيحًا وهــو إلى حد ما صحيح فعلاً، فهل أمريكا تسمح الآن وهــي سـيدة القــرن الحــادي والعشرين بلا منازع، هل تسمح بانتصار العرب على إسرائيل بأي صــورة مــن الصور بافتراض أن العرب يمكن أن يحققوا نصرًا ما عسكريًا علــى إســرائيل، يجب ألا ننسى بأن إسرائيل ظلت تباهى على مدى ما يزيد عن ستين عامًا، بــأن أبناءها وحدهم في ساحات القتال هم من خاضوا كل حروبها مع العرب، وإن كان هذا له معنى فمعناه أن إسرائيل جاهزة ومستعدة دائمًا، وأن عدم اعتمادها علــى جيوش الغير، هو رسالة للغير أيضًا بأنها لن تخضع حتى لإملاءات الحلفاء، فمن سيحارب عنها لا بد أن يحصل على مقابل والمقابل هنا هو التدخل في سياســتها الخارجية التي لبها هو الصراع العربي الإسرائيلي.

إن الصهيونية التي بنت دولة إسرائيل، أتت وهــي مســتعدة لاحــتلال فلســطين بجاهزية متقنة لمواجهة أي موقف، في المقابل أن العرب بعد ســتين عامًــا مــا زالوا يرتجلون قراراتهم وما ينامون عليه من قرارات يستبدلونه فــي الصــباح، والدليل على ذلك أنه لا يوجد قرار عربي واحد منذ بدء الصدام مع إسرائيل مــا زال العرب ملتزمون أو يأخذون به، فأين مثلاً قرار القمة العربيــة، لا صــلح لا اعتراف لا تفاوض مع إسرائيل؟

ما هو مصير القيادة العربية الموحدة؟

أين الجمهورية العربية المتحدة مصر، سوريا؟

أين الاتحاد العربي اليمن مصر سوريا؟

أين دول المواجهة؟

أين دول الرفض والتصدي؟

أين دول الرفض والصمود؟

أين اتحاد الجمهوريات العربية مصر، سوريا، العراق؟

أين الاتحاد العربي المشرقي مصر، الأردن، العراق، سوريا؟

أين اتحاد دول المغرب العربي المغرب، تونس، الجزائر، ليبيا؟

في مقابل ذلك منذ نشأة إسرائيل وتتابع الحكومات فيها، سـواء علـى الصـعيد الداخلي أو الخارجي، لم تأت حكومة إسرائيلية واحدة برئاسة أي من الأحـزاب، سواء يمينها أو يسارها أو وسطها أو حتى حكومة وحدة وطنية، لم تأت حكومـة إسرائيلية واحدة عملت على إلغاء قرار اتخذته حكومة إسرائيلية سابقة، وبـذلك يظل الالتزام واحترام المبدأ، وهذا ما جعل إسرائيل من حفنة من المهاجرين مـن كل جهات الأرض يبنون دولة على جثة أمة كانت يومًا منارًا للبشرية.

إنها غصة في القلب حينما نجبر أن نعترف أو نقر بـأن الصـهاينة يحترمـون أنفسهم أولاً ويخلصون لقضيتهم وبالتالي فهم يحافظون على دولتهم، ويكسـبون عطف العالم على حساب العرب جميعًا بينما العرب في تيههم يعمهون.

لقد ظلت إسرائيل تعتمد استراتيجية الضربة الاستباقية، وإن تعذر كانت تعتمـد على نقل المعركة بسرعة إلى أرض الغير حتى وإن كان قد بدأها الغير (العرب)، لهذا يقال إن كل الشعوب لها جيوش، وأما الجيش الإسرائيلي فله شعب، وذلـك من شدة تأثير الهاجس الأمني على المجتمع الإسرائيلي واستقراره، لهـذا فـإن الدولة اليهودية تضع أفضل ما عندها من إمكانيـات، وذلـك لجعـل المؤسسـة العسكرية الصهيونية تضاهي أفضل جيوش العالم عتادًا وتدريبًا واستعدادًا، فـي العلوم العسكرية يقال بإن القادة العسكريين يأخذون وقتًا كبيـرًا وهـم يضـعون الاستراتيجيات والخطط العسكرية والخطط البديلة فما بالك وأن إسرائيل دولة منذ ولادتها وإعلانها دولة كانت عقيدتها هي القتال، معنى ذلك أن هناك في إسـرائيل جيش أعد له بكفاءة عالية، وهو ما لا يوجد مقابله عند العرب أو ليس عندهم ما هو أفضل منه لكي يصل الأمر إلى قلب موازين القـوى فـي المنطقـة وفـرض الشروط العربية على الصهيونية في إسرائيل.

لكن لو بدل العرب في أسلوبهم ووضعوا استراتيجية تلائم النتائج التـي تفـرض نفسها كأمر واقع بينما العالم تتزعمه أمريكا الحليف الاستراتيجي الأول لإسرائيل،

وراحوا يتقدمون من إسرائيل بأسلوب جديد واستجابوا للنداءات التي تدعو إلـــى السلام بين الدول، وجنحوا للتفاوض مع إسرائيل بجدية تخلو من العاطفة التـــي اعتادت سكناهم متقدمة على العقل وحسابات الربح والخسارة، لو واجهوا الأمـــر الواقع بجرأة وواقعية، واستطاعوا أن يلفتوا نظر إســـرائيل بجـــديتهم ويحـــاكون الفضائل التي تسكن الثقافة الدينية اليهودية التي تتقاسمها مع الأديان الأخـــرى، تلك الفضائل التي تتواجد في كل العقائد الدينية وعند كل أمة، لو توقـــف العـــرب عن طرح الشعارات التي يستحيل تحقيقها وتعلموا من إســـرائيل أو كمـــا يفعـــل الإعلام الصهيوني في خطابه الموجه للعرب، لو حدث ذلك، ألا يمكـــن أن يجعـــل العرب إسرائيل تخطو خطوات عملية وجادة لكي تُعطي ما يمكن أخذه منهـــا فـــي أفضل الظروف المواتية.

دعنا نفترض بأن العرب والفلسطينيين بالذات عقدوا معاهدة سلام مع إســـرائيل والتزم الطرفان بها، أليس هذا يمكن أن يكون مدعاة لإسرائيل بأن تُغير خططها، وقد تنقلب الموازين في المنطقة بعد زمن ما، وقد تحـــدث ردود أفعـــال يهوديـــة وصهيونية وأوروبية وعالمية قد لا تكون بعد زمن فـــي غيـــر صـــالح الوجـــود اليهودي نفسه في فلسطين، وذلك بدلاً من الوتيرة التي ما يفتأ العـــرب يتلقـــون فيها الهزائم والنكسات والنكبات واحدة بعد الأخـــرى عـــدا عـــن ســـفك الـــدماء الفلسطينية بلا عائد للأهل المكلومين.

قد يكون السلام مع إسرائيل طاقة جديدة تفتح للفلسطينيين والعرب آمالاً وأبوابًـــا من التطور والتقدم، فقد تتبدل الأحوال إلى الأفضل، فعلى الأقل قد يُترك المجـــال للفلسطينيين أن يلتقطوا أنفاسهم ويلموا شتاتهم، ويبنون واقعًا حضاريًا بجانـــب إسرائيل حتى لا يكون وجودهم هشًا تحت أية ظروف ويتحولون إلى لاجئين مـــرة أخرى، هذا وكما يمكن للشعوب العربية أن تنهض وتســـتعيد كرامتهـــا ويصـــبح للإنسان قيمة وذاكرة فيها، لماذا لا نستمع إلى أنفسنا أولاً، ونستمع إلى الأصوات التي تُطالب بتغيير سياسة تداول الصراع مع إسرائيل التي استمرت زمنًا طـــويلاً

وأتت بالخيبات والهزائم، وكرَّست الحكم الشمولي والتجهيل للمجتمع العربي وأخرت مسيرة أمة بكاملها.

إن الفلسطينيين والعرب لا يجب أن يرفضوا السلام، ولهذا لا بد من موقف موحد، لقد أثبتت الأيام والسنين بأن الفلسطينيين يفتقدون إلى استراتيجية ولم يكونوا يومًا موحدين، في غياب وجود الاستراتيجية لا يمكن أن يحصل الفلسطينيون على شيء من حقوقهم، وهم بذلك يفقدون مصداقيتهم أمام العالم ويجعل إسرائيل تردد أمام الدنيا دائمًا، إنه لا يوجد شريك للسلام، وفي هذا فإسرائيل تقول الصدق.. كيف؟

الجواب: لا توجد للفلسطينيين استراتيجية ولا يمكن للعالم أن يفهم ما يريدون، هل يريد الفلسطينيون الحرب أم يريدون السلام؟ لا يوجد موقف موحد للفلسطينيين ولا أحد يعلم ماذا يريدون بالضبط، والمفروض أن يكون هناك هدف محدد وآلية تنفيذ فإما السلام وإما المقاومة الشاملة، إما مواجهة إسرائيل الصهيونية بالحشد القومي أو الإسلامي وكل منهما له ميدانه، وإما البحث عن وسيلة أخرى.

ولما أثبتت الأيام بأن المقاومة لم تُحقق نصرًا على إسرائيل، لهذا لا بد من اختيار هدف السلام والالتزام بموجبه خلال المفاوضات وعند التطبيق أيضًا ما دمنا لا نعرف طريقنا، وكوننا ما زلنا في طور المراهقة الفكرية التي ما زالت تتخبط في البحث عن استراتيجية مواجهة مناسبة مع إسرائيل في غياب التربية الوطنية والثقافية للأجيال، وفي غياب التوجيه المعنوي على المستوى القومي والتربية السياسية عن طريق نظام التعليم العربي الموحد.

إن تعليم النشيء المقومات الأساسية السياسية للقضايا الوطنية هو كالنقش في الحجر أحيانًا وقيل من يشب على شيء يشيب عليه، فأين زراعة الوطنية في عقول الأجيال العربية، اللهم إن الأنظمة الحاكمة تزرع للأسف في نفوس النشء، الإقليمية من ناحية والولاء والطاعة للحكام وتأليههم حتى يكون هؤلاء الحكام كما

لو أنهم يحكمون شعوبهم بنظرية التفويض الإلهي وأنهم ظل الله علـــى الأرض أو كما كانت تحكم المجتمعات الأوروبية في العصور الوسطى.

فإذا ما كانت الأمور هكذا، فإنه يتوجب أن نبحث في هذا العصر عن اســـتراتيجية أخرى، وأن نوجد لنا هدف ممكن، وحينها يمكن القول بإنه قـــد أضـــحى للعـــرب هدف واستراتيجية ونذهب لتسويقها لإسرائيل والعالم، الإسرائيليون هدفهم واضح ومعروف لنا على الأقل ولهم، ومن هنا يبدأ التجاذب، قد يتجاذب الهـــدفان وقـــد يسيران على بساط سندسي ناعم لا يُبطئ من التقائهما، لأنهما يعنيان معنى واحدًا هو السلام بل وقد تحفهما الرعاية الدولية من قبـــل القـــوى العالميـــة المتنفـــذة خصوصًا تلك المتحالفة مع إسرائيل بدلاً من أن تظل ملتزمة بذاكرة عامة ثنائيـــة بسيطة، تتفهم الإسرائيليين بضوء إيجابي وواضح، وتتفهم العـــرب فـــي ضـــوء سلبي جدًا، وحينها قد تختلط الأوراق والحسابات، وقد ينشأ عن ذلك تغييرات في المنطقة لا يمكن التنبؤ بما قد تؤول إليه من أثر إيجابي على العرب في فلسطين.

الآن، دعنا من خلط الأوراق وما قد يأتي به المستقبل من تغييرات، نود أن نُغيـــر الواقع لئلا تبقى العلاقة بين الفلسطيني واليهودي كما هي منـــذ عـــام ١٩٤٨م، سلسلة من المفاوضات، الرفض والقبول والتعـــاون الحـــذر، والقتـــل والحـــرب والمشاركة والاستيلاء على الأراضي، الذي يدفع فيها دائمًا الـــثمن الكبيـــر هـــو الفلسطيني الذي تتناقص خياراته وتتقزم مع مرور الأيام.

لا يجب أن يُخدر العرب أنفسهم بمقولة إن الصراع الآن وفي النهاية هو صـــراع ديمغرافي بين الفلسطينيين واليهود، لأن اليهود يستطيعون أن يغيـــروا المعادلـــة متى أرادوا أو مثلما حدث بعد حرب ١٩٦٧م حينما نـــزح عشـــرات الآلاف مـــن الفلسطينيين إلى خارج فلسطين وخاصة إلى الأردن ومنها إلى الشتات الأبعـــد أو كما حدث مثله عام ٢٠٠٩ على إثر عملية "الرصاص المصهور" الحـــرب التـــي شنتها إسرائيل على قطاع غزة المحاصر.

لقد بقي العرب منذ إعلان إسرائيل دولة مستقلة وحتى حرب الأيام الستة عام ١٩٦٧م يتغنون بمقولة الكثرة العددية وتفوق الأمة العربية من هذه الناحية على عدد الإسرائيليين في إسرائيل وعلى يهود العالم، كان الزعماء القوميون من العرب من أمثال جمال عبد الناصر قبل أن تصبح إسرائيل دولة ذرية، يتباهون أمام وسائل الإعلام بأن الأمة العربية تستطيع أن تجند ملايين البشر من العرب كجنود لكي يحاربوا إسرائيل، وأما الأخيرة فلا تملك هذا المورد البشري لكي تضع تحت السلاح جنودًا مثلما يستطيع العرب، فماذا كانت النتيجة، هل كان للعدد العربي أثر في قضية الصراع بعد ذلك! الذين نزحوا من الفلسطينيين والذين كانوا صدفة خارج فلسطين يوم اندلاع الحرب ١٩٦٧م اليوم يستجدون إسرائيل أن تُعيدهم إلى الضفة والقطاع تحت ما يسمى لم شمل العائلات، وحتى الآن لم توافق إسرائيل إلا على نسبة ضئيلة العدد منهم بالرجوع إلى سكناهم وأسرهم في الضفة والقطاع.

يجب ألا يغيب عنا كعرب وليعلم من لا يعلم، بأن إسرائيل هي من ذكرت أولاً حكاية الخطر الديمغرافي في فلسطين التاريخية، وأن معهد التخنيون بجامعة حيفا هو من أعلن ذلك كوجهة نظر أو تحذير للمجتمع الديمقراطي الإسرائيلي، ولربما لولا أن الإسرائيليين أنفسهم قالوا ذلك لما فطن العرب إلى هكذا أمور أو مقولات الأحاديث عن العدد الديمغرافي واحتمال اختلال التوازن بين الفلسطينيين وإسرائيل من هذه الناحية.

فالنخبة المثقفة والمفكرة في المجتمعات العربية ليست هي من يدير شئون المجتمعات العربية، وإن من يحكمون ما هم إلا شلل المنتفعين والأسر الحاكمة، وأمة ممزقة ومشتتة ومبعثرة وهذا حالها، لا تستطيع أن تواجه المحترفين من دهاقنة الصهيونية الذين أوجدوا دولة وغرسوها في وسط العرب، إذا كان العرب منذ ما قبل عام ١٩٤٨م لم يستطيعوا منع إنشاء دولة لليهود في فلسطين، فهل يقدرون الآن تحت شعار ثقافة المقاومة أن يهزموا دولة ذرية تجثم على صدورهم هي إسرائيل!



جمال عبد الناصر ١٩١٨م – ١٩٧٠م

ألا يحتاج هذا إلى وقفة مع النفس للتفكير والمراجعة وتعديل المسار الاستراتيجي الفلسطيني والقومي، لكي يتلائم بحده الأدنى على الأقل مع مصلحة الشعب الفلسطيني المشتت والمهان! يجب أن يفهم العرب أنه يستحيل أن تهزم إسرائيل في هذا العصر! فلا بد من عملية احتواء لها بشتى الخطط والتصالح معها لكي يؤجل الصراع الحقيقي معها إلى زمن أكثر ملاءمة للمعنيين من العرب.

إذا ما استمر الحال على ما هو عليه، فيمكن للفلسطينيين أن يواجهوا مستقبلاً أسودًا أكثر حلكة من كل ما مروا به، إن السنين الماضية كانت مصدرًا للعبر والدروس والأحداث المأساوية، إن الهزيمة العربية أمام إسرائيل كانت نتيجة تراكم الفشل والارتجال والجهل بعمليات الطرح والجمع بين المفيد والضار من جهة العرب، ونتيجة تراكم النجاح والقرارات الصائبة لإسرائيل التي تفوقت عليهم في كل شيء، إن العرب وعلى رأسهم الفلسطينيين بحاجة إلى دراسة أسباب

فشلهم حتى الآن وإلى الوقوف على أسباب نجاح المشروع الصهيوني في بناء الدولة القوية على تراب فلسطين العربية.

إن إسرائيل تحت أي ظرف لن تسمح بعودة اللاجئين الفلسطينيين إلا في حالة واحدة هي زوال دولة إسرائيل، فهل العرب لديهم القدرة على إزالة إسرائيل في هذا الزمن! إذن لا بد من توفير أسباب إنهاء الوجود الإسرائيلي بنفس الطريقة والخطة التي وضعتها الصهيونية، بدءًا بالحشد والاستعداد النفسي والمادي إلى أن تحين اللحظة المناسبة، إن لحظة إزالة إسرائيل ستأتي حتمًا، لكن أين المناخ الذي يتوفر لولادة تلك اللحظة، أين التحضر والتطور، أين الاقتصاد القوي الحر، أين الديمقراطية وحرية الرأي ودولة القانون، أين الوحدة العربية الكبرى، وأين القرار العربي المستقل المُعبِّر عن إرادة الأمة جميعًا! في غياب هذا لا يمكن أن تكون عودة للفلسطينيين إلى مدنهم وقراهم فيما يسمى الآن بإسرائيل، لقد أثبتت السنين، وبرهن الأسلوب الذي يتخذه العرب والفلسطينيون مع إسرائيل، بأن إسرائيل تقوى وتزداد ازدهارًا مع وجود المناخ العربي الحالي، فعوضًا على أن ما يقوم به العرب من مقاومة بحجمها الحالي ونوعيتها ضد إسرائيل لا يبدل شيئًا على الأرض فإن هذا يعمل كمضاد حيوي يزيد من قوة إسرائيل وتطورها وازدهارها بل هو يعمل كمصل وكحافز منشط للجسد الصهيوني ويجعله مستنفرًا ضد فيروس مرض الهزيمة الذي يوقظ الجسم لهزيمة المرض.

لو أخذنا مثلاً قضية صغيرة من أحد جوانب النكبة العربية أو المأساة الفلسطينية، لو دققنا النظر فيها فسنجد كيف تعالج قضية الشعب الفلسطيني من قِبل العرب، هناك مثلاً دولاً عربية قدمت التنازلات لإسرائيل وأصبحت تعترف بها رسميًا سواء بتمثيل دبلوماسي أو بدون تمثيل دبلوماسي، فالتطبيع مع إسرائيل في بعض الدول العربية كان قد سبق التمثيل الدبلوماسي أصلاً، العرب يطبعون مع إسرائيل بمعنى الاعتراف بها وهذا معناه القبول بعدم عودة اللاجئين الفلسطينيين إلى دورهم الأصلية، وفي نفس الوقت هؤلاء العرب يرفضون الوجود الفلسطيني المشرد أن يحصل على المساواة في دولهم! هذا شيء من نمط المهازل التي

يتداولها النظام العربي، وبعد ذلك يملئون الإعلام كلامًا عن مساندة الشعب الفلسطيني وقضيته العادلة! هل هكذا أسلوب يُعيد حقوقًا مغتصبة للفلسطينيين؟!

إذا كانت الدول العربية المحيطة بإسرائيل قد طبعت علاقاتها مع الدولة الصهيونية، وبينها وبين إسرائيل عقود ومواثيق سلام وصداقة وتعاون، وأضحت قضية فلسطين بالنسبة لهذه الدول العربية تعنيها كما تعنى الصين أو الهند بالقضية الفلسطينية، وأن السلطة الوطنية الفلسطينية أيضًا تعترف بالوجود الإسرائيلي وتطبع معه وتستجدي مساعدته، وأقصى ما تُطالب إسرائيل به هو اثنين وعشرين بالمائة من أرض فلسطين التاريخية كحق شرعي للفلسطينيين، إذا كان حالنا هو مُزريًا إلى هذا الحد، فلماذا لا يتجه العرب والفلسطينيون في زمن الهزيمة هذا إلى إنقاذ ما يمكن إنقاذه، ذلك لإبقاء بيضة الحق الشرعي إلى أن يحين الوقت ونتعلم كيف نتطلع إلى حقنا ونعمل من أجله، ونعيش كما كان شعراء اليهود يتغنون أيام السبي البابلي، "لتنسني يميني إن نسيتك يا أورشليم"، وما علينا حينها إلا أن نستبدل كلمة أورشليم بكلمة القدس.

لماذا يتوجس الفلسطينيون والعرب من الصلح مع إسرائيل حتى بالكيفية التي تريدها إسرائيل، ولماذا يتلاعبون بالمعاني والشعارات السياسية التي توحي لإسرائيل بأنه لا يوجد شريك فلسطيني لصنع سلام حقيقي معها، وبالتالي يُعطيها الفرصة للاستمرار في سلب الأرض تحت ستار أن الفلسطينيين يعتدون عليها بصواريخهم! ما هو الفرق بين الصلح والاعتراف والتطبيع وبين الصلح وعمل هدنة طويلة المدى وما تختلف عليه الأطراف الفلسطينية والعربية الفاقدة لأي نوع من أنواع الاستراتيجية الواضحة المعالم تجاه إسرائيل عدا استراتيجية لا حرب ولا سلام، لا نرى أن هناك فرق في ذلك، إلا كوننا نُفكر بالطريقة القديمة وليس إلا، حينما يتجه تفكيرنا لحل مشكلة الصراع مع إسرائيل فإننا اعتدنا أن نهتم بما نخطط له نحن فقط، ونتجاهل وجود إسرائيل ولا نتخيل أو نفترض بأنها أيضًا تفكر في اتجاهنا وتتوقع ما يمكن أن يصدر عنا من أفعال أو حتى من ردود أفعال.

لهذا نحن نرى أن الصلح والتطبيع مع إسرائيل هو نفسه مثل الصلح والهدنة الطويلة، لأن إسرائيل في أي من الحالتين ستفرض شروطها التطبيعية على الفلسطينيين والعرب، بمعنى أنها لن تقبل التوقيع إلا إذا وافق الطرف الفلسطيني على ثانويات الأمور المحتملة في المستقبل، إن من العبث وضياع الوقت، ألا نرى الأشياء على حقيقتها، وألا نُسمي الأشياء بأسمائها، وأن نظل مُعلقين في الهواء لا نقف على أرض، أليست القضية الفلسطينية هي قضية كل الفلسطينيين، وأليست فصائل المقاومة الفلسطينية الرئيسية، فتح وحماس والجهاد والجبهات الشعبية وغيرها، كلها تعلم بأنها لن تنتصر على إسرائيل في هذا العصر، وكلها تتجانس مع بعضها في النسيج الفكري والسياسي والوطني، والأهم من ذلك أليست جميعها واقعة تحت الحصار الإسرائيلي بصورة أو بأخرى، سواء في الضفة والقطاع أو حتى في بلاد الشتات العربي وغير العربي!

إذن لماذا نُعطي معاني مختلفة لما يقوله هذا الفريق أو ذاك عن مبدأ السلام مع إسرائيل سواء سميناه صلحًا أو هدنة طويلة، ما دام الجميع يُعلنون أنهم يرضون من حيث المبدأ بالسلام مع إسرائيل، اليهود ليسوا جهلة ولا أغبياء حتى يُخدعون في هذا الزمن، وليسوا قرودًا أو خنازيرًا كما صورناهم في بنات أحلامنا وأبقينا نظرتنا هكذا تجاههم، هم أذكياء ومنظمين ومفكرين وقادرين وإلا ما كانوا يستطيعون انتزاع وطنًا لهم من بين أيدينا.

لقد حان الوقت أن نرى الأشياء بوضوح حتى نغير نظرتنا ونبدل انعكاسات مرائياتنا في العقول، ذلك لأجل أن تأتي ردود أفعالنا منطقية وصحيحة لكي نحافظ على ما تبقى لنا من وجود، وأن نضع استراتيجية سلام، وأخرى حشد وبناء، ثم نترك الزمن لكي يحكم بيننا وبين الغاصبين، إن ما حدث للأمة العربية من هزيمة في هذا الزمن ليس مسئولية ثلاثة أجيال النكبة فقط من العرب والفلسطينيين، إنها مسئولية الأجيال العربية التي عاشت منذ قرون طويلة واسترخت إلى أن ورثنا هذا الحال، إن علاج مشكلة بحجم اغتصاب فلسطين لا يستطيعها أبناء

الجيل الحالي وحدهم بل تحتاج إلى جهود أجيال أخرى كما ضاعت بسبب تخاذل الأجيال السابقة أيضًا.

إن إسرائيل سواء في حال الصلح والتطبيع أو في حال الصلح مع الهدنة الطويلة، سترمي على من يقابلها في المفاوضات ورقة مطبوعة ومُعدة سلفًا يجب أن يقبلها أي فريق أو دولة عربية تريد سلامًا مع إسرائيل المنتصرة، ما ستحتويه تلك الورقة في حده الأدنى، هو إقامة السفارات وتبادل البعثات الدبلوماسية، وفتح المكاتب التجارية والثقافية والفنية، والملاحق العسكرية، وكل ما يمكن أن يؤدي إلى دخول الإسرائيليين إلى البلاد للأعمال الاقتصادية بدء من الفنادق والمطاعم والمسارح والبنوك الخ، وقد يضحي التطبيع بشيء محسوس من القوة كما حدث مع مصر والأردن حينما وافقتا على الصلح مع إسرائيل بعد الهزائم العسكرية وخسارة المعارك الكبرى في ساحة الحرب، وتفادي خسائر أكثر، هذا ولو وسعنا الدائرة أكثر فإن التطبيع قد يكون، لو سنحت الفرصة والمناخ الدولي، قد يكون عن طريق الغزو المباشر للدول أي بالقوة المسلحة وإسقاط الأنظمة الحاكمة على غرار ما فعلته الولايات المتحدة الأمريكية في العراق وأفغانستان، وما قد يحدث مع السودان وإيران وربما سوريا أيضًا ومع غيرهما من الدول أو ما يمكن أن تطلق عليه القوى العالمية المسيطرة من تهم على دول ومنظمات تنعتها بالمارقة.

وهنا لا بد من وقفة قصيرة للتذكير بإحدى أنواع الصلح والمعاهدات وأنواع الهدنة الطويلة الأمد أو الهدنة التي بلا حدود، ورغم هذا فقد قبلتها الدولة المهزومة، وفي أغلب الأحوال قد قبلتها حسب شروط المنتصرين.

في ٢٨ يونيه سنة ١٩١٩م وقعت ألمانيا المهزومة في الحرب العالمية الأولى "معاهدة فرساي" التي حملت اسم المدينة الفرنسية فرساي التي تم توقيع المعاهدة فيها، تضمنت المعاهدة اقتطاع مناطق حدودية من ألمانيا وعمل على ضمها لدول أخرى، كما فرض على ألمانيا تعويضات باهظة للدول التي تضررت من الحرب، وفي ١٠ يناير ١٩٢٠م تم تعديل المعاهدة وتم تخفيف التعويضات التي تضمنتها

المعاهدة على ألمانيا، إلا إن ذلك لم يوقف ألمانيا من استرداد عافيتها الذاتية بسبب الشروط المجحفة التي تضمنتها المعاهدة، ولم تمنعها المعاهدة المذكورة أن تشن حربًا مدمرة استمرت ست سنوات، إذا لم يكن الصلح مع إسرائيل عادلاً فإنه لن يكون دائمًا إلى الأبد مهما كانت شروط معاهدة السلام مجحفة بحق الفلسطينيين والعرب.

إن معاهدات السلام التي تتم تحت القهر والظلم وعدم التوافق والعدل والاضطرار، لا تُعطي للمعتدي حقًا أو مشروعية أو صفة قانونية ملزمة إنسانيًا أو دينيًا، وتظل مثل تلك المعاهدات قابلة للنقض والإلغاء والتجاوز في كل الأوقات حتى بعد التوقيع عليها وسريانها، أي أن المظلوم إذا ما استطاع أن يسترد عافيته وأراد أن يُصحح أخطاء السنين فإنه يستطيع ذلك حتى بالسلام أيضًا بمعاهدة قد تقلب كل الموازين بشرط أن تستند على القوة، لقد كان هناك درس مجيد في التاريخ أيضًا، لقد خرج الصليبيون من فلسطين وما حولها أذلاء مدحورين بعد أن استرد العرب المسلمين عافيتهم وعادت القدس إلى أهلها.

"درور ايدار" هو كتاب إسرائيلي من الذين يكتبون كثيرًا عن قضية مشروع حل الدولتين.. فلسطينية ويهودية، وله قراء كثيرين وشعبية واسعة لدى قطاع عريض من المجتمع الإسرائيلي، كتب ذات يوم إبان اشتعال الحديث عن مشروع الدولتين في جريدة معاريف مقالاً تحت عنوان "عن مسألة دولتين للشعبين.. سلام أم تصفية؟" بيَّن في المقال مخاوف الإسرائيليين أو كيف أن الإسرائيليين يُتابعون كل شيء ويقلبون كل حجر لكي يعرفوا إلى أين يتهادى مركب مشروع السلام الفلسطيني الإسرائيلي، هو - أي الكاتب - لم يترك في مقاله صغيرة أو احتمال إلا وافترض سوء النية بالطرف الفلسطيني، وأنه لا يرى إلا أن هكذا مشروع هو في النهاية تصفية لدولة إسرائيل نفسها، ربما من الأفضل أن نُلقي نظرة على جزء من مقال درور ايدار الذي أشرنا إليه، لكي نتأكد بأن الصهاينة لا يغفلون شيئًا، قال "درور ايدار" في جزء من مقاله:

"مفارقة هي أن التحول الفلسطيني لعرب إسرائيل أبعد أيضًا جــزءًا هامًــا مــن احتمال أي حل وسط في هذا الإقليم الدامي، وذلك لأنه في لحظة تاريخية صــافية فهم المثقفون المستقيمون في اليسار بأن الحل الذي تبنوه لعشــرات الســنين - تقسيم البلاد إلى دولتين - يؤدي عمليًا إلى تصفية دولة إسرائيل كدولة يهودية، وينهي عمليًا الرؤيا الصهيونية التي سعت ببساطة إلى إعادة الشعب اليهودي إلى الديار، هذا الوضوح في الوعي أدى في منتصف التسعينيات ببعض الناس ممــن كانوا حتى وقت قصير مضى نشطاء في السلام الآن إلى أن يؤيدوا الليكود بل من هم على يمينه، ذلك أن فكرة دولتين للشعبين فهمت على نحو مختلف تمامًا فــي الجانب اليهودي وفي الجانب الفلسطيني بمن في ذلك عرب إسرائيل، فقــد فهــم الجانب اليهودي بأن الحل هو دولة للشعب الفلسطيني ودولة للشعب اليهــودي، في ظل اعتراف فلسطيني بحق اليهود على أرض إسرائيل كوطنهم التاريخي.

ليس هكذا فهم الفلسطينيون، والأدق: فهموا ولكنهم رفضوا القبول؛ بالنسبة لهــم المقصود اليوم هو فقط الجانب العلماني في المجتمع الفلسطيني، ذاك الذي تمثله فتح، الحل المطروح هو دولة فلسطينية نظيفة من اليهود ودولة إسرائيلية تضــم يهودًا وفلسطينيين بقوا هنا منذ حرب الاستقلال، وكذا أولئك الذي ســيأتون إلــى هنا في إطار جمع شمل العائلات وفي إطار هذا التحقق أو ذاك الحق".

- انتهت فقرة المقال -

مما سبق يمكن الاستنتاج أن في أسوأ الحالات، إذا ما غبن الفلسطينيون في أمر مشروع السلام بطريقة أو بأخرى، فإن حتى الإسرائيليين غير متهافتين على حل مثل مشروع الدولتين، لأن إسرائيل لا تحتمل انتكاسة واحدة حتى تصبح في مهب الريح، هناك مقولة دائمًا يرددها المتفائلون من العرب بإن إسرائيل لو هُزمت في معركة واحدة فسينتهي أمرها، والآن وحتى لو أنها سهوا وقعت في أحد منزلقات السلام مع الفلسطينيين فإنها ربما تفقد أيديولوجيتها وتتلاشى الفكرة الصهيونية، وتتفتت الدولة وتفشل إسرائيل، ويعود اليهود إلى أقلية في فلسطين أو كما كانت تدور عجلت الزمن في الماضي، حينما غزا الفرس القدس قديمًا وقضــوا علــى

الدولة اليهودية، وحينما جاء الملك البابلي "نبوخذ نصر" بعد ذلك ودمَّر القدس وهدم الهيكل وسبى اليهود إلى بابل، ومثلما أيضًا فعل الرومان مع اليهود في القرن الميلادي الأول، لماذا لا يبحث الفلسطينيون عن طريقة للسلام مع إسرائيل في هذا العصر! ولكن هل المشكلة هي في البحث عن السلام أم أنها أكبر من الحرب والسلام معًا؟!

الفصل الرابع عشر

الحوار مع الذات

لقد كُتِبَ على المسلمين بصفة عامة وعلى العرب بصفة خاصة في هذا العصـر، أن يظلوا يلهثون خلف الغرب الذي صار يسبقهم في ميادين كثيـرة، خصوصًـا ميدان الفكر والبحث إلى أن صحونا الآن على الحقيقـة المُـرَّة، بأننـا كعـرب وكمسلمين أصبحنا نحتاج الغرب تارة بالنقل عنه أو بالتقليد حتى نعالج كبواتنـا ونُعيد الأمور إلى طبيعتها أو حتى نملك الحد الأدنى من صون حقوقنا، ولـو لـم نكن كما قد وصفنا أنفسنا لما استطاعت الصهيونية اليهودية أن تغزو ليس فقـط قدسنا وإنما أيضًا ثقتنا بأنفسنا في اللاوعي، حتى صرنا نُسفه ثقافتنـا ونعتـدي أحيانًا بالارتجال على القيم والمباديء ونغضب عقيدتنا، لقد أصبحنا مذاهبًا وشيعًا يتخاصمون بقسوة أشد بغضاء أحيانًا من كرههم لأعدائهم الطبيعيين، فمـا كـان النبي محمد "صلى الله عليه وسلم"، شيعيًا أو إسـماعيليًا أو درزيًـا أو سـنيًا أو احباشيًا أو بهائيًا الخ بل كان مسلمًا حنيفًا.

لذا أضحت حاجتنا ماسة إلى خلق أسلوب للحوار مع الذات على قاعدة المقارنـة والبحث عن المتشابه في العقائد الأخرى المشتركة لمعرفة دلالات المصطلحات إن وجدت عند الثقافـات الأخـرى، الكاتـب لـيس مؤرخًـا أو منظـرًا أو عالمًـا بالأيديولوجيات التي رفعت شعاراتها الأمم في فترات التاريخ المختلفة، إنما هـي الحياة ومأساة شعب فلسطين، الذي لا زال جرحه ينزف، ولا يجد العلاج الشـافي بل وما جعل الكثيرين منا بدل الدموع يسعون بغضب على أنفسهم إلـى التوقـف عند الأسباب.

لا شك بأن موضوعًا من هذا العيار الثقيل يحتاج أولاً إلى السمو والصدق والنية الحسنة أثناء معالجته، ذلك لأجل أن شعلة التواصل تتقدم راية الاسـتمرار فـي البحث عن الحل من رأي إلى آخر مع الاعتذار مقدمًا لأهـل الأديـان السـماوية الثلاث فيما لو فهمت أمور بغير ما هو مقصود.

بنظرة سريعة على القدس في فلسطين، نجد أن هناك تنافس حدث بشكل أو بآخر في الماضي على تلك المدينة الخالدة، سواء من قبل المسـيحيين أو مـن قبـل المسلمين وفي هذا الزمن من قبل اليهود، رأينا كيف أن الصليبيين قـد حـاولوا

واحتلوا وسادوا في فترات من التاريخ في فلسطين، ورأينا كيف سعى اليهود تحت مظلة رمز الصهيونية (جبل صهيون) في القدس أن يفعلوا مثلما فعل المسيحيون الصليبيون قبلاً في أيامهم، ولم يغب عنا أيضًا ما تُمثل القدس بالنسبة للمسلمين وإنها مسرى النبي محمد، وإلا لما كان الحرص كبيرًا أن يدخلها المسلمون بدافع الدين.

من هذه اللمحة التي لا تساوي أكثر من عناوين لثقافات الديانات الثلاث، هل نستطيع أن نقول بإن هناك صهيونية مسيحية لم تمثل كل المسيحيين في العالم، وصهيونية إسلامية ترى أنها الأحق بالقدس، والآن أو منذ الربع الأخير من القرن التاسع عشر وجدت أيضًا الصهيونية اليهودية التي تمكنت بمساعدة الصهيونية المسيحية والرأسمالية أن تفرض وجودها في القدس منذ ما يزيد عن ستين عامًا! ألا يلفت النظر بأن الثلاث صهيونيات التي أشرنا إليها أو لو صح التعبير فالمقصود هنا هو الثلاث قوميات دينية، اليهودية والمسيحية والإسلامية، أليست تعني هذه القوميات مكانًا جغرافيًا واحدًا بحد ذاته هو القدس وأكناف القدس! إذن القدس تعني الجميع.

هل نستنتج مما سبق أن يكون الصراع في النهاية، ليس صراعًا سياسيًا من أجل الحدود، وإنما صراعًا أيديولوجيًا صرفًا بين الصهيونية اليهودية والصهيونية الإسلامية الأصولية أو كما يشير "هشام بوكرين" مؤسس تيار الصهيونية الإسلامية الأصولية في أحد مقالاته! لو افترضنا أن هشام بوكرين على صواب في التسمية والمعنى، فهل تسميته هي الأرضية التي يجب الانطلاق منها لبناء الإنسان العربي الذي سيُعيد في النهاية الحق في القدس وما حول القدس إلى نصابه! إذا كان الأمر كذلك فربما من الصواب أن نتصفح أوجه الشبه وأوجه الاختلاف بين النشئ اليهودي والنشئ العربي والإسلامي، وذلك للحصول على مقارنة ضمنية قد تجعل بصائرنا تدرك لماذا اختل ميزان القوى بيننا وبينهم في هذا العصر (تربية النشئ).

إن لكل أمة من الأمم كما هو معروف، ثقافة وعادات وتقاليد موروثة تختلف بهـا أو تتشابه في بعضها مع الثقافات الأخرى، والثقافة اليهودية لا تشذ عن هذا لأن البشر دائمًا في الحياة مع الله سواء كان الإله سماوي أو وثني، فالإنسـان يظـل شريكًا فيما يحدث سواء بجسده فيما لا خيار له فيه أو بعقله فيما له خيـار لـه علاقة بالسلوك، إذن دعنا نُسلط الضوء على الإنسان اليهودي منذ نشأته، حينما يكون طفلاً، وحتى يُصبح في أرذل العمر!

يقول المبشرون بالإنسان اليهودي، بإن ولادة الطفل اليهودي هي مناسبة سعيدة وحدث جميل لأنه يولد نظيفًا ومحايدًا بشرط أن يكون من أم يهودية، وأن علـى الوالدين أن يرعيانه ويثقفانه ويعلمانه الأنشطة التي تزيد من مهارته وقدراتـه، يتوجب ختان الذكر من الأطفال اليهود، ويكون ذلك في اليـوم الثـامن للـولادة، والختان هو عهد الله مع موسى كما ذكرت التوراة، ولا يعتبر الطفل يهوديًا إذا لم يتم ختانه حتى وإن كان من أم يهودية، والختان شيء مقدس حتـى أن الختـان يصح أن يتم في يوم السبت أو في الأعياد ولا يجب أن يؤخر، عادة مـا يكـون الختان مناسبة سعيدة عند الأهل فيتم في احتفال الأسرة بحضور الأقارب، وحيـث أنها مناسبة سعيدة فإن أحد الأقارب يقوم بحمل الطفل الذي يختن وسط البهجـة والسرور والصلوات من الآخرين، ويتناول الحضور بعد ذلك وجبة طعام دسـمة، وحفل الختان يكون مناسبة لإعلان اسم المولود أيضًا، اليهود الغربيين "الاشكيناز" يطلقون على المولود اسم أحد أقربائهم المتوفيين تيمنًا لكي تكون حياة المتـوفي قدوة للطفل، اليهود السفارديم يطلقون على الطفل اسم أحد الأجداد الذين مازالوا أحياء حتى يكون مرشدًا وموجهًا للطفل، هذا ولا يسـمى الطفـل باسـم أبيـه، والميثاق الختاني مع الله ينطبق على الذكور فقط وليس على الإناث، لكن العهـد مع الله لا يستثني الإناث، وفي كل الحالات للذكور والإنـاث يـتم الإعـلان عـن المولود في الكنيس.

يبدأ الطفل اليهودي التعليم في سن مبكرة في العادة ويتوقع منه دراسة التـوراة وأمور الديانة اليهودية، وحينما يبلغ الثالثة عشر يعتبر يافعًا وعليـه أن يقـوم

بجميع الواجبات الدينية كما الكبار فقد أصبح مسئولاً حسب الشريعة، وحينما يبلغ هذه السن فإن متوقع منه أن يقرأ التوراة والصلوات والأدعية أمام الكبار وقد يقود الصلوات الجماعية ويتم ذلك أحيانًا ضمن حفلة سارة قد يتخللها الرقص والغناء، كان نوع هذا الاحتفال يتم في الماضي للذكور فقط، في النصف الثاني من القرن العشرين صار يحتفل أيضًا ببلوغ الإناث، كما أنه كان محظورًا على النساء حضور الصلوات مع الرجال وبعد ذلك صار مسموحًا، ما زالت اليهودية الأرثوذكسية تمنع اختلاط الجنسين في الصلوات وتحرم قراءة الأنثى للتوراة بصوت عالي، لكن يسمح لهن بذلك بطرق أخرى وتُعتبر الفتاة حينما تبلغ الثانية عشرة بالغة كون الأنثى تكتمل أنوثتها مبكرًا قبل الذكر.

الزواج عند اليهود مقدس وبركة واستقرار، وهو ليس للإنجاب فقد ذكر التلمود بأن من لم يكن له زوجة ليس برجل حقيقي، لأن الرجل في هذه الحالة يعيش بلا فرح أو بهجة أو سرور، وبلا توراة وبلا حماية أو سلام، ويقول التلمود أيضًا، إن الرغبة الجنسية ليست عارًا لكنها خطرًا، ولذا يجب أن تنظم من خلال الزواج، وفي الديانة اليهودية من يفشل في الإنجاب بسبب إنكاره للدافع الجنسي فهو كمن أراق الدم وساهم في إخراج حضور الله من إسرائيل.

هذا، وإن تعدد الزوجات مسموح به في الديانة اليهودية إلا أن الشائع هو الزوجة الواحدة كون أن الحاخامات قد منعوا تعدد الزوجات لتلافي انتقاد علماء الدين المسيحي الذين لا يبيحون إلا بزوجة واحدة للرجل، والطلاق مسموح في الديانة اليهودية والرجل هو الذي يطلق ويمكن للزوجة أن تلجأ للمحكمة لطلب الطلاق.

يتم الزواج عند اليهود بعمل عقد زواج وبشاهدين ليس لهما علاقة قرابة بالزوجين، ويكون الزواج باحتفال بسيط يمكن أن يقام في أي مكان وليس بالضرورة أن يكون داخل الكنيس، ويمكن أن يقوم به حاخام أو غير حاخام، وفي العادة يشتمل الحفل على دعائين لحمد الله وشكره على مؤسسة الزواج، يتم "ختم" وتأكيد الصفقة بالرشف المشترك بين الخاطبين من كأس من الخمر كما هي العادة في عدد من الطقوس اليهودية، ويعمل العريس على تقديم وثيقة الزواج

للعروس لكي تضمن حقوقها في حياته أو في مماته، وبعد حفل تبادل الخواتم بين العروسين يتم قراءة عقد الزواج علنًا، هذا ويصح للزوجة اليهودية العمل أو أن تدير الأعمال.

بالنسبة لطهارة المرأة الحائض حسب الديانة اليهودية فهي تُشبه كما عند المسلمين إلى حد ما، وكذلك التعامل بين أفراد الأسرة وخصوصًا معاملة كبار السن، فهناك مقولة مشهورة في التلمود تنسب إلي الحاخام يهودا بن تيما عن سن الإنسان:

في الخامسة (يكون الطفل مستعدًا) لدراسة التوراة.

في الثالثة عشرة (مسؤولية الالتزام) للأوامر والفروض.

في الخامسة عشرة للتلمود.

في الثامنة عشرة للزواج.

في العشرين للكسب.

في الثلاثين لبلوغ أشده.

في الأربعين لبلوغ الفهم.

في الخمسين لإسداء المشورة.

في الستين للعمر المتقدم.

في السبعين لدخول الشيخوخة.

في الثمانين يعكس العمر القوة.

في التسعين للانحناء من جراء ثقل السنين.

في المائة كأن المرء مات وذهب منسحبًا من العالم.

في الديانة اليهودية واجب الإنسان اتباع أوامر الله انطلاقًا من محبته لله، وليس بسبب إغراء الجزاء أو خوف العذاب، وأن الله سيقضي على الموت يومًا ما "سيدمر الموت إلى الأبد"، إن ربي الله سيمسح الدموع عن كل الوجوه (إشعياء ١٥: ٨"، لا تركز اليهودية على الجنة والنار لأن من واجب الإنسان اتباع أوامر الله وحسب، لقد اختلف حكماء التلمود حول بعض المسائل، وقالوا إن من الأفضل

أن يُكرس الإنسان نفسه لتحسين هذا العالم وتحسين سلوكه فيه، وعند الموت يُلقن الذاهب إلى الموت بعبارة وحدانية الله، وتعتبر الجثة قبل غسلها نجسة ومن يلمسها يعتبر نجسًا، ويجب أن يُغسَّل الميت ويُكفَّن بقماش أبيض بسيط ويُسرع في دفنه، وإن مصاحبة الجثة إلى المثوى الأخير أمر هام عند اليهود.

خلال العبور السريع على أساسيات الثقافة الدينية اليهودية على ما للدين من أثر على السلوك العام في الحياة اليومية للناس، لفت نظري أن اليهودية الأرثوذكسية التي تعتبر أحد مراسي الصهيونية كونها تزرع في النشئ الإسرائيلي بأن اليهودي هو فقط من يولد من أم يهودية، فهي بهذا تزرع العنصرية التي قادت إلى جعل اليهود يتعالون على البشر، ويصبغون كل تمني لهم أو حلم على أنه متصل بالله وهو إرادة إلهية مقدسة لأنهم الأعلون! كما أن حتى التيمن بإعطاء المواليد الجديدة أسماء الأقارب المتوفين أو كبار السن فقط فهو بعينه العمل على إبقاء التميز الذي يصبغونه على أنفسهم من دون خلق الله.

من هنا لا نستبعد أن يأتي الصهاينة بأي شيء في كل يوم وينسبونه إلى الدين وإلى الرب الذي فضَّلهم على العالمين، وعليه فهم لن يكتفوا بما حققوه من احتلال فلسطين، وإنما أطماعهم مجالها الكرة الأرضية كلها، بدء بمن يحيطون بإسرائيل الصهيونية المدللة، أليست إسرائيل هي الدولة الوحيدة في العالم التي تعترف بها الدول العظمى العلمانية رغم أن إسرائيل دولة تقوم على اليهودية المحرفة في زمن تُحارب فيه الدول العظمى جميع الدول التي تحكم بالدين ما عدا إسرائيل التي تبدو أحيانا دينية لا ديمقراطية، أليس هذا مفارقة! وتجاهل لحقوق الإنسان، هل الدول الديمقراطية العظمى تبيح دساتيرها أن تتجاهل فئة معينة من مجتمعاتها وتحرمها من حقوق المواطنة الكاملة! إن إسرائيل تعتبر كل يهودي حتى ولو لم يعش يومًا واحدًا في إسرائيل، وحدث أن قدم إليها ووطأت قدماه أرض المطار في إسرائيل، تعتبره مواطنًا إسرائيليًا ولا يحق طرده من البلاد تحت أي مبرر، في المقابل ليس للفلسطيني المقيم في إسرائيل المولود أصلاً في

فلسطين، ويحمل الجنسية الإسرائيلية، فإن إسرائيل لا تعتبره مواطنًا كامل الأهلية ويحق للدولة إسقاط جنسيته وطرده خارج البلاد في ظروف معينة!

في مقالة بصحيفة الاتحاد الإماراتية للدكتور عبد الوهاب المسيري، قال فيها: "تتسم العقائد الفاشية بإضفاء القداسة لا على أفراد أو جماعات بشرية بعينها فحسب، بل وعلى كل ما يحيط بهؤلاء الأفراد أو تلك الجماعات، وكل ما يَمُتُ إليهم بصلة، بدءًا من الأرض وحدود الدولة وعَلَمَها وزعيمها، وانتهاء بالطعام الذي يتناوله من ينتمي إلى هذه الأرض والزي الذي يرتديه والقبر الذي يُدفن فيه، وتصوراته وأوهامه عن نفسه وعن الآخرين، ويرجع هذا إلى النزعة الحلولية في العقائد الفاشية بوجه عام، إذ يرى الإنسان الفاشي أن الإله يحل في أرض بعينها وشعب بعينه بل ويتوحَّد بهما، مما يخلع القداسة عليهما، وشيئًا فشيئًا يتراجع دور الإله حسب هذا التصور، ويُصبح المصدر المطلق للقداسة هو الأرض والشعب".

كل مولود لأمّ يهودية فهو يهودي، وكل من يتحوَّل إلى الديانة اليهودية بالشكل السليم واستنادًا على عقيدة يهودية صحيحة فهو يهودي أيضًا، و مؤخرًا أصبح يصح تسمية المولود لأب يهودي وأمّ غير يهودية من بعض الطوائف اليهودية يهوديًا إذا ترعرع المولود حسب الضوابط والأعراف اليهودية، ويُعتبر الشخص منهم يهوديًا وإن لم يمارس الطقوس والشعائر اليهودية، وتنطبق التسمية أيضًا على اليهودي الذي لا يعترف بالعقائد اليهودية ويضرب بها عرض الحائط، أما إذا اختار اليهودي ديانة أخرى يعتنقها كالمسيحية أو البوذية أو غيرهما فهذا يخرج عن ملة اليهود ويصبح مرتدًا.

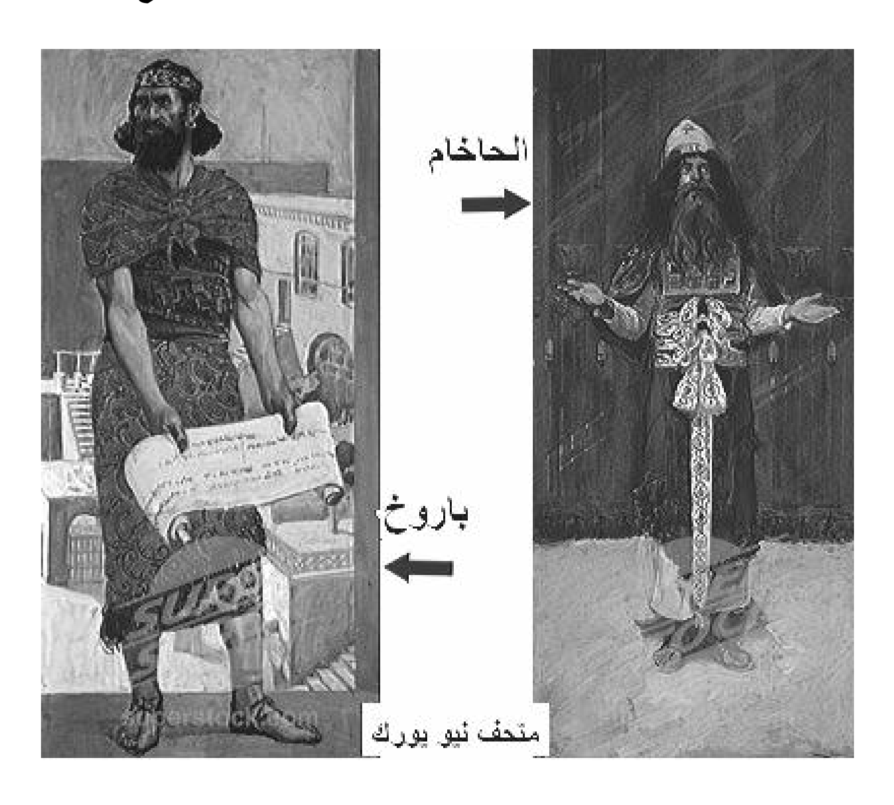
يدعي اليهود أن موسى عليه السلام ألقى التلمود على بني إسرائيل فوق طور سيناء وحفظه عند هارون ثم تلقاه من هارون يوشع ثم إليعازر وهلم جرة، حتى وصل الحاخام يهوذا حيث وضع التلمود بصورته الحالية في القرن الثاني قبل الميلاد، ويُعطي اليهود التلمود أهمية كبرى لدرجة أنهم يعتبرونه الكتاب الثاني

والمصدر الثاني للتشريع حتى أنهم يقولون "إنه من يقرأ التوراة بـدون المشـنا والجمارة فليس له إله"، والمشناة والجمارة هما جزءا التلمود وكلمة التلمود كلمة عبرية تعني الشريعة الشفوية والتعاليم.

يقول التلمود :

"- إن اليهودي أحب إلى الله من الملائكة، فالذي يصفع اليهـودي كمـن يصـفع العناية الإلهية سواء بسواء.

- اليهودي من جوهر الله كما أن الولد من جوهر أبيه.
- ولولا اليهود لارتفعت البركة من الأرض واحتجبت الشمس وانقطع المطر."



لهذا لا عجب إذا علمنا أن الأصولية اليهودية التـي مـن المفتـرض أن تكـون توحيدية روحية سماوية مُنزَّهة عن العنصرية، نجدها وقد رسخت عند الصهيوني اليهودي كي يظل منعزلاً عن البشر الآخرين بخلط الحلولية والتوحيدية وجعلهمـا

شيئًا واحدًا، لقد ركزت الصهيونية أكثر على الجانب الحلولي وجعلت مفاهيم مثل شعب الله المختار والأغيار وأرض إسرائيل مُقدسة رغم أنها شئون دنيوية بمعنى أنه لا يجوز التشكيك فيها، وتستمر الحلولية حتى تصل إلى جثث الموتى من اليهود وحتى المدافن التي تخصص لليهود، ومعنى الحلولية هي أن الله يحل في البشر والأشياء فيصبح هؤلاء البشر لهم قدسية وكذلك أشياؤهم، وهذا يعني أنهم أطلقوا على أنفسهم شعب الله المختار، وأن أرض كنعان هي ميراث من الله لهم، وهناك بعض الطقوس التي تجعل الناس يطلبون الغفران من جثة الميت وهو ما ظل اليهود الغربيون "الاشكيناز" يفعلونه حتى سنة ١٨٨٧م، حين أوقفها الحاخام الأكبر في انجلترا، كما أن يهود السفارديم يلقون عملات في الجهات الأربع بوصفها هدية أو رشوة للأرواح الشريرة، ومن الطقوس المميزة لدى يهود ليبيا أنه إذا كانت أرملة الميت حبلى فإنهم يرفعون النعش وتمر الأرملة تحته حتى تُبين أن الميت هو أبو الجنين الذي تحمله، كما أن مدافن الموتى عند اليهود تسمى بيت الأحياء أو بيت الأزلية، ويعتبرون أن المقبرة أكثر قداسة من المكان الذي يعبدون الله فيه، ولزيادة التقديس فإن العلماء والخامات والشخصيات البارزة من اليهود لهم مدافن خاصة لأنهم لا يتساوون مع الآخرين حتى عند الموت.

وجرت العادة خارج فلسطين على أن يُرش على رأس الميت تراب يُؤتى به خصيصًا من فلسطين، كما اهتمت الحكومة الإسرائيلية اهتمامًا بالغًا بنقل رُفات معظم الزعماء الصهاينة فور إعلان دولة "إسرائيل"، حتى تكتمل "قداستهم" في المثوى الأخير على "الأرض المقدسة"! ومن المعروف أنه لا يجوز إخراج جثة اليهودي المدفونة من الأرض إلا لإعادة دفنها في مدافن العائلة أو في أرض "إسرائيل"، ويُقال في التراث الديني الشعبي في التلمود إن جثة الميت خارج فلسطين تزحف تحت الأرض بعد دفنها حتى تصل إلى الأرض المقدّسة وتتوحد معها." (عبد الوهاب المسيري)

وهنا لا يستغرب المرء أن تكون الصهيونية اليهودية بهذا التشريع الديني بجعل الله واليهودي والأرض شيئًا واحدًا، لا نستغرب محاولاتهم على مدى التاريخ للعودة إلى القدس ما دامت جثة اليهودي الميت تزحف تحت الأرض لكي تصل إلى أرض إسرائيل (فلسطين)، إذن المشكلة بين إسرائيل والعرب ليست معارك عسكرية أو هدم بيوت أو طرد الناس من أملاكهم أو مشكلة مهاجرين يهود قادمين من هذه الجهة أو تلك، إنما هي مشكلة اليهودية كديانة وتشريع وكفلسفة.

هل الصهيوني إنسان يعيش في قلق دائم كونه لا يستطيع أن يتعايش مع الآخرين أم إنه يحتقر الآخرين ويتعالى عليهم، فإذا بدا ذليلاً في بعض الظروف إنما لأنه ينظر لمن يذلوه على أنهم لا يعرفون قيمته المقدسة.. هو يظن هكذا! وهو يتخيل نفسه إله أو رب يمهل ولا يهمل، وحينما تتاح له الفرصة فإنه يوقع على الآخرين العقاب لأن عقاب الرب شديد أوَلَيسَ أن الله يحل فيه! اليهودي مسكون بالحلولية! هل اليهودي منذ فجر التاريخ لم يستطع أن يتناغم مع الآخرين، أن يعيش بينهم معزولاً أو أنه يشغل نفسه، يظلمها ولو بإشباعها بمليء الفراغات عن طريق شيء محسوس، باعتبار أن لولا الشعور ما كان إحساس اللاشعور.

الفصل الخامس عشر

قفـزة في الهــواء!

منذ المؤتمر الصهيوني الأول عام ١٨٩٧م وما عقد بعده من مؤتمرات صهيونية، تبنت الحركة الصهيونية عدة مبادىء، مثل:

- قومية يهودية (الصهيونية).
- جعل فلسطين أرض إسرائيل.
- تجميع اليهود في فلسطين.
- علمانية الدولة.
- الثقافة المشتركة لليهود.
- ومسميات لمباديء أخرى.

عملت الصهيونية جاهدة على تحقيق تلك المبادئ ومرادفاتها، واستطاعت أن تُقيم الدولة الصهيونية على تراب فلسطين، واستطاعت أن تجلب ملايين اليهود إلى الدولة الصهيونية! لا شك بأن عوامل نجاح الصهيونية في إقامة الدولة اليهودية كانت متوفرة كما هي اليوم، بسبب ما تُمثله الصهيونية من أسباب نفوذ متعددة في المجتمعات وفي العالم.

لكن الدولة الإسرائيلية لو احتكمنا للمنطق لم تكن ولادتها طبيعية، لأن الظروف التي تم فيها الحمل لم تكن على أساس زواج شرعي وحمل طبيعي، لا يختلف أحد على أن اليهود موجودون في هذا العالم ووجودهم في دول كثيرة وسيطرتهم على المال والإعلام هو ما أوجد إسرائيل، وهذا متفق عليه ولا يشك به أحد، من هنا نجد أن وجود الجاليات اليهودية في العالم هو ما أوجد إسرائيل وهذا صحيح، ولكن إذا اختفت الجاليات اليهودية أو تناقصت من هذا العالم وخصوصًا من المجتمعات الغنية في الدول المتنفذة، فإن ذلك سيؤدي إلى اختفاء إسرائيل، كيف؟

الحركة الصهيونية ممثلة بإسرائيل الآن تضع أولى اهتماماتها، بأن تجلب أكبر قدر من عدد يهود العالم إلى إسرائيل، لأن رافد الهجرة هو شريان الحياة لزيادة عدد السكان، لتأكيد مقومات دولة تفتقر إلى التوازن الديمغرافي مع من يتواجد فيها من أعراق أخرى، وكذلك مع من حولها من ملايين البشر من العرب والمسلمين.

لو افترضنا أن إسرائيل نجحت في استقطاب يهود العالم، وتم إحضـارهم جميعًـا إلى إسرائيل (فلسطين)، هل تواجد غالبية يهود العالم في إسرائيل يعوض النفـوذ الصهيوني اليهودي العالمي الذي أوجد إسرائيل وجعلها تستمر حتى يومنا هـذا؟ المنطق يقول لا!

من هنا نجد أن البذرة التي نبتت وأصبحت إسرائيل أثمـرت بـذور فنـاء هـذه الإسرائيل. دعنا نتخيل بأن لا وجود لليهود خارج إسرائيل، ولا وجود لثقل المال اليهودي خارج إسرائيل بافتراض أن فاعلية اليهودية العالمية انتقلت إلى إسرائيل نفسها! هذا يعني بأن النفوذ الإسرائيلي سيضعف على وتيرة كلما تنـاقص عـدد اليهود في الخارج كلما خف نفوذهم الداعم لإسرائيل من قِبل المجتمعـات التـي يغادرونها، في مقابل عوامل أخرى لِنَقُل إنها ثانوية حتى هذا الوقت مثل التـأثير العربي القومي - والإسلامي الذي ما زال مغيبًا تقريبًا، أو كازدياد النفوذ العربي في المجتمعات الغربية لأكثر من سبب، فالنقص عند الصهاينة هو زيـادة عنـد أعدائهم، والضعف عندهم هو قوة عند العرب.

بناء على إحصائيات معهد التخطيط في إسرائيل، فإن الإحصائيات تُشير مثلاً إلى أن عدد اليهود في العالم خارج إسرائيل في سنة ٢٠٠٤م كـان قـد بلـغ ٩,١٢ مليون نسمة، وعددهم في سنة ٢٠٠٧م قد بلغ ٧,٧٦ مليون نسمة، وهذا يـدل من ناحية أخرى إلى تزايد عدد اليهود في إسرائيل، لكن نسـبة القـادمين إلـى إسرائيل تقل فقد بلغ عدد معدل القادمين الجدد إلى إسرائيل ٢٤ ألف نسمة، إذن أين ذهب الباقون! وكم معدل المغادرين من إسرائيل؟

تشير نفس الإحصائية إلى أن هناك زيادة في معدلات الهجرة المعاكسـة بسـبب الزواج المختلط والاندماج في المجتمعات الأخرى، هذا عوضًا على أن الزيادة في عدد السكان عند الفلسطينيين الذين يحملون الجنسية الإسرائيلية أو عند أهـالي الضفة والقطاع هي أعلى بكثير من نسبة زيادة عدد السكان في إسـرائيل مـن اليهود، فلو أخذنا عامل نقص عدد السكان اليهود في إسرائيل فإن هـذا يُعتبـر عاملاً سلبيًا أيضًا سيُعَجِّل مع الأيام حتى فـي الظـروف الطبيعيـة أن تتلاشـى

إسرائيل، هذا إذا لم تلعب الأسـباب والـدوافع الأخـرى عنـد أصـحاب الأرض الأصليين من الفلسطينيين والعرب إلى قلب المعادلة بحجم الصدام المباشـر مـع الدولة الصهيونية.

إن تناقص أعداد اليهود في دول العالم سيؤدي قطعًا إلى تراجع النفوذ اليهـودي في الحياة السياسية والاقتصادية لتلك الدول، مما يُقلل مستقبلاً كل أشكال الدعم، وستظل إسرائيل في خطر دائم! صحيح أن قدوم هـؤلاء اليهـود إلـى إسـرائيل سيكون له فاعلية في تقوية إسرائيل، لكنه لن يكون بحجم تطـور أمـة تعـدادها ٣٠٠ مليون نسمة تتململ وتتشكل ثقافيًا واقتصاديًا وسياسيًا وتتألم من الوجـود الصهيوني في القدس الشريف.

كما أن بروز الحركة الوطنية الفلسطينية كبديل، وتقويتها وخصوصيتها الإقليمية، ستظل العامل السلبي في حياة الدولة الصهيونية، وهذا رديف آخر فـي صـالح الفلسطينيين إضافة إلى رديف السلام لو تحقق شيئًا منه لكي يسترد الفلسطينيون والعرب التقاط أنفاسهم.

قال الداهية اليهودي الأمريكي، الدكتور "هنري كيسنجر" عن الوطنية الفلسطينية، إن أهم ما يواجه إسرائيل منذ قيامها هو مفاجأة وجود حركة وطنية فلسـطينية! يبدو أن زعماء الصهيونية كانوا حسـب نبـوءاتهم وتحريفـاتهم الأيديولوجيـة والإعلامية، يصدقون أنفسهم بأن من يعيشون غربي نهر الأردن من الفلسطينيين ليسوا شعبًا وإنما أفرادًا وجماعات لا ينتمون إلى فلسطين، ولذلك فمنذ مـا قبـل صدور وعد بلفور، كانت آلة الإعلام الصهيونية تردد مقولـة "شـعب بـلا أرض لأرض بلا شعب"، ويبدو أنهم صدقوا أنفسهم منذ ذلك الحين، إلى أن تفاجأوا بعد قيام إسرائيل بعنف المواجهة مع الحركة الوطنية الفلسطينية، التي راحت تتطـور بسرعة إلى أن أجبرت إسرائيل رسميًا أن تعترف بشعب اسمه الشعب الفلسطيني، ذلك بعد أن ظلت تُنكر وجوده كشعب، حتى أن الصهاينة ما زالوا يكابرون حتـى الساعة (٢٠١٠م) ويسمون الفلسطينيين الذين يحملـون الجنسـية الإسـرائيلية

بعرب إسرائيل، وهم بذلك ينكرون عليهم فلسطينيتهم متأثرين بالدعاية السابقة حينما كانوا يقولون لا يوجد شعب اسمه فلسطين.

هذا، وإن إجبار ثلاثة أرباع المليون من الفلسطينيين على ترك بيوتهم عام ١٩٤٨م، بسبب إقامة دولة إسرائيل وتزايدهم حتى أصبحوا ملايينًا من البشر قد خلق لإسرائيل معضلة وسيظل القنبلة الموقوتة، ولأكثر من سبب طبيعي فإنه يظل العامل الأكثر فاعلية مع تقلبات الأيام مهما قلنا عن فاعلية الكم المؤجلة بالنسبة لتميز الكيف كون لا يوجد سكون في حركة التاريخ.

البروفيسور "آفي شلايم" يهودي من أصل عراقي، يُجيد اللغتين العبرية والعربية ولغات أخرى، ويكتب في صحف كثيرة منها "جريدة الجارديان" البريطانية، ويعتبر من أكثر المثقفين تعمقًا في الصراع العربي الإسرائيلي، يقول البروفيسور "آفي شلايم في كتابه "السور الحديدي"، "بإن إسرائيل وقضية اللاجئين متلازمتان لا تُحل أحداهما إلا على حساب الأخرى".

لا شك بأن الصهيونية قد استخدمت بمهارة نظرية معاداة السامية استخدامًا أيديولوجيًا في الداخل، فشحنت المجتمع الإسرائيلي وخلقت منه بسبب هاجس الأمن جيشًا له شعب بعكس كل المجتمعات الأخرى، كما استخدمت معاداة السامية أيضًا في الخارج لتسويق مشروع الوطن القومي، ولهذا حققت في الداخل أهدافًا هامة، مثل إحياء اللغة العبرية والاستيلاء على الأراضي واستيطانها، وهي تقول للدنيا بإنها واحة الديمقراطية في الشرق الأوسط، وهي في الحقيقة تقوم على الظلم واغتصاب أملاك الغير،

إن الديمقراطية والعنصرية لا يلتقيان، وأسباب وجود إسرائيل تحمل في طياتها أسباب زوالها، وسيبقى التوازن قائمًا بين أسباب وجودها وأسباب زوالها بناء على الإيقاع الحالي إلى أن تثقل أسباب أخرى إحدى كفتي الميزان، سواء هي الأسباب العربية السلبية أو الأسباب الإيجابية على مدى السنين القادمة!

الطاقة والفعل:

حرصت الأمم في عصر ثورة تكنولوجيا المعلومات على التركيز على تنشئة أجيالها النشأة السياسية والأيديولوجية التي تبقي اللحمة في المجتمع بسبب شدة الغزو الأجنبي الإعلامي القادر على تمرير كل شيء للمجتمع المحلي، فالتنشئة السياسية هي العملية التي تجعل الفرد في مجتمعه يتلقى الاتجاهات والمشاعر تجاه الخط السياسي الذي يسير فيه كيان دولته، فعلى سبيل المثال.. في الكتب المدرسية الأمريكية وفي معظم الكتب المدرسية في الدول الأوروبية، هناك تبرئة كاملة لإسرائيل، وفي المقابل هناك تُهم وإيحاءات غير سارة للعرب بصفة عامة، لهذا يصح القول بإن التنشئة السياسية هي نقل ثقافة الخطاب السياسي السائد في المجتمع بكل ما يتضمنه من مُثُل ومعتقد ومقاييس إلى الأجيال الجديدة في الأمة، البعض يُسمي هذه العملية هي التوجيه المعنوي للفرد أو العنصر، وآخرين يُطلقون عليها التوجيه والإرشاد، والدعوة والفكر، وأيًا كانت التسمية فالمعنى واحد هو التوجيه السياسي، هذا إذا كان لنا اهتمام كعرب، ونود معالجة الخسارة الفادحة التي جعلتنا لعبة ومطية للأمم الأخرى، بل ومكنت اليهود الصهاينة من إنشاء وطن لهم عنوة في قلب الوطن العربي واتخذوا من القدس الشريف عاصمة لهم.

من ثمار وأهداف التنشئة السياسية هي أنها تضمن استمرار النهج في المجتمع، وتزرع روح التضامن والولاء للمجتمع أيضًا دون غيره، وتبقي على القيم الأخلاقية والوطنية والقومية، وكذلك تحمي الأفراد من غزو عقولهم من قِبل قيم أخرى، لا شك بأن عملية التنشئة السياسية هي عملية مستمرة لا تقتصر فقط على التلاميذ الصغار من خلال الكتب المدرسية، هي عملية دائمة لكل الأجيال في المجتمع عبر مراحل الحياة المختلفة، فعوضًا أنها تُعطى في المدارس فهي موجودة أيضًا في دور العبادة وفي الفن وفي دور الثقافة، وهي دائمة بطريقة أو بأخرى عبر إعلام المجتمع، لذلك قد ترى شخصًا ما من هذا المجتمع، وترى شخصًا آخر من مجتمع دولة أخرى، تراهما يتشابهان في أمور كثيرة من ناحية

الشكل والمظهر والذوق الحضاري العام، وربما هما يعودان أيضًا إلى عرق بشري وأصول واحدة، وقد يتحدثان نفس اللغة، إلا أن ما بداخلهما من مشاعر وقيم وفضائل ومعايير وانتماء وولاء لا تتساوى!

من هنا عرفَتْ الصهيونية مبكرًا، كيف تسعى إلى كل يهودي في العالم وتجنده بطريقة ممنهجة، قالت لليهودي الأرثوذكسي لكي تنال الثواب من الرب، هيا لكي تقيم معنا دولة الله على أرض الميعاد، وقالت لليهودي العلماني هيا لكي تتحرر من قيود العبودية والتفرقة العنصرية ومعاداة السامية، وأقنعت من هم ما بين النقيضين من الطوائف الأخرى بنسج منهج تعبوي بصور إرشادية أخرى، وصار الجميع موالين ويخدمون الفكرة الصهيونية ومشروع الدولة اليهودية إلى أن أقيمت دولة إسرائيل في النهاية.

في سنة ١٩٩٥م زرت قطاع غزة (الكاتب) بعد دخول السلطة الوطنية الفلسطينية إلى غزة بعام واحد، وأمضيت أجازة سعدت بها بلقاء من تبقى أحياء من الأهل وزرت أماكن طفولتي، حينما انتهت الزيارة، في الطائرة التي غادرت مطار بن جوريون الإسرائيلي، جلستْ في المقعد المحاذي لمقعدي في وسط الطائرة خلال العودة إلى البلد الذي أقيم فيه فتاة في عمر أبنائي، مظهرها العام يوحي بأنها أوروبية أو أمريكية، ولما كانت الرحلة طويلة فكان لا بد أن يترك بعض ركاب الطائرة مقاعدهم أحيانًا، فيقومون من المقاعد لقضاء حاجياتهم أو لأجل تنشيط الدورة الدموية في الأجساد المعتقلة في مقعد الطائرة خلال الساعات الطويلة، وحيث أن مقاعد الطائرة عادة ما تكون متراصة والممرات ضيقة، وبعض الأشخاص لا بد أن يستأذنوا من يجلس بجانبهم لأجل أن يستطيعوا الخروج من مقاعدهم إلى الممر العام في الطائرة، فقد حدث أن الفتاة التي كانت تجلس بجانبي تركت مقعدها عدة مرات ثم كانت تعود، وكان عليَّ في كل مرة كانت الفتاة تترك فيها مقعدها أو تعود إليه أن أقف وأسهل مرورها لكي تأخذ مكانها في مقعدها ثانية، بين استئذانها لي وخروجها تاركة المقعد ثم عودتها والاستئذان مني ثانية، صار هناك نوع من التعارف، وتم تبادل كلمات أخرى أكثر من الاستئذان والشكر،

ثم تطور الأمر ودفعني فضولي أن أتجاوز تلك الكلمات والعبارات الروتينية، ومـــا دامت الرحلة طويلة فكان لا بد أن يُعبِّر الإنسان عن ضجره بأي شيء، فشـــدني الفضول وتجرأت وسألت الفتاة:

* هل أنتِ إسرائيلية؟

- لا بل كندية.

* هل أنتِ وحيدة في هذه الرحلة أم هناك أحد يجلس في مكان ما بالطائرة؟

- وحدي.

* عفوًا.. أنا في سن والدك أو أكبر فليس هناك حرج لو سألتك، كم عمرك؟

- ١٩ سنة وشهور قليلة.

* ماذا كنتِ تفعلين في إسرائيل؟

- كنت أزور إحدى العائلات في أحد الكيبوتسات (المستوطنات الزراعية).

* هل أقمتِ كل الوقت بالفندق؟

- قلتُ لك عند العائلة.

* ما علاقتك بتلك العائلة قبل حضورك إلى إسرائيل؟

- لا شيء إلا أن المنظمة رتبت لي هذه الزيارة.

* هل أنتِ يهودية؟!

- نعم.

* ماذا كنتِ تفعلين خلال الشهر الذي أمضيتيه في إسرائيل؟

- كنت أقوم بعمل تطوعي في الكيبوتس.

* هل لك أسرة في كندا؟

- أجل.. والداي، ونحن نُقيم في مدينة تورنتو.

* هل أنت مولودة في إسرائيل؟

- لا. أنا مولودة في كندا.

* ووالداك؟

- ووالداي أيضًا، وكل أقاربنا مولودون في كندا.

* ماذا تعني لكِ إسرائيل؟

- كل شيء.

* ماذا تعنين بكل شيء؟!

- أنني يجب أن أقف بجانبها.

* لكنك لم تولدي فيها، وحتى والديك لم يولدا هناك!

- حتى ولو كان ذلك.

* اسمعي هذه المزحة وأرجوك أن تُجيبي بصراحة! لو أن حربًا قد اندلعت بين كندا وإسرائيل، وكان عليك بأن تكوني مجندة في أحد الجيشين وأن عليك تحاربي فمع من تحاربين؟

- مع إسرائيل طبعًا.

* لكنك لم تولدي في إسرائيل ولم تعيشي فيها!

- حتى لو كان ذلك فيجب أن أقف بجانب إسرائيل، تعلمنا هذا!

بعد ذلك الحوار البسيط، لم أجد ما أسأل الفتاة عنه وسكت، ولم يعد كلانا للحديث ثانية ولم أذكر أنها غادرت مقعدها واستأذنتني بعد ذلك، وربما هي أيضًا أدركت أو اكتشفت بأنني لم أكن مسرورًا برأيها، لا شك بأن ذلك الحديث البسيط مع فتاة من الجيل الجديد قد عنى لي الكثير، وجعلني وأنا في طائرة تحلق في تلك اللحظات على ارتفاع سبع وعشرين ألف قدم عن سطح الأرض أحلق على أقصى ارتفاع يمكن أن يسمح به الخيال الغاضب على تخلف مجتمعنا العربي عن توجيه الأجيال التوجيه الصحيح.

لا شك بأن الكتب المدرسية تُقدم الغرض من التنشئة بطريقة منظمة وسلسلة وسهلة ومغرية، فهي تقدمها من خلال المعلومات الدراسية التخصصية التي تعني طالب العلم لكي يستطيع أن يقوم بدور في حياته مستقبلاً لكي يعيش بالطريقة والمهنة والأسلوب الذي يقبل به، كما أن بعض العلوم مثل التاريخ أو العلوم الاجتماعية عادة ما تدَّعي الموضوعية، وهي تعبر إلى عقل الطالب ومعها القصد من التوجيه السياسي كأنها حقائق لا تناقش، الأهم من ذلك فإن الكتب المدرسية

تُخاطب عقل الطالب الذي ليس لديه دراية بأمور أخرى بسبب صغر السن، فهو من هذه الناحية صفحة بيضاء، ومواضيع الكتب المدرسية هي أول ما تحتل فراغات تلك الصفحة ومع الأيام يُزاد عليها، لهذا نجد الشباب في المجتمعات عادة ما يكونون الأكثر حماسًا وتعصبًا في القضايا السياسية، أو الالتفاف حول الزعماء الذين ينادون بما عند هؤلاء الشباب مما زرعته الكتب المدرسية من مباديء وقيم.

لهذا، ماذا يتوقع أن يكون عليه الجيل الأمريكي والأوروبي مثلاً الذي تحوي كتبه المدرسية عن الدولة الصهيونية، بأنها دولة لليهود الذين أبعدوا عن وطنهم آلاف السنين، وأن تلك الأرض توراتيًا هي أرض وهبها الله لهم لكي يُقيموا عليها دولة الله على الأرض، وأن هؤلاء الصهاينة منذ أن انشأوا دولتهم عام ١٩٤٨م صنعوا المعجزات على تلك الأرض، ويغيب عن تلك الكتب المدرسية طبعًا تاريخ الفلسطينيين، ويَغيب أو يُغيَّب أن فلسطين لم تكن خالية من أصحابها منذ ما قبل قدوم سيدنا إبراهيم إلى تلك البلاد وحتى ١٩٤٨م، كما أن تلك الكتب لا تُشير إلى ما عاناه الفلسطينيون على مدى ما ينيف عن ستين عامًا من نكبات وويلات وآلام وتشريد وتيه وافتقار إلى أبسط الحقوق الإنسانية التي ذكرتها الشرائع والقوانين والدساتير البشرية، هذا عوضًا عن التزييف الذي تختزله الكتب المدرسية في بلاد الغرب عمومًا حينما تُبَسِّط ما حدث في فلسطين على أنه لا يعدو عن قرار دولي بتقسيم فلسطين، جزء أصبح دولة مستقلة حرة هي إسرائيل، وآخر تم ضمه للأردن، وأن العرب يودون أن يغرقوا دولة اليهود في البحر، ولنا أن نتخيل كبر المعنى حينما تقول بعض الكتب، بإنه منذ أن أعلن قيام دولة لليهود، فإن خمس دول عربية أعلنت الحرب على الدولة الوليدة.

وتقول أيضًا كتبهم المدرسية للنشيء الجديد عن حروب إسرائيل ضد العرب، بأن حرب ١٩٤٨م كانت حرب دفاعية عن استقلال الدولة اليهودية، وحرب إسرائيل ضد مصر عام ١٩٥٦م بأنها كانت حربًا وقائية لأن مصر لا تسمح للسفن الإسرائيلية ولا للسفن التي تحمل بضائع إسرائيلية بالمرور عبر قناة السويس،

وأن حرب عام ١٩٦٧م ضد مصر كانت بسبب أن مصر قد أغلقت المنفذ الوحيد لإسرائيل إلى البحر الأحمر.

باحتواء الكتب المدرسية للمجتمعات الغربية لمثل ما سبق من إيحاءات وتضليل وتشويش وتجاهل لكل ما حدث للفلسطينيين على أيدي الصهيونية والدول المساندة، فإنها تجعل من الطالب الفاعل العادي أو القيادي في مجتمعه مستقبلاً، متحيزًا للصهيونية بصفة عامة، وبهذا تُكرس تلك الكتب صورة سلبية عن العرب.

من هنا، فإن الأمر يدعو إلى الانتباه، والعمل على إصلاح الوضع القائم في المنظور الغربي حتى يستطيع العرب أن يفرضوا صورة موضوعية متوازية مع الزيف الذي تقتنع به الصهيونية الآخرين عن القضية الفلسطينية، وهو ما يتوجب على الأقل العمل على إطلاق الطاقات الكامنة عند الأفراد في المجتمع العربي، وجعلها توجد حقائق الإنتاج على أرضها، لكي تجعل العالم يحترم العرب ويحترم قضاياهم، وبدافع المصلحة التي لا يعرف الغرب سواها، فإنه يمكن إجبارهم على تغيير مناهج التعليم لكي تُصبح منطقية ومتوازنة، وليس بالتسول والاستجداء اللذان لم يخدما قضية منذ أن قامت إسرائيل، وهذا لن يتم إلا إذا أطلقت الطاقات الكامنة عند الأفراد في البيئة العربية، وهو ما لن يتم إلا إذا تم تهيئة الإنسان العربي لكي يظهر إنجازاته أو كما يتاح للعربي المهاجر إلى البلاد الأجنبية لكي يُصبح فعالاً منتجًا، ودور واضعي مناهج التعليم في البلاد العربية هام في المساهمة بالإيحاء للنشيء الجديد أن يكبر ويصبح منتجًا لا مُهملاً.

لقد قيل إن الشيء يُعرَّف بنقيضه! وهل هناك أدل من هذا لكي لا يشغلنا شيء عن المواجهة مع الدولة الصهيونية، إن هذا يقودنا بالطبع للتعرف على إمكانيات المواجهة وأدوات تنشيطها وتحفيزها وجعلها واقعًا في حياتنا.

لا نستطيع أن نُغمض عيوننا ونتجاهل فورة القرن الحادي والعشرين التي أتت بزخم معلوماتي هائل، ما كان له أن يُغطي الكرة الأرضية لو لم يكن هناك تفوق

حضاري ما في أحد زوايا الكرة الأرضية، فكان كالغيمة يزحف في سماء الكرة الأرضية ولم يتخفى حتى بالتسمية فجاء متحديًا وقال إنه العولمة.

إن الإمكانيات الاقتصادية والعلمية التي تفوقت على طاقة دولة واحدة أو أمة واحدة، هو الذي جعل ظاهرة العولمة تنتشر وتفرض نفسها وتخترق حدود الدول وتصل إلى العقول دون أن يستطيع الحاكم المحلي أن يتحكم فيها بعد أن عجز عن حجبها، إن قوة الاختراق العلمي والتقني الإلكتروني أصبحت أكثر فاعلية من الاختراق الفكري الذي كان السلاح الماضي في بدايات القرن العشرين، في الماضي كان يمكن أن يبقى الفكر خارج حدود الدول إلى حد ما، عدا ما يتناقله الركبان فرادى، وكان يظل محبوسًا في الكتب خلف الحدود التي تطيل مسافاتها بعد الدول والقارات عن بعضها، ولم يكن يُغير شيئًا قدوم عالم أو شخص إلى وطن الأم كان قد تعلم في الخارج في أرقى الجامعات ويمكن أن يصنع التغيير في وطنه، إن كثيرًا من الطلاب العرب مثلاً من مصر وسوريا والعراق وغيرها ذهبوا إلى أوروبا في القرن العشرين، وتعلموا وأصبحوا ذوي اختصاصات وعلماء، وحينما عادوا إلى بلادهم لم يصنعوا شيئًا.. لماذا؟ السبب لأن حتى العلم والثقافة والقدرة على إنجاز شيء يحتاج إلى بنية تحتية في المجتمع، مثل البنى التحتية للخدمات العامة والتطور والتحضر هو طاقة شعب أو أمة في النهاية، إذن كان لابد من وجود ذوق علمي في المجتمع وتنبه ورغبة وقناعة بأن أي شيء يعتمد على التغيير، وتلك هي البنية التحتية التي تتمثل في أفراد المجتمع الذين يرون أن حاجاتهم لا يمكن الحصول عليها إلا بتخطي تلك العقبة والتسلح بمعرفة جديدة.

لا يكفي مثلاً أن يحفظ الطالب في المدرسة أو الجامعة النصوص، إنما الأفضل أن يتعلم كيف يمكنه أن يفهمها أولاً، كان في إحدى الجامعات أستاذًا في كلية الهندسة، كان يقوم بتدريس مادة ميكانيكا الموائع "هيدروليك"، وهي مادة تعتمد على البحث والتجربة ثم البرهان، كان اللافت للنظر في طريقة الأستاذ حين تدريسه لتلك المادة، أن طريقته في التدريس كانت غير ما كان يتبعه غيره، عند تصحيح الامتحانات كان الأستاذ لا يُعطي الدرجة على الأجوبة النهائية، كثيرًا ما

كان يُعطي الدرجات العالية ليس لمن يأتون بالأجوبة الصحيحة بل للذين يُفكرون بطريقة أكاديمية صحيحة، في بعض الأحيان كان يُعطي درجــة النجــاح لطالــب استطاع أن يوجد حلاً واحدًا فقط من خمس أو ست أسئلة، تكون هي كل مســائل الامتحان، إن أعجبه أسلوب الطالب وهو يتعامل مع المسألة أو القضية العلميــة، فيقول الأستاذ لنفسه، "هذا الطالب يستحق أن يكون مهندسًا لأنــه يملــك العقــل الهندسي"، وفي أحايين أخرى كان لا يشفع لطالب آخر عمل ما عمل وأجاب على عدد لا باس به من الأسئلة بطريقة تقليدية، إلا إنه جعل الدكتور المصحح للامتحان يُعطيه درجة الرسوب في المادة كونه قد تعامل مع إحدى مسائل الامتحان بطريقة لا تدل أن لديه العقل الهندسي، وكان لا يجعل الطالب يحصل على شهادة التخرج إلا بعد أن يعيد السنة الدراسية ويضحى ذو عقل هندسي.

قضايا العلم والبحث كثيرة والاستدلال عليها يحتاج إلى الانفتــاح وخلــق البنيــة التحتية البحثية الاجتماعية التي أشرنا إليها، لهذا نجد أن المجتمعات المتطــورة أكثر لا تعرف الاستقرار أو الركود فهي في حركة فكرية دائمة، تهتم بكل جديــد، ولا تترك حجرًا على حجر، وتظل تقارن بين الشيء ونقيضه، وتعتصــر الأفكــار وتُخرجها على صورة مناهج تعليمية وبحثية، وتغرسها في المجتمــع، ويشــارك فيها كافة الأركان التي يقوم عليها المجتمع من علم اجتماع وفلسفة وعلم نفســي وديني ووطني، في إسرائيل.. رغم أن الصفوة التي تقود قد أتت من مجتمعــات متطورة بالفعل، فإن مناهج التعليم والتربية لا تغفل أحــدث الطــرق والوســائل العلمية والبحثية في تهيئة الفرد وتحفيزه وتشجيعه لكي يُظهر طاقاتــه بأقصــى حدودها الممكنة ويقدمها كفعل في مجتمعه.

إحدى المُدَرِسات الأمريكيات، ذهبت لكي تزور عدة دول في العالم بتكليــف مــن إحدى المناطق التعليمية في موطنها، كانت مهمتها أن تُلقي نظــرة علــى طُــرق التدريس في البلاد الأجنبية، وتعد تقريرًا للمنطقة التعليمية، فعسى أن يكون هناك ما يمكن به تطوير مناهج التعليم في أمريكا! منذ أن كُلِفَتْ تلك المُدرسة بالمهمة،

أعطت الموضوع الأهمية اللازمة وتفتق عقلها بأن تختار موضوع بحثهـا لكـي يكون تدريس الرسم للأطفال في البلاد التي ستزورها.

ذهبت أولاً إلى الصين ومن خلال القنوات الرسمية حصلت على إذن لزيارة إحدى المدارس الابتدائية، وفعلاً دخلت إحدى المدارس الابتدائيـة وطلبـت أن تحضـر درسًا نموذجيًا في الرسم، كان موضوع درس الرسم في ذلك اليوم هو رسم قطة، في الوقت المحدد دخلت مع مدرسة الفن (الرسم) الفصل وجلست على أحد المقاعد الخلفية، وراحت تنظر إلى ما كانت ترسمه مُدرسة الفن على السبورة، وصـارت تراقب ردود أفعال التلاميذ.

شرعت المدرسة أولاً في رسم القطة، رسمت دائرة كبيرة بالطباشير واعتبرتهـا جسم القطة، ومع تماس الدائرة الأولى رسمت دائرة أخرى أصغر كثيرًا على أحد الجوانب واعتبرتها رأس القطة، رسمت أعلى الدائرة الصغرى (الرأس) مثلثـين منفصلين قريبين من بعضهما متساويي الضلعين واعتبرتهما الأذنين للقطة، داخل الدائرة الصغرى رسمت ثلاث دوائر صغيرة كناية عن العينين والفم، ثـم قالـت للتلاميذ هيا ارسموا قطة! راحت المُدرسة الأمريكية تُراقب وتلحظ ما كان يفعـل تلاميذ الفصل، مر وقت الحصة فوجدت أن كل التلاميذ قد رسموا قطة واحدة مثل القطة التي رسمتها المدرسة على السبورة، كتبت المدرسة الزائرة ملاحظاتها في دفترها، وشكرت المدرسة الصينية وغادرت الصين.

لما وصلت إلى الهند فعلت مثلما فعلت في الصين وحضرت درسًا نموذجيًا لرسـم قطة، فوجدت أن التلاميذ الهنود قد رسم كل واحد منهم قطة واحدة مثلما رسـمت لهم المدرسة على السبورة، ونفس الشيء حدث حينمـا زارت مصـر وإيـران وغيرهما من أقطار العالم الثالث، وجدت التلاميذ أيضًا يرسم كل واحد قطة واحدة مثل القطة التي رسمت على السبورة.

حينما عادت إلى الولايات المتحدة الأمريكية، ذهبت إلى إحـدى المـدارس فـي الولاية التي تقيم فيها، وحضرت درسًا للرسم أيضًا، في الفصل رسمت المدرسـة

قطة على السبورة وطلبت من التلاميذ الصغار أن يرسموا قطة، لاحظت المدرسة الزائرة بأن التلاميذ قد رسموا قططًا لا عدد لها لا قطة واحدة، من التلاميذ مــن أضاف أرجلاً للقطط، أحد التلاميذ رسم قطة واحدة وقام بتلوينهـــا، وآخـــر رســـم القطة وجعل الفم كبيرًا، وآخر رسم ثلاث قطط متساوية في كل شيء، وآخر رسم قطتان إحداهما صغيرة والأخرى كبيرة، وآخر رسم فريق من القطط وراح يلـــون كل واحدة بلون خاص.

استطاعت المدرسة أن توحي في تقريرها الذي أعدته بعد ذلك بأن هناك فـــروق في طريقة وأسلوب إعداد البنى التحتية في عقول النشيء تقود إلى خلـــق بنـــى تحتية جامدة وأخرى مرنة في الثقافات البشرية والفهم العـــام فـــي أي مجتمـــع، استطاعت أن تُبيِّن كيف يمكن أن يؤثر منهج التعليم في إيجـــاد الـــدوافع التـــي سيكون عليها مجتمع ما بالنسبة إلى غيره من المجتمعات، ونفس الشيء بالنسبة للتربية أيضًا، هناك فَرق بين القيم والمُثل والصفات والاتجاه والقناعة بـــأمر مـــا بين مجتمع وآخر.

لذا نجد في القرن الواحد والعشرين تحدي حضاري غربي صارخ في عقـــر دور المجتمعات الأخرى، يواجه خصوصيتها بنسق مهيمن بســـيادة العلـــم والتقنيـــة الحديثة والمنافسة الحادة، وبإنتاج نوعي لا يضاهى بكفاءة إنتاجية أعطت وجهًـــا آخر مختلف عما اعتاد عليه أهل المجتمعات التي يتم غزوها بالعولمة في القـــرن الواحد والعشرين، لقد كان لهذا الفارق أثر كبير ومتميز بدا من خـــلال الصـــراع العربي الإسرائيلي منذ أن تم إنشاء إسرائيل في منتصف القرن العشرين، وصـــار الفارق يلح بوضوح وصراحة للوقوف مع الذات وراح يطرح التســـاؤلات لمـــاذا وكيف يمكن ردم الهوة الحضارية بين الدولة الصهيونية والعالم العربي!

إن أهم عوامل التقدم في أي مجتمع هو العطاء البشري، وقد يبلي بلاء حسنًا إذا كان الكم البشري والتميز في العطاء متناغمان أو ما قلنا عنه وجود البنى التحتية المعلوماتية الفكرية والنفسية عند الأفراد، هناك من المجتمعات مـــن تشـــذ عـــن قاعدة توفر الكم البشري لحسم التفوق، وقد تكون إسرائيل واحدة من هذه الشواذ

إذا نظرنا إليها ككيان للإسرائيليين فقط، لكنها في الحقيقة كيان بشري أكبر من ستة ملايين يقيمون فيها إذا أخذنا في الاعتبار يهود العالم والمسيحية الصهيونية وحلفاؤها السياسيين وما عندهم من طاقات وإمكانيات يستند عليها المجتمع الإسرائيلي، من هنا نجد أن التفوق الإسرائيلي الحالي ليس بمستغرب في ظل وجود عطاء وكم بشري مميزين لكن العامل الحاسم هو الكيف، والقول الأكثر حسمًا هو تفاعل الكم والكيف البشريين.

لو وقفنا عند ناحية الكيف عند الإنسان نجدها إما ممكنة أو ملموسة بالحواس، وبين الممكن والملموس فرق كبير، الممكن احتمال وطاقة وإمكانية تحقيق، أما الملموس فهو واقع وإنجاز فعل له أثر، لكن الممكن ما يزال قائمًا ويمكن تحقيقه ما دام هناك بشر لأنه مخزون في البشر، لذلك يجب أن يعلم من لا يعلم أن ليس هناك عِرقًا معينًا من البشر لأن أصله أوروبي أو أمريكي أو إسرائيلي متفرد بما عنده من الممكن، فالطاقة الكامنة عند كل إنسان موجودة عند كل بني البشر في أي أمة وفي أي قطر، ولكي تظهر على صورة فعل لا بد من تهيئة الظروف والمناخ وبناء الإنسان القادر على جعلها حقيقة أي فعل في المجتمع.

وهذا يعني أن التفوق عند مجتمع ما على مجتمع آخر ليس قانون حياة يستمر على وتيرة واحدة، فقد عبر على التاريخ أقوام وإمبراطوريات وما زال التنافس بين الأمم مستمر لأنه أحد أسرار الخالق في الإبقاء على الفكرة ونقيضها، التفوق كالمال أو الغنى لو صح التشبيه، اليوم عند هذا وغدًا عند آخر، ولكل عصر دولة ورجال، والسر يكمن في من يستطيع أن يُهيئ المناخ لتحويل الكامن عند البشر إلى فعل.

قد يكون ممكنًا الآن أن نقول، إن الفرق بين مجتمع متفوق وآخر يحتل مكانًا متأخرًا، أن المتفوق هُيأت له الظروف والوسائل لكي يظهر الطاقة الكامنة الموجودة عند الأفراد، وقد يتأخر المجتمع بطريقة أخرى، إذا ما تبعثرت الطاقة الكامنة عند أفراده ولم تأخذ وجهتها الصحيحة، نتيجة عدم تهيئة الظروف المناسبة، إن التفوق هو إبداع المجتمع حينما يتيح الفرصة لأفراده أن يحصلوا

على التأهيل والتوجيه الذي يحدد مستوى العطاء ونوعه في بيئة ذات بنية اجتماعية صالحة، فتكون جائزة هذا المجتمع التفوق على الآخرين.

إن البيئة المجتمعية المناسبة تُعتبر أهم من البشر القادرين على الفعل، وليس أدل على ذلك أن المهاجرين العرب والمهاجرين من دول العالم الثالث على وجه الخصوص إلى بلاد المجتمعات الأولى في الغرب، تراهم يُصبحون قادرين على الإنتاج والإبداع في البيئات الجديدة التي هاجروا إليها، رغم أنهم بالذات كانوا قبلاً في مجتمعاتهم الأصلية كمًا مهملاً، طاقته الكامنة إما مُغيبة أو مُعطلة، في البلد الأصلي لا ينتج الفرد شيئًا وفي البيئة الجديدة أصبح طبيبًا ومهندسًا وباحثًا وقيادة اجتماعية، وحتى إنه تقدَّم الصفوف في بعض الأحيان، لم يكن هذا ليحدث لولا أن هذا العربي أو غيره من المهاجرين قد وجد البيئة المناسبة التي ساعدت على تفجير طاقاته وجعلتها فعل راح يُساهم في تقوية المجتمع الذي أتاح له الفرصة.

لو ألقينا نظرة على المجتمعات العربية كلها في المغرب والمشرق نجدها متشابهة مائة بالمائة في شيء واحد، هو أنها مجتمعات استهلاكية وحسب، وهذا يفرض سؤال، لماذا لا تُنتج هذه المجتمعات ما دام في البشر كلهم طاقات كامنة، وما دام نفس الإنسان الذي وصمناه توًا بالمستهلك فقط لا ينتج! إذن لا بد من البحث عن الحل!

من ناحية، مما يؤسف له أن المجتمعات العربية تسير في اتجاه الإقليمية أكثر فأكثر مع مرور السنوات، وهو ما يجعلها ليس مكبلة فقط بل معوقة بتشويه دائم، لا يحتاج المرء إلى بحث كبير لكي يتأكد أن لا دولة عربية واحدة مؤهلة مستقبلاً أن تكون مستقلة بمعنى السيادة الكاملة حسب مفهوم الدول العظمى، بمعنى أن لا دولة عربية يمكن أن تُصبح ذات نفوذ في هذا العالم لسبب بسيط، لأنها لا تملك من البداية الطاقة المؤهلة التي تُجيز لها أن تقف على أرض التحول في المجتمع التي من الممكن أن تفسح المجال للطاقات الكامنة فيه عند الأفراد لكي تتحول إلى فعل.

من ناحية ثانية، إن التنوع الجغرافي الحاد الذي جعل مصر زراعية والكويت بترولية وموريتانيا صحراوية وما بينها من تباين بين البلاد العربية الأخرى، قد جعل هذه المجتمعات كل على حدة غير قادر على تهيئة البيئة والمناخ للأفراد لكي ينافسوا بحجم فعل منافس لفعل غزير عند الآخرين، إن الصهيونية ليست عدوًا للفلسطينيين فقط، هي تحدي لكل العرب، وعلى أي بلد عربي ألا يظن بأنه سيقدر منفردًا في المستقبل أن يتخلص من الهيمنة الصهيونية المتحالفة عضويًا مع الغرب، عوضًا عن الموالين أصلاً إليها في المجتمعات العربية، ما لم يُصبح كل بلد عربي له امتداد وولاء حقيقي من العرب الآخرين، إضافة إلى إطلاق الطاقات الذاتية عند الأفراد كما بيَّنا، فستظل تلك الدويلات العربية في خطر، وستظل كفة الميزان مائلة ناحية إسرائيل، لأن إسرائيل كيان عضوي مندمج مع الغرب، عدا أن أفراد المجتمع الإسرائيلي وقياداته بالذات، أتو جاهزين ومؤهلين بما عند الغرب من قدرات تسمح بإخراج الطاقات الكامنة.

إن من الأخطار التي لها ما لها من تأثير على إبطاء المجتمع العربي عن اللحاق بركب المجتمعات المتقدمة، أن رأس المال العربي كله تقريبًا من عوائد الثورة البترولية التي تميز هذا العصر، مركزة عند الأقلية العددية من المجتمع العربي في دول مجلس التعاون التي نصَّب من أراد من الدول العظمى سورًا كبيرًا حولها، وأبقى الكم العربي الفقير خارج هذا السور، وهو ما قد يأتي بالسلبيات أكثر من الايجابيات.

شيء طبيعي ألا نرى تقدمًا ملموسًا أو إنجازًا على أرض الواقع بسواعد أبناء مجلس التعاون رغم توفر الثروة، بل إن مجتمع مجلس التعاون العربي هو مجتمع استهلاكي أو بصورة أخرى هو أفضل سوق استهلاكي عالمي، إن التفاوت الشديد في الغنى بين المجتمعات في البلدان العربية في البنى الاجتماعية والاقتصادية والسياسية، ينعكس على أوضاع البشر أيضًا، ويُبقى الدولة الصهيونية زعيمة للمنطقة!

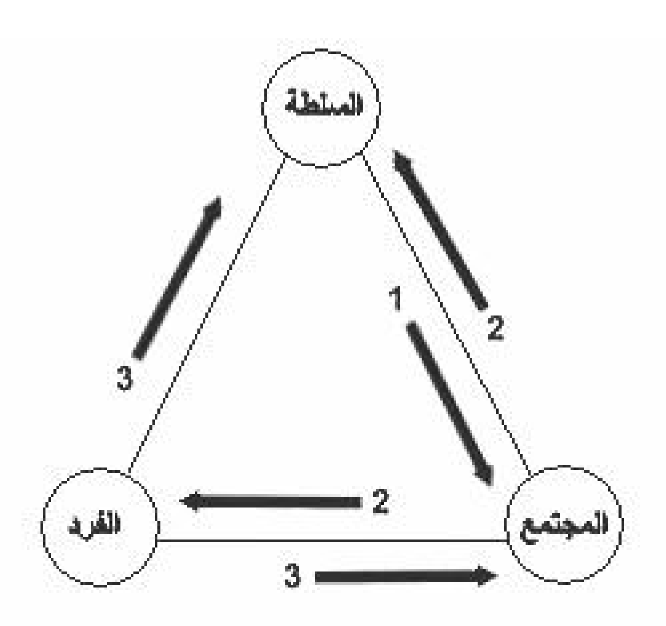
لا شك أن افتقار المجتمع العربي إلى الأخذ بروح العصر، وعدم بناء الإنسان على أسس وقيم تتيح له أن يُنتج بحيث أن السلطة في الدولة تُهيئ المجتمع لأجل أن يفتح المسار والأبواب ويُقدم ما يتوجب من التأهيل للفرد لكي يستعين الفرد بما يحتاج حتى تتفجر طاقته الكامنة ويُبدع ويُعطي ناتج لمجتمعه، لكي ينعكس بعد ذلك هذا الفعل أو الناتج الفردي في إغناء مجتمعه، وتصير للسُلطة الممثلة لجميع أفراد المجتمع هيبة وغنى تباهي بها الأمم، ما لم يتوفر هذا فلا تطور ولا تقدم.

إذن دعنا نتصور أن السُلطة أو الحكومة تُهيئ المجتمع لاستقبال الفرد وتمنحه الحرية والأمان، والفرد يُعطي من طاقته الكامنة لمجتمعه فعل، والمجتمع يُعطي منتوج آخر بطريقة أخرى إلى الفرد وإلى السُلطة، ويظل هذا التناغم بين السلطة - المجتمع – الفرد ولا يتوقف، وتبقى آلة النمو والتطور تدور تواكب العصر وحضارة العصر، أو كما تفعل المجتمعات في الأمم المتفوقة، فحين ذلك تتغير صورة المجتمع أمام أفراده وأمام الآخرين.

إن فارق التفوق بين الدولة الصهيونية والعرب يعود إلى أن الصهيونية تعمل على توظيف القدرات والإمكانيات المتاحة في تقديم الاستجابة الفاعلة مقابل تدني الكفاءة والأداء القيادي في النظم العربية، وتظل الدولة الصهيونية في نمو حضاري مستمر، وتبقى المجتمعات العربية راكدة تنبعث منها رائحة التخلف والعجز.

إن الركون إلى أن العرب أمة ضعيفة ومتخلفة، وأن حل مشاكلنا يكمن في واشنطن أو موسكو أو لندن أو باريس، تحت مبرر أن للصهيونية نفوذ كبير في تلك الدول، إنما هذا منطق الذين تلتقي مصالحهم مع أن تكون الصهيونية وحلفاؤها هم الأقوى دائمًا، وهؤلاء باتباعهم هذه الاستراتيجية إنما هم يحافظون على مكاسبهم في السُلطة لكي تدوم، وبالتالي هم يُبقون عجلة مجتمعاتهم متوقفة عن الدوران، ويبقى الفرد مُقيدًا في مجتمعه لا يُقدم الفعل فضلاً عن تخلف الوعي والمعرفة، وبذلك يظل التجاهل للمشروع الصهيوني الذي بنيت على أساسه

الدولة الإسرائيلية في فلسطين، الذي هو في الأساس يعود إلى العلاقة العضوية بين العواصم الأجنبية التي نسعى دائمًا إليها وننشد أن تحل مشاكلنا مع الصهيونية.



1. السلطة تهيء المناخ العام في المجتمع.
2. المجتمع السليم يتيح الفرص للأفراد. ويطور السلطة.
3. الفرد اللبنة الأولى في المجتمع لرفع البناء، والتميز في تقديم النوابغ لقمة السلطة.

إن من الأدلة التي لا يتوجب الإغفال عنها كلما حاولنا أن نضع استراتيجية تخدم وجودنا وحياتنا، وتُدَعِّم أي انطلاقة ننشدها إلى الأمام، علينا ألا ننسى أنه لم يمضِ سوى عشر دقائق على إعلان ديفيد بن جوريون قيام دولة إسرائيل عام ١٩٤٨م إلا وأعلن هاري ترومان الرئيس الأمريكي آنذاك اعتراف الولايات المتحدة بالدولة الصهيونية، ولم يمضِ سوى ثلاثة أيام فقط إلا واعترفت موسكو بالدولة الصهيونية.

الفصل السادس عشر

مصادر القوة الصهيونية

لأن عملية جمع التبرعات للدولة الصهيونية ليست عملية محايدة أو بسيطة وتتسم بالتخجيل والترغيب تارة، وبالقسر والإكراه أحيانًا، وبالغش والخداع (فيما يتعلق بالأهداف) في معظم الأحيان، فإن لفظ "جباية" قد يكون أقرب للدقة وأكثر تفسيرية، لقد اعتمدت الحركة الصهيونية منذ نشأتها على التبرعات التي تجمعها من أعضاء الجماعات اليهودية في العالم، وترى الأدبيات الصهيونية أن عمليات الجباية تقوِّي الروابط العاطفية بين إسرائيل واليهود الأمريكيين، ومن هنا فإن شعار النداء اليهودي الموحد الأكثر شهرة (نحن واحد) يحث اليهود على تأكيد تضامنهم بواسطة العطاء، والصهيونية تركز على تفسير الشعار بهذا المعنى، من هنا فالتبرعات لا يُنظَر إليها باعتبارها مجرد إحسان بل بوصفها نوعًا من المشاركة في دولة إسرائيل، وخصوصًا من قِبَل اليهود العلمانيين والمندمجين (التوطينيين) التي تمثل حملة النداء اليهودي الصلة الوحيدة بينهم وبين روحانية إسرائيل ومركزيتها، على حد تعبير "إيرفينج بيرنشتاين" نائب الرئيس التنفيذي للنداء اليهودي الموحَّد.

لو تعمقنا في معنى شعار (نحن واحد) فسنجده فارغًا، لأن المقصود في جمع التبرعات هم اليهود الأمريكان، ومعظم هؤلاء علمانيين وهم سعداء في وطنهم أمريكا، ويتمتعون بحياة رغيدة في وطنهم، وليس في خلدهم أن يهاجروا إلى إسرائيل، لأنهم مندمجون ويحبون الحياة الأمريكية التي تختلف عن خصوصية المجتمع الإسرائيلي، إذن أين الرابط الروحي الذي تضعه الصهيونية وتربطه في معنى "تحن واحد"، إلا إذا كان هذا نوع من الخداع والتخجيل في آن واحد، فالصهيونية على الأقل كأنها تقول لليهودي في أمريكا، ماذا يمنع أن تتبرع وأنت تستطيع، وتحوز على الانتساب للصهيونية التي تشمل كل يهود العالم، ولن تكون أقل من المستوطن الصهيوني الذي يعيش في إسرائيل، وبهذا يمكن أن تجمع التبرعات، ذكر ريتشارد كروسمان (الزعيم العمالي البريطاني) أن الزعيم الصهيوني "حاييم وايزمان" الذي كان أول رئيس للوكالة اليهودية أنه قال، "لم يكن لليهود المندمجين في أوطانهم سوى الاحتقار، ولكن كان لديه استعداد دائم لجَمْع أموالهم من أجل مشروعه الصهيوني".

هذا، وإن الكثير ممن يُطلق عليهم صهاينة في أمريكا، يُقدمون التبرعات خشية التشهير بهم وفضح خصوصياتهم من الحركة الصهيونية أو بسبب الشعور بالذنب لأنهم لم يهاجروا لاستيطان فلسطين وتكون تبرعاتهم هي كل ما يربطهم بإسرائيل، وهؤلاء هم الذين يُطلَق عليهم اصطلاح "يهود النفقة"، كما أن الموقف لا يختلف كثيرًا في بريطانيا وفرنسا وأمريكا اللاتينية، حيث أن التبرعات تقل مع مرور السنين، بسبب انخفاض نسبة التكاثر عند اليهود وتزايد معدلات الاندماج وهذا يعني تناقص عدد المتبرعين، كما أن السياسة الإسرائيلية وعدم جديتها في تحقيق السلام وإفراطها في استعمال القوة كما في حرب لبنان ٢٠٠٦م، وحرب غزة ٢٠٠٩م، وتورطها في عمليات تهريب السلاح لبعض الدول، وعمليات التجسس خصوصًا على الولايات المتحدة، أدى إلى شعور الصهاينة الاندماجيين في المجتمع الأمريكي بخيبة الأمل والشعور بالإحراج، وهو ما جعل الكثيرين يحجمون عن التبرع لإسرائيل.

يُعتبر الصندوق القومي اليهودي هو أقدم مؤسسات المنظمة الصهيونية العالمية وذراعها المالي لشراء الأراضي الفلسطينية، وتعود فكرة إنشائه إلى عالم رياضيات يهودي ليتواني عندما اقترح في عام ١٨٩٧م خلال المؤتمر الصهيوني الأول، إنشاء صندوق قومي يهودي للتبرع الطوعي بهدف شراء أراضي في فلسطين، ونُفذِ الاقتراح في المؤتمر الصهيوني الخامس عام ١٩٠١م حينما أقر إنشاء الصندوق باقتراح من هرتزل ليكون الصندوق وديعة للشعب اليهودي لا يُستعمل إلا لشراء الأراضي في فلسطين ويكون مقر الصندوق في فيينا، ويكون عمل الصندوق هو شراء الأرض واستصلاحها وتأجيرها لمدة ٤٩ سنة قابلة للتجديد، ولا يجوز تأجيرها لغير اليهود أو استخدام عمالة غير يهودية لزراعة هذه الأراضي وصيانتها.

قام الصندوق بشراء أول مساحة من الأراضي له في فلسطين عام ١٩٠٥م، وبدأ أولى تجاربه في التشجير عام ١٩٠٨م بزراعة ما سُمِّي «غابة هرتزل»، ثم أقام الصندوق أول كيبوتس على أراضيه في داجانيا جنوبي طبرية، وقد استدعى هذا النشاط وضع الإطار القانوني المناسب للصندوق، ولذلك تم تسجيله عام ١٩٠٧م

كشركة بريطانية باسم "الصندوق القومي اليهودي المحدود"، وسرعان ما تحـــوَّل الصندوق إلى أن يُصبح الذراع الوحيدة لجباية الأموال من أجل شراء الأراضـــي في فلسطين، ومع صدور وعد بلفور ووقوع فلســـطين تحـــت ســـلطة الانتـــداب البريطاني، اتسع نشاط الصندوق، وفي عـــام ١٩٢٠ تـــم تأســـيس "الصـــندوق التأسيسي اليهودي" لتمويل عمليات الاستيطان.

ورغم الأحوال الاقتصادية السيئة لعرب فلسطين في الفترة التي ســـبقت الحـــرب العالمية الأولى وبعد الحرب أيام الانتداب، فقـــد بقـــي الفلســـطينيون متمســـكين بأراضيهم رغم الإغراءات في رفع أسعار الأراضي، ولم يبـــع الأرض لليهـــود إلا نفر قليل، وتم ذلك عبر العملاء الذين كانوا يشترون الأراضي بأسماء عربية ثـــم يُعيدون تسجيلها للصندوق اليهودي، هذا وقد اهتم الصندوق القومي اليهودي في البداية بشراء الأراضي لأغراض الاستيطان الزراعي، ثم أصـــبحت الاعتبـــارات الأمنية والسياسية أكثر أهمية مع تزايد الرفض العربي للاستيطان اليهـــودي ثـــم صدور تقرير لجنة بيل عام ١٩٣٧م التي أوصت بتقسيم فلسطين.

إذا كان الصندوق القومي اليهودي قد نجح في خَلْق حقائق جديـــدة علـــى أرض فلسطين تُدعِّم المشروع الصهيوني، إلا أنه لم ينجح في النهاية إلا بامتلاك ٣,٥٥% من أراضي فلسطين، ولم يتم "تخليص" ما تبقَّى من الأراضي الفلسطينية إلا عـــن طريق القوة الجبرية والاحتلال العسكري، ونظرًا لتبعيـــة الصـــندوق للمنظمـــة الصهيونية العالمية، فقد كان من الضـــروري تنظـــيم علاقتـــه مـــع الحكومـــة الإسرائيلية، وقد تم هذا باتفاقية وُقِّعت عام ١٩٦١م، نصت على أن "الصـــندوق سوف يواصل أعماله بين اليهود في كلٍّ من إسرائيل وبلاد الشتات كوكالة مستقلة تابعة للمنظمة الصهيونية العالمية، وذلك بهدف جباية الأموال وتخلـــيص الأرض والقيام بنشاطات إعلامية وتربوية صهيونية وإسرائيلية"، اعتمد الصندوق تاريخيًا على أساليب شتى لجباية الأموال، مثل بيع الأشـــجار فـــي فلســـطين والطوابـــع البريدية، وتسجيل أسماء كبار المتبرعين فيما كان يُعرَف باسم "الكتاب الـــذهبي"، وكذلك من خلال "الصندوق الأزرق" الذي كان يوضع في بيوت أعضاء الجماعات اليهودية ويُستعمل لجمع التبرعات، أما الآن، فإن المصادر الرئيسية لدخله هـــي

"مقابل إيجار عقارات يملكها وأشغال تعهدتها الوكالة اليهودية والحكومة الإسرائيلية"، ومن بين هذه المصادر، التبرعات والهبات العامة أو المُعطاة لأغراض محددة من قِبَل أعضاء الجماعات اليهودية في العالم، يُعَد الصندوق مؤسسة مالية ضخمة حيث قُدِّر مجموع موجوداته عام ١٩٨٠م بأكثر من ١٤٨ مليون دولار، وللصندوق فرع في الولايات المتحدة ومسجل كشركة مساهمة معفاة من الضرائب.

ومن أدوات الجباية الصهيونية لأجل دولة إسرائيل، "صندوق تأسيس فلسطين"، وهو الإدارة المالية الرئيسية للمنظمة الصهيونية العالمية، وقد أنشيء عام ١٩٢٠م عندما واجهت الحركة الصهيونية مشكلة تمويل مشروعها الاستيطاني في فلسطين بعد صدور وعد بلفور، وقد تضمَّن قرار إنشائه التزام كل يهودي أيًا كان موقفه من الصهيونية بدفع ضريبة سنوية بحد أدنى مُعين للمساهمة في إقامة وطن قومي لليهود في فلسطين، على أن يقوم الصندوق بتوظيف التبرعات والمساهمات المالية المختلفة في استثمارها في مشروعات إنتاجية، لا تستهدف الربح في المقام الأول، ومن بين أهم مؤسسيه "حاييم وايزمان" و"فلاديمير جابوتنسكي" و"إسرائيل سيف"، وفي عام ١٩٢٥م، انضم الصندوق التأسيسي إلى الصندوق القومي، وكان قد سُجِّل الصندوق في عام ١٩٢١م كشركة بريطانية، وظل مقره في لندن حتى عام ١٩٢٦م حين انتقل إلى القدس.

من أدوات الجباية الصهيونية أيضًا "النداء الإسرائيلي الموحد"، وهو منظمة صهيونية لجمع التبرعات، تأسست عام ١٩٢٥م باسم "النداء الفلسطيني الموحَّد" فبينما أصبح الصندوق التأسيسي اليهودي المنظمة الرئيسية لجباية الأموال بين الجماعات اليهودية في العالم، أصبح النداء اليهودي الموحَّد يتولى ذلك الدور في الولايات المتحدة، والنداء الإسرائيلي الموحَّد مُسجَّل في الولايات المتحدة كمنظمة معفاة من الضرائب، أما "الشركة الاقتصادية الإسرائيلية" فقد تأسَّست عام ١٩٢٦م باسم الشركة الاقتصادية الفلسطينية على يد مجموعة من أثرياء اليهود الأمريكيين، كان على رأسهم لويس "برانديز" و"هربرت ليمان" و"لويس مارشال" و"فليكس واربورج"، بغرض تنمية البنية الاقتصادية للتجمع الاستيطاني الصهيوني

في فلسطين وتشجيع أثرياء اليهود الأمريكيين وغيرهم على استثمار أموالهم في مشاريع تجارية وصناعية وزراعية في فلسطين.

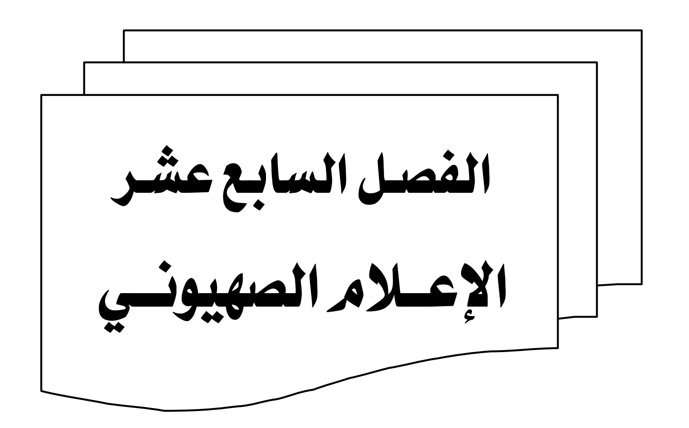
من وسائل الجباية الصهيونية "منظمة سندات دولة إسرائيل" وهي منظمة يهودية تهدف إلى "توفير الأموال على نطاق واسع من أجل تنمية دولة إسرائيل اقتصاديًا، وذلك ببيع سندات دولة إسرائيل في الولايات المتحدة وكندا وأوروبا الغربية وغيرها من دول العالم"، وقد كان الغرض المباشر من تأسيسها عام ١٩٥١م توفير الأموال اللازمة لبناء المستوطنات الجديدة.

"الصندوق الإسرائيلي الجديد" هو أيضًا لجمع التبرعات، تم تأسيس هذا الصندوق عام ١٩٧٩م، وهو معفي من الضرائب، ويُشكِّل هذا الصندوق محاولة من جانب العناصر الساخطة والمعتدلة داخل الحركة الصهيونية لإنشاء شبكة تبرعات خاصة بها، تقوم بتمويل الجماعات ذات الاتجاهات السياسية المماثلة داخل إسرائيل، ولا يموِّل الصندوق أية نشاطات صهيونية خارج الخط الأخضر، ويُرسل اعتمادات إلى منظمات مثل هيئة الحقوق المدنية في إسرائيل، ويؤيد الصندوق جماعة السلام الآن، ويمكن النظر إليه على أنه الجباية اليهودية الموحَّدة الخاصة بالجمعيات التي تُحاول التملص من الصهيونية مثل الأجندة اليهودية الجديدة.

"يهودية دفتر الشيكات"، هو مصطلح شائع في الأوساط اليهودية الدينية وغير الدينية في الولايات المتحدة، وهو يُشير إلى أن كثيرًا من يهود الولايات المتحدة قد فَقَدوا انتماءهم الديني الحق، ولم يعودوا يؤمنون بالعقيدة الدينية وإنما يتمسكون ببعض الرموز الإثنية تعبيرًا عن هويتهم الدينية، ويتصورون أن إسرائيل هي كنيستهم وأن رئيس وزرائها هو حاخامهم الأكبر، وبالتالي يأخذ الإيمان بالنسبة لهم شكل الانتماء إلى المنظمات الصهيونية، ويُصبح الطقس الأكبر في هذه العبادة هو دفع المعونات والتبرعات للدولة الصهيونية، أي أن هذا النوع من الانتماء اليهودي يُعبِّر عن نفسه من خلال دفتر الشيكات، وهو أمر لا يختلف كثيرًا عن التحول عن عبادة الإله الواحد إلى عبادة العجل الذهبي، وهذا هو رأي كثير من الحاخامات الذين يرفضون هذا الاتجاه.

"يهود النفقة"، هو مصطلح وضعه أحد الحاخامات ليصف به يهود الولايات المتحدة الذين ابتعدوا عن يهوديتهم تمامًا واندمجوا في مجتمعهم، ولكنهم مع هذا يحاولون الإصرار على هويتهم اليهودية، أو على بقايا منها، ويخافون أن يُشَهَّر بهم أو أن يُشار إليهم على أنهم مندمجون منعدموا الهوية، كما يرون أن الطريقة المُثلى العملية لتحقيق هذه الأهداف هي دَفْع تبرعات للدولة الصهيونية التي تطاردهم للحصول على أموالهم، ولكنهم في واقع الأمر، مضطرون إلى دفع التبرعات حتى لا يُشَهَّر بهم، فالدافع إلى الدفع ليس الحب وإنما خشية الفضيحة، وبالتالي فإن يهود الولايات المتحدة مثلهم مثل من طلَّق زوجته أي يهوديته، ويود أن يكسب سكوتها بدفع النفقة المفروضة عليه حتى يمكنه أن يستمر في حياته الجديدة، أما "آرثر هرتزبرج" فقد استعمل صورة عكسية تمامًا، إذ قارن علاقة يهود الولايات المتحدة بإسرائيل بعلاقة الرجل بعشيقته، يغدق عليها الأموال ويشتري لها أحلى الثياب ويضاجعها، ولكنه لا يسكن معها ويعود إلى زوجته أم أولاده، أي الولايات المتحدة، وسواء أكان ما يدفعه اليهودي هو النفقة للزوجة المطلقة أو النقود للعشيقة فإن العلاقة ليست كاملة بأية حال ويدخل فيها عنصر نفعي، الأمر الذي يستبعد الولاء الكلي.

ما دام هذا الكتاب عن الصهيونية، فقد كان من الضروري أن نعرج على ذكر وسائل جمع التبرعات التي أشرنا إليها، تلك التي تقوم بها الحركة الصهيونية، وهو ما حدانا إلى السعي للبحث عن المصدر (موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية للدكتور عبد الوهاب المسيري)، التي أمكننا أن نأتي منها بلمحة موجزة عن أدوات الجباية الصهيونية، فقد كان الغرض من الحديث عن الجباية الصهيونية إنما هو بهدف التذكير وأخذ العِبَر، فحتى وإن كانت التبرعات اليهودية لإسرائيل في تناقص لأسباب ذكرنا بعضها، إلا أن ما قامت به الصهيونية كان يُمثِل نجاحًا بكل المقاييس للمنظمة الصهيونية التي نجحت بتلك الأموال أن تُقيم دولة.


الفصل السابع عشر
الإعـلام الصهيونـي

كان وما زال الإعلام الصهيوني يلعب دورًا كبيرًا في الصراع العربي الإسرائيلي منذ أن وجدت الحركة الصهيونية، في البداية قام عدد من اليهود، وكذلك المتعاطفين مع تطلعاتهم من ساسة وقادة دول واقتصاديين، بالاقتراب من المسئولين العرب، تارة عبر الوسطاء والسماسرة من الأوروبيين، وتارة بلقاء بعض الزعماء العرب مباشرة والتفاوض معهم بالإغراء وبالترهيب، وبعد إعلان الدولة الصهيونية أضحى هناك قسم للإذاعة التي تبث باللغة العربية، إن كفاءة الإعلام الإسرائيلي لا تضاهى كونها إحدى ثمرات الإعلام الصهيوني العالمي المتفوق والمهيمن، فإسرائيل هي القوة الأكثر تنظيمًا في المنطقة العربية وذات الأجندة الأكثر وضوحًا، وشارعها أقل تعرضًا وتأثرًا بالإعلام العربي، لا نبالغ إذا قلنا إن الإعلام الصهيوني استطاع أن يقنع الغالبية العظمى في الغرب بأن إسرائيل دولة تحب السلام وجيرانها يسعون إلى إفنائها، وأن الفلسطيني صاحب الحق الشرعي إذا قاوم الاحتلال الإسرائيلي فإنه إرهابي، والمقاومون الفلسطينيون الذين يقعون في الأسر الإسرائيلي هم إرهابيين ومجرمين بحق الإنسانية، وأن اليهود الذين يأتون من شتى بلاد العالم ويستولون على بيوت الفلسطينيين وأملاكهم عائدون إلى وطن الآباء.

تلمس السيطرة الإعلامية الصهيونية بسهولة في عصر الفضائيات، فيمكنك أن تجد اختراقًا نوعيًا قد حققه الإعلام الصهيوني عوضًا عن هيمنته العالمية المستمرة، من تلك الاختراقات أن الإعلام العربي أضحى يقبل استضافة الزعماء الصهاينة في القنوات الفضائية ناهيك عن المفكرين والصحفيين ورجال الاقتصاد، وصار يحاور هؤلاء ويسمح لهم بأن يقدموا إسرائيل والصهيونية للمواطن العربي بالطريقة التي يرتئونها، الصحافة العربية من ناحية أخرى صارت تنشر مقالات مترجمة مما تنشره الصحافة الإسرائيلية، ومعنى ذلك أن التطبيع الثقافي الممنهج بين الكيان الصهيوني والعالم العربي أصبح هو الخطة التي تسبق الاعتراف الرسمي للعرب كأمة بإسرائيل.

إن هذا النوع من التطبيع هو مثل الغزو الثقافي الأمريكي الذي سبق النظام العالمي الجديد الذي تقوده الولايات المتحدة في هذا العصر، فقد غزت أمريكا العالم منذ سنوات طويلة عن طريق أفلام السينما والسجائر الأمريكية، وبنطال الجينز والكوكا كولا وبطاقات الائتمان ومنظمة التجارة العالمية، وغير ذلك الكثير مما يقدم طريقة الحياة الأمريكية والنمط الأمريكي والثقافة الغربية بصفة عامة في المأكل والملبس والهواية.

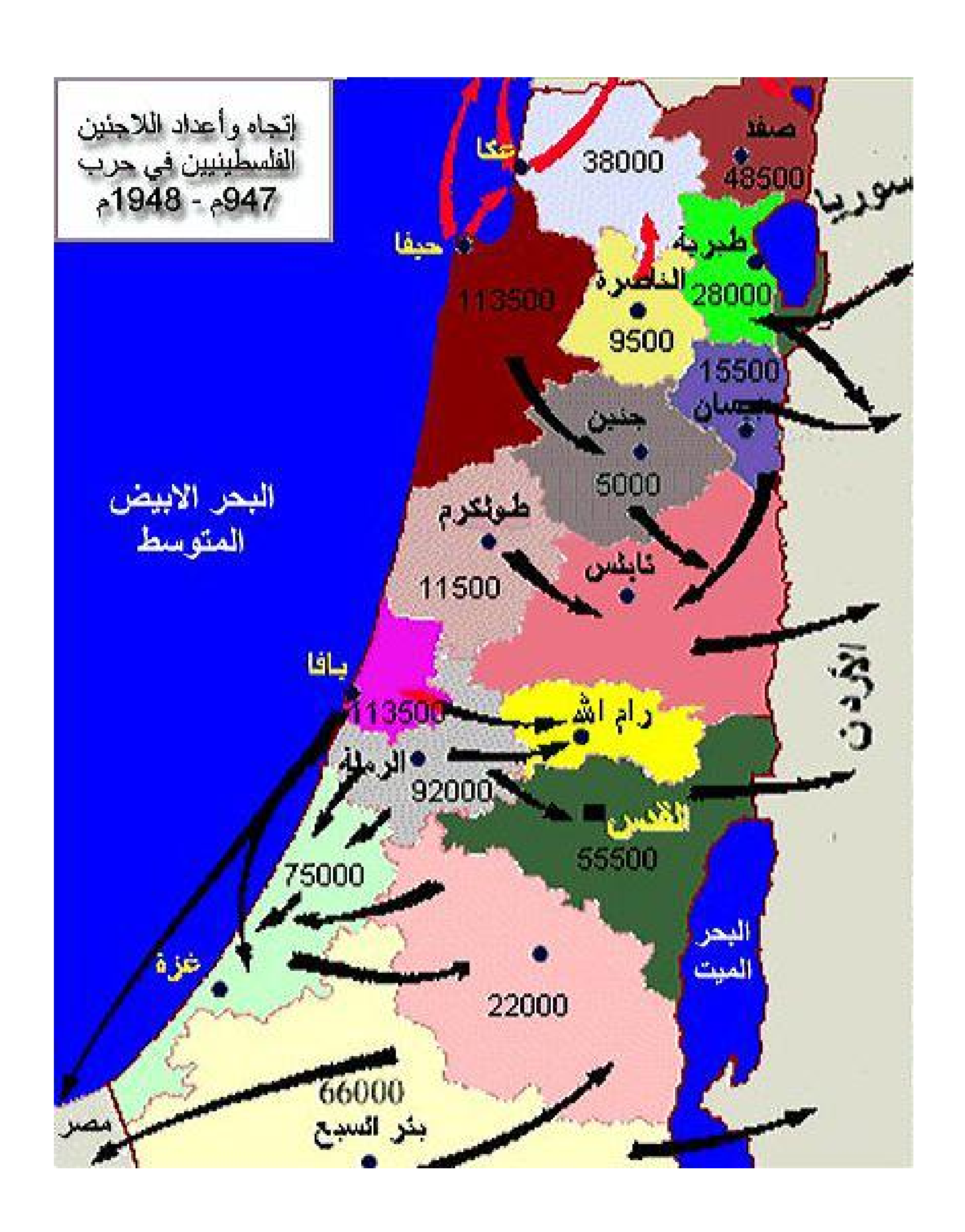
مخطيء من يظن بأن النظام العالمي أو العولمة التي فرضتها أمريكا على سكان الكرة الأرضية هي وليدة تسعينات القرن الماضي أو بداية القرن الحادي والعشرين وثورة الإنترنت، لذا يمكن القول بإن أمريكا في هذا العصر أعلنت رسميًا قانون العولمة، أما العولمة نفسها فقد كانت تمارسها وتنشرها في العالم منذ مدة طويلة وقد جاء الوقت الآن فقط لإعلانها، لهذا لا نستغرب أن تكون الصهيونية تطبع مع العرب عبر الإعلام قبل الإعلان رسميًا عن انتهاء قضية فلسطين في العقل العربي كما أنهتها في العقل الغربي بصفة عامة.

يعتمد فن الإعلام الصهيوني الموجَّه للعقل العربي على مبدأ التضليل بصفة عامة، ومن خلال الاختصار والاختزال والاعتماد على الإبهام والغموض والتلاعب بالألفاظ حتى لا يعتقد المتلقي أنه إعلام كاذب، فالأكاذيب تكون عادة غير مباشرة بالغمز والإيحاء، لقد استطاع الإعلام الصهيوني أن يزرع في العقل العربي على سبيل المثال لا الحصر خصوصًا حينما يُشير إلى الفلسطينيين الذين يحملون الهوية الإسرائيلية، استطاع أن يسميهم "عرب إسرائيل"، أليس من الأجدر والأصح أن يسمى أهل البلاد باسم وطنهم ليقال عنهم فلسطينيو إسرائيل مثلاً! لكن الإعلام الإسرائيلي عن قصد أعطى هذه التسمية حتى يُقنع الأجيال القادمة من العرب وكأمر واقع بأن فلسطين هي أرض اليهود، وأن الشعب الفلسطيني الذي خرج من فلسطين ويعيش معظمهُ في الدول العربية، ما هو إلا قد عاد إلى بلاده التي أتى منها أصلاً إلى فلسطين حينما تم هدم الهيكل وتشتت اليهود على يد الرومان في القرن الثاني الميلادي.

هذا، ورغم أن إسرائيل لم تتوقف منذ إنشائها عن قتل العرب وسحقهم في أرض فلسطين وفي الدول المجاورة، إلا أنها قد أقنعت العالم بأنها تُدافع عن نفسها وليس أكثر فجيشها يُسمى جيش الدفاع لما لكلمة دفاع من مغزى! وما حرب اجتياح لبنان عام ١٩٨٢م ومذابح صبرا وشتيلا، وحرب لبنان عام ٢٠٠٦م وحرب غزة التي شنتها إسرائيل في ٢٧ ديسمبر ٢٠٠٨م إلا خير دليل على عنف وإرهاب الدولة الصهيونية.

الإعلام الصهيوني لا يمل من تذكير العالم بأحقية اليهود في فلسطين، وأن من الإيمان بالرب أن تُقام دولة لليهود على أرض فلسطين، لقد استقرت في الوعي الغربي رواية أن العرب الفلسطينيين تركوا بلادهم عام ١٩٤٨م بناء على طلب قادة الجيوش العربية إلى درجة جعلت الغرب ينظر إلى إسرائيل في كافة جولات صراعها مع العرب على أنها الضحية، لكن الأسطورة الصهيونية وجدت أخيرًا من يفندها من الإسرائيليين أنفسهم أو من سموا بالمؤرخين الجدد، قام هؤلاء بفحص العديد من الوثائق التي تم رفع السرية عنها خصوصًا الوثائق التي تتعلق بقيام دولة إسرائيل، المؤرخ اليهودي الإسرائيلي "بني موريس" مثلاً بعد بحث مستفيض حمَّل إسرائيل مسئولية إيجاد مشكلة اللاجئين الفلسطينيين.

المؤرخ البروفيسور "ايلان بابه" أستاذ التاريخ بجامعة حيفا في كتابه الذي صدر في بريطانيا "التطهير العرقي في فلسطين"، استخدم لأول مرة عبارة "التطهير العرقي"، معتبرًا ما قامت به المنظمات الصهيونية عام ١٩٤٨م هو جريمة ضد الإنسانية، وأن التطهير العرقي الذي تم في فلسطين هو خطة ممنهجة كانت قد وضعتها الصهيونية مقدمًا حتى قبل إعلان دولة إسرائيل، وقد ذكر ايلان بابه في كتابه إلى أنه ليس صحيحًا أن إسرائيل كانت تواجه سبعة جيوش عربية مجتمعة سنة ١٩٤٨م، إذ أن مجمل ما حشدته الدول العربية كان نحو ٢٤ ألف جندي في مقابل ٦٥ ألف مقاتل صهيوني مزودين بأحدث الأسلحة وعلى قدر عال من التدريب العسكري حيث كان معظمهم ممن خدموا في الفيلق اليهودي الذي حارب مع الحلفاء في الحرب العالمية الثانية.



إتجاه وأعداد اللاجئين
الفلسطينيين في حرب
947م - 1948م
عكا
حيفا
38000
صفد
48500
سوريا
طبرية
الناصرة
28000
113500
9500
15500
بيسان
جنين
5000
البحر الابيض
المتوسط
طولكرم
نابلس
11500
يافا
113500
رام الله
الرملة
92000
القدس
55500
الأردن
75000
البحر
الميت
غزة
22000
66000
بئر السبع
مصر

كما يُشير الكتاب إلى أن إسرائيل ظلت الطرف المراوغ في مشروع السلام مع الفلسطينيين، وأنها ما زالت ترفض الاعتراف بمسئوليتها الأخلاقية عن تشريد ٨٠٠ ألف فلسطيني من بيوتهم وأملاكهم وتدمير قراهم، وأنها لا تجد من يجبرها على الاعتراف بمسئوليتها طالما عراب السلام هو الولايات المتحدة الأمريكية التي تنحاز دائمًا إلى جانب إسرائيل. وقد انتقد المؤرخ الجديد ايلان بابه الآخرين لأنهم لم يأخذوا بالوثائق العربية عما جرى في عام ١٩٤٨م لاستجلاء الحقائق كما فعل هو حينما استعان بكتاب "كي لا ننسى" للدكتور وليد الخالدي.

الموقع	التقديرات البريطانية	التقديرات الأمريكية	تقديرات الأمم المتحدة	تقديرات إسرائيلية خاصة	تقديرات الحكومة الإسرائيلية	تقديرات المصادر الفلسطينية
غزة	٢١٠,٠٠٠	٢٠٨,٠٠٠	٢٨٠,٠٠٠	٢٠٠,٠٠٠	-	٢٠١,١٧٣
الضفة لغربية	٣٢٠,٠٠٠	-	١٩٠,٠٠٠	٢٠٠,٠٠٠	-	٣٦٣,٦٨٩
الأردن، سوريا، لبنان	٢٨٠,٠٠٠	٦٦٧,٠٠٠	٢٥٦,٠٠٠	٢٥٠,٠٠٠	-	٢٨٤,٣٢٤
المجموع	٨١٠,٠٠٠ فبراير ١٩٤٩	٨٧٥,٠٠٠ (١٩٥٣)	٧٢٦,٠٠٠ سبتمبر١٩٤٩ ٩٧٥,٠٠٠ مايو١٩٥٠	٦٥٠,٠٠٠ نهاية ١٩٤٩ /٦٠,٠٠٠ ٧٦٠,٠٠٠ (١٩٤٨-١٩٥٠)	٥٢٠,٠٠٠ (١٩٤٨) ٥٩٠,٠٠٠ (١٩٥٢)	٨٥,٢٧٦ نوفمبر١٩٥٢ /٧٧٠,١٠٠ ٧٨٠,٠٠٠ نهاية ١٩٤٨ /٧١٤,١٥٠ ٧٤٤,١٥٠ منتصف١٩٤٨

تقدير أعداد اللاجئين الفلسطينيين ومواقع وجودهم ١٩٤٨ – ١٩٤٩م، يضاف إلى ما ذكر أعلاه، ما مجموعه ٢٨٩٤٨٩ من اللاجئين الفلسطينيين، الذين وفدوا إلى مصر والعراق وبلدان عربية أخرى.

العدد	١٩٩٠ – ١٩٩١ م	١٩٩٥ م	٢٠٠٠ م
الفلسطينيون في العالم	٥,٧٨٠,٤٢٢	٦,٦٩٢,١٥٣	٧,٧٦٠,٦٠٨

لكن إسرائيل لا تدافع فقط عن ثوابتها ولم تصل بعد إلى مرحلة الدفاع كمتهمة خصوصًا وأن الإعلام العربي ما زال خجولاً ولا يلتفت إليه أحد في العالم كون المحاور العربي ما زال يحتاج إلى مران لكي يستطيع أن يتحدى المحاور الصهيوني أمام المتفرج الغربي.

المحاور الصهيوني أمام الإنسان الغربي يبدو هادئًا ويتبع أسلوبًا مثاليًا بالطريقة التي يحب أن يستمع إليها الإنسان الغربي، فحينما يُوجِّه للصهيوني سؤالاً مثلاً فإنه يجيب بطريقة هادئة تجعل المستمع ينصت إليه أكثر، ويدعه يأخذ انطباعًا كأن ما يسمعه من المتحدث هو الحقيقة بعينها، فإن استعمل الصهيوني يديه مثلاً خلال الحوار فإن حركاتها تعبر عن فكرته التي يحاول إقناع المستمع بها، في المقابل وهو ما يحدث في أغلب الأحوال، المحاور العربي لا يبدو كذلك، فهو غير مرتب الأفكار وإن استعمل يداه كوسيلة للإقناع مثلاً فإنه يُشير بهما إلى المحاور الذي يقابله مباشرة، كأن يشير بإصبعه مثلاً إلى من يجلس أمامه، ولأن نفس المحاور العربي قصير لأنه يأتي بفكرة واحدة فقط، فسرعان ما يبدو عليه التعصب فيفقد السيطرة على نفسه، ويمكن أن تحدث له سقطات خلال طرح حجته وسرعان ما تسجل ضده ويصبح متهما في نهاية الحوار وتصبح قضيته خاسرة.

لقد اشتهر الإعلام الصهيوني في خطابه إلى الغرب ليس فقط بالتبريرات وبالدفاع عن أهدافه المباشرة، إنما أيضًا بزرع القناعة بأهمية وجود إسرائيل بالنسبة للحضارة الغربية في هذا المكان المتقدم للغرب في المنطقة العربية، أو كما قال تيدور هرتزل منذ البداية، "إن الدولة اليهودية ستكون حائطًا يحمي أوروبا في آسيا وسوف يكون حصنًا منيعًا للحضارة في وجه الهمجية".

وقال أيضًا حاييم وايزمان الذي شغل منصب رئيس الوكالة اليهودية العالمية ثم منصب رئيس الدولة في إسرائيل، "إن القضية الصهيونية هي قتال الحضارة ضد الصحراء وكفاح التقدم والفاعلية والصحة والتعليم ضد الجمود الفكري"، ولقد التزم الإعلام الصهيوني بتلك الأقوال وعرف كيف يمضي على نفس الوتيرة، واستطاع أن يحتل منطقة اللاوعي عند المواطن الغربي وجعله يسن القوانين التي تضمن استمرار المفاهيم الصهيونية لكي تنقل للأجيال الجديدة، فلا نستعجب حينما نرى الشباب الغربيين متعصبين ويدافعون عن الصهيونية وعن الكيان الإسرائيلي وممارساته في الأراضي المحتلة، لذا ظل المواطن الغربي بصفة عامة لا يملك إلا أن يتعاطف مع إسرائيل واحة الديمقراطية بين قطعان العرب الهمج أو كما تُصورهم الدعاية الصهيونية!

منذ المؤتمر الصهيوني الأول عام ١٨٩٧م نص البند الثالث من مقررات ذلك المؤتمر على "ضرورة العمل على نشر الروح والوعي بين يهود العالم وتعزيزهما لديهم من أجل دفعهم للهجرة إلى فلسطين"، لذلك فمنذ قيام إسرائيل عام ١٩٤٨م أصبح الإعلام حجر الزاوية في السياسة الخارجية الإسرائيلية، الإعلام الصهيوني له الفضل في ترغيب يهود العالم وإقناعهم بالقدوم إلى إسرائيل، وله الفضل في زعزعة ثقة العرب بأنفسهم وتنشيط الخلافات العربية العربية، وله الفضل أيضًا بتصوير إسرائيل الطرف المعتدى عليه أمام العالم، وله الفضل في إبقاء الهولوكوست مقررًا دائمًا في وسائل الإعلام الغربية على وجه الخصوص، وجعل المواطن الغربي من الأجيال اللاحقة يشعر بأنه أيضًا مسئول عما حدث فتبقى المساعدات والتبرعات للكيان الصهيوني سيلاً لا ينقطع، كما وأن الإعلام الصهيوني له الفضل في إقناع المواطن الغربي بأن إسرائيل هي جزء من حضارته وخط أمامي للدفاع عن مصالح أمته، لقد أصبحت إسرائيل بفضل إعلامها المتفوق مثل الطفل المدلل لدى الولايات المتحدة الأمريكية كونها تبدو كحامية للمصالح الأمريكية في ذلك الموقع المتقدم.

لقد أدرك الكيان الصهيوني منذ البداية أيضًا، بأن الاعتراف الدولي بدولة لشعب غير موجود ويتم تجميعه من القارات، لا يكفي ولا يُعتبر ضمانه لبقاء هذا الكيان، لذا عمل على السعي لإيجاد ضمانه لاستمرار هذا الكيان، وانتهى به البحث إلى ضرورة خلق إحساس لدى الرأي العام الغربي بأن مصالحه آمنة وتقدمه يرتبط بحد كبير ببقاء الكيان الصهيوني والمحافظة عليه فكان الاهتمام بالإعلام أولاً هو الخطوة الأولى، وعلى إثر هذا نشأت الجمهوريات والممالك والإمبراطوريات الإعلامية التي جعلت أهم أهدافها خدمة الكيان الصهيوني.

يُعتبر "روبرت مردوخ" أحد أساطين الإعلام في العالم، ومردوخ ليس يهوديًا كما يُشاع عنه وإن بدا اسمه يهوديًا، لكنه يميني متطرف يموت عشقًا بالصهيونية، فهو من المسيحيين الأصوليين الذين يؤمنون بالتفسير الحرفي للتوراة (المحافظين الجدد)، وهو ملتزم بما تمثله الصهيونية بالنسبة لوجود دولة لليهود في فلسطين وإن كان التيار الذي يقود الصهيونية علمانيًا، يُعتبر مردوخ الصوت الأقوى المُعبِّر عن المحافظين الجدد في الولايات المتحدة وإن كان أصله استرالي، قالت بعض التقارير الأمريكية الموثوق بها (تقرير واشنطن لشهر يونيو ١٩٩٥)، "إن موردوخ لا هو يهودي الديانة ولا من أعضاء جمعية الصداقة الأمريكية الإسرائيلية (إيباك)، وعلى الرغم من ذلك فهو أفضل من يمكن تكليفه بإصدار مجلتين جديدتين تعملان لدعم إسرائيل إعلاميًّا"، إن مجموعة مردوخ الإعلامية هي واحدة من ثلاث مؤسسات عالمية تحرص إيباك على شكرها لدعمها إعلاميًا واقتصاديًا لإسرائيل.



هذا وإن من المعروف أن نشر الإعلانات الدعائية في بلاد الغـرب مكلـف جـدًا لسببين، الأول أن عقيدة الاقتصاد في بلاد الغرب تقوم على الدعايـة للمنتجـات، وشيء عادي أن تعتمد أي مؤسسة أو شركة أو مصنع من ناتج الدخل السـنوي ما يعادل أربعين بالمائة في بعض الأحيان كمصاريف للإعلان، الثاني أن الإعـلام الصهيوني في الغرب يدفع أسعارًا خيالية لوسائل الإعلام المحلية لإبقائها مشغولة بما له علاقة بالكيان الصهيوني كنوع من الثقافة النفسية والتربية للمواطنين لكي لا ينسوا ما تود الصهيونية أن تبقيه في ذاكـرتهم مثـل تعامـل إسـرائيل مـع الفلسطينيين وبطشها بهم يعتبر دفاعًا عن النفس، لهذا ربمـا مـن الضـروري الإشارة إلى لماذا تدفع المؤسسات والشركات المؤيدة للصهيونية بسخاء لوسائل الإعلام لكي تكون الأخيرة موالية للصهيونية، فقد يسـتغرب الـبعض منـا وقـد يتساءل من لا يعرفون عن النظام الضريبي في الدول الديمقراطية أو في الولايات المتحدة الأمريكية مثلاً، النظام الضريبي هناك تصاعديًا وعند رقم معـين للـدخل السنوي للفرد أو للشركة ما يأتي من ربح أو دخل بعد ذلك يكون للضريبة (دخلاً للدولة)، لذلك يتساوى للفرد أو المؤسسة التي تتجاوز أرباحها السـنوية سـقف الحد الأعلى إذا كانت تدفع الفائض للدولة على صورة ضريبة أو تبدده على صور مصاريف مختلفة منها أجور الإعلانات، لذا شيء طبيعي أن يُذاع برنـامج فـي الراديو أو التلفاز ويلصق به بأن الشركة الفلانية أو المصنع الفلاني تم بواسطته إعداد هذا البرنامج أو الحلقة.

من هنا نجد أن الإعلام الصهيوني النافذ الأفكار في الغرب، جعل الـدول الغربيـة ومنظمات حقوق الإنسان، لا تجد ما تقوله للفلسطينيين المطالبين بحقوقهم سوى لا جدوى من المقاومة، وهي بذلك تقول للعرب بطريقة غير مباشرة أن إسـرائيل ليس وحدها في الميدان حين الضرورة، ومن ثم تعمل بهكذا أسلوب على تحطـيم أي أمل في النفوس بإمكانية تغيير الواقع، حينما نتحدث عن الإعلام الصـهيوني فنحن لا نقصد مدحه، وإنما فضحه وبعث الحوافز من أجل مواجهته، لأنه لـيس

أفضل من التعلم من الأعداء عن طريق كرههم ومحـــاربتهم بـــنفس أســـلحتهم، فالإعلام الصهيوني لا يترك صغيرة أو كبيرة إلا ويحاول توظيفها والاستفادة منها حتى ولو بربح قليل، لو أخذنا مثلاً موضوع أسر الجندي الإسرائيلي الذي اعتقلته حركة المقاومة الإسلامية حماس قرب قطاع غزة، لما كان خطف حماس للجندي الإسرائيلي "جلعاد شليط" بزيه العسكري لا يترك حجة للإسرائيليين بـــأن يقولـــوا شيئًا للعالم لاتهام الفلسطينيين بالهمجية والإرهاب بسبب أن المبـــرر الأخلاقـــي موجود بين عدوين لدودين يعرف العالم كله بذلك، راحت إسرائيل تســـوِّق عبـــر آلتها الإعلامية، بأن اختطاف الجندي الإسرائيلي تم في المنطقة التـــي لا تحتلهـــا إسرائيل، وأن الجندي كان يقف على أرض إسرائيل وليس في قطاع غزة، لهـــذا نرى حتى أن عملية أسر الجندي الذي كانت مجموعته تتعامل مع المقاومين فـــي قطاع غزة وكانت تدمر بيوت الفلسطينيين وتتلـــف المحاصـــيل، يـــود الإعـــلام الصهيوني أن يجعل إسرائيل الطرف المعتدى عليه، وهي الضحية التي تدفع الآن ثمنًا هو الجندي الأسير، وبذلك فالإعلام هنا يُخفي أن كل فلســـطين محتلـــة، ولا نستغرب حينما طالبت آلة الغرب الإعلامية بإطلاق سراح جلعاد شاليط حتـــى أن رؤساء الدول الذين يعتبر وقتهم ثمينًا، رأيناهم كيف كان الواحد منهم يسافر مـــن بلده إلى الشرق الأوسط لأجل أن يقابل أحدًا يمكن أن يتحدث معه عن موضـــوع إطلاق سراح الجندي الصهيوني، الرئيس الأمريكي السابق "جيمي كارتر" جاء إلى الشرق الأوسط بحجة الحديث عن السلام بين سوريا وإســـرائيل، وحينمـــا قابـــل الرئيس الأسد رئيس سوريا طالبـــه بالتوســـط لـــدى حمـــاس لإطـــلاق الأســـير الإسرائيلي، وفعل نفس الشيء حينما قابل رئيس المكتب السياسي لحركة حماس "خالد مشعل"، وأن الرئيس "ساركوزي" رئيس فرنسا فعل نفس الشـــيء وحـــاول لدى أكثر من زعيم عربي بالنسبة لإطلاق الأسير الإسرائيلي، المؤسف له أن فشل الإعلام العربي والتحيز الغربي لإسرائيل جعل الجميع ينسون أن إسرائيل تعتقل ما يزيد عن أحد عشر ألفًا من الأسرى الفلسطينيين الذين تسميهم إرهابيين، ولا أحد في الغرب يهتم بإطلاق سراحهم.

إن الإعلام الصهيوني لا ينام، ولا يدخر وسيلة ولا يوفر وقتًا ولا صغيرة أو كبيرة إلا ويحاول الاستفادة منها، خذ مثلاً ببجاحة كبيرة وبمكر وخبث، تقوم إسـرائيل بخداع العقل العربي بين آونة وأخرى، فنسمع أنها قـد أمـرت جيشـها بإزالـة المستوطنات غير الشرعية من أراضي الضفة الغربية، وكأن هنـاك مسـتوطنات شرعية وغير شرعية على الأراضي الفلسطينية، الإعـلام الصـهيوني حقيقـة يتلاعب بأسماء ونوعية المستوطنات لأجل أن يتعود العقل العربي على أن وجود المستوطنات شيء طبيعي من حيث المبدأ، ويحاول أن يروض العقل العربي على أن هناك مشكلة صغيرة فقط هي المستوطنات غير الشرعية، وأنها المشكلة التي يمكن بحثها.

ومثل هكذا أمور أيضًا ما يطلقه الإعلام الصهيوني على الضفة الغربيـة وقطـاع غزة، فحينما أعلنت دولة إسرائيل عـام ١٩٤٨م كـان مـا زال وجـود فعـال للإمبراطوريتين البريطانية والفرنسية في العالم، لذلك كانت إسرائيل تتمثل بهمـا لكي تحوز على دعمهما فكانت تُطلق على ما تُنشئه من قرى ومناطق سكنية فـي فلسطين بالمستعمرات، لأن الإنجليز والفرنسيين كانوا يستعملون هذه الأسماء في البلاد التي كانوا يحتلونها، وبعد أن أصبحت أمريكا هي المهيمنة عالميًا اسـتبدل الإعلام الصهيوني تسمية المستعمرات بأن أطلق عليها، المستوطنات! إن التحول من تسمية المستعمرات إلى المستوطنات كان تمثلاً بمـا تأسسـت عليـه دولـة الولايات المتحدة الأمريكية بعد الاستقلال عن بريطانيا حينمـا بنـى الأمريكـان المستوطنات على حساب أراضي الهنود الحمر.

وليس هذا فحسب بل إن إسرائيل راحت تطلق الآن على الضفة الغربية وقطـاع غزة اسم "المناطق"، وهي لا تعني بالتسمية أن يقبلها العرب بل هي أيضًـا مـا زالت تخاطب الوجدان الأمريكي والغربي بصفة عامـة، فالتسـمية لا يجـب أن نأخذها على عواهنها، إنما الإعلام الصهيوني يقوم عليه علماء نفـس وعلمـاء اجتماع ومخططين متمرسين في علم النفس، إن استعمال اسم المنـاطق للضـفة وغزة هو توافق مع المفهوم لبلاد العالم الجديد أمريكا الشمالية واسـتراليا ومـا

شابه، نجد مثلاً إنه يوجد مناطق كثيرة في شمال أمريكا يطلق عليها منطقة أو مناطق مثل منطقة "يوكون" و"منطقة الشمال الغربي" بكندا، وتُعرَّف المنطقة في دولة كندا مثلاً، بأن بها سكانًا ولهم حياة متجانسة ويعيشون تحت حكم ذاتي، إلا أنهم لا يرقون بأن يكون لهم كيان مستقل، لذا فهم يعيشون داخل كيان دولة كبرى هي المسئولة عن أمورهم الخارجية، وفي نفس الوقت ليس لهم حق في الدولة التي تقع مناطقهم فيها.

كما أن حرب المصطلحات كما يشير إلى ذلك بعض الإعلاميين العرب، لا تتوقف عند ما يُطلقه الصهاينة من أسماء على المستعمرات والمستوطنات وعلى أسماء قطاع غزة والضفة الغربية ومناطق فلسطين المختلفة بصفة عامة، إنما هو يشمل أشياء كثيرة لها علاقة بالصراع العربي الإسرائيلي والحق الفلسطيني التاريخي على وجه الخصوص، من ذلك مثلاً أن الإعلام الصهيوني ما فتئ يتلاعب بالعبارات وصكوك النصوص والمعاني، فعبارة "حق إسرائيل في الدفاع عن نفسها" مثلاً، هي عبارة في غير محلها إذا تذكرنا أن إسرائيل هي قوة احتلال حسب المواثيق الدولية، لذلك إن إسرائيل تستغبي العالم أو أن الرأي العام العالمي مُكمم الأفواه إذا كان يفهم المعنى الحقيقي.

كما أن مصطلح "وقف إطلاق النار" الذي كثيرًا ما يتداوله العرب والإسرائيليون، مصطلح يُعطي انطباعًا وكأن الحرب بين الفلسطينيين وإسرائيل تحدث بين جيشين نظاميين، بينما الحقيقة مغايرة تمامًا، فالاحتلال يمكنه أن يتوقف عن العدوان متى شاء، والشعب المحتل لا يتمشى معه صك وقف إطلاق النار، لأن من حقه متى وجد الفرصة أن يقاوم الاحتلال ما دام الاحتلال قائمًا، وأن استخدام إسرائيل مصطلح "البنى التحتية للمقاومة" هو تعبير لا يعني معناه الظاهر، فالمقاومة الفلسطينية مثلاً لا يوجد لديها مستودعات ومخازن سلاح ومصانع عسكرية، فبناها التحتية هو صمود الشعب الفلسطيني ووجود الفتيات والفتية الذين هم وقود الثورة الدائم على الاحتلال، لذا إن تحطيم البنى التحتية هنا الذي

يدَّعيه الإسرائيليون له معنى واحد، هو أن إسرائيل تعني قتل البشر حتى تكسر شوكة الفلسطينيين!

إن من الزيف الإسرائيلي للحقيقة، أن الدولة العبرية عملت على تسمية الكثير من القرى والمدن العربية في فلسطين وأعطتها أسماء عبرية، فلا غرابة إذن لو عرفنا أن حتى اسم درة الكيان الصهيوني مدينة "تل أبيب" فإن اسمها العربي الحقيقي والأصلي هو "تل الربيع" وقس على ذلك من تسميات لمدن وقرى عربية تم احتلالها عام ١٩٤٨م! هل هناك شك أن تكون إسرائيل رافضة لقبول سلام حقيقي مع الفلسطينيين، وأن ما يتغنى به الإعلام الصهيوني عن السلام والدعوة له، ليس أكثر من ملهاة للعرب، أولاً لكسب الوقت لمزيد من التهويد وبناء المستوطنات، وثانيًا للإبقاء على الدعم الغربي لإسرائيل من ناحية أخرى، إن أكبر دليل على رفض إسرائيل للسلام، هو رفضها تخطيط حدودًا جغرافية لها فتقول عن فلسطين كلها أرض إسرائيل، كما أنها ترفض الحدود الديمغرافية فتقول عن كل من يقيمون على أرض فلسطين شعب إسرائيل، إن إسرائيل في الحقيقة تعمل على تزويد الآلة الإعلامية الصهيونية بالوقود اللازم كلما كاد وقودها أن ينفذ من الأفكار، لهذا هي تتحدث عن السلام وتبقي الحدود مع الفلسطينيين والعرب مشتعلة للادعاء بعدم استقرار المنطقة وعلى الغرب أن يظل يُقدم الدعم لها لكي يضمن مصالحه في المنطقة، وألا ينسى بأنها جزء عضوي من هذا الغرب.

عشية قيام إسرائيل عام ١٩٤٨م حدث إن اختلف الصهاينة على أمر واحد، هو تعيين حدود للدولة الصهيونية، ويومها حسم بن جوريون الأمر وقال إنه ليس مع الرأي الذي يدعو لتحديد حدود الدولة متسلحًا بحجة أن الولايات المتحدة الأمريكية لم تضع حدودًا لها حينما أعلنت الاستقلال، وتم الاقتراع على هذا الرأي بين الزعماء الصهاينة وفاز رأي بن جوريون.

إن الفكر الاستراتيجي العميق لا بد أن يأتي بإعلام على مستواه، بل هذا هو ما حدث بالفعل في إسرائيل حينما وضع زعماؤها حججهم ومبرراتهم وأضاعوا

طريق دولتهم وانطلقوا يضمرون للآخرين ما لا يقولون علنًا في الإعلام، إن إسرائيل دائمًا تتحدث عن السلام العادل أكثر من العرب، ولكن هل حقيقة أن إسرائيل جادة في سلام عادل، إسرائيل تعلم جيدًا أن السلام العادل هو الحقوق الكاملة للشعب الفلسطيني، بمعنى أن وجودها كدولة هو نفي لحقوق الفلسطينيين، لذا فإن إسرائيل منذ البداية تمسكت بشعار، لا يوجد شعب اسمه الشعب الفلسطيني، وأن فلسطين أرض خالية من السكان، والزعماء الصهاينة بعد قيام الدولة تحدثوا برأي واحد لا لكيان فلسطيني بجانب الدولة الصهيونية لأن أحدهما هو نقيض للآخر، فوجود دولة فلسطينية معناه أن الكيان الإسرائيلي مُرشح للزوال ولو بعد حين وهذا كان فهمهم منذ البداية، لذا فإسرائيل في إعلامها ظلت تُنكر وجود الفلسطينيين كشعب منطلقة من رأي الزعيم الصهيوني بن جوريون، بأن اليهود كيان عالمي، والعرب أيضًا كيان عالمي، وما يسمى بالفلسطينيين فهم عرب وحسب، وهكذا بقيت وما زالت تراوغ في موضوع السلام، المُبكي هو أن الصهيونية تعترف ضمنيًا بكيان قومي عربي والعرب للأسف يتجهون حثيثًا نحو الإقليمية!

لهذا، لا يملك المرء إلا أن يُقر بتفوق الإعلام الصهيوني، لأنه إعلام ممنهج ومتوفر له كل الخبرات والوسائل، ولهذا فإنه يستطيع كما يريد أن يقلب الحقائق، وأن يقزم قضية أو خبر، وأن يُضخم شيء إلى الحد الذي يجعل البشر يذرفون الدموع، وهنا يحضرني ذكر أنه خلال فترة الانتفاضة الفلسطينية التي اندلعت ضد الاحتلال سنة ١٩٨٧م وامتدت إلى ست سنوات، كان قد أبدع الإعلام الغربي المحايد في فرض المشاهد المأساوية التي كان يتعرض لها الفلسطينيون العُزَّل رجالاً وأطفالاً ونساءً ومسنين، في تلك الأيام مع عدم توفر شيء كمادة للإعلام الصهيوني لكي يضخمها ضد الفلسطينيين، كون أهالي الأرض المحتلة كانوا لا يملكون وسائل قتالية سوى الحجر، وكانت وسائل الإعلام في الغرب مضطرة أن تذيع أخبار الانتفاضة عملاً بمبدأ حرية الإعلام ولو لمرة واحدة في اليوم على الأقل حتى لا تعتبر مخالفة لقانون الإعلام، في تلك الأيام كان قد مضى حوالي عام على إقامة أسرتي في كندا، وكنتُ كغيري ممن يعنيهم ما يحدث في فلسطين

أتابع الأخبار ساعة بساعة حتى بعد منتصف الليل يوميًا، وكنتُ أظلُ متحفزًا أقلب قنوات التلفاز باحثًا عن خبر أو تحليل أو أتصفح الصحف المحلية واقرأ التحليلات ناشدًا أن اعرف إلى أين يمكن أن تصل الأمور مع الانتفاضة الفلسطينية، كنتُ أشاهد الدماء تنزف من الفلسطينيين بينما الجنود الإسرائيليون يزجرون الأطفال والمراهقين من الفلسطينيين ويضربونهم ويقبضون على بعضهم ويعتقلونهم ويحشرونهم في السيارات التي كانت تنقلهم إلى معسكرات الاعتقال.

ولما كنا نسهر إلى ساعات متأخرة من الليل ونحن نتابع الأخبار بسبب القلق على حياة الناس في فلسطين، في البداية كنا نظن بأن القضية الفلسطينية دخلت وجدان الإنسان الغربي وأنه سرعان ما سيصبح مساندًا للحق الفلسطيني، إلا أن الأمر لم يتغير بسبب بسيط، كانت كثير من قنوات التلفاز في كندا وفي بلاد الغرب بصفة عامة، كانت في كل يوم تضع أفلامًا وثائقية بين برامجها عن الهولوكوست اليهودي أو ما يُطلق عليه بالمحرقة النازية، كنتُ كمشاهد جديد لمثل هكذا أمور احزن وأشفقُ كثيرًا على ضحايا النازية خصوصًا وأن الإخراج الإعلامي الممتاز، والتصوير والإعداد وتتابع المَشَاهد، وصوت المعلق الذي كان ينسجم مع الحدث، وكذلك الموسيقى التصويرية التي تتحدث مع الصور والصوت فتدخل الروح كنسمة حزن تغطي كل شيء في إحساس البشر، كان هذا يجعلنا نتأثر بعمق لما حدث لليهود على يد النازية إلى حد أننا نشعر بأن ما يتعرض له الفلسطينيون على يد الجيش الإسرائيلي إنما هو شيء يسير بالمقارنة لما حدث لليهود، كانت المشاهد والصور تترك أثرًا بليغًا في النفوس بسبب الإخراج والتفوق الإعلامي الصهيوني الذي يبث للمواطن في الغرب، والآن إذا كنا نحن الذين نكتوي بنار اليهود، نحزن ونشفق على مأساتهم فما بالك بالمواطن الغربي الذي لديه أكثر من سبب للوقوف بجانب إسرائيل ضد العرب.

قيل عن أحد السياح الأمريكان من الذين زاروا إحدى البلاد العربية، وكان أستاذًا جامعيًا متخصصًا بالآثار، قال حينما اطلع على الآثار في البلد العربي وشاهد عراقة تاريخ ذلك البلد وبدت عليه الدهشة، سأله أحد المواطنين من ذلك البلد

ممن لهم علاقة بالآثار عن سر اندهاش السائح، فقال العرب أمة عريقة ولكم تاريخ فانظر هذه الآثار وعمقها في السنين، وتدرج الحديث مع السائح عن قضية العرب المركزية فلسطين، فسأل العربي السائح الأمريكي عنها، فكانت إجابة الأمريكي بأن ليس لديه أية فكرة عن تاريخ الصراع العربي الإسرائيلي، ولا عن تاريخ فلسطين ولا عن تشريد الشعب الفلسطيني من أرضه، وإنما الفكرة التي يحملها من وسائل الإعلام في بلده، هي أن الأرض التي أقيمت عليها (دولة إسرائيل) هي أرض يهودية وهي أرض أجداد اليهود التي أمرهم ربهم بالعودة إليها، وأن ما يُسمى بالفلسطينيين فهم بدوٌ رُحَّل استقروا في هذه المنطقة، فقَبِلَ اليهود العيش معهم، إلا أن الفلسطينيين حاولوا الاستئثار بقسم أكبر من الأرض المخصصة لهم فاضطر اليهود أن يدافعوا عن أنفسهم، إذا كانت تلك هي معلومات المواطن الأمريكي الأكاديمي عن الصراع العربي الصهيوني فما بالك بالناس العاديين في الولايات المتحدة الأمريكية، وهذا يدل على مكانة الإعلام الصهيوني المتغلغل في الحياة الأمريكية الغربية المسكونة بثقافة الاستهلاك التي يهيمن عليها قطاع ضخم من رأس المال اليهودي الذي لا يتوانى عن تقديم الدعم لكل ما يخدم إسرائيل.

إن نفوذ الإعلام الصهيوني يوازي النفوذ اليهودي المالي في أمريكا وأوروبا، فلنا أن نُلمِّح فقط وليس تفصيلاً عن الأزمة المالية العالمية التي هزت العالم في النصف الثاني من سنة ٢٠٠٨م، وكيف أن الاقتصاد العالمي كاد أن ينهار كُليًا، تلك الأزمة التي تفجرت في أمريكا فدمرت بنوك ومؤسسات وشركات وما له علاقة، فهل عرف العالم مثلاً بأن "بنك الاحتياط الفدرالي الأمريكي" الذي يهيمن على الاقتصاد الأمريكي، والذي يدير ويوجه السياسة الاقتصادية في الولايات المتحدة الأمريكية، هو البنك المركزي الوحيد في العالم الذي لا تملكه الدولة، كل البنوك المركزية في جميع الدول تملكها الدول أما هذا البنك فتملكه مجموعة من العائلات الثرية التي أغلبها عائلات يهودية، فإذا تذكرنا أن البنوك الأوروبية التي يملكها اليهود هي من بنى المستعمرات اليهودية في فلسطين قبل قيام إسرائيل

ومن بنى الجامعة العبرية في القدس، ومن انشأ الصندوق القومي اليهودي والوكالة اليهودية العالمية، لو تذكرنا هذا فيمكننا أن نتصور أثر بنك الاحتياط الفدرالي في الأزمة المالية العالمية لسبب في نفس يعقوب، والله اعلم!

ما زال الإعلام الصهيوني يرفع عصا تهمة معاداة السامية في وجه كل من يحاول فضح الممارسات الصهيونية، حتى لو كان مبرر الصهيونية هو صدور قرار ضدها عن أحد المؤسسات الدولية كمجلس الأمن أو الجمعية العمومية أو محكمة العدل الدولية وغيرها، فإذا لم يعجب إسرائيل قرار ما رفضته، وراحت الآلة الإعلامية الصهيونية تُشيع وتؤلب الرأي العام في الدولة على زعيم تلك الحكومة الذي تبنى أصلاً الاقتراح الذي تم التصويت عليه وحاز على الموافقة، وإذا حدث أن حكومة أوروبية رفضت مثلاً استقبال أحد زعماء إسرائيل كنوع من الاحتجاج على ممارسات إسرائيل ضد الفلسطينيين، فإن الإعلام الصهيوني المتمكن سرعان ما يبدأ التلميح بتهمة معاداة السامية كوسيلة ضغط وإساءة للزعيم أو الحكومة المعنية، وليس هذا فحسب بل إن النفوذ الإسرائيلي يستطيع أن يتحدى زعيم أي دولة أوروبية في بلده الذي هو حاكم عليه، وذلك عبر الصحافة المحلية أيضًا وبواسطة المؤسسات المالية وبالطرق المختلفة، وحتى في البرلمان الذي عادة ما يكون به من الأعضاء من هم متصهينيين أكثر من الصهاينة أنفسهم لحاجتهم إلى الدعم الإعلامي والمالي اليهودي.

وهنا لا بد من التعريف بمعنى اللا سامية في الإعلام الصهيوني! يقول الدكتور أيمن أبو شعر، "الساميون، كما هو معروف، هم أبناء سام بن نوح عليه السلام وهؤلاء سكنوا الجزيرة العربية ومناطق سورية الطبيعية في حين سكن الحاميون - أولاد حام بن نوح - في أفريقيا، وسكن اليافثيون أبناء يافث في الشرق الأقصى والأدنى القديم وشكّل معظمهم الشعوب الهندو أوروبية، وبهذا المعنى تكمن الجذور القديمة فيما يسمى بالعداء للسامية - افتراضيًا - لدى أبناء يافث وحام تجاه أبناء سام، أي المواقف ضد العرب أنفسهم باعتبارهم من أبناء سام، وهناك عبارة شعبية دارجة تقول إن اليهود هم أبناء عمومتنا، ولكن الأمر اختلف

جذريًا منذ القرن التاسع عشر حيث تقوقع مفهوم هذا المصطلح ليغدو رصدًا للنفور من اليهود تحديدًا".

لهذا يمكن القول بإن مصطلح اللا سامية يُقصد منه العداء للجنس السامي، وقد اختص به اليهود بسبب تواجدهم في أوروبا وروسيا وتواصلهم الديني مع المسيحية التي أتت بعد اليهودية، لذا راحت آلة الإعلام الصهيونية تستعمل هذا المصطلح كسبب لتخويف من يوجِّهون انتقادًا لما تفعله الدولة الصهيونية أو المتنفذين اليهود من أباطرة المال والاقتصاد في أوروبا وأمريكا حتى أصبحت اللا سامية وسيلة غسيل دماغ ثقافي عالمي، وأضحت اللا سامية تعمل في عقول الكُتَّاب والإعلاميين والمفكرين في العالم، وفي بلاد الغرب خاصة، وسيلة رقابة داخلية، وعملت على زرع إرهاب فكري في النفوس جعلت الكثيرين منهم يفكرون طويلاً قبل المساس بإسرائيل، في كثير من سنين الحقبات الأخيرة من الزمن الحديث، استطاع الإعلام الصهيوني أن يوجِّه تهمة معاداة السامية إلى كثير من الشخصيات الإعلامية والسياسية في العالم حينما كان يقترب هؤلاء من توجيه أي اتهام لإسرائيل.

"آلان مينارغ" مدير الإذاعة الفرنسية الدولية تم طرده من العمل إثر إصداره كتابًا تحت عنوان "جدار شارون" انتقد فيه إسرائيل، المفكر الكبير "روجيه غارودي" البريطاني المعروف اتُهِمَ أيضًا بمعاداة السامية لأنه تحدث بصوت عالي عن فظائع إسرائيل في لبنان وفلسطين وفي عام ٢٠٠٩ فمُنِعَ من زيارة كندا، رئيس وزراء إسرائيل السابق "أريل شارون" اتهم الشعوب الأوروبية سنة ٢٠٠٣م في تصريح له بمعاداة السامية على إثر نشر استطلاع يقول بإن إسرائيل تشكل أكبر تهديد للسلام العالمي.

هذا، ومن الجدير بالذكر أن مصطلح اللا سامية قد ساهم في إبقائه متداولاً في الإعلام هم اليهود أنفسهم، إن كثيرًا من زعماء الصهيونية كانوا يدفعون التجمعات اليهودية إلى عدم الاندماج في المجتمعات التي أقاموا فيها، وكانوا يحضون اليهود على العيش في تجمعات خاصة بهم حتى إن ذلك قد لفت الأنظار

إليهم مما ساعد على إشاعة مصطلح اللا سامية عند الأوروبيين، وبذلك ضمنت الصهيونية أن يتطلع اليهود الأوروبيين للاندفاع نحو الهجرة إلى إسرائيل، لقد لعب نشر بروتوكولات حكماء صهيون إثر الحرب العالمية الأولى دورًا كبيرًا في الحذر من اليهود، وكان أول من أشار إلى مصطلح اللا سامية هو الكاتب الألماني "وليم مار" عام ١٨٧٩م في كتابه " انتصار اليهودية على الألمانية من منظور غير ديني"، ثم تعمقت هذه النزعة بدعم من "بسمارك" مستشار ألمانيا في البداية في ألمانيا، ثم انتشرت في أوروبا، جاء هذا الكتاب بعد الحرب الفرنسية البروسية في سنتي ١٨٧٠ و١٨٧١م التي أثقلت كاهل المتمولين الألمان الذين ألقوا باللوم على اليهود ودورهم في تلك الحرب، ثم أخذ مصطلح معاداة السامية يعني في اللغات الأوروبية معاداة اليهود، أي جرى الخلط بين اليهود الساميين كعِرق وبين اليهود المؤمنين باليهودية كدين.

لقد ساهم اليهود أنفسهم في ترويج مصطلح اللا سامية، فهذا الكاتب الصهيوني "حاييم برينر" وقد صف اليهود في الشتات بأنهم مرضى ومرابون وأقرب إلى الكلاب القذرة، واعتبر المفكر الصهيوني "يعقوب كلاتزكين" أن اليهود في الشتات بلا جذور وحياتهم مزيفة وأنهم جسم نشاز في المجتمعات التي يعيشون فيها، حتى إنه دعا عام ١٩٢٥ إلى دعم المنظمات المناهضة للسامية، إن الكثير من الكُتَّاب الصهاينة شنوا حملات مذهلة ضد يهود الشتات ووصفوهم بأنهم طفيليون وقذرون وعبيد وبغايا وحياتهم حياة كلاب تثير الاشمئزاز مما كان يمكن أن يكون تهمة ساطعة للعداء للسامية لو أنها جاءت على لسان غيرهم، لكنها كانت تمرر لأن لها أهدافًا محددة وهي دفعهم إلى الرحيل إلى إسرائيل، وهكذا يتضح أن فكرة العداء للسامية كما خدمت الفكرة الصهيونية في الماضي فهي تخدم إسرائيل في الزمن الحالي.

إن من اللافت للنظر أيضًا أن معظم المؤتمرات الدولية التي تُعقد من أجل السلام أو دعمًا لحقوق الفلسطينيين كلما أثيرت أزمة ما، فإننا نجد مشاركين فيها من الرموز اليهودية المعروفة عالميًا ممن يدَّعون ظاهريًا بتأييد الفلسطينيين، وعادة

ما يتبوأ هؤلاء مقاعد مرموقة ومميزة في تلك المؤتمرات بافتراضـهم منشـقين عن الصهيونية، فيتاح لهم المشاركة والمساهمة في صـياغة مـا يصـدر عـن المؤتمرات من قرارات، وما هؤلاء في الحقيقـة إلا إنهـم جـزء مـن الخـداع الصهيوني الإعلامي الذي يهدف إلى التخفيف من حدة التهم والقرارات التي قـد تصدر عن المؤتمرات، فعلى الأقل إن وجودهم هناك هو لتخجيل المشاركين حتـى لا يضعون كل إمكانياتهم الفكرية ضد إسرائيل، هذا عدا أن هؤلاء من النشطاء هم جواسيس فكر ضد العرب وكيف يفكرون تجاه الصهيوينة بصفة عامة، ودورهـم لا يقل إعلاميًا عن دور الإعلام المُعادي الصهيوني الرسمي!

لقد تلقف الصهاينة مصطلح معاداة السامية أو اللا سامية لكي يبنوا عليه مواقف سياسية دولية، سواء باسم الهولوكست أيام الحكم النازي لألمانيا أو بجمع كل ما تعرَّض له اليهود في التاريخ منذ العصور القديمة لتوضع في إطار معاداة السامية مع العلم بأن قسمًا لا يُستهان به من يهود العالم غير متحدّر من جزيرة العـرب وطن سام، وذلك لسبب بسيط هو أن العقيدة اليهودية تُبيح زواج المرأة اليهودية من غير اليهودي، ولما كان تعريف اليهودي هو من يولـد لأم يهوديـة، فـأين الصفاء العرقي ليهود العالم لكي يقال إن كلهم ساميون.

لهذا، فإن الإعلام الصهيوني لم يأت من فراغ أو إنه شيء مُكمِّل لمشروع الدولة الصهيوينة بل كان الركن الأساسي الذي خدم الحركة وما زال يقوم بدور فعـال، لقد أدرك اليهود منذ بدايات التفكير بالوطن القومي حتى حينما كان هـذا مجـرد كلمات وجمل وعبارات كان يقولها اليهودي أثناء تواجده في روسيا أو غيرها من الأوطان، فبفضل الإعلام المنظم أضحت تلك الشعارات مباديء أخذت مكانتها فـي وجدان اليهودي وصارت ترقى إلى التقديس.

يقال إن أول تفكير لوطن قومي لليهود كان بعد أن تم طردهم من القدس على يـد الرومان سنة ١٥٣م، وعلى إثر حدوث مذبحة لليهود في روسيا القيصرية سـنة ١٨٨٢م وهجرة عدد لا بأس به منهم إلى دول أوروبا الغربية، وما لاقـوه بعـد ذلك من عنصرية على يد الأوروبيين، لهذا راح فريق منهم يـدعو إلـى التكتـل

والبحث عن حل، ومنذ ذلك الحين أدرك اليهود فاعلية الدعاية والإعــلام حيثمــا وُجِدا.

إن الكتابات والدعاوى التي كانت تدعو اليهود إلى التكتل جعلت لليهــود صــوتًا صار يُسمع في ألمانيا وفي بريطانيا ثم في فرنسا والنمســا والــدول الأخــرى، وتشجع أغنياؤهم وراحوا يتحدثون باسم الذين يعيشون فــي الجيتــوات (جمــع جيتو)، وصاروا يلمحون بضرورة إيجاد وطن قومي لليهود على أي أرض يمكــن أن يحصلوا عليها، ومنهم من صار يطالب بالعودة إلى فلسطين لأجــل أن تكــون الوطن القومي.

في روسيا صار بعض اليهود يضعون شعارات أخذت مواقع النبوءات الدينية عند العامة، مثل "من سار أربعة أمتار في أرض فلسطين خصه الله بمكان في الجنة"، وقولهم، "أولى بك أن تعيش في صحراء فلسطين من أن تســكن قصــرًا بعيــدًا عنها"، لكن اليهود لم يكتفوا بالتمني وبالحديث مع أنفسهم، إنما سعوا لدى الدول المتنفذة وجعلوها تبحث المشكلة اليهودية وتبارك تأسيس الحركــة الصــهيونية العالمية، بعد ٢٠ عامًا على انعقــاد المــؤتمر الصــهيوني العــالمي الأول عــام ١٨٩٧م، تمكنوا من الحصول على وعد بلفور، وبعد خمسين عامًا أقاموا دولــة إسرائيل، وبعد سبعين عامًا أصبحت إسرائيل دولة ذرية، لكنهم لم ينسوا أهميــة الإعلام ودوره في خدمة الدولة الصهيونية.

وعليه فإن إسرائيل انتقلت بثقلها الإعلامي والمادي إلى الولايات المتحــدة بعــد حرب ١٩٥٦م حينما أدركت حجم النفوذ الأمريكي المتنامي الدولي، فتحول ثقــل الحركة الصهيونية من انجلترا وأوروبا عمومًا بعــد أن وجــدت أن الاســتظلال بالولايات المتحدة الدولة العظمى الأولى، لقد اعتمدت الصهيونية في دعايتها في الولايات المتحدة على وتر حقوق الإنسان، وركزت على دعوى قتل الحكم النازي لليهود، واستغلت الانتخابات الأمريكية واستعملت أصوات اليهود في الانتخابــات الأمريكية، حتى أن بعض مستشاري الرئيس الأمريكي "هــاري ترومــان" حينمــا قاموا بتقديم نصيحة للرئيس بأن يُبقي نوع من التوازن بين تأييده لليهود وعلاقة

أمريكا مع العرب، كان رد الرئيس الأمريكي، "وهل للعرب أصوات في الانتخابات الأمريكية"!

تستند الصهيونية في تجسيد أحلامها على ما تواجد من النبوءات والتشريعات في كتابها العتيد "التلمود"، كما تستند الصهيونية أيضًا إلى "بروتوكولات حكماء صهيون"، لهذا وضعت الخطة السرية للإعلام الصهيوني في العصر الحديث في اجتماع حاخامات اليهود الذي عقد في بودابيست عاصمة المجر عام ١٩٥٤م، يقال إن الاجتماع أوصى بإشعال حرب عالمية ثالثة للتمكين من السيطرة اليهودية على العالم، هذا ويجب التفريق بين اليهودية والصهيونية لأن اليهودية دين وحسب، أما الصهيونية فهي دين وقومية وهنا يكمن خطر الصهيونية بسبب أطماعها.

إن الإعلام الصهيوني إعلام مدروس ومنظم وله أهداف واضحة وثابتة، ويتناغم مع الاستراتيجية المتكاملة الدبلوماسية والعسكرية والاقتصادية لدولة إسرائيل بحيث تتحقق الأهداف ويكتسب الأنصار، يقول الدكتور "محمد ناصر" في موقع دنيا الرأي، "ومن هنا حدد الإعلام الصهيوني جماهيره في ست دوائر رئيسية هي: اليهودية العلمية أوروبا الغربية، أمريكا الشمالية، أوروبا الشرقية، أفريقيا وآسيا، أمريكا اللاتينية، وخصصت لكل جمهور استراتيجية إعلامية مناسبة وأعدت لكل منها برامج تطبيقية تتناسب مع كل جمهور على حدة".

بعد أن قويت شوكة الصهيونية في الولايات المتحدة، وأصبحت إسرائيل دولة، صار وجودها شرعيًا بعد أن دخلت عضوية الأمم المتحدة، صارت لا تتورع أن تتحدى من يكون من الشخصيات العالمية إذا وقف في طريق أهدافها، وأن تصفهُ بالمُعادي للسامية، التي أضحت السوط الذي تلوح به في وجه كل من ينتقد أو يشكك بنبوءة دنيوية قيلت في حق الحركة الصهيونية ودولتها إسرائيل، لم يُستثنى أحد من تحدي الصهيونية، سواء كان من ساسة الدول وزعمائها أو أساتذة الجامعات أو الفنانين أو الصحفيين أو المؤرخين أو الكُتَّاب، وغيرهم، لم يسلم من الصهيونية مثلاً "فورستال" وزير دفاع أمريكي سابق و"دورتي تومسون"

الصحفية، و"أرنولد توينبي" المؤرخ البريطاني الشهير، و"ايرنست بيفنا" وزير خارجية بريطانيا سابقًا، وهناك الرئيس الفرنسي "شارل ديجول" الذي قال عشية الحرب العربية الإسرائيلية عام ١٩٦٧م "إن فرنسا ستعاقب من يبدأ الحرب"، ونفذ قوله وأوقف بيع السلاح لإسرائيل بعد أن ثبت بأنها من بدأ العدوان على العرب، لكن الصهيونية قامت قيامتها على ديجول، ولم يتركوه حتى أقاموا المظاهرات الطلابية ضده في فرنسا وأسقطوه في الانتخابات عام ١٩٦٨م رغم أنه أحد أبطال المقاومة العالميين خلال الحرب العالمية الثانية.

وأما رجل السلام الشهير، رئيس النمسا "كورت فالدهايم" الذي شغل منصب سكرتير عام الأمم المتحدة لدورتين متتاليتين، فقد حاصرته الصهيونية إعلاميًا على إثر مناصرته لحق تقرير المصير للشعب الفلسطيني في الجمعية العامة للأمم المتحدة خلال عمله كسكرتير عام للأمم المتحدة، واستطاعت الصهيونية بعد ذلك أن تستصدر أمرًا من المحكمة الفيدرالية الأمريكية بعدم التصريح له بالقدوم إلى الولايات المتحدة الأمريكية، بعد أن أصبح بالانتخاب الديمقراطي الحر مستشارًا للنمسا، وكل المحاولات التي قام بها الكثيرون من رؤساء زعامات عالمية لرفع الحظر عن كورت فالدهايم لزيارة الولايات المتحدة باءت بالفشل، وبذلك مُنع من حضور اجتماعات المؤسسات الدولية التي كانت تُعقد على الأرض الأمريكية رغم شعبية فالدهايم العارمة في النمسا، كل ذلك حدث تحت حجة أن كورت فالدهايم كان ضابطًا برتبة صغيرة في الجيش النازي حينما كان يخدم في اليونان وهو في العشرينات من عمره أثناء الحرب العالمية الثانية، والصهيونية في الحقيقة كانت تعاقبه على مواقفه من القضية الفلسطينية في الجمعية العامة وليس لأنه كان عسكريًا.

أما الرئيس الأمريكي "هاري ترومان" الذي أعلن اعتراف أمريكا بإسرائيل في نفس اليوم الذي أعلن فيه ديفيد بن جوريون قيام دولة إسرائيل، يقول الداعية الإسلامي الدكتور "محمد ناصر" في هذا، خلافًا لما يظنه الكثيرون فإن ترومان لم يرتمي طوعًا في أحضان الحركة الصهيونية بل إنه في بداية عهده كرئيس

للجمهورية أراد أن يقتفي آثار سابقه "تيدور روزفلت" في اتباع سياسة متوازيـــة حيال القضية الفلسطينية، كان روزفلت قد اقتنع بأن العرب ســيقاومون تهويــد فلسطين بشدة، وأن المصالح الأمريكية في البلاد العربية ستتعرض للخطــر فـــي حالة انحياز الولايات المتحدة للجانب الصهيوني، وأما ترومان كمــا بــيَّن فـــي مذكراته "ناحوم جولدمان" رئيس المؤتمر اليهودي العــالمي الســابق، إذ كتــب جولدمان يقول بإن ترومان بيَّن عدة مرات بأنه لا يرى أية وسيلة للخروج مــن المأزق الفلسطيني، لذلك فإنه يود الانسحاب من الموضوع كله، ومن ثــم لجــأت زعامة الصهيونية مع ترومان إلى أسلوب الترغيب والترهيب حيث أنهم رأوا في طرحه هذا مضرة تصيب صميم خطط الحركة الصهيونية.

بعد وفاة ترومان بعدة سنوات أذاعت "ابنته مارغريت" سرًا لــم يكــن يعرفــه إلا القلائل، فقد ذكرت أن أباها استلم تهديدًا بالقتل إن هــو لــم يســتجب للمطالــب الصهيونية، مما يدل على أن الحركة الصهيونية استخدمت جميع أســلحتها فـــي الضغط من التلويح بالمكافأة إلى التهديد بالقتل.

هذا، كما أن الرئيس الفرنسي "جيسكار ديستان" لم يسلم من هجوم الصـــهيونية، حينما قال خلال زيارة له لبلدان الخليج العربي سنة ١٩٨٠م بإن لا بد من إعطاء الفلسطينيين حق تقرير المصير، على إثر ذلك قامت وسائل الإعلام الصهيونية في أوروبا في انتقاد سياسة فرنسا في الشرق الأوسط، وراحت تدعو يهــود فرنســا بعدم انتخاب المرشحين في الانتخابات النيابية الــذين يعملــون ضــد المطالــب الأساسية لأمن الكيان الصهيوني.

من ناحية أخرى، فقد برعت إسرائيل في استغلال الإعلام فـــي مجــالات كثيــرة، وذلك بواسطة الخبراء الذين يرسلون إلى الدول الناميــة، ولا يتورعــون عــن ممارسة الأعمال البسيطة وتقديم الإنسان الإسرائيلي كصديق محب للآخرين عــن إعداد مسبق، ووجدت إسرائيل أيضًا أن ما يخدم قضــيتها هــو الاشــتراك فـــي الأنشطة الرياضية العالمية والحفلات الفنية والسينما وإقامة المعــارض وتبــادل الزيارات وإلقاء المحاضرات في الدول الصديقة، وقد وجدت إسرائيل أن الاقتراب

من الآخرين والتحدث معهم من أنجح الوسائل التي تُقدم صورة جيدة عن إسرائيل.

من وسائل الدعاية الصهيونية في العالم، "المجلس الصهيوني الأمريكي"، وهو يتألف من عدة لجان مختلفة تُراقب كل ما يُنشر أو يذاع في وسائل الإعلام وفي السينما والكتب والتصدي له إذا لزم الأمر، كما أن اتحاد العمال في إسرائيل "الهيستدروت" هو جهاز يُسيطر على الحركة العمالية اليهودية في العالم، والهيستدروت يشترك في مؤتمرات الاتحادات العمالية الدولية وخصوصًا اتحادات العمال في الدول النامية، يقوم الهيستدروت مثلاً بتكريم الرؤساء الأمريكيين بإطلاق أسمائهم على اتحادات العمال التي ينشئها في الولايات المتحدة، ويمنح جائزة الإنسانية لأحد الرؤساء ممن له مواقف مميزة تجاه إسرائيل، كما يعمل على تدريب القادة النقابيين في المعهد الأفريقي الآسيوي للدراسات التعاونية العالمية، وينشد الهيستدروت توطيد العلاقة مع اتحادات العمال في الدول الإسلامية بهدف إقناعهم بأن الصراع هو مع العرب وليس مع المسلمين.

هذا، ومن وسائل الإعلام الصهيونية أيضًا، المؤتمرات الاشتراكية الدولية، وتهدف إسرائيل إلى إقناع الدول الاشتراكية بأنها مختلفة عن الدول الدكتاتورية التي حولها، وقد حضرت إسرائيل جميع مؤتمرات الاشتراكية الدولية وكان ديفيد بن جورين عضوًا بالحركة الاشتراكية، ومن أشهر رؤساء الاشتراكية الدولية بعد الحرب العالمية الثانية، مستشار النمسا السابق "برونو كرايسكي" وبالمناسبة هو يهودي أيضًا!

من أنشطة الإعلام الصهيوني للاستمرار في التوجيه والحشد، "معسكرات الشباب" التي تقام في إسرائيل للجنسين، والهدف هو إعدادهم عسكريًا بالإضافة إلى التوجيه والإرشاد، كما أن الأنشطة الشبابية تلعب دورًا هامًا في علاقة إسرائيل مع الدول كالأفريقية مثلاً، لقد حرصت إسرائيل أن تغزو دول أفريقيا إعلاميًا واقتصاديًا، فأرسلت الخبراء وتبادلت الزيارات وأقامت معسكرات للشباب ليس في إسرائيل فقط بل في الدول الأجنبية أيضًا، اتجهت إسرائيل بكثافة إلى القارة

الأفريقية لكي لا تظل إسرائيل معزولة، ذلك بعد أن سطع نجم الرئيس المصـــري جمال عبد الناصر حينما أصبح قطبًا بارزًا في حركة دول عدم الانحيـــاز وراحـــت مصر تحتل مكانة مميزة عند معظم الدول النامية وأضحت إســـرائيل فـــي شـــبه عزلة، فكان أن توجهت إلى أفريقيا لفك عزلتها لتصنع توازنًا لما حققتـــه مصـــر برئاسة ناصر من مكانة دولية.

هذا، ومن الجدير بالذكر، أن إسرائيل قد اهتمت بدول أمريكـــا اللاتينيـــة أيضًـــا، فأقامت معها العلاقات وأصبح لها فيها نفوذ على إثر وجود الجاليـــات اليهوديـــة الكبيرة التي لجأت إلى تلك الدول خلال الحرب العالمية الثانية حينما كان يتعرض اليهود للخطر في كل من ألمانيا والنمسا والمناطق التي كانت تحتلها ألمانيا، يبلغ عدد الصحف اليهودية التي تصدر في أمريكا اللاتينية كما يقول الـــدكتور محمـــد ناصر مائة وثلاث وعشرين صحيفة، كما أن الصـــحف اليهوديـــة التـــي تصـــدر بالأسبانية والبرتغالية وهما اللغتان السائدتان في دول أمريكـــا اللاتينيـــة خمـــس وخمسين صحيفة، هذا وتقف الصحف الكبرى في معظـــم دول أمريكـــا اللاتينيـــة بوجه عام موقفًا مغرضًا من كافة القضايا العربية مدفوعة بالدعاية المضللة التي تروجها الصهيونية والدعاية المدفوعة الأجر.

إن كثيرًا من المفكرين العرب من ذوي الرؤوس الكبيرة ما زالوا لا يـــأبهون ولا يترددون في السعي الحثيث للوصول إلـــى معرفـــة حقيقـــة التفـــوق الإعلامـــي الصهيوني الذي يكاد يُغطي الكرة الأرضية، وهـــم يـــدركون أيضًـــا، إن الإعـــلام الصهيوني يقظ لكل صغيرة وكبيرة لكل ما له علاقة من قريب أو بعيد بالصـــراع العربي الإسرائيلي، وأن ذلك لا يغفل له جفن عين بل إنه بقي موظِفًا كل إمكانياته لأجل حماية الدولة الصهيونية، والعمل على خدمتها ونموها وازدهارهـــا، فلـــيس من باب الفخر لو قلنا إن النخبة من المفكرين العرب وصـــلوا بتحلـــيلاتهم إلـــى معرفة سر النفوذ الإعلامي الصهيوني. وفي النهاية نجـــد أن مـــا وصـــل إليـــه المفكرون والباحثون العرب من هؤلاء، لا يعدو أن يكون كما هو عنـــد المـــواطن العربي العادي الذي بات يعرف أن إسرائيل متفوقة عسكريًا واقتصاديًا وسياســـيًا

وحضاريًا على كل العرب مجتمعين، ودروس الأيام التي نتعلمها من علاقتنا بإسرائيل هي مصدر المعرفة، وما التفوق الإعلامي الصهيوني سوى أنه مرآة للتفوق في المجالات الأخرى، خلاصة القول بإن الصهاينة يمتلكون الوسائل لهذا التمدد الإعلامي الذي شق طريقه منذ زمن لتهويد المعرفة والسيطرة على العقول بما فيها العقل العربي.

ولكن، ألا يلفت النظر إلى أن هناك أبوابًا مغلقة لم يدخلها العقل العربي حتى الآن لكي يعرف سر تفوق الإعلام الصهيوني، وسبب حصر المعرفة والريادة لليهود في هذا العالم أو ما يُطلق عليه تهويد المعرفة! هذا ومع الإجلال لكل المنظرين العرب الذين يقرون بالتفوق الإعلامي الصهيوني، لكنهم لم يصلوا بعد إلى إيجاد الحل العربي البديل لهذا التفوق، ولو كانوا قد وجدوا فإن الحل قد اصطدم بواقع التشرذم العربي، عدا عن الأسباب الكثيرة لهذا التشرذم، وبالتالي فإن العجز عن إيجاد الحل لتلك الأسباب هو ما جعل الرؤى لا تقبل التطبيق، فالمعرفة وحدها لا تكفي لتشخيص الحالة، لماذا لا نفترض بأن المفكرين العرب يأخذون بنات أفكارهم من آراء وكتب ليست هي بالضرورة المفترض أن ينهلوا منها أسباب المعرفة عن الآخرين، وربما تكون مثل تلك المراجع مخطوطات مشكوك في نزاهة واضعيها، فلو صح أن العرب يأخذون المعرفة من مصادر غير عربية، فإن الفكر الصهيوني الذي خطط ونفذ وعبَّر عن نواياه من خلال الإعلام المتفوق، صار يحتل أيضًا بؤر التطور في الثقافة العربية والإسلامية بحيث أنها فرضًا أصبحت ضمن طبق المعرفة الذي يُعد في مطابخ الصهيونية اليهودية دون أن نعرف نوع الطعام (المعرفة) الذي يقدم إلينا، هل هو من أصول منتجات حقيقية أم من مواد صناعية وكيميائية وتوليفات أخرى، تُعطيه النكهة الصناعية التي قد يعجبنا مذاقها!

وبمناسبة المذاق أو الطعم فهناك حكاية، والشيء بالشيء يُذكر، والحكاية لها مغزى كما يقولون، في أواخر ستينات القرن العشرين كنت قد أنهيت دراستي الجامعية، وتوجهت للبحث عن عمل في منطقة الخليج العربي، كانت الحياة في

تلك الأيام ما زالت بسيطة هناك، لكن بوادر النهضة العمرانية كانت تعلـــن عـــن نفسها بشق الطرق وبناء المساكن الشعبية والمدارس والدوائر الخدماتية، كانـــت مواد الأكل متوفرة ولكن ليس كلها، وحيث أن تلك البلاد تمتاز بمناخها الحار فكنا كل يوم نستهلك مرطبات وعصائر ومياه شرب بكميات كبيرة نسبيًا.

في أحد الأيام ذهبت إلى إحدى البقالات في البلدة التي كنت أقيم فيها فـــي البلـــد العربي الخليجي لكي أتسوق، فلفت نظري في البقالة وجود كراتين كـــل واحـــدة تحتوي على أربع وعشرين علبة معدنية من عصير العنـــب البنـــي أو الأســـود اللون.. سميه كما شئت، في تلك الأيام لم أرى عنبًا طبيعيًا يباع في سوق الفواكه المتواضع في تلك البلدة، لكن حبي للعنب لا يفوقه شيء من الفواكه، لا لشيء إلا لان الإنسان ابن بيئته، فقد نشأت في منطقة زراعية في فلسطين وكانت تشـــتهر بإنتاج العنب، وأضحى العنب جزء من ثقافتنا الغذائية في تلـــك الـــبلاد الخالـــدة فلسطين.

سألت صاحب البقالة، هل ما بداخل هذه العلب المعدنية عصـــير عنـــب حقيقـــي! فأجابني بالإيجاب، اكتفيت برده وسألته عن السعر، واشتريت كرتونة واحدة مـــن ذاك العصير وحملتها إلى سكني، هناك فتحت صندوق الكرتون، وأفرغت ما بـــه من علب العصير ووضعتها جميعًا في البراد (الثلاجة)، ثـــم بـــدأت افـــتح علـــب العصير كلما احتجت، لم يمض سوى أقل من أربع وعشرين يوما إلا وكنـــت قـــد أتيت على شرب كرتونة عصير العنب كلها، قبل أن أتخلص من أخر علبة فارغة بعد الانتهاء من شربها، رحت أقلبها واقرأ ما كان مكتوب عليهـــا بخـــط صـــغير باللغة الإنجليزية، فشد نظري إلى أن ما شربته لم يكن عصير عنـــب بـــل كـــان توليفة مختبرية لعدة مواد أعطت تلك النكهة، ولم يكن عصير العنب الطبيعـــي أي ذكر من تلك المواد!

المغزى من حكاية عصير العنب الذي شربه الكاتب، وظنه عصير عنب حقيقـــي، أن من الممكن أن يتبع العدو وسائل زيف خادعة حتى ولو لم تبدو كذلك بواسطة الإعلام، وذلك لكي يجعلنا نخطيء ونخسر أمامه، ونجعله يحقق أهدافـــه دون أن

نعلم إلا بعد فوات الأوان، بعد أن نكون قد شربنا العصير المزيف، يا ترى كم من الأخطاء ارتكبها العرب استطاعت إسـرائيل أن تقـدمها عـن طريـق الإعـلام الصهيوني فابتلع العرب الطعم فكانت الخيبات!

لا شك أن القضية الفلسطينية قد أزالت غشاوات كثيرة عن عيون كثيرة وأزالـت حجبًا عن عقول كثيرة أيضًا، لأنها عرَّفتنا ما هي الصـهيونية، ولأنهـا عرَّفتنـا كعرب بأنفسنا أيضًا، ولولا القضية الفلسطينية لبقي العرب يعيشون حال امتـداد عهد الخلافة العثمانية من ناحية التعود على أن يكونوا محكومين من الغير.

إحدى البلاد العربية التي كانت محتلة من قِبل بريطانيا وربما أهلها كانوا ما زالوا يعيشون امتداد الحال الذي كان الوطن العربي يحياه أيام العثمانيين، حينما قررت بريطانيا أن تنسحب من ذلك البلد العربي، ورأت أن تمنحه الاسـتقلال المقـرون باتفاقية التبعية لبريطانيا (اتفاقية جلاء)، عرض البلد العربي على بريطانيا كنوع من الحب والألفة والتعود أن تبقي جيوشها في ذلك البلد، وأن البلد العربي مستعد أن يدفع لبريطانيا التكلفة السنوية لوجود هذا الجيش في البلد العربي، لو تمعنـا في حكاية هذا البلد لعرفنا كم أسهمت القضية الفلسطينية في إيقاظ العرب من ذلك السبات الطويل.

حينما يوجز الخطاب الإعلامي الصهيوني رسالته إلينا بالقول، إن إسـرائيل لـن تنسحب ليس من فلسطين كلها بل إنها لن تنسحب حتى إلى حدود سـنة ١٩٦٧م ولن تفعل ذلك! فهذا يكفي أن يكون موقفًا صهيونيًا عنيدًا لنصف قرن آخـر مـن الحروب، وحينما يقول زعماء إسرائيل، سوف نُصر على أن تظل القـدس تحـت السيادة الإسرائيلية، وسنُصر على أن يبقى مستوطنو يهـوذا والسـامرة تحـت السيادة الإسرائيلية، فمعنى ذلك ألا يكون استحقاق للفلسطينيين علـى أرضـهم، فحتى لو كان هناك سلام وحل فإنه سيكون بلا كرامـة للفلسـطينيين بمقـاييس النصر والهزيمة!

من هنا ستظل فلسطين نارًا تحت الرماد لحرائق كبيرة قادمة لا محالة مهما طــال الزمن أم قصر، فالقضية الفلسطينية تمثل وجهًا أخلاقيًا هو نبع لا ينضب لوجــود عربي قومي وحضارة إسلامية عمرها ألف وخمسمائة سنة، فمهما قست الأيــام ستظل فلسطين نبعًا ينبض بالحس القومي الذي يشحذ الهمم ويُعبــيء الإنســان العربي بطاقة كامنة تتنامى مع الأيام ولا بد أن تنطلق يومًا وتتحول إلــى فعـل، وأما الوجود الصهيوني فهو وجود قزم مهما تقوى ومهما بقي حيًا فمصــيره أن يزول، لأنه يعتمد في مصادر فعله على الغير، ولا توجد له منابع للقــوة الكامنــة كما هي متنوعة للإنسان العربي والمسلم، عوضًا على أن جل نجاحات الصهيونية هو أنها استطاعت في هذا العصر أن تتحكم في العقل الغربي والأمريكي بالــذات، وبالتالي هي تتحكم في القرار! ورغم أن هذا يكفي لكي تضمن التفوق على العرب مجتمعين، إلا أن هذا غير كاف على مدى السنين!

لقد رأينا كيف أن ملك الفرس "قورش" قد أعاد اليهود من الأسر البــابلي فبنــوا مملكتهم التي استمرت فترة من الزمن ثم جاء الرومان فدمروها وهدموا الهيكــل وتشتت اليهود في أنحاء الأرض، ولم تكن تلك هي المرة الوحيدة التــي يُقضــى فيها على الوجود اليهودي في القدس بل حدث قبلهــا أيضًــا أن قضــي علــيهم وشتتوا، وهم في هذا العصر قد أعيدوا أيضًا بمساعدة قوة خارجية وليس بقوتهم الكامنة الذاتية.. وهناك فرق! فإن كان الصهاينة يتحكمون الآن بالعقــل الغربــي الذي يُصدر القرار فإن ليس من المضمون أن يظل العقل الذي يتحكمون به أسيرًا لهم أو أن يبقى صاحبه هو صاحب القرار واليد العليا في العالم في الزمن القادم!

لا شك بأن الصهيونية استطاعت وما زالت تقوي الأثــر التــوراتي اليهــودي – المسيحي لكي يصير المرجعية الوحيدة للتاريخ في المنطقة، لكــي يــتم القبــول بإسرائيل أو بمعنى آخر العمل على طمس حضارات الآخرين كالحضارة الإسلامية وإخفائها مثل الديانات الهندية القديمة وجعلها على مسافة أقرب مــن الوثنيــة، وأبعد عن اليهودية – المسيحية، وخلق موسوعة فكرية جديدة تُعيد خلق العــالم

على صورة متناسقة الألوان، اللون الرئيسي فيها المرجعية الصهيونية المسيحية بحيث يكون الفهم الصهيوني اليهودي هو صلب الثقافة الأكاديمية الغربية.

لقد استطاعت الصهيونية أن تقطع شوطًا فيما سعت إليه بذلك الغـزو الإعلامـي الفكري للعقل الغربي، فعملت بهذا الغزو على إعادة صياغة التـاريخ اليهـودي وأزالت كل إساءة وجعلت أي شيء أُلصِقَ باليهود من تُهم يمكن أن يعاد النظـر فيها، لقد عملت على سرقة الإنجازات البشرية (تزييف) فكل اختـراع قـد أبهـر البشر على مر التاريخ أوجد له الصهاينة نسبًا لليهـود وتجـاهلوا أن المجتمـع والبيئة هي التي تتيح للإنسان أن يظهر الفعل والنبوغ، لقد تم اختزال كل مآسـي البشرية عبر العصور، واختصرت في السبي اليهودي والتيه والمحرقـة النازيـة ولا شيء غيرها، قالت "جولدا مائير" عن رواية "الخروج" التي كتبهـا الأمريكـي "ليون يوريس" والتي أدت الدور الفكري الصهيوني المنشود، "إنها كانـت أكثـر أهمية من كل صناديق الجباية في جمع الأموال لصالح الوكالة اليهودية".

مع وصول الثورة التكنولوجية إلى ما وصلت إليه في العشر سنوات الأخيرة مـن القرن العشرين وما بعدها، استطاع الإعلام الحر في تلك الفترة مـن الـزمن أن يتمرد، وأصبح بالإمكان توصيل الحقيقة من فلسطين بسرعة غير عادية وبـدون رقابة إلى أي مكان في العالم حتى قبل أن تتلقفها الآلـة الإعلاميـة الصـهيونية وتُعيد طبخها من جديد، ولما فوجيء أساطين الإعلام الصهيوني بما صار يحـدث ذهلوا، لكنهم لم يتوانوا، فراحوا يسرعوا في حشد الطاقات من خبرات وإمكانيات لإعادة الأمور إلى نصابها كما كان مسيطر عليها، عمدت إسـرائيل مـثلاً علـى التوجه مباشرة إلى الإعلاميين العالمين، وصارت تدعوهم لزيارة إسرائيل علـى نفقتها، وأتاحت لهم كل السبل لكي يلتقوا بأهل القتلى مـن الإسـرائيليين الـذين أصيبوا في العمليات الاستشهادية الفلسطينية، ذلك لأجل التأثير علـيهم معنويًـا وإنسانيا وجعلهم ينشرون في بلدانهم وجهة النظر الإسرائيلية التي تقـول إنهـا تتصرف بموجب حق الدفاع عن الـنفس، فتبـرر اعتـداءاتها المتكـررة علـى الفلسطينيين، وكأن أسباب المشكلة بين إسرائيل والفلسطينيين ليس هـو الغـزو

اليهودي للبيوت والأرض الفلسطينية في عام ١٩٤٨م وعدم شرعية وجود الدولة الصهيونية على أرض فلسطين التاريخية.

مما يؤسف له أننا نجد في المقابل أن الإعلام العربي، لم يتوقف عند حد الفشل والهروب من المسئولية، بل إنه ساهم من بعيد في العمل بالتعتيم على أخبار العدوان الإسرائيلي على قطاع غزة في أواخر عام ٢٠٠٨م ويناير ٢٠٠٩م، بعد أن شهد العالم الصمود الأسطوري لأول مرة للمقاومة الفلسطينية في منطقة صغيرة عجزت إسرائيل عن الاستمرار في اجتياحها، فبعد أن صار الإعلام العالمي الحر ينقل إلى مشاهديه صور المجازر الإسرائيلية، وهبَّت شعوب الأرض تُطالب بوقف العدوان على غزة، وكُتب ما كُتب من مقالات وقصائد وأغاني بلغات مختلفة غير عربية عن الصمود في غزة، نجد أن وزراء الإعلام العرب قد اجتمعوا في ذلك الوقت بالذات، وأصدروا وثيقتهم الشهيرة "تنظيم البث الفضائي الإذاعي والتلفزيوني في المنطقة العربية"! وهو ما يعني كبح جماح الإعلام العربي ومنعه من قول ما يريد للمواطن العربي في بلاده، ذلك لخدمة الثالوث الشيطاني، النظام العربي غير المنتخب، والرؤية الغربية الأوروبية - الأمريكية، وحليفهم الإسرائيلي ضد إيران، الذي اكتشفه العرب أخيرًا بالصدفة! وبذلك راح الإعلام العربي بدلاً من التركيز على نتائج القتل والدمار الذي أحدثه العدوان الإسرائيلي في قطاع غزة، راح الإعلام العربي يهلل ويشيع أخبار عن الخلافات الفلسطينية – الفلسطينية، وعن الخطر الإيراني على البلاد العربية، مما أدى إلى طمس ما فعلته إسرائيل، وجعل أهدافها تتحقق من العدوان، كانت إسرائيل تُهدد بالعقاب وتتردد في التنفيذ خوفًا من الرأي العام العالمي إلى أن غامرت ولم يعاقبها أحد.

أليست مفارقة أن تقتل إسرائيل وتدمر الحرث والنسل في قطاع غزة ثم نجد أن العرب يتبرعون لبناء ما دمرته إسرائيل ولم يطالبوا بإجبارها على تعويض الخسائر! هل كان هدف إسرائيل والأنظمة العربية وأمريكا فقط عقاب حركات المقاومة وأهالي القطاع! المرء يتساءل! هل كل ما حدث كان متفقًا عليه مقدمًا؟!

الإعلام الصهيوني إعلام منظم إلى أبعد الحدود، ويمكن فهمه أكثر من قِبل المهتمين خلال الحرب أكثر من فهمه في الظروف العادية، في أيام الحرب يكون استنفار العدو الصهيوني في أكثر من ميدان، منها الإعلام الذي يكون له القول والفصل والكل مهتم به، القيادة السياسية في الدولة، القادة العسكريون، الضباط والجنود وذويهم، الناس العاديين، هذا عدا العالم الخارجي الذي تتجه أنظاره إلى المنطقة لاستجلاء ما يحدث فيها، تلك التي لم تهدأ منذ انتهاء الحرب العالمية الأولى عام ١٩١٧م، لذا فإن الإعلام الصهيوني يُقسم مهماته إلى أربعة أقسام ويبقى أدائها في أقصى درجات الكفاءة خلال الحرب، متوازيًا مع أداء الجيش في المعركة:

١ - إعلام موجَّه للجماهير داخل الدولة الإسرائيلية.

٢ - إعلام موجَّه للضباط والجنود وذويهم.

٣ - إعلام موجَّه للعالم الخارجي.

٤ - إعلام موجَّه للجيش أو المنظمة التي يحاربها.

لا شك بأن لدى العرب أيضًا إعلام مناويء للإعلام الصهيوني، لكن الفرق واضح وجلي، ففي الوقت الذي يقف الإعلام الصهيوني آخذًا توجيهاته من مصدر واحد، نجد الإعلام العربي له عدة مصادر، وفي الوقت الذي يضع الإعلام الصهيوني أفضل العقول المتخصصة في الإعلام لكي تقف على خطة واضحة للإعلام الخارجي والداخلي، نجد الإعلام العربي مهلهلاً ومشرذمًا وينقصه الكثير من الحرية والإمكانيات والتخطيط، ويكون الفرق بينه وبين الإعلام الصهيوني من بداية أي معركة واضحًا، فالتفوق يكون بجانب الإعلام الصهيوني، وربما أن أفضل وصف للإعلام العربي، هو ما كانت عليه الجيوش العربية حينما دخلت الحرب عام ١٩٤٨م، كان لكل جيش عربي قيادة وخطة وأحيانًا تتضارب الخطط العربية مع بعضها البعض، في حين أن مجموعات العصابات الصهيونية كانت مُتحدة ولها خطة واحدة بل هدف واحد هو هزيمة الجيوش العربية غير الموحدة القيادة، حتى حينما اختلفت منظمة الأراجون الصهيونية مع الهاجاناه في حرب

١٩٤٨م، لم يتحدى مناحيم بيجن سلطة بن جوريون ولم ينازع الهاجاناه (جيش الدفاع) في المناطق التي خُصصت لليهود وكانت تحت سيطرة قيادة بن جوريون، وأعلن بأنه سيحارب في المناطق العربية التي كان قرار التقسيم قد خصصها للعرب الفلسطينيين فقط.

في حروب المقاومة العربية مثل حرب لبنان ٢٠٠٦م، كان هناك "المؤتمر القومي العربي"، و"المؤتمر القومي الإسلامي"، وشخصيات لا عد لها من كافة الوطن العربي وقد اجتمعوا، ولكن ماذا كانت تملك أن تفعل مثل هذه المنظمات العربية أو هذه المؤتمرات التي لا تُعبر إلا عن نفسها وعن أشخاصها، وأنها لا تستطيع غير تقديم عاطفة جياشة تجاه المقاومين وليس أكثر، أما الحكومات العربية فحدث ولا حرج، فأينما تكون لها مصلحة لزعمائها ستجدها أو تجد إعلامها، وإلا فهي إما متفرجة أو صامتة وفي الغالب غائبة، إن إعلام النظام العربي إعلام مصلحي بعيد كل البعد عن المهنية والاحتراف في ممارسة الدور الإعلامي الكفء والصحيح، فكيف يمكننا والحال هكذا، أن ندَّعي أنه يوجد إعلام عربي دولي! الإعلام الموجود في الساحة الدولية فيما يخص الصراع العربي الإسرائيلي، هو الإعلام الصهيوني وليس أكثر، وحتى الإعلام الصهيوني لا العربي فهو أحيانًا يخدم الشعب الفلسطيني عن غير قصد كون الإعلام العالمي يهتم بإسرائيل، لهذا نجد في كثير من الأحيان، أن كثيرًا من القضايا الإنسانية الفلسطينية يتداولها الإعلام العالمي فتخدم القضية الفلسطينية لأن إسرائيل تكون طرفًا فيها بطريقة أو بأخرى أو لأن الفلسطينيين والإسرائيليين يعيشون على أرض، لهذا يُحاكى الواقع الفلسطيني كلما اقترب الإعلام العالمي من إسرائيل!

هذا، ويعود تفوق الإعلام الصهيوني على العرب لسببين، الأول أن الإعلام الصهيوني إعلام عالمي بالمقاييس الدولية من جميع النواحي، العقل، الإمكانيات، التنظيم، في المقابل لا نستطيع أن نعطي وصفًا صحيحًا للإعلام العربي أكثر مما ذكرنا في السطور الماضية غير أن نقول، عفوًا.. إنه إعلام جاهل ومتخلف وبدائي وأمي، يؤمن بالأساطير فيزيد الناس جهلاً لأنه يُبعدهم أكثر عن الحقيقة!

لذا فإن الإعلام الإسرائيلي يتعامل بفاعلية، ولا يجد صعوبة أن يجد الإنسان العربي غير المحصن، وإعلامه ذو حجة واحدة، ورواية واحدة، لا تُطابق الرواية التي تأتي من الشمال الرواية التي تأتي من الغرب مثلاً، ولا يتبارى هذا الزعيم العربي وزعيم آخر، إلا ويضيع المتفرج من يصدق منهما، الإعلام الصهيوني يتعامل مع الإنسان العربي كما تقول إحدى قصص الأساطير الهندية القديمة.. دعنا نأخذ الحكمة من القصة:

كان في إحدى القرى الهندية معبدًا يُقدم إليه أهل القرية القرابين من الماعز، كان من يود أن يحصل على بركة الآلهة فعليه أن يأخذ رأسًا من الماعز، ويذهب به إلى المعبد ويذبحه ويُقدمه قربانًا.

في صبيحة أحد الأيام توجه قروي فقير مسكين إلى ساحة الآلهة لذبح الماعز التي كان يربطها بحبل ويجرها خلفه، وبينما هو كذلك فقد شاهده ثلاثة من اللصوص كانوا يترقبون عند أطراف بيوت القرية على الطريق، قبل أن يمر بهم القروي، تهامس اللصوص الثلاثة وقرروا أن يستولوا على الماعز من القروي، لكنهم اتفقوا على ألا يكون الحصول على الغنمة بالإكراه، وهنا يكمن مغزى القصة، ذهبوا ينفذون خطتهم! وتوزع اللصوص الثلاثة كل واحد منهم أخذ موقعًا له في طريق القروي، ولكن على مسافات متباعدة..

مر القروي المسكين على اللص الأول ومعه الماعز التي رباها ورعاها لفترة طويلة بهدف التقرب من الآلهة المزعومة، فبادره اللص الأول "إلى أين أنت ذاهب بهذا الكلب؟" فلم يعره القروي اهتمامًا ومضى إلى حال سبيله، بعد مسافة أخرى من الطريق، مرَّ القروي على اللص الثاني، وسأله اللص "إلى أين أنت ذاهب بهذا الكلب وسط الغابة الموحشة؟"، ما كان من القروي إلا أن اشتاط غضبًا وراح يُجادل اللص الثاني، كيف يقول عن الماعز التي هو يعرفها جيدًا، وهو من رباها لأجل هذا اليوم، كيف يقول إنها كلب! وفي النهاية مضى أيضًا كل إلى حال سبيله، عندما اقترب القروي من ساحة الآلهة المزعومة، خرج اللص الثالث في مظهر حارس ساحة الآلهة، وقال للقروي، "ممنوع دخول الكلاب إلى

ساحة الآلهة، وعليك مغادرة المكان فورًا وإلا استحقيت غضب الآلهة!"، هنا اهتزت ثقة القروي المسكين فيما كان يجر خلفه، واستقر رأيه على أن ما يجره مجرد كلب، واستبعد من رأسه أن تتفق الآراء ويظل رأيه صحيحًا، ما كان منه إلا أن تخلى عن هذا الكلب (الماعز) لصالح حارس ساحة الآلهة بعد أن استقر رأيه على أن ما كان يجره كلبًا وليس ماعزًا، وذهب يبحث عن ماعز تفي بالغرض!

يمكن أن نستشف من القصة، بأن جماهيرنا العربية مُضللة، فكيف يمكن أن تكون لنا رسالة إعلامية وفي الغالب أن إنساننا العربي لا يرى ولا يسمع، وكيف يكون لنا إعلام مؤثر، إذا كان إعلام الحاكم لا يُقنع المحكومين، فكيف سيؤثر في الرأي العام الخارجي أو الإسرائيلي.. أو أليست الحرب أولها كلام!

إن صورة العرب في الثقافة التربوية الإسرائيلية في مناهج التربية والتعليم هي ثابتة لم تتغير منذ تأسيس الحركة الصهيونية وحتى بعد قيام دولة إسرائيل، ظل النظام التربوي في إسرائيل يقوم على مرتكز ديني يقول إن أرض فلسطين هي وطن الشعب اليهودي، وبقي الكره والتعالي على العرب ديدن الإعلام والزعماء والمؤسسات التعليمية في المدارس والجامعات، الملفت للنظر أن منهج التعليم الإسرائيلي وُضِع على أساس قيم الثقافة الدينية اليهودية، وعلى تحصيل العلوم ومحبة الوطن والولاء لدولة إسرائيل والشعب اليهودي، والتدرب على العمل الزراعي والحرفي وتحقيق مبادئ الريادة، ويُلاحظ القارئ لكتب الأديان اليهودية أن اليهودي ينظر إلى الأغيار وخاصة العرب منهم نظرة استعلائية.

بالنسبة لأدبيات الطفل اليهودي فقد وضعت له المناهج التي توجهه إلى الأمور الدينية، وإلى أن أرض فلسطين هي لليهود، أما العرب فقد احتلوها في الماضي وجعلوها خرابًا، وكان العرب فيها قليلين، وحينما يشيرون إلى المستعمرات التي ينشئونها ويضعون صورها في الكتب المدرسية فإنهم يضعون صورًا للقرى الفلسطينية البائسة، فيرون الطفل اليهودي أنه ينتمي إلى قوم متحضر قوي وغني، وليس مثل أصحاب تلك القرى الفقراء المتخلفين.

إنْ أشارت مناهج التعليم الإسرائيلية إلى بلاد الخليج العربي على ما فيها من طرق وحدائق وبناء وخدمات، إنما يُشيرون إلى الخوف من قيام دولة عربية أصولية قوية بسبب وجود الثروة النفطية، ويعتبرون الأردن لهم لأن به آثار إسرائيلية، ولا يخلو بلد عربي من أطماعهم لسبب أو لآخر، إن أخطر ما في أدبيات الإسرائيليين التي يبثها إعلامهم ليس مجرد الاكتفاء بفرض صورة قاتمة عن العرب في أذهان أبنائهم، وإنما تجاوزوا ذلك إلى محاولة تهويد فكر الناشئة العرب في فلسطين المحتلة عام ١٩٤٨م.

هذا، وفي الأدب اليهودي العام نرى صورًا كثيرة شبَّه بها الكتاب والأدباء اليهود العرب بأوصاف ما أنزل الله بها من سلطان، الحاخام اليهودي "عوفاديا يوسف" مثلاً قال في تصريح عنصري نُشر في أبريل عام ٢٠٠١م وصف فيه العرب بأنهم "أولاد أفاعي وأن الله ندم لأنه خلقهم وبالتالي الواجب قتلهم"، وقال "موشيه منوحن" مخاطبًا القائمين في إسرائيل، "علمونا كذلك أن نكره العرب، وأن نطردهم بقوة السلاح إن تطلب الأمر على اعتبار أن فلسطين هي بلادنا لا بلادهم".

ومما قاله بن جوريون في تجميل صورة قتل العرب، "القتل هو الوسيلة المثلى لتحرير الطاقة الكامنة لدى الجندي اليهودي"، وقال موشيه ديان: "قتل العرب هو قدر جيلنا"، أما جولدا مائير فقد أنكرت أصلاً وجود الفلسطينيين كشعب، وقال مناحيم بيجن زعيم منظمة أراجون، ورفائيل ايتان رئيس الأركان الإسرائيلي الأسبق، في احتقار العرب "إن العرب مجرد صراصير يجب سحقهم".

معظم المفكرين والزعماء الصهاينة، جعلوا عقيدتهم السياسية أن اليهود يجب أن يستوطنوا تلك البلاد وأن يعمروها حسب أسس الحضارة الغربية، لأنها الكفيلة بإحداث التنمية، يقول هرتزل، "إن قيام دولة يهودية في فلسطين يُشكل عنصرًا أساسيًا ومُهمًا من عناصر مواجهة الروح الوحشية بأشكالها المختلفة السائدة في آسيا ومقاومتها".

لكن بن جوريون من ناحية أخرى، يُقر بأن هناك شعبًا آخر في فلسطين لكنه يتصف بالهمجية، فيقول في هذا، "صحاري إسرائيل كانت قديمًا آهلة بالسكان وإنها لم تكن خالية، ويضيف "إن ثقتي ببني جنسي تجعلني أقول بإن الأثر الحقير والمخزي للتراث العربي لن يستمر إلى الأبد، وأن العرب حوّلوا بلدًا مزدهرًا ومأهولاً إلى صحراء".

القصة في الأدب اليهودي لها دور أيضًا، ويظهر فيها الحقد الصهيوني على العرب والسخرية منهم عوضًا عن الاشمئزاز ووصفهم بأقبح السباب، فهم همج وجبناء وخونة ولا يوثق بهم ولا يتصفون برجولة أو نخوة، العربي من النظرة اليهودية هو غريب يعترض سبيل ابن البلد اليهودي، لماذا لا يذهب الغريب إلى الصحراء ويعمل في الجمال، ويقولون أيضًا إن العربي كابوس مزعج لليهودي، وتُسيطر عليه نزعات الشر فهو خبيث ومكار وقذر ومتعطش للدماء.

"تاتان شاحم" في قصته "غبار الطريق" ذكر حوارًا دار بين اثنين من اليهود، قال أحدهما إن العرب مثل الكلاب، فإذا رأوا أنك مرتبك ولا تقوم برد فعل على تحرشاتهم يهجمون عليك، وإذا قمت بضربهم فسيهربون، وأضاف أحدهما أيضًا، إن العربي الجيد هو من لا يملك نقودًا، وإذا أردت أن تفهم العربي فعليك أن تفتح رأسه، ويُجمع الكثير من الإسرائيليين بأن العربي الجيد هو العربي الميت.

هذا، وقصة "خربة خزعة" للكاتب الصهيوني "سميلانسكي يزهار"، يُبين فيها صفات الجبن عند العربي وإنه سرعان ما يفر من الميدان، أما الكاتب والناقد العبري "ايهود بن عيزر"، فيقول في قصته "أفرات" "حسن شاب عربي من مدينة صفد التقي فتاة يهودية اسمها أفرات، وطلب منها الزواج، لكن أفرات اقترحت عليه شيئا آخر، أن تعطيه مبلغًا من المال كي يحميها، فيوافق حسن، ولكنه نكث بوعده وحاول اغتصابها"، هذه القصة القصيرة تدرس في المدارس الثانوية في إسرائيل حسب الخطة التربوية الإسرائيلية.

وها هو "يجال ألون" أحد أقطاب الحكم في إسرائيل، وأحـد منظريهـا وصـاحب نظرية أن حل القضية الفلسطينية هو أن وطن الفلسطينيين شرق الأردن أو مـا أطلق عليه في الماضي "مشروع يجال ألون" الشهير، يقول ألون في كتابه "بيـت أبي" مبينًا عدوانية العرب وحكمة وشهامة الإسرائيلي، "اقتربنا من حقلنا وشاهدنا عربيين ومعهما حصانين كانا يأكلان من سنابل القمح في حقلنا، صاح أبي بهمـا وطلب إبعاد الحصانين عن المحصول، نظر أحد العربيين باستهتار تجـاه والـدي مستخفًا به، وكال له أبشع الشتائم، ما كان من والدي إلا أن اقترب منهما وقفـز عن العربة وهي تسير ورفع المذراة لكي ينقض عليهما، رأيـت أبـي يصـارع أحدهما فما كان من الآخر إلا أن حاول أن يمسك برقبة أبي، لكن أبي كـان قـد استطاع أن يطرح العربي الأول على الأرض، وبحركة غير عادية وهو يحاول أن يُلقي بجسده على العربي الممدد، أمسك برجل الآخر فلواها وطرحه علـى الأرض أيضًا، كان أبي في ذلك الوقت يحمل مسدسا لكنه لم يستخدمه، فقفز العربيان وأخذا حصانيهما وجريا والخزي على وجهيهما".

هكذا إذن، لقد أضحت القضية الفلسطينية مطروحة أمامنا مثل جثة فـي الرمـق الأخير، بينما المستوطنون اليهود أرضًا وثقافة وهوية حضارية غربيـة يحيـون قضياهم الميتة، لا أحد يجرؤ أن يسأل أو يتساءل بصوت مسموع من كان السبب بجعل القضية الفلسطينية معتلة هكذا، الكل خائف.. فكيف يجرؤ أحد أن يتحـدث عن شيء ممنوع الحديث عنه لأنه مقدس عند البعض، والمقـدس هـو حقيقـة والحقيقة لا تناقش، فكيف بنا أن نسأل عن القضية المقدسة، وإذا انتقلنا للتفكير بالسؤال عن المسئول عن هذه القضية فسنجد أن هناك أيضًا رقابة آتية مزروعة بداخلنا بل تسكننا، تحذر وتمنع أن نتوجه لأحد من الزعمـاء الـذين لهـم حـق ملكيتها ولو وهي هامدة بالسؤال، لأنهم أيضًا ارتقوا إلـى مسـتوى التقـديس، أليسوا هم أهل القضية وورثتها الشرعيون.

لكن القضية الفلسطينية بالنغمة التي تسير بها الأمور تحتضر، وهي بلا مبالغـة تموت شيئًا فشيئًا في هذا العصر، والموت يعني التحلل والاختفاء.. متى سيسمح

بالحديث عنها وأخذ شهادتها قبل أن تصمت نهائيًا! بعضنا يُطمئِن ويقــول مــن بعيد، لا تقلقوا فالأمور بخير، والمسالة مسألة وقت وليس أكثر، وبشائر النصــر والتغلب على الصهيونية تهل قادمة، والدليل أن يهود العالم ليسوا كلهم مؤيــدين للدولة الصهيونية في فلسطين! إن معنى الكلمات الأخيرة هو أن كل مــا أصــاب العرب من ويلات ونكسات هو من فعل جزء من يهود العالم، ومعنى هذا أيضًــا، أن يهود العالم لو اتحدوا جميعًا فسنرى على أيديهم العجب العُجاب من الــويلات، وما تشيب له الولدان! فهل يا ترى يمكننا أن نعتبر عدم تأييد يهود العالم جميعًــا لإسرائيل نصرًا حققناه وننام! هل نحن الذين استطعنا أن نفرق آراء اليهود! ماذا كان دورنا؟ هل كان لنا دور حقيقي فعلاً؟!

متى سيعرف العرب بأن اليهود وإن اختلفت آراؤهم تجاه دولــة اليهــود، فــإنهم يبقون يهودًا، تجمعهم التوراة والتلمود وبروتوكولات حكماء صهيون، وأســاطير أرض الميعاد وشعب الله المختار، ولتنسني يميني إن نسيتك يــا أورشــليم! إذن لماذا يُضيِّع فلاسفتنا الوقت، ولماذا لا يســموا الأشــياء بأســمائها، ولمــاذا لا يتوجهون إلى الواجب المقدس وبالفم المليان يُعلموا الناس أن البلاء الذي يصيبنا ليس من اليهود فقط، إنما من حلفائهم الطبيعيين الذين يعيشون فينــا وبيننــا.. الجهل والتخلف، والحكم الفاسد المصلحي والعائلي، والتبعية لأجندات الغير، وأن يُعاد الحديث عن الوحدة العربية الكبرى، أين الإعلام العربي الــذي يــدعو إلــى الوحدة العربية وإلى هدم الإقليمية.

لماذا نهرب من مصيرنا ونشغل أنفسنا بالحديث عن انقسام يهود العالم بين مؤيد وغير مؤيد للدولة اليهودية! فإذا كان يهود الولايات المتحــدة مــثلاً، يواجهــون معضلة الحسم بين هويتهم اليهودية المتميزة كيهود أمريكان، وبــين أن يكونــوا يهودًا يمثلون إسرائيل في أمريكا، لماذا يشغلنا مفكرونا بالحديث عــن اليهوديــة الصهيونية المؤيدة لإسرائيل التي قدمت اقتراحًا للحكومة الأمريكية يعتبــر غيــر عادي لتميزه بالثورية، طالبت به مقاومة الزواج المختلط بــين اليهــود وغيــر اليهود في أمريكا، وذلك لضمان تقديم تربية يهودية حقيقية للنشيء، لماذا ننشغل

بمفاجأة أن يهود الولايات المتحدة قد رفضوا الاقتراح بحجة أنه عنصري، وأن كثيرًا من قادة اليهود الأمريكان هم من نتاج الزواج المختلط، إذا كان هذا قد حدث فعلاً في أمريكا فليس معناه أننا نحن العرب قد حققنا نصرًا، فنحن وصلنا منذ حقبات إلى حال أضحينا فيه لا نتعامل حتى مع ردود الأفعال بعد أن ابتعدنا كثيرًا عن منطقة الفعل نفسه!

إذا كان هناك توتر بين اليهود المؤيدين لإسرائيل واليهود الذين يعتبرون الولايات المتحدة وطنهم فهل هذا يُغير من نظرة يهود العالم شيئًا بالنسبة للحق العربي في فلسطين، ونفس الشيء، فهل هناك مسلم على وجه الأرض لا يتمنى أن تتحرر فلسطين! المفروض أننا كعرب لنا أولويات هي التركيز على حل مشاكلنا الداخلية أولاً وتحدي الواقع، وهذا ليس معناه ألا ننظر لتفهم هكذا قضايا مثل ما يطرأ من تحولات على يهود الولايات المتحدة أو مثلما يبدو أن يهود المنظومة الروسية وما حولها من الذين هاجروا واستقروا في الولايات المتحدة، هم من ينشدون الاستقرار النهائي في أمريكا، ويؤيدون الزواج المختلط وأن الكثيرين منهم لا يعتبرون أمريكا وكندا منفى يهودي!

حينما نتحدث عن تبرعات اليهود سواء لإسرائيل مباشرة أو للجمعيات اليهودية في أمريكا، وما زال الحديث عن يهود أمريكا، فإن التبرعات الداخلية هي لغايات أمريكية عامة وليس للطائفة اليهودية، في نفس الوقت أن القيادات اليهودية الموالية لإسرائيل ترفض الدعم الحكومي للتربية اليهودية خوفًا أن يمس هذا موضوع فصل الدين عن الدولة المقر في الولايات المتحدة، رغم أن الدعم الحكومي هو أحد الأدوات الآنية في مقاومة ذوبان اليهود في المجتمع الأمريكي.

إن الحديث عن إغراءات إسرائيل ليهود العالم، كيهود إيران مثلاً، وقول إسرائيل إنها مستعدة بأن تدفع لكل شخص يهودي يهاجر من إيران إلى إسرائيل مبلغًا مقداره خمسة آلاف جنيه استرليني، هذا أيضًا من حقائق وجود إسرائيل، وهل كانت إسرائيل لتقوم وتنمو إلا بهجرة اليهود، أليست إسرائيل أساسًا هي مشروع هجرة؟ ألم يحن الوقت لكي نخطو خطوة ولو واحدة إلى الأمام؟ إن التفات

المفكرين العرب إلى الإنسان العربي وتعريفه بحقيقته هي الخطـوة الأولـى، لأن هذا لو حدث سيكون الدرس الأول لكي يتعلم العربي أن يكون مسئولاً عما حـدث بدلاً من الهروب دائمًا من مواجهة الموقف إلى تحميل الغير فقط لما يُعانيه مـن تخلف، لأن قوة أي عدو هي من ضعف خصمه.

هل من المنطق أن نقول لإسرائيل تنازلي عن قوتك أو نقول للإعلام الصـهيوني تخاذل لأجل أن نلحق بك! لو حدث هذا وهو افتراضيًا فكأننا نقول للإسـرائيليين عودوا من حيث جئتوا، إن عودة اليهود من حيث جاؤا وتركهم فلسـطين لا تـتم بدون ثمن سنتقاسمه كلانا، نحن واليهود، بفارق المنتصر والمهزوم وكما حـدث حينما تتوج نصرهم بقيام دولتهم على حسابنا، إن اليهود حينما عزموا على غزو فلسطين، لا شك بأنهم فكروا جيدًا، ونحن حتى الآن لا يبدو أننا استعملنا عقولنـا بطريقة صحيحة بعد، وهم تجرأوا وتحدونا في دارنا، ونحن لم نقـدر أن نحمـي دارنا، والأهم أنهم اتحدوا ونحن ما زلنا في بلادنا متفرقين!

إن ما يحدث للوطن العربي يهز الجبال، ويدعونا في كل يوم أن نبحث عن طريق لاستعادة كرامتنا، الأوطان تحرق أمام أعيننا وشعبنا العربي يُهان ويذل في بلاده، وها هي القضية الفلسطينية وقد مضى عليها ما يزيد على مائـة عـام منـذ أن وُجدت الحركة الصهيونية رسميًا كصوت عالمي لليهود، حينما كنا صـغارًا كنـا ننتظر بفارغ الصبر حلاً للقضية الفلسطينية، وصرنا نكبر، وكلما استعجلنا الحـل صدمنا الواقع بابتعاد الحل! كان هذا الاستعجال نتاج نفسية المناضل ذي الـنَفَس القصير، وما بين النضال والهزائم العربية وتراكم الفشل ومرور السنوات، تكون لنا مقدسات، القضية والزعماء، لقد أصبح من المحرمات المساس بهما حتى ولو كان مجرد اقتراب من القضية والزعماء، لذلك فقد أصبحنا حذرين، أصبح الإنسان العربي العادي يخاف مجرد أن يهمس عن المقدس حتى لو كان يود أن يـدرس لماذا فشلنا طيلة كل السنوات الماضية، المحرمات لا يجب الاقتراب منهـا! هـل يجب الاقتراب من الزعامات التاريخية! وهل يستطيع أحدنا أن يُجـاهر بصـوته

ويقول لها أخطأت أيتها الزعامة في السنة الفلانية أو في اليوم أو الموقف الفلاني!

قياداتنا لا تعتبر بأنها أخطأت، فمجرد أنها تتعامل مع قضية مصيرية كالقضية الفلسطينية، تعتبر أن ذلك يكفي لكي يبرر كل الهزائم والنكسات! حينما وجدت الزعامات مواطنها العربي بكل أطيافه لا يسأل، وجدت أن من حقها أن تستفرد بالقرار وبالملكية، وتسلحت بالشعارات وراحت تطعمها للعامة تبنًا وقشًا، لقد شبع المواطن العربي حتى التخمة، وشرب حتى ثمل مما أطعمته الأنظمة والزعماء من شعارات واستعدادات، وإطلاق أوصاف على إسرائيل، مؤامراتها، وحكوماتها، وتوسعها وأطماعها وانقضاضها وإنكارها للاتفاقيات ورفضها للسلام، ومصادرتها للأراضي وضمها.. إلى أخر ما فعلته إسرائيل، وما قد تأخذه من حقوقنا.. إلى كل ما قيل عنه منذ إعلان إسرائيل دولة مستقلة.

ولأننا كرماء كما نبدو فقد جنحنا للسلم بطريقة مُذلة تفتقر إلى بُعد النظر والحسابات الواقعية الصحيحة، وهنا السؤال، أي سِلم من حيث المبدأ يمكن أن يتم وبأي منطق! ألم يكن المشروع الصهيوني منذ بدايته مشروع استيطاني، وكان واضحًا أن عماده الأول هم المهاجرين اليهود الذين قدموا إلى أرض الميعاد المزعومة، وأن أرض الميعاد تنتظر أصحابها المشتتين، وأن المهاجرين قادمون ولن يتوقف قدومهم ما دامت إسرائيل موجودة على أرض فلسطين! فأي منطق وأي سلام سيجمعان النقيضين الفلسطيني والإسرائيلي، اللذين لا يصح الواحد منهما إلا بزوال الآخر؟!

إن ما لم يعلمه العرب، أن إسرائيل تبني سياساتها بناء على تصرفاتنا! الفلسطينيون مثلاً يبدون لإسرائيل بأن ليس لهم استراتيجية حرب ولا استراتيجية للسلام، والعرب بعد هزيمتهم في حرب ١٩٦٧م تحولوا في يوم وليلة من رافضين لوجود دولة إسرائيل إلى من يتوسلون السلام مع إسرائيل بالحد الأدنى من الاحترام الذي يمكن أن تمنحه لهم، من ناحية أخرى، الإعلام العربي المهلهل، الذي لا يعرف حدوده يساعد إسرائيل كثيرًا في وضع استراتيجياتها المستقبلية،

فكثيرًا ما يكشف هذا الإعلام مواطن الضعف في النفسية العربية، ويمنح إسرائيل فرصًا ذهبية للتركيز على مواطن الضعف العربي.

هكذا إذن، فإن إعادة المسؤولية إلى سوء النوايا الإسرائيلية أو إلى الأطماع، وإلى مسلسل المكر والخداع الذي تمارسه إسرائيل، والتنصل من الالتزامات والاتفاقات، يفترض أن لا تسعف الذين دأبوا منا على استخدامها مشجبًا يساعدهم على التنصل من أخطائهم، الذين يصبون اللوم دائمًا على إسرائيل وحلفائها، لم تُشكَّل حتى الآن لجنة فلسطينية واحدة ناهيك أن تكون لجنة عربية قومية لبحث الصراع العربي الصهيوني، ولم يحدث أن قدَّمت أي لجنة دراسة وتوصيات بمستوى ما كان يخطط له اليهود في القرن التاسع عشر، إن الاستمرار فقط في لوم إسرائيل والصهيونية في كل ما يحدث لنا من إهانات وسقطات ونكسات، يجب ألا يجعلنا نقبل الأمر الواقع ونبقى تحت تأثير أن القضية مقدسة ليس من حقنا أن نقول فيها أو أن القادة هم أيضًا مقدسين فلا يجب محاسبتهم.

في وقفة عند المقاومة الفلسطينية: ما هي استراتيجية المقاومة، هل هي استراتيجية مقاومة من أجل تحرير غزة والضفة أم أنها من أجل تحرير مناطق أوسع من غزة والضفة، ثم ماذا تعلم الأنظمة العربية المهتمة عن نوع الاستراتيجية الفلسطينية للتحرير إذا كان هناك أصلاً استراتيجية تحرير أم أن استراتيجية التحرير سر لأن له علاقة بالمقدس ولحراس المقدس الذين ما زالوا يديرون الصراع بعقلية الستينات من القرن الماضي، أنا ربكم فاعبدون، لا يضع الاستراتيجية الهجومية إلا الأقوياء، وقد يكون الضعيف قويًا حتى إذا كان في موقف دفاع، لأنه يملك إرادة الهجوم والصمود، أو لأن له هدف نبيل أثمن من التضحيات المتوقعة، فما بالنا إذا كان الهدف بحجم تحرير وطن واستعادة حق وكرامة شعب، فحينما نقول ليس عند الفلسطينيين استراتيجية فالمعنى يمكن الحصول عليه بالمقاييس التي وصفنا بها من يضع استراتيجية، لأن الضعفاء المفلسين فكريًا الذين يعتمدون على شخص واحد لكي يسوقهم لعبادته، هؤلاء لا يكون لهم استراتيجية.

إن الصراع العربي أساسه هو صراع بين إنسان وإنسان آخر أي بين فكرة وفكرة أخرى، بين الإنسان اليهودي الذي خطط جيدًا، وبين الإنسان العربي الذي لم يكن يدري أنه لا يدري، لذلك بقي تأثير الكم العربي مغيبًا وليس لــه أثــر، إن ممــا يؤسف له أن الإنسان العربي حينما أقيمت إسرائيل وبعد ذلك لفترة ليست قصيرة، لم يكن قد وصل من الوعي والثقافة السياسية العامة إلى معرفة الحدود الجغرافية أو التاريخية لوطنه، لا أقول لوطنه العربي بل لحدود الإقليم العربي الذي يعد هو في أغلب الأحوال أحد مواطنيه، فإذا كان اليهودي الذي ولد هو وأقاربه وأجداده في روسيا أو في أي بلد آخر، ظل يتناقل الوعي والحلم والمعرفة أبًــا عــن جــد وكابر عن كابر، وظل يسعى إلى العودة إلى أرض الميعــاد المزعومــة إلــى أن أدركها، واستعد أن يدفع ثمنًا غاليًا فكان له الغلبة وحقق هدفه ولو إلــى حــين، فكيف هو حال أبناء الأمة العربية الذين في الغالب يعيشون حياة العصور القديمة، ولم يأخذوا من تقدم البشرية حتى الآن سوى المظاهر فقط! كيف يمكن أن تكــون للعربي استراتيجية منافسة لليهودي القادم من ألمانيــا وغيرهــا فــي حــين أن الإنسان العربي يجهل كل شيء عن وطنه وعن تاريخه!

المفارقة أنه حتى بعد حرب ١٩٦٧م، كان هناك من العــرب مــن لا يعرفــون أن صحراء سيناء تقع في غزة أم في مصر، طالب جامعي من إحدى البلاد العربيــة المجاورة لفلسطين سألني يومًا، "هل غزة تقع في سيناء أم صحراء سيناء تقــع في غزة؟!" وخلال عملي في إحدى البلاد العربية حدث إنني ذهبت في مهمة عمل إلى منطقة بعيدة في تلك الدولة، وكان يجب أن امضي ليلة هناك لاستكمال العمل، فكنتُ ضيفًا على المسئولين بالمنطقة، عند المساء دُعينا لتناول طعــام العشــاء فحضره أشخاص قليلون من وجهاء المنطقة من أصدقاء المضيف، حينما توجهت للمائدة كان قد سبقني عدة أشخاص منهم بعض الوجهاء الذين أشرت إليهم مــن الذين يعتبرون في تلك المنطقة من المفوهين الذين يضفون حضورًا مميــزًا فــي المكان إذا تواجدوا في مجلس، قبل أن آخذ مكاني في مجلس العشاء، وجَّه الرجل المفوه سؤاله لي وقال "هل أنت ممن يعتقدون أن الأمريكان قد أرسلوا إنسانًا إلى

القمر"؟ وأكمل قائلاً "إذا كنت من أولئك فلا تأكل معنا.. نحن لا نأكل مع الكفار؟!" كان الرجل لشدة إيمانه بما قال جادًا في كلامه لي، وكان يبدو ما قاله على قسمات وجهه، أنه يعني ما يقول، وكان له سطوة ونفوذ على مضيفي لمكانته الاجتماعية وربما لإمكانياته المادية أيضًا، ما كان مني إلا أن حسمت الموقف بسرعة لمعرفتي بالجهل الذي يعشش في الوطن العربي، وما هي إلا ساعات ويطلع الصباح وربما لا أعود إلى هذه المنطقة أبدًا بعد ذلك اليوم، قلتُ رادًا على الرجل، "استغفر ربك يا رجل.. فهل تراني من الذين يصدقون ما يقوله الكفار؟ توكل على الله ودعنا نتناول الطعام"، ما كان منه إلا أن همهم قائلاً "كنت أظنك"، ومد يديه لتناول الطعام، لا يُعتبر ما ألمحت به هنا شيئًا جديدًا أو نادرًا، فأنا متأكد بأن لدى القارئ من الحكايات عن جهل مواطنينا وشعوبنا ما يُضحك وما يُخجل!

في المقابل ركز الصهاينة على تعبئة الشبيبة اليهودية بتدريسها التوراة والتراث اليهودي بصفة عامة لتحقيق الأهداف التي وجدت الصهيونية من أجلها، الهدف هو خلق شخصية يهودية جديدة حسب منهجية توجيه الميول والسلوك، وخلق شخصية يهودية شجاعة متفوقة عصرية مقدامة، أغلب القادة والزعماء السياسيين الإسرائيليين كانوا قد نشأوا وأعِدّوا حسب هذا المنهج، لذلك تجد معظم السياسيين صقورًا في إسرائيل، وأغلب هؤلاء أو معظمهم يبدأون عسكريين في الجيش الإسرائيلي، وصلت نشوة القوة عند الإسرائيليين إلى حد الولاء للجيش أكثر من الولاء للدولة، لأن الوجود الصهيوني في فلسطين بدأ بالمقاتلين ثم بالدولة، لذا يقال إن إسرائيل جيش له دولة.

وهنا نرى كيف تبدلت الأمور بعد أن كان اليهودي يوصف حسب دراسة نفسية قام بها الباحثان الإسرائيليان "تامارين" و"بن تسافي" في العام ١٩٦٩م، قالا إن صورة اليهودي قبل عام ١٩٦٧م كانت قاتمة إلى حد أن وصفاها كأن بها كل العيوب الخلقية والسلوكية التي يمكن أن توجد في البشر، فهو قبيح المنظر والمظهر ومنغلق وغريب وكسول ولا يعرف كيف يعيش الحياة كما يجب - بهذا المعنى كان رأيهما، لذلك اتبعت الصهيونية منهجًا تربويًا نفسيًا، وظفت فيه

إمكانياتها المادية، وراحت تعيد تشكيل شخصية الإنسان اليهودي، وحولته من إنسان جبان هياب خجول إلى مقاتل شرس وعنيد ومندفع، ولأنه يجرب العنف لأول مرة فإن ما يقوم به من قسوة عمياء أعطت انطباعًا عند الآخرين بأنه شجاع ومقدام، وتعلم الثقة من عدم قيام الإنسان العربي بما يجب أن يكون عليه فأصاب الخلل الموازين بين العربي والصهيوني اليهودي!

عملت الصهيونية على إطلاع أبنائها في المدارس على كتب المفكرين والعلماء اليهود من رواد الحركة الصهيونية، بهدف إعادة تكوين وعي الطالب وصياغته من جديد، وجعله يؤمن بصورة مطلقة بأن اليهودي فوق الجميع، وهو ما أدى إلى خلق مجتمع عنصري، يتساءل المرء ماذا يتوقع من إنسان يترعرع في هكذا مجتمع! فكانت النتيجة استقواءه على العربي واحتقاره.

في المقابل نجد أن النظم التربوية العربية تساعد أيضًا في تأكيد ما يقوم به النظام التعليمي والتربوي في إسرائيل من هذه الناحية في الوقت الذي تضخ فيه المناهج التعليمية الإسرائيلية في عقول أبنائها، التعالي والعنصرية والنبوءات المزعومة مثل، شعب الله المختار وما شابه، ونجد أن نظام التعليم العربي والإعلامي في الوقت نفسه، أنه يحاول إقناع الطفل العربي بأن إسرائيل حقيقة وموجودة من خلال التعلق بالإعلام الإسرائيلي وفتح السفارات والمكاتب السياحية قبل إتمام عمليات السلام المزعومة، الطامة الكبرى أن العرب يفعلون هذا وفي نفس الوقت هناك من يدعو أو يدَّعي المقاومة.

الخلاصة أن المؤسّسات التعليمية والدينية والعسكرية والإعلامية الإسرائيلية، نجحت إلى حد بعيد في أن تخلق لدى الإسرائيليين فكرة نمطية - عنصرية ثابتة عن العربي، يعتقد غالبية الإسرائيليين أن العرب أدنى من الإسرائيليين، وهو ما ساعد على الإفراط في استعمال القوة تجاه الفلسطينيين عند مقاومة الاستيطان، في اليوم الأول لاندلاع انتفاضة الأقصى سنة ٢٠٠٠م، التقت المذيعة المشهورة "كرستيان أممبور" في قناة "سي.إن.إن" الأمريكية الشهيرة برئيس الحكومة الإسرائيلية آنذاك "إيهود باراك"، وتساءلت عن سبب استعمال القوة بالشكل الذي

بثته القناة قبل اللقاء حيث كانت قذائف الدبابات الإسرائيلية والرشاشات الثقيلة تضرب الشجر والحجر ونوافذ البيوت بصورة لا تتقيد بقوانين الحرب، أجاب حينها باراك، "هذا هو الرد المناسب في هذه المنطقة، فنحن لسنا نعيش في الولايات المتحدة، هذه المنطقة تحتاج هكذا رد".

لقد اظهر أكثر من استطلاع إسرائيلي، بأن الرأي العام في إسرائيل يقر أن "العرب لا يفهمون سوى لغة القوة، ولذلك فاتباع سياسة الردع والعنف معهم هو الأسلوب الأمثل، فهم قوم فرديون، مفككون، يميلون إلى الكذب والمبالغة وخداع الذات، وهم بالمقارنة بالإسرائيليين كسالى وجبناء وخونة، ومستوى ذكائهم منخفض، وعلى الجملة هم أدنى من الإسرائيليين"، ويتفق مع هذا الاستطلاع كثير من أعضاء منظمات حقوق الإنسان في إسرائيل والعالم مثل المحامية (الإسرائيلية) "فليتسيا لانغر" التي قالت إن إسرائيل تعمل على تعليم الطالب اليهودي في إسرائيل فنون الحرب وكيف يجيد القتل، وكيف يحقد على العرب ولا ترتجف يداه وهو يطلق النار من سلاحه.

هذا، وإن قول عالمة النفس الإسرائيلية "عاميا ليبليخ" يُعتبر في منتهى الأهمية لعلماء النفس الفلسطينيين والعرب وكل من له علاقة بفكر المقاومة، تقول عاميا ليبليخ عن الظاهرة التي لازمت الوجود الصهيوني على أرض فلسطين، "إنّ التعايش مع الحرب، كان وما زال جزءًا رئيسيًا من حياتنا، منذ إقامة الدولة وكذلك في الفترة السابقة عليها"، لهذا أصبحت العسكرة والعنف صفات للشخصية الإسرائيلية وعلى العرب مواجهتها سواء بالإقناع للعدول عنها أو بالصمود في وجه العنف وتحطيمه!

من هنا يمكن القول بإن العنف الذي هي عليه الشخصية الإسرائيلية، ناجم عن التربية والتعليم، وربما جاء اليوم الذي يتحدث فيه العرب حينما يفاوضون عن السلام مع إسرائيل، بالا يُطلب فقط من العرب أن يبتعدوا عن التحريض وإنما على إسرائيل إذا كانت جادة في السلام المزعوم بأن تُعيد مراجعة مناهج التربية والتعليم على احترام الشخصية العربية حتى يكون هناك دور لسلام حقيقي.

لهذا، وكنتيجة لما يحدث حقيقة في إسرائيل، فإن المنادين بالسلام في إســرائيل الذين ملوا من الحروب المتواصلة، هم أقل تأثيرًا في المجتمع الإســرائيلي مــن المتطرفين الذين يُمثلون الغالبية، وذلك بسبب التربية العنصرية العدوانيــة فــي المجتمع الإسرائيلي، وبسبب التخاذل العربي غير المكترث الذي يبقى صامتًا فــي حين قلة لا تساوي نسبة منه هي التي تقاوم بوسائلها البدائية، التي يستفيد منها واضعي المناهج التعليمية في إسرائيل فتكون سببًا للاهتمام ولاســتمرار التشــدد والاستقواء على العرب، ما دام تحقيق النصر عليهم سهلاً أو كمــا كــان يحــدث دائمًا.

لقد لعب علم النفس لدى الصهيونية دورًا هامًا في المجتمع الإســرائيلي وعنــد يهود الشتات، ولدى الشعوب الأخرى، لا شك بأن الكثير قيل عــن الهولوكســت النازي، وصدَّقه من صدقه، وأنكره من أنكره، وما زال الكثيرون يتساءلون، لكن الصهيونية لا تتعامل مع الهولوكست كقضية إنسانية بحتة تُشير إلى ظلم الإنسان للإنسان وكره البشر للشر والإيذاء فما بالنا بقتل الإنسان للإنســان، الصــهيونية أخذت تلك القضية كأداة لتخويف يهود العالم وجعلهم يقتنعون بأن لا أمان لهم إلا بوجودهم في أرض الميعاد المزعومة، لذلك تعمل الصهيونية موَاســمًا وأعيــادًا ومناسبات للهولوكست في كل عام، وإعلامها يُبقيها في جعبته كرؤوس أقلام لكي يفتتح بها خطابه الإعلامي أو ينهيه، وهل هناك أبلغ مما يتفــق مــع الأســباب الأخلاقية التي وضعها الحلفاء المنتصرون على النازية!

يعتقد الكثيرون بأن الهولوكست هو مجرد شائعة مبــالغ فيهــا، لكــن الإعــلام الصهيوني بمثابرته على جعل الهولوكست الحدث الأهم، وحرصه علــى تعليمــه للبشرية لعدم نسيانه، فاستطاع أن يغرسه في عقل الإنسان الغربي كأسطورة، لأن الأسطورة درجة أرقى وأسمى من الشــائعة، فالشــائعة مــثلاً يمكــن دحضــها ومناقشتها، وأما الأسطورة فهي قريبة من المقدس كونها لا تحتاج إلى تأويل في أساسياتها، لذلك نجد أن الصهيونية تكاد تحرم الاقتراب من موضوع الهولوكست حتى أنها لا تقبل أن يقارن به شيء، لأن لا شيء من المنظور الصهيوني يُشــبه

الهولوكست مهما كانت فظاعته وترويعه وعلى من وقع ظلمه، مـن هنـا يمكـن القول أيضًا، بأنه لولا أن الصهيونية هي حركة علمانية في الأساس لأضفت على الهولوكست مسحة حلولية دينية بمعنى أن الله يمكن أن يحل بالبشر وبالأشـياء فيصبح الهولوكست نوعًا من النبوءات الدينية كما اعتاد المزيفون أن يفعلوا.

ولكن هناك من الإسرائيليين أنفسهم من يتحدى الصهيونية ويدحض ادعاءاتها، وأن مبالغة إسرائيل في استغلال الهولوكوست أثارت مشاعر يهود كثيرين ممن عاشوا تجربة الهولوكوست من بينهم "إسرائيل شاحاك"، الذي يرى أن تعرض شخص أو أمة ما للظلم ليس مبررًا لظلم الآخرين، وبأن الهولوكست كان أحرى به أن يدفع باليهود إلى كراهية الظلم ونبذه، وحول فضح عنصرية إسرائيل، المؤسسة على عقلية الغيتو المتمركزة حول ذاتها يقول إسرائيل شاحاك، "يكره الناس كلهم اليهود، وهي كراهية لا تزول، لذلك يعزل اليهود أنفسهم من غير اليهود، إن أرض إسرائيل تخص اليهود وحدهم"، بل إن إسرائيل شاحاك يعتبر الصهيونية فكرة شريرة بسبب موقفها التوتاليتاري المؤدي إلى حالة حصرية لم تعرفها الحركات القومية، أما اليهودي الأمريكي – "نورمان فلنكشتاين" الذي كان والده من ناجين الهولوكست، اتهم في كتابه "صناعة الهولوكوست" الصهيونية بالتجارة في مشاعر الآخرين وعذاباتهم.

هذا، وما زال علم النفس أيضًا يلعب دورًا مهمًـا بالنسـبة للدولـة الصـهيونية وتململها لأجل أن تظل تمضي في طريق التفوق، عام ١٩٤٨م كان عدد اليهـود في فلسطين سبعمائة ألف (الإحصاءات الصهيونية)، وعدد العرب مجتمعين يزيـد عن ثمان وعشرين مليونًا من البشر، بل إن الرقم الحقيقي كان يفوق هذا العـدد بكثير، ولما انتصرت إسرائيل في تلك الحرب قال ديفيد بن جوريون إننا متفوقون على العرب بنسبة واحد إسرائيلي مقابل أربعين عربـي، أي أن كـل إسـرائيلي يستطيع أن يواجه أربعين عربيًا، وقد أطلقوا على ذلك معادلة بن جوريون، ظـل الإسرائيليون يحاولون عدم نسيان تلك المعادلة، لذلك وضعوا شعارًا بـأن علـى

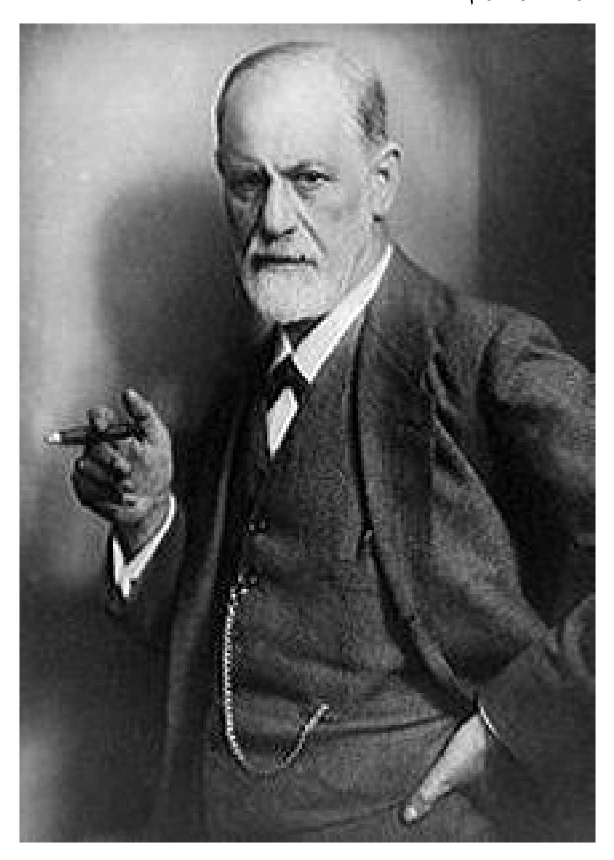
إسرائيل أن تزيد من حجم الهجرة اليهودية إلى إسرائيل حتى تظل نسبة اليهــود إلى العرب في إسرائيل كنسبة واحد إلى أربعين!

كما أن شائعة أرض بلا شعب لشعب بلا أرض، ظلت تلامس في معناها أو تقترب من أسطورة أرض الميعاد المزعومة، رغم أن ملكية الأرض لليهود في فلســطين حتى عام ١٩١٧م حين صدور وعد بلفور كانت لا تتجاوز ثلاثة ونصف بالمائـــة، وعند صدور قرار التقسيم عام ١٩٤٨م لم يملكوا أكثر من ستة ونصف بالمائـــة، وفي عام ١٩٨٣م أصبحوا يملكون ثلاث وتسعين بالمائـــة مـــن أرض فلســطين التاريخية، فإذا كان الأمر كذلك، لماذا كانوا يكذبون حينما يدَّعون بـــأن فلســطين أرض بلا شعب، إنه التلون بالإعلام!

هذا، وما زالت الصهيونية متحفزة، وتتلاعب بالمصطلحات ولم لا وحقائق القــوة على الأرض لصالحها، والإعلام العالمي في خدمتها، النبوءات المزعومة تقــول إن الإسرائيليين سينشئون دولة كبرى من النيل إلـــى الفــرات! عنـــدما يشـــعر الصهاينة بأن هذه النبوءة متعثرة يلجأون إلى تعديل المســـار بـــالقول إســـرائيل العظمى بدلاً من إسرائيل الكبرى، باعتبار أنه لو حدث سلام واضطرت إســـرائيل أن تُضحي بحلم إسرائيل الكبرى، فإنها ستنشيء إسرائيل العظمي كونها ستصبح القوة الاقتصادية الصناعية المهيمنة على المنطقة، وبهذا تســـتعيض عـــن كِبَـــر مساحة الدولة من النيل إلى الفرات بالتفوق النوعي التكنولوجي، وهنـــاك أيضًـــا مصطلحات إشاعات مثل مصطلحات الشرق الأوسط الكبير، وتطبيع ما بعد السلام الخ، وكلها شائعات تحاول أن تثبتها إسرائيل في الثقافات المحلية لكي يظل زمام مبادرات التفوق خاصًا بإسرائيل في منطقة أصحابها ما زالوا لا يقومون بالحـــد الأدنى من مقاومة سرطان الصهيونية الذي يكاد أن يقضي على كل أثر للعرب في فلسطين.

من أنواع الحرب النفسية التي درجت الصهيونية أن تشنها على البشرية ما ظلت تباهي به البشرية من أن معظم العباقرة من مخترعين وفلاسفة وباحثين وغيرهم في العصر الحديث هم من العنصر اليهودي، وهذا من المنظور الصهيوني يُدعم

زعمهم بأنهم شعب الله المختار، قد يسود هذا التفسير على البعض إلا أنه لن ينسجم مع المنطق حتى أن أولئك اليهود الذين تتغنى بهم الصهيونية ما كانوا ليحققوا ما وصلوا إليه إلا لأنهم كانوا نتاجًا للحضارة الغربية وقد أشرنا إلى هذا، فالبيئة والمجتمع قد أتاحا لهؤلاء الناس بأن ينجحوا وينتجوا، ولولا أنهم قد انتموا إلى الحضارة الأوروبية المتفوقة بالذات لما أبدعوا ولا أنتجوا، لماذا لم يُبدع يهود العالم الثالث مثلما وصل إليه يهود أوروبا أليسوا أيضًا يهودًا ومن شعب الله المختار المزعوم.



سيجموند فرويد ١٨٥٦م – ١٩٣٩م

Sigmund Freud

في كتابه "قصة الشعب اليهودي" يقول السير "مـــارتن جلبـــرت"، "كنـــتُ مولعًـــا بالسياحة، فبينما كنت أزور الأماكن التاريخية في تركيـــا عـــام ١٩٥٧م، قابلـــت

سائحان ألمانيان في أحد الأماكن السياحية التركية، سألاني كيف يمكنهما بالسيارة أن يمسكا بالطريق التي تؤدي إلى خارج تركيا لتقودهما إلى الهند، تحاورت معهما ونظرنا إلى الخرائط الجغرافية وخمنا أن تتجاوز المسافة أكثر من ألفي كيلو متر لكي يصلا إلى الهند، وبعد انتهاء سياحتي في تركيا عدت إلى بريطانيا بصحبة "نيل مالكولم" الذي قابلته باليونان في طريق عودتي إلى بريطانيا حيث كانت وجهة نيل أيضًا، اتفقت مع نيل أن نقوم سويًا في يوم من الأيام برحلة إلى الهند.

أيام دراستنا الجامعية في أكسفورد، كنتُ قد تعرفت على زميل في الدراسة من الهنود الآسيويين، وكان اسمه "أشوك"، بقيت أتبادل الرسائل مع أشوك حتى بعد أن تخرجنا من الجامعة، في إحدى رسائل أشوك قال لي فيها إذا ذهبت يومًا لزيارة الهند، مُر على والدتي فبيتنا يقع في مدينة "دلهي"، عام ١٩٥٨م حان الوقت للقيام برحلة إلى الهند، وفعلاً قمت برحلة مع "نيل مالكولم" وذهبنا إلى الهند وهناك افترقنا، كل واحد منا اتجه لزيارة مدينة على أن نظل على اتصال، فضلت أنا أن اذهب إلى مدينة "دلهي" أولاً، وفعلاً وجدتُ نفسي أطرق باب بيت والدة أشوك صديق الدراسة الذي نصحني يومًا بأن أزور والدته، كنت منهكًا من الرحلة وكان يبدو الإعياء علي، فتحت السيدة "فوري" الباب وكان هذا اسم والدة أشوك، فوجدت منها ترحيبًا لم أتوقعه، عرفتها على نفسي فأحسنت وفادتي، وقدمت لي أسرتها وعاملتني كابنها تمامًا، كانت تُقدم لي كل مساعدة وكل خدمة، وكانت تهتم بالأماكن التي أنوي زيارتها أو أقيم فيها خلال تواجدي في الهند.

كانت "فوري" زوجة ابن عم "جواهر لال نهرو" الزعيم الهندي الشهير الذي كان رئيسًا لوزراء الهند في تلك الأيام، عمل زوجها في أكثر من منصب في حكومة الهند، وفي فترة من الفترات كان سفيرًا للهند في الولايات المتحدة وكنت ألتقيهم أحيانًا حينما اذهب إلى الولايات المتحدة، بقيت اكتب لعائلة هذه الأسرة الطيبة وكان ابنها ما زال يقيم في لندن، بعد عام ١٩٧٠م لم أشاهد العمة فوري ولا زوجها العم "بيجي" فقد تقاعدا ووصلا إلى عمر ٩١ سنة واستقرا بالهند، وفي

عام ١٩٩٨م قمت وابني "ديفيد" الذي بلغ العشرين عامًا يومها بزيـــارة للهنــد، كانت الرحلة هذه المرة بالطائرة وليس مثل المرات السابقة التي كنت أقوم بهــا بالقطار أو بالسفينة.

خلال تواجدنا في بيت العمة فوري والعم بيجي دار حديث بيننـــا مختلــف هــذه المرة، سألتني هل أستطيع أن أجد لها كتابًا تقرأه عن تـــاريخ اليهــود، وحينمـــا لاحظت هي على وجهي الاستغراب من سؤالها، أضافت قائلة: أنا يهودية الأصـــل من المجر، وهذا لم يمنعني أن أحب أسرتي أبنائي وزوجي وعائلة نهرو وأحـــب الهند، وأن أعيش حياة الهنود في ملبسي ومأكلي وسلوكي الاجتمـــاعي، لكننـــي أريد أن أعرف من أنا.. لا أعرف شيئًا عن اليهود، فقد كان والـــدي جـــزء مـــن الجالية اليهودية في بدابيست أيام إمبراطورية المجر، وكنتُ في العشـــرين مـــن عمري عام ١٩٣٠م حينما قابلت زميل الدراسة بيجي في لندن وفي عام ١٩٣٥م تم الزواج".

طبعًا صاحب الكتاب "مارتن جلبرت" هو يهودي الأصـــل، وهـــو كاتـــب ومـــؤرخ بريطاني معروف، حاول في كتابه أن يُعرف اليهود بالحديث عن التاريخ اليهودي الذي لا يعرفه كثير من اليهود من خلال رسائله التي كان يرســـلها إلـــى العمـــة فوري، وتاريخ كهذا لا يمكن أن يكون تاريخًا لشعب واحد، لأنه تاريخ انتقـــائي، تاريخ يغتصب تاريخ الأمم الأخرى، يأخذ ولا يُعطي، ويأخذ الأفضل فقط وينســـبه لبشر آخرين، إن ما لمع به بعض النوابغ من اليهود في بعض المجتمعات، إنمـــا يعود الفضل فيه إلى المجتمع الذي أعطى الفرصة، فالإنسان هـــو الإنســـان فـــي سيبيريا بروسيا أو لوس انجيلوس بأمريكا أو في عنتيبي بأفريقيا، فنظام المجتمع ونوع الحياة به هي التي تأتي بالنبوغ، وإلا لماذا اليهودي البريطاني مثلاً عـــالم ومخترع، واليهودي اليمني حرفي يحذي حوافر الخيل.

هذا، وتذكر موسوعة المسيري، إن من أقوال العالم "سيغموند فرويد" (اليهودي) أو "فرويد" كما هو شائع اسمه، في كتابه "موسى والتوحيد" ما يلي:

"كانت الشروط الأساسية (أيام موسى) تتنافى مع تحول الإله اليهودي (وهو قومي محض) إلى إله كوني، فمن أين تأتى لهذا الشعب الصغير البائس والعاجز صلف الادعاء بأنه الابن الحبيب للرب...".

"... إنه لما يبعث على الدهشة أن يختار الإله لنفسه على حين بغتة شعبًا من الشعوب ليجعل منه شعبه المختار، إن هذه الواقعة يتيمة في تاريخ الإنسانية فقد يحدث أن يختار شعب من الشعوب إلهًا جديدًا، ولكن لم يحدث قط أن اختار إله من الآلهة شعبًا جديدًا"!

لقد كان دائمًا هناك هدفان متلازمان للمشروع الصهيوني لإقامة دولة "إسرائيل"، منذ أن طرحت فكرة الدولة لأول مرة في القرن التاسع عشر، الهدف الأول أن تقوم الدولة، والثاني أن تهيمن على المنطقة بأن تصبح هي محور النظام الإقليمي للمنطقة سياسيًا وأمنيًا، ومركز حركته اقتصاديًا، ولنا هنا أن نلاحظ أن الهدف الثاني الذي أخفقت "إسرائيل" في تحقيقه، يحاول أن يتحرك الآن مدفوعًا بطاقة الديناميكية الاستراتيجية للنتائج العسكرية للحرب في العراق، وإن كانت قوة الدفع الأمريكية له ليست وليدة اليوم، بل إنها تتحرك على أساس من جهود جرت منذ سنوات في الولايات المتحدة لتحقيق هذه النتيجة، وكان يقودها مجموعة ممن شغلوا مواقع رئيسية ومؤثرة في حكومة الرئيس بوش منذ تصديهم لتقديم هذه الفكرة في دراسات من خلال مراكز بحوث مرتبطة بـــ"إسرائيل"، وفي أوراق كُتبت خصيصًا لكي تكون هاديًا استراتيجيًا لبنيامين نيتانياهو عندما كان يتأهب لتولي رئاسة الحكومة الإسرائيلية في عام ١٩٩٦، وبرز منهم في القيام بهذا الدور ريتشارد بيرل، ودوجلاس فايث، واليوت أبرامز، من أقطاب حركة المحافظون الجدد التي أدارت السياسة الخارجية، والعسكرية في حكومة جورج دبليو بوش.

ثم انتقل هذا الهدف من إطار الطرح النظري، إلى دائرة التطبيق العملي، حين أصبح متداولاً بين المراكز السياسية والاستراتيجية في الولايات المتحدة، التي كانت تتابع التخطيط لحرب العراق بالمتابعة والتحليل، ورأت أن إعادة رسم

الخريطة الإقليمية للشرق الأوسط، لتحتل فيها "إسرائيل" موقعًا مركزيًا سياسيًا واقتصاديًا وأمنيًا، هو أحد الأهداف غير المعلنة رسميًا لحرب العراق، إن جذور هذا الهدف قديمة قدم التفكير في قيام دولة يهودية، وقد سجلها نبي الصهيونية تيودور هيرتزل في عام ١٨٩٩م، في مفكرته التي صدرت في عام ١٩٠٢م في كتابه دولة اليهود، الذي تضمن نظرية سياسية استعمارية، وتحدث عن الهدف الأول وهو قيام "إسرائيل"، ثم انتقل إلى الحديث عن قيام القاعدة الصناعية المتقدمة بعد قيام الدولة وفتح الجسور بينها وبين الدول العربية، التي حينها ستساهم برءوس أموالها في دفع هذا التقدم الصناعي ونموه، وتفتح أسواقها لتستوعب الإنتاج اليهودي، وتُسيطر "إسرائيل" على مصادر الثروة في الشرق الأوسط.

كانت نظرة الحركة الصهيونية للشرق الأوسط، أن له وضعًا متميزًا يجب الاستفادة منه، فالشرق الأوسط كان في أغلب فتراته التاريخية قاعدة لدولة كبرى مثل مصر الفرعونية، والإمبراطورية الرومانية، والإمبراطورية العثمانية وغيرها، وحيث لا توجد في هذا الوقت تلك الدولة الكبرى في الشرق الأوسط، فإن إسرائيل يمكن أن تكون هذه الدولة الكبرى، وكان معروفًا أن الحركة الصهيونية درست جيدًا تاريخ الدولة العثمانية منذ قيامها، وحاولت الاستفادة من تجربتها، حيث كانت تركيا التي قامت على أساسها الإمبراطورية العثمانية دولة صغيرة تجاورها من ناحية الإمبراطورية الرومانية الشرقية التي أصابها الضعف، ومن ناحية أخرى العالم الإسلامي المفكك والمتناحر مع بعضه البعض، وبالاستفادة من هذه الظروف، كان من اليسير لتركيا الصغيرة أن تُسيطر على جيرانها، وتُقيم دولتها الكبرى.

أي أن الهدف الثاني لإسرائيل، تاريخيًا، كان يعني أن الصدام حتمي بين المشروع الصهيوني، والمشروع القومي لأي نهضة عربية، وبالتالي كانت العروبة وفكرة القومية العربية، بمعنى التكامل العربي سياسيًا واقتصاديًا وأمنيًا، تمثل منذ البداية عقبة، لابد من العمل على تفتيتها، لذلك صاحب كل الحروب العربية الإسرائيلية،

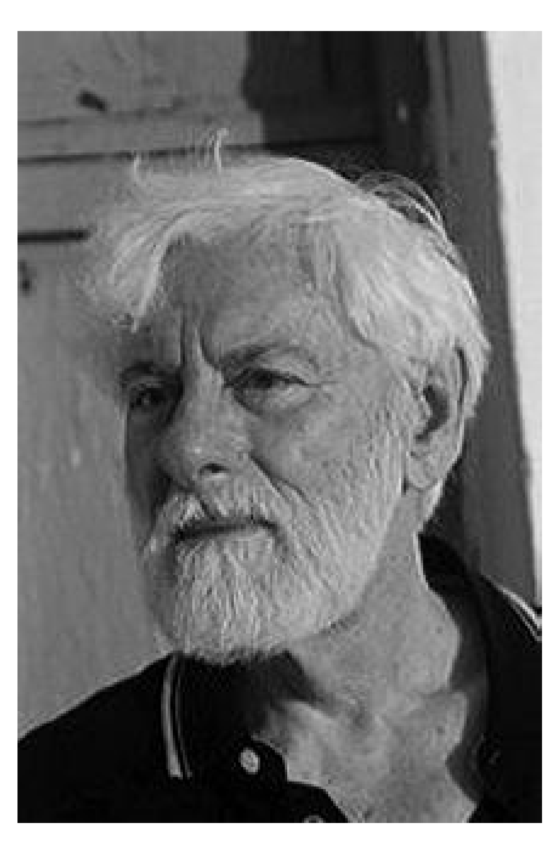
حشد إسرائيلي مكثف لأسلحة الردع النفسي (الإعلام)، القصد منها إحداث حالة جماعية من الإحباط النفسي لدى الأمة العربية، وفقدان الثقة بالنفس، ومن ثم فقدان الثقة بفكرة العروبة ذاتها، وفقدان الثقة بقدرة العرب على أن يقفوا حتى مع أنفسهم، والتشكيك في الهوية العربية الجماعية وأصولها الحضارية أو الثقافية، لقد كان جزءًا من دوافع إثارة الأزمات والحروب الأهلية والإقليمية - وأشهرها الحرب الأهلية اللبنانية، وأزمة غزو العراق للكويت - يرمي إلى زيادة الجفاء وتوسيع الفجوة بين العرب والعرب وتفتيت الهوية الجماعية العربية، وقد أحدث ذلك كثيرًا من الشقوق بل وأدى إلى هدم الكثير.

وفي الأوقات التي اكتسبت فيها فكرة تفعيل الهوية الجماعية العربية قوة دفع، فقد كان رد الفعل الإسرائيلي يظهر قويًا ليطرح البديل عن النظام الإقليمي العربي، حدث هذا عقب انتهاء الحرب الباردة في أواخر عام ١٩٨٩م، وما بدأ يسود من اعتقاد، بأن قدرة أي دولة مستقبلاً على مواجهة التحديات والتنافس في العصر الجديد، هي رهن أدائها ضمن تكتل إقليمي اقتصادي، مهما يكن ثراء مواردها، وأن المستقبل هو للكيانات الإقليمية التي تتكامل اقتصاديًا بعد أن قفز عنصر القدرة التنافسية الاقتصادية، إلى رأس قائمة أولويات مكونات الأمن القومي للدولة، وعندئذ بدأ الترويج للمبدأ الذي طرحه شيمون بيريز عن الشرق الأوسط الجديد، والذي كان في ظاهره إطارًا للتعاون الإقليمي الاقتصادي والاستثمارات المشتركة وفتح الحدود والأسواق وإن كان في باطنه نبض مشروع الحركة الصهيونية الأساسي والقديم.

عن الهدف الثاني بعد قيام الدولة اليهودية، وهو أن تكون هذه الدولة هي مركز الهيمنة الصناعية أو السياسية والقوة الكبرى في المنطقة، ليس لأن قوتها خارقة وإنما لاستفادتها بالتخطيط المنظم من ضعف الآخرين، وغياب مفهوم التخطيط طويل الأجل عن عملهم، وأن تكون هذه القوة الكبرى، التي تدير قوتها الصناعية والاقتصادية بطاقات دول المنطقة، قادرة على هذا النحو، على أن تكون ندًا لدول العالم الكبرى الأخرى، ويُذكرنا هذا التوجه الاستراتيجي، بموقف لـــ "بنيامين

نتانياهو" رئيس وزراء "إسرائيل"، أمام المؤتمر السنوي لمنظمة اللوبي اليهودي (الإيباك) في الولايات المتحدة في واشنطن عام ١٩٩٧وكان يعرض لقدرة "إسرائيل" وحدها على قيادة التقدم في المنطقة، بناء على قدرتها على الهيمنة وليس على عملية السلام، يومها قدم نتانياهو في حركة حماسية لأحد علماء إسرائيل الذي أمسك بيده وكان جالسًا إلى جواره على المنصة، ليطلب منه أن يشرح إنجازاته العلمية، ليقنع الحاضرين بأن الذي يحكم ميزان القوى في المنطقة هو التقدم العلمي وعنصر آخر هو الديمقراطية، وراح بنفس الأداء الحماسي الدرامي، وهو يلوح بساعديه في الهواء، يحاول إقناع الحاضرين بألا فائدة من اتفاقات سلام مع أنظمة غير ديمقراطية، وقد علت نبرات صوته وكأنه يصرخ وهو يقول أنتم (يقصد الأمريكيين) لا تعرفون الشرق الأوسط، الذي نعيش نحن فيه، فهذه منطقة يحكمها حكام، لا يعني توقيع أي معاهدة بالنسبة لهم شيئًا، أي أن فكرة الهيمنة وأن تكون "الدولة الصهيونية" هي الدولة المحورية التي تقود وتخطط وتقرر، ظلت في عمق التفكير الإسرائيلي للمشروع الصهيوني، حتى وإن كان موضوع الحديث هو اتفاقيات السلام.

يوري أفنيري Uri Avnery :



يوري أفنيري Uri Avnery

"يوري أفنيري" من مواليد ألمانيا سنة ١٩٢٣م، هاجر إلى فلسطين عام ١٩٣٣م، هو صحفي يساري مشهور، كان عضوًا في منظمة "أراجون" التي رأسها "مناحيم بيجن" أحد رؤساء وزراء إسرائيل السابقين الذي وقع مع الرئيس المصري "أنور السادات" معاهدة كامب ديفيد سنة ١٩٧٩م، اشترك أفنيري في حرب ١٩٤٨م، وكان عضو سابق في الكنيست الإسرائيلي، قابل ياسر عرفات أثناء حصار بيروت، وكان أول إسرائيلي يقابله عرفات، وأثارت مقابلته لعرفات ضجة في الأوساط الإسرائيلية في حينها وتم استدعاؤه وتم التحقيق معه، في عام ١٩٩٣م أنشأ حركة السلام في إسرائيل، يقول أفنيري "إسرائيل تحتاج إلى فزّاعة لكي تدفع باليهود إلى المزيد من العنف، فإن لم تجد مبررًا بحثت عن سبب مهما كان، في الماضي كانت فزاعة إسرائيل وحجتها لبقاء المجتمع العسكري في إسرائيل، هو الميثاق الوطني الفلسطيني مع أن القليل جدًا من الفلسطينيين من قرأه، وأقل

منهم من يتذكر فحواه، ورغم إننا أجبرنا الفلسطينيين على إلغائه فإننا أصبحنا نبحث عن شيء آخر يُخيفنا، المفارقة أننا لم نعدم وسيلة فوجدنا أن حق العودة هو الفزاعة التي سنستغلها ليس كمشكلة عملية يتم التعامل معها بطرق عقلانية، بل كوحش تقشعر له الأبدان"!

من الأهمية بمكان أن ينتصب العقل ويُلقي نظرة قبل أن يتجه إلى ديناميكية الرؤية ويلتفت نحو كل الجهات ثم ينطلق بحذر في بيئة المنطقة العربية المليئة بالألغام من كل الأنواع، إذن لا بد من عملية استشراق قبل الانطلاق إلى الأفق الأرحب، لذلك لابد أن نأخذ في الاعتبار أمورًا في غاية الأهمية، وألا نكون كمن يمشي وهو نائم، سنأخذ في اعتبارنا أن السيطرة الغربية على المنطقة العربية مستمرة وقد تتجاوز الربع الأول من القرن الحادي والعشرين، وإسرائيل في المنطقة هي إحدى ركائز السيطرة الغربية لأنها جزء عضوي من الغرب متمثلة بالصهيونية العالمية المتغلغلة اقتصاديًا وإعلاميًا وفلسفيًا في دول الرأسمالية الغربية، من ناحية أخرى لأن إسرائيل تأخذ بالنهج الغربي، وفوق هذا لأنها مجموعة احتكارات رأسمالية غربية في المُجمل وفي الأساس، ولها جيش قوي ولا أحد يُنكر بأن له طيران أسطوري يمكنه تغطية المنطقة من باكستان حتى حدود أوروبا.

هذا، وسنأخذ في اعتبارنا أهمية المنطقة لما تُمثله من مخزون للطاقة العالمية، ولذلك فالقوى الغربية لن تتخلى عن المنطقة العربية وعلى استعداد أن تقاتل أي قوة تنافسها في السيطرة على هذه المنطقة حتى لو كانت قوة إقليمية كالقومية العربية في حال نهوضها! كما أن إصرار الغرب على تصفية القضية الفلسطينية أضحى من ضرورات المرحلة القادمة، فاستمرارها أضحى مصدر قلق وتشويش على المصالح الغربية في المنطقة، الأسباب الرئيسية قد تحققت بوجود الدولة الصهيونية، واليهود أخذوا مبتغاهم من الأرض الفلسطينية وقد وصلت مرحلة قيام الدولة الصهيونية مرحلتها القصوى ولا بد من التطوير والتحرك إلى المرحلة الثانية.

بعد الاستشراق المختصر دعنا نُحلق أيضًا في أفق المرحلة الثانية! خلال المرحلة الثانية، سيعمل النظام الغربي المتفوق حضاريًا تحت ظل نظام العولمة الذي يُعتبر الستارة لإبقاء ماء الوجه للحضارات الأخرى كون الحضارة الغربية قد حسمت صراع الحضارات وتفوقت على الجميع، فإنها الآن تُعطي نفسها الحق وهي قادرة أن تطرح مشروعًا للشرق الأوسط حيث لها الحق أيضًا أن تُطلق عليه ما تشاء من الأسماء، مثل مشروع الشرق أوسط الكبير أو الجديد، وسيكون هذا الهدية الثانية بعد فلسطين للصهيونية، بهذا ستصبح إسرائيل القوة العظمى في المنطقة بعد أن كانت القوة الكبرى، وسينتقل موقع إسرائيل بالنسبة للغرب من التابع إلى الشريك.

ما سبق هو التصور القادم لما يمكن أن تكون عليه المنطقة الذي بدأت تتكون غيومه الآن في سماء المنطقة العربية بشرط عدم وجود تأثير محلي من أهل المنطقة، أو ردات فعل يمكن أن تضع عصاها في دولاب المشروع الصهيوني - الغربي وتعيقه بعض الوقت، سواء حدث هذا من العرب والقوى الإسلامية الأخرى مثل إيران أو من قوى أخرى عالمية تنافس الغرب على النفوذ والبترول في المنطقة.

صحيح أن العرب قد حصلوا على الاستقلال الإقليمي المشروط في القرن العشرين، إلا إنهم لم يحصلوا على السيادة السياسية والاقتصادية الحرة، وقد أضاعوا كل الفترة ما بعد الحرب العالمية الأولى بكل تناقضاتها بما في ذلك فترة الحرب الباردة بين الغرب بقيادة أمريكا وبين المنظومة الاشتراكية بقيادة روسيا، دون أن يوجدوا مشروعًا وحدويًا ناجحًا وبذلك خسروا القرن العشرين، وانتقلوا كتركة بين أيدي القوى الغربية لتصنع بهم ما تشاء كونهم أضحوا ليس فقط مخزون استراتيجي للطاقة، إنما أيضًا مخزون جغرافي ديمغرافي استراتيجي للقوى الغربية التي مع نهاية القرن الحالي ستغدو مُجبرة أن تتنازل عن الشرق الأوسط خصوصًا المنطقة العربية لإسرائيل العظمى، التي لن تقبل أن تظل شريكًا للغرب في منطقة تعتبر إسرائيل نفسها كيهود الورثة الطبيعيين فيها للقومية

العربية، وليس من المستبعد أن تُغير إسرائيل أيديولوجيتها في وقت معين فبعد أن أصبحت الصهيونية هي قومية الشعب اليهودي طيلة قرن كامل، فمع التوسع الإسرائيلي المحتمل، ليس من المستبعد أن يتطور اسم الأيديولوجية من الصهيونية إلى السامية، وكون العرب ساميين أيضًا فإن إسرائيل يمكن أن تنافس الغرب في نهاية القرن الحادي والعشرين وتأخذ الاتجاهات بُعدًا آخر، ويُصبح الساميون قوة عظمى ترث كل النفوذ الغربي ليس في المنطقة العربية فحسب بل في الشرق الأوسط الكبير، قد يستغرب الكثيرون هذا الطرح، ولكن يجب ألا ننسى بأن القومية العربية تسير إلى الاضمحلال في كل يوم، اثنين وعشرين دولة حتى عام ٢٠١٠م وقد تزيد، وإقليمية صاعدة الشعور في كل قطر عربي وقومية خافتة الضوء تتلاشى بسرعة نحن مصريون وفراعنة، ونحن خليجيون، ونحن مغاربة، ونحن مارونيون، ونحن أكراد، ونحن بربر، ونحن امازيغ.. الخ.

الفصل الثامن عشر

جماعات الضغط الصهيونية

"لوبي" كلمة إنجليزية مكتوبة بحروف عربية أصلها **Lobby**، معناها واسع إذا أردنا وضعه في الفهم العربي للكلمة، لوبي معناها ردهة أو واجهة أو ساحة أو ممر عام داخل عقار مغلق أو مكان يلتقي فيه الناس بدون رسميات أو يلتقي فيه من يريد أن يقابل من يريد أو ينتظر به من يتصيد لقاء شخص ما بطريقة عابرة أو هو وسيلة لمن لا يستطيع مقابلة شخص هام إلا بالمغامرة للحصول على ضربة حظ أو يلتقي فيه شخصان أو أكثر باصطناع الظروف كأنهم يلتقون صدفة أو يلتقون عن قصد وعن تعمد. اللوبي، يمكن أن يكون واجهة الاستقبال لأحد الفنادق أو الدوائر أو المؤسسات أو الوزارات أو هو مكان للاستراحة أو الدعة أو لقضاء وقت لانتظار قضية ما أو شيء أو لعمل صفقة مالية أو سياسية أو عقد لما يمكن أن يتم بين الناس.

من هنا، فإن معنى لوبي واسع كما أشرنا، وربما معناه أكثر طولاً وعرضًا مما ذُكر، لكنه ببساطه مكان يمكن استخدامه للتعارف أو التحاور أو الاتفاق أو التآمر أو هو أحد الوسائل الحديثة التي تتم فيها قرارات واكتشافات، وقد يلتقي في اللوبي رجال السياسة أو القانون أو الزعماء أو الضيوف أو من يريد عمل شيء أو الحصول على شيء لا يستطيعه بالوسائل التقليدية الرسمية أو غير الرسمية، أيضًا يمكن أن يقال بإن اللوبي هو المكان الذي يتم فيه تبادل المصالح، لذا فقد أوجز المعنى المجازي كاصطلاح سياسي في شمال أمريكا بالتحديد بكلمة واحدة هي لوبي، فأصبح معنى لوبي (نقلاً عن شمال أمريكا) شائعًا ومفهومًا بين معظم أفراد الشعوب في العالم.

لقد شاع في الولايات المتحدة وجود جماعات تسمى إحداها لوبي أو بالأحرى تسمى جماعة الضغط، فيمكن أن يقال "لوبي" أو جماعة ضغط شركات البترول أو جماعة ضغط شركات الأسلحة أو جماعة الضغط الصهيوني على صناع القرار في السياسة الخارجية الأمريكية، في الولايات المتحدة هناك جماعات ضغط علنية، وأخرى علنية ولكن دون أن يستطيع القانون أن يطالها، في دولة كالولايات المتحدة التي يحكمها القانون يستطيع المواطن أن يحقق فائدة إذا استطاع أن

يخدع أو يتغلب على القانون، وليس التغلب على القانون هو تجاهلــه أو ضـــربه بعرض الحائط، إنما يمكنه أن يتحدى القانون علنًا، فإن استطاع أحــد ألا تطالــه مواد القانون أو اللوائح المعمول بها أن يحقــق فائــدة أو يــتملص مــن دفــع استحقاق، فإنه يكون قد تغلب على القانون ونفذ من إحدى ثغراتــه، وفــي تلــك الحالة يكون العيب من القانون الذي لم يغطي الثغرة التي استطاع أن يتسلل منها من يهزم القانون، لهذا هناك اصطلاح أيضًا في أمريكا الشمالية يــردده النـــاس ويتندرون به، فيقولون إن فلانًا أو شركة ما سواء كانـــت شخصـــية طبيعيـــة أو اعتبارية تغلبت على القانون أو على النظام العام في الدولة.

وكون المجتمع الأمريكي أو الكندى وما شابههما من مجتمعات متعددة الثقافـــات بسبب إنها مجتمعات شكَّلها المهاجرون إلى العالم الجديد، فتوجد جماعات الضغط الاثنية مثل اللوبي الإيطالي، اللوبي اليوناني، اللوبي الفرنسي، اللوبي الأيرلندي، اللوبي اليهودي، اللوبي الصهيوني، اللوبي العربي، اللوبي الكاثوليكي، إلى أخره من أسماء وأنماط لها علاقة بأوجه الحياة أفقيًا ورأسيًا.

اللافت للنظر أن المجتمع الأمريكي كونه مجتمع الدولـــة الأعظــم، فإنـــه يتمتـــع باستقرار وحركة ديناميكية لا توجد في أي مجتمع آخر حتى الوقت الراهن، فهـــو مجتمع الحركة الدائمة والعمل الدائم، ومجتمع التفوق على نفسه، فإن لم يجد ما ينافسه تحدى نفسه وراح يهزأ بما بين يديه ويسعى إلى تغييره فيتغير هـــو لأن عجلات المركبة تظل تدور، ولأن المجتمع الأمريكي مجتمع نقابي مـــن الدرجـــة الأولى وهذا وصفًا للمجتمع لا مدحًا له، ولأنه مجتمع عريض ٥٠ ولاية أو دولة متجانسة في كل شيء تقريبًا، وجميعها داخل إطار نظام واحد، فقد أصبح مجتمع ديمقراطيات جماعات الضغط كما أسماه الدكتور عبد الوهاب المسيري، فقد يوجد لوبي للمصالح البترولية في ولاية أو أكثر من ولايات الجنوب الأمريكي، ولـــوبي آخر يحمل نفس الصفات في ولاية أخرى، ولوبي ثالث من نفس النوع موقعه في ولاية ثالثة، فالثلاثة ما داموا يختلفون فقــط فـــي أمـــاكن تواجـــدهم ويجمعهـــم التخصص والفكرة، فإنهم يتكتلون ويتحدثون بصوت واحـــد، وقـــد يكـــون لهـــم

كومنولث له ممثلين وناطقين بلسان الجميع، فيعتبرون لوبي جماعة جماعات المصالح البترولية، فيكون اللوبي الكبير عبارة عن شبكة من الخلايا المتماسكة التي كلما ازداد عددها زادت قوتها وأثرها، اللوبي يختلف طبعًا عن النظام النقابي الحزبي إلا أن الحزب في العادة له أهداف عامة مكتوبة ومعلنة، واللوبي أهدافه غير المعلنة هي الأهداف الحقيقية وفوق هذا لا تكون مكتوبة، في شمال أمريكي يستطيع اللوبي القوي أن يتحدى القانون ويرفضه ويُغيره عن طريق المُشرعين في مجلسي النواب والشيوخ عن طريق المساومة والإقناع.

لقد استطاعت جماعات الضغط في المجتمع الأمريكي أن توجد وسائل أخرى للتأثير على النظام الانتخابي الديمقراطي كبديل في بعض الأحيان إذا لم تتمكن بالطرق التقليدية الشائعة أن تؤثر في الانتخابات العامة مثلاً، بمعنى أنه لم يَعُد هناك نظام ديموقراطي تقليدي يُعبِّر عن مصالح الناخبين مباشرةً حسب أعدادهم (لكل رجل صوت) بل أصبح النظام يُعبِّر عن كمية الضغط التي يمكن أن تمارسها جماعات الضغط (لوبي) على الزعماء والمُشرعين، سواء عن طريق الإعلام المملوك لهذه الجماعات أو الإعلام المستأجر أو عن طريق الابتزاز بكشف المستور أو بتقديم الرشاوى المباشرة وغير المباشرة لأفراد العائلة أو للوسطاء أو للعملاء المندسين في الأجهزة والمؤسسات الرسمية للدولة، لهذا أصبح المواطن الأمريكي مثلاً، لا يُمارس حقوقه مباشرة بل عن طريق جماعات الضغط التي تقوده في النهاية إلى ما تقتضيه مصالحها.

تُرى، هل الحق الذي تمنحه الدولة الصهيونية للمستوطنين اليهود باقتناء السلاح واستعماله في قتل العرب واغتصاب أملاكهم، له علاقة بمغزى ما مع جماعة الضغط في الولايات المتحدة التي تُدافع بشدة عن المواطنين الأمريكيين في اقتناء الأسلحة النارية غير المرخصة لاستخدامها للدفاع عن النفس أيضًا، تُرى ممن تتكون هذه الجماعة ومن يقف خلفها ويُصر على بقائها علمًا بأن الولايات المتحدة لديها أكبر وأقوى نظام أمني فعال في العالم؟! إذا لم يكن للصهيونية لوبي بالولايات المتحدة الأمريكية فلمن يكون!

إن لجنة الشئون العامة الإسرائيلية (ايباك) في أمريكا مثال واضح وعلني، وهي تقوم على خدمة ورعاية مصالح الدولة الصهيونية، ولها تأثير كبير وحاد على المرشحين في الانتخابات خصوصًا ما كان له علاقة من بعيد أو قريب بإسرائيل، تعمل ايباك مثلاً على تجميع الطاقات والإمكانيات والعقول من أجل التأثير على نتائج الانتخابات بتفضيل مرشح على آخر، فنرى أن كل المرشحين للرئاسة الأمريكية يقومون بزيارة مجاملة للدولة الصهيونية قبل إجراء الانتخابات، ونراهم يتسابقون في إصدار التصاريح الضمنية والمؤيدة لإسرائيل، وتُصبح المنافسة بين المرشحين للرئاسة على من يستطيع أن يكسب رضا لجنة الشئون العامة الإسرائيلية (ايباك)، ونجد أن إسرائيل هي الدولة الوحيدة التي يتحدث عنها وعن مصالحها بكثرة المرشحين للرئاسة الأمريكية.

يعمل اللوبي الصهيوني على جعل قوة أصحاب رأس المال اليهود من أعضاء جماعات الضغط اليهودية بأمريكا هي التي تصنع القرار الداخلي في الكونجرس، وتكون أيضًا وسيلة ضغط على مخططي السياسة الخارجية لكل ما يتعلق بالدولة الصهيونية، فيلوحون مثلاً بالمساعدات والدعم والمساندة للمرشح الذي يلتزم بما هو مطلوب، ويلوحون بالخسارة لمن لا يوضح موقفه من إسرائيل، لذلك تجد المرشحين الذين لهم علاقة بالسياسة الخارجية الأمريكية، لا يملك الواحد منهم إلا أن يُعلن موقفه، وإلا فإن اسمه يسقط منذ الأيام الأولى لبداية الحملة الانتخابية، ولوبي مثل جماعة ايباك إن قالت نفَّذت.

إن اللوبي الصهيوني هو شبكة تنظيمية، تعمل داخله عدد من الجمعيات والاتحادات والتنظيمات اليهودية والصهيونية المختلفة، من هذه المؤسسات: مؤتمر المنظمات اليهودية، المؤتمر اليهودي العالمي، اللجنة اليهودية الأمريكية، اللجنة اليهودية الأمريكية، المؤتمر اليهودي الأمريكي، المجلس الاستشاري القومي لعلاقات الجماعات اليهودية، وهذه الأجهزة تُنسق فيما بينها وتوزع الأدوار، ولنا أن نتخيل ما يمكن لهذه الأجهزة أن تُقدم من دعم مادي وإعلامي

لكل ما يخص الدولة الصهيونية، سواء على الصعيد الداخلي الأمريكي أو ما كان له علاقة من بعيد أو قريب بإسرائيل.

بعد أحداث ١١ سبتمبر عام ٢٠٠١م، قيل إن عمدة نيويورك رفض استلام شـيك بمبلغ عشرة ملايين دولار مقدم من رجل الأعمال العربي "الوليد بن طلال"، وذلك كمشاركة وتضامن لمن تضرروا في الحادث، فلولا أن هناك من أوعز وأثَّر على الجهة التي كانت ستستلم الشيك برفضه لما كان هناك مبرر للرفض، فمن يا ترى يمكن أن تكون تلك الجهة التي فرضت ألا تقبل العشرة ملايين دولار؟!

لا شك بأن المؤسسات الصهيونية التي تمت الإشارة إليها، قد يكون لها أعمال ومصالح أخرى لخدمة أعضائها، لكننا أحببنا أن ننوه إلى خبرة المنظمة الصهيونية في كيفية جعل المال سلاحها الفعال حينما كانت تساوم الدول والإمبراطوريات لحل مشاكلها الاقتصادية، منذ أن كان المهاجرين اليهود الروس مسألة ومشكلة لأنفسهم ولدول أوروبا الغربية، في تلك الأيام كان أثرياء الصهيونية وزعماؤها يقرنون كل التماساتهم أو مطالبهم من الدول المختلفة بأنهم مستعدون لدفع المال بأي صورة يقبلها الطرف الذي يتفق معهم، فكيف الآن والدولة الصهيونية قوة اقتصادية وعسكرية، وزعماء الدول كافة يحجون إلى تل أبيب إما استحسانًا للحصول على التأييد في بلادهم أو استعدادًا لتقديم العون إلى الدولة الصهيونية في أمر ما.

هذا، وتوجد جماعات صهيونية أخرى غير ايباك بالولايات المتحدة، هدفها كسب تعاطف الرأي العام الأمريكي مع الدولة الصهيونية، وقد تأسست تلك الجماعات في البداية من أجل قيام دولة لليهود في فلسطين ثم تحولت بعد ذلك إلى العمل من أجل إشاعة فكرة حسنة عن إسرائيل لدى الأمريكان، فقامت بإنشاء مشاريع مختلفة في الولايات المتحدة، كالمدارس التي تُعلم اللغة العبرية، والمستشفيات، وإنتاج الأفلام الدعائية لإسرائيل، وعمل رحلات مجانية للباحثين والسياسيين وعلماء الآثار والسياحة، من تلك الجماعات: المنظمة الصهيونية الأمريكية،

والتحالف العمالي الصهيوني، والهاداساه، ومنظمة النساء الصهاينة في أمريكا وغيرها.

تمتاز هذه الجماعات بأنها مترابطة ووسائل الاتصال بينها سهلة، ولها مقدرة على خلق أنشطة ومشاريع تهم المواطن الأمريكي بكفاءة واقتدار كونها تُقدم أعمال نموذجية من ناحية دقة النظام وتفوق الأداء، وهو ما يجعلها مميزة في بيئاتها إذا ما أريد مقارنتها بغيرها، فعادة ما يكون موظفيها مدربين جيدًا ويعرفون وعلى دراية تامة بما يجب أن يقوموا به إذا ما احتاج الأمر شيئًا ما له علاقة بإسرائيل، لهذا تجد التكتل والاستنفار على أشده إذا ما دعا الداعي، فتجد كل طرف يتحدث من موقعه والكل بصوت واحد عما يخص إسرائيل، وسرعان ما تجد أن الدنيا تقوم ولا تقعد إذا ما جد الجد، إن لدى هذه الجماعات بيروقراطية مركزية لها القدرة على الربط الدائم بين جميع اليهود النشيطين سياسيًا على مستوى أمريكا كلها.

أيضًا يعتبر "المؤتمر اليهودي الأمريكي" من أهم المؤسسات الصهيونية الأمريكية الفاعلة في الولايات المتحدة، وقد انبثق عن المؤتمر اليهودي الأول الذي عُقِد عام ١٩١٨م قرارات عدة منها؛ العمل على حماية حقوق الإنسان اليهودي داخل الولايات المتحدة الأمريكية وخارجها، ودعم فكرة إقامة دولة يهودية في فلسطين، وتعود فكرة المؤتمر "المنظمة" إلى عام ١٩١٥م حينما تزعم الدعوة إليه "لويس برانديز" و"ستيفن وايز" وغيرهما من زعماء الحركة الصهيونية، والمؤتمر اليهودي الأمريكي يتألف من المنظمات اليهودية التي كانت قائمة أصلاً وكبديل عن اللجنة اليهودية الأمريكية التي كانت تُمثل البرجوازية اليهودية ذات الأصول الألمانية، التي كانت موضع انتقاد لرفضها الصهيونية، هذا ولقد شارك المؤتمر اليهودي في مؤتمر فرساي لتأكيد الحقوق اليهودية، وتزعم الحملات والمظاهرات المناهضة للنازية في الثلاثينات والأربعينات، وبعد قيام إسرائيل عمل المؤتمر اليهودي على بث الإعلام المسيء للعرب في أمريكا، وهاجم الشخصيات والمنظمات الحقوقية اليهودية وغير اليهودية التي حاولت أنصاف العرب.

يُعتبر المؤتمر اليهودي منظمة دينية معفاة من الضرائب، فلا يتوجب أن تقدم تقريرها السنوي علنيًا، ويبلغ عدد أعضاء المؤتمر حوالي خمسين ألفًا، ومنذ عام ١٩٣٨م تحول المؤتمر من عضوية المنظمات إلى عضوية الأفراد، ويُعقد المؤتمر كل عامين ويحضره شخصيات من إسرائيل وأمريكا على مستوى رفيع، أما المؤسسات والمنظمات والجمعيات اليهودية والصهيونية في أمريكا فحدث ولا حرج، هناك المئات من هذه المنظمات وكل واحدة لها هدف، هناك منظمات للنساء وللشباب، ولمحاربة التمييز العنصري ضد اليهود في أمريكا، ولمساندة إسرائيل، وللاعتناء بحقوق اليهود داخل أمريكا وفي إسرائيل وفي الخارج، بل وهناك منظمات دعاة السلام، ومنظمات بحثية تراثية وسياسية، ومنظمات لجمع التبرعات لإسرائيل ومنظمات حتى لتشجيع السياحة في إسرائيل، هناك منظمات يهودية أيضًا ضد المؤيدين للحقوق الفلسطينية بل وإن تهمة العداء للسامية تلصق بمن يؤيد الفلسطينيين وكذلك بمن ينتقد الصهيونية.

المنظمات التالية هي المنظمات اليهودية الأمريكية التي تنتمي للمؤتمر اليهودي الأمريكي:

المؤتمر اليهودي الأمريكي، مجلس الاتحاد الأمريكي لعمال إسرائيل، اللجنة الإسرائيلية الأمريكية للشئون العامة، الاتحاد الصهيوني الأمريكي، بناي بريت، هاداساه، لجنة العمال اليهودية، قدامى المحاربين اليهود، المنظمة الصهيونية للعمال في أمريكا، منظمة مزراحي الأمريكية، اللجنة الاستشارية للعلاقات الطائفية القومية، اتحاد الطوائف العبرية الأمريكية، اتحاد الطوائف اليهودية الأرثوذكسية، المعبد اليهودي المتحد في أمريكا، المنظمة الصهيونية في أمريكا، نساء مزراحي الأمريكيات، عُصبة مناهضة الافتراء، نساء بناي بريت، بني تسيون، المؤتمر المركزي للحاخاميين الأمريكيين، نساء إيموناه في أمريكا، صهيونيو حيروت، الصندوق القومي اليهودي، المؤسسة اليهودية لإعادة الإعمار، الاتحاد الصهيوني للعمال، اللجنة القومية لعمال إسرائيل، المجلس القومي للنساء اليهوديات، المجلس القومي لإسرائيل الفتاة، الاتحاد القومي لأخوات الهيكل، مجلس الإنعاش اليهودي

القومي، مجلس الشباب اليهودي الأمريكي الشمالي، النساء الرائـدات، الجمعيـة العامة الحاخامية، المجلس الحاخامي الأمريكي، منظمة النساء الأمريكيات لإعادة التأهيل من خلال التدريب، العصبة النسائية اليهودية المحافظة، دائـرة العمـال، المنظمة الصهيونية العالمية (القسم الأمريكي).

الآن، دعنا نتحدث قليلاً عن "اللجنة الإسرائيلية الأمريكية للشئون العامـة" التـي اختصارها من الاسم الإنجليزي "ايباك"، تأسَّست هذه اللجنة عام ١٩٥٤م، وهـي منظمة أمريكية يهودية الهدف منها التأثير في السياسة الأمريكية بحيث تتفق مع المصالح الإسرائيلية والصهيونية، وهي جماعة ضغط (لـوبي) رسـمي، تقـوم بالدعاية لإسرائيل في المجتمع الأمريكي باسم اليهود الأمريكان، وتعتبـر أقـوى جماعات الضغط في الولايات المتحدة، إن فكرة هذه اللجنة تعود إلى عام ١٩٥١م حينما قرر "أشعياء كفن"، عضو المؤتمر الصـهيوني الأمريكـي، تكـوين لـوبي صهيوني بعد أخذ رأي كل من الزعماء الإسرائيليين في ذلك الوقت (أبـا إيبـان وموشيه شاريت وتيدي كولك)، وقد سجلت ايباك رسميًا في الكونجرس الأمريكي حسب قوانين جماعات الضغط الأمريكية، تلك الجماعات التي يصـرح لهـا بـأن تعرض وجهة نظرها أمام الكونجرس ولجانه رسميًا، تعمل لجنـة ايبـاك علـى مساندة المواقف الإسرائيلية، وتحارب أي تحالف مع العالم العربي يمكن أن يعود بسلبية على إسرائيل، وتعمل على إقناع أعضاء الكـونجرس بأهميـة إسـرائيل لأمريكا وجدوى التحالف معها، ومقدرة إسرائيل على خدمة المصالح الأمريكيـة، سواء في الحرب الباردة مع الدول الكبيرة أو في محاربة الإرهاب الـدولي ومـا شابه، إضافة إلى أنها تقود الحملات الإعلامية المعادية للعـرب، وتعـارض مـد العرب بالسلاح المتطور.

تُقدم ايباك تقريرًا لكل عضو في الكونجرس عن المواضيع التي تهـم إسـرائيل، وتؤكد ذلك بواسطة المكالمات الهاتفية والزيـارات الشخصـية، وتركـز علـى الأعضاء المنتمين إلى لجان الكونجرس الرئيسية الخاصة بالمساعدات الخارجيـة أو السياسية للدول، وتحتفظ بأسماء أعضاء الكونجرس والشيوخ المتعاونين مع

ايباك، لأجل تكريمهم والاعتناء بهم كلما وقفوا مع إسرائيل في أمر حاسم، يتم الثناء على الداعمين للجنة ايباك بواسطة منشورات اللوبي وحفلات العشاء التي تقام مجاملة على شرفهم، والتبرع لحملاتهم الانتخابية.

تعقد ايباك مؤتمرات سنوية وتدعو كبار الشخصيات، وتعرض في المؤتمر مواقفها السياسية وأولوياتها، وتعلم السلطتين التشريعية والتنفيذية في الحكومة الفدرالية للحزبين الجمهوري والديمقراطي، وتحرص ايباك على موقف الحياد بين الحزبين، وقد عملت ايباك على توسيع دائرة اهتماماتها فاهتمت بالطلبة والكنائس ولدى الأقليات لجمع التأييد لإسرائيل، وحتى في الجامعات أعدت الحلقات الدراسية لمواجهة المناهضين لإسرائيل، كما أنشأت برنامج التقارب المسيحي اليهودي، وكذلك عملت على التقارب مع السود، تهتم ايباك باللوبي العربي المتنامي في المجتمع الأمريكي الذي يُعتبر مصدر قلق رغم عدم فاعليته بعد بسبب ضعف إمكانياته وحاجته إلى التنظيم، لذلك خصصت ايباك لجنة لصد تأثير اللوبي العربي في أمريكا.

تضم اللجنة الإسرائيلية الأمريكية للشئون العامة في لجنتها التنفيذية رؤساء ثمان وثلاثين منظمة يهودية أمريكية كبرى ولها جهاز دائم للعمل، لها ميزانية سنوية تتجاوز المليون دولار، وتمويلها المعلن يتم عن طريق الهبات والرسوم السنوية للأعضاء، يرأس ايباك مدير تنفيذي، أما منصب رئيس ايباك فيكون في العادة أحد أثرياء اليهود من الشخصيات المعروفة من ذوي النفوذ.

لا شك بأن اللوبي الصهيوني بالولايات المتحدة الأمريكية، استطاع أن يكسب الرأي العام الأمريكي لجانب إسرائيل بسبب نشاطة ومستوى تنظيمه، ويعود هذا النجاح ليس للتنسيق والتنظيم فقط، إنما يعود إلى أن هذه الجماعات عقدت تحالفات مع مؤسسات أمريكية أخرى، مثل العمال والمرأة والمنظمات الدينية وتلك التي تمثل الأقليات، وجمعيات حقوق الإنسان، فتم عقد الحلف الدائم مع مثل هذه الجماعات مع غياب المنافسين جعل الرأي العام الأمريكي متعاطف دائمًا مع إسرائيل وبطريقة منظمة، لذا تجد أن صوت المؤيدين لإسرائيل في المجتمع

الأمريكي كاسح، وهو ما يؤثر أيضًا ليس فقط خلال انتخابات الكونجرس، وإنما في الأيام العادية أيضًا، وحينها لا يستطيع المشرعين في الكونجرس الأمريكي أن يتجاهلوا الصوت اليهودي القوي تحسبًا للانتخابات القادمة.

من المعلوم أن اللوبي اليهودي لا يعمل بطريقة مستقلة عن الحركة الصهيونية، فدائمًا ينسق معها كون الحركة الصهيونية هي المهيمنة على الإعلام الذي يملكه اليهود في الولايات المتحدة، وحتى على مؤسساتهم، لذلك فإن قادة مؤتمر رؤساء المنظمات الصهيونية ولجنة الشئون العامة (ايباك) ينسقون في كل الأمور التي تخص إسرائيل مع السفارة الإسرائيلية، وتبدو قوة ايباك على صور كثيرة نتيجة قوة نفوذها في المجتمع الأمريكي، من تلك الصور:
أن المواطن الأمريكي (اليهودي) يمكنه أن يتبرع من دخله السنوي لإسرائيل وأن يُعفى المبلغ الذي تبرع به من الضرائب المستحقة للحكومة الأمريكية، كما أن سندات الخزانة التابعة للدولة الصهيونية تباع في شمال أمريكا علنًا وتذهب تلك الأموال لاستثمارها في إسرائيل، وليس هذا فحسب بل إن رئيس وزراء إسرائيل هو الوحيد بين زعماء العالم الذي يستطيع أن يتحدى الرئيس الأمريكي في الكونجرس وداخل الولايات المتحدة الأمريكية عبر وسائل الإعلام وفي المؤتمرات العامة.

هذا ويجب أن ننوه إلى أن ايباك وغيرها من الجمعيات والمنظمات التي تؤيد إسرائيل، ليس كل أعضائها من اليهود وإنما أيضًا من قطاعات المجتمع الأمريكي من غير اليهود، مثل الصهيونية المسيحية، وكذلك أصحاب المصالح الاقتصادية في المنطقة، والكارهين للعرب والمسلمين، والذين ما زالوا يعتقدون أن الحرب الصليبية يجب أن تستمر.

من المعلوم أن اللوبي اليهودي الصهيوني يعتمد على قطاع عريض من الناخبين اليهود الذين بينهم عددًا غير قليل من الأثرياء، وأن هذه الجماعة الضاغطة يتبرع أثرياؤها بأكثر من نصف مجموع الهبات للحملة الانتخابية التي يقوم فيها الحزب الديمقراطي خلال الانتخابات العامة، كما أن جزء غير قليل من التبرعات

يُقدَّم أيضًا للحزب الجمهوري حتى لا يُغلق باب قد تأتي منه فائدة، ولإبقاء حافز المنافسة بين الفريقين ولإبقاء الشئون الإسرائيلية موجودة في أدبيات السياسة الأمريكية كجزء من المصالح الأساسية الأمريكية، وفلسفة التبرع للحزبين الكبيرين هي نفسها التي اعتمدها أثرياء الصهيونية في الماضي إبان تواجدهم في أوروبا، أو كما كانت تفعل إمبراطورية روتشيلد في الدول الأوروبية حينما كانت فروعها في باريس ولندن وبرلين وفينا، كل فرع يقدم ولاءه للدولة التي يقيم فيها، يقدم الديون ويمول الاستثمارات حتى لو كانت تلك الدول في حالة حرب مع بعضها، المهم أن أحدهما كان سينتصر والآخر سيصاب بهزيمة والمستفيد في كِلا الحالين هو الدائن والمحتكر.

إن من أسباب قوة ونفوذ اللوبي اليهودي الصهيوني، هو ارتفاع المستوى التعليمي لأعضاء جماعات الضغط إضافة للثراء المتراكم لدى عائلات لا تنتسب في الأصل لوطن معين، هي لا تملك الوطن وليست ملتزمة بصرف الثروة فيه، فالوطن عندها هو المال الذي تقيم عليه كل شيء، وإن شعرت بعدم الاستقرار نقلته إلى وطن آخر يمكن فيه تنمية الثروة بعكس المواطن المنتمي إلى وطن معين، كلما شعر بمزيد من الولاء والاستقرار وزع ثروته على صور مختلفة في وطنه يصعب إعادة تحويلها مرة واحدة إلى نقود متحركة قابلة للنقل إلى وطن آخر مجهول، ثم إن من أسباب تكدس الثروات عند جماعات الضغط خبرتها بالعالم من خلال تواجد الحلفاء والعائلات الموزعة في أنحاء العالم، فهي أول من يكتشف أماكن احتمال حدوث الأزمات الاقتصادية، والعلم يتوقع أين يمكن أن تحدث الأزمات السياسية، فتصير إلى التهيؤ للتكيف مع ما يمكن أن يحدث من نكبات وخسائر وجعلها بأقل خسائر ممكنة، في حين أن الغير الذي يجهل الأمور يتعرض إلى هزات يمكن أن تقضي عليه نهائيًا في بعض الأحيان، أما من استعد للظروف فقد يُحقق ربحًا حتى خلال الأزمات بل يقال إن الاحتكاريين في المجتمع يحققون أرباحًا أكثر خلال التقلبات والحروب، وهم في كثير من الأحيان من يخترعون الأزمات ويصنعون الحروب لخدمة رأس المال الاحتكاري، ولنا أن

نتخيل كم من الثروات قد تراكمت عبر الحقبات والقرون عند العائلات الغنية التي ليس لها ولاء لوطن معين، وتحولت هي إلى حلولية تنشد تقديس ذاتها فتحاول أن تضفي تقديسًا للشخص والعائلة والجماعة، فتسعى إلى حماية ثروتها بجعل الأتباع والموالين بواسطة استعمال جزء من ثروتها فتجعل لها نفوذًا وتأثيرًا على الزعامات الزمنية في المجتمع الذي تعيش فيه لتضمن بقاءها واستمرارها.

لقد أصبح أغنياء جماعات الضغط كأنهم دول داخل الدولة، يتحكمون في اقتصادها وفي الإعلام، ويحتلون سياستها الخارجية خصوصًا ما له علاقة بولائهم لإسرائيل التي يعتبرونها المركز الأخلاقي لتراثهم الحضاري سواء الاثني أو الديني، وحتى العلماني الذي جعل الإنسان الصهيوني إلهًا دنيويًا، هذا بالإضافة إلى أن عدد لا يستهان به من اليهود الصهاينة أو الأمريكيين من غير اليهود، كثيرًا ما أصبحوا يشغلون المراكز الحساسة في مراكز صنع القرار الأمريكي، وهؤلاء هم حلفاء طبيعيون يمثلون جماعات الضغط في المجتمع الأمريكي، وأصدقاء دائمين للدولة الصهيونية.

الجماعات اليهودية في الولايات المتحدة، لأنها على درجة عالية من التنظيم والفاعلية، فإن أعضائها يبدون أكثر عددًا من الرقم الحقيقي لهم في المجتمع، وهذا يصنع لهذه الجماعات هالة دعائية بالتقادم، تتراكم في اللاوعي عند أفراد المجتمع المحلي فتصل إلى مرحلة الإعجاب والولاء والقدوة، ولأن أفراد جماعات الضغط في غالبيتهم من الحرفيين والخدماتيين فقد تواجدوا في الأماكن الحساسة كولايات نيويورك وكاليفورنيا وفلوريدا، وهي الولايات التي تحسم نتائج الانتخابات الأمريكية دائمًا. لهذا أصبح للصهاينة التوطينيين سقف عالي في المجتمع الأمريكي الذي يختزن أكبر اقتصاد في العالم، فلنا أن نتصور والحال هذا حجم الثروة التي يملكها قليل من العائلات في الولايات المتحدة إذا علمنا، أن ٥٠٠ شركة تحمل الجنسية الأمريكية، كان دخلها في إحدى السنوات الماضية مساويًا لنصف الناتج العالمي.

ولأن الناخب الأمريكي بصفة عامة لا يهتم كثيرًا بالسياسة الخارجية بسبب عـدم وجود تأثير سلبي على حياته من العالم الخارجي، وكون الولايات المتحـدة هـي التي تصنع الفعل وليست بحاجة إلى ردود الأفعال التي قد تشغل أفراد المجتمع أو تجعلهم يتنبهون إلى ما يحدث خارج وطنهم، فإن جماعات الضغط الصهيونية تجد راحة تامة ومساحة كبيرة من الحرية، لكي تجعل أولويات السياسـة الخارجيـة الأمريكية هو الاهتمام بما له علاقة بإسرائيل، يمكننا أن نستشعر ذلك إذا ألقينـا نظرة على السنين الماضية كيف كان اهتمام الولايات المتحدة بالدولة الصهيونية بل كيف أن السياسة الأمريكية الخارجية استعملت كل طاقتها ووظفتها لِمـا لـه علاقة بإسرائيل.

كانت الولايات المتحدة أول دولة اعترفت بقيام إسرائيل عام ١٩٤٨م، واستعملت حق النقد الفيتو مرات ومرات في مجلس الأمن الدولي لحماية الدولة الصهيونية على مدى سنين وسنين، في عام ١٩٦٧ و١٩٧٣م كان على رأس الدبلوماسـية الأمريكية اليهودي الصهيوني "هنري كسينجر"، الذي لعب دورًا بـارزًا لصـالح إسرائيل إلى حد أنه جعل الولايات المتحدة الأمريكية تُعلن حالة الاستنفار الـذري من الدرجة الثانية حينما حاول الروس أن يثنوا إسرائيل عن مواصلتها للحـرب ضد مصر، وأمريكا هي من دفعت إلى تدمير القوتين الإيرانية والعراقية في حرب طاحنة لمدة ٨ سنوات لصالح إسرائيل في المنطقة، وأمريكا من قادت إلى توقيـع معاهدة كامب ديفيد عام ١٩٧٩م، وأمريكا هي من أضعفت الموقف العربي حينما غزت العراق الذي كان يتزعم جبهة الرفض ضد التطبيع مع إسرائيل، والولايـات المتحدة هي من فرضت على العرب الجلوس مع إسرائيل في مؤتمر مدريد عـام ١٩٩١م، وأمريكا من أجبرت منظمة التحرير الفلسطينية أن تعتـرف بإسـرائيل مقابل لا شيء سنة ١٩٩٣م (اتفاق أسلو)، وأمريكا من تبنت كل مؤتمرات شـرم الشيخ واجتماعات اللجنة الرباعية (أمريكا – روسيا – الاتحاد الأوروبي – الأمـم المتحدة) لتخفيف العبء الاقتصادي عن إسرائيل بتقـديم مسـاعدات اقتصـادية للفلسطينيين كانت تتوجب أن تقوم بها إسرائيل كونها دولة احتلال مسئولة.

وأمريكا هي من قادت الدول الغنية في العالم لتتقاسم مع الدول العربيــة الغنيــة إعادة بناء ما دمرته الحرب الإسرائيلية في قطاع غزة بدون أن توجِّــه لومًــا أو تُحاسب إسرائيل على تلك الأضرار الفادحة التي لحقت بالبشر والأمــلاك بــدون مطالبتها حتى بتعويض أضرار الحرب غير المبررة، هذا ولا تحظــى دولــة فــي الإعلام الأمريكي كما تحظى به إسرائيل، ولا تنشغل الدبلوماسية الأمريكية بــأمر في العالم كما تنشغل بما له علاقة بإسرائيل، وهذا كله لم يكن ليــتم إلا إذا كــان خلفه قوة متمكنة منظمة وساهرة وتحسب حساب كل شيء، بإيجاز إن الانحيــاز الأمريكي الذي سببه نفوذ جماعات الضغط في المجتمع الأمريكي، هو مــا يــدفع السياسة الأمريكية في اتجاه التناقض مع المصالح القومية الأمريكية الحقيقية بما يخدم مصلحة الدولة الصهيونية.

على مدى الحقبات والسنوات ظل المحللــون السياســيون والمفكــرون العــرب حائرون، ويحاولون حل طلاسم مسألة من يتبع الآخر إسرائيل ام أمريكا، وبصيغة أخرى من يوجه الآخر أو من يقود السياسة الخارجية الأمريكيــة؟ بعــد الحيــرة والبحث والغوص في المجتمع الأمريكي، وبعد تحسس ثقل الوزن اليهودي الــذي تسيطر عليه الصهيونية في الولايات المتحدة، قال البعض إن التناغم في المواقف الإسرائيلية الأمريكية يعود إلى التقاء المصالح بينهما وتطابقها في كــل مــا لــه علاقة بالعرب، وقد أوجد هذا الرأي حيرة أكثر من المسألة نفسها، لأن القيــاس اعتمد على المقارنة بين حجم الولايات المتحدة من كافة النواحي، وحجم إسرائيل والصهيونية ككم رقمي، وهذا بطبيعته ما جعل الآخرين يتخطــون هــذه النتيجــة والجواب، ويذهبون إلى القفز بكل إمكانيات العقل إلى خارج هذا الفهم والانــدفاع للبحث عن جواب شافي، وما زال أصحاب العقول الكبيرة يحاولون!

إن طبيعة المجتمع الأمريكي وخصوصيته كمجتمع ينتمي إلــى أصــول ثقافــات متعددة، فرضت عليه أن يصيغ فلسفته على أساس الشعار الذي يقول، إن الوطن الأمريكي للذين ولدوا فيه، وللذين وصلوا إليه الآن، ولــلــذين ســيهاجرون إليــه مستقبلاً، أو بهذا المعنى، من هذا الشعار يمكننا الاســتدلال كيــف أن المجتمــع

الأمريكي هو بيئة الفرص لأي جماعات اثنية بأن تقوى فيه وتسيطر ويكون صوتها أعلى من أصوات غيرها، لو قارنا الظروف التي قادت إلى هجرة الجماعات الاثنية إلى الولايات المتحدة سنجد أن الجماعات اليهودية تختلف عن غيرها في وجوه كثيرة، فمعظم الآخرين أتوا إلى الولايات المتحدة فرادى وفي أحسن الأحوال كعائلات لا يجمعهم هدف سوى إنهم جاءوا يبحثون عن حياة أفضل، أما اليهود وإن جاء بعضهم كأفراد وعائلات أحيانًا إلا إنهم كانوا أصحاب هدف وقضية، فمن ناحية هم أمة يهودية ليس لها مركز جغرافي وهي جماعات قبلية ولو أنها تأثرت ببعض التنوير والعلمنة، وإن تنقلها الدائم بين الدول والقارات وبقاء التواصل بينها، وتميزها بالاهتمام بالتاريخ، جعلها صاحبة رسالة خصوصًا وأن الولايات المتحدة كانت في البداية بالنسبة لليهود هي ليست أكثر من معبر إلى فلسطين، لهذا نشطت جماعات الضغط الصهيونية وكرست الفكر والإمكانيات إلى أن أضحت مسيرة للسياسة الخارجية الأمريكية في كل ما له علاقة بإسرائيل بل واستطاعت أن تجعل مصالح إسرائيل هي مصالح الولايات المتحدة ونابعة من أمريكيتهم وليس من يهوديتهم، وهو ما انطلى على الإنسان في الولايات المتحدة الأمريكية، وما زال الحال هو هذا بالرغم من وجود المعارضين الذين لا تُسمع أصواتهم بسبب قوة الإعلام الصهيوني وأثره في المجتمع، فهل هذا التعريف مقنع للعقل.. أن المصالح متطابقة؟

لكن في نفس الوقت، إن من المنطق أنه لو كانت علاقة الولايات المتحدة الأمريكية أفضل مما هي عليه الآن مع العالم العربي لكان أفضل للطرفين وخصوصًا للطرف الأمريكي في الحاضر المنظور، فالعالم العربي منطقة حساسة واستراتيجية وموقع تعود أهميته إلى وجوده بين ثلاث قارات هامة هي أساس العالم، آسيا وأفريقيا وأوروبا، ويشترك العالم معها في حوض البحر الأبيض المتوسط، والعالم العربي منطقة مترامية الجغرافيا وفيها ما فيها من عشرات ملايين البشر، وفيها مخزون البترول الكبير عصب الحياة للصناعات الحديثة، فإن علاقة حسنة بين أمريكا والعرب ستعود بفائدة كبيرة على الولايات المتحدة،

وستعمل على استمرارها وفوق هذا فإن البلاد العربية سوقًا مثاليًا للدولة العظمى الصديقة.

لكن الحال في الوقت الحاضر، ليس كما يمكن أن نظن أو كما يمكن أن يتمنى المواطن الأمريكي العادي، لأن هناك ما يمنع ذلك، الولايات المتحدة الأمريكية التي تحكمها هذه المعايير، ما زالت تضع تأييدها المطلق لإسرائيل وما زالت تقف وراءها بقوة وترضع أطفال العرب الكره لأمريكا، ومثل هكذا حال لا يجد المرء تفسيرًا له سوى أن تكون هناك قوة خارجية كبيرة تتحكم بالقرار الأمريكي، وتدعه أولاً يصب في مصلحتها أي المصلحة اليهودية الصهيونية الإسرائيلية، التي يمثلها اللوبي اليهودي الصهيوني، وحتى يكون هناك توازن في إيجاد الجواب المحتمل، لا بد أن نشير إلى أنه من الجائز أن يكون أصحاب القرار الأمريكي هم من يرون المصلحة الأمريكية العليا تقتضي أن تكون العلاقة مع العرب هي ما عليه الآن، لأن نوع العلاقة الحالية بين أمريكا والعرب يجعل العرب أن يظلوا ضعفاء، تأكلهم النزاعات والاختلافات المحلية بينهما، وتباعدهم الفرقة، وتظل إسرائيل أحد الأشياء التي تُبقي العرب غير مستقرين.

إن عملية اتخاذ القرار الاستراتيجي الأمريكي، هي عملية معقدة تؤخذ فيها اعتبارات كثيرة ولا يسمح فيها بالارتجال، فعوضًا عن الأخذ برأي خبراء السياسة والاقتصاد، يؤتى بعلماء النفس والاجتماع، وتخلط الأشياء جميعها، ثم تخضع لعملية حساب بسيطة، يكون فيها ليس مهمًا أن تكون هناك نسبة خسارة عالية، إنما كم سيكون حجم الربح من جراء تلك العملية، فإن كان الربح مُرضيًا فيتحول كل شيء ليصبح آلة للتنفيذ تقاس به الأشياء عند نهاياتها وليس قبل ذلك، كما أن القرارات الاستراتيجية لا تخضع حتى أحيانًا لحساب الربح بقدر ما تكون مهمة لا بد من تنفيذها لحصد ثمن ليس مادي؛ كالنصر في المعركة مثلاً، وإنما لترك أثر معنوي عند العدو بحيث لا يضع نفسه في موقف مرة ثانية بحيث يتعرض لمثل ما حدث له، من الأمثلة التي اتبعتها إسرائيل في استراتيجيتها مع العرب، الحرب التي شنتها على حزب الله عام ٢٠٠٦م حينما استعملت قوة

مفرطة ضد اللبنانيين، هدمت ما هدمت وقتلت ما قتلت، وخربت ما خربت بحجة أسر جنديين صهيونيين من قِبل حزب الله، كان من الممكن أن يفك أسرهما بالمفاوضات وكما حدث بعد ذلك، من نتائج الحرب أن الأمين العام لحزب الله السيد حسن نصر الله قال ما معناه في إحدى خطبه تعاطفًا وتضامنًا مع من تضرروا بفعل الآلة العسكرية الإسرائيلية، قال لو كان يعرف إن النتائج ستكون كما حدث لما تمنى تلك الحرب، كما أن عدد الشهداء والجرحى والآلام، وحجم الدمار الذي أحدثته إسرائيل في قطاع غزة في حربها غير المبررة في يناير ٢٠٠٩م قد ترك أثرًا عميقًا لدى الفلسطينيين الذين لم تصبح أحوالهم أفضل بعد تلك الحرب، بإيجاز إن واضعي القرار أو الخطة الاستراتيجية في الولايات المتحدة لا يخضعون خططهم للارتجال والأهواء الشخصية، وإنما يضعونها ويراعون أن تشتمل على عملية موازنات صعبة ودقيقة بشأن حساب المكسب والخسارة وجدوى القرار.

من المواقف التي اتخذتها أمريكا ومضت في طريقها لكي تحققها، وكانت كمن كان يسير على حد السيف ويظل متوازنًا، هو تدخلها في جمهورية "بنما" في أمريكا اللاتينية، والقضاء على حكم عميلها "مانويل نورييجا"، كانت الولايات المتحدة مدركة بأن تدَّخلها في بنما سيكون له أثر اجتماعي سياسي أي حل مشكلة المخدرات التي تهدد نسيج المجتمع الأمريكي وأمنه القومي وتحسين صورة الإدارة الأمريكية أمام جماهيرها، وتقديمها بأنها جادة في عملية محاربة المخدرات، وكان هذا الثمن أعلى كثيرًا من القول بإن دولة عظمى مثل أمريكا تدخلت في شئون دولة صغيرة وقامت بالقضاء على أحد عملائها النافعين، فحساب الربح والخسارة يتوجب أن يتم في إطار ما يُسمى المصلحة العُليا للدولة، فمصلحة الدولة العليا تحددها رؤى مختلفة لكنها متداخلة كمصالح العقيدة السياسية والدينية التي تستند إليها شرعية النخبة، وليس بالضرورة أن تُمثل مصالح غالبية أفراد المجتمع، فما يكون إنسانيًا وخيِّرًا من وجهة نظر إنسانية، ربما لا يكون صالحًا من وجهة نظر أصحاب القرار.

بالنسبة للعرب والوطن العربي فإن الغرب من خلال نظرته إلى مصالحه البحتة في القرنين الأخيرين يعتبر المنطقة العربية مصدر هام استراتيجي للمواد الخام وخاصة البترول بعد أن زاد الطلب عليه، وأن الوطن العربي مجالاً للاستثمارات، وموقعه الاستراتيجي ضروري لأمن الغرب، وإن لم يكن تحت نفوذ الغرب فإن قوى أخرى طامعة تتطلع إليه، كالاتحاد السوفييتي سابقًا مثلاً، لقد ظل الغرب يُبرر تدخله في المنطقة العربية واحتلالها بادعائه وجود فراغ أمني في المنطقة! كأن الوطن العربي عبارة عن قطعة أرض لا يسكنها شعب له حضارته، أو كأن الوطن العربي هو وجود جغرافي مترامي ولكن بلا تاريخ، في أحسن الأحوال إذا اعتبر الغرب بأن الأرض العربية مسكونة، فهو يعتبر سكانها شعوبًا وقبائل وأقليات بديانات مختلفة ويتحدث غالبيتهم العربية، لكن لا يربطهم رابط حضاري أو اجتماعي واحد، فلكل مصلحته الاقتصادية والسياسية المستقلة التي يسهل تفتيتها بل وعلى هذا الأساس أقام لهم الدويلات الإقليمية، المفهوم الصهيوني عن العرب لا يختلف عن نظرة الغرب لنا، الصهاينة يرون فلسطين أرضًا بلا شعب والضفة الغربية هي يهوذا والسامرة، والشرق الأوسط هو منطقة وليس أكثر، كأن العالم العربي مكان بلا زمان، وجغرافيا بلا تاريخ، وهم دائمًا يتحدثون عن فراغ أمني في المنطقة العربية ولا بد من ملئه.

في القرن التاسع عشر، حينما حاول "محمد علي" والي مصر أن يملأ الفراغ بالوجود القومي العربي، منعه الغرب وحجَّمَه وأعاده الحلفاء الغربيون ليكون بحجم مصر الولاية العثمانية، وفي القرن العشرين، حينما حاول "جمال عبد الناصر" أن يبعث القومية العربية ويملأ الفراغ الذي يدَّعيه الغرب، قامت الدولة الصهيونية بعون من القوى الغربية مجتمعة بالدور الذي وجدت من أجله إلى أن أضحت مصر كسيحة بعد معاهدة كامب ديفيد التي لا تختلف كثيرًا عن معاهدة لندن التي وقعتها دولة "محمد علي" عام ١٩٤٠م بأمر القوى الغربية.

وهكذا فإن الصهيونية ليست مال ونفوذ فقط، وإنما جسم عضوي غربي في المنطقة، يتطابق تمامًا ويتصل مع شريان الحياة الرئيسي للوجود الغربي بل هي

جزء من التشكيل الاستعماري الغربي، فلا يجب التفريق بين المصالح اليهودية الصهيونية مقابل المصالح الغربية، وما الإعلام الصهيوني الذي يُبث في الغرب ضد العرب إلا إنه أداة الصهيونية الرخيصة، وأما الخلافات التي تبدو على السطح أحيانًا بين الصهيونية في إسرائيل وبين بعض المراجع في الغرب فإنه لا شيء، وفي أسوأ الأحوال هي تُشبه الخلاف الذي قد ينشأ بين الدولة الإمبريالية الأم وبين أحد الثغور الاستيطانية التابعة لها، الخلاف الذي سرعان ما يختفي، ويتحول إلى الأسلوب والإجراءات لا إلى الأهداف النهائية، فتراه ينصرف إلى المصلحة الأكثر صوابًا من داخل النسق وليس من خارجه.

إن إسرائيل بالنسبة للولايات المتحدة في هذا العصر، تُعتبر قاعدة غير مكلفة، لأن تقدير الخبراء والاستراتيجيين حسب التكلفة في بدايات القرن الحادي والعشرين، يعتبرون أن الولايات المتحدة الأمريكية لكي تضمن مصالحها في الشرق الأوسط، تحتاج إلى بناء عشرة حاملات طائرات حديثة تُدار بالطاقة الذرية تُكلف خمسين بليونًا من الدولارات لكي تضعها في البحر الأبيض المتوسط والبحر الأحمر، وبوجود إسرائيل فإنها لا تحتاج إلى ذلك بل إن نقل القوات الأمريكية إلى المنطقة يحتاج إلى شهور، وبوجود إسرائيل فإنها تتم خلال أيام، وهذا ما يؤكد بأن إسرائيل دولة وظيفية!

إذن سر نجاح اللوبي الصهيوني هو كونه يدور في إطار المصالح الاستراتيجية الغربية والأمريكية بالذات، ويعرض دولته كأداة مقابل استمرار وجودها، لأن استمرارها لا يعود لمصدر قوة اللوبي الصهيوني أو للطاقة الكامنة فيه، وإنما بسبب اتفاق مصالحه مع المصالح الغربية ككل، تلك المصالح التي تخلقها الصهيونية إذا لم توجد من خلال فريق التنظير من علماء نفس واستراتيجيين يسهرون دائمًا لصناعة الأحداث التي يمكن أن تُسلِط الأضواء على الدور الصهيوني أو الإسرائيلي.

في سبعينات القرن الماضي استطاعت مخابرات الموساد الإسرائيلي بأن تأتي بطائرة عراقية من طراز ميج الروسية إلى إسرائيل، وقدمتها لأمريكا للتعرف

على أسلحة الروس، وما حادث طائرة الميج إلا شيء يسير لما تقوم به الدولة الصهيونية في خدمة المصالح الغربية، لهذا نجد أن الدولة الصهيونية على علاقة مميزة مع جميع الدول الغربية، ولأنها دولة وظيفية فإنها تحصل على التأييد الفردي والجماعي من الغرب.

إن معظم زعماء الغرب الذين ساهموا في هجرة اليهود إلى فلسطين وقيام الدولة الصهيونية، انطلقوا من مصالح بلادهم لا من دوافعهم أو تعاطفهم الشخصي، ومعظمهم كانوا يكرهون اليهود، وكانوا أعداء للسامية وتواريخهم تُثبت ذلك بدء من نابليون بونابرت في فرنسا، وبالمرستون وشافتسبري وآرثر بلفور ولويد جورج في بريطانيا، وهاري ترومان في الولايات المتحدة، وحينما دعا نابليون بونابرت اليهود للهجرة إلى فلسطين لم يكن هناك لوبي صهيوني قوي أو ضعيف في فرنسا، لكن مصالح فرنسا هي التي جعلت نابليون يُطلق نداءه، وحينما ساهم السياسيون الإنجليز في مساعدة الصهيونية وقيام إسرائيل كانوا ينطلقون من قناعاتهم ومن مصالح بريطانيا، لأن كل هؤلاء الساسة كانوا ممن يكرهون اليهود وبخاصة بلفور الذي كان وراء استصدار قانون الغرباء عام ١٩٥٠م لمنع اليهود من دخول انجلتر، ولم يكن دور الصهاينة في وقت لاحق أكثر من التسول على أبواب الزعماء الإنجليز لاستجداء المساعدة، وفي أحسن الأحوال كانوا يغرون الزعماء الإنجليز ويمنونهم بالوعود في كيف يمكن أن تخدم الدولة الصهيونية مصالح بريطانيا مستقبلاً في المنطقة.

في ألمانيا، كان تأثير الاتحاد الصهيوني الألماني قويًا خصوصًا في الأعوام الخمسة عشر التي كانت فيها رئاسة المنظمة الصهيونية العالمية في ألمانيا، سواء في كولونيا أثناء فترة رئاسة "ديفيد ولفسون"، أو في برلين أثناء فترة رئاسة "أوتو واربورج"، ولقد ساعد وجود المنظمة في ألمانيا على إحجام الأتراك (حلفاء الألمان) عن اعتقال اليهود في فلسطين، كان الوجود اليهودي نشطًا في ألمانيا قبل الحرب العالمية الأولى، وكان كثير من اليهود يشغلون مناصب مُهمة في الحكومة الألمانية، وكان أهم ثلاث بنوك في ألمانيا يملكها اليهود، وكان

اليهود متغلغلين في الإعلام أيضًا، وقد كان بعضهم يترأس الأحــزاب الألمانيــة، وكانوا نشطين في الحركة الأدبية والفنون بل وصاروا مندمجين إلى درجة عالية في المجتمع الألماني، لقد شارك اليهود في الحرب بالجيش الألماني بنسبة عالية أكبر من نسبتهم في عدد السكان، وكانت لغة المؤتمرات الصهيونية هي الألمانية، وكانوا يتطلعون بأن يكون مشروعهم القومي جــزء مــن المشــروع الألمــاني وبرعاية ألمانيا، في المقابل كان الوجود الصهيوني في انجلتــرا قلــيلاً، وكــان الإنجليز معادين للصهيونية وكان اليهود منعزلين في المجتمع، فلقد كان هرتــزل وأغلب زعماء الحركة الصهيونية من المهــاجرين اليهــود الشــرقيين، وكــان الصهاينة اليهود مندمجين في المجتمع البريطاني، ولم تكــن لهــم قــوة ونفــوذ الصهاينة في ألمانيا، ومع هذا فقد أصدرت بريطانيــا وعــد بلفــور للصــهاينة البريطانيين ولم يحصلوا على مثله من ألمانيا، وهذا يقود إلى علامــة اســتفهام كبيرة، لماذا لم يجد الصهاينة حلاً عند الألمان رغم نفــوذهم وقــوتهم وعــددهم الكبير وتغلغلهم في الإعلام والسياسة، ووجدوه عند بريطانيا رغم قلتهم وضعفهم وعداء الإنجليز لهم؟! لا نظن بأن الحــديث عــن اللــوبي الصــهيوني والنفــوذ الصهيوني يصلح للإجابة على السؤال الكبير، الجواب الذي لا تســويف فيــه ولا ينتظر المزيد من التفكير، هو أن المصالح الإستراتيجية الإمبريالية الإنجليزية هي التي دفعت إلى استصدار وعد بلفور، وليس اللوبي الصهيوني أو أي مؤثر خارجي، مقابل أن المصالح الاستراتيجية الألمانية كانت مرتبطة مع الدولة العثمانية التــي كان يربطها تحالف مع ألمانيا، لذا لم تسع ألمانيا لإصدار وعد على شاكلة وعــد بلفور لليهود، ولم تعط اذنًا للمنظمة الصهيونية في ألمانيا، لكن الجــواب علــى السؤال الكبير أيضًا يظل ناقصًا، إذا لم نقل بأن هزيمة ألمانيا في الحرب العالمية الأولى (١٩١٤ – ١٩١٧م) واستسلامها، أدى إلى انتقال ثِقَل المنظمة الصهيونية إلى بريطانيا، وأصبحت بريطانيا أكثر حرية في التصرف بعد أن احتلت فلســطين عام ١٩١٧م.

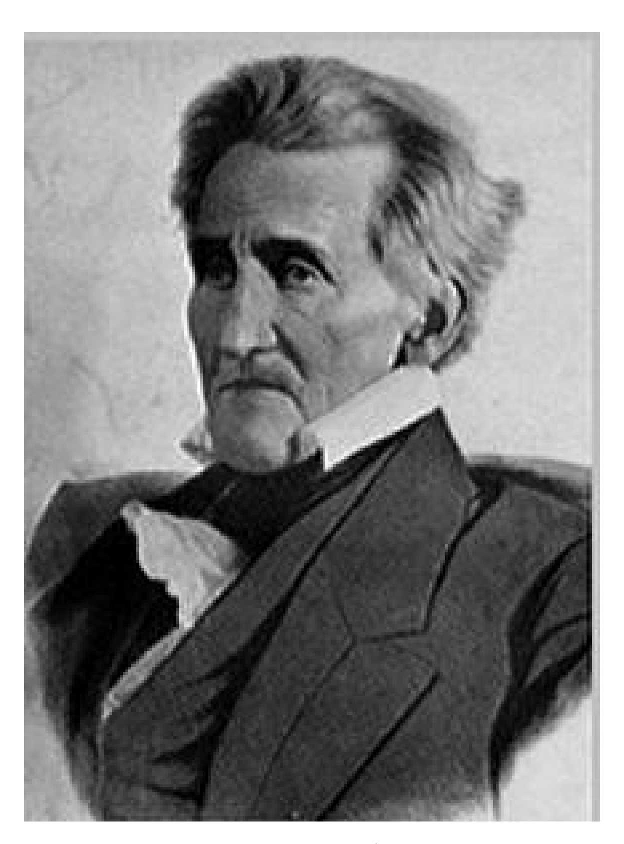
أما بالنسبة إلى النفوذ الصهيوني الكبير في فرنسا فإنه يعود إلى حجم عدد اليهود المقيمين في فرنسا حاليًا، بسبب نزوح أعداد كبيرة من يهود المغرب إلى فرنسا، مما جعل عدد اليهود في فرنسا يربو على الثلاثة أرباع المليون نسمة، وهو عدد كبير نسبيًا إذا قارناه بعدد اليهود في بريطانيا حاليًا، ورغم هذا فإن تأثير يهود بريطانيا ما زال أكبر من تأثير يهود فرنسا، ويعود هذا أيضًا إلى نوع المصالح الاستراتيجية للبلدين، صحيح أن بريطانيا وفرنسا حليفين لأمريكا، إلا أن بريطانيا أقرب في تحالفها إلى أمريكا من فرنسا، بريطانيا ترى أن مصالحها الحيوية أن تكون قريبة من أمريكا، وفرنسا ترى أن يكون لأوروبا شيئًا من الاستقلال بعيدًا عن أمريكا، لذا بقيت فرنسا على مدى عقود مُعلقة عضويتها في حلف الناتو، ولم تستعيد عضويتها إلا عام ٢٠٠٩م، مما سبق نستخلص إلى أن المصالح الاستراتيجية لكل دولة على حِدة هي التي تفرض سياستها الخارجية، وتتحكم في تأييد الصهيونية قليلاً أو كثيرًا، هناك دول مثل بلجيكا وهولندا يكاد أن يكون الوجود اليهودي فيها معدومًا، إلا أنها تؤيد الدولة الصهيونية بقوة، فأين تأثير الوجود الصهيوني في تلك الدول إذا لم تكن مصالحها الاستراتيجية هي التي خلقت هذا التأييد لإسرائيل.

بالنسبة ليهود الاتحاد السوفييتي، في الماضي لم يكن لهم نفوذ فعال فقد كانوا مقموعين إلى حد ما، وكان بين جماعاتهم المتواجدة في دول الاتحاد السوفييتي بعض الخلافات والتفسيرات الدينية، وتم إدماج نسبة كبيرة من يهود اليديشية في المجتمع السوفييتي، من ناحية أخرى فقد حاول الاتحاد السوفييتي أن يقضي على الجماعات الدينية لكي تنصهر في بوتقة الشيوعية الأممية، أما الهجرة اليهودية إلى فلسطين بعد قيام إسرائيل فلم تكن بضغط من النفوذ الصهيوني اليهودي داخل الاتحاد السوفييتي، وإنما بسبب الضغوط الغربية على روسيا السوفييتية وخاصة من الولايات المتحدة، فقد كانت أمريكا تضع شرط السماح للهجرة اليهودية مقابل التعاون الاستثماري والاقتصادي، كان الاتحاد السوفييتي يشتري القمح من الولايات المتحدة، وكانت أمريكا تبذل الضغوط على السوفييت للسماح بهجرة

اليهود، لذلك كانت وسائل الإعلام مرات تُشير إلى أن الهجرة اليهودية من الاتحاد السوفييتي جارية، وأحيانًا أخرى تُشير بأنها متوقفة، وكان المبرر في كِلا الحالين هو العلاقة المتجاذبة أو المتنافرة بين السوفييت والأمريكان، وليس قوة أو ضعف النفوذ الصهيوني في الاتحاد السوفييتي فالمصالح السوفييتية هي التي كانت تسمح أو ترفض.

أما بالنسبة للولايات المتحدة فالحال مختلف تمامًا، لأن النفوذ الصهيوني متغلغل في المجتمع والحياة الأمريكية، وليس له مثيل في الدول الأوروبية التي تحدثنا عنها، وقد أشرنا في مقدمة هذا الباب إلى المؤسسات والاتحادات والجمعيات الصهيونية اليهودية في الولايات المتحدة الأمريكية ومدى عمق تأثيرها في المجتمع ومؤسسات الدولة، إن من الضروري أن نؤكد قبل الإسهاب عن النفوذ الصهيوني في الولايات المتحدة، أن نُقر أيضًا بأن المصالح الاستراتيجية الأمريكية هي التي تحدد اتجاه القرار الأمريكي فيما له علاقة بإسرائيل والعرب، وأن اللوبي الصهيوني اليهودي يمكنه فقط أن يُعدِّل ويؤخر القرار أو يؤجله، لكن لا يستطيع أن يلغيه أو يحدده، وترجع ولادة اللوبي الصهيوني وتصاعد نفوذه إلى أن عدد من الرؤساء الأمريكيين كان لهم دور فعال في تحفيز اليهود والمنظمة الصهيونية على أن تُصبح ذات شأن، سواء عن قصد أو عن غير قصد.

من هؤلاء الرئيس الأمريكي أندرو جاكسون (١٧٦٧ – ١٨٤٥م)، الذي كان قد لعب دورًا رئيسيًا في القضاء على معظم من تبقى من سكان أمريكا الأصليين بل إن أندرو جاكسون لم يتردد في قتل أحد ضيوفه على العشاء بعد أن عرَّضه للسخرية حيث دعاه للمبارزة بالمسدسات على طريقة رعاة البقر، ورغم أن الضيف كان الأسرع في إطلاق النار إلا أن الرصاصة أتت في كتف الرئيس فرد عليه الرئيس برصاصة في الصدر.



Andrew Jackson أندرو جاكسون ١٧٦٧ – ١٨٤٥م

والصهيوني غير اليهودي وليام بلاكستون (١٨٤١ – ١٩٣٥م) يُعتبر المؤسس الفعلي للوبي الصهيوني في أمريكا، ويُعتبر أشهر مسيحي أمريكي نذر حياته للعمل على إنشاء وطن قومي لليهود في فلسطين، كانت له نشاطات واسعة منها أنه كتب للرئيس الأمريكي وجمع التواقيع من ذوي السلطة والجاه، وطلب منه إعادة اليهود إلى فلسطين، ولاقى هذا معارضة غير قليلة، لكن الولايات الأمريكية أيدت وعد بلفور لأن مصالحها الاستراتيجية بما فيها أن يكون لها كلمة في الشرق الأوسط هي ما دفعت إلى ذلك، لهذا جعلها تقبل وعد بلفور رغم احتجاجات الجماعات اليهودية التوطينية في أمريكا.

منتصف القرن التاسع عشر كانت الأقلية اليهودية الإصلاحية الألمانية ترفض قدوم اليهود المهاجرين الأرثوذكس المتخلفين حضاريًا الذين يتحدثون اليديشية،

واختارت الدولة أن تفتح باب الهجرة بسبب متطلبات المصالح الأمريكية، فقــدم الملايين من شرق أوروبا حتى أصبحوا غالبية يهود الولايات المتحدة، وفي عــام ١٩٢٤م بسبب الأحوال الاقتصادية أصدرت أمريكا عدة قوانين للحد من الهجــرة فتناقص عدد المهاجرون اليهود إلى أعداد سنوية متدنية، عــام ١٩٢١م قبلــت ١١٩ ألفًا من المهاجرين اليهود، وفي عام ١٩٣٢م ورغم أن الحــرب العالميــة الثانية كانت تقترب، والمفترض من الناحية الإنسانية أن تقبل أعدادًا أكبر إلا أنها لم تقبل في ذلك العام، وحسب ما ذُكِرَ في موسوعة عبد الوهاب المسيري، سوى ٢٧٥٥ فقط، ولأن أمريكا دولة استيطان فإن القرارات كانت قرارات استراتيجية، لهذا نجدها في فترة صعود النازية والحــرب (١٩٣٣ – ١٩٤٨م) رفضــت دول الغرب كلها بما فيها الولايات المتحدة الأمريكية قبول المهاجرين اليهود.

هذا، وقد قيل بإن الجنرال "دوايت ايزنهاور" قائد قوات الحلفاء في الحرب العالمية الثانية في أوروبا (أصبح رئيسًا للولايات المتحدة الأمريكية فيما بعــد)، رفــض إعطاء الأوامر للقوات الجوية بضرب قضبان خطوط السكك الحديدية في ألمانيــا، تلك التي كانت تؤدي إلى معسكرات الإبادة لوقف نقل اليهود إليها، ومهمــا كــان التكهن أو الحيرة في موقف الجنرال ايزنهاور فإن القرار لم يكن من ايزنهاور بل هو من سلطات سياسية عُليا، وخبراء استراتيجيين يقيسون شدة رياح السياســة العالمية، في عام ١٩٤٨م بعد إعلان قيام دولة إسرائيل، اعترفت بهــا الولايــات المتحدة بل واعترفت بها بعد عشر دقائق من إعلان ديفيد بن جوريون قيامها، لم يكن اللوبي الصهيوني في ذلك الوقت كما نعهده الآن من قــوة وتــأثير، وكــان الرئيس الأمريكي يملك لو أراد بأن يتحدى المنظمة الصــهيونية بلــوبي قــومي مضاد بل ويوجد تحالف لوبي قوي يُمثل جماعات اثنية مختلفــة أخــرى، كــان باختصار يستطيع أن يؤجل الاعتراف بإسرائيل، لكنها المصــالح الاســتراتيجية الأمريكية التي لها الأولوية.

كانت أمريكا أكثر وضوحًا خلال أزمة السويس أو ما أطلق عليه "العدوان الثلاثي على مصر عام ١٩٥٦م"، فلأسباب وطنية قام الزعيم "جمال عبد الناصر" بإعلان

تأميم الشركة العالمية لقناة السويس، فثارت حفيظة بريطانيا وفرنسا، وإسرائيل كما نعلم دولة وظيفية في المنطقة، تآمرت الثلاث دول سرًا من خلف ظهر الولايات المتحدة، ووضعت خطة العدوان وقامت بشن حرب على مصر، كان دور إسرائيل أن تحتل قطاع غزة الجزء الفلسطيني الذي كانت تديره مصر، وأن تحتل أيضًا صحراء سيناء المصرية، وبعد ذلك تُصدر بريطانيا وفرنسا بلاغًا مشتركًا، تطلب فيه من مصر وإسرائيل أن تبتعدا عن مجرى قناة السويس مسافة عشرة كيلومترات من كل جانب (المصريون غربًا والإسرائيليون شرقًا) ثم تقوم القوات البريطانية والفرنسية بعمل إنزال عسكري في منطقة القناة بحجة حماية الملاحة الدولية، وهما يقصدان إعادة احتلال مصر بعد أن كانت قد خرجت منها القوات البريطانية قبل شهور من نفس العام.

كانت حجة العدوان واضحة لا لبس فيها، رفضت مصر الإنذار البريطاني الفرنسي وبدأت الحرب، قامت إسرائيل بدورها كما كان مخططًا، فاحتلت قطاع غزة واحتلت صحراء سيناء، وباشرت القوات البريطانية والفرنسية دخول المعركة، ما كادت تبدأ الحرب إلا ووقف الرئيس الأمريكي "دوايت ايزنهاور" موقفًا صلبًا غير عاديًا ضد بريطانيا وفرنسا وإسرائيل، شجب العدوان وطالب بإيقافه فورًا بدون شروط للغزاة، ورفض أن تعطي إسرائيل أي ميزة في سيناء أو غزة، ولمَّا تلكأ بن جورين في الانسحاب من الأراضي التي احتلها بالتحايل، ووضع الأسباب والمبررات، أمرته أمريكا بأن يسحب قواته خلال أيام قليلة دون قيد أو شرط.

كانت أمريكا حتى تلك السنة قد استعدت لمد نفوذها في المنطقة لكي تحل مكان الإمبراطوريتين العجوزين، ولم يكن للوبي الصهيوني أثر على ذلك الموقف حينما أضحى من الضروري تأديب إسرائيل التي وقفت في طريق المخطط الأمريكي في المنطقة، هذا ولم تشن إسرائيل حرب عام ١٩٦٧م على العرب إلا بأخذ الضوء الأخضر من أمريكا بل إنها لا تشن حربًا على أي دولة عربية إلا بموافقة أمريكية.



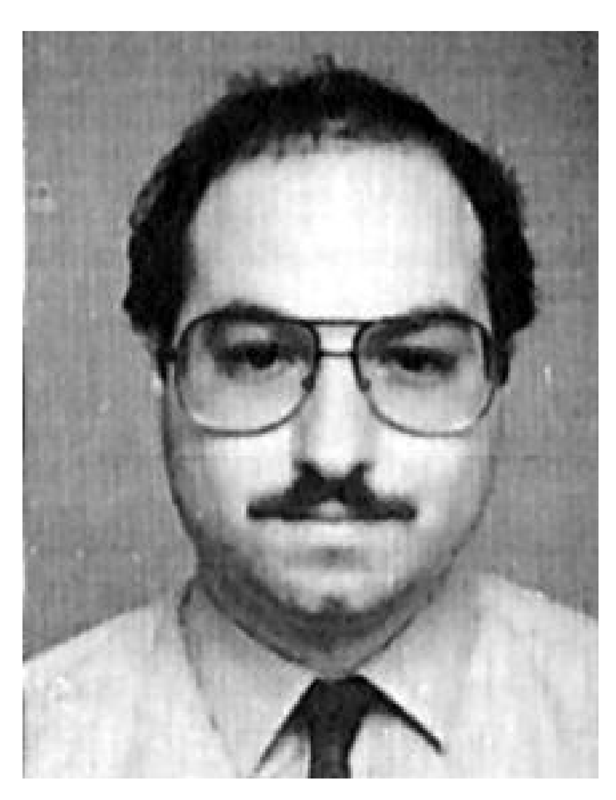
Dwight Eisenhower دوايت ايزنهاور ١٨٩٠ – ١٩٦٩م

لم يمض سوى عام واحد على عدوان عام ١٩٥٦ م علــى مصــر، إلا وظهــرت أمريكا بزعم أن هناك فراغًا أمنيًا في الشرق الأوسط ولا بد من ملئه، جمال عبــد الناصر كزعيم قومي للمنطقة العربية كان قد رفض بإسم مصــر الانضــمام إلــى المعاهدة المركزية بزعامة أمريكا (حلف بغداد)، التــي كانــت تضــم كــل مــن: باكستان، إيران، العراق، تركيا، وذلك بهدف منع الاتحاد السوفييتي من الوصول إلى مناطق البترول، كانت حجة أمريكا أنه يوجد فراغ أمني في الشرق الأوســط، وكان رد جمال عبد الناصر آنذاك على وزير الخارجية الأمريكية "جــون فوســتر دالاس" صاحب نظرية حافة الهاويــة أيــام الحــرب البــاردة بــين الســوفييت والأمريكان، "لا يوجد فراغ في الشرق الأوسط، فالأمة العربية موجودة في هــذه المنطقة وهي المسئولة عنها، وإن وُجِدَ عدم استقرار فــإن ســببه هــو وجــود إسرائيل في فلسطين"، يومها قرر من قرر أنه يتوجب أن يُزال جمال عبد الناصر، فكانت حرب ١٩٦٧م (حرب الأيام الستة) وانتهى دور جمال عبــد الناصــر فــي المنطقة كما انتهى دور العراق بعد احتلاله عام ٢٠٠٣م.



John Foster Dulles جون فوستر دلاس ١٨٨٨ – ١٩٥٩ م

هذا، وقد تطورت العلاقة بين الولايات المتحدة وإسرائيل بعد حرب ١٩٦٧م وبعد حرب العبور المصرية السورية مع إسرائيل، كما أعيد تنظيم ايباك (تحالف أركان التنظيمات الصهيونية في أمريكا)، واتسع النفوذ الصهيوني وأصبح أكثر فاعلية، وحينما حاولت إسرائيل أن تُشعر الآخرين بأنها أضحت دولة مستقلة، جاء الاختبار مخيبًا للآمال فكانت حادثة "جوناثان بولارد" اليهودي الأمريكي، الذي كان يعمل موظفًا فقام بالتجسس على أمريكا لحساب إسرائيل، اكتُشِفَ أمره وقُبِضَ عليه وحوكم وصدر الحكم عليه بالسجن لمدة عشرين عامًا مع النفاذ، ظلت إسرائيل وحلفاؤها في أمريكا يطالبون بإخلاء سبيله دون أن يحصلوا على فائدة، إذن أين نفوذ اللوبي الصهيوني؟ وأين الإعلام الصهيوني؟ الإعلام الصهيوني ما زال صامتًا، وسيبقى كذلك في قضية بولارد، لأن هناك خط أحمر لا يمكن تجاوزه، إنها المصالح العُليا الأمريكية.



Jonathan Pollard جوناثان بولارد (الجاسوس الإسرائيلي)

خلال حرب ما أطلق عليه تحرير الكويت، لم يتخيل الأمريكان أن يحارب معهم ضد العراق الجندي السوري أو المصري والعربي بصفة عامة، ويكون بجانبه الجندي الإسرائيلي، لذا طلبت أمريكا من إسرائيل أن تلتزم الصمت مهما حدث، فتلقت إسرائيل صواريخ العراق ولم تجرؤ على تحريك ساكن، وسمي هذا بضبط النفس، ولم يهمس الإعلام الصهيوني في أمريكا بشيء لأنه يعلم متى ينطق ومتى يصمت، هي أيضًا المصالح الاستراتيجية الأمريكية.

من الملاحظ أن الرؤساء الجمهوريين في أمريكا هم أكثر انحيازًا للدولة الصهيونية رغم أن معظم أصوات اليهود الأمريكان تذهب إلى الحزب الديمقراطي وأن انتخابات الكونجرس والشيوخ تُشير إلى تناقص اليهود في المجلسين، ورغم ذلك لم يتناقص تأييد الولايات المتحدة لإسرائيل، كما أن رأس المال اليهودي لم يعد هو الطاغي في الولايات المتحدة، فإن أقل من نصف أغنى الأغنياء في أمريكا

هم من اليهود، فبمقارنة مع ما مضى حينما كان معظم رأس المال بيد اليهود نجد أن الانحياز لإسرائيل لم يتناقص، أما الإعلام فإن كثيرًا من الأمريكان من غير اليهود دخلوا صناعة الإعلام وتزداد نسبتهم مع الأيام، ومع ذلك لم يتراجع معدل الانحياز لإسرائيل لدى الإدارة الأمريكية.

قد يلفت النظر أحيانًا أن بعض الإدارات الأمريكية كانت توظف عددًا لا بأس به من اليهود في المراكز الحساسة، مثل ما كان يومًا مع الجمهوريين، اليهودي "هنري كيسنجر" حينما كان يجمع بين منصبي مستشار الأمن القومي ووزير الخارجية في عهد الرئيس نيكسون، ومثل إدارة الرئيس "بيل كلينتون" حينما عمل فيها عدد من اليهود في المراكز الحساسة، مستشار الأمن القومي كان يهوديًا، وزيرة الخارجية "مادلين ألبرايت"، وغيرهم من المستشارين والموظفين في طاقم وزارة الخارجية كانوا من اليهود الأمريكان، لكن عملية صنع القرار في الولايات المتحدة الأمريكية، هي عملية مؤسسية منظمة في غاية التركيب، كما أن اليهود ليسوا جماعة الضغط الوحيدة أو اللوبي الوحيد في المجتمع الأمريكي، فهناك اللوبي الكاثوليكي وغيره، لكن يجب ألا نغفل أن جماعات الضغط بصفة عامة تستطيع أن تؤثر في مناطق صنع القرار من ناحية تعديل القرار أو تأخيره، وفي هذه الحالة تكون النتائج هي غيرها، فالنجاح في تأخير القرار مثلاً، قد يفوِّت الفرصة في أمر ما، وحينما يأتي الوقت يكون الوقت قد فات، فيصبح القرار كأنه لم يكن، خصوصًا إذا كان في غير صالح إسرائيل أصلاً، ومثلما يتم التنسيق أحيانًا بين المنظمة الصهيونية والدولة في إسرائيل بخصوص أمر له علاقة بتصلب إحدى الإدارات الأمريكية، في أمر يخص إسرائيل، أو مُنصفًا للعرب خصوصًا في سنة الانتخابات الأمريكية، في هذه الحالة تعمل إسرائيل تحت غطاء الصهيونية في البحث عن أي وسيلة أو سبب وتضخِّمه وتخلق الأعذار، وتشرع في وضع العقبات فيكون الوقت قد مرَّ، ويذهب الرئيس وإدارته وتنجو إسرائيل من إجبارها على شيء تراه غير مناسبًا لها، وغير هذا تظل المصلحة الأمريكية العليا هي الدافع لاتخاذ المواقف الرسمية في أمريكا.

لماذا ازداد النفوذ الصهيوني اليهودي داخل الولايات المتحدة بعد الفترة (١٩٦٧ – ١٩٧٤م)؟ بغَّض النظر عن كل الاعتبارات الأخرى، ازداد النفــوذ الصــهيوني بسبب ازدياد اعتماد أمريكا على إسرائيل في أمور أمنية كثيرة في المنطقة، وهذا أيضًا يُعتبر ضمن إطار المصالح العليا الأمريكية، فالعرب في المنطقة ليسوا عرب ما قبل تسعينات القرن العشرين، كما أن العالم قد تغير، ومسئولية أمريكا كزعيمة للحضارة الغربية قد ازدادت، وهي في حاجة إلى الدول الوظيفية لكي تنوب عنها في صنع الاستقرار في العالم الذي تسيطر عليه، وإســرائيل دولــة مهيــأة مــن الأساس لكي تكون دولة وظيفية، وهي عوضًا عن إنهــا مستأنســة إلــى أبعــد الحدود، وجزء عضوي من الغرب الذي تمثله الآن الولايات المتحدة الأمريكيــة، عوضًا على أن لإسرائيل أيضًا مصالح تتطابق كثيرًا مع مصالح الولايات المتحدة، من هنا راحت الولايات المتحدة تعتمد على إسرائيل أكثر فأكثر، مثل كلب حراسة تُطلقه متى تريد وتحبسه متى تريد، من هنا انتعش الصهاينة أكثر من الماضــي في الولايات المتحدة، وصاروا يظهرون علنًا ويُجاهرون بولائهم لإسرائيل، وكأن إسرائيل تقاسمت معهم عبء إقناع الشعب الأمريكي ممثلاً بقيادته بأن إســرائيل دولة لا يستغنى عنها في حفظ المصالح الأمريكية في منطقة حساسة من العــالم، ولا خوف منها كونها تعتمد في أمنها وسلاحها على الولايات المتحدة، وهي فــي نفس الوقت مكروهة ممن حولها من أهل المنطقة، ولا ملاذ لها ســوى الغــرب وأمريكا بالذات، فالاتحاد الأوروبي يحلم بأن يستعيد نفوذه في المنطقــة العربيــة على حساب نفوذ الولايات المتحدة، وهذا لن يتم إلا إذا كان على حساب الدولــة الصهيونية.

لكن هناك من العرب أيضًا من ملَّ من سماع الحديث عن اللوبي الصهيوني فــي أمريكا ومقدرته الخارقة في السيطرة على القرار الأمريكي، فبين الأخذ والرد يجد ذلك الرأي بأن الطريق يكاد أن يكون مسدودًا للوصول إلى قناعــة لكــي يتفــق المنطق مع الواقع، فهل يُعقل مثلاً أن يكون هذا الغرب الحضاري الذي ضــجيجه العلمي والثقافي وما وصل إليه من هذا الرقي والحضارة، هل يُعقل أن يكون هذا

العالم الغربي الذي أوجد الدولة الصهيونية نفسها، يتحكم به لوبي صهيوني في هذه الدولة وتلك؟ هل لو تخيلنا أن هذا العالم بلا يهود وبلا إسرائيل كما يقول الدكتور عبد الوهاب المسيري، ألا يعقل ألا تبحث أمريكا عن حليف آخر على شاكلة إسرائيل، لكي توكل إليها بعض الأعمال!

لماذا لا نتصور أن الصهيونية نفسها هي من يقوم بالدعاية، وهي من يعمل على تمرير خطابها الإعلامي إلينا نحن العرب، لكي توحي بأنها فعلاً قادرة ودائمة، وبذلك ننحني ونستسلم ونقتنع ونيأس، ونقول لأنفسنا لا فائدة من الصمود أو مناطحة جبل كبير هو الصهيونية، لماذا لا نعتبر أن إسرائيل واللوبي الصهيوني معًا، يروجان لأسطورة هيمنة الصهيونية على القرار الأمريكي كون إسرائيل قائمة بواجبها كما خصصت له، وما يشاع عن نفوذها في الولايات المتحدة، ما هو إلا لبَّث الروح المعنوية عند الصهاينة في كل مكان، وحقنهم بشيء من الثقة لكي يستمر المشروع الصهيوني في فلسطين! فلو أردنا أن نُقيِّم الأمر بطريقة أخرى وبقليل من الحذر، فهل يمكننا أن نقول بإن النفوذ الصهيوني في الولايات المتحدة يزداد بطريقة مطردة كلما ضعف العرب أمام إسرائيل، وكلما انعكس هذا على تأثير اللوبي الصهيوني في الولايات المتحدة، لأن تأثير إسرائيل والصهيونية يصير أكثر كلما أبلت إسرائيل أفضل ضد العرب، لأن نجاح إسرائيل وهيمنتها في المنطقة يقنع أمريكا أكثر فأكثر بأن وجود إسرائيل كدولة وظيفية يصبح كلما مرَّت الأيام هام وأساسي للولايات المتحدة الأمريكية، فيذهب الطرفان الإسرائيلي والأمريكي للبحث عن صيغة أفضل من الوضع الحالي، فإسرائيل واللوبي الصهيوني يهدفان إلى أن تتحول إسرائيل من التبعية والطاعة لأمريكا إلى الشراكة والصداقة والتحالف.

إن ما يحدث في غياب الحقيقة الضائعة من عدم اتضاح في الرؤية، ومن القصور في تفسير حقيقة أثر اللوبي الصهيوني والنفوذ الإسرائيلي في الولايات المتحدة، هو أيضًا يُعطي دفعة قوية للموقف الصهيوني، الذي يُرحِّل الصراع العربي الإسرائيلي من ساحة المعركة في فلسطين لكي يصبح ميدانه العواصم الغربية

لندن وباريس وواشنطن، إن الاقتناع بقوة اللوبي الصهيوني في أمريكا وتأثيره، سواء كان ذلك تضليلاً إسرائيليًا أم حقيقة، يجعل الأنظمة العربية تنزل عن كاهلها مسئولية ما يحدث للشعب الفلسطيني على يد إسرائيل خوفًا واقتناعًا بعدم الفائدة من الصدام مع الغرب، فلا تجد الأنظمة العربية والحال هكذا، سوى أن تُسلم أوراقها للحكومات الأوروبية لكي تتوسط لدى أمريكا وإسرائيل لكي تحصل في أحسن الأحوال على وعد بألا تُفرط إسرائيل في استعمال القوة ضد الفلسطينيين أو لرفع أحد الحواجز المنتشرة بين مدن وبلدات الضفة الغربية أو للسماح بإدخال بعض المواد الضرورية إلى قطاع غزة المحاصر.

لا شك بأن الإعلام الصهيوني دائمًا يقظ ومتحفز وناضج، ويلائم أمزجة المجتمعات التي يخاطبها بسبب التخصص والكفاءة، وهو بهذا يقوم بالدور الذي تحتاجه إسرائيل، في المقابل إن الإعلام العربي ما زال طفوليًا في أحسن الأحوال ويحاول أن يتحسس طريقه، وإن كان على صعيد الأفراد لا المؤسسات فإنه يحتوي على عينات بشرية وفكرية لم تعطي الفرصة بعد من خلال مؤسسات إعلامية حديثة، فالإعلام العربي في مُجمله ما زال موجهًا من قبل الأنظمة العربية التي تعطي الأوامر للإعلاميين فتجعل المولود مخلوقًا مشوهًا، وهذا في حد ذاته يضاعف أثر التفوق الإعلامي الصهيوني على العرب، أثناء ترشيح اليوناني الأمريكي الأصل "مايكل دوكاكس" للرئاسة الأمريكية، ركز الإعلام العربي على زوجته "كيتي دوكاكس" لأنها يهودية، واعتبر أن في حال أن يجلس هذا الرجل على كرسي الحكم سيكون القول الفصل للوبي الصهيوني في أمريكا، ولما سُئِلَ المسئول الرسمي في تركيا عن رأيه في مرشح الرئاسة دوكاكس كونه يوناني الأصل، وعداء اليونانيين والأتراك عميق، أجاب بكل أريحية "إن الولايات المتحدة لها مصالح استراتيجية لا تتبدل، وأيًا كان أصل الرئيس القادم لن يجد سوى التمسك بها"، التساؤل العام الذي يفرض نفسه علينا صبحًا ومساءً، هل كل السلبيات عندنا سببها إسرائيل أو الإعلام الصهيوني أو تجاهل الغرب لقضايانا أم

أن هناك أشياء نحن فقط مسئولون عنها، ولن يعالجها أحد سوانا حتى لو انتظرنا ألف عام!

من الملاحظ أو كما أسلفنا في لمحة عابرة، بأن معظم أصوات اليهود في الانتخابات الأمريكية تذهب إلى الحزب الديمقراطي وليس للحزب الجمهوري، ونُلاحظ أيضًا بأن الحزب الجمهوري أكثر تأييدًا لإسرائيل من الحزب الديمقراطي وقد ألمحنا إلى هذا في عبارات سابقة بالكتاب، فكيف يكون ذلك؟ ألا يعتبر هذا شيئًا غير عاديًا، ورغم ذلك فإنه يحدث في وضح النهار وتحت ضوء الشمس بل كيف يتم ذلك، وكيف يتم التوافق والقبول والرضا، فبالحسابات العادية كان يجب أن يتراجع الحزب الجمهوري عن تأييد إسرائيل ما دامت جماعات الضغط تدفع أفرادها بإعطاء أصواتهم للحزب الديمقراطي على حساب الحزب الجمهوري المساند بل المتحمس للدولة الصهيونية!

دعنا نُعيد الحساب بمراجعة قصيرة كلازمة للتحضير إلى شرح الفكرة لحل لغز تأييد الحزب الجمهوري لإسرائيل بحماس وتفاني، فربما نستنتج شيئًا قد يكون ليس جديدًا، إنما الجديد فيه إننا سنحاول أن نتعرف، على كيف يُفكر الآخرون من اليهود الأمريكيين، والأمريكان الجمهوريين المسيحيين..

من المعروف أن المجتمع الأمريكي هو مجتمع المهاجرين فليس به ثقافة واحدة عميقة راسخة، لذلك هو لا يهتم بالتاريخ، المهاجرون اليهود هم أكثر المهاجرين الذي استوعبوا نظام الحياة الأمريكية لأنها لا تتصادم مع ما أتوا به من عادات وتقاليد، وقد أتى معظم اليهود من شرق أوروبا، وحتى هؤلاء فقد أتوا بشيء قليل من ثقافة قديمة كانت تتناقص وتتعدل خلال القرون من عيشهم في مجتمعات ذات أصول ثقافية غير يهودية، لذلك نجد أن كل الدراسات تؤكد بأن نسبة كبيرة من المهاجرين إلى أمريكا من كل الأجناس كانوا يعودون إلى بلادهم، لأن غير اليهود كانوا يأتون للبحث عن فرص لحياة أفضل، أما المهاجرون اليهود فقد أتوا واندمجوا واختاروا الحياة الأمريكية، ومعظمهم يرون بأن أرض الميعاد هي الأرض الأمريكية لأنها أرض اللبن والعسل.

في المقابل نجد أن في المجتمع الأمريكي صحوة دينية مسيحية يقودها الجمهوريون، الذين كثيرًا منهم يؤمنون بالتفسير الحرفي للتوراة، ومقتنعون بعودة المسيح المُخلِّص لكي يُقيم دولة الله على الأرض وتكون عاصمتها القدس، لذلك نجد الجمهوريين يندفعون بحرارة في تأييدهم لإسرائيل.



Ronald Reagan رونالد ريجان ١٩١١ – ٢٠٠٤م

لم يخف يومًا الرئيس الأمريكي "رونالد ريجان" أثناء وجوده في سدة الحكم خلال الحديث عن أمر له علاقة بإسرائيل، قال بإنه فخور بالتراث اليهودي على ما قدَّمه للبشرية، من هنا نجد الجمهوريين يقيمون الكنائس ويدعون إلى الصلوات، ويحرصون إلى الذهاب إلى الكنائس لحضور صلوات أيام الآحاد، لو عدنا إلى الذاكرة إلى ما كان يحدث في أوروبا في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، وعملنا مقارنة بسيطة بين الظروف التي كانت في تلك المجتمعات بالنسبة

للمهاجرين اليهود القادمين من أوروبا الشرقية، وبين التوطينيين اليهود الآن في الولايات المتحدة، فماذا نلاحظ؟

نجد أن زعماء الحركة الصهيونية في أوروبا كانوا حلفاء طبيعيين مــع أعــداء السامية ومع زعماء الحكومات الأوروبية، وكان الجميــع يريــدون أن يرحلــوا اليهود إلى فلسطين، وهنا لماذا لا نعتبر أن الجمهوريين ومن شابههم في الولايات المتحدة هم كالزعماء والساسة الأوروبيين الذين كانوا يودون التخلص أيضًا من الفائض اليهودي في أوروبا، لماذا لا نعتبر أن إسرائيل حليف الجمهوريين هــي الصهيونية الاستيطانية التي تدعوا إلى ترحيل اليهود الأمريكيين إلــى إســرائيل ولكن بأسلوب إقناع جديد، والسؤال هنا هل المجتمع الأمريكي سيُعيد يومًا سيناريو التضييق على اليهود الذي مارسته المجتمعات الأوروبية حتى قيام وعــد بلفــور عام ١٩١٧م!

والحقيقة أنه منذ عام ١٨٤٠م أصبح للجالية اليهودية في أمريكا تأثير خصوصًــا في سياستها الخارجية، وأصبح للولايات المتحدة تأثير عالمي، فمنذ تلــك الأيــام شرَّعت الولايات المتحدة الأمريكية التدخل لدى دولة الخلافة العثمانيــة للتحقيــق فيما كان يؤثر على استقرار الجالية اليهودية في سوريا، وظلت أمريكا لعدة عقود متتالية تضع ضغوطًا على سويسرا حتى وضعت قوانين الحقــوق المدنيــة عــام ١٨٦٤م، وذلك للتخفيف عن اليهود فيها، كما أن الولايات المتحــدة كــان لهــا حضور من أجل اليهود في كل من المغرب وصربيا ورومانيا وروسيا وحتى فــي فلسطين أيضًا أيام الحكم العثماني.

الفصل التاسع عشر

الرفض اليهودي للصهيونية!

تنطلق الصهيونية من افتراض وجود ثقافة يهودية مستقلة باعتبار وجود تراث يهودي مستقل وهي تجعل من هذا أساس بعثها، أما الصهيونية في حد ذاتها فإنها وليدة العصر الإمبريالي الغربي حيث نشأت أصلاً المشكلة اليهودية هناك في أوروبا الغربية حينما تدفق اليهود من الشرق إليها، وحيث نشأت الحركة الصهيونية على اعتبار أن اليهود شعب عضوي، فجاءت الصهيونية لكي تعبر عن هوية هذا الشعب، لهذا من المفترض أن يكون للثقافة اليهودية امتداد في الماضي بمعنى أن لها تراث، ومن المفروض أيضًا أن يكون لها امتداد في المستقبل مما دعا الصهاينة إلى بعث العبرية لأنها لغة شعب عضوي.

لقد قويت هذه الدعوة حينما انضم إليها يهود الشرق الذين أتوا إلى أوروبا الغربية من روسيا وبولندا، فكان يهود اليديشية أول من نادوا من اليهود إلى هوية اثنية ذات تراث ثقافي مستقل ولغة مستقلة، وفي اليهودية الشرقية المحافظة اكتسبت الدعوة إلى التراث ركيزة دينية حتى إنها خلعت صفة الإطلاق على الشعب اليهودي وجعلته يحل محل الخالق من ناحية التقديس، وحتى عند اليهودية الإصلاحية أو التجديدية يعتبر التراث صراحة مصدر التقديس.

لكن الأمر لم يخلو من المعارضين، فقد عارض هذا اليهود المتدينون الذين لا يعتبرون اليهودية مجرد تراث ثقافي بل هي انتماء ديني، واللغة العبرية مقدسة ولا يجب استعمالها في شئون الدنيا، وعارض الفكرة أيضًا اليهود الاندماجيون (التوطينيون) وهم يهود غرب أوروبا فرنسا، بريطانيا، ألمانيا، ومن ثم يهود الولايات المتحدة الأمريكية ما عدا يهود إسرائيل (الاستيطانيون) حيث يرى الاندماجيون بأنهم يكتسبون هويتهم الثقافية من الثقافات القومية الأخرى المختلفة التي يتفق وجودهم فيها، فلم يلتزم هؤلاء بالمصطلحات العبرية حتى إنهم استبعدوا من صلواتهم الشارات العبرية، كما أن دعاة الثقافة اليديشية عارضوا أن يكون لليهود ثقافة وهوية يهودية عالمية، فهؤلاء يرون بأنهم (اليديشية) يُشكّلون ثقافة يهودية قومية مستقلة ليست يهودية بشكل عام، وإنما هي ثقافة يهودية شرق أوروبية تفكر وتتحدث باليديشية، ويمكن إطلاق مصطلح القومية اليديشية عليهم.

وبعد أخذ ورد وحوارات وجدل وخلاف بين هذه التيارات كان لا بــد أن تنتصــر الصهيونية، لأن دعاة اليديشية والاندماجيون لم يحبذوا التوجه إلى كافة الجماعات اليهودية في العالم، فهم ينكرون وجود ثقافة يهودية عالمية، ويقرون بالانــدماج في المجتمعات التي يقيمون فيها، أما المتدينون فكانت معارضتهم غير ذات أثــر بسبب ازدياد معدل العلمنة في أوروبا التي يقود يهودها المنظمــة الصــهيونية، وكون المتدينون يعتبرون اليهودية دين لا حدود له ولا جغرافيا مثــل المســيحية والإسلام.

لهذا كان المستوطنون الأوائل في فلسطين لا يسمون أنفسهم يهودًا، بل يعتبرون أنفسهم عبرانيين يهدفون إلى إنشاء دولة عبرية أو عبرانية تقطع علاقتها تمامًا بالتراث اليهودي باعتباره تراث المنفى، وقد ظل الوضع هكذا حتى الثلاثينات من القرن العشرين حينما كان الزخم الصهيوني التعبوي على أشده بعد صدور وعــد بلفور وانتداب بريطانيا على فلسطين وتنافس الدول الاستعمارية على من يكــون له النفوذ في المنطقة وتوظيف المــادة البشــرية اليهوديــة لخدمــة المصــالح الاستعمارية، وهكذا أصبحت إسرائيل بعد إعلان الدولة الصهيونية ميدانًا لثقافات مختلفة جلبها معهم اليهود الذين وفدوا إلى فلسطين من شتى أنحاء الأرض بمــا فيهم يهود الفلاشا الذين أتوا من أفريقيا.

ورغم أن الصهاينة يدَّعون بأن هناك ثقافة يهودية فإنه يغلب على الثقافــة فــي الدولة الصهيونية هو انتماؤها للغرب، فهي ثقافة غربية، بل إن المثقفــين فــي إسرائيل يتفاخرون بأنهم مرتبطين عضويًا بالحضارة الغربية وأن إسرائيل دولــة غربية في المنطقة، هذا بالإضافة إلى الفوارق الواضحة بــين ســكان إســرائيل الحاليين من الاشكيناز (اليديشية) والسفارد خصوصًا، ورغم أن يهــود الســفارد ويهود العالم العربي يشكلون أكثر من نصف سكان إسرائيل إلا أن كل ما يســجل ويفتخر به هو لليهود الاشكيناز خصوصًا في كتب الدراسة، حاليًا هنــاك ثقافــة عبرية نشطة في الدولة الصهيونية، وبقدر ما توحد سكان إسرائيل فــي الظــاهر ستكون أحد المشاكل مستقبلاً مع يهود العالم الذين ينتمون إلى ثقافات توطينيــة

أخرى في بلادهم، كما أن الثقافة العبرية النشطة حاليًا في إسرائيل، أي ثقافة الإسرائيليين المولودين على أرض فلسطين، ستكون ذات صبغة إشكنازية واضحة، وذلك نظرًا لاستبعاد اليهود السفارد والعرب من مؤسسات صنع القرار، ذلك لأن صورة الذات في إسرائيل اشكنازية، وحين تكتمل هذه الثقافة في إسرائيل فستكون ثقافة المستوطن الذي يعيش في إسرائيل فقط وسيكون طابعها اشكينازي أيضًا، وستبقى الجماعات الأخرى منطوية داخل مناطقها تحتفظ بما أتت به من ثقافات خاصة، كأنها تعيش في مجتمع ليست مندمجة فيه، وتلتقي معه في اللغة فقط.

إن مصطلح "الرفض اليهودي للصهيونية" معناه ببساطة أن اليهود قسمان قسم مع الصهيونية وقسم ضدها، ولكن هناك ظلال كثيرة بين القسمين، بمعنى آخر إذا كان رافضوا الصهيونية أقلية، والمدافعون عنها أقلية فمعنى هذا أن الغالبية توجد بينهما، أي أن هناك عدم اكتراث يهودي بالصهيونية، وفوق هذا هناك المنتفعون والمتضررون موسميًا.

منذ البداية اتخذت كافة المنظمات اليهودية موقفًا معارضًا أو موقفًا غير صهيوني، حدث ذلك في ألمانيا وبريطانيا والولايات المتحدة، وصدرت صور الاحتجاجات على أشكال مختلفة خصوصًا ما أعلنته في حينه المنظمات اليهودية في تلك البلاد وغيرها، هذا وتأخذ صور رفض الصهيونية أحيانًا، أن اليهودي الذي يقف ضد التوسعية الصهيونية أو ضد قمع الفلسطينيين هو مُعادي للصهيونية، كما أن رفض السياسات الإسرائيلية دون الإعلان عن معاداة الصهيونية هو معاداة للصهيونية أيضًا، كما أن من يُطالب بحل الدولتين ولا يراهما واقعًا على الأرض هو مُعادي للصهيونية، ويرى البعض أن العداء اليهودي للصهيونية هو شكل من أشكال كُره اليهودي لنفسه.

أولاً، يرى اليهود الأرثوذكس أن تهجير اليهود إلى فلسطين وإقامة دولة هو عمل مادي ليس من صنع الرب، وأن الحق هو انتظار وصول المُخلّص ثم إقامة الدولة، ولذلك فهم معارضون للصهيونية من الناحية الدينية، كما أن اليهودية الإصلاحية

ترى أن الإله قد حل في الأمة وليس في الأرض ولا حتى في التاريخ، وإنما في روح التقدم والعصر، وهم يرون أن اليهود ليسوا شعبًا إنما هم أقلية دينية، وهؤلاء يقفون ضد الصهيونية، لأن الصهيونية تُعتبر موطن الحلول في الشعب اليهودي، لكن التيار الصهيوني قد اكتسح التيار الإصلاحي وتم صهينته من الداخل.

ثانيًا، الليبراليون الصهاينة يؤمنون بمثل عصر الاستنارة، ووجوب فصل الدين عن الدولة، ويرون أن اليهود ليسوا شعبًا وإنما أقلية دينية، وأنهم ليسوا أمة من الكهنة وإنما مواطنون عاديون يتجه ولاؤهم إلى الدولة التي يعيشون فيها، وأن اليهود ليس لهم تاريخ مستقل فتاريخهم فرنسي في فرنسا، وإنجليزي في انجلترا، واللغة التي يجب أن يتحدثوا بها هي لغة الوطن الذي يعيشون فيه، لكن إعلان دولة إسرائيل وصداقتها للعالم الغربي الرأسمالي عمل إلى تَساقُط الجمعيات التي تُعبِّر عن هذا الاتجاه.

ثالثًا، أما الرفض الاشتراكي للصهيونية فيصور أن اليهود أقلية دينية وأن ما يسري على كل الأقليات في المجتمع يسري عليهم، وأن حل المسألة اليهودية يكون عن طريق حل المشاكل الاجتماعية والطبقية للمجتمع ككل.

رابعًا، الرفض من منظور قومية الدياسبورا (الشتات)، لأنهم يرون أن اليهود يُكوِّنون أقليات قومية لها هويات مستقلة خارج فلسطين، وحين يتحدث دعاة قومية الدياسبورا فهم يشيرون إلى أقلية إثنية، وحيث إن معظم دعاة هذا الاتجاه كانوا يتحدثون باسم غالبية يهود العالم، وهم يهود اليديشية، فإنهم يتحدثون في العادة عن القومية اليديشية، وإلى جانب هذا التيار، بدأ يظهر تيار مماثل بين يهود أمريكا يرى أن هويتهم الحقيقية هي هوية أمريكية يهودية تستحق الحفاظ عليها، ومن ثم ينبغي عدم تصفيتها أو إخضاعها للدولة الصهيونية، ويمكن القول من ناحية التطور التاريخي بإن العداء اليهودي للصهيونية كان قويًا للغاية حتى إعلان وعد بلفور حين تم توقيع عقد بين الحضارة الغربية والصهاينة الذين ادعوا تمثيل الشعب اليهودي، وقد أزيل بالتالي احتمال ازدواج الولاء، ومع إعلان الدولة الصهيونية دولة وظيفية في خدمة الاستعمار الغربي، أصبح من العبث

معارضتها بل أصبح من المنطقي تبنِّي العقيدة الصهيونية باعتبارها العقيدة التي تُدخل اليهود في نطاق الحضارة الغربية وتُوظِّفهم لصالحها.

خامسًا، "الاتحاد المركزي للمواطنين الألمان من أتباع العقيدة اليهودية" هو منظمة ألمانية أُسِّست في برلين عام ١٨٩٣م بهدف كفالة المساواة المدنية والاجتماعية بين اليهود وغيرهم من الرعايا الألمان، واعتبرت المنظمة أن يهود ألمانيا يُشكلون جماعة دينية لا جماعة قومية وأنهم جزء لا يتجزأ من الأمة الألمانية، واتخذت هذه المنظمة موقفًا مضادًا من المشروع الصهيوني، وخطط تهجير اليهود إلى فلسطين، لكن هذه المنظمة شاركت في أعمال الوكالة اليهودية وساهمت في تمويل مشاريع الاستيطان اليهودي في فلسطين، ولكن نشاط المنظمة كان نشاطًا يهوديًا توطينيًا يهدف إلى تحويل هجرة يهود اليديشية من أوروبا إلى أماكن متفرقة من العالم، وليس إلى فلسطين بالضرورة.

سادسًا، كان النازيون في ألمانيا لا يفضلون التعامل مع الاتحاد المركزي للمواطنين الألمان بسبب اتجاهاته الاندماجية إذ أن النازيين يؤمنون بالشعب العضوي الذي لا يمكن أن يندمج فيه أعضاء الشعوب، ولذا فمن وجهة نظرهم، كان دعاة الاندماج من اليهود هم الأعداء الحقيقيون الذين يُزيفون الواقع ويودون التسلل في صفوف الألمان بهدف تخريبهم من الداخل، وهذا على عكس الصهاينة الذين يؤمنون كما النازيون بفكرة الشعب العضوي اليهودي، ومن ثم يقفون ضد الاندماج، ولكل هذا كان النازيون يؤثرون التعامل معهم.

سابعًا، حاخامات الاحتجاج في ألمانيا، أطلق على مجموعة الحاخامات الذين عارضوا الصهيونية العلمانية، وهم الذين احتجوا أيضًا عام ١٨٩٧م على انعقاد المؤتمر الصهيوني الأول الذي تم تغيير مكان انعقاده من ميونيخ بألمانيا إلى بازل بالنمسا، فقد نشر الحاخامات مقالاً مؤداه أن الصهيونية تناقض آمال اليهود، ولأن هرتزل وبقية أعضاء القيادة الصهيونية غير دينيين، فإن هذا الهجوم كان يُمثل مفاجأة كاملة بالنسبة إليهم، فكتب "نوردو" يتحدث عن خيانة الحاخامات وقد كان يجهل أن الحب التقليدي لصهيون هو حب ديني لا يترجم نفسه إلى عودة

لفلسطين واستيطانها، ومن اليهود الذين عارضوا الصهيونية، كان بعض يهود البلاد العربية، مثل "عصبة مكافحة الصهيونية" في العراق؛ و"الرابطة الإسرائيلية لمكافحة الصهيونية" في مصر، كما أن الحزب الشيوعي العراقي قد عارض الصهيونية.

ثامنًا، الناطوري كارتا (نواطير المدينة) أو حراس المدينة هي الترجمة للعبارة الآرامية "ناطوري كارتا"، وهي منظمة يهودية دولية معادية للصهيونية، وقد جاء في التلمود "أن حاخامين من حاخامات اليهود ذهبا إلى فلسطين للتأكد من أن كل مدينة من مدنها تضم مدرسة وبيت عبادة حيث يتعلم الأطفال الشريعة، وسألا أهل إحدى المدن عن حراس المدينة (ناطوري كارتا) فأتى سكان المدينة بالشرطة، فقال الحاخامان: هذان ليسا حرس المدينة، هذان مُخربا المدينة، فحراس ونواطير المدينة الحقيقيون هم الذين يُصلُّون في بيوت العبادة ويدرسون التوراة ويعلمونها للأطفال"، وهنا المغزى الحقيقي وبلاغة الموقف أي أن اليهودية دين وعبادة وسلوك، وليست دولة وجيش.

نواطير المدينة جماعة دينية يهودية أرثوذكسية من أكثر الجماعات عداءً للدولة الصهيونية، فاليهودية الحاخامية الأرثوذكسية ظلت ترفض الصهيونية حتى عهد قريب، وهو رفض ينطلق من عدة أفكار (أو عقائد) جوهرية في العقيدة اليهودية، وما حدث هو أن العقيدة اليهودية تمت صهينتها من الداخل، بينما ظل أعضاء جماعة نواطير المدينة متمسكين بمبادئهم الدينية، والعقيدة الدينية على عكس العقيدة العلمانية لا تتغيَّر ولا تخضع لموافقة أو رفض الأغلبية.

لهذا، يرى أعضاء منظمة ناتوري كارتا أو نواطير المدينة أن الصهيونية لا تمثل استمرارًا للتراث الديني اليهودي وإنما رفضًا لها وانسلاخًا عن التراث الديني، بل إن الصهيونية من منظور الناطوري كارتا هي أخطر المؤامرات، ولعل الفكرة الأساسية التي يرتكز إليها الرفض الأرثوذكسي للصهيونية هي فكرة الشعب اليهودي بالمفهوم الديني، فالشعب اليهودي بالنسبة لأعضاء هذه الجمعية ليس شعبًا بالمعنى المُتعارَف عليه، وإنما هو أساسًا جماعة دينية ظهرت إلى الوجود

منذ ثلاثة آلاف عام، ويستمد هذا الشعب وجوده من ميثاقه مع الخالق وهو ميثاق دائم لا يمكن فهمه، وحسب هذا الميثاق، يلتزم كل اليهود بالتوراة وتعاليمها التي يقوم الحاخامات بتفسيرها كلٌّ في جيله، انطلاقًا من هذا الإيمان بإنسانية مشتركة وخصوصية دينية مستقلة يؤكد أعضاء جمعية نواطير المدينة أن اليهودية تبغض سفك الدماء بل تُنادي بتحاشي ذلك بأي ثمن، بل يؤكدون أن العقيدة اليهودية تحض اليهودي على عدم المشاركة في السلطة الدنيوية وعلى رَفْض حمل السلاح، فعلى اليهود أن يتركوا مثل هذه الأمور للدولة التي يعيشون في كنفها، أما الصهاينة يؤمنون بعكس ذلك، ويرون أن على اليهودي أن يحمل السلاح ويقاتل، وأن تكون له دولة وجيش وعلم، وأما القانون الديني فلا يعني الصهاينة ويجب أن ينسى وأن يطوى، وأن تُعتبر الكتب الدينية نوعًا من أنواع الفلكلور الذي يجب التعامل معه كفلكلور فقط.

وإذا كان نواطير المدينة يرون أن اليهودي يكتسب هويته من خلال أداء الشعائر الدينية، فإن الصهاينة يرون أن الإنسان من الممكن أن يبقى يهوديًا بشكل عام حتى لو لم يُمارس أيًا من هذه الشعائر، مثل الامتناع عن العمل يوم السبت أو الالتزام بقوانين الطعام مثل عدم أكل لحم الخنزير أو اتباع التشريعات الخاصة بالزواج، بل حتى إن أنكر وجود الإله.

وفيما يخص علاقة اليهودي بأرض الميعاد، يؤكد نواطير المدينة أن اليهودي المتدين يتجه بعواطفه وقلبه لهذه الأرض، أو أرض الميعاد المقدَّسة وخصوصًا مدينة القدس، فهم يذكرونها في صلواتهم عدة مرات كل يوم، ولقد تلا اليهود هذه الصلوات آلاف السنين، ولكن هذه الصلوات لا علاقة لها بالصهيونية أو بفكرة العودة الصهيونية، وأما نفي اليهود من فلسطين فيرى جماعة ناتوري كارتا بأنها كانت نتيجة غضب الإله كعقاب لبني إسرائيل، وأما العودة إلى فلسطين فلا تتم إلا أن يأمر بها الله، وليس العودة بالقوة.

وتذهب أدبيات نواطير المدينة إلى أكثر من هذا، إذ يوجِّهون الاتهام للحركة الصهيونية بأنها حركة معادية لليهود، فالدولة الصهيونية تدَّعي أنها دولة كل

اليهود، وأن على اليهودي أن يتوجه بولائه للدولة اليهودية وحدها وليس للدولة التي يعيش فيها، وبالتالي فهي تخلق لليهود مشكلة ازدواج الولاء وتدعم الاتهامات المعادية لليهود، ولأن الصهيونية تزدهر بازدهار معاداة اليهود، فهي تُروِّج لها، بل إن الصهيونية تحاول أن تُقوِّض وضع اليهود أينما وُجدوا حتى تضطرهم للهجرة إلى إسرائيل، ومن الحقائق غير المعروفة التي يحاول نواطير المدينة تعريف الناس بها، أن الصهاينة تعاونوا مع النازيين حتى يقضوا على يهود شرق أوروبا، باعتبار أن جماهير شرق أوروبا اليهودية كانت القاعدة العريضة التي يستند إليها الرفض الديني للصهيونية، ووجود مثل هذا الرفض على مستوى جماهيري واسع كان سيسحب من الصهيونية أية شرعية.

وقد نجحت جماعة نواطير المدينة في الإفلات من براثن الصهيونية لأنها غلَّبت الطبقة التوحيدية داخل العقيدة اليهودية على الطبقة الحلولية التخصصية الوثنية، التي تجعل اليهود وحدهم مركز اهتمام الإله كما فعلت الصهيونية، وتمسكت بالحل الحاخامي لمشكلة الحلول، وهناك جمعيات ومنظمات وعائلات وأشخاص يهود رفضوا الصهيونية، ورفضوا دولة لليهود في فلسطين بل ومنهم من دعا إلى حق تقرير المصير للفلسطينيين.

تاسعًا، من المنظمات "بريرا" ومعناها "لا اختيار" وهي منظمة ترفض الصهيونية.

عاشرًا، عائلة "منتاجو"، عائلة يهودية إنجليزية من رجال المال والسياسة، من أصل سفاردي، وقد كانت عائلة مونتاجو تُعارض الحركة الصهيونية من منظور اندماجي.

أحد عشر، موريتز جودمان (١٨٣٥ - ١٩١٨م) حاخام وعالم ألماني منذ سنة ١٨٩٤، وهو كبير حاخامات فيينا، حينما كتب تيودور هرتزل كراسته المعنونة دولة اليهود، تصوَّر أن ثلاثة أشخاص قد يضعون فكرته موضع التنفيذ من بينهم جودمان، والآخران هما دي هيرش وروتشيلد، فأرسل هرتزل أول خطاب إلى جودمان عام ١٨٩٥م باعتباره واحدًا من أهم المدافعين عن اليهودية، ولكن

جودمان خيب ظنه إذ أنه كان من المدافعين عن اندماج اليهود في حضارات البلدان التي يعيشون في كنفها اندماجًا لا يؤدي بالضرورة إلى الانصهار.

ثاني عشر، هرمان كوهين (١٨٤٢-١٩١٨م) فيلسوف ألماني يهودي، كان كوهين متأثرًا بتفكير موسى بن ميمون العقلاني، وكان اندماجيًا قليل الاهتمام بالعقيدة اليهودية.

ثلاثة عشر، يوسف سوننفلد (١٨٤٨-١٩٣٢م) كبير حاخامات اليهود الأرثوذكس في فلسطين إبان فترة بداية الانتداب البريطاني وحتى وفاته عام١٩٣٢م، وُلِد في المجر، ومات أبوه وهو صغير، وعارض رغبة زوج أمه في تعليمه تعليمًا علمانيًا في صغره، وأصر على الانخراط في سلك الحاخامية اليهودية، وقد حصل سوننفلد على شهادة ترسيمه حاخامًا وهو في السادسة عشرة من عمره، ثم التحق بحلقة الحاخام الشهير أبراهام شاح وسافر عام ١٨٧٣ مع معلمه إلى فلسطين ليحيا ويستقر، كان عدوًا لا يهدأ للصهاينة ودعاواهم العلمانية.

رابع عشر، إسرائيل فرومكين (١٨٥٠- ١٩١٤م) صحفي روسي يهودي وُلد في روسيا البيضاء، سافر إلى فلسطين مع أبويه وعمره ٩ سنوات، تزوج ابنة مؤسس صحيفة هافاتزيليت ثاني الصحف العبرية، وبعدما أصبح رئيسًا لتحريرها، استمر في هذا المنصب مدة ٤٠ عامًا، كان ناقدًا لاذعًا للمستوطنين اليهود الأوائل، كما نقد فسادهم المالي والأخلاقي مطالبًا بإصلاح حركة التوطين ولكنه غيَّر موقفه مع وصول دُفعات جديدة من المستوطنين عام ١٨٨٢م إذ أصبح عدوًا لدودًا لحركة أحباء صهيون وكذلك هرتزل وآحاد هعام فيما بعد، وعارض بشدة الحركات التوطينية مع إيضاح طابعها العلماني غير الديني.

خامس عشر، لوسيان وولف (١٨٥٧-١٩٣٠م) صحفي ومؤرخ بريطاني يهودي، كرَّس حياته للدفاع عن حقوق اليهود في البلاد التي يعيشون فيها أي أن موقفه مع الحقوق اليهودية كان موقفًا مُعارضًا للموقف الصهيوني، كتب كثيرًا من المقالات للمجلات البريطانية اليهودية وغير اليهودية، كان وولف عضوًا في

اللجنة الأجنبية المشتركة التي أسستها الهيئة اليهودية الإنجليزية ومجلس مندوبي يهود بريطانيا، وقد حاول قصارى جهده أن يجد حلاً للمسألة اليهودية أينما ظهرت، وتركزت جهوده على روسيا ورومانيا، ولكن يُلاحَظ أن وولف كان دائمًا يبحث عن حل للمسألة اليهودية خارج إطار الصهيونية.

سادس عشر، نيثان بيرنباوم (١٨٦٤-١٩٣٧) كاتب سياسي نمساوي يهودي، وُلد في فيينا لعائلة حسيدية، تعرَّف إلى مُثُل حركة الاستنارة، فتخلَّى عن العقيدة اليهودية وتَبنَّى الحلول الصهيونية، واشترك في تأسيس منظمة شبابية هي منظمة كديما (١٨٨٢)، وفي عام ١٨٨٤م صدر أول أعداد مجلته الانعتاق الذاتي (سُميت باسم كراسة بنسكر)، وكان هو ناشر المجلة ومحررها وطابعها، وقد بلور بيرنباوم الفكرة الصهيونية قبل ظهور هرتزل ونشر كتابًا عن المسألة اليهودية عام ١٨٩٣م بعنوان البعث القومي للشعب اليهودي في أرضه كوسيلة لحل المسألة اليهودية، لكنه اكتشف أن الغرض من الوجود اليهودي هو الإبقاء على النور الإلهي مشتعلاً، ولذا يجب أن يُكرِّس اليهودي نفسه لخدمته كما فعل منذ بداية التاريخ، لكل هذا اتجه بيرنباوم لليهودية الأرثوذكسية وانضم لجماعة أجودات إسرائيل وأصبح رافضًا تمامًا للصهيونية.

سابع عشر، يوسف دوشينسكي (١٨٦٧-١٩٤٨) حاخام أرثوذكسي مُعاد للصهيونية، وُلد في المجر، أسس مدرسة حاخامية في جالانتا عام ١٨٩٥، وزار فلسطين للمرة الأولى عام ١٩٣٢م، وقد تُوفي الحاخام الأكبر سوننفلد أثناء زيارته، فعُرِض عليه منصب حاخام القدس لكنه رفض وعاد لتشيكوسلوفاكيا، ثم عاد وقبل المنصب في عام ١٩٣٣م تحت ضغط حاخام فلنا وغيره من كبار الحاخامات، وبدأ نشاطه ضد الدعاية الصهيونية فورًا.

ثامن عشر، يعقوب دي هان (١٨٨١-١٩٢٤م) أستاذ قانون دولي ورجل دين يهودي هولندي، وُلد لأسرة متوسطة متعلمة من اليهود الأرثوذكس حيث كان والده معلمًا، تَخرَّج في مدرسة المعلمين حيث أظهر مقدرة فائقة في الشِعر ونُشرت أشعاره في العديد من الصحف الهولندية وقدَّرته الأوساط الأدبية، وقد

أعجبته الطبيبة يوهانا فان مارسيفين، وهي غير يهودية ومن أسرة غنية، وتحوَّل هذا الإعجاب إلى حب فتزوجا، وقد قامت زوجته الغنية بتمويل دراساته الجامعية حتى تَخرَّج حيث عمل بعدئذ محاضرًا في الجامعة، انضم دي هان للاشتراكيين الديموقراطيين، وسافر إلى روسيا ضمن وفد حزبي، وعند عودته ألَّف كتابًا عن أحوال المعتقلين السياسيين في سجون القيصر، وقد كانت رحلته تلك سببًا في تَحوُّل مجرى حياته تحوُّلاً عميقًا، فقد تأثر كثيرًا بمذابح اليهود ورفع تقريره للقصر الملكي الهولندي لكنه وجد استهزاء من جانب المستشارين اليهود.

تراجع دي هان عن الاشتراكية وانفصل عن زوجته وعاد إلى اليهودية وأصدر عام ١٩١٨ كتاب "الأنشودة اليهودية" الذي تلقفته الدعاية الصهيونية، فهاجر إلى فلسطين باعتباره أول هولندي صهيوني يهاجر إلى هناك عام ١٩١٩م، عمل دي هان في فلسطين مراسلاً لجريدة هولندية تَصدُر في أمستردام، كما عمل أيضًا لجريدة ديلي إكسبريس اللندنية، وكان يلقي محاضرات في كلية القانون التابعة للحكومة في القدس حين تَعرَّف إلى الحاخام الأرثوذكسي سوننفلد وعرف وجهة النظر الأرثوذكسية اليهودية المتدينة في الصهيونية العنصرية العلمانية المتعصبة، وشيئًا فشيئًا غيَّر دي هان انتماءه السياسي والعقائدي وأصبح من أعداء الصهيونية والمتحدث باسم اليهودية الأرثوذكسية وأجودات إسرائيل (التي كانت حينذاك معادية تمامًا للصهيونية من منطلق ديني)، وانبرى للدفاع عن حقوق العرب في أرضهم.

تاسع عشر، يوئيل تايتلباوم (١٨٨٧ - ١٩٧٩م) كبير حاخامات الفرقة الحسيدية المسماة «ساتمار» وجماعة نواطير المدينة الأرثوذكسية، وُلِد في رومانيا داخل أسرة حاخامات عريقة، وقد تيتم صغيرًا، ورُسِّم حاخامًا وعمره ١٧ عامًا، وقد أسَّس مدرسة حاخامية في ساتمار برومانيا عام ١٩٠٦م، كان الحاخام تايتلباوم منذ البداية عدوًا لدودًا للصهيونية، وكان يرى أنها مصدر كل الموبقات والشرور، وقد سُجن في معسكرات الاعتقال النازية وهرب وأعيد اعتقاله عدة مرات، ونجح في النهاية في الهرب إلى سويسرا ثم ذهب إلى فلسطين لفترة قصيرة، وفي

فلسطين، طالب يهود العالم بإدانة الصهيونية وطرقها المخادعة والدنيئة ودعا إلى التنصل منها تمامًا، ثم ارتحل إلى الولايات المتحدة حيث استقر هناك منذ عام ١٩٤٦م وحتى وفاته.

عشرون، هانز كون (١٨٩١-١٩٧١م) مؤرخ أمريكي يهودي حاصل على الدكتوراه في جامعة براغ، واستقر في فلسطين عام ١٩٢٥م ولكنه تركها عام ١٩٣٤م، ثم استقر في الولايات المتحدة حيث عمل أستاذًا للتاريخ في كلية سميث كوليج من عام ١٩٤٩م حتى عام ١٩٦٢م، وفي "سيتي كوليج" في نيويورك. يدور اهتمام كون حول فكرة القومية، وأهم أعماله هي: فكرة القومية (١٩٤٤م)، وعصر القومية (١٩٦٢م)، ومقدمة للدول القومية (١٩٦٧م)، له كتاب عن بوبر وهايني وآحاد هعام، واختياره لهذه الشخصيات يدل على قلقه من الفكرة الصهيونية، وهو قلق عبَّر عنه في دراسته "صهيون وفكرة اليهودية القومية"، يقول كوهن في دراسته هذه: "لا توجد حضارة عظيمة لم تتأثر بالحضارات الأخرى أو تقتبس منها، سواء في مجال الدين أو في مجال اللغة أو القوانين أو العادات"، وهكذا كان اليهود، فقد بلغوا درجة عالية من الامتياز بعد أن تركوا فلسطين واختلطوا بالشعوب الأخرى، ومن هنا ظهرت بينهم أسماء المشاهير أمثال هايني وماركس وبرجسون، وعلى حد قوله، فإن العودة للأصل ليست بالضرورة شيئًا إيجابيًا يزيد من درجة الإبداع، فالفرنسيون لم يضرهم كثيرًا تخليهم عن لغتهم الأصلية الغالية وتبنيهم لغة الغزاة الرومان، بل إن مصدر التشريع الأوروبي كله هو القانون الروماني، وهو قانون فُرض فرضًا من الخارج على أوروبا ولم ينبع من داخلها.

ويبيِّن هانز كون أن ثمة تيارين متعارضين داخل اليهودية: تيار قومي وآخر مُعاد للقومية، وأن التوراة جاء فيها أن زعماء الشعب اليهودي ذهبوا إلى النبي صمويل وطلبوا منه أن يُنصِّب عليهم ملكًا، أي أنهم كانوا يطلبون أن يكونوا مثل كل الأمم وأن تكون لهم حكومة مثل كل الحكومات ودولة مثل كل الدول، وحينما رفض النبي أن يفعل ذلك، أخبره الإله أن يُساير اليهود لأنهم بإصرارهم على أن

يكونوا مثل كل الشعوب الأخرى لم يرفضوا صمويل وإنما رفضوا الإله نفسه، فهم يودون أن يكونوا خدمًا للدولة بدلاً من أن يقوموا على خدمة الإله، وقد أسَّس اليهود دولتهم بالفعل، ولكن الأنبياء أخذوا منها موقف المعارضة، فقام أرميا بالهجوم عليها كما قام عاموس بإعادة تفسير فكرة الشعب المختار حسب أسس جديدة، فالاختيار حسب تفسيره لا يعني أن الإله منح اليهود حقوقًا خاصة، ولا يعني أن انتصارهم على الآخرين أمر أكيد، وإنما يعني أن الإله سيُنزل بهم أشد العقاب إذا ارتكبوا أية خطايا حتى ولو كانت عادية إياكم فقط عرفت من جميع قبائل الأرض لذلك أعاقبكم على جميع ذنوبكم" (عاموس ٣/٢)، بل إن عاموس كان راديكاليًا في تفسير فكرة أرض الميعاد نفسها، فحسب رؤيته لا يوجد أي فرق بين جماعة يسرائيل والأجناس الأخرى، إن مساعدة الإله لليهود على الخروج من أرض مصر ليست مقصورة على اليهود، فالإله يساعد كل الشعوب ولا يُميِّز بين شعب وآخر، وقد جاء في سفر أشعياء هذه الرؤية العالمية الشاملة لمستقبل يضم كل البشر "في ذلك اليوم تكون سكة من مصر إلى آشور فيجيء الآشوريون إلى مصر والمصريون إلى آشور ويعبد المصريون مع الآشوريين.. مبارك شعبي مصر وعمل يدي آشور وميراثي إسرائيل" (أشعياء).

ويذكر "هانز كون" أيضًا في مجال تقديم رؤية اندماجية للتاريخ اليهودي حادثة "يفنه"، وذلك حين قام الحاخام "يوحنان بن زكاي" بالهرب من القدس أثناء حصار الرومان لها وأقام مدرسة تلمودية في يفنه وذلك حتى يضمن ألا يُباد كل الفقهاء والحاخامات، ولا يبقى منهم أحد يحمل مشعل الشريعة وينقلها ويفسرها للشعب بعد سقوط القدس، وبهروبه هذا تخلَّى يوحنان بن زكاي عن فكرة الدولة اليهودية، وأثبت أن الدولة في تاريخ اليهود ليست سوى ظاهرة عرضية، وأن اليهودية كدين وكتراث حضاري ظاهرة فريدة مستمرة تضرب بجذورها في عالم الروح اليهودية، ومن الواضح أن الهدف من هذه القراءة للتاريخ اليهودي هو إثبات أن الرؤية الصهيونية لليهود واليهودية متناقضة مع تجربة اليهود التاريخية ومع القيم الأخلاقية والدينية التي تُدافع عنها اليهودية كدين.

ويَظهَر التناقض بين الصهاينة والاندماجيين بشكل جلي في موقفهم من معاداة اليهود، فبينما يرى الصهاينة أنه مرض أزلي أو جرثومة حتمية خبيثة يُصاب بها كل الأغيار في كل زمان ومكان، يؤكد هانز كون أن الاندماجيين ينظرون إليها بشكل عقلاني على أنها مرض اجتماعي يتغيَّر بتغير الظروف، وبالتالي إذا ازدادت المجتمعات الإنسانية استنارة وعقلانية خفَّ خطر معاداة اليهود.

ويثير كون قضية تَعارُض الصهيونية مع حقوق اليهود، فالصهيونية لا تُطالب بالحرية الفردية لليهود وإنما تُطالب بالاستقلال الجماعي لهم وبحقهم في الهجرة، وهذا أمر يتنافى مع التقاليد الليبرالية التي لا تتعامل إلا مع الأفراد كأفراد ولا تتعامل إلا مع حقوق الأفراد داخل أوطانهم، وبالتالي فإن الطرح الصهيوني لقضية الحقوق اليهودية يضر بهذه الحقوق وبحقوق كل يهودي يرغب في البقاء في وطنه وفي الحصول على حقوقه السياسية والمدنية، ولم تُشر أيٌّ من الموسوعات اليهودية التي تناولت مؤلفات "كون" وفكره إلى موقفه من الصهيونية ككل واكتفت بالحديث عن كتاباته الأكاديمية العامة، وقد نشر كون سيرته الذاتية الحياة في ثورة عالمية (١٩٦٤ م).

هذا، ومن الفلاسفة والمفكرين من ذوي أصحاب المواقف والحجة الذين يعارضون الصهيونية، ويمثلون تيارات هامة في الجماعات اليهودية:

واحد وعشرون، موشيه منوهين ١٨٩٣ – ١٩٨٢م المولود في روسيا من عائلة حسيدية.

اثنان وعشرون، امرام بلاو ١٩٠٠ – ١٩٧٤م المولود في القدس، مؤسس حركة ناطوري كارتا.

ثلاث وعشرون، ميخائيل فيسمندل ١٩٠٣ – ١٩٥٧م المولود بالمجر، عقد اتفاق مع نائب ايجمان لإنقاذ يهود سلوفاكيا.

أربع وعشرون، ألمر بيرجر ١٩٠٨ – ١٩٩٦م ولد في أمريكا، يهودي انـدماجي إصلاحي رافض للصهيونية.

خمس وعشرون، حبيب شيبر المولود عـام ١٩١٣م فـي إسـرائيل، مناهضًـا لإسرائيل، ويعتبر نفسه لاجئًا سياسيًا.

ست وعشرون، مكسيم ودنسون ولد في باريس عام ١٩١٥م، مفكـر ماركسـي ومستشرق فرنسي يتهم إسرائيل بالعنصرية.

سبع وعشرون، الفريد ليلينتال المولود في عام ١٩١٦م، محامي يهودي أمريكي معادي لإسرائيل والصهيونية.

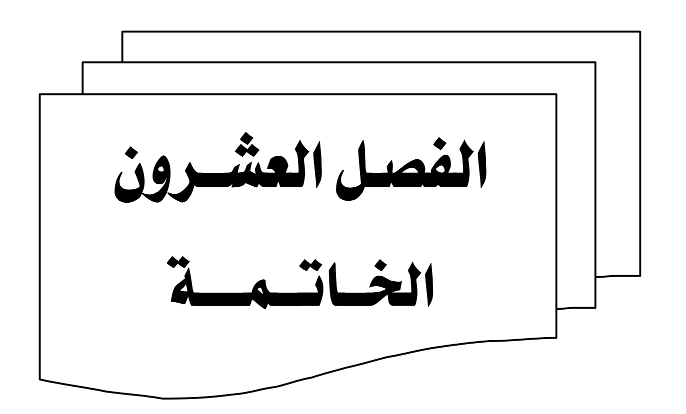
ثمان وعشرون، جيكوب بيتشوفسكي المولود في برلين عـام ١٩٢٥م، أكـد أن التقاليد اليهودية الحقة لا تتفق مع الصهيونية.

تسع وعشرون، مارك لين المولود في عام ١٩٢٧م، محامي يهودي دعـا إلـى إقامة دولة فلسطينية.

ثلاثون، نورتون ميزفنسكي ولد بالولايات المتحدة في عام ١٩٣٢م، يعتبـر مـن أنشط المناهضين للصهيونية.

واحد وثلاثون، ليني بيرنر ولد في بروكلين عام ١٩٣٧م، محامي أمريكي مُعادي للصهيونية.

اثنان وثلاثون، إدموند هاناور ولد في أمريكـا عـام ١٩٣٨م، دعـا الحكومـة الأمريكية إلى اتخاذ سياسة غير منحازة في الشرق الأوسط.


الفصل العشـرون
الخـاتـمــة

من خلال هذه القراءة الموسَّعة التي تناولنا فيهـــا بقـــدر اســـتطاعتنا موضـــوع الصهيونية من كل جوانبه واتجاهاته عبر العصور، وإلقائنا نظرة على الصـــفات والاعتبارات والتباين الذي ميز الجماعات اليهودية في العالم عن غيرهـــا، ومـــن خلال تسليطنا الضوء على نظرة أوروبا الغربية قديمًا للمهاجرين اليهـــود الـــذين أتوها من روسيا وبولندا وأوكرانيا وغيرها ثم تحالف أوروبا وتعاونها على خلق الصهيونية، لكل تلك الأسباب وغيرها لا نجد إلا أن نؤكد بأن الجـــذور الغربيـــة للحركة الصهيونية التي أضيف إليها فيما بعد البُعد اليهـــودي (الـــديني والاثنـــي والإنساني)، وهو بالمناسبة لا يعدو إلا أن يكون بُعدًا زخرفيًـــا تجميليًـــا تبريريًـــا خداعيًا، وقد أضيف من أجل مقدرته التعبوية لإنجاح المشروع الاستعماري لخلق دولة مانعة وحاجزة في المنطقة بين العـــرب، تتـــوفر فيهـــا العناصـــر الغربيـــة الأساسية المادية والمعنوية، التي دخلت في تكوين الرؤية الصهيونية للواقع، وإلا لماذا لم تقم لليهود قائمة منذ مئات السنين، وهم منذ السبي البابلي كان شعراؤهم يتغنون بالقدس، ولماذا فقط في القرن التاسع عشر استطاعوا أن يوجدو حركـــة سياسية، ما كان لها أن تكون، ولا أن تستمر، ولا أن تثمر، لو أن الغرب لم يأخذ بيد زعمائها وعمل على تقديم التسهيلات والإمكانيات، وساهم في كل ما له علاقة بالمشروع القومي اليهودي، ومازال حتى اللحظة يقف بجانب الدولة الصـــهيونية التي أقيمت في فلسطين.

إن مما لا شك فيه أن الصهيونية هي إفراز عضوي للحضارة الغربية، ولِما يمكن أن يُطلق عليه بالحداثة، تلك الحداثة الأوروبية التي هدفت إلـــى تحويـــل البشـــر (اليهود) إلى مادة استعمالية توظف لصالح الأقوى، وهو ما انطبق على المســـعى الأوروبي حينما هدف إلى استعمال المادة البشرية لصنع دولة صهيونية وظيفية، لا شك بأن الظواهر الاجتماعية التي صاحبت الثـــورة الرأســـمالية قـــد تـــأثرت بالاستعمار وبالفكر العنصري، وأن الثورة الرأسمالية التي تواكبـــت مـــع تـــدفق المهاجرين اليهود من الشرق، هي التي أدت إلى ظهور المسألة اليهوديـــة، وأدت إلى ظهور الحل الصهيوني، لهذا مستحيل أن نرى الصـــهيونية خـــارج الســـياق

الاستعماري الإمبريالي، إن الهجرة الجماعية اليهودية إلى فلسطين لم تكن مطروحة أساسًا على المستوى الديني، فعودة اليهود إلى القدس ظلت مقرونة بإرادة الرب وهو الذي فقط يشاء، ولن تتم على أيدي الأفراد أو من الأفكار التي أتى بها التشكيل الحضاري الغربي الذي سعى من أجل مصالحه إلى إنشاء دولة لليهود، تفرض نفسها كمرجع أخلاقي وأدبي ليهود العالم أو كما تَعتبر إسرائيل نفسها حاليًا.

هذا، وإن الجماعات اليهودية لم تعزل نفسها عن المجتمعات الأخرى التي عاش اليهود بين ظهرانيها كما شاع قبلاً، فالتهمة أحيانًا تكون مختلقة ومفبركة، لماذا لا يكون العزل قد حدث من المجتمعات الأوروبية التي لم ترحب باليهود أصلاً، تلك التي مارست العنصرية والعداء ضدهم، لم نسمع أن اليهود عزلوا أنفسهم في بابل أو في الجزيرة العربية قبل الإسلام أو في أسبانيا الإسلامية، ولم نسمع أن اليهود في البلاد العربية قبل إعلان إسرائيل قد عزلوا أنفسهم في مصر أو العراق أو سوريا وحتى في فلسطين، فهذا سؤال يجب أن يسأله لنفسه كل عربي فربما يتمكن من الوصول إلى الحقيقة، السبب في أنهم لم يعزلوا أنفسهم، هو لأنهم في الواقع قد اندمجوا في هذا المحيط الحضاري الذي أعطاهم الأمان وحقق لهم المساواة، أما في آشور والصين مثلاً فقد انصهروا فلم نسمع عن عداء للسامية في تلك البلاد أو عن هجرة يهودية إلى إسرائيل من الصين.

العبرانيون في الأساس هم قبائل رُحَّل، كانوا يعيشون حياة البداوة، عملوا بالزراعة حين استقروا في أرض كنعان ولم يكونوا تجارًا أو حرفيين كما أضحوا بعد ذلك، ولم يكونوا مرابين، وحتى في القرن التاسع عشر في عصر الاستنارة حينما كان مُرحب بهم في ألمانيا أكثر من أي دولة أوروبية أخرى لما كانوا متساوين مع الألمان حتى أن كثيرين منهم في ذلك الحين قد تخلوا عن يهوديتهم وتحولوا إلى المسيحية، كان اليهود الألمان يعملون في الوظائف الحكومية الهامة، وكانوا جزء لا يتجزأ من الشعب الألماني، ولم يكونوا بمثل تلك الصفات السيئة التي تطلق عليهم أحيانًا في المجتمعات الغربية ويتناقلها الآخرون عن

غير معرفة للسبب الحقيقي، لماذا لا يكون هذا التشويه العرقي هو نتيجة كره الغرب لليهود، وعدم الترحيب بهم في المجتمعات الأوروبية بصفة عامة وهو ما توج بانتشار ظاهرة العداء للسامية في أوروبا.

من ناحية أخرى، نجد أن يهود الولايات المتحدة الأمريكية مندمجون تمامًا في الحياة الأمريكية بل إن معظمهم من فرط حبهم لأمريكا يعتبرون التراب الأمريكي هو أرض الميعاد، وهذا إن دل إنما يبرهن على أن التهمة التي ألصقت باليهود كجماعة منطوية على نفسها، هي من تصنيفات أوروبا الغربية التي لم تعطِ اليهود حقوق المواطنة الكاملة، ولم تشجعهم على أن يكونوا مواطنين لكي يشعروا بالطمأنينة والاستقرار.

ولما كان ما وجده اليهود في أوروبا كما تحدث عنه الأوروبيون والصهاينة أنفسهم، فإن من الطبيعي أن يكون لليهود رد فعل سلبي حتى وإن كانوا الأضعف، إنما رد فعلهم كان من الطبيعي أن يجعلهم يبتعدون ويتحفظون ويكونوا حذرين وحتى مراوغين، وهو ما جعل الطرف الآخر (الأوروبي) يغالي أكثر في عدائه وعنصريته إلى أن أصبح الكره لا يحتمل خصوصًا وإن الغرب كان ينظر إلى المهاجرين الروس "يهود اليديشية" على أنهم جماعات متخلفة ومحافظة، وإلا لماذا لم يجبر اليهود الأوروبيين على الهجرة إلى فلسطين إلا لأنهم أثرياء والمجتمعات الأوروبية في حاجة إليهم.

أما عداء اليهود للأغيار فإنه ليس مطلقًا أيضًا، وإنما لأن الأغيار هم من شرعوا بالعداء حينما احتقروهم، لقد ساعد اليهود المسلمين في الفتح الإسلامي، سواء في فلسطين أو في أسبانيا، كما أن انحلالهم الجنسي غير مطلق أيضًا، فظاهرة الطفل اليهودي غير الشرعي أو البغيِّ اليهودية كانت غير معروفة تقريبًا في أوروبا حتى منتصف القرن التاسع عشر، فما تلك المثالب إلا أنها نقلت عن المجتمعات الغربية فاليهودية لا تدعو إلى الرذيلة والانحلال، وأما الماسونية والعلمانية، فإن اليهودية الأرثوذكسية تعاديهما بشراسة، فاليهود من أكثر الشعوب تمسكًا بعقيدتهم وبالتعاليم الربانية، فربما جاء الوقت لكي نعرف أن

المغتصب الحقيقي لفلسطين هي الدول الغربية التي فكرت كثيرًا وحسبت كثيرًا قبل أن تصنع أسطورة الدولة الصهيونية.

هذا، ولكل ظاهرة سياسية أو اجتماعية هناك عدة عوامل، إذا ما توفرت فإنها تُهيئ المناخ والبيئة المناسبين لكي يتم التفاعل الذي يؤدي إلى نشأة تلك الظاهرة، وما المشروع الصهيوني في فلسطين إلا كان نتيجة ظاهرة وجدت وتفاعلت مع المجتمع الأوروبي، فكان أن تأثرت الحركات الدينية والسياسية والاقتصادية في أوروبا بها، حيث تزامن هذا مع التحولات الثقافية والتنظيمية في الجماعات اليهودية هناك، وهو ما أوجد الظروف الملائمة المُدعَّمة بالأسباب والمصالح المشتركة بين الحضارة الأوروبية وزعماء الجاليات اليهودية، تلك الظروف التي قادت إلى اتفاق العقد الصامت الذي تم على أثر نشأة الظاهرة التي أشرنا إليها، وهو ما أوجد زخمًا ومخاضًا توج بالحركة الصهيونية كمولود كامل ومعافى.

ولما كان معظم يهود العالم في نهاية القرن التاسع عشر يعيشون في دول أوروبا الغربية، فقد كانوا جزء من التشكيل الحضاري الغربي الذي شهد التقلبات الاجتماعية والدينية والسياسية والاقتصادية التي أوجدت الدولة القومية، تلك التقلبات التي عملت على فرز الجاليات اليهودية عن المجتمعات التي تعيش فيها، لهذا فإن الصهيونية هي إحدى أذرع الحضارة الغربية التي كان لا بد من خلقها لكي يُثمر الحلف الصامت الذي عُقد فيما بعد بين الصهيونية والغرب، لهذا اعتبر الغرب أن اليهود هم شعب عضوي بمعنى أن اليهود شعب يرتبط أعضاؤه فيما بينهم وبأرضهم التي هي ليست أوروبا بأواصر عضوية لا يمكنهم الفكاك منها، ومن ثم فقد اعتبر اليهود لا ينتمون إلى التشكيل الحضاري الغربي ويقفون على هامش التاريخ، ويُشكلون عناصر طفيلية لا جذور لها في المجتمعات الغربية، لهذا يمكن القول بإن الصهيونية كحركة سياسية استعمارية، تم صياغة أيديولوجيتها بشأن القومية اليهودية واستعمار فلسطين كنتيجة للمناخ الإمبراطوري الاستعماري الذي ميز السياسات الغربية في القرن التاسع عشر.

وفي نفس الوقت، علينا ألا نغفل أيضًا، بأن شواهد التاريخ الغربي الحديث تُشير بوضوح كبير إلى أن المشروع اليهودي الاستيطاني كـان يتبلـور فـي أوسـاط المؤسسة الدينية السياسية البريطانية قبـل عقـود طويلـة مـن ولادة الحركـة الصهيونية في الربع الأخير من القرن التاسع عشر، لهـذا يمكـن القـول بـإن المؤسسة الدينية المسيحية في بريطانيا بالذات حيث هي معقـل البروتسـتانتية الإنجيلية التي تؤمن بالتفسير الحرفي للعهد القديم، كانت أهم الميادين التي فتحت السبل للحركة الصهيونية بل ولم تكن عقبة في طريق المشروع القومي اليهودي لاستيطان فلسطين.

لقد كان عاملي الدين والأطماع الاستعمارية بأبعادهما الجغرافية السياسية، همـا الآلية التي قادت توجهات قادة الفكر والدين والسياسة للإمبراطورية البريطانيـة لكي تسبق القوى الأخرى في تبني المشروع القومي الصهيوني، لقد كانت بريطانيا تطمع بأن تجلب الثروات والشبكة اليهودية التجارية العالمية حيوية لانجلترا كتلك التي جاء بها اليهود إلى هولندا بعد هروبهم من أسبانيا الكاثوليكية، فمنـذ ذلـك الحين ومع تعاظم النفوذ اليهودي في الولايات المتحـدة الأمريكيـة فـي القـرن العشرين، أثر عاملي التحول البروتستانتي ومشروع التوسع الاستعماري على كل ما له علاقة ببريطانيا بالمسألة اليهودية، هكذا وجدت الصهيونية، فكيف تنتهي؟!

منذ زمن بعيد والأمة العربية تحاول النهوض وتعيش معركتها القومية، سواء في صراعها مع الفرنجة أثناء الحروب الصليبية أو مع القوى التي حرمـت العـرب بقيادة والي مصر "محمد علي باشا" من أن يستعيدوا السيادة العربية من الخلافة العثمانية، أو بعد ذلك صراع التحرر العربي مع الاستعمار الغربي بعـد الحـرب العالمية الأولى، ومن ثم صراع العرب مع الصـهيونية العالميـة ومـع أوروبـا مجتمعة من خلفها، لم يحقق العرب حلمهم بأن تكون لهم دولة موحـدة بسـبب الفارق الحضاري الذي يسبقهم به الغرب والصهاينة الـذين يرتبطـون عضـويًا بالغرب أيضًا.

ما حدث قد حدث واقتطاع فلسطين في منتصف القرن العشرين من الجسم العربي قد تم بالفعل، وما يحدث في هذا العصر من محاولات من قِبل الفلسطينيين وغيرهم ما هو إلا ردود أفعال وتكيف مع ما تم من حقائق على الأرض أكثر بكثير مما قد يُظن بأنه سيعيد الساعة إلى الوراء أو إلى ما قبل إعلان دولة إسرائيل، لأن من لم يستطع أن يمنع قيام إسرائيل عام ١٩٤٨م حينما كان العرب الفلسطينيون هم الأكثرية في فلسطين لا يستطيع في هذا العصر الذي يفتقد فيه العرب التوازن الاستراتيجي مع الدولة الصهيونية أن يلغيها.

وإذا كان لا بد من قول كلمة للتاريخ، "فإن قصر النظر عند الأنظمة العربية بما في ذلك الزعامة الفلسطينية في الأيام الأولى، من ناحية عدم التقدير الصائب للموقف، وعدم معرفة الظروف المحيطة بالمنطقة وتطلعات القوى العالمية المتنفذة، وعدم معرفة قوة العدو الحقيقية، وعدم تخيل العرب لحجم الكارثة التي ستحل بهم، سواء كان ذلك عند صدور وعد بلفور عام ١٩١٧م، أو عند إعلان دولة إسرائيل عام ١٩٤٨م بعد ذلك، هذا وللأمانة أيضًا أن العائلة الهاشمية التي ربما هي الوحيدة بين الزعامات العربية التي أدركت حقائق الصراع العربي الصهيوني منذ بدايته، وعرفت من خلال علاقاتها مع البريطانيين، أن إسرائيل ستوجد وإن وجدت ستبقى.

أدرك مبكرًا الأمراء الهاشميون أبناء الشريف حسين، عبد الله وفيصل في ذلك الحين، بعد أن قامت بريطانيا بنفي الشريف حسين إلى جزيرة قبرص خلال الحرب العالمية الأولى، ثم مرضه وموافقة بريطانيا على إحضاره من قبرص إلى عمان، ثم وفاته بعد ستة شهور ودفنه في القدس، أدرك الهاشميون أو تواطأوا كما ظل العرب التقدميون يرددون وينعتون الأسرة الهاشمية بالخيانة، أن الأفضل هو الاعتراف بالصهيونية ومهادنتها، ومحاولة تفادي أن يصبح لها أطماع ومبررات في إمارة شرق الأردن التي أصبحت مملكة فيما بعد، ولذلك حدثت تفاهمات كثيرة بين الهاشميين وبريطانيا العظمى، بدءًا بمراسلات الشريف "حسين بن علي" أمير مكة مع "هنري مكماهون" المعتمد البريطاني بالقاهرة،

وكذلك لقاءات الأمير فيصل وصداقته واتفاقاته مع حاييم وايزمـــان، ومفاوضـــات الأمير عبد الله مع الصهاينة ومع الإنجليز، سواء خلال الاتفاق على قرار التقسيم أو أثناء معارك حرب ١٩٤٨م"، وهكذا أدى الجهل العربي بحقائق الصراع إلى ما آلت إليه الأمور بعد ذلك من كوارث ومآسي، هذا بالإضافة إلى ضـــياع فلســطين بشكل شبه كامل بدلاً من الانحناء للعاصفة وجعل الخطر أقل ما يمكن وحصره في بؤرة صغيرة حتى يحين الوقت لمعالجته إذا ما تعافت الأمة العربية من أمراضها.

لقد استطاعت الحركة الصهيونية في مناخ صحي ومثالي إلى حد مـــا، أن تتبـــع خطًا منهجيًا، وأن تضفي طابع المشروعية القانونية والدولية لمشـــروع الـــوطن القومي اليهودي في فلسطين، لقد عملت أولاً على عقد حلف صامت بينها وبـــين الحضارة الغربية وتلاقت المصالح لكي يصبح للمادة البشرية اليهودية وظيفة في خدمة القوى الاستعمارية ضمن التحالف في التشكيل الحضاري الغربي، ومن هنا تحول الأوروبيون من أعداء للسامية (لليهود) إلى حلفاء عضويون لهم، وما زال نجم الصهيونية يسطع في سماء الكرة الأرضية منذ أن حصلت على مشـــروعية قانونية دولية، وراح ينتقل من نجاح إلى نجاح، وما زال في صـــعود، ومـــا زال النفوذ الصهيوني يترسخ في أوروبا الغربية والأمـــريكتين، واســـتطاع أيضًـــا أن يحتل بسهولة وكفاءة مراكز الإعلام في دول المنظومة الاشتراكية سابقًا بما فـــي ذلك روسيا.

في لقاء تلفزيوني على إحدى القنوات العربية مع سفير فلسطين في موسكو فـــي إحدى السنوات، سُئل السفير: كيف تبدو القضية الفلسطينية في نظـــر الإنســـان الروسي في موسكو؟ أجاب السفير بأن الإعلام مسيطر عليه من قِبـــل المؤيـــدين لإسرائيل، ولهذا فإن الغالبية هنا في موسكو متأثرون بالدعاية الصهيونية!

وفي مقال قيم للكاتب الدكتور "تضال صالح" نشر في "شبكة العلمـــانيين العـــرب بتاريخ ١٢مارس ٢٠٠٩م"، تحدث فيه عن صعوبة إيجاد دار نشر لطبع كتاب له عن فلسطين باللغة المحلية في شيكوسلوفاكيا، التي كانت إحـــدى الـــدول ضـــمن المنظومة الاشتراكية في عصر وجود الاتحـــاد الســـوفييتي، قـــال: "الصـــحفيون

الصهاينة استولوا على الإعلام المرئي والمقروء في شيكوسلوفاكيا ولم يبق لنـــا ولا لمن بقي لنا من الأصدقاء الخلص أي مكان حتى ولو صغيرًا في هذا الإعـــلام نشرح فيه قضايانا، وبدأت القضية الفلسطينية تختفي من الساحة وظهر مكانهـــا اليهودي الديموقراطي المسالم الذي عاد إلى أرضـــه فلســـطين، أرض الميعـــاد، الفلسطيني في هذه الصورة إرهابي يريد أن يسلب حق اليهـــود التـــاريخي فـــي فلسطين ويحرمه من حق العودة إلى أرض الميعاد، وانتشرت الأفلام التلفزيونيـــة والسينمائية التي تتحدث عن معاناة اليهـــود وعـــن المحرقـــة أو الهولوكوســـت وصدرت القوانين التي تحرم التشكيك بالصيغة الرسمية للهولوكوست إلى جانـــب القوانين التي تمنع أي مظهر من مظاهر اللاسامية وتعاقب بالســـجن المتهمـــين بها، لقد نشأ جيل جديد من الشباب لا يعرف عن الفلسطينيين وقضـــيتهم إلا مـــا يشاهده وما يقرأه في الإعلام، أما في جبهة الجاليات العربية والفلسطينية فلقـــد وقع العرب في حالة تخبط غذتها الانقسامات المزمنة، والخـــوف علـــى الوضـــع الاقتصادي والاجتماعي إلى جانب الجهل المعلوماتي عن القضية، وكيفية مخاطبة العقل الشرق أوروبي الذي أصبح مهووسًا بالديموقراطية الجديدة وكانت القضية الفلسطينية مربوطة في ذهنه بالنظام التوتالي الشيوعي".

فصحيح أن اليهود ظلوا يحلمون منذ عقود طويلة غائرة في القدم بوطن يهـــودي يلم شتاتهم، وحيث أن مفكريهم قالوا إن الحاجة لإقامة وطن يهودي قديمة منـــذ السبي البابلي حسب اعتقاد المتدينين منهم الذين اعتقدوا بأن أرض الميعاد قـــد وهبها الله لبني إسرائيل، لكن حلمهم هذا لم يتحقق إلا بعـــد أن اســـتوجبت ذلـــك مصالح القوى الاستعمارية الأوروبية أولاً، من هنا كان المناخ الذي أوجده عصر التنوير في أوروبا ونشوء الدولة القومية، فكانت التربة الأوروبيـــة الاجتماعيـــة الصالحة التي نشأت فيها الحركة الصهيونية الحديثة، التـــي تـــم إشـــهارها فـــي المؤتمر الصهيوني الأول عام ١٨٩٧م.

الحقيقة أن الجهود الغربية قد تضافرت وتبنت الصهيونية في قلب الوطن العربي، وأصبح الحفاظ على أمن إسرائيل واستمرارها هدفًا استراتيجيًا غربيًا، يتحكّم في

السياسات الغربية تجاه الوطن العربي، هذه السياسات التي حرصت على تمزيق الوحدة العربية، وتفكيك الروابط المشتركة بين العرب، وإثارة النعرات الطائفية، والعمل بكل الوسائل على ترسيخ التخلف والتأخر بين أبناء الأمة العربية بقدر المستطاع، لقد بقيت فلسطين منذ إعلان ديفيد بن غوريون قيام إسرائيل في ١٤ مايو سنة ١٩٤٨م جرحًا ينزف ويوجع العرب والمسلمين والشرفاء في كل مكان من العالم، وما تزال القضية الفلسطينية من أكثر القضايا العالمية التي استرعت اهتمام الباحثين الذين سعوا لتحليلها، لكن لماذا أعطيت إسرائيل كل هذا التأييد وكل هذا الدعم الغربي!

لقد كانت الدولة الصهيونية دولة وظيفية منذ أن كانت في العقول مجرد فكرة يتقاذفها بينهم زعماء اليهود والقيادات السياسية في مجتمعات التشكيل الحضاري الأوروبي الغربي، كانت الفكرة تقوم على قاعدة استغلال الغرب والصهيونية للدين اليهودي والمسيحي معًا، وكانت تقوم على منطق العقلانية والشعب العضوي وما شابه، ولم يكن لدى الغرب جواب إيجابي على سؤال: لماذا الفلسطينيين؟ لهذا يخطيء الكثيرون منا حينما يعزون قيام إسرائيل إلى قوة اليهود وكبر إمكانياتهم المادية، لأن لا المال اليهودي ولا التأثير الثقافي أو الاجتماعي كان يكفي لأن يُشرع في إنشاء دولة لليهود في فلسطين إذا لم تكن الرعاية والتأييد على كل المستويات من الدول الغربية لقيام هذا الكيان.

ما نود أن نقوله هنا، ونكرره ونؤكده مرات ومرات، هو القول بإن المصلحة الأوروبية كانت تتقدم على المصلحة الصهيونية اليهودية في مشروع الوطن القومي اليهودي، لذلك تبنى الغرب المشروع الصهيوني منذ البداية، ولهذا لا نجد دولة أوروبية واحدة، صغيرة أو كبيرة، استعمارية أو تقف على الحياد، كانت قد رفضت وعد بلفور حينما أصدرته بريطانيا عام ١٩١٧، إن كان فضل للصهيونية في إقامة دولة إسرائيل فإنها قد أدركت أن باستطاعتها التعاقد مع الغرب والتركيز على المصالح المشتركة بينهما فكان لها دور الدولة الوظيفية، وهو نفس الدور القديم الذي كان اليهودي يقوم به عند سيده على الصعيد الفردي حينما كانت

الجماعات اليهودية تعيش في دول العالم، ولم يتغير هذا الدور الآن سوى أن الوظيفة أضحت بحجم دولة للقيام بخدمة السيد أي الدولة العظمى، فكان الدور ملائمًا ومعروفًا وقابلاً للتطبيق لأنه مجرب في الماضي على الصعد الفردية وأصبح جزء من التراث اليهودي على مدى القرون.

وهذا يذكرنا بالأسباب والأسلوب والدور الذي قامت من أجله الحروب الصليبية في الماضي، وكيف نشأت الإمارات الصليبية في المشرق العربي ولمن كانت مرجعيتها ولمن كانت تقدم خدماتها، وإذا تذكرنا بأن لليهود أيضًا مصلحة في إنشاء الدولة الصهيونية، فسيكون التحالف بين الدولة الصهيونية والغرب أكثر إلحاحًا من نظيره حين الإمارات الصليبية مقارنة بالماضي إبان الإمارات الصليبية كان الغرب هو الذي يعطي ويدعم بالمال وبالمهاجرين للغزوات والإمارات الصليبية، وفي حال الصهيونية فإنه عوضًا عن الدعم والتأييد الغربي لإسرائيل فإن الصهيونية في حد ذاتها تُمثل أيديولوجية لها خصوصيتها ولها روافدها التي تُغذيها بكل شيء عوضًا عن الدعم الغربي، من هنا نجد أن ثقافتين أو أكثر يرعيان الدولة الصهيونية، الغرب ويهود العالم الطرفان اللذان تلتقي مصالحهما، فعلى أساس هذه المصلحة وهذا التحالف بين القوى الجبارة قامت إسرائيل، من أجل مصالح الغرب ونفوذه في بلاد العرب، ومصالح الصهيونية العالمية بالرعاية والإنفاق الغربي، كل ذلك تم تحت ما سمي حل المسألة اليهودية في أوروبا.

إن من العوامل التي ساعدت على تحقيق الهدف الصهيوني الغربي المشترك، أنه بالرغم من أن زعماء الحركة الصهيونية كانوا من الملاحدة الذين ينتمون إلى الدين اليهودي بالاسم فقط، فإنهم استغلوا بمهارة الديانتين اليهودية والمسيحية لتحقيق أغراضهم، فراحوا يدعون إلى إقامة وطن لليهود في فلسطين، مؤكدين أن هذا الحدث سيحقق النبوءات التوراتية، وإن قيام دولة يهودية في فلسطين هو مؤشر على اكتمال الزمان والعودة الثانية للمسيح، يقول الدكتور عبد الوهاب المسيري في "موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية" نقلاً عن القس "جيفري فالويل" مؤسس جماعة الأغلبية الأخلاقية: "إن من يؤمن بالكتاب المقدس حقًا

يرى المسيحية ودولة إسرائيل الحديثة مترابطتين على نحو لا ينفصم، إن إعادة إنشاء دولة إسرائيل في العام ألف وتسعماية وثمانية وأربعين لهي في نظر كل مسيحي مؤمن بالكتاب المقدس تحقيق لنبوءات العهدين القديم والجديد".

المفارقة أن كثيرًا ممن تحدثوا عن الصهيونية وعن دعم المسيحية الأوروبية لقيام إسرائيل نسوا أن أوروبا هي مجتمعات لا دينية، لكن لا مانع لديهم من استعمال الدين في خدمة السياسة، وهو ما يشبه حينما يأتي المبشرون بالمسيحية إلى الدول والمناطق في العالم، ثم يأتي بعدهم الاستعمار لاستعباد الشعوب ونهب خيرات البلاد.

وعلى هذا فقد لعبت الدوافع للمصالح والنفوذ والتفوق دول الغرب إلى تأييد المشروع الصهيوني كاستثمار جديد لتحقيق المكاسب، والتقى هذا مع طبيعة النظام الرأسمالي القائم على المنافسة والتفوق المادي على الغير، فهو لا يهاب وازع ديني أو أخلاقي حينما يكون هدفه الوصول إلى الربح المادي، فعالم المادة يؤمن بأن الغاية تبرر الوسيلة، وأن البقاء للأصلح فإما أن تكون متفوقًا منتصرًا رابحًا وإما أن تكون الخاسر وفي موقع أدنى، هذا وبسبب التنافس على المستعمرات فقد اكتوت أمم كثيرة من آثار حربين عالميتين طاحنتين نشبت بين دول أوروبا الاستعمارية التي يجمعها الدين والثقافة الواحدة والعرق، فلا نتعجب إذا رأينا التأييد الغربي لقيام إسرائيل على حساب العرب الذين تجمعهم أيضًا مع الغرب عداءات تاريخية لم يستطع الغرب المسيحي نسيانها حتى الآن.

إن الكثيرين من العرب من أصحاب الرأي، ينظرون إلى حجم التضحيات التي يتكلفها الصراع العربي الصهيوني في فلسطين وما يسبب من إرهاق للعرب، كأنهم يظنون بأن أصل المشكلة هو ما يكلفه الصراع مع الصهيونية وحسب، أو هو ما أوصل مجتمعاتنا إلى مرحلة اليأس أحيانًا، تلك المجتمعات التي آمن هؤلاء بتخلفها الأزلي وبعدم قدرتها على النهوض أمام عاصفة الصهيونية العاتية التي يُدعمها الغرب، ويرى هؤلاء بأن الانتصار على ذلك يحتاج إلى معجزة، أو بوجوب حدوث انقلابات عسكرية لتغيير الأنظمة الحاكمة في الأقطار العربية كما

حدث في ستينات القرن العشرين مثلاً، أو بوجود حلول سلام لا تقوم على توازن استراتيجي مع أداة الصهيونية العالمية إسرائيل لأجل أن يكون سلامًا عادلاً، أو بمحاولة إقناع الغرب كما يسعى بعض الزعماء العرب باستبدال دولة عربية وظيفية للغرب بدلاً من إسرائيل في المنطقة.

يجب ألا يغيب عن أي كيان عربي بأن التخلي عن نصرة فلسطين لن يحمي العرب من طمع الغرب، ونهم الصهيونية التي تسعى إلى ما هو أكبر بكثير من حجم فلسطين، فقد يغيب عن العرب بأن الصهيونية قومية يهودية سامية تسعى إلى ميراث القومية العربية السامية أيضًا، وأن الصهيونية بزخمها العالمي ونفوذها وإمكانياتها وتسلحها بالمدنية الحديثة وتنظيمها الذي لا يُضاهى لن يكفيها فلسطين فقط، ولن تقبل أن تظل تعيش دولة إسرائيل في عداء دائم مع جيران لا يقبلون وجودها بسبب صدام الحضارات الذي لن يختفي لأن التاريخ مستمر والأحداث لن تتوقف، لذا فإن الصهيونية ستظل جاهدة إلى أن تجعل العرب مناطق وأقاليم وكيانات، وفي أفضل الأحوال ستجعلهم رعايا للإمبراطورية الصهيونية اليهودية الإسرائيلية، التي سرعان ما تتوازن مع أوروبا إذا ما تحول الوطن العربي بمئات ملايينه إلى رعايا لإسرائيل العظمى، وقد يظن بعضنا أن هذا الرأي مجرد خيال لن يكون له أثر أبدًا على أرض الواقع، إن مؤشرات أن يتحقق الحلم الصهيوني والسطوة اليهودية على الوطن العربي قد بدأت، ألم تُقام إسرائيل رغم أنف كل العرب، فماذا يمنع غدًا مادام العرب لم ينتجوا شيئًا بالمقارنة حتى الآن ولم يأخذوا بأسباب الحضارة، أن يحدث أي صنف من أنواع السلام أو التطبيع بين إسرائيل والعرب جميعًا أو مع هذه الدولة العربية أو تلك، فالعرب لديهم البترول ولديهم العائد المادي وهم أسواق استهلاكية مثالية للمنتجات والخدمات الإسرائيلية التي لن تجد من ينافسها من دول العالم، لرخص التكلفة بسبب استخدام الأيدي العاملة العربية الرخيصة ذات الأجر الأقل كثيرًا مقارنة بأجر العامل في دول الغرب عوضًا عن قربها من الأسواق العربية النهمة، فما أن يمضى زمن قُل خمسة وعشرين عامًا إذا ما طبع العرب مع إسرائيل، إلا وتُصبح إسرائيل مهيمنة

على كل شيء في الوطن العربي، وسيكون العرب الأغنياء بحاجة ماسة إلى منتجاتها وخدماتها الرخيصة نسبيًا، ويكون العرب الفقراء بحاجة ماسة إليها أيضًا لإيجاد العمل لأبنائهم، وحين ذلك ستضاف اتفاقيات اقتصادية وجمركية وما شابه بين العرب وإسرائيل على نمط اتفاقيات المنظمة العالمية للتجارة (جات) التي أضحت تتدخل في شئون الدول الموقعة عليها، وتتحكم في اقتصادياتها.

لا شك بأن العرب من غير الفلسطينيين يعون أيضًا خطر وجود إسرائيل، وهم يقدمون دعمًا وتأييدًا للفلسطينيين ولكن بمقدار وعيهم للقضية الفلسطينية، وكلما زادت معرفتهم بالخطر الصهيوني سيقدمون دعمًا أكبر حتى يصل إلى إدراك الخطر الصهيوني الكامل، وحينها سيتحملون المسئولية، فقضية فلسطين ليست منفصلة بأية حال من الأحوال عن القضايا الحضارية للأمة العربية، لأنها نتيجة طبيعة لمشكلة العرب الكبرى.. مشكلة التخلف الحضاري، التي جعلتهم رهينة لحلفاء إسرائيل ومن أوجدوها من دول الغرب، فماذا يُنتظر من الولايات المتحدة والغرب بصفة عامة، سوى أن يرضخ العرب ويقبلون ما تمليه عليهم إسرائيل.

في ٤ يونيه ٢٠٠٩م، وجَّه الرئيس الأمريكي "باراك أوباما" من جامعة القاهرة، خطابًا هامًا إلى العرب والمسلمين، كانت فيه المصلحة الصهيونية هي الأقوى حضورًا، من أهم ما قاله أوباما في الخطاب عن السلام بين العرب والإسرائيليين: "شعبان لكل منهما طموحاته المشروعة ولكل منهما تاريخ مؤلم يجعل من التراضي أمرًا صعب المنال، إن توجيه اللوم أمر سهل إذ يشير الفلسطينيون إلى تأسيس دولة إسرائيل وما أدت إليه من تشريد للفلسطينيين، ويُشير الإسرائيليون إلى العداء المستمر والاعتداءات التي يتعرضون لها داخل حدود إسرائيل وخارج هذه الحدود على مدى التاريخ، ولكننا إذا نظرنا إلى هذا الصراع من هذا الجانب أو من الجانب الآخر فإننا لن نتمكن من رؤية الحقيقة"، وهنا الرئيس الأمريكي يقول للعرب، ليس لكم خيار إلا القبول بالأمر الواقع.. القبول بإسرائيل، وعليكم أن تنسوا ما حدث قبل ذلك.

نستنتج من هذا، أن الحركة الصهيونية هي حركة استعمارية وظيفية ذيلية في التاريخ الاستعماري الحديث، لأنها حركة وجدت لكي تخدم الحركة الاستعمارية الغربية، فلم تكن الصهيونية في يوم من الأيام حركة مستقلة، وها هو تاريخها قديمًا وحديثًا يشهد بذلك بل ومنذ أن تأسست، وهو ما انعكس على الدولة الإسرائيلية التي ظلت تعتمد على الغرب بصفة عامة، الصهيونية هي في خدمة أي دولة غربية لأنها وجدت ضمن التشكيل الحضاري الغربي كما أسلفنا، وهي منذ البداية في خدمة الغرب، لأنها أراحت المجتمعات الأوروبية من المهاجرين اليهود الروس، الذين تدفقوا على أوروبا الغربية منذ القرن التاسع عشر أو الذين ما زالوا حتى يومنا هذا يغادرون إلى دولة إسرائيل بدل أن كانوا يتوجهون إلى أوروبا الغربية.

وبهذا.. فأوروبا أوجدت إسرائيل لكي تحل المشكلة اليهودية العالمية التي كانت مصدر تهديد اجتماعي وثقافي لأوروبا نفسها، فعملت الدول الشرقية والغربية على تفادي المشكلة اليهودية وتم حلها على حساب العرب، أما لماذا فلسطين بالذات.. لأنها مفصل جغرافي هام في المنطقة، فمن هذا المفصل كانت تأتي الغزوات من أوروبا، وكانت تتجه شمالاً وشرقًا وغربًا، وكان هذا المفصل هامًا دائمًا في توحيد المنطقة بل ومنذ أيام الفراعنة حينما كانوا يحكمون مصر والشام، عندما فتح المسلمون الشام رأوا أن من الضروري فتح مصر لحماية الشام فكان فتح فلسطين أولاً، ونفس الشيء فعله كل من صلاح الدين الأيوبي ومحمد علي باشا حينما وحدا مصر والشام، لهذا فإن إسرائيل بالنسبة للغرب، تعتبر من أهم الدول في منطقة شرق البحر الأبيض المتوسط.

ما دام الأمر على هذه الصورة القاتمة، ورغم كل ما سبق، إذن على العرب أن يدركوا قبل فوات الأوان، وبعد أن ضاع الكثير، بأن لا أمريكا ولا الغرب عمومًا سيعيدون للعرب الفلسطينيين حقوقهم الكاملة، وما دام الأمر على هذه الشاكلة في هذا العصر، فربما من الأفضل أن يقبل الفلسطينيون حلاً حسب الرؤية الأمريكية التي تجد مبررًا لفرض حل يُعطي شيئًا للفلسطينيين، ذلك لحاجتها للبترول العربي

في هذا الزمن، ومهما كان هذا الحل مجحفًا بحقهم، فهو أفضل من لا شيء خصوصًا قبل أن تزداد خسارة الفلسطينيين وتتفاقم مأساتهم، ما ترغبه أمريكا لمجاملة العرب اليوم قد لا ترغبه إذا لم تعد بحاجة إلى البترول العربي غدًا، فبعيدًا عن المزايدات بالشعارات الوطنية، فإن من المهم هو الحفاظ على بيضة الحق العربي في فلسطين وتركها للأجيال القادمة، وإنقاذ ما يمكن إنقاذه الآن بواسطة الحل الذي يمكن أن ترعاه أمريكا وذلك قبل فوات الأوان، وليسميه العرب هدنة أو سلامًا أو حلاً أو ما يروق لهم، فالمهم أن يبق شيئًا أمام الدنيا اسمه كيان فلسطيني، ذلك قبل أن يتم طمسه تمامًا، بعد أن أصبح ما تبقى من فلسطين، اسمه قطاع غزة، ويهوذا والسامرة، والمناطق!

لاشك بأن السلام الذي تنشده أمريكا لإسرائيل مع العرب أو ما يسمى بالتطبيع، هو من الاستراتيجيات الصهيونية، ومعناه تحويل آليات الصراع إلى آليات للسلام والتقارب والتبادل السلمي في كافة المجالات خصوصًا الاقتصادية، وليس هذا فحسب بل ويهدف إلى إعادة تشكيل العقل العربي وتغيير تصوراته عن الصهاينة، مما قد يقود إلى تغيير سلوك الإنسان العربي تجاه إسرائيل، ذلك لكي تصبح الأخيرة مقبولة في المنطقة، نعم هذه هي الحقيقة، وما التغلغل الصهيوني في هذا الزمن عبر وسائل الإعلام العالمية من صحف ومطبوعات وقنوات تلفزيونية وسمعية، وما تبثه هذه الأدوات من تغيير في المفاهيم والتصورات، إلا أنها آليات دعم تساهم كثيرًا في كسب التعاطف ناحية الصهاينة اليهود حتى أصبح من يقاوم الاحتلال الإسرائيلي في هذا الزمن إرهابيًا ومجرمًا بحق الإنسانية.

ومع ذلك وبحسبة بسيطة وبصراحة، إن السلام حسب الرؤية الأمريكية، مطلب وحاجة ملحة للشعب الفلسطيني في هذه المرحلة، فمهما كانت الرؤية الأمريكية مجحفة بالحق العربي، ما دام الإطار العام لتلك الرؤية، هو حل الدولتين بما يعني ذلك من استحقاقات للدولة الفلسطينية على إسرائيل وأمريكا وباقي أعضاء اللجنة الرباعية الدولية المشتركة، وحتى لو حدث ذلك، فلن تنسى بل وليس متوقعًا أن تنسى الأجيال العربية ما حل بالفلسطينيين بسبب الهجمة الاستيطانية الاستعمارية

الصهيونية في القرن العشرين أو كذلك، بل إن ازدهار تكنولوجيا الإعلام والتطور الذي وصلت إليها هذه التكنولوجيا، ستجعل الأمة العربية تحتفظ بالصور وبكل ما قيل وما كتب عن فلسطين وأهلها، مهما كان هناك من تعتيم أو تضليل على مدى الأيام، فالسلام والتطبيع مع إسرائيل في العصر الآني، قد يكون مفيدًا وصحيًا للعرب والفلسطينيين بالذات، وذلك لالتقاط الأنفاس وإشفاء الجروح، ولم الشتات، وبدء استعمال العقل كما يجب، فما لم يستطع الفلسطينيون الحصول عليه من خلال المقاومة، فليكن بالسياسة والمفاوضات أو أليست المقاومة المنتصرة، تبدأ باسترجاع ما فقدته جزء جزء! لماذا لا تكون استعادة بعض الحقوق بالسياسة أو بما نسميه عملية السلام، ما دمنا لا نستطيع بغير ذلك؟!

بعيدًا عن شطحات وتشنجات وتدرنات الفكر العربي المهزوم والمأزوم، لا بد من الاعتراف، وقول الحقيقة، بإن هناك شرخًا واسعًا نسبيًا بين المفهوم العام عند الإنسان اليهودي، وبين المفهوم العام عند الإنسان العربي، خاصة عند اليهودي القادم إلى إسرائيل من الغرب الذي أكسبه الترحال واختلاط الثقافات، ما يمكن أن يكون نافعًا له، ويعمل على تحصينه أمام التحديات، الإنسان العربي بصفة عامة، من ناحية أخرى، يعيش الثقافة العربية الإسلامية الشرقية، ولم ينضج بعد تفاعله مع الفكر الدنيوي العالمي، ولم يتح له ما قد أتيح للفرد اليهودي بسبب أربعمائة سنة تحت الحكم العثماني الذي كان فيه معزولاً عن النهضة الغربية إلا ما ندر، في حين أن اليهود تكدسوا في أوروبا الغربية وعاشوا عصر النهضة الأوروبية الحديثة، وهذا ما جعلهم فلاسفة ومفكرين ومخترعين ومشاركين في كل ميدان، ليس لأنهم من عرق متفوق كما يدعون أحيانًا، ولكن لأنهم عاشوا في مجتمعات أعطتهم الفرص كبشر أن يبدعوا، لهذا نجد أن الفكر الصهيوني كان غنيًا منذ بدايته، وكان صلبًا منذ أن أعلن عن إنشاء الحركة الصهيونية فالدولة الإسرائيلية.

إن جوهر الفرق بين الثقافة العربية الإسلامية وبين الثقافة الصهيونية اليهودية، هو أن مجلس الحاخامية أعطى الحاخام أن يكون المرجع الديني العصري للجماعات

التي تتبعه حيث يستطيع أن يشرع في أمور الدنيا حسب قناعاته في زمن معين، فالديانة اليهودية مثلاً تبيح تعدد الزوجات، لكن حاخامات أوروبا أفتوا بعدم وجوب ذلك حتى لا يعترض عليهم ميسيحيو الغرب اللادينيين، في مقابل ذلك ظل التشريع الإسلامي كما هو منذ القرن التاسع الميلادي، واقتصر على العبادات والحلال والحرام، فكان طبيعيًا أن تنشأ الدولة الصهيونية في فلسطين كجسم عضوي غربي استعماري قوي ما دام الغرب قويًا!

إن تعدد الآراء والنظريات والمقولات والتفسيرات الصهيونية التي تصادمت إبان تشكل الحركة الصهيونية وتطورها في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، جعل الحركة الصهيونية تبنى صرحًا صلبًا متراصًا من الآراء والفلسفات، ومن القناعات والوضوح والإيمان بالهدف، وظل بناؤها يعلو ويعلو وما زال يعلو حتى يومنا هذا، لأن الفكر الصهيوني لم يهدأ ولم يستكن ولم ينم، وبمقارنة بسيطة فإن الفكر القومي العربي يتقهقر ويتراجع وينحسر وما زال، سرعان ما استيقظ في أواخر أيام الدولة العثمانية، فنجده منذ عام ١٩٤٨م وحتى لحظة كتابة هذه السطور في تراجع مستمر وعودة إلى الوراء مقارنة بالآخرين، وهو يمضي للأسف إلى الإلغاء حتى أصبح مفهوم الدولة الإقليمية العربية أقوى وأهم من مفهوم الوحدة القومية.

لقد أصبح العمل الآن على إلغاء الفكر القومي من مناهج التربية والتعليم العربية بصفة عامة إلا ما ندر في بعض المجتمعات العربية، وأصبح تاريخ دولنا العربية الإقليمية لا يتجاوز الستين عامًا للدولة الواحدة في أحسن الأحوال، هو عمر حصول الإقليم على الاستقلال بزعامة من وافق عليه من منح هذا الاستقلال.. في الوقت الذي يدعي فيه الصهاينة بأن لهم تاريخ سياسي يتجاوز ألفي عام، ولا يكلون عن تأكيده في كل يوم، ولا يكتفون بتعليمه لأبنائهم فقط بل يلقنونه للبشرية جمعاء حتى تفهمهم وتتعامل معهم وتؤيدهم في المحافل الدولية المختلفة على هذا الأساس.

لقد غاب عن العرب أن الدولة الإقليمية لا تستطيع استيعاب التغيرات الاجتماعية والسياسية والاقتصادية الداخلية والخارجية بعيدًا عن عمقها القومي التي تتجذر فيه أسس هذه التغيرات، لهذا نشأ خلاف وشوشرة وعجز واختلطت الأشياء، ولم يكن هناك تبادل للحكم بطريقة ديمقراطية، فظل الحال يحبو أو كما هو الحال.

من هنا يمكن أن نتخيل كيف أن اليهود متفوقون على العـــرب لـــيس بـــالمظهر التنظيمي والحضاري والصناعي بـــل بـــالتفوق الفكـــري، لأن لا الصـــناعة ولا الحضارة يمكن أن تتحققا إلا بالفكر الذي يقود إليهما!


الوثـــائـــق

نداء "نابليون بونابرت" ليهود العالم

من نابليون بونابرت القائد الأعلى للقوات المسلحة للجمهورية الفرنسية في أفريقيا وآسيا إلى ورثة فلسطين الشرعيين؛ "أيها الإسرائيليون، أيها الشعب الفريد، الذي لم تستطع قوى الفتح والطغيان أن تسلبه نَسَبَهُ ووجوده القومي، وإن كانت قد سلبته أرض الأجداد فقط.

إن مراقبي مصائر الشعوب الواعين المحايدين - وإن لم تكن لهم مقدرة الأنبياء مثل أشعياء ويوئيل - قد أدركوا ما تنبأ به هؤلاء بإيمانهم الرفيع أن عبيد الله (كلمة إسرائيل في اللغة العبرية تعني أسير الله أو عبد الله) سيعودون إلى صهيون وهم ينشدون، وسوف تعمهم السعادة حين يستعيدون مملكتهم دون خوف.

انهضوا بقوة أيها المشردون في التيه، إن أمامكم حربًا مهولة يخوضها شعبكم بعد أن اعتبر أعداؤه أن أرضه التي ورثها عن الأجداد غنيمة تُقسَّم بينهم حسب أهوائهم... لابد من نسيان ذلك العار الذي أوقعكم تحت نير العبودية، وذلك الخزى الذي شل إرادتكم لألفي سنة، إن الظروف لم تكن تسمح بإعلان مطالبكم أو التعبير عنها، بل إن هذه الظروف أرغمتكم بالقسر على التخلي عن حقكم، ولهذا فإن فرنسا تُقدم لكم يدها الآن حاملة إرث إسرائيل، وهي تفعل ذلك في هذا الوقت بالذات، وبالرغم من شواهد اليأس والعجز، إن الجيش الذي أرسلتني العناية الإلهية به، ويمشي بالنصر أمامه وبالعدل وراءه، قد اختار القدس مقرًّا لقيادته، وخلال بضعة أيام سينتقل إلى دمشق المجاورة التي لم تعد تُرهب مدينة داود.

يا ورثة فلسطين الشرعيين..

إن الأمة الفرنسية التي لا تُتاجر بالرجال والأوطان كما فعل غيرها، تدعوكم إلى إرثكم بضمانها وتأييدها ضد كل الدخلاء، انهضوا وأظهروا أن قوة الطغاة القاهرة

لم تُخمد شجاعة أحفاد هؤلاء الأبطال الذين كان تحالفهم الأخوي شرفًا لإسبرطة وروما، وأن معاملة العبيد التي طالت ألفي سنة لم تفلح في قتل هذه الشجاعة.

سارعوا! إن هذه هي اللحظة المناسبة - التي قد لا تتكرر لآلاف السنين - للمطالبة باستعادة حقوقكم ومكانتكم بين شعوب العالم، تلك الحقوق التي سُلبت منكم لآلاف السنين وهي وجودكم السياسي كأمة بين الأمم، وحقكم الطبيعي المطلق في عبادة إلهكم بهواه، طبقًا لعقيدتكم، وافعلوا ذلك في العلن وافعلوه إلى الأبد".

خطاب تيدور هرتزل

في المؤتمر الصهيوني الأول عام ١٨٩٧م

زملائي أعضاء الوفود..

إنني كواحد من الذين دُعوا إلى عقد هذا المؤتمر أرحب بكم، وهذا ما سأفعله باقتضاب، ذلك لأننا إذا كنا نريد أن نخدم القضية وجب علينا أن نقتصد في اللحظات القيمة للمؤتمر، فهناك الكثير من الأمور التي ينبغي تحقيقها خلال الثلاثة الأيام التي سيستمرها المؤتمر، إننا نريد أن نرسم أسس البناء الذي سيأوي يومًا ما الشعب اليهودي، إن الواجب كبير جدًّا بحيث إننا سوف نتعرض له بأبسط الأساليب، وسنعرض ملخصًا لوضع المشكلة اليهودية في خلال الأيام الثلاثة القادمة ولقد تم تصنيف المادة الضخمة الموجودة تحت أيدينا عن طريق رؤساء اللجان، وسنستمع إلى تقارير عن وضع اليهود في مختلف الأقطار، وتعلمون جميعًا ولو حتى بطريقة مشوشة أن الوضع باستثناء حالات نادرة، لا يدعو للارتياح ولو كان الوضع على غير هذا لما انعقد هذا الاجتماع، ولقد عانت وحدة مصيرنا التوقف والانقطاع الطويل بالرغم من أن الشتات المبعثر للشعب اليهودي قد تحمل في كل مكان اضطهادًا مماثلاً، وقد أدت عجائب الاتصال في وقتنا هذا إلى التفاهم المتبادل والوحدة بين الجماعات المنعزلة، وفى هذه الأيام، حيث التقدم في كل مظهر فإننا نعرف إننا محاطون بكراهية قديمة، إن العداء للسامية والذي تعرفونه جيدًا ويا للأسف هو اسم هذه الحركة.

إن أول تأثير تَرَكَهُ على يهود اليوم هو الاندهاش الذي ترك مكانه للألم والاستياء، وربما لا يُدرك أعداؤنا عمق الجرح الذي أصاب أحاسيس هؤلاء اليهود الذين لم يكونوا هدفًا أساسيًا لهجومهم، إن هذا الجزء من اليهود العصريين

والمثقفين والذين خرجوا من نطاق "الجيتو" وفقدوا عـادة الاتجـار فـي السـلع الحقيرة قد أصابهم السهم في القلب.

ومنذ التاريخ السحيق والعالم يُسيء فهمنا، فعاطفة التضامن التي كثيرًا ما نالنـا التأنيب بسببها كانت آخذة في التحلل في نفس الوقت الذي تعرضنا فيـه للعـداء للسامية، ولقد ساعد العداء للسامية على تقويتها من جديد، وعدنا إلى بيتنا (يقصد الجيتو) ذلك لأن الصهيونية هي العودة إلى الحياة اليهودية قبل أن تكون عـودة إلى الأرض اليهودية، إننا نحن الأبناء الذين عدنا، نجد الكثير الذي ينبغي تقويمه تحت سقف أجدادنا، لأن كثيرًا من إخوتنا قد انحدروا إلى قاع البؤس والشقاء.

لقد حققت الصهيونية شيئًا رائعًا كان حتى هذه اللحظة يعتبر مستحيلاً؛ ألا وهـو الاتحاد القومي بين العناصر اليهودية المُمعنة في العصرية والمُمعنة في المحافظة وكون هذا الأمر قد تحقق دون تنازلات مُشـينة مـن أي مـن الجـانبين، ودون تضحيات ثقافية لهو دليل آخر - إن كانت هناك حاجة إلى دليـل علـى الوحـدة القومية لليهود - إنَّ وحدة من هذا النوع لا يمكن أن تقوم إلا على أساس قومي، ومما لا شك فيه أنه سيكون هناك مناقشات حول موضوع إقامة منظمـة نشـعر جميعًا بالحاجة إليها، فالمنظمة هي الشاهد على معقولية "الحركـة الصـهيونية"، ولكن هناك نقطة واحدة ينبغي أن تؤكد بوضوح وقوة حتى نصل إلى حل للمشكلة اليهودية، إننا نحن الصهيونيين لا نُريد عصبة دولية بل نُريـد مناقشـة دوليـة، ولسنا بحاجة إلى القول إن التمييز بينها له الأهمية الأولى في نظرنا.

إن مثل هذا التمييز هو الذي يُبرر عقد مؤتمرنا، ولن يكون هناك مكان للمؤامرات والتدخل السري والأساليب الملتوية بين صفوفنا، بل سنفصح عن آرائنا لتكـون تحت حكم الرأي العام، وسيكون من أول نتائج حركتنا تحويل المسـألة اليهوديـة إلى مسألة خاصة بصهيون، إن حركة شعبية لها مثل هذه الأبعاد الواسعة سـوف تتعرض للهجوم من جهات عديدة ولذلك فإن المؤتمر سوف يشغل نفسه بالوسائل الروحية التي ينبغي استخدامها لإحياء وتدعيم الشعور القومي لليهود، وهنا كذلك ينبغي علينا أن نُناضل عدم الفهم، فليست لدينا أقل نية للتزحزح قيد أنملـة عـن

ثقافتنا التي اكتسبناها، وعلى العكس فإننا نهدف إلى ثقافة أوسع مثل تلك التي تجلبها زيادة المعرفة، وفي الحقيقة فإن اليهود كانوا دائمًا أكثر نشاطًا من الناحية العقلية أكثر من الناحية الجسمانية، ولما كان الرواد العمليون الأوائل للصهيونية قد أدركوا هذا فإنهم قد بدءوا العمل الزراعي لليهود، إننا لن نكون قادرين ولن نكون راغبين في التحدث عن محاولات استعمار فلسطين والأرجنتين بدون شعور العرفان بالجميل، لكنهم وضعوا اللبنات الأول للحركة الصهيونية، ذلك لأن الحركة الصهيونية ينبغي أن تكون أوسع في مداها إذا ما أريد لها أن تقوم بالفعل.

إن الشعب لا يجزى إلا على جهوده هو، وإذا لم يكن في استطاعته أن ينهض بنفسه، فإنه لن ينال العون، وإننا نحن الصهيونيين نريد أن نرتفع بالشعب إلى درجة مساعدة نفسه بنفسه، ولن نوقظ الآمال الفجة أو غير الناضجة، إن هؤلاء الذين يولُّون الأمر اهتمامهم سوف يعترفون بأن الصهيونية لن تحقق أهدافها دون التفاهم القاطع مع الوحدات السياسية المشتركة، ومن المعروف بصفة عامة أن مشاكل الحصول على حقوق الاستعمار لم تخلقها الصهيونية في وضعها الراهن، وإن الإنسان ليعجب عن الدوافع المُحركة لمروجي هذه القصص، إذ يمكن الاستحواذ على ثقة الحكومة التي نُريد التفاوض معها بخصوص توطين جماهير اليهود على نطاق واسع وذلك عن طريق اللغة البسيطة والتعامل القوي، اليهود يعرفون كيف يحسبون، في الحقيقة فقد اثبتوا إنهم يعرفون كيف يحسبون جيدًا، وهكذا فإننا إذا افترضنا أن هناك تسعة ملايين يهودي في العالم وأن في الإمكان استعمار عشرة آلاف يهودي لفلسطين كل عام، فإن المشكلة اليهودية سوف تتطلب تسعمائة عام لحلهم.

إن المزايا التي يمكن لشعب بأكمله أن يقدمها مقابل الفوائد المجنية، لهي من الكبر بحيث تُضفي على المفاوضات أهمية مُسبقة، والدخول في مُباحثات مطوَّلة اليوم بخصوص الشكل الشرعي الذي ستتخذه الاتفاقية في النهاية سوف يكون بداية عقيمة، ولكن هناك شيء واحد ينبغي الالتزام به دون تزحزح وأعني به: أن الاتفاق ينبغي أن يقوم على الحقوق وليس على التسامح، حقًا إن عندنا الخبرة

الكافية للتسامح التي يمكن أن نسحب منها في أي وقت، ومن ثم فإن المنهج المعقول الوحيد للعمل، الذي يمكن لحركتنا أن تسلكه هو العمل للحصول عن ضمانات شرعية عامة.

إن نتائج الاستعمار بالصورة التي تم بها حتى الآن لمُرضية تمامًا في حدود إمكانياتها، فقد أكدت صلاحية اليهود للعمل الزراعي، تلك الصلاحية التي كثيرًا ما كانت موضع شك، لقد أقامت هذا البرهان لكل الأوقات لكن الاستعمار في شكله الحالى ليس هو الحل ولا يمكن أن يكون الحل للمشكلة اليهودية، وينبغي أن نعترف دون تحفظ بأنها فشلت في إثارة كثير من العطف.. لماذا؟ ذلك لأن اليهود يعرفون كيف يحسبون، في الحقيقة فقد أثبتوا أنهم يعرفون كيف يحسبون جيدًا، وهكذا فإننا إذا افترضنا أن هناك تسعة ملايين يهودي في العالم وأن في الإمكان استعمار عشرة آلاف يهودي لفلسطين كل عام، فإن المشكلة اليهودية سوف تتطلب تسعمائة عام لحلها، وسوف يبدو هذا غير عملي ومن جهة أخرى فإنكم تعلمون أن الاعتماد على عشرة آلاف مستوطن في العام في ظل الظروف القائمة لأمر خرافي، ولا شك أن الحكومة التركية سوف تُعيد القيود القديمة في الحال، وإننا بالنسبة لهذه النقط فاعتراضنا ضئيل، فإذا كان أحد يعتقد أن في استطاعة اليهود التسلل إلى أرض آبائهم فإما أنه يخدع نفسه أو يخدع الآخرين، وليس هناك مكان يتكشف فيه مقدم اليهود بسرعة كما هو الحال بالنسبة للوطن التاريخي لهذا الجنس (الجنس اليهودي)، ولن يكون من مصلحتنا الذهاب هناك قبل الأوان.

إن هجرة اليهود ستبدأ إنعاشًا للأرض الفقيرة، بل وفى الحقيقة فهي إنعاش للإمبراطورية العثمانية بأكملها، وإلى جانب ذلك فإن صاحب العظمة السلطان له خبرات رائعة مع رعاياه من اليهود، وكان هو بدوره عاهلاً رفيقًا بهم، وهكذا فإن الأحوال القائمة تشير إلى نتائج ناجحة شريطة أن يُعالج الموضوع كله بذكاء وسلاسة، إن المساعدات المالية التي يمكن لليهود أن يقدموها لتركيا ليست بالشيء اليسير وسوف تعمل على القضاء على كثير من الأمراض الداخلية التي

تعانى منها البلد الآن، فإذا ما حلت مشكلة الشرق الأدنى بصورة جزئية إلى جانب حل المشكلة اليهودية فإنها ستعود بالفائدة المؤكدة لجميع الشعوب المتحضرة، إن مقدم اليهود سوف ينجم عنه تحسن في موقف المسيحيين في الشرق، ولكن ليس من أجل هذا المظهر وحده سوف تعتمد الصهيونية علـــى عطـــف الأمـــم، إنكـــم تعلمون أن المشكلة اليهودية قد أصبحت تعني في بعض الأقاليم مصيبة وكارثـــة للحكومة، فإذا ما هي أخذت جانب اليهود فإنها ستواجه بسخط الجماهير، وإذا ما هي وقفت ضد اليهود، فإنها ستنزل على رأسها عواقب اقتصادية كبيرة ذلك نظرًا لنفوذ اليهود الفريد على الأعمال في العالم.

إننا قد نجد أمثلة على هذا الأخير في روسيا، لكن إذا ما وقفت الحكومـــة موقفًـــا محايدًا، فإن اليهود سيجدون أنفسهم قد تعروا عن حماية النظام القائم ومنـــدفعين إلى أحضان الثوريين، وتُشير الصهيونية إلى الطريق للخروج من هذه المصاعب العديدة الفريدة.. إن الصهيونية ببساطة هي حركة صانعة للسلام وهـــي تعـــاني نفس حظ حركات السلام في كونها مضطرة إلى أن تحارب أكثر مـــن أي حركـــة أخرى، ولن نتكلم أبدا عن موضوع "خروج" اليهود جميعًا، فإن هؤلاء القـــادرين أو الراغبين في الاندماج سوف يتركون حيث يمتصون، وعندما يتم التوصل إلـــى اتفاق مرض مع الوحدات السياسية المختلفة المشتركة وتبدأ هجرة يهودية منظمة فإنها سوف لن تستمر في أي بلد أطول مما يرغب هذا البلد فـــي الـــتخلص مـــن اليهود، ولكن كيف يوقف التيار؟ سيتم ذلك ببساطة عن طريق الإقلال التـــدريجي من العداء للسامية حتى تتوقف نهائيًا.

لقد قيل هذا مرارًا وتكرارًا على لسان أصدقائي، وإننا سوف لا نألو جهـــدًا فـــي تكراره مرات ومرات حتى يفهمونا، وفى هذه المناسبة الجليلة حيث جاء اليهـــود من أراض كثيرة تلبية لدعوة القومية القديمة علينا أن نردد إيماننا، أو لن تهزنا الأحداث الجسام عندما نتذكر أن آمال الآلاف المؤلفة مـــن شـــعبنا تعتمـــد علـــى اجتماعنا هذا، وعندما تحين الساعة فإن أخبار دراساتنا وقراراتنا ســـوف تطيـــر عبر البحار السبع إلى البقاع البعيدة، ولذلك فإن التثقيف والسلوى سوف ينطلقان

من هذا المؤثر، فلنترك لكل فرد أن يعثـر بنفسـه علـى حقيقـة الصـهيونية، الصهيونية التي شاع عنها إنها معجزة، وإنها حركة أخلاقية وقانونية وإنسـانية موجهة إلى تحقيق حكم الشعب القديم، وقد يكون من الجائز ومن الممكن تجاهـل ما ينطق به الأفراد من صفوفنا، لكن ليس هذا بمستطاع بالنسبة لأفعال المـؤتمر ولذلك فإن المؤتمر الذي ينبغي عليه أن يكون واليًا على مناقشاته ينبغي أن يحكم كوال حكيم.

وتم تأسيس مكتبة مالية لجمع الاشتراكات الصهيونية السنوية من جميع اليهـود في العالم، إلى جانب فتح المصرف اليهودي الاستعماري برأسمال بلـغ مليـوني جنيه استرليني، ووضع المؤتمر برنامجًا سارت عليه جميـع المـؤتمرات التـي عُقدت بعد ذلك، وأخيرًا فإن المؤتمر سوف يُهيىء السـبيل لاسـتمراره حتـى لا نتفرق مرة أخرى لنُصبح غير مؤثرين، ومن خلال هذا المؤتمر فإننا نُقيم وكالـة للشعب اليهودي لم يسبق أن كان له مثلها من قبل، والتي أصـبح فـي مسـيس الحاجة إليها.

إن قضيتنا أصبحت من الكِبر بحيث لا يمكن تركهـا لأطمـاع ونـزوات الأفـراد، وينبغي أن نرتفع بها إلى مستوى اللا فردية إذا ما كنا نريد لها النجاح، وسيبقى مؤتمرنا إلى الأبد، ولن يستمر حتى يُحقق خلاصنا من آلامنا التي عانينـا منهـا طويلاً، بل سيستمر إلى ما بعد ذلك، إننا اليوم في ضيافة هذه المدينـة الحـرة - ولكن أين سنكون في العام المقبل؟ ولكن أينما سنكون، وأيًا كانت منجزاتنا فليكن مؤتمرنا واسع الأفق ومصدرًا لرفاهية الأشقياء ومصدر فخـر لليهـود جميعًـا، وليكن جديرًا بماضينا الذي عُرفنا به على مر العصور.

مذكرة "لورد بالمرستون" للسفير البريطاني في تركيا

يقوم بين اليهود الآن المبعثرين في كل أوروبا؛ شعور قوي بأن الوقت الذي ستعود فيه أمتهم إلى فلسطين آخذ في الاقتراب، ومن المعروف جيدًا أن يهود أوروبا يمتلكون ثروات كبيرة، ومن الواضح أن أي قطر يختار أعدادًا كبيرة من اليهود أن يستوطنوه سيحصل على فوائد كبيرة من الثروات التي سيجلبها معهم هؤلاء اليهود، فإذا عاد الشعب اليهودي تحت حماية ومباركة السلطان فسيكون في هذا حائلاً بين محمد علي ومن يخلفه وبين تحقيق خطته الشريرة في المستقبل.

وحتى إذا لم يؤدِ هذا التشجيع الذي سيقدمه السلطان لليهود بالفعل إلى استيطان عدد كبير منهم في حدود الإمبراطورية العثمانية، إلا أن إصدار قانون من هذا النوع سيعمل على انتشار روح الصداقة تجاه السلطان بين جميع يهود أوروبا، وسترى الحكومة التركية في الحال كم سيكون مفيدًا لقضية فلسطين أن يكسب أصدقاء مفيدين في كثير من الأقطار بقانون واحد بسيط كهذا.

رسالة- هرتزل إلى السلطان عبد الحميد الثاني

١٧ يونيه ١٩٠١م

"اتباعًا للخط الذي رأى جلالتكم من المناسب اقتراحه عليَّ اعتقدت أن من الواجب الحصول على مليون ونصف المليون جنيه تركي حالاً لتأخذ محل مهمة تصــفية الديْن، وهى المهمة الصعبة إن لم نقل المستحيلة والتدبير الذي عملته وأصدقائي هو حسبما يلي: يمكن جمع المليون ونصف المليون جنيه تركي بإنشـــاء مصـــدر جديد للدخل حالاً، لكنه يجب أن يكون من نوع يجعل اليهود يُــدركون المشـــاعر الكريمة جدًا التي يكنها صاحب الجلالة تجاههم في قلبه الحنون، بهــذه الطريقـــة سوف نعد الطريق للإجراءات العتيدة.

من أجل هذه الغاية أصدقائي مستعدون لتأسيس شركة مشتركة الأســهم، يبلـــغ رأسمالها خمسة ملايين جنيه تركي هدفها تنمية الزراعة والصـــناعة والتجـــارة، وباختصار الحياة الاقتصادية في آسيا الصـــغرى وفلســـطين وســـورية، ومقابـــل الامتيازات الضرورية التي تمنحها جلالتكم سوف تدفع الشركة اشـــتراكًا ســـنويًا بستين ألف جنيه تركي لحكومة جلالتكم وعلى أساس هذا الاشـــتراك المضـــمون برأسمال الشركة، يمكن الشروع بقرض يستهلك في واحدة وثمانين سنة لن يُكلف هذا القرض شيئًا، لأن الشركة ستمتص الفائدة والاستهلاك وهي التـــي ســـتأخذ السندات ثم تستبدلها، وما على الحكومة إلا أن تسحب مليونًا ونصـــف المليـــون جنيه تركي، ومفهوم بالطبع أن الشركة ستسجل في تركيا وأن المهاجرين اليهود الذين سوف تستقدمهم سيصبحون رأسًا رعايا أتراك خاضعين للخدمة العســـكرية تحت راية جلالتكم المجيدة.

سيتاح الوقت بهذا المليون ونصف المليون جنيه لدرس الموارد الأخرى للـــدخل ولاستثمارها، وقد تفضلتم جلالتكم بذكر الكبريت، إن بين أصدقائى من يقـــدر أن

يتولى المشروع، وبينهم من يستعد لبذل كل جهد لتقديم أفضل الشروط لجلالتكم لتستعمل مداخيل الكبريت كأساس لقروض أخرى بدون إرهاق دافع الضريبة كثيرًا، الأسلوب نفسه يستعمل في استغلال مصادر النفط والمناجم والقوى الكهربائية.

سوف توضع عروض هذه المشاريع الأخرى بالتفصيل وتقدر حالما تأمرون جلالتكم أما مسألة الكبريت فيمكن الاتفاق عليها الآن بينما المسائل الأخرى تحتاج إلى مزيد من الدرس، وأسمح لنفسي أن أضيف إلى ذلك أن خدماتي الخالية من أية مصلحة في هذه المشاريع هي تحت تصرف جلالتكم حتى وإن كنتم لا تعتقدون أن من المناسب البدء الآن وهنا في مشروع الشركة العثمانية - اليهودية الكبيرة في آسيا الصغرى، وفوق كل شئ عليَّ أن أبرهن لجلالتكم أنني خادم غيور ومُخلص، لا اسأل في عملي لجلالتكم إلا شرف استعادة ثقة جلالتكم في لأني مقتنع أنه في وقت غير بعيد ستدركون أنه من مصلحة الإمبراطورية العثمانية أن تجتذبوا الموارد الاقتصادية اليهودية لحماية شعبنا المسكين، ثم إنه لمن مصلحة اليهود أن يجدوا تركيا دولة قوية ومزدهرة، إنها فكرة حياتي.

سيكون لمشروع الشركة العثمانية - اليهودية ولإعطاء الإشارة للشعب اليهودي بأسره فائدة أخرى، وهي أن دافعي الضرائب بشرًا وممتلكات سيزدادون في كل المناطق التي ستعمل الشركة فيها، وستدفع الشركة المزيد من الضرائب بنمو عملها وسيتدفق رأس المال اليهودي من كل زاوية ليوطد نفسه هناك وليبقى في الإمبراطورية، وفي الوقت نفسه سيسير هذا العمل الهادئ الذي سمي "سَحبْ شوكة الأسد" بدون معرفة أولئك الذين يريدون خراب الإمبراطورية.

تبقى كلمة واحدة؛ إذا شئتم جلالتكم أن يدبر المليون ونصف المليون جنيه قبل تشرين الأول فإن الوقت يمر بسرعة، ويجب ألا ننسى أن رجال المال والأعمال يطلبون اتفاقات محدودة ليدفعوا المبالغ اللازمة، يجب أن نتوقع ثلاثة أشهر قبل تسلم المبالغ كلها، فإذا ارتأت حكمة جلالتكم العظيمة الدخول في هذه المفاوضات لتسلم المليون ونصف المليون جنيه قبل شهر تشرين الأول يجب تحديد

الامتيازات للشركة الكبيرة في أوائل تموز، وإني لآتى إلى القسـطنطينية بـدون تأخير إذا أمرتم بذلك.

لست أعلم إذا كان يحق لي أن اذكر موضوعًا أخيرًا وأنا أذكره بتردد، راغبًا في عدم إزعاج جلالتكم بأي طريقة كانت، جاء أحدهم ليخبرني أنه يوجد كاتب في باريس اسمه أحمد رضا عُرف بهجماته على الحكومة الإمبراطورية، وقد علمت بوجود سبيل لتوقف هذه الحملات، وقد أخذتُ علمًا بهذا الأمر دون أن ألزم نفسي بأي شكل، لأنه ليس من عملي أن أخوض أمورًا كهذه، أنا الحريص على خدمة جلالتكم المعظمة في كل فرصة لن أفعل شيئًا بدون أمر، بل إني لـن أرى الرجـل بدون تفويض، لكن إذا ارتأت جلالتكم سأقوم بالأمر، وطبيعي أني لن أطلب مقابل إيقاف هذه الحملات تعويضًا إلا كلمة ثناء من جلالتكم وهي عندي أعظم تعويض".

- وثائق تاريخية فلسطينية -

رسالة أخرى من "هرتزل" إلى السلطان عبد الحميد

ترغب جماعتنا في عرض قرض متدرج من عشرين مليون جنيه استرليني يقـوم على الضريبة التي يدفعها اليهود المستعمرون في فلسطين إلى جلالته، تبلغ هذه الضريبة التي تضمنها جماعتنا مائة ألف جنيه استرليني في السنة الأولى وتزداد إلى مليون جنيه استرليني سنويًا، ويتعلق هذا النمو التدريجي في الضريبة بهجرة اليهود التدريجية إلى فلسطين، أما سير العمل فيتم وضعه في اجتماعات شخصية تُعقد في القسطنطينية، ومقابل ذلك يهب جلالته الامتيازات التالية:

الهجرة اليهودية إلى فلسطين، التي لا نريدها غير محدودة فقط، بل تشجعها بكل وسيلة ممكنة، وتُعطي المهاجرين اليهود الاستقلال الذاتي المضمون في القـانون الدولي، في الدستور والحكومة وإدارة العدل الغي تُقَرِّرُ لهم، (دولة شبه مستقلة في فلسطين)، ويجب أن يقرر في مفاوضات القسطنطينية الشكل المفصـل الـذي ستمارس به حماية السلطات في فلسطين اليهودية وكيف سيحفظ اليهود أنفسـهم

النظام والقانون بواسطة قوات الأمن الخاصة بهم، قد يأخذ الاتفاق الشكل التالي؛ يصدر جلالته دعوة كريمة إلى اليهود للعودة إلى أرض آبـائهم، سـيكون لهـذه الدعوة قوة القانون وتُبَلَّغُ بها الدول مسبقًا".

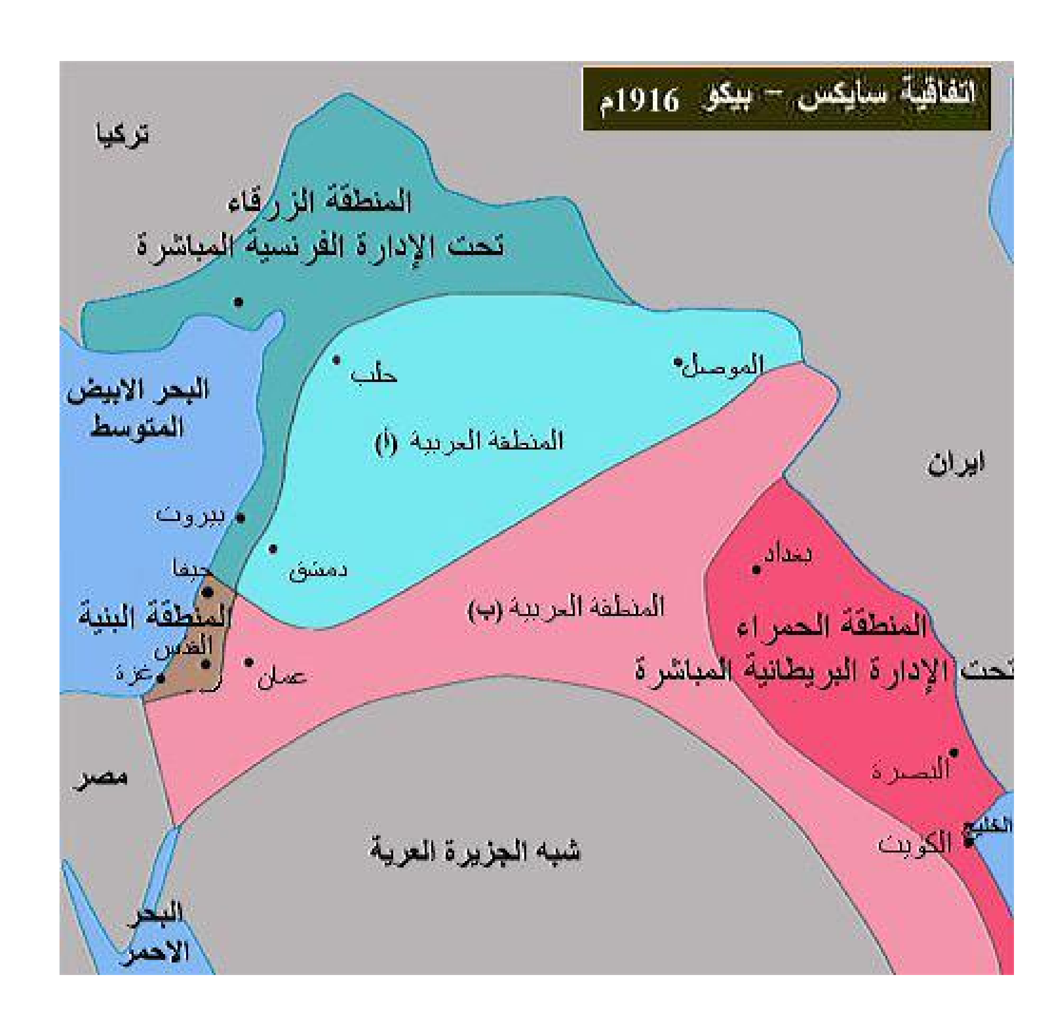
رفض السلطان عبد الحميد مطالب هرتزل ومما ورد عنه في ذلك قوله :

"إذ أن الإمبراطورية التركية ليست ملكًا لي وإنما ملك للشـعب التركـي، فلـيس والحال كذلك أن أهب أي جزء فيها... فليحتفظ اليهود بملايينهم في جيوبهم.. فإذا قُسّمت الإمبراطورية يومًا ما، فقد يحصلون على فلسـطين دون مقابـل، ولكـن التقسيم لن يتم إلا على أجسادنا.

هذا، ومن أقوال السلطان عبد الحميد في مذكراته سنة ١٨٩٣م: "لكي نعمل على إسكان الأراضي الخالية من إمبراطوريتنا، يتوجب تنظيم الهجرة بشكل مناسـب، لكننا لا يمكننا القول بإن الهجرة اليهودية شكل مناسب".

وفي سنة ١٨٩٥م- قال السلطان: "لليهود قوة في أوروبا أكثر من قـوتهم فـي الشرق، لهذا فإن أكثر الدول الأوروبية تُحبذ هجرة اليهود إلى فلسطين لتـتخلص من العرق السامي الذي زاد كثيرًا، ولكن لدينا عدد كاف من اليهود، فإذا كنا نريد أن يبقى العنصر العربي متفوقا، فإن علينا أن نصرف النظر عن فكـرة تـوطين المهاجرين في فلسطين وإلا فإن اليهود إذا استوطنوا أرضًا تملكوا كافة قـدراتها خلال وقت قصير، وبأننا نكون قد حكمنا على إخواننا في الدين بالموت المحتم".

اتفاقية سايكس – بيكو ١٩١٦ م



بموجب التقسيم حصلت فرنسا على الجزء الأكبر من الجناح الغربي من الهلال الخصيب سوريا ولبنان، وعلى جزء كبير من جنوب الأناضول ومنطقة الموصل في العراق.

أما بريطانيا فامتدت مناطق سيطرتها من طرف بلاد الشام الجنوبي متوسعًا بالاتجاه شرقا، لتضم بغداد والبصرة وجميع المناطق الواقعة بين الخليج العربي والمنطقة الفرنسية في سوريا، كما تقرر أن تقع المنطقة التي اقتطعت فيما بعد من جنوب سوريا وعُرفت بفلسطين تحت إدارة دولية يتم الاتفاق عليها بالتشاور بين بريطانيا وفرنسا وروسيا، ولكن الاتفاق نص على منح بريطانيا مينائي حيفا وعكا على أن يكون لفرنسا حرية استخدام ميناء حيفا، ومنحت فرنسا لبريطانيا بالمقابل استخدام ميناء الاسكندرونة الذي كان سيقع في حوزتها.

المادة الأولى:

إن فرنسا وبريطانيا العظمى مستعدتان أن تعترفا وتحميا دولة عربية برئاسة رئيس عربي في المنطقتين "آ" (داخلية سوريا) و"ب" (داخلية العراق) المُبينة في الخريطة (الصورة)، يكون لفرنسا في منطقة (آ)، ولإنجلترا في منطقة (ب) حق الأولوية في المشروعات والقروض المحلية، وتنفرد فرنسا في منطقة (آ) وإنجلترا في منطقة (ب) بتقديم المستشارين والموظفين الأجانب بناء على طلب الحكومة العربية أو حلف الحكومات العربية.

المادة الثانية:

يباح لفرنسا في المنطقة الزرقاء (سوريا الساحلية) ولإنكلترا في المنطقة الحمراء (منطقة البصرة) إنشاء ما ترغبان به من شكل الحكم مباشرة أو بالواسطة أو من المراقبة، بعد الاتفاق مع الحكومة أو حلف الحكومات العربية.

المادة الثالثة:

تنشأ إدارة دولية في المنطقة البنية (فلسطين)، يُعيَّن شكلها بعد استشارة روسيا وبالاتفاق مع بقية الحلفاء وممثلي شريف مكة.

المادة الرابعة:

تنال إنكلترا ما يلي:

١ - مينائي حيفا وعكا.

٢ - يُضمن مقدار محدود من مياه دجلة والفرات في المنطقة (آ) للمنطقة (ب)، وتتعهد حكومة جلالة الملك من جهتها بألا تتخلى في أي مفاوضات ما مع دولة أخرى للتنازل عن جزيرة قبرص إلا بعد موافقة الحكومة الفرنسية مقدمًا.

المادة الخامسة:

تكون اسكندرونة ميناء حرًا لتجارة الإمبراطورية البريطانية، ولا تنشأ معاملات مختلفة في رسوم الميناء، ولا تُفرض تسهيلات خاصة للملاحة والبضائع البريطانية، وتباح حرية النقل للبضائع الإنجليزية عن طريق اسكندرونة وسكة الحديد في المنطقة الزرقاء، سواء كانت واردة إلى المنطقة الحمراء أو إلى المنطقتين (آ) و(ب) أو صادرة منهما، ولا تنشأ معاملات مختلفة مباشرة أو غير مباشرة على أي من سكك الحديد أو في أي ميناء من موانئ المناطق المذكورة تمس البضائع والبواخر البريطانية.

تكون حيفا ميناء حرًا لتجارة فرنسا ومستعمراتها والبلاد الواقعة تحت حمايتها، ولا يقع اختلاف في المعاملات ولا يُرفض إعطاء تسهيلات للملاحة والبضائع الفرنسية، ويكون نقل البضائع حرًا بطريق حيفا وعلى سكة الحديد الإنجليزية في المنطقة السمراء (فلسطين)، سواء كانت البضائع صادرة من المنطقة الزرقاء أو الحمراء، أو من المنطقتين (آ) و(ب) أو واردة إليها، ولا يجري أدنى اختلاف في المعاملة بطريق مباشر أو غير مباشر يمس البضائع أو البواخر الفرنسية في أي سكة من سكك الحديد ولا في ميناء من الموانئ المذكورة.

المادة السادسة:

لا تمد سكة حديد بغداد في المنطقة (آ) إلى ما بعد الموصل جنوبًا، ولا إلى المنطقة (ب) إلى ما بعد سامراء شمالاً، إلى أن يتم إنشاء خط حديدي يصل بغداد بحلب مارًا بوادي الفرات، ويكون ذلك بمساعدة الحكومتين.

المادة السابعة:

يحق لبريطانيا العظمى أن تُنشئ وتُدير وتكون المالكة الوحيد لخط حديدي يصل حيفا بالمنطقة (ب)، ويكون لها ما عدا ذلك حق دائم بنقل الجنود في أي وقت كان على طول هذا الخط، ويجب أن يكون معلومًا لدى الحكومتين أن هذا الخط يجب أن يسهل اتصال حيفا ببغداد، وأنه إذا حالت دون إنشاء خط الاتصال في المنطقة البنية مصاعب فنية أو نفقات وافرة لإدارته تجعل إنشاءه متعذرًا، فإن الحكومة الفرنسية تسمح بمروره في طريق بربورة - أم قيس - ملقا - إيدار - غسطا - مغاير إلى أن يصل إلى المنطقة (ب).

المادة الثامنة:

تبقى تعريفة الجمارك التركية نافذة عشرين سنة في جميع جهات المنطقتين الزرقاء والحمراء في المنطقتين (آ) و(ب)، فلا تُضاف أية علاوة على الرسوم، ولا تُبدل قاعدة التثمين في الرسوم بقاعدة أخذ العين، إلا أن يكون باتفاق بين الحكومتين، ولا تنشأ جمارك داخلية بين أي منطقة وأخرى في المناطق المذكورة أعلاه، وما يفرض من رسوم جمركية على البضائع المرسلة يدفع في الميناء ويعطى لإدارة المنطقة المرسلة إليها البضائع.

المادة التاسعة:

من المتفق عليه أن الحكومة الفرنسية لا تُجري مفاوضة في أي وقت للتنازل عن حقوقها، ولا تُعطي ما لها من الحقوق في المنطقة الزرقاء لدولة أخرى سوى

للدولة أو لحلف الدول العربية، بدون أن توافق على ذلك مقدمًا حكومة جلالة الملك التي تتعهد بمثل ذلك للحكومة الفرنسية في المنطقة الحمراء.

المادة العاشرة:

تتفق الحكومتان الإنجليزية والفرنسية، بصفتهما حاميتين للدولة العربية، على أن لا تمتلكا ولا تسمحا لدولة ثالثة أن تمتلك أقطارًا في شبه جزيرة العرب، أو تنشئ قاعدة بحرية على ساحل البحر المتوسط الشرقي، على أن هذا لا يمنع تصحيحًا في حدود عدن قد يصبح ضروريًا بسبب عداء الترك الأخير.

المادة الحادية عشرة:

تستمر المفاوضات مع العرب باسم الحكومتين بالطرق السابقة نفسها لتعيين حدود الدولة أو حلف الدول العربية.

المادة الثانية عشرة:

من المتفق عليه ما عدا ذكره أن تنظر الحكومتان في الوسائل اللازمة لمراقبة جلب السلاح إلى البلاد العربية.

الدول والكيانات السياسية التي ورثت الحدود المرسومة بموجب هذه الاتفاقية أو الاتفاقيات الناجمة عنها:

- العراق، استقل عام ١٩٣٢م.
- منطقة الانتداب الفرنسي على سوريا:
  - سوريا، استقلت فعليًا عام ١٩٤٦م.
  - لبنان، استقل ككيان مستقل عن سوريا عام ١٩٤٣م.
- منطقة الانتداب البريطاني على فلسطين:
  - الأردن، استقل ككيان مستقل عن سوريا الكبرى وبعدها عن فلسطين عام ١٩٤٦م (كانت منطقة حكم ذاتي منذ ١٩٢٢م).

o فلسطين، انتهى مفعول صك انتداب عصبة الأمم على فلسطين يوم ١٤ أيار ١٩٤٨م، وجلى البريطانيون عنها، لكن في اليوم التالي أعلن قيام دولة إسرائيل فوق أجزاء كبيرة من حدود الانتداب البريطاني على فلسطين وبدأ الصراع العربي الإسرائيلي.

o في عام ١٩٩٤، قامت السلطة الوطنية الفلسطينية كسُلطة شبه مستقلة تأسست وورثت أجزاء ضيقة من حدود الانتداب البريطاني السابق على الضفة الغربية لنهر الأردن ومنطقة غزة التي كانت تتبع مصر إداريًا.

بعد التوقيع المبدئي على الاتفاقية، اطَّلع السير "مارك سايكس" على المذكرة التي وزعها هربرت صمويل على أعضاء الوزارة البريطانية يقترح فيها أن تتبنى انجلترا المشروع الصهيوني، وقد اكتشف سايكس على التو أنه لو تبنَّت انجلترا المشروع الصهيوني، فإن هذا سيوفر لها موطئ قدم راسخًا في الشرق الأوسط، واكتشف سايكس أن بوسعه استخدام الصهاينة في التخلص من الجزء الخاص بوضع فلسطين تحت إدارة دولية (أي فرنسية إنجليزية)، ومما له دلالته أن القيادة الصهيونية لم تكن تعرف شيئًا عن الاتفاق السري هذا أي أن القرار دائمًا قرار استعماري يتم توظيف الصهاينة لاحقًا، ولم يعرف وايزمان عن الاتفاق إلا في ١٦ أبريل ١٩١٧م من تشارلز سكوت رئيس تحرير المانشستر جارديان، وقد تقرَّر أن يُعبِّر الصهاينة عن رغبتهم في أن تكون فلسطين تحت حكم انجلترا وحسب وألا تُقسَّم، وبالفعل قام الصهاينة بما طُلب منهم، وقام سوكولوف بمقابلة بيكو وعبَّر له عن وجهة النظر الصهيونية، وأكد له أن الدولة الصهيونية لن تضر بمصالح فرنسا، ولكن العنصر الحاسم في تغيير وجهة النظر الفرنسية لم يكن الضغوط الصهيونية وإنما وصول القوات البريطانية تحت قيادة الجنرال أللنبى إلى فلسطين واستيلائهم عليها دون عون القوات الفرنسية، كما أن اندلاع الثورة البلشفية وانسحاب روسيا من الحرب غيَّر الصورة تمامًا، وقد انتهى الأمر بأن تنازلت فرنسا عن فلسطين لانجلترا، وقد شارك سايكس بشكل أساسي في الصياغة النهائية لوعد بلفور.

وعد بلفور

وزارة الخارجية ٢ من نوفمبر ١٩١٧م

عزيزي اللورد "روتشلد"

يسرني جدًّا أن أبلغكم بالنيابة عن حكومة صاحب الجلالة التصريح التالي الذي ينطوي على العطف على أماني اليهود والصهيونية، وقد عرض على الوزارة وأقرّته:

"إن حكومة صاحب الجلالة تنظر بعين العطف إلى تأسيس وطن قومي للشعب اليهودي في فلسطين، وستبذل غاية جهدها لتسهيل تحقيق هذه الغاية، على أن يكون مفهومًا بشكل واضح أنه لن يؤتى بعمل من شأنه أن ينتقص الحقوق المدنية والدينية التي تتمتع بها الطوائف غير اليهودية المقيمة الآن في فلسطين، ولا الحقوق أو الوضع السياسي الذي يتمتع به اليهود في البلدان الأخرى، وسأكون ممتنًا إذا ما أحطتم اتحاد الهيئات الصهيونية علمًا بهذا التصريح .

المخلص

آرثر بلفور

مراسلات الشريف حسين - مكماهون

رسالة الشريف حسين الأولى ١٤ يوليو ١٩١٥م.

بسم الله الرحمن الرحيم

لصاحب السعادة والرفعة نائب جلالة الملك بمصر، سلمه الله..



الشريف حسين بن علي ١٨٥٤ - ١٩٣١م

أقدم لجنابكم العزيز أحسن تحياتي الودية واحتراماتي، وأرجو أن تعملوا كل ما في وسعكم لتنفيذ المذكرة المرسلة إليكم طيه المتضمنة الشروط المقترحة المتعلقة بالقضية العربية، وأود بهذه المناسبة أن أصرح لحضرتكم ولحكومتكم أنه ليس هناك حاجة لأن تشغلوا أفكاركم بآراء الشعب هنا، لأنه بأجمعه ميال إلى حكومتكم بحكم المصالح المشتركة.

ثم يجب ألا تتعبوا أنفسكم بإرسال الطيارات أو رجال الحرب لإلقاء المناشير وإذاعة الشائعات، كما كنتم تفعلون من قبل، لأن القضية قد قررت الآن، وإني لأرجوكم هنا أن تفسحوا المجال أمام الحكومة المصرية لتُرسل الهدايا المعروفة من الحنطة للأراضي المقدسة "مكة والمدينة" التي أوقف إرسالها منذ العام الماضي، وأود أن ألفت نظركم إلى أن إرسال هدايا هذا العام، والعام الفائت، سيكون له أثر فعال في توطيد مصالحنا المشتركة وأعتقد أن هذا يكفي لإقناع رجل ذكي مثلك أطال الله بقاءكم.

حاشية:

أرجو ألا تُزعجوا أنفسكم بإرسال أي رسالة قبل أن تروا نتائج أعمالنا هنا، خلال الجواب على مذكرتنا وما تتضمنه، ونرجو أن يكون هذا الجواب بواسطة رسولنا كما نرجو أن تعطوه بطاقة منكم ليسهل عليه الوصول إليكم عندما نجد حاجة لذلك، والرسول موثوق به.

المذكرة:

لمَّا كان العرب بأجمعهم دون استثناء – قد قرروا في الأعوام الأخيرة أن يعيشوا وأن يفوزوا بحريتهم المطلقة، وأن يتسلموا مقاليد الحكم نظريًا وعمليًا بأيديهم، ولمَّا كان هؤلاء قد شعروا وتأكدوا أنه من مصلحة حكومة بريطانيا العظمى أن تُساعدهم وتُعاونهم للوصول إلى أمانيهم المشروعة، وهي الأماني المؤسسة على بقاء شرفهم، وكرامتهم وحياتهم... ولمَّا كان من مصلحة العرب أن يفضلوا مساعدة حكومة بريطانيا عن أية حكومة أخرى بالنظر لمركزها الجغرافي، ومصالحهم الاقتصادية وموقفهم من حكومة بريطانيا، إنه بالنظر لهذه الأسباب كلها يرى الشعب العربي إنه من المناسب أن يسأل الحكومة البريطانية إذا كانت ترى من المناسب أن تصادق بواسطة مندوبيها أو ممثليها على الاقتراحات الأساسية الآتية:

أولاً: أن تعترف انجلترا باستقلال البلاد العربية من مرسين - إذنه، حتى الخليج الفارسي شمالاً، ومن بلاد فارس حتى خليج البصرة شرقًا، ومن المحيط الهندي للجزيرة جنوبًا، يستثنى من ذلك عدن التي تبقى كما هي - ومن البحر الأحمر والبحر المتوسط حتى سينا غربًا، على أن توافق انجلترا أيضًا على إعلان خليفة عربي على المسلمين.

ثانيًا: تعترف حكومة الشريف العربية بأفضلية انجلترا في كل مشروع اقتصادي في البلاد العربية، إذا كانت شروط تلك المشاريع متساوية.

ثالثًا: تتعاون الحكومتان الإنجليزية والعربية في مجابهة كل قوة تُهاجم أحد الفريقين وذلك حفظًا لاستقلال البلاد العربية، وتأمينًا لأفضلية انجلترا الاقتصادية فيها على أن يكون هذا التعاون في كل شيء في القوة العسكرية والبحرية والجوية.

رابعًا: إذا تعدى أحد الفريقين على بلد ما ونشب بينه وبينها عراك وقتال، فعلى الفريق الآخر أن يلزم الحياد، على أن هذا الفريق المعتدى إذا رغب في اشتراك الفريق الآخر معه ففي وسع الفريقين أن يجتمعا معًا وأن يتفقا على الشروط.

خامسًا: مدة الاتفاق في المادتين الثالثة والرابعة من هذه المعاهدة خمس عشرة سنة، وإذا شاء أحد الفريقين تجديدها عليه أن يُطلع الفريق الآخر على رغبته قبل انتهاء مدة الاتفاقية بعام(*).

هذا ولما كان الشعب العربي بأجمعه قد اتفق والحمد لله على بلوغ الغاية وتحقيق الفكرة مهما كلفه الأمر، فهو يرجو الحكومة البريطانية أن تجيبه سلبًا أو إيجابًا في خلال ثلاثين يومًا من وصول هذا الاقتراح، وإذا انقضت هذه المدة ولم يتلق من الحكومة جوابًا فإنه يحفظ لنفسه حرية العمل كما يشاء، وفوق هذا فإننا نحن عائلة الشريف نعتبر أنفسنا - إذ لم يصل الجواب - أحرارًا في القول والعمل من كل التصريحات، والوعود السابقة التي قدمناها بواسطة علي أفندي.

جواب السير مكماهون في ٣٠ أغسطس ١٩١٥م.

من السير هنري مكماهون، إلى الشريف حسين، ٣٠ أغسطس ١٩١٥ إلى السيد الحسيب النسيب سلالة الأشراف وتاج الفخار وفرع الشجرة المحمدية والدوحة القرشية الأحمدية صاحب المقام الرفيع والمكانة السامية السيد ابن السيد والشريف بن الشريف السيد الجليل المبجل دولتلو الشريف حسين سيد الجميع أمير مكة المكرمة قبلة العالمين ومحط رجال المؤمنين الطائعين عمت بركته الناس أجمعين.

بعد رفع رسوم وافر التحيات العاطرة والتسليمات القلبية الخالصة من كل شائبة، نعرض أن لنا الشرف بتقديم واجب الشكر لإظهاركم عاطفة الإخلاص وشرف الشعور والاحساسات نحو الإنجليز، وقد يسرنا علاوة على ذلك أن نعلم أن سيادتكم ورجالكم على رأي واحد وأن مصالح العرب هي نفس مصالح الإنجليز والعكس بالعكس، ولهذه النسبة فنحن نؤكد لكم أقوال فخامة اللورد كتشنر التي وصلت إلى سيادتكم عن يد علي أفندي، وهي التي كان موضحًا بها رغبتنا في استقلال بلاد العرب وسكانها مع استصوابنا للخلافة العربية عند إعلانها، وإنا نصرح هنا مرة أخرى أن جلالة ملك بريطانيا العظمى يُرحب باسترداد الخلافة إلى يد عربي صميم من فروع تلك الدوحة النبوية المباركة.

وأما من خصوص مسألة الحدود والتخوم فالمفاوضة فيها تظهر أنها سابقة لأوانها، وتصرف الأوقات سدى في مثل هذه التفاصيل في حالة أن الحرب دائرة رحاها، ولأن الأتراك أيضًا لا يزالون مُحتلين لأغلب تلك الجهات احتلالاً فعليًا وعلى الأخص ما علمناه، وهو مما يدهش ويحزن أن فريقًا من العرب القاطنين في تلك الجهات نفسها قد غفل وأهمل هذه الفرصة الثمينة التي ليس أعظم منها، وبدل إقدام ذلك الفريق على مساعدتنا نراه قد مد يد المساعدة إلى الألمان، نعم مد يد المساعدة لذلك السلاب النهاب الجديد وهو الألمان والظالم العسوف وهو الأتراك.

مع ذلك فأنا على كمال الاستعداد لأن نُرسل إلى ساحة دولة السيد الجليل وللــبلاد العربية المقدسة والعرب الكرام من الحبوب والصدقات المقررة من البلاد المصرية وستصل بمجرد إشارة من سيادتكم وفي المكان الذي تعينونه، وقد عملنا الترتيبات اللازمة لمساعدة رسولكم في جميع سفراته إلينا، ونحن على الدوام معكــم قلبًــا وقالبًا مستنشقين رائحة مودتكم الزكية ومستوثقين بعُرى محبتكم الخاصة سائلين الله سبحانه وتعالى دوام حسن العلائق بيننا، وفي الختام أرفع إلى تلــك السـدة العليا كامل تحياتي وسلامي وفائق احترامي.

تحريرًا في ١٩ شوال ١٣٣٣ الموافق ٣٠ أغسطس ١٩١٥ م

المخلص السير آرثر مكماهون

نائب جلالة الملك

رسالة الشريف حسين الثانية في ٩ سبتمبر ١٩١٥م.

من الشريف حسين إلى السير مكماهون بسم الله الرحمن الرحيم، مكــة فــي ٢٩ شوال سنة ١٣٣٣ (٩ سبتمبر سنة ١٩١٥)، لصاحب الســعادة والرفعــة نائــب جلالة الملك بمصر، سلمه الله..

بمزيد من السرور والغبطة تلقيت كتابكم المؤرخ في ١٩ شوال وطالعته بكل احترام واعتبار، رغم شعوري بغموضه وبرودته وتردده فيما يتعلق بنقطتنا الأساســية، أعني نقطة الحدود، وأرى من الضروري أن أؤكد لسعادتكم إخلاصنا نحو بريطانيا العظمى، واعتقادنا بضرورة تفضيلها على الجميع في كل الشؤون وفي أي شكل، وفي أية ظروف ويجب أن أؤكد لكم أيضًا أن مصالح اتباع ديانتنا كلهــا تتطلــب الحدود التي ذكرتها لكم.

ويعذرني فخامة المندوب إذا قلت بصراحة إن "البرودة" و"التردد" الذين ضــمنهما كتابه فيما يتعلق بالحدود وقوله إن البحث في هذه الشؤون إنمــا هــو إضــاعة

للوقت، وإن تلك الأراضي لا تزال بيد الحكومة التي تحكمها.. ويعذرني فخامته إذا قلت إن هذا كله يدل على عدم الرضا، أو على النفور أو على شئ من هذا القبيل، فإن هذه الحدود المطلوبة ليست لرجل واحد نتمكن من إرضائه ومفاوضته بعد الحرب بل هي مطالب شعب يعتقد أن حياته في هذه الحدود وهو متفق بأجمعه على هذا الاعتقاد، وهذا ما جعل الشعب يعتقد أنه من الضروري البحث في هذه النقطة قبل كل شئ مع الدولة التي يثقون بها كل الثقة ويعلقون عليها كل الآمال وهي بريطانيا العظمى.

وإذا أجمع هؤلاء على ذلك فإنما يجمعون عليه في سبيل الصالح المشترك، وهم يرون أنه من الضروري جدًا أن يتم تنظيم الأراضي المُجزأة ليعرفوا على أي أساس يؤسسون حياتهم كي لا تعارضهم انجلترا أو إحدى حليفاتها في هذا الموضوع مما يؤدي إلى نتيجة معاكسة، الأمر الذي حرمه الله، وفوق هذا فإن العرب لم يطلبوا - في تلك الحدود - مناطق يقطنها شعب أجنبي بل هي عبارة عن كلمات وألقاب يطلقونها عليها، أما الخلافة فإن الله يرضى عنها ويسر الناس بها.

وأنا على ثقة يا صاحب الفخامة أنكم لا تشكُّون قط بأني لست أنا شخصيًا الذي يطلب تلك الحدود التي يقطنها عرب مثلنا، بل هي مقترحات شعب بأسره، يعتقد بأنها ضرورية لتأمين حياته الاقتصادية، أليس هذا صحيحًا يا فخامة الوزير؟ وبالاختصار فإننا ثابتون في إخلاصنا نصرح بكل تأكيد بتفضيلنا لكم على الجميع أكنتم راضين عنا - كما قيل - أو غاضبين.

أما ما يتعلق في قولكم بإن قسمًا من شعبنا لا يزال يبذل جهده في سبيل تأمين مصالح الأتراك، فلا أظن أن هذا يبرر البرودة والتردد الذين شعرت بهما في كتابكم فيما يتعلق بموضوع الحدود، الموضوع الذي لا أعتقد أن رجلاً مثلكم ثاقب الرأي ينكر أنه ضروري لحياتنا الأدبية والمادية، وأنا حتى الساعة لا أزال أنفّذ ما تأمر به الديانة الإسلامية في كل عمل أقوم به وأراه مفيدًا وصالحًا لبقية المملكة وأني سأستمر في هذا إلى أن يأمر الله في غير ذلك.

وأود هنا يا صاحب الفخامة أن أؤكد لكم بصراحة أن كل الشعب - ومن جملته هؤلاء الذين تقولون إنهم يعملون لصالح تركيا وألمانيا - ينتظر بفارغ الصبر نتائج هذه المفاوضات المتوقفة على موافقتكم أو رفضكم قضية الحدود، وقضية المحافظة على ديانتهم وحمايتهم من كل أذى أو خطر، وكل ما تجده الحكومة البريطانية موافقًا لسياستها في هذا الموضوع فما عليها إلا أن تعلمنا به وأن تدلنا على الطريق التي يجب أن نسلكها، ولذلك نرى أن من واجبنا أن نؤكد لكم أننا سنطلب إليكم في أول فرصة بعد انتهاء الحرب ما ندعه الآن لفرنسا في بيروت وسواحلها.

ولستُ أرى حاجة هنا لأن ألفت نظركم إلى أن خطتنا هي أمن على مصالح انجلترا من خطة انجلترا على مصالحنا، ونعتقد أن وجود هؤلاء الجيران في المستقبل سيقلق أفكارنا كما يقلق أفكارها.. وفوق هذا فإن الشعب البيروتي لا يرضى قط بهذا الابتعاد والانزواء وقد يضطرونا لاتخاذ تدابير جديدة قد يكون من شأنها خلق متاعب جديدة، تفوق في صعوبتها المتاعب الحاضرة، وعلى هذا لا يمكن السماح لفرنسا بالاستيلاء على قطعة صغيرة من تلك المنطقة، وأنا أصرح بهذا رغم أني أعتقد وأؤمن بالتعهدات التي قطعتموها في كتابكم، ويستطيع معالي الوزير وحكومته أن يثقا كل الثقة بأننا لا نزال عند قولنا وعزيمتنا وتعهداتنا التي عرفها مستر ستورس منذ عامين.

ونحن ننتظر اليوم الفرصة السانحة التي تناسب موقفنا، وخاصة فيما يتعلق بالحركة التي أضحت قريبة والتي يدفعها إلينا القدر بسرعة ووضوح لنكون حجة - نحن والذين يرون رأينا - في العمل ضد تركيا ودون أن نتعرض للوم والنقد، واعتقد أن قولكم بإن بريطانيا لا تحثكم ولا تدفعكم للإسراع في حركتكم مخافة أن يؤدي هذا التسرع إلى تصديع نجاحكم، لا يحتاج إلى إيضاح إلاّ فيما يتعلق بمطالبكم بالأسلحة والذخائر عند الحاجة، اعتقد الآن أن هذا الكفاية.

جواب السير مكماهون على الرسالة الثانية في ٢٤ أكتوبر ١٩١٥ م.

من السير هنري مكماهون إلى الشريف حسين بسم الله الرحمن الرحيم، إلى فرع الدوحة المحمدية وسلالة النسل النبوي الحسيب النسيب دولـة صـاحب المقـام الرفيع الأمير المعظم السيد الشريف بن الشريف أمير مكة المكرمة صاحب السدة العلياء جعله الله حرزًا منيعًا للإسلام بعونه تعالى وهو دولة الأمير الجليل الشريف حسين بن علي أعلى الله مقامه.

قد تلقيت بيد الاحتفاء والسرور رقيمكم الكريم المؤرخ بتاريخ ٢٩ شـوال سـنة ١٣٣٣ وبه من عباراتكم الودية المحضة وإخلاصكم ما أورثني رضاء وسـرورًا، إني متأسف أنكم استنتجتم من عبارة كتابي السابق أني قابلـت مسـألة الحـدود والتخوم بالتردد والفتور، فإن ذلك لم يكن القصد من كتابي قط ولكني رأيت حينئذ أن الفرصة لم تكن قد حانت بعد للبحث في ذلك الموضوع بصورة نهائية، ومـع ذلك فقد أدركت من كتابكم الأخير أنكم تعتبرون هذه المسألة من المسائل الهامـة الحيوية المستعجلة، فلهذا فإني قد أسرعت في إبلاغ حكومة بريطانيـا العظمـى مضمون كتابكم وإني بكمال السرور أبلغكم بالنيابة عنها التصريحات الآتية التـي لا أشك في أنكم تنزلونها منزلة الرضى والقبول.

إن ولايتي مرسين واسكندرونة وأجزاء من بلاد الشام الواقعة في الجهة الغربيـة لولايات دمشق الشام وحمص وحماة وحلب لا يمكن أن يقال إنها عربية محضة، وعليه يجب أن تستثنى من الحدود المطلوبة، مع هذا التعـديل وبـدون تعـرض للمعاهدات المعقودة بيننا وبين بعض رؤساء العرب نحن نقبل تلك الحدود، وأمـا من خصوص الأقاليم التي تضمنتها تلك الحدود حيث بريطانيـا العظمـى مطلقـة التصرف بدون أن تمس مصالح حليفتها فرنسا فإني مفوض مـن قبـل حكومـة بريطانيا العظمى أن أقدم المواثيق الآتية وأجيب على كتابكم بما يأتي:

١ - أنه مع مراعاة التعديلات المذكورة أعلاه فبريطانيا العظمى مستعدة بأن تعترف باستقلال العرب وتؤيد ذلك الاستقلال في جميع الأقاليم الداخلة في الحدود التي يطلبها دولة شريف مكة.
٢ - أن بريطانيا العظمى تضمن الأماكن المقدسة من كل اعتداء خارجي وتعترف بوجوب منع التعدي عليها.
٣ - وعندما تسمح الظروف تمد بريطانيا العظمى العرب بنصائحها وتساعدهم على إيجاد هيئات حاكمة ملائمة لتلك الأقاليم المختلفة.
٤ - هذا وأن المفهوم أن العرب قد قرروا طلب نصائح وإرشادات بريطانيا العظمى وحدها وأن المستشارين والموظفين الأوروبيين اللازمين لتشكيل هيئة إدارية قويمة يكونون من الإنجليز.
٥ - أما من خصوص ولايتي بغداد والبصرة فإن العرب تعترف أن مركز ومصالح بريطانيا العظمى الموطدة هناك تستلزم اتخاذ تدابير إدارية مخصوصة لوقاية هذه الأقاليم من الاعتداء الأجنبي وزيادة خير سكانها وحماية مصالحنا الاقتصادية المتبادلة.

وإني متيقن أن هذا التصريح يؤكد لدولتكم بدون أقل ارتياب ميل بريطانيا العظمى نحو رغائب أصحابها العرب وتنتهي بعقد محالفة دائمة ثابتة معهم ويكون من نتائجها المستعجلة طرد الأتراك من بلاد العرب وتحرير الشعوب العربية من نير الأتراك الذي أثقل كاهلهم السنين الطوال، ولقد اقتصرتُ في كتابي هذا على المسائل الحيوية ذات الأهمية الكبرى وإن كان هناك مسائل في خطابكم لم تُذكر هنا فسنعود إلى البحث فيها في وقت مناسب في المستقبل.

ولقد تلقيتُ بمزيد السرور والرضى خبر وصول الكسوة الشريفة وما معها من الصدقات بالسلامة وأنها بفضل إرشاداتكم السامية وتدابيركم المحكمة قد أنزلت إلى البر بلا تعب ولا ضرر رغمًا عن الأخطار والمصاعب التي سببتها هذه الحرب المحزنة، ونرجو الحق سبحانه وتعالى أن يُعجل بالصلح الدائم والحرية لأهل العالم، إني مرسل خطابي هذا مع رسولكم النبيل الأمين الشيخ محمد بن

عارف بن عريفان وسيعرض على مسامعكم بعض المسائل المفيدة التي هي من الدرجة الثانية من الأهمية ولم أذكرها في كتابي هذا.

وفي الختام أبث دولة الشريف ذا الحسب المنيف والأمير الجليل كامل تحيتي وخالص مودتي وأعرب عن محبتي له ولجميع أفراد أسرته الكريمة، راجيًا من ذي الجلال أن يوفقنا جميعًا لما فيه خير العالم وصالح الشعوب، إن بيده مفاتيح الأمر والغيب يُحركها كيف يشاء ونسأله تعالى حسن الختام والسلام.

تحريرا في يوم الاثنين ١٥ ذي الحجة ١٣٣٣

نائب جلالة الملك

(السير آرثر هنري مكماهون)

رسالة الشريف حسين الثالثة في ٥ نوفمبر ١٩١٥ م.

من الشريف حسين إلى السير هنري مكماهون بسم الله الرحمن الرحيم، إلى معالم الشهم الهمام ذو الأصالة والرياسة الوزير الخطير وفقه الله لمرضاته بملء الإيناس تلقينا مرسومكم الموقر الصادر وأحلناه محل التبجيل وعلى مؤداه نجيب الشهامة.

أولاً - تسهيلاً للوفاق وخدمة للإسلامية فرارًا مما يكلفها المشاق والأحن ولِما لحكومة بريطانيا العظمى من الصفات والمزايا الممتازة لدينا، نترك الإلحاح في إدخال ولايات مرسين واطنة في أقسام المملكة العربية وأما ولايتي حلب وبيروت وسواحلها فهي ولايات عربية محضة ولا فرق بين العربي المسيحي والمسلم فإنهما ابنا جد واحد، ولتقوم فيهم منا معاشر المسلمين ما سلكه أمير المؤمنين عمر بن الخطاب من أحكام الدين الإسلامي ومن تبعه من الخلفاء أن يعاملوا المسيحيين كمعاملاتهم لأنفسهم بقوله "لهم مالنا وعليهم ما علينا" علاوة على امتيازاتهم المذهبية وبما تراه المصلحة العامة وتحكم به.

ثانيًا - حيث أن الولايات العراقية هي من أجزاء المملكة العربية المحضة، بل هي مقر حكومتها على عهد علي بن أبي طالب كرم الله وجهه، ثم على عهد عموم الخلفاء من بعده، وبها قامت مدنية العرب وأول ما اختطوه من المدن والأمصار واستفلحت دولهم فلها لدى العرب أقصاهم وأدناهم القيمة الثمينة والآثار التي لا تنسى، فلا يمكنا إرضاء الأمة العربية وإرضاخها لترك ذلك الشرف ولكن تسهيلاً للوفاق سيما والمحاذير التي أشرتم إليها في المادة الخامسة من رقيمكم آنف الذكر محفوظيها وصيانتها من طبقة وضرورة ما نحن فيه وحيازة ما نريد التوصل إليه، فإن أهم ما في هذا هي صيانة تلك الحقوق الممزوجة بحقوقنا بصورة كأنها الجوهر الفرد يمكنا الرضا بترك الجهات التي هي الآن تحت الإشغال البريطاني إلى مدة يسيرة، البحث فيما يقبل عن قدرها دون أن يلحق حقوق الجانبين مضرة أو خلل، سيما العربية بالنسبة لأمر مرافقها ومنابعها الاقتصادية الحياتية، وأن يدفع للمملكة العربية في مدة الأشغال المقدار المناسب من المال لضرورة ترتكبه كل مملكة حديثة الوجود، مع احترامنا لوفاقاتكم المُشار عليها مع مشايخ تلك الجهات وبالأخص ما كان منها جوهريًا.

ثالثًا - رغبتكم في الإسراع بالحركة نرى فيه من الفوائد بقدر ما نرى فيه من المحاذير، أوله خشية لوم الإسلامية كما سبق الجاهل عن حقائق الحالة بأنا شققنا عصاها وأبدنا قواها، الثاني المقام تركيا معاضدتها جميع معاني قوى جرمانيا لجهلنا عما إذا حصل وهن إحدى دول الائتلاف وأوجبها على صلح دول الاتفاق، فكيف تكون خطة بريطانيا العظمى وحلفائها لئلا تكن الأمة العربية أمام تركيا وحلفائها معًا إذ لا يهمنا ما إذا كنا والعثمانية رأسًا لرأس، وعلى هذا فضروري ملاحظة هذه الوجه ولا سيما عقد صلح اشتركنا في حربه بصورة غير رسمية يخول للمتصالحين البحث فيه عن شؤوننا.

رابعًا - إن الأمة العربية تعتقد يقينا أن العثمانية عند وضع أوزار الحرب سيوجهون كل أعمالهم فيما يغضب العرب ويغتصب حقوقهم المادية والمعنوية وذهاب شعارهم وأحسابهم وإخضاعهم بكل معاني الإخضاع مع بقائها تحت النفوذ

الألماني فهم عازمون على حربهم حتى لا يبقى لنا باقية وما يرى فينا الآن من التأني فقد سبق بيان علته.

خامسًا - متى علمت العرب أن حكومة بريطانيا حلفائهم لا يتركونهم عند الصلح على حالهم أمام تركيا وجرمانيا وأنهم يدافعون عنهم ويعاضدونهم ويدافعون عنهم الدفاع الفعلي فالدخول في الحرب من الساعة لا شك أنه مما يوافق المصالح العربية.

سادسًا - إفادتنا السابقة الصادرة بتاريخ ٢٩ شوال ١٣٣٣ تغني عن إعادة القول في المادة الثالثة والرابعة من مرسومكم هذا الموقر في خصوصات الهيئات الحاكمة والمشاورين والموظفين سيما وقد صرحتم يا حضرة الشهم بأنكم لا تتدخلون في أمور الداخلية.

سابعًا - وصول الجواب الصريح القطعي في أقرب زمن على ذكر أعلاه من الطلبات إذ إنَّا استعملنا كلما يقربنا إليكم من التساهل الجدي الذي لا يُراد به حقيقة جوهرية فإنا نعلم أن نصيبنا من هذه الحروب إما سعادة تضمن للعرب الحياة التي تناسب تاريخهم أو الاضمحلال في سبيلها، ولولا ما رأيتم ورأيت ما في عزمهم لاخترت العزلة في شواهق السراة، ولكن أبو علي يا عزيزي - أعزك الباري بمرضاته إلا أن يقودني إلى هذه المواقف، ودم غانمًا سالمًا بما تحبه وتريده.

حرر في ٢٧ من ذي الحجة ٣٣٣

جواب السير مكماهون على الرسالة الثالثة في ٤ ديسمبر ١٩١٥م.

من السير هنري مكماهون إلى الشريف حسين بسم الله الرحمن الرحيم، إلى صاحب الأصالة والرفعة وشرف المحتد سلالة بيت النبوة والحسب الطاهر والمنسب الفاخر دولة الشريف المعظم السيد حسين بن علي أمير مكة المكرمة قبلة الإسلام والمسلمين، أدامه الله في رفعة وعلاء.

وبعد، فقد وصلني كتابكم الكريم بتاريخ ١٤ ذي الحجة ١٣٣٣ وسرني ما رأيت فيه من قبولكم إخراج ولايتي مرسين وأضنه من حدود البلاد العربية، وقد تلقيت أيضًا بمزيد السرور والرضا تأكيداتكم أن العرب عازمون على السير بموجب تعاليم الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه وغيره من السادة الخلفاء الأولين، التعاليم التي تضمن حقوق كل الأديان وامتيازاتها على السواء، هذا وفي قولكم أن العرب مستعدون أن يحترموا ويعترفوا بجميع معاهداتنا مع رؤساء العرب الآخرين، يعلم منه طبعًا أن هذا يشمل جميع البلاد الداخلة في حدود المملكة العربية، لأن حكومة بريطانيا لا تستطيع أن تنقض اتفاقات قد أبرمت بينها وبين أولئك الرؤساء.

أما بشأن ولايتَّي حلب وبيروت فحكومة بريطانيا العظمى قد فهمت كل ما ذكرتم بشأنهما ودونت ذلك عندها بعناية تامة، ولكن لمَّا كانت مصالح حليفتها فرنسا داخلة فيهما فالمسألة تحتاج إلى نظر دقيق، وسنخابركم بهذا الشأن مرة أخرى في الوقت المناسب، إن حكومة بريطانيا العظمى كما سبقت فأخبرتكم مستعدة لأن تُعطي كل الضمانات والمساعدات التي في وسعها إلى المملكة العربية، ولكن مصالحها في ولاية بغداد تتطلب إدارة ودية ثابتة كما رسمتم، على أن صيانة هذه المصالح كما يجب تستلزم نظرًا أدق وأتم مما تسمح به الحالة الحاضرة والسرعة التي تجري بها هذه المفاوضات.

وأننا نستصوب تمامًا رغبتكم في اتخاذ الحذر ولسنا نُريد أن ندفعكم إلى عمل سريع ربما يُعرقل نجاح أغراضكم، ولكنا في الوقت نفسه نرى من الضروري جدًّا أن تبذلوا مجهوداتكم في جمع كلمة الشعوب العربية إلى غايتنا المشتركة، وأن تحثُّوهم على ألا يمدوا يد المساعدة إلى أعدائنا بأي وجه كان، فإنهم على نجاح هذه المجهودات وعلى التدابير الفعلية التي يمكن للعرب أن يتخذوها لإسعاف غرضنا عندما يجئ وقت العمل تتوقف قوة الاتفاق بيننا وثباته، وفي هذه الأحوال فإن حكومة بريطانيا العظمى قد فوضت لي أن أبلغ دولتكم أن تكونوا على ثقة

من أن بريطانيا العظمى لا تنوي إبرام أي صلح كان إلا إذا كان من ضمن شروطه الأساسية؛ حرية الشعوب العربية وخلاصها من سلطة الألمان والأتراك.

هذا وعربون على صدق نيتنا ولأجل مساعدتكم في مجهوداتكم في غايتنا المشتركة فإني مرسل مع رسولكم مبلغ عشرين ألف جنيه، وأقدم في الختام عاطر التحيات القلبية وخالص التسليمات الودية مع مراسم الإجلال والتعظيم المشمولين بروابط الألفة والمحبة الصرفة لمقام دولتكم السامي ولأفراد أسرتكم المكرمة، مع فائق الاحترام.

تحريرًا في ٨ صفر ١٣٣٣ـ ١٩١٥/١٢/١٤ م

المخلص نائب جلالة الملك بمصر

(السير آرثر هنري مكماهون)

رسالة الشريف حسين الرابعة في ١ يناير ١٩١٦م.

من الشريف حسين إلى السير هنري مكماهون بسم الله الرحمن الرحيم، معالي الوزير الخطير الشهم الهُمام، بأنامل الإبجال والتوقير تلقينا رقيميكم ٩ صفر الجاري برفق حاملهم، وعلمت مضمونيهما وأدخلا علينا من الانشراح والارتياح مالا مزيد لإزالتهما ما يختلج بصدري، ألا وهو وقوف حضرتك بعد وصول أحمد شريف وحظوته بالجناب، بأن كلما أتينا به في الحال والشأن، ليس بنا شئ عن عواطف شخصية أو ما هو في معناها مما لا يعقل، وأنها قرارات ورغائب أقوام وأنَّا لسنا إلاّ مُبلغين أو مُنفذين لها بصفتنا التي ألزمونا بها إذ هذا عندي من أهم ما يجب وقوف شهامة الجناب عليه وعلمه به، أما ما جاء بالمحررات الموقرة فيما يتعلق بالعراق من أمر التعويض مدة الإشغال فلزيادة إيضاح وقول بريطانيا العظمى بصفاتنا في القول والعمل في المادة والمعنى، وإعلامها بأكيد اطمئناننا باعتماد حكومتها المفخمة، نترك أمر تقدير مبلغه لمدارك حكمتها ونصفتها، أما الجهات الشمالية وسواحلها فما كان في الإمكان من تعديل أتينا به في رقيمنا

السابق، هذا وما ذاك إلا للحرص على الأمنيات المرغوب حصولها بمشــيئة الله تبارك وتعالى وعن هذا الحس والرغبة هما التي ألزمتنا بملاحظة اجتناب ما ربما أنه يمس حلف بريطانيا العظمى لفرنسا واتفاقهما إبان هذه الحروب والنوازل، إلا إننا مع هذا نرى من الفرائض التي ينبغي لشهامة الوزير صــاحب الرياســة أن يتيقنها، بأن عند أول فرصة تضع فيها أوزار هذه الحروب، سنطالبكم بما نغــض الطرف عنه اليوم لفرنسا في بيروت وسواحلها، ولا أرى لزومًا بأن نحيطكم بمــا في هذا أيضًا من تأمين المنافع البريطانية وصيانة حقوقها، هو أهم وأكبــر ممــا يعود إلينا، وأن لابد من هذا على أي حالة كانت ليتم للعظمة البريطانية أن تــرى أخصاءها في البهجة والرونق التي تهتم أن تراهم فيه، سيما وأن جــوارهم لنــا سيكون جرثومة للمشاكل والمناقشات التي لا يمكن معها استقرار الحالة، عــدى أن البيروتيين بصورة قطعية لا يقبلون هذا الانفصال ويلجئونا على حالات جديدة تهم وتشغل بريطانيا بصورة لا تكون بأقل من اشتغالنا الحالي بالنظر لما نعتقــده ونتيقَّنه من اشتراك المنفعة ووحدتها وحدها، وهي الداعية الوحيدة لعدم الفاتنــا لسواكم في المخابرات، وعليه يستحيل إمكان أي تساهل يكسب فرنسا أو ســواها شبرًا من أراضي تلك الجهات أصبح بهذا مع اعتماد لكل جوارحي اعتمادًا يرثــه الحي منا بعد الميت بتصريحاتكم التي ختمتم بها رقيمكم الموقر، وعليه فليعتقــد جناب الوزير الخطير ولتعتقد بريطانيا الكبرى أنَّا على العزم الــذي أشــير إليــه ويعلمه منا جناب الأريب الكامل استورس التي اقترب وقتها مما تسوقه الأقــدار إلينا بكل سرعة ووضوح، لتكن حجــة لنــا وعــن رأينــا علــى الاعتراضــات والمسؤوليات المُقدَّرة وفي تصريحاتكم بقولكم "وإنَّا لسنا نريد أن ندفعكم إلى عمل سريع ربما يُعرقل نجاح أغراضكم" يغني عن زيادة الإيضاح، ما عدا طلب ما نرى لزومه عند الحاجة من الأسلحة وذخائرها الحربية وما هو في معناهــا، واكتفــى بهذا القدر عن إشغال شهامتكم بتقديم وافر احتشاماتي وجزيل تــوقيراتي لمقــام المقر الموقر، وحرر في اليوم الخامس والعشرين من صفر الخير ١٣٣٤.

جواب السير مكماهون على الرسالة الرابعة في ٢٥ يناير ١٩١٦م.

من السير مكماهون إلى الشريف حسين القاهرة في ٢٤ ربيع الأول سنة ١٣٣٤، ٣٠ يناير سنة ١٩١٦ م، تلقينا بسرور كتابكم المؤرخ في ٢٥ صفر بواسطة رسولكم الموثوق به وأطلعنا منه على رسالتكم الشفوية، وأننا لنقدر حق التقدير الدوافع التي تقودكم في هذه القضية الهامة ونعرف جيدًا أنكم تعملون في صالح العرب وأنكم لا ترمون إلى شئ - في عملكم - غير صالحهم وحريتهم.

وقد عنيت عناية خاصة بملاحظاتكم بشأن ولاية بغداد، وسنبحث هذا الموضوع باهتمام وعناية زائدين عندما تتم هزيمة الأعداء ونصل إلى التسويات السلمية، أما ما يتعلق بالجهات الشمالية فقد كتبت ملاحظة من رغبتكم في تجنب كل ما من شأنه الإساءة إلى تحالف انجلترا وفرنسا، وسررت جدًا بإبداء مثل هذه الرغبة، وأظنكم تعرفون جيدًا أننا مقررون قرارًا نهائيًا بألا نسمح بأي تدخل - مهما قل شأنه - في اتفاقنا المشترك في إيصال هذه الحرب إلى الفوز ثم متى انتهت الحرب فإن صداقة فرنسا وانجلترا ستقوى وتشتد، وهما اللتان بذلتا الدماء الإنجليزية والفرنسية جنبًا في سبيل الدفاع عن الحقوق والحريات.

والآن وقد قررت البلاد العربية أن تشترك معنا في الدفاع عن الحقوق وتعمل معنا في سبيل القضية الهامة فإننا لنرجو الله أن تكون نتيجة هذه الجهود المشتركة وهذا التعاون الوطيد صداقة دائمة، تعود على الجميع بالسرور والغبطة، وقد سررنا جدًا للحركة التي تقومون بها لإقناع الشعب بضرورة الانضمام إلى حركتنا والكف عن مساعدة أعدائنا، ونترك لفطنتكم وتقديراتكم تقرير الوقت المناسب، لاتخاذ تدابير أوسع من هذه.

رسالة الشريف حسين الخامسة في ١٤ فبراير ١٩١٦م.

من الشريف حسين إلى السير هنري مكماهون ١٤ فبراير سنة ١٩١٦ بسم الله الرحمن الرحيم، إلى حضرة ذو الأصالة فخامة نائب جلالة الملك دام مرعيًا، بعد

إبداء التوقير والاحتشام تلقينا رقيم الفخامة المؤرخ ٢٥ ربيع أول، وأن مضامينه أدخلت علينا مزيد الارتياح والسـرور لحصـول التفـاهم المطلـوب والتقـارب المرغوب لأسأل الله أن يسهل المقاصد وينجح المساعي، ومن الإيضاحات الآتية نفهم الفخامة الأعمال الجارية والأسباب المقتضية:

أولاً - قد أعلمنا فخامكتم بأنا بعثنا بأحد أنجالنا إلى الشام ليرأس ما يقتضي عمله هناك، ولقد ظفرنا منه بتقرير مفصل يفيد به أن اعتسافات الحكومة هناك لم تبق من الأشخاص الذين نعتمد عليهم في الأمر سواء كانوا من الجند علـى اخـتلاف مراتبهم أم ممن لم يكونوا من ذلك الصنف إلا القليل مما كان في الدرجة التاليـة، وأنه ينتظر وصول القوات المُعلن بقدومها من مواقع مختلفة، أخصها من أهـالي البلاد وما جاورها من الأقطار العربية كحلب وجنوب الموصل المشاع بأن عددها ما ينوف عن المائة ألف على ما يزعمون، وأنه لابد يؤمل إن كانت الأكثرية مـن القوة المذكورة من العرب فهو عازم على إجراء الحركة والقيام بهـم، وإن كـان العكس يعني الأكثرية من الأتراك وسواهم فسيناظر تقدمهم نحو الترعـة وعنـد اشتباك الحرب حركته بهم عندما يريدون.

ثانيًا - عزمنا على إرسال نجلنا الكبير إلى المدينة المنورة بقوة كافيـة ليكـون رداءًا لأخيه الذي بالشام، ولكل احتمال واستيلائه على الخط الحديد وما هو فـي معنى ذلك مما تظهره الشؤون، وهذا هو المبدأ للحركة الأساسية المكتفـين فـي مبادئها بما جندناه برسم المحافظة على راحة داخلية البلاد وبأهل الحجـاز أهـل المركز فقط لأسباب يطول شرحها؛ منها تعسر إحضار لوازمهم بصـورة تجعـل المشروع في حيز الكتمان، مع عدم الضرورة على ذلك وسهولة جلب الإمـدادات عند الحاجة، هذا خلاصة ما رغبتم في الجواب عليه والاستفهام عنه، وفي ظنـي أن فيه الكفاية واتخاذه أساسًا وقياسًا في أعمالنا أمام كل التبدلات والطوارئ.

بقى علينا بيان ما نحتاجه والحالة هذه هو:

١ - مبلغ خمسين ألف جنيه ذهبًا لمشاهرة القوات المجندة ونحوها مما ضرورته تغني عن بيانه، فالرجا إحضارها بوجه السرعة الممكنة.

٢ - إحضار عشرين ألف كيس أرز وخمسة عشر ألف دقيق وثلاثة آلاف شـــعير ومائة وخمسين كيس بن قهوة ومثلها سكر ومقدار خمسة آلاف بندقية من الطراز الجديد وما تحتاجه النسبة لها من المرميات وأيضًا مقدار مائة صندوق من النوع المرسل منه مرميتين طيه، ومن مرميات بواريد مارتن هنري وبـــارودات غـــرا أعني بواريد معمل سانت أتين الفرنسية لاستعمال هذين الصنفين في بواريـــد أي بندقيات قبائلنا ولا بأس من جعل لكل نوعهما خمسمائة صندوق.

٣ - إنَّا استنسبنا مركز سوقيات هذه المواد المرغوبة يكن بور سودان.

٤ - بالنظر لكون المواد الغذائية واللوازمات الحربية الموضحة أعلاه لا حاجـــة لنا بها إلاّ عند ابتداء الحركة، وسنبلغكم إياها بصورة رسمية تبقى في الموضـــع المذكور وعند الحاجة إليها يبلغ أمير الجهة المذكورة وقائـــدها بـــالمواقع التـــي يقتضي سوقها إليها والوسائط التي سيكونون حاملين الوثائق بتسليمها إياهم.

٥ - النقود المطلوبة يقتضي إرسالها في الحال إلى أمير بور سودان، وســـيرده من طرفنا معتمد يتسلمها أما دفعة أو دفعتين على حسب استطاعته، وهذه علامة اعتماد الرجل.

٦ - مندوبنا في قبض المبالغ المذكورة سيتوجه إلى بور ســـودان بعـــد ثلاثـــة أسابيع، يعني يكون وصوله إليها في ٥ من جماد الأول حامل كتـــاب منـــا باســـم الخواجة إلياس أفندي، وأنه يصرف له بموجبه ما لديه مـــن إيجـــارات أملاكنـــا والإمضاء صراحة باسمنا، غير أننا معدينه يسأل عن عائد الموقع وأميره، فـــأنتم تخبروهم عن ذلك الشخص، وبمراجعته يجري له ما يقتضي من صرف ما لديهم بشرط ألا يبحثوا معه في أي موضوع كان مؤكدين غاية التأكيد في عدم المظاهرة له وكتمان أمره ومعاملته في الظاهر بأنه لا شئ، لا يظـــن أن ثقتنـــا للشـــخص الأخير من اعتماد الأول حامله هذا لا بل لعدم ضياع الوقت لتعييننا له خدمة فـــي جهة ثانية، مع تكرار رجائنا بعدم إركابه وإبعاثه في بابور أو في شئ مـــن هـــذه الرسميات فإن وسائطه كافية.

٧ - مندوبنا حامل هذا أكدنا عليه بالاكتفاء بإيصال هذا وأظن أن مأموريته فـــي هذا الدور تمت، حيث أن الحالة علمت أساساتها وفروعها فلا حاجة فـــي بعـــث

شخص آخر، إذ أن اللزوم للمخابرة يكن منا، ولا سيما أن مندوبنا الأخير سيردكم بعد ثلاثة أسابيع يمكن في ظرفها إفادتنا بما يلزم له الحال وألا يعامل في الصورة الظاهرة إلا معاملة بسيطة.

٨ - تعهد الحكومة البريطانية العظمى قبول هذه المصـاريف الحربيـة بموجـب الدفاتر التي تقدم إليها ببيان الوجهة التي صرفت فيها، وبالختام أهديكم أشـواقي التي لا تعد واحتشامي الذي ليس له حد.

١٤ ربيع الآخر ١٣٣٤.

جواب السير مكماهون على الرسالة الخامسة في ١٠ مارس ١٩١٦م.

من السير هنري مكماهون إلى الشريف حسين بسم الله الـرحمن الـرحيم، إلـى ساحة ذلك المقام الرفيع ذي الحسب الطـاهر والنسـب الفـاخر قِبلـة الإسـلام والمسلمين معدن الشرف وطيب المحتد سلالة مهبط الوحي المحمـدي الشـريف ابن الشريف صاحب الدولة السيد الشريف حسين بن علي أمير مكة المعظم زاده الله رفعة وعلاء آمين.

بعد ما يليق بمقام الأمير الخطير من التجلة والاحتشام وتقـديم خـالص التحيـة والسلام، وشرح عوامل الألفة وحسن التفاهم والمودة الممزوجة بالمحبة القلبية، أرفع إلى دولة الأمير المعظم أننا تلقينا رقيمكم المؤرخ ١٤ ربيع الآخـر ١٣٣٤ من يد رسولكم الأمين، وقد سُررنا لوقوفنا على التدابير الفعلية التـي تنوونهـا وأنها لموافقة في الأحوال الحاضرة، وأن حكومة جلالة ملك بريطانيـا العظمـى تصادق عليها.

وقد يسرني أن أخبركم بأن حكومة جلالة الملك صادقت على جميع مطالبكم، وأن كل شئ رغبتم الإسراع فيه وفي إرساله فهو مرسل مع رسـولكم حامـل هـذا، والأشياء الباقية ستحضر بكل سرعة ممكنة وتبقى في بور سودان تحـت أمـركم لحين ابتداء الحركة وإبلاغنا إياها بصورة رسمية (كما ذكرتم)، وبالمواقع التـي

يقتضي سوقها إليها والوسائط التي يكونون حاملين الوثائق بتسليمها إيـــاهم، إن كل التعليمات التي وردت في محرركم قد أعلمنا بها محافظ بـــور ســـودان وهـــو سيجريها حسب رغبتكم - وقد عملت جميع التسهيلات اللازمة لإرسال رســـولكم حامل خطابكم الأخير إلى جزان حتى يؤدي مأموريته التي نســـأل الله أن يُكللهـــا بالنجاح وحسن النتائج وسيعود إلى بور سودان، وبعـــدها يصـــلكم بحراســـة الله ليقص على مسامع دولتكم نتيجة عمله.

وننتهز الفرصة لنوضح لدولتكم في خطابنا هذا ما ربما لم يكن واضحًا لديكم، أو ما عساه ينتج سوء تفاهم، ألا وهو أنه يوجد بعض المراكز أو النقط المعســـكرة فيها بعض العساكر التركية على سواحل بلاد العرب يقال إنهم يجاهرون بالعـــداء لنا، والذين هم يعملون على ضرر مصالحنا الحربية البحرية في البحر الأحمـــر، وعليه نرى أنه من الضروري أن نأخذ التدابير الفعالة ضدهم ولكننا قد أصـــدرنا الأوامر القطعية أنه يجب على جميع بوارجنا أن تُفرِّق بين عساكر الأتراك الـــذين يبدءون بالعداء وبين العرب الأبرياء الذين يسكنون تلك الجهات، لأننـــا لا نقـــدم للعرب أجمع إلا كل عاطفة ودية.

وقد أبلغنا دولتكم ذلك حتى تكونوا على بينة من الأمر إذا بلغكم خبرًا مكذوبًا عن الأسباب التي تضطرنا إلى أي عمل من هذا القبيل، وقد بلغنا إشاعات مؤداها أن أعداءنا الألداء باذلون جهدهم في أعمال السفن ليبثوا بها الألغام في البحر الأحمر ولإلحاق الأضرار بمصالحنا في ذلك البحر، وأنا نرجوكم سرعة أخبارنا إذا تحقق ذلك لديكم، وقد بلغنا أن ابن الرشيد قد باع للأتراك عددًا عظيمًا من الجمال، وقد أرسلت إلى دمشق الشام، ونأمل أن تستعملوا كل ما لكم من التأثير عليـــه حتـــى يكف عن ذلك، وإذا صمم على ما هو عليه أمكنكم عمل الترتيـــب مـــع العربـــان الساكنين بينه وبين سوريا أن يقبضوا على الجمال حال سيرها، ولا شك أن فـــي ذلك صالح لمصلحتنا المتبادلة.

وقد يسرني أن أبلغ دولتكم أن العربان الذين ضلوا السبيل تحت قيادة السيد أحمد السنوسي وهم الذين أصبحوا ضحية دسائس الألمان والأتراك قد ابتدئوا يعرفون

خطأهم وهم يأتون إلينا وحدانًا وجماعات يطلبون العفو عنهم والتودد إليهم، وقد - والحمد لله - هزمنا القوات التي جمعها هؤلاء الدساسون ضدنا، وقــد أخــذت العرب تبصر الغش والخديعة التي حاقت بهم.

وأن لسقوط أرض روم من يد الأتراك وكثرة انهزاماتهم في بلاد القوقــاز تــأثير عظيم، وهو في مصلحتنا المتبادلة وخطوة عظيمة في سبيل الأمر الذي نعمل لــه وإياكم، ونسأل الله عز وجل أن يُكلل مساعيكم بتاج النجاح والفلاح وأن يمهد لكم في كامل أعمالكم أحسن السبل والمناهج، وفي الختام أقدم لدولتكم ولكامل أفــراد أسرتكم الشريفة عظيم الاحترامات وكامل ضروب المودة والإخلاص مع المحبــة التي لا يزعزعها كر العصور ومرور الأيام.

تحريرا في ٦ جماد الأولى ١٣٣٤الموافق ١٠ مارس ١٩١٦م

كتبه المخلص السير آرثر هنري مكماهون

نائب جلالة الملك بمصر

نص المنشور الذي ألقته الطائرات البريطانية

على المناطق العربية الواقعة تحت الحكم العثماني

موجَّه من الشريف حسين إلى الجنود والضباط العرب في الجيش التركي في فلسطين سنة ١٩١٥ م.

"أصدر شريف مكة وملك الحجاز الحالي منشورًا إلى الضباط والجنود العرب في الجيش العثماني وطلب منا أن نبلغهم إياه، فأقرءوه بتمعن واغتنموا الفرصة لتهربوا وتأتوا إلينا وسنستقبلكم كأصدقاء مرحبين بكم وستلاقون منا معاملة حسنة وستجدون معنا مندوبين من قبل شريف مكة وملك الحجاز الحالي فيستقبلونكم وتساعدونهم أنتم في تحرير العرب". (الجيش الإنجليزي في فلسطين)



ضباط عرب في الجيش العثماني ١٩١٤م

"إلى جميع العرب وسواهم من الضباط والرجال الموجودين في الجيش العثماني: سمعنا بمزيد الأسف أنكم تحاربوننا نحن الذين نجاهد في سبيل المحافظة على أحكام الدين الإسلامي الشريف من التغيير والتحريف ولتحرير العرب قاطبة من حكم الأتراك.

ونحن نعتقد أن الحقيقة الخالصة لم تصل إليكم، لذلك أرسلنا إليكم هذا الإشعار ممهورًا بمهرنا لنؤكد لكم أننا نحارب لأجل غايتين شريفتين؛ وهما حفظ الدين وحرية العرب عامة، ولقد أرسلنا الأوامر المُشددة إلى عموم رؤساء ورجال قبائلنا بأنه إذا أسرت جيوشنا أي واحد منكم يجب أن يعاملوكم بالحسنى ويرسلوكم إلى أولادي حيث يرحبون بكم ويُحسنون وفادتكم، لقد كانت المملكة العربية مستعبدة تحت سلطة الأتراك مدة طويلة فقتلوا إخوانكم وصلبوا من رجالكم الكثير ونفوا نساءكم وعيالكم بعد تحريف دينكم، فكيف تطيقون بعد ذلك وتتحملون عناء الاستمرار معهم وترضون بمعاونتهم، هلموا للانضمام إلينا نحن الذين نجاهد لأجل الدين وحرية العرب حتى تصبح المملكة العربية كما كانت في عهد أسلافكم إن شاء الله تعالى، والله الهادي إلى سواء السبيل.

شريف مكة المكرمة وأميرها

وملك البلاد العربية

(ختم) الحسين بن علي

اتفاقية فيصل – وايزمان عام ١٩١٩م



الامير فيصل (يمين) - حاييم وايزمان 1918م

"إن صاحب السمو الملكي الأمير فيصل ممثل المملكة العربية الحجازيـــة والقـــائم بالعمل نيابة عنها، والدكتور حاييم وايزمن ممثل المنظمـــة الصـــهيونية والقـــائم بالعمل نيابة عنها، يُدركان القرابة الجنسية والصلات القديمة القائمة بين العـــرب والشعب اليهودي، ويتحقق أن أضمن الوسائل لبلوغ غاية أهدافهما الوطنية هـــو في اتخاذ أقصى ما يمكن من التعاون في سبيل تقدم الدولة العربيـــة وفلســـطين، ولكونهما يرغبان في زيادة توطيد حسن التفاهم الذي بينهما فقد اتفقا على المواد التالية:

١ - يجب أن يسود جميع علاقات والتزامات الدولة العربيــة وفلســطين أقصــى النوايا الحسنة والتفاهم المخلص، وللوصول إلى هذه الغايــة تؤســس ويحــتفظ بوكالات عربية ويهودية معتمدة حسب الأصول في بلد كل منهما.

٢ - تحدد بعد إتمام مشاورات مؤتمر السلام مباشرة الحدود النهائية بين الــدول العربية وفلسطين من قِبل لجنة يتفق على تعيينها من قبل الطرفين المتعاقدين.

٣ -عند إنشاء دستور إدارة فلسطين تتخذ جميع الإجراءات التي من شأنها تقديم أوفى الضمانات لتنفيذ وعد الحكومة البريطانية المؤرخ في اليوم الثاني من شهر نوفمبر سنة ١٩١٧.

٤ - يجب أن تتخذ جميع الإجراءات لتشجيع الهجرة اليهودية إلى فلسطين علــى مدى واسع والحث عليها وبأقصى ما يمكن من السرعة لاستقرار المهاجرين فــي الأرض عن طريق الإسكان الواسع والزراعة الكثيفة، ولدى اتخــاذ مثــل هــذه الإجراءات يجب أن تحفظ حقوق الفلاحين والمزارعين المستأجرين العرب ويجب أن يساعدوا في سيرهم نحو التقدم الاقتصادي.

٥ - يجب ألا يسن نظام أو قانون يمنع أو يتدخل بأي طريقة مــا فــي ممارســة الحرية الدينية ويجب أن يسمح على الدوام أيضًا بحرية ممارسة العقيدة الدينيــة والقيام بالعبادات دون تمييز أو تفضيل ويجب أن لا يطالب قــط بشــروط دينيــة لممارسة الحقوق المدنية أو السياسية.

٦ - إن الأماكن الإسلامية المقدسة يجب أن توضع تحت رقابة المسلمين.

٧ - تقترح المنظمة الصهيونية أن ترسل إلى فلسطين لجنة من الخبــراء لتقــوم بدراسة الإمكانيات الاقتصادية في البلاد وأن تقدم تقريرًا عــن أحســن الوســائل للنهوض بها، وستضع المنظمة الصهيونية اللجنة المذكورة تحت تصرف الدولــة العربية بقصد دراسة الإمكانيات الاقتصادية في الدولة العربية وأن تقدم تقريــرًا عن أحسن الوسائل للنهوض بها وستستخدم المنظمة الصهيونية أقصى جهودهــا

لمساعدة الدولة العربية بتزويدها بالوسائل لاستثمار الموارد الطبيعية والإمكانيات الاقتصادية في البلاد.

٨- يوافق الفريقان المتعاقدان أن يعملا بالاتفاق والتفاهم التـــامين فـــي جميـــع الأمور التي شمتلتها هذه الاتفاقية لدى مؤتمر الصلح.

٩- كل نزاع قد يثار بين الفريقين المتنازعين يجـــب أن يحـــال إلـــى الحكومـــة البريطانية للتحكيم.

وُقّع في لندن، انجلترا في اليوم الثالث من شهر يوليو سنة ١٩١٩م.

صك الانتداب على فلسطين عام ١٩٢٢م

أعلن مشروع الانتداب البريطاني على فلسطين من قِبل عصبة الأمم المتحدة بتاريخ٦ يوليو - تموز١٩٢١م وصودق عليه في٢٤يوليو - تموز١٩٢٢م ووضع موضع التنفيذ في ٢٩ سبتمبر - أيلول من العام نفسه، وتضمن مقدمة جاء فيها:

لمَّا كانت دول الحلفاء الكبرى قد وافقت على أن يعهد بإدارة فلسطين التي كانت تابعة فيما مضى للدولة العثمانية بالحدود التي تعينها تلك الدول إلى دولة منتدبة تختارها الدول المشار إليها تنفيذًا لنصوص المادة ٢٢ من ميثاق عصبة الأمم.. ولمَّا كانت دول الحلفاء قد وافقت أيضًا على أن تكون الدولة المنتدبة مسئولة عن تنفيذ التصريح الذي أصدرته في الأصل حكومة صاحب الجلالة البريطانية في اليوم الثاني من شهر نوفمبر/ (تشرين الثاني) ١٩١٧م وأقرَّته الدول المذكورة لصالح إنشاء وطن قومي لليهود في فلسطين، على أن يُفهم جليًا أنه لن يؤتى بعمل من شأنه أن يضير بالحقوق المدنية والدينية التي تتمتع بها الطوائف غير اليهودية الموجودة الآن في فلسطين، أو بالحقوق والوضع السياسي مما يتمتع به اليهود في أي بلاد أخرى، ولما كان قد اعترف بذلك بالصلة التاريخية التي تربط الشعب اليهودي بفلسطين وبالأسباب التي تبعث على إعادة إنشاء وطنهم القومي في تلك البلاد..

ولمَّا كانت دول الحلفاء قد اختارت صاحب الجلالة البريطانية ليكون منتدبًا على فلسطين، ولمَّا كان الانتداب على فلسطين قد صيغ في النصوص التالية وعُرض على مجلس عصبة الأمم لإقراره، ولمَّا كان صاحب الجلالة البريطانية قد قبل الانتداب على فلسطين وتعهد بتنفيذه بالنيابة عن عصبة الأمم طبقًا للنصوص والشروط التالية، ولما كانت الفقرة الثامنة من المادة ٢٢ المتقدمة الذكر تنص على أن درجة السلطة أو السيطرة أو الإدارة التي تمارسها الدولة المنتدبة

سيحددها بصراحة مجلس عصبة الأمم إذا لم يكن هناك اتفاق سابق بشأنها بين أعضاء عصبة الأمم، لذلك فإن مجلس عصبة الأمم بعد تأييده الانتداب المذكور يحدد شروطه ونصوصه بما يلي:

المادة الأولى:

يكون للدولة المنتدبة السلطة التامة في التشريع والإدارة باستثناء ما يكون قد قيد في نصوص هذا الصك.

المادة الثانية:

تكون الدولة المنتدبة مسئولة عن وضع البلاد في أحوال سياسية وإدارية واقتصادية تضمن إنشاء الوطن القومي اليهودي وفقًا لما جاء بيانه في ديباجة هذا الصك وترقية مؤسسات الحكم الذاتي، وتكون مسئولة أيضًا عن صيانة الحقوق المدنية والدينية لجميع سكان فلسطين بقطع النظر عن الجنس والدين.

المادة الثالثة:

يترتب على الدولة المنتدبة أن تعمل على تشجيع الاستقلال المحلي على قدر ما تسمح به الظروف.

المادة الرابعة:

يعترف بوكالة يهودية ملائمة كهيئة عمومية لإسداء المشورة إلى إدارة فلسطين والتعاون معها في الشؤون الاقتصادية والاجتماعية وغير ذلك من الأمور التي قد تؤثر في إنشاء الوطن القومي اليهودي ومصالح السكان اليهود في فلسطين ولتساعد وتشترك في ترقية البلاد، على أن يكون ذلك خاضعًا دومًا لمراقبة الإدارة، يعترف بالجمعية الصهيونية كوكالة ملائمة مادامت الدولة المنتدبة ترى أن تأليفها ودستورها يجعلانها صالحة ولائقة لهذا الغرض، ويترتب على الجمعية الصهيونية أن تتخذ ما يلزم من التدابير بعد استشارة حكومة صاحب الجلالة البريطانية للحصول على معونة جميع اليهود الذين يبغون المساعدة في إنشاء الوطن اليهودي.

المادة الخامسة:

تكون الدولة المنتدبة مسئولة عن ضمان عدم التنازل عن أي جزء من أراضي فلسطين إلى حكومة دولة أجنبية، وعدم تأجيره إلى تلك الحكومة أو وضعه تحت تصرفها بأي صورة أخرى.

المادة السادسة:

على إدارة فلسطين مع ضمان عدم إلحاق الضرر بحقوق ووضع فئات الأهالي الأخرى أن تسهل هجرة اليهود في أحوال ملائمة، وأن تشجع بالتعاون مع الوكالة اليهودية المشار إليها في المادة الرابعة حشد اليهود في الأراضي الأميرية والأراضي الموات غير المطلوبة للمقاصد العمومية.

المادة السابعة:

تتولى إدارة فلسطين مسؤولية سن قانون للجنسية، ويجب أن يشتمل ذلك القانون على نصوص تسهل اكتساب الجنسية الفلسطينية لليهود الذين يتخذون فلسطين مقامًا دائمًا لهم.

المادة الثامنة:

إن امتيازات وحصانات الأجانب بما فيها مزايا المحاكم القنصلية والحماية التي يتمتع بها الرعايا الأجانب في السابق بحكم الامتيازات أو العرف في المملكة العثمانية لا تكون نافذة في فلسطين، غير أنه متى انتهى أجل الانتداب تعاد هذه الامتيازات في الحال برمتها أو مع التعديل الذي يكون قد تم الاتفاق عليه بين الدول صاحبة الشأن، إلا إذا سبق للدول التي كان رعاياها يتمتعون بالامتيازات المذكورة في أول أغسطس (آب) سنة ١٩١٤ أن تنازلت عن حق استرجاع تلك الامتيازات أو وافقت على عدم تطبيقها لأجل مسمى.

المادة التاسعة:

تكون الدولة المنتدبة مسئولة عن جعل النظام القضائي القائم في فلسطين ضامنًا تمام الضمان لحقوق الأجانب والوطنيين على السواء، ويكون احترام الأحوال

الشخصية والمصالح الدينية لمختلف الشعوب والطوائف مضمونًا تمام الضمان أيضًا، وبصورة خاصة تكون إدارة الأوقاف خاضعة للشرائع الدينية وشروط الواقفين.

المادة العاشرة:

تكون المعاهدات المبرمة بين الدولة المنتدبة وسائر الدول الأجنبية بشأن تسليم المجرمين مرعية الإجراء في فلسطين إلى أن تعقد اتفاقات خاصة بذلك فيما يتعلق بفلسطين.

المادة الحادية عشرة:

تتخذ إدارة فلسطين جميع ما يلزم من التدابير لصون مصالح الجمهور فيما يتعلق بترقية البلاد وعمرانها، ويكون لها السلطة التامة في وضع ما يلزم من الأحكام لاستهلاك أي مورد من موارد البلاد الطبيعية أو الأعمال والمصالح والمنافع العمومية الموجودة في البلاد أو التي ستؤسس فيما بعد أو السيطرة عليها بشرط مراعاة الالتزامات التي قبلتها الدولة المنتدبة على نفسها، ويترتب عليها أن توجد نظامًا للأراضي يلائم احتياجات البلاد مراعية في ذلك من بين الأمور الأخرى الراغبة في تشجيع حشد السكان في الأراضي وتكثيف الزراعة، ويمكن لإدارة البلاد أن تتفق مع الوكالة اليهودية المذكورة في المادة الرابعة على أن تقوم هذه الوكالة بإنشاء أو تسيير الأشغال والمصالح والمنافع العمومية وترقية مرافق البلاد الطبيعية بشروط عادلة ومنصفة مادامت الإدارة لا تتولى هذه الأمور مباشرة بنفسها، غير أن كل اتفاق كهذا يجب أن يشترط فيه ألا تتجاوز الأرباح التي توزعها الوكالة بطريقة مباشرة أو غير مباشرة مقدار الفائدة المعقولة التي يعود بها رأس المال المستثمر، وأن كل ما يزيد على هذه الفائدة من الأرباح يجب أن يستخدم لما فيه نفع البلاد على الوجه الذي توافق عليه الإدارة.

المادة الثانية عشرة:

يُعهد إلى الدولة المنتدبة بالإشراف على علاقات فلسطين الخارجية وحق إصدار البراءات إلى القناصل الذين تُعينهم الدول الأجنبية، ويكون لها الحق أيضًا في أن تشمل رعايا فلسطين وهم خارج حدود منطقتها بحماية سفرائها وقناصلها.

المادة الثالثة عشرة:

تضطلع الدولة المنتدبة بجميع المسؤوليات المتعلقة بالأماكن المقدسة والمباني أو المواقع الدينية في فلسطين، بما في ذلك مسؤولية المحافظة على الحقوق الموجودة وضمان الوصول إلى الأماكن المقدسة والمباني والمواقع الدينية وحرية العبادة مع المحافظة على مقتضيات النظام العام والآداب العامة، وتكون الدولة المنتدبة مسئولة أمام عصبة الأمم دون سواها عن كل ما يتعلق بذلك بشرط ألا تحول نصوص هذه المادة دون اتفاق الدولة المنتدبة مع إدارة البلاد على ما تراه الدولة المنتدبة ملائمًا لتنفيذ نصوص هذه المادة، وبشرط ألا يفسر شيء من هذا الصك تفسيرًا يخول الدولة المنتدبة سلطة التعرض أو التدخل في نظام أو إدارة المقامات الإسلامية المقدسة الصرفة المصونة حصانتها.

المادة الرابعة عشرة:

تؤلف الدولة المنتدبة لجنة خاصة لدرس وتحديد وتقرير الحقوق والادعاءات المتعلقة بالأماكن المقدسة والحقوق والادعاءات المتعلقة بالطوائف الدينية المختلفة في فلسطين، وتعرض طريقة اختيار هذه اللجنة وقوامها ووظائفها على مجلس عصبة الأمم لإقرارها، ولا تعين اللجنة ولا تقوم بوظائفها دون موافقة المجلس المذكور.

المادة الخامسة عشرة:

يترتب على الدولة المنتدبة أن تضمن جعل الحرية الدينية التامة وحرية القيام بجميع شعائر العبادة مكفولتين للجميع بشرط المحافظة على النظام العام والآداب العامة فقط، ويجب ألا يكون ثمة تمييز مهما كان نوعه بين سكان فلسطين على أساس الجنس أو الدين أو اللغة، وألا يُحرم شخص من دخول فلسطين بسبب

معتقده الديني فقط، ويجب ألا تحرم أي طائفة كانت من حق صيانة مدارسها الخاصة لتعليم أبنائها بلغتها الخاصة، وألا تنتقص من هذا الحق مادام ذلك مطابقًا لشروط التعليم العمومية التي قد تفرضها الإدارة.

المادة السادسة عشرة:

تكون الدولة المنتدبة مسئولة عن ممارسة ما يقتضيه أمر المحافظة على النظام العام والحكم المنظم من الإشراف على الهيئات الدينية والجزئية التابعة لجميع الطوائف المذهبية في فلسطين، ومع مراعاة هذا الشرط لا يجوز أن تتخذ في فلسطين تدابير من شأنها إعاقة هذه الهيئات أو التعرض لها أو إظهار التحيز ضد أي ممثل من ممثليها أو عضو من أعضائها بسبب دينه أو جنسيته.

المادة السابعة عشرة:

يجوز لإدارة فلسطين أن تنظم على أساس التطوع القوات اللازمة للمحافظة على السلام والنظام والقوات اللازمة للدفاع عن البلاد أيضًا بشرط أن يكون ذلك خاضعا لإشراف الدولة المنتدبة، ولكن لا يجوز لإدارة فلسطين أن تستخدم هذه القوات في غير الأغراض الآنفة الذكر إلا بموافقة الدولة المنتدبة، وفيما عدا ذلك لا يجوز لإدارة فلسطين أن تؤلف أو أن تستبقي أي قوة من القوات العسكرية أو البحرية أو الجوية، ليس في هذه المادة ما يمنع إدارة فلسطين من الاشتراك في نفقات القوات التي تكون للدولة المنتدبة في فلسطين، ويحق للدولة المنتدبة في كل وقت أن تستخدم طرق فلسطين وسككها الحديدية ومرافئها لحركات القوات المسلحة ونقل الوقود والمهمات.

المادة الثامنة عشرة:

يجب على الدولة المنتدبة أن تضمن عدم التمييز في فلسطين بين رعايا أي دولة من الدول الداخلة في عصبة الأمم (ومن جملة ذلك الشركات المؤلفة بحسب قوانين تلك الدولة) ورعايا الدولة المنتدبة أو رعايا أي دولة أجنبية أخرى في الأمور المتعلقة بالضرائب أو التجارة أو الملاحة أو تعاطي البضائع أو المهن أو

في معاملة السفن التجارية أو الطائرات المدنية، وكذلك يجب ألا يكون هناك تمييز في فلسطين ضد البضائع التي يكون أصلها من بلاد من بلدان الدول المذكورة أو تكون مرسلة إليها، وتطلق حرية مرور البضائع بطريق التوسُّط (الترانزيت) عبر البلاد المشمولة بالانتداب بشروط عادلة، ومع مراعاة ما تقدم وسائر أحكام صك الانتداب هذا؛ يجوز لإدارة فلسطين أن تفرض بالتشاور مع الدولة المنتدبة ما تراه ضروريًا من الضرائب والرسوم الجمركية، وأن تتخذ ما تراه صالحًا من التدابير لتنشيط ترقية المرافق الطبيعية في البلاد وصيانة مصالح السكان فيها، ويجوز لها أن تعقد بالتشاور مع الدولة المنتدبة اتفاقًا جمركيًا خاصًا مع أي دولة من الدول التي كانت جميع أملاكها في سنة ١٩١٤ داخلة في تركيا الآسيوية أو شبه جزيرة العرب.

المادة التاسعة عشرة:

تنضم الدولة المنتدبة بالنيابة عن إدارة فلسطين إلى كل ميثاق من المواثيق الدولية العامة التي سبق عقدها أو التي تعقد فيما بعد بموافقة عصبة الأمم بشأن الاتجَّار بالرقيق والاتجار بالسلاح والذخيرة أو بالمخدرات أو فيما يتعلق بالمساواة التجارية وحرية مرور البضائع بطريق التوسُّط (الترانزيت) والملاحة والطيران والمواصلات البريدية والبرقية واللاسلكية أو بالممتلكات الأدبية والفنية والصناعية.

المادة العشرون:

تتعاون الدولة المنتدبة بالنيابة عن إدارة فلسطين في تنفيذ كل سياسة مشتركة تُقررها عصبة الأمم لمنع انتشار الأمراض ومكافحتها، بما في ذلك أمراض النباتات والحيوانات بقدر ما تسمح به الأحوال الدينية والاجتماعية وغيرها من الأحوال.

المادة الحادية والعشرون:

يترتب على الدولة أن تؤَّمن وضع وتنفيذ قانون خاص بالآثار القديمة على أساس القواعد المذكورة فيما يأتي خلال الاثني عشر شهرًا الأولى من هذا التاريخ، ويكون هذا القانون ضامنًا لرعايا جميع الدول الداخلة في عصبة الأمم المساواة في المعاملة فيما يتعلق بالحفريات والتنقيبات الأثرية:

١ - تعني عبارة "الآثار القديمة" كل ما أنشأته أو أنتجته أيدي البشر قبل سنة ١٧٠٠ ميلادية.

٢ - يسن التشريع المتعلق بحماية الآثار القديمة على أساس التشجيع لا التهديد، وكل من اكتشف أثرًا دون أن يكون مزودًا بالتصريح المذكور في الفقرة الخامسة وأبلغ الأمر إلى أحد موظفي الدائرة المختصة يكافأ بمكافأة تتناسب مع قيمة ما اكتشفه.

٣ - لا يجوز بيع شيء من الآثار القديمة إلا للدائرة المختصة ما لم تتنازل تلك الدائرة عن شرائه، ولا يجوز إخراج شيء من الآثار القديمة من البلاد إلا بموجب رخصة تصدير صادرة من تلك الدائرة.

٤ - كل من أتلف أو ألحق ضررًا بقطعة من الآثار القديمة عن سوء نية أو إهمال يعاقب بالعقوبة المعينة.

٥ - يحظر إجراء الحفر أو التنقيب للبحث عن الآثار القديمة إلا بتصريح من الدائرة المختصة ويغرم المخالف بغرامة مالية.

٦ - توضع شروط عادلة لنزع ملكية الأراضي ذات القيمة التاريخية أو الأثرية سواء أكان نزع الملكية مؤقتًا أم دائمًا.

٧ - يقتصر في إعطاء التصريح لإجراء الحفريات على الأشخاص الذين يقدمون أدلة كافية على خبرتهم في الآثار، ويترتب على إدارة فلسطين ألا تسير عند إعطاء هذه التصاريح على طريقة تؤدي إلى استثناء علماء أي أمة من الأمم من التراخيص بدون سبب مبرر.

٨ - يُقسم ناتج الحفريات بين المكتشف والدائرة المختصة على أساس النسبة التي تعينها تلك الدائرة، فإذا تعذرت القسمة لأسباب علمية يُعطى للمكتشف تعويض عادل بدلاً من إعطائه قِسمًا من الآثار المكتشفة.

المادة الثانية والعشرون:

تكون الإنجليزية والعربية والعبرية اللغات الرسمية لفلسطين، وكل عبارة أو كتابة بالعربية وردت على طوابع أو عملة تستعمل في فلسطين يجب أن تكرر بالعبرية، وكل عبارة أو كتابة بالعبرية يجب أن تكرر بالعربية.

المادة الثالثة والعشرون:

تعترف إدارة فلسطين بالأيام المقدسة (الأعياد) عند كل طائفة من الطوائف في فلسطين كأيام عطلة قانونية لأفراد تلك الطائفة.

المادة الرابعة والعشرون:

تقدم الدولة المنتدبة إلى عصبة الأمم تقريرًا سنويًا بصورة تقنع المجلس يتناول التدابير التي اتخذت أثناء تلك السنة لتنفيذ نصوص الانتداب، وتُرسَل نسخ من جميع الأنظمة والقوانين التي تُسن أو تصدر أثناء تلك السنة مع التقرير.

المادة الخامسة والعشرون:

يحق للدولة المنتدبة بموافقة مجلس عصبة الأمم أن ترجئ أو توقف تطبيق ما تراه من هذه النصوص غير قابل للتطبيق على المنطقة الواقعة ما بين نهر الأردن والحد الشرقي لفلسطين كما سيعين فيما بعد بالنسبة للأحوال المحلية السائدة في تلك المنطقة، وأن تتخذ ما تراه ملائمًا من التدابير لإدارة تلك المنطقة وفقًا لأحوالها المحلية بشرط ألا يؤتى بعمل لا يتفق مع أحكام المواد ١٥، ١٦، ١٨.

المادة السادسة والعشرون:

توافق الدولة المنتدبة على أنه إذا وقع خلاف بينها وبين عضو آخر من أعضاء عصبة الأمم حول تفسير نصوص صك الانتداب أو تطبيقها وتعذر حله بالمفاوضات، يُعرض على محكمة العدل الدولية الدائمة المنصوص عليها في المادة الرابعة عشرة من ميثاق عصبة الأمم.

المادة السابعة والعشرون:

إن كل تعديل يُجرى من شروط هذا الانتداب يجب أن يكون مقترنًا بموافقة مجلس عصبة الأمم.

المادة الثامنة والعشرون:

في حالة انتهاء الانتداب الممنوح للدولة المنتدبة بموجب هذا الصك يتخذ مجلس عصبة الأمم ما يراه ضروريًا من التدابير لصون استمرار الحقوق المؤمنة بموجب المادتين ١٣ و١٤ على الدوام لضمان العصبة، ويستعمل نفوذه لأن يكفل بضمان الجمعية احترام حكومة فلسطين للالتزامات المالية التي تحملتها إدارة فلسطين بصورة مشروعة في عهد الانتداب احترامًا تامًا وفي جملة ذلك حقوق الموظفين في رواتب التقاعد أو المكافآت.

الميثاق الوطني الفلسطيني

مواد الميثاق:

المادة (١): فلسطين وطن الشعب العربي الفلسطيني وهي جـزء لا يتجـزأ مـن الوطن العربي الكبير والشعب الفلسطيني جزء من الأمة العربي.

المادة (٢): فلسطين بحدودها التي كانت قائمة في عهد الانتداب البريطاني وحدة إقليمية لا تتجزأ.

المادة (٣): الشعب العربي الفلسطيني هو صاحب الحق الشرعي في وطنه ويُقرر مصيره بعد أن يتم تحرير وطنه وفق مشيئته وبمحض إرادته.

المادة (٤): الشخصية الفلسطينية صفة أصلية لازمة لا تزول وهي تنتقـل مـن الآباء إلى الأبناء، وإن الاحتلال الصهيوني وتشتيت الشعب العربـي الفلسـطيني نتيجة النكبات التي حلت بـه لا يُفقدانـه شخصـيته وانتمائـه الفلسـطيني ولا ينفيانهما.

المادة (٥): الفلسطينيون هم المواطنين العرب الذين كانوا يقيمون إقامة دائمة في فلسطين حتى العام ١٩٤٧، سواء من أُخرِج منها أو بقي فيها، وكل من ولد مـن أب عربي فلسطيني بعد هذا التاريخ داخل فلسطين أو خارجها هو فلسطيني.

المادة (٦): اليهود الذين كانوا يقيمون إقامة عادية في فلسطين حتى بدء الغـزو الصهيوني لها يعتبرون فلسطينيون.

المادة (٧): الانتماء الفلسطيني والارتباط المادي والروحي والتاريخي بفلسـطين حقائق ثابتة، وإنَّ تنشئة الفرد الفلسطيني تنشئة عربية ثورية واتخاذ كافة وسائل التوعية والتثقيف لتعريف الفلسطيني بوطنه تعريفًا روحيًا وماديًا عميقًا وتأهيلـه

للنضال والكفاح المساح والتضحية بماله وحياته لاسترداد أرضه حتـــى التحريـــر واجب قومي.

المادة (٨): المرحلة التي يعيشها الشعب الفلسطيني هي مرحلة الكفاح الـــوطني لتحرير فلسطين، ولذلك فإن التناقضات بين القوى الوطنية الفلسطينية هـــي مـــن نوع التناقضات الثانوية التي يجب أن تتوقف لصالح التناقض الأساسي فيما بين الصهيونية والاستعمار من جهة، وبين الشعب العربي الفلسطيني من جهة ثانية، وعلى هذا الأساس فإن الجماهير الفلسطينية سواء من كان منها في أرض الوطن أو في المهاجر تشكل منظمات وأفراد جبهة وطنية واحدة تعمل لاسترداد فلسطين وتحريرها بالكفاح المسلح.

المادة (٩): الكفاح المسلح هو الطريق الوحيد لتحرير فلسـطين وهـو بـذلك استراتيجية وليس تكتيكًا ويؤكد الشعب العربي الفلسطيني تصميمه المطلق وعزمه الثابت على متابعة الكفاح المسلح والسير قدمًا نحو الثـورة الشـعبية المسـلحة لتحرير وطنه والعودة إليه وعن حقه في الحياة الطبيعية فيه وممارسة حق تقرير مصيره فيه والسيادة عليه.

المادة (١٠): العمل الفدائي يشكل نواة حرب التحرير الشعبية الفلسطيني، وهـذا يقتضي تصعيده وشموله وحمايته وتعبئة كافة الطاقـات الجماهيريـة والعمليـة الفلسطينية وتنظيمها وإشراكها في الثورة الفلسطينية المسلحة، وتحقيق الـتلاحم النضالي الوطني بين مختلف فئات الشعب الفلسطيني، وبينها وبـين الجمـاهير العربية ضمانًا لاستمرار الثورة وتصاعدها وانتصارها.

المادة (١١): يكون للفلسطينيين ثلاثة شـعارات: الوحـدة الوطنيـة، والتعبئـة القومية، والتحرير.

المادة (١٢): الشعب العربي الفلسطيني يؤمن بالوحدة العربية ولكي يؤدي دوره في تحقيقها يجب عليه في هذه المرحلة من كفاحـه الـوطني أن يُحـافظ علـى

شخصيته ومقوماتها، وأن يُنمي الوعي بوجودها وأن يُناهض أيًا من المشروعات التي من شأنها إذابتها أو إضعافها.

المادة (١٣): الوحدة العربية وتحرير فلسطين هدفان متكاملان يُهيئ الواحد منهما تحقيق الآخر، فالوحدة العربية تؤدي إلى تحرير فلسطين، وتحرير فلسطين يؤدي إلى الوحدة العربية والعمل لهما يسير جنبًا إلى جنب.

المادة (١٤): مصير الأمة العربية، بل الوجود العربي بذاته رهن بمصير القضية الفلسطينية ومن هذا الترابط ينطلق سعي الأمة العربية وجهدها لتحرير فلسطين ويقوم شعب فلسطين بدوره الطليعي لتحقيق هذا الهدف القومي المقدس.

المادة (١٥): تحرير فلسطين من ناحية عربية هو واجب قومي لرد الغزو الصهيوني والإمبريالي عن الوطن العربي الكبير، ولتصفية الوجود الصهيوني في فلسطين، تقع مسؤولياته كاملة على الأمة العربية شعوبًا وحكومات وفي طليعتها الشعب العربي الفلسطيني، ولأجل ذلك يجب على الأمة العربية أن تُعبئ جميع طاقاتها العسكرية والبشرية والمادية والروحية للمساهمة مساهمة فعالة مع الشعب الفلسطيني في تحرير فلسطين، وعليها بصورة خاصة في مرحلة الثورة الفلسطينية المسلحة القائمة الآن أن تبذل وتُقدم للشعب الفلسطيني كل العون وكل التأييد المادي والبشري وتُوفر له كل الوسائل والفرص الكفيلة بتمكينه من الاستمرار للقيام بدوره الطليعي في متابعة ثورته المسلحة حتى تحرير وطنه.

المادة (١٦): تحرير فلسطين من الناحية الروحية يُهيئ للبلاد المقدسة جوًا من الطمأنينة والسكينة تصان في ظلاله جميع المقدسات الدينية وتكفل حرية العبادة والزيارة للجميع من غير تمييز ولا تفريق سواء على أساس العنصر أو اللون أو اللغة أو الدين، ومن أجل هذا فإن أهل فلسطين يتطلعون لنصرة جميع القوى الروحية في العالم.

المادة (١٧): تحرير فلسطين من الناحية الإنسانية، يُعيد إلى الإنسان الفلسطيني كرامته وعزته وحريته، لذلك فإن الشعب الفلسطيني يتطلع إلى دعم المؤمنين لكرامة الإنسان وحريته في العالم.

المادة (١٨): تحرير فلسطين من ناحية دولية هو عمل دفاعي تقتضيه ضرورات الدفاع عن النفس، من أجل ذلك فإن الشعب الفلسطيني الراغب في مصادقة جميع الشعوب يتطلع إلى تأييد الدول المحبة للحرية والعدل والسلام لإعادة الأوضاع الشرعية إلى فلسطين وإقرار الأمن والسلام في ربوعها، وتمكين أهلها من ممارسة السيادة الوطنية والحرية القومية.

المادة (١٩): تقسيم فلسطين الذي جرى عام ١٩٤٧م وقيام إسرائيل، باطل من أساسه مهما طال عليه الزمن، لمغايرته لإرادة الشعب الفلسطيني وحقه الطبيعي في وطنه، ومناقضته للمبادئ التي نص عليها ميثاق الأمم المتحدة وفي مقدمتها حق تقرير المصير.

المادة (٢٠): يُعتبر باطلاً كل من تصريح بلفور وصك الانتداب وما ترتب عليهما وإن دعوى الترابط التاريخية أو الروحية بين اليهود وفلسطين لا تتفق مع حقائق التاريخ ولا مع مقومات الدولة في مفهومها الصحيح، وإن اليهودية بوصفها دينًا سماويًا وليس قومية ذات وجود مستقل وكذلك فإن اليهود ليسوا شعبًا واحدًا له شخصيته المستقلة وإنما هم مواطنون في الدول التي ينتمون إليها.

المادة (٢١): الشعب العربي الفلسطيني مُعبِّرًا عن ذاته بالثورة الفلسطينية المسلحة يرفض كل الحلول البديلة عن تحرير فلسطين تحريرًا كاملاً ويرفض كل المشاريع الرامية إلى تصفية القضية الفلسطينية, أو تدويلها.

المادة (٢٢): الصهيونية حركة سياسية مرتبطة ارتباطًا عضويًا بالإمبريالية العالمية، ومعادية لجميع حركات التحرر والتقدم في العالم، وهي حركة عنصرية تعصبية في تكوينها، عدوانية توسعية استيطانية في أهدافها، وفاشية نازية في وسائلها، وإن إسرائيل هي أداة الحركة للصهيونية وقاعدة بشرية جغرافية

للإمبريالية العالمية، ونقطة ارتكاز ووثوب لها في قلب الوطن العربي، لضرب أماني الأمة العربية في التحرر والوحدة والتقدم، إن إسرائيل مصدر دائم لتهديد السلام في الشرق الأوسط والعالم أجمع، ولمَّا كان تحرير فلسطين يقضي على الوجود الصهيوني والإمبريالي مما يؤدي إلى استتباب السلام في الشرق الأوسط, لذلك فإن الشعب الفلسطيني يتطلع إلى نُصرة جميع أحرار العالم وقوى الخير والتقدم والسلام فيه، ويناشدهم جميعًا على اختلاف ميولهم واتجاهاتهم تقديم كل عون وتأييد له في نضاله العادل المشروع لتحرير وطنه.

المادة (٢٣): دواعي الأمن والسلم ومقتضيات الحق والعدل تتطلب من الدول جميعًا، حفظًا لعلاقات الصداقة بين الشعوب واستبقاء لولاء المواطنين لأوطانهم؛ أن تعتبر الصهيونية حركة غير مشروعة وتُحرِّم وجودها ونشاطها.

المادة (٢٤): يؤمن الشعب العربي الفلسطيني بمبادئ العدل والحرية والسيادة وتقرير المصير والكرامة الإنسانية وحق الشعوب في ممارستها.

المادة (٢٥): منظمة التحرير الفلسطينية الممثلة لقوى الثورة الفلسطينية مسئولة عن حركة الشعب العربي الفلسطيني في نضاله من أجل استرداد وطنه وتحريره، والعودة إليه وممارسة حق تقرير مصيره فيه، في جميع الميادين العسكرية والسياسية والمالية، وسائر ما تتطلبه قضية فلسطين على الصعيدين العربي والدولي.

المادة (٢٦): تتعاون منظمة التحرير مع جميع الدول العربية على حسب إمكانياتها، تلتزم بالحياد فيما بينها في ضوء مستلزمات معركة التحرير، وعلى أساس ذلك لا تتدخل في الشؤون الداخلية لأي دولة عربية.

المادة (٢٧): يؤكد الشعب العربي الفلسطيني أصالة ثورته الوطنية واستقلاليتها ويرفض كل أنواع التدخل والوصاية والتبعية.

المادة (٢٨): الشعب العربي الفلسطيني هو صاحب الحـق الأول والأصـيل فـي تحرير واسترداد وطنه، ويُحدد موقفه من كافة الدول على أساس مواقفهـا مـن قضيته ومدى دعمها له في ثورته لتحقيق أهدافه.

المادة (٢٩): المقاتلون وحملة السلاح في معركة التحريـر هـم نـواة الجـيش الشعبي الذي سيكون الدرع الواقي لمكتسبات الشعب العربي الفلسطيني.

المادة (٣٠): يكون لهذه المنظمة علم وقسَمْ ونشيد ويُقرر ذلك كله بموجب نظام خاص.

المادة (٣١): يلحق بهذا الميثاق نظام يعرف بالنظام الأساسي لمنظمـة التحريـر الفلسطينية تحدد فيه كيفية تشكيل المنظمة وهيئاتها ومؤسساتها واختصاصات كل منها وجميع ما تقتضيه الواجبات الملقاة عليها بموجب هذا الميثاق.

المادة (٣٢): لا يُعدَّل هذا الميثاق إلا بأكثرية ثلثي مجموع أعضاء المجلس الوطني لمنظمة التحرير الفلسطينية في جلسة خاصة يُدعى إليها من أجل هذا الغرض.

روافد الصهيونية العالمية

فيما يلي أسماء التنظيمات والأحزاب والمنظمات الصهيونية الأساسية والعسكرية والاقتصادية والفكرية والحزبية والاجتماعية داخل إسرائيل وفي العالم، ذلك على سبيل المثال لا الحصر، هناك مؤسسات صهيونية قد اندثرت واختفت وغيرها قد اتحد مع غيره، وأخرى تغيرت أسماؤها، إلا أن هدفها جميعا ظل واحدًا، كان وما زال، وهي على سبيل التذكير كما يلي:

- **اتحاد مكابي العالمي**
- **الأحرار المستقلون**
- **الإرجون**
- **أجودات إسرائيل**
- **أحباء صهيون**
- **حزب أحدوت هاعافودا**
- **الاتحاد الصهيوني الأمريكي**
- **الاتحاد العالمي لحزب العمال (مابام)**
- **الاتحاد المسيحي من أجل سلامة أمريكا**
- **الإيباك**
- **البالماخ**
- **الجبهة التوراتية**
- **الحرس السيار**
- **الحشمونيون**
- **السفارة المسيحية الدولية**
- **الشركة الاقتصادية الإسرائيلية**
- **الصندوق الاستعماري اليهودي**

- الصندوق القومي اليهودي - كيرين كايميت
- الصهيونية الحديثة
- الصوت المسيحي
- العصبة الديمقراطية
- الفيلق اليهودي
- الكونفدرالية العالمية للصهاينة المتحدين
- اللجنة اليهودية الأمريكية
- اللواء اليهودي
- الليكود
- الماباي
- الماسونية
- المؤتمر اليهودي الأمريكي
- المؤتمر اليهودي العالمي
- المجلس الاستشاري للعلاقات الطائفية اليهودية
- المجلس الوطني اليهودي
- المستعربون - المستعرفيم
- المسيحيون المتحدون من أجل إسرائيل
- المصرف الأمريكي المسيحي من أجل إسرائيل
- المعراخ
- المفدال-الحزب الديني القومي
- المنظمة الصهيونية الأمريكية
- المنظمة الصهيونية الجديدة
- المنظمة الصهيونية العالمية (القسم الأمريكي)
- الأحرار
- النداء الإسرائيلي الموحد
- النداء اليهودي الموحد
- النوطريم

- الهاجاناه
- الهيستدروت
- الوكالة اليهودية
- إيحود
- إيكا (جمعية الاستيطان اليهودي)
- بارغيورا
- بريت شالوم
- بناي بريت
- بيتار
- تاف الرعويات الإنجيلية
- تسوميت
- جبل المعبد
- جبل بيت
- جمعية الاتجاه نحو الشرق: قديمًا
- جمعية بني موسى
- حركة الكنعانيين
- حركة أبناء البلد
- حركة أرض إسرائيل الكاملة
- حركة الأرض
- حركة شبتاي زفي
- حركة منشّه بن إسرائيل
- حزب الزُّرّاع
- حزب العمل الإسرائيلي
- حزب المابام
- حزب المزراحي
- حزب حيروت
- حزب راكاح

- رابطة الصهاينة الإصلاحيين
- رافي
- عصبة الأشداء
- عصبة مناهضة الافتراء - بناي بريت
- غوش إيمونيم
- فرسان الهيكل
- فرسان مستشفى القديس يوحنا - الاسبتارية
- فرقة البغالة الصهيونية
- فصائل السلام
- صندوق اكتشاف فلسطين
- كيرين هايسود
- ليحي (شتيرن)
- مؤتمر القيادة الوطنية المسيحية من أجل إسرائيل
- مؤتمر المنظمات اليهودية الأمريكية
- ماعستس
- مجلس الاتحادات اليهودية
- منظمة سندات دولة إسرائيل
- منظمة كاخ الصهيونية الإسرائيلية
- منظمة ماحل
- منظمة مزراحي العالمية
- موليديت
- نيلي
- هاداساه
- (هاشومير) الحارس
- هتحيا
- هيحالوتس (الطلائعيين)
- ويزو WIZO

خطاب "إيهود المرت"

هنا كلمة رئيس وزراء إسرائيل (إيهود المرت) أمام دورة مجلس أمناء الوكالة اليهودية بمناسبة مرور ٦٠ عامًا على قيام دولة إسرائيل.

"إن دولة إسرائيل هي أساسًا إبداع أو نتيجة للمبادرة الرئيسية التي أطلقها الشعب اليهودي، لقد لعب يهود الشتات منذ انطلاق الحركة الصهيونية دورًا حاسمًا في بناء الأمة من خلال تنمية رأس المال الاجتماعي لإسرائيل وتبرعهم بمبالغ طائلة وتكوينهم مجموعة ضغط من أجل إسرائيل في المنابر العالمية.

لقد حققت إسرائيل أرباحًا هائلة من مساهمات يهود الشتات، إنها استفادت من وصول ثلاثة ملايين ونصف مليون قادم جديد مما جعل عدد السكان اليهود [في إسرائيل] يزيد عن ٦ ملايين نسمة، كما أن إسرائيل تستطيع بمناسبة عيد ميلادها الـ٦٠ التباهي بكونها من أقوى اقتصاديات العالم (وعلى فكرة، لقد بلغ الناتج المحلي الخام لدينا عام ٢٠٠٧ ما يقارب ١٧٠ مليار دولار) مما يُشكِّل تغييرًا دراماتيكيًا حدث بالرغم من تراجع سعر الدولار".

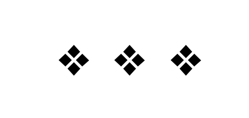
ويُكمل رئيس الوزراء قائلاً، "إن الواقع السائد حاليًا في العالم اليهودي يقود إلى تغييرات جوهرية لدى الطائفة اليهودية على نطاق العالم كله؛ لأول مرة منذ خراب الهيكل المقدَّس الثاني [عام ٧٠ ميلاديًا]، أصبحت إسرائيل مرة أخرى أكبر تجمع سكاني يهودي في العالم، لا بل إنها ستتحول سريعًا إلى وطن للغالبية العظمى من يهود العالم دون ١٨ من العمر، لأول مرة منذ خراب الهيكل المقدس الثاني أصبحت الغالبية الحاسمة من يهود العالم يعيشون بأمن وأمان ماديًا واقتصاديًا، ورغم إنني من أشد دُعاة استقدام اليهود، على اعتباره سبيلاً محوريًا للمساهمة في المجتمع الإسرائيلي، إلا أنه يتعين علينا الاعتراف بأن فترة قدوم جماهير

غفيرة من يهود الدول التي تتعرض للضائقة قد انتهت، وعند ميلاد واقـــع جديـــد أصبحت هناك حاجة لاعتماد نموذج جديد!

إن النموذج القديم الذي اعتبر يهود الشتات جهـــة مســـاهِمة وإســـرائيل جهـــة مستفيدة من هذه المساهمة قد لا يطول، لقد كانت إسرائيل على مدى ٦٠ عامًـــا بمثابة مشروع مشترك للشعب اليهودي، غير أن السنوات الـــ٦٠المقبلة قد تجعل الشعب اليهودي مشروعًا مشتركًا لإسرائيل والجاليـــات اليهوديـــة فـــي أنحـــاء المعمورة، وبالتالي يتعين على اليهود في إسرائيل وأنحاء العالم أن يتحدوا؛ ليس لأجل تخليد ذكرى الماضي فحسب بل لتأمين المستقبل أيضًا، لقد تم اتخاذ خطوات في هذا الاتجاه بحيث أصبحت إسرائيل في الآونة الأخيرة تضـــطلع أكثـــر وأكثـــر بأمور يهود الشتات".

"لا يمكن أن يكون هذا الاستثمار أحادي الجانب أو مجرد تجاوب مـــع مجموعـــة مُحددة من الأثرياء المتبرعين، أو مع أوضاع طارئة في الخارج، بـــل يتعـــين أن يكون الاستثمار متواصلاً ومتتابعًا ويقوم على الشراكة الكاملـــة مـــع الجاليـــات اليهودية في الخارج، ويجب أن يستند نموذج العلاقات الجديدة على توقع إقـــدام الجاليات اليهودية في أنحاء العالم على إكمال ما تستثمره حكومة إسرائيل".

"لقد عملت الوكالة اليهودية طيلة السنوات الـــ ٨٠ الماضية، آلية محورية للشعب اليهودي في تنفيذ مشروعه الرئيسي، وهو إقامة دولة إسرائيل ودعم جهود إنقاذ اليهود في مناطق مختلفة من العالم، وقد آن الأوان للوكالة اليهوديـــة أن تتـــولى المسؤولية الإضافية المتمثلة بالعمل بتفويض من دولة إسرائيل لصيانة المستقبل اليهودي، وتتطلب هذه المهمة من الوكالة اليهودية إعادة النظـــر فـــي هيكليتهـــا الحالية وهي مسيرة أعلم بأنها قد بدأت، ربما حان الوقت أيضًا لأن تُغيـــر هـــذه المؤسسة الكريمة اسمها ليُصبح "الوكالة من أجل إسرائيل والشعب اليهودي" بدلاً من "الوكالة اليهودية من أجل إسرائيل".



المراجع

- كتاب زعماء صهيون.
- كتاب ما بعد إسرائيل.. نهاية التوراة ونهاية الصهيونية "أحمد المسلماني".
- المكتبة الحرة.
- كتاب الصهيونية وحقوق الإنسان العربي "للدكتور أسعد رزوق".
- كتاب تاريخ الطبري الجزء الثالث.
- كتاب المشروع الصهيوني والكيان الإسرائيلي – الدكتور محسن محمد صالح.
- ملف وثائق فلسطين من عام ٦٣٧ إلى عام ١٩٤٩م.
- موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية - الدكتور عبد الوهاب المسيري.
- فلسطين أرض الرسالات السماوية - رجاء جارودى.
- بيان نويهض الحوت، فلسطين: القضية، الشعب، الحضارة.
- التاريخ السياسي من عهد الكنعانيين حتى القرن العشرين (١٩١٧).
- التعليم في إسرائيل - منير بشور وآخرون، مركز الأبحاث الفلسطيني/ بيروت/١٩٦٩م.
- الصهيونية والعنصرية - فايز صايغ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر بيروت ١٩٧٧م.
- تعليم العرب في إسرائيل - صالح عبد الله سرية، مركز الأبحاث الفلسطيني/ بيروت ١٩٧٤م.
- تعليم العرب في إسرائيل - صالح عبد الله سرية.
- العبرنة الشاملة والتحكم في التكنولوجيا في الكيان الإسرائيلي - عثمان السعدي، مؤتمر الأبعاد التربوية للصراع العربي الإسرائيلي جامعة الكويت مايو ١٩٨٥.
- التربية اليهودية - عادل عطاري.

- الشبكة الإسلامية.
- منتديات بيت الزمالك.
- الموسوعة المعرفية الشاملة.
- مؤسسة الرسالة – بيروت.
- موقع إسلام أون لاين.
- شبكة المزن.
- كتاب كونور كروزأبريان – الملحمة الإسرائيلية الصهيونية.
- المؤسسة العربية للدراسات.
- الحوار المتمدن.
- كتاب الشرق الأوسط الجديد – شمعون بيريز.
- كتاب موقع بين الأمم – بنجامين نتنياهو.
- كتاب الصهيونية المسيحية – ستيفن سايزر.
- كتاب كي لا ننسى – الدكتور وليد الخالدي.
- كتاب ذرية إبراهيم – روبن فايرستون.
- كتاب نهاية اليهود - أبو الفدا محمد عارف.
- دولة اليهود – تيدور هرتزل.
- كتاب الصهيونية والحضارة الغربية – أحمد سماحة.
- دور النظام التعليمي في التنشئة (مجلة النور بلندن) – محمد رجب.
- المجموعة ١٩٤ - بقلم د. أيمن أبو شعر.
- كتاب تلفيق تاريخ إسرائيل التوراتية - كيت وايتلام.
- كتاب بروتوكولات حكماء صهيون – ترجمة عباس محمود العقاد.
- كتاب حسن حميد - الأدب العبري.
- شبكة المعلومات: الإنترنت.
- المشروع الصهيوني.. والكيان الإسرائيلي - الدكتور محسن محمد صالح.
- كتاب آل روتشيلد (دار الكتاب العربي) – مجدي كامل.
- مجلة الموقف الأدبي - اتحاد الكتاب العرب بدمشق.

- موسوعة مقاتل من الصحراء.

- الصهيونية العنصرية والاستعمار الاستيطاني - تقاطع أم تماثل! – مركز باحث للدراسات.

- بحث مساق تاريخ الدولة العثمانية – فتحي بشير البلعاوي.

- المركز الفلسطيني للدراسات الإسرائيلية.

- مركز دراسات الوحدة العربية.

- مشكلة اللاجئين الفلسطينيين (جامعة صنعاء) - محمد رجب قدورة جرادة.

- المجمع العالمي لأنساب أهل البيت.

- كتاب الرؤية السياسية - الأمنية لإسرائيل - البروفيسور يحزقيل درور.

- كتاب كيف تمّ اختراع الشعب اليهودي - شلومو زانت.

- دراسات وأبحاث لعدد من الأساتذة الكُتَّاب الأجلاء.

- معلومات صحافية ومعلومات من مواقع مختلفة على شبكة الإنترنت.

- http://www.triumphpro.com/star_of_david.htm

- Zionism and the Creation of Israel – by: brief online survey.

- A History of Zionism - Walter Laqueur.

- Zionism: the Real Enemy of the Jews – By: Alan Hart.

- A History of Israel: From the Rise of Zionism to Our Time – By: Howard M. Sachar.

- Biography - Chaim Weizmann

- Zionism, Militarism and the Decline of US Power – By: James Petras.

- The Myths of Zionism - John Rose.

- The Zionist Idea: A Historical Analysis and Reader – By: Arthur Hertzberg.

- Jews Against Zionism – By: Thomas A. Kolsky.

- The Zionist Terror Network – book online.

- Zionism and the Creation of a New Society – By: Ben Halpern, Jehuda Reinharz.

- THEODOR HERZL, FOUNDER OF POLITICAL ZIONISM - By: ISRAEL COHEN.

- THE MAKING OF MODERN ZIONISM - Shlomo Avineri.

- THE JEWISH STATE, THE STRUGGLE FOR ISRAEL'S SOUL – By: Yoram Hazony.

- JEWISH EMANCIPATION AND SELF-EMANCIPATION – By: JACOB KATZ.

- Jews, God and History – By: Max I. Dimont.

- Britannica Concise Encyclopedia.

- The Jewish 100 – By: Michael Shapiro.

- The story of the Jewish people – By: Sir Martin Gelbert.

- Haim Weizman biography

n



(+2) 02 27270004 / (+2) 01288890065

www.shams-group.net